

السلسلة الذهبية لإيضاح مضامين متون العقيدة السلفية (٤)

منحة الباري

بشرح

شرح السنة للإمام البربهاري

تأليف: فضيلة الشيخ

أ. د. محمد بن خليفة بن علي التميمي

اعتنى به وأعده للنشر

عبد الجبار بن عبد العظيم بن محمد آل ماجد

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

المجلد الأول

دار الأماجد للطباعة والنشر

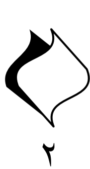
دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع

شرح كتاب شرح السنة

للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري

تأليف

أ.د محمد بن خليفة التميمي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. ثم أما بعد...

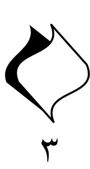
فهذا شرح لكتاب "شرح السنة" للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري-رحمه الله تعالى-، وهي عقيدةٌ موافقة لما يعتقده أهل الحديث والأثر، أهل السنة والجماعة، وتكتسب أهمية لدى علماء أهل السنة، فهو يعد من الكتب المتقدمة، وحوى جل أصول مسائل الاعتقاد.

دوافع شرح هذا المتن

دفعني لشرح هذا المتن عدة أمور منها:

الأمر الأول: أهمية هذا المتن، حيث يعد هذا المتن من المتون الهامة التي حفظت لنا معتقد أهل السنة والجماعة، وكثيرًا ما يرد ذكره والإشارة إليه في كتب الاعتقاد التي جاءت بعده، وخدمة هذا النوع من المتون فيه إحياء لمنهج السلف الصالح، ونشر له بين طلبة العلم.

الأمر الثاني: الرغبة في إحياء هذا النوع من الشروح باعتبار أن هذه المتون بمثابة الجسر الموصل إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم علمًا وفهمًا وفقهًا واعتقادًا، ففقه



الاعتقاد أمر ضروري باعتبار أن المسلم متعبد بذلك الفهم السليم حتى يسلم معتقده من شوائب البدع والأهواء والفتن.

الأمر الثالث: حاجة طلبة العلم لفهم عبارات هذا النوع من المتون التي اعتنت بتأصيل قواعد أهل السنة على وجه الإجمال دون التعرض لتفاصيل تلك القواعد، وما يلحقها من مسائل.

ومن هنا تمس الحاجة إلى شرح تلك القواعد على وجه التفصيل وما تحتويه من مسائل وفروع يتعين على طالب المعلم معرفتها ليتمكن من فهمها حتى لا يحمل تلك النصوص ما لا تحتمل، أو تقصر معرفتها على فهم قاصر ناتج عن قلة دراية بكلام العلماء وما وجهوا فيه الاختلاف الذي يقع بين بعض العبارات والقواعد إن وجد.

المنهج المتبع في الشرح:

هذا الشرح في أصله عبارة دروس ألقيتها على بعض طلبة العلم ثم قمت بإعادة النظر فيها بعد تفريغها، وسرت فيها على مسلك المؤلفين من التوثيق والعزو والتعليق والتوضيح والشرح والبيان.

قد سلكت في هذا الشرح مسلك التوسع في بيان وشرح مسائل الكتاب وذلك لسببين هما:

السبب الأول: رأيت أن الأنفع في الشروح هو التوسع كما وقع في شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي-رحمه الله-وقد أثنى على هذا الشرح عدد كبير من أهل العلم، وقد تميز الشرح بالتوسع والبسط للمسائل التي تناولها المتن، وكما فعل الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب صاحب كتاب "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد" فأحببت أن أسلك هذا المسلك متأسياً بمن سبق.

والسبب الثاني: رأيت أن الشروح المعاصرة التي تناولت "شرح السنة" للبربهاري جلها عبارة عن تفريغ لدروس صوتية لم تخضع للمراجعة والتوثيق، فضلًا عن كونها

أقرب إلى التعليقات منها إلى الشروح، وكان الكلام فيها عن المسائل مقتضبًا ومختصرًا لا أراه محققًا للمقصود في شرح مسائل تحتاج إلى البسط والتوضيح والبيان.

ولهذين السببين رأيت أن أقوم بشرح موسع للمسائل الواردة في هذا المتن بحسب ما وقفت من كلام أهل العلم المتقدمين والمعاصرين، وذلك بهدف أن ينتفع بها المبتدئ في طلب العلم، ولتكون مرجعًا للباحثين في مسائل أصول الدين التي أوردها البربهاري في شرحه.

وقد سلكت في الشرح مسلك الاستعانة بكلام أهل العلم في تلك المسائل ومستعينًا–بعد فضل الله وتوفيقه–بكتب الفضلاء الذين بسطوا القول في تلك المسائل العقدية وأصولها وخدموها فكلما وجدت مسألة خدمت بشكل جيد أفدت من تلك البحوث والرسائل التي تناولت الموضوع، وسعيت إلى توثيق ذلك في الحواشي.

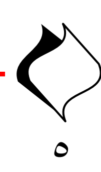
وقد استفدت كذلك من بعض المواقع الإسلامية مثل موقع الدرر السنية، وموقع الإسلام سؤال وجواب، وموقع الألوكة، وملتقى أهل الحديث، وغيرها من المواقع متى ما وجدت التوثيق والإحالة للمصادر.

أما عن متن الكتاب فقد اعتمدت على النسخة المحققة للكتاب بتحقيق الباحث عبد الرحمن بن أحمد الجميزي وأفدت كذلك من تعليقاته على حواشي الكتاب في العزو التوثيق مع التوسع والزيادة أحيانًا.

وقمت بتمييز نص المتن باللون الأحمر الداكن عند بداية شرح كل فقرة من فقراته، وكذلك عند ذكر المتن أثناء الشرح.

ولا أدعي الكمال في هذا الشرح فهو شأنه شأن أي جهد بشري قابل للصواب والخطأ والنقص والقصور والخلل، فإن حصل به المقصود فالحمد لله–عز وجل–ظاهرًا وباطنًا، وإن حصل فيه زلل وخطأ فأستغفر الله وأتوب إليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حرر في يوم الجمعة الموافق ١٢/ جماد الثانية/ ١٤٤١هـ.



توطئة

قبل أن نبدأ في شرح هذا المتن الجليل، أود أن أعطي توطئة في أهمية موضوعه من خلال مقدمتين:

المقدمة الأولى:

أولاً: مفهوم علم العقيدة.

يعنى علم العقيدة بجانب الباطن في مقابل علم الفقه الذي يعنى بالأحكام الظاهرة، فجوانب العقيدة في أساسها وقواعدها هي أمور باطنة، وإذا أطلق الباطن هنا فإنه يتناول أمرين:

الأمر الأول: جانب الفكر والنظر.

الجانب الثاني: جانب الإرادة والعمل .

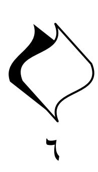
فهذا العلم يعنى بهذين الجانبين في داخل الإنسان، فيتناوله:

- من جانب عقله ونظره وفكره،
- ومن جانب إرادته وعمله.

ومن الأدلة على ذلك:

- إذا تأملنا قول الله عز وجل في تزكية نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الجوانب عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[النجم:٢] فالله زكى نبيه صلى الله عليه وسلم وأخبر بكماله في الجانبين:

١. في جانب الرشد، والرشد كما هو معلوم ضده الغواية، والرشد يكون في العقل، ولذلك الله تعالى قال في شأن اليتامى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ



أَمْوَالَهُمْ﴾[النساء:٦] فمال اليتيم لا يدفع إليه إلا إذا كان أحسن التصرف، فلا يدفع المال لليتيم ببلوغه سنًا محددة، ولكن بقدرته على حسن التصرف فيه، وهذا يكون من جهة عقله.

٢. وفي جانب الهدى، والهدى ضده الضلال.

- وإذا تأملنا كذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في تزكيته للخلفاء الراشدين المهديين قال في تزكيته لخلفائه: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» [1] فأخبر عنهم بهذين الوصفين:

الرشد.

والهدى.

وقلنا: إن الرشد ضد الغواية، والهدى ضد الضلال، فلاحظ هذه المناسبة مع ما ورد في قوله عز وجل:﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾[النجم:٢]، فأخبر برشدهم وهدايتهم.

ولذلك كما جاء في الحديث من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعائه: «اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي» [2]

- ويتأكد هذا المعنى إذا تأملنا في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أصدق الأسماء حارث وهمام» [3]، فهذان الاسمان أصدق وصف على الإنسان، فالحارث: بمعنى الكاسب العامل[4]، فالإنسان في داخله في إرادة وعمل دائم، إما إلى خير وإما إلى

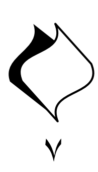
---

١ انظر: سنن أبي داود أول كتاب السنة، باب: في لزوم السُنة، رقم (٤٦٠٧)، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، الصفحة / الرقم: ٦١٠ / ٩٣٧.

٢ أخرجه أحمد (٣٣/ ١٩٧) برقم (١٩٩٩٢)، والترمذي (٣٤٨٣) واللفظ له من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وإسناده عند أحمد صحيح على شرط مسلم، كما قال محققو "المسند".

٣ انظر: سنن أبي داود، أول كتاب الأدب، باب: في تغيير الأسماء حديث رقم (٤٩٥٠)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح دون قوله تسموا بأسماء الأنبياء، في كتاب سنن أبي داوود، الصفحة / الرقم ٢٨٧ / ٤٩٥٠.

٤ انظر معالم السنن للخطابي (٤ / ١٢٦).



شر، وهذا لا يتوقف مع الإنسان حتى في ساعات نومه، وهمام: من الهم والتفكير[٥] فهذان أصدق وصف على الإنسان كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

فإذا كان هذا الوحي جاء ليخاطب الإنسان، فإن أول ما سيخاطب هذا الإنسان في داخله، لأن هذه الجوارح التي متعك الله تعالى بها ما هي إلا تبع وجند لهذا الباطن، ولذلك القلب إذا ذكر القلب في النصوص في قوله عز وجل:﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦] فالعلماء أو النصوص تطلق في هذا الجانب، وقد يراد بالقلب جانب الإرادة، وقد يراد بالقلب مجموع الأمرين: أمر الفكر والنظر، وأمر الإرادة والعمل.[٦]

ثانياً: وظيفة علم العقيدة.

يأتي علم العقيدة ليوجه الإنسان من داخله، فإذا أصبحت ترى الأمور وتنظر إليها، وتفكر فيها بوحي من الله عز وجل، فأنت ستراها كما ينبغي أن تكون فيه، وكما يجب أن تكون عليه. وإذا كانت هذه الإرادة في داخلك تبعًا لأوامر الله عز وجل، وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم فإن هذه الإرادة ستستقيم على أمر الله سبحانه وتعالى.

ولذلك القرآن كله لا يخرج عن أمرين:

- إما أخبار.
- وإما أوامر.

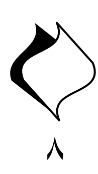
فالأخبار: تخاطب الجانب النظري الفكري العلمي.

والأوامر: تخاطب الجانب الإرادي العملي.

---

٥ انظر مجموع الفتاوى (٧ / ٤٣).

٦ رسالة في العقل والروح لابن تيمية(٥٤)، انظر أيضا مجموع الفتاوى (٢٧ / ٧)



فلا يخرج القرآن كله عن هذين الأمرين: إما أخبار، وإما أوامر. فجاءت هذه الأخبار لتصحح من الفكر والنظر .

- فإذا جئت إلى توحيد الله عز وجل ستجد فيه مجموع الأمرين :
  - أن تعرف الله.
  - وأن تعبد الله.

فهذه المعرفة من خلال نصوص الوحي جاءت لتخاطب هذا العقل فتعرفه بأسماء الله، وصفاته، وأفعاله، فأنت لم تر الله عز وجل، ولن ترى الله عز وجل في هذه الدنيا كما جاء في الحديث «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ»[٧]، فلا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا من طريق ما أخبر في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

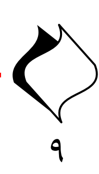
فإذا أنت أخذت من هذا الطريق باب معرفة الله في أسمائه وصفاته وأفعاله، استقام نظرك فأثبت لله ما أثبته لنفسه، ونفيت عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات كمال ضده كما هي قواعد الشرع في ذلك. فإذًا أنت في أهم وأوجب الأمور ألا وهو أمر العقيدة، فإذا درست هذا الجانب لا يكفيك فيه جانب المعرفة فقط بل أيضًا جانب الإرادة والعمل، فأنت يجب أن تعرف الله وأن تعبد الله عز وجل، فلا يتم لك إيمانك بالله عز وجل حتى تعبده فبالتالي هذه إرادة تكون أمرًا ونهيًا تبعًا لأوامر الله تعالى ونواهيه.

قال تعالى:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧] فتستقيم هذه الإرادة، فبمجموع هذين الأمرين يستقيم لك توحيد الله عز وجل.

- ولا يتم لك إيمانك بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا كذلك بمجموع الأمرين، فأنت يجب أن:

---

٧ أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٤٥)



تصدقه فيما أخبر: وهذا الجانب العلمي.

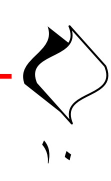
ويجب أن تطيعه فيما أمر: وهذا الجانب العملي.

فإذًا علينا أن نعلم أن الله عز وجل من حين إهباط آدم إلى هذه الأرض خاطبه فقال:﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾[البقرة:٣٨].

فالله تعالى أودع في هذا الإنسان هاتان القوتان ولم يتركه هملاً قال تعالى:﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦]، وإنما بعث له الرسل وأنزل له الكتب. فهذه الرسل وهذه الكتب جاءت لتخاطب هذا الإنسان أولاً من داخله بما أودع الله تعالى فيه من هاتين القوتين: قوة العلم، وقوة العمل.

فتأتي جوانب العقيدة لترسخ هذه القواعد، فإذا ترسخت هذه القواعد وثبتت انبنى عليها ما بعدها، فأنت إذا جئت تتعلم أمرًا فقهيًا أو تدرس مسألة أصولية، أو مسألة في التفسير أو نحو ذلك فإنما هي تنبني على هذا المعتقد الذي تعتقده، فهل أنت تؤمن مثلاً بكلام الله عز وجل، وبكلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟ وتصدق بما جاء فيهما؟

فعند هذا يكون هذا الإيمان بأن ذلك لا يكون إلا عن طريق وحي الله عز وجل أمرًا اعتقاديًا ينبني عليه ما سيأتي بعده من علوم. ولذلك العقيدة تأتي في المقام الأول، وتأتي على أنها أساس يجب أن يغرس وأن يزرع في قلب كل واحد منا، فهذا أمر يجب التنبه إليه. فكثير من الناس عندما يتناول جوانب العقيدة يتناولها حفظًا، ولا يدرك كيف يطبقها على ذات نفسه، فكلما تناولت مسألة من مسائل العقيدة فاعلم أنها تخاطب فيك هذا الباطن، فانظر إلى أي هذين الجانبين يأتي الخطاب، هل هو لجانب العلم أو هو لجانب العمل. مجموع هذا في كلام الأئمة عندما قالوا: " الْإِيمَانُ قَوْلٌ



وَعَمَلٌ[٨] " ، اختصروا لك هذا بعبارة قصيرة لكن لها دلالات عظيمة، ومقصود العلماء بكلمة (قول) أي: علم.

فيجب أن تعنى بهذين الجانبين. فعندما ندرس ما سيأتي من مسائل أو قضايا فاعلم أنها تخاطب هذه الجوانب فيك أنت أيها الإنسان. ولذلك الله سبحانه وتعالى قال بعد أن أخبر بأنه سيأتي الهدى، قال:﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦].

فالله تعالى أنزل وحيًا، وأرسل رسولاً، وهذا الوحي إذا جئت إلى القرآن فالقرآن كله دعوة للتوحيد كما يقول ابن القيم رحمه الله: "كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن:

إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري،

وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي،

وإمَّا أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته،

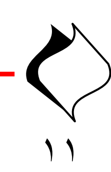
وإمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده،

وإمَّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم."[٩]

---

٨ انظر: كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، باب: من زعم أن الله لا يتكلم، ١ / ١٧٤.

٩ مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠.



فالقرآن كله دعوة للعقيدة لأن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة لعبادته عز وجل وهذا التوحيد الإرادي الطلبي. ولذلك العلماء عندما قسموا التوحيد في أكثر التقسيمات قسموا هذه القسمة الثنائية التي تعني دلالة علم العقيدة، فقالوا: التوحيد ينقسم إلى قسمين:

- التوحيد العلمي الخبري
- والتوحيد الإرادي الطلبي.[١٠]

أو عبارة أخرى قالوا:

- توحيد المعرفة الإثبات.
- وتوحيد القصد والطلب.[١١]

أو بعبارة أخرى قالوا:

- التوحيد القولي.
- والتوحيد العملي.[١٢]

أو بعبارة أخرى قالوا:

- توحيد السيادة.
- وتوحيد العبادة.

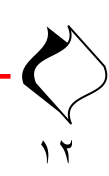
وهذه القسمة تعود إلى اعتبار ما يجب على ذات الإنسان. فأنت يجب أن تعرف الله، ويجب أن تعبد الله، ولا تنافي بين هذه القسمة والقسمة الثلاثية، فهنا باعتبار ما يجب على الموحد، وهناك في القسمة الثلاثية: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، هذا باعتبار ما يجب لله.

---

١٠ ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠، وابن تيمية في الصفدية ٢ / ٢٢٨

١١ ممن ذكر ابن القيم في كتابه مدارج السالكين ٣ / ٤٤٩.

١٢ ممن ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: مجموع الفتاوى ١ / ٣٦٧.



فالأقسام أو التقسيمات تأتي لأمور اعتبارية، فإذا نظرت باعتبار ما يجب عليك أنت الموحد فعليك أن تعرف الله وأن تعبد الله في الجانبين، وإذا نظرت إلى ما يجب لله عز وجل فيجب أن توحده في أفعاله، وفي أسمائه وصفاته، وفي عبادته فلا يكون العبد موحدًا حتى يحقق هذه الأنواع الثلاثة.

"وقد تنوعت عبارات علماء أهل السنة في التعبير عن أنواع التوحيد، ولكنها مع ذلك التنوع متفقة في المضمون، ولعل السبب في ذلك هو أن تلك التقسيمات مأخوذ من استقراء النصوص ولم يُنص عليها باللفظ مباشرة"[١٣]

وكيف لا يكون القرآن دعوة إلى التوحيد وهو الأساس الذي خلق الله تعالى الخلق من أجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فعندما فسرها العلماء قالوا: المعنى ليعبدون أي ليوحدون[١٤].

فإذًا لا غرابة أن يحتل هذا العلم مثل هذه المكانة، ومثل هذه المنزلة العظيمة في هذا الدين، باعتبار أن هذا هو القاعدة والأساس، وهو الذي ينبني عليه أمر الباطن. فلذلك أنت في جميع أعمالك، وفي جميع أقوالك حتمًا ولا محالة تنطلق من اعتقاد، فإن كان اعتقادًا صحيحًا كانت تلك الأعمال والأقوال على هذا الأساس، وإن كان اعتقادًا منحرفًا وباطلاً كانت تلك الأقوال والأعمال على هذا الأساس المنحرف الباطل.

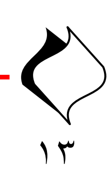
فيجب أن نعنى أول ما نعنى بأمر العقيدة، وأن نعنى بهذين الجانبين لكي نفهم مفهوم العقيدة.

والإمام البربهاري ويقرر جملة من الأمور في المعتقد تخاطب هذا الباطن، وهذا الداخل فيه فمثلاً أول ما يعرض إليه أمر السنة والاعتصام ولزوم الجماعة، ويقرر هذا الأصل الذي تتفرع منه جملة من الأصول، بمعنى أنه يجب أن توقن، وتعتقد، وأن تعلم

---

١٣ انظر: كتاب معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات ص ٣٧.

١٤ انظر صحيح البخاري (٦ / ١٣٩)



أن هذا الدين كامل، وأن الدين ليس بحاجة إلى من يزيد فيه أو ينقص منه. فإذا تقرر هذا عندك عرفت ولزمت أوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا تزد عليها ولا تنقص. فيستقيم هذا الجانب فيك فكرًا، وإذا استقام فيك فكرًا استقام فيك سلوكًا، فهذه مقدمة أولى.

المقدمة الثانية: نحن نعلم من خلال استقراء تاريخ هذه الأمة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله تعالى عنه، وكما جاء على لسانه صلوات الله وسلامه عليه، أنه ما مات إلا وقد كمل هذا الدين، فالله عز وجل أنزل عليه في حجة الوداع تلك الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فكل مؤمن يعتقد، ويوقن، ويعلم علمًا يقينيًا أن هذا الدين كامل، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك».[١٥]

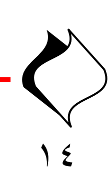
فكل واحد منا يؤمن ويوقن أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين، وأنه نصح للأمة، وأنه جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بقوله: «فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا» [١٦] وأخبر وقال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ في رواية قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي، وفي رواية قال: الجماعة» [١٧]فأخبر بافتراق هذه الأمة.

---

١٥ انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم برقم (١٦٨١١)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة الصفحة أو الرقم ٩٣٧ / ٦١٠.

١٦ انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم برقم (١٦٨١١)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة الصفحة أو الرقم ٩٣٧ / ٦١٠.

١٧ انظر: مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، حديث رقم (١٢٢٤٢)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح، كتاب السلسلة الصحيحة الصفحة.



وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم سنته فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ» [١٨]، وحذر من البدع وقال: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١٩]، وهذا نعرفه من كلام الله عز وجل، ومن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم. فقد حصل الافتراق الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، كما هو معلوم في استقراء التاريخ في أواخر عهد الخلفاء الراشدين بدأت بدعة التشيع، وبدأت بدعة الخوارج، تلاها بدعة الإرجاء والقدر، ثم تلاها بدعة التجهم والجهمية، ثم تلاها بدعة التصوف. وبدأت البدع تظهر في الأمة شيئًا فشيئًا، والبدع أول ما تظهر على نطاق محدود ضيق فمعلوم أنه في ذاك الوقت كانت أمصار الإسلام كما يقول ابن تيمية: "هي الحجاز والشام والعراقان "[٢٠] أي العراق وخرسان، هذه كانت أمصار الإسلام الكبرى.

والإسلام امتد شرقًا وغربًا إلى غير ذلك، لكن إلمامة بالتاريخ تظهر مثل قيمة هذا الكتاب. فالكوفة كانت سببًا لظهور التشيع، وإلى ظهور فتنة الإرجاء، والإرجاء كما هو معلوم هو: تأخير العمل عن مسمى الإيمان.

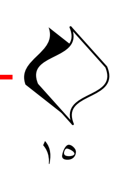
البصرة خرج منها بدعة القدر، فالقدرية خرجوا من البصرة، وكذلك بدعة الاعتزال فالمعتزلة خرجت من البصرة، والتصوف أيضًا خرج من البصرة، فهذه أربع بدع خرجت من العراق، يتبعها بدعة أخرى من العراق الآخر من خراسان وهي بدعة التجهم، إنكار الصفات وهي أخطرها، لأن تلك البدع لم تلغ النصوص، إنما كانت بناء على استشهاد بالنصوص بطريق خاطئ، لكن بدعة التجهم وإنكار الصفات رد للنصوص.

الرقم ١٤٩٢ / ٤٩٠.

١٨ انظر: سنن أبي داود أول كتاب السنة، باب: في لزوم السُنة، رقم (٤٦٠٧)، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، الصفحة / الرقم: ٦١٠ / ٩٣٧.

١٩ انظر: سنن أبي داود أول كتاب السنة، باب: في لزوم السُنة، رقم (٤٦٠٧)، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، الصفحة / الرقم: ٦١٠ / ٩٣٧.

٢٠ انظر: كتاب التبصير في الدين، باب الفرقة السابعة عشر الجزء / الصفحة: ١ / ١٨٤.



وظهر من الشام شيء من بدعة القدر، وكذلك النصب إي عداء آل البيت، فالنصب والقدر ظهر بعضه من غيلان الدمشقي، وظهر كذلك النواصب في الشام.

أما المدينة النبوية بحكم من كان فيها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تظهر بها أصول هذه البدع [٢١].

وبحمد الله تعالى من أول ظهور هذه البدع وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتصدون لها، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان ساكناً في البصرة وبخ من وبخ من أهل البدع عندما أظهروا بدعة الذكر الجماعي، فوبخهم وقال لهم موبخًا: "من كان منكم مستنًا فليستن بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.(٢٢)"

فكذلك ابن عباس اجتمع بالخوارج وعاد من عاد منهم ورجع[٢٣]، وهكذا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بعدهم من التابعين، وهكذا أئمة الإسلام تصدوا لهذه البدع فألفوا فيها، فإذا نظرنا إلى عصر التأليف ظهرت عدد من المؤلفات في الرد على أهل البدع، وأصل التأليف في العقيدة لا يخرج عن طريقتين: إما التأصيل، أو الرد. فبعض الكتب أخذت منحى التأصيل بحيث إن تلك الكتب تورد مسائل العقيدة وما يجب اعتقاده في تلك المسائل، وبعض الكتب تتناول مباشرة بدع أولئك الناس وترد عليهم.

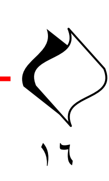
فلو نظرنا مثلاً:

---

٢١ انظر لبيان تسلسل البدع عند شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، دط، (٢٨ / ٤٨٩).

٢٢ أخرجه أبو نعيم في الحلية (١ / ٣٠٦،٣٠٥).

٢٣ هذا الأثر أخرجه عبد الرَّزَّاق، المصنف، (١٠ / ١٥٧) (١٨٦٧٨) باب ذكر رفع السلام ومن طريقه –بنفس اللفظ تقريبًا –أخرجه أبو نعيم، الحلية، (١ / ٣١٨)، وأخرجه البيهقي، السنن الكبرى، (٨ / ١٧٩)، ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٩٦٢)، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند الامام أحمد، (٥ / ٧ ٦) (٣١٨٧) إسناده صحيح.



- الرد على الجهمية للدارمي لوجدناه في باب الردود،
- هكذا الرد على الجهمية لابن منده هو في باب الردود.

وتأتي كتب أخرى هي في باب التقرير تقرر منها:

- التوحيد لابن منده،
- والشريعة للآجري،
- والتوحيد لابن خزيمة،

هذه في أصولها تقريرات فيكون التأليف إما من باب التقرير وإما من باب الرد.

وتأتي مثل هذه الرسالة في هذا الباب، تقرر ما يجب في باب الاعتقاد تقريرًا وتأسيسًا للعقيدة، ودفاعًا ومنافحة عن هذه العقيدة في مقابل ما أحدثه أهل الباطل في أمور المعتقد لأن الخطأ في هذا الباب من أشد الأمور، فلو أخطئت في أمر فقهي فقد يكون الأمر أهون لكن أن يكون الخطأ في باب العقيدة فلا شك أنه أشد.

فهذه المؤلفات التي ألفها علماء الإسلام ينبغي العناية بها، وينبغي مدارستها والتأمل فيها لأن الصراع بين الحق والباطل هو منذ أواخر الخلفاء الراشدين إلى يومك هذا، وهذا الصراع قائم ولذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عن هذا الأمر فقال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم» (٢٤) ولاحظ هذين الوصفين؛ فعندك مخالف، وعندك مخذل. عندك مخالف وقد تقول: هذا المخالف أمره واضح، وأعرفه تمامًا أنه مخالف لي في أمر ديني، وعندك مخذل قد يكون من بينك يا صاحب السنة، من بيننا من هو من يخذل عن النفح والدفاع عنه، والمنافحة عن هذا الدين، «لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله».

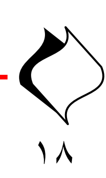
---

٢٤ انظر: مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث معاوية بن أبي سفيان، حديث (١٦٥٩٤) وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم ١١٠٨ / ٩٩

فينبغي التواصي والتمسك بأمر هذه العقيدة، ولذلك تتأمل في كثير من النصوص مثلاً في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، فإذًا مشاققة الرسول صلى الله عليه وسلم، واتباع غير سبيل المؤمنين هذه نتائجها: أن الله تعالى يوليه ما تولى أي يجعله يغتر بهذا الباطل الذي عليه، ثم العاقبة إلى جهنم، ومن الذي يريد بنفسه أو بأهله أن تكون له تلك العاقبة.

وقد أثنى الله تعالى على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي عنهم فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠]، فرضي عن الأولين رضاء مطلقًا أما نحن فالرضا عنا مقيد، وشرطه ﴿اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، فإن كنا متبعين لهم بإحسان فنحن من هذا الطريق، ولذلك المصنف عندما بدأ أول ما بدأ بتقرير هذه الحقيقة.

فهذه بعض المقدمات أحببنا أن تكون في بداية حديثنا، ثم نشرع إن شاء الله في قراءة نص الكتاب والتعليق عليه بما يوفق الله سبحانه وتعالى إليه.



ترجمة مؤلف المتن

اسمه وكنيته:

هو: الحسن بن علي بن خلف أبو محمد البربهاري. [٢٥]

نسبته:

البربهاري؛ هكذا ينسبونه، ويضبطونها بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء المهملة، وفتح الباء الثانية أيضا، والراء المهملة أيضا بعد الهاء والألف.

وهي حسب ما يقولون: نسبة إلى "بربهار"، وهي ليست بلدا من البلاد لكنها "الأدوية التي تجلب من الهند"[٢٦]. يقال لها البربهار، ويقال لجالبها: البربهاري[٢٧].

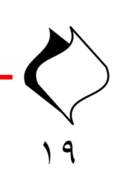
أسرته:

---

[٢٥] انظر ترجمته في: الطبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (٣/ ٣٦)، والمنتظم لابن الجوزي (١٤/ ١٤ رقم ٢٤٣٤)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٨/ ٣٧٨)، و«البداية والنهاية لابن كثير (١١/ ٢٠١)، و(سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٩٠)، وتاريخ الإسلام (٢٩/ ٢٠٨)، والعبر في خبر من غبر (٢/ ٢٢٢) ثلاثتها للذهبي، ومرأة الجنان لليافعي» (٢/ ٢٨٩)، و«المقصد الأرشد لابن مفلح (١/ ٣٢٨)، والوافي بالوفيات للصفدي (١٢/ ٩٠)، والمنهج الأحمد العليمي (٢/ ٢١)، وشذرات الذهب لابن العماد» (٢/ ٣١٩)، والأعلام للزركلي، (٢/ ٢٠١)، والمعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٣/ ٢٥٣).

٢٦ الأنساب (٢ / ١٢٥).

٢٧ الأعلام اللزركلي (٢/ ٢٠١) ويقول الزركلي: "ولعلها ما يسمى اليوم بالبهارات". وهذا الذي أشار الزركلي إليه هو نوع من العطارة، لدى أهل هذه الصناعة معروف، ويدرك معناه أكثر الناس اليوم.



لم تشـر المصـادر التي ترجمت له شـيئًا من أخبار أسـرته إلا ما أشـار له ابن أبي يعلى والذهبي من أنه كان من أسرة ميسورة الحال حيث قال: "وقيل: إنه ترك ميراث أبيه تورعا، وكان سبعين ألفا" [٢٨].

وأما عن زواجه فقد ذكر أنه: "وكان في آخر عمره قد تزوج بجارية" [٢٩].

مولده:

لم أجد من نص على سنة ولادة البربهاري رحمه الله،

ولكن ذكر الذهبي أنه "عاش سبعا وسبعين سنة، وكانت وفاته سنة: ٣٢٨ هـ"[٣٠]، وهذا يعني أنه ولد عام ٢٥١ هـ.

وأما ابن أبي يعلى فقد ذكر أن وفاته كانت سـنة تسـع وعشـرين وثلاثمائة"[٣١] فيكون تاريخ ولادته ٢٥٢.

إلا أن مجير الدين العليمي صاحب المنهج الأحمد "ذكر أنه عاش ستًا وتسعين سنة، وعلى هذا تكون ولادته سنة ٢٣٣هـ"[٣٢]. ولعل الاحتمالين الأول والثاني أقرب للصواب.

بلده: ذكر ابن أبي يعلى أنه كان يسـكن ببغداد وكان ينزل في الجانب الغربي منها بباب محول، إلى أن انتقل منها إلى الجانب الشرقي مستترًا.[٣٣]

شيوخه

---

٢٨ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٣. سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩١.

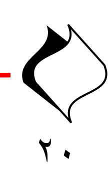
٢٩ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩١.

٣٠ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩١.

٣١ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.

٣٢ المنهج الأحمد ٢/ ٢١.

٣٣ انظر: طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.



تلقى البربهاري العلم على جماعة من كبار أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، ومن مشايخه: أحمد بن محمد بن الحجاج أبوبكر المروزي، وسهل بن عبد الله التستري، وفتح بن شخرف [٣٤]

تلاميذه:

ومن تلاميذه: الإمام أبو عبد الله بن عبيد الله بن محمد العكبري الشهير بابن بطة، والإمام محمد بن أحمد بن إسماعيل البغدادي أبو الحسين بن سمعون، وأحمد بن كامل بن خلف بن شجرة أبوبكر.

الحالة السياسية في عصره.

بالنظر إلى أن البربهاري عاش في الفترة (٢٥١ هـ. إلى ٣٢٨هـ) فإنه بذلك عاصر جزءً من الدولة العباسية الأولى وأكثر زمن الدولة العباسية الثانية والتي بدأت من عهد المكتفي، فقد وصلت الخلافة للمكتفي في عام ٢٨٩ هجرية، وبدأ ظواهر الضعف في الدولة بسبب الصراع على النفوذ بين كبار موظفي الدولة، وبدأ القرامطة بالجرأة على غزو أراضي العباسيين في الشام والبحرين والعراق ولكنّ الخليفة استطاع القضاء على بعض منهم، ولم يكن هناك غزو فقد أخذت العلاقة بين العباسيين والبيزنطيين طابعًا سلميًا، وتوفي المكتفي في عام ٢٩٥هجرية، ليتولى بعده أبو جعفر المقتدر، وقد قُتل في عام ٣٢٠هجرية، وبويع بالخلافة أخوه القاهر وعلى الرغم من قوة القاهر وقسوته فقد عزله الأتراك عام ٣٢٢هجرية، وبايعوا الخليفة الراضي، مات الراضي في عام ٣٢٩ هجرية، فاستلم الحكم من بعده أبو إسحاق المتقي، وبعد القبض عليه وسجنه اختار الأمير توزون عبد الله أبو القاسم المستكفي في عام ٣٣٣ هجريًا والذي يعد الخليفة الأخير من خلفاء العصر العباسي الثاني.

---

٣٤ انظر: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٠٣.

مصنفاته:

قال ابن أبي يعلى: "وصنَّف البربهاري مصنفات منها شرح كتاب السنة. "[٣٥]

ولم أقف على من ذكر له غير هذا المصنف.

مكانته:

عده ابن أبي يعلى في الطبقة الثانية في كتابه طبقات الحنابلة[٣٦] وقال عنه: "كان شـــيخ الطائفة (يعني الحنابلة) في وقته ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع والمباينة لهم باليد واللسان، وكان له صيت عند السلطان، وقدم عند الأصحاب، وكان أحد الأئمة العارفين والحفاظ للأصول المتقنين والثقات المؤمنين".[٣٧]

وقال أيضًــا: "وكانت للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين كثيرة، حتى أنه لما توفي أبو عبد الله بن عرفة المعروف بنفطويه وحضــر جنازته أماثل أبناء الدنيا والدين كان المقدم على جماعتهم في الإمامة البربهاري وذلك في صـفر سـنة ثلاث وعشـرين وثلاثمائة، وفي هذه السـنة ازدادت حشـمة البربهاري، وعلت كلمته وظهر أصـحابه وانتشروا في الإنكار على المبتدعة" [٣٨].

وكانت له مكانته عند عامة الناس ويدل على ذلك ما ذكره ابن بطة قال: سمعت البربهاري يقول: لما أخذ الحاج: يا قوم إن كَانَ يحتاج إلى معاونة بمائة ألف دينار ومائة ألف دينار ومائة ألف دينار –خمس مرات– عاونته.

قَالَ ابْن بطة: لَوْ أرادها معاونة لحصلها من الناس.

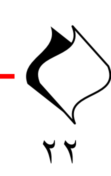
---

٣٥ طبقات الحنابلة ٢/ ١٨.

٣٦ طبقات الحنابلة ٢/ ١٧.

٣٧ طبقات الحنابلة ٢/ ١٧. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩١.

٣٨ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.



وَقَالَ ابْن بطة: اجتاز بعض المحبين للبربهاري ممن يحضــر مجلســه من العوام وهو سكران عَلَى بدعي فَقَالَ البدعي: هَؤُلاءِ الحنبلية قَالَ: فرجع إِلَيْهِ وَقَالَ: الحنبلية عَلَى ثلاثة أصـناف صـنف زهاد يصـومون ويصـلون وصـنف يكتبون ويتفقهون وصـنف يصفعون لكل مخالف مثلك وصفعه وأوجعه."[٣٩]

وهذا يدل على ما كان له من مكانة ومنزلة.

محنته:

تعرض البربهاري للمحنة مرتين على يدي اثنين من الخلفاء العباسيين.

الأولى: في خلافة القاهر ووزيره ابن مقلة، في ســنة إحدى وعشــرين وثلاثمائة وكان المخالفون يغيظون قلب الســلطان عليه فتقدم الوزير ابن مقلة بالقبض على البربهاري، فاستتر وقبض على جماعة من كبار أصحابه، وحملوا إلى البصرة.

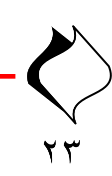
وعاقب الله–تعالى–الوزير ابن مقلة على فعله ذلك بأن أســخط عليه القاهر، وهرب ابن مقلة وعزله القاهر عن وزارته، وطرح في داره النار فقبض عليه القاهر بالله يوم الأربعاء لســت من شــهر جمادى الآخرة ســنة اثنتين وعشــرين وثلاثمائة، وحبس وخلع وسملت عيناه في هذا اليوم حتى سالتا جمعاً فعمى ثم بفضل الله –تعالى– وأعاد البربهاري إلى حشمته وزادت.

قال أبو الحسين بن الفراء: "كان للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين، وكان المخالفون يغلظون قلب السـلطان عليه؛ ففي سـنة إحدى وعشــرين وثلاثمائة أرادوا حبســه فاختفى، وأخذ كبار أصــحابه، وحملوا إلى البصــرة. فعاقب الله الوزير ابن مقلة وأعاد الله البربهاري إلى حشمته، وزادت، وكثر أصحابه"[٤٠].

---

٣٩ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٢-٤٣.

٤٠ سير أعلام النبلاء ١٠/٩١، ٩٢.



وقال الذهبي: "وفي تاريخ محمد بن مهدي أن في سنة ثلاث وعشرين أوقع بأصحاب البربهاري فاستتر، وتتبع أصحابه ونهبت منازلهم"[٤١]

والمرة الثانية: في خلافة الراضي

وهذه كانت في سنة ثمان وعشرين أو تسع وعشرين وثلاثمائة لأنه كما ذكر ابن أبي يعلى بقي نحو شهر مستترًا عن الخليفة الراضي ثم مات بعدها[٤٢] وكانت وفاة الخليفة الراضي في عام ٣٢٩ هجرية.

قال الذهبي: "لم تزل المبتدعة توحش قلب الخليفة العباسي الراضي، حتى نودي في بغداد: لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري. فاختفى، وتوفي مستتراً" [٤٣].

وفاته:

تاريخ وفاته: قيل إن وفاته كانت في رجب سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة كما ذكر الذهبي في السير [٤٤].

وقال ابن أبي يعلى: "سنة تسع وعشرين وثلاثمائة"[٤٥]

سبب وفاته: ذكر ابن أبي يعلى أن سبب وفاته "مرض قيام الدم"[٤٦] ولعل المقصود ما نسميه اليوم مرض ضغط الدم.

---

٤١ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٢.

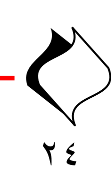
٤٢ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.

٤٣ سير أعلام النبلاء ١٠/٩٢.

٤٤ سير أعلام النبلاء ١٠/٩٢.

٤٥ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.

٤٦ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.



مكان دفنه: دفن بدار أخت توزون[٤٧]، في الجانب الشـرقي من بغداد في درب الحمام في شارع درب السلسلة.[٤٨]

من صـــلى عليه: ذكر ابن أبي يعلى: "فقالت أخت توزون لخادمها لما مات البربهاري عندها مستترا: أنظر من يغسله فجاء بالغاسل فغسله وغلق الباب حتى لا يعلم أحد ووقف يصـلي عَلَيْهِ وحده فطالعت صـاحبة المنزل فرأت الدار ملأى رجالا عليهم ثياب بيض وخضـر فلما سلم لم تر أحدا فاستدعت الخادم وقالت: يا حجام أهلكتني مَعَ أخي فَقَالَ: يا ســـتي رأيت ما رأيت؟ فقالت: نعم فَقَالَ: هَذِهِ مفاتيح الباب وهو مغلق فقالت: ادفنوه فِي بيتي فَإِذَا مت فادفنوني عنده فِي بيت القبة فدفنوه فِي دارها فماتت بعده بزمان فدفنت فِي ذَلِكَ المكان"[٤٩]

وفي هذه الرواية ما يشير إلى أنها فعلت ذلك دون علم أخيها الأمير توزون.

مدة حياته: قال الذهبي: "وعاش ســبعا وســبعين ســنة."[٥٠] وقال مجير الدين العليمي صاحب المنهج الأحمد "ذكر أنه عاش ستًا وتسعين سنة" [٥١].

ثناء العلماء عليه

قال الإمام الذهبي: " البربهاري شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه. كان قوالا بالحق، داعية إلى الأثر، لا يخاف في الله لومة لائم"٥٢.

---

٤٧ توزون هو أحد الأمراء الأتراك الذين كانت لهم السـلطة على الدولة العباسـية منذ أن مكن الخليفة المعتصـم لهم واستمر نفوذهم إلى استيلاء البويهيين على بغداد. انظر الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٠

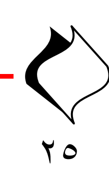
٤٨ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.

٤٩ طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤.

٥٠ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩١.

٥١ المنهج الأحمد ٢/ ٢١.

٥٢ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٣.



قال أبو عبد الله بن بطة الفقيه: "إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار وأبا محمد البربهاري، فاعلم أنه صاحب سنة"[٥٣].

قال عنه ابن أبي يعلى: "شيخ الطائفة في وقته، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع، والمباينة لهم باليد واللسان، وكان له صيت عند السلطان وقدم عند الأصحاب، وكان أحد الأئمة العارفين والحفاظ للأصول المتقنين والثقات المؤمنين"٥٤.

قال أبو الحسين بن الفراء: "كان للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين"[٥٥]

قال عنه ابن كثير: "العالم الزاهد، الفقيه الحنبلي، الواعظ...وكان شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر تعظمه الخاصة والعامة"[٥٦].

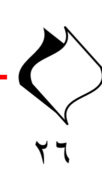
---

٥٣ تاريخ بغداد ١٢/ ٦٧، المختار من مناقب الأخيار ص ٤٥٨.

٥٤ طبقات الحنابلة: ٣/ ٣٦.

٥٥ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩١.

٥٦ البداية والنهاية ١١ /٢١٣.



شرح المتن

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:"

"الحمد لله الذي هدانا للإسلام ومنَّ علينا به، وأخرجنا في خير أمة، فنسأله التوفيق لما يحب ويرضى، والحفظ مما يكره ويسخط."

الشرح

- قول المصنف: **"الحمد لله"** :

الحمد في كلام العرب معناه: الثناء الكامل، (والألف واللام) لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو–سبحانه–يستحق الحمد بأجمعه؛ إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فالحمد نقيض الذم، تقول: حمدتُ الرجل أحمده حمدًا، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، والمحمَّد: الذي كثرت خصالُه المحمودة[٥٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والحمد ضد الذم، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته، والذم خبر بمساوئ المذموم مقرون ببغضه، فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته، ولا يكون ذم لمذموم إلا مع بُغضه، وهو–سبحانه–له الحمد في الأولى والآخرة.

وأول ما نطق به آدم: الحمد لله رب العالمين، وأول ما سمع من ربه: يرحمك ربك، وآخر دعوى أهل الجنة: أن الحمد لله رب العالمين، وأول مَن يدعى إلى الجنة الحمادون، ونبينا محمد–صلى الله عليه وسلم–صاحب لواء الحمد، آدم فمن دونه تحت لوائه، وهو صاحب المقام المحمود الذي يَغبِطه به الأولون والآخرون؛ فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود، وهو–سبحانه–المعبود المحمود"[٥٨].

- والمصنف رحمه الله يبدأ كلامه بحمد الله تأسياً بما ورد في بعض سور القرآن التي افتتحت بحمد الله كسور (سورة الفاتحة)، (وسورة الأنعام)، (وسورة الكهف)، (وسورة سبأ)، (وسورة فاطر)، (وسورة التغابن).
- وكذلك ما ورد في السنة النبوية من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتتح خطبه بحمد الله تعالى والثناء عليه.

فابتدأ المصنف بما أمر صلى الله عليه وسلم بابتداء الحاجة به مما قد روي عنه بأسانيد متصلة صحيحة، ومن أمثلة ذلك:

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ،

---

٥٧ الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٣٣).

٥٨ منهاج السنة النبوية ٥ / ٤٠٥.

وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ[٥٩]».

- وعن أَبِي يَزِيدَ–أَوْ: مَعْنَ بْنَ يَزِيدَ–أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَمِعُوا فِي مَسَاجِدِكُمْ، وَكُلَّمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فَلْيُؤْذِنُونِي. فَأَتَانَا أَوَّلَ مَنْ أَتَى، فَجَلَسَ، فَتَكَلَّمَ مُتَكَلِّمٌ مِنَّا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ الَّذِي لَيسَ لِلْحَمْدِ دُونَهُ مَقْصَدٌ وَلَا وَرَاءَهُ مَنْفَذٌ، فَغَضِبَ فَقَامَ، فَتَلَاوَمْنَا بَيْنَنَا[٦٠] »

تنبيه لطيف وفائدة عزيزة، يقول ابن حجر رحمه الله:

"جمعت كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وغيرهم، فلم يقع في واحد منها البداءة بالحمد، بل بالبسملة "[٦١] هذا قبل التصنيف.

أما لما جاء عصر التصنيف والتأليف، يقول ابن حجر أيضا: "تصانيف الأئمة من شيوخ البخاري، وشيوخ شيوخه، وأهل عصره، كمالك في الموطأ، وعبد الرزاق في المصنف، وأحمد في المسند، وأبي داود في السنن، إلى ما لا يحصى ممن لم يقدم في ابتداء تصنيفه خطبة، ولم يزد على التسمية، وهم الأكثر، والقليل منهم من افتتح كتابه بخطبة.... أو يحمل على أنهم رأوا ذلك مختصا بالخطب دون الكتب، كما تقدم، ولهذا من افتتح كتابه منهم بخطبة حمد وتشهد كما صنع مسلم... وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرسائل "[٦٢]

وحمد الله عز وجل أمر يقوم به الإنسان المسلم في كل ركعة من ركعات الصلاة فبقراءة فاتحة الكتاب، بسم الله الرحمن الرحيم﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]، فحمد

---

٥٩ رواه مسلم في صحيحة (٢ / ٥٩٣)

٦٠ رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني (١ / ٣٢٦).

٦١ فتح الباري (٧ / ٢٢٠).

٦٢ فتح الباري (١ / ٩).

الله عز وجل أمر ينبغي ويجب على كل مسلم أن يكون ديدنه في ذكر الله سبحانه وتعالى.

- قول المصنف: **"الذي هدانا للإسلام ومنَّ علينا به، وأخرجنا في خير أمة"**

يذكرنا المصنف–رحمه الله تعالى–هنا ويتذاكر معنا نعمة الهداية للإسلام، فافتتح كتابه بحمد الله سبحانه وتعالى على الهداية للإسلام، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. فهذه نعمة وفضل من الله سبحانه وتعالى من بها علينا، ولا شك أن هذه أعظم النعم وأجلها وأكبرها على الإنسان أن هداه الله عز وجل لهذا الدين، وأن جعله من أهل هذا الدين.

فالهداية للإسلام نعمة اختص الله بها بعض خلقه، والله تعالى يقول :﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨]، فهذه الهداية لهذا الدين أنت تسألها في كل ركعة من ركعات الصلاة فتقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]، فهدانا الله عز وجل للإسلام، ومن علينا بهذا الدين، وجعلنا من خير أمة وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠] فالله أعطى هذه الأمة كفلين من رحمته: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[الحديد:٢٨]، فإن كانت اليهود قد عملت من أول النهار إلى صلاة الظهر على قيراط قيراط، والنصارى عملوا من الظهر إلى العصر على قيراط قيراط، وهذه الأمة عملت من العصر إلى المغرب على قيراطين، فلما احتجت اليهود والنصارى أخبر الله عز وجل أن هذا فضل منه ومنة، ورحمته عز وجل يؤتيها من يشاء من عباده.

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :«مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى

أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ "، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ[٦٣]»

فالله تعالى من علينا بأن نكون من أهل الإسلام، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

- قول المصنف: "**فنسأله التوفيق لما يحب ويرضى، والحفظ مما يكره ويسخط**".

الله تعالى هو المسئول أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يحفظنا جميعًا مما يكره ويسخط، فالإنسان لا غنى له عن حفظ الله ورعايته عز وجل وعونه.

وقد جرت عادة السلف رحمهم الله على أن يقرنوا حمد الله على نعمة الهداية للإسلام والسنة بحفظ الله لهم من ضدها، ومن الشواهد على ذلك:

- قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:" ما فرحت بشيء من الإسلام أشد فرحا بأن قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء[٦٤].[٦٥]"
- عن أبي العالية قال: "قرأت المحكم بعد وفاة نبيكم صلى الله عليه وسلم بعشر سنين فقد أنعم الله علي بنعمتين لا أدري أيهما أفضل، أن هداني للإسلام، ولم يجعلني حروريا[٦٦][٦٧]"
- وقال قتادة: "ما أدري أي النعمتين علي أعظم إذ أخرجني من الشرك إلى الإسلام أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوى"[٦٨]

---

٦٣ رواه البخاري (٣/ ٩٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٠) في صحيحيهما.
٦٤ الأهواء: كلمة عامة يدخل فيها كل أنواع البدع.
٦٥ شرح أصول الاعتقاد للالكائي ١ / ١٣٠.
٦٦ الحروري: من يرى رأى الخوارج أو يعمل بعملهم.
٦٧ السير للذهبي ٤ / ٢١٢.
٦٨ الطبقات لابن سعد ٧ / ١١٣، شرح أصول الاعتقاد ٣٣٠

- عن مجاهد قال: "ما أدري أي النعمتين علي أعظم، أن هداني للإسلام أو عافاني الله من الأهواء"[٦٩]

فلذلك الإنسان في كل أحواله، وجميع أموره يجب أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، في صغير الأمور وكبيرها، وفي دقيقها، وجليلها، وفي السراء والضراء، وفي المنشط، والمكره.

فإذا كنت مع الله عز وجل فلن تخشى ولن تخاف شيئًا، ولكن ما نراه من أحوال بعضنا من غفلة وإعراض عن مثل هذه المعاني السامية قد يعرضنا إلى أن يكلنا الله عز وجل إلى أنفسنا في كثير من الأمور بسبب تلك الغفلة والإعراض عن شرع الله.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى-:"

[١] اعلموا أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر."

(الشرح)

في قول المصنف رحمه الله يحتوي المسائل الآتية:

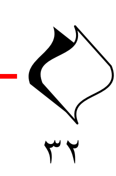
المسألة الأولى: معنى الإسلام.

ديننا دين الإسلام، والله سبحانه وتعالى قال في محكم التنزيل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥]، وقال سبحانه وتعالى :﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران:١٩]، ولفظ الإسلام له إطلاقان:

- إطلاق عام: فيطلق في النصوص ويراد به جميع الدين أحيانًا.
- وإطلاق خاص: فيطلق في النصوص ويراد به الأمور الظاهرة دون الأمور الباطنة.

---

٦٩ مقدمة سنن الدارمي ١ / ٩٢، وأصول السنة لابن أبي زمنين ٢٣٦



والمصنف هنا أراد الإطلاق العام لأن الإسلام والإيمان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا في النصوص.

فلو تأملت حديث جبريل عليه السلام عندما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم

- فسأله عن الإسلام فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بالأركان الخمس «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» [٧٠] فهذه هي الأمور الظاهرة.
- وعندما سأله عن الإيمان، جعل الإيمان في الأمور الباطنة «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره».[٧١]

فهو في حديث جبريل فرق بين الإسلام والإيمان، فجعل الإسلام مختصًا بالأمور الظاهرة، وجعل الإيمان مختصًا بالأمور الباطنة.

ويطلق الإيمان ويراد به جميع الدين كما في حديث شعب الإيمان «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان» (٧٢) فالإيمان هنا أطلق وأريد به جميع الدين.

ويطلق الإيمان ويراد به الأمور الباطنة كما في حديث جبريل المتقدم.

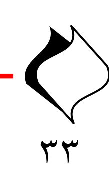
ويطلق الإسلام ويراد به جميع الدين كما في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران:١٩].

---

٧٠ انظر: مسند الإمام أحمد، مسند الخلفاء الراشدين، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم ٣٥٩. وقال الشيخ الألباني حديث صحيح، في كتاب المجتبى من السنن، الصفحة أو الرقم ٤٩٩٠ / ٩٧.

٧١ المصدر السابق.

٧٢ المصدر السابق.



ويطلق ويراد به الأمور الظاهرة دون الباطلة مثلاً في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[الحجرات:١٤]، فيفهم هذا من إطلاقات النصوص.

المسألة الثانية: السنة ومعانيها.

من استعمالات لفظ السنة أنها يراد بها أمر العقيدة. فمما لا شك فيه أن أمر التوحيد والعقيدة يأتي في أول أولويات وأوليات الدين، فالإنسان لا يكون من أهل الإيمان، ومن أهل ملة الإسلام حتى يكون موحدًا لله عز وجل ومقيمًا لأمر الاعتقاد.

والسنة تطلق عند العلماء على عدة اصطلاحات:

- فعلماء الحديث: يطلقون لفظ "السنة" ويعنون به ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، من أقواله وأفعاله وتقريراته صلوات الله وسلامه عليه[٧٣].
- وعلماء الفقه: يستعملونها في باب الأحكام الخمسة، فهناك الواجب، والحرام، والمستحب أو السنة، والمكروه، والمباح. فالسنة عندهم هي: "ما يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها" .
- وعلماء العقيدة: يطلقون مسمى "السنة"

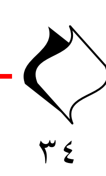
١ . باعتباره اسماً من مسميات هذا العلم، فهذا العلم الذي هو العقيدة من أسمائه "التوحيد"، ومن أسمائه "العقيدة"، ومن أسمائه "الفقه الأكبر" ومن أسمائه "أصول الدين" ومن أسمائه "السنة"[٧٤].

ولذلك ألف من العلماء وأسمى كتابه باسم السنة، ومن ذلك:

---

٧٣ انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (١٨ / ٦-١٠)، وتحرير علوم الحديث للجديع، (١ / ١٩).

٧٤ انظر مجموع الفتاوى (١٩ / ٣٠٧).



١. السنة للإمام أحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٤١هـ.[٧٥]

٢. أصول السنة، له أيضاً.[٧٦]

٣. شرح السنة، للمزني، المتوفى سنة ٢٦٤هـ.[٧٧]

٤. السنة، لابن أبي عاصم، المتوفى سنة ٢٨٧هـ.[٧٨]

٥. السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٩٠هـ.[٧٩]

٢ . وتطلق السنة في جانب من جوانب العقيدة في مقابل البدعة، فهناك السنة ويقابلها البدعة[٨٠] .

---

٧٥ رسالة "السُّنة" المعروفة برسالة الإصطخري: رواها ابن أبي يعلى في "الطبقات" (١ / ٢٤-٣٦) وهي رسالة جامعة لعقيدة أهل السنة والجماعة.

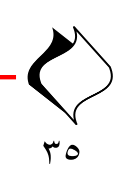
٧٦ اعتبر أهل العلم هذا المتن من أهم المتون في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة والتي ضبط المصنف فيها مذهب السلف الذي يخالف أهل البدع، مع تحرير أصول عقيدة الفرقة الناجية، قال ابن جبرين: "من أشهر المتون المختصرة التي كتبها السلف رضوان الله عليهم في العقيدة: متن (أصول السنة)، لإمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وقد بين فيه مذهب أهل السنة في أبواب الإيمان والقدر والصحابة وغيرها، ولذا كان جديراً أن يُهتم به، وقد عُني به كثير من العلماء " انظر شرح أصول السنة لابن جبرين (١ / ١) حتى قيل في هذه الرسالة "ما لو رحل رجل إلى الصين في طلبها لكان قليلا" انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١ / ٢٤١).

٧٧ حافظ كبير إمام بارع متبع للآثار كثير التصانيف وكان ثقة نبيلًا معمرًا من مصنفاته: كتاب "السنة" في أحاديث الصفات" انظر سير أعلام النبلاء (١٣ / ٤٣٠)؛ البداية (١١ / ٢٨٤). واعتنى المصنف ببيان طريقة السلف وحرر فيها اعتقاد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات، وعبادة الله عز وجل، وحق الرسول صلى الله عليه وسلم، وحق الصحابة رضي الله عنهم وبين مكارمهم ومنزلتهم وفضلهم، وحق الأولياء والأئمة، وإصلاح المجتمع، والبعث والنشور، وطاعة ولي الأمر، والإمساك عن تكفير أهل القبلة، ولكن " المراد بالسنة هنا ما يعتقد، فلا تدخل في سنن الأفعال"، بتصرف انظر اعتقاد أهل السنة (٣ / ٢) لان جبرين.

٧٨ يعد الكتاب من أوائل كتب أهل السنة، حيث سلك المصنف رحمه الله في تأليفه مسلك المحدثين في سوق الأحاديث بأسانيدها تحت تراجم دالة على المعنى المراد.

٧٩ وهذا الكتاب يتناول عددًا من موضوعات العقيدة؛ كبعض المسائل في باب أسماء الله تعالى وصفاته والرد على الجهمية، وباب الإيمان والرد على المرجئة والخوارج، وباب القدر والقدرية، وفتنة الدجال، وعذاب القبر، وغيرها من المسائل، وطريقته أنه يذكر في كل مسألة عددا من الأحاديث والآثار ويعتني بنقل أقوال والده.

٨٠ انظر مجموع الفتاوى (١٩ / ٣٠٧).



والكتاب الذي بين يدينا يحمل هذا المسمى وسنشرح-بحول الله- بعض ما تضمنه من قواعد وأحكام تتناول هذه الجوانب من جوانب العقيدة، مع أن المصنف رحمه الله قد أورد فيه مسائل تتعلق بجانب الفقه وتتبع العبادات والمعاملات كقصر الصلاة في السفر، والمسح على الخفين، والبيوع وغيرها، ولعل ذلك راجع إلى أن مفهوم لفظ "السنة" عند الأوائل كان أعم، على اعتبار أن هذه المسائل مما يميز أهل السنة عن غيرهم من الطوائف[٨١] على اعتبار أن تلك المسائل قد وقع فيها المخالفة من بعض أهل البدع كما سيأتي بيانه عند ذكر تلك المسائل.

المسألة الثالثة: مراد المصنف بهذه العبارة.

أراد المصنف هنا بقوله: الإسلام أراد به الإطلاق العام، الذي هو جميع هذا الدين. فكلامه هنا عن الدين جملة فقال: **"الإسلام الذي هو الدين هو السنة"** أي ما جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، والسنة كما ذكرنا في التوطئة لها عدة إطلاقات فلها إطلاق في اصطلاح الفقهاء، ولها إطلاق في اصطلاح المحدثين، ولها إطلاق كذلك في اصطلاح أهل العقيدة، فالسنة في أساس معناها اللغوي معناها: الطريقة، ففي إطلاق أهل العقيدة تطلق السنة في مقابل البدعة، وتطلق السنة في هذا المعنى أي الدين، والإسلام الذي تركنا عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا الأمر يحتاج إليه لما حدث الافتراق، فكل مبتدع يدعي أنه على الإسلام، وعلى الدين، فكيف تتميز هذه الدعاوى.

وكل مطالب بالدليل على صحة دعواه فالله عز وجل يقول في محكم التنزيل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة:١١١]، فأهل السنة برهانهم واضح، قال الله، وقال رسوله صلى الله عليه وسلم، على وفق فهم الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين، ومن خرج عن هذا قيد أنملة فهذا الخروج مرفوض من كل صاحب سنة.

---

٨١ نفس المرجع الذي قبله.

فعلى هذا المقصود بالسنة كما سيأتي هي الجماعة، والجماعة هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فمعنى هذا أن السنة أو العقيدة يعني بها: كلام الله عز وجل، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على وفق فهم الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين.

فإذًا لا يمكن أن يقوم إسلام إلا بهذا المنهج، ولا يكون هناك منهج إلا بهذا الدين الذي هو الإسلام، الذي تركه لنا النبي صلى الله عليه وسلم.

قيل للإمام أحمد: "أحياك الله يا أبا عبد الله على الإسلام، قال: والسنة"[٨٢]

المسألة الرابعة: قواعد مهمة مستفادة.

القاعدة الأولى: اعتقاد أهل السنة أن الدين كامل.

يؤمن أهل السنة بقاعدة شرعية تقول: إن الدين كامل، ليس بحاجة إلى من يزيد أو ينقص منه.

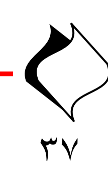
- قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فكل مؤمن يعتقد، ويوقن، ويعلم علمًا يقينيًا أن هذا الدين كامل.
- وقد قال صلى الله عليه وسلم: « تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك».[٨٣]

فكل واحد منا يؤمن ويوقن أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين، وأنه نصح للأمة، وأنه جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه.

---

٨٢ ابن الجوزي في المناقب ١٧٧.

٨٣ انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم برقم (١٦٨١١)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة الصفحة أو الرقم ٩٣٧ / ٦١٠.



ثم ألم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى آداب الخلاء؟! كما قال سلمان الفارسي رضي الله عنه :"علمنا حتى آداب الخراءة"[٨٤].

- وكما قال أبو ذر رضي الله عنه: "تركنا وما من طائر يقلب جناحه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا".

فإذًا الإسلام هو هذا الدين، وهذا الدين هو ما جاء في كلام الله عز وجل، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وفق ما كان عليه فهم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، هذا اتباع وليس ابتداع، وهذا اقتداء وليس ابتداء،

- فكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إنا نتبع ولا نبتدع، ونقتدي ولا نبتدئ".[٨٥]
- وقال عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما–:"كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة ".[٨٦]
- وقال ابن عباس لعباس بن حاضر: «عليك بالاستقامة، واتباع الأثر، وإياك والتبدع».[٨٧]
- وقال معاذ بن جبل–رضي الله عنه–:"إياكم وما ابتُدع فإن ما ابتدع ضلال" [٨٨]
- وقال عبد الله بن مسعود—رضي الله عنه–:"اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكل بدعةٍ ضلالة" [٨٩]
- والعلم كما يقول الأوزاعي رحمه الله تعالى: "العلم ما جاء عن أصحاب محمد"[٩٠]. فهذه أول أسس التلقي.

---

٨٤ انظر: صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، حديث رقم (٢٦٢)

٨٥ انظر: اللالكائي في شرح الاعتقاد ١ / ٦٨.

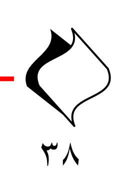
٨٦ الإبانة لابن بطة (١/ ٣٣٩).

٨٧ سنن الدارمي (١٤١)، الإبانة لابن بطه (١٦٤)

٨٨ أخرجه أبو داود برقم(٤٦١١).

٨٩ أخرجه الدارمي في سننه(٢١١).

٩٠ انظر: كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، باب معرفة أصول العلم وحقيقته حديث رقم (٨٧٦).



- وذلك يعني أن من سن أو عمل بدعة ظن أنها حسنة فيقال له كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: " من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد خان الرسالة "[٩١]، فأي إنسان يزعم أنه بهذه البدعة التي جاء بها جعلها بدعة حسنة، فهو يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خان الرسالة، لأن الله تعالى قد أخبر بكمال هذا الدين، فلا يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد كتم هذا الدين أو أخفى هذا الأمر من أمور الدين، لا في صغيرة ولا في كبير،.

ومع ذلك لا يسلم صاحب السنة من أذى أهل الباطل الذين يصفون صاحب السنة بما يصفونه به من ألفاظ مستبشعة مستقذرة، فيقولون: هذا جمود على النص، ويقولون: هذه حرفية إلى غير ذلك من الألفاظ بغية التنفير.

القاعدة الثانية: حفظ أهل السنة للأصلين رواية ودراية.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ((وجماع ذلك بحفظ أصلين:

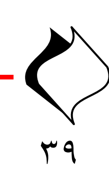
أحدهما: تحقيق ما جاء به الرسول، فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة، والتفسيرات الباطلة، بل يعطى حقه من معرفة نقله ودلالته.

والثاني: أن لا يعارض ذلك بالشبهات لا رأيًا ولا روايةً، قال الله تعالى فيما يأمر به بنى إسرائيل وهو لنا: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:(٤١) (٤٢)] فلا يكتم الحق الذي جاء به الرسول، ولا يلبس بغيره من البطل ولا يعارض بغيره)) [٩٢]

حديث مقطوع.

٩١ "الاعتصام" للشاطبي (١ / ٢٨).

٩٢ مجموع الفتاوى ج ١٥ / ١٥٥-١٥٦ وانظر أيضا: مجموع الفتاوى ج١٩ / ١٩٤، ومنهاج السنة ج٤ / ٥٤٨، والاستقامة ج١ / ٣ و٢ / ٣٠٠.



فأهل السنة أعلم الناس بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله، لذلك فهم أشد الناس حبًّا للسنة، وأحرصهم على اتباعها، وأكثرهم موالاة لأهلها؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق، وأقومهم قولًا وحالًا، لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك، وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداءً به أفضل الخلق"[٩٣]

فلو سئل عن مصادر التلقي فمصادر التلقي بينها المصنف بهذه العبارات القليلة: بأنها السنة التي تركها لنا النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذها عنه أصحابه رضوان الله عليهم، فنحن ملتزمون بها، مستقيمون عليها.

القاعدة الثالثة: ثبات أهل السنة.

ولذلك من مزايا أهل الحق الثبات، فقول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هو قولنا في هذا اليوم، لم يختلف ولم يتبدل، ليس لنا مصدر إلا من هذا الطريق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وبالجملة فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة، أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة" [٩٤]

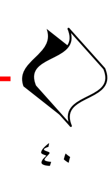
ولذلك أهلُ السنَّةِ قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً، وعلى اختلاف أزمانهم وأماكنهم هم على قولٍ واحد في سائرِ أمورِ هذا الدين وبالتحديدِ في أصولِ هذا الدين، لا تجدُ اختلافاً ولا تجدُ اضطراباً فقولهم في أسماء الله وصفاته واحد، وقولهم في بابِ الإيمان واحد، وقولهم في بابِ القدَرِ واحد. إلى غيرِ ذلك من مسائل الدين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وربنا واحد، ورسولنا واحد، وكتابنا واحد، وديننا واحد، وأصل الدين ليس بين السلف وأئمة الإسلام فيها

---

٩٣ مجموع الفتاوى ٤ / ١٤٠-١٤١

٩٤ مجموع الفتاوى ١ / ٥١



خلاف، ولا يحلّ الافتراق، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران ١٠٣] "[٩٥]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "أما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم، ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين، كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة، ومن صبر من أهل الأهواء على قوله، فذاك لما فيه من الحق، إذ لابد في كل بدعة—عليها طائفة كبيرة—من الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ويوافق عليه أهل السنة والحديث: ما يوجب قبولها، إذ الباطل المحض لا يقبل بحال.

وبالجملة: فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة).[٩٦]

ولذلك قام علماء الإسلام بحفظ آثارهم وأقوالهم، وحفظوها، ونقلوها بأسانيدها كما نقل كلام الله عز وجل، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، فاستقاموا على هذا الأمر. فإذا لو سئل صاحب السنة: ما مصدر التلقي عندكم فالجواب: كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على وفق فهم السلف الصالح. فإذًا الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر.

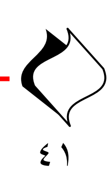
القاعدة الرابعة: تميز أهل السنة باتصال السند.

تميَّز قول أهل السنة باتصال السَنَد، فما كان عليه أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم فأهل السنة–بحمد الله تعالى–يقولُون به إلى يومنا هذا ويعتقدونه ويدينُون الله عز وجل به، فسندهم متصل، بخلافِ أهلِ البدعِ والأهواء فنجد أن سندهم منقطع؛

---

٩٥ مجموع الفتاوى ٣ / ٢٠٥.

٩٦ مجموع الفتاوى ٤ / ٥٠



ينقطعُ إلى فلانٍ من الناس ولا يمكنُ بأي حالٍ من الأحوال أن يتصلَ ذلك إلى أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أن يتصلَ إلى كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويصف الأصفهاني هذا الأمر فيقول: "ومما يدل علي أن أهل الحديث هم أهل الحق، أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار–وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد ونقلهم واحد، لا ترى فيهم اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قل، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأن جاء على قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دين أبين من هذا؟"[٩٧]

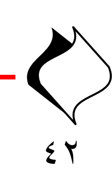
القاعدة الخامسة: أن هذا الدين واضح.

يتميز أهل السنة باعتقادهم بأن هذا الدين–بحمدِ الله تعالى–واضحٌ، ومن وضوحه أن كلام الله عز وجل معلومُ المعنى، فيحفظُون لهذا الكتاب حرمته لفظاً، ويحفظونُ له حرمته معنى، ويعتقدون أنه ليس في كتابِ الله عز وجل ما لا يُعلَمُ معناه فهو معلوم من جهة المعنى، وإن كان بعضُ حقائقِ تلك الأمور المغيَّبة أو كيفياتُها أمرٌ قد استأثر به الله تعالى في علمِ الغيب عنده، فيوقنُون أن الهدى في كلامِ الله عز وجل، وأن النورَ في كلامِ الله عز وجل وسنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم.

فأهل السنة هم أهل الفهم الرشيد عن الله وعن رسوله، ولذلك تأتي أقوالهم على الاستقامة والسداد.

---

[٩٧] الحجة في بيان المحجة ٢ / ٢٢٤.



يقول شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله بعد كلام عن اختلاف المبتدعة: "وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور، تبيَّن له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان خارجًا عن موجب العقل والسمع، مخالفًا للفطرة"[٩٨]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فَلِهَذَا لَمْ يَجْتَمِعْ قَطُّ أَهْلُ الْحَدِيثِ عَلَى خِلَافِ قَوْلِهِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْحَقُّ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمْ قَطُّ، وَكُلُّ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ فَهُوَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ مِنْ خَارِجِيٍّ وَرَافِضِيٍّ وَمُعْتَزِلِيٍّ وَجَهْمِيٍّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ، فَإِنَّمَا يُخَالِفُ رَسُولَ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–بَلْ مَنْ خَالَفَ مَذَاهِبَهُمْ فِي الشَّرَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ كَانَ مُخَالِفًا لِلسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ، وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ يُوَافِقُهُمْ فِيمَا خَالَفَ فِيهِ الْآخَرَ، فَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ مَعَهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الْمِلَلِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي الْإِسْلَامِ كَأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمِلَلِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ"[٩٩]

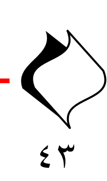
القاعدة السادسة: إن الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: "ليس لأحد من العلماء المختلفين، أو من التابعين لهم والمقتدين بهم أن يقول: الحق ما قاله فلان دون فلان، أو فلان أولى بالحق من فلان. بل الواجب عليه–إن كان ممن له فهم وعلم وتمييز–أن يرد ما اختلفوا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن كان دليل الكتاب والسنة معه فهو على الحق وهو الأولى بالحق. ومن كان دليل الكتاب والسنة عليه لا له كان هو المخطئ، بل هو معذور، بل مأجور، كما ثبت في الحديث الصحيح أنه: عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ[١٠٠]» فناهيك

[٩٨] مجموع الفتاوى (٥ / ٢١٢).

٩٩ منهاج السنة النبوية ٥ / ١٦٥.

١٠٠ رواه البخاري واللفظ له (٩ / ١٠٨) ومسلم (٣ / ١٣٤٢).



بخطأ يؤجر عليه فاعله، ولكن هذا إنما هو للمجتهد نفسه، إذا أخطأ، ولكن لا يجوز لغيره أن يتبعه في خطئه، ولا يعذر كعذره، ولا يؤجر كأجره، بل واجب على من عداه من المكلفين أن يترك الاقتداء به في الخطأ ويرجع إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة. وإذا وقع الرد لما اختلف فيه أهل العلم إلى الكتاب والسنة كان من معه دليل الكتاب والسنة هو الذي أصاب الحق ووافقه، وإن كان واحدا، والذي لم يكن معه دليل الكتاب والسنة هو الذي لم يصب الحق، بل أخطأه، وإن كان عددا كثيرا، فليس لعالم ولا لمتعلم ولا لمن يفهم–وإن كان مقصرا–أن يقول: إن الحق بيد من يقتدى به من العلماء، إن كان دليل الكتاب والسنة بيد غيره. فإن ذلك جهل عظيم، وتعصب ذميم، وخروج من دائرة الإنصاف بالمرة، لأن الحق لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق. وليس أحد من العلماء المجتهدين والأئمة المحققين بمعصوم، ومن لم يكن معصوما فإنه يجوز عليه الخطأ كما يجوز عليه الصواب، فيصيب تارة ويخطئ أخرى. ولا يتبين صوابه من خطئه إلا بالرجوع إلى دليل الكتاب والسنة، فإن وافقهما فهو مصيب، وإن خالفهما فهو مخطئ ولا خلاف في هذه الجملة بين جميع المسلمين أولهم وآخرهم، سابقهم ولاحقهم، كبيرهم وصغيرهم، وهذا يعرفه كل من له أدنى حظ من العلم، وأحقر نصيب من العرفان، ومن لم يفهم هذا ويعترف به فليتهم نفسه"[١٠١]

القاعدة السابعة: أهل السنة أبعد الطوائف عن الاختلاف في أصولهم.

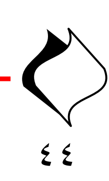
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ولهذا كلّ طائفة كانت إلى النبوات أقرب، كانت أقلّ اختلافاً، وكلّما كثر بُعدها كثر اختلافها.

المتفلسفة لما كانوا أبعد من أهل الكلام عن النبوات، كانوا أكثر اختلافاً؛ فإنّ لهم من الاختلاف في الطبيعيّات والرياضيّات ما لا يكاد يحصيه إلا الله.

وأما اختلافهم في الإلهيات فأعظم.

---

١٠١ شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ٥



والشيعة لما كانوا من أجهل الطوائف المنسوبين إلى الملة، كانوا أكثر اختلافاً من جميع الطوائف.

ثم المعتزلة أكثر اختلافاً من المثبتة للصفات والقدر.

ثم المثبتة المتكلمون فيهم من الاختلاف ما لا يوجد في أهل العلم بالسنة المحضة والحديث وأقوال السلف؛ فإنّ هؤلاء أبعد الطوائف عن الاختلاف في أصولهم؛ لأنهم أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنّة من غيرهم. وبطريقتهم تنحلّ الإشكالات الواردة على طريقة غيرهم"[١٠٢]

وقال أيضاً: "وإذا تدبّر العاقل، وجد الطوائف كلّها كلّما كانت الطائفة إلى الله ورسوله أقرب، كانت بالقرآن والحديث أعرف وأعظم عناية"[١٠٣].

القاعدة الثامنة: أن من سمات أهل السنة أنهم يقولون: إن المسائل التي يقع الخلاف فيها ليست على درجة واحدة.

قرر أهل العلم أن المسائل التي يقع الخلاف فيها ليست على درجة واحدة،

القسم الأول: فثمة مسائل لا يسوغ الخلاف فيها لصراحة أدلتها واتفاق السلف عليها وتسمى المسائل الخلافية، وهذا النوع من المخالفة ينكر فيه القول، ويضلل فيه المخالف، وقد يبدع حسب ضوابط شرعية، وقواعد مرعية.

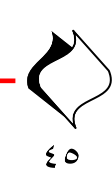
والقسم الآخر: هي المسائل التي يسوغ الخلاف فيها لتعارض أدلتها فيما يظهر للمجتهد أو لوقوع الخلاف فيها بين السلف الصالح وتسمى المسائل الاجتهادية.

والأصل في مسائل المعتقد أنها من قبيل المسائل الخلافية بخلاف المسائل الفقهية العملية، فالأصل أنها من المسائل الاجتهادية.

---

١٠٢ شرح الأصفهانية ٢ / ٣٧٩.

١٠٣ مجموع الفتاوى ٤ / ٩٦.



قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (قولهم: ومسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل،

أما الأول فإن كان القول يخالف سنة أو إجماعاً قديماً وجب إنكاره وفاقاً، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول: المصيب واحد وهم عامة السلف والفقهاء، وأما العمل إذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضا بحسب درجات الإنكار كما ذكرنا من حديث شارب النبيذ المختلف فيه وكما ينقض حكم الحاكم إذا خالف سنة وإن كان قد اتبع بعض العلماء،

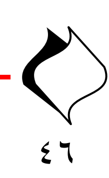
وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيه مساغ فلا ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس، والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد مالم يكن فيها دليل يوجب العمل به وجوباً ظاهراً مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ إذا عدم ذلك الاجتهاد لتعارض الأدلة المقاربة أو لخفاء الأدلة فيها"[١٠٤]

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: "وهذا يرد قول من قال: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، وهذا خلاف إجماع الأئمة...-إلى أن قال-: وقولهم: (إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها). ليس بصحيح؛ فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل،

أما الأول: فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعاً وجب إنكاره اتفاقاً وإن لم يكن كذلك فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار، وكيف يقول فقيه: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتاباً أو سنة وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء.

---

١٠٤ بيان الدليل على بطلان التحليل «ص٢١٠-٢١١»، ونقله ابن مفلح في الآداب الشرعية «١ / ١٩١».



وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم"[١٠٥].

القاعدة التاسعة: من سمات أهل السنة أنهم قليل في زمن الفتن.

- قال الفضيل بن عياض: (عليك بطريق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين)[١٠٦].
- وقال سفيان بن عيينة: (اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله)[١٠٧].
- وقال الحسن البصري: «يا أهل السنة ترفقوا رحمكم الله، فإنكم من أقل الناس»[١٠٨]
- وعن عُمارة بن زاذان قال: قال لي أيوب: «يا عُمارة: إذا رأيت صاحب سنة وجماعة فاقبله على ما كان فيه»[١٠٩].

القاعدة العاشرة: أن أهل السنة يعطون كل ذي حق حقه وهم أبعد الناس عن التكفير.

من سمات أهل السنة أنهم يعطون كل ذي حق حقه وهم أبعد الناس عن التكفير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل

---

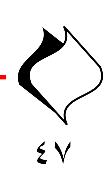
١٠٥ إعلام الموقعين «٥/ ٢٤٢-٢٤٣». وبنحو قولهما قال السمعاني في «قواطع الأدلة ٥ / ٦٢»، والنووي في «شرح مسلم ٢ / ٢٣».

١٠٦ المجموع للنووي (٨ / ٢٠٣)، الأذكار له (ص١٦٠)، الاعتصام (١ / ١٣٥)، وأخرجه مسنداً بنحوه ابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص ٣٣١)، وعزاه النووي في (التبيان ص ١١٥) للحاكم.

١٠٧ أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٧ / ٤٢٩).

١٠٨ أخرجه اللالكائي (رقم ١٩).

١٠٩ المعجم لابن الأعرابي(٤٣١)



الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم"[١١٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه حال أهل العلم والحق والسنّة؛ يعرفون الحق الذي جاء به الرسول؛ وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول؛ ويدعون إليه؛ ويأمرون به نصحاً للعباد، وبياناً للهدى والسداد. ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى، ولم يحكموا عليه بالجهل، بل حكمه إلى الله والرسول؛ فمنهم من يُكفره الرسول، ومنهم من يجعله من أهل الفسق أو العصيان، ومنهم من يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور. والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد، يجعل له أجراً على فعل ما أمر به من الاجتهاد، وخطؤه مغفور له؛ كما دلّ الكتاب".[١١١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ، بَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ وَأَرْحَمُ بِالْخَلْقِ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾] آلِ عِمْرَانَ ١١٠. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ"[١١٢] [١١٣]".

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: وهو يتكلم عن أهل السنة: "فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض والقول به ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه ونفي باطل كل طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه فهم حكام بين الطوائف لا يتحيزون

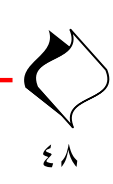
---

١١٠ منهاج السنة النبوية ٤ / ٥٤٣

١١١ النبوات لابن تيمية١ / ٤٢٢

١١٢ وَرَدَ هَذَا الْأَثَرُ فِي: الْبُخَارِيِّ ٦ / ٣٧ –٣٨ كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، بَابُ {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} وَنَصُّهُ فِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَانْظُرْ تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ لِلْآيَةِ ٢ / ٧٧ ط. دَارَ الشَّعْبِ"

١١٣ منهاج السنة النبوية ٥ / ١٥٧



إلى فئة منهم على الإطلاق ولا يردون حق طائفة من الطوائف ولا يقابلون بدعة ببدعة ولا يردون باطلا بباطل ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم بل يقولون فيهم الحق ويحكمون في مقالاتهم بالعدل والله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف فقال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[الشورى: ١٥]."١١٤

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: "والله تعالى يحب الانصاف بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل خصوصا من نصب نفسه حكما بين الأقوال والمذاهب وقد قال الله تعالى لرسوله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾[الشورى: ١٥] فورثة الرسول منصبهم العدل بين الطوائف وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه وطائفته ومتبوعه بل يكون الحق مطلوبه يسير بسيره وينزل بنزوله يدين بدين العدل والإنصاف ويحكم الحجة وما كان عليه رسول الله"١١٥.

وقال ابن تيمية: "فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَسْتَعْمِلُونَ مَعَهُمُ الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ وَلَا يَظْلِمُونَهُمْ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ حَرَامٌ مُطْلَقًا كَمَا تَقَدَّمَ، بَلْ أَهْلُ السُّنَّةِ لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، بَلْ هُمْ لِلرَّافِضَةِ خَيْرٌ وَأَعْدَلُ مِنْ بَعْضِ الرَّافِضَةِ لِبَعْضٍ. وَهَذَا مِمَّا يَعْتَرِفُونَ هُمْ بِهِ، وَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ تُنْصِفُونَنَا مَا لَا يُنْصِفُ بَعْضُنَا بَعْضًا."١١٦

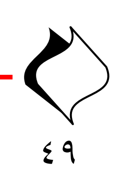
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فإن الصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أنه قد يجتمع في الشخص الواحد والطائفة الواحدة ما يحمد به من الحسنات وما يذم به من السيئات، وما لا يحمد به ولا يذم من المباحات، والعفو عنه من الخطأ والنسيان بحيث يستحق الثواب على حسناته ويستحق العقاب على سيئاته، بحيث لا

---

١١٤ شفاء العليل ص١١٣

١١٥ إعلام الموقعين ٤ / ١٤٨

١١٦ منهاج السنة النبوية٥ / ١٥٧



يكون محمودًا ولا مذمومًا على المباحات والمعفوات، وهذا مذهب أهل السنة في فساق أهل القبلة ونحوهم، وإنما يخالف في هذا الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ونحوهم، الذين يقولون: من استحق المدح لم يستحق الذم، ومن استحق الثواب لم يستحق العقاب، ومن يستحق العقاب لم يستحق الثواب"[117]

وقال شارح الطحاوية: "والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوبا من وجه مبغوضا من وجه، والحكم للغالب.[118]"

القاعدة الحادية عشرة: أن أهل السنة جمعوا بين الرحمة واللين والشدة والغلظة.

فمن سماتهم الجمع بين الرحمة واللين والشدة والغلظة، بخلاف غيرهم ممن يأخذ جانبًا من هدي السلف ويدع الجانب الآخر، فيأخذون بالشدة في جميع أحوالهم أو باللين في جميع أحوالهم.

أما أهل السنة فيجمعون بين هذا وهذا، وكل في موضعه، حسب ما تقتضيه المصلحة، ومقتضيات الأحوال.

وهم حقاً كما قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "نقاوة المسلمين، فهم خير الناس للناس"[119].

وقال أيضاً: "وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ، بَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ وَأَرْحَمُ بِالْخَلْقِ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ

---

١١٧ التسعينية٣ / ١٠٣١

١١٨ شرح العقيدة الطحاوية: ٢/ ٥٤٧.

١١٩ منهاج السنة ٥ / ١٥٨.

بِقَوْلِهِ:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ ١١٠].. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ[١٢١]".[١٢٠]"

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله–تعالى–فوق العرش لما وقعت محنتهم، أنا لو وافقتكم كنت كافراً؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطاباً لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له، فكان هذا خطابنا، فلهذا لم يقابل جهله وافتراؤه بالتكفير بمثله"[١٢٢]

وهذه قصة يذكرها ابن تيمية تدل على عدل أهل السنة وإنصافهم مع أهل البدع بالرغم من أنهم قد يلقون من المبتدعة ما يلقون من اعتداء وسوء معاملة حين تكون الغلبة لأولئك المبتدعة.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وَأَهْلُ السُّنَّةِ نَقَاوَةُ الْمُسْلِمِينَ، فَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ كَانَ بِسَاحِلِ الشَّامِ جَبَلٌ كَبِيرٌ، فِيهِ أُلُوفٌ مِنَ الرَّافِضَةِ يَسْفِكُونَ دِمَاءَ النَّاسِ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَقَتَلُوا خَلْقًا عَظِيمًا وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، وَلَمَّا انْكَسَرَ الْمُسْلِمُونَ سَنَةَ غَازَانَ، أَخَذُوا الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ وَالْأَسْرَى وَبَاعُوهُمْ لِلْكُفَّارِ النَّصَارَى بِقُبْرُصَ، وَأَخَذُوا مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْجُنْدِ، وَكَانُوا أَضَرَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَاءِ، وَحَمَلَ بَعْضُ أُمَرَائِهِمْ رَايَةَ النَّصَارَى، وَقَالُوا لَهُ: أَيُّمَا خَيْرٌ: الْمُسْلِمُونَ أَوِ النَّصَارَى؟ فَقَالَ: بَلِ النَّصَارَى. فَقَالُوا لَهُ: مَعَ مَنْ تُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: مَعَ النَّصَارَى. وَسَلَّمُوا إِلَيْهِمْ بَعْضَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا اسْتَشَارَ بَعْضُ وُلَاةِ

---

١٢٠ وَرَدَ هَذَا الْأَثَرُ فِي: الْبُخَارِيِّ ٦ / ٣٧–٣٨ كِتَابُ التَّفْسِـيرِ، سُـورَةُ آلِ عِمْرَانَ، بَابُ {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} وَنَصُّـهُ فِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَانْظُرْ تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ لِلْآيَةِ ٢ / ٧٧ ط. دَارَ الشَّعْبِ.

١٢١ منهاج السنة النبوية ٥ / ١٥٧.

١٢٢ الاستغاثة في الرد على البكري ١ / ٢٥٣.

الْأَمْرِ فِي غَزْوِهِمْ، وَكَتَبْتُ جَوَابًا مَبْسُوطًا فِي غَزْوِهِمْ، وَذَهَبْنَا إِلَى نَاحِيَتِهِمْ وَحَضَرَ عِنْدِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، وَجَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مُنَاظَرَاتٌ وَمُفَاوَضَاتٌ يَطُولُ وَصْفُهَا، فَلَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بَلَدَهُمْ، وَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ، نَهَيْتُهُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ وَعَنْ سَبْيِهِمْ، وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُتَفَرِّقِينَ لِئَلَّا يَجْتَمِعُوا."[١٢٣]

القاعدة الثانية عشرة: من سمات أهل السنة حرصهم على الجماعة والألفة ونبذهم للاختلاف والفرقة.

حرصهم على الجماعة والألفة، ودعوتهم لها وحث الناس عليها، ونبذهم للاختلاف والفرقة بين أهل العقيدة والتوحيد، وتحذير الناس من ذلك، كيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا"، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

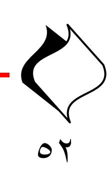
قال ابن عباس: "تبيضُّ وجوه أهل السنة، وتسودُّ وجوه أهل البدعة"[١٢٤].

---

١٢٣ منهاج السنة النبويةه / ١٥٩-١٦٠

١٢٤ انظر:

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١ / ٧٢ / ٧٤). ولفظه: ((عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل السنة والجماعة وأولو العلم، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل البدع والضلالة))
- وابن أبي حاتم كما في التفسير (٣٩٥٠، ٣٩٥١): ولفظه ((عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: في قوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وبه عن ابن عباس... قال: تسود وجوه أهل البدع والضلالة))
- والخطيب كما في التاريخ ٧ / ٣٩٧: بلفظ: ((﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل البدع والأهواء، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فأهل السنة)).



فمن منهجهم الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحق، فهم حريصون كل الحرص على وَحدة المسلمين، ولَمِّ شعثهم، وجمع كلمتهم على الحق، وإزالة أسباب النزاع والفرقة بينهم؛ لعلمهم أن الاجتماع رحمة، وأن الفرقة عذاب، ولأن الله عز وجل أمر بالائتلاف، ونهى عن الاختلاف؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

القاعدة الثالثة عشرة: أن أهل السنة يقولون: أن العقل الصريح دائمًا موافقٌ للرسول صلى الله عليه وسلم لا يخالفه قط.

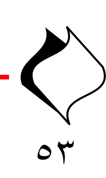
فإن الميزان مع الكتاب، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان؛ لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما

- والجرجاني، كما في تاريخه ص ١٣٢ بلفظ: ((عن بن عباس :﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فهم أهل السنة والجماعة، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فأهل الأهواء والزيغ))
- والشريعة للآجري (٥ / ٢٠٦١)

وهذا الأثر مشهور، وتداوله كثير من العلماء في كتبهم دون إنكار له، كابن تيمية في –مواضع كثيرة جدا–، وابن القيم، وابن كثير، والشاطبي، وغيره.

ولا يلتفت لقول من قال بتضعيف الأثر فالضابط في مثل هذه الآثار ما ذكره شيخ الإسلام بن تيمية حيث قال: (قال الإمام أحمد "ثلاثة علوم ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير" وفي لفظ "ليس لها أسانيد" ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة ومنقطعة، فإذا كان الشيء مشهوراً عند أهل الفن وقد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره.) انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. من كتاب تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ص ١٦–١٧. ط: الدار العلمية، الهند.

ولعل في هذا تنبيهاً على ما ذكره مشهور حسن في تحقيقه لكتاب إعلام الموقعين حيث قال:" قلت: وإسناده ضعيف جدًا، إن لم يكن موضوعًا؛ ففيه علي بن قدامة ضعيف، وشيخه مجاشع بن عمرو اتهم بالكذب، وشيخه ميسرة مثله، ثم إن المتأمل في هذا التفسير يجد فيه نكارة، وهي أنه مخالف لنص القرآن الكريم، فقد بيّن الله تعالى لنا من هم الذين تبيض وجوههم، ومن الذين تسود وجوههم فقال: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١٠٦]"، انظر تحقيق إعلام الموقعين عن رب العالمين لمشهور حسن (٢ / ٤٧٥).



يعلمون بعقولهم بطلانه؛ فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم.

القاعدة الرابعة عشرة: أن أهل السنة يتميزون باعتقادهم أن الصحابةَ-رضوان الله عليهم-لم يكن أحدٌ منهم على بدعة.

وما عُرفوا بذلك برغمِ ظهورِ بعض الفرقِ في زمانهم كالخوارجِ والقَدَرِيَة والشيعةِ ونحو ذلك، ومع ذلك ما عُرِفَ عن أحدٍ من أصحاب النبي أنه قد حادَ عن هذا الطريق.

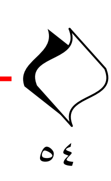
ونؤمنُ بأن أصحابَ النبي كما وصفهم ابن مسعود حينما قال: "من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة"، وكما أُثِر عنه حيث قال: "إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبعُ ولا نبتدع.[١٢٥]"

فأصحابُ النبي خيرُ هذه الأمة، والله تعالى قد زَكَّاهم في كتابه وأمرَ بلزومِ سبيلهم حيث قال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، فرضيَ الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار رضاءً مطلقا بدونِ قيد، ورضيَ عنهم بعدهم رضاءً مقيَّداً.. مقيَّداً بأي أمر؟ باتباعهم بإحسان ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾.

ونهى الله سبحانه وتعالى عن الافتراقِ عنهم ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

نهى عن الافتراقِ عن هذا الطريقِ وهذا السبيل، والمعالم بحمد لله تعالى واضحة، مرجعيةٌ استقامَ عليها الأوائل وحفظوها لنا بأسانيدها الصحيحةِ الثابتة ونقلوها لنا، وأصبحت-بحمد الله تعالى-ميراثاً سليماً من كل بدعةٍ ومن كل شائبة يتوارثه أهل

١٢٥ أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١ / ٩٦)



السنَّةِ جيلاً بعدَ جيل، وينقله الخيارُ من هذه الأمة، ينقله ورثةُ الأنبياء لكلِّ جيلٍ من هذه الأجيال.

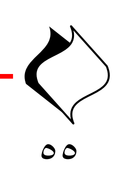
فلذلك لا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بثباته وعدمِ اضطرابه، ولا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بلزومِ كلام الله وبلزومِ كلام رسوله، ولا عجبَ أن يستمرَ هذا الإسناد محفوظاً جيلاً بعدَ جيل.

فهذه هي مرجعيةُ أهل السنَّة التي بحمد الله تعالى نُقلِت لنا في كتبِ الاعتقاد، ولزِمَها أهلُ السنَّةِ على مدى هذه الأزمانِ وعلى هذه الأعصار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ((والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم



بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل[١٢٦].

قال الله تعالى :﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]

وقال أيضاً :﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠] .

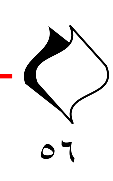
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ((فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة، ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ومن سلك سبيلهم، فكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم، فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا، فكيف بأصول التوحيد والإيمان، ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر في أقوال الناس، وما أرادوه بها، فعرضت على الكتاب والسنة))[١٢٧].

القاعدة الخامسة عشرة: وسطية أهل السنة بين الطوائف والفرق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل الأخرى"[١٢٨]

فأهل السنة هم أعرف الناس بالحق، ولذلك فإن كل طائفة سوى أهل السنة والحديث المتبعين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا ينفردون عن طائفة أهل

١٢٦ منهاج السنة ج٥ / ٢٦١-٢٦٣.
١٢٧ مجموع الفتاوى ٤٤٣ / ١٧
١٢٨ مجموع الفتاوى ٣ / ١٤١.



السنة إلا بقول فاسد، ولا ينفردون بقول صحيح، وكل من كان عن السنة أبعد، كان انفراده بالأقوال والأفعال الباطلة أكثر[١٢٩].

المسألة الرابعة: سمات مناهج أهل الباطل.

أحياناً لا يعرفَ الإنسان مدى قيمةِ هذه القواعد وهذه الثوابت التي تمت الإشارة إليها إلا إذا عرَّجَ على ذكر بعضِ سمات أهلِ البدع وقارن بينها وبين ما عليه أهل السنَّةِ والجماعة.

وكما قيل: "بضدِّها تتميزُ الأشياء"، "والضدُّ يُظهرُ حسنه الضدُّ"، ومن تلك السمات ما يلي:

أولاً: أنهم يجعلون أقوالهم هي الأصل ويجعلون ما جاء في الكتاب والسنة تبع لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعةً برأي رجالٍ وتأويلاتهم، ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعًا لها، ويحرف ألفاظه، ويتأول على وفق ما أصلوه

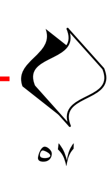
وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول، ولا يتلقون الهدى منه، ولكن ما وافقهم منه قبلوه، وجعلوه حجةً لا عمدة، وما خالفهم تأولوه، كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه، كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني"[١٣٠]

وقال أيضاً: " وأمّا أهل البدع: فهم أهل أهواء وشبهات، يتّبعون أهواءهم فيما يُحبّونه ويُبغضونه، ويحكمون بالظنّ والشبه؛ فهم يتّبعون الظنّ وما تهوى "الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى. فكلّ فريقٍ منهم قد أصّل لنفسه أصلَ دينٍ صنعه؛ إمّا برأيه وقياسه الذي يُسمّيه عقليّات؛ وإمّا بذوقه وهواه الذي يُسمّيه ذوقيّات، وإمّا بما يتأوّله

---

١٢٩ منهاج السنة ٣ / ٦٧.

١٣٠ انظر مجموع الفتاوى ج٥ / ٢٩ وج١٦ / ٤٣٣، ودرء تعارض العقل والنقل ج١ / ٧ وج٣ / ٧٧ والصـــواعق المرسلة ج٢ / ٤٥٦، و٦٣٣.



من القرآن، ويُحرّف فيه الكلم عن مواضعه، ويقول إنّه إنّما يتّبع القرآن كالخوارج؛ وإمّا بما يدّعيه في الحديث والسنّة ويكون كذباً وضعيفاً كما يدّعيه الروافض؛ من النصّ والآيات. وكثيرٌ ممّن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتجّ من القرآن بما يتأوّله على غير تأويله، ويجعل ذلك حجّة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه، كالجهميّة والمعتزلة في الصفات والأفعال، بخلاف مسائل الوعد والوعيد؛ فإنّهم قد يقصدون متابعة النصّ."[١٣١]

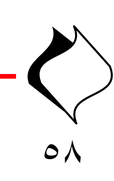
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وجماع الأمر أن الأدلة نوعان: شرعية، وعقليه.

فالمدعون لمعرفة الإلهيات بعقولهم، من المنتسبين إلى الحكمة والكلام والعقليات، يقول من يخالف نصوص الأنبياء منهم: إن الأنبياء لم يعرفوا الحق الذي عرفناه، أو يقولون: عرفوه ولم يبينوه للخلق كما بيناه، بل تكلموا بما يخالفه من غير بيان منهم.

والمدعون للسنة والشريعة واتباع السلف من الجهال بمعاني نصوص الأنبياء يقولون: إن الأنبياء ـ والسلف الذين اتبعوا الأنبياء ـ لم يعرفوا معنى هذه النصوص التي قالوها والتي بلغوها عن الله، أو إن الأنبياء عرفوا معانيها ولم يبينوا مرادهم للناس، فهؤلاء الطوائف قد يقولون: نحن عرفنا الحق بعقولنا، ثم اجتهدنا في حمل كلام الأنبياء على ما يوافق مدلول العقل، وفائدة إنزال هذه المتشابهات المشكلات اجتهاد الناس في أن يعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في تأويل كلام الأنبياء الذي لم يبينوا به مرادهم، أو أنا عرفنا الحق بعقولنا، وهذه النصوص لم تعرف الأنبياء معناها، كما لم يعرفوا وقت الساعة، ولكن أمرنا بتلاوتها من غير تدبر لها ولا فهم لمعانيها.

---

١٣١ النبوات لابن تيمية١ / ٤٢٢.



أو يقولون: بل هذه الأمور لا تعرف بعقل ولا نقل، بل نحن منهيون عن معرفة العقليات، وعن فهم السمعيات، وإن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات، ولا يفهمون السمعيات."[١٣٢]

ثانياً: من سمات مناهج أهل الباطل أن عامتهم لا يعرفون ما جاء في الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول: إما عجزًا وإما تفريطًا، فإنه يحتاج إلى مقدمتين:

أن الرسول قال كذا، وأنه أراد به كذا.

أما المقدمة الأولى: فعامتهم لا يرتابون في أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع مَن يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها، وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ، ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها، والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث؛ فإن هؤلاء يقطعون قطعًا يقينًا بعامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع.

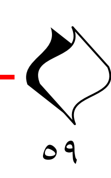
وأما المقدمة الثانية: فإنهم لا يعرفون معاني القرآن والحديث، ومنهم من يقول: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم، وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضع."[١٣٣]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وإذا كانت الطائفة عن الله وعن رسوله أبعد، كانت عنهما أنأى، حتى تجد في أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره،

---

١٣٢ درء تعارض العقل والنقل١ / ١٨-١٩.

١٣٣ انظر مجموع الفتاوى ج٥ / ٢٩ وج١٦ / ٤٣٣، ودرء تعارض العقل والنقل ج١ / ٧ وج٣ / ٧٧ والصواعق المرسلة ج٢ / ٤٥٦، و٦٣٣.



بل ربما ذكرت عنده آية فقال: لا نسلّم صحة الحديث. وربما قال لقوله عليه السلام: كذا.. وتكون آية من كتاب الله. وقد بلغنا من ذلك عجائب، وما لم يبلغنا أكثر"[١٣٤]

ثالثاً: من سمات مناهج أهل الباطل أنهم يتعاملون مع النصوص بما يوافق أهواءهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وكثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم، فالنصوص التي توافقهم يحتجون بها، والتي تخالفهم يتأولونها، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر إتباع نص أصلاً، وهذا في البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية))"[١٣٥].

رابعاً: من سمات مناهج أهل الباطل:

١ ـ أنهم يلبسون الحق بالباطل.

٢ ـ أنهم يقيمون الباطل بدلاً عن الحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١] هما متلازمان فإن من لبّس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل، فصار ملبوسًا ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلابد أن يظهر باطلا.

وهكذا أهل البدع لا تجد أحدًا ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئًا من السنة، كما جاء في الحديث

---

١٣٤ مجموع الفتاوى ٤ / ٩٦.

١٣٥ مجموع الفتاوى ج ١٧ / ٣٣٤، ٤٤٤، ٤٤٥ و ج ١٨ / ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢، و ج٧ / ١١٨. ومنهاج السنة ج٢ / ١٠٩ ودرء تعارض العقل والنقل ج٣ / ٧٦، وكتاب النبوات ص١٦٤ وبيان تلبيس الجهمية ج١ / ٢٥٣، ٥٢٣.

((ما ابتدع قوم بدعة إلا تركوا من السنة مثلها)) رواه الإمام أحمد [١٣٦] وقد قال تعالى : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤]

فلما تركوا حظا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره، فوقعت بينهم العداوة والبغضاء، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦][١٣٧] ".

فعلى المسلم أن يحذر من هاتين الصفتين الذميمتين فهي من سمات أهل الكتاب"[١٣٨]

خامساً: من سمات مناهج أهل الباطل اتباع المتشابهات والألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أهل الأهواء والبدع: « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه أولئك الذين سماهم الله فاحذروهم »[١٣٩]

وقد تحدث علماء السلف عن سمات الفرق الهالكة وأسباب تفرقهم وما أحدثوه في الدين تحدثوا من باب النصيحة والتحذير.

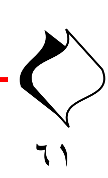
---

١٣٦ واللفظ عند أحمد: ((ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة)) ج٤ / ١٠٥ ضعفه الألباني بهذا اللفظ في ضعيف الجامع رقم(٤٩٨٣) ورواه وفي المشكاة رقم(٤٨) ١٨٧. الدارمي في سننه ج١ / ١٥٨ وعند عبد الرزاق في مصنفه: ((ما ابتدع قوم بدعة قط إلا استحلوا بها السيف)) ج١٠ / ١٥١. وصحح الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام في المشكاة رقم(٤٩) ١٨٨.

١٣٧ مجموع الفتاوى ج٧ / ١٧٢، ١٧٣.

١٣٨ مجموع الفتاوى ج ١٥ / ١٥٥-١٥٦ وانظر أيضا: مجموع الفتاوى ج١٩ / ١٩٤، ومنهاج السنة ج٤ / ٥٤٨، والاستقامة ج١ / ٣ و٢ / ٣٠٠

١٣٩ رواه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥).



- فقد سأل عمرو بن قيس الحكم بن عتبة: ((ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء أن يدخلوا فيها؟ قال الخصومات))[١٤٠]
- وقال الفضيل بن عياض: ((لا تجادلوا أهل الخصومات فإنهم يخوضون في آيات الله))[١٤١]
- وفي مصنف عبد الرزاق أن رجلاً قال لابن عباس: الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم. فقال: كل هوى ضلالة[١٤٢])).
- وعن أبي قلابة قال: ((ما ابتدع قوم بدعة إلا استحلوا السيف[١٤٣])).

فالله تعالى قد ذم في كتابه من يتتبع المتشابهات ورسوله صلى الله عليه وسلم كما عاقب عمر رضي الله عنه صبيغاً

وقد صارت هذه العادة سمة وشعارا لأهل البدع والأهواء ومنهجا ينتهجونه في التلبيس، وسلَّما للوصول إلى بغيتهم وطريقاً في تحقيق نواياهم السيئة، ومِعْولاً يهدمون بها أصول الدين، ويعارضون بها الحق بعد ما تبين للناس، ويلبسون به على عقول العوام ويفسدون به دينهم بإلقاء الشبهات تارة وباستخدام الألفاظ المجملة والمعاني مشتبهة تارة أخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ولهذا قال الإمام أحمد في أول ما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله، مما كتبه في حبسه قال في أوله: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلي الهدى ويبصرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمي، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضالٍّ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس

---

١٤٠ رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١ / ٨٢.

١٤١ رواه الدارمي برقم ٤٠٦.

١٤٢ المصنف لابن أبي شيبة ١١ / ١٢٦.

١٤٣ الشريعة للآجري ١ / ٤٦.

عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين"[١٤٤]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تعليقه على كلام الإمام أحمد –رحمه الله–: "المبتدعة يستعملون ألفاظ الكتاب والسنة واللغة ولكن يقصدون بها معاني أخر.

والمقصود هنا قوله: "يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم" [١٤٥]وهذا الكلام المتشابه الذي يخدعون به جهال الناس هو الذي يتضمن الألفاظ المتشابهة المجملة، التي يعارضون بها نصوص الكتاب والسنة، وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس، لكن بمعانٍ أُخر غير المعاني التي قصدوها هم بها، فيقصدون هم بها معاني أخر، فيحصل الاشتباه والإجمال"[١٤٦]

سادساً: من سمات أهل الباطل طعنهم في الصحابة

فها هي الفرق الكبار: المعتزلة والخوارج والشيعة كلهم يطعن في الصحابة رضوان الله عليهم طعنا صريحا[١٤٧]:

أما المعتزلة فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصحابة وأسقط عدالة ابن مسعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى

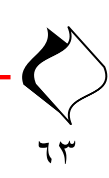
---

١٤٤ الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص١ / ٦. ومجموع الفتاوى ج١ / ٣ و ج٤ / ٢١٧ و ج١١ / ٤٣٥، و ج١٥ / ٢٨٤ و ج ١٧ / ٣٠٠ ومنهاج السنة ج٥ / ٢٧٣.

١٤٥ الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله–ص ١٧٣ . ١٧٤.

١٤٦ درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١ / ٢٢٢) (٦ / ١٩٢).

١٤٧ الفرق بين الفرق للبغدادي ٣١٨ وما بعدها.



من الصحابة بالاجتهاد، وقال: إن ذلك منهم إنما كان لأجل أمرين: إما لجهلهم بأن ذلك لا يحل لهم، وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسب إليهم. فنسب خيار الصحابة إلى الجهل أو النفاق.

ثم إنه أبطل إجماع الصحابة ولم يره حجة، وأجاز أن تجتمع الأمة على الضلالة[١٤٨].

وأيضا —كان زعيمهم واصل بن عطاء الغزال يشكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشة وكل من شهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشهورة: لو شهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق ولا أعرفه بعينه[١٤٩]. ووافقه على ذلك صاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفسق كل من الفريقين.

وأما الخوارج فتكفيرهم لعلي وأكثر الصحابة رضي الله عنهم واستباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

أما الشيعة فشعارهم الطعن في سائر الصحابة —عدا آل البيت—وغلاتهم من السبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

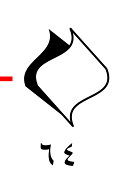
والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

والأشاعرة ونحوهم من المتكلمين ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة

---

١٤٨ فضل الإجماع ص ١٤٠.

١٤٩ انظر أصول الدين لابن طاهر البغدادي (٢٩٠ – ٢٩١).



والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله – بعد أن حكى عنهم هذا الكلام–: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض"[١٥٠][١٥١].

فالخوارج طعنوا في أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم، طعنوا ما طعنوا وكفَّروا ما كفَّروا.

وكذلك جاء من بعدهم المعتزلة حتى يقول العمرو بن عبيد: "لو جاءَ كلا الفريقين عليّ ومَن معه، ومعاوية ومَن معه، يشهدون عندي على حزمة بَقْل ما قبلت شهادةَ أحدٍ منهم"[١٥٢] فطعنوا بها في هذه المرجعية، وأطلق عمرو بن عبيد على ابنِ عمر أنه من الحشوية.

سابعاً: من سمات أهل الباطل انتقاصهم لعلوم السلف وقولهم: بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ولا يجوز أن يكون الخالفون أَعْلَمَ مِنْ السَّالِفِينَ كَمَا قَدْ يَقُولُهُ بَعْضُ الْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَ السَّلَفِ؛ بَلْ وَلَا عَرَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا: مِنْ أَنَّ "طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ "وطَرِيقَةَ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ " فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ: إنَّمَا أَتَوْا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا: أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ} وَأَنَّ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ هِيَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِي النُّصُوصِ الْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اللُّغَاتِ. فَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ أَوْجَبَ " تِلْكَ الْمَقَالَةَ " الَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ الْإِسْلَامِ وَرَاءَ الظَّهْرِ وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ

---

١٥٠ مجموع الفتاوى ٤ / ١٥٧

١٥١ المصدر موقع الدرر السنية الموسوعة العقدية

١٥٢ انظر العرش (١ / ٥١) للذهبي.

الْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ. وَبَيْنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ."[١٥٣]

ثامنًا: من سمات أهل الباطل أنهم جمعوا بين الجهل والظلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وَهَذَا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي اشْتَرَكُوا فِيهِ أَصْلٌ فَاسِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى جَهْلٍ وَظُلْمٍ، وَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي ظُلْمِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي ظُلْمِ النَّاسِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْعَالِمَ الْعَادِلَ أَعْدَلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ. وَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الرَّافِضَةِ وَمَنْ لَمْ يُكَفِّرْ فُسِّقَ. وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَبْتَدِعُونَ رَأْيًا، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ،"[١٥٤]

تاسعاً: ومن سمات مناهج أهل الباطل أن استدلالاتهم واهية.

ما يحتج به أهل البدع فشبههم لا تخرج عن أحد الأمور التالية:

١. إما آيات وأحاديث صحيحة يتأولونها ويتعسفون في تفسيرها حتى توافق ما جاءوا به من الباطل مع أنه ليس فيها دلالة على ما يزعمون ويدعون.

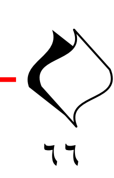
٢. وإما أحاديث واهية أو موضوعة لا يحتج بها ولا يعتمد عليها بل هي مخالفة لأهم قواعد هذا الدين المبنية على الآيات والأحاديث الثابتة الصحيحة.

وهذا الصنف هو أغلب بضاعتهم، بل وأكثر ما يستدلون به عند عرض بدعهم، إما جهلا منهم بحكم هذه الأحاديث، أو لعلمهم بأن هذا النوع من الأدلة هو مما يسهل ترويج باطلهم عند العوام الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين الصحيح والضعيف من الأحاديث.

---

١٥٣ مجموع الفتاوى ٥ / ٨-٩

١٥٤ منهاج السنة النبوية٥ / ١٥٧



٣. وإما بحكايات مكذوبة منسوبة لبعض أئمة هذا الدين الذين لهم في نفوس الناس منزلة ومكانة. وتلك الحكايات مروية بأسانيد مظلمة عن رجال مجهولين وهي مردودة بما اشتهر عن أولئك الأئمة من أقوال ذكرت في كتبهم أو رويت عن طريق تلاميذهم بأسانيد صحيحة تؤكد زيف تلك، الحكايات المنسوبة إليهم وتبرهن على بطلانها.

٤. أو بمنامات لا تخلو من أحد أمرين إما كذب صاحبها أو تلبيس الشياطين عليه، ويشهد لهذا ويؤكده مخالفتها لقواعد هذا الدين وأصوله.

٥. ويا سبحان الله كيف يتصور أن يترك شرع الله من أجل أحلام ومنامات أو أقوال من تكلم في الدين بلا علم، وليس معه فيما يقول ويدعى دليل شرعي، ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٦. أو بحجج هي من جهة الرأي والذوق هي أوهن من بيوت العنكبوت ولا يخفى ضعفها وفسادها ومخالفتها لقواعد هذا الدين وأصوله إلا على الجهلة وأصحاب الهوى أتباع كل ناعق الذين لم يستضيئوا بنور العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وأما أولئك الضلال أشباه المشركين والنصارى فعمدتهم: إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمن لا يحتج بقوله إما أن يكون كذبا عليه وإما أن يكون غلطا منه إذ هي نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم، وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم حرفوا الكلم عن مواضعه وتمسكوا بمتشابهه وتركوا محكمه كما يفعل النصارى"[١٥٥]

والمقام هنا لا يتسع لعرض تلك الشبه والرد عليها، فمن أراد الاستزادة في هذا الشأن فعليه بمظان ذلك في كتب علماء السلف[١٥٦]

---

١٥٥ الرد على البكري (ص ٣٥٢)

١٥٦ انظر:

- أ-قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ب-الرد على الأخنائي لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول "الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل "[١٥٧]

عاشراً: من سمات أهل الباطل زعمهم أن أهل السنة أَهْلُ تَقْلِيدٍ لَيْسُوا أَهْلَ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وَمِنْ الْعَجَبِ: أَنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ أَهْلُ تَقْلِيدٍ لَيْسُوا أَهْلَ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ وَأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ حُجَّةَ الْعَقْلِ. وَرُبَّمَا حُكِيَ إنْكَارُ النَّظَرِ عَنْ بَعْضِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَهَذَا مِمَّا يُنْكِرُونَهُ عَلَيْهِمْ فَيُقَالُ لَهُمْ: لَيْسَ هَذَا بِحَقِّ. فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ لَا يُنْكِرُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ هَذَا أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ. وَاَللَّهُ قَدْ أَمَرَ بِالنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي غَيْرِ آيَةٍ وَلَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَعُلَمَائِهَا أَنَّهُ أَنْكَرَ ذَلِكَ بَلْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى الْأَمْرِ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنْ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّدَبُّرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلَكِنْ وَقَعَ اشْتِرَاكٌ فِي لَفْظِ " النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ " وَلَفْظِ " الْكَلَامِ " فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا مَا ابْتَدَعَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ بَاطِلِ نَظَرِهِمْ وَكَلَامِهِمْ وَاسْتِدْلَالِهِمْ فَاعْتَقَدُوا أَنَّ إنْكَارَ هَذَا مُسْتَلْزِمٌ لِإِنْكَارِ جِنْسِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ. وَهَذَا كَمَا أَنَّ طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي مَا وَضَعَهُ " أُصُولَ الدِّينِ " وَهَذَا اسْمٌ عَظِيمٌ وَالْمُسَمَّى بِهِ فِيهِ مِنْ فَسَادِ الدِّينِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ. فَإِذَا أَنْكَرَ أَهْلُ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ ذَلِكَ قَالَ الْمُبْطِلُ: قَدْ أَنْكَرُوا أُصُولَ الدِّينِ. وَهُمْ لَمْ

- ج-الرد على البكري لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- د-صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان للشيخ محمد بشير السهسواني.
- هـ-الصواعق المرسلة الشهابية للشبح سليمان بن سحمان.
- وغاية الأماني في الرد على النبهاني للشيخ محمود شكري الألوسي.

١٥٧ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١ / ٥٠، ٥١)

يُنْكِرُوا مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى أُصُولَ الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا مَا سَمَّاهُ هَذَا أُصُولَ الدِّينِ وَهِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّوْهَا هُمْ وَآبَاؤُهُمْ بِأَسْمَاءِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَدْ بَيَّنَ أُصُولَهُ وَفُرُوعَهُ وَمِنْ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ قَدْ بَيَّنَ فُرُوعَ الدِّينِ دُونَ أُصُولِهِ كَمَا قَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَهَكَذَا لَفْظُ النَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ ".
وَعَامَّةُ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ إنَّمَا تَطَرَّقُ مَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا كَانَ"[158]

الحادي عشر: ومن سمات أهل الباطل تكفيرهم لخصومهم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَحَدٌ إلَّا وَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَقَالَةٌ يُكَفِّرُ قَائِلُهَا عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَصْحَابَهُ وَفِي التَّعْمِيمِ مَا يُغْنِي عَنْ التَّعْيِينِ فَأَيُّ فَرِيقٍ أَحَقُّ بِالْحَشْوِ وَالضَّلَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُودَ الرِّدَّةِ فِيهِمْ كَمَا يُوجَدُ النِّفَاقُ فِيهِمْ كَثِيرًا. وَهَذَا إذَا كَانَ فِي الْمَقَالَاتِ الْخَفِيَّةِ فَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ فِيهَا مُخْطِئٌ ضَالٌّ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ صَاحِبُهَا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ فِي طَوَائِفَ مِنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ؛"[159]

الثاني عشر: من سمات أهل الباطل اضطراب أقوالهم وتنقلهم من قول إلى قول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول، وجزما بالقول في موضع، وجزما بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين، فإن الإيمان كما قال فيه قيصر لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له، بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب، لا

---

١٥٨ مجموع الفتاوى ٤ / ٥٥-٥٦

١٥٩ مجموع الفتاوى ٤ / ٥٣

يسخطه أحد. ولهذا قال بعض السلف – عمر بن عبد العزيز أو غيره– :"من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل"[١٦٠][١٦١]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٢] "فمن السنة لزوم الجماعة، فمن رغب عن الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه[١٦٢]، وكان ضالًا مضلًا".

الشرح

في هذا النص عدة أمور:

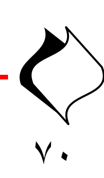
الأمر الأول: شرح قول المصنف رحمه الله تعالى: **"فمن السنة لزوم الجماعة"**

---

١٦٠ جامع بيان العلم وفضله ٢ / ١١٦

١٦١ مجموع الفتاوى ٤ / ٥٠

١٦٢ أخرجه أحمد (٥ / ١٨٠ رقم٢٥٦٠، ٢٥٦١، ٢٥٦٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه). وأبو داود في سننه (٤٧٥٨)، والحاكم (١ / ١١٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة» (٨٩٢).
وأخرج أحمد (٤ / ١٣٠ رقم ١٧١٧٠، ٤ / ٢٠٢ رقم ١٧٨٠٠، ٥ / ٣٤٤ رقم ٢٢٩١٠) من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأنا أمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع...) الحديث.



وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى الجماعة.

أ-تعريف الجماعة لغة:

١-أصل الكلمة: من مادة (جمع)، قال ابن فارس: ((الجيم والميم والعين أصل واحد يدل على تضامّ الشيء))[١٦٣].

٢-تصاريفها: الجماعة: مصدر جمع من باب منع. يقال: جمعت الشيء جمعا. وأجمعت على الأمر إجماعا وأجمعته وجماعة. خلاف التفريق.[١٦٤]

٣-استعمالاتها ومعانيها: لهذه الكلمة استعمالات متعددة في لغة العرب منها:

الجماعة: يطلق من كل شيء على القليل والكثير وأجمعوا على الأمر: اتفقوا عليه.

جمع: مكة، سمي لاجتماع الناس به، وجمعت الشيء: إذا جئت به من هاهنا وهاهنا.

وإذا أردت جمع المتفرق قلت: جمعت القوم فهم مجتمعون، قال تعالى:﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ [هود ١٠٣]

تَجمَّع القوم: اجتمعوا أيضا من هاهنا وهاهنا. والجميع: ضد المتفرق.

وأجمع أمره: أي جعله جميعا بعد ما كان متفرقا.

اجتمع: اجتمع السيل من كل موضع. فلاة مجتمعة: يجتمع فيها الناس ولا يتفرقون خوف الضلال.

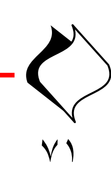
استجمع الفرس جريا.[١٦٥]

---

١٦٣ معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (جمع).

١٦٤ معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (جمع).

١٦٥ يراجع معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ج١ / ٤٨٠. مادة (جمع). اللسان مادة (جمع) المصباح المنير مادة (جمع). والغرب في ترتيب المعرب مادة (جمع).



الخلاصة: هذه المعاني كلها متقاربة تنصب في معنى واحد كما قال ابن فارس (يدل على انضمام الشيء).

وتدل على من يجمعهم غرض واحد، وهو ضد التفرق والتشتت في الضلال.

ب . تعريف الجماعة في الاصطلاح الشرعي:

المسألة الأولى: ورود لفظ ((الجماعة)) في الشرع:

أولًا: السنة: ومنه

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تلزم جماعة المسلمين» [١٦٦] في حديث

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال :كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخبر من شر؟

قال: «نعم».

قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟

قال: «نعم، وفيه دخن[١٦٧]» .

قلت: وما دخنه؟

قال: «أقوام يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر »

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها ».

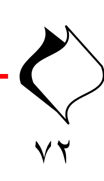
قلت: يا رسول الله صفهم لنا.

قال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا» .

---

١٦٦ صحيح البخاري مع الفتح ج١٣ / ٣٨ ح(٧٠٨٤) كتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

١٦٧ دخن: بالمهملة ثم المعجمة المفتوحتين بعدها نون: هو الحقد، وقيل: فساد القلب –فتح الباري (١٢ / ٣٢).



- قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» .

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[١٦٨]».

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نضر[١٦٩] الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل[١٧٠] عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم[١٧١]»

---

١٦٨ صحيح البخاري مع الفتح كتاب المناقب ح: ٣٦٠٦، كتاب الفتن، ح ٧٠٨٤، وصحيح مسلم (كتاب الإمارة، ح ١٨٤٧).

١٦٩ قال العراقي: روي مشددا ومخففاً ومعناه: ألبسه النضرة، وخلوص اللون، يعني: جمله الله وزينه، انظر: فتح القدير، للمناوي (٦ / ٢٨٦)

١٧٠ قال ابن الأثير: هو من الأغلال: الخيانة في كل شيء، يعني بضم الياء–قال: ويروى بفتح الياء من الغل، وهو الحقد والشحناء، أي لا يدخله حقد يزيله عن الحق، النهاية (٣ / ٣٨)

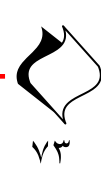
١٧١ أخرجه الترمذي في سننه (كتاب العلم، ٢٦٥٨). قال: حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، فذكره.

وأخرجه الشافعي في الرسالة (٤٠١)، عن سفيان به، وصحح سنده الألباني في تخريج المشكاة مع المشكاة (١ / ٧٨).

وأخرجه الحاكم معرفة علوم الحديث (٣٢٢) من طريق الشافعي به. وأخرجه الترمذي في السنن (كتاب العلم، ح ٢٦٥٧) وابن ماجة في السنن (المقدمة، ح٢٣٢) من طريق سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله به مختصراً، وليس فيه «ثلاث عليهن... الخ). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال الدكتور حافظ بن محمد الحكمي في كتابه الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة ص١٤: الحديث صحيح لشواهده، ففي سنده شيخ الترمذي ابن أبي عمر العدني، قال ابن حجر في التهذيب: «وثقه ابن معين والدارقطني، وقال أبو حاتم: فيه غفلة، وكان صدوقاً».

وقال ابن حجر في التقريب: (صدوق).



- ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: « من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية[١٧٢]».

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية [١٧٣]؛ يغضب لعصبية، أو يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج من أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد بعهده، فليس مني، ولست منه[١٧٤]

وسفيان هو ابن عيينة الإمام المشهور. وعبد الله بن عمير ثقة من رجال الشيخين؛ قال ابن حجر: «تغير حفظه وربما دلس».

وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ثقة من رجال الشيخين، لكن للحديث شواهد كثيرة؛ فقد روى الحديث جمع من الصحابة، منهم: زيد بن ثابت.

١٧٢ انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب الفتن، ح ٧٠٥٤، كتاب الأختام ح ٧١٤٣، صحيح مسلم (كتاب الإمارة ح ١٨٤٩.

والحديث أخرجه البخاري ومسلم كلاهما من طريق حماد بن زيد، من الجعد، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس. (فذكره). وهذا لفظ البخاري، وعند مسلم بنحوه.

وأخرجاه من طريق عبد الوارث عن الجعد، به بلفظ: ((من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية))، وهذا لفظ البخاري، ومسلم بنحوه.

١٧٣ عمية: قال النووي: كذا ضبطناه عن أشياخنا في صحيح مسلم بكسر العين والميم وتشديد الياء وفتحها، وضبطته في كتب اللغة على أبي الحسين بن سراج بالوجهين. الضم والكسر في العمل، والمعنى: أنها كالأمر الأعمى لا يتبين وجهه، حكاه عن الإمام أحمد، وأشار إلى تفسيرها في الحديث نفسه. مشارق الأنوار (٢/ ٨٨)

١٧٤ أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة) ١٨٤٨) عن شيبان بن فروخ، حدثنا جرير، -يعني ابن حازم- حدثنا غيلان بن جرير، عن أبي قيس بن رباح، عن أبي هريرة (فذكره).

- وأخرجه أحمد" عن يزيد بن هارون، عن جرير، به، مثله.

- عن عمر بن الخطاب رضـي الله عنه، أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: ((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشـيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة))[١٧٥].

- وأخرجه مسـلم في صـحيحه (كتاب الإمارة) ١٨٤٨) وابن أبي عاصـم في السـنة ١ / ٤٣، ح ٩٠، ٢ / ٥٠٦، ١٠٦٤ من طريق مهدي بن ميمون، عن غيلان،
- وأخرجه النسـائي في السـنن، كتاب الدم (باب التغليظ فيمن قتل تحت راية عميه) ٧ / ١٢٣)، وأحمد من طريق أيوب، عن غيلان، به.

١٧٥ أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١ / ٤٢ عن إسماعيل بن سالم

- والترمذي عن أحمد بن منيع كلاهما عن النضـر بن إسماعيل أبي المغيرة، حدثنا محمد بن سـوقة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر (فذكره).
- وهذا لفظه عند ابن أبي عاصم، وهو عند الترمذي في سياق حديث طويل.
- وقال الترمذي في سـننه (كتاب الفتن، ٢١٩٠): هذا حديث حسـن صـحيح غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- وقال الألباني: «حديث صـــحيح، رجال ثقات غير النضـــر بن إسماعيل أبي المغيرة، فإنه ليس بالقوي وقد توبع».
- قال الدكتور حافظ حكمي في كتابه الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة ص ١٩-٢٢: "النضـر بن إسماعيل قد اختلف فيه، فقال أبو زرعة والنسائي: ليس بالقوي.
- وقال الإمام أحمد: ليس بقوي يعتبر بحديثه؛ ووثقه غيرهم فقال العجلي ثقة:
- وقال الدارقطني: صـالح، وقال ابن عدي: أرجو أن لا بأس به. واختلف فيه؛ قول ابن معين فمرة قال: ليس بشيء، وعنه: قال صدوق. انظر: تهذيب التهذيب ١٠ / ٤٣٤.
- والذي يظهر أن أقل أحواله أن حديثه حسـن لغيره، فقد تابعه ابن المبارك كما أشـار الترمذي والألباني وهذه المتابعة عند الإمام أحمد في المســـند (١ / ١٨) قال: حدثنا علي بن إســـحاق أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا محمد بن سوقة به. بأطول من سياق ابن أبي عاصم.
- وهذا الإسناد صحيح شيخ الإمام أحمد علي بن إسحاق السلمي ثقة، وكذا بقية رجاله ثقات.
- وأخرجه الحاكم في المســـتدرك (١ / ١١٤) من طرق، عن عبد الله بن المبارك به، مطولا. وقال: «هذا حديث صـحيح على شـرط الشيخين؛ فإني لا أعلم خلافا بين أصـحاب ابن المبارك في إقامة هذا الإسناد، ولم يخرجاه." المصدر: الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة للدكتور حافظ حكمي. ص ١٩-٢٢.

- عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الجماعة رحمة والفرقة عذاب))[١٧٦]
- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار))[١٧٧].

ثانياً: في الآثار:

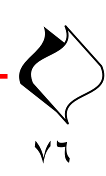
- ووافقه الذهبي في تلخيص المستدرك على المستدرك (١ / ١١٤)، وقال الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم مع السنة (١ / ٤٣): وهو كما قال.

١٧٦ أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١ / ٤٤)، قال: حدثنا ابو يحيي محمد بن عبد الرحيم، ثنا يونس بن محمد، عن أبي، عن وكيع، عن القاسم بن الوليد الشعبي، عن النعمان بن بشير، فذكره.

- وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٤ / ٢٧٨)، عن منصور بن أبي مزاحم، عن يحيي بن عبد الرحمن مولى بني هاشم كلاهما عن أبي وكيع، به في حديث.
- وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤ / ٣٧٥)" عن يحيي بن عبد الرحمن مولى بني هاشم به، بلفظ الإمام أحمد.
- وفي سند الحديث أبو عبد الرحمن القاسم بن الوليد، وثقه ابن معين وابن سعد. وقال العجلي: ثقة، وهو في عداد الشيوخ (تهذيب التهذيب ٨ / ٣٤)، وذكره ابن حبان في الثقات (٧ / ٣٣٨)، وقال: يخطئ ويخالف. وقال ابن حجر في التقريب: صدوق يغرب.
- وقال الألباني في (الصحيحة ح ٤٤٧ وفي صحيح الترغيب ح٤٠٥): " فيه كلام لا ينزل عن رتبة الحسن وحسن سنده" انظر: (تخريج السنة لابن أبي عاصم ١ / ٤٥) المصدر في التخريج: (كتاب الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة للدكتور حافظ حكمي. ص ٢٢ - ٢٣)

١٧٧ أخرج الترمذي في سننه (كتاب الفتن ح ٢١٦٧): قال: حدثنا أبو بكر بن نافع البصري حدثني المعتمر بن سليمان، حدثنا سليمان المدني، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر (فذكره).

- وأخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ١١٦) من طريق أبي بكر بن نافع به.
- وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وسليمان المدني هو سليمان بن سفيان، وقد روى عنه أبو داود الطيالسي وأبو عامر العقدي وغير واحد من أهل العلم.
- انظر: كتاب الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة للدكتور حافظ حكمي ص: ٢٤-٣٠.



- فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران ١٠٦]
- قال: "تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة.[١٧٨]"
- سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة، فقال :"عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إياك والفرقة فإن الفرقة هي الضلالة.
- وقال ابن مسعود "عليك بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به. ثم قبض يده وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة"[١٧٩]

المسألة الثانية: معانيها.

ذكر العلماء لمعنى لفظ الجماعة عدة معان تدور جميعها على أحد أمرين:

الأمر الأول: الجماعة في أمر الدين (وهي الجماعة العلمية)، ومن ذلك قولهم:

الجماعة: هم الصحابة رضوان الله عليهم.

الجماعة: أهل العلم لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن تعريف الجماعة اعتبار أمر الدين: "جماعة المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة وبما كان عليه السلف الصالح ويؤثرون كلام الله على كلام كل أحد، ويقدمون هدي رسول الله على هدي كل أحد، ومتعاونين على البر والتقوى متحدين على الحق متراحمين فيه"[١٨٠].

---

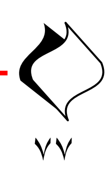
١٧٨ تفسير ابن كثير ج١ / ٣٦٩.

١٧٩ الاعتصام (٢ / ٧٧٠).

١٨٠ انظر: مجموع الفتاوى ج٣ /١٥٧.

وانظر:

- كتاب وجوب لزوم الجماعة وترك الفرقة لجمال أحمد بادي رسالة جامعية ماجستير ص ٨٨-٩٧.



الأمر الثاني: الجماعة في أمر الإمامة العظمى، أو ما يسمى الجماعة السلطانية وهي أمور الخلافة والولاية.

ومن ذلك قولهم:

الجماعة: الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره.

الجماعة: السواد الأعظم.

والسبب في هذا التنوع في تعريف الجماعة هو أن الناس تبع لأمرائهم وعلمائهم، فهم يتبعون أمراءهم فيما لهم سلطة فيه؛ وهم كذلك تبع لعلمائهم في أمر الدين.

فنجد أن هذه الأقوال كلها متقاربة وهي من باب اختلاف التنوع.

قال الشاطبي: " فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم:

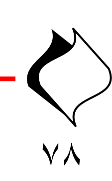
- في شيء من الشريعة.
- أو في إمامهم وسلطانهم .

فهو مخالف للحق. وممن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود، فروى أنه لما قتل عثمان

- سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة، فقال: "عليك بالجماعة فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إياك والفرقة فإن الفرقة هي الضلالة".
- وقال ابن مسعود "عليك بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به. ثم قبض يده وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة"[١٨١].

- وكتاب المراد الشرعي بالجماعة للدكتور صالح بن عبد الله العبود ص ٣٢.
- وكتاب الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة دراسة حديثية فقهية للدكتور حافظ بن محمد الحكمي.

١٨١ الاعتصام (٢ / ٧٧٠)



المسألة الثالثة: شرح قول المصنف رحمه الله تعالى: **"فمن رغب عن الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه[١٨٢]، وكان ضالًا مضلًا".**

أولاً: معنى الافتراق

أولا . تعريف الفرقة لغة وشرعا

أ–تعريف الفرقة لغة

١–أصل الكلمة: من مادة (ف ر ق).

- قال ابن فارس: الفاء والراء والقاف أُصَيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين[١٨٣]

٢–تصاريفها: الفرقة بالضم: مصدر الافتراق. وهو اسم يوضع موضع المصدر الحقيقي من الافتراق، وفارق الشيء مفارقة: باينه، والاسم: الفرقة. خلاف الجمع.[١٨٤] وتفرق تفرقاً وتِفِرَّاقاً: ضد التجمع، كافترق[١٨٥]

٣–معانيها: لهذه الكلمة استعمالات متنوعة في لغة العرب منها:

---

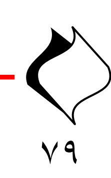
١٨٢ أخرجه أحمد (٥ / ١٨٠ رقم٢٥٦٠، ٢٥٦١، ٢٥٦٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه).

- وأبو داود في سننه (٤٧٥٨)، والحاكم (١ / ١١٧)، وصححه الألباني في ظلال الجنة» (٨٩٢).
- وأخرج أحمد (٤ / ١٣٠ رقم ١٧١٧٠، ٤ / ٢٠٢ رقم ١٧٨٠٠، ٥ / ٣٤٤ رقم ٢٢٩١٠) من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأنا أمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع...) الحديث.

١٨٣ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٤ / ٤٩٣ مادة (فرق).

١٨٤ اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ ومختار الصحاح ص ٥١٧ وتاج العروس مادة (فرق).

١٨٥ قاموس المحيط مادة (فرق).



الفرْق: خلاف الجمع. فرقه يفْرقُه فَرقاً، وفرّقه، وقيل: فَرَقَ للصلاح فَرْقًا، وفرَّق للإفساد تفريقا[١٨٦].

التفرق والافتراق سواء.

ومنهم من يجعل التفرّق للأبدان. والافتراق في الكلام. ويقال: فرَقت بين الكلامين فافترقا. وفرّقت بين الرجلين. فتفرّقا[١٨٧]

والتفرق: الانقسام والانشقاق والفَرْقُ: القِسْم، والجمع أفراق. ومنه قوله تعالى :﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾] البقرة: ٥٠ [معناه: شققناه .وقراءة (فرّقنا بكم البحر) بتشديد الراء، شاذة من ذلك، أي جعلناه فِرَقًا وأقساما[١٨٨].

المفارقة: المباينة، وفارق الشيء مفارقة وفراقا: باينه[١٨٩] .

والفرق: الفصل بين الشيئين[١٩٠]

الفرقة بالكسر: الطائفة من الناس جمع: فرق[١٩١].

والفرق: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرقة للجماعة المتفردة من الناس.[١٩٢]

وانفرق: انفصل[١٩٣]

والفَرَق: تباعد ما بين الثنيتين [١٩٤]

---

١٨٦ اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق).

١٨٧ اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق). وتاج العروس مادة فرق. ومفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة (فرق).

١٨٨ اللسان ج١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق).

١٨٩ اللسان مادة (فرق).

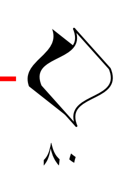
١٩٠ اللسان ج ١٠ / ٢٤٣ مادة (فرق).

١٩١ قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة (فرق).

١٩٢ قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة(فرق).

١٩٣ قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة (فرق).

١٩٤ تاج العروس مادة (فرق).



الفارق من الإبل: التي تفارق إلفها فتنتج وحدها. [١٩٥]

والفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين[١٩٦].

والتفريق: أصله: التكثير، ويقال ذلك في تشتيت الشمل والكلمة. نحو ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾] البقرة: ١٠٢ [وقوله: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾] طه:٩٤ [﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾]الأنعام:١٥٩ [وقرئ (فارقوا)[١٩٧].وفرّقه: تفريقًا وتفْرِقة: بدَّده، وأخذ حقه بالتفاريق[١٩٨].

والخلاصة: إذا جمعنا هذه المعاني نجد أنها متقاربة تدل على:

التفرق، والانقسام، والانشقاق والانفراد، والمباينة، والمفاصلة، والمقاطعة، والمفارقة، والانقطاع، والتشتت، والتباعد، والتنافر والخروج عن الحق وعن الجماعة واختيار الشذوذ.

تعريف التفرق في الاصطلاح:

والتفرق في الشرع يطلق على أمور منها:

١-التفرق في الدين: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾] آل عمران: ١٠٣[.وقوله:﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى ١٣] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: ((فإن الذي شرع لنا هو الذي وصى به الرسل وهو الأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه))[١٩٩] ومنه عن أبي هريرة،

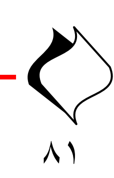
١٩٥ تاج العروس مادة(فرق).

١٩٦ مفردات ألفاظ القرآن مادة (فرق).

١٩٧ مفردات ألفاظ القرآن ص٦٣٣ مادة (فرق).

١٩٨ قاموس المحيط ص ٩١٨ مادة (فرق).

١٩٩ مجموع الفتاوى ج١ / ١٣.



قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢٠٠] وهو التفرق في الأصول، والخروج عن السنة.

٢-التفرق عن جماعة المسلمين، وهم عموم أمة الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة، وهم أهل السنة والجماعة ومن كان على هديهم بعد ظهور الافتراق فمن خالف سبيلهم في أمر يقتضي الخروج عن أصولهم في الاعتقاد أو الشذوذ عنهم في المناهج، أو الخروج على أئمتهم، أو استحلال السيف فيهم، فهو مفارق.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه[٢٠١]».

وقوله صلى الله عليه وسلم: « من فارق الجماعة وخرج من الطاعة فمات فميتته جاهلية، ومن خرج على أمتي بسيفه يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى مؤمنا لإيمانه، ولا يفي لذي عهد بعهده فليس من أمتي، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية، أو يدعو إلى عصبية فقتلته جاهلية.[٢٠٢]»

وفي لفظ مسلم: « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة».[٢٠٣]

وقد ذكر أصنافا من المفارقين الخارجين منهم:

١-المفارقون البغاة الخارجين عن طاعة السلطان.

٢-المفارقون الخارجون عن جماعة المسلمين.

٣-المفارقون المقاتلون للعصبية العمياء لقومه أو قبيلته أو أهل بلده أو حزبه.

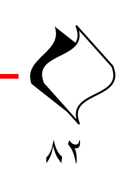
---

٢٠٠ أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٢١ / ٢) وقال الألباني حسن صحيح انظر صحيح ابن ماجه (٤٩١ / ٨).

٢٠١ تقدم تخريجه

٢٠٢ تقدم تخريجه.

٢٠٣ تقدم تخريجه.



٤-المفارقون المقاتلون لعداوة أو الرئاسة أو غرض الدنيا، وإما من الخارجين عن السنة، الذين يستحلون دماء أهل القبلة مطلقا كالخوارج الحرورية ونحوهم.[٢٠٤]

فظهر أن التفرق الذي يشمل هذه الأصناف المذكورة كلها التفرق في أصول الدين، والفرق والخروج عن جماعة المسلمين وإمامهم بالسيف ونحوه، وعن السنة، وعما كان عليه سلف الأمة من المنهج والسلوك.

بيان أنواع الاختلاف

الاختلاف الجائز:

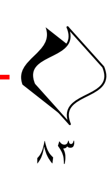
والمقصود بالاختلاف الجائز هنا هو الاختلاف الذي بين أهل الحق وأهل الباطل فإن شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-بعد استقرائه نصوص الكتاب قرر أن الاختلاف في الدين حسب وروده في القرآن على نوعين، منها ما هو جائز أو منه محمود وهو الاختلاف بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل التوحيد الخالص، وأهل الشرك والوثنية والكفر والنفاق، فهذا الاختلاف في حكم القرآن ممدوح فيه أهل الحق ومذموم فيه أهل الباطل، وتبين هذا النصوص الآتية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

((والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسمان:

أحدهما: هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين، وهم المؤمنون، وذم في الأخرى أي أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾] البقرة: (٢٥٣) [إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾] البقرة: (٢٥٣).[

٢٠٤ انظر: مجموع الفتاوى ج٢٧ / ٤٨٧، واقتضاء الصراط المستقيم ج١ / ٢٤٩، ٢٥٠. وكتاب دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ص٢١-٢٢. كتاب مهم في الباب.



فقوله تعالى:﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ﴾] البقرة: (٢٥٣)[حمد لإحدى الطائفتين–وهم المؤمنون–وذم الأخرى.

فهذا قد بين أنه اختلاف بين أهل الحق والباطل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾] الحج: ١٩ [إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾] الحج: ٢٣ [.

وقد ثبت في الصحيحين أنه نزلت في المقتتلين يوم بدر في حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب ابن عمه، وعبيدة بن الحارث ابن عمه، والمشركين الذين برّزهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة الذين بارزوهم من قريش[٢٠٥][٢٠٦] .

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾] الحج ١٧.[

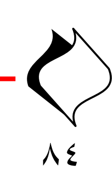
فقد تبين من هذا أن الاختلاف بين أهل الحق والباطل والمؤمنين والكافرين يحمد فيه المؤمنون الذين هم أهل الحق والصواب، ويذم فيه الكافرون الذين هم أهل الباطل والضلال المبين وهذا أمر شرعي ضروري لابد منه، ولأن بعضهم على الحق والبعض الآخر على الباطل والكفر والضلال.

وأن الاختلاف المطلق كله مذموم بخلاف المقيد الذي قيل فيه:﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾] البقرة: (٢٥٣).[

---

٢٠٥ صحيح البخاري مع الفتح ج ٧٣٤٦ ح (٣٩٦٥) كتاب المغازي باب قتل أبي جهل.

٢٠٦ منهاج السنة ج٥ / ٢٦٧، ٢٦٨، واقتضاء الصراط المستقيم ج١ / ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦. ومجموع الفتاوى ١٦ / ٥١٤، ٥١٦.



وكما يظهر من هذا أيضا أن الحق والضلال متباينان ومتضادان، وكذلك الشرك والتوحيد، والسنة والبدعة، وكذلك أهلها، وأن الحق واحد لا يتعدد والصراط مستقيم لا اعوجاج فيه وهو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من سلكه لا يزيغ أبدا.

الاختلاف المذموم

وهذا القسم الثاني الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من أنواع الاختلاف وبين أن أهله كلهم مذمومون لما فيه من جحد الحق وإحقاق الباطل ونصرته والإعراض عن الحق وهجره.

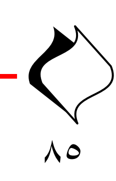
فقال –رحمه الله–في هذا النوع من الاختلاف: ((يذم فيه المختلفين كلهم والطائفتين جميعهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[هود: ١١٨. ١١٩] فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.

وكذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[البقرة:١٧٦]. وكذلك قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

وكذلك وصف اختلاف النصارى بقوله :﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤]

ووصف اختلاف اليهود بقوله:﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ ﴾ [المائدة:٦٤].

وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].



وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف أن الأمة: ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ قال: « كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة[٢٠٧]»، وفي الرواية الأخرى: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي[٢٠٨]».

فبين: أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين، إلا فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة.

وهذا الاختلاف المذموم من الطرفين يكون سببه:

١-تارة فساد النية: لما في النفوس من البغي والحسد، وإرادة العلو في الأرض، ونحو ذلك. فيحب لذلك ذم قول غيرها، أو فعله، أو غلبته ليتميز عليه، أو يحب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة، ونحو ذلك؛ لما في قيام قوله من حصول الشرف له والرئاسة، وما أكثر هذا من بني آدم. وهذا ظلم.

٢-ويكون سببه-تارة-جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم، أو في الدليل، وإن كان عالما بما مع نفسه من الحق حكما ودليلا.

والجهل والظلم، هما أصل كل شر، كما قال-سبحانه-: ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب ٧٢]"[٢٠٩].

أما أنواعه: فهو في الأصل قسمان:

اختلاف تنوع، واختلاف تضاد.

القسم الأول: اختلاف التنوع أي غير متضاد في المعنى:

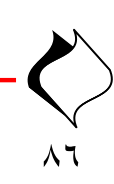
واختلاف التنوع على وجوه:

---

٢٠٧ تقدم تخريجه

٢٠٨ تقدم تخريجه

٢٠٩ اقتضاء الصراط ج٢ / ١٤٨



الوجه الأول منه: ما يكون كل واحد من القولين، أو الفعلين حقا مشروعا:

كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، حتى زجرهم عن الاختلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:» كلاكما محسن .[٢١٠]«ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، والتشهدات، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، وتكبيرات الجنازة، إلى غير ذلك مما قد شرع جميعه. وإن كان قد يقال: إن بعض أنواعه أفضل.

ثم نجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها، ونحو ذلك. وهذا عين المحرم. ومن لم يبلغ هذا المبلغ؛ فتجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر، أو النهي عنه–ما دخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثاني: ما يكون كل من القولين هو في معنى القول آخر، لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود، وصيغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، وتقسيم الأحكام، وغير ذلك.

ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى.

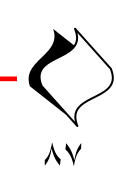
الوجه الثالث: ما يكون المعنيان غيرين، لكن يتنافيان: فهذا قول صحيح، وهذا قول صحيح، وإن لم يكن معنى أحدهما هو معنى الآخر، وهذا كثير في المنازعات جدا.

الوجه الرابع: ما يكون طريقتان مشروعتان، ورجل أو قوم قد سلكوا هذا الطريق، وآخرون قد سلكوا الأخرى وكلاهما حسن في الدين:

ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم إحداهما، أو تفضيلها بلا قصد صالح، أو بلا علم، أو بلا نية وعلم.

---

٢١٠ صحيح البخاري مع الفتح ج٥ / ٨٥ ح(٢٤١٠). كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة، والخصومة بين المسلم واليهودي.



والاختلاف–التنوع–كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد. لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك–إذا لم يحصل بغي–كما في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]

وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم وترك قوم آخرون، وكما في قوله:﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩.٧٨ .]

فخص سليمان بالفهم، وأثنى عليهما بالعلم والحكم.

وكما في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم، يوم بني قريظة لمن صلَّى العصر في وقتها، ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة.

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من هذا القسم، وكذلك آل إلى سفك الدماء، واستباحة الأموال، والعداوة والبغضاء؛ لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك))[٢١١].

ولهذا فسروا الاختلاف في الموضع بأنه كله مذموم.

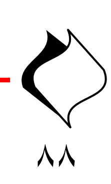
فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر، ويصدِّق بالباطل الذي معه، وهو تبديل ما بدّل[٢١٢].

القسم الثاني: اختلاف التضاد فهو: القولان المتنافيان: إما في الأصول، وإما في الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: ((المصيب واحد)) وإلا فمن قال: ((كل مجتهد

---

٢١١ اقتضاء الصراط المستقيم ج١ / ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، وانظر: منهاج السنة ج٥ / ٢٥٥ وما بعدها، ودرء تعارض العقل والنقل ج٥ / ٢٨٣ وما بعدها، ومجموع الفتاوى ج١٣ / ٥١٥.

٢١٢ منهاج السنة ج٥ / ٢٨٥.



مصيب)) فعنده: هو من باب اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد، فهذا الخطب فيه أشد؛ لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقا ما، فيرد الحق في الأصل هذا كله، حتى يبقى هذا مبطلا في البعض، كما كان الأول مبطلا في الأصل، كما رأيته لكثير من أهل السنة، في مسائل القدر والصفات والصحابة، وغيرهم.

وأما أهل البدعة: فالأمر فيهم ظاهر، وكما رأيته لكثير من الفقهاء، أو لأكثر المتأخرين في مسائل الفقه، وكذلك رأيت الاختلاف كثيرا بين بعض المتفقهة، وبعض المتصوفة، وبين فرق المتصوفة، ونظائره كثيرة[٢١٣].

اختلاف هذا الدين الإسلامي والأديان الأخرى هل هو اختلاف تنوع أم اختلاف تضاد؟

فهذا أيضا يحتاج إلى توضيح خاصة في هذا العصر الذي اختلط فيه الحق بالباطل من دعاة التقريب وتوحيد الأديان والفرق والمذاهب المتضادة القصد والغايات.

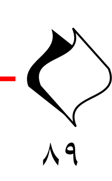
فإذا علم ما تقدم ذكره من اختلاف التضاد، فليعلم كذلك أن اختلاف الدين الإسلامي الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية المحرفة وغير ها اختلاف تضاد لا اختلاف تنوع، ولا يمكن الجمع بينه وبينها البتة، كما يظنه دعاة التقريب بين الأديان ووحدتها المعتمدين على الفكر والرأي.

وكذلك الحال في الاختلاف بين الشرك والتوحيد، وبين السنة والبدعة اختلاف تضاد وتباين وتغاير.

فعلى هذا يمكن القول بكل صراحة أنه لا يمكن التقريب بين الفرق المتعددة الاعتقادات ومتشتتة المشارب والمتفرقة إلا بإيثار الحق الذي جاء به النبي صلى الله

---

٢١٣ اقتضاء الصراط المستقيم ج٢ / ١٥١.



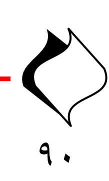
عليه وسلم على كل الآراء والأفكار والأهواء والكشوف والأذواق والمنامات المخالفة لهذا المصدر العظيم ولا يتضاد به غيره، بدعوى أن المقصود واحد وإن تعددت الطرق والمسالك والأصول، فإن الأمة واحدة وربهم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح هذه المسألة المهمة وبيان تضاد الحق الباطل: ((إنه إذا كان لا دين أحسن من هذا فالغير إما أن يكون مثله أو دونه، ولا يجوز أن يكون مثله؛ لأن الدين إذا ماثل الدين وساواه في جميع الوجوه كان هو إياه، وإن تعدد الغير لكن النوع واحد فلا يجوز أن يقع التماثل والتساوي بين الدينين المختلفين، فإن اختلافهما يمنع تماثلهما؛ إذ الاختلاف ضد التماثل، فكيف يكونان مختلفين متماثلين؟ واختلافهما اختلاف تضاد لا تنوع؛ فإن أحد الدينين يعتقد فيه أمور على أنها حق واجب، والآخر يقول إنها باطل محرم.

فمن المحال استواء هذين الاعتقادين.

وكذلك القصدان، فإن هذا يقصد المعبود بأنواع من المقاصد والأعمال والآخر يقصده بما يضاد ذلك وينافيه، وليس كذلك تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم؛ فإن دينهم واحد، كل منهم يعتقد ما يعتقده الآخر، ويعبده بالدين الذي يعبده ويسوغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع فلم يختلفا؛ بل نقول أبلغ من هذا إن القدر الذي يتنازع فيه المسلمون من الفروع لابد أن يكون أحدهما أحسن عند الله فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء الموافقين لسلف الأمة على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل، فذاك الصواب هو أحسن عند الله، وإن كان أحدهما يقر الآخر، فالإقرار عليه لا يمنع أن يكون مفضولاً مرجوحا، وإنما يمنع أن يكون محرمًا.

وإذا كان هذا في دق الفروع فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد، وإنما تنازعوا في المخطئ هل يغفر له أولا يغفر، وهل يكون مصيبا بمعنى أداء الواجب؟ وسقوط اللوم



لا بمعنى صحة الاعتقاد؟ فإن هذا لا يقوله عاقل أن الاعتقادين المتناقضين من كل وجه يكون كل منهما صوابا))[٢١٤].

إلى أن قال: ((وإذا ثبت أن الدينين المختلفين لا يمكن تماثلهما لم يحتج إلى نفي هذا في اللفظ لانتفائه بالعقل))[٢١٥]

إلى أن قال: ((وأما تفضيل الأشخاص فقد لا يحتاج إليه في كل وقت، فالدين الواجب لابد من تفضيله؛ إذا الفضل يدخل في الوجوب، وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى.

وأما الدين المستحب: فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع له فعل ذلك المستحب، وإلا فمن الناس من يضره إذا سلك سبيلاً من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره أفضل منها؛ لأنه يتشوف إلى الأفضل فلا يقدر عليه، والمفضول يعرض عنه))[٢١٦]

إلى أن قال: ((﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

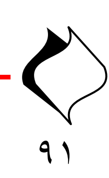
ولكن كتاب الله هو حاكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه ومبين وجه الحكم؛ فإنه بين بهذه الآية وجه التفضيل بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] وبقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[النساء: ١٢٥] فإن الأول بيان نيته وقصده، ومعبوده وإلهه، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فانتفى بالنص نفي ما هو أحسن منه، وبالعقل ما هو مثله، فثبت أنه أحسن الأديان.

---

٢١٤ بتصرف انظر مجموع الفتاوى (١٤ / ٤٣٠).

٢١٥ مجموع الفتاوى ج١٤ / ٤٣٠، ٤٣١.

٢١٦ مجموع الفتاوى ج١٤ / ٤٣٢.



أن النزاع كان بين الأمتين أي الدينين أفضل؟ فلم يقل لهما إن الدينين سواء، ولا نهوا عن تفضيل أحدهما؛ لكن حسمت مادة الفخر والخيلاء والغرور الذي يحصل من تفضيل أحد الدينين؛ فإن الإنسان إذا استشعر فضل نفسه أو فضل دينه يدعوه ذلك إلى الكبر والخيلاء والفخر؛ فقيل للجميع: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] سواء كان دينه فاضلا أو مفضولاً؛ فإن النهي عن السيئات والجزاء عليها واقع لا محالة قال تعالى:﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١] إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات: ٦]

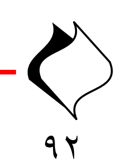
فلما استشعر المؤمنون أنهم مجزيون على السيئات ولا يغنى عنهم فضل دينهم وفسر لهم النبي صلى الله عليه و سلم أن الجزاء قد يكون في الدنيا بالمصائب، بَيَّن بَعْدَ ذلك فساد دين الكفار من المشركين وأهل الكتاب بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤] الآية.

فبين أن العمل الصالح إنما يقع الجزاء عليه في الآخرة مع الإيمان، وإن كان قد يجزى به صاحبه في الدنيا بلا إيمان، فوقع الرد على الكفار من جهة جزائهم بالسيئات، ومن جهة أن حسناتهم لا يدخلون بها الجنة إلا مع الإيمان، ثم بين بعد هذا فضل الدين الإسلامي الحنفي بقوله:﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ [النساء: ١٢٥] فجاء الكلام في غاية الإحكام))[٢١٧].

ومن تدبر هذا يجد أنه كثيرا ما يقع الخلط بين الحق والباطل إما جهلا أو ظلما وعلوا خاصة عند دعاة المساواة أو التقريب أو التوحيد بين المتضادين كإقرار جميع الاعتقادات بمختلف مشاربها، فإن هذا الأمر محال عقلا وشرعاً.

---

[٢١٧] مجموع الفتاوى ج١٤ / ٤٣٥، ٤٣٦.



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[٣] "والأساس الذي تبنى عليه الجماعة، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم فقد ضل وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار[٢١٨].

وقال عمر بن الخطاب رحمه الله: "لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، فقد بينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر"[٢١٩].

وذلك أن السنة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله، وتبين للناس، فعلى الناس الإتباع."

الشرح

من السنة لزوم الجماعة، وجاء المصنف إلى المحك لأن أهل البدع نوعان:

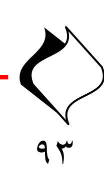
- نوع يزعم أن له متمسك في النصوص.
- ونوع لا يزعم بل هو لا يرضى بالنصوص.

---

٢١٨ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أصدق الحديث: كتاب الله، وأحسن الهدي: هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار...) الحديث أخرجه مسلم (٨٦٧)، والنسائي (١٥٧٨) وغيرهما، وهذا لفظ النسائي.

٢١٩ أخرجه عمر بن شبة في أخبار المدينة» (٢ / ١٢)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى، (١٦٢) من طريق الأوزاعي، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهو منقطع بين الأوزاعي وعمر بن الخطاب، وذكر هذا القول عمر بن عبد العزيز عن عمر بن الخطاب كما في حلية الأولياء» (٦ / ٣٤٦)

وأخرجه المروزي في السنة» (ص ٣١ رقم ٩٥) من طريق الأوزاعي، قال قال عمر بن عبد العزيز... فذكره بنحوه. ونقل المزي في تهذيب الكمال» (١٧ / ٣١٥) أن الأوزاعي قال: كنت محتلماً في خلافة عمر بن عبد العزيز».



فإذا جئت للخوارج أو جئت للتشيع أو جئت للقدرية أو جئت للمرجئة، كل واحد من هؤلاء يزعم أنه له متمسك بالنصوص لكن وفق فهمه وهواه، ووفق رأيه هو، فعلى هذا الأساس انطلق من هذا الفهم لما يراه من رأي في هذا الأمر.

فالناسُ يمكنُ تقسيمهم من حيث مرجعيتهم وأصول التلقي لديهم إلى ثلاثةِ أقسام:

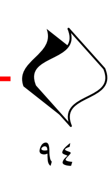
- فهناك أهل الحق الذين تمسكوا بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة.
- هناك طوائف مالوا إلى ما يسمونه–زوراً وبهتاناً–مناهج عقلية، وهي في الحقيقةِ أوهامٌ وخيالات.
- وهناك طوائف مالوا إلى مناهجَ باطنية اعتمدت على ما يسمَّى بتقديس الأشخاص.

فالصراعُ والاختلافُ قائمٌ كما مرَّ معنا في ذكرِ النصوص الواردة في هذا والافتراقُ لابد منه، فلابد أن يتبَّصَّر الإنسان في هذا الأمر وأن يعرفَ أين يضع قدمه في هذا الباب؛ أي في باب التأصيل لأنه من هذا المنطلق تتحدد معالمُ الاختلاف والافتراق الواقع في هذه الأمة.

وكان فهم أهل السنة في مقابل هؤلاء ففهمهم ينطلق من الجماعة، الذين هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بافتراق هذه الأمة وقال: «افترقت اليهود، وافترقت النصارى، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فعندما سئل من؟ قال: الجماعة، وفي رواية أخرى قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي ».[٢٢٠]

فإذًا هذا المحك والفارق بين صاحب السنة وبين أهل هذا النوع من أهل البدع، فالمتمسك عند السني في الفهم هو الفهم الذي كان عليه أولئك، فإذا كان الخلفاء

٢٢٠ انظر: مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك، حديث رقم (١٢٢٤٢)، قال الشيخ الألباني حديث صحيح، كتاب السلسلة الصحيحة الصفحة أو الرقم ١٤٩٢ / ٤٩٠.



الراشدون، والمبشرون بالجنة، والذين رضي الله تعالى عنهم لم يكن فهمه الفهم الصحيح فمن سيكون فهمه صحيحًا؟!

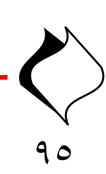
وهذه التزكية إنما هي من قبل الله، وقبل رسوله صلى الله عليه وسلم. فالجماعة هم أصحاب النبي، فقال المصف :**"والأساس الذي تبنى عليه الجماعة وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورحمهم أجمعين"**، والمصنف ينطلق في هذا الفهم وبهذا التعبير بلفظ "الجماعة" من نصوص الكتاب والسنة، فالله تعالى زكى الصحابة في كتابه فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾[التوبة:١٠٠] انظر هذا القيد، وهذا الشرط ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠] .فالله تعالى في هذه الآية أخبر بأنه رضي رضاء مطلقًا بدون قيد عن هؤلاء السابقين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي عنا بقيد وهو إتباعهم، وكما قال في الآية الأخرى :﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

فإذا لم يكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يصدق عليهم وصف الإيمان، فعلى من يصدق وصف الإيمان؟ فإذا لم يكن هؤلاء الذين قاموا بنصرة الإسلام، والقيام بشأنه ونشره شرقًا وغربًا هم أهل الإيمان، فمن يكون أهل الإيمان بعد ذلك؟!

ولذلك خير هذه الأمة بعد نبيها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال:

"فمن السنة لزوم الجماعة، فمن رغب عن الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكان ضالًا مضلًا "

قال ابن القيم: "قَالَ الشَّافِعِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ–فِي رِسَالَتِهِ الْبَغْدَادِيَّةِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ: وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَصْحَابِ "رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِي الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَسَبَقَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–مِنْ الْفَضْلِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ، فَرَحِمَهُمْ اللَّهُ وَهَنَّأَهُمْ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِبُلُوغِ أَعْلَى مَنَازِلِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، أَدَّوْا إلَيْنَا سُنَنَ



رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَشَاهَدُوهُ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فَعَلِمُوا مَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–عَامًّا وَخَاصًّا وَعَزْمًا وَإِرْشَادًا، وَعَرَفُوا مِنْ سُنَّتِهِ مَا عَرَفْنَا وَجَهْلِنَا، وَهُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ عِلْمٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ وَعَقْلٍ وَأَمْرٍ اُسْتُدْرِكَ بِهِ عِلْمٌ وَاسْتُنْبِطَ بِهِ، وَآرَاؤُهُمْ لَنَا أَحْمَدُ، وَأَوْلَى بِنَا مِنْ رَأْيِنَا عِنْدَ أَنْفُسِنَا، وَمَنْ أَدْرَكْنَا مِمَّنْ يَرْضَى أَوْ حُكِيَ لَنَا عَنْهُ بِبَلَدِنَا صَارُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا لِرَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِيهِ سُنَّةً إِلَى قَوْلِهِمْ إِنْ اجْتَمَعُوا، أَوْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ إِنْ تَفَرَّقُوا، وَهَكَذَا نَقُولُ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ أَقَاوِيلِهِمْ، وَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ وَلَمْ يُخَالِفْهُ غَيْرُهُ أَخَذْنَا بِقَوْلِهِ "وَلَمَّا كَانَ رَأْيُ الصَّحَابَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ قَالَ فِي الْجَدِيدِ فِي كِتَابِ الْفَرَائِضِ فِي مِيرَاثِ الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ: وَهَذَا مَذْهَبٌ تَلَقَّيْنَاهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَعَنْهُ أَخَذْنَا أَكْثَرَ الْفَرَائِضِ وَقَالَ: وَالْقِيَاسُ عِنْدِي قَتْلُ الرَّاهِبِ لَوْلَا مَا جَاءَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، فَتَرْكُ صَرِيحِ الْقِيَاسِ لِقَوْلِ الصِّدِّيقِ، وَقَالَ فِي رِوَايَةِ الرَّبِيعِ عَنْهُ: وَالْبِدْعَةُ مَا خَالَفَ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً أَوْ أَثَرًا عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَجَعَلَ مَا خَالَفَ قَوْلَ الصَّحَابِيِّ بِدْعَةً، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِشْبَاعُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَذِكْرُ نُصُوصِ الشَّافِعِيِّ عِنْدَ ذِكْرِ تَحْرِيمِ الْفَتْوَى بِخِلَافِ مَا أَفْتَى بِهِ الصَّحَابَةُ، وَوُجُوبُ اتِّبَاعِهِمْ فِي فَتَاوِيهِمْ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ جُمْلَةِ أَقْوَالِهِمْ، وَأَنَّ الْأَئِمَّةَ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ.

[لَيْسَ مِثْلَ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ]

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ لَا يُسَاوِيهِمْ فِي رَأْيِهِمْ، وَكَيْفَ يُسَاوِيهِمْ وَقَدْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَرَى الرَّأْيَ فَيَنْزِلُ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ؟ كَمَا رَأَى عُمَرُ فِي أُسَارَى بَدْرٍ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، وَرَأَى أَنْ تُحَجَّبَ نِسَاءُ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، وَرَأَى أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ؛ وَقَالَ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لَمَّا اجْتَمَعْنَ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ} [التحريم: ٥] فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ، «وَلَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لِيُصَلِّيَ

عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: ٨٤] ».

«وَقَدْ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لَمَّا حَكَّمَهُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فِي بَنِي قُرَيْظَةَ: إِنِّي أَرَى أَنْ تُقْتَلَ "مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذُرِّيَّاتُهُمْ، وَتُغْنَمَ أَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لَقَدْ حَكَمْت فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ».

وَلَمَّا اخْتَلَفُوا إلَى ابْنِ مَسْعُودٍ شَهْرًا فِي الْمُفَوَّضَةِ قَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاَللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنْهُ، أَرَى أَنَّ لَهَا مَهْرَ نِسَائِهَا لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، فَقَامَ نَاسٌ مِنْ أَشْجَعَ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–قَضَى فِي امْرَأَةٍ مِنَّا يُقَالُ لَهَا بِرْوَعَ بِنْتُ وَاشِقٍ مِثْلَ مَا قَضَيْت بِهِ، فَمَا فَرِحَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُ بِذَلِكَ.

وَحَقِيقٌ بِمَنْ كَانَتْ آرَاؤُهُمْ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَكُونَ رَأْيُهُمْ لَنَا خَيْرًا مِنْ رَأْيِنَا لِأَنْفُسِنَا، وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الرَّأْيُ الصَّادِرُ مِنْ قُلُوبٍ مُمْتَلِئَةٍ نُورًا وَإِيمَانًا وَحِكْمَةً وَعِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَفَهْمًا عَنْ اللَّهِ "وَرَسُولِهِ وَنَصِيحَةً لِلْأُمَّةِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِمْ، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَهُمْ يَنْقُلُونَ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ غَضًّا طَرِيًّا لَمْ يَشُبْهُ إشْكَالٌ، وَلَمْ يَشُبْهُ خِلَافٌ، وَلَمْ تُدَنِّسْهُ مُعَارَضَةٌ، فَقِيَاسُ رَأْيِ غَيْرِهِمْ بِآرَائِهِمْ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ"[٢٢١]

قال ابن تيمية: كان الزُّهْرِيُّ يَقُولُ":كَانَ عُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ هُوَ النَّجَاةُ"[٢٢٢]

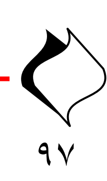
وَقَالَ مَالِكٌ "السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ"[٢٢٣] .

---

٢٢١ إعلام الموقعين ١ / ٦٤.

٢٢٢ مجموع الفتاوى (٤/ ٥٧).

٢٢٣ ذم الكلام للهروي (٥/ ٨١) وانظر مجموع الفتاوى (٤/ ٥٧).



وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالشَّرِيعَةَ وَالْمِنْهَاجَ: هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوَصِّلُ الْعِبَادَ إِلَى اللَّهِ. وَالرَّسُولُ: هُوَ الدَّلِيلُ الْهَادِي الْخِرِّيتُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى :﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب ٤٥] . وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى ٥٢،٥٣] وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام ١٥٣]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ:» هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ«، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: » هَذِهِ سُبُلٌ- قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ-عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ .«ثُمَّ قَرَأَ :﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام ١٥٣] "[٢٢٤][٢٢٥]

والجماعة هي من جمعت أربع خصال:

١-الإجماع.

٢-عدم الفرقة.

٣-المنهج المتبع.

٤-القدوة.

والطائفة الناجية قد توفرت فيها هذه الأمور، فهي مجتمعة على الحق المدلول عليه بنصوص الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وهي غير متفرقة لاعتقادها لزوم الاجتماع على إمام، وهي ذات منهج واضح المعالم محدد الغاية، وقدوتهم هم أفضل وخيار هذه الأمة؛ وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان ممن رفع الله مقامهم

---

٢٢٤ أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٤١٤٢) (٧/ ٢٠٧) وقال الألباني صحيح انظر، السنة لابن أبي عاصم (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني) (١/ ١٣)

٢٢٥ مجموع الفتاوى٤ / ٥٦-٥٧

وأعلى قدرهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[التوبة:١٠٠].

وقال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». [٢٢٦]

وقال عنهم لما سئل من هي يا رسول الله؟ قال: « ما أنا عليه وأصحابي[٢٢٧]»

وكل هذا يؤول إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي«. وفي رواية: »هي الجماعة[٢٢٨]».

وهذا الحال الذي كان عليه أهل البدع، فلو نظرت إلى بدعة الخوارج، فبدعة الخوارج قامت على أصلين خطيرين:

-أولهما: الطعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وبالتالي حاولوا إخراج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام.

-وثانيهما: الطعن في الحكام.

فبدعة الخوارج قامت على هذين الأصلين: الطعن في العلماء، والطعن في الحكام.

ولذلك أهل البدع الذين يسلكون مثل هذا المسلك دائمًا يتبعونهم في هذين الأصلين، وهو الطعن في العلماء، والطعن في ولاة الأمر. فإذا لم تكن أمة من الأمم تقوم في كل أمرها على هذين الأمرين فلا قيام لها، فالله تعالى قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء:٥٩]، وقال العلماء في أولي الأمر: أنهم العلماء والحكام(٢٢٩)، فقام هؤلاء في الطعن في هذا الأصل. فإن الذي يخلع عن الجماعة فإنما في الحقيقة يخلع ربقة الإسلام، يخلع شعار هذا الدين، وشعار هذا

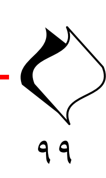
---

٢٢٦ تقدم تخريجه.

٢٢٧ تقدم تخريجه.

٢٢٨ تقدم تخريجه.

٢٢٩ أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١ / ٢٥٧) وصححه الألباني في صفة الفتوى والمفتي والمستفتي(٥٤)



الإسلام. فالأساس الذي تبنى عليه الجماعة هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، رضي الله عنهم ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ» (٢٣٠)فأمرنا بلزومها والتمسك بها.

وحذرنا ((وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))٢٣١ و(كل) من ألفاظ العموم، كل بدعة ضلالة، فهل تريد لزوم الحق أو لزوم الضلال، فماذا بعد الهدى إلا الضلال! فهذا عمر كما جاء في الأثر عنه: "لا عذر لأحد في ضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة" لأن الأمور قد بينت والنبي صلى الله عليه وسلم أوضح لنا الطريق، وأقام علينا الحجة، فلا حجة لمحتج، الحق بين واضح وما على الإنسان إلا أن يسلكه، وأن يسير عليه.

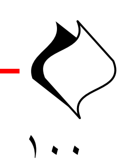
وأهل البدع قد يكون سبب بدعهم كثيرة، فهناك الجهل، وهناك اتباع الهوى، وهناك أسباب أخرى من أسباب البدع لكن لا عذر لأولئك لأن هذا الدين في غاية من الوضوح، وفي غاية من البيان، فلذلك السنة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله، فإذا لزمت الجماعة فأنت على السنة.

وفي هذه المقدمة بين المصنف أن مصدر التلقي واضح وهو كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يتأتى إلا وفق فهم السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين.

---

٢٣٠ انظر: سنن أبي داود أول كتاب السنة، باب: في لزوم السُنة، رقم (٤٦٠٧) وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في كتاب السلسلة الصحيحة، الصفحة / الرقم: ٦١٠، ٩٣٧.

٢٣١ تقدم تخريجه.



(المتن)

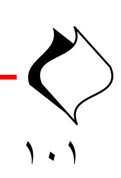
قال المصنف–رحمه الله–:

[٤] "واعلم–رحمك الله–أن الدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وعلمه عند الله وعند رسوله، فلا تتبع شيئاً بهواك، فتمرق من الدين، فتخرج من الإسلام، فإنه لا حجة لك، فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته السنة، وأوضحها لأصحابه وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، والسواد الأعظم: الحق وأهله، فمن خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من أمر الدين فقد كفر".

الشرح

قول المصنف رحمه الله تعالى: **"واعلم–رحمك الله–أن الدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم"** علمنا أن مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة إنما هو كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن فهم ذلك إنما يكون على ضوء فهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والتابعين، وتابعي التابعين، فهذه هي أسس أهل السنة والجماعة كما هو معلوم.

وهذه الأسس إذا تأملت فيها وجدت أن موقف أهل السنة من العقل ليس موقف التهميش والإلغاء التام، وليس موقف التقديس ورفع العقل فوق مقامه، ومكانه، ومنزلته؛ فأهل السنة عُرف عنهم الوسطية، والله تعالى قد قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣]. فمن وسطية أهل السنة وسطيتهم في شأن العقل، فلا يمكن أن نقدم عقولنا وآراءنا على كلام الله ورسوله، وكذلك لا يمكن أن نلغي العقل تمامًا، فما هو موقف أهل السنة ابتداء من العقل؟



كما قلنا: أن الله تعالى ركب في هذا الإنسان قوتان:

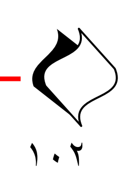
-قوة الإرادة والعمل.

-وقوة الفكر والنظر.

فالله أودع فينا هاتان القوتان، والعقل الذي هو الفكر والنظر قوة أودعها الله تعالى في نفس الإنسان، وهذه القوة شأنها كشأن أي قوة في البدن، فعلى سبيل المثال قوة النظر والرؤية، فالعين فيها قوة الإبصار، وهذا الدماغ فيه قوة الفكر والتفكير، فقوة الإبصار قوة في العين لكن كما نعلم أن هذه القوة تتعطل في حال غياب الضوء، فإذا كنت في مكان مظلم ومغلق لن تبصر بعينك شيئًا، لأن هذه القوة بحاجة إلى الضوء حتى تبصر الأشياء على حقيقتها، كذلك العقل قوة الفكر والنظر لكنه في قضايا الغيب وفي قضايا الشرع هو بحاجة إلى ضوء ونور، وهذا الضوء والنور هكذا سماه الله تعالى في كتابه في شأن وحيه عز وجل. والله عز وجل قد قال لنا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]، فعقولنا في جانب شرع الله عز وجل هي بحاجة إلى هذا النور، وإلى هذا الوحي لكي نستطيع من خلال هذا الوحي والنور أن نعرف ما يجب علينا في حق الله عز وجل، ما يجب علينا في حق ملائكته، في حق كتبه، في حق رسله، في حق اليوم الآخر، في حق القدر خيره وشره، وفي حق جميع الأمور التي أوجبها الله تعالى علينا وتعبدنا بها.

فهذا هو موقف أهل السنة؛ أن العقل قوة في التفكير والنظر لكنه في قضايا الشرع بحاجة إلى نور، هذا النور هو الوحي الذي أنزله الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. فمن هنا على الإنسان أن يعلم أمور دينه من خلال وحي الله عز وجل، والله عز وجل قد أكمل جميع جوانب الدين وبالتالي قال المصنف هنا :

وقول المصنف: **"واعلم أن الدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وعلمه عند الله وعند رسوله، فلا تتبع شيئاً بهواك".**



بينما أمور الدنيا الأخرى يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة في شأن تأبير النخل: ((أنتم أعلم بأمور دنياكم))[٢٣٢] ، أما أمر الدين فيؤخذ من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، فعلى هذا يقف أهل السنة هذا الموقف من العقل فلم يعطلوه، ولم يلغوه تمامًا، فهو قوة إدراك وفهم الأمور، لكن هذه القوة يجب أن نستنير بنور الوحي في بيان ما أوجبه الله تعالى، وما أخبر الله تعالى به.

فعند ذلك نسخر هذه القوة علمًا في تعلم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على وفق ما كان عليه سلف هذه الأمة، فهذه هي النظرة المعتدلة للعقل.

وإذا عرفنا ما عند الآخرين عرفنا نعمة الله علينا، فالذين خالفوا الحق في هذا على أحد جانبين:

-إما أناس رفعوا شأن العقل فوق كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وقدسوه، وأعطوه من المنزلة ما ليست له.

-وأما أناس ألغوا العقل تمامًا، وهمشوه، ونحوه تمامًا.

فالقسم الأول: قدس العقل ورفع من شأنه، ومن منزلته، بل إنه يقول: إن العقل يستحيل أن يرد، ويستحيل أن يكذب، فيقول قائلهم:

"كل ما دل العقل فيه على أحد الجانبين." يقصد بأحد الجانبين إما الجواز وإما المنع، فليس للتّعارض فيه مجال، "إذ الأدلة العقلية يستحل نسخها وتكاذبها"، يعني لا يمكن أن يتطرّق إليها الشكّ، فهي قطعيّة ولا تقبل النّسخ ولا تقبل ماذا؟ ولا تقبل التكذيب، يعني أيوجد تقديس أكثر من هذا؟!

"فإن ورد دليل سمعي على خلاف العقل، فإما ألا يكون متواترًا فيعلم أنه غير صحيح." فإما ألاَّ يكون متواترًا، ما النتيجة؟ ما مؤدّاها؟ ردّ أحاديث الآحاد كلّها، هذا موقفهم من سنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه، فحتى وإن جاء في

---

[٢٣٢] انظر صحيح مسلم كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا، دُونَ مَا ذَكَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا، عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ، برقم (٢٣٦٣)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٢٥٤٤).

الصحيحين، ما دام خبر آحاد فإنه غير صحيح غير عنده، لأنه يقول: "فإما ألا يكون متواترًا فيعلم أنه غير صحيح."

"إذ الأدلة العقلية يستحيل نسخها وتكاذبها[٢٣٣]"، "فإذا ورد دليل من السمع" الذي هو قال الله، وقال رسوله بخلاف العقل، "فإما أن لا يكون متواترًا" فهذا مردود يعني أخبار الآحاد.

وأعلم أن أخبار الآحاد في النصوص هي الأغلب والأكثر، فهذا عندهم يضرب به عرض الحائط. وإما أن يكون متواترًا فيقول: يجب أن يؤول، لأنه خالف العقل، والعقل آراء الرجال، فأعطي العقل عندهم هذه القدسية، وإذا سألت: عقل من نتبع؟ عقل هذا؟ أو ذاك؟ أو ذاك؟

فالناس لهم عقول مختلفة وآراء مختلفة، هذا مأخوذ عندهم من الأصل الفلسفي، وهذا الأصل الفلسفي هو الذي تصير عليه الحضارة المادية اليوم، فالحضارة المادية اليوم تقوم على أصل فلسفي منذ القدم، هذا الأصل الفلسفي يقوم على أمرين:

المبدأ الأول: أن مصدر العلوم هو الإنسان أي عقل الإنسان، وهذا المبدأ يهدم الوحي، فلا قيمة عندهم لوحي، يرون أن مصدر العلم أو العلوم هو عقل الإنسان.

والمبدأ الثاني: عندهم أن العلوم تنحصر في المحسوس المشاهد، فيبقى أي غيب لا قيمة له.

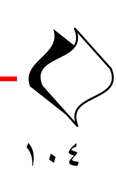
وعلى هذا قامت الفلسفة، وعلى هذا تسير الحضارة المادية اليوم، فهب تقوم على هذين المبدأين.

والمبدأ الأول هدم للوحي.

والمبدأ الثاني هدم للغيب وأعظم الغيب هو الله سبحانه وتعالى، فمعنى هذا لا إيمان بالله عز وجل، ولا جنة، ولا بنار، ولا... إلى آخره.

---

٢٣٣ انظر المستصفى للغزالي صفحة (٢٥٢).



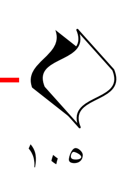
على هذين المبدأين تقوم الفلسفة، فمن قدس العقل انطلق من المنطلق الأول أن أصل العلم، ومصدر العلم، ومنبع العلم عنده هو عقل الإنسان، ويا ترى هذا الإنسان ما حجم عقله؟ والله لن يحيط علمًا بما وراء هذا الجدار، بل أقرب شيء إليه وهو بين جنبيه لما أخفى الله حقيقته عنه لم ولن يستطيع أن يصل إليه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء:٨٥] هذا اختبار بسيط ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

فهذا الذي يكابر، ويخادع، ويقول: مصدر العلم هو الإنسان، فهذه الروح بين جنبيه بيه ولا تستطيع أن ينكرها، ومع ذلك لا سبيل لك إلى معرفة حقيقتها وكنهها. فكيف سيحيط علمًا برب العالمين؟ وكيف سيحيط علمًا باليوم الآخر؟ وكيف يحيط علمًا بعذاب القبر وغير ذلك؟

فالمبدأ مرفوض لكن هؤلاء سار من سار على نهجهم من أهل الفلسفة، وأهل الكلام، وبنوا مقدمات عقلية، وأخضعوا الدين لها، فإذا جاء من كلام الله وكلام رسوله ما يخالف ما عندهم، طعنوا في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وألغوا قيمة الوحي، وجعلوه أمرًا مهمشًا. فهذا الذي يقول: "إذ الأدلة العقلية يستحيل نسخها وتكاذبها"، قدس آراء الرجال قدمها على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم فهل هذا يقبله إنسان يؤمن بالله عز وجل ويؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم؟

ولذلك كتب هؤلاء-للأسف الشديد-إذا ما قرأتها في هذه الأبواب، لن تجد فيها قال الله، ولا قال رسوله، وإنما ستجد قال العقلاء، قال الفضلاء، قال الحكماء، ومن العقلاء؟ ومن الفضلاء؟ ومن الحكماء؟

أرسطو، وأفلاطون، وإرسطاليس وهلم جرا، أناس ما عرفوا الله ورسوله فكيف نبني ديننا عليهم! لكن هذه حقيقة ماثلة واقعة أن كتب أولئك الناس امتلأت بهذه



الفلسفات، وخلت من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. فقدموا آراء الرجال، وقدموا عقولهم على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

والقسم الثاني: ألغى العقل تمامًا، فمدح الجنون، والوله، ومدح أحوالاً هي أبعد ما تكون من العقل، وعندما ترى أحوال أولئك تقول: إن المجانين أخف حالاً من حال هؤلاء، فبعض من أهل التصوف وأمثالهم ألغوا العقل، ومن رأوه مجنونًا وسموه ووصفوه بالولاية، وأنه ولي من أولياء الله، وأنه في حال فقد الإنسان لعقله، وفي حال سكره ووله ووجده ويسمون ذلك الوجد أو الذوق وهذه الأحوال أنها أعلى المقامات.

فأنت بين هؤلاء وبين هؤلاء، وبين منهج أهل الحق الذي بحمد الله تعالى جعل هذا العقل آلة للفهم، لم يهمشه، ولم يلغه، ولم يرفعه فوق قدره، وإنما ربطه بالوحي.

وبالتالي نجد أن أهل السنة بحمد الله تعالى كما قال عنهم بعضهم: أعرف الناس بالحق، ونجد أن صاحب السنة في خضوعه، وفي عبوديته، إنما هو عبد لله عز وجل، وليس عبدًا الرجال، ولا عبدًا لأهواء الرجال، فهو متحرر من هذه القيود الباطلة والفاسدة، ولم يرتبط إلا بعبودية الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

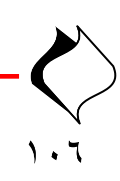
فإذًا نحن أمام دين جاء من عند الله عز وجل، ولم يوضع من عقول الرجال، وكما قال علي رضي الله عنه :"لو كان هذا الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه"[٢٣٤].

دين نتعبد الله عز وجل به، فأمرنا بأن نمسح على ظاهر الخف ولم يأمرنا بأن نمسح على أسفله. فعلى هذا نعلم مدى وسطية أهل السنة في هذا الباب.

وعلينا أن نأخذ دين الله عز وجل من كلام الله وكلام رسوله، ووفق فهم سلف هذه الأمة كما أمرنا الله عز وجل، وأمرنا نبيه صلى الله عليه وسلم أن تتبع سبيلهم، وأن نسير على نهجهم.

---

٢٣٤ انظر سنن أبي داود (١٦٢)، والدارمي (٧٤٢)، والإمام أحمد في المسند مسند الخلفاء الراشدين (١٢٦٤)، قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (١٦٣): صحيح.



ولو قال قائل كلامًا يخالف كلام الله، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فما علينا إلا أن تضرب به عرض الحائط، لأنه خالف قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وخالف ما كان عليه السلف الصالح.

فبهذا نرتبط فكرًا، وإرادة وشعورًا، فارتباطنا بالواحد الأحد حبًا، وخوفًا، ورجاء، وتوكلاً، وإخلاصًا، وإنابة، فلا نرتبط بشخص فلان من الناس، بل حتى إذا أحببنا فحبنا تبع لحب الله عز وجل، بل إذا أبغضنا يكون هذا البغض تبعًا لبغض الله عز وجل: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا هو، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى أو يقذف في النار[٢٣٥])).

فارتباط المؤمن فكرًا وإرادة بالواحد الأحد سبحانه وتعالى، وبوحيه المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم. فإذا سار على هذا النهج تخلص من أوهام وقيود أهل الباطل، فأصبح بعد ذلك لا يخضع لبشر من البشر، وإنما خضوعه وعبوديته لله عز وجل وحده.

وهذا لا يجد متعته إلا صاحب السنة، أما أصحاب البدع فتجدهم إما قد تعلقت عقولهم بآراء الرجال، أو تعلقت مشاعرهم بأهواء الرجال، فانحرف أولئك عن هذا الطريق.

ولذلك تجد عند أهل الباطل أن عامتهم كقطيع الغنم في غاية الجهل بدين الله عز وجل، وهذا الجهل يجعلهم أتباعًا وأذلة عند شيوخهم وعند ساداتهم، فملكوهم عقولهم، بل وملكوهم أموالهم، بل وملكوهم أعراضهم، بل وملكوهم دينهم، فأصبحوا مسلوبين في كل هذه الأمور.

---

٢٣٥ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ حَلاَوَةِ الإِيمَانِ برقم (١٦)، ومسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَيَانِ خِصَالٍ مَنِ اتَّصفَ بِهِنَّ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤)، وابن ماجه (٤٠٣٣)، والنسائي (٤٩٨٧)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٢٠٠٢).

أما صاحب السنة فهو في عزة، فإنه إذا قيل له شيء أو أمر بشيء فإنه إذا كان ذلك الشيء موافقًا لكلام الله ورسوله فلأنه كلام الله ورسوله، وإن كان مخالفًا فهو مضروب به عرض الحائط كما قال الأئمة في ذلك، كما قال ذلك مالك، وكما قال ذلك الشافعي، وكما تواصت به علماء هذه الأمة. يقول الإمام مالك: "كلاً يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر"[٢٣٦]. على هذا تربي صاحب السنة ونشأ، وهذا الإمام ينشئ، ويربي ذلك الجيل على هذه النظرة، وعلى هذا تنشأ الأجيال جيلًا بعد جيل.

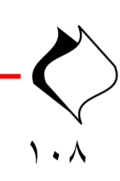
وقول المصنف: **"أعلم رحمك الله أن الدين إنما جاء من قبل الله تبارك وتعالى، ولم يوضع على عقول الرجال وآرائهم،"** يعني: كن من المتيقنين الجازمين أن هذا الدين إنما جاء من عند الله تعالى؛ لأنه أوحاه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نزل عليه القرآن وأوحى إليه السنة كذلك لأنها وحي، أي ليس على رأيي ولا على رأي فلان، وإنما هو دين، والدين من الوحي، وهو من قبل الله عز وجل ولم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، فعقول الرجال وآرائهم لم يجعلها الله هي الميزان الذي يرجع إليه، وإنما الميزان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأن الحق لا يعرف بعقول الرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق.

فاعرف الحق تعرف أهله، ولقد أمر الله تعالى المؤمنين عند التنازع بالرد إلى الله والرسول، وهذا يوجب تقديم السمع، وهذا هو الواجب إذ لو ردوا إلى غير ذلك من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم لم يزد هذا الرد إلا اختلافا واضطرابا، وشكا وارتيابا.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩

---

٢٣٦ انظر: موطأ مالك الجزء الأول، صفحة (٢٥١)، والمدخل لابن الحاج الجزء الأول، صفحة (١٧٥).



]. وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين"[٢٣٧].

ويقول الإمام إسماعيل الأصبهاني رحمه الله: "فإنا وجدنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في أحكام الدين فلم يفترقوا، ولم يصيروا شيعا لأنهم لم يفارقوا الدين، ونظروا فيما أذن لهم، فاختلفت أقوالهم وآراؤهم في مسائل كثيرة... وكانوا مع هذا الاختلاف أهل مودة ونصح، وبقيت بينهم أخوة الإسلام ولم ينقطع منهم نظام الألفة"[٢٣٨]

ولذلك قال تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأنزل الله الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ لا يمكن الحكم بين الناس في موارد النزاع والاختلاف على الإطلاق إلا بكتاب منزل من السماء، ولا ريب أن بعض الناس قد يعلم بعقله ما لا يعلمه غيره، وإن لم يمكنه بيان ذلك لغيره، ولكن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط.

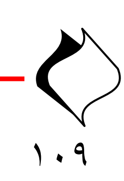
وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموفق للشرع.

وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

---

٢٣٧ ((الفتاوى)) (٤٢/٩٥).

٢٣٨ الحجة في بيان المحجة (ص٢٤١) باختصار.



ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمجالات العقول بل بمجارة العقول فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته[٢٣٩].

وقال المصنف: **"وعلمه عند الله وعند رسوله"** أي في كتاب الله، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩] والرد إلى الله الرد إلى كتابه، الرد إلى رسوله بعد وفاته الرد إلى سنته، بهذا ندين، وبهذا نعتقد.

وقال المصنف: **"ولا تتبع شيئًا بهواك"**، لأن الهوى هو الذي أضل من أضل من الناس فبسبب اتباع الهوى، هوى في النفس، أو هوى في الرأي، انحرف من انحرف وضل من ضل في هذا الباب، قال تعالى:﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦] فعلم أن الهوى طريق مخالف لسبيل الله.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم خط خطًا، وخط من جانبه خطوط، وقال: «هذا صراط الله مستقيمًا"، ثم قال: «وهذه السبل، وعلى كل سبيل منها شيطان[٢٤٠]» ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[الأنعام:١٥٣] أمور نقرأها في كلام الله عز وجل، فبالله كيف نخالفه؟ وكيف نحيد عنها؟

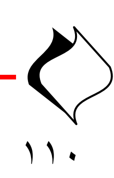
فإذًا الهوى عدوك اللدود،

وقول المصنف :**"فلا تتبع الهوى فتمرق من الدين فتخرج من الإسلام، فإنه لا حجة لك"** نعم، والله لا عذر لنا، ولا حجة لنا والعلة في ذلك كما ذكر المصنف **"فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته السنة، وأوضحها لأصحابه وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، والسواد الأعظم: الحق وأهله"**

---

٢٣٩ بتصرف موسع، انظر درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٤٦).

٢٤٠ انظر سنن الدارمي (٢٠٨)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٤١٤٢)، قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (٥٨): حسن.



نعم ليس الحق بكثرة الناس ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، فأهل الحق قد يكونون قلة لكن السواد الأعظم هم الحق وأهله.

وقول المصنف: **"فمن خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من أمر الدين فقد كفر"**.

هذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل، وليس على إطلاقه، لأن من خالف الشرع في أمر من أمور الدين فقد يكفر وقد لا يكفر؛ لأنه إذا كان خالف في أمر من الأمور الاعتقادية بأن فعل ناقضاً من نواقض الإسلام، أو أشرك في العبادة، أو أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة فقد كفر.

وقد يكون كفره كفراً أصغر، كما إذا حلف بغير الله أو طعن في النسب أو ناح على الميت؛ أو قال لأخيه: يا كافر، والقتال بين المسلمين، فكل هذه أعمال كفريه، لكنها لا تخرج من الملة،

والبدع على أنواع، والمخالفات على أنواع، فهناك ما هو بدعة مخرجة من الدين، وهناك قد تكون هذه البدعة ضلالة ومعصية في هذا. فالبدع كما هو معلوم نوعان:

اعتقاديه.

عملية.

فالاعتقادية مثلاً كاعتقاد الجهمية، والمرجئة، والرافضة، واعتقاد الخوارج فهذه بدع اعتقاديه.

وبدع عملية قد تكون هذه البدع مخرجة، وقد لا تكون مخرجة، فقد تكون مخرجة مثل الطواف بالقبور، فالطواف بقبر من القبور بدعة ولكنها أيضًا شرك بالله عز وجل، فهي تخرج من الدين بالكلية.

تنبيه مهم: يقول الشيخ محمد ابن عبد الوهاب: ((وأما الكذب والبهتان، فمثل قولهم: إنا نكفر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وأنا

نكفّر من لم يكفّر ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه. فكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله.

وإذا كنا لا نكفّر مَن عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، ولم يكفّر ويقاتل؟ {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

بل نكفّر تلك الأنواع الأربعة لأجل محادتهم لله ورسوله. فرحم الله أمرأً نظر لنفسه، وعرف أنه ملاق الله الذي عنده الجنة والنار. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم))[٢٤١] .

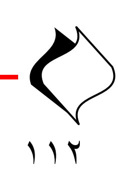
وقد تكون هذه البدعة غير مخرجة مثل قيام ليلة النصف من شعبان، أو صيام النصف من شعبان، أو بدعة المولد ونحو ذلك، فعليه قد لا تكون هذه البدع في صورتها مخرجة ولكنها تبقى ضلالة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[٢٤٢]، وقال: ((وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))[٢٤٣] فهي ضلالة ومردودة، وكل ما خالف سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهو مردود، لكن هذا الكفر كما هو معلوم على أنواع وعلى أقسام، فهناك كفر يخرج من الملة، وهناك كفر لا يخرج من الملة، وهنا أمر لابد من معرفته وهو أن هناك ما يسمى الكفر المطلق، وأن هناك ما يسمى الكفر المعين.

---

٢٤١ فتاوى ومسائل (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الرابع) (١/ ١١).

٢٤٢ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الصُّلْحِ، بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، (١٧١٨)، وأبو داود (٤٦٠٦)، وابن ماجه (١٤)، والإمام أحمد في المسند الْمُلْحَقُ الْمُسْتَدْرَكُ مِنْ مُسْنَدِ الْأَنْصَارِ بَقِيَّةُ خَامِسَ عَشَرَ الْأَنْصَارِ (٢٦٠٣٣).

٢٤٣ انظر سنن أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، والدارمي (٩٦)، والإمام أحمد في المسند مسند الشاميين (١٧١٤٤)، قال الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (٥٨): صحيح.



الكفر المطلق أمر يتعلق بالمسائل، والكفر المعين أمر يتعلق بالأشخاص، فإذا جئت للمسائل فلها أحكامها، وإذا جئت للأشخاص فلهم أحكامهم.

أما يتعلق بالكفر المطلق فالكفر كفران:

- كفر يخرج من الملة.
- وكفر لا يخرج من الملة.

فمن أمثلة هذا النوع قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[٢٤٤] فأطلق على قتل المسلم أنه كفر، لكن هذا كفر لا يخرج من الملة، لأن الله سبحانه وتعالى لما ذكر اقتتال المؤمنين قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]، ثم قال في نهاية ذلك: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠] فأبقى عليهم إخوة الإيمان، والكفر الذي لا يخرج من الملة عرفه العلماء بأنه كل معصية أطلق عليها الشارع اسم الكفر، مع بقاء اسم الإيمان على صاحبها.

فبعض الأعمال تسمى كفرًا لا يخرج من الملة، لأنه هناك حقيقتان:

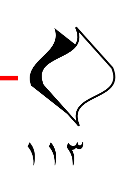
الحقيقة الأولى: الإيمان.

الحقيقة الثانية: الكفر.

والإيمان يقابله الكفر، والإيمان شعب، والكفر كذلك شعب، وشعب الإيمان تسمى طاعات، وشعب الكفر تسمى معاصي، فالشرك شعبة من شعب الكفر وهو معصية، وكذلك كل معصية تسمى كفرًا، وكل كفر قد يسمى معصية ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه:١٢١].

---

٢٤٤ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ خَوْفِ المؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ، برقم (٤٨)، ومسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَيَانِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، (٦٤)، والترمذي (١٩٨٣)، وابن ماجه (٦٩)، والنسائي (٤١١٠)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٣٦٤٧).



وهكذا نجد أننا أمام الإيمان وما تحته من الشعب، والكفر وما تحته من الشعب.

فهناك شعب من الإيمان لا يزول الإيمان بزوالها كما لو تركت إماطة الأذى عن الطريق فإن الإيمان لا يزول ولكن ينقص، وهناك شعب من الإيمان يزول الإيمان بزوالها، كما فلو خالفت لا إله إلا الله.

وهكذا شعب الكفر فهناك شعب إذا فعلها الإنسان كفر خرج من الإيمان، وهناك شعب إذا فعلها الإنسان لا يخرج من الإيمان، لأن كل شعبة من الإيمان يقابلها شعبة من شعب الكفر، فإذا قلت: الإيمان بالله فهذه شعبة يقابلها الكفر بالله، إذا قلت: الإيمان بالملائكة يقابلها الكفر بالملائكة وهكذا، حتى إذا قلت: الحياء شعبة، قلة الحياء شعبة من شعب الكفر، فعلى هذا الكفر كفران: كفر يخرج من الملة، وكفر لا يخرج من الملة، هذا جانب.

أما إذا جئت إلى الكفر المعين الذي يتعلق بالأشخاص، أي عندما يفعل هذا الشخص بذاته هذا الأمر هل يكفر أو لا يكفر؟

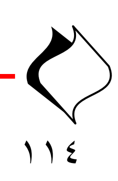
فهذا له شروط، وله موانع، وباختصار الشروط أربعة، والموانع أربعة، بمعنى لابد من اجتماع الأربعة شروط، وانتفاء الأربعة موانع حتى نطلق على هذا الشخص هذا المسمى وأنه كفر.

الشرط الأول: العقل والبلوغ يقابله الصغر والجنون.

فأول هذه الشروط العقل والبلوغ، فلو أن صغيرًا أمسك بمصحف أمسك بالقرآن ومزقه فلا يكفر هذا الصغير لأنه غير بالغ، قال صلى الله عليه وسلم: ((رفع القلم عن ثلاث)) وذكر ممن رفع القلم عنهم ((والصغير حتى يبلغ))[٢٤٥] وكذا لو فعل مجنون من الناس هذا الفعل، فلا يحكم بكفره لأنه لا يعقل.

---

٢٤٥ انظر سنن أبو داود (٤٣٩٨)، وابن ماجه (٢٠٤١)، والنسائي (٣٤٣٢)، والدارمي (٢٣٤٢)، والإمام أحمد في المسند الْمُلْحَقُ الْمُسْتَدْرَكُ مِنْ مُسْنَدِ الْأَنْصَارِ بَقِيَّةُ خَامِسَ عَشَرَ الْأَنْصَارِ (٢٤٦٩٤)، قال الشيخ الالباني في مشكاة المصابيح الجزء الثاني، صفحة (٩٨٠): صحيح.



فإذا اختل هذا الشرط، وكان الفاعل لهذا الفعل صغيرًا أو مجنونًا فهذا مانع من أن يكفر.

الشرط الثاني: أن يكون مختارًا ويقابله أن يكون مكرهاً.

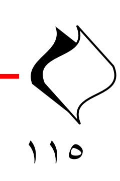
فالاختيار شرط في تكفير المعين، والإكراه مانع من موانع تكفير المعين، ويستدل لهذ بفعل عمار بن ياسر رضي الله عنهما، ونعلم ما حصل لآل ياسر، ياسر، وسمية، وعمار، عُذب ياسر وعُذبت سمية وماتوا تحت العذاب، وبقي هذا الشاب الصغير عمار، مع وطأة وشدة العذاب فسب محمداً ودين محمد، وجاء يبكي إلى النبي صلى الله عليه وسلم معتذراً، فنزل قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم» :إن عادوا فعد[٢٤٦]«

فالإكراه مانع، فلابد أن يكون هذا الشخص مختاراً وليس بمكره، فإذا أكره فهذا مانع من أن نطلق عليه حكم الكفر، مع أنه قد قال الكفر أو فعل الكفر.

المكره له قيود، وليس هذا مجال تفصيلها، فليس لكل شخص أن يقول: أنا أكرهت، فليس مجرد الخوف إكراه، ولكن الإكراه لابد من شرطه أن يكون فيه خوف شديد على النفس بمعنى أنه يتوقع الإنسان الهلكة من وراء هذا الأمر، وهذا ما أجاب به الإمام أحمد الذين جاءوه يعتذرون إليه في فتنة القول بخلق القرآن، فقد جاء يَحْيَى بْن معين فدخل عَلَى أَحْمَد بن حنبل وهو مريض فسلم فلم يرد عليه السلام، وكان أَحْمَد قد حلف بالعهد أن لا يكلم أحداً ممن أجاب حتى يلقى اللّه .، فما زال يعتذر ويقول حديث عمار، وقَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]، فقلب أَحْمَد وجهه إلى الجانب الآخر فقال: يَحْيَى لا تقبل عذرًا، فخرجت بعده وهو جالس عَلَى الباب. فقال: إيش قَالَ: أَحْمَد بعدي قلت: قَالَ: يحتج بحديث عمار وحديث عمار مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني،

---

٢٤٦ انظر المستدرك للحاكم برقم (٣٣٨٢)، والبيهقي في الكبرى (١٦٩٩٧)، قال ابن حجر في فتح الباري (١٢ / ٣٢٥): مرسل.



وأنتم قيل لكم نريد أن نضربكم فسمعت يَحْيَى بْن معين يقول مر يا أَحْمَد غفر الله لك، فما رأيت والله تحت أديم سماء أفقه فِي دين اللَّه منك[٢٤٧]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نفس المسألة: "تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره. فليس المعتبر في كلمات الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها. فإن الإمام أحمد قد نص في غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قيد ولا يكون الكلام إكراها، وقد نص على أن المرأة لو وهبت زوجها صداقها أو مسكنها فلها أن ترجع، على أنها لا تهب له إلا إذا خافت أن يطلقها أو يسيء عشرتها فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراها.

ومثل هذا لا يكون إكراها على الكفر، فإن الأسير إذا خشي الكفار أن لا يزوجوه أو أن يحولوا بينه وبين امرأته لم يبح له التكلم بكلمة الكفر"[٢٤٨]

الشرط الثالث: أن تقوم عليه الحجة التي يكفر بخلافها.

ويشترط العلماء في قيام الحجة الفهم لها.

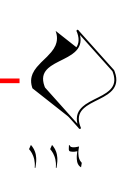
قال ابن القيم رحمه الله: العبرة في قيام الحجّة بأن يفهمها ذلك الشّخص المعيّن فهما يدرك به مخالفته للحجّة التي يكفر بخلافها، ولا يشترط فهمه لها فهما دقيقا، كما يفهمها أهل العلم والإيمان، كما لا يشترط إقراره بالفهم بل يرجع ذلك لتقدير المبلغ له هل فهمه أو لم يفهمه، لأنّ كثيرا من أهل الكفر والنّفاق ينكرون الحجّة بعد فهمهم لها وعلمهم بها كما أخبر الله تعالى بذلك عن قوم فرعون في قوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً}"[٢٤٩].

---

٢٤٧ طبقات الحنابلة ١ / ٤٠٤

٢٤٨ مجموعة التوحيد ص (٢٩٧).

٢٤٩ طريق الهجرتين (٤١٢ ـ ٤١٣).



قال شيخ الإسلام رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} "قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعا يتمكّن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربي لوجب أن يترجم له ما تقوم به عليه الحجة، ولو كان عربيا وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته، وجب أن نبيّن له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه، فعلينا ذلك، وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن، فإنه كان يجيبهم عنه"[٢٥٠].
قال الشّيخ عبد اللطيف بن عبد الرّحمن آل الشّيخ ـ رحمه الله: "وينبغي أن يعلم الفرق بين قيام الحجّة وفهم الحجّة، فإن من بلغته دعوة الرّسل، فقد قامت عليه الحجّة إذا كان على وجه يمكن معه العلم"[٢٥١].

كما أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأماكن والأشخاص.

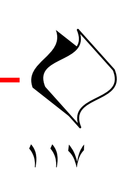
قال ابن القيم: "إن قيام الحجّة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص؛ فقد تقوم حجة الله على الكفّار في زمان دون زمان؛ وفي بقعة وناحية دون أخرى؛ كما أنها تقوم على شخص دون آخر؛ إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون؛ وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له؛ فهذا بمنزلة الأصمّ الذي لا يسمع شيئا ولا يتمكّن من الفهم

فليست البيئات واحدة، وليست الأزمنة واحدة، وليست الأماكن واحدة. فبيئة يكون التوحيد والاعتقاد فيها ظاهر جلي، لكثرة العلماء مما يجعل بعض الأمور واضحة جلية، وبيئة قد تكون شركية، وفيها علماء سوء، وعلماء ضلالة فلا نساوي، بين البيئتين، فشخص نشأ في بيئة ظهر فيها التوحيد ليس كمثل شخص نشأ في بيئة

---

٢٥٠ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢ / ١١٤).

٢٥١ مجموعة الرسائل النجدية (٥ / ٦٣٨).



الشرك فيها غالب، بل لربما الذي علمه وغرس في نفسه هو أن هذا الأمر هو التوحيد، وأن ضده هو الشرك". [٢٥٢]

فتختلف الأمور من شخص إلى آخر، ومن مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، فمثل هذه الأمور على الإنسان أن يتبصر بها، وهذه ورائها ضوابط جزئية، فمثلاً لا نساوي بين شخص مريد للحق، وبطلب الحق، وشخص معرض عن الحق ولا يريده ولا يطلبه، وبين شخص يريد الحق لكن ما وجده، وما علمه وما عرفه، فلا يستوي هذا مع هذا، وللعلماء في هذا تفاصيل.

الشرط الرابع: أن لا يكون هذا الشخص متأولًا تأولًا يعذر فيه صاحبه.

قال ابن القيم بعد ذكره كفر من هجر فريضة من فرائض الإسلام أو أنكر صفة من صفات الله تعالى أو أنكر خبرًا أخبر الله به عمدًا، قال:" وأما جحد ذلك جهلًا أو تأويلًا يُعذر فيه صاحبه فلا يكفر صاحبه به."[٢٥٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن المتأول الذي قصد متابعة الرسول–صلى الله عليه وسلم–لا يُكفَّر، بل ولا يُفسَّق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفّر المخطئين فيها، وهذا القول لا يُعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع" . [٢٥٤]

فهذا الشرط يرتبط من وجه بالمسائل فهي تختلف وضوحًا وخفاء، فبعض المسائل قد تقوم في النفس عليها شبه كثيرة، هذه الشبه تمنع من معرفة الحق، وتجعل هذا القائل يعتقد خلاف الحق، وبعض المسائل معلومة من الدين بالضرورة، فإذًا قيام الحجة أمر

---

٢٥٢ طريق الهجرتين (٤١٤).

٢٥٣ مدارج السالكين (٣٦٧/١).

٢٥٤ منهاج السنة (٢٣٩/٥).

له تعلق بالمسائل وهذا باب عظيم وواسع وكبير، فليس كل المسائل معلوم من الدين بالضرورة، وليس كل المسائل تكون واضحة وضوح الشمس.

فقد يعتقد هذا الإنسان هذا الاعتقاد، ويقول به لشبهة قوية قامت في نفسه، فلابد أن تقام عليه الحجة حتى نحكم بكفر عينه، مع أنه لا يختلف في كون هذا الاعتقاد أو هذا القول أو هذا العمل كفر في ذات نفسه، فهذا يتطلب عرض المسائل، ومعرفة هل هي معلومة بالضرورة أو ليست معلومة بالضرورة؟ وهل هذه المسألة قامت فيها شبه تمنع من معرفة الحق؟ أو أنها لم تكن بها شبه تمنع من معرفة الحق؟

مع الأخذ في الاعتبار أن إطلاق مثل هذه الأحكام ليست لكل أحد، فلا يأتي أفراد الناس ويحكم على فلان أو على فلان أنه كافر أو خارج من الملة، فهذا ليس من شأنهم، وليس من عملهم وإنما هذا ينحصر في ولي الأمر وفي القاضي الذي ينصبه ولي الأمر، أو العالم من العلماء وليس لكل أحد.

فالحكم بكفر المعين له شروط وله موانع، ولابد من اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، ومع هذا كله ليس لكل أحد من الناس أن يحكم على أي فرد من الناس بهذا الأمر، لأن هذا يتأتى من ورائه حل المال، وحل الدم، ونكاحه لزوجته، وإرثه ونحو ذلك، وهذه أمور لا يملكها كل أحد. ولو أخذنا نطلق ألسنة الناس في هذا لربما كفر الناس بعضهم بعضًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات - أي من قال أو فعل كذا فقد كفر - لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه، فإن الإمام أحمد مثلًا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التّجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق ورد الشهادة، وترك تخليصهم من



أرض أهل العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهميًا موافقا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر.... ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم، فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون: إن القرآن مخلوق، وأن الله لا يُرى في الآخرة[٢٥٥]."

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[٥] "واعلم أن الناس لم يبتدعوا بدعة قط حتى تركوا من السنة مثلها، فاحذر المحدثات من الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار".

(الشرح)

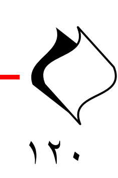
بعد أن بيَّن المصنِّف–رحمه الله تعالى–وجوبَ لزوم السنَّة، وأن طريقَ السنَّة هو لزومُ طريقِ أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم، فمَن أرادَ الاستقامةَ على شرعِ الله–عز وجل–وعلى دينِ الإسلام فعليه بالتمسكِ بسنَّة النبي–صلى الله عليه وسلم–وذلك إنما يكون بما كان عليه فهمُ السلفِ الصالح من الصحابةِ والتابعين وتابعي التابعين.

ذكرَ المصنِّف هنا ما يقابل السنَّة وهي البدعة، والبدعة في أصل اللغة: الشيء المبتدَع هو الشيء المخترَع على غيرِ أثرٍ سابق[٢٥٦]؛ أو على غير مثالٍ سابق، ومن هذا

---

٢٥٥ مجموع الفتاوى (١٢/٤٨٧).

٢٥٦ انظر الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٦٧)



المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٩] فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أولَّ الرسل وإنما قد كان من قبله عددٌ كبيرٌ من أنبياءِ الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وهكذا قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧] أي أن الله عز وجل خلقَ السماواتِ والأرض على غيرِ مثالٍ سابق، فهذا معنى البدعة في اللغة.

والشيء المبتدَع يطلق على أمرين:

الأمر الأول: أمرٌ مبتدَع في أمور الدنيا كالمخترَعات التي يخترعها البشر في مصالحِ دنياهم.

والأمرُ الثاني: الأمر المبتَدع في أمر الدين.

فما يتعلق بأمرِ مصالح الناس من مخترَعاتهم كوسائلِ تنقلاتهم وما يتعلق بمساكنهم، وما يتعلق بأدواتهم ونحو ذلك؛ فهذا لا شأنَ له بهذا الأمر، وإنما الكلامُ هنا عن الابتداعِ في الدين.

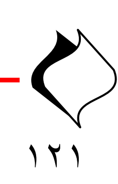
ومعلومٌ أن الابتداعَ في الدين أمرٌ محرَّم، والنبي صلى الله عليه وسلم حذرنا وقال: ((وإياكم ومحدَثات الأمور فإن كل محدَثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة[٢٥٧])) فما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من البدع، ولا حجةَ لقائلٍ في قول عمر رضي الله عنه في شأنِ التراويح: "نعمتُ البدعةُ هي"[٢٥٨].

فالتراويح لم تكن أمراً على غيرِ مثالٍ سابق فقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه التراويح ولكن النبي صلى الله عليه وسلم رأفةً ورحمةً بأمته لم يستمر بهم خشية

---

٢٥٧ انظر: مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، حديث رقم ١٦٨١٣، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة الصحيحة الصفحة أو الرقم ٢٧٣٥ / ٥٢٦.

٢٥٨ انظر: موطأ مالك، كتاب الصــلاة في رمضــان، باب: ما جاء في قيام رمضــان، حديث رقم ٢٤٩ وأخرجه البخاري بلفظ نعم البدعة هذه، في كتاب التراويح، باب من قام رمضان، برقم ١٨٨٠.



أن تُفرَضَ عليهم، فالتراويح لم تكن أمراً مبتدَعاً من الناحية الشرعية واستعمال عمر لهذه اللفظة إنما هو استعمالٌ من حيث المعنى اللغوي لا أكثر[٢٥٩].

فالبدع منهيٌّ عنها جملةً وتفصيلاً، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ[٢٦٠]))، ولذلك قول المصنِّف هنا: **"واعلم أن الناسَ لم يبتدعوا بدعةً قط حتى تركوا من السنَّةِ مثلها"** جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما-: "مَا أَتَى عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً، وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً، حَتَّى تَحْيَى الْبِدَعُ، وَتَمُوتَ السُّنَنُ[٢٦١]"

فهذا هو الواقع المعايَش؛ أنه ما أُحييت بدعة إلا وأُمِيتَت سنَّة، والإنسان عليه أن يسألَ نفسه هل استطعنا أن نقومَ بالواجباتِ كما ينبغي وبسنن النبي صلى الله عليه وسلم كما كان ينبغي وبقيَ عندنا فضلا وزيادة من الوقتِ والجهد لنبحثَ عن زيادة على تلك الواجبات وتلك السنن؟!.

أعتقد أن جواب كل واحدٍ منّا أننا على تقصيرٍ كبير في شأن الواجبات وتفريطٍ أكبر في شأنِ السنن والنوافل، والواحدُ منَّا لو تأملَّ في صلاة الفريضة كيف أدَّاها وكيف صلَّاها لبكى على حاله وعلى نفسه من تقصيره في أدائها وبالتالي هل الناس استطاعوا أن يؤدُّوا الواجبات والسنن لينتقلوا بعد ذلك إلى أمورٍ أخرى؟

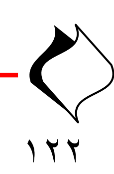
فما بالك إذا كان إحياءُ البدعة حتماً ولابد أن يكونَ في مقابله إماتةٌ للسنَّة، فأولئك الذين يبتدعون في الأذكار بعد الصلوات كالذكر الجماعي؛ لما انشغلوا أو شغلوا تلك الأوقات بأذكارٍ جماعية كان هذا في مقابل إماتةِ السنَّة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم في ذكره بعد الصلاة.

---

٢٥٩ انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٩٢)، والشاطبي في الاعتصام (١/ ٢٥٠).

٢٦٠ انظر: صحيح البخاري كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم ٢٥١٢

٢٦١ انظر المعجم الكبير للطبراني برقم (١٠٦١٠).

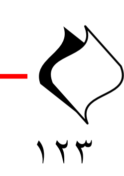


فما داموا شغلوا تلك الأوقات بتلك البدع كان في مقابل ذلك إماتةٌ للسنَّة، وهكذا فقِسْ؛ كلما أُحيِيَت بدعة أُمِيتَ في مقابلها سنَّة فهذا مما يدل على أن من شرِّ هذه البدع ومن خطرها أن فيها إماتةٌ للسنَّة، ويصلُ الحال ببعضهم إلى أن يرى السنَّةَ بدعة والبدعةَ سنَّة لأنه ألِفَ البدعة ونشأ عليها ولما يُؤتَّى إليه بأمرٍ من السنَّة ينكره ويرى أنه هو البدعة فتنقلبُ عنده الموازين.[٢٦٢]

(المتن)

---

[٢٦٢] انظر الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٠)



[٦] "واحذر صغار المحدثات من الأمور؛ فإن صغير البدع يعود حتى يصير كبيرا، وكذلك كل بدعة أحدثت في هذه الأمة، كان أولها صغيراً يشبه الحق، فاغتر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعظمت وصارت دينا يدان [به] فخالف الصراط المستقيم، فخرج من الإسلام، فانظر رحمك الله كل من سمعت كلامه من أهل زمانك [خاصة] فلا تعجلن، ولا تدخلن في شيء [منه] حتى تسأل وتنظر هل تكلم به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [أو أحد من العلماء؟] فإن وجدت فيه أثرا عنهم فتمسك به، ولا تجاوزه لشيء، ولا [تختر] عليه شيئا فتسقط في النار".

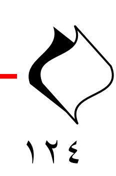
(الشرح)

قول المصنف :"**فاحذر المحدثاتِ من الأمور**" يشير المصنف بهذا إلى تحذير النبي صلى الله عليه وسلم لأمته حيث قال محذِّراً: ((إياكم ومحدَثات الأمور فإن كل محدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة))[٢٦٣] فمعنى هذا أن مرتكب بدعةً من البدع فهو على ضلالة، وعلى طريقِ غواية، ولا ينجي من ذلك إلا إن التمسك بالسنن، والتمسك بالسنن–كما هو معلوم–ينبغي أولاً أن تُعلَم السنن وأن يُعمَلَ بها وأن يلزمها المسلم.

((فإن كل محدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، والضلالةُ وأهلها في النار)) وهذا ما جاء به الحديث المعلوم المشهور.

قال المصنف: "**واحذر صغارَ المحدّثاتِ من الأمور**" ومعلوم أن النارَ من مستصغَر الشرر فقد يستهين المبتدَع بهذا الأمر ويقول مثلاً: أعمل هذا الشيء؛ وهو محل نظر، فهذه الصغار من المحدَثات تعود وتؤولُ إلى أن تكونَ كباراً.

٢٦٣ انظر: مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، حديث رقم ١٦٨١٣، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة الصحيحة الصفحة أو الرقم ٢٧٣٥ / ٥٢٦.



وكما يقول ابن تيمية واصفاً هذه المسألة يقول: "وإذا كان الغلط شبرا صار في الأتباع ذراعا ثم باعا حتى آل هذا المآل فالسعيد من لزم السنة."[٢٦٤] هكذا البدع تجري بأصحابها كما يجري الكَلَب–وهو المرض المعروف بسعار الكلاب–في صاحبه لا يتركُ عرقاً ولا مفصلاً إلا دخلَ فيه، فهذا شأنُ البدع تبدأ صغاراً ثم تنتقل فتكون كباراً فتصبح بعد ذلك هذه البدع ولَّدت فِرَق، وهذه الفِرَق ابتعدت في ضلالها.

يضرب لنا شيخ الإسلام مَثَل فيقول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ويوجد في كلام أبي الحسن من النفي الذي أخذه من المعتزلة ما لا يوجد في كلام أبي محمد بن كلاب الذي أخذ أبو الحسن طريقه ويوجد في كلام ابن كلاب من النفي الذي قارب فيه المعتزلة ما لا يوجد في كلام أهل الحديث والسنة والسلف والأئمة "[٢٦٥]

فنجد أن الفرقة تبدأ تنحى في البعدِ عن السنَّة بحيث بعد ذلك تكون أقرب إلى أهل البدع الكبار أكثر منها قرباً إلى السنَّة، بينما أهلُها وأصحابها الأوائل قد يكنْ أقرب إلى السنَّة من المعتزلة.

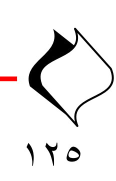
فعندما تأتي إلى الرازي مثلاً تجد أن الرازي أقرب إلى المعتزلة منه إلى أهل السنَّة، بينما ابن كلَّاب وأبو الحسن الأشعري أقرب إلى أهل السنَّة منهم إلى المعتزلة، فالبدع تتطور وتبتعد بأصحابها إلى أن تصلَ إلى حالٍ بعيد عن الحق فتكون في أوائلِ أمرها في صغارِ الأمور ثم تنتقل إلى أن تكون هذه الأمور كباراً فلذلك قال المصنف: "**واحذر صغار المحدَثاتِ من الأمور فإن صغيرَ البدعِ يعودُ حتى يصيرَ كبيراً**."

وكذلك كلُ بدعةٍ أُحدِثَت في هذه الأمة كان أولها صغيراً؛ يعني يشبه الحق؛ فيه اشتباه لأن الشبهة هي اشتباه الحق مع الباطل فيشتبه الحق مع الباطل فيرى الإنسان الحقَ باطلاً والباطلَ حقاً فتكون هذه البدع في أوائلها فيها شبهة حق لكن سرعان ما تتحول إلى أن تكونَ باطلاً كبيراً من كبائر الأمور، وهذا معروف في حالِ الفرق.

---

٢٦٤ بغية المرتاد: ص ٤٥١

٢٦٥ بغية المرتاد: ص ٤٥١.



فالخوارج مثلاً بدؤوا بأمرٍ به شبهة حق وهي الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله، والاعتراض على ولي الأمر في شأنِ الظلم الذي قد يقع على بعضِ الناس، هذه بداياتها، لكن سرعان ما تحول الخوارج إلى مكفِّرينَ للأمة وإلى مستحلِّين لأموالهم ودمائهم وأعراضهم وهكذا، فتحوَّلوا من حالٍ إلى حال.

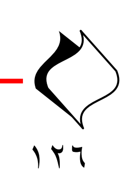
وهكذا التشيع ظهر في بداية أمره في مسألة تفضيل علي رضي الله عنه على عثمان رضي الله عنه، ثم تطور إلى تفضيله على بقية الخلفاء الراشدين، ثم تطور إلى أن أصبح في صورته المعروفة

وهكذا المرجئة فقد بدأ الإرجاء بقولِ مرجئة الفقهاء بتأخيرِ العمل عن مسمَّى الإيمان وجعلوا العمل شرط كمال في الإيمان، وما أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان بالكلية، وبعد ذلك تطور الإرجاء إلى أن قال مَن قال إن الإيمان هو المعرفة.

وهكذا الصوُّفية فقد كان التصوف في أصله الزهد، فمن تصوفٍ بدأ بأوله في القضايا المظهرية من زهدٍ في اللباس وتقشف وتركٍ للدنيا وبترك معاش الدنيا ولُبسِ البالي من الثياب، لكن التصوف بعد ذلك أصبح فلسفة، وهذه الفلسفة أدت إلى الحلول والاتحاد حتى جاء مَن جاء من أولئك مَن هو كابن عربي وغيرهم، وجاؤوا بطوام الإلحاد حتى يقول هذا الملحد: "العبدُ ربٌ والربُ عبدٌ يا ليت شعري مَن المكلَّف"، وحتى يقول قائلهم والعياذ بالله: "ما الكلبُ والخنزيرُ إلا إلهُنا"، فتحولت إلى عقيدة إلحادية بينما كانت في بدايتها زهداً يتعلق بلُبس الثياب وترك الطعام، فإذاً على المسلم أن يتعظ والعاقلُ مَن اتعظ بغيره.

فهكذا البدع تجري بأصحابها حتى تَعظُم وتصير ديناً يُدانُ به. فأصبح الخوارج أمة وفرقاً، وأصبح القَدَرية فرقة، وأصبح كذلك الجبرية فرقة، وأصبح التشيُّع فرقاً، وأصبح المرجئة فرقاً.

كل هذا من بدعٍ أولَ ما بدأت كانت صغاراً وأمراً يسيراً، سرعان ما تطورت حتى أصبحت ديناً يُدانُ به فخالفت الصراطَ المستقيم، فخرج أولئك عن أمة الحق



وخرجوا عن شريعة الإسلام بسببِ هذه البدع التي كانت في بدايتها على ذلك الحال، فمن هذا يأخذُ الإنسان العبرة: بأن لا تستهين بأي بدعةٍ من البدع لأنه متى ما أحييت البدع فأنه في ذات الوقت تكون قد أميتت سنَّة، ثم أن هذه البدع يجرُّ بعضها بعضاً، فإذا كانت اليوم في صغائر الأمور سرعان ما تتعاظم حتى تؤولَ بأصحابها إلى مآلٍ خطير.

ثم قال المصنف: **"فانظر رحمك الله كل مَن سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة فلا تعجلنْ ولا تدخلنَّ في شيءٍ منه حتى تسألَ وتنظر".**

وهذه قاعدة عند السلف كما قال ابن مسعود: (مَن كان منكم مستَّناً فليستنَّ بمَن قد مات فإن الحيَ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة[٢٦٦]) فليست الأسوة والقدوة في الأحياء لأنه لا يدري ماذا يُختم لهم.

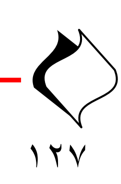
فالقدوة والأسوة بمَن مات وعرفت عاقبةَ أمره، أما الحي فلا تُؤمَنُ عليه الفتنة؛ ما تدري ماذا يكونُ حالي أو حالك أو حال الآخرين فبالتالي إذا جاءك الأمر من الأحياء فعليك أن تتريث وأن تنظر وأن تعلم أن هذا هل هو مأخوذٌ من كلام السلف الأوائل أو هذا إنشاءٌ وابتداعٌ من هذا الشخص.

فإذا كان كلامُ الأوائل وهو مجرد ناقل له فعند ذلك هذا الشخص إنما هو ناقل وليس مبتدئ، ولذلك كان من كلام ابن مسعود وغيره: (إنَّا نقتدي ولا نبتدئ، وإنَّا نتبع ولا نبتدِع) هذه قواعد وأصول عند أهل السنَّة، الاقتداء وليس الابتداء، والاتباع وليس الابتداع.

ومثلُ هذه الأمور تظهر عند الفتن، فقد يقول إنسان: مسائل الدين الكبار نعلمها سواءً قالها حي أو قالها ميتٌ من الأموات، لكن عندما تأتي الفتن ويريد الإنسان أن يتبصَّر بها وما الموقف منها؛ فالذي نراه أن أهل العلم وأهلُ البصيرة في

---

٢٦٦ رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢ / ٩٤٧ ـــ رقم ١٨١٠)، وفي إسناده ضعف، إلا أنه أثر مشهور متداول في مصنفات أهل السنة، ومعناه صحيح مستقر عندهم.



هذا الأمر يعودون لكلامِ الأوائل. ولذلك العالم من العلماء يرى الفتنة وهي مقبلة ويعلمُ عاقبتها لكن مَن كان من غوغاء الناس لا يعرف أن هذه فتنة حتى يراها مُدبِرة،

قال الحسن البصري رحمه الله: "العالِم يرى الفتنة وهي مقبلة، والناس لا يرونها إلا وهي مدبرة."[٢٦٧]

فالعالم يراها مقبلة، بإقبالها يعلم أنها فتنةٌ من الفتن، بينما غوغاءُ الناس لا يرونها ولا يعرفون أنها فتنة حتى تُدبِر، متى أدبرت قد أخذت معها مَن أخذت وساقت مَن ساقت، فأين التريُّث؟ وأين التدبر؟ وأين التأمل؟!

وبالتالي ليس كل ناعقٍ يؤخذ بقوله، فهذا علي رضي الله عنه يقول: (الناسُ ثلاثة؛ عالمٌ رباني، ومتعلمٌ على سبيلِ نجاة، وهمجٌ رُعاع أتباعُ كل ناعق، لم يستضيئوا بنورِ العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق)[٢٦٨].

- فالعالم الرباني: الذي علم وعمل وعلَّم، فإذا رأيت الشخص على علمٍ وعملٍ ودعوةٍ لهذا العلم فذاك العالم الرباني.

-والمتعلِّم الذي على سبيلِ نجاة: هو الذي سلكَ طريق العلم ولكنه لم يصل إلى درجةِ العلماء.

-القسمُ الثالث: وصفهم-رضي الله عنه-بقوله: (همجٌ رعاع):

الهمج: هو صغار الذباب الذي يأتي على المواشي بأطراف البادية وهو نوعٌ صغير جداً ليس كذباب المدن إذا جاءَ على وجه إنسان أو على الماشية يلتصق[٢٦٩].

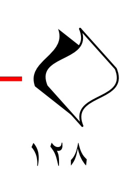
والرُعاع: هم السوقَ من الناس الذين لا عقولَ لهم، ما شأن هؤلاء؟ ما وصفهم؟

---

٢٦٧ منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٠٩).

٢٦٨ أخرجه أبو نعيم في ((الحلية))، (١ / ٧٩) وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله))، (١٨٧٨)، والخطيب في ((الفقيه والمتفقه))، (١ / ١٨٢).

٢٦٩ انظر لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣٩٢).



أتباعُ كلُ ناعق[٢٧٠]؛ يعني أي واحد يقف ويحسِّن من صوته وكلامه ويجعجع بما شاء سرعان ما التف عليه هؤلاء، دون تمييز هل هذا الذي قاله حق أو باطل؟ إذ ليس عند هؤلاء قدرة على التمييز ولكن حسِّن لهم الأمر وحسَّن لهم القول واستطاعَ هذا القائل أن يُلهبَ مشاعرهم وأن يحرِّكَ قلوبهم فملَكَهم بهذه الجعجعة التي قد تكون على باطل.

فهؤلاء لم يستضيئوا بنورِ العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق، الركن الوثيق هو قولُ الله وقولُ رسوله صلى الله عليه وسلم وقولُ السلف الصالح، فإذا جاء شخص يدعو إلى أمرٍ ما فالمقياس الذي يقاسُ به صحةَ قوله من عدمِ ذلك والدليل: قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم وهل هذا الفهم لقولِ الله وقول رسوله وفقَ كلام السلف أم لا.

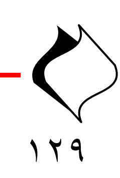
فإذا رأيته يستشهد بقال الله وقال الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك كلام السلف الصالح فاعلم أن هذا ليس من جيبه وإنما هذا من المـَعين الصافي؛ الحق الذي تركنا عليه النبي صلى الله عليه وسلم والذي التزمه وتمسكَ به من جاء من بعده من أصحابه رضوان الله عليهم.

ثم قال المصنف: **"فانظر–رحمك الله–كل مَن سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة فلا تعجلن ولا تدخلنَّ في شيءٍ منه حتى تسألَ وتنظر هل تكلم به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو أحدٌ من العلماء فإن وجدت فيه أثراً عنهم فتمسك به ولا تُجاوزه لشيء"**

فالتمسك والالتزام بالحق لا لأنه قولُ هذا الشخص ولكن لأنه قولُ أولئك ولذلك عبد الله بن مسعود قال: (مَن كان منكم مستَّنّاً فليستنَّ بمَن قد مات فإن الحيَ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة)، أولئك أصحابُ محمد أبَّر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً

---

٢٧٠ انظر لسان العرب لابن منظور (٨/ ١٢٨).



وأقلها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه وإقامةِ دينه فاعرفوا لهم حقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

فهم أبَّر هذه الأمة قلوباً، أعظمها إيماناً وأصلحها قلوباً، وأعمقها علماً، فمَن أعلم من أصحابِ محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين؟ فليس هناك أعلم منهم، "وأقلها تكلُّفاً" أي أبعدُ الناسِ عن البدع، فلم ينقل أن أحداً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ابتدعَ أو أحدَثَ بدعة، هذا ما لم يكن، فهذه دعوةُ أهل السنَّة؛ إلى تمسكٍ بآثارهم، هل تكلمَ به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحدٌ من العلماء؟ فإن وجدت فيه أثراً عنهم فتمسك به ولا تُجاوزه لشيء ولا تختارَ عليه شيئاً فتسقطَ فيه.

فإذاً لزوم السنَّة هو سفينةُ النجاة كما قال السلف، فإذا أردت سفينة النجاة فاركبها،

والسنَّة هي ما كان عليها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعي التابعين.

(المتن)

[٧] "واعلم أن الخروج من الطريق على وجهين:

أما أحدهما: فرجل زل عن الطريق، وهو لا يريد إلا الخير، فلا يُقتدى بزلته، فإنه هالك.

وآخر عاند الحق وخالف من كان قبله من المتقين، فهو ضال مضل، شيطان مريد في هذه الأمة، حقيق على من يعرفه أن يحذر الناس منه، ويبين لهم قصــته؛ لئلا يقع أحد في بدعته فيهلك".

(الشرح)

قول المصنف: "**واعلم أن الخروج من الطريق على وجهين؛ أما أحدهما: فرجل زل عن الطريق، وهو لا يريد إلا الخير، فلا يُقتدى بزلته، فإنه هالك،**"

أراد المصنف أن يبين الخروج عن طريق الحق يكون على أحدِ حالين:

١) إما شخص هو مُرِيد ويطلب الحق لكن زلَّ عنه: لم يعرفه، فطبعاً هذا الزلل قد يأتي من وجوه لكن أصلُ قصدِ هذا الشخص إرادة الحق لكن لم يَصِب هذا الحق.

ومعلومٌ كم من طالبٍ للخير لم يُصِبه، فبعضُ الناس يريد الخير وقصده الخير ثم يُحدِثُ بدعةً من البدع ظنًّا منه أن هذا قربة إلى الله سبحانه وتعالى؛ ونعلم أن القربة والطاعة إلى الله عز وجل لا تكونُ إلا بما شرع، وأمرٌ لم يَشرَعه الله عز وجل في كتابه أو على لسانِ رسوله صلى الله عليه وسلم فهو مردود.

فقد يريد الإنسان الخير ثم يفعل فعلاً من الأفعال؛ يبتدِع بدعةً من البدع، أصلُ قصده التزوُّد في الخير، والنبي صلى الله عليه وسلم كاد أن يقع في عصره شيءٌ من هذا فقطعَ طريقه، ألم يأته أولئك النفر الذين جاؤوا إلى بيوتِ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وسألوا عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فكأنهم تقالُّوها فقال أحدهم: أنا أصومُ ولا أُفطِر؛ أراد الخير أم لا؟، وقال الآخر: أنا لا أتزوج النساء، وقال الثالث: أنا أقوم الليل ولا أنام، أرادوا الخير وأرادوا التزوُّد من العبادة لكن على خلاف سنَّة

النبي صلى الله عليه وسلم، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بأمرهم استدعاهم وقال لهم:

((أما إني أصومُ وأُفطِر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء، فمَن رغب عن سنتي فليس مني))[٢٧١] فبيَّن هذا المنهج فارتدعوا عما هم عليه.

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فوجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين قال: ((هذا لمـَن؟ قالوا: لزينب؛ تقوم تصلي من الليل فإذا فَترَت –يعني تعبت– تعلقت بهذين الحبلين حتى يعينها على القيام، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحلِّه، قال: حلُّوه ليصلي أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد))[٢٧٢].

فإذاً كم من الناس على هذا المنوال، يريد أن يجتهد في أمرٍ من أمورِ الدين ولكنه على خلاف السنَّة، وأصلُ قصده الخير لكن لم يَصِب هذا الخير، لا عذر لقائل أن تقول: أردت الخير أو قصدتُ الخير، فلا حجة في مثل هذا القصد.

والأمثلة على ذلك في السنَّة كثيرة، فالنبي صلى الله عليه وسلم قطعَ كل طريقٍ يخالف هذه السنَّة، فإذاً قد يكون هذا الذي خرج أصلُ قصده الخير، فلا يُقتدى بزلَّته فإنه هالك.

ولو استمر هؤلاء على ما استمروا عليه، فإن أول مَن تبرأ منه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «فمَن رغبَ عن سنتي فليس مني»[٢٧٣].

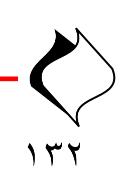
٢) وآخر عاندَ الحق وخالف مَن كان قبله من المتقين: فبعضُ الناس قصده أصلاً معاندة الحق ومخالفة الحق فيُحدِث في دينِ الإسلام بُغية النكاية بأهلِ الإسلام.

---

٢٧١ انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ٤٧٠٠.

٢٧٢ انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد، حديث رقم ١٣١٢.

٢٧٣ انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ٤٧٠٠.



فعبد الله بن سبأ[٢٧٤]؛ ذلك اليهودي أحدثَ ما أحدثَ في المسلمين يريد بذلك إفساد دينهم عليهم لأن البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية كما يقول العلماء، لأن المعصية يعرف صاحبها أنه على باطل ولذلك هو دائماً في تأنيبِ ضمير، فضميره يؤنِّبه أنه قد فعل ما فعل من المعاصي والذنوب.

أما البدعة فهي مُتصوَّرة لشخصه بأنها هي الحق فيفعلها وهو معتقد أنها الحق فقلَّ أن يتوبَ منها، فالبدعةُ أحبُّ إلى الشيطان من المعصية.

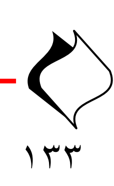
ولذلك قلب صاحب السنَّة كما نصح ابن تيمية ابن القيم نصيحة جميلة ليتنا نأخذ بها، حيث يقول له: ((لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشْربتَ قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات أو كما قال))[٢٧٥]

فليكن قلبك كالزجاجة ولا يكن كالإسفنجة، أي شبهة تَرِد أو أي بدعة تَرِد على هذا المسكين صاحب القلب الذي كالإسفنجة يمتص هذه الأشياء ويقبلها ولا يميِّز، فلابد لقلبِ المؤمن من التمييز، ليكن قلبه كالزجاجة يرى الأشياء بصفائها؛

---

٢٧٤ "عبد الله بن سبأ كان يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عن أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع وقد قال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} فمحمد أحق بالرجوع من عيسى قال: فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصى محمد ثم قال: محمد خاتم الانبياء وعلى خاتم الأوصياء ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمر الأمة ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر" انظر الفتنة ووقعة الجمل للأسدي (٤٩)

٢٧٥ مفتاح دار السعادة: ١٤٠، وفي ط دار ابن عفان: ١/٤٤٣.

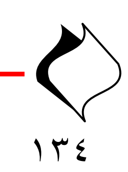


بصفاء هذه الزجاجة يرى الأشياء التي خلفها ولكن يمنع دخول الشيء الباطل إليه فعند ذلك تميز بين ما هو حق وما هو باطل.

فأكثرُ البدع إنما أُنشئت من قِبَلِ أهلِ الباطل، أرادوا بها هدمَ دينِ الإسلام فعند ذلك إذا جئت إلى أصولِ البدع تجدها إما يهودية وإما نصرانية وإما مجوسية، فجاءت إلينا من طريقِ أولئك، فكل من خالف الحق وخالف مَن كان قبله من المتقين فهو ضالٌّ مضِّل شيطانٌ مريدٌ في هذه الأمة حقيقٌ على مَن يعرفه أن يحذِّر الناسَ منه ويبيِّن للناسِ قصته لئلا يقع أحدًا في بدعته فيهلك.

فيجب أن نميّز بين هذين النوعين فعند ذلك قد يأتيك الباطل من جهةِ أنك أنت تريد الحق فتقع في البدع، أو بحيلِ أولئك الذين أرادوا هدمَ الإسلام وتشويه الإسلام أولئك احتالوا حتى زيَّنوا للناسِ تلك البدع وألبسوها بثوبِ الحق، وغالباً صاحب البدعة يحاول قدر الإمكان أن يُلبِسها ثوبَ حق، فمثلاً مَن منا لا يحبُ آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فجاء من زيَّن بدعته بقالبِ حب بيتِ آلِ النبي صلى الله عليه وسلم، مَن لا يعلم منّا أن الزهدَ مطلبٌ شرعي فجاءَ مَن يزيِّن بدعته بقالبِ الزهد، وهكذا.

وجاءَ مَن يزيّن بدعته بقالبِ العبادة، فكلُّ واحدٍ من أهل الباطل يحاول أن يُلبِس هذه البدعة ثوبًا ولباساً من لباس الحق ويدُّس من خلالها السم، فعلى الإنسان أن يكونَ بصيراً واعياً عارفاً لأنه لا حجة لك ولا عذرَ لك مادام أن الحقَ واضح جليّ لكل أحد، يبقى أنك أنت الذي قصرت في علمه وفي طلبه ومعرفته.



(المتن)

[٨] "واعلم رحمك الله أنه لا يتم إسلام عبد حتى يكون متبعاً مصدقاً مسلماً، فمن زعم أنه بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقد كذَّبهم، وكفى به فرقة وطعنا عليهم، وهو مبتدع ضال مضل، محدث في الإسلام ما ليس منه".

(الشرح)

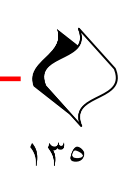
لا يتم إسلامُ عبدٍ حتى يكون متبعاً مصدِّقاً مسلِّما؛ فنحن مأمورونَ بالاتباع، نقتدي ولا نبتدئ، نتبعُ ولا نبتدِع، وهذا أصلٌ أصيلٌ عند أهل السنة؛ أننا أهل اتباع وأهل اقتداء بأصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم، أولئك هم أئمتنا، أولئك هم قدوتنا، هذا الذي ألزمنا الله تعالى به فقال: (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ) [التوبة: ١٠٠].

ما قال جانبوهم، وما قال باعدوهم، إنما قال اتبعوهم، فإذًا نتبع فنحن أهلُ اتباع وأهلُ اقتداء، فلابد أن تكون متبِّعاً مصدِّقاً مسلماً، فمَن زعم أنه قد بقيَ شيءٌ من أمرِ الإسلام لم يُكفاه من جهةِ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فهذا لا شك أنه من أبطل الباطل ولهذا يقول الأوزاعي: (العلمُ ما جاءَ من أصحابِ محمد)[٢٧٦] هذا الذي تواصى به السلف، وعظَّموه وأجلُّوه وحفظوه حتى بأساميه فتستطيع أن تسأل عن الأثر عن ابن عباس هل هو من طريقٍ صحيح أو من طريقٍ مكذوب.

وكما حُفظَت لنا سنَّة النبي صلى الله عليه وسلم، حُفظَّت لنا آثارُ الصحابة، فهي علم محفوظ ومدوَّن بحمد الله تعالى، ما بقي علينا إلا أن نلزمه ونعودُ إليه ونعطيه حقه من التعظيم والاحترام، وهذا الذي يفعله أصحاب السنن، وتأمل كلام البخاري

---

٢٧٦ انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢ / ٢٩.



فهو إذا عنوّن أو بوّب جاء بعد ذلك بالآثار عن الصحابة والتابعين وقد يسبقها الأحاديث أحياناً لأنها تكون شارحة وموضحة لما عقده من أبوابٍ وعناوين.

مثلاً كتابُ التوحيد؛ باب: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء) [هود:٧] فأول ما بدأ قال أبو العالية علا: ارتفع، وبدأ يذكر أقوال السلف في تفسير الاستواء، فإذا فتحت البخاري ستجد فيه قال الله وقال رسوله وقال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، هذا الذي كان عليه البخاري، هذا الذي كان يسير عليه وهكذا دوَّن علمه.

وهكذا لو فتحت تفسير الطبري ستجد الآيات ويُتبعها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم شرحاً، وكذلك أقوال الصحابة والتابعين فيقول: وتأويلُ قوله تعالى كذا حدِّثنا فلان حدَّثنا فلان حتى يصل إلى ابن عباس أو مجاهد أو عطاء ومثلُ ذلك، فهذا الذي كان عليه علمهم، فمَن زعم أنه بقيَ شيء لم نُكفاه من ق\بل هؤلاء فهذا تكذيبٌ لهم، فقد كذَّبهم وكفى به فرقةٌ وطعناً عليهم.

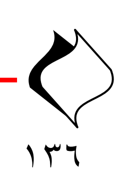
فالتعظيم ليس تعظيماً صورياً، ليس فقط الترضِّي عليهم أو الترَّحم عليهم بل أيضاً أنت مأمورٌ بالاقتداءِ بهم بنصِ كلام الله عز وجل وبنص سنَّة النبي صلى الله عليه وسلم:((عليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ))[٢٧٧]، أمرنا أن نلزمها وأن نتمسكَ بها، وعندما سُئِل عن الفرقة الناجية قال: «مَن كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي[٢٧٨]».

فإذاً مَن خالفَ هذا المنهج وأرادَ أن يطلبَ علماً أو زعم أنه لا يكفينا ما جاءَ عنهم فهذا مبتدِع وضال مضِّل ومحدِث في دين الإسلام ما ليس منه.

---

٢٧٧ انظر: مسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، حديث رقم ١٦٨١٣، وقال الشيخ الألباني حديث صحيح في السلسلة الصحيحة الصفحة أو الرقم ٢٧٣٥ / ٥٢٦.

٢٧٨ انظر: جامع الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، حديث رقم ٢٥٨٤، قال الشيخ الألباني حديث حسن في كتاب الجامع الصحيح، سنن الترمذي، الصفحة / الرقم ٢٦ / ٢٦٤١.



فمخالفتهم شر وشؤم يقول ابن عباس —رضي الله عنهما-: "مَا أَتَى عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً، وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً، حَتَّى تَحْيَى الْبِدَعُ، وَتَمُوتَ السُّنَنُ[٢٧٩]"

ففي مقابلة إحياء البدع تموت السنة، ولذلك انظر لهؤلاء المخالفين لمنهج السلف في علم العقيدة، تجد أن أهل الفلسفة والكلام نبذوا كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم، وكما يقول شيخ الإسلام: وكما هو واقعٌ منهم أنهم استجهلوا أعلام هذه الأمة وأفضل هذه الأمة علماً وخيراً واعتقاداً وسلوكاً، أصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده من التابعين وتابعي التابعين، الذين إذا قرأ الإنسان في سيرهم احتقر نفسه لما كانوا عليه من العلم والفضل، حتى أن أحدهم ليحفظ ألوف المسائل.

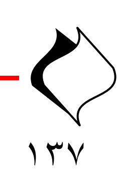
كل هذا، وشكَّكُوا وطعنوا في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم واستعاضوه واستبدلوا به بدلاً من هذا بقواعد المنطق والفلسفة، وركبوا التوحيد على هذا الأساس.

ومن عاد إلى كتبهم وقرأ، سيجد علماً لا أساس له من الكتاب والسنة، ومركَّباً وفق قواعد المنهج الفلسفي، فإذاً لما أدخل هؤلاء الفلسفة والمنطق في هذا العلم وفي غيره، كان هذا على حساب الكتاب والسنة؛ وهكذا فعل المتصوفة لما أحدثوا ما أحدثوا من البدع، كان هذا على حساب إتباع السنة.

قال ابن القيم في معرض حديثه عن الصحابة: "فَهَؤُلَاءِ بَرْكُ الْإِسْلَامِ، وَعِصَابَةُ الْإِيمَانِ، وَأَئِمَّةُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، وَأَنْصَحُ الْأَئِمَّةِ لِلْأُمَّةِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْأَحْكَامِ وَأَدِلَّتِهَا، وَأَفْقَهُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ، وَأَعْمَقُهُمْ عِلْمًا، وَأَقَلُّهُمْ تَكَلُّفًا، وَعَلَيْهِمْ دَارَتْ الْفُتْيَا، وَعَنْهُمْ انْتَشَرَ الْعِلْمُ، وَأَصْحَابُهُمْ هُمْ فُقَهَاءُ الْأُمَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مُقِيمًا بِالْكُوفَةِ كَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَبِالْمَدِينَةِ كَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَابْنِهِ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ،

---

٢٧٩ انظر المعجم الكبير للطبراني برقم (١٠٦١٠).



وَبِالْبَصْرَةِ كَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَبِالشَّامِ كَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَبِمَكَّةَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَبِمِصْرَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَعَنْ هَذِهِ الْأَمْصَارِ انْتَشَرَ الْعِلْمُ فِي الْآفَاقِ، وَأَكْثَرُ مَنْ رُوِيَ عَنْهُ التَّحْذِيرُ مِنْ الرَّأْيِ مَنْ كَانَ بِالْكُوفَةِ إرْهَاصًا بَيْنَ يَدَيْ مَا عَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَحْدُثُ فِيهَا بَعْدَهُمْ"[٢٨٠]

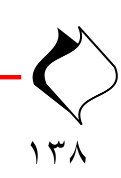
قال ابن القيم: "وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَنْشَدَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَحْيَى أَنْشَدَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ الْخَضِرِ الْأَسْيُوطِيُّ بِمَكَّةَ أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنْشَدَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِيهِ:

"دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ آثَارُ... نِعْمَ الْمَطِيَّةُ لِلْفَتَى الْأَخْبَارُ
لَا تُخْدَعَنَّ عَنْ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ... فَالرَّأْيُ لَيْلٌ وَالْحَدِيثُ نَهَارُ
وَلَرُبَّمَا جَهِلَ الْفَتَى طُرُقَ الْهُدَى... وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَهَا أَنْوَارُ
وَلِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ:
الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ... قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ خُلْفٌ فِيهِ
مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً... بَيْنَ النُّصُوصِ وَبَيْنَ رَأْيِ سَفِيهِ
كَلَّا وَلَا نَصْبُ الْخِلَافِ جَهَالَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فَقِيهِ
كَلَّا وَلَا رَدُّ النُّصُوصِ تَعَمُّدًا ... حَذَرًا مِنْ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ
حَاشَا النُّصُوصَ مِنْ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ... مِنْ فِرْقَةِ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْوِيهِ"[٢٨١]

---

[٢٨٠] إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٤٨

[٢٨١] إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٦٢



(المتن)

[٩] "واعلم رحمك الله أنه ليس في السنة قياس، ولا يُضرب لها الأمثال، ولا تتبع فيها الأهواء، وهو التصديق بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا كيف ولا شرح، ولا يقال: لم ولا كيف؟"

(الشرح)

هذه مقولة الإمام أحمد رحمه الله حيث قال: ((وليس في السنة قياس، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول ولا الأهواء، إنما هو الاتباع وترك الهوى))[٢٨٢].

ويقول الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين "٣٢٤ – ٣٩٩هـ": "اعلم رحمك الله أن السنة دليل القرآن، وأنها لا تدرك بالقياس، ولا تؤخذ بالعقول، وإنما هي في الاتباع للأئمة، ولما مشى عليه جمهور هذه الأمة"[٢٨٣]

ويقول الإمام أبو نصر السجزي "ت ٤٤٤هـ": "ولا خلاف بين العقلاء في أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعلم بالعقل، وإنما تعلم بالنقل"[٢٨٤].

وقال: "... فكل مدع للسنة يجب أن يطالب بالنقل الصحيح بما يقوله فإن أتى بذلك علم صدقه، وقبل قوله، وإن لم يتمكن من نقل ما يقوله عن السلف، علم أنه محدث زائغ"[٢٨٥].

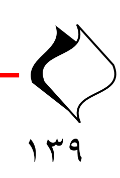
---

٢٨٢ أصول السنة (ص ١٦) وشرح أصول معتقد أهل السنة والجماعة للالكائي ١ / ١٥٦ـــ١٥٨، ومناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي (١٧١-١٧٢).

٢٨٣ أصول السنة (١/ ٢٠).

٢٨٤ الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص ٩٩).

٢٨٥ الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص ١١).



وقال أبو المظفر السمعاني "٤٨٩هـ": "... فلابد من تعرف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وليس طريق معرفتنا إلا النقل، فيجب الرجوع إلى ذلك..."[٢٨٦].

والمقصود بالسنة هنا العقيدة كما تقدم ذكره.

الحديث عن القياس يمكن تناوله من جانبين: فالقياس على نوعين:

- قياس محمود
- قياس مذموم.

أما القياس المحمود: فهو الذي تناوله العلماء في كتب الفقه وأصوله باعتباره أحد الأدلة المعتبرة ويحتل المرتبة الرابعة في الترتيب بعد القرآن والسنة والإجماع، وهو أصل عظيم الشأن جليل القدر استنبطت من كثير من الأحكام قال الإمام أحمد " لا يستغني أحد عن القياس"[٢٨٧] .

"ولقد أجمعت الأمة على العمل بالقياس، وقد وردت بذلك الآثار، وتواتر ذلك المعني عن الصحابة والتابعين وأئمة الهدي؛ فقال به جماهير العلماء منهم الأئمة الأربعة والمحققون من الأصوليين، فجعلوه من الأصول المتفق عليها، إلى أن جاء النظام المعتزلي فقال بإنكاره وتبعه على ذلك كثير من المعتزلة، وداود الظاهري، واتباع المذهب الظاهري والإمامية من الروافض."[٢٨٨]

والفرق بين القياس المحمود والقياس المذموم: أن القياس المحمود يعتمد النصوص الشرعية أصلاً ثم يقيس عليها "فأركان القياس التي يقوم عليها أربعة هي:

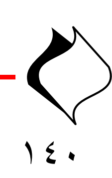
- الأصل.
- الفرع.

---

٢٨٦ الانتصار لأهل الحديث (ص ١٦٥).

٢٨٧ العدة للقاضي أبو يعلى (٤/ ١٢٨٠).

٢٨٨ حجية القياس والرد على المخالفين ص ٤-٥.



- العلة.
- الحكم

ولابد لكل قياس من توفر هذه الأركان

فالأصل: هو المعلوم الذي ثبت حكمه بالشرع وهو ما يقاس عليه ويشبه الفرع به.

والفرع هنا هو الأمر الذي لم يرد حكمه في الشرع ابتداء وهو ما يطلب قياسه على الأصل.

والعلة: هي الوصف الجامع بين الأصل والفرع.

والحكم: هو ثمرة قياس الفرع على الأصل"[٢٨٩]

أما القياس الفاسد فعلى العكس من ذلك فهو يجعل العقل بحد زعمهم أصلاً ثم يعرضون النص عليه.

فالمراد بالقياس الفاسد ما ذهب إليه أهل الباطل من تقديم عقولهم على النصوص وزعمهم أنهم أحيلوا في معرفة دين الله على مجرد عقولهم، وأن لهم أن يدفعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصاً أو ظاهراً.

ويلزم من مثل هذا الادعاء لوازم فاسدة منها:

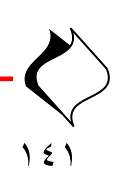
١-أن يكون ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير؛ بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين؛

٢-كما أن ذلك يستلزم أن لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة.

٣-ومنها: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء مما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة

---

[٢٨٩] حجية القياس والرد على المخالفين ص ١٠



عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، والقرآن هو النبأ العظيم؛ وهذا فتح باب الزندقة نسأل الله تعالى العافية.[٢٩٠]

فأهل البدع وضعوا قواعد، مأخوذة من منطق اليونان، ومن الأقيسة العقلية، ومن مصادر آخر، وحاكموا النصوص إليها، فما وافق قواعدهم قبلوه، وما خالف قواعدهم ردوه، فكانت الطامة التي أدت بهم إلى رد النصوص.

وهذا النوع المذموم هو المراد بقول المصنف: "**ليس في السنة قياس**"

وكلمة قياس وكلمة رأي هنا بمعنى واحد وقد جمعهما المصنف في الفقرة (٩٣) فقال في ذم الجهمية:" **وأخذوا بالقياس والرأي**".

فالمقصود بالقياس هنا هو الرأي المذموم؛ الذي هو أن يُبتدأ في دين الله تعالى بالعقل ابتداء، وهذا الذي فعله أهل الكلام.

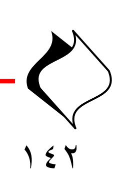
قال ابن القيم: " الرَّأْيُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ " رَأَى الشَّيْءَ يَرَاهُ رَأْيًا " ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْمَرْئِيِّ نَفْسِهِ، مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ الْمَصْدَرِ فِي الْمَفْعُولِ، كَالْهَوَى فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ هَوِيَهُ يَهْوَاهُ هَوًى، ثُمَّ أُسْتُعْمِلَ فِي الشَّيْءِ الَّذِي يُهْوَى؛ فَيُقَالُ: هَذَا هَوَى فُلَانٌ، وَالْعَرَبُ تُفَرِّقُ بَيْنَ مَصَادِرِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ بِحَسَبِ مَحَالِّهَا فَتَقُولُ: رَأَى كَذَا فِي النَّوْمِ رُؤْيَا، وَرَآهُ فِي الْيَقِظَةِ رُؤْيَةً، وَرَأَى كَذَا–لِمَا يُعْلَمُ بِالْقَلْبِ وَلَا يُرَى بِالْعَيْنِ–رَأْيًا، وَلَكِنَّهُمْ خَصُّوهُ بِمَا يَرَاهُ الْقَلْبُ بَعْدَ فِكْرٍ وَتَأَمُّلٍ وَطَلَبٍ لِمَعْرِفَةِ وَجْهِ الصَّوَابِ مِمَّا تَتَعَارَضُ فِيهِ الْأَمَارَاتُ؛ فَلَا يُقَالُ لِمَنْ رَأَى بِقَلْبِهِ أَمْرًا غَائِبًا عَنْهُ مِمَّا يُحَسُّ بِهِ أَنَّهُ رَأْيُهُ، وَلَا يُقَالُ أَيْضًا لِلْأَمْرِ الْمَعْقُولِ الَّذِي لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ الْعُقُولُ وَلَا تَتَعَارَضُ فِيهِ الْأَمَارَاتُ إنَّهُ رَأْيٌ، وَإِنْ احْتَاجَ إلَى فِكْرٍ وَتَأَمُّلٍ كَدَقَائِقِ الْحِسَابِ وَنَحْوِهَا.

أما أقسام الرأي

فالرَّأْيُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

---

٢٩٠ انظر: درء التعارض ٥/ ٢٤٢–٢٤٣.



- رَأْيٌ بَاطِلٌ بِلَا رَيْبٍ.
- وَرَأْيٌ صَحِيحٌ.
- وَرَأْيٌ هُوَ مَوْضِعُ الِاشْتِبَاهِ.

وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ قَدْ أَشَارَ إلَيْهَا السَّلَفُ:

فَاسْتَعْمَلُوا الرَّأْيَ الصَّحِيحَ، وَعَمِلُوا بِهِ وَأَفْتَوْا بِهِ، وَسَوَّغُوا الْقَوْلَ بِهِ.

وَذَمُّوا الْبَاطِلَ، وَمَنَعُوا مِنْ الْعَمَلِ وَالْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ بِهِ، وَأَطْلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِذَمِّهِ وَذَمِّ أَهْلِهِ.

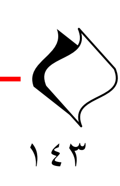
وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: سَوَّغُوا الْعَمَلَ وَالْفُتْيَا وَالْقَضَاءَ بِهِ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ إلَيْهِ حَيْثُ لَا يُوجَدُ مِنْهُ بُدٌّ، وَلَمْ يُلْزِمُوا أَحَدًا الْعَمَلَ بِهِ، وَلَمْ يُحَرِّمُوا مُخَالَفَتَهُ، وَلَا جَعَلُوا مُخَالِفَهُ مُخَالِفًا لِلدِّينِ، بَلْ غَايَتُهُ أَنَّهُمْ خَيَّرُوا بَيْنَ قَبُولِهِ وَرَدِّهِ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا أُبِيحَ لِلْمُضْطَرِّ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الَّذِي يَحْرُمُ عِنْدَ عَدَمِ الضَّرُورَةِ إلَيْهِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: سَأَلْتُ الشَّافِعِيَّ عَنْ الْقِيَاسِ، فَقَالَ لِي: عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَكَانَ اسْتِعْمَالُهُمْ لِهَذَا النَّوْعِ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ: لَمْ يُفَرِّطُوا فِيهِ وَيُفَرِّعُوهُ وَيُوَلِّدُوهُ وَيُوَسِّعُوهُ كَمَا صَنَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِحَيْثُ اعْتَاضُوا بِهِ عَنْ النُّصُوصِ وَالْآثَارِ، وَكَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِفْظِهَا، كَمَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَضْبِطُ قَوَاعِدَ الْإِفْتَاءِ لِصُعُوبَةِ النَّقْلِ عَلَيْهِ وَتَعَسُّرِ حِفْظِهِ، فَلَمْ يَتَعَدَّوْا فِي اسْتِعْمَالِهِ قَدْرَ الضَّرُورَةِ، وَلَمْ يَبْغُوا الْعُدُولَ إلَيْهِ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ النُّصُوصِ وَالْآثَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُضْطَرِّ إلَى الطَّعَامِ الْمُحَرَّمِ: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣] فَالْبَاغِي: الَّذِي يَبْتَغِي الْمَيْتَةَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّوَصُّلِ إلَى الْمُذَكَّى، وَالْعَادِي: الَّذِي يَتَعَدَّى قَدْرَ الْحَاجَةِ بِأَكْلِهَا."[٢٩١]

قال ابن القيم: "الرَّأْيُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: رَأْيٌ مُجَرَّدٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ خَرْصٌ وَتَخْمِينٌ، فَهَذَا الَّذِي أَعَاذَ اللَّهُ الصِّدِّيقَ وَالصَّحَابَةَ مِنْهُ.

---

[٢٩١] إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٥٢-٥٣



وَالثَّانِي: رَأْيٌ مُسْتَنِدٌ إِلَى اسْتِدْلَالٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ النَّصِّ وَحْدَهُ أَوْ مِنْ نَصٍّ آخَرَ مَعَهُ"[٢٩٢]

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: رَأْيُ أَفْقَهِ الْأُمَّةِ، وَأَبَرِّ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقِهِمْ عِلْمًا، وَأَقَلِّهِمْ تَكَلُّفًا، وَأَصَحِّهِمْ قُصُودًا، وَأَكْمَلِهِمْ فِطْرَةً، وَأَتَمِّهِمْ إدْرَاكًا، وَأَصْفَاهُمْ أَذْهَانًا، الَّذِي شَاهَدُوا التَّنْزِيلَ، وَعَرَفُوا التَّأْوِيلَ، وَفَهِمُوا مَقَاصِدَ الرَّسُولِ؛ فَنِسْبَةُ آرَائِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَقُصُودُهُمْ إلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-كَنِسْبَتِهِمْ إلَى صُحْبَتِهِ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْفَرْقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ فِي الْفَضْلِ؛ فَنِسْبَةُ رَأْيِ مَنْ بَعْدَهُمْ إلَى رَأْيِهِمْ كَنِسْبَةِ قَدْرِهِمْ إلَى قَدْرِهِمْ.

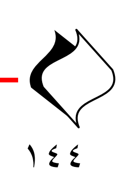
النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: الرَّأْيُ الَّذِي يُفَسِّرُ النُّصُوصَ، وَيُبَيِّنُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ مِنْهَا، وَيُقَرِّرُهَا وَيُوَضِّحُ مَحَاسِنَهَا، وَيُسَهِّلُ طَرِيقَ الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهَا، كَمَا قَالَ عَبْدَانُ: سَمِعْت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ يَقُولُ: لِيَكُنْ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْأَثَرُ، وَخُذْ مِنْ الرَّأْيِ مَا يُفَسِّرُ لَك الْحَدِيثَ، وَهَذَا هُوَ الْفَهْمُ الَّذِي يَخْتَصُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

وَمِثَالُ هَذَا رَأْيُ الصَّحَابَةِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-فِي الْعَوْلِ فِي الْفَرَائِضِ عِنْدَ تَزَاحُمِ الْفُرُوضِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَنَا عَاصِمٌ الْأَحْوَلُ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ الْكَلَالَةِ، فَقَالَ: إنِّي سَأَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، أَرَاهُ مَا خَلَا الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ.

---

٢٩٢ إعلام الموقعين ١/ ٦٥.



فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَا مَعَ مَا صَحَّ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: " أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِنْ قُلْت فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِي "، وَكَيْفَ يُجَامِعُ هَذَا الْحَدِيث الَّذِي تَقَدَّمَ «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»؟

فَالْجَوَابُ أَنَّ الرَّأْيَ نَوْعَانِ:

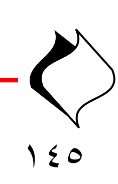
أَحَدُهُمَا: رَأْيٌ مُجَرَّدٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ خَرْصٌ وَتَخْمِينٌ، فَهَذَا الَّذِي أَعَاذَ اللَّهُ الصِّدِّيقَ وَالصَّحَابَةَ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: رَأْيٌ مُسْتَنِدٌ إِلَى اسْتِدْلَالٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ النَّصِّ وَحْدَهُ أَوْ مِنْ نَصٍّ آخَرَ مَعَهُ،

فَهَذَا مِنْ أَلْطَفِ فَهْمِ النُّصُوصِ وَأَدَقِّهِ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: الَّذِي تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَتَلَقَّاهُ خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ؛ فَإِنَّ مَا تَوَاطَئُوا عَلَيْهِ مِنْ الرَّأْيِ لَا يَكُونُ إلَّا صَوَابًا، كَمَا تَوَاطَئُوا عَلَيْهِ مِنْ الرِّوَايَةِ وَالرُّؤْيَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لِأَصْحَابِهِ وَقَدْ تَعَدَّدَتْ مِنْهُمْ رُؤْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ» فَاعْتَبَرَ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-تَوَاطُؤَ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ، فَالْأُمَّةُ مَعْصُومَةٌ فِيمَا تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ رِوَايَتِهَا وَرُؤْيَاهَا، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ سَدَادِ الرَّأْيِ وَإِصَابَتِهِ أَنْ يَكُونَ شُورَى بَيْنَ أَهْلِهِ، وَلَا يَنْفَرِدُ بِهِ وَاحِدٌ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَوْنِ أَمْرِهِمْ شُورَى بَيْنَهُمْ، وَكَانَتْ النَّازِلَةُ إذَا نَزَلَتْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-لَيْسَ "عِنْدَهُ فِيهَا نَصٌّ عَنْ اللَّهِ وَلَا عَنْ رَسُولِهِ جَمَعَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-ثُمَّ جَعَلَهَا شُورَى بَيْنَهُمْ.

النَّوْعُ الرَّابِعُ مِنْ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: أَنْ يَكُونَ بَعْدَ طَلَبِ عِلْمِ الْوَاقِعَةِ مِنْ الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا فِي الْقُرْآنِ فَفِي السُّنَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا فِي السُّنَّةِ فَبِمَا قَضَى بِهِ الْخُلَفَاء "الرَّاشِدُونَ أَوْ اثْنَانِ مِنْهُمْ أَوْ وَاحِدٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ فَبِمَا قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ وَنَظَرَ إلَى أَقْرَبِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ-



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَأَقْضِيَةِ أَصْحَابِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي سَوَّغَهُ الصَّحَابَةُ وَاسْتَعْمَلُوهُ، وَأَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ.[٢٩٣]

الرَّأْيُ الْبَاطِلُ وَأَنْوَاعُهُ

قال ابن القيم: "الرَّأْيُ الْبَاطِلُ أَنْوَاعٌ:

أَحَدُهَا: الرَّأْيُ الْمُخَالِفُ لِلنَّصِّ، وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ فَسَادُهُ وَبُطْلَانُهُ، وَلَا تَحِلُّ الْفُتْيَا بِهِ وَلَا الْقَضَاءُ، وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ مَنْ وَقَعَ بِنَوْعِ تَأْوِيلٍ وَتَقْلِيدٍ.

النَّوْعُ الثَّانِي: هُوَ الْكَلَامُ فِي الدِّينِ بِالْخَرْصِ وَالظَّنِّ، مَعَ التَّفْرِيطِ وَالتَّقْصِيرِ فِي مَعْرِفَةِ النُّصُوصِ وَفَهْمِهَا وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْهَا، فَإِنَّ مَنْ جَهِلَهَا وَقَاسَ بِرَأْيِهِ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، بَلْ لِمُجَرَّدِ قَدْرٍ جَامِعٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَلْحَقَ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، أَوْ لِمُجَرَّدِ قَدْرٍ فَارِقٍ يَرَاهُ بَيْنَهُمَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إلَى النُّصُوصِ وَالْآثَارِ؛ فَقَدْ وَقَعَ فِي الرَّأْيِ الْمَذْمُومِ الْبَاطِلِ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الرَّأْيُ الْمُتَضَمِّنُ تَعْطِيلَ أَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِالْمَقَايِيسِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي وَضَعَهَا أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ، حَيْثُ اسْتَعْمَلَ أَهْلُهُ قِيَاسَاتِهِمْ الْفَاسِدَةَ وَآرَاءَهُمْ الْبَاطِلَةَ وَشُبَهَهُمْ الدَّاحِضَةَ فِي رَدِّ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ؛ فَرَدُّوا لِأَجْلِهَا أَلْفَاظَ النُّصُوصِ الَّتِي وَجَدُوا السَّبِيلَ إلَى تَكْذِيبِ رُوَاتِهَا وَتَخْطِئَتِهِمْ، وَمَعَانِي النُّصُوصِ الَّتِي لَمْ يَجِدُوا إلَى رَدِّ أَلْفَاظِهَا سَبِيلًا، فَقَابَلُوا النَّوْعَ الْأَوَّلَ بِالتَّكْذِيبِ، وَالنَّوْعَ الثَّانِيَ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ، فَأَنْكَرُوا لِذَلِكَ رُؤْيَةَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْكَرُوا كَلَامَهُ وَتَكْلِيمَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنْكَرُوا مُبَايَنَتَهُ لِلْعَالَمِ، وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ، وَعُلُوَّهُ عَلَى "الْمَخْلُوقَاتِ، وَعُمُومَ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ أَخْرَجُوا أَفْعَالَ عِبَادِهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَنْ تَعَلُّقِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَكْوِينِهِ لَهَا، وَنَفَوْا لِأَجْلِهَا حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ

---

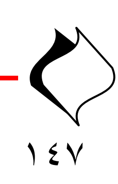
٢٩٣ إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٦٣-٦٨.

جَلَالِهِ؛ وَحَرَّفُوا لِأَجْلِهَا النُّصُوصَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، وَأَخْرَجُوهَا عَنْ مَعَانِيهَا وَحَقَائِقِهَا بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ الَّذِي حَقِيقَتُهُ أَنَّهُ ذُبَالَةُ الْأَذْهَانِ وَنُخَالَةُ الْأَفْكَارِ وَعُفَارَةُ الْآرَاءِ وَوَسَاوِسُ الصُّدُورِ، فَمَلَئُوا بِهِ الْأَوْرَاقَ سَوَادًا، وَالْقُلُوبَ شُكُوكًا، وَالْعَالَمَ فَسَادًا، وَكُلُّ مَنْ لَهُ مَسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ يَعْلَمُ أَنَّ فَسَادَ الْعَالَمِ وَخَرَابِهِ إِنَّمَا نَشَأَ "مِنْ تَقْدِيمِ الرَّأْيِ عَلَى الْوَحْيِ، وَالْهَوَى عَلَى الْعَقْلِ، وَمَا اسْتَحْكَمَ هَذَانِ الْأَصْلَانِ الْفَاسِدَانِ فِي قَلْبٍ إِلَّا اسْتَحْكَمَ هَلَاكُهُ، وَفِي أُمَّةٍ إِلَّا فَسَدَ أَمْرُهَا أَتَمَّ فَسَادٍ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَمْ نُفِيَ بِهَذِهِ الْآرَاءِ مِنْ حَقٍّ، وَأُثْبِتَ بِهَا مِنْ بَاطِلٍ، وَأُمِيتَ بِهَا مِنْ هُدًى، وَأُحْيِيَ بِهَا مِنْ ضَلَالَةٍ؟ وَكَمْ هُدِمَ بِهَا مِنْ مَعْقِلِ الْإِيمَانِ، وَعُمِّرَ بِهَا مِنْ دِينِ الشَّيْطَانِ؟ وَأَكْثَرُ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ هُمْ أَهْلُ هَذِهِ الْآرَاءِ الَّذِينَ لَا سَمْعَ لَهُمْ وَلَا عَقْلَ، بَلْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْحُمُرِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: ١٠].

النَّوْعُ الرَّابِعُ: الرَّأْيُ الَّذِي أُحْدِثَتْ بِهِ الْبِدَعُ، وَغُيِّرَتْ بِهِ السُّنَنُ، وَعَمَّ بِهِ الْبَلَاءُ، وَتَرَبَّى عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وَهَرَمَ فِيهِ الْكَبِيرُ.

فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ الرَّأْيِ الَّذِي اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى ذَمِّهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الدِّينِ.

النَّوْعُ الْخَامِسُ: مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ "جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الرَّأْيَ الْمَذْمُومَ فِي هَذِهِ الْآثَارِ عَنِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–وَعَنْ أَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ–أَنَّهُ الْقَوْلُ فِي أَحْكَامِ شَرَائِعِ الدِّينِ بِالِاسْتِحْسَانِ وَالظُّنُونِ، وَالِاشْتِغَالُ بِحِفْظِ الْمُعْضِلَاتِ وَالْأُغْلُوطَاتِ وَرَدِّ الْفُرُوعِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ قِيَاسًا، دُونَ رَدِّهَا عَلَى أُصُولِهَا وَالنَّظَرِ فِي عِلَلِهَا وَاعْتِبَارِهَا، فَاسْتُعْمِلَ فِيهَا الرَّأْيُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ، وَفُرِّعَتْ وَشُقِّقَتْ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ، وَتُكُلِّمَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ بِالرَّأْيِ الْمُضَارِعِ لِلظَّنِّ، قَالُوا: وَفِي الِاشْتِغَالِ بِهَذَا وَالِاسْتِغْرَاقِ فِيهِ تَعْطِيلُ السُّنَنِ، وَالْبَعْثُ عَلَى جَهْلِهَا، وَتَرْكُ الْوُقُوفِ عَلَى مَا يَلْزَمُ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ مِنْهَا وَمِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَعَانِيهِ، احْتَجُّوا عَلَى مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ بِأَشْيَاءَ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى ثنا شَرِيكٌ عَنْ لَيْثٍ عَنْ طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:



لَا تَسْأَلُوا عَمَّا لَمْ يَكُنْ؛ فَإِنِّي سَمِعْت عُمَرَ يَلْعَنُ مَنْ يَسْأَلُ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي دَاوُد ثنا إبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيّ ثنا عِيسَى بْنُ يُونُسَ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ"[٢٩٤]

وأهلُ الكلام جاؤوا بأصول عقلية، هم ابتدأوها ابتداءً، هذه الأصول العقلية رتَّبُّوا عليها قواعد، ورتّبوا عليها نتائج، ومن أمثلة ذلك قولهم عندما تكلموا عن حدوث العالم فأوجدوا له دليلاً يسمى دليل حدوث العالم أو دليل الأعراض، وخلاصته: (أن الأجسام لا تخلو من الحوادث أو من الأعراض، والأعراض حادثة فما لا يخلو من الحوادث فهو حادث).

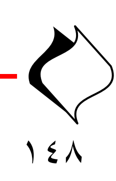
خلاصة هذا الأمر: أنه ما دام أن هناك في هذا الجسم أعراض بمعنى صفات أو حركات فهذه الحركة حادثة، فكونها في هذا الجسم هذا يدل على أنه حادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

وجاؤا بتتمة لهذا وقالوا: وكل حادثٍ لابد له من محدِث، ومسألة كل حادثٍ لابد له من محدِث هذه مفروغ منها، لكن أن نستدل على حدوث الأشياء بوجودِ الصفات والأعراض هذا سيترتب عليه حتى إنكار أن الله سبحانه وتعالى خالق، ويترتب عليه أنهم يجعلون الله سبحانه وتعالى محدَث فبالتالي هم ركَّبوا على هذه القواعد العقلية التي أحدثوها إنكار صفات الله سبحانه وتعالى حتى يفرُّوا من مسألة الحدوث فقالوا: إذاً لا تقم به عز وجل صفات.

وأما ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله من أن الله وصف نفسه بالاستواء، وصف نفسه بالنزول، وصف نفسه باليدين، وصف نفسه بالوجه، هذه كلها جاؤوا إليها وأنكروها بسبب هذا الدليل المحدِث والقياس الفاسد، فأدلةُ القياس الفاسدة عند هؤلاء أوجبت أن تكون هي الحَكَم على دين الله عز وجل وجعلوها هي التي يُبتَدأ بها.

---

٢٩٤ إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٥٤-٥٦.



ومناهجُ أهلِ الكلام إنما هي مناهج مصادمة للنصوص، وهؤلاء يعترفون بأنفسهم أنها مصادمة لذلك ألَّفوا ما سموه "قانون التأويل".

قانون التأويل خلاصته يقول:

"إذا تعارضَ العقل مع النقل"

أي إذا تعارض العقل الذي هو آراء الفلاسفة والمتكلمين، "مع النقل" الذي هو قال الله وقال رسوله، هذا القانون ماذا يقول؟ إذاً ماذا نعمل؟

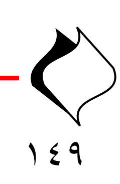
ويجعلون لهذا أربع فرضيات.

الفرضية الأولى " فإما أن نجمع بين الأمرين"، بمعنى أنه لو قال النص والنقل: نعم والرأي عندهم قال: لا، فلا يمكن أن نجمع بينهما "فإن ذلك يكون جمع بين ضدَّين".

الفرضية الثانية: " وإما أن نلغي الأمرين" وهذا لا يمكن "لأن هذا إخلاء للمسألة" يعني يخلو.. أين الحل؟ وأين الجواب؟.

الفرضية الثالثة: "وإما أن يقدِّم الشرع على العقل" وهذا على حد زعمهم لا يمكن؛ لأنهم يرون أن العقل أصل والشرع فرع، والسبب في جعلهم العقل أصل والشرع فرع على حد قانونهم، هو أن الشرع الذي هو ما جاء به النبي يتوقف على إثبات نبوة النبي، وإثبات نبوة النبي متوقفة على إثبات وجودِ الله، وإثبات وجود الله متوقف على إثبات دليل حدوث العالم، فأصبح الأصل هو الدليل الذي جاؤوا به لأنهم يقولون بهذا الأصل أثبتنا وجود الله، فلما أثبتنا وجودَ الله أثبتنا نبوةَ النبي، لما أثبتنا وجود نبوة النبي أثبتنا الشرع. فيقول: يستحيل أن نقدِّم الفرع على الأصل –حسب قانونهم الفاسد–وهذه التركيبة الغريبة العجيبة خلاصتها أنه يقول إذا قدَّمنا الفرع على الأصل أبطلنا الأصل والفرع، فمعنى هذا والنتيجة أنه لا يجوز أن تقدِّم الشرع على العقل.

أي عقل؟!.. رأي حثالة الناس يقدِّم على كلام الله وعلى كلام رسوله صلى الله عليه وسلم؟!.. وعجباه.



يقول الغزالي: "كل ما ورد به السمع ينظر، فإن كان العقل مجوزاً له قُبل وإلاَّ فلا"[٢٩٥].

الفرضية الرابعة: هي تقديم العقل على النقل باعتباره الأصل على حد زعمهم.

وأما معاملتهم لنصوص الشرع التي خالفت آراءهم فإنهم يقسمونها إلى نصوص متواترة وإلى أخبار آحاد

فقالوا: الشرع إما خبر آحاد؛ هذه لا يحتج به في باب العقائد.. سبحان الله كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم يرمى بها عرض الحائط، لا لشيء إلا لأنها صادمت باطلهم.

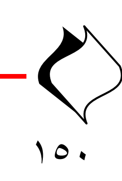
وأما النصوص المتواترة فهي عندهم ظنية الدلالة وهي في مقابل الأدلة العقلية التي هي قطعية الدلالة على حد زعمهم فيجب أن تأول.

وهذا عين الباطل والضلال فالمسلم الحق يعلم أنه إذا أراد النور والهدى فإنه في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما عداه فهو الضلال والهلاك والله تعالى يقول: (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّور) [النور:٤٠]، والله تعالى يقول: (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم) [الملك:٢٢]، (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) [الأنعام:١٥٣].

النصوص واضحة كثيرة، لمن تمسك بها وسار على هديها، فلا يأتي ويلبِّس مَن يلبِّس ويضرب بكلامِ الله وكلام رسوله عرض الحائط، ثم يستهن بكلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم بحجة أنه أخبار آحاد وأنه لا يحتج به في باب العقائد،

---

٢٩٥ انظر كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي صفحة (١١٥).



وزعموا أن المتواتر منها قابل للتأويل وقابل لأن يُغيَّر وأن يبدَّل، والذي جاء به هو الشيءُ المقدَّس المعظَّم الذي يستحيل أن يُنسخ وأن يكذَّب.

قال ابن القيم: "وَأَمَّا الْمُتَعَصِّبُونَ فَإِنَّهُمْ عَكَسُوا الْقَضِيَّةَ، وَنَظَرُوا فِي السُّنَّةِ فَمَا وَافَقَ أَقْوَالَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ، وَمَا خَالَفَهَا تَحَيَّلُوا فِي رَدِّهِ أَوْ رَدِّ دَلَالَتِهِ، وَإِذَا جَاءَ نَظِيرُ ذَلِكَ أَوْ أَضْعَفُ مِنْهُ سَنَدًا وَدَلَالَةً وَكَانَ يُوَافِقُ قَوْلَهُمْ قَبِلُوهُ، وَلَمْ يَسْتَجِيزُوا رَدَّهُ، وَاعْتَرَضُوا بِهِ عَلَى مُنَازِعِيهِمْ، وَأَشَاحُوا وَقَرَّرُوا الِاحْتِجَاجَ بِذَلِكَ السَّنَدِ وَدَلَالَتِهِ، فَإِذَا جَاءَ ذَلِكَ السَّنَدُ بِعَيْنِهِ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ، وَدَلَالَتُهُ كَدَلَالَةِ ذَلِكَ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ فِي خِلَافِ قَوْلِهِمْ؛ دَفَعُوهُ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ، وَسَنَذْكُرُ مِنْ هَذَا إنْ شَاءَ اللَّهُ طَرَفًا عِنْدَ ذِكْرِ غَائِلَةِ التَّقْلِيدِ وَفَسَادِهِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الِاتِّبَاعِ."[٢٩٦]

وأما قول المصنف: **"ولا يُضرب لها الأمثال، ولا تتبع فيها الأهواء"**

هذا من دقيق فقه المصنف رحمه الله فهو هنا فرق بين نوعين من الباطل

الأول: يتعلق بالبدع.

والثاني: يتعلق باتباع الهوى.

وللتفريق بينهما يقول ابن القيم: "فَسَادَ الدِّينِ إمَّا أَنْ يَقَعَ:

- بِالِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَالتَّكَلُّمِ بِهِ وَهُوَ الْخَوْضُ.
- أَوْ يَقَعُ فِي الْعَمَلِ بِخِلَافِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَهُوَ الِاسْتِمْتَاعُ بِالْخَلَاقِ.

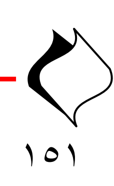
فَالْأَوَّلُ الْبِدَعُ.

وَالثَّانِي اتِّبَاعُ الْهَوَى.

وَهَذَانِ هُمَا أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ، وَبِهِمَا كُذِّبَتْ الرُّسُلُ، وَعُصِيَ الرَّبُّ، وَدُخِلَتْ النَّارُ، وَحَلَّتْ الْعُقُوبَاتُ.

---

٢٩٦ إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٥٩-٦٠



فَالْأَوَّلُ مِنْ جِهَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّهَوَاتِ.

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: احْذَرُوا مِنْ النَّاسِ صِنْفَيْنِ: صَاحِبُ هَوًى فِتْنَتُهُ هَوَاهُ، وَصَاحِبُ دُنْيَا أَعْجَبَتْهُ دُنْيَاهُ.

وَكَانُوا يَقُولُونَ: احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ، فَهَذَا يُشْبِهُ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِخِلَافِهِ، وَهَذَا يُشْبِهُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ."[٢٩٧]

فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه لرجل (يا ابن أخي إذا حدثتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فلا تضرب له الأمثال)[٢٩٨]

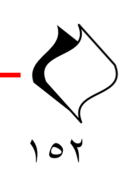
وكلام أهل العلم من أئمة أهل السنة يبين بجلاء أن السنة لا سبيل لمعرفتها وإدراكها إلا بالنقل الثابت الصحيح، والاتباع المحض لما ثبت منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية "... إن السنة التي يجب اتباعها، ويحمد أهلها، ويذم من خالفها، هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور الاعتقاد، وأمور العبادات، وسائر أمور الديانات، وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه في أقواله وأفعاله، وما تركه من قول، وعمل، ثم ما كان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان، وذلك في دواوين الإسلام المعروفة"[٢٩٩]

٢٩٧ إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٩

٢٩٨ أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتغليظ على من عارضة رقم:٢٢ وإسناده حسن.

٢٩٩ الوصية الكبرى ص ١٨



(المتن)

[١٠] "والكلام والخصومة والجدال والمراء محدث يقدح الشك في القلب، وإن أصاب صاحبه الحق والسنة".

الشرح

تعريف الكلام والخصومة والجدال والمراء.

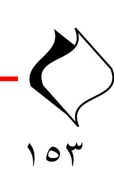
- تعريف علم الكلام:
- عرفه الشيخ محمد بن عثيمين–رحمه الله–بقوله: "هو ما أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء بالكتاب والسنة"[٣٠٠]
- فعلم الكلام جله عبارة عن استدلالات متضمنة لمقدمات باطلة و بألفاظ مجملة أخذها المتكلمة عن بعض الفلاسفة ويريدون بها إثبات الصانع أو إثبات النبوة وغيرها من مسائل الاعتقاد كطريقة الأعراض وأنها لازمة للجسم وما لا يخلو من الحوادث إلخ والتي يلزم منها إبطال ما جاء في الكتاب والسنة وتؤدي لباطل هو نفي الصفات أو نفي قيام الأفعال به سبحانه بمشيئته وغير ذلك.
- أهل الكلام:

أهل الكلام هم الذين يخوضون في مسائل أصول الدين كالوحدانية، والمعاد، وإثبات النبوات، والوعد، والوعيد، والإيجاب على الله–عز وجل–والتجويز وهو قولهم: لو عذبنا الله على ما خلقه فينا لكان جائزاً، وإنما يعذبنا على ما نخلقه نحن.

وأنه يجوز على الله تعذيب ملائكته وأنبيائه، وأهل طاعته، وإكرام إبليس وجنوده، وجعلهم فوق أوليائه في النعيم المقيم.

---

٣٠٠ فتح رب البرية ص ٧٦



ولا ريب أن هذا قولٌ باطل صار عن نفي الحكمة والتعليل؛ ذلك أن حكمة الله–عز وجل–تأبى ذلك قال–تبارك وتعالى–: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ).

ويخوضون–كذلك–في القدر ويقولون بنفيه ويسمون ذلك عدلاً، ويبحثون كذلك في التوحيد، ويعنون به نفي الصفات عن الله–عز وجل–إلى غير ذلك ممن يخوض به أهل الكلام.

- سبب تسميته بهذا الاسم

أما سبب تسميته بهذا الاسم فذلك مما تضاربت به الأقوال عند من سلك هذا المنهج، ومما قيل في ذلك ما يلي:

١–أن عنوان مباحث المتكلمين في العقائد كان: (الكلام في كذا وكذا...).

٢–لأنه يورث قدرةً على الكلام في تحقيق الشرعيات، وإلزام الخصوم؛ فهو كالمنطق للفلسفةِ؛ والمنطقُ مرادفٌ للكلام.

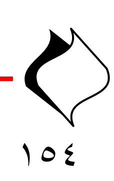
٣–لأن هذا العلم لا يتحقق إلا بالمباحثة، وإدارة الكلام من الجانبين على حين أن غيره من العلوم قد يتحقق بالتأمل، ومطالعة الكتب.

٤–لأنه أكثر العلم خلافاً، ونزاعاً؛ فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين، والرد عليهم.

٥–لأنه؛ لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من الكلام.

٦–أنه؛ نظراً لقيامه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية كان أكثر العلوم تأثيراً بالقلب؛ فسمي الكلام بذلك مشتقاً من الكَلْم وهو الجرح.

٧–أنه سمي بذلك؛ لأن أول خلاف وقع في الدين كان في كلام الله–عز وجل–أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ فتكلَّم الناس فيه؛ فسمي هذا النوع من العلم كلاماً، واختص به.



٨-لأن هذا العلم كلام صِرْفٌ، وليس تحته عمل[٣٠١].

- أشهر المتكلمين:

المتكلمون كثير، وليسوا على درجةٍ واحدة، ويدخل في مفهوم المتكلمين كثير من الطوائف منهم: الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، والمعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، والكلابية أتباع أبو محمد عبد الله بن سعيد القطان المعروف بابن كلاب، والأشاعرة أتباع أبو الحسن الأشعري[٣٠٢]، والماتريدية أتباع أبو منصور الماتريدي. وغيرهم

- تعريف الخصومة:

الخصومة: هي لجاجٌ في الكلام ليستوفِي به مالاً أو حقًّا مقصودًا، وذلك تارة يكون ابتداءً أو اعتراضًا، بخلاف المراء فإنَّه لا يكون إلا باعتراضٍ على كلام سَبق، والخصومةُ نتيجة طبيعيَّة للجدال والمراء والخَوض في الباطل.

وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطِل أو بغير علمٍ، فصاحبها مُتوعَّد بسخط الله تعالى؛ فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث له: ((ومَن خاصَم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخطِ الله حتى ينزِع، ومَن قال في مؤمنٍ ما ليس فيه، أسكنه الله ردغةَ الخَبال[٣٠٣] حتى يخرج ممَّا قال، وليس بخارجٍ))[٣٠٤]

---

٣٠١ انظر: العقائد النسفية للنسفي ٦، وتاريخ ابن خلدون ص ٣٥٠-٣٧٥، والمعتزلة لزهدي جار الله ص ٣٤٦.

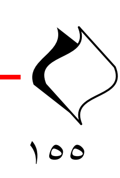
٣٠٢ قال ابن تيمية: (أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاَّب البصري، وأبو الحسن الأشعري كانا يخالفان المعتزلة ويوافقان أهل السنة في جمل أصول "السنة. ولكن لتقصيرهما في علم السنة وتسليمهما للمعتزلة أصولاً فاسدة، صار في مواضع من قوليهما مواضع فيها من قول المعتزلة ما خالفا به السنة، وإن كانا لم يوافقا المعتزلة مطلقاً).

وقال أيضاً: (والذي كان أئمة السنة ينكرونه على ابن كلاب والأشعري بقايا من التجهم والاعتزال، مثل اعتقاد صحة طريقة الأعراض وتركيب الأجسام، وإنكار اتصاف الله بالأفعال القائمة التي يشأها ويختارها، وأمثال ذلك) "

درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٩٧"

٣٠٣ ردغة الخبال: عصارة أهل النار.

٣٠٤ (صحيح الجامع: ٦١٩٦).



يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إيَّاكم والخصومة؛ فإنها تمحق الدِّين"[٣٠٥]

ويقول الأحنف بن قيس رحمه الله: "كثرة الخصومة تنبت النفاقَ في القلب"[٣٠٦].

ويقول معاوية بن قرَّة رحمه الله: "إيَّاكم وهذه الخصومات؛ فإنَّها تحبط الأعمال"[٣٠٧].

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "مَن جعل دينَه غرضًا للخصومات، أكثر التَّنقُّل"[٣٠٨]

- تعريف الجدل:

الجدل لغة: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وجادله أي: خاصمه، مجادلة وجدالًا.

والجدل: مقابلة الحجة بالحجة؛ والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والجدالُ: الخصومة؛ سمي بذلك لشدته[٣٠٩]

معنى الجدل اصطلاحًا:

قال بن الأثير: (الجَدَل: مُقابَلة الحُجَّة بالحجَّة. والمجَادَلَة: المنَاظَرَةُ والمخاصَمة)[٣١٠].

قال الراغب: (الجِدَال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة)[٣١١].

وقال الجرجاني: (الجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه)[٣١٢] .

---

٣٠٥ (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: ٢/ ١٢٧).

٣٠٦ (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: ٢/ ١٢٩).

٣٠٧ (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: ٢/ ١٢٩).

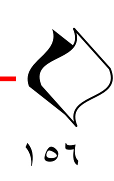
٣٠٨ أخرجه ابن أبي الدنيا كتاب الصمت وآداب اللسان ص١١٦، وأخرج الأثر ابن سعد في الطبقات ٥/ ٣٧١، وأحمد في الزهد ص ٣٠٢، واللالكائي في السنة ١/ ١٤٤، والدارمي في السنن ١/ ٩١، والفريابي في القدر ورقة أ/ ٦٤، وقال محقق كتاب الصمت رجاله ثقات الحاشية ص ١١٦. والآجري في الشريعة: ١/ ١٨٩).

٣٠٩ ((مجمل اللغة)) لابن فارس (١١٧٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ١٠٥)

٣١٠ النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٤٨.

٣١١ المفردات في غريب القرآن، ص ١٨٩.

٣١٢ التعريفات، ص ٧٤.



وقال أيضًا: (الجدال: هو عبارة عن مراء يتعلَّق بإظهار المذاهب وتقريرها)[٣١٣]

- تعريف المراء.

معنى المراء لغةً:

المراء: الجدال. والتماري والمماراة: المجادلة على مذهب الشكِّ والريبة، ويقال للمناظرة: مماراة، وماريته أماريه مماراة ومراء: جادلته[٣١٤].

معنى المراء اصطلاحًا:

المراء: هو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع[٣١٥].

وقال الجرجاني: (المراء: طعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير)[٣١٦].

وقال الهروي عن المراء: هو (أن يستخرج الرجل من مناظره كلامًا ومعاني الخصومة وغيرها)[٣١٧].

-الفرق بين الجدال والمراء:

قيل: هما بمعنى واحد.

غير أن المراء مذموم، لأنه مخاصمة في الحقّ بعد ظهوره، وليس كذلك الجدال[٣١٨].

ولا يكون المراء إلا اعتراضًا، بخلاف الجدال، فإنَّه يكون ابتداء واعتراضًا[٣١٩].

---

٣١٣ التعريفات، ص ٧٥.

٣١٤ لسان العرب، لابن منظور (٢٧٨/ ١٥) المصباح المنير، للفيومي (٥٦٩/ ٢).

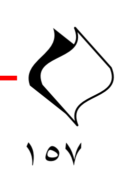
٣١٥ التعريفات الاعتقادية، لسعد آل عبد اللطيف، ص٢٦٥.

٣١٦ التعريفات، ص ٢٠٩.تهذيب اللغة، (٢٠٤/ ١٥).

٣١٧ تهذيب اللغة، ٢٠٤/ ١٥.

٣١٨ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص ١٥٨.

٣١٩ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص ١٥٩.



ينقسم الجدال إلى قسمين:

١-الجدال المحمود:

وهو الذي يكون الغرض منه تقرير الحقّ، وإظهاره بإقامة الأدلة والبراهين على صدقه، وقد جاءت نصوص تأمر بهذا النوع من الجدال، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الجدال في قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: ١٢٥]. وقال جلَّ في علاه: وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ [العنكبوت: ٤٦].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم))[٣٢٠].

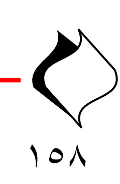
وقد حصل هذا النوع من الجدال بين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وبين الخوارج زمن علي بن أبي طالب بأمر علي، فأقام عليهم الحجة وإفحامهم، فرجع عن هذه البدعة خلق كثير[٣٢١]. وكذلك مجادلة أحمد بن حنبل للمعتزلة، ومجادلات ابن تيمية لأهل البدع.

٢-الجدال المذموم:

---

٣٢٠ رواه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦)، وأحمد (٣/ ١٢٤) (١٢٢٦٨)]. قال الحاكم صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حزم في ((أصول الأحكام ١/ ٢٧)). وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين ص ٤٣٧.

٣٢١ رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٥/ ١٦٥) (٨٥٧٥)، والطبراني (١٠/ ٢٥٧) | (١٠٥٩٨)، والحاكم (٢ / ١٦٤) واللفظ له، والبيهقي (٨ / ١٧٩) (١٧١٨٦). وصحح إسناده ابن تيمية في ((منهاج السنة)) (٨ / ٥٣٠)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦ / ٢٤٢): رجاله رجال الصحيح، وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٧١١).



هو الجدال الذي يكون غرضه تقرير الباطل بعد ظهور الحقِّ، وطلب المال والجاه، وقد جاءت الكثير من النصوص والآثار التي حذَّرت من هذا النوع من الجدال ونهت عنه، ومن هذه النصوص:

قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) [الحج: ٣].

وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) [الحج: ٨].

وقوله سبحانه: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ) [غافر: ٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((المراء في القرآن كفر))[٣٢٢].

وقال ابن عثيمين: (المجادلة والمناظرة نوعان:

النوع الأول: مجادلة مماراة: يماري بذلك السفهاء، ويجاري العلماء، ويريد أن ينتصر قوله؛ فهذه مذمومة.

النوع الثاني: مجادلة لإثبات الحق وإن كان عليه؛ فهذه محمودة مأمور بها)[٣٢٣].

وقال الكرماني: (الجدال: هو الخصام، ومنه قبيح وحسن وأحسن؛ فما كان للفرائض فهو أحسن، وما كان للمستحبات فهو حسن، وما كان لغير ذلك فهو قبيح) [٣٢٤]

فهذه الخصومات وهذا الجدل وهذا المِراء أمرٌ محدَث لا يُوجِد إلا الشك في القلوب ويبعِد عن الحق، ومهما حصل من نفع منه في بعض الأحيان، فهو يسير

٣٢٢ رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٠) (٧٩٧٦)، وابن حبان (١/ ٢٧٥) (٧٤). صححه النووي في ((التبيان)) (٢٠٦)، وحسنه ابن القيم في ((تهذيب السنن)) (١٢/ ٣٥٣)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٦٨٧)

٣٢٣ العلم ص ١٦٤.

٣٢٤ فتح الباري لابن حجر ١١/ ٣١٤

لكن شره وفير، وقد يقول هؤلاء: نحن نخاصم به أهل الباطل، الذي لا يؤمن بالقرآن والسنَّة، وهذه حجة باطلة فهؤلاء لا الإسلام نصروا ولا الباطل كسروا، فالقرآن، خاطب الكفار وخاطب المشركين وخاطب أهل الكتاب، خاطبهم بقال الله وقال الرسول، وفيه من الحجج والبراهين ما يكفي لبيان الحق ودفع الباطل، ففي القرآن والسنَّة من الأدلة العقلية واليقينية ما يغني ويشفي ولسنا بحاجة إلى فلسفةٍ ولا إلى علم كلام.

(المتن)

[١١] "واعلم–رحمك الله–أن الكلام في الرب محدث، وهو بدعة وضلالة، ولا يتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه في القرآن، وما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وهو–جل ثناؤه–واحد {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ربنا أول بلا متى، وآخر بلا منتهى، يعلم السر وأخفى، وهو على عرشه استوى، وعلمه بكل مكان، ولا يخلو من علمه مكان".

(الشرح)

بعد أن بيَّن المصنِّف–رحمه الله تعالى–ما يتعلقُ بمصادرِ العقيدة، وأن الأمر في هذا مردُّه إلى كلامِ الله عز وجل وإلى سنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى فهمِ السلف الصالح من الصحابةِ والتابعين وتابعي التابعين، بدأ في أهمِ وأكبرِ مسائل الاعتقاد وهو الإيمانُ بالله عز وجل فكما هو معلومٌ ومُقرَر أنَّ أولَّ أركانِ الإيمان هو الإيمانُ بالله عز وجل.

- ولا شك أن الإيمانَ بالله عز وجل أولُّ أركانِ هذا الدين.
- وأنه هو الذي من أجله الله عز وجل بعثَ الرسل وأنزلَ الكتب.

- والإيمانُ بالله عز وجل هو توحيده، والتوحيد هو ما بعثَ الله عز وجل به الأنبياء كما قال عز وجل: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) [النحل:٣٦] .
- ولا شك أن الإيمانَ بالله عز وجل هو حياةُ القلوب وهو مصدرُ سعادتها وفلاحها.

وأن أحدَ جوانبِ هذا الإيمان هو معرفةُ الله عز وجل، وثانيهما هو عبادةُ الله عز وجل.

ومعرفةُ الله عز وجل إنما تكونُ بطريقِ ما أخبرَ الله تعالى به من أسمائه وصفاته وأفعاله.

وعبادةُ الله عز وجل إنما تكونُ بطريقِ ما أمرَ به سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسانِ رسوله صلى الله عليه وسلم.

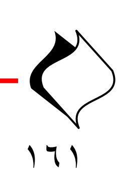
ومعلومٌ أن ذلك في القرآنِ والسنَّة وقد أُوضِحَ غاية البيان وغاية التوضيح فقال العلماء عندَ قول النبي صلى الله عليه وسلم أن (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد) [الإخلاص:١] تَعدِلُ ثلث القرآن)٣٢٥ بأن هذا يعني أن ثلثَ النصوص هي في بيانِ أسماءِ الله وصفاته، فالقرآنُ مملوءٌ بالكلامِ عن أسماءِ الله وصفاته، فالقول الصحيح من أقوال أهل العلم أن هذه

---

٣٢٥ روى البخاري (٦٦٤٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا [أي يراها قليلة] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)).

وروى مسلم (٨١١) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟)) قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ. قَالَ: ((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)).

وروى مسلم (٨١٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((احْشُدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)) فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنْ السَّمَاءِ، فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.



السورة كان لها هذا الفضل لأن القرآن أُنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منها للأحكام، وثلث منها للوعد والوعيد، وثلث منها للأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء الصفات، هذا قول أبي العباس بن سريج واستحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية"[٣٢٦]

- وهذه المعرفة لأسماءِ الله وصفاته هي التي من خلالها يتعرفُ العبدُ إلى ربه عز وجل، ولو أن أحداً سألَ نفسه سؤالاً وقال: هَبْ أن الله تعالى لم يتعرف إلينا بأسمائه وصفاته فكيف وأنى لنا أن نعرفَ أنه غفورٌ رحيم، أو أنه توَّاب، أو أنه جواد، أو أنه كريم وغيرِ ذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فالله تعالى فتحَ لنا بابَ معرفته وهذه منةٌ عظمى علينا بأن تعرَّف إلينا سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته.
- وهذه المعرفةُ على أساسها يتعبَّد العبدُ ربه عز وجل فأنت لما علمتَ أنه توَّابٌ رحيم وغفورٌ وجوادٌ وكريم دعوته وسألته وطلبته ورجوتَ مغفرته سبحانه وتعالى، ورجوتَ رحمته سبحانه وتعالى.

ولمَّا علمتَ أنه سبحانه وتعالى عزيز، وأنه سبحانه وتعالى قوي، وأنه سبحانه وتعالى الجبار المتكبر خِفته ووقعَ في نفسك من خشيته ومن مخافته ومن الوجلِ من عذابه سبحانه وتعالى ولذلك عاشَ المؤمن ويعيش المؤمن بينَ الرجاءِ والخوف (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) [الإسراء:٥٧]، فهكذا يتعرَّف المؤمن إلى ربه عز وجل من خلالِ ما أخبرَ به الله تعالى من أسمائه وصفاته فذاك البابُ الذي فتحه الله لنا ومنَّ علينا به سبحانه وتعالى.

وجاءَ أعداءُ الله عز وجل يريدون أن يوصدوا ويغلقوا عليك هذا الباب فشكَّكُوك في أسماءِ الله وصفاته

فجاءَ من أهلِ التعطيل

- مَن أنكرَ جميعَ أسماء الله وصفاته.

---

٣٢٦ "مجموع الفتاوى " (١٧ / ١٠٣).

- وجاءَ مَن أنكرَ جميعَ الصفات.
- وجاءَ مَن أنكرَ أكثرَ الصفات.
- وجاءَ مَن أنكرَ بعض الصفات.

فهذا الذي يحذرُ منه المصنّف هنا بقوله: **"واعلم–رحمك الله–أن الكلامَ في الربِّ تعالى محدَثٌ وهو بدعةٌ وضلالة."**

ويقصدُ هنا ما أحدثه الجهمية والمعتزلة والكُلَّابية والأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم في بابِ أسماءِ الله وصفاته فهؤلاءِ عطَّلوا تلكَ الأسماء وعطَّلوا تلك الصفات عن معانيها وعن ما دلت عليه.

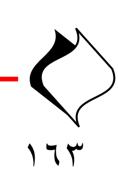
- فجاءَ الفلاسفةُ كذلك وقالوا إن الله تعالى لا يوصف بإثبات.
- وجاءَ منهم مَن قال لا يوصفُ بإثباتٍ ولا بنفي، وبالغوا في إنكارهم لأسماءِ الله وصفاته.
- وجاء الجهميةُ فأنكروا جميعَ أسماءِ الله وصفاته وقالوا إن الله تعالى لا يسمَّى بشيء ولا يوصفُ بشيء.
- وجاءَ المعتزلة وأثبتوا الأسماءَ بدونِ معانيها وأنكروا جميعَ الصفات وعطَّلوها.
- وجاءَ الأشاعرة والماتريدية فأثبتوا سبعاً من الصفات وأنكروا باقي صفاتِ الله تعالى وأوَّلوها وعطَّلوها.

فبالتالي حصلَ الفصلُ بين الأمةِ وبين معرفتها لله تعالى كما يجب وكما ينبغي لأن كل اسمٍ من أسماءِ الله تعالى له تعبُّدٌ مختصٌ به، وكلُ صفةٍ من صفاتِ الله تعالى لها تعبُّدٌ يختص بها[٣٢٧].

فمَن أرادَ أن يعبدَ الله عز وجل فعليه أن يعلمَ أن مفتاحَ ذلك من خلالِ معرفةِ أسماءِ الله وصفاته، فهذه المعرفة هي حياةُ القلوب، هي غذاؤها، هي دواؤها، هي

---

٣٢٧ مدارج السالكين ١/ ٤٢٠ "بتصرف يسير"



شفاؤها، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم مما علَّمنا من الدعاء أنه قالَ صلى الله عليه وسلم: ((ما أصابَ عبداً قط همٌ ولا غمٌ ولا حَزَن[٣٢٨])).

والهمُّ يأتي قبل المكروه، والغمُّ أثناء المكروه، والحزنُ بعدَ المكروه، فهذه أحوالٌ تعتري الناس جميعاً؛ إما أن نهتَّم لأمرٍ سيأتي؛ أو نغتَّم لأمرٍ قد نزل؛ أو نحزن على أمرٍ قد مضى فأعطانا الحبيبُ المصطفى صلى الله عليه وسلم دواءً وشفاءً لهذا.

ثم قال: ((اللهم إني عبدك، ابنُ عبدك، ابنُ أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندك أن تجعلَ القرآنَ الكريمَ ربيعَ قلبي وشفاءَ صدري وجلاءَ همي وذهابَ غمِّي وحزني، إلا أذهبَ الله عنه ما يجد[٣٢٩])).

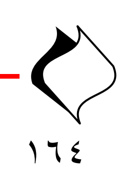
فإذاً هذا السائلُ وهذا الداعي يدعو الله تعالى بأسمائه الحسنى، ويسألُ الله تعالى بأسمائه الحسنى والله تعالى يقول: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فالله سبحانه وتعالى أنزلَ شيئاً من أسمائه سبحانه وتعالى في كتابه وأمرنا أن ندعوه بها سبحانه وتعالى، وهكذا علَّمنا النبي صلى الله عليه وسلم دعاءَ الله تعالى بأسمائه الحسنى.

وأنت في ذكرك في صلواتك وبعد صلواتك وقبلها وفي أذكار نومك وغيرِ ذلك تسبِّح الله تعالى وتذكره بأسمائه الحسنى فلسانك رطبٌ بذكرِ الله سبحانه وتعالى، هذه

---

٣٢٨ انظر صحيح البخاري كِتَابُ المرْضَى، بَابُ مَا جَاءَ فِي كَفَّارَةِ المرَضِ، برقم (٥٦٤١)، ومسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يُصِيبُهُ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا (٢٥٧٣)، والترمذي (٩٦٦)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١١١٤١).

٣٢٩ انظر مسند الإمام أحمد مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٣٧١٢)، صححه الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة (٣٨٣).



الأسماء الله تعالى وصفَ بأنها حسنى؛ وحسنى تأنيث "أفعل" التفضيل: فُعلى؛ بمعنى أن أسماءَ الله تعالى أحسنُ الأسماء وأكملها وأتمُّها معنى.

فالله تعالى اختارَ لنفسه وسمّى نفسه بأحسنِ الأسماء وبأكملها وأتمِّها، اختارها لنفسه سبحانه وتعالى وهو سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وما يستحقه في ذاته عز وجل، وهكذا في شأنِ صفاته سبحانه وتعالى فالله تعالى وصفَ نفسه بصفاتٍ عديدة فقالَ مثلاً سبحانه وتعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) [الكهف:٥٨]: فوصفَ نفسه بأنه ذو رحمة سبحانه وتعالى.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ) [الرعد:٦]: فأثبتَ لنفسه المغفرة.

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:٥]: أثبتَ لنفسه استواءً.

وهكذا في سنَّة النبي صلى الله عليه وسلم: ((ينزلُ ربنا إلى السماءِ الدنيا))[٣٣٠]: أثبتَ لنفسه صفةَ النزول.

وهكذا في سائرِ صفاته عز وجل، وأخبركَ عز وجل أن هذه الصفات علا قال عز وجل: (وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ) [النحل:٦٠] أي الوصفُ الأعلى، وقال تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى) [الروم:٢٧].

---

٣٣٠ انظر صحيح البخاري كتاب التهجد، بَابُ الدُّعَاءِ فِي الصَّلاَةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، برقم (١١٤٥)، ومسلم كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالْإِجَابَةِ فِيهِ (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٤٤٦)، وابن ماجه (١٣٦٦)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٧٥٩٢)، والدارمي (١٥١٩).

فالله سبحانه وتعالى في كلِ ما وصفَ به نفسه يجبُ أن نعتقدَ الاعتقادَ الجازم أن لله تعالى في تلك الصفةِ أكملُ ما يكونُ من الصفات أي أنه له الأكملية التي ليس هناك مَن يساويها فضلاً عن أن يكونَ أعلى منها.

فإذاً "أفعل" التفضيل تعني أنه سبحانه وتعالى هو الأعلى، الأعلى في صفاته، والأعلى في كماله، والأعلى في ذاته سبحانه وتعالى، بهذا الأدب أدَّبنا الله عز وجل بالنظرِ إلى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى؛ أن ننظرَ إليها على أنها أكملُ ما يكونُ في الإسمية والوصف فهو سبحانه وتعالى لم نرَه ولن نراه في هذه الحياةِ الدنيا.

وكما قالَ النبي صلى الله عليه وسلم في حديثِ الدجَّال: ((تعلَّموا أن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت))[٣٣١] هكذا نصُّ الحديث، فلا سبيلَ لرؤيةِ الله عز وجل في هذه الحياةِ الدنيا، والله تعالى كما قالَ عن نفسه: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد) [الإخلاص: ٣-٤].

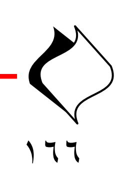
وقال تعالى: (فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّهِ الأَمْثَال) [النحل:٧٤].

وقال تعالى: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:٦٥].

فليسَ له مثيل، وليسَ له نظير، وليس له ند، وليس له كفو سبحانه وتعالى، فليس هناك مَن يماثله حتى نقيسه عليه، فما بقيَ بعدَ هذا إلا ما أخبرَ الله تعالى به في كتابه أو على لسانِ رسوله صلى الله عليه وسلم من أسمائه وصفاته.

وقال المصنف: **"ولا يتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه في القرآن، وما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه"** فإذاً لا نسمِّي الله تعالى ولا نصفه إلا بما

٣٣١ انظر صحيح مسلم كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ، برقم (٢٩٣١)، والترمذي (٢٢٣٥)، والإمام أحمد في المسند أَحَادِيثُ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢٣٦٧٢).



سمَّى به نفسه في كتابه وعلى لسانِ رسوله صلى الله عليه وسلم فهو سبحانه وتعالى ليسَ كمثله شيء وهو السميع البصير.

•فهنا أسس ثلاث لابد من الأخذِ بها:

الأساس الأول: أن نؤمنَ بجميعِ ما ورد لا نزيدُ عليه ولا ننقصُ منه:

فما أخبرَ الله تعالى به عز وجل عن نفسه من أسمائه وصفاته فنحن نسميه به عز وجل ونصفه به عز وجل، وما نفاه عن نفسه لأن في ضمنِ ما أخبر هناك النفي فقال تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان:٥٨] فنفى عن نفسه الموت.

وقال: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:٢٥٥].

وقال: (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف:٤٩].

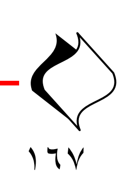
وقال: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) [مريم:٦٤].

وهكذا، فما نفاه عن نفسه ننفيه، ونثبتُ كمالَ ضدِّه لله عز وجل، فإذا نفى عن نفسه الظلم فهذا دليلٌ على كمالِ عدله، وإذا نفى عن نفسه الموت فذاك دليلٌ على كمالِ حياته.

فهكذا كلُ ما وردَ في كلامِ الله ورسوله إثباتاً أثبتناه ونفياً نفيناه عن الله عز وجل وأثبتنا كمالَ ضدّه، هذا الأساسُ الأول.

الأساس الثاني: أن الذي سمَّى به نفسه عز وجل ووصفَ به نفسه عز وجل هو أكملُ ما يكونُ في الإسميةِ والوصف:

بمعنى أن الله تعالى لا يماثله أحدٌ من خلقه في ذلك، فإن كان المخلوقُ يسمع والخالقُ يسمع لكن سمع الخالق ليس كسمعِ المخلوق.



وإن كان الخالقُ حي والمخلوقُ حي فالله تعالى قد قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

وقال في شأنِ المخلوق: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس:٣١] فليسَ الحيُ كالحي لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فإذا نظرت إلى حياة المخلوق؛ حياةٌ سُبقَت بالعدم ويلحقها الموت ويعتريها من الأسقامِ والأمراضِ والأوجاعِ والآفات ما تليقُ بحياةِ هذا المخلوق.

أما إن سألت عن حياةِ الله عز وجل فهي لم تُسبَق بعدم ولا يلحقُها الفناءُ والزوال، ولا يعتريها أي نقصٍ من النقصِ في أي وجهٍ من الوجوه فهي الحياةُ الكاملة، وهي الحياةُ الدائمة، وهي الحياةُ المستلزِمة لجميعِ أنواعِ الكمالِ اللائق به سبحانه وتعالى.

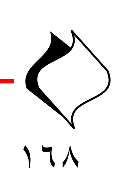
فيجب أن تتأدبَ بهذا الأدب وأن تعتقدَ الاعتقادَ الجازم وتوقن أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في سمعه، ولا في بصره، ولا في علوِّه، ولا في استوائه، ولا في حياته، ولا في قدرته، ولا في علمه، ولا في جوده، ولا في كرمه، فهو سبحانه وتعالى كما أخبرَ عن نفسه فقال:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد﴾ [الإخلاص: ٤].

وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

وقال: ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].



كل هذا مثبَتٌ ووارِدٌ في كلامِ الله عز وجل وكلامِ رسوله صلى الله عليه وسلم.

الأساسُ الثالث: ألا نخوضَ في كيفيةِ ذلك:

لا نتدخل في الكيفيات، لا نتكلم في الكيف، كيف استوى؟ كيف نزل؟ كيف سمعه؟ كيف بصره؟ هذا أمرٌ لا سبيلَ إليه ولا طريقَ عليه فالله تعالى لم يخبرنا بكيفيةِ صفاته، ولم يتعبَّدنا ولم يأمرنا ولم يكلفنا أن نبحثَ في كيفيةِ صفاته لذلك ذاك السائل الذي جاءَ إلى الإمام مالك وقال: "يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى)؛ كيف استوى؟" هذا سؤال السائل، فما كان من الإمامِ مالك إلا أن غضب وعلاه الرُّحَضاء أي العرق؛ تصبب عرقاً وقال: (الاستواءُ معلوم، والكيفُ مجهول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعة، وما أراك إلا رجلَ سوء) فأُخرج به عن مجلسه"[٣٣٢].

فالاستواءُ معلوم: لأن الله أخبرنا أنه استوى على عرشه في سبعِ آياتٍ أخبر الله تعالى أنه استوى على عرشه؛ في ستٍ منها (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) [الأعراف:٥٤]، وفي السابعة (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:٥]، أخبرَ عن ذلك وجاءَ في كتابه سبحانه وتعالى وجاءَ في سنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهو معلوم.

والكيفُ مجهول: أي لا يقال كيف استوى؟ لأن الله تعالى ما أخبرنا بذلك وما تعبَّدنا بذلك وما طالبنا بذلك، فأمرٌ الله تعالى ما أخبرك به وما تعبَّدَك به ليس لك أن تسألَ عنه ولذلك الله تعالى يؤدِّبك فيقول: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:٣٦].

---

٣٣٢ أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٦٦/١٠٤) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٣٧/٢) والبيهقي في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث (١١٦/١) وابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٦٢/١).



والسؤال عنه بدعة: لأنه أمرٌ لا علمَ لك به لا سبيلَ لك إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] فلما أخفى الله عنك أقربَ الأشياءِ إليك وهي روحك التي بين جنبيك فليس لك إلى كُنهها ولا إلى كيفيتها سبيل فأنت أعجز وأحقر من أن تبحثَ في كيفية صفاتِ الله سبحانه وتعالى.

فإذاً آمِن بما ورد واعتقد أن لله في ذلك أكمل الوصف، وأن الله لا يماثله في ذلك أحدٌ من خلقه، وكذا لا تخُضْ في شأنِ الكيفية، والإيمانُ بالاستواءِ واجب والسؤالُ عنه بدعة.

فإذاً هذه الآيةُ الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] تضمَّنت الإثبات والتنزيه:

· الإثبات في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

· والتنزيه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

أقسام الناس في هذا الباب:

انقسم الناس في هذا الباب إلى أهل سنة وإلى مخالفين

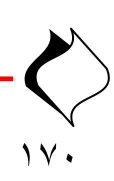
والذين خالفوا الحقَ في هذا:

إما معطِّلة: أنكروا وعطَّلوا جميعَ أسماءِ الله وصفاته أو بعضها.

أو مشبِّهة: خاضوا في شأنِ كيفياتِ تلك الصفات وقالوا: له يدٌ كيدي واستواءٌ كاستوائي، وسمعٌ كسمعي فأولئك المشبّهة هم الطرف الثاني الذين حادوا عن طريقِ الحق؛ الذين خاضوا في كيفيةِ صفاتِ الله سبحانه وتعالى.

أما أهلُ الحق:

- فآمنوا بما ورد.



- واعتقدوا أن الله تعالى لا يماثله في ذلك أحدٌ من خلقه.
- وَكَفُّوا ألسنتهم، وَكَفُّوا عقولهم عن الخوضِ في كيفياتِ تلك الصفات لأن هذا لا سبيلَ إليه ولا طريقَ إليه في هذا.

فإذاً هذا ما أرادَ أن يقرره المصنِّف في قوله: "**ولا يُتكلَّم في الربِّ إلا بما وصفَ به نفسه في القرآن وما بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فهو جلَّ ثناؤه واحدٌ ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير**"

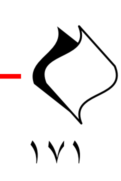
ثم قال: "**ربنا أولٌ بلا متى وآخرٌ بلا منتهى**" وهذا هو قول الله عز وجل: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) [الحديد:٣]، وكما جاءَ تفسيرُ ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، والآخر فليس بعدك شيء، والظاهر فليس فوقك شيء، والباطن فليس دونك شيء))[٣٣٣]، فالله سبحانه وتعالى هو خالقُ كل شيء سبحانه وتعالى وهذه الموجودات هو الذي أوجدها سبحانه وتعالى فهو الأول سبحانه وتعالى، ثم إن الله سبحانه وتعالى كتبَ الفناءَ على ما كتب من خلقه فهو مآلُ هذه الأشياء ومرجعها ومردُّها إلى الله سبحانه وتعالى.

وقول المصنف: "**يعلم السر وأخفى**".

فالله سبحانه وتعالى يعلمُ خائنة الأعينِ وما تخفي الصدور، والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرضِ ولا في السماء فعلمه عز وجل محيطٌ بكل شيء، ولذلك على الإنسانِ أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه خافية حتى ما تكنُّه صدورنا وما يجولُ في خواطرنا فالله سبحانه وتعالى يعلمه ومطلِّعٌ عليه.

---

٣٣٣ انظر صحيح مسلم كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ مَا يَقُولُ عِنْدَ النَّوْمِ وَأَخْذِ الْمَضْجَعِ، برقم (٢٧١٣)، والترمذي (٣٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٧٣)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١٠٩٢٤).



فلذلك هنا أليس من وقفةٍ مع النفس! الإنسان يقف فيها حياءً وخشيةً وخوفاً وهيبةً ورهبةً من الذي يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فبالله كيف يكون في قلبك حقد، أو حسد، أو ضغينة، أو إضمارُ سوء، أو نيةَ شر؛ وأنت تعلم وتؤمن وتوقن أن الله تعالى يعلم ما أنت عليه ويعلمُ ما يكونُ من حالك من هذا الأمرِ أو ذاك.

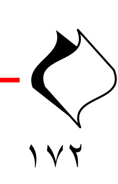
فلماذا لا يطهِّر الإنسان قلبه من الخيانة، ومن الغل، ومن الحقد، ومن الحسد، ومن الرياء، ومن غيرِ ذلك من أمراض القلوب لكي يلقى ربه عز وجل كما أخبرَ سبحانه وتعالى حيث قال: (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء: ٨٨-٨٩] أي سليمٍ من الشرك، سليمٍ من الرياء، سليمٍ من النفاق، سليمٍ من الغل ومن الحسد ومن الحقد، فما علينا إلا أن نطهِّر قلوبنا وأننا أمامَ ربٍّ يعلمُ السرَّ وأخفى، يعلمُ خائنة الأعينِ وما تخفي الصدور.

وقول المصنف: **"وهو على عرشه استوى، وعلمه بكل مكان، ولا يخلو من علمه مكان"**

فهو سبحانه وتعالى علمه محيطٌ بكل شيء ومع ذلك هو في أعلى مقام سبحانه وتعالى، فوق عرشه سبحانه وتعالى كما أخبر فهو سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه مستوٍ على عرشه كما أخبرَ بذلك سبحانه وتعالى فقال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:٥].

والعرشُ كما جاءَ في النصوصِ والأخبار هو سقف الجنة، ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسطُ الجنةِ وأعلاها وفوقه عرش الرحمن))٣٣٤ فالفردوس أعلى مقامات الجنة، وسقف هذا الفردوس عرشه سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى استوى على

٣٣٤ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ دَرَجَاتِ المجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يُقَالُ: هَذِهِ سَبِيلِي وَهَذَا سَبِيلِي، برقم (٢٧٩٠)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٨٤١٩).



عرشه استواءً يليقُ بجلاله، وهذا العرش من العظمةِ حتى أنه في الدعاء كما جاء: "زنةَ عرشك ومدادَ كلماتك.٣٣٥"

فزنةُ العرش كان مما ذكره النبي عز وجل في دعائه عندما سبَّح الله سبحانه وتعالى وعندما مجَّد الله سبحانه وتعالى، فهذا العرش أثقلُ مخلوقاتِ الله تعالى وأكبرُ مخلوقاتِ الله سبحانه وتعالى، وجاءَ ذكره في القرآن في واحدٍ وعشرين موضعاً فهو أعظم مخلوقات الله سبحانه وتعالى وأثقلها وزناً، وهناك ملائكة تحمله (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة ([الحاقة:١٧] فهو محمولٌ وموجودٌ وثابتٌ بنصِ القرآنِ وبنصِ السنَّة.

فنحن نؤمنُ بأن الله تعالى يعلمُ السرَّ وأخفى، ونؤمنُ بعلوِّه واستوائه على عرشه كما أخبرَ بذلك، وعلمه بكل مكان فهو سبحانه وتعالى مع خلقه يعلمُ ما هم عليه فهذه المعيَّة معيَّة العلم كما جاءت بها النصوص؛ لأن المعيَّة على قسمين:

معيَّةٌ عامة، ومعيَّةٌ خاصة.

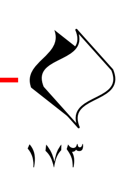
فالمعية العامة:

هي المذكورة في قوله تعالى: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) [المجادلة:٧]، فهذه المعيَّة العامة.

وجاءت في آيتين؛ في المجادلة وفي الحديد، هذه المعيَّة تسمى المعيَّة العامة بمعنى أن الله تعالى مع خلقه جميعاً يعلمُ ما هم عليه، وهي المعيَّةُ العلمية، وثم من لوازمها الإحاطة وتدبيرُ هذا الكون وتصريفُ هذا الكون، والإحاطة بهذا الكون فهذه تسمَّى معيَّة عامة.

·أما المعيَّةُ الخاصة:

٣٣٥ انظر صحيح مسلم كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ التَّسْبِيحِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَعِنْدَ النَّوْمِ، برقم (٢٧٢٦)، وأبو داود (١٥٠٣)، والترمذي (٣٥٥٥)، وابن ماجه (٣٨٠٨)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدِ بَنِي هَاشِمٍ (٢٣٣٤)، والنسائي (١٣٥٢).



فهي معيَّته لأهلِ الإيمان (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا) [التوبة:٤٠] وقول الله تعالى: (إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِين) سورة البقرة–الآية ١٥٣ (أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِين) سورة البقرة–الآية ١٩٤ فهذه معيَّةُ النصرة والتأييد[٣٣٦] فالله يمتَّنُ ويختصُ عباده من أهل الإيمان بأنهم ينصرهم ويؤيدهم (إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُون) [النحل:١٢٨]، فهذه معيَّةُ النصرة والتأييد كما جاءَ ذكرها في النصوص.

فلا يخلُ من علمه عز وجل مكان فهو سبحانه وتعالى يعلم ما في هذا الكون كما قال تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) [الحديد:٤] فهو سبحانه وتعالى بعلوّهِ واستوائه على عرشه يعلمُ ما يكون في هذا الكون.

وهنا وقفة حبذَا لو يتأملها المسلم، وهي أن المخلوق ينظر إلى الكون بمقياسه هو؛ وهذا أمر نسبي، لو قيل له: ماذا تقول عن هذا المسجد؟ فسيقول: إنه مسجد كبير لأنه قاسه بحجمه هو، ويقول عن الإناء: إناء صغير؛ فقاسه بالنسبة له، وإذا نظر إلى هذه الكرة الأرضية. كم سيرى من كبرِ حجمها؟ وإذا نظر إلى هذه الأفلاك وهذه السماوات. كم هي بالنسبةِ له في كبرِ الحجم؟

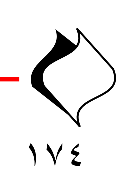
لكن لو تأمل الأثر الوارد عن بن عباس: (ما السموات السبع والأراضون السبع في الكرسي إلا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاة) حلقة أي حديدة، وفلاة يعني صحراء، فتخيل حجم الحلقة في صحراء، هذا نسبة السماوات والأرض إلى الكرسي.

ثم عقد مقارنة بين الكرسي والعرش فقال: (وما الكرسي بالنسبةِ إلى العرش إلا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاة)[٣٣٧] إذاً كيف يكون حجم هذا الكون إلى بعض خلق الله

---

٣٣٦ انظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (٧١).

٣٣٧ انظر العرش وما روي فيه لابن أبي شيبة برقم (٥٨)، والسلسلة الصحيحة للشيخ الألباني الجزء الأول، صفحة (٢٢٣).



عز وجل؛ إلى كرسيّه؟، وكيف يكون حجم هذا الكرسيّ إلى عرشه سبحانه وتعالى؟ فاختلفت النظرة أم لا؟

ومثلاً قول الله تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ([المعارج:٤] فهذا اليوم الذي فيه العروج مقداره خمسين ألف سنة، فيتخيل الإنسان حجم هذا الكون ليعلمَ عِظَم ملكه عز وجل، فإذا كان هذا بعضُ خلقه فكيف بالنسبةِ إلى العليّ الكبير.

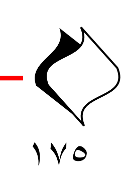
فيأتي بعضُ الناس جهلاً ويقول: إن الله بذاته بيننا؛ والله إن هذا لمن أقبح الجهل!

فما حجم هذا الكون الذي تتحدث عنه بالنسبةِ إلى شيءٍ من خلقِ الله فما بالك بالله عز وجل، فهذا تجده في كلامِ الله: عز وجل (وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) [الزُّمَر:٦٧]، فإذاً هذا الكون وهذا الخلق ليس بمقياسك أنت حتى تقول إن الله معنا بذاته في كل مكان، فهذا الكون الذي بسماواته وأجرامه وأراضيه إلى غيرِ ذلك ليس عند بعض خلق الله إلا كلا شيء.

فمن هنا علينا أن نتأدَّب بما أدَّبنا الله تعالى به من خلالِ تلك النصوص، فإذاً نقولُ أن الله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه مستوٍ على عرشه وهو سبحانه وتعالى علمه في كل مكان، يعلمُ كل شيءٍ سبحانه وتعالى، والمعيَّةُ التي وردت بها النصوص واضحةٌ جليَّةٌ بأنها معيَّة العلم، هكذا فسرها الصحابة وهكذا فسرها التابعون، وهكذا فسرها السلفُ الصالح في هذا الشيء.

ومَن قال إن الله بذاته في كل مكان فهذا قد أخطأ أقبحَ الخطأ وليس له في ذلك متمسَّك لا من كلامِ الله، ولا من كلامِ رسوله صلى الله عليه وسلم ولا من تفسيرِ

وقد روي عن ابن عباس كما في السنة لعبد الله بن أحمد الجزء الثاني، صفحة (٤٧٦) «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِمَا فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».



السلف الصالح، فكلامُ السلف الصالح مجموعٌ ووارِدٌ وثابت حيث فسَّروا المعيَّة في هذه الآيات بأنها معيَّةُ العلم.[٣٣٨]

لذلك الله تعالى–لما تتأمل في الآية–افتتحها بالعلم وختمها بالعلم (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) [المجادلة:٧]، فالكلام كله في السياق عن العلم، ثم ختمها بـ(إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم) فبدأها بالعلم وختمها بالعلم، فالسياقُ كله يتحدثُ عن علم الله سبحانه وتعالى، لا يتحدث عن أن ذاته سبحانه وتعالى في كل مكان.

فلذلك قال المصنف: **"وعلمه بكل مكان ولا يخلُ من علمه مكان"**

(المتن)

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[١٢] "ولا يقول في صفات الرب: كيف؟ ولم؟ إلا شاك في الله."

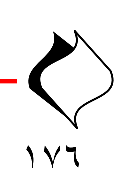
(الشرح)

لا تقل كيف؟ ولا لما؟ فالله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه (قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ) [البقرة:١٤٠].

أفيُعقل أن الذي ينزِّهُ نفسه عن النقص أن يصفَ نفسه بالنقص؟ ألم ينزِّه نفسه عن الموت، والظلم، والتعب، واللغوب، والنسيان؟

---

[٣٣٨] لي رسالة في هذا الموضوع بعنوان (الآثار المروية في صفة المعية) فليرجع إليه لمن أراد الاستزادة.



فلو كان الاستواء نقص كيف ينزِّه نفسه عن النقص ويصفُ نفسه بالنقص، ألم يقل: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ) [المائدة:٦٤] لعنَ اليهود وذمَّهم لأنهم وصفوه بالنقص، فلو كان إثباتُ اليدين له سبحانه وتعالى نقص فكيف يذم اليهود ويصف نفسه بالنقص؟

ولكن ما هذا إلا لأن أولئك الذين أنكروا صفاتِ الله عز وجل لم يتأدَّبوا بكلامِ الله عز وجل وكلامِ رسوله صلى الله عليه وسلم فبالتالي حكموا على تلك النصوص بأنها نقصٌ في حق الله تعالى وحاشا أن تكون نقصاً في حق الله سبحانه وتعالى.

ثم نحن لا نخوضُ في الكيفية، فليس لمؤمنٍ ولا لمسلمٍ أن يخوضَ في كيفيةِ صفات الله تعالى، ولا كيفية نزوله، ولا كيفية استوائه، ولا كيفية علوِّه، ولا كيفية يديه، ولا كيفية وجهه، ولا كيفية سمعه، ولا كيفية بصره، ولا كيفية علمه، كل ذلك لا سبيلَ إليه.

ولذلك لأن الله تعالى ما أخبرنا وما تعبَّدنا بكيفية ذلك بل وضعَ لنا قيوداً وحدوداً فقال سبحانه وتعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا) [الإسراء:٣٦]، فإذاً ليسَ لك أن تخوض لا بفكرك ولا بلسانك في حق جانب الله سبحانه وتعالى، فلا نخوضُ في الكيفية ولا نزعُم كما زعمَ مَن زعمِ من المشبِّهة أو حتى المتصوِّفة الذين خاضوا في هذا الباب وزعم مَن زعم منهم أن الله على كيفيةٍ كذا، أو قال: إن له يداً كيدي.

ولا أولئك المتصوِّفة الذين تجاسروا على الله عز وجل وادَّعى مَن ادَّعى منهم أن الحجابَ كُشف له، وأنه يلتقي بالله عز وجل بدونِ واسطة، وأنه يذهب إلى الحضرة الإلهية ويعودُ من الحضرة الإلهية، وكل ذلك من الكذب البيِّن الواضح الذي تردُّه النصوص وتبطله فلا سبيلَ إلى رؤيةِ الله عز وجل في هذه الدنيا.

(المتن)

قال المصنّف رحمه الله تعالى:

[١٣] "والقرآن كلام الله وتنزيله ونوره، ليس بمخلوق؛ لأن القرآن من الله، وما كان من الله فليس بمخلوق، وهكذا قال مالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفقهاء قبلهما وبعدهما، والمراء فيه كفر."

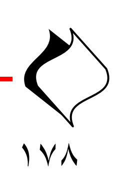
(الشرح)

قوله **"والقرآن كلامُ الله تنزيله ونوره"** أي نؤمنُ بأن القرآن كلامُ الله عز وجل، منه بدأ وإليه يعود، وأن هذا كلام الله بحرفٍ وصوتٍ مسموعين وأن الله سبحانه وتعالى أسمعه جبريل، وجبريل أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الكلام هو كلام الله عز وجل.

وجاءَ أهلُ الباطل فأنكروا وقالوا إن كلامَ الله مخلوق، وجاءَ مَن قال إن القرآن حكاية عن كلامِ الله، أو عبارة عن كلامِ الله، وزعم مَن زعم أن الله تعالى لم يتكلم بهذا القرآن.

ونصوصُ القرآن واضحة بأنه كلامه سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ﴾ [التوبة:٦] فهذا الكلام كلامه سبحانه وتعالى، منه بدأ، تكلم به حقيقةً، ونثبتُ صفة الكلام لله عز وجل كما أثبتها لنفسه وكما أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الله سبحانه وتعالى لكلامه صوت كما جاءَ في النصوص، وأنه بحرف وصوت مسموعين، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء سبحانه وتعالى، وأن القرآن كلامُ الله تعالى غيرُ مخلوق.

وهذه مسألة من كبريات مسائلِ باب الصفات؛ فأكبرُ مسألتين في باب الأسماء والصفات ركَّز عليها أعداءُ الإسلام تركيزاً شديداً



- مسألةُ العلو.
- ومسألةُ الكلام.

لأنهم إذا أبطلوا كونَ القرآن كلام الله أبطلوا حقيقةَ الوحي، وإذا أبطلوا علوَّ الله تعالى أبطلوا وجوده، فهذه غايتهم وهدفهم الذي يريدون أن يصلوا إليه.

لأن أعظم ركيزتين لدى الفلاسفة هما:

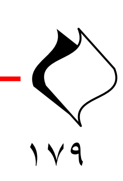
١. أن العلمَ مصدره الإنسان.
٢. وأن المعلومات والعلوم محصورةٌ في المحسوس المشاهَد.

فلذلك وقفوا وقفةً خبيثة، وهجموا هجمةً شرسة ضد هاتين الصفتين، فإذا كنا نقول إنهم يزعمون أن العلوم مصدرها الإنسان، ونحن نقول إن العلم الشرعي مصدره الوحي فلمَّا هؤلاء يلغونَ أن الله تكلم حقيقة، ويشكّكُّون في أن هناك وحي وقالوا: هذه عبارة محمد؛ أو عبارة جبريل، وأن الله ما تكلم حقيقة.

لأنهم إذا أسقطوا الوحي وقطعوا عليك طريق الوحي فسيتساوى قولُ محمد مع قولِ أي بشرٍ من الناس.

فتسلَّط أعداءُ الله على باب الصفات من أجلِ أن يشكِّكُّوا في كلامِ الله وأن يشكِّكُّوا في وجودِ الله وذلك بإنكارهم بأن يكون القرآن كلامُ الله حقيقة، وإنكارهم لعلو الله عز وجل.

فوقفَ أهلُ السنَّة موقفاً عظيماً صلباً حتى إنه كما هو معلوم في زمن فتنةَ القولِ بخلقِ القرآن، فقام المأمون وهو كان من المعتزلة ويتبنَّى قول المعتزلة، فعذَّب مَن عذَّب من العلماء وفصَلَهم عن وظائفهم وسجنهم وقام بتعذيبهم لأجلِ أن يرفعَ هذا الشعار؛ أن القرآنَ مخلوق وأنه ليس كلامُ الله حقيقة.



فيجب أن نؤمن بأن القرآنَ كلامُ الله وتنزيله، ليسَ بمخلوق لأن القرآنَ من الله وما كان من الله فليس بمخلوق [٣٣٩] لذلك لا يجوز كما نسمع من بعض الناس أن يقول: ورب المصحف، وهذا يقع فيه جهلة الناس، القرآن ليس مربوب، إنما القرآن كلام الله عز وجل وكلامه منه وما كان منه فهو ليس بمخلوق فمن قال: ورب المصحف فهذا على عقيدةٍ باطلة، فإن كان جاهلاً عُلِّم، وإن كان مخالفاً أُقيمت عليه الحجة [٣٤٠].

قول المصنف: "**هكذا قال الأئمة مالكُ بن أنس وأحمد بن حنبل والفقهاء قبلهما وبعدهما، والمِراءُ فيه كفر**" أي أن التماري في هذه المسائل أو المِراء في القرآن والمجادلة في هذا الأمر هذا عدَّه العلماء من الكفر.

وقيل لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رحمه الله: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ وَقَعُوا فِي أَمْرِ الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ: أَلَيْسَ أَنْتَ مَخْلُوقًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَلَامُكَ مِنْكَ مَخْلُوقٌ. قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَوَلَيْسَ الْقُرْآنُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَكَلَامُ اللَّهِ مِنْ الله؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَيَكُونُ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ؟". [٣٤١]

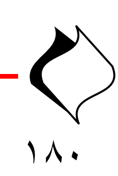
---

٣٣٩ ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتاباً يُعرف باسم: "التسعينية" بيّن فيه بطلان هذا القول من تسعين وجهاً.

٣٤٠ روى الخطيب البغدادي في: "تاريخ بغداد" (٧/ ٣٤٢) رقم: (٢٨٤٦): من طريق عكرمة قال: شَهِدت ابن عباس صَلّى على جنازة رجل مِن الأنصار، فلما سُوّي في اللحد وحُثي التراب عليه، قام رجل منهم فقال: اللهم رب القرآن ارحمه، اللهم رب القرآن أوسِع عليه مَدَاخِله، فالتفت إليه ابن عباس مُغْضَبًا فقال: يا عبد الله أما تتقي الله؟ يا عبد الله أما تتقي الله؟ أما علمت أن القرآن منه؟ قال: فرأيت الرجل نَكّس رأسه ومضى استحياء مما قال له ابن عباس، كأنه أتى على كبيرة".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وعن عكرمة قال: كان ابن عباس في جنازة، فلما وُضع الميت في لحده قام رجل فقال: اللهم رب القرآن اغفر له، فوثب إليه ابن عباس فقال له: مَه! القرآن منه. وفي رواية: القرآن كلام الله، وليس بِمَرْبُوب، منه خرج، وإليه يعود". "الفتاوى الكبرى" (٦/ ٤٠١)

٣٤١ "مجموع فتاوى" (١٢/ ٢٣٢).



(المتن)

[١٤] "والإيمان بالرؤية يوم القيامة، يرون الله بأبصار رؤوسهم، وهو يحاسبهم بلا حجاب ولا ترجمان".

(الشرح)

من عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بأن أهلَ الإيمان يرون ربهم يومَ القيامة كما وردت الأدلة بذلك

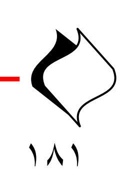
فمن القرآن:

- قوله تعالى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) [يونس:٢٦] فقد فسرت الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، قال القرطبي: (وقد ورد هذا عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في راوية وحذيفة وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وأبي موسى وصهيب وابن عباس في رواية وهو قول جماعة من التابعين وهو الصحيح في الباب. وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟! قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. وفي رواية ثم تلا (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) ٣٤٢. ٣٤٣
- قوله تعالى: ولدينا مزيد (لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [ق: ٣٥] فقد فسر المزيد في هذه الآية بأنه النظر إلى الله تعالى كالآية السابقة، قال ابن كثير: (إن المزيد الذي

---

٣٤٢ رواه مسلم (١٨١).

٣٤٣ تفسير القرطبي ٨/ ٣٣٠.



يتفضل الله به على عباده فوق ما يشاءون هو ظهوره تعالى لهم).٣٤٤ وبهذا فسر الآية ابن جرير الطبري والقرطبي وغيرهما ودلالتها عن الرؤية كالآية السابقة.

- قوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة: ٢٢-٢٣] ووجه الاستدلال بالآية على الجواز ما نقل أن (نَاظِرَةٌ) أي رائية رؤية بصرية يوم القيامة كما قال أهل السنة والجماعة .

قال أبو الحسن الأشعري: "قال الله عز وجل: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) [القيامة: ٢٢] يعني: مشرقة (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة: ٢٣] يعنى: رائية، ولا يجوز أن يكون بمعنى نظر التفكر والاعتبار لأن الآخرة ليست بدار الاعتبار، ولا يجوز أن يكون عني نظر الانتظار لأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه نظر العينين اللتين في الوجه".٣٤٥

من السنة:

أخبرَ بذلك النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلةَ البدر، لا تُضامُّون في رؤيته))٣٤٦.

وعن جرير بن عبد الله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنكم سترون ربكم عيانا))٣٤٧.

قال ابن القيم (وأما الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها عنه أبو بكر الصديق، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجرير بن عبد الله البجلي، وصهيب بن سنان الرومي، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعدي بن حاتم الطائي، وأنس بن مالك

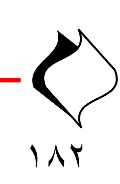
---

٣٤٤ تفسير ابن كثير ٦/ ٤٠٨.

٣٤٥ الإبانة عن أصول الديانة ص ١٢.

٣٤٦ انظر صحيح البخاري كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، برقم (٧٤٣٩)، وابن ماجه (١٧٩)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١١١٢٠).

٣٤٧ رواه البخاري ٧٤٣٥.



الأنصاري، وبريدة بن الخصيب الأسلمي، وأبو رزين العقيلي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو أمامة الباهلي، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وعمارة بن رويبة، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص وحديثه موقوف، وأبي بن كعب، وكعب بن عجرة، وفضالة بن عبيد وحديثه موقوف، ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غير مسمى. فهناك سياق أحاديثهم من الصحاح والمسانيد والسنن وتلقها بالقبول والتسليم، وانشراح الصدر لا بالتحريف والتبديل وضيق الطعن ولا تكذب بها فمن كذب بها لم يكن إلى وجه ربه من الناظرين وكان عنه يوم القيامة من المحجوبين)[٣٤٨] ثم ذكر بعد ذلك سياق الأحاديث بكاملها.

تنبيهات مهمة:

بعد شرح ما يتعلق بالنص الذي جاء في كلام المصنف يجدر التنبيه على أمور مهمة تتعلق بمسألة الرؤية، فمسألة رؤية الله عز وجل مُتشعبة؛ إذ تشتمل على المسائل الآتية:

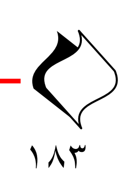
- ما يتعلق برؤيته سبحانه وتعالى في الدنيا عياناً.
- ورؤيته جل وعلا منامًا.
- ورؤية النبي ﷺ لربِّه ليلة المعراج.
- ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وفي الجنة.
- وكذلك رؤية المنافقين والكافرين له جل جلاله يوم القيامة.

ومسألة رؤية الله يُلحقها العلماء بباب الصِّفات، مع أن البحث في رؤية العبد لربه وليس العكس، ولكنهم يُلحقونها بباب الصفات.

وأعطي نبذة عن هذه المسائل فأقول:

---

٣٤٨ حادي الأرواح ص ٢٣١



أولًا: رؤية الله في الدنيا يقظة.

رؤية الله في الدنيا يقظة غير واقعة شرعًا، وغير مُمكنة، وقد اتفقت الأمةُ على أن الله تعالى لا يراه أحدٌ في الدنيا بعينه، ولم ينازعوا في ذلك إلا ما شَذَّ من بعض غُلاة الصُّوفية؛ فقد زعموا أنه يجوز رؤية الله في الدنيا، وأنه يَزورهم ويَزورونه في الحضرة الإلهية ويَرَوْنه[٣٤٩]، وهؤلاء لا عبرة بخلافهم؛ إذ كله كذب ودجل.

ومَن ادَّعى رؤية الله في الدنيا بعيني رأسه فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة، وهو ضالٌّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–في ردِّه على مَن زعم رؤية الله في الدنيا يقظة: «مَن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضالٌّ، مُخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادَّعوا أنهم أفضل مِن موسى، فإن هؤلاء يُستتابون، فإن تابوا وإلا قُتلوا»[٣٥٠].

وقد بَيَّن–رحمه الله–علة عدم إمكان رؤية الله في الدنيا بالعين، حيث قال: «وإنَّما لم نَره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرَّائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قُوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل خَرَّ موسى صعقًا، قال: سبحانك! تُبت إليك، وأنا أول المؤمنين بأنَّه لا يراك حيٌّ إلا مات، ولا يابس إلا تَدَهْدَه، ولهذا كان البشر يَعجزون عن رؤية المَلَك في صورته إلَّا مَن أيده الله، كما أيَّد نبينا صلى الله عليه وسلم)[٣٥١].

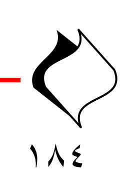
والأدلة التي استند عليها أهل السنة في إجماعهم على عدم وقوع رؤية الله في الدنيا يقظة–كثيرة؛ منها:

---

٣٤٩ «المِلِل والنِّحَل» للشَّهرستاني (١/ ١٠٥).

٣٥٠ «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠٤).

٣٥١ «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٣٣٢).



قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في «صحيح مسلم»: ((تَعَلَّمُوا أنَّه لن يرى أحدٌ مِنكم ربه–عز وجل–حتى يَموت))[٣٥٢]، فهو صريح في عدم وقوع الرؤية البصرية لأحد من الناس لله جل وعلا في هذه الدار الدنيا حتى ولو كان نبيًّا؛ لأن الله–جل وعلا–قد مَنع موسى–عليه السلام–مِن أن يَرَاه، وهو أحد أُولي العزم من الرسل، فكيف بمن دونه مِن سائر المؤمنين؟! فإن الله–جل وعلا–لما قال له موسى: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف:١٤٣] قال: {لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣] فمنعه من أن يراه، وفي قوله: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا} أي: لما تجلى الله للجبل تدكدك ولم يَثبت، فكيف يَثبت البشر الضعيف؟!

ثانيًا: رؤية الله–عز وجل–في المنام.

ذهب جمهور العلماء إلى جواز رؤية الله في المنام، وأنها قد تقع صحيحة، بل ذكر القاضي عياض–رحمه الله–اتفاق العلماء على هذه المسألة؛ فقال: «ولم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله في المنام»[٣٥٣].

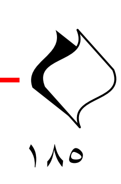
وقال الإمام البَغوي رحمه الله: «رؤية الله في المنام جائزة؛ قال معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إني نَعست فرأيت ربِّي))، وتكون رؤيته–جَلَّت قُدرته–ظهور العدل والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع، فإن رآه فوعد له جنة، أو مغفرة، أو نجاة من النار، فقوله حق، ووعده صدق، وإن رآه ينظر إليه فهو رحمته، وإن رآه معرضًا عنه فهو تحذير من الذنوب؛ لقوله سبحانه وتعالى: {أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ} [آل عمران: ٧٧]، وإن أعطاه شيئًا من متاع الدنيا فأخذه، فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه، يَعظم بها أجرُه، لا يَزال يضطرب فيها حتى يُؤديه إلى الرحمة، وحسن العاقبة»[٣٥٤].

---

٣٥٢ أخرجه مسلم (٢٩٣١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

٣٥٣ «إكمال المُعْلِم بفوائد مُسلم» (٧/ ٢٢٠) ط. دار الوفاء.

٣٥٤ «شرح السنة» (١٢/ ٢٢٧، ٢٢٨).



وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومن رأى الله–عز وجل–في المنام فإنَّه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرَّائي؛ إن كان صالحًا رآه في صورة حسنة، ولهذا رآه النبي صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة...»[٣٥٥].

وقال في موضع آخر: «وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة على قدر إيمانه ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يُشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق...»[٣٥٦].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: {مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [ص: ٦٩]: فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: ((... فإذا أنا بربي–عز وجل–في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب)). أعادها ثلاثًا، ((فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفتُ...»، فهو حديث المنام المشهور، ومَن جعله يقظة فقد غَلط، وهو في السُّنن من طرق»[٣٥٧].

ثالثًا: رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج.

بعد اتفاق أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا يقظة فقد اختلفوا في رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم ربه ليلة المعراج؛ قال الإمام ابن القيم: «حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب (الرؤية) له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك، وشيخنا–أي: ابن تيمية– يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل: رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه–ﷺ صلى الله عليه وسلم –رآه عز

٣٥٥ «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٥١).

٣٥٦ «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٩٠).

٣٥٧ «تفسير ابن كثير» (٧/ ٨١).

وجل، ولم يقل: بعيني رأسه، ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر-رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم-في الحديث الآخر: ((حجابُه النُّورُ))[٣٥٨]، فهذا النور هو-والله أعلم-النور المذكور في حديث أبي ذر-رضي الله عنه-: ((رأيتُ نُورًا))"[٣٥٩].[٣٦٠]

وهو ما رجَّحه-أيضًا-شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»، حيث قال رحمه الله: «ولم يتنازعوا إلا في النبي-صلى الله عليه وسلم-خاصة مع أن جماهير الأئمة على أنَّه لم يَره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دَلَّت الآثار الصحيحة الثابتة النبي-صلى الله عليه وسلم-والصحابة وأئمة المسلمين، ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمدًا رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إمَّا إطلاق الرؤية، وإمَّا تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: ((أتاني البارحةَ رَبِّي في أحسن صورة))[٣٦١] الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام هكذا جاء مفسرًا)[٣٦٢].

فحملوا الآثار المطلقة الواردة في الرؤية؛ كأثر ابن عباس: ((رأى محمدٌ ربَّه)) على الرؤية القلبية، وحملوا الآثار النافية للرؤية؛ كأثر عائشة-رضي الله عنها-على الرؤية البصرية؛ لأنه-من خلال التَّتبع-لم يَرِد عن أحد منهم أنه قال: رآه بعينه، وعليه فلا تعارض بين هذه النصوص.

رابعًا: رؤية الله-عز وجل-في الآخرة.

---

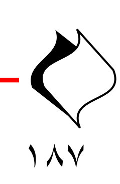
٣٥٨ أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٣٥٩ أخرجه مسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

٣٦٠ «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» (١/ ٣).

٣٦١ أخرجه الترمذي (٣١٥٧)، وأحمد (٣٣٠٤) وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩).

٣٦٢ «مجموع الفتاوى» (١/ ١٦٩).



وهذه المسألة تقدم الحديث عنها في بداية شرح كلام المصنف عن رؤية الله، وقد حاول المعتزلة إنكارها ورد النصوص الواردة فيها، وقد أجاب أهل السنة على شبههم وبينوا أن رؤية الله في الآخرة جائزة عقلًا وواقعة شرعًا، ولا يَرِد على هذا قوله تعالى: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [الأنعام: ١٠٣]، فقد استدل به المعتزلة على نفي الرؤية مطلقًا، مع أن المراد بالآية ليس نفي الرؤية، وإنما المراد نفي الإدراك؛ لأنها سِيقت مساق المدح، ولو كان المراد نفي الرؤية لما كان في ذلك مدح؛ لأن المعدوم هو الذي لا يُرَى، والكمال في إثبات الرؤية هو نفي الإدراك؛ لأن النفي المحض لا يأتي في صفات الله، وإنما الذي يأتي هو النفي الذي يستلزم إثبات ضده من الكمال.

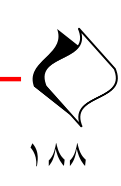
فالمعنى: أنه يُرى ولا يحاط به رؤيةً، فـ{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}؛ لكمال عظمته، كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علمًا لكمال عظمته، و{لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}؛ لكمال قوته واقتداره، وهكذا.

وقد ورد عن بعض السلف أن الآية تفيد نفي الرؤية في الدنيا، فروى ابن كثير عن إسماعيل بن علية في قول الله تعالى: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} أنه قال: «هذا في الدنيا».

وقد ذهب الآخرون إلى أن هذا النفي العام لرؤية جميع الأبصار له سبحانه وتعالى مُخَصَّصٌ بما ثبت من رؤية المؤمنين له جل وعلا في الآخرة. [٣٦٣]

وقال ابنُ القيّم رحمه الله: "دلَّ الكتابُ والسنَّةُ المتواتِرَةُ وَإجماعُ الصَّحابةِ وأئمةُ أهلِ الإسلامِ والحديثِ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرى يومَ القيامَةِ بِالأبصارِ عِيَانًا، كَمَا يُرى القَمَرُ ليلةَ البدرِ صَحْوًا، وَكَمَا تُرى الشَّمسُ في الظَّهيرة، فَإِن كَانَ مَا أَخبَرَ به اللهُ وَرَسُوله عنه من ذلك حَقِيقَةً–وإنَّ له والله حقَّ الحقيقة–فَلَا يُمكِنُ أن يَروهُ إلَّا مِن فَوقِهم؛ لاستِحَالَةِ

٣٦٣ انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٩).



أَن يَروهُ أسفل منهم، أو مِن خلفهم، أَو أمامهم، وَنَحو ذَلِكَ...، فلَا يَجتَمِعُ فِي قَلبِ العبد بعد الاطلاع عَلَى هَذِهِ الأَحَادِيث وَفَهمَ مَعنَاهَا إنكارُها والشهادةُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ أَبَدًا»[٣٦٤].

أ-رؤية المؤمنين لربِّهم جل وعلا:

بَيَّن المصنفُ رحمه الله هنا أنه قَد دَخَلَ فِي الإيمانِ باللهِ وَكُتبِهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسلِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ المؤمِنِينَ يرونَهُ سبحانه وتعالى يومَ القيامةِ؛ فَمَنِ لَم يُؤمن بِأَنَّهُ-سبحانه-يُرَى يومَ القيامةِ فَقَد رَدَّ أَدِلَّةَ الكتابِ والسُّنَّةِ، وَخَالَفَ مَا عَلَيهِ سَلفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتها، وَلَم يُؤمن بِاللهِ وَمَلائكتِهِ وكتبِهِ وَرسلِهِ.

فالله سبحانه وتعالى سيخص المؤمنين بمزيد من الإنعام يوم القيامة، وهو رؤيته جل وعلا، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله: «هَل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «هل تُضارون في الشَّمس ليس دونَها سحاب؟». قالوا: لا. قال: «فإنَّكم ترونه كذلك...»، الحديث[٣٦٥].

وسيخصهم في الجنة بأعظم نعمة أنعم عليهم بها؛ ألا وهي تشريفهم وإكرامهم بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، كما قال تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة:٢٢، ٢٣].

وقال تعالى عن الكافرين: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [المطففين: ١٥].

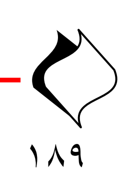
قال الإمامُ الشافعيُّ: «فَدَلَّ هذا على أنَّ المؤمنين لا يُحجبون عنه تبارك وتعالى».

وقال جل شأنه: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} [ق: ٣٥].

---

٣٦٤ «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (ص ٣٤٢).

٣٦٥ أخرجه البخاري (٦٠٨٨) ومسلم (٢٦٧).



فالمزيد هنا هو: النَّظر إلى وجه الله عز وجل، كما فسَّره بذلك علي وأنس بن مالك رضي الله عنهما.

وقال سبحانه: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} [يونس: ٢٦].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما فَسَّرها بذلك رسول الله ﷺ بقوله: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ! فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا اعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِن النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وهي الزيادة، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}»[٣٦٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وأمَّا السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه. آمين[٣٦٧].

ب-رؤية الكفار والمنافقين لربِّهم جل وعلا:

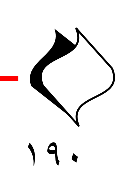
أَمَّا الكفارُ والمنَافِقِينَ، فَقَد ذكر شيخُ الإسلام أنَّ الناسَ قد تَنَازَعَوا في ذلك على ثَلَاثَةِ أَقوالٍ؛ فقال: «فَأَمَّا مَسْأَلَةُ رُؤْيَةِ الكُفَّارِ فَأَوَّلُ مَا انْتَشَرَ الكَلَامُ فِيهَا، وتَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا-فِيمَا بَلَغَنَا-بَعْدَ ثَلَاثِمائَةِ سَنَةٍ مِن الهِجْرَةِ، وَأَمْسَكَ عَن الكَلَامِ فِي هَذَا قَوْمٌ مِن العُلَمَاءِ، وَتَكَلَّمَ فِيهَا آخَرُونَ؛ فَاخْتَلَفُوا فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، مَعَ أَنِّي مَا عَلِمْت أَنَّ أُولَئِكَ المخْتَلِفِينَ فِيهَا تَلَاعَنُوا وَلَا تَهَاجَرُوا فِيهَا؛ إذْ فِي الفِرَقِ الثَّلَاثَةِ قَوْمٌ فِيهِمْ فَضْلٌ، وَهُمْ أَصْحَابُ سُنَّةٍ».

ثم قال رحمه الله: «وَالأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ فِي (رُؤْيَة الكُفَّارِ):

---

٣٦٦ أخرجه مسلم (٢٦٦) من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه.

٣٦٧ «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٩).



أَحَدُهَا: أَنَّ الكُفَّارَ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ بِحَالٍ؛ لَا المظْهِرُ لِلكُفْرِ، وَلَا المسِرُّ لَهُ، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ المتَأَخِّرِينَ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ عُمُومُ كَلَامِ المتَقَدِّمِينَ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يَرَاهُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ مِنْ مُؤْمِنِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَمُنَافِقِيهَا، وَغَبَرَاتٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَذَلِكَ فِي عَرْصَةِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنِ المنَافِقِينَ، فَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرِ بْنِ خُزَيْمَة مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ القَاضِي أَبُو يَعْلَى نَحْوَهُ فِي حَدِيثِ إِتْيَانِهِ E لَهُمْ فِي الموْقِفِ؛ الحَدِيث المشْهُور.

الثَّالِثُ: أَنَّ الكُفَّارَ يَرَوْنَهُ رُؤْيَةَ تَعْرِيفٍ وَتَعْذِيبٍ؛ كَاللِّصِّ إِذَا رَأَى السُّلطَانَ، ثُمَّ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ؛ لِيَعْظُمَ عَذَابُهُمْ، وَيَشْتَدَّ عِقَابُهُمْ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الحَسَنِ بْنِ سَالِمٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَوْلِ غَيْرِهِمْ؛ وَهُمْ فِي الأُصُولِ مُنْتَسِبُونَ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِلَى سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْترِي»[٣٦٨].

ومِمَّن رَجَّحَ رؤيَةَ الكُفَّارِ وَالمنَافِقِينَ للهِ فِي عَرَصاتِ القيامةِ العَلَّامةُ ابنُ القيّم رحمه الله في «حادي الأرواح» (ص٢٦٢).

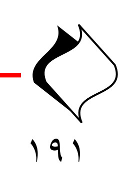
أما أهل الكفر فكما قالَ الله سبحانه وتعالى عنهم: (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُون) [المطفّفين:١٥]، فيُحجبون عن رؤية الله عز وجل، ولا شك أن أعظم عطاءٍ يُعطاه المؤمن؛ النظرُ إلى وجهه الكريم.

ولذلك أحد الصحابة لما سمعَ ذلك قال: (لن نعدِم من ربٍ يضحكُ خيرا)٣٦٩ فالله سبحانه وتعالى سيتجلّى لعباده المؤمنين وسيرونه، وهذه الرؤية منها ما يكون في عرصاتِ يوم القيامة، ومنها ما يكون بعد دخولهم الجنة.

---

٣٦٨ «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٨٦).

٣٦٩ انظر سنن ابن ماجه برقم (١٨١)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمَدَنِيِّينَ (١٦١٨٧)، ذكره الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة الجزء السادس، صفحة (٧٣٢)، وضعفه الأرنؤوط كما في المسند.



فمن عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعة أن رؤية الله عز وجل ثابتة بنصوصِ القرآن والسنَّة، فنؤمنُ بها ونصدِّقُ بها كما أخبرت بذلك النصوص.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[١٥] "والإيمان بالميزان يوم القيامة، يوزن فيه الخير والشر، له كفتان ولسان".

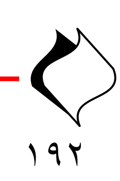
الشرح

ذكر المصنف–رحمه الله تعالى–هنا جملة من المسائل إلا أنه –رحمه الله–لم يرتبها بحسب وقوعها، فقد ذكر شيئاً من أشراط الساعة كالإيمان بالمسيح الدجال والإيمان بنزول عيسى، وأنه ينزل فيقتل الدجال وهذا شيءٌ من أشراط الساعة.

وذكر شيئاً من عذاب القبر وقال: والإيمان بعذاب القبر ومنكر ونكير، وذكر شيئاً من أحوال الحشر وأحوال الجنة والنار، ولذلك سيكون الشرح والعرض من جانبين هما:

- الشرح المجمل: وهو بحسب ترتيب هذه الأشياء وقوعاً.
- والشرح المفصل: وهو بحسب ما أوردها المصنف هنا ذكراً؛ حتى نتلافى شيئاً من التكرار في هذه المسائل، فهو إن أشار –رحمه الله تعالى–إلى أشراط الساعة في قوله: الإيمان بالمسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام، ومعلوم أن هذه من أشراط الساعة الكبرى.

أولاً: الشرح المجمل: ويمكن إجماله في النقاط الآتية:



أولاً: للساعة علامات كما قال سبحانه وتعالى: {فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} [محمد:١٨]، تُسمى علامات وتُسمى أشرطاً لهذه الساعة، والمقصود بالعلامات أنها تؤذن بقرب الساعة، ومعلوم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي أخر الأمم، وأن عمر هذه الأمة كما جاء في الصحيح بالنسبة للأمم الماضية هي ما بين العصر إلى المغرب[٣٧٠]، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى».[(٣٧١)]

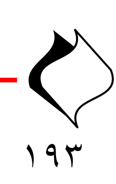
ثانياً: قسم العلماء أشراط الساعة إلى أشراط صغرى، وأشراط وسطى، وأشراط كبرى، باعتبار أن هناك علامات وأشراط للساعة قد وقعت، وعلامات يتوالى وقوعها، وعلامات هي الكبرى تلك التي عند وقوعها تتابع كتتابع الخرز.

- والعلامات التي وقعت منها مثلاً: بعث النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها فتح باب فتح بيت المقدس، وكذلك ما حصل من ظهور الفرق والفتن التي ظهرت ووقعت، وكذلك خروج الكذابين ونحو ذلك.
- وهناك علامات يتوالى وقوعها مثلاً أو أنها وقعت وستقع في مستقبل حال الناس: ومن ذلك: ما نراه من زخرفة المساجد، وكذلك من تضييع الأمانة، والتطاول في البنيان.
- وعلامات كبرى رتبها العلماء بأنها خروج المهدي، ثم خروج المسيح الدجال، ثم نزول عيسى، ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم هدم الكعبة، ثم الدخان، ثم رفع القرآن، ثم طلوع الشمس من مغربها، ثم خروج النار من قعر عدن، ثم النفخ في الصور.

---

٣٧٠ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّما أَجَلُكُمْ في أَجَلِ مَن خَلَا مِنَ الأُمَمِ، ما بيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ إلى مَغْرِبِ الشَّمْسِ)). أخرجه البخاري (٣٤٥٩).

٣٧١ انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين برقم (٦٥٠٤)، ومسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥٢)، والترمذي (٢٢١٤)، والدارمي (٢٧٥٩)، وأحمد (١١٨٣٦).



ثالثاً: الفرق بين العلامات الصغرى والوسطى والكبرى.

تقسيم علامات الساعة أمر اصطلاحي يعود إلى اعتبارات تتعلق بكل نوع:

فالعلامات الصغرى: هي التي وقعت، وكان وقوعها قبيل عصر النبوة أو قريباً من ذلك العصر.

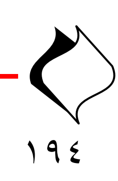
أما العلامات الوسطى: فهي التي تأخر وقوعها عن عصر النبوة، وتقع في فترات متباعدة غير متتالية، وهي وسطى لأنها تقع زمنياً بين النوعين الأخرين.

وأما العلامات الكبرى: فهذا أذن لقرب الساعة فتسبق قرب الساعة مباشرة، وتقع متتابعة فهي تأتي متتالية في الوقوع بعضها يتبع بعضاً دون انقطاع أو تباعد،

أشار المصنف إلى الإيمان بعذاب القبر قال في المسألة الثامنة عشر: والإيمان بعذاب القبر ومنكر ونكير، ونعلم أن عذاب القبر وهو أول مراحل الآخرة، إذ كان الموت بداية آخرة الإنسان وقيامته الصغرى تبدأ بالموت فأول منازل الآخرة هو القبر، وهو ما يُسمى البرزخ؛ لأنه مرحلة بين الدنيا والبعث والآخرة.

فنؤمن بالقبر عذابه ونعيمه في هذا كما جاءت بهذه النصوص، فمن عقيدة أهل السنة إيمانهم بنعيم القبر وعذابه، وأشار المصنف هنا إلى عذاب القبر، فجاء من جاء من المعتزلة ونحوهم من أنكر عذاب القبر وهو أمرٌ ثابت بنص الكتاب وبنص السنة كما هو معلوم.

فالإنسان إذا دُفن في قبره فهو بمجرد أن يتولى أهله ويذهب يسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه ويسألانه من ربك من دينك ومن نبيك؟ فهذه أسئلة يُسألها فإذا كان مؤمناً وفق للجواب، وهذا قول الله عز وجل: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ



الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ }[إبراهيم:٢٧]، فالمؤمن يثبت ويجيب، والمنافق والكافر يقول ها ها لا أدري[٣٧٢].

وهذا العذاب أي سؤال القبر وما يتعلق بنعيمه وعذابه أمرٌ قد ثبتت به النصوص، فلابد لكل مؤمن وكل صاحب سنة أن يؤمن ويستعد لهذا اليوم، سيذهب المال، ويذهب الأهل وتبقى أنت في هذه الوحشة، وفي هذه الظلمة، لا ينفعك في هذا المقام إلا إيمانك بالله عز وجل، فعند ذلك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

وللقبر ضمة تختلف فيها أضلاع الإنسان، ولو نجا من هذه الضمة أحد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لنجا منها سعد» [٣٧٣]، ومعلوم من هو سعد الذي اهتز له عرش الرحمن عند موته، «اهتز عرش الرحمن لموت سعد»[٣٧٤]، ومع ذلك ما نجا من هذه الضمة التي تلحق الناس، وقيل أنه لا يستثنى من ذلك إلا الأنبياء في هذا الأمر.

فهذه أول مراحل الحياة الآخرة حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه، ثم بعد ذلك يأتي البعث، ويسبق البعث النفخ، والنفخ هناك ثلاث نفخات يوم القيامة آخرها القيام لرب العالمين، فأولها نفخة الفزع ثم نفخة الصعق التي يُصعق فيها يعني من في السموات ومن في الأرض ثم بعد ذلك يأتي نفخة القيام لرب العالمين.

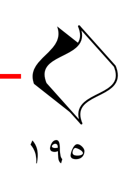
هذه نفخات بعد ذلك يقوم الناس من قبورهم، ومعلوم أنه لا يبقى من الإنسان بعد تحلل جسمه إلا عجب الذنب، عجب الذنب هو الذي يبقى لا تأكله الأرض

---

٣٧٢ أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) واللفظ له، والنسائي (٢٠٠١)، وابن ماجه (١٥٤٩) مختصراً، وأحمد (١٨٥٥٧) باختلاف يسير

٣٧٣ انظر مسند الإمام أحمد برقم (٢٤٢٨٣)، قال الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (:٤٣٥) صحيح، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في المسند.

٣٧٤ صحيح البخاري (٣٨٠٣).



فبالتالي الله سبحانه وتعالى يُمطر مطراً فتنبت أجسام البشر من ذلك العُجب، ثم يقوم الناس لرب العالمين، وبعد هذا يبدأ مراحل الحشر ثم بعد ذلك يبدأ الحساب.

فهذا الحساب يتبعه بعد ذلك الميزان، ثم المرور على الصراط، فذكر المصنف هنا والإيمان بالميزان يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى قد قال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القارعة:٦-٩].

فهناك ميزان حقيقي أهل السنة يؤمنون بوجوده وأنه توزن فيه أعمال الإنسان وصحائفه بل أن الإنسان قد يوزن بنفسه في ذلك الميزان، فهو ميزان حقيقي ثابتٌ وبالتالي بعد ذلك يأتي إعطاء الصحائف إما باليمين وإما بالشمال، ثم بعد ذلك يمر الناس على الصراط الذي يُنصب على متن جهنم، وهو يعني أحد من السيف وأدق من الشعرة[٣٧٥].

---

٣٧٥ جاء في صحيح مسلم (رقم ١٨٣) قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: (بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ).
ويقول الإمام السخاوي رحمه الله: "وعلى كل حال، فنقل أبي سعيد المشار إليه قد ورد تصريح الرفع عن غيره، من طرق متعددة، يقوي بعضها بعضًا، بل أورد الحاكم في مستدركه على الصحيحين بعضها، فأخرج البيهقي وابن المبارك وابن أبي الدنيا وغيرهم جميعًا من حديث عبيد بن عمير رفعه مرسلاً: (الصراط على جهنم مثل حرف السيف)، وكذا أخرج البيهقي وشيخه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعًا: (والصراط كحد السيف) والبيهقي وحده من حديث زياد النميري عن أنس مرفوعًا: (الصراط كحد الشعرة أو حد السيف). ومن حديث يزيد الرقاشي عن أنس رفعه أيضًا: (إنه أدق من الشعرة، أحد من السيف) ولأبي يعلي وابن منيع في مسنديهما عن أبي هريرة مرفوعًا: (الصراط كحد السيف). ولأحمد بن حنبل في مسنده من حديث القاسم عن عائشة في حديث مرفوع، أصله عند أبي داود من حديث الحسن البصري عنها: (ولجهنم جسر، أدق من الشعر، وأحد من السيف)، ولابن أبي الدنيا من حديث رجل من كندة عنها مرفوعًا في حديث: (أن الصراط يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف، ويسجر حتى يكون مثل الجمرة). ومن حديث أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي أنه قال: (يوضع الصراط يوم القيامة وله كحد الموس)، وحكمه الرفع... " انتهى باختصار من "الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية" (٣/ ٩٠٥-٩٠٧).
ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن هذا هو الصراط المستقيم؛ الذي هو أحد من السيف؛ وأدق من الشعر ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" انتهى من "مجموع الفتاوى" (٤/٣٧٥).

فهناك من يمر كطرف العين، وهناك من يمر كالبرق، وهناك من يمر كالجواد المضمر، وهناك من يزحف، وهناك من يُكب في النار.

فهذا قول الله عز وجل: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم٧٢:٧١]، فأهل النار يكبون في النار التي هي موجودة وقائمة، ولذلك نحن من عقيدة أهل السنة نؤمن بأن النار والجنة موجودتان وأنهما باقيتان لا تفنيان.

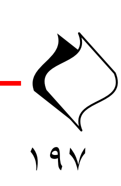
ثم بعد ذلك يأتي ما يتعلق بأمر الجنة والنار، في أثناء الموقف ذكر المصنف هنا أمر الشفاعة، وأنه إذا حُشر الناس فإنهم يسألون الشفاعة لكي يُشفع لهم في الفصل بين الناس والقضاء في هذا اليوم في يوم المحشر ولاشك أنه يومٌ عظيم وهولٌ شديد، والله سبحانه وتعالى يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج٢:١].

ففي ذلك الموقف يفر الأب من ابنه ويفر الإنسان من زوجته ومن أولاده ويقول: نفسي نفسي من هول ذلك اليوم، فمن شدة حال الموقف الناس يسألون من يشفع لهم، فيذهبون إلى آدم إلى أن يصلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم والنبي له شفاعة في أهل الموقف أن يُقضى بينهم ثم شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، ثم شفاعته في قومٍ من أمته وجبت عليهم النار أن يدخلوا إلى الجنة، للنبي صلى الله عليه وسلم شفاعات يختص بها، وهناك شفاعات هي للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره من النبيين والشهداء والصالحين والمؤمنين وشفاعة الإنسان قد يكون حتى في أهل بيته.

والشفاعة كما هو معلوم لها شرطان:

إذن الله سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع.

ورضاه عز وجل عن المشفوع له.



فإذا تحقق هذان الشرطان حقت الشفاعة ووجبت الشفاعة لذلك المشفوع له، ثم بعد أن تقتضي شفاعات الناس تأتي رحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، فيُخرج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وهذه برحمة الله سبحانه وتعالى، فنؤمن بالشفاعة، وقد أنكر الخوارج والمعتزلة لهذه الشفاعة.

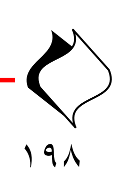
وقد عظم الله أمر الإيمان باليوم الآخر وقرنه بالإيمان به، فقال تعالى: (يؤمنون بالله وباليوم الآخر)، فجمع بين الإيمان به عز وجل والإيمان باليوم الآخر لعظيم حقه وهو ركن من أركان الإيمان فنؤمن باليوم الآخر بجميع ما يتعلق به، وأما الجنة التي أُخرج منها أدم فعلى الراجح أنها هي هذه الجنة، وطبعاً هناك من قال: أنها جنة في الدنيا وهذا بحثٌ بحثه ابن القيم-رحمه الله تعالى-وذكر فيه أقوال العلماء في كتابه مفتاح دار السعادة، فإذا أردت استفسار الأقوال في هذه المسألة فارجع إلى هذا الكتاب إلى كتاب مفتاح دار السعادة، بين يعني خلاف العلماء هل هذه الجنة التي أُخرج منها آدم هي جنة الخلد أم هي جنة أخرى في الدنيا؟

والصواب الذي عليه يعني كثيرٌ من أهل العلم أنها جنة الخلد، فعلى هذا ذكر المصنف هنا قال: وأدم عليه السلام كان في الجنة الباقية المخلوقة فأُخرج منها بعدما عصى الله عز وجل، فإخراجه كان من هذه الجنة الباقية الخالدة وليست جنة من جنات الدنيا كما يرى بعض أهل العلم، فهذه بعض المسائل التي تناولها المصنف فيما يتعلق بشيءٍ من اليوم الآخر بأشراط الساعة وعذاب القبر ونعيمه وشيءٍ مما يقع من علامات الحشر، والبعث ثم إلى إثبات الجنة والنار.

فمعلوم أن المسلم يؤمن بذلك ويعتقده لأنه ثابت بنص كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الشرح المفصل

قول المصنف: **"والإيمان بالميزان يوم القيامة، يوزن فيه الخير والشر، له كفتان ولسان."**



وفي هذا النص مسائل:

المسألة الأولى: معنى الميزان في اللغة[٣٧٦]:

- **أصل الكلمة:**

أصله من مِوْزان؛ انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وجمعه موازين.

قال الجوهري رحمه الله تعالى: "... وأصله مِوْزانٌ، انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها... ووزنتُ الشيء وزنًا وزِنَة، ويقال: وَزَنْتُ فلانًا ووَزَنْتُ لفلان، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣]، وهذا يزن درهمًا"[٣٧٧].

- **وزنها وتصاريفها:** الميزان مأخوذ من (وزن)، (يزن)، (وزنًا)، و(زنةً)، وأصله (مِوزَان) انقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها فصار (ميزان)، ويتعدَّى باللام وبدونها.

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: "الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالنُّونُ: بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ: وَوَزَنْتُ الشَّيْءَ وَزْنًا، وَالزِّنَةُ قَدْرُ وَزْنِ الشَّيْءِ، وَالْأَصْلُ وَزْنَةٌ... وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَيْ: هُوَ مُحَاذِيهِ، وَوَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُهُ، وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ: إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ"[٣٧٨].

- **معانيها:**

قال الليث: (الوزن ثقل شيء بشيء مثله)[٣٧٩].

والميزان: اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تُقَدَّرُ به الأشياء خفةً وثقلًا.

وقد أطلقت لفظة الوزن والميزان على عدة معان:

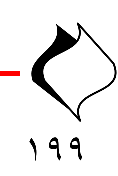
---

٣٧٦ المصدر: الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي ٢/ ١٠٨٣

٣٧٧ "الصحاح للجوهري، مادة: (وزن)، (٦/ ٢٢١٣).

٣٧٨ "معجم مقاييس اللغة"؛ لأحمد بن فارس مادة: (و-ز-ن)، (٦/ ١٠٧).

٣٧٩ لسان العرب ١٥/ ٢٠٦



المعنى الأول: فهو يطلق ويراد به بيان قدر الشيء وقيمته، أو خسة الشيء وسقوطه، كما قال تعالى: فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا [الكهف: ١٠٥].

قال ابن الأعرابي: العرب تقول: (ما لفلان عندنا وزن أي قدر؛ لخسته، ويقال: وزن الشيء إذا قدره، وزن ثمر النخيل إذا خرصه)[٣٨٠].

المعنى الثاني: أن الميزان يأتي في باب اللغة مراداً به الميزان ذي الكفات.

المعنى الثالث: ويأتي مراداً به العدل أيضاً.

المعنى الرابع: كما يأتي ويراد به الكتاب الذي فيه أعمال الخلق.

ثم قال: وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ[٣٨١].

وقال الراغب: الوزن معرفة قدر الشيء... والمتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبان.[٣٨٢]

ثم ذكر بعض الآيات التي تدل على أنه يأتي مراداً به المعادلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال، مثل قوله تعالى: وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. [الشعراء: ١٨٢]، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ [الرحمن: ٩].

وأنه يأتي بمعنى العدل في محاسبة الناس، كما قال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [الأنبياء: ٤٧].

- **استعمالاتها:**

أما الميزان؛ فهو: (الآلة التي يوزن بها الأشياء) ويجمع على: موازين.

---

٣٨٠ "تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: (و-ز-ن)، (١٣/ ١٧٥).

٣٨١ "تهذيب اللغة"؛ للأزهري، مادة: (و ز ن)، (١٣/ ١٧٥).

٣٨٢ المفردات في غريب القرآن"؛ للراغب الأصفهاني، (ص ٨٦٨).

(وجائز أن يقال للميزان الواحد – بأوزانه وجميع آلته – الموازين، قال الله عز وجل: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [الأنبياء: ٤٧] يريد نضع الميزان ذا القسط. وسيأتي تفصيل هذا.

وجاء إطلاق الموازين على الأعمال:

كما قال تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف: ٨]

قال الأزهري: (أراد والله أعلم-: فمن ثقلت أعماله التي هي حسناته).

وذكر الراغب: (أن مجيء الميزان على صيغة الجمع تارة، ومجيئه تارة أخرى بالإفراد فإنما هو باعتبار المحاسب والمحاسبين، فمجيئه بلفظ الواحد اعتباراً بالمحاسب، ومجيئه بالجمع اعتباراً بالمحاسبين)

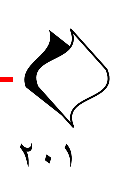
المسألة الثانية: الأدلة على ثبوت الميزان.

أولاً: الأدلة من القرآن:

ومن أدلة الكتاب العزيز:

- وقوله: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ٨، ٩].
- وقال جل وعلا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧.]
- وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧)) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ((٨فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ [القارعة:٦-٩]، وغير ذلك.

ثانياً: الأدلة من السنة:



- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كَلِمَتان خَفِيفتان على اللِّسان، ثَقِيلتان في الميزان، حَبِيبتان إلى الرَّحمن: سُبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.[٣٨٣]«
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّه لَيُؤتى بالرَّجل العَظيم السَّمين يوم القيامة لا يَزن عند الله جناح بَعُوضة، وقال: اقْرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]))[٣٨٤].
- وعن عبد الله بن عُمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ((إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أُمَّتي على رُءوس الخَلائق يوم القيامة، فَيَنْشُر عليه تِسعة وتِسعين سِجلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصر، ثُمَّ يقول له: أَتُنْكِر مِن هذا شيئًا؟ أَظَلَمَتك كَتَبَتِي الحَافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: أَلَكَ عُذْرٌ أو حَسَنة؟ فيهيب الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك؛ فَتُخرج له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رسولُ الله. فيقول: أَحْضِروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فيُقال: إنَّك لا تُظلم. قال: فَتُوضع السِّجلات في كِفَّة والبطاقة في كِفَّة، قال: فَطاشت السِّجلات، وثَقُلت البِطاقة، ولا يَثْقُل شيءٌ بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ))[٣٨٥].
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّه كان يَجْني سِوَاكًا من الأَرَاك، وكان دقيقَ السَّاقين، فَجَعَلت الرِّيح تَكفؤه، فَضَحِك القومُ مِنه، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((مِمَّ تَضْحَكُون؟)). قالوا: يا نَبِيَّ الله مِن دِقَّة سَاقيه. فقال: ((والَّذي نَفْسِي بيدِه لَهُما أثقلُ في الميزان مِن أُحُدٍ.[٣٨٦]))

---

٣٨٣ أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤)

٣٨٤ أخرجه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥).

٣٨٥ أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

٣٨٦ أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١١٤) (٩٢٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٦٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٥٠).

- وعن أبي مالكٍ الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ﷺ : ((الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تَمْلأُ الميزانَ))[٣٨٧].

ثالثاً: دليل الإجماع:

فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك.

قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلةً ليكونوا على أنفسهم شهداء.

قال القرطبي: «قد بلغت أحاديثه–أي: الميزان–مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه»[٣٨٨].

- وقال في موضع آخر: «أَجْمَع أكابرُ مُحَقِّقي هذه الأمة من أهل السُّنَّة بأنَّ الإيمان بثبوت الوزن والميزان حقٌّ واجبٌ وفَرْضٌ لازبٌ لِثُبوته، وعدم استحالة ذلك عقلًا»[٣٨٩].
- قال السفاريني رحمه الله تعالى: "فَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّهُ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ ذُو كِفَّتَيْنِ وَلِسَانٍ. ..وَقَدْ بَلَغَتْ أَحَادِيثُهُ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْه"[٣٩٠]

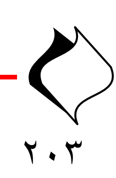
---

٣٨٧ أخرجه مسلم (٢٢٣).

٣٨٨ «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ١٨٤، ١٨٥).

٣٨٩ «لوائح الأنوار السنية» (٢/ ١٧٩).

٣٩٠ لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٥).



المسألة الثالثة: معنى الميزان في الشرع.

الميزان في الشرع: هو ما يضعُه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

والميزان الذي تُوزن بِهِ الأعمال هو: ميزان حسيٌّ حقيقي، له كفتان، وفي بعض الروايات: "ولسان"، والميزان عند أهل السنة ميزانٌ حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في هذا القول المعتزلة وقلة قليلةٌ من أهل السنة.

أقوال علماء الأمة:

- قال السَّفارينيُّ: «قال علماؤنا كغيرهم: نُؤمن بأن الميزان الذي تُوزن به الحسنات والسيئات حقٌّ، قالوا: وله لسان وكفتان تُوزن به صحائف الأعمال؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُوزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.
- قال العلامة الشيخ مرعي في «بهجته»: الصحيح: أنَّ المراد بالميزان: الميزان الحقيقي لا مجرد العدل، خلافًا لبعضهم.
- وقال القرطبي في «تذكرته»: «قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها». [٣٩١]

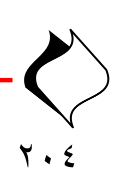
الذين خالفوا قول الجمهور في الميزان:

قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها؛ إذ لا تُقَوَّم بأنفسها. قال: وروى بعض المتكلمين عن ابن عباس: "أن الله تعالى يقلب الأعراض أجسامًا، فيزنها"، وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء، وعَزَا الطبري القول بذلك إلى مجاهد، والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن الميزان ميزان حقيقي توزنُ بِهِ أعمالُ العباد.[٣٩٢]

---

٣٩١ «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ١٨٤، ١٨٥).

٣٩٢ انظر: التذكرة (ص٣٠٩).



المسألة الرابعة: صفات الميزان

الواقع أن العلماء لم يتفقوا على إثبات أوصاف الميزان–وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الجوانب في وجوب الإيمان بالميزان، ومواقف الناس في ذلك–وأما خلافهم في ثبوت صفاته فقد انقسموا إلى فريقين:

١–أما الفريق الأول: فهم المثبتون لصفات الميزان الحسية، من أن له كفتين... إلى آخر أوصافه، وهؤلاء وإن أثبتوا هذا لكنهم يرجعون صفة تلك الكفات واللسان إلى علم الله تعالى.

٢–أما الفريق الآخر: فهم النافون لتلك الصفات.

وسنذكر رأي الفريقين فيما يلي: –

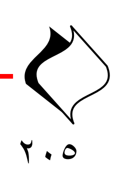
(١) المثبتون لصفات الميزان:

يثبت هؤلاء–وهم جمهور العلماء–أن الميزان له كفتان حسيتان مشاهدتان، وله لسان كذلك.

يقررون هذه الحقيقة غير ملتفتين إلى من تشمئز قلوبهم من سماعها، لعدم قبول عقولهم لها، وعدم تفهم ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك. ذلك أن الحق ضالة المؤمن، وما ورد به الشرع هو الذي ينبغي أن يقدم على هوى النفس وحكم العقل.

وسنذكر فيما يلي بعض أقوال هؤلاء كأمثلة على ثبوت ما ذكرنا.

قال القرطبي–ردًّا على من ينكر الميزان، ويؤول الوزن بأنه من ضرب المثل، وأن الوزن يراد به العدل والقضاء–قال: (وهذا مجاز. وليس بشيء، وإن كان شائعاً في اللغة –



للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي، ووصفه بكفتين ولسان، وأن كل كفة منها طباق السموات والأرض)[٣٩٣].

ويعزو القرطبي إلى ابن عباس أنه قال: (توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان ولسان) [٣٩٤].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه قال: (الميزان له لسان وكفتان، يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فتثقل على السيئات؛ فتؤخذ فتوضع في الجنة... ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان فتخف...)[٣٩٥].

ويقول ابن قدامة: (والميزان له كفتان ولسان، توزن به الأعمال، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣])[٣٩٦].

ويقول أبو الحسن الأشعري في معرض بيانه لاختلاف الناس في الميزان ومبيناً رأي أهل السنة: فقال أهل الحق: (له لسان وكفتان، توزن في إحدى كفتيه الحسنات وفي الأخرى السيئات، فمن رجحت حسناته؛ دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته، تفضل الله عليه فأدخله الجنة)[٣٩٧].

ويثبت ابن كثير أن للميزان كفتين حسيتين، ويستدل على هذا من السنة بحديث صاحب البطاقة المشهور وغيره من الأحاديث[٣٩٨] .

---

٣٩٣ التذكرة، ص٣٧٨.

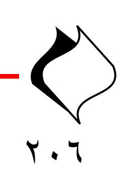
٣٩٤ التذكرة، ص٣٧٨.

٣٩٥ الدر المنثور، (٣/ ٧٠)

٣٩٦ ابن قدامة في لمعة الاعتقاد، ص٣٣.

٣٩٧ المقالات، (٢/ ١٦٤)

٣٩٨ النهاية، (٢/ ٢٤).



وأخرج الطبري عن ابن جريج قال: قال لي عمرو بن دينار: (قوله: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ [الأعراف: ٨] قال: إنا نرى ميزاناً وكفتين، سمعت عبيد بن عمير يقول: يجعل الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب)[٣٩٩]. وهو القول الذي رجحه الطبري أيضاً.

ويقول ابن أبي العز: (والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان)[٤٠٠].

وقال أبو إسحاق الزجاج –كما نقل عنه الحافظ ابن حجر: (أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، ويميل بالأعمال)[٤٠١].

ويقول السفاريني: (فقد دلت الآثار على أنه ميزان حقيقي ذو كفتين ولسان، كما قال ابن عباس، والحسن البصري، وصرح بذلك علماؤنا، والأشعرية وغيرهم، وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر، وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه)[٤٠٢].

ويقول البرديسي: (وانعقد الإجماع على أنه ميزان حسي له كفتان ولسان يوضع فيه صحف أعمال العباد ليظهر الرابح والخاسر)[٤٠٣].

ويروى من طريق عبد الملك بن أبي سليمان أنه قال: (ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان)[٤٠٤].

---

٣٩٩ جامع البيان، (٨/ ١٢٣).

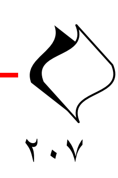
٤٠٠ الطحاوية، ص ٤٧٢.

٤٠١ نقله عنه الحافظ ابن حجر في، فتح الباري، (١٣/ ٥٣٨).

٤٠٢ لوامع الأنوار، (٢/ ١٥٢).

٤٠٣ تكملة شرح الصدور، ص ١٤.

٤٠٤ تفسير المنار، (٨/ ٣٢٢).



وعن سليمان قال: (يوضع الميزان وله كفتان، لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعته)[٤٠٥] .

ويقول الهراس: (وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان، ويقلب الله أعمال العباد – وهي أعراض – أجساماً لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة)[٤٠٦] .

ونقتصر في إثبات أن الميزان له لسان وكفتان على ما قدمناه من ذكر أقوال العلماء.

وبهذا يتبين أن أهل الحق – أهل السنة والجماعة – يثبتون حقيقة الميزان على ضوء ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يتأولون معناه، ولا يردون ما جاء في وصفه، ويقولون: الله وحده هو الذي يعلم قدرهما وكيفيتهما.

إذ لو لم يكن له لسان وكفتان؛ بل هو بمعنى العدل والقضاء كما ذهب إليه بعض العلماء، لو لم يكن كذلك لما وصف في السنة النبوية بأن له لسانا وكفتين، وأنه يخف ويثقل؛ إذ العدل لا يقال فيه تلك الصفات، فصح أنه ميزان حقيقي يزن الله فيه أعمال العباد، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار، على ما علم من مذهب السلف.

وإذ كنا نثبت صفات الميزان على ضوء ما جاء به الشرع فإنه لا ينبغي أن نتكلف فنثبت له أوصافاً تحتاج إلى إثبات من الشارع، أو نستند إلى أخبار لم تثبت، فإن الغلو في هذا مذموم.

وكمثال على هذا: ما يذهب إليه بعض الناس من أن كفتي الميزان من ذهب[٤٠٧].

أو القول بأن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام[٤٠٨] .

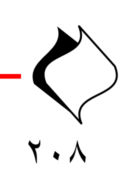
---

٤٠٥ فتح الباري، (١٣/ ٥٣٩).

٤٠٦ شرح العقيدة الواسطية، (ص ١٢٣).

٤٠٧ الفصل لابن حزم، (٤/ ٦٥).

٤٠٨ التذكرة، ص ٣١٣.



أو أن كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار[٤٠٩].

أو ما يقال إن صاحب الميزان يوم القيامة هو جبريل عليه السلام [٤١٠].

فتلك المسائل كلها تحتاج لإثباتها – فضلاً عن اعتقادها – إلى نص صحيح، فإن بعض العلماء يتساهل فيما يقرره من هذه المسائل، مثل ما يرويه السفاريني بصيغة التضعيف – يروى – (أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، فلما أفاق قال: إلهي من ذا الذي يقدر يملأ كفة حسناته؟ فقال: إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة)[٤١١] .

أو ما يذكره عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه–غير معزو إلى أحد–أنه قال: (ميزان رب العالمين ينصب للجن والإنس، يستقبل به العرش، إحدى كفتيه على الجنة، والأخرى على جهنم، لو وضعت السموات والأرض في إحداهما لوسعتهن، وجبريل آخذ بعمود ينظر إلى لسانه)[٤١٢] .

وكذا ما يروى عن عمر مرفوعاً: ((من كبر تكبيرة في سبيل الله، كانت صخرة في ميزانه أثقل من السموات السبع وما فيهن وما تحتهن، وأعطاه الله بها رضوانه الأكبر، وجمع بينه وبين محمد وإبراهيم والمرسلين في دار الجلال: ينظر إلى الله بكرة وعشياً))[٤١٣] .

---

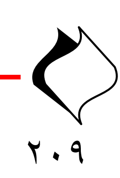
٤٠٩ التذكرة، ص ٣١٤، وعزاه إلى الترمذي الحكيم.

٤١٠ أخرجه الطبري في (جامع البيان) (٨/ ١٢٣) عن الحارث، قال: ثنا عبد العزيز قال: ثنا يوسف بن صهيب، عن موسى بن بلال ابن يحيى، عن حذيفة.

٤١١ ذكره السفاريني في (لوامع الأنوار) (٢/ ١٨٤) وعزاه إلى الرازي والثعلبي

٤١٢ لوامع الأنوار، (٢/ ١٨٤) ولم يعزه إلى أحد.

٤١٣ قال السيوطي في (اللالئ المصنوعة): (قال ابن حبان لا أصل له، وإسحاق يأتي بالموضوعات عن الثقات، قلت–وكذا قال الدارقطني في (غرائب مالك) إنه موضوع (٢/ ١٣٧).



وفي رواية أخرى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من كبر تكبيرة على ساحل البحر، كان في ميزانه صخرة، قيل: يا رسول الله، وما قدرها؟ قال: تملأ ما بين السموات والأرض))[٤١٤] .

ويقول السفاريني: (ظواهر الآثار وأقوال العلماء: أن كيفية الوزن في الآخرة – خفة وثقلاً – مثل كيفيته في الدنيا، ما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرفع إلى عليين، وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين، وبه صرح جموع، منهم القرطبي).

وقال بعض المتأخرين بل الصفة مختلفة، وأن عمل المؤمن إذا رجح صعد وسفلت سيئته، والكافر تسفل كفته لخلو الأخرى عن الحسنات، ثم تلا قوله تعالى: (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر: ١٠].

وذكر بعضهم في صفة الوزن: أن تجعل جميع أعمال العباد في الميزان في مرة واحدة، كل الحسنات في كفة النور، وهي يمين العرش جهة الجنة، والسيئات في كفة الظلمة، وهي عن يسار جهة النار، ويخلق الله لكل إنسان علماً ضرورياً يدرك به خفة أعماله وثقلها.

وقيل: بل علامة الرجحان عمود نور يقوم في كفة الحسنات حتى يكسو كفة السيئات، وعلامة الخفة عمود ظلمة يقوم من كفة السيئات حتى يكسو كفة الحسنات، لكل أحد[٤١٥]والظاهر أن هذه الكيفيات كلها تحتاج إلى إثبات، فهي مسألة غيبية، و الله تعالى له القدرة على ما يشاء.

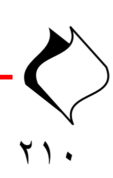
٢ – النافون لصفات الميزان:

وهؤلاء قالوا بعكس ما قاله الفريق الأول، حيث أحجموا عن وصف الميزان بالأوصاف التي تقدمت، واكتفوا بإثبات أن هناك ميزاناً فقط.

---

٤١٤ قال ابن عدي: (هذا ما وضعه النخعي، وزيد ليس بشيء) (اللآلئ المصنوعة) (٢/ ١٣٧).

٤١٥ لوامع الأنوار (٢/ ١٨٨-١٨٩).



١-يقول محمد رشيد رضا – في نفي تلك الصفات وفي رده على الزجاج: (وإذا لم يكن في الصحيحين ولا في كتب السنة المعتمدة حديث صحيح مرفوع في صفة الميزان، ولا في أن له كفتين ولساناً، فلا تغتر بقول الزجاج أن هذا مما أجمع عليه أهل السنة، فإن كثيراً من المصنفين يتساهلون بإطلاق كلمة الإجماع ولاسيما غير الحفاظ المتقنين، والزجاج ليس منهم، ويتساهلون في عزو كل ما يوجد في كتب أهل السنة إلى جماعتهم، وإن لم يعرف له أصل من السلف، ولا اتفق عليه الخلف منهم، وهذه المسألة مما اختلف فيه السلف والخلف كما علمت)[٤١٦] .

وقال أيضاً: (والأصل الذي عليه سلف الأمة في الإيمان بعالم الغيب: أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، نؤمن به، ولا نحكم رأينا في صفته وكيفيته، فنؤمن إذا بأن في الأخرة وزناً للأعمال قطعاً، ونرجع أنه بميزان يليق بذلك العالم، ويوزن به الإيمان، والأخلاق، والأعمال، ولا نبحث عن صورته وكيفيته، ولا عن كفتيه – إن صح الحديث فيهما – كما صوره الشعراني في ميزانه)[٤١٧].

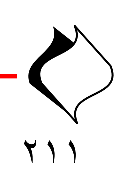
والواقع أن ما قاله محمد رشيد رضا – من إنكار أن يكون هناك أي إشارة إلى أن الميزان له كفتان من السنة – غير مسلم فقد جاء في السنة بعض الأحاديث التي تدل على وزن العمل ووزن العامل وكما أخرج البخاري: ((يؤتى بالرجل فيوضع في كفة))[٤١٨]

---

٤١٦ تفسير، المنار، (٨/ ٣٢٢).

٤١٧ تفسير المنار، (٨/ ٣٢٣).

٤١٨ الحديث رواه أحمد (٢٢١/ ٢) (٧٠٦٦) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٨٢) رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد وفيه بن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (١٢/ ٢٤): إسناده صحيح.



وكقوله أيضاً: ((فطاشت السجلات وثقلت البطاقة))[٤١٩]. وغيرها من الأحاديث التي قدمنا ذكرها، وفيها إشارة إلى إثبات أن ميزان الأعمال له كفتان.

ثم إن إثبات أن الميزان له كفتان لم يقل به الزجاج وحده، بل هو ما عليه الأئمة الذين قدمنا ذكر أقوالهم.

٢-ما علقه الدكتور طه محمد الزيني على ترجمة ابن كثير في إثبات أن للميزان كفتين حسيتين بقوله: (لا يوجد دليل قاطع في القرآن ولا في الحديث على أن كفتي ميزان الحساب يوم القيامة حسيتان – أي يدركان بإحدى الحواس الخمس، وأقرب الحواس إلى إدراك الكفتين اللمس باليد – بل كل ما في القرآن والحديث يحتمل أن يكون الوزن معنوياً، بل هو الأرجح؛ لأن الأعمال يوم القيامة أكثرها معنوي يقرب إلى الأذهان بتشبيهه بالحسيات)[٤٢٠].

وهذا القول من الدكتور طه الزيني يعتبر بعيداً عما قرره العلماء، ومخالفاً لما جاءت به السنة في وزن الأعمال، وليس ما يذكره من أعمال يوم القيامة من الأشياء المتخيلة التي يشبه فيها المعنوي بالحسي. فإن القول بهذا يفتح باباً خطيراً من التشكيك في أمور الآخرة، وينبغي على من يقول بهذا أن يعيد النظر فيه.

المسألة السادسة: خلاف العلماء في الميزان هل هو واحد أم متعدد:

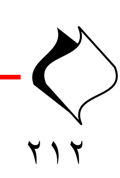
وقد اختلف العلماء في وحدة الميزان وتعدُّده على مذهبين:

المذهب الأول: القائلون بتعدد الميزان:

---

٤١٩ الحديث رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٣٤٨٨) وأحمد (٢/ ٢١٣) (٦٩٩٤)، والحاكم (١/ ٤٦) من حديث ابن عمرو رضـــي الله عنهما، قال الترمذي: حســـن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صـــحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البغوي في (شرح السنة) (٧/ ٤٩٠) حسن غريب.

٤٢٠ النهاية، (٢/ ٩١).



قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: "بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزانًا على حدة"[٤٢١].

وقال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ ﴾] الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿ فمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾] الأعراف: ٨.[

وقالوا: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان.

المذهب الثاني: القائلون بوحدة الميزان:

فذهب هؤلاء إلى أن لكل فرد ميزانًا خاصًّا به أو لكل عمل ميزان خاص به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾]الأنبياء: ٤٧.[

وأجابوا عن جمع كلمة (الموازين) في الآية: إلى أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدُّد الأعمال أو الأشخاص.

وقد رجَّح ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى بعد حكايته الخلاف أن الميزان واحد، وقال: "والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا"[٤٢٢].

وحَسَّنَ السفاريني رحمه الله تعالى القول بوحدة الميزان بعد ذكر الإجابة عن جمع كلمة (الموازين) في الآية بقوله: "وَهُوَ حَسَنٌ"[٤٢٣] .

٤٢١ أورده ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/ ٣٧٦)، ونسبه إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى.

٤٢٢ "فتح الباري شرح صحيح البخاري"؛ لابن حجر العسقلاني، (١٣/ ٥٣٨).

٤٢٣ لوامع الأنوار البهية للسفاريني، (٢/ ١٨٦).

ومن المعاصرين الذين يرون هذا القول الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى في الجواب عن سؤال عن وحدة الميزان وتعدده، فقال–بعد ذكر الخلاف بين أهل العلم–: "الذي يظهر–والله أعلم–أن الميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون"[٤٢٤].

المسألة السابعة: الأقوال في الموزون:

اختلف أهل العلم في الموزون في ذلك اليوم على أقوال:

القول الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان.

أدلته: ويدل لذلك:

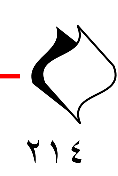
- حديث أبي هريرة رضي الله عنه في (الصحيح) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم))[٤٢٥].
- وقد دلت نصوص كثيرة على أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورةٍ الله أعلم بها، فمن ذلك: مجيء القرآن شافعاً لأصحابه في يوم القيامة، وأن البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما. ففي (صحيح مسلم) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما))[٤٢٦]. وروى مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان قال:

---

٤٢٤ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين. (٢/ ٤٤)، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.

٤٢٥ رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

٤٢٦ رواه مسلم (٨٠٤).



سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو ظلتان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما)) [٤٢٧].

القائلين به: هذا القول رجَّحه ابن حجر العسقلاني ونصره، فقال: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من حسن الخلق)) [٤٢٨].

القول الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه.

أدلته: فقد دلَّت النصوص على أن العباد يوزنون في يوم القيامة، فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم، لا بضخامة أجسامهم، وكثرة ما عليهم من لحم ودهن، ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا [الكهف: ١٠٥] [٤٢٩]((. ويؤتى بالرجل النحيف الضعيف دقيق الساقين فإذا به يزن الجبال، روى أحمد في (مسنده)، عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، ((أنه كان رقيق الساقين، فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه. قال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)) [٤٣٠].

القول الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال.

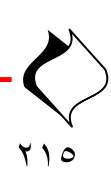
---

٤٢٧ رواه مسلم (٨٠٥).

٤٢٨ رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وابن حبان (٢/ ٢٣٠) والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقال الألباني في (صحيح سنن أبي داود): صحيح.

٤٢٩ رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

٤٣٠ رواه أحمد (١/ ٤٢٠) (٣٩٩١)، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد (٦/ ٣٩): إسناده صحيح، وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٢٧٥٠): إسناده حسن وهو صحيح بطرقه الكثيرة.



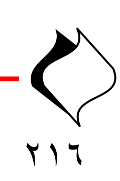
أدلته: فقد روى الترمذي في (سننه) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء))[٤٣١] .

القائلين به: وقد مال القرطبي إلى هذا القول، فقال: والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف، قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال، وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام، فيجعل الله تعالى: رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بإدخاله الجنة أو النار. وقال السفاريني: والحق أن الموزون صحائف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في (بهجته)، وذهب إليه جمهور من المفسرين، وحكاه ابن عطية عن أبي المعالي.

القول الرابع: أن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله.

أدلته: فقد دلت النصوص التي سقناها على أن كل واحد من هذه الثلاثة يوزن، ولم تنف النصوص المثبتة لوزن الواحد منها أن غيره لا يوزن، فيكون مقتضى الجمع بين النصوص إثبات الوزن للثلاثة المذكورة جميعها. وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال: والذي استظهر من النصوص – والله أعلم – أن العامل وعمله وصحيفة عمله

٤٣١ رواه الترمذي (٢٦٣٩)، والحديث رواه ابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣) والحاكم (١/ ٤٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في (الصحيحين) وهو صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥): وهو كما قالا.



–كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد – رحمه الله تعالى: – عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله: ((توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصي عليه، فيمايل به الميزان. قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر، إذ صائح من عند الرحمن–عز وجل–يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان))[٤٣٢] فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة.

المسألة السادسة: كيفية وزن الأعمال

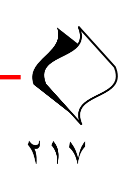
قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا رحمهم الله: الناس في الآخرة ثلاث طبقات:

- متقون لا كبائر لهم.
- ومخلطون وهم الذين يوافون بالفواحش والكبائر.
- والثالث: الكفار.

فأمَّا المتقون: فإن حسناتهم تُوضع في الكفة النيرة، وصغائرهم–إن كانت لهم الكفة الأخرى–فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنًا، وتثقل الكفة النيرة حتى لا تَبرح، وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي.

وأمَّا المخلطون: فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل، فإن كانت الحسنات أثقل ولو بصؤابة دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل ولو بصؤابة دخل النار إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب

٤٣٢ رواه أحمد (٢ / ٢٢١) (٧٠٦٦)، قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٨٢): رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (١٢/ ٢٤): إسناده صحيح.



الأعراف على ما يأتي، هذا إن كانت للكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كانت عليه تبعات وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات؛ لكثرة ما عليه من التبعات؛ فيُحمل عليه مِن أوزار مَن ظلمه، ثم يُعَذَّب على الجميع. هذا ما تقتضيه الأخبارُ»[٤٣٣].

وأمَّا الكفار: فلا تُوزن أعمالهم؛ إذ لا حسنات لهم، وما قَدَّموه مِن عمل نافع في الدنيا فإنَّهم يجازون به في الدنيا كذلك؛ قال الله سبحانه وتعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥، ١٦]، فيُوفون جزاء أعمالهم النافعة في الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم فيها نصيب من الحسنات والأجر، وإنما يجازون بكفرهم.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[١٦] "والإيمان بعذاب القبر، ومنكر ونكير".

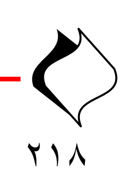
(الشرح)

وقد دلَّ على سؤال القبر وما يكون فيه من نَعيم أو عذاب–بعض الآيات والسُّنَّة المتواترة وكذلك إجماع أهل السُّنَّة والجَمَاعَة.

أمَّا دلالة القرآن: فمنها:

---

٤٣٣ «التذكرة» للقرطبي (ص ٣٦٠).



- قوله تعالى في قصة آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

قال الحافظ ابن كثير: «وهذه الآية أصلٌ كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»[٤٣٤].

وقال العلامة الفوزان: «هذا في البرزخ قبل الآخرة؛ يُعرضون على النَّار صباحًا ومساء إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليلٌ على عذاب القبر، والعياذ بالله، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦] هذه ثلاثة عقوبات:

الأولى: أنَّ الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنَّهم يُعَذَّبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثَّالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، والعياذ بالله»[٤٣٥].

- ومنها: قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١].

قال ابنُ تيميَّة: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن العُلَمَاءِ: المرَّةُ الأُولَى فِي الدُّنْيَا، وَالثَّانِيَةُ فِي البَرْزَخِ، ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ فِي الآخِرَةِ»[٤٣٦].

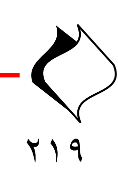
- ومنها: وقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ}.

---

٤٣٤ «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٦).

٤٣٥ «شرح الأصول الثلاثة» (ص٥١)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.

٤٣٦ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٦).



وهذا خطابٌ لهم عند الَموت، وقد أخبر الملائكة –وهم الصادقون– أنَّهم حينئذ يُجزون عذاب الهون، ولو تأخَّر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صَحَّ أن يقال لهم: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ}؛ فدل على أنَّ المراد به عذاب القبر[٤٣٧].

وأمَّا السُّنَّة: فإنها متواترةٌ في ذلك، كما قال الحافظُ ابنُ رَجَب رحمه الله تعالى: «وقد تَوَاتَرَت الأحاديثُ في عذاب القبر»[٤٣٨].

وقال ابنُ أبي العِزِّ رحمه الله تعالى: «وقد تواترت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ في ثُبُوت عذاب القبر ونعيمه لِمَن كان أهلًا»[٤٣٩].

وأمَّا الإجماعُ:

- فقد قال ابن تيمِيَّة رحمه الله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنَّ الميِّتَ إذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ»[٤٤٠].
- وقال أيضًا: «العَذَابُ وَالنَّعِيمُ عَلَى النَّفْسِ وَالبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ»[٤٤١].
- وقال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «وَهَذَا كَمَا أنه مُقْتَضى السُّنَّة الصَّحِيحَة فَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَين أهل السُّنَّة.

قَالَ المروزي: قَالَ أَبُو عبد الله: عَذَاب القَبْر حقٌّ، لَا يُنكره إِلَّا ضالٌّ أَو مُضِلٌّ»[٤٤٢].

٤٣٧ انظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» صالح الفوزان (ص ٢٧٥)، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

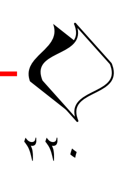
٤٣٨ «أهوال القبور» (ص ٤٣).

٤٣٩ «شرح الطَّحاوية» (ص ٣٩٩).

٤٤٠ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٤).

٤٤١ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٢).

٤٤٢ «الروح» (ص ٥٧).



والإنسانُ بمجرد موتِه يدخل فِي اليومِ الآخرِ بالنِّسبة له، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَن مَاتَ قَامَت قِيَامَتُهُ.

وقد ذكر شيخُ الإسلامِ رحمه الله تعالى هُنَا مَسألَتَينِ عَظيمَتَينِ:

الأولى: فِتنَةُ القَبر، والثانية: مَا يَكُونُ بَعدَ تِلكَ الفِتنَةِ مِن نَعِيمٍ أَو عَذَابٍ.

المِسأَلَةُ الأُولى: فِتنَةُ القَبر:

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابن تيمِيَّة رحمه الله تعالى: «وَأَمَّا الفِتْنَةُ فِي القُبُورِ فَهِيَ الِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ لِلمَيِّتِ حِينَ يَسْأَلُهُ المِلَكَانِ»[٤٤٣].

وقَد رَوَت أَسمَاءُ بِنت أَبِي بَكر رضي الله عنهما أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْل فِتْنَةِ المِسِيحِ الدَّجَّالِ»[٤٤٤].

وعن عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه قالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِن دَفنِ الميتِ وَقَفَ عليهِ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»[٤٤٥].

وَعَن أَبِي هُرِيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يدعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المِحْيَا وَالمِمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المِسِيحِ الدَّجَّالِ»[٤٤٦].

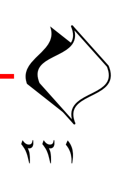
وعن البراءِ بنِ عَازب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ العَبدَ المؤمِنَ فِي قَبْرِهِ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ

٤٤٣ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧).

٤٤٤ أخرجه البخاري (١٨٤) ومسلم (٩٠٥).

٤٤٥ أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٦) (١٣٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥١١).

٤٤٦ أخرجه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).



الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ؛ فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ به...».

إِلَى أَن قَالَ فِي العَبدِ الكَافِرِ: «فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاهْ، لَا أَدْرِي! فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي»[٤٤٧].

وَغيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحَادِيثِ التي بَلَغَت مَبلَغَ التَّوَاتُرِ.

قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّة رحمه الله تعالى: «وَقَدْ تَوَاتَرَت الأَحَادِيثُ عَن النَّبِي صلى الله عليه وسلم فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ رضي الله عنهم»[٤٤٨] .

وَقوله: «مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ وَمَنْ نَبِيُّك؟» هَذِهِ الأسئلة الثلاثة الِتي تُوَجَّهُ للمَيّتِ فِي قَبرِهِ؛ قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين رحمه الله تعالى: «يَعنِي: مَن رَبُّكَ الذِي خَلَقَكَ وَتعبدُهُ وَتَخصُّهُ بِالعِبَادَةِ؟ لِأَجلِ أَن تَنتَظِمَ هَذِهِ الكَلمةُ توحيد الربوبيَّةِ، وَتوحيد الألوهيَّةِ.

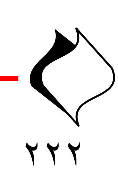
و«المرتاب»: الشَّاكُّ والمنافقُ وشبههمَا، «فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»، يعني: لم يَلجِ الإيمانُ قلبَهُ، وإنَّمَا كانَ يقولُ كما يقولُ النَّاسُ مِن غيرِ أن يَصِلَ الإيمانُ إلى قلبِهِ.

وَتَأَمَّل قولَهُ: «هاه هاه» كأنَّ شيئًا غَابَ عنهُ يريدُ أن يَتذكرَه، وَهَذا أشدُّ فِي التَّحَسُّرِ أن يتخيَّلَ أنَّهُ يَعْرِفُ الجوابَ، ولكن يُحالُ بينهُ وبينهُ، ويقولُ: «هاه هاه»، ثمَّ يقولُ: «سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ»، وَلَا يقولُ: رَبِّيَ الله، وَلَا ديني الإسلام، وَلَا نَبِيّ محمَّد؛ لأَنَّهُ فِي الدُّنيا مُرتابٌ شاكٌّ.

---

٤٤٧ أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٦٣٠).

٤٤٨ «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٧).



هذا إِذَا سُئِلَ فِي قَبرِهِ وَصَارَ أحوج مَا يكونُ إِلَى الجَوَابِ الصَّوَابِ يَعجزُ، وَيَقولُ: «لَا أدري سَمِعتُ النَّاسَ يقولونَ شَيئًا فقلتُهُ».

إِذًا؛ إيمانُه قولٌ فَقَط»[٤٤٩] .

وقولُ شيخِ الإسلامِ–رحمه الله تعالى–: «فَيُضرِبُ بِمرزَبَّةٍ مِن حديدٍ؛ فيصيحَ صحيةً يسمعهَا كُلُّ شيءٍ إِلَّا الإنسان، وَلَو سَمِعَها لصعقَ»–يُشير إلى حديث أنس عليه السلام وفيه: «وأمَّا المنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنتُ أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضرب بمطارقَ من حديد ضربةً؛ فَيَصِيحُ صَيحةً يَسْمَعُهَا مَن يَلِيهِ غَيرَ الثَّقَلينِ»[٤٥٠]، والثَّقلان: هُم الإنسُ والجنُّ.

قالَ ابنُ عُثَيمين رحمه الله تعالى: «فيُضرب»: يَعني الذِي لم يُجِب، سواء كانَ الكافرَ أو المنافقَ، والضارب لَهُ الملَكَانِ اللذانِ يَسألانِهِ.

والمرزبَّةُ: هِيَ مِطرقةٌ مِن حَدِيدٍ، وَقَد وَرَدَ فِي بعضِ الرواياتِ: أَنَّهُ لَوِ اجتَمَعَ عَلَيهَا أَهلُ مِنى مَا أَقَلُّوها، فَإِذَا ضُرِب يَصيح صيحةً يَسمعها كلُّ شيء إلا الإنسان، أي: صِياحًا مَسموعًا يَسمعه كلُّ شيء يكون حوله مِمَّا يسمع صوته، وليس كلُّ شيء في أقطار الدُّنيا يَسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه كما مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِأَقْبُر للمُشركين على بَغْلَتِه، فَحَادت به حتى كادت تُلقيه؛ لأنَّها سَمِعت أصواتَهم يُعَذَّبون.

قوله: «إلا الإنسان»، وقد سبق أنَّ في الحديث إلا الثَّقلين. يعني: أنه لا يَسمع هذا الصِّياح، وذلك لحكمٍ عظيمة منها:

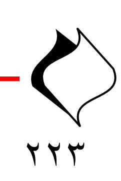
أولًا: ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ القَبْرِ»[٤٥١] .

---

٤٤٩ انظر: «شرح الواسطِيَّة» (ص٤٨٠–٤٨٢).

٤٥٠ أخرجه البخاري (١٣٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

٤٥١ أخرجه مسلم (٢٨٦٨) من حديث أنس.



ثانيًا: أنَّ في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أنَّ فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأنَّ أهلَه إذا سَمعوا مَيّتَهم يُعَذَّب ويَصيح لم يَسْتَقِرَّ لهم قَرَارٌ.

رابعًا: عدم تَخْجِيل أهله؛ لأنَّ النَّاس يقولون: هذا ولدُكم، هذا أبوكم، هذا أخوكم، وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نَهْلِك؛ لأنَّها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد تُوجب أن تسقط القلوب من مَعاليقها، فيموت الإنسان، أو يُغشى عليه.

سادسًا: لو سَمِع النَّاسُ صُرَاخ هؤلاء المعَذَّبين لكان الإيمانُ بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان؛ لأنَّ النَّاس سوف يُؤمنون بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغيب»[٤٥٢].

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله-:

[١٧] "والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل نبي حوض، إلا صالح النبي عليه السلام؛ فإن حوضه ضرع ناقته."

(الشرح)

هذا الحوضُ المورود الذي أَعطاه الله لنبيه محمد ﷺ، كما قال: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ١-٣].

قال الإمامُ القرطبيُّ: «والصَّحيح: أنَّ للنبي ﷺ حَوْضَيْن:

---

[٤٥٢] «شرح الواسِطيَّة» (ص٤٨٢، ٤٨٣).

أحدهما: في الموقف قبل الصِّراط.

والثَّاني: في الجنَّة.

وكلاهما يُسَمَّى كوثرًا»[٤٥٣] .

وقد جاءت أحاديث كثيرة في وصفه؛ منها:

- عن أبي عُبيدة أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، فقالت: «نهرٌ أُعطيه نَبِيُّكم ﷺ؛ شاطئاه عليه دُرٌّ مُجَوَّف، آنيته كَعَدد النُّجوم»[٤٥٤].
- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا أسيرُ في الجَنَّة إذ أنا بنهرٍ حافتاه قِباب الدُّرِّ المجَوَّف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك رَبُّك، فإذا طِينُه–أو طِيبُه–مِسك أذفر»[٤٥٥].

وقال شيخُ الإسلامِ رحمه الله تعالى: «خَصَّ الله نَبيَّه صلى الله عليه وسلم أنَّه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه اللهُ في الدُّنيا والآخرة؛ فمما أعطاه في الدُّنيا الهُدى والنَّصر والتأييد وقُرَّة العَين والنَّفس وشرح الصدر، ونَعَّم قلبَه بذكرِه وحُبِّه بحيث لا يُشبه نعيمُه نعيمَ الدُّنيا البتة، وأعطاه في الآخِرَة الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ، وجعلَه أَوَّلَ مَن يُفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخِرَة لواءَ الحمد والحوض العظيم في موقف القيامة، إلى غير ذلك»[٤٥٦].

وقد حكم جمعٌ من أهل العلم بتواتر السُّنَّة في ذلك، قال ابن أبي العِزِّ: «الأحاديث الواردة في ذِكر الحوض تَبلغُ حَدَّ التواتر؛ رَوَاها من الصَّحابة بضعٌ وثلاثون

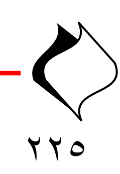
---

٤٥٣ «التذكرة» (ص ٣٦٢).

٤٥٤ أخرجه البخاري (٤٩٦٥).

٤٥٥ أخرجه البخاري (٦٥٨١).

٤٥٦ «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٢٧–٥٢٨)، بتصرف يسير.



صحابياً، ولقد استقصى طرقَها شيخُنا عمادُ الدِّين ابنُ كثير-تَغَمَّدَه اللهُ برحمتِه في آخر «تاريخه الكبير»[٤٥٧].

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله-:

[١٨] "والإيمان بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمذنبين الخاطئين؛ في يوم القيامة وعلى الصراط، ويخرجهم من جوف جهنم، وما من نبي إلا له شفاعة، وكذلك الصديقون والشهداء والصالحون، ولله بعد ذلك تفضل كثير فيمن يشاء، والخروج من النار بعدما احترقوا وصاروا فحما".

(الشرح)

أي: من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم للمذنبين الخاطئين، والخاطئون بمعنى المذنبين.

وهنا يحسن التنبيه وهو الخاطئ غير المخطئ؛

فهناك فرق بين الخاطئ والمخطئ:

فالمخطئ: هو الذي فعل الشيء من غير تعمد، وهو مغفورا له، قال تعالى:

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ) [سورة البقرة ٢٨٦]

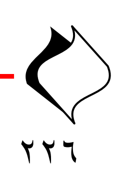
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله استجاب لهم هذا الدعاء

ففي صحيح مسلم لحديث أبي هريرة: " قال الله: نعم "[٤٥٨]

---

٤٥٧ «شرح الطحاوية» (ص ٢٢٧).

٤٥٨ رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٥)



ولحديث ابن عباس قال الله: " قد فعلت " [٤٥٩].

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه"[٤٦٠] .

وعن أم الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، والاستكراه " [٤٦١]

قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنا:

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) [سورة البقرة ٢٨٦] [٤٦٢].

والخاطئ هو المذنب العاصي المتعمد، فهو أشد إثماً من المخطئ، وهو تحت المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له

ولهذا قال الله تعالى في سورة الحاقة: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} [الحاقة:٣٥-٣٧] أي: المذنبون.

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، فجعل الله ما دون الشرك تحت المشيئة.

وكذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم ولا

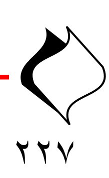
---

٤٥٩ رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٦)

٤٦٠ وأخرجه الطحاوي في "شـــرح معاني الآثار" ٣/ ٩٥، والطبراني "الصـــغير" ١/ ٢٧٠، والدارقطني ٤/ ١٧٠-١٧١، والبيهقي ٧/ ٣٥٦عن ابن عباس وابن عمر بلفظ "إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عليه" وقال الألباني حديث صحيح أنظر الإرواء (١/ ١٢٣)

٤٦١ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ١٧٢)

٤٦٢ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٩)



تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له" [٤٦٣]

قال الطحاوي رحمه الله: "ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"[٤٦٤].

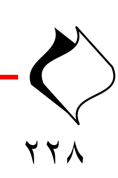
قال ابن تيمية: "ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة فإن الله تعالى قال {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم. والخوارج المارقون الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين. واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم. وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ولا تستحل دمها ومالها وإن كانت فيها بدعة محققة"[٤٦٥]

---

٤٦٣ أخرجه البخاري مع الفتح (١/ ١٤).

٤٦٤ شرح الطحاوية (٣٦٠).

٤٦٥ مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢).



وقد جاء في إثبات الشفاعة أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بلغت حد التواتر، وصرحت هذه الأحاديث بأنه يدخل النار جملة من أهل الكبائر، من أهل التوحيد، مؤمنون موحدون، لكن دخلوا النار بذنوب ومعاص ارتكبوها ولم يتوبوا منها،

أنواع شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

لقد اختلف أهل العلم في عدد شفاعات النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة[٤٦٦]، فبعضهم أوصلها إلى عشر شفاعات وهو الراجح إن شاء الله لما تدل عليه الأحاديث الصحيحة وتقوم عليه الأدلة وهي كما يلي:

الأولى: الشفاعة العظمى: وهي في فصل الموقف بعد دلالة الرسل عليه واعتذارهم عنها[٤٦٧]

الثانية: الشفاعة لمن يصبر على لأواء المدينة[٤٦٨].

الثالثة: الشفاعة لمن يموت بالمدينة[٤٦٩].

الرابعة: الشفاعة في دخول الجنة بغير حساب ولا عقاب،[٤٧٠]

---

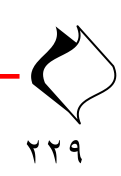
٤٦٦ غاية البيان شرح زبد ابن رسلان لمحمد الرملي الأنصاري (١٣).

٤٦٧ أخرجه البخاري رقم (٣١٦٢) ٣ / ١٢١٥، ورقم (٤٤٣٥) ٤ / ١٧٤٥، ومسلم رقم (١٩٤) ١ / ١٨٤ – ١٨٥ واللفظ له.

٤٦٨ أخرجه مسلم رقم (١٣٧٧) ٢ / ١٠٠٤، ومالك في الموطأ رقم (١٥٦٩) ٢ / ٨٨٥، وأحمد رقم (٦٠٠١) ٢ / ١١٩.

٤٦٩ أخرجه الترمذي رقم (٣٩١٧) ٥ / ٧١٩ وحسنه، وابن ماجه رقم (٣١١٢) ٢ / ١٠٣٩ولفظه " فإني أشهد لمن مات بها "، وأحمد رقم (٥٨١٨) ٢ / ١٠٤، وابن أبي شيبة رقم (٣٢٤٢١) ٦ / ٤٠٥، وابن حبان رقم (٣٧٤١) ٩ / ٥٧، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٤١٨٥-٤١٨٦) ٣ / ٤٩٨، والهيثمي في موارد الظمآن رقم (١٠٣١) ١/ ٢٥٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠١٥)، وفي صحيح الترمذي (٣٩١٧)، وفي صحيح الترغيب رقم (١١٩٣ – ١١٩٧)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (٢٩٢).

٤٧٠ أخرجه البخاري رقم (٦١٠٧) ٥ / ٢٣٧٥، ورقم (٥٣٧٨) ٥ / ٢١٥٧، ورقم (٥٤٢٠) ٥ / ٢١٧٠، ورقم (٦١٧٥) ٥/ ٢٣٩٦، ومسلم رقم (٢٢٠) ١ / ٢٠٠.



الخامسة: الشفاعة فيمن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه[٤٧١].

السادسة: الشفاعة في أهل الكبائر من الأمة[٤٧٢].

السابعة: الشفاعة في رفع الدرجات[٤٧٣].

الثامنة: الشفاعة في الخروج من النار[٤٧٤]

التاسعة: الشفاعة التي يجتمع فيها الله والنبيون والملائكة والمؤمنون[٤٧٥].

العاشرة: الشفاعة في عمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه[٤٧٦].

وقول المصنف: **" وما من نبي إلا له شفاعة"**

كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: "فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين" [٤٧٧]

وفي المسند من حديث أبي سعيد مرفوعاً: "ثم يشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، فيخرجونهم منها، قال: ثم يتحنن الله برحمته على من فيها فما يترك فيها عبداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا أخرجه منها"[٤٧٨]

---

٤٧١ أخرجه البخاري رقم (٩٩) ١ / ٤٩، ورقم (٦٢٠١) ٥ / ٢٤٠٢، وأحمد رقم (٨٨٤٥) ٢ / ٣٧٣

٤٧٢ أخرجه أبو داود رقم (٤٧٣٩) ٤ / ٢٣٦، والترمذي رقم (٢٤٣٥-٢٤٣٦) ٤/ ٦٢٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٧٣٩) ٤ / ٢٣٦، وفي صحيح سنن الترمذي رقم (٢٤٣٥-٢٤٣٦) ٤/ ٦٢٥، وفي صحيح الجامع رقم (٣٧١٤)، وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣٦٤٩)، وفي ظلال الجنة رقم (٨٣١).

٤٧٣ أخرجه مسلم رقم (٩٢٠) ٢ / ٦٣٤، وأبو داود رقم (٣١١٨) ٣ / ١٩٠، والنسائي في السنن الكبرى رقم (٨٢٨) ٥ / ٧٧.

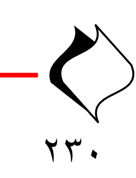
٤٧٤ أخرجه البخاري رقم (٦١٩٠) ٥ / ٢٣٩٩، ومسلم رقم (١٩١-١٩٢) ١ / ١٧٨،

٤٧٥ أخرجه البخاري رقم (٧٠٠١) ٦ / ٢٧٠٦، ومسلم رقم (١٨٣) ١ / ١٦٧،

٤٧٦ أخرجه البخاري (٣٦٧٠) ٣ / ١٤٠٨، ورقم (٥٨٥٥) ٥ / ٢٢٩٣ ومسلم رقم (٢٠٩) ١ / ١٩٤،

٤٧٧ أخرجه مسلم.(١٨٣)

٤٧٨ رواه أحمد في مسنده: (١١٠٩٦) قال الشيخ مقبل: "الحديث بهذا السند حسن" أنظر الشفاعة للوادعي: (١ /١١٩).



وقول المصنف: **"وكذلك الصديقون والشهداء والصالحون"**

أي وكذلك الصديقون يشفعون، الصديق: على وزن فِعِّيل، وهو من قوي تصديقه وإيمانه بالله، فأحرق بقوة تصديقه الشبهات والشهوات، وفي مقدمتهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه.

ودرجة الصديق أعلى من الشهداء، كما في حديث: ((أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان))[٤٧٩]، فالترتيب مقصود.

ثم درجة الشهداء:

الشهيد: هو الذي بذل نفسه رخيصة في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، فإنه بذل أغلى ما يملك وهي نفسه التي بين جنبيه، فقاتل أعداء الله، لإعلاء كلمة الله.

ثم درجة الصالحين:

الصالحون: على تفاوتهم فيما بينهم،

١-منهم السابقون، وهي أعلى الدرجات، وهم الذين داوموا على الفرائض والنوافل، وتركوا المحرمات والمكروهات،

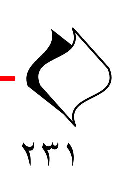
٢-ومنهم المقتصدون، وهم الذين اقتصروا على أداء الفرائض وترك المحرمات، ولم يفعلوا النوافل وقد يفعلون بعض المكروهات.

٣-ومنهم الظالمون لأنفسهم، والظالمون لأنفسهم موحدون مؤمنون، لكنهم قصروا في بعض الواجبات، أو فعلوا بعض المحرمات، فهؤلاء عندهم أصل الصلاح وأصل التقوى، فينفعهم هذا الصلاح والتقوى في عدم الخلود في النار، ولكنهم قد يدخلون النار ويعذبون، لكن في النهاية مآلهم إلى الجنة والسلامة.

وقول المصنف: **"ولله بعد ذلك تفضل كثير فيمن يشاء"**

---

٤٧٩ أخرجه البخاري (٣٦٧٥).



يعني: أن الله تعالى يتفضل بعد ذلك على من يشاء، فيخرج برحمته بقية أهل التوحيد الذين لم يشفع فيهم، كما جاء ذلك صريحا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ-أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ-فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ[٤٨٠] ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ "[٤٨١]

والله عز وجل قد خَصَّ هذه الأمة بفضائل كثيرة، ومنها مُضاعفة الأجر؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، قال: «إنَّما أجلُكم في أجلِ مَن خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنَّما مَثَلُكم ومَثَل اليهود والنصارى، كرجل استعمل عُمَّالًا، فقال: مَن يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فعملت النَّصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا، فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين، فغَضِبَت اليهودُ والنصارى، فقالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاء! قال الله: هل ظلمتُكم مِن حَقِّكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه فَضلي أُعطيه مَن شِئْتُ»٤٨٢.

فَمن نعمة الله علينا أن جعلنا من أمة محمد ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «نَحن الآخِرون السَّابقون يوم القيامة، بَيْدَ كلِّ أُمَّةٍ أُوتوا الكتاب

---

٤٨٠ قال محمد فؤاد عبد الباقي: (منصوب على الحال وهو جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها أشهرها الكسر ويقال فيها أيضا إضبارة قال أهل اللغة الضبائر جماعات في تفرقة (فبثوا) معناه فرقوا) انظر مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)

٤٨١ أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)

٤٨٢ أخرجه البخاري (٣٤٥٩) ومسلم ().

مِن قبلنا، وأُوتينا مِن بعدهم، فهذا اليوم٤٨٣ الذي اختلفوا فيه، فغدًا لليهود، وبعدَ غدٍ للنَّصارى»٤٨٤.

وأمة محمد ﷺ هم أكثر أهل الجنة، فعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهلُ الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون منها مِن هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»٤٨٥.

وذلك لأن النبي ﷺ أكثر الأنبياء أتباعًا؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: «عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فرجوت أن تكون أُمَّتي، فقيل: هذا موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أُمَّتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب»٤٨٦.

وهذا الفضل الذي أعطاه الله لنبيه الكريم ﷺ في الدنيا والآخرة-هو خير عظيم وعميم على هذه الأمة المرحومة؛ فصارت مَهْدِيَّة في الدنيا، مَرحومة وأكثر أهل الجنة في الآخرة، وذلك فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء.

وقول المصنف **"والخروج من النار بعدما احترقوا وصاروا فحما".**

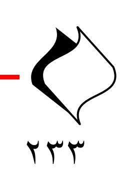
---

٤٨٣ أي: يوم الجمعة.

٤٨٤ أخرجه البخاري (٣٤٨٦) ومسلم (٨٥٥).

٤٨٥ أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، والدارمي (٢٨٧٧)، وصـــحه الألباني في «صـــحيح ابن ماجه» (٣٤٦٢).

٤٨٦ أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠).



كما جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ–أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ–فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ"[٤٨٧].

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[١٩] "والإيمان بالصراط على جهنم، يأخذ الصراط من شاء الله، ويجوز من شاء الله، ويسقط في جهنم من شاء الله، ولهم أنوار على قدر إيمانهم".

الشرح

الصِّراط: جِسر منصوب على مَتن جهنم بين الجَنَّة والنَّار، يَمُرُّ النَّاسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم.

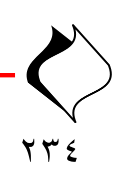
قال السفاريني رحمه الله: «والصراط شرعًا: جِسر ممدود على مَتن جهنم يَرِده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخُلِق مِن حين خُلِقت جهنم»[٤٨٨].

وفي قوله سبحانه وتعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧١، ٧٢].

---

٤٨٧ رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢).

٤٨٨ لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢ / ١٨٩).



قال الشيخ السعدي: «هذا خطابٌ لسائر الخلائق؛ بَرِّهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم: أنَّه ما منهم مِن أحدٍ إلا سيرد النار حكمًا حَتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد مِن نفوذه، ولا محيد عن وقوعه»[٤٨٩].

فالناس سيردون جهنم؛ لأنَّ الصراط مَنصوب على مَتْنِها.

وتختلف أحوال الناس في المرور عليه، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَرِدُ الناس النَّارَ، ثم يَصدرون عنها بأعمالهم؛ فأولهم كلمح البَرق، ثم كالرِّيح، ثم كحُضْر الفرس[٤٩٠]، ثم كالرَّاكب في رَحْلِه، ثم كَشَدِّ الرَّجل ثم كمَشيه»[٤٩١].

وقد جاء في وصفه أنه: صراطٌ دقيق جدًّا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «بَلَغني أنَّ الجسر أدق من الشعرة، وأحَدُّ من السيف»[٤٩٢].

والصِّراط مِن عرصات وأهوال يوم القيامة، وأول مَن يجوز عليه: النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «... ويُضْرَبُ الصِّراط بين ظَهْري جَهَنَّم فأكونُ أنا وأُمَّتي أَوَّل مَن يُجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلَّا الرُّسل، ودَعوى الرُّسل يَومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مِثل شَوْك السَّعدان؛ هل رأيتم السَّعدان؟»، قالوا: نَعم يا رسول الله. قال: «فإنَّها مِثل شَوك السَّعدان غَير أنَّه لا يَعلم قَدْرَ عِظَمِها إلَّا الله عز وجل، تَخطف النَّاسَ بأعمالهم، فمَنهم الموبق بعملِه، والموثق بعمله، ومنهم المخَرْدَل والمجَازَى»[٤٩٣].

---

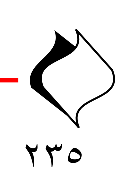
٤٨٩ «تفسير السعدي» (٥٨٠).

٤٩٠ أي: جريه، وهو العَدْوُ الشَّديد.

٤٩١ أخرجه الترمذي (٣١٥٩)، والدارمي (٢٨٥٢)، وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٢٦).

٤٩٢ أخرجه مسلم (١٨٣).

٤٩٣ أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).



قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله تعالى: «فَتَفَكَّر الآن فيما يَحِلُّ بك من الفَزع بفؤادك إذا رأيتَ الصِّراط ودِقَّتَه، ثُمَّ وَقَعَ بصرُك على سَوَادِ جَهنم من تحته، ثم قَرَعَ سَمْعَك شَهيقُ النارِ وتَغَيُّظُها، وقد كُلِّفْت أن تَمشي على الصِّراط مع ضَعف حالك، واضطراب قلبِك، وتَزَلْزُلِ قَدَمِك، وثِقَل ظَهْرك بالأوزار المانعة لك مِن المِشي على بساط الأرض فضلًا عن حِدَّة الصِّراط، فكيف بك إذا وَضَعْتَ عليه إحدى رِجليك فَأَحْسَسْتَ بِحِدَّتِه، واضطررت إلى أن تَرفع القَدَم الثاني، والخلائق بين يديك يَزِلُّون ويَعثرون، وتتناولهم زبانيةُ النَّار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون فَتَسْفُل إلى جهة النار رُءوسهم، وتَعْلُو أَرْجُلُهم؛ فَيَا له مِن مَنظر ما أَفْظَعَه! ومُرْتَقًى ما أَصْعَبَه! ومَجاز ما أَضْيَقَه!»[٤٩٤].

ومع كل هذا فالمؤمن يمر عليه مرورًا سريعًا جدًّا.

ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أنه إذا أراد اجتياز الصراط إلى الجنة: أنه مطالب بمجاهدة نفسه في هذه الحياة؛ للثبات على منهج الله، وعليه النظر فيما هو مُقدم عليه من هذه الأهوال؛ قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨]؛ وإذا كان الإنسان يحتاط جدًّا في سفر الدنيا وخاصة إذا سَمِع أن فيه مشقة، وأنه قد يُصيبه العنت فيه- فماذا قَدَّم ليوم القيامة وما فيه من كربات وأهوال؟

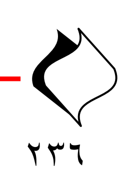
وليحاسب نفسه هنا: لماذا هذه الغشاوة التي على عينيه، ولماذا هذه الغفلة التي في قلبه عن هذا المصير المحتوم؟! ولماذا الركون إلى الدنيا وعدم استثمار الأنفاس فيما ينفع وينجي في هذا اليوم؟!

فكيف يوقن العبد بهذه الحقائق ومع ذلك يفرط في جنب الله؟!

ولماذا لا يجتهد في تحصيل مرضاة الله؟!

---

٤٩٤ «التذكرة» (ص ٢٨٩).



وليعلم كل امرئ أن نفسه إن لم يشغلها بالحق شغلته بالباطل، وأن الله قد أعطاك قوة كامنة في نفسه؛ إمَّا أن يُوجهها للخير، وإما أن يوجهها للشر، ولا ينفعه يوم القيامة إلا ما قَدَّمه من أعمال صالحة في هذه الحياة صار قلبه بها سليمًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٧-٨٩].

فعلى حسب حال المؤمن هنا من التنافس في فعل الخيرات، والمسارعة إلى مغفرة الله-سيكون حاله في الآخرة على الصراط؛ فمن استقام على صراط الله (منهجه) في الدنيا-ثَبَّته الله على الصراط المنصوب على ظهر جهنم؛ فاللهم ثَبِّتنا وسَلِّمنا دنيا وآخرة.

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله-:

[٢٠] "والإيمان بالأنبياء والملائكة".

الشرح

فالإيمان بالأنبياء والرسل والملائكة أصل من أصول الدين، وأصل من أصول الإيمان، والإيمان، فلا يصح الإيمان إلا به، فمن آمن بالأنبياء والرسل وأنكر الملائكة أو أنكر واحداً من الملائكة كفر، ومن آمن بالأنبياء كلهم وأنكر واحدًا منهم فقط كفر وكذلك الأمر في الرسل.

- قال الله تعالى في آية البر: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة:١٧٧]، هذه خمسة أصول، والأصل السادس جاء في قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:٤٩].

- وفي حديث جبرائيل المشهور عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ»[٤٩٥].

وفي هذا النص مسائل:

قول المصنف: **"والإيمان بالأنبياء"**.

- معنى النبوة والرسالة

جمع الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بين النبوة والرسالة قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب:٤٠].

أ-معنى النبي لغة وشرعا:

- النبوة في اللغة العربية:[٤٩٦] مشتقة إما من:
- (النبأ)
- أو (النباوة)
- أو (النبوة)
- أو (النبي)

١-فإذا كانت مأخوذة من (النبأ): فتكون بمعنى الإخبار، لأن النبأ هو الخبر.

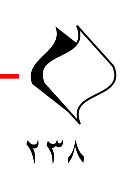
٢-وإذا كانت مأخوذة من (النباوة أو النبوة): فتكون بمعنى الرفعة والعلو، لأن (النباوة أو النبوة: هي الشيء المرتفع).

٣-أما إذا كانت مأخوذة من (النبي) بدون همز: فيكون معناها الطريق إلى الله عز وجل لأن معنى "النبي" الطريق.

---

٤٩٥ رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٩)

٤٩٦ انظر: لسان العرب مادة "نبأ" (١/ ١٦٢-١٦٣)، ومعجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).



ولو نظرنا إلى النبوة الشرعية لوجدنا أنها تشمل كل هذه المعاني إذ النبوة إخبار عن الله عز وجل، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصلة إلى الله سبحانه.

- أما النبوة في اصطلاح الشرع: " فهي خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه عن غيره بإيحائه إليه ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد[٤٩٧].

أما النبي فقد اختلف العلماء في تعريفه:

- فمنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه بشرع[٤٩٨] ليعمل به ولم يؤمر بتبليغه.
- فمنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبل[٤٩٩].
- ومنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين[٥٠٠].

وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ولعله هو أرجح الأقوال وأسلمها من الاعتراض.

فقد اعترض على القول الأول بأنه غير صحيح لأن قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ} [الحج: ٥٢]. يدل على أن كلا منهما مرسل وأنهما مع ذلك بينهما تغاير[٥٠١] وكذلك مما يؤكد كون الأنبياء مأمورين بتبليغ قومهم ما أوحي إليهم والحكم بينهم بذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله

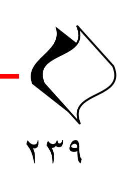
٤٩٧ شعب الإيمان للبيهقي، الباب الثاني من شعب الإيمان (ص ٢٧٥) رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية بتحقيق فالح بن ثاني.

٤٩٨ المصدر السابق (ص ٢٧٥)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ١٦٧).

٤٩٩ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٧٣٥).

٥٠٠ كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٥٥).

٥٠١ أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).



عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي... " الحديث[٥٠٢].

أي تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية. والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه[٥٠٣].

وقد اعترض على القول الثاني بأن الضابط الذي ذكروه لا يستقيم فيوسف عليه السلام كان رسولا وكان على شريعة إبراهيم قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً} [غافر: ٣٤].

وكذلك داود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء: ١٦٣-١٦٤].

٤-معنى الرسول لغة وشرعا:

الرسول لغة:

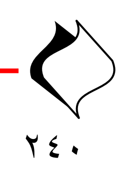
- إما مأخوذ من الرِّسل.

والرِّسل: هو الانبعاث على تؤدة. يقال: ناقة رسله: أي سهلة السير، وإبل مراسيل: منبعثة انبعاثا سهلا. ولفظ الرسل متضمن لمعنى الرفق ومعنى الانبعاث. فإذا تصور منه

---

٥٠٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل. انظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٥) ح ٣٤٥٥. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة: باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٦/ ١٧).

٥٠٣ النهاية في غريب الحديث (٢/ ٤٢١).



معنى الرفق يقال على رسلك إذا أمرته بالرفق. وإذا تصور منه معنى الانبعاث يقال إبل مراسيل أي منبعثة.

ولفظ الرسول اشتق من المعنى الثاني أي الانبعاث.

فالرسول على هذا الاشتقاق هو المنبعث[٥٠٤]

- وإما مأخوذ من الرَّسْل

وهو التتابع فيقال جاءت الإبل رَسْلا أي متتابعة، ويقال جاءوا أرْسَالاً: أي متتابعين.

ومعنى الرسول على هذا الاشتقاق: هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه[٥٠٥].

ولو نظرنا إلى كلا الاشتقاقين فإنا نجد أن لفظ الرسول في اصطلاح الشرع يدل عليهما فالرسول مبعوث من قبل الله، وهو كذلك يتابع أخبار الوحي المنزل إليه من الله تعالى.

ولفظ الرسول تارة يقال للقول المتَحَمَّل كقول الشاعر:

ألا بلِّغ أبا حفص رسولا

وتارة لمتَحَمِّل القول والرسالة[٥٠٦]

- والرسول في الشرع: عرف بعدة تعريفات:
- فمن العلماء من عرفه بقوله: هو الذي أوحى الله إليه بخبر وأمره بتبليغه للناس، وهؤلاء فرقوا بينه وبين النبي بأن النبي أوحي إليه بخبر ولم يؤمر بتبليغه[٥٠٧].
- ومنهم من عرفه بقوله: هو الذي أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي تثبت بها نبوته.

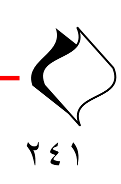
---

٥٠٤ المفردات في غريب القرآن تأليف أبي القاسم حسين محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ص ١٩٥) مادة "رسل".

٥٠٥ المصدر السابق (ص ١٩٥) ولسان العرب مادة "رسل" (١١/ ٢٨٤).

٥٠٦ المصدر السابق (ص ١٩٥) ولسان العرب مادة "رسل" (١١/ ٢٨٤).

٥٠٧ شعب الإيمان للبيهقي (ص ٢٧٥-٢٧٦) بتحقيق فلاح بن ثاني، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ١٦٧).



وقالوا: إن النبي هو الذي لم ينزل إليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله[٥٠٨].

- ومنهم من قال: إن الرسول هو الذي ينبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى من خالف أمره أي إلى قوم كافرين.

أما النبي فهو من أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين بهما.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، واستشهد لذلك بأن نوحا عليه السلام كان هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض وكان أول شرك بالله قد وقع في قومه.

وقد كان قبل نوح أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبيا مكلما، وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وكان المبعوثون في هذه القرون أنبياء فقط[٥٠٩].

وهذا القول الثالث هو أرجح الأقوال.

أما القول الأول فهو غير مسلم كما سبق وإن وضحت في الكلام على معنى النبي.

وكذا الأمر بالنسبة للقول للثاني فليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة كما تقدم ذكر ذلك.

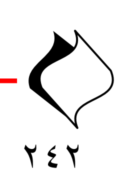
- **حكم الإيمان بالأنبياء.**

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى: في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى: أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة لأنه لم يأت في عددهم نص.

---

٥٠٨ أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

٥٠٩ النبوات (ص ٢٥٥-٢٥٦).



- وقد قال تعالى: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) [النساء:١٦٤] .
- وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [غافر:٧٨] .

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه.

- قال تعالى: (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) [النحل:٣٥] .
- قال تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) [النحل:٨٢]
- قال تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) [النور:٥٤] .
- قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) [التغابن:١٢] .

وأما أولو العزم من الرسل. فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم: "نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ [الأحزاب:٧] .

وفي قوله تعالى: شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ [الشورى:١٣]"[٥١٠]

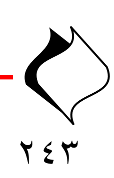
- **تعريف الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم**

"الإيمان بالرسول: هو تصديقه وطاعته واتباع شريعته"[٥١١].

---

٥١٠ انظر: تفسير البغوي: ٧/ ٢٧٢

٥١١ كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص ٩٢).



وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وعن بيان هذه الأمور مطلوبة عند الإيمان به بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قال العلماء:

أ-أما تصديقه صلى الله عليه وسلم فيتعلق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله، وهذا مختص به صلى الله عليه وسلم[٥١٢].

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق عدة أمور منها:

١-الإيمان بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنهم.

٢-الإيمان بكونه خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات.

٣-الإيمان بكون رسالته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

٤-الإيمان بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة وأكملها وأدى الأمانة ونصح لأمته حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها.

٥-الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم.

٦-الإيمان بماله من حقوق خلاف ما تقدم ذكره كمحبته وتعظيمه صلى الله عليه وسلم.[٥١٣]

الثاني: "تصديقه فيما جاء به، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه. وهذا يجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى كل أحد"[٥١٤].

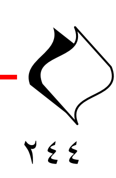
فيجب تصديق النبي صلى الله عليه وسلم جميع ما أخبر به عن الله عز وجل، من أنباء ما قد سبق وأخبار ما سيأتي، وفيما أحل من حلال وحرّم من حرام، والإيمان بأن

---

٥١٢ مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).

٥١٣ لمعرفة تفاصيل هذه الحقوق انظر كتاب: حقوق النبي صلى الله عليه وسلم.

٥١٤ مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).



ذلك كله من عند الله عز وجل، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم ٣. ٤].

قال شارح العقيدة الطحاوية: "يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا عامًا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على التفصيل فرض على الكفاية"[٥١٥].

ب-طاعته واتباع شريعته:

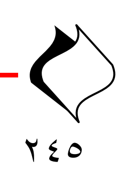
إن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم كما يتضمن تصديقه فيما جاء به فهو يتضمن كذلك العزم على العمل بما جاء به وهذه هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به صلى الله عليه وسلم.

وهي تعني: الانقياد له صلى الله عليه وسلم وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر امتثالا لقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧]. فيجب على الخلق اتباع شريعته والالتزام بسنته مع الرضا بما قضاه والتسليم له، والاعتقاد الجازم أن طاعته هي طاعة لله وأن معصيته معصية لله لأنه هو الواسطة بين الله وبين الثقلين في التبليغ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " يجب على الخلق الإقرار[٥١٦] بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الإقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل، فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فمن

٥١٥ شرح العقيدة الطحاوية (ص ٦٦).

٥١٦ يقول ابن تيمية في بيان معنى الإقرار: "إن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد". مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨، ٦٣٩).



شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة"[٥١٧].

وقول المصنف: **"والملائكة"**

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التعريف اللغوي

قال الكرماني: «الملائكةُ: جمع مَلَكٍ؛ نظرًا إلى أصله الذي هو (مألك) مَفْعَل من الألوكة، بمعنى الرسالة، والتاء زيدت فيه لتأكيد معنى الجمع، أو لتأنيث الجمع»[٥١٨].

أصله: أَوالملكلكَ، والمألكة، والمألكُ: الرسالة. ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله.

وقيل: اشتق من (لَ أك) والملأكة: الرسالة، وألكني إلى فلان؛ أي: بلغه عني، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى.

وقال بعض المحققين: الملك من الملك. قال: والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له مَلَك، ومن البشر مَلِك.[٥١٩]

المسألة الثانية: التعريف بالملائكة.

"الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن، وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبداً."[٥٢٠]

وسنرى عبر نصوص الكتاب والسنة صفاتهم التي حدثتنا بها النصوص.

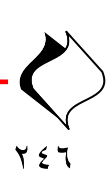
---

٥١٧ مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٤).

٥١٨ «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» (١/ ١٩٤).

٥١٩ راجع: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي: ٤/ ٥٢٤.

٥٢٠ عالم الملائكة الأبرار ص ٨.



المسألة الثالثة: حكم الإيمان بالملائكة

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، وأصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبد ما لم يؤمن بهم، قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥].

- والإيمان بالملائكة: يكون على درجتين:

الدرجة الأولى: الإيمان المجمل.

فيجب أن يكون إيمانًا مُجملًا بجميعهم؛ مَن علمنا منهم ومَن لم نعلم، وأن الله خلقهم من نور، وأنهم عباد مُكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون،

الدرجة الثانية: الإيمان المفصل.

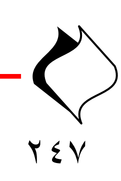
فيجب أن يكون إيمانًا مُفَصَّلًا بمن ذُكر منهم باسمه؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، وبصفة مَن ذُكر منهم بوصفٍ؛ كحملة العرش وخزنة النار وجبريل، وبعدد مَن ذُكِر منهم بعددٍ كخزنَة النار وحملة العرش.

وبعمل مَن ذُكِر منهم بعملٍ؛ فمنهم الموكَّل بالجبال، ومنهم الموكَّل بالقَطر، ومنهم الموكَّل بفتنة القبر، ومنهم الموكَّل بالنفخ في الصور وغير ذلك.

نقل السيوطي عن البيهقي في كتابه (شعب الإيمان): " أن الإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ:

أحدها: التصديق بوجودهم.

الثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، والموت عليهم جائز، ولكنّ الله



تعالى جعل لهم أمداً بعيداً، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل.

الثالث: الاعتراف بأنّ منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأنّ منهم حملة العرش، ومنهم الصافّون، ومنهم خزنة الجنّة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره ".[٥٢١]

- ومن ثمرات الإيمان بالملائكة:

أولًا: العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقدرته وسلطانه.

ثانيًا: شكره تعالى على عنايته بعباده، حيث وكَّل بهم مِن هؤلاء الملائكة مَن يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثًا: محبَّة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله على الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين[٥٢٢].

المسألة الرابعة: صفاتهم وقدراتهم

- مادة خلقهم ووقته.

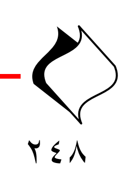
إنّ المادة التي خلقوا منها هي النور؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٥٢٣].

---

٥٢١ الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي: ص ١٠. وانظر مختصر شعب الإيمان: ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

٥٢٢ انظر: «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله» (٣/ ٢٥٩).

٥٢٣ صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٤. ورقمه: ٢٩٩٦.



"ولم يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أي نور هذا الذي خلقوا منه، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد؛ لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث"[٥٢٤].

ولا ندري متى خُلقوا، فالله–سبحانه–لم يخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أنّ خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه جاعل في الأرض خليقة: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠]، والمراد بالخليفة آدم عليه السلام، وأمرهم بالسجود له حين خلقه: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٩][٥٢٥].

- عِظَم خلقهم[٥٢٦]

قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: ٦].

ومن الأمثلة عظم خلقهم ما ورد في الأحاديث التي تتحدث عن ملكين كريمين هما:

١–عِظم خلق جبريل عليه السلام:

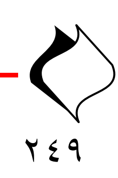
رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها مرتين، هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾) [التكوير:

---

٥٢٤ عالم الملائكة الأبرار ص ٩.

٥٢٥ عالم الملائكة الأبرار ص ١٠.

٥٢٦ المصدر: عالم الملائكة الأبرار ص ١٠،١١



٢٣]، وفي قوله: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى–عند سدرة المنتهى–عندها جنة المأوى﴾) [النجم: ١٣–١٥]، عندما عرج به إلى السموات العلا.

وقد ورد في صحيح مسلم: أن عائشة رضي الله عنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم عن هاتين الآيتين فقال صلى الله عليه وسلم: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين.

رأيته منهبطاً من السماء، سادّاً عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء إلى الأرض)[٥٢٧].

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلَّى﴾ [النجم: ٨]، فقالت: " إنما ذلك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته، التي هي صورته، فسدّ أفق السماء "[٥٢٨].

وورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال: " رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح "[٥٢٩].

وقال ابن مسعود أيضاً في قوله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾) [النجم: ١٨] " أي رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق "[٥٣٠]. وهذا الرفرف الذي سدّ الأفق هو ما كان عليه جبريل، فقد ذكر ابن حجر أن النسائي والحاكم رويا من طريقهما عن ابن مسعود قال: " أبصر نبي الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض "[٥٣١].

---

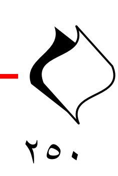
٥٢٧ صحيح مسلم: ١/ ١٥٩. ورقم الحديث: ١٧٧.

٥٢٨ صحيح مسلم: ١/ ١٦٠. ورقمه: ١٧٧.

٥٢٩ صحيح البخاري: ٨/ ٦١٠. ورقمه: ٤٨٥٦، ٤٨٥٧.

٥٣٠ صحيح البخاري: ٨/ ٦١١. ورقمه: ٤٨٥٨.

٥٣١ فتح الباري: ٨/ ٦١١.



وذكر ابن حجر أن ابن مسعود قال في رواية النسائي: " رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق "[٥٣٢].

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: " رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق. يسقط من جناحه التهاويل [٥٣٣]من الدرر واليواقيت ".

قال ابن كثير في هذا الحديث: " إسناده جيد "[٥٣٤].

وقال في وصف جبريل: ﴿إنه لقول رسولٍ كريمٍ-ذي قوةٍ عند ذي العرش مكينٍ-مُّطاعٍ ثم أمينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، والمراد بالرسول الكريم هنا: جبريل، وذي العرش: رب العزة سبحانه.

٢-عِظم خلقة حَمَلة العرش:

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أُذن لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[٥٣٥].

ورواه ابن أبي حاتم وقال: (تخفق الطير). قال محقق مشكاة المصابيح: " إسناده صحيح "[٥٣٦].

وروى الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض

---

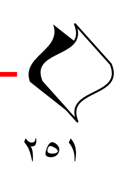
٥٣٢ فتح الباري: ٨/ ٦١١.

٥٣٣ التهاويل: الأشياء المختلفة الألوان.

٥٣٤ البداية والنهاية: ١/ ٤٧.

٥٣٥ صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩٥. ورقمه: ٩٣٥٣.

٥٣٦ مشكاة المصابيح: ٣/ ١٢١. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم: ١٥١.



السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت)[٥٣٧].

- أهم الصفات الخَلقية[٥٣٨].

أولاً: أجنحة الملائكة:

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، أو أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك: ﴿الحمد لله فاطر السَّماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾ [فاطر: ١].

والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أو أربعة، أو أكثر من ذلك.

وقد سبق ذكر الأحاديث التي يخبر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أن لجبريل ستمائة جناح.

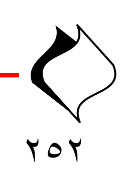
ثانياً: جمال الملائكة:

خلقهم الله على صور جميلة كريمة قال تعالى في جبريل: ﴿علَّمه شديد القوى- ذو مرةٍ فاستوى﴾ [النجم: ٥-٦]. قال ابن عباس: (ذو مرة): ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خَلْقٍ طويل حسن. وقيل: ذو مرة: ذو قوة. ولا منافاة بين القولين، فهو قوي وحسن المنظر.

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك، انظر إلى ما قالته النسوة في

٥٣٧ صحيح الجامع الصغير. الطبعة الثالثة: ١/ ٢٠٨. ورقمه: ٨٥٣.

٥٣٨ المصدر: عالم الملائكة الأبرار ص ١٢.



يوسف الصديق عندما رأينه: ﴿فلما رأينه أكبرنه وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

- أهم الصفات الخُلُقية:

أولاً: العلم.

والملائكة عندهم علم وفير علّمهم الله إيّاه، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء، واكتشاف سنن الكون، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى.

ولكنّ الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان، ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].[٥٣٩]

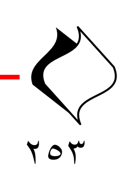
ثانيا العبادة:

والملائكة مطبوعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فتركهم للمعصية، وفعلهم للطاعة جبلّة، لا يكلفهم أدنى مجاهدة؛ لأنه لا شهوة لهم.

---

٥٣٩ انظر عالم الملائكة الأبرار لعمر سليمان الأشقر (١/ ٢٢).



ولعلّ هذا هو السبب الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين، وإنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد[٥٤٠].

ويمكن أن نقول: إن الملائكة ليسوا بمكلفين بالتكاليف نفسها التي كلف بها أبناء آدم.

أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً، فهو قول مردود، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وفي الآية أنهم يخافون ربهم، والخوف نوع من التكاليف الشرعية، بل هو من أعلى أنواع العبودية، كما قال فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

مكانة الملائكة:

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله، ولكنهم عباد مكرمون، وقد أبطل الله دعوى المشركين حينما زعموا أنّ الملائكة–بنات الله–وبين أنها دعوى باطلة، لا نصيب لها من الصحة، وقد أكذب الله القائلين بهذا القول، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم في أكثر من موضع، قال تعالى:﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦–٢٩].

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية، قائمون بما أوكل إليهم، منفذون للتعاليم، وعلم الله بهم محيط، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم، خائفون وجلون...

---

٥٤٠ لوامع الأنوار البهية: ٢/ ٤٠٩.

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين، ولا يعترضون على ما أمر من أوامره، بل هم عاملون بأمره، مسارعون مجيبون ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به، فالأمر يحركهم، والأمر يوقفهم، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤])) [٥٤١].

نماذج من عبادتهم:

الملائكة عباد الله، مكلفون بطاعته، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة. وسنورد-هنا-بعض العبادات التي حدثنا الله، أو رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم يقومون بها.

١-التسبيح:

الملائكة يذكرون الله تعالى، وأعظم ذكره التسبيح، يسبحه تعالى حملة عرشه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، كما يسبحه عموم ملائكته: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع، لا في الليل، ولا في النهار: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبِّحون في الحقيقة، وحق لهم أن يفخروا بذلك: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

---

٥٤١ صحيح البخاري: ٦/ ٣٠٥. ورقمه: ٣٢١٨.

وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال: ((سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذكر أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده))[٥٤٢].

٢-الحج:

للملائكة كعبة في السماء السابعة يحجون إليها، هذه الكعبة هي التي أسماها الله تعالى: البيت المعمور، وأقسم به في سورة الطور: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: (ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء، بعد مجاوزته السماء السابعة: ((ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)) [٥٤٣]؛ يعني يتعبدون فيه، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وَجَد إبراهيمَ الخليل–عليه الصلاة والسلام– مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل).

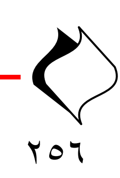
وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة، أي فوقها، لو وقع لوقع عليها، وذكر أن في كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة[٥٤٤].

---

٥٤٢ صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٩٣. ورقمه: ٢٧٣١.

٥٤٣ صحيح البخاري: ٦/ ١٠٣. ورقمه: ٣٢٠٧. وصحيح مسلم: ١/ ١٤٦. ورقمه: ١٦٢. وفي اللفظ بعض الاختلاف عما هو في الصحيحين.

٥٤٤ انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٨ و٤٢٩)



وهذا الذي ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة: (أن رجلاً قال لعلي–رضي الله عنه–: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء بحيال البيت، حرمة هذا في السماء كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه)[٥٤٥].

٣–خوفهم من الله وخشيتهم له:

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة، كان تعظيمهم له، وخشيتهم له عظيمة، قال الله فيهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ" .[٥٤٦]

قال علي، وقال غيره: (صفوان ينفذهم ذلك. فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير)[٥٤٧].

---

٥٤٥ نقله عن الطبري وإسحاق: ابن حجر في فتح الباري: ٦/ ٣٠٨، وأطال في الكلام على إسناده وطرقه. وقال فيه الشيخ ناصر الدين الألباني: (ورجاله ثقات غير خالد بن عرعرة، وهو مستور... ثم ذكر أن له شاهداً مرسلاً صحيحاً من رواية قتادة، قال: ذكر لنا ((أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه: هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه مسجد في السماء، تحته الكعبة، لو خرّ لخر عليها...)) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨٥٩).

٥٤٦ صحيح البخاري (٦/ ٨٠) (٤٧٠١)

٥٤٧ صحيح البخاري: ٣/ ٣٨٠. ورقمه: ٤٧٠١.

وفي معجم الطبراني الأوسط بإسناد حسن عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [٥٤٨]

خامساً: وقد يفصلون بين متخاصمين ولو كانوا ملائكة:

وقد حدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فحكّموا فيه ملكاً جاءَهم في صورة آدمي، يقول عليه السلام: فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ "[٥٤٩]

سادسا سَفَرَة:

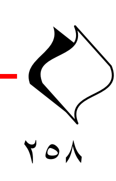
وصف الله الملائكة بأنهم ﴿كرام بررة: بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥-١٦]؛ أي القرآن بأيدي سفرة، أي: الملائكة؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه، قال البخاري: (سفرة: الملائكة واحدهم سافر، سفرتُ: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة-إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته-كالسفير الذي يصلح بين القوم) [٥٥٠].

سابعا بَرَرَة:

٥٤٨ رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٦٤) برقم (٤٦٧٩) قال الألباني حسن انظر الأحاديث الصحيحة (٢٢٨٩)، السنة (٨٢١).

٥٤٩ صحيح مسلم (٤/ ٢١١٨) برقم (٢٧٦٦).

٥٥٠ صحيح البخاري: ٨/ ٦٩١.



وقد وصف الله تعالى هؤلاء الملائكة بأنهم كِرَامٍ بَرَرَةٍ؛ أي: خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة ظاهرة كاملة، ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد.

روى البخاري عن عائشة–رضي الله عنهما–قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران))[٥٥١].

ثامنا الحياء واستحياء الملائكة:

من أخلاق الملائكة التي أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بها: الحياء؛ ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة: ((أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً في بيتها، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثمّ استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وسوّى ثيابه، فدخل، فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر، فلم تهتش له، ولم تُبَالِهِ، ثم دخل عمر، فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان، فجلست، وسويت ثيابك، فقال: ألا استحيي من رجل تستحيي منه الملائكة))[٥٥٢]

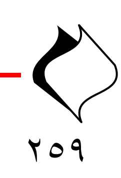
التاسع: يحبون ويبغضون:

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ

---

٥٥١ صحيح البخاري: ٨/ ٦٩١. ورقمه: ٤٩٣٧. ورواه مسلم: ١/ ٥٤٩. ورقمه: ٧٩٨، واللفظ للبخاري.

٥٥٢ رواه مسلم: ٤/ ١٨٦٦. ورقمه: ٢٤٠١.



يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانَا فَأَبْغِضُوهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ. ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ"[٥٥٣]

عَن أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ قَالَ لي جِبْرِيل: مَا كَانَ على الأَرْض شَيْء أبْغض إِلَيَّ من فِرْعَوْن فَلَمَّا آمن جعلت احشو فَاه حمأة وَأَنا أغطه خشيَة أَن تُدْرِكهُ الرَّحْمَة[٥٥٤]

العاشر: يضحكون ويتأثرون.

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام: ما لي لم أر ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار"[٥٥٥]. يقتضي أن الملائكة يضحكون وفيه دليل على أنهم يتأثرون.

الحادي عشر: منظمون في كل شؤونهم.

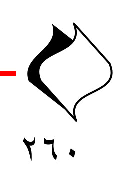
الاصطفاف: جاء في الحديث الذي يحث الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أصحابه على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة: ((ألا تصفون كما تصف

---

٥٥٣ رَوَاهُ مُسلم (٤/ ٢٠٣٠) برقم (٢٦٣٧)

٥٥٤ أخرج ابن جرير، والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا نحوه. وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا. وأخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعا نحوه أيضا، قال الشوكاني: وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول، وباقي رجاله ثقات انظر فتح القدير للشوكاني:

٥٥٥ أخرجه الروياني في " مسنده " (ق ٢٤٧/ ٢) قال الألباني وهذا إسناد صحيح انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ٤٢).



الملائكة عند ربها؟ وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال: يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف)). [٥٥٦]

وفي القرآن عن الملائكة: قوله تعالى: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) [الصافات: ١٦٥]. وهم يقومون، ويركعون، ويسجدون، ففي مشكل الآثار للطحاوي، وفي المعجم الكبير للطبراني عن حكيم بن حزام قال: ((بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه إذ قال لهم: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا عليه ملك ساجد أو قائم))[٥٥٧].

الملائكة منظمون في عبادتهم :

وقد حثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بهم في ذلك فقال: ((ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها؟ قالوا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف، ويتراصون في الصف))[٥٥٨].

وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة: ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، والروح: جبريل.

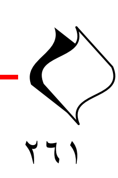
وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر، ففي صحيح مسلم، ومسند أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

٥٥٦ رواه مسلم: ١/ ٣٢٢. ورقمه: ٤٣٠.

٥٥٧ قال فيه الألباني: (صحيح على شرط مسلم). سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم ٨٥٢.

٥٥٨ رواه مسلم: ١/ ٣٢٢. ورقمه: ٤٣٠.



فَأَسْتفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ "٥٥٩

الثالث عشر: تفتقده إذا غاب عن المسجد وتعوده إذا مرض:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إنَّ للمساجدِ أوتادًا؛ الملائكةُ جلساؤهم، إن غابوا يفتقدونهم، وإن مرِضوا عادوهم، وإن كانوا في حاجةٍ أعانوهم "٥٦٠

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"المسجِدُ بيتُ كلِّ تقيٍّ وتكَفَّلَ اللَّهُ لِمَن كانَ المسجِدُ بيتَهُ بالرَّوحِ والرَّحمةِ والجوازِ على الصِّراطِ إلى رِضوانِ اللَّهِ إلى الجنَّةِ "٥٦١

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ما تَوَطَّنَ رجلٌ مسلمٌ المساجِدَ للصلاةِ والذِّكْرِ، إلّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ منْ حينِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ، كَما يتَبَشْبَشُ أهلُ الغائِبِ بغائِبِهِمْ، إذا قدِمَ علَيْهم "٥٦٢

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ:

" الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ؛ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ "٥٦٣

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

---

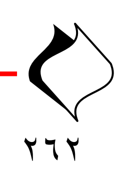
٥٥٩ صحيح مسلم: ١/ ١٨٨. ورقمه: ١٩٧.

٥٦٠ حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٢٩.

٥٦١ حسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٣٠

٥٦٢ حسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٠٤

٥٦٣ صحيح البخاري رقم ٤٤٥



" أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟

قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ "[٥٦٤]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ:

"صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَغْرِبَ فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْرِعًا قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: " أَبْشِرُوا؛ هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى "[٥٦٥]

ثالثاً: هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة:

روى مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عُرِض عليَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال[٥٦٦]، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبُكم، (يعني نفسه) ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (دحية)[٥٦٧] وفي رواية: (دحية بن خليفة) .[٥٦٨]"

---

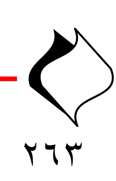
٥٦٤ صحيح مسلم رقم ٢٥١

٥٦٥ رواه ابن ماجه ٨٠١ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٦٦٠

٥٦٦ الضرب من الرجال: هو الرجل المتوسط في كثرة اللحم وقلته. وقيل: الخفيف اللحم.

٥٦٧ ودحية الكلبي: هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي القضاعي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسوله بكتابه إلى عظيم بُصرى ليُوصله إلى هرقل. أسلم دحية قبل بدر، ولم يشهدها، وكان يتشبّه به جبريل عليه السلام، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورته، وكان من أجمل الناس وجهاً. شهد اليرموك، وسكن المزة من قرى دمشق، وبقي إلى زمن معاوية. انظر سير أعلام النبلاء ٢٥٥٠. والإصابة لابن حجر ١٤٦٣.

٥٦٨ صحيح مسلم: ١/ ١٥٣. ورقمه: ١٦٧.



فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي، أم هو بين الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة بشر؟! الأرجح هذا الأخير؛ لأن جبريل كان يتمثل في صورة دحية كثيراً.[٥٦٩]

وتشكل الملائكة على صورة أحدٍ من البشر ثبت في القرآن وصحيح السنَّة، وهذا الشبه بين صورة جبريل وصورة دحية الكلبي إنما هو في الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة دحية؛ لأن أصل خلقة الملائكة تختلف عن أصل خلقة الآدميين، والملائكة في أصل خلقتهم ليس بينهم وبين البشر شبه، فهم لا يشبهون بني آدم قط، وإنما يشبهونهم إذا تمثلوا في صورة آدميين.

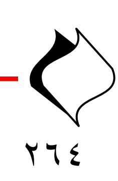
إن جبريل عليه السلام لا تتغير صورته ولا تتبدل ولكن يمثل في أعين يومئذ من رآه على شكل دحية الكلبي.

وهنا يفصل المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية وهو بصدد الرد على بشر المريسي:

((أن رؤيتهم تلك أنَّهم يعلمون يومئذ أن لهم ربا لا يعتريهم في ذلك شك كأنهم في دعواك أيها المريسي لم يعلموا في الدنيا أنَّه ربهم حتى يستيقنوا به في الآخرة فهذا التفسير إلى الشك أقرب مما ادعيت في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشك والشرك لا بل هو الكفر لأن الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم يعلمون يومئذ أن الله ربهم ألا ترى أنه يقول: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة ١٢] فالشك في الله هذا الذي تأولته أنت في الرؤية لا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك إن الله لا تتغير صورته ولا تتبدل ولكن يمثل في أعينهم يومئذ أولم تقرأ

---

٥٦٩ عالم الملائكة الأبرار ص ١٣.



كتاب الله ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال ٤٤] وهو الفعال لما يشاء كما مثل جبريل عليه السلام مع عظم صورته وجلالة خلقه في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما مثله لمريم بشرًا))[٥٧٠]

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (دحية).))، وفي رواية: ((دحية بن خليفة))[٥٧١].

فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي، أم لا؟

قال رحمه الله تعالى: "فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك، فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك، بل نفس الجن والملائكة لا يتصورها الإنسان ويتخيلها على حقيقتها بل هي على خلاف ما يتخيله ويتصوره في منامه ويقظته وإن كان ما رآه مناسبا مشابها لها، فالله تعالى أجل وأعظم"[٥٧٢]

علاقة الملائكة بالإنسان:

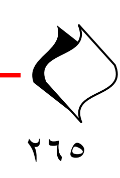
الملائكة عليهم سلام خلقهم الله من نور، وهم من عالم الغيب أطلعنا الله على شيء من أخبارهم بالقدر الذي أراده سبحانه وتعالى، ولا عِلْم لنا بعالَم الملائكة إلا في حدود ما أخبرنا عنهم ربنا سبحانه في قرآنه الكريم، أو ما جاء وصح عن رسول

---

٥٧٠ انظر بيان تلبيس الجهمية (٧/ ١٣٨).

٥٧١ صحيح مسلم: ١/ ١٥٣.

٥٧٢ "بيان تلبيس الجهمية" (١/ ٣٢٥) [ط. مجمع الملك فهد).



الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأيُّ خبر عن الملائكة خارج عن هذين الأصلين يعتبر رجمًا بالغيب.

- بدأت علاقة الملائكة بآدم عليه السلام قبل خلقه:

حينما قال الله تعالى للملائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]، وجاء الرد من الملائكة: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]

- وحينما أراد الله أن يخلق آدم عليه السلام من تراب الأرض

أرسل ملكًا ليقبض قبضة من التراب[٥٧٣]، ثم خلق آدم، وظلَّ بين الماء والطين حينًا من الدهر، ثم أوحى الله سبحانه إلى الملائكة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

فسجدت الملائكة بمجرد صدور الأمر الإلهي؛ تعظيمًا لأمر الله سبحانه.

- آدم عليه السلام يسلم على الملائكة بتحية الإسلام وترد عليه الملائكة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ المَلَائِكَةِ، إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ، فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ، بَيْنَهُمْ "[٥٧٤]

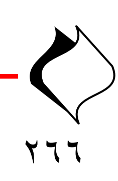
- دعاء الملائكة لآدم: "يرحمك الله".

فقد ثبت أنه عندما نفخ الله سبحانه الروحَ في آدم عليه السلام عطس آدم وقال: "الحمد لله"، فقالت له الملائكة: "يرحمك الله"

---

٥٧٣ انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٢١٠) برقم (٧٧٣)

٥٧٤ أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٤٥٣) (٣٣٦٨) وهو صحيح انظر مشكاة المصابيح (١٣٢١/ ٣) (٤٦٦٢)



عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: " ذَلِكَ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَسَارَ فِيهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى، فَاسْتَوَى جَالِسًا فَعَطَسَ فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَحِمَكَ اللَّهُ"[٥٧٥].

- نزول آدم عليه السلام إلى الأرض:

وبعد أن نزل آدم إلى الأرض لعمارتها، جعل الله سبحانه من الملائكة رُسُلاً إلى بني آدم، فكانت الكتب السماوية التي نزلت إلى الأنبياء والمرسلين، من أول صحف إبراهيم إلى ختام الأنبياء المرسلين.

- العلاقة المباشرة بين البشر وبين الملائكة:

أمَّا بالنسبة للعلاقة المباشرة بين البشر وبين الملائكة، فإن بدايتها من يوم إرسال الملك لينفخ الروح في الجنين في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وشقي أم سعيد، ومن بعد ذلك مع مولده، ثم هم معه في طفولته، وتستمرُّ هذه العلاقة في حياته كلها، وأشد ما تكون هذه العلاقة عند الشدائد، وبالذات يوم وفاته ويوم بعثه، ثم بعد ذلك عند الحساب، وبعدها إما في الجنة بإذن الله، أو في النار التي عليها ملائكة غلاظ شِداد.

- الملائكة حُرَّاسًا على السموات المسلحة بالشهب:

وعاش الإنسان يتأرجح بين الهدى والضلال؛ تارةً يأخذ زمام الأمور بيده، وتارةً تستهويه الشياطين في الأرض حيرانَ، وكلما أغلق الإنسان بابًا من أبواب الضلال، أتاه الشيطان من باب آخر، فجاءتْه الشياطين، ووصل الأمر إلى أن استرَقَ الشياطينُ السمعَ في السماء الدنيا، ويوحون إلى أوليائهم زخرفَ القول، فكانت النجدة من عند الله سبحانه وتعالى للبشر أن جعل حُرَّاسًا على السموات من الملائكة المسلحة ضمنًا بالشهب لمنع الشياطين من استراق السمع لتضليل الناس، واعترفت الشياطين بذلك

---

٥٧٥ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٢٥٩) (٥٥٦٩).

كما جاء في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن: ٨].

- الملائكة شهودًا على أفعال بني آدم:

ومن قبل ذلك ومن بعده جعل الله سبحانه من الملائكة شهودًا على أفعال بني آدم بأن جعل منهم الكرام الكاتبين، كل هذا بإذن الله تعالى كما قالت الملائكة فيما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

- ملك الأرحام عليه السلام:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَرَفَعَ الْحَدِيثَ، أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا قَالَ: قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ "[٥٧٦].

- علاقة الملائكة بالأطفال:

وبعد الولادة مباشرة تبدأ رسالة الوالدين برعاية الوليد في طعامه وشرابه، لا يأكلان حتى يأكل، ولا ينامان حتى ينام؛ لأنه ليس له سن يقطع، ولا يد تبطش، وهذه هي رعاية المادة أو الجسم، فمن يرعى الروح في عالم جديد؟ أو من يستطيع أن يتعامل مع سرٍّ من أسرار الله؟ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: ١٦] إِلَى {عَتِيدٌ} [ق: ١٨] قَالَ: «جَعَلَ اللَّهُ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَافِظَيْنِ فِي اللَّيْلِ، وَحَافِظَيْنِ فِي النَّهَارِ، يَحْفَظَانِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَيَكْتُبَانِ أَثَرَهُ »[٥٧٧]

- علاقة الملائكة بني آدم إذا بلغ سن التكليف:

---

٥٧٦ أخرج مسلم (٤/ ٢٠٣٨) برقم (٢٦٤٦)

٥٧٧ انظر تفسير الطبري (٢١/ ٤٢٥).

وينمو الوليد على ذلك، إلى أن يصل إلى سن التكليف، فتبدأ علاقة من نوع جديد بينه وبين الملائكة، فيجعل الله عن يمينه ملكًا يدوّن له حسناته، وعن شماله ملكًا يسجّل عليه سيئاته، كما يقول -سبحانه وتعالى- في سورة (ق): ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

- علاقة الملائكة لمن راح إلى المسجد ولمنتظر الصلاة

كما ثبت أن الملائكة تستغفر لمنتظر الصلاة ومن في حكمه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " المَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ " [٥٧٨]

قال ابن بطال: قوله عليه السلام: (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه)، تفسير لقوله: (ويستغفرون للذين آمنوا) [غافر: ٧]، يريد المصلين، والمنتظرين للصلاة ويدخل في ذلك من أشبههم في المعنى، ممن حبس نفسه على أفعال البرِّ كلها، والله أعلم. انتهى[٥٧٩]

ومن كان في طريقه للمسجد، فكأنه في صلاة؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ». [٥٨٠]

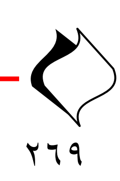
وعلى هذا، فإنه يرجى له أن يكون ممن تستغفر لهم الملائكة.

---

٥٧٨ أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٩٦) (٤٤٥) و (١/ ١٣٢) (٦٥٩).

٥٧٩ شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢/ ٨٤).

٥٨٠ أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٢١) (٦٠٢).



فالذهاب إلى المسجد ثوابه عظيم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ» [٥٨١]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة».

- الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة، والأقذار، والأوساخ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ وقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ "[٥٨٢]

- البصاق عن اليمين في الصلاة تَتَأَذَّى منه الملائكة:

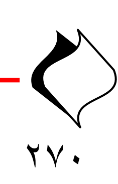
نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن البصاق عن اليمين في أثناء الصلاة؛ لأن المصلي إذا قام يصلي يقف عن يمينه ملك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق أمامه، فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه؛ فإن عن يمينه ملكاً، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها))[٥٨٣]

---

٥٨١ أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢١٩) (٢٥١).

٥٨٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٩٥) (٥٦٤).

٥٨٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٦).



- لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة، ولا كلب، ولا جُنب

قال ابن كثير[٥٨٤]: (ثبت في الحديث المروي في الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة، ولا كلب، ولا جُنب))[٥٨٥]

- حفظ الملائكة العبد عموما من أمر الله:

كما يدل أن الملائكة لا تحفظ العبد مما يأتي من قضاء الله وقدره، قوله تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) {الرعد: ١١}

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} وَالْمُعَقِّبَاتُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ.

وَقَالَ عِكْرِمة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} قَالَ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ اللَّهِ خَلَّوا عَنْهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مَلَك مُوَكَّلٌ، يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَرَاءَكَ إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ اللَّهُ فِيهِ فَيُصِيبُهُ[٥٨٦]

قال البغوي: في التفسير: يحفظونه من أمر الله، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجئ المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه.

---

٥٨٤ البداية لابن كثير (١/ ٥٥).

٥٨٥ رواه أبو داود (٢٢٧)، والنســائي (٧/ ١٨٥)، وابن حبان (٤/ ٥)، (١٢٠٥)، والحاكم (١ / ٢٧٨). من حديث علي بن أبي طالب رضــي الله عنه، والحديث سـكت عنه أبو داود، وقال الحاكم: صــحيح، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٦): ثابت، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/ ٢٤٢) كما قال ذلك في المقدمة.

٥٨٦ انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٨).

وقيل: يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه[٥٨٧].

وقال القرطبي: في التفسير: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفاً منه به، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه[٥٨٨]

وقال ابن رجب: في جامع العلوم والحكم: وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان أحدهما حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله ويحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه[٥٨٩]

- علاقة الملائكة بالمسلم في حياته اليومية:

وهذه العلاقة تستمر معك بطول الحياة وعرضها، فإذا ذهبتَ إلى المسجد للصلاة، يقول ملك بجوارك: "اللهم اغفر له، اللهم احفظه"[٥٩٠]، لا يتركك حتى تنصرف، وإذا أنفقتَ مما آتاك الله شيئًا لوجه الله، يدعو لك ملك من قِبل الله تعالى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا " [٥٩١] . وهكذا كلما هممت بطاعة ابتغاءَ وجه الله تعالى.

- علاقة الملائكة على من يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

- قعود الملائكة يوم الجمعة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول

---

٥٨٧ انظر: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن (٣/ ٩).

٥٨٨ انظر تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن (٩٢٩١)

٥٨٩ انظر جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (١/ ٤٦٥)

٥٩٠ انظر صفحة (١٩٧) علاقة الملائكة لمن راح إلى المسجد ولمنتظر الصلاة

٥٩١ صحيح البخاري (٢/ ١١٥) (١٤٤٢)

عن أبي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ». ٥٩٢

- علاقة حملة العرش للذين آمنوا بالله تعالى:

وهم قد يقتصرون بصالح دعواتهم وصلواتهم للمؤمنين فقط وبالدعوات التي تشرح صدر هذا الإنسان، وتثلج قلب كل مؤمن قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

ولكن في استغفارهم يستغفرون لكل من في الأرض، فيقول تعالى مبيِّنًا ذلك: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥].

- علاقة الملائكة بالمستقيمين:

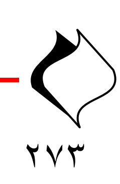
وهؤلاء الذين آمنوا بالله سبحانه وساروا على نهج الله تعالى واهتدَوْا إلى الصراط المستقيم، وسلكوا سبيل الرشد؛ أملاً في الاستقامة، فالملائكة لتدعوا لهم بالتوفيق، فيطمئنونهم ويبشّرونهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالملائكة يساهمون في الدعوات والصلوات في ثبات المؤمن على الاستقامة، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

- علاقة الملائكة بالإنسان عند الموت

---

٥٩٢ رواه مسلم (٢/ ٥٨٧).



وفي نهاية مطافك في الحياة الدنيا، فإن الإنسان إذا احتضره الموت، انقطع رزقه، فقد صح عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِيَ أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[٥٩٣]

فحين إذن، يتوقف عن التنفس فيقوم ملك الموت بنزع الروح، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

- علاقة الملائكة بالميت المؤمن:

فينادون الذين سبقتْ لهم الحسنى من الله مبشرين برضوان الله ومذكِّرين بحسن الثواب ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

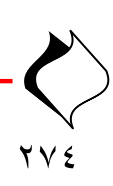
وفي هذا المشهد العظيم الحمد كله لله سبحانه وتعالى ونعم أجر العاملين: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

- علاقة الملائكة بالميت الكافر:

قال تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٧]. وعندما تأتيه المنيَّةُ يقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

---

٥٩٣ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٢٦) وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته (١/ ٤١٩).

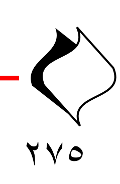


ومن مات من الكفار لعنتهم الملائكة لكفرهم قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

- علاقة الملائكة ببني آدم في القبر:

وفي القبر صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ملكًان يأتيان إلى الميت فيسألانه ويريه مقعده في الجنة أو النار، وذلك في نهاية سؤال القبر.

عَن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّك فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِي الْإِسْلَام فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِث فِيكُمْ قَالَ فَيَقُول هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولَانِ وَمَا يُدْرِيك فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ زَاد فِي حَدِيث جرير فَذَلِك قَول الله عز وَجل (يثبت الله الَّذين آمنُوا بالْقَوْل الثَّابِت) الْآيَة ثمَّ اتفقَا قَالَ فينادي مُنَاد من السَّمَاء أَن قد صدق عَبدِي فأفرشوه مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ وألبسوه من الْجنَّة قَالَ فيأتيه من روحها وطيبها قَالَ وَيفتح لَهُ فِيهَا مد بَصَره عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ «هَاهُنَا» وَقَالَ: " وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ " قَالَ هَنَّادٌ: قَالَ: " وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ " قَالَ: " فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [ص:٢٤٠]، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ «زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ» فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [إبراهيم: ٢٧] " الْآيَةُ–ثُمَّ اتَّفَقَا–قَالَ: " فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ



مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ " قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا» قَالَ: «وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ» قَالَ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ» فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: " وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ " قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا» قَالَ: «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ» زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ قَالَ: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا» قَالَ: «فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا» قَالَ: «ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ» [٥٩٤]

- علاقة الإنسان يوم البعث:

ويوم البعث ستخرج من قبرك فتجد ملكًا من قِبَل الله يأخذك ويوقفك في المكان الذي يريده الله لك، أو يسوقك إلى موقفك المناسب، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

عن ابن عباس، قوله (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) قال: السائق من الملائكة، والشهيد: شاهد عليه من نفسه[٥٩٥].

- علاقة الملائكة يوم الحساب:

ثم عند الحساب يوم ينفع الصادقين صدقهم، تأتي الملائكة شفعاء بإذن الله ولكنّهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

---

٥٩٤ رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٣٩) (٤٧٥٣) وصححه الشيخ الألباني انظر (١/ ٤٧).

٥٩٥ انظر تفسير الطبري (٢٢/ ٣٤٨).

- علاقة الملائكة بعد الحساب:

وبعد الحساب، إما جنة وإما نار،

١-فبالنسبة لأهل الجنة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]،

٢-أما أهل النار، فسيجدون التوبيخ اللائق بهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١]،

ثم بعد ذلك يتلفتون في النار لعلهم يجدون مخرجًا منها، فينادون على خازن جهنم: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦].

- علاقة الملائكة لمن دخل الجنة:

ثم يباركونهم ويهنئونهم بعدما يزفونهم إلى الجنة؛ قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

والموضع الصحيح لهذا الحبِّ الذي وهبه لنا-سبحانه وتعالى-﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ٧].

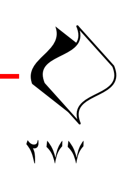
مسألة: التفاضل بين الملائكة والبشر

تنبيهات مهمة:

وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية رحمه الله: (المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك، وبعضهم على تفضيل البشر، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره)[٥٩٦].

---

٥٩٦ الفتاوى (٤/ ٣٥٤).



وقال ابن كثير: (أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم)

قال: (أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم) وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحدهم بتفضيل الملائكة واستدلال كل[٥٩٧]).

ولقد نزع جماعة من أهل العلم إلى أن هذه من فضول المسائل، قال البيهقي في التفاضل بين الملائكة والبشر: (والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به)[٥٩٨] .

وقال شارح الطحاوية: (وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٥٩٩].

وقال: (وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول)[٦٠٠].

ونقل عن تاج الدين الفزاري من كتاب له في تفضيل البشر على الملك ما نصه: (اعلم أن هذه المسألة من بدع الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع

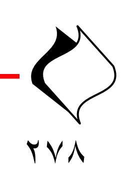
---

٥٩٧ البداية والنهاية (١/ ٥٤) تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ١٣٦)

٥٩٨ شعب الإيمان (١/ ١٨٢)

٥٩٩ شرح الطحاوية (٢٧٨)

٦٠٠ شرح الطحاوية (٢٨٨).



عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب)[٦٠١].

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد، ولم تكن لهم بها عناية فائقة بحيث ينصبونها موضوعاً للنظر والاستدلال، ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف.

وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر لهذه المسألة في بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة، وبعضها تفضيل المؤمن على بعض الملائك، وبعضها تفضيل بني آدم على الملائكة، ولكنها أحاديث إما ضعيفة أو موضوعة مثل:

حديث: ((المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة))[٦٠٢] .

وحديث: ((أن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فأجعل لنا الآخرة فقال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان))[٦٠٣] .

وحديث: ((ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم، قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر))[٦٠٤] وكلها ضعيف وموضوع.

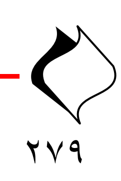
---

٦٠١ شرح الطحاوية ٢٩٧.

٦٠٢ رواه ابن ماجه (٧٨٦) والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [فيه أبو المهزم] قال البيهقي: متروك، وقال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٢/ ٢٧٨): [فيه] أبو المهزم تركه شعبة وقال البيهقي: متروك وقد روى موقوفا.

٦٠٣ رواه الطبراني في (المعجم الأوسط) (٦/ ١٩٦) (٦١٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال ابن تيمية في (بغية المرتاد) (٢٢٤): ثابت بالإسناد على شرط الصحيح، وقال ابن القيم في (مختصر الصواعق المرسلة) (٤٠٥): إسناده صحيح روي مرسلا، وقال ابن كثير في (البداية والنهاية) (١/ ٤٩): مرفوع وهو أصح.

٦٠٤ رواه الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (١/ ٨٧) والبيهقي (١/ ١٧٤) (١٥٣) من حديث ابن عمرو رضي الله عنه. قال البيهقي: تفرد به عبيد الله بن تمام، قال البخاري: عنده عجائب، ورواه غيره عن خالد الحذاء موقوفا، على عبد الله بن عمرو، وهو الصحيح، وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٩٨): هذا حديث غريب جدا، وقال الهيثمي: رواه



فهذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم أخذاً ورداً، وطال طولاً أخرجها عن فائدتها وحدها.

خلاصة ما قيل فيها أن الناس فيها على أربعة أقوال[٦٠٥]:

القول الأول: تفضيل الملائكة على البشر مطلقاً:

القائلون به:

وإليه ذهبت المعتزلة، وبعض الأشعرية، وابن حزم، ومال إليه بعض أهل السنة، وبعض الصوفية.

أدلتهم:

استدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لها وجهها في الدلالة على قولهم منها:

كقوله سبحانه في بني آدم: وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [الإسراء: ٧٠].

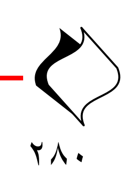
وجه الدلالة: فقال (على كثير) ولم يقل على كل، ومن عساه أن يكون الخارج من هذا الكثير إلا الملائكة.

وبقوله سبحانه: لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [النساء: ١٧٢].

وجه الدلالة: ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه.

الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف، وقال الألباني في (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٤٩٨١): منكر مرفوع.

٦٠٥ مقالات الإسلاميين، (ص٤٨، ٢٢٦، ٤٣٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧/ ٢٣٥) والفصل، (٥/ ٢٠ وما بعدها)، (المحلى، (١/ ١٣) و(أصول الدين) (١٦٦) والمواقف، (٣٦٧) وفتح الباري، (١٣/ ٣٨٦) وشرح الطحاوية (٢٧٧) ولوامع الأنوار البهية ن (٢/ ٣٩٨) والمواهب اللدنية (٢/ ٤٤) وغيرها.



وبقوله سبحانه: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ [الأنعام: ٥٠].

وجه الدلالة: والمعنى عندهم أني لا أدعي فوق منزلتي.

وبقوله صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)) [٦٠٦].

وجه الدلالة: وهو نص في الأفضلية.

وهي أدلة على ما ترى من الدلالة، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها ورد هؤلاء على ردودهم.

القول الثاني: تفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة.

القائلون به:

وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعري.

أدلتهم:

واستدلوا بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم، ففي الأنبياء:

كقوله سبحانه: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

وجه الدلالة: والفاضل لا يسجد للمفضول.

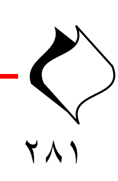
وقوله سبحانه: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: ٣٢].

وقوله: إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ [آل عمران: ٣٣].

أما في صالح البشر

---

٦٠٦ رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



فكقوله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [البينة: ٧].

وقال ابن تيمية بعد ذكر بعض هذه الأحاديث: (وأقل ما في هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها، وتفرق الآراء، فقد كان ذلك المستقر عندهم)[٦٠٧]

وقال: (قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالح البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكراً لأنكروه فدل على اعتقادهم ذلك)[٦٠٨].

وقد جاء عن الإمام أحمد أنه كان يفضل صالحي المؤمنين على الملائكة، ويخطئ من يفضل الملائكة على بني آدم[٦٠٩].

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلاً طويلاً، قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالحي البشر على الملائكة[٦١٠].

وهي أدلة في القوة على ما ترى، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها وعلى الرد رد، وإنا إن ذهبنا نتتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع عن حده وطال طولاً لا نستطيع الوقوف عند حد له.

القول الثالث: أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية.

فقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية: (أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه

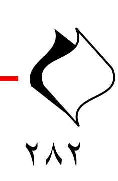
---

٦٠٧. الفتاوى (٤/ ٣٦٩).

٦٠٨ الفتاوى (٤/ ٣٧١).

٦٠٩ طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٩، ٣٠٦).

٦١٠ مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٣٥٢).



بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة) قال: (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه)[٦١١] .

القول الرابع: التوقف والسكوت عن التفضيل.

رأى قوم أن الأدلة متكافئة، وأنه كثر فيها الاختلاف، وتشعبت فيها الاستدلالات، وتشابكت وعظم فيها الجدال حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول: منا الأنبياء ومنا الأولياء، فرد عليه بأن للملائكة أن تقول: أليس منكم فرعون وهامان؟ أليس منكم من ادعى الربوبية؟[٦١٢] وأساء بعضهم الأدب فقال: كان الملك خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم، أو أن بعض الملائكة خدموا بني آدم[٦١٣] .

---

٦١١ بدائع الفوائد (٣/ ١٦٣).

٦١٢ طبقات الحنابلة (٤/ ٢٠٧)

٦١٣ شرح الطحاوية (٢٧٩).

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[٢١] "والإيمان بأن الجنة حق والنار حق، والجنة والنار مخلوقتان، الجنة في السماء السابعة، وسقفها العرش، والنار تحت الأرض السابعة السفلى، وهما مخلوقتان، قد علم الله عدد أهل الجنة ومن يدخلها، وعدد أهل النار ومن يدخلها، لا تفنيان أبدا، هما مع بقاء الله تبارك وتعالى أبد الآبدين، في دهر الداهرين، وآدم كان في الجنة الباقية المخلوقة، فأخرج منها بعدما عصى الله".

الشرح

- قول المصنف: **"والإيمان بأن الجنة حق والنار حق"**.

أي على المسلم الإيمان بالجنة والنار، فهما يدخلان ضمن الإيمان باليوم الآخر الذي هو أصل من أصول الإيمان، فمن أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث، أي: أن الله يبعث الأجساد ويحاسب الخلائق، والإيمان بالميزان والصراط والجنة والنار، فمن أنكر وجود الجنة أو أنكر النار كفر؛ لأنه مكذب لله.

- قال تعالى: {وَبَشِّرِ لَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) [البقرة:٢٥]} [لقمان:٨]،
- وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ} [فاطر:٣٦]، فمن أنكر الجنة أو النار فقد كذب الله، ومن كذب الله كفر.

قول المصنف: **"والجنة والنار مخلوقتان"**.

الأقوال في المسألة:

القول الأول: قول أهل السنة والجماعة.

أن الجنة والنار الآن مخلوقتان دائمتان لا تفنيان.

قال الإمام ابن القيم: "يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون.

فيها قال أبو الحسن الأشعري في كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: "جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردّون من ذلك شيئا"...."ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان" قال ابن القيم بعد أن ساق كلام الأشعري "والمقصود حكايته عن جميع أهل السنة والحديث أن الجنة والنار مخلوقتان"[٦١٤].

أدلتهم:

وقد دل على ذلك من القرآن:

- قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} النجم:١٣ . ١٥وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء وفي آخره: "ثم أنطلق بي جبريل حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدرى ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك"[٦١٥].
- وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة"[٦١٦].

---

٦١٤ حادي الأرواح: ص ١١ ـ ١٥.

٦١٥ أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٦٤) ومسلم في صحيحه (١٦٣) واللفظ للبخاري.

٦١٦ أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧) وأبو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٣، ٤٧٥٤) والنسائي (٤/ ٧٨) وابن ماجه (١٥٤٨) و(١٥٤٩) والحاكم (١/ ٩٣) رقم (١٠٧) وأبو عوانة كما في (إتحاف المهرة) (٢/ ٤٥٩) وابن منده في الإيمان (١٠٦٤) والبيهقي في إثبات عذاب القبر رقم (٢١) و (٤٣) وغيرهم.

من طريق زاذان عن البراء بن عازب فذكره.

- وفي المسند وصحيح الحاكم وابن حبان وغيرهم من حديث البراء ابن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فذكر الحديث بطوله وفيه "فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها "[٦١٧] وذكر الحديث.
- وفي الصحيحين من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا المُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا"[٦١٨].
- وفي صحيح أبي عوانة الاسفرايني وسنن أبي داود من حديث البراء بن عازب الطويل في قبض الروح "ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقال هذا كان منزلك لو عصيت الله تعالى أبدلك الله به هذا فإذا رأى ما في الجنة قال رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي فيقال أسكن"[٦١٩].
- وفي مسند البزار وغيره من حديث أبي سعيد قال شهدنا مع النبي صلى الله عليه وسلم جنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا دفن الإنسان وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق فأقعده فقال ما

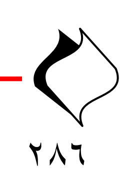
والحديث صححه: أبو عوانة وابن منده والحاكم والبيهقي وابن القيم وغيرهم.

قال ابن القيم في الروح، ص(٩١): (هذا حديث ثابت مشهور مستفيض، صححه جماعة من الحفاظ، ولا نعلم أحدا من أئمة الحديث طعن فيه، بل رووه في كتبهم وتلقوه بالقبول، وجعلوه أصلا من أصول الدين في عذاب القبر ونعيمه، ومسألة منكر ونكير، وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله، ثم رجوعها إلى القبر).

٦١٧ أخرجه البخاري برقم (١٣٠٨)، ومسلم برقم (٢٨٧٠) واللفظ لمسلم.

٦١٨ أخرجه البخاري (٢/٩٨) برقم (١٣٧٤)، ومسلم (٤/٢٢٠٠) برقم (٢٨٧٠) واللفظ للبخاري.

٦١٩ أخرجه أبو عوانة في صـــحيحه كما في إتحاف المهرة لابن حجر (٢/ ٤٥٩)، وأبو داود برقم (٤٧٥٣). ولعل هذا لفظ أبي عوانة في صحيحه، والحديث تقدم الكلام عليه مختصرًا.



تقول في هذا الرجل يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده رسوله فيقولون له صدقت ثم يفتح له باب إلى النار فيقولون هذا كان منزلك لو كفرت بربك فأما إذا آمنت به فهذا منزلك فيفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض إلى الجنة فيقولون له اسكن "[٦٢٠]. وذكر الحديث.

- وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت خسفت الشمس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت الحديث إلى أن قالت ثم قام فخطب الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: " أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة "[٦٢١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم حتى لقد رأيتني آخذ قطفًا من الجنة حين رأيتموني أقدم ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها حين رأيتموني تأخرت "[٦٢٢].

- وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله فذكر الحديث وفيه قال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله ". فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيناك تناولت شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال: "إني رأيت

---

٦٢٠ أخرجه أحمد النسخ (٣/ ٣-٤) والبزار كما في (كشف الأستار) رقم (٨٧٢) وابن أبي عاصم في (السنة) رقم (٨٦٥)، والطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٤)، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) رقم (٣١)، من طريق عباد بن راشد البصري عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري فذكره.

وقد تفرد به عباد وهو صدوق له أوهام، عن خاله داود بن أبي هند مرفوعا.

وقال البزار: (لا نعلمه عن أبي سعيد إلا بهذا الإسناد، وهذا من أغرب ما كان يسأل عنه الحسين وابن معمر).

وقد خولف عباد، خالفه مسلمة بن علقمة فأوقفه.

فرواه عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: فذكر نحوا من حديث عباد بن راشد ولم يرفعه.

٦٢١ رقم (٩٠١)، وهو عند البخاري أيضا رقم (٩٩٧، ١١٥٤).

٦٢٢ أخرجه البخاري رقم (٣٥٨)، ومسلم رقم (٩٠٧).

الجنة وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا بم يا رسول قال: " بكفرهن" قيل: أيكفرن بالله قال: "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط"[٦٢٣].

- وفي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الخسوف قال: " قد دنت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ودنت مني النار حتى قلت أي رب وأنا معهم فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هرة قلت ما شأن هذه قالوا حبستها حتى ماتت جوعا لا أطعمتها ولا أرسلتها تأكل"[٦٢٤].

القول الثاني: المعتزلة.

أنكروا خلقهما الآن، فقالوا: الجنة والنار لم تخلقا بعد، ولكن سوف يخلقهما الله تعالى يوم القيامة، أما الآن فلا توجد جنة ولا نار.

شبهتهم: سبب هذا القول إن المعتزلة يعملون عقولهم في مقابلة النصوص، فيعارضون النصوص بعقولهم، وهذا من جهلهم ومن ضلالهم، فهم يقولون: لو قلنا إن الجنة والنار مخلوقتان الآن لصار خلقهما عبثاً؛ لأنهما مخلوقتان وليس فيهما أحد، والعبث محال على الله، فتنزيهاً لله نقول: لا توجد جنة ولا نار الآن؛ لكن يخلقهما الله يوم القيامة حين ينتفع المؤمنون بالجنة ويكون الكفرة في النار.

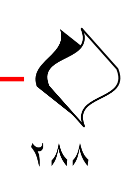
ويجاب عليهم:

أولاً: قولكم هذا من أبطل الباطل؛ لأن الله تعالى أثبتهما، ونحن نصدق الله ونؤمن بالله، فقد أخبر تعالى أنهما موجودتان، قال عن الجنة: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣]، وقال عن النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٤]، فهي مرصدة معدة مهيأة.

---

٦٢٣ صحيح البخاري رقم (٧١٢).

٦٢٤ رقم (٩٠٤) –(٩).



ثانياً: أن خلق الجنة وخلق النار الآن وإعدادهما أبلغ في الزجر وأبلغ في التشديد، فإذا علم العاصي أن النار معدة الآن صار أبلغ في الزجر، وإذا علم المطيع أن الجنة معدة صار أبلغ في الشوق.

ثالثاً: نقول: من قال إن خلقهما الآن عبث؟ فالجنة فيها الولدان، وفيها الحور، وأرواح المؤمنين تتنعم في الجنة، وأرواح الشهداء تنعم فيها، كما جاء في الحديث: (أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وترد أنهارها، وتأكل من ثمارها، حتى يرجعها الله إلى أجسادها)، والمؤمن إذا مات نقلت روحه إلى الجنة على هيئة نسمة طائر يعلق في الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثون.

- ونعلم أن المؤمن يفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من نعيمها، والكافر يفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها.
- إذاً هناك حكمة وفائدة من خلقهما الآن، فهذا من جهل المعتزلة وضلالهم، حيث إنهم عارضوا النصوص بأفهامهم وآرائهم الفاسدة.

قول المصنف: "**الجنة في السماء السابعة وسقفها العرش**"

العرشُ كما جاءَ في النصوصِ والأخبار هو سقف الجنة، «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسطُ الجنةِ وأعلاها وفوقه عرش الرحمن[٦٢٥]»

فقد دلت الأحاديث على أن العرش مقبب الشكل، وأنه على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما كهيئة القبة، فكون العرش سقفاً للفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير.

٦٢٥ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ دَرَجَاتِ المجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يُقَالُ: هَذِهِ سَبِيلِي وَهَذَا سَبِيلِي، برقم (٢٧٩٠)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٨٤١٩).

ويؤيد وصف هيئة العرش بهذه الصفة ما جاء في حديث الأعرابي الذي جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا" وأشار بأصابعه مثل القبة.[٦٢٦]

قول المصنف: **"والنار تحت الأرض السابعة السفلى"**

المسألة الأولى: وجود النار في الحياة الدنيا.

ويدل على ذلك:

من القرآن:

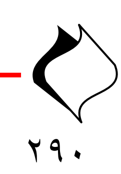
قد ذكر الله تعالى في كتابه في مواضع كثيرة يتعسر حدها ويفوت عدها ووصفها. وأخبر بها على لسان نبيه، ونعتها فقال عز من قائل[٦٢٧] :

- (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (البقرة:٢٤).
- وقال: «واتقوا النار التي أعدت للكافرين) (آل عمران: ١٣١).
- وقال: (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها) الكهف:٢٩).

---

٦٢٦ سنن أبي داود (٥/ ٩٤-٩٦، ح ٤٧٢٦)، وأخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص٤٤٧). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢). وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٩-٢٤٠، ح١٤٧). والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٣٢، برقم ١٥٤٧). وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٤-٥٥٦، ح ١٩٨). والدارقطني في الصفات (ص ٥١، ح ٣٨). وابن منده في التوحيد (١/ ١٨٨، برقم ٦٤٣). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٤). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣١٧-٣١٨، ح٨٨٣). وقد تكلم بعض الأئمة على هذا الحديث: فقال الذهبي في العلو (ص ٣٩): "هذا الحديث غريب جداً فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أم لا؟ وأما الله فليس كمثله شيء جل جلاله، وتقدست أسماؤه ولا إله غيره" انتهى كلامه. واستغربه الحافظ ابن كثير في تفسير آية الكرسي من تفسيره (١/ ٣١٠). ثم إن في إسناده اختلافاً. هذا وقد تكلم ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥-١١٧) بكلام طويل نصر فيه تصحيح الحديث، ورد المطاعن التي طعن بها هذا الحديث، وبخاصة عن ابن إسحاق. والصواب أن هذا الحديث بهذا الإسناد ضعيف، ولا سيما أن جبير بن محمد قال فيه الحافظ ابن حجر: "مقبول" يعني إذا توبع ولم يتابع هنا.

٦٢٧ المصدر: يقظة أولي الاعتبار: ص ٥١.



- وقال: (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) (الكهف:١٠٢).
- وقال: «وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً) (الفرقان:١١).
- وقال تعالى: (أغرقوا فأدخلوا ناراً) (نوح:٢٠).

ومن السنة:

- ما ورد في الصحيحين من حديث ابن عمر عنه أن رسول الله قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[٦٢٨]،
- وفيهما أيضا: «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في صلاة الكسوف النار فلم ير منظراً أفظع من ذلك»[٦٢٩] .
- وفي البخاري عن عمران بن حصين عن النبي الله قال: «اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»، وفيه دلالة على وجودها حال اطلاعه[٦٣٠]، ورواه الترمذي والنسائي أيضا[٦٣١].
- وفي الصحيح (باب صفة النار وأنها مخلوقة الآن) وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم "أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم"[٦٣٢].
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله من اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعض فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما

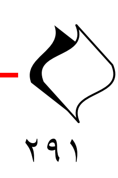
٦٢٨ البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

٦٢٩ رواه البخاري (١٠٥٢) (٤٣١)، ومسلم (٩٠٧) عن ابن عباس.

٦٣٠ يقظة أولي الاعتبار ص ٥٢.

٦٣١ هو ضـــمن الحديث الســـابق. ورواه البخاري (٣٢٤١، ٥١٩٨، ٦٤٤٩، ٦٥٤٦ رواه الترمذي (٢٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٩٢٥٩)

٦٣٢ رواه البخاري (٥٣٩) (٦٢٩) عن أبي ذر.



تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير» رواه البخاري"[٦٣٣] أي: من ذلك التنفس.

- وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» رواه البخاري"[٦٣٤]، وفي رواية "من فور جهنم رواه عن رافع بن خديج[٦٣٥].

وكل ذلك يفيد وجود النار الآن[٦٣٦]، وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي من حديث ابن عمر رضي الله عنه: "ولقد أدنيت النار مني حتى جعلت أتقيها خشية أن تغشاكم"، الحديث[٦٣٧] وفي صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: «لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار"[٦٣٨]

المسألة الثانية: مكان النار.

وقد اختلف في هذه المسألة على عدة أقوال[٦٣٩]:

القول الأول: أن مكانها في الأرض تحت الأرض السابعة.

القول الثاني: أن جهنم على الأرض والله أعلم بموضعها على الأرض.

---

٦٣٣ ورواه (٥٣٦، ٥٣٣، ٥٣٤) عن أبي هريرة.

٦٣٤ رواه (٣٢٦٤، ٥٧٢٣) عن ابن عمر.

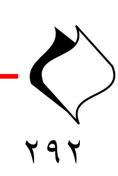
٦٣٥ رواه (٥٧٢٦، ٣٢٦٢) عن رافع.

٦٣٦ يقظة أولي الاعتبار ص ٥٣.

٦٣٧ رواه الإمام أحمد (٢/ ١٥٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٣٧ـــ١٣٨)، وابن خزيمة (٩٠١)، وابن حبان(٢٨٣٨) بسند صحيح عن ابن عمر.

٦٣٨ أخرجه مسلم (٤٢٦).

٦٣٩ ذكر هذه الأقوال صاحب كتاب يقظة أولي الاعتبار ص ٦٢ . ٦٧.



القول الثالث: أن مكان النار حالياً تحت الأرض السابعة السفلى، ويوم القيامة تبرز وتظهر، قال تعالى: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى} [النازعات:٣٦]، أي في السماء السابعة التي تظهر للناس.

القول الرابع: أن مكانها في السماء.

القول الخامس: التوقف في المسألة وأنه لم يرد نص صريح في مكانها

وقد استدل من قال إن مكانها في الأرض:

- ما جاء في الحديث: (يُجاء يوم القيامة بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[٦٤٠]، وتسجر البحار وتكون جزءاً من جهنم، نسأل الله السلامة والعافية.
- وقد روى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: إن أكرم خليقة الله عليه أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، وإن الجنة في السماء والنار في الأرض[٦٤١].
- وروى أبو الشيخ في كتابه العظمة: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى[٦٤٢].
- وقال ابن رجب في التخويف من النار: الباب الخامس في ذكر مكان جهنم: روى عطية عن ابن عباس قال: الجنة في السماء السابعة ويجعلها الله حيث يشاء يوم القيامة وجهنم في الأرض السابعة. أخرجه أبو نعيم.[٦٤٣]

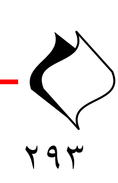
---

٦٤٠ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤٢).

٦٤١ رواه الحاكم (٤/ ٦١٢)، والحارث (٩٣٠ -بغية) والبيهقي في الشعب (٣٦٦)

٦٤٢ أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٠٠).

٦٤٣ التخويف من النار ص ٦٢.

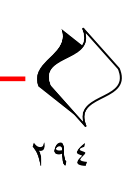


- وخرج ابن منده من حديث أبي يحيى القتات عن مجاهد قال: قلت لابن عباس: أين الجنة؟ قال: فوق سبع سموات. قلت: فأين النار؟ قال: تحت سبع أبحر مطبقة[٦٤٤].
- وروى البيهقي بإسناد فيه ضعف عن أبي الذعراء عن ابن مسعود قال: الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض السابعة السفلى، ثم قرأ: إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ {المطففين: ١٨} إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ {المطففين: ٧}. وخرجه ابن مندة، وعنده: فإذا كان يوم القيامة جعلها الله حيث شاء،
- وقال محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن سلام قال: إن الجنة في السماء وإن النار في الأرض. خرجه ابن خزيمة وابن أبي الدنيا، وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن قتادة قال: كانوا يقولون إن الجنة في السموات السبع، وإن جهنم لفي الأرضين السبع.
- وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ {الذاريات: ٢٢}. قال: الجنة في السماء،
- وقد استدل بعضهم لهذا بأن الله تعالى أخبر أن الكفار يعرضون على النار غدواً وعشياً يعني في مدة البرزخ وأخبر أنه لا تفتح لهم أبواب السماء، فدل على أن النار في الأرض، وقال تعالى: إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ {المطففين: ٧}. اهـ
- قال ابن الجوزي في المنتظم: ومما يدل على أن النار في الأرض حديث أبي هريرة قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمعنا وجبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله أعلم. قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها." انفرد بإخراجه مسلم.

فإن قيل كيف تكون جهنم في الأرض، وقد رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجوابه من وجهين:

---

٦٤٤ عزاه في الفيض (٣/ ٣٦٠) لابن عباس، وعزاه لابن منده ابن رجب في التخويف من النار (ص٧٢).



أحدهما: أنه رآها في الأرض في طريقه إلى بيت المقدس، وقد روينا عن ابن الصامت أنه رؤي على سور بيت المقدس الشرقي يبكي، فقيل له في ذلك، فقال ههنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنه رأى جهنم.

والثاني: أنه لا يمتنع في القدرة أن يرى جهنم في الأرض وهو في السماء، وقد بدى له المقدس وهو بمكة فوصفه للقوم..

وقول المصنف: **"وهما مخلوقتان، قد علم الله عدد أهل الجنة ومن يدخلها، وعدد أهل النار ومن يدخلها، لا تفنيان أبدا، هما مع بقاء الله تبارك وتعالى أبد الآبدين، في دهر الداهرين، وآدم كان في الجنة الباقية المخلوقة، فأخرج منها بعدما عصى الله".**

وفي هذا النص عدة مسائل:

المسألة الأولى: قول المصنف: **"وهما مخلوقتان"**

وهذه المسألة تقدم ذكرها.

المسألة الثانية: قول المصنف: **"قد علم الله عدد أهل الجنة ومن يدخلها، وعدد أهل النار ومن يدخلها"**

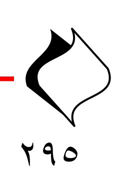
يذكر غير واحد من العلماء هذه المسألة بعينها في كتب الاعتقاد ومن هؤلاء الإمام الطحاوي حيث يقول: "وقد علم الله تَعَالَى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه"[٦٤٥] .

قَالَ ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية رحمه الله تعالى:

"قال الله تَعَالَى:((إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ))[الأنفال:٧٥]((وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً))[الأحزاب: ٤٠] فالله تَعَالَى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلا وأبداً، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة((وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً))[مريم:٦٤] وعن عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِب

---

٦٤٥ شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٣١٧



رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: {كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثُمَّ قَالَ: ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنَّار وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة، قَالَ: فَقَالَ رجل: يا رَسُول الله أفلا نمكث عَلَى كتابنا وندع العمل؟ فقَالَ: من كَانَ من أهل السعادة فسيصير إِلَى عمل أهل السعادة، ومن كَانَ من أهل الشقاوة فسيصير إِلَى عمل أهل الشقاوة، ثُمَّ قَالَ: اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثُمَّ قرأ: ((فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى))[الليل:٥-١٠]} خرجاه في الصحيحين"[٦٤٦]

وقد أنكر الفلاسفة علم الله بالجزئيات قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"وَقَدْ يَقُولُونَ: إنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْكُلِّيَّاتِ دُونَ الْجُزْئِيَّاتِ؛ فَإِنَّهُ إنَّمَا يَعْلَمُهَا عَلَى وَجْهٍ كُلِّيٍّ وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إنَّهُ يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ.

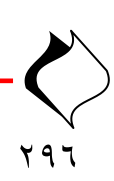
وَقَوْلُهُمْ يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَمَفْعُولَاتِهِ حَقٌّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} لَكِنْ قَوْلُهُمْ مَعَ ذَلِكَ: إنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْأَعْيَانَ الْمُعَيَّنَةَ جَهْلٌ وَتَنَاقُضٌ فَإِنَّ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ مُعَيَّنَةٌ وَالْأَفْلَاكُ مُعَيَّنَةٌ وَكُلُّ مَوْجُودٍ مُعَيَّنٌ.

فَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ الْمُعَيَّنَاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ إذْ الْكُلِّيَّاتُ إنَّمَا تَكُونُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إلَّا الْكُلِّيَّاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ. تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا."[٦٤٧]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئًا بمشيئته ولا يجيب دعاء الداعي بل ولا يعلم الجزئيات ولا يعرف هذا الداعي من

٦٤٦ شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٣١٧.

٦٤٧ مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٩٥.



هذا الداعي ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله بل منهم من ينكر علمه مطلقا كأرسطو وأتباعه ومنهم من يقول إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله"[٦٤٨].

المسألة الثالثة: قول المصنف: "**لا تفنيان أبدا، هما مع بقاء الله تبارك وتعالى أبد الآبدين، في دهر الداهرين**".

قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية: "وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ النَّارِ وَدَوَامُهَا، فَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدَ الْآبَادِ، وَهَذَا قَوْلُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا، ثُمَّ تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهُمْ وَتَبْقَى طَبِيعَةً نَارِيَّةً يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِمُوَافَقَتِهَا لِطَبْعِهِمْ! وَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الِاتِّحَادِيَّةِ ابْنِ عَرَبِيٍّ الطَّائِيِّ! !

الثَّالِثُ: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا إِلَى وَقْتٍ مَحْدُودٍ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَيَخْلُفُهُمْ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَكَاهُ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكْذَبَهُمْ فِيهِ، وَقَدْ أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: " {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ-بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨٠-٨١].

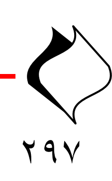
الرَّابِعُ: يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَتَبْقَى عَلَى حَالِهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ.

الْخَامِسُ: أَنَّهَا تَفْنَى بِنَفْسِهَا، لِأَنَّهَا حَادِثَةٌ وَمَا ثَبَتَ حُدُوثُهُ اسْتَحَالَ بَقَاؤُهُ! ! وَهَذَا قَوْلُ الْجَهْمِ وَشِيعَتِهِ، وَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّادِسُ: تَفْنَى حَرَكَاتُ أَهْلِهَا وَيَصِيرُونَ جَمَادًا، لَا يُحِسُّونَ بِأَلَمٍ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ.

---

٦٤٨ الجواب الصحيح ١/١١٤.



السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ يُبْقِيهَا شَيْئًا، ثُمَّ يُفْنِيهَا، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ شَاءَ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، وَيَبْقَى فِيهَا الْكُفَّارُ، بَقَاءً لَا انْقِضَاءَ لَهُ"[٦٤٩].

وهذا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك:

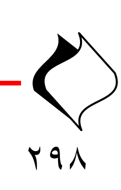
- قوله تعالى عن أهل النار: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً *إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً) [النساء: ١٦٨-١٦٩]
- وقوله: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً* خالدين فيها أبداً) [الأحزاب:٦٣-٦٥].
- وقوله: (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا) [الجن: ٢٣]
- وقوله: (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون* لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) [الزخرف: ٧٤-٧٥]

قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية: "وَقَوْلُهُ: "لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ "-هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَالَ بِبَقَاءِ الْجَنَّةِ وَبِفَنَاءِ النَّارِ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَالْقَوْلَانِ مَذْكُورَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ إِمَامُ الْمُعَطِّلَةِ، وَلَيْسَ لَهُ سَلَفٌ قَطُّ، لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ. وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَفَّرُوهُ بِهِ، وَصَاحُوا بِهِ وَبِأَتْبَاعِهِ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَهَذَا قَالَهُ لِأَصْلِهِ الْفَاسِدِ الَّذِي اعْتَقَدَهُ، وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الْحَوَادِثِ! وَهُوَ عُمْدَةُ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ، وَحُدُوثِ مَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الْحَوَادِثِ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ عُمْدَتَهُمْ فِي حُدُوثِ الْعَالَمِ. فَرَأَى الْجَهْمُ

---

٦٤٩ شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٦٢٤ .. ٦٢٥.



أَنَّ مَا يَمْنَعُ مِنْ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا فِي الْمَاضِي، يَمْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ! فَدَوَامُ الْفِعْلِ عِنْدَهُ عَلَى الرَّبِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مُمْتَنِعٌ، كَمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عِنْدَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي! وَأَبُو الْهُذَيْلِ الْعَلَّافُ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ، وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، لَكِنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي فَنَاءَ الْحَرَكَاتِ، فَقَالَ بِفَنَاءِ حَرَكَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى يَصِيرُوا فِي سُكُونٍ دَائِمٍ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى حَرَكَةٍ!! وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي تَسَلْسُلِ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ دَوَامِ فَاعِلِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ رَبًّا قَادِرًا فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا. وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ لِذَاتِهِ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ فَيَصِيرُ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ، مِنْ غَيْرِ تَجَدُّدِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِلْأَوَّلِ حَدٌّ مَحْدُودٌ حَتَّى يَصِيرَ الْفِعْلُ مُمْكِنًا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ، وَيَكُونُ قَبْلَهُ مُمْتَنِعًا عَلَيْهِ. فَهَذَا الْقَوْلُ تَصَوُّرُهُ كَافٍ فِي الْجَزْمِ بِفَسَادِهِ. فَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ، فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هُودٍ: ١٠٨] أَيْ غَيْرَ مَقْطُوعٍ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٨]". [٦٥٠]

المسألة الرابعة: قول المصنف: **"وآدم كان في الجنة الباقية المخلوقة، فأخرج منها بعدما عصى الله"**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة هي: جنة الخلد، ومن قال: إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة.

- والكتاب والسنة يرد هذا القول، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول،

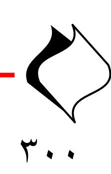
٦٥٠ شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٦٢٠ ـ ٦٢٢.

- قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) إلى قوله: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [البقرة:٣٤، ٣٦]. فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط، وأن بعضهم عدو لبعض، ثم قال: (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وهذا يبين أنهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أهبطوا إلى الأرض، فإنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرض أخرى كانتقال قوم موسى من أرض إلى أرض، لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده.
- وكذلك قال في الأعراف لما قال إبليس: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) [الأعراف:١٣]. فقوله: (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) يبين اختصاص السماء بالجنة بهذا الحكم، فإن الضمير في قوله: (مِنْهَا) عائد إلى معلوم غير مذكور في اللفظ، وهذا بخلاف قوله: (اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) [البقرة:٦١]. فإنه لم يذكر هناك ما أهبطوا فيه، وقال هنا: (اهْبِطُوا) لأن الهبوط يكون من علو إلى سفل، وعند أرض السراة حيث كان بنو إسرائيل حيال السراة المشرفة على المصر الذي يهبطون إليه، ومن هبط من جبل إلى واد قيل له: هبط.

وأيضاً، فإن بني إسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون، والذي يسير ويرحل إذا جاء بلدة يقال: نزل فيها، لأن في عادته أنه يركب في سيره، فإذا وصل نزل عن دوابه، يقال: نزل العسكر بأرض كذا، ونزل القفل بأرض كذا، لنزولهم عن الدواب.

ولفظ النزول كلفظ الهبوط، فلا يستعمل هبط إلا إذا كان من علو إلى سفل، وقوله: (قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا) [الأعراف:٢٣-٢٤].

فقوله هنا بعد قوله: (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) يبين أنهم هبطوا إلى الأرض من غيرها، وقال: (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ



وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) [الأعراف:٢٥]. دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك بمكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون، وإنما صاروا إليه لما أهبطوا من الجنة، والنصوص في ذلك كثيرة، وكذلك كلام السلف والأئمة"[٦٥١] .

وقال ابن القيم رحمه الله: "أما ما ذكرتموه من كون الجنة التي أهبط منها آدم ليست جنة الخلد، وإنما هي جنة غيرها، فهذا مما قد اختلف فيه الناس، والأشهر عند الخاصة والعامة الذي لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التي أعدت للمتقين، وقد نص غير واحد من السلف على ذلك".[٦٥٢]

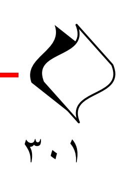
(المتن)

قال المصنف رحمه الله تعالى:

---

٦٥١ مجموع الفتاوى ٤/ ٣٤٦

٦٥٢ مفتاح دار السعادة ١/ ١٤ وقد ذكر المسألة العلامة ابن القيم في كتابيه (حادي الأرواح، ومفتاح دار السعادة) وأطال فيها.



[٢٢] "والإيمان بالمسيح الدجال."

الشرح

معنى المسيح[٦٥٣]:

ذكر العلماء ما يزيد عن خمسين قولاً في معنى" المسيح "[٦٥٤]. وقالوا إن هذا اللفظ يطلق على الصدّيق وعلى الضلّيل الكذاب، فالمسيح عيسى ابن مريم الصدّيق، مسيح الهدى، يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى بإذن الله.

والمسيح الدجال هو الضلّيل الكذاب، مسيح الضلالة يفتن الناس بما يعطاه من الآيات كإنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات وغيرهما من الخوارق.

فخلق الله المسيحين أحدهما ضد الآخر.

وقال العلماء في سبب تسمية الدجال بالمسيح: أن إحدى عينيه ممسوحة، وقيل: لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً.

والقول الأول هو الراجح، لما جاء في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ.."[٦٥٥].

معنى الدجال[٦٥٦]:

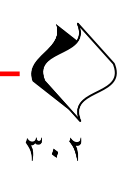
---

٦٥٣ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٥

٦٥٤ ذكر أبو عبد الله القرطبي ثلاثة وعشرين قولاً في اشتقاق هذا اللفظ انظر: التذكرة (ص ٦٧٩)، وأوصلها صاحب القاموس، إلى خمسين قولاً انظر: «ترتيب القاموس» (٤/ ٢٣٩)، وذكر صاحب القاموس، أنه أورد هذه الأقوال في كتابه «شرح مشارق الأنوار، وغيره.

٦٥٥ رواه مسلم برقم ٥٢٢١.

٦٥٦ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٥-٢٧٧.



الدَّجل: هو الخلط والتلبيس، يقال دَجَلَ إذا لبّس ومَوَّهَ، والدجال: المِمَوِّه الكذاب، الذي يُكثِر من الكذب والتلبيس.

ولفظة" الدجال" أصبحت عَلَمَاً على المسيح الأعور الكذاب، وسمي الدجال دجالاً: لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم[٦٥٧].

صفة الدجال والأحاديث الواردة في ذلك[٦٥٨]:

الدجال رجل من بني آدم، له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره، حتى إذا خرج عرفه المؤمنون فلا يفتنون به، بل يكونون على علم بصفاته التي أخبر بها الصادق صلى الله عليه وسلم وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس، فلا يغتر به إلا الجاهل الذي سبقت عليه الشقوة. نسأل الله العافية.

ومن هذه الصفات:[٦٥٩]

أنه رجل شاب أحمر، قصير، أفحج جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة–منتفخة وبارزة–ولا جحراء–غائرة– كأنها عنبة طافئة.

وعينه اليسرى عليها ظفرة–لحمة تنبت عند المآقي–غليظة. ومكتوب بين عينيه" ك ف ر" بالحروف المقطعة، أو" كافر" بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم، كاتب وغير كاتب.

ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له.

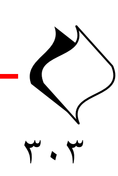
وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التي جاء فيها ذكر صفاته السابقة وهي من الأدلة على ظهور الدجال:

---

٦٥٧ لسان العرب، (١١/ ٢٣٦ –٢٣٧)، و «ترتيب القاموس، (٢ / ١٥٢).

٦٥٨ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٧ -٢٨٣.

٦٥٩ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل ص ٢٧٧.



١-عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبْطُ الشَّعَرِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا ابْنُ مَرْيَمَ. فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ جَعْدُ الرَّأْسِ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا الدَّجَّالُ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ"[٦٦٠] وَابْنُ قَطَنٍ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةَ.

٢-وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال:" إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ."[٦٦١].

٣-وفي الحديث الطويل الذي رواه النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:" ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ." فقال في وصف الدجال: "إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ-شديد جعودة الشعر- عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ"[٦٦٢]

٤-وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنْ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لا تَعْقِلُوا، إِنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَفْحَجُ جَعْدٌ أَعْوَرُ مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلا حَجْرَاءَ فَإِنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ"[٦٦٣]

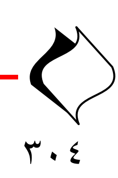
---

٦٦٠ (صحيح البخاري)، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (١٣/ ٩٠- مع الفتح)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام والمسيح الدجال، (٢/ ٢٣٧-مع شرح النووي).

٦٦١ (صحيح البخاري)، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (١٣/ ٩٠-مع شرح الفتح)، و(صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٥٩-مع شرح النووي).

٦٦٢ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٥ - مع شرح النووي).

٦٦٣ (سنن أبي داود) (١١/ ٤٤٣ -عون المعبود) والحديث صحيح، انظر: (صحيح ا لجامع الصغير) (٢/ ٣١٧-٣١٨) (ح٢٤٥٥).



٥–وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَأَمَّا مَسِيحُ الضَّلالَةِ فَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ أَجْلَى الْجَبْهَةِ عَرِيضُ النَّحْرِ فِيهِ دَفَأٌ–إنحناء–". [٦٦٤]

٦–وفي حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ–كَثِيرُهُ–مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ"[٦٦٥]

٧–وفي حديث أنس رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إلا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلا إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ"[٦٦٦]، وفي رواية:" وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر"[٦٦٧]، وفي رواية عن حذيفة:" يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ"[٦٦٨]

وهذه الكتابة حقيقية على ظاهرها، ولا يشكل رؤية بعض الناس لهذه الكتابة دون بعض، وقراءة الأمي لها " وذلك أن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بعين بصره، وإن كان لا يعرف الكتابة، ولا يراه الكافر ولو كان يعرف الكتابة، كما يرى المؤمن الأدلة بعين بصيرته ولا يراه الكافر فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلّم، لأن ذلك الزمن تنخرق فيه العادات"[٦٦٩]

---

٦٦٤ (مسند الإمام أحمد) (١٥/ ٢٨ – ٣٠) تحقيق وشرح أحمد شاكر، وقال: (إسناده صحيح)، وحسنه ابن كثير، انظر النهاية / الفتن والملاحم) (١/ ١٣٠)، تحقيق د. طه زيني.

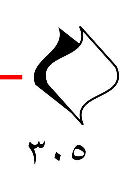
٦٦٥ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٠ – ٦١ مع شرح النووي).

٦٦٦ (صحيح البخاري)، كتاب الفتن باب ذكر الدجال، (١٣/ ٩١ – مع الفتح) و(صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٥٩ – مع شرح النووي).

٦٦٧ (صحيح مسلم) كتاب الفتن باب ذكر الدجال، (١٨/ ٥٩ – مع شرح النووي).

٦٦٨ صحيح مسلم، (١٨/ ٦١–مع شرح النووي).

٦٦٩ فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٣/ ١٠٠).



ومختصر الجواب عن الإشكال أنّ الله على كلّ شيء قدير فهو قادر على أن يري هذه الكتابة بعض الناس دون بعض وقادر على أن يجعل الأمّي يقرؤها.

قال النووي: "الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله يظهرها الله لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك"[٦٧٠]

٨–ومن صفاته أيضاً ما جاء في حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها في قصة الجسّاسة، وفيه قال تميم الداري رضي الله عنه:" فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا"[٦٧١]

٩–وفتنته عظيمة جدا لدرجة أنه ليس بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أكبر من فتنة المسيح الدجال كما جاء وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنْ الدَّجَّالِ"[٦٧٢]. وفي رواية أحمد عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ"[٦٧٣].

١٠–وأمّا أن الدجال لا يُولَدُ له فلما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصته مع ابن صياد، فقد قال لأبي سعيد: "أَلَسْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّهُ لا يُولَدُ لَهُ؟ قَالَ قُلْتُ: بَلَى."[٦٧٤].

---

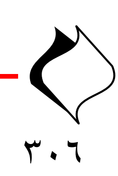
٦٧٠ شرح النووي لصحيح مسلم (١٨/ ٦٠).

٦٧١ (صحيح مسلم)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، (١٨/ ٨١ –مع شرح النووي).

٦٧٢ (صحيح مسلم) كتاب الفتن، باب في بقية من أحاديث الدجال، (١٨/ ٨٦ – ٨٧ مع شرح النووي).

٦٧٣ مسند الإمام أحمد ١٥٨٣١.

٦٧٤ (صحيح مسلم)، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، (١٨/ ٥٠ – شرح النووي).



والملاحظ في الروايات السابقة أن في بعضها وصف عينه اليمنى بالعور وفي بعضها وصف عينه اليسرى بالعور، وكل الروايات صحيحة، وقد جمع بعض أهل العلم بين هذه الروايات، فقال القاضي عياض: "أن عيني الدجال كلتيهما معيبة، لأن الروايات كلها صحيحة، وتكون العين اليمنى هي العين المطموسة والممسوحة، العوراء الطافئة–بالهمز–التي ذهب نورها كما في حديث ابن عمر. وتكون العين اليسرى: التي عليها ظفرة غليظة وطافية–بلا همز–معيبة أيضاً ". فهو أعور العين اليمنى واليسرى معاً، فكل واحدة منها عوراء أي معيبة، فإن الأعور من كل شيء المعيب، لا سيما ما يختص بالعين، فكلتا عيني الدجال معيبة عوراء، إحداهما بذهابهما والأخرى بعيبها.

ووافق القاضي عياض على هذا الجمع النووي، ورجحه القرطبي.

مكان خروج الدجال[٦٧٥]:

يخرج الدجال من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلداً إلا دخله، إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما لأن الملائكة تحرسهما.

- ففي حديث فاطمة بنت قيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الدجال:" أَلا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ لا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ"[٦٧٦] .
- وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" الدَّجَّالُ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالْمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا خُرَاسَانُ"[٦٧٧] .

---

٦٧٥ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٢٩٦-٢٩٧.

٦٧٦ (صحيح مسلم) (١٨/ ٨٣-مع شرح النووي).

٦٧٧ (جامع الترمذي) باب ما جاء من أين يخرج الدجال؟ (٦/ ٤٩٥ – مع تحفة الأحوذي). قال الألباني (صحيح)، (صحيح الجامع الصغير) (٣/ ١٥٠) (ح٣٣٩٨).

- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مِنْ يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ التِّيجَانُ"[٦٧٨] .

الأماكن التي لا يدخلها الدجال[٦٧٩]:

حرم على الدجال دخول مكة والمدينة حين يخرج في آخر الزمان، لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، وأما ما سوى ذلك من البلدان فإن الدجال سيدخلها واحداً بعد الآخر.

- جاء في حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن الدجّال قال: "وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلا أَدَعَ قَرْيَةً إِلا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلائِكَةً يَحْرُسُونَهَا"[٦٨٠] .

وثبت أيضاً أن الدجال لا يدخل مسجد الطور، والمسجد الأقصى.

- لما روي من حديث جنادة بن أبي أمية الأزدي قال: أتيت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: حَدِّثْنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّجَّالِ، فذكر الحديث وقال:" وَإِنَّهُ يَلْبَثُ فِيكُمْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا يَرِدُ فِيهَا كُلَّ مَنْهَلٍ إِلا أَرْبَعَ مَسَاجِدَ مَسْجِدَ الْحَرَامِ وَمَسْجِدَ الْمَدِينَةِ وَالطُّورِ وَمَسْجِدَ الأَقْصَى "[٦٨١] .

أتْباع الدجال[٦٨٢]:

---

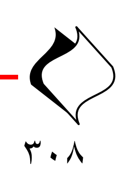
٦٧٨ (الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد) (٢٤/ ٧٣)، قال ابن حجر: (صحيح): (فتح الباري) (١٣/ ٣٢٨).

٦٧٩ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٠٩.

٦٨٠ (صحيح مسلم)، كتاب الفتن، وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، (١٨/ ٨٣ – مع شرح النووي).

٦٨١ (الفتح الرباني) (٢٤/ ٧٦) ترتيب الساعاتي)، قال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، (مجمع الزوائد) (٧/ ٣٤٣)، وقال ابن حجر: (رجاله ثقات٩، (فتح الباري) (١٣/ ١٠٥).

٦٨٢ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣١١.



أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء.

- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمْ الطَّيَالِسَةُ"[٦٨٣] .

والطيالسة: كساء غليظ مخطط.

- وفي رواية للإمام أحمد: "سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ التِّيجَانُ"[٦٨٤].
- وجاء في حديث أبي بكر السابق:" يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ"[٦٨٥] .

وأما كون الأعراب يتبعون الدجال، فلأن الجهل غالب عليهم، أما النساء لسرعة تأثرهن وغلبة الجهل عليهن.

- جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ بِمَرِّ قَنَاةَ–وادٍ بالمدينة–فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ"[٦٨٦].

فتنة الدجال[٦٨٧]:

فتنة الدجال أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول وتحير الألباب.

---

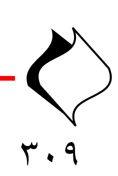
٦٨٣ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، (١٨/ ٨٥-٨٦ – مع شرح النووي).

٦٨٤ (الفتح الرباني ترتيب المسند) (٢٤/ ٧٣) والحديث صحيح، انظر: (فتح الباري) (١٣/ ٢٣٨).

٦٨٥ رواه الترمذي برقم ٢١٣٦.

٦٨٦ (مسند أحمد) (٧/ ١٩٠) (ح٥٣٥٣) تحقيق أحمد شاكر، وقال: (إسناده صحيح).

٦٨٧ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص ٣١٣.



فقد ورد أن معه جنة وناراً، جنته ناره وناره جنته، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح، إلى غير ذلك من الخوارق. وكل ذلك جاءت به الأحاديث الصحيحة.

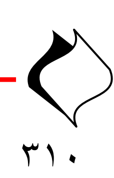
- فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ –كَثِيرُهُ–مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ"[٦٨٨] .
- وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لأنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ: مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ وَالآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ"[٦٨٩] .
- وجاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال: أن الصحابة قالوا:" يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؛ يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ" ". قالوا: وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ–الماشية–أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا–الأعالي والأسنمة–وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ–كناية عن الامتلاء وكثرة الأكل–. ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ. ثُمَّ يَدْعُو رَجُلا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ"[٦٩٠].

---

٦٨٨ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٠–٦١– مع شرح النووي).

٦٨٩ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٠–٦١– مع شرح النووي)..

٦٩٠ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٥–٦٦– مع شرح النووي.



- وجاء في رواية البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خيار الناس أو خير الناس، يخرج إلى الدجال من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للدجال:" أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَهُ. فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ لا. فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ"[٦٩١].
- وفي حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال:" وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لأَعْرَابِيٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولانِ يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ"[٦٩٢].

الوقاية من فتنة الدجال[٦٩٣]:

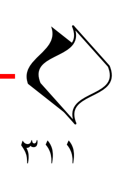
أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ما يعصمها من فتنة المسيح الدجال، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. فلم يدع خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه، ومن جملة ما حذّر منه: فتنة المسيح الدجال لأنها أعظم فتنة تواجهها الأمة إلى قيام الساعة، وكان كل نبي ينذر أمته الأعور الدجال، واختص محمد صلى الله عليه وسلم بزيادة التحذير والإنذار، وقد بين الله له كثيراً من صفات الدجال ليُحذِّرَ أمته فإنه خارج في هذه الأمة لا محالة، لأنها آخر الأمم ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين. وهذه بعض الإرشادات النبوية التي أرشد إليها المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته لتنجو من هذه الفتنة العظيمة:

---

٦٩١ (صحيح البخاري)، كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، (١٣/ ١٠١ – مع الفتح).

٦٩٢ رواه ابن ماجه برقم ٤٠٦٧. وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير / حديث رقم ٧٧٥٢).

٦٩٣ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٢٥.



التمسك بالإسلام، والتسلح بسلاح الإيمان ومعرفة أسماء الله وصفاته الحسنى التي لا يشاركه فيها أحد، فيعلم أن الدجال بشر يأكل ويشرب، وأن الله تعالى منزه عن ذلك، وأن الدجال أعور والله ليس بأعور، وأنه لا أحد يرى ربه حتى يموت والدجال يراه الناس عند خروجه مؤمنهم وكافرهم.

التعوذ من فتنة الدجال، وخاصة في الصلاة، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، منها:

- ما روي عن أم المؤمنين عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ"[٦٩٤].
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ"[٦٩٥].

حفظ آيات من سورة الكهف، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال، وفي بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها. ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

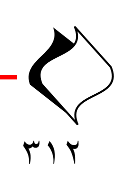
- حديث النواس بن سمعان الطويل، وفيه قوله:" فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ"[٦٩٦] .

---

٦٩٤ (صحيح البخاري) كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، (٢/ ٣١٧ – مع الفتح) و(صحيح مسلم) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم، (٥/ ٨٧ – مع شرح النووي).

٦٩٥ (صحيح البخاري)، كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر، (١١/ ١٧٤ – مع الفتح).

٦٩٦ (صحيح مسلم) كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٥ – مع شرح النووي).



- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ" أي: من فتنته، قال مسلم: قال شعبة:" مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ وقَالَ هَمَّامٌ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ"[٦٩٧].

قال النووي: "سَبَب ذَلِكَ مَا فِي أَوَّلهَا مِنْ الْعَجَائِب وَالآيَات، فَمَنْ تَدَبَّرَهَا لَمْ يُفْتَتَن بِالدَّجَّالِ، وَكَذَا فِي آخِرهَا قَوْله تَعَالَى: (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا.)"[٦٩٨] .

وهذا من خصوصيات سورة الكهف فقد جاءت الأحاديث بالحث على قراءتها وخاصة في يوم الجمعة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إِنَّ مَنْ قَرَأَ سُوْرَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّوْرِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ"[٦٩٩] .

ولا شك أن سورة الكهف لها شأن عظيم، ففيها من الآيات الباهرات كقصة أصحاب الكهف وقصة موسى مع الخضر وقصة ذي القرنين وبناءه للسد العظيم حائلاً دون يأجوج ومأجوج، وإثبات البعث والنشور والنفخ في الصور، وبيان الأخسرين أعمالاً وهم الذين يحسبون أنهم على الهدى وهم على الضلالة والعمى.

فينبغي لكل مسلم أن يحرص على قراءة هذه السورة وحفظها وترديدها وخاصة في خير يوم طلعت عليه الشمس، وهو يوم الجمعة.

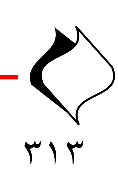
الفرار من الدجال والابتعاد منه[٧٠٠].

٦٩٧ (صحيح مسلم) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي (٦/ ٩٢ – ٩٣ – مع شرح النووي).

٦٩٨ (شرح النووي لمسلم) (٦/ ٩٣).

٦٩٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٦٨) وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير / حديث رقم ٦٣٤٦).

٧٠٠ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٢٩.



والأفضل سكنى مكة والمدينة، والأماكن التي لا يدخلها الدجال، فينبغي للمسلم إذا خرج الدجال أن يبتعد منه وذلك لما معه من الشبهات والخوارق العظيمة التي يجريها الله على يديه فتنة للناس، فإنه يأتيه الرجل وهو يظن في نفسه الإيمان والثبات فيتبع الدجال، نسأل الله أن يعيذنا من فتنته وجميع المسلمين.

- فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ-يبتعد-مِنْهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ يَتَّبِعُهُ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ بِمَا يُبْعَثُ بِهِ مِنْ الشُّبُهَاتِ "[٧٠١].

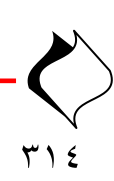
هلاك الدجال[٧٠٢]:

يكون هلاك الدجال على يدي المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك الدجال يظهر على الأرض ويكثر أتباعه وتعم فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين. وعند ذلك ينزل عيسى بن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عباد الله المؤمنين، فيسير بهم قاصداً المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى عليه السلام متوجهاً نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب" لُد"-بلدة في فلسطين قرب بيت المقدس-، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، فيقول له عيسى عليه السلام:" إن لي فيك ربة لن تفوتني" فيتداركه عيسى فيقتله بحربته، وينهزم اتباعه فيتبعهم المؤمنون فيقتلونهم حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود.

وإليك بعض الأحاديث الواردة في هلاك الدجال وأتباعه:

---

٧٠١ (الفتح الرباني) (٢٤/ ٧٤) و(سنن أبي داود) (١١/ ٢٤٢) مع عونا المعبود، و(مستدرك الحاكم) (٤/ ٥٣١).
٧٠٢ المصدر: أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص٣٣٣.



- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ." فذكر الحديث، وفيه:" فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ "[٧٠٣].
- وعن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يَقْتُلُ ابْنُ مَرْيَمَ الدَّجَّالَ بِبَابِ لُدٍّ "[٧٠٤].
- وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن الدجال، وفيه قصة نزول عيسى وقتله للدجال، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "فَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ"[٧٠٥].
- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنْ الدِّينِ وَإِدْبَارٍ مِنْ الْعِلْمِ" فذكر الحديث وفيه:" ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيُنَادِي مِنْ السَّحَرِ فَيَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْكَذَّابِ الْخَبِيثِ فَيَقُولُونَ هَذَا رَجُلٌ جِنِّيٌّ فَيَنْطَلِقُونَ فَإِذَا هُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتُقَامُ الصَّلاةُ فَيُقَالُ لَهُ تَقَدَّمْ يَا رُوحَ اللَّهِ فَيَقُولُ لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ فَإِذَا صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ خَرَجُوا إِلَيْهِ قَالَ فَحِينَ يَرَى الْكَذَّابُ يَنْمَاثُ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ فَيَمْشِي إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ وَالْحَجَرَ يُنَادِي يَا رُوحَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ فَلا يَتْرُكُ مِمَّنْ كَانَ يَتْبَعُهُ أَحَدًا إِلا قَتَلَهُ"[٧٠٦] .

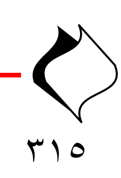
---

٧٠٣ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٧٥-٧٦- مع شرح النووي).

٧٠٤ (الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد) (٢٤/ ٨٣) والترمذي (٦/ ٥١٣-٥١٤-مع تحفة الأحوذي).

٧٠٥ (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٧-٦٨مع شرح النووي).

٧٠٦ (الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد)، (٢٤/ ٨٥-٨٦) قال الهيثمي: (رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح)، انظر: (مجمع الزوائد) (٧/ ٣٤٤).



وبقتله–لعنه الله–تنتهي فتنته العظيمة، وينجي الله الذين آمنوا من شره وشر أتباعه على يدي روح الله وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ولله الحمد والمنة.

الرد على من أنكر حقيقة المسيح الدجال

قال الشيخ حمود التويجري: "وأما خروج الدجال فقد جاء فيه أكثر من مائة وتسعين حديثا من الصحاح والحسان، وقد تواترت الأحاديث في خروج الدجال من وجوه متعددة، ولو لم يكن منها سوى الأمر بالاستعاذة من فتنة الدجال في كل صلاة لكان ذلك كافيا في إثبات خروجه، والرد على من أنكر ذلك.

وقد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة خروج الدجال بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه، ذكر ذلك ابن كثير في النهاية قال: وخرجوا بذلك عن حيز العلماء لردهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة عن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، وذكر النووي في شرح مسلم: "أن مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار إثبات خروج الدجال خلافا لمن أنكره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة"[٧٠٧].

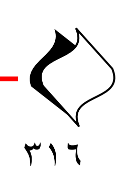
وقد تبع الخوارج والجهمية والمعتزلة على إنكار خروج الدجال كثير من المنتسبين إلى العلم في زماننا وقبله بزمان، وأنكر بعضهم كثيرا من أشراط الساعة مما هو ثابت عن النبي–صلى الله عليه وسلم–، وبعضهم يتأولها على ما يوافق عقليته الفاسدة، ولو كان الذين أشرنا إليهم أهل علم على الحقيقة لما ردوا شيئاً من الأحاديث الثابتة عن النبي–صلى الله عليه وسلم–، ولكانوا يقابلونها بالرضا والقبول والتسليم."[٧٠٨]

قال الدكتور يوسف الوابل: "ما تقدم من الأحاديث يدل على تواتر خروج الدجال في آخر الزمان، وأنه شخص حقيقة، يعطيه الله ما شاء من الخوارق العظيمة.

---

٧٠٧ انظر شرح النووي لمسلم ١٨/ ٥٨ . ٥٩، وفتح الباري ١٣/ ١٠٥.

٧٠٨ إقامة البرهان ص ٦–٧



وقد ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح [٧٠٩]، وتبعه الشيخ أبو عبية، فذهب إلى أن الدجال رمز لاستشراء الباطل، وليس رجلا من بني آدم، وهذا التأويل صرف للأحاديث عن ظاهرها بدون قرينة !!

وإليك ما قاله الشيخ أبو عبية في تعليقه على أحاديث الدجال؛ قال: "اختلاف ما روي من الأحاديث في مكان ظهور الأجال، وزمان ظهوره، وهل هو ابن صياد أم غيره؟ يشير إلى أن المقصود بالدجال الرمز إلى الشر، واستعلائه، وصولته جبروته، واستشراء خطرة، واستفحال ضرره في بعض الأزمنة، وتطاير أذاه في كثير من الأمكنة، بما يتيسر له من وسائل التمكن والانتشار والفتنة بعض الوقت، إلى أن تنطفئ جذوته، وتموت جمرته سلطان الحق، وكلمة الله: (إن الباطل كان زهوقا) [الإسراء: ٨١]"[٧١٠].

ويقول أيضا: أليس الأولى أن يفهم من الدجال أنه رمز الشر والبهتان والإفك.. إلخ[٧١١]

ويرد على هذه الأقوال بأن الأحاديث صريحة في أن الدجال رجل بعينه، وليس هناك ما يدل على أنه رمز للخرافات والدجل والباطل، وليس في الروايات اختلاف ولا تعارض، وقد سبق الجمع بينها، وأن أول ما يخرج الدجال من أصبهان من جهة خراسان. وكلها في جهة المشرق، وما قيل عن ابن صياد هل هو الدجال أم غيره؟ وذكر العلماء الأقوال في ذلك.

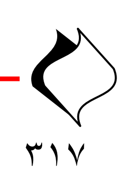
وإذا تبين هذا، وأن الروايات ليس فيها اضطراب ولا من حيث مكان خروجه، ولا من حيث زمان ظهوره؛ لم يكن هناك ما يدعو إلى ما ذهبا إليه، لا سيما مع ما جاء من صفاته التي نبهت عليها الأحاديث، والتي تدل دون ارتكاب تجوز لا داعي له على أنه شخص حقيقة.

---

٧٠٩ انظر: تفسير المنار» (٣١٧٣).

٧١٠ «النهاية المس والملاحم (١/ ١١٨ -١١٩)، تحقيق الشيخ محمد فهيم أبو عبية.

٧١١ النهاية الفتن والملاحم (١/ ١٥٢).



وأيضا؛ فأبو عبية متناقض في تعليقاته على الأحاديث الواردة في الدجال في كتاب الفتن والملاحم، لابن كثير؛ فإنه يعلق على قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه مكتوب بين عينيه (كافر)؛ يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن». وقوله: «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت».

يقول أبو عبية: "وهذا يقرر كذب الدجال في دعواه الربوبية قبحه الله، وأتم عليه غضبه ولعنه"[٧١٢]

فهو هنا يرى أن الدجال إنسان حقيقة، يدعي الربوبية، ويدعو عليه بالغضب واللعنة، وفي موضع آخر ينفي أن يكون هناك دجال على الحقيقة، وإنما هو رمز للشر والفتنة!!

ولا شك أن هذا تناقض واضح منه.

وأرجو أن لا ينطبق على هؤلاء المنكرين لظهور الدجال قوله صلى الله عليه وسلم: "إنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم، وبالدجال، وبالشفاعة، وبعذاب القبر، وبقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا" [٧١٣][٧١٤]".

٧١٢ النهاية الفتن والملاحم (١/ ٨٩).

٧١٣ مسند أحمد (١/ ٢٢٣)، تحقيق أحمد شاكر، وقال إسناده صحيح.

٧١٤ أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص ٣١٥.. ٣١٧.

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[٢٣] "والإيمان بنزول عيسى ابن مريم، ينزل فيقتل الدجال ويتزوج، ويصلي خلف القائم من آل محمد صلى الله عليه وسلم، ويموت، ويدفنه المسلمون.

الشرح

*** صفة نزوله عليه السلام**[٧١٥]:

بعد خروج الدَّجَّال، وإفساده في الأرض، يبعث الله عيسى عليه السلام، فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام، وعليه مهرودتان[٧١٦]، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه.

ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدَّجَّال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير تلك الطائفة.

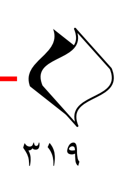
قال ابن كثير: "هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنه على المنار البيضاء الشرقية بدمشق، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، فلعل هذا هو المحفوظ... وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقية، وهذا هو الأنسب والأليق؛ لأنه ينزل وقد أقيمت

---

٧١٥ المصدر: المادة المتعلقة بنزول المسيح منقولة من كتاب أشراط الساعة ليوسف الوابل، ص ٣٣٧- ٣٦٤

٧١٦ (مهردوتان): روي بالدال المهملة والذال المعجمة، والمهملة أكثر، والمعنى: لابس مهرودتين؛ أي: ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران.

انظر: "شرح النووي لمسلم" (١٨/ ٦٧)، و"لسان العرب" (٣/ ٤٣٥)؛ و"النهاية في غريب الحديث" (٥/ ٢٥٨).



الصلاة، فيقول له إمام المسلمين: يا روح الله! تقدم. فيقول: تقدم أنت؛ فإنه أقيمت لك. وفي رواية: بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة[٧١٧].[٧١٨]

وذكر ابن كثير أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبع مئة جدَّد المسلمون منارة من حجارة بيض، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها، ولعل هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة، حيث قيض الله بناء هذه المنارة من أموال النصارى، لينزل عيسى بن مريم عليها، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل منهم جزية، ولكن من أسلم وإلا قتل، وكذلك غيرهم من الكفار[٧١٩].

ففي حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدَّجَّال ثم نزول عيسى عليه السلام قال صلى الله عليه وسلم: "إذا بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه – أي: يطلب الدَّجَّال – حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة"[٧٢٠].

*** أدلة نزوله عليه السلام:**

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ثابت في الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة، وذلك علامة من علامات السَّاعة الكبرى.

أ–أدلة نزوله من القرآن الكريم:

---

٧١٧ "صحيح مسلم"، كتاب الإيمان، باب بيان نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، (٢/ ١٩٣–١٩٤–مع شرح النووي).

٧١٨ "النهاية/ الفتن والملاحم" (١/ ١٤٤–١٤٥)، تحقيق د. طه زيني.

٧١٩ انظر: "النهاية/ الفتن والملاحم" (١/ ١٤٥).

٧٢٠ "صحيح مسلم"، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٧–٦٨–مع شرح النووي).

١-قال الله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧)} إلى قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} [الزخرف: ٥٧-٦١].

فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى عليه السلام، وجاء في آخرها قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} [الزخرف: ٦١]؛ أي: نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة علامة على قرب السَّاعة، ويدلُّ على ذلك القراءة الأخرى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ}؛ بفتح العين واللام؛ "أي: علامة وأمارة على قيام السَّاعة، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أئمة التفسير"[٧٢١].

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ}؛ قال: "هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة"[٧٢٢].

وقال الحافظ ابن كثير: "الصحيح أنه – أي: الضمير – عائد على عيسى؛ فإن السياق في ذكره"[٧٢٣].

واستبعد أن يكون معنى الآية: ما بعث به عيسى عليه السلام من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من ذوي الأسقام.

وأبعد من ذلك ما روي عن بعض العلماء أن الضمير في {وَإِنَّهُ} عائد على القرآن الكريم[٧٢٤].

٢-وقال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} إلى قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) } [النساء: ١٥٧-١٥٩].

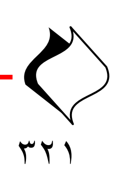
---

٧٢١ "تفسير القرطبي" (١٦/ ١٠٥)، وانظر: "تفسير الطبري" (٢٥/ ٩٠-٩١).

٧٢٢ مسند أحمد" (٤/ ٣٢٩) (ح ٢٩٢١)، تحقيق أحمد شاكر، وقال: "إسناده صحيح".

٧٢٣ "تفسير ابن كثير" (٧/ ٢٢٢).

٧٢٤ انظر: "تفسير ابن كثير" (٧/ ٢٢٣).



فهذه الآيات؛ كما أنها تدلُّ على أن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام، ولم يصلبوه، بل رفعه الله إلى السماء؛ كما في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥].

فإنها تدلُّ على أن من أهل الكتاب من سيؤمن بعيسى عليه السلام آخر الزمان، وذلك عند نزوله[٧٢٥] وقبل وموته؛ كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في جوابه لسؤال وجه إليه عن وفاة عيسى ورفعه: "الحمد لله، عيسى عليه السلام حي، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإماماً مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية[٧٢٦]، وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدَّجَّال، ومن فارقت روحه جسده؛ لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي؛ فإنه يقوم من قبره.

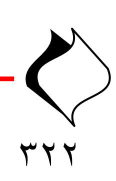
وأما قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران: ٥٥]؛ فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت؛ لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: {وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا}، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء، أو غيره من الأنبياء.

وقد قال تعالى في الآية الأخرى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٧-١٥٨]، فقوله هنا: {بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} يبين أنه

---

٧٢٥ نزولًا حقيقيًا، وليس المراد بنزوله وحكمه في الأرض في آخر الزمان كناية عن غلبة روحه وسر رسالته على الناس بما غلب عليها من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم. والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها؛ فإن ذلك مخالف للأحاديث المتواترة في أنه ينزل بروحه وجسده كما رفع بروحه وجسده عليه السلام.

٧٢٦ انظر كلام الشيخ محمد عبده في: "تفسير المنار" (٣/ ٣١٧).



رفع بدنه وروحه؛ كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه، إذ لو أريد موته؛ لقال: وما قتلوه وما صلبوه، بل مات...

ولهذا قال من قال من العلماء: إني متوفيك؛ أي قابضك؛ أي: قابض روحك وبدنك؛ يقال: توفيت الحساب واستوفيته.

ولفظ (التوفي) لا يقتضي نفسه توفي الروح دون البدن، ولا توفيهما جميعًا؛ إلا بقرينة منفصلة.

وقد يراد به توفي النوم؛ كقوله تعالى: }اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢]، وقوله: {هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠]، وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام: ٦١]"[٧٢٧].

وليس الكلام في هنا عن رفع عيسى عليه السلام، وإنما جاء ذكر ذلك لبيان أنه رفع ببدنه وروحه، وأنه حي الآن في السماء، وسينزل في آخر الزمان، ويؤمن به من كان موجودًا من أهل الكتاب؛ كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء: ١٥٩].

قال ابن جرير: "حدثنا ابن بشار؛ قال: حدثنا سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}؛ قال: قبل موت عيسى بن مريم"[٧٢٨].

قال ابن كثير: "وهذا إسناد صحيح"[٧٢٩].

ثم قال ابن جرير بعد سياقه للأقوال في معنى هذه الآية: "وأولى الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى"[٧٣٠].

---

٧٢٧ "مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

٧٢٨ "تفسير الطبري" (٦/ ١٨).

٧٢٩ "النهاية/ الفتن والملاحم" (١/ ١٣١). وأثر ابن عباس صححه أيضًا ابن حجر في "الفتح" (٦/ ٤٩٢).

٧٣٠ "تفسير الطبري" (٦/ ١٢).

وروى بسنده عن الحسن البصري أنه قال: "قبل موت عيسى، والله إنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون"[٧٣١].

وقال ابن كثير: "ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفع إليه، وإنه باقٍ حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث المتواترة"[٧٣٢].

وذكر أنه روي عن ابن عباس وغيره أنه أعاد الضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ{ على أهل الكتاب، وقال: "إن ذلك لو صح لما كان منافيًا لهذا، ولكن الصحيح في المعنى والإسناد ما ذكرناه"[٧٣٣].

ب–أدلة نزوله من السنة المطهرة:

الأدلَّة من السنة على نزول عيسى عليه السلام كثيرة ومتواترة، سبق ذكر بعضها، وسأذكر هنا بعضًا منها خشية الإطالة:

١–فمنها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده؛ ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدُّنيا وما فيها".

ثم يقول أبو هريرة: "واقرؤوا إن شئتم: { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} (١٥٩)"[٧٣٤].

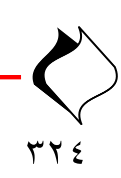
---

٧٣١ "تفسير الطبري" (١/ ١٨).

٧٣٢ "تفسير ابن كثير" (٢/ ٤١٥)

٧٣٣ "النهاية/ الفتن والملاحم" (١/ ١٣٧).

٧٣٤ "صحيح البخاري"، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم u، (٦/ ٤٩٠–٤٩١–مع الفتح)، و"صحيح مسلم"، باب نزول عيسى بن مريم r حاكمًا (٢/ ١٨٩–١٩١–مع شرح النووي).



وهذا تفسير من أبي هريرة رضي الله عنه لهذه الآية بأن المراد بها أن من أهل الكتاب من سيؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته، وذلك عند نزوله آخر الزمان؛ كما سبق بيانه.

٢-وروى الشيخان أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كيف أنتم إذا أنزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟!"[٧٣٥].

٣-وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه؛ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة؛ قال: فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: صل بنا. فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة"[٧٣٦].

٤-وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه؛ فاعرفوه"[٧٣٧].

* الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام متواترة:

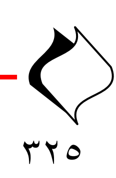
جاءت الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها من دواوين السنة، وهي تدلُّ دلالة صريحة على ثبوت نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ولا حجة لمن ردها، أو قال: إنها أحاديث آحاد لا تقوم بها الحجة، أو: إن نزوله ليس عقيدة من عقائد المسلمين التي يجب عليهم أن يؤمنوا

---

٧٣٥ "صحيح البخاري"، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا، (٢/ ١٩٣-مع شرح النووي).

٧٣٦ "صحيح مسلم"، باب نزول عيسى بن مريم r حاكمًا، (٢/ ١٩٣-١٩٤-مع شرح النووي).

٧٣٧ "مسند أحمد" (٢/ ٤٠٦-بهامشه منتخب الكنز). والحديث صحيح. انظر: هامش "عمدة التفسير" (٤/ ٣٦)، تحقيق الشيخ أحمد شاكر. وصدر هذا الحديث رواه: البخاري (٦/ ٤٧٨-مع الفتح)، ورواه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥٩٥)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.



بها[٧٣٨]؛ لأنه إذا ثبت الحديث؛ وجب الإيمان به، وتصديق ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز لنا رد قوله؛ لكونه حديث آحاد؛ لأن هذه حجة واهية، فأحاديث الآحاد إذا صحت؛ وجب تصديق ما فيها، وإذا قلنا: إن حديث الآحاد ليس بحجة؛ فإننا نرد كثيرًا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون ما قاله عليه الصلاة والسلام عبثًا لا معنى له، كيف والعلماء قد نصوا على تواتر الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام؟!

وسأذكر هنا طائفة من أقوالهم:

قال ابن جرير الطبري – بعد ذكره الخلاف في معنى وفاة عيسى-: "وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: "معنى ذلك: إني قابضك من الأرض، ورافعك إلي"؛ لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدَّجَّال"[٧٣٩].

ثم ساق بعض الأحاديث الواردة في نزوله.

وقال ابن كثير: "تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا[٧٤٠]."

ثم ذكر أكثر من ثمانية عشر حديثًا في نزوله.

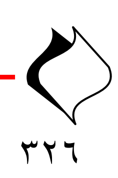
---

٧٣٨ انظر كتاب: "الفتاوى" (ص ٥٩-٨٢) للشيخ محمود شلتوت، طبع دار الشروق، ط ٨، عام (١٣٩٥هـ)، بيروت؛ فإنه رحمه الله أنكر فيه على من قال برفع عيسى عليه السلام ببدنه، وأيضًا أنكر نزوله في آخر الزمان، ورد الأحاديث الواردة في ذلك، وقال: إنه لا حجة فيها؛ لأنها أحاديث آحاد!! ومسألة رفع عيسى وهل هو ببدنه أو بروحه مسألة خلافية بين العلماء، ولكن الحق أنه رفع ببدنه وروحه؛ كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين؛ كالطبري، والقرطبي، وابن تيمية، وابن كثير، وغيرهم من العلماء.

انظر: "تفسير الطبري" (٣/ ٢٩١)، و"تفسير القرطبي" (٤/ ١٠٠)، و"مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٤/ ٣٢٢-٣٢٣)، و"تفسير ابن كثير" (٢/ ٤٠٥).

٧٣٩ "تفسير الطبري"(٣/ ٢٩١).

٧٤٠ "تفسير ابن كثير" (٧/ ٢٢٣).



وقال صديق حسن: "الأحاديث في نزوله عليه السلام كثيرة، ذكر الشوكاني منها تسعة وعشرين حديثًا؛ ما بين صحيح، وحسن، وضعيف منجبر، منها ما هو مذكور في أحاديث الدَّجَّال... ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر، وتنضم إلى ذلك أيضًا الآثار الواردة عن الصحابة، فلها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك".

ثم ساقها وقال: "جميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع"[٧٤١].

وقال الغماري: "وقد ثبت القول بنزول عيسى عليه السلام من غير واحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم والأئمة والعلماء من سائر المذاهب على ممر الزمان إلى وقتنا هذا"[٧٤٢].

وقال: "تواتر هذا تواترًا لا شك فيه، بحيث لا يصح أن ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ كالقاديانية ومن نحا نحوهم؛ لأنه نقل بطريق جمع عن جمع، حتى استقر في كتب السنة التي وصلت إلينا تواترًا بتلقي جيل عن جيل"[٧٤٣].

وقد ذكر من رواه من الصحابة، فعد أكثر من خمسة وعشرين صحابيًا، رواه عنهم أكثر من ثلاثين تابعيًا، ثم رواه تابعو التابعين بأكثر من هذا العدد... وهكذا حتى أخرجه الأئمة في كتب السنة، ومنها المسانيد؛ كـ "مسند" الطيالسي، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وعثمان بن أبي شيبة، وأبي يعلى، والبزار، والديلمي، ومن أصحاب الصحاح: البخاري، ومسلم، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وأبو عوانة، والإسماعيلين والضياء المقدسي، وغيرهم، ورواه أصحاب الجوامع، والمصنفات، والسنن، والتفسير بالمأثور، والمعاجم، والأجزاء، والغرائب، والمعجزات، والطبقات، والملاحم.

---

٧٤١ "الإذاعة" (ص١٦٠).

٧٤٢ "عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى u" (ص١٢).

٧٤٣ "عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى "u (ص٥)

ومن جمع الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام الشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه "التصريح بما تواتر في نزول المسيح"، فذكر أكثر من سبعين حديثًا

وقال صاحب "عون المعبود شرح سنن أبي داود": "تواترت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم في نزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم من السماء بجسده العنصري إلى الأرض عند قرب السَّاعة، وهذا هو مذهب أهل السنة"[٧٤٤].

وقال الشيخ أحمد شاكر: "نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان مما لم يختلف فيه المسلمون؛ لورود الأخبار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وهذا معلوم من الدين بالضرورة، لا يؤمن من أنكره[٧٤٥]."

وقال في تعليقه على "مسند الإمام أحمد": "وقد لعب المجددون أو المجردون في عصرنا الذي نحيا فيه بهذه الأحاديث الدالَّة صراحة على نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان، قبل انقضاء الحياة الدُّنيا، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرى! ذلك أنهم – في حقيقة أمرهم – لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون، وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم مضمون ما فيها من الدين بالضرورة، فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل"[٧٤٦].

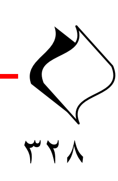
وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: "اعلم أن أحاديث الدَّجَّال ونزول عيسى عليه السلام متواترة، يجب الإيمان بها، ولا تعتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد؛ فإنهم جهال بهذا العلم، وليس فيهم من تتبع طرقها، ولو فعل؛ لوجدها متواترة؛ كما شهد بذلك أئمة هذا العلم؛ كالحافظ ابن حجر.

---

٧٤٤ "عون المعبود" (١١/ ٤٥٧) لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي.

٧٤٥ من حاشية "تفسير الطبري" (٦/ ٤٦٠)، تخريج الشيخ أحمد شاكر، وتحقيق محمود شاكر، مطبعة دار المعارف، مصر.

٧٤٦ "حاشية مسند الإمام أحمد" (١٢/ ٢٥٧).



ومن المؤسف حقًا أن يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم، لا سيما والأمر دين وعقيدة"[٧٤٧].

ونزول عيسى عليه السلام ذكره طائفة من العلماء في عقيدة أهل السنة والجماعة، وأنه ينزل لقتل الدَّجَّال قبحه الله.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة"[٧٤٨].

ثم ذكر جملة من عقيدة أهل السنة، ثم قال: "والإيمان أن المسيح الدَّجَّال خارج مكتوب بين عينيه (كافر)، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كائن، وأن عيسى ينزل فيقتله بباب لد[٧٤٩]."

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في سرده لعقيدة أهل الحديث والسنة: "الإقرار بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يردون من ذلك شيئًا... ويصدقون بخروج الدَّجَّال، وأن عيسى يقتله".

ثم قال في آخر كلامه: "وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب"[٧٥٠]

وقال الطحاوي: "ونؤمن بأشراط السَّاعة؛ من خروج الدَّجَّال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء"[٧٥١].

---

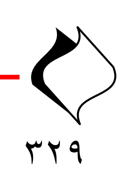
٧٤٧ "حاشية شرح العقيدة الطحاوية" (ص٥٦٥) بتخريج الشيخ محمد ناصر الدين الألباني محدث الشام.

٧٤٨ أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل ص١٤.

٧٤٩ "طبقات الحنابلة" (١/ ٢٤١-٢٤٣) للقاضي الحسن بن محمد بن أبي يعلى، طبع دار المعرفة للنشر، بيروت.

٧٥٠ "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" (١/ ٣٤٥-٣٤٨)، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، (١٣٨٩ هـ)، طبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٧٥١ "شرح العقيدة الطحاوية" (ص ٥٦٤)، تحقيق الألباني.



وقال القاضي عياض: "نزول عيسى وقتله الدَّجَّال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله فوجب إثباته"[٧٥٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمسيح صلى الله عليه وسلم وعلى سائر ا لنبيين لا بد أن ينزل إلى الأرض.... كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، ولهذا كان في السماء الثانية، مع أنه أفضل من يوسف وإدريس وهارون؛ لأنه يريد النزول إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ بخلاف غيره، وآدم كان في سماء الدُّنيا؛ لأن نسم بنيه تعرض عليه"[٧٥٣].

* الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره:

تلمس بعض العلماء الحكمة في نزول عيسى عليه السلام، في آخر الزمان دون غيره من الأنبياء، ولهم في ذلك عدة أقوال:

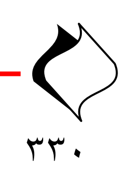
١-الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، فبين الله تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم ويقتل رئيسهم الدَّجَّال، كما سبق بيان ذلك في الكلام على قتال اليهود[٧٥٤].

ورجح الحافظ ابن حجر هذا القول على غيره[٧٥٥].

٢-إن عيسى عليه السلام وجد في الإنجيل فضل أمة محمد كما في قوله تعالى: {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} [الفتح: ٢٩]، فدعا الله أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه، وأبقاه حتى ينزل آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام.

---

٧٥٢ "شرح صحيح مسلم" (١٨/ ٧٥).
٧٥٣ "مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٢٩) لابن تيمية.
٧٥٤ (ص١٩١).
٧٥٥ "فتح الباري" (٦/ ٤٩٣).



قال الإمام مالك رحمه الله: "بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا"[٧٥٦].

وقال ابن كثير: "وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة والأخبار المتداولة"[٧٥٧].

وقد ترجم الإمام الذهبي لعيسى عليه السلام في كتابه "تجريد أسماء الصحابة"، فقال: "عيسى ابن مريم عليه السلام: صحابي، ونبي؛ فإنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وسلم عليه، فهو آخر الصحابة موتًا"[٧٥٨].

٣-إن نزول عيسى عليه السلام من السماء؛ لدنو أجله، ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها، فيوافق نزوله خروج الدَّجَّال، فيقتله عيسى عليه السلام.

٤-إنه ينزل مكذبًا للنصارى، فيظهر زيفهم في دعواهم الأباطيل، ويهلك الله الملل كلها في زمنه إلا الإسلام؛ فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

٥-إن خصوصيته بهذه الأمور المذكورة لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، ليس بيني وبينه نبي"[٧٥٩].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أخص الناس به، وأقربهم إليه؛ فإن عيسى بشر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي من بعده، ودعا الخلق إلى تصديقه والإيمان به[٧٦٠]؛

---

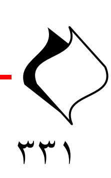
٧٥٦ "تفسير ابن كثير" (٧/ ٣٤٣).

٧٥٧ "تفسير ابن كثير" (٧/ ٣٤٣).

٧٥٨ تجريد أسماء الصحابة" (١/ ٤٣٢).

٧٥٩ "صحيح البخاري" (٦/ ٤٧٧ –٤٧٨–مع الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: [وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا] [مريم: ١٦]، و"صحيح مسلم" (١٥/ ١١٩–مع شرح النووي)، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام.

٧٦٠ انظر: "المنهاج في شعب الإيمان" (١/ ٢٤٢–٢٤٥) للحليمي، و"التذكرة" للقرطبي (ص٦٧٩)، و"فتح الباري" (٦/ ٤٩٣)، وكتاب "التصريح بما تواتر في نزول المسيح" (ص ٩٤) تعليق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.



كما في قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]. وفي الحديث: قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ قال: "نعم؛ أنا دعوة أبي أبراهيم وبشرى أخي عيسى"[٧٦١].

* بماذا يحكم عيسى عليه السلام؟

يحكم عيسى عليه السلام بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان، وباقٍ إلى قيام السَّاعة، لا ينسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمكم منكم؟!".

فقلت (القائل الوليد بن مسلم) لابن أبي ذئب: إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة: "وإمامكم منكم". قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمامكم منكم؟ قلت: تخبرني؟ قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم. [٧٦٢]

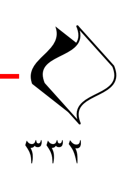
وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة". قال: "فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة"[٧٦٣].

---

٧٦١ رواه ابن إسحاق في "السيرة". انظر: "تهذيب سيرة ابن هشام" (ص ٤٥) لعبد السلام هارون، طبعة المجمع العلمي العربي الإسلامي، منشورات محمد الداية، بيروت. قال ابن كثير في إسناده: "هذا إسناد جيد"، وروى له شواهد من وجوه أخر، رواها الإمام أحمد في "المسند". "تفسير ابن كثير" (٨/ ١٣٦)، و"مسند الإمام أحمد" (٤/ ١٢٧، ٥/ ٢٦٢-بهامشه منتخب الكنز).

٧٦٢ "صحيح مسلم"، كتاب الإيمان باب بيان نزول عيسى بن مريم حاكمًا، (٢/ ١٩٣-مع شرح النووي).

٧٦٣ "صحيح مسلم"، (٢/ ١٩٣-١٩٤-مع شرح النووي).



قال القرطبي: "ذهب قوم إلى أنه بنزول عيسى عليه السلام يرتفع التكليف؛ لئلا يكون رسولاً إلى أهل ذلك الزمان؛ يأمرهم عن الله تعالى، وهذا (يعني: كونه رسولًا بعد محمد) أمر مردود بقوله تعالى: {وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا نبي بعدي"[٧٦٤]، وقوله: "وأنا العاقب"[٧٦٥]؛ يريد آخر الأنبياء وخاتمهم.

وإذا كان ذلك؛ فلا يجوز أن يتوهم أن عيسى ينزل نبيًا بشريعة متجددة غير شريعة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم، بل إذا نزل؛ فإنه يكون يومئذٍ من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما أخبر صلى الله عليه وسلم، حيث قال لعمر: "لو كان موسى حيًا؛ ما وسعه إلا اتباعي"[٧٦٦]، فينزل وقد علم بأمر الله تعالى له في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس، والعمل به في نفسه، فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه، ويحكمونه على أنفسهم... ولأن تعطيل الحكم غير جائز، وأيضًا؛ فإن بقاء الدُّنيا إنما يكون بمقتضى التكليف إلى أن لا يقال في الأرض: الله، الله"[٧٦٧].

والذي يدلُّ على بقاء التكليف بعد نزول عيسى عليه السلام صلاته مع المسلمين، وحجه، وجهاده للكفار.

فأما صلاته؛ فقد سبق في الأحاديث ذكر ذلك.

وكذلك قتاله للكفار وأتباع الدَّجَّال.

---

٧٦٤ "صحيح مسلم"، كتاب الفضائل، باب في أسمائه r، (١٥/ ١٠٤-مع شرح النووي).

٧٦٥ "صحيح البخاري"، كتاب التفسير، [باب يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ] [الصف: ٦]، (٨/ ٦٤٠-٦٤١-مع الفتح).

٧٦٦ "مسند الإمام أحمد" (٣/ ٣٨٧-بهامشه منتخب الكنز).

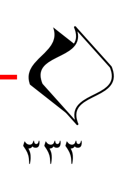
قال ابن حجر: "رجاله موثقون؛ إلا أن في مجالد (أحد رواة الحديث) ضعفًا". "فتح الباري" (١٣/ ٣٣٤).

وقد رواه عبد الرزاق في "المصنف" (١٠/ ٣١٣-٣١٤)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

ومجالد هو مجالد بن سعيد بن عمير الهمداني الكوفي، روى له مسلم مقرونًا بغيره، قال في ابن حجر: "صدوق".

انظر: "تهذيب التهذيب" (١٠/ ٣٩-٤١).

٧٦٧ "التذكرة" (ص ٦٧٧-٦٧٨).



وأما حجه؛ ففي "صحيح مسلم" عن حنظلة الأسلمي؛ قال: سمعت أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: "والذي نفسي بيده؛ ليهلن ابن مريم بفج الروحاء[٧٦٨] حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما"[٧٦٩]؛ أي: يجمع بين الحج والعمرة.

وأما وضع عيسى للجزية عن الكفار -مع أنها مشروعة في الإسلام قبل نزوله عليه السلام-؛ فليس هذا ناسخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيد بنزول عيسى عليه السلام بأخبار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو المبين للنسخ[٧٧٠] بقوله لنا: "والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية[٧٧١]."

* انتشار الأمن وظهور البركات في عهده عليه السلام:

وزمن عيسى عليه السلام زمن أمن وسلام ورخاء، يرسل الله فيه المطر العزيز، وتخرج الأرض ثمرتها وبركتها، ويفيض المال، وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد.

فقد جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر الدَّجَّال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى عليه السلام ودعائه عليهم وهلاكهم، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[٧٧٢]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل

---

٧٦٨ (فج الروحاء): موضع بين مكة والمدينة، سلكه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وفي الحج.

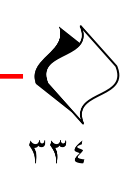
انظر: "النهاية في غريب الحديث" (٣/ ٤١٢)، و"معجم البلدان" (٤/ ٢٣٦).

٧٦٩ "صحيح مسلم بشرح النووي"، كتاب الحج، باب جواز التمتع في الحج والقرآن، (٨/ ٢٣٤-مع شرح النووي).

٧٧٠ انظر: "فتح الباري" (٦/ ٤٩٢).

٧٧١ "صحيح مسلم"، باب نزول عيسى u حاكمًا، (٢/ ٢٩٢)، مع شرح النووي).

٧٧٢ (الزلفة): روي بفتح الزاي واللام والقاف وروي بالفاء، وكلها صحيحة، ومعناه كالمرآة شبه الأرض بها لصفائها ونظافتها. انظر: "شرح النووي لمسلم" (١٨/ ٦٩).



العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل[٧٧٣]، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس"[٧٧٤].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والأنبياء إخوة لعلات[٧٧٥]؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل... فيهلك الله في زمانه المسيح الدَّجَّال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم"[٧٧٦].

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لينزلن عيسى بن مريم حكمًا وعادلًا. وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص[٧٧٧] فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال؛ فلا يقبله أحد"[٧٧٨].

---

٧٧٣ (الرسل): بكسر الراء وإسكان السين هو اللبن.

انظر: "شرح النووي لمسلم" (١٨/ ٦٩).

٧٧٤ "صحيح مسلم"، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٦٣-٧٠-مع شرح النووي).

٧٧٥ (إخوة لعلات): علات: بفتح العين المهملة، وتشديد اللام. وأولاد العلات: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد؛ أي: أن إيمان الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة.

انظر: "النهاية في غريب الحديث" (٣/ ٢٩١)، و"تفسير الطبري" (٦/ ٤٦٠)، تعليق محمود شاكر، وتخريج أحمد شاكر.

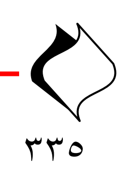
٧٧٦ مسند أحمد" (٢/ ٤٠٦-بهامشه منتخب الكنز).

قال ابن حجر: "سنده صحيح". "فتح الباري" (٦/ ٤٩٣).

٧٧٧ (القلاص): بكسر القاف، جمع قلوص بفتح القاف، وهي الناقة الشابة.

انظر: "النهاية في غريب الحديث" (٤/ ١٠٠)، و"شرح النووي لمسلم" (٢: ١٩٢).

٧٧٨ "صحيح مسلم"، باب نزول عيسى، (٢/ ١٩٢مع شرح النووي).



قال النووي: "ومعناه أن يزهد الناس فيها-أي: الإبل — ولا يرغب في اقتنائها؛ لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقرب القيامة. وإنما ذكرت القلاص؛ لكونها أشرف الإبل، التي هي أنفس الأموال عند العرب، وهو شبيه بمعنى قول الله عز وجل: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤)} [التكوير: ٤]، ومعنى: "لا يسعى عليها": لا يعتنى بها"[٧٧٩].

وذهب القاضي عياض إلى أن المعنى: أي: لا تطلب زكاتها إذ لا يوجد من يقبلها.

وأنكر هذا القول النووي[٧٨٠].

*** مدة بقائه بعد نزوله ثم وفاته:**

وأما مدة بقاء عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله؛ فقد جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة.

ففي رواية الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "فيبعث الله عيسى بن مريم... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذر ة من خير أو إيمان إلا قبضته"[٧٨١]

وفي رواية الإمام أحمد وأبي داود: "فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون"[٧٨٢].

---

٧٧٩ "شرح النووي لمسلم" (٢/ ١٩٢).

٧٨٠ انظر: "شرح النووي لمسلم" (٢/ ١٩٢).

٧٨١ "صحيح مسلم"، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٧٥-٧٦-مع شرح النووي)

٧٨٢ "مسند الإمام أحمد" (٢/ ٤٠٦-بهامشه منتخب الكنز).

قال ابن حجر: "صحيح" (٦/ ٩٤٣).

و"سنن أبي داود"، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، (١١/ ٤٥٦-مع عون المعبود).

وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكل؛ إلا أن تحمل رواية السبع سنين على مدَّة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلى مُكثِه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة على المشهور[٧٨٣].

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–: "

[٢٤] "والإيمان بأن الإيمان قول وعمل، وعمل وقول، ونية وإصابة، يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه شيء".

الشرح

هذه المسألة يوردها العلماء ضمن مسائل الأسماء، ويحسن تناول هذه المسألة من خلال الجوانب الآتية:

الجانب الأول: الجانب اللغوي.

أ–المعنى اللغوي لكلمة "آمن":

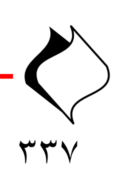
الإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن

أ–فيرى جمع من أهل اللغة أن الإيمان في اللغة معناه: التصديق وقد حكوا الإجماع على ذلك قال الأزهري: "واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق"[٧٨٤].

---

٧٨٣ انظر: "النهاية/ الفتن والملاحم" (١/ ١٤٦)، تحقيق د. طه زيني.

٧٨٤ تهذيب اللغة (٥/ ٥١٣).



واستدلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}[٧٨٥] فقالوا معناه ما أنت بمصدق لنا[٧٨٦].

٢-أما علماء السلف[٧٨٧] فيقولون إن الإيمان يأتي في اللغة لمعنيين هما:

أ-بمعنى صدق به وذلك إذا عدي بالباء كما في قوله تعالى {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ...} الآية[٧٨٨] أي صدق الرسول[٧٨٩].

ب-وبمعنى أقر له وذلك إذا عدي باللام كما في قوله تعالى {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}، وقوله تعالى {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}[٧٩٠].

وقد اعترض السلف على حصر أهل اللغة لمعنى الإيمان بالتصديق فقط وقالوا: "إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار[٧٩١] والطمأنينة أيضا"[٧٩٢] واستدل السلف لقولهم بالأمور التالية:

أولا: إن الترادف التام ممتنع بين التصديق والإيمان من عدة وجوه، يوضحها الجدول التالي:

الإيمان	التصديق

٧٨٥ الآية (٧) من سورة يوسف.

٧٨٦ لسان العرب لابن منظور، مادة آمن (١٣/ ٢٣).

٧٨٧ شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٤٣).

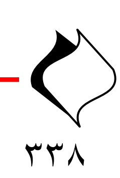
٧٨٨ الآية (٢٨٥) من سورة البقرة.

٧٨٩ تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٥).

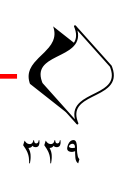
٧٩٠ الآية (٦) من سورة العنكبوت.

٧٩١ الإقرار: متضمن لمعنيين هما: قول القلب الذي هو التصديق. وعمل القلب الذي هو الانقياد. مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨-٦٣٩).

٧٩٢ الصارم المسلول لابن تيمية (ص٥١٩).



-إن كلمة آمن تتعدى بالباء وباللام وقد تقدم التمثيل لذلك.	-أما كلمة صدق فلا تتضمن معنى الأمن والأمانة.
-إن كلمة آمن تتضمن ثلاثة معان هي: الأمن، والتصديق، والأمانة.	
-إن لفظ الإيمان لا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب لأن فيه أصل معنى الأمن والائتمان وهذا إنما يكون في الخبر عن الغائب، فلا يقال لمن قال طلعت الشمس آمنا له وإنما يقال صدقناه ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في الخبر عن الغائب.	-أما لفظ التصديق فيستعمل في كل مخبر عن مشاهد أو غيب، فمن قال السماء فوقنا، قيل له: صدقت.
-إن لفظ الإيمان ضده الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب فقط بل هو أعم منه، إذ يمكن أن يكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب ومع ذلك يسمى كفرا كما لو قال شخص: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، فهذا كفر أعظم.	-أما لفظ التصديق ضده التكذيب فقط.



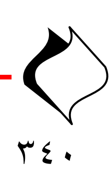
-أما كلمة "صدق" فلا تتعدى باللام فلا يقال "صدق له" إنما يقال "صدق به" فهي تتعدى بالباء وبنفسها فيقال صدقه.

وبهذا يتبين عدم الترادف التام بين اللفظين، وأن الإيمان ليس التصديق فقط[٧٩٣] كما أن الكفر ليس التكذيب فقط.

ثانيا: من المعلوم أن كلام الله وشرعه إنما هو خبر وأمر.

فالخبر: يستوجب تصديق الخبر.

٧٩٣ انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٨٠-٣٨١).



والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب، جماعه: الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به.

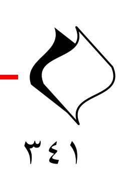
فإذا قوبل الخبر بالتصديق، والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو "الطمأنينة والإقرار" فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد. فلو فُسِّر الإيمان بالتصديق فقط، كما قال أهل اللغة، فإن التصديق إنما يعرض للجزء الأول من الشرع فقط الذي هو الخبر، ولا يعرض للجزء الثاني وهو الأمر، لأن الأمر ليس فيه تصديق من حيث هو أمر.

ومن المعلوم أن إبليس لم يكفر بسبب عدم تصديقه، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا، قال تعالى: {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} البقرة: ٣٤، فسماه الله كافرا وسلب عنه وصف الإيمان لاستكباره وعدم انقياده لأمر الله له بالسجود لآدم.

لازم القول بأن الإيمان مجرد التصديق فقط.

وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق، ثم يرون مثل إبليس وفرعون مما لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون.

ومثل هؤلاء القوم لو أنهم هُدوا لما هُدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولا في القلب، وعملا في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته–وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره–فيصدق القلب أخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقا، لأن الكفر أعم من التكذيب، فالكفر يكون تكذيبا



وجهلا، ويكون استكبارا وظلما، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالا وهو "الجهل" ألا ترى أن نفرا من اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن أشياء، فأخبرهم، فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره، فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق.

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرا وأمرا، فإنه يحتاج إلى مقام ثان، وهو تصديق خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره. "وأشهد أن محمدا رسول الله" تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله.

فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين–وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول–ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه وهو الانقياد، وإلا فقد يصدق الرسول، ظاهرا وباطنا ثم يمتنع من الانقياد للأمر، إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه كإبليس"[٧٩٤].

ثالثا: ما استدل به أهل اللغة على أن معنى الإيمان في قوله تعالى {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} هو التصديق غير مسلم.

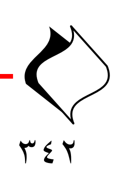
إذ يرى علماء السلف أن تفسيرها بـ "أقررت" أقرب من تفسيرها بـ " صدقت " وذلك لأن لفظ "آمن" متى عُدّي باللام يكون بمعنى "أقر" وليس بمعنى "صدق"، إذ لا يكون بمعنى صدق إلا إذا عُدّي بالباء أو بنفسه.

الجانب الثاني: المعنى الشرعي للإيمان:

تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان:

---

٧٩٤ الصارم المسلول (ص ٥١٩–٥٢٠) بتصرف.



أ-فتارة يقولون: الإيمان قول وعمل.

٢-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية.

٣-وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية واتباع سنة. [٧٩٥]

٤-وتارة يقولون: الإيمان: قول اللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[٧٩٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن أورد التعريفات الثلاثة الأول: "وكل هذا صحيح"[٧٩٧] وعلل ذلك بقوله[٧٩٨]:

"فمن قال إن الإيمان قول وعمل فمراده قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح".

وقول اللسان وعمل الجوارح معروفان.

وأما المقصود من قول القلب: فهو إقراره ومعرفته وتصديقه.

وأما عمله: فهو انقياده لما صدق به.

ومن عبر عن الإيمان بهذا التعريف ليس مراده كل قول أو عمل وإنما المراد ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال.

كما أن تعبير بعض السلف بهذه العبارة في تعريف الإيمان إنما جاء في معرض الرد على المرجئة[٧٩٩] الذين جعلوه قولا فقط، فقال بعض السلف ردا عليهم: بل قول وعمل[٨٠٠].

---

٧٩٥ هذه التعريفات الثلاثة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الإيمان. انظر (ص ١٦٢).

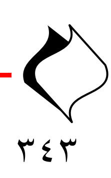
٧٩٦ مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

٧٩٧ كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٦٢).

٧٩٨ كلام شيخ الإسلام نقلته بتصرف من كتابه الإيمان (ص ١٦٢-١٦٣).

٧٩٩ المرجئة هم الذين أرجأوا العمل عن مسمى الإيمان وهم خمس طوائف سيأتي ذكرهم.

٨٠٠ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الناس لهم في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال:



وأما من عرفه بقوله هو قول وعمل ونية، فمقصوده بزيادة لفظ "ونية": أن القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك[٨٠١].

وأما من عرفه بأنه قول وعمل ونية واتباع سنة، فقد زاد لفظة "واتباع سنة" لأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة[٨٠٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو؟، فقال: قول وعمل ونية واتباع سنة.

لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر.

وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق.

وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة[٨٠٣].

وأجمع التعاريف الواردة وأشملها هو: أن الإيمان قول اللسان واعتقاد بالجنان وعمل الجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

١-فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا.

٢-وقيل: بل مسـماه اللفظ، والمعنى ليس جزء مسـماه بل هو مدلول مسـماه، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين الى السنة، وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ.

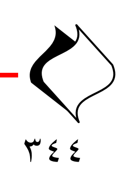
٣-وقيل: مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.

٤-وقيل: بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين" كتاب الإيمان (ص ١٦٢).

٨٠١ كتاب الإيمان (ص ١٦٣).

٨٠٢ كتاب الإيمان (ص ١٦٣).

٨٠٣ كتاب الإيمان (ص ١٦٣).



وهذا التعريف هو الذي يميز قول السلف في مسمى الإيمان عن قول غيرهم من الفرق[٨٠٤] ولهذا كان هذا التعريف هو أجمع التعاريف الواردة عن السلف وأكثرها دقة في بيان قولهم.

الجانب الثالث: دلالة اسم الإيمان:

تتحدد دلالة اسم "الإيمان" بحسب سياق الكلام الذي تستعمل فيه هذه اللفظة فلفظ "الإيمان" إما أن يستعمل:

أ-مطلقا: أي يذكر مطلقا عن لفظ "العمل" و"الإسلام".

٢-أو مقيدا: فتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام.

فإذا استعمل مطلقا: "فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة-من الصحابة

---

٨٠٤ الذين خالفوا السلف في مسمى الإيمان هم:

أ-المرجئة بطوائفهم الخمس:

١-الجهمية: وقالوا الإيمان هو معرفة القلب فقط: أى المعرفة الفطرية التي هي المعرفة بربوبية الله.

٢-الأشاعرة: وقالوا الإيمان هو التصديق فقط أي التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله.

٣-الماتريدية: وقولهم في الإيمان مثل قول الأشاعرة.

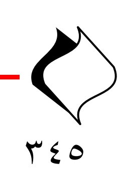
٤-الكرامية: قالوا الإيمان قول باللسان فقط.

٥-مرجئة الأحناف (أو مرجئة الفقهاء) قالوا: الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان. وهو قول الكلابية. وكل هذه الطوائف الخمسة أخرجت العمل عن الإيمان.

ب-الخوارج: قالوا الإيمان قول واعتقاد وعمل ولكنهم يكفرون من أخل بشيء من هذه الثلاثة ويقولون بأنه كافر في الدنيا وفي الآخرة خالد في النار.

ج-المعتزلة: وقالوا بقول الخوارج إلا أنهم يقولون إنه في الدنيا في منزلة بين منزلتين بمعنى أنه ليس بمؤمن ولا كافر، واتفقوا معهم في باقي الأمور.

انظر تفاصيل هذه الأقوال: في كتاب الإيمان لابن تيمية، والجزء السابع من مجموع الفتاوى، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٧٣-٣٩٢) وكتاب النبوات (ص ١٩٩).



والتابعين وتابعيهم-الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات-فرضها ونفلها-في مسماه"[٨٠٥].

ويلاحظ هنا أن لفظ "الإيمان" على هذا الاستعمال يكون مرادفا للفظ "العبادة" والعبادة كما هو معروف هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ومن استعمال الشارع للفظ الإيمان بهذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[٨٠٦].

فالإيمان في هذا الحديث شمل جميع أمور الدين بما في ذلك أمور الإسلام.
ومن هذا الاستعمال أيضا ما جاء في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: "أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم خمس... " الحديث[٨٠٧].

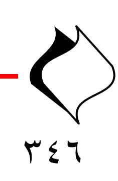
فلفظ الإيمان استعمل في الحديث مطلقا فدخل فيه الأمور الظاهرة مع أنها من أمور الإسلام كما جاء في حديث جبريل المشهور.

---

٨٠٥ مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٢).

٨٠٦ أخرجه البخاري في صـــحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الدين.انظر: فتح الباري (١/ ٥١) ح ٩ وأخرجه مسلم-واللفظ له-كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١/ ٤٦).

٨٠٧ أخرجه البخاري في صـــحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. انظر: فتح الباري (١/ ١٢٩) ح ٥٣، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه (١/ ٣٥-٣٦).



وأما إذا استعمل اسم الإيمان مقيدا كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[٨٠٨]، وقوله {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[٨٠٩].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره "[٨١٠].

فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك وإن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: {وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}[٨١١]، وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الآية[٨١٢].

وقد يقال إن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران كلفظ الفقير والمسكين، فإن أحدهما إذا أفرد تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كانا صنفين: كما في آية الصدقة، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل"[٨١٣].

قلت: إن القول بأن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام ينطبق على الآية وهي قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

---

٨٠٨ الآية (٧٧) من سورة البقرة وغيرها.

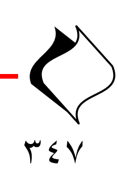
٨٠٩ الآية (٦٣) من سورة يونس.

٨١٠ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله (١/ ٢٩). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل بلفظ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث". انظر: فتح الباري (١/ ١١٤)، ح ٥٠.

٨١١ الآية (٩٨) من سورة البقرة.

٨١٢ الآية (٧) من سورة الأحزاب.

٨١٣ الفتاوى (٧/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨).



والقول بأن دلالة الاسم تنوعت بالإفراد والاقتران ينطبق على حديث جبريل حيث ذكر الإسلام والإيمان فأصبح كل واحد منهما يختص بأمور معينة فالإسلام اختص بالأمور الظاهرية، والإيمان اختص بالأمور الاعتقادية الباطنية.

"فلفظ الإسلام والإيمان إذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنا أظهر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر، وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على كثير من الناس"[٨١٤].

خلاصة القول:

إن اسم الإيمان إذا أفرد: تناول جميع أمور الدين الظاهرة والباطنة كما في حديث الشعب.

وإذا اقترن اسم الإيمان مع الإسلام دل الإيمان على الأمور الباطنة ودل الإسلام على أمور الدين الظاهرة كما في حديث جبريل.

وإذا اقترن العمل مع الإيمان: فهو من باب عطف الخاص على العام[٨١٥] كما في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

---

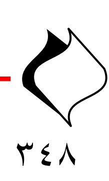
٨١٤ مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٧ -٦٤٨).

٨١٥ قال شارح الطحاوية: "اعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب:

١-أعلاها: أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءا منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} الآية (١) من سورة الأنعام، وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} الآية (٣) من سورة آل عمران، وهذا هو الغالب.

٢-ويليه: أن يكون منهما تلازم، كقوله تعالى: {وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} الآية (٤٢) من سورة البقرة، وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} الآية (٩٢) من سورة المائدة.

٣-الثالث: عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى} الآية (٢٣٨) من سورة البقرة، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} الآية (٢٣٨) من سورة البقرة وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ} الآية (٧) من سورة الأحزاب، وفي مثل هذا وجهان: أحدهما: أن



الجانب الرابع: أقوال الناس في مسمى الإيمان.

اختلف الناس في مسألة مسمى الإيمان:

فهناك من قال: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل يزيد وينقص" .(٨١٦)

وهناك من قال: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل لكن لا يزيد ولا ينقص" .(٨١٧)

وهناك من قال: "إن الإيمان هو المعرفة" .(٨١٨)

وهناك من قال: "إن الإيمان قول اللسان" .(٨١٩)

وهناك من قال: "إن الإيمان هو التصديق" .(٨٢٠)

وهناك من قال: "إن الإيمان هو التصديق والقول".(٨٢١)

هذه جملة أقوال، والمسألة تحتاج إلى شيءٍ من البيان والتوضيح والبسط.

يكون داخلا في الأول، فيكون مذكورا مرتين. والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا وإن كان داخلا فيه منفردا كما قيل في لفظ "الفقراء والمساكين" ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

٤-الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} الآية (٣) من سورة غافر. شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٨٧-٣٨٨).

٨١٦ انظر كتاب الإيمان للقاسم بن سلام صفحة (١٠) و (٤٤).

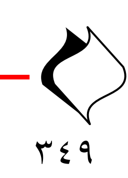
٨١٧ انظر كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع صفحة (٤٣)، وكتاب الملل والنحل، الجزء الأول، صفحة (١٤١).

٨١٨ انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد الجزء الأول صفحة (٣٠٥).

٨١٩ انظر كتاب الإيمان لابن تيمية صفحة (٣٠٣)، وكتاب الرَّوضُ البَاسِمْ في الذِّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبي القَاسِم الجزء الأول، صفحة (٢٤٠).

٨٢٠ انظر كتاب رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت صفحة (٢٧٣).

٨٢١ انظر كتاب الفقه الأكبر صفحة (٥٥)، وكتاب لوامع الأنوار البهية الجزء الأول، صفحة (٤١٦).



ونأتي أولاً إلى قول أهل السنة وهو ما أورده المصنف هنا، حيث قال: "**إن الإيمان قولٌ وعملٌ، وعملٌ وقول ونية وإصابة يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه شيء**".

فإن الناظر إلى هذا الإنسان باعتبار ما يجب عليه تجاه ما أخبر الله به وما أمر الله تعالى به؛ فنصوص الشرع لا تخرج عن أمرين: إما أخبارٌ وإما أوامر، فالأخبار حقها التصديق بأن تُصدق بها، والأوامر حقها أن تعمل بها، كما جاء في الحديث "إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن نهيٍ فانتهوا"[٨٢٢].

فأنت مأمور بأن تتبع، وأن تعمل بهذه الأوامر بحسب ما يأتي من حكمٍ عليها، فهذه الأمور أي الوحي تأتي لهذا الإنسان، وأول ما تأتي إليه في باطنه؛ لأنه لابد وأن يعلم أن الصلاة مثلاً ركنٌ من أركان الإسلام، ثم إذا جئت إلى الصلاة تجد أن منها فرائض ومنها نوافل، ثم أن هذه النوافل منها سنن رواتب ومنها غير ذلك، فهذا أول ما يقابله بالعلم.

فإذاً هذا الإيمان سيخاطب هذا الباطن في الإنسان، وأول ما يخاطب أن يصدق بما أخبر الله به.

والثاني: أن ينقاد لأمر الله، فلابد أن يحصل الانقياد والتسليم لأوامر الله، فليس لك حق الاعتراض أن تقول: لا بدل خمس صلوات نجعلها ثلاثة أو نجعلها ستة، فهي خمس صلوات في اليوم الليلة لابد من أدائها في أوقاتها، فأصبح عليه أن يصدق وعليه أن ينقاد.

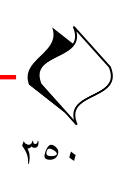
ومعلوم أن هنا ثلاثة أحوال:

القلب، والقلب يشمل أمرين:

يشمل جانب العلم، ويشمل جانب الإرادة هذا القلب.

---

٨٢٢ رواه البخاري (٤/٤٢٢) ومسلم (٧/٩١) وأحمد (٢/٢٥٨).



والجانب الثاني: جانب اللسان.

والجانب الثالث: جانب الجوارح.

فهناك قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل اللسان، وهناك عمل الجوارح فهذه خمسة، فإذا جئت إلى قول القلب فهذا هو العلم الذي هو التصديق فعليه أن يعلم هذه الأشياء ويصدق بها، هذا الواجب الأول على القلب، والقلب هو الباطن، والباطن مجموع الأمرين وهذه هي العقيدة.

لذلك قال المصنف: **"الإيمان قولٌ وعمل"**، فالقول هنا هو العلم والتصديق، تعلم وتصدق، هذا واجبٌ على الإنسان لكي يكون مؤمناً، وهذا وحده لا يكفي فلو قال قائل: أنا أعلم أن الصلوات خمس وهي كذا وكذا وهيئتها كذا لكن لن أصلي، فهو بهذا لا يكون مؤمناً إذ لابد من الجانب الثاني.

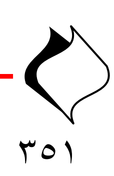
والجانب الثاني: هو انقياد القلب، فهذه الإرادة لابد أن تنقاد لهذه الأخبار وهذه الأوامر، ولذلك يأتي عمل القلب، والقلب أعماله كثيرة، منها مثلاً الإخلاص، والمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والخشية، والتقوى، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر التقوى قال: «التقوى هاهنا التقوى هاهنا التقوى هاهنا وأشار بيده على صدره» [٨٢٣]، فهذه أعمال القلوب، وهي التي تنطلق إلى سائر الجوارح

وأما قول اللسان وعمل اللسان، فقول اللسان جعله العلماء النطق بالشهادتين لأن هذا هو الفيصل بين الإسلام والكفر، «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» [٨٢٤]، فأول ما يدخل الإنسان في الإسلام يُطالب بعد

---

٨٢٣ انظر صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله برقم (٢٥٦٥)، وأحمد (٧٦٧٠).

٨٢٤ انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم برقم (٢٥)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ووكلت سريرته إلى الله تعالى وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام واهتمام الإمام بشعائر الإسلام، برقم (٢٥).



تطهره يطالب بالنطق بالشهادتين، فهذا يسميه العلماء: قول اللسان، فجعلوه في النطق بالشهادتين.

وأما عمل اللسان: فمنه قراءة القرآن وتلاوته، وذكر الله عز وجل، والتسبيح، والتهليل هذا كله عمل اللسان.

وأما أعمال الجوارح، فمنها الركوع والسجود والصوم والجهاد وغض البصر وغيرها فهذه أعمال الجوارح، وهذا بكله هو الذي يُسمى إيماناً عند أهل السنة.

وأما قول المصنف: "**يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه شيء**"

فأهل السنة يؤمنون أن الإيمان يزيد وينقص، ومن الأدلة على ذلك:

أولاً: أدلة زيادة الإيمان ونقصانه من القرآن[٨٢٥].

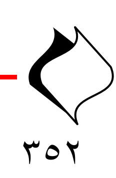
لقد جاء في كتاب الله عز وجل نصوص كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه وأن أهله متفاضلون فيه بعضهم أكمل إيماناً من بعض، فمنهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه، منهم المحسن، ومنهم المؤمن، ومنهم المسلم، ليسوا في الدين سواء في مرتبة واحدة، بل فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

وقبل الشروع في ذكر هذه الأدلة القرآنية الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه أودّ التنبيه على نقطة هامة، وهي:

أن كل دليل دلّ على زيادة الإيمان فهو يدل على نقصانه، وكذا العكس، فما دل على نقصان الإيمان فهو يدل على زيادته، فالآيات التي أوردها هنا وظاهرها الدلالة على زيادة الإيمان فقط، فهي تدل على نقص الإيمان باللزوم، وذلك لأن

---

٨٢٥ المصدر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه للدكتور عبد الرزاق البدر ص ٣٥



الزيادة تستلزم النقص، ولأن ما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص، ولأن الزيادة لا تكون إلا عن نقص.

ولهذا فإنا نجد أهل العلم كثيراً ما يستشهدون بأدلة زيادة الإيمان على نقصانه وكذا العكس للأسباب المتقدمة، وتأمل –مثالاً على ذلك– صنيع البخاري في صحيحه فقد أورد بعض الآيات المصرحة بزيادة الإيمان في باب زيادة الإيمان ونقصانه مستدلاً بها على الزيادة والنقصان معاً.

قال الإمام أحمد رحمه الله: "إن كان قبل زيادته –أي الإيمان– تاماً فكما يزيد كذا ينقص"[٨٢٦].

فمن الأدلة:

- قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣] .
- وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]
- وقوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤].
- وقوله تعالى: {وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً} [الأحزاب: ٢٢] .
- وقوله تعالى} :هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ{ [الفتح:٤].
- وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً} [المدثر: ٣١].

---

٨٢٦ رواه الخلال في السنة (٢/ ٦٨٨، ح ١٠٣٠).

- وقوله تعالى :{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ} [محمد:١٧].

ثانياً: الأدلة من السنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن"[٨٢٧].
- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" [٨٢٨]

ففي هذا الحديث "بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، له أعلى وأدنى، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق-بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها"[٨٢٩].

وهذه الشعب متفاوتة ليست على درجة واحدة في الفضل، بل بعضها أفضل من بعض، كما هو ظاهر لفظ الحديث في قوله: "أعلاها "وقوله: "أدناها"، فشعب الإيمان منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعاً كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعاً كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يقرب من شعبة الشهادتين، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى"[٨٣٠].

وقال الشيخ العلامة ابن سعدي بعد ذكره لحديث أبي هريرة: "وهذا صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو

٨٢٧ أخرجه البخاري (٥/ ١١٩، ١٠/ ٣٠، ١٢/ ٥٨، ١٢/ ١٤ فتح)، ومسلم (٢/ ٤١ نووي).

٨٢٨ أخرجه البخاري (١/ ٥١ فتح) ومسلم (٢/ ٦ نووي) وهذا لفظ مسلم.

٨٢٩ معالم السنن للخطابي (٧/٤٤،٤٣).

٨٣٠ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٣٢٢).

عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشرع كما ترى"[831].

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا إيمان لمن لا أمانة له"[832].

فهذا الحديث دليل على أن من لا أمانة له، فقد نقص فيه شيء من واجبات هذا الدين، فيذهب عنه كمال الإيمان الواجب وتمامه، ويكون بذلك مؤمناً ناقص الإيمان[833].

يوضح الاستدلال بهذا الحديث ويبينه ما جاء عن عروة بن الزبير رحمه الله أنه قال: "ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه"[834]، فنقص الأمانة في العبد دليل على نقص الإيمان وضعفه فيه

- ولهذا لما سئل الإمام أحمد رحمه الله مرة عن نقصان الإيمان احتج بهذا، قال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله وسئل عن نقص الإيمان فقال: حدثنا وكيع عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "ما انتقصت أمانة رجل إلا نقص إيمانه"[835].

---

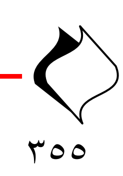
٨٣١ التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص ١٤).

٨٣٢ أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/١١) وفي الإيمان (ص ٥)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٠٨ الإحسان)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٥)؛ وقال البغوي: "هذا حديث حسن"؛ وصححه الألباني في تحقيقه للإيمان لابن أبي شيبة.

٨٣٣ انظر الفتاوى (١١/ ٦٥٣).

٨٣٤ رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٢) وفي الإيمان (ص ٦)، وعبد الله في السنة (١/ ٣٦٨) والخلال في السنة (ق ١٥٩/ ب) والآجري في الشريعة (ص ١١٨) والبيهقي في الشعب (١/ ١٩٧)، وابن بطة في الإبانة (برقم:١١٤١).

٨٣٥ رواه الخلال في السنة (برقم: ٧٨٩)، والآجري في الشريعة (ص ١١٨)، وابن بطة في الإبانة (برقم ١١٤٨).



- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[٨٣٦].

فبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مراتب إنكار المنكر، وأنه حسب الاستطاعة فإما أن يغير باليد أو باللسان أو بالقلب، بمعنى يكرهه بقلبه، وهذه المراتب الثلاث للإنكار يقوم بها المكلف على قدر استطاعته، ولا شك أن المرتبة الأخيرة باستطاعة جميع المكلفين، فمن رأى المنكر ولم يكرهه بقلبه وهو يعلم أنه منكر فإن هذا يكون علامة على ضعف إيمانه .

وقد احتج بهذا الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهله فيه النسائيُ في سننه فبوب له بـ"باب تفاضل أهل الإيمان"[٨٣٧] .

وابن منده في كتابه الإيمان فقال: "ذكر خبر يدل على أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد وينقص"[٨٣٨] ثم ذكر حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وبوب له النووي في شرحه لمسلم بـ "باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص..."[٨٣٩].

ثالثاً: أقوال السلف الصالح في زيادة الإيمان ونقصانه[٨٤٠]

لقد جاء عن السلف الصالح آثار كثيرة قرروا فيها ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من حجج ودلالات على زيادة الإيمان ونقصانه، فبينوا رحمهم الله أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وكثرة العبادة والمداومة عليها،

---

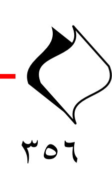
٨٣٦ رواه مسلم (٢/ ٢٢ نووي).

٨٣٧ سنن النسائي (٨/ ١١).

٨٣٨ الإيمان لابن منده (٢/ ٣٤١).

٨٣٩ شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٢١) وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٣/ ٣٤٣).

٨٤٠ المصدر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه ص ١٠٦ ـ ١٠٧.



وينقص باللهو والغفلة والمعصية والتقصير في فعل الطاعة، بل لقد حكى إجماعهم واتفاقهم على ذلك غير واحد من أهل العلم.

قال يحيى بن سعيد القطان: "ما أدركت أحداً من أصحابنا، إلا على سنتنا في الإيمان، ويقولون: الإيمان يزيد وينقص[٨٤١].

وقال الإمام عبد الرزاق الصنعاني رحمه الله: "لقيت اثنين وستين شيخاً،... فذكر عدداً منهم ثم قال: كلهم يقولون: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"[٨٤٢].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: "هذه تسمية من كان يقول الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص،... فسمى أكثر من مائة وثلاثين رجلاً من أهل العلم من الصحابة وغيرهم.. ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا"[٨٤٣].

وقال إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله: "أجمع سبعون رجلاً من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكر أموراً منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"[٨٤٤].

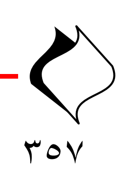
---

٨٤١ رواه ابن هاني في مسـائل الإمام أحمد (٢/ ١٦٢) وذكر نحوه الذهبي في السـير (١٧٩/٩) في ترجمة يحيى بن سعيد.

٨٤٢ رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ٩٥٨ ح ١٧٣٧).

٨٤٣ رواه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨١٤ برقم:١١١٧) وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص ٢٩٣-٢٩٥).

٨٤٤ رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص ٢٢٨) وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ١٣٠) بلفظ أجمع تسعون...إلخ.



وقال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله: "لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص"[٨٤٥].

رابعاً: الأقوال المخالفة لقول أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

القول الأول: قول من قال الإيمان يزيد وتوقف في النقصان.

جاء عن الإمام مالك رحمه الله تعالى في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه روايتان، قال في إحداهما: إن الإيمان يزيد أما النقصان فتوقف فيه وطلب من السائل أن يكف عن السؤال عنه، لأنه لم يجد عليه دليلاً من كتاب الله.

أما الرواية الأخرى: فقد جاءت عنه من طرق متعددة صحيحة، قال فيها: إن الإيمان يزيد وينقص، كقول أهل السنة والجماعة سواء[٨٤٦] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه. لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القران، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك"[٨٤٧] .

القول الثاني: قول من قال الإيمان يزيد ولا ينقص.

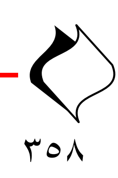
وهذا قول طائفة من الأشاعرة، رواية عن أبي حنيفة، والغسانية، النجارية، الإباضية.

---

٨٤٥ ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦) وعزواه للالكائي في السنة، وصححا إسناده، قلت: وهو في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي "المطبوع" (٥/ ٨٨٩ رقم:١٥٩٧) بنحوه، وليس فيه "ويزيد وينقص"، فلعل هذه اللفظة سقطت من المطبوع، أو أن الحافظ والزبيدي اطلعا على نسخة اشتملت على ما حكياه.

٨٤٦ انظر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه ص: ٢٧٧ . ٢٩٠ وقد ناقش هذا القول بالتفصيل.

٨٤٧ الفتاوى (٧/ ٥٠٦).



أما قول الطائفة من الأشاعرة: فقد أشار إليه البغدادي في "أصول الدين" فقال: "وأما من قال: إنه التصديق[٨٤٨] بالقلب فقد منعوا من النقصان فيه، واختلفوا في زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها"[٨٤٩].

وأما الرواية عن أبي حنيفة: أن الإيمان يزيد ولا ينقص، فقد ذكرها غير واحد ممن كتب في المقالات، من طريق غسان وغيره عن أبي حنيفة رحمه الله.

قال الأشعري: "فأما غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم يحكون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له والهيبة منه وترك الاستخفاف بحقه وأنه يزيد ولا ينقص"[٨٥٠].

وقال الزبيدي: "وحكى غسان وجماعة من أصحاب أبي حنيفة أنه يزيد ولا ينقص"[٨٥١]

وأما الغسانية: فقد ذكر البغدادي عن الغسانية، وهم أتباع غسان المرجئ أن من أقوالهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، ثم قال: "وزعم غسان هذا في كتابه أن قوله في هذا الكتاب كقول أبي حنيفة"[٨٥٢].

وأما النجارية: فلهم أصول باطلة جانبوا فيها الحق وفارقوه منها: قولهم إن الإيمان يزيد ولا ينقص، وقد حكى ذلك عنهم غير واحد ممن كتب في مقالات الفرق كالأشعري والإسفراييني والبغدادي وغيرهم[٨٥٣].

---

٨٤٨ القول بأن الإيمان هو التصديق هو قول الأشاعرة.

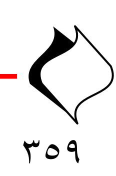
٨٤٩ أصول الدين (ص ٢٥٢).

٨٥٠ مقالات الإسلاميين (ص ١٣٩).

٨٥١ إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦).

٨٥٢ الفرق بين الفرق (ص ٢٠٣). وانظر: انظر مقالات الإسلاميين للأشعري (ص ١٣٩)، والتبصير في الدين للإسفراييني (ص ٩٨)، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٢٠٣).

٨٥٣ انظر مقالات الإسلاميين (ص ١٣٦) والتبصير في الدين (ص ١٠١)، والفرق بين الفرق (ص ٢٠٨) والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥٤٦).



وأما الأباضيه: فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي من الأباضية في كتابه مشارق أنوار العقول: "الإيمان بالمعنى الشرعي الذي هو أداء الواجبات مطلقاً ليس ينقص نظراً إلى إيمان كل مؤمن، فإنه في ذاته غير متفاوت بالنسبة إلى إيمان غيره"[٨٥٤]

القول الثالث: قول من قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

لقد قال بهذا القول طوائف كثيرة من أهل الكلام والإرجاء، والتجهم، وممن نسب له هذا القول:

أبو حنيفة وأصحابه:

لقد اشتهر عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى وغفر له أنه يقول بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واستفاض هذا عنه، بحيث لا يدع مجالاً للشك أو التردد في نسبته إليه، ويمكن أن أبرز أهم الأسباب المؤكدة لصحة نسبة هذا القول إليه في النقاط التالية:

١-إن عامة كتب الفرق والمقالات تنسب هذا القول إليه، كالمقالات لأبي الحسن الأشعري، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادي، والمِلَلْ والنِحَلْ للشهرستاني، وغيرها[٨٥٥].

٢-إن الكتب المؤلفة في العقيدة والمنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله تذكر هذا القول، كالفقه الأكبر، وكتاب العالم والمتعلم، والوسيطين الصغير والكبير والوصية ورسالته إلى البتي[٨٥٦].

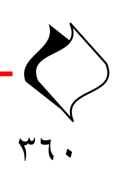
وهذه الكتب إن لم يصح نسبتها جميعاً إليه، فلا بد أن يصح نسبة بعضها أو واحد منها على أقل تقدير إليه، وعلى كل إن لم يصح لا هذا ولا ذاك فإن هذه الكتب مطبوعة متداولة، وقد احتفى بها الأحناف شرحاً ونشراً ونقلاً، فهي عند عامتهم

---

٨٥٤ مشارق الأنوار (ص ٣٥-٣٦).

٨٥٥ المقالات (ص ١٣٩)، الفَرْق بين الفِرَق (ص ٢٠٣)، ونقله عنه الزبيدي في الإتحاف (٢/٢٦٥)، الملل والنحل (١/١٤١).

٨٥٦ انظر فيض الباري للكشميري (١/٥٩).



مسلم بما فيها، وقد شرح بعضها شروح مطولة عديدة، ونقل منها نقولٌ متكاثرة، واعتمد على ما فيها من عقائد[٨٥٧].

ومن قال بهذا القول: الجهمية.

ومن مقولاتهم الفاسدة وآرائهم المنحرفة زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل أهله فيه.

قال الأشعري: "وزعمت الجهمية أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه"[٨٥٨].

وقال الشهرستاني: "قال أي الجهم: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل، قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد، إذ المعارف لا تتفاضل "[٨٥٩].

وجهم وأتباعه إنما قالوا بهذا القول لأن الإيمان عندهم مجرد التصديق، فمن صدق بقلبه فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان وإن تكلم بالكفر، وسب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وسخر بالدين، وأحل المحرمات، وفعل غير ذلك من الأمور التي هي كفر بواح.

والتصديق عندهم يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة والنقصان فهو إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يقبل التبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، ولا يتفاضل الناس فيه، فإيمان الملائكة والأنبياء والصديقين وإيمان فساق الأمة وأهل الخنا والفجور سواء[٨٦٠].

ومن قال بهذا القول: الخوارج والمعتزلة:

ذهبت الخوارج والمعتزلة مذهب أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان من حيث إنه شامل للأعمال والأقوال والاعتقادات، إلا أنهم فارقوا أهل السنة والجماعة بقولهم إن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه لا يقبل التبعض.

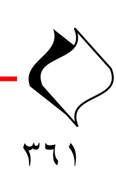
---

٨٥٧ انظر كتاب زيادة الإيمان ونقصانه ص ٣١٨ ..٣١٩

٨٥٨ المقالات (ص ١٣٢).

٨٥٩ الملل والنحل (١/ ٨٨).

٨٦٠ انظر مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢).



ومن هنا كان الإخلال بالأعمال وارتكاب الكبائر عندهم مخرجاً من الإيمان كلية، على خلاف بينهم في تسميته كافراً، فالخوارج قطعوا بكفره، ونازعهم المعتزلة في الاسم وقالوا نحن لا نسميه مؤمناً ولا كافراً، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين أي: بين منزلة الإيمان والكفر، وإن كانوا قد اتفقوا جميعاً أنه يوم القيامة خالد مخلد في نار جهنم[٨٦١].

قال شيخ الإسلام: "قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان، وإذا زال بعضه زال جميعه؛ لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون في العبد إيمان ونفاق، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء"[٨٦٢].

وأصل غلط هؤلاء ومنشأ ضلالهم كما قال شيخ الإسلام: "أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقاً للثواب والعقاب والوعد والوعيد والحمد والذم، بل إما لهذا وإما لهذا فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التي فعلها، وقالوا: "الإيمان هو الطاعة فيزول بزوال بعض الطاعة، ثم تنازعوا هل يخلفه الكفر على القولين ووافقتهم المرجئة والجهمية على أن الإيمان يزول كله بزوال شيء منه، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضل فلا يزيد ولا ينقص وقالوا إن إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والمؤمنين"[٨٦٣].

فهذه الشبهة هي التي أفسدت على هؤلاء قولهم، بل وعلى جميع المرجئة، كما قال شيخ الإسلام: "وإنما أوقع هؤلاء كلهم أي المرجئة بأقسامهم–ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض بل إذا ذهب بعضه ذهب كله، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه"[٨٦٤].

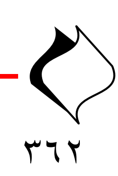
---

٨٦١ انظر الفتاوى (٧/ ٢٢٣، ٢٥٧) وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص ١٣٧).

٨٦٢ الفتاوى (١٣/ ٤٨).

٨٦٣ شرح العقيدة الأصفهانية (ص ١٣٧، ١٣٨)، وانظر الفتاوى (٧/٤٠٤).

٨٦٤ شرح العقيدة الأصفهانية (ص ١٤٣، ١٤٤).



وقال شيخ الإسلام: "وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام كالسكنجبين[٨٦٥] إذا زال أحد جزئيه خرج عن كونه سكنجبين، قالوا فإذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها"[٨٦٦].

وممن قال بهذا القول: الأشاعرة والماتريدية:

لقد ذهب جمهور الأشاعرة وجميع الماتريدية إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لشبه عقلية وأدلة نظرية، وذهب بعض الأشاعرة إلى أن الإيمان يزيد وينقص[٨٦٧].

قال الزبيدي: "وقال أبو حنيفة وأصحابه لا يزيد الإيمان ولا ينقص واختاره أبو منصور الماتريدي ومن الأشاعرة إمام الحرمين وجمع كثير"[٨٦٨].

وقال ابن أبي شريف الحنفي: "وهذا القول-أي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص-اختاره من الأشاعرة أمام الحرمين وجمع كثير، وذهب عامتهم أي أكثر الأشاعرة إلى زيادته ونقصانه"[٨٦٩].

وقال الفرهاري: "مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله والمتكلمين من أهل السنة أنه لا يزيد ولا ينقص"[٨٧٠].

---

٨٦٥ السكنجبين: شراب مركب من حامض وحلوا-معرب-فارسيته: سركا انكبين انظر المعجم الوسيط (١/٤٤٠).

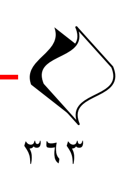
٨٦٦ مجموع الفتاوى (٧/٥١١).

٨٦٧ انظر شرح مسلم للنووي (١/١٤٨)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٤٦)، وعمدة القاري للعيني (١/ ١٣٦) وتحفة القاري "للكاندهلوي" (ص٤٤) مجموع "شروح البخاري" (١/ ١١٢)، النبراس شرح العقائد (ص ٤٠٢)، المسامرة شرح المسايرة (ص ٣٦٧)، أصول الدين للبغدادي (ص ٢٥٢)، وأصول الدين للبزدوي (ص ١٥٣)، والاقتصاد للغزالي (ص ٢٠٨)، والمواقف للإيجي (ص ٣٨٨)، والإنصاف للباقلاني (ص ٨٦)، والإرشاد للجويني (ص ٣٣٥) وغيرها.

٨٦٨ إتحاف السادة المتقين (٢/٢٥٦).

٨٦٩ المسامرة (ص ٣٦٧).

٨٧٠ النبراس شرح العقائد (ص ٤٠٢).



فالماتريدية لهم قول واحد في المسألة وهو أن الإيمان غير قابل للزيادة والنقصان، وأما الأشاعرة فلهم في المسألة قولان: فجمهورهم على أنه لا يقبل الزيادة والنقصان، وذهب بعضهم إلى أنه يقبلهما، والأشاعرة يعرفون الإيمان بأنه التصديق وحده، فلا يدخل فيه القول والعمل، فبحثهم هنا هو في التصديق هل يقبل الزيادة والنقصان أو لا؟

فالذين قالوا لا يزيد ولا ينقص فبناء على أن الإيمان هو التصديق اليقيني الغير قابل للتفاوت، فإن نقص فنقصه شك وكفر، ولشبه أخرى.

ومن قال منهم يزيد وينقص فللقطع بأن تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، واختاره النووي وعزاه التفتازاني في شرح العقائد لبعض المحققين وقال في المواقف إنه الحق[٨٧١]

خامساً: ثمرة الخلاف في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

فمسائل الأسماء لها تناول معين لدى الفرق، ومسائل الأحكام لها تناول معين لدى الفرق، وهذه مسائل يطول شرحها لكن لعل ما أشرنا إليه يُبين ما مدى صفاء عقيدة أهل السنة وأن والإيمان عندهم قولٌ واعتقادٌ وعمل يزيد وينقص، زيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصي.

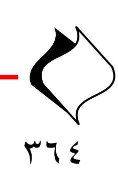
وزيادة الإيمان ونقصانه أمر يراه الإنسان من نفسه، فقد يكون حاله اليوم من الإيمان أحسن من حاله في الأمس، أو قد يكون حاله في الأمس أحسن من حاله في هذا اليوم، فالإيمان فيه زيادة ونقص، فيزيد إلى ما شاء الله، وينقص أحياناً حتى يزول هذا الإيمان ولا يبقى منه شيء، ويُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافرا.

والقول إن الإيمان يزيد وينقص في اعتقاد أهل السنة والجماعة، يترتب عليه أمور كثيرة في مسائل الأحكام، فهذه المسألة مرتبطة بمسألتين:

الأولى: حكم مرتكب الكبيرة.

---

٨٧١ انظر شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٢) وشرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص ١٢٦) والمواقف للأيجي (ص ٣٨٨) وانظر إرشاد الساري للقسطلاني (١/١١٢) ضمن مجموع شروح البخاري.



فالقول بزيادة الإيمان ونقصانه له تعلق بمسألة حكم مرتكب الكبيرة، فأهل السنة لا يرون تكفير مرتكب الكبيرة دون الشرك الأكبر، ويقولون إن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته فلا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية.

والمسألة الثانية: مسألة مراتب الدين.

أي ما يتعلق بدخول الإنسان إلى هذا الدين متى ينتقل في مراتب الدين؛ لأن مراتب الدين ثلاثة: الإسلام، الإيمان، الإحسان، فهي عبارة عن ثلاث دوائر أول دائرة فيه هي الإسلام، ثم هناك دائرة أضيق منها هي الإيمان، ويعني هذا الضيق أن من هو مؤمن هو مسلم، ولكن ليس بالضرورة من كان مسلماً أن يكون مؤمنا، ثم تأتي الدائرة الأضيق هي دائرة الإحسان؛ لأن الإحسان فحواه ومعناه أن تُتقن الظاهر والباطن.

فعندما أقول أحسنت بمعنى أتقنت فالإحسان إتقان الظاهر والباطن، فإذا أُتقن الظاهر والباطن فهذه مرتبة عليا، فكل مسلم مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مؤمن محسن، قد يكون محسن وقد لا يكون محسنا، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة.

كما أنه مرتبط بتفاضل الناس في إيمانهم وتفاضل درجاتهم في الآخرة إلى غير ذلك من المسائل ذات الصلة.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[٢٥] وخير هذه الأمة بعد وفاة نبيها: أبو بكر وعمر وعثمان، هكذا روي لنا عن ابن عمر؛ قال: "كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا:

إن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر وعمر وعثمان ويسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فلا ينكره"[٨٧٢].

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وكلهم يصلح للخلافة.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، القرن الأول الذي بعث فيهم: المهاجرون الأولون والأنصار، وهم من صلى القبلتين.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أو شهراً أو سنة أقل أو كثر، ترحم عليهم وتذكر فضله وتكف عن زلته، ولا نذكر أحدا منهم إلا بخير، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[٨٧٣].

وقال سفيان ابن عيينة: " من نطق في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة فهو صاحب هوى "[٨٧٤].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»[٨٧٥].

(الشرح)

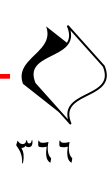
---

٨٧٢ انظر صحيح البخاري كتاب المناقب، بـاب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٣٦٥٥)، وأبو داود (٤٦٢٧)، وأحمد (٤٦١٢).

٨٧٣ انظر المعجم الكبير للطبراني برقم (١٠٤٤٨)، قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة (٧٥) ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضا.

٨٧٤ الغنية لطالبي طريق الحق: ١ / ٧٩.

٨٧٥ انظر السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني الجزء الأول، صفحة (١٤٤) قال: موضوع رواه ابن عبد البر في " جامع العلم " (٢ / ٩١) وابن حزم في " الإحكام " (٦ / ٨٢).



توطئة:

يجدر التنبيه على أمرين هنا

الأمر الأول: تقسيم مسائل الاعتقاد.

الأمر الثاني: ترتيب مسائل الاعتقاد عرضاً وتعليماً.

أما الأمر الأول: فإن مسائل العقيدة مركبة ومقسمة ومبوبة على النحو التالي:

أولاً: أصول مسائل الاعتقاد.

وهذه تشتمل على جانبين:

الجانب التأصيلي:

وهو معرفة أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة التي يستمدون منها علم العقيدة وهي:

- الكتاب.
- السنة.
- فهم سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، ومعرفة موقفهم من العقل والاستدلال به.

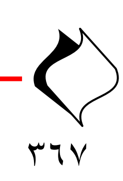
والجانب التقريري:

ويعنون به أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فهذه أصول مسائل الاعتقاد يبدؤون بها، ويستمدون هذا من حديث جبريل عليه السلام حينما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان.

ثانياً: مسائل الأسماء والأحكام.

وهذه تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مسائل الأسماء.



ويعنون بمسائل الأسماء ما يتعلق بتعريف ألفاظ الإسلام والإيمان والإحسان والدين ونحوها من الأسماء والفروق بينها، وما يضاد ذلك من تعريف الكفر والشرك والنفاق والردة ونحوها من المسميات وتحديد مدلولاتها وما يندرج تحتها.

القسم الثاني: مسائل الأحكام.

ويعنون بها متى يكون الشخص مسلماً أو مؤمناً أو محسناً ونحوها من الألفاظ، ومتى يكون كافراً أو مشركاً أو منافقاً أو مرتداً أو مبتدعاً أو فاسقاً، إلى غير ذلك من الأحكام التي وردت في نصوص الشرع، وما هي شروط وموانع تكفير المعين وما يلحق ذلك من مسائل.

ثالثاً: ملحقات مسائل الاعتقاد.

وهي المسائل المتعلقة بالصحابة والخلافة والإمامة الكبرى، والموالاة والمعاداة، ويعتبرونها ملحقات لمسائل العقيدة.

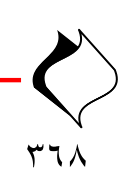
وأما الأمر الثاني فهو يتعلق بترتيب مسائل الاعتقاد عرضاً وتعليماً.

فإذا علم أن أبواب الاعتقاد مقسمة إلى:

- أصول الاعتقاد.
- مسائل الأسماء والأحكام.
- ملحقات بمسائل الاعتقاد.

فعلى طالب العلم سواء كان معلماً أو متعلماً أن يتعلمها على هذا الترتيب، وأن لا يخرج عنه، وأن يحذر من محاولات أهل الباطل الإخلال بهذا الترتيب، وبخاصة محاولاتهم البدء بمسائل الأسماء والأحكام قبل الانتهاء من معرفة ودراسة أصول المعتقد.

وأما قول المصنف: **"وخير هذه الأمة بعد وفاة نبيها: أبو بكر وعمر وعثمان، هكذا روي لنا عن ابن عمر؛ قال: "كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم**



بين أظهرنا: إن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر وعمر وعثمان ويسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فلا ينكره"[٨٧٦].

أولاً: هذه المسائل المتعلقة بالمفاضلة بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يذكرها العلماء دائماً توطئة لمسائل الخلافة والإمامة.

فهذه مسألة تفضيل أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على باقي الصحابة، ويدخل فيها مسألة تفضيل عثمان على علي.

فأهل السنة يعتقدون بأن خير هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان، ثم علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك يأتي بقية العشرة، ثم يأتي بعد هذا أهل بدر، ثم يأتي بعد ذلك أهل بيعة شجرة الرضوان، ثم بعد ذلك يأتي أهل الفتح فتح مكة ثم بعد ذلك يتوالى الفضل بحسب أقدمية ذلك الذي أسلم من الصحابة.

قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: «ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم أجمعين، كما دلَّت عليه الآثارُ»[٨٧٧].

وقد أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، وإن كان بعض السلف قد اختلفوا في التفضيل بين عثمان وعلي-فإنهم لم يختلفوا في الترتيب في البيعة للخلافة، وكل مَن خالف الترتيب في الخلافة فإنه من أهل البدع.

وترتيب أهل السنة: (أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم أجمعين).

---

٨٧٦ انظر صحيح البخاري كتاب المناقب، باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٣٦٥٥)، وأبو داود (٤٦٢٧)، وأحمد (٤٦١٢).

٨٧٧ مجموع الفتاوى ٢/ ٩١.

وإن كان ثَمَّ خلاف في التفضيل بين عثمان وعليٍّ، ولكنه لا يترتب عليه أي أثر في الانتساب لأهل السنة؛ «فقدَّم قومٌ عثمانَ، وسكتوا، وربَّعوا بعليٍّ، وقدَّم قومٌ عليًّا، وقومٌ توقَّفوا، لكن استقرَّ أمرُ أهلُ السُّنَّة على تقديم عُثْمَان ثم عليٍّ.

وإنْ كانتْ هذه المسْألَةُ (مَسْألَةُ عُثْمَانَ وعليٍّ) ليستْ من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عند جمهورِ أَهْلِ السُّنَّة، لكن التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ؛ وذلك لأنهم يؤمنون أنَّ الخليفةَ بَعْدَ رسولِ الله ﷺ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ومَن طَعَنَ في خلافة أحدٍ مِن هؤلاء فهو أضلُّ مِن حِمَارِ أَهْلِهِ».

فلهم مِن الفضل ومِن المكانة ما هو مُجمع عليه بين أهل السُّنَّة.

ثانيًا: ذكر تفاضل الأربعة رضوان الله عليهم. [٨٧٨]

أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تفضيل أبي بكر وتقديمه على سائر الصحابة ثم تفضيل عمر بعده على عثمان ثم عثمان بعد عمر على من بعده رضوان الله عليهم، وكانوا يتحدثون بذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسمعهم فلا ينكره، ثم أجمعوا على تقديم علي بعد عثمان فقدموه وبايعوه بالخلافة.

فالصحابة مجمعون على تفضيل أبي بكر على عمر ثم عمر على عثمان ثم عثمان على علي رضي الله عنهم أجمعين، ولقد اتفق–الناس–الصحابة وغيرهم–بعد مقتل عمر رضي الله عنه على تفضيل عثمان، حكى هذا الاتفاق صاحب رسول الله صلى عليه وسلم، عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، أما عبد الرحمن فقد قال في قصة بيعة عثمان رضي الله عنه لما اختاره للخلافة بعد عمر: « أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان[٨٧٩] وكان قد

---

٨٧٨ المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة: ص ٢٥٢ ـ ٢٦٤

٨٧٩ أخرجه البخاري انظره مع الفتح ١٣/ ١٩٤، وقد كان عبد الرحمن رضـي الله عنه قد اجتهد غاية الاجتهاد قال ابن كثير في الباعث الحثيث ص ١٥٥: «حتى سأل النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب فلم يرهم يعدلون بعثمان أحداً.

قال رضي الله عنه قبل ذلك للشيخين عثمان وعلي رضي الله عنهما حين التشاور: «أفتجعلونه-(يعني أمر الاختيار)-إلي والله على أن لا آلو عن أفضلكم»[٨٨٠] وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما استخلف عثمان: « أمرنا خير من بقي ولم نأل [٨٨١] وقال رضي الله عنه: « إنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نأل عن خيرنا ذي فوق فبايعنا أمير المؤمنين عثمان »).[٨٨٢](٤)

وقال الإمام أحمد: «لم يكن بين أصحاب رسول الله اختلاف إن عثمان أفضل من علي)[٨٨٣].

ومضى اعتقاد أهل السنة والجماعة على ذلك إلا ما كان من خلاف يسير في المفاضلة بين عثمان وعلي أيهما أفضل؟ بعد أن أجمعوا على تقديم أبي بكر وعمر عليهما في الفضل بلا خلاف.

وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف.

قال الشافعي رحمه الله: «ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما اختلف من اختلف منهم في علي وعثمان ». قال البيهقي-بعد ذكره قول الشافعي هذا بسنده-: «وروينا عن جماعة من التابعين وأتباعهم نحو هذا [٨٨٤] وقال يحي بن سعيد القطان: «من أدركت من

---

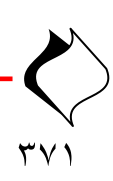
٨٨٠ أخرجه البخاري انظره مع الفتح ٧/ ٦١.

٨٨١ أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١/ ٤٦١، قال المحقق: «إسناده صحيح، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٦٣، والفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ٧٦٠، والخلال في السنة ص ٣٨، وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٨٨: «رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح، وأخرجه اللالكائي في الشرح ٧/ ١٣٤٢.

٨٨٢ أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١/ ٢٩٦، ٤٦٣، قال المحقق في ص ٢٩٦: «رجال الإسناد ثقات، وقال في ص ٤٦٧: «إسناده حسن، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٦٣، والفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ٧٦١، وأخرجه اللالكائي في الشرح.٧/ ١٣٤٢.

٨٨٣ السنة للخلال ٣٩٢.

٨٨٤ الاعتقاد ٣٦٩.



أصحاب النبي والتابعين لم يختلفوا في أبي بكر وعمر وفضلهما إنما كان الاختلاف في علي وعثمان[٨٨٥] والخلاف الذي وقع في ذلك خلاف يسير، وما وقع إلا في المفاضلة بينهما، وتقديم أحدهما على الآخر في الفضل دون الخلافة، فإنهم مجمعون بلا خلاف على تقديم عثمان على علي في الخلافة، وعلى صحة الخلافتين، ثم إن ذاك الخلاف قد انقضى واستقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ورجع بعض من قال بتقديم علي إلى تقديم عثمان، يقول ابن تيمية رحمه الله: «مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا)، قال: «لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي، وإن كانت هذه المسألة–مسألة عثمان وعلي–ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله»[٨٨٦].

وقال ابن عبد البر بعد ذكره للخلاف الواقع بين أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي: «وأهل السنة اليوم على ما ذكرت لك من تقديم أبي بكر في الفضل على عمر وتقديم عمر على عثمان وتقديم عثمان على علي رضي الله عنهم»[٨٨٧] وقال ابن الصلاح: «وتقديم عثمان هو الذي استقرت عليه مذاهب أصحاب الحديث والسنة[٨٨٨]»

---

٨٨٥ شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧/ ١٣٦٧.

٨٨٦ العقيدة الواسطية–ضمن المجموعة العلمية السعودية–ص ٨٦.

٨٨٧ الاستيعاب –بهامش الإصابة–٣/ ٥٤.

٨٨٨ المقدمة ص ١٩٩.

قال ابن حجر: «الإجماع انعقد بأخره بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة»[٨٨٩].

وحاصل ما كان عليه أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي قبل انعقاد إجماعهم على تفضيل عثمان ثلاثة مذاهب:

الأول: تفضيل عثمان ثم علي –وكان مذهب الجمهور.

الثاني: تفضيل علي ثم عثمان–وكان قد ظهر في أهل الكوفة.

الثالث: التوقف عن المفاضلة بينهما، وكان قد ظهر في أهل المدينة.

فالمذهب الأول هو الذي كان عليه عامة أهل السنة كما قال ابن عبد البر[٨٩٠] والخطابي[٨٩١]، وابن حجر[٨٩٢] وغيرهم، وفي هؤلاء من توقف في التفضيل عند عثمان فقال بتفضيل عثمان بعد عمر وسكت على ذلك، مع اعتقاده بالتربيع بعلي، وإنما قصد بالتوقف عند عثمان الاقتداء بحدث ابن عمر المتقدم، وهم لا يقدمون على علي أحداً بعد الثلاثة، ومن هؤلاء أحمد بن حنبل وصرح رحمه الله بأن التوقف عند عثمان إنما هو عمل بحديث ابن عمر فقال: نقول أبو بكر وعمر وعثمان ونسكت، على حديث ابن عمر»[٨٩٣] وقال رحمه الله: «فإن قال قائل من بعد عثمان؟ قلت: علي [٨٩٤] وقال رحمه الله لمن سأله عمن قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، قال: « أذهب إليه، ويعجبني أن أقول أبو بكر وعمر وعثمان وأسكت، وإن قال رجل: وعلي، لم أعنفه، ولا يعجبني هذا القول. قال ابن عمر: أبو بكر وعمر وعثمان، ونترك

---

٨٨٩ فتح الباري ٧/ ٣٤.

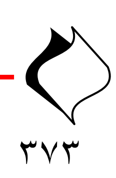
٨٩٠ الاستيعاب ٣/ ٥٤.

٨٩١ معالم السنن –بهامش المختصر –٧/ ١٨.

٨٩٢ فتح الباري ٧/ ١١.

٨٩٣ السنة للخلال ص ٣٩٧.

٨٩٤ السنة للخلال ص ٤. ٥.



أصحاب رسول الله له لا نفضل بينهم[٨٩٥] وقال رحمه الله: « من وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهو على غير السنة[٨٩٦].

وهذا المسلك مروي عن جماعة من أئمة أهل السنة كيحيى بن معين وبشر بن الحارث ويزيد بن زريع ومحمد بن عبيد وعبد الله بن المبارك، وغيرهم[٨٩٧]، وسبق بيان أن ما ورد في حديث ابن عمر من السكوت عن علي متأول بأمور منها أن الإجماع المنعقد على تقديم علي بعد عثمان إنما حدث بعد الزمن الذي قيده ابن عمر.

وأما المذهب الثاني وهو تفضيل علي ثم عثمان بعد أبي بكر وعمر فهو كان مذهب عامة أهل الكوفة، قال الخطابي: «ذهب أكثر أهل الكوفة إلى تقديمه-(يعني عليا)-على عثمان رضي الله عنهما قال: « وحدثني محمد بن هاشم حدثنا أبو يحي بن أبي ميسرة عن عبد الصمد قال: قلت لسفيان الثوري: «ما قولك في التفضيل؟ فقال: أهل السنة من أهل الكوفة يقولون: أبو بكر وعمر وعلي وعثمان، وأهل السنة من أهل البصرة يقولون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، قلت: فما تقول أنت؟ قال: أنا رجل كوفي، قال الخطابي: «قلت: وقد ثبت عن سفيان أنه قال في آخر قوليه: «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم»[٨٩٨]، وكما رجع

سفيان الثوري رجع غيره من أهل الكوفة. كما قال ابن تيمية رحمه الله: «إن سفيان الثوري وطائفة من الكوفة رجحوا علياً ثم عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره»[٨٩٩]

---

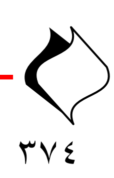
٨٩٥ السنة للخلال ص ٤. ٥.

٨٩٦ طبقات الحنابلة ١/ ٣١٣.

٨٩٧ انظر السنة للخلال ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٠، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧/ ١٣٨٩، ١٣٩٢، ١٣٦٩.

٨٩٨ معالم السنن-بهامش المختصر -٧/ ١٨.

٨٩٩ الفتاوى ٤/ ٤٢٦؛ وانظر منهاج السنة ٢/ ٧٣، ٧٤.



وقال ابن حجر: «ذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان، وممن قال به سفيان الثوري، ويقال أنه رجع عنه، وقال به ابن خزيمة وطائفة قبله وبعده[٩٠٠] هذا، وقد روى الخلال بسنده عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: «كان رأي سفيان الثوري: أبو بكر وعمر ثم يقف» [٩٠١] وكان التوقف مذهب يحيي بن سعيد وقال الإمام أحمد: «بلغني أن يحيي كان يقف عند ذكر عمر» قال: «وكان يأخذه من سفيان »[٩٠٢] يعني الثوري، فلا أدري متى كان التوقف من سفيان؟ والله أعلم.

وأما المذهب الثالث وهو التوقف عن المفاضلة بينهم، فهو رواية عن مالك، ففي المدونة قال ابن القاسم: «وسألت مالكا عن خير الناس بعد نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، فقال: أبو بكر ثم قال: أو في ذلك شك؟ قال ابن القاسم: فقلت لمالك: فعلي وعثمان أيهما أفضل فقال: ما أدركت أحدا ممن أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه-يعني عليا وعثمان-ويرى الكف عنهما [٩٠٣]

وروى ابن عبد البر بسنده أن مالكا سئل: من تقدم بعد رسول الله؟ قال أقدم أبا بكر وعمر ولم يزد على هذا. وروى أيضا قول مالك: «ليس من أمر الناس الذين مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس[٩٠٤] وروى اللالكائي بسنده أن مالكا سئل عن علي وعثمان فقال: « ما أدركت أحداً ممن يقتدى به إلا وهو يرى الكف عنهما، يريد التفضيل بينهما، فقيل له: فأبو بكر وعمر فقال: ليس في أبي بكر وعمر شك، يريد أنهما أفضل من غيرهما[٩٠٥]، وقد ذكر ابن تيمية أن مالكاً رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان ثم علي فقال: « أما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما

---

٩٠٠ فتح الباري ٧/ ١٦ وانظر الباعث الحثيث ص ١٥٦.

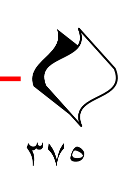
٩٠١ السنة ٣/٣٧ وقال المحقق: إسناده صحيح».

٩٠٢ رواه الخلال بسنده في السنة ص ٣٧٢، وقال المحقق وإسناده صحيح).

٩٠٣ المدونة ٦/ ٤٥١.

٩٠٤ الانتقاء ٣٠، ٣٩.

٩٠٥ شرح أصول الاعتقاد ٧/ ٣٦٨.



وهي إحدى الروايتين عن مالك[٩٠٦] وقال في موضع آخر: «وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي، وهي إحدى الروايتين عن مالك، لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب سائر الأئمة»[٩٠٧] وقد اعتمد ابن رشد في كلام له تقديم عثمان ثم علي مذهب المالك وقال: « وقيل: إنه الذي رجع إليه مالك بعد أن وقف في عثمان وعلي، فلم يفضل أحدهما على صاحبه على ظاهر ما وقع في كتاب الديات من المدونة » قال ابن رشد: «على أنه كلام محتمل للتأويل»[٩٠٨] وذكر السيوطي أنه قد حكى القاضي عياض عن الإمام مالك أنه رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان، قال القرطبي: وهو الأصح إن شاء الله [٩٠٩] ولعل من وافق مالكا على التوقف قبل الرجوع يكون قد رجع إلى تفضيل عثمان على علي كما رجع مالك موافقة له في الرجوع بعد موافقته في التوقف، ولقد روى الخلال بسنده عن أيوب السختياني أنه قال: « دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد وسليمان وغيرهما فما رأيت أحدا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان[٩١٠].

وتوقف في المفاضلة بين عثمان وعلي من غير أهل المدينة يحيى بن سعيد القطان من أهل البصرة وقد استغرب عبد الرحمن بن مهدي ذلك فقال ليحيى: «بمن تقتدي في هذا وأهل البصرة ليس هذا قولهم؟!»[٩١١] ذكر ابن حجر أن يحيى القطان تبع مالكا في التوقف[٩١٢]، ولكن قد سبق قبل قليل قول الإمام أحمد أن يحيى أخذ التوقف عن سفيان الثوري، ويحيى قد حكى هذا القول عن سفيان فقد أخرج الخلال أن يحيى بن

---

٩٠٦ منهاج السنة ٢/ ٧٣.

٩٠٧ الفتاوى ٤/ ٤٢٦.

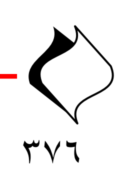
٩٠٨ الجامع من المقدمات ١٧٤ وانظر حاشية المحقق رقم (٣).

٩٠٩ تدريب الراوي ٢/ ٢٢٣، وانظر لوامع الأنوار ٢/ ٣٥٦.

٩١٠ السنة ص ٤٠٣.

٩١١ السنة للخلال ص ٣٧٢، ٣٧٣.

٩١٢ فتح الباري ٧/ ١٦.



معين قال: «قال يحي بن سعيد: كان رأي سفيان الثوري: أبو بكر وعمر ثم يقف، قال يحي بن معين: «وهو رأي يحي بن سعيد»[٩١٣] كأنه يشير إلى أن ذلك منه موافقة السفيان فيما رواه عنه. والله أعلم.

والحاصل أن ما روي عن أئمة السلف من تقديم علي على عثمان أو التوقف فيهما قد رجعوا عنه واستقر مذهب أهل السنة على تفضيل عثمان ثم علي. وهذا هو المذهب الحق الذي لا يجوز العدول عنه لثبوته بالأدلة الشرعية من السنة والإجماع وسبق بيانهما من حديث ابن عمر وإجماع الصحابة على تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر وجميع ذلك ثابت صحيح كما تقدم، ولذلك قال الإمام أحمد: «كل من قدم علية ثم عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار[٩١٤] وكذلك قال حماد بن زيد[٩١٥] وروي نحو ذلك عن جماعة من الأئمة كسفيان الثوري والدارقطني وغيرهم[٩١٦].

حتى أن الأئمة قد تكلموا في تبديع من يقدم علياً على عثمان على قولين[٩١٧].

وروي عن بعضهم أنه قال: من قدم علي علي عثمان فعليه لعنة الله، وبعضهم قال: فهو أحمق[٩١٨].

هذا، وقد ذكر ابن حزم[٩١٩] عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم سمى بعضهم، أن منهم من قال: أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال وبعد جعفر حمزة، وأن منهم من قال إن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود، وغير ذلك مما ذكره ابن حزم عن بعض السلف

---

٩١٣ السنة ص.٣٧٣.

٩١٤ السنة للخلال ص ٣٩٢.

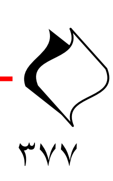
٩١٥ شرح أصول الاعتقاد ٧/ ١٣٧٠.

٩١٦ انظر السنة للخلال ٣٧٠، و٣٩٢ والفتاوى ٤/ ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٨.

٩١٧ انظر السنة للخلال هي ٣٨٠-٨٣٢، والفتاوى ٤/ ٤٢٦.

٩١٨ انظر شرح أصول الاعتقاد ٧/ ١٣٧٠.

٩١٩ انظر الفصل ٤/ ١١١



من غير أن يذكر إسناداً؛ لما رواه عنهم، وقد قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما ما يحكي عن بعض المتقدمين من تقديم جعفر وتقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك في أمور مخصوصة لا تقديماً عاماً وكذلك ما ينقل عن بعضهم في علي[٩٢٠].

ويشهد لما قاله ابن تيمية من كلام ابن حزم نفسه فقد حمل ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها في ذكرها زوجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم على أنه مذهبها في التفضيل، قال: «وروينا عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها تذكرت الفضل ومن هو خير فقالت: ومن هو خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩٢١]، والمروي عن أم سلمة في ذلك ما جاء في سياق قصة زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم من قولها: «فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه، قال: «ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت قصة خطبة النبي لها ثم زواجها منه صلى الله عليه وسلم حتى قولها: «فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩٢٢] وحمل ما ورد في هذه الرواية عن أم سلمة أنه مذهبها وقولها في أفضل الناس بعد رسول الله-كما حمله ابن حزم- عجيب غاية العجب، ولقد وردت أحاديث في تفضيل أعيان من الصحابة كل واحد في أمر مخصوص كما في حديث: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبي ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح[٩٢٣] ونحو ذلك

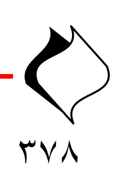
---

٩٢٠ منهاج السنة ٢٢/ ٧٤.

٩٢١ الفصل ٤/ ١١١.

٩٢٢ أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٧، ٢٨، ٦/ ٣١٣، ٣١٧، ٣٢١، والحاكم ٤/ ١٦، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر الفتح الرباني ٢١/ ٦٧، ٦٨، وأصله في صحيح مسلم ٢/ ٦٣٣.

٩٢٣ أخرجه الترمذي ٥/ ٦٢٣، وابن ماجه ١/ ٢٥٥، وأحمد في المسند ٣/ ١٨٤، ٢٨١.



من الأحاديث ومن قال من السلف مثلا أفرض الصحابة زيد فليس هذا قول منه بأنه أفضل الصحابة بعد النبي وإن توهم الواهم ذلك.

وقد روى الذهبي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: وما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا ركب الكور رجل أفضل من جعفر». ثم قال الذهبي: «هذا ثابت عن أبي هريرة، ولا ينبغي أن يزعم زاعم أن مذهبه: أن جعفراً أفضل من أبي بكر وعمر، فإن هذا الإطلاق ليس هو على عمومه، بل يخرج منه الأنبياء والمرسلون، فالظاهر أن أبا هريرة لم يقصد أن يدخل أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهم»[٩٢٤].

ومن قبيل ما ذكره ابن تيمية رحمه الله ما حكاه الخطابي عن بعض المتأخرين إذ قال: «وللمتأخرين في هذا مذاهب، منهم من قال بتقديم أبي بكر من جهة الصحابة وبتقديم علي من جهة القرابة » قال: وكان بعض مشايخنا يقول: أبو بكر خير وعلي أفضل قال: وباب الخيرية غير باب الفضيلة، قال: وهذا كما تقول: إن الحر الهاشمي أفضل من العبد الرومي والحبشي، وقد يكون العبد الحبشي خيراً من هاشمي في معنى الطاعة لله والمنفعة للناس، فباب الخيرية متعد وباب الفضيلة لازم[٩٢٥] وهذا الذي حكاه الخطابي هو في معنى ما تقرر من أنه قد تكون في المفضول فضيلة لا توجد في الفاضل من غير أن ينال ذلك من تفضيل الفاضل على المفضول، والله أعلم.

وكان ابن عبد البر قال: «اختلف السلف أيضا في تفضيل علي وأبي بكر»[٩٢٦] قال الزركشي: «قد غلط في ذلك ووهم»[٩٢٧] كيف وهو نفسه ممن نقل اجتماع السلف والخلف على أن عليا أفضل الناس بعد عثمان[٩٢٨].

---

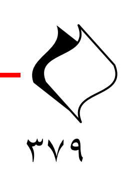
٩٢٤ السير ١٤/ ٥٠٦.

٩٢٥ معالم السنن –بهامش المختصر– ٧/ ١٨، ١٩.

٩٢٦ الاستيعاب –بهامش الإصابة ٣/ ٥٢.

٩٢٧ الإجابة ص ٥٤.

٩٢٨ انظر الاستيعاب ٣/ ٥٢.



وأما قول المصنف: **"ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وكلهم يصلح للخلافة"**.

وهذه مسألة المفاضلة بين الصحابة بعد الخلفاء الثلاثة[٩٢٩].

وقد اختلف في هذه المسألة على عدة أقوال:

القول الأول: أنه يلي الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان في الفضل بقية أصحاب الشورى الخمسة.

فقد جاء في عقيدة الإمام أحمد وعلي بن المديني اللتان رواهما اللالكائي بسنده عنهما أنه يلي الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان في الفضل بقية أصحاب الشورى الخمسة: علي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص[٩٣٠]. وهما لا يقدمان على علي أحدا بعد الثلاثة بل قالا هذا موافقة لحديث ابن عمر كما تقدم بيانه.

قال ابن تيمية رحمه الله: «ما في أهل السنة من يقول: إن طلحة والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف أفضل منه-(يعني من علي)-بل غاية ما يقولون السكوت عن التفضيل بين أهل الشورى وهؤلاء أهل الشورى عندهم أفضل السابقين الأولين، والسابقون الأولون أفضل من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا[٩٣١]، والحاصل أن بقية أصحاب الشورى الذين جعل عمر رضي الله عنه فيهم الأمر من بعده يختارون أحدهم، أفضل الصحابة بعد علي رضي الله عنه عند أهل السنة والجماعة، وقال الإمام أحمد: «ثم من بعد أصحاب الشورى: أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله عليه على قدر الهجرة والسابقة أولاً فأول»[٩٣٢].

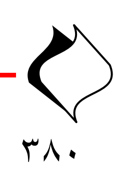
---

٩٢٩ المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

٩٣٠ شرح أصول الاعتقاد ١/ ١٥٩، ١٦٧، وطبقات الحنابلة ١/ ٢٤٣.

٩٣١ منهاج السنة ٤/ ٣٩٧.

٩٣٢ شرح أصول الاعتقاد ١/ ١٥٩.



القول الثاني: أفضل الصحابة بعد الأربعة بقية العشرة المبشرين بالجنة.

فقد نقل جماعة من أهل العلم أن أفضل الصحابة بعد الأربعة بقية العشرة المبشرين بالجنة وهم أصحاب الشورى المذكورون وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو عبيدة بن الجراح[٩٣٣].

وأما القول في الترتيب بعد العشرة فقد اختلف السلف في ذلك

القول الأول: أن بعد العشرة أهل بدر، ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان.

أن من بعد العشرة أهل بدر الذين قال فيهم: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت الكم»[٩٣٤] وفي لفظ «فقد وجبت لكم الجنة»[٩٣٥] وجاء جبريل إلى النبي له فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين– أو كلمة نحوها–قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة[٩٣٦] ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان الذين قال الله فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [الفتح: ١٠] وقال فيهم: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨) وقال فيهم: «لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها [٩٣٧].

وقد كانوا أكثر من ألف وأربعمائة صحابي كما في الصحيح)[٩٣٨] .

---

٩٣٣ انظر عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي –ضمن المجموعة العلمية السعودية –ص ٣٥، والجامع من المقدمات ص ١٧٥، ومقدمة ابن الصلاح ١٤٩، والباعث الحثيث ص ١٥٦، وتقريب النواوي وشرحه التدريب ٢/ ٢٢٣، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٥٧، ومعارج القبول ٢/ ٥٨٤.

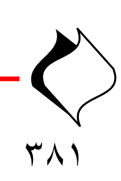
٩٣٤ متفق عليه، وقد سبق

٩٣٥ البخاري مع الفتح ٧/ ٣٠٥.

٩٣٦ أخرجه البخاري، الصحيح مع الفتح ٧/ ٣١٢.

٩٣٧ أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٤٢.

٩٣٨ صحيح البخاري مع الفتح ٧/ ٤٤١، ٤٤٣، ٤٥٣.



ذكر هذا الترتيب في الفضل بعد العشرة النووي[٩٣٩]، وابن الصلاح[٩٤٠]، وابن كثير[٩٤١].

القول الثاني: تقديم أهل بيعة الرضوان على أهل أحد بعد أهل بدر.

فقد ذكر السفاريني تقديم أهل بيعة الرضوان على أهل أحد بعد أهل بدر وقال هو الأصح، وقال: «لأن الله تعالى قال في أهل بيعة الرضوان: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } [الفتح: ١٨] وقال في أهل غزوة أحد: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥]، وفي الآية الأخرى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ } [آل عمران: ١٥٢]-فوصفهم في الموضعين بالعفو ووصف أهل البيعة بالرضى وهو أعلى وأسنى وأفضل من العفو، قال: وهذا ظاهر والله تعالى أعلم)[٩٤٢] .

وأما قول المصنف: **"ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، القرن الأول الذي بعث فيهم: المهاجرون الأولون والأنصار، وهم من صلى القبلتين".**

هذه المسألة تتعلق بتفاضل جماعات الصحابة [٩٤٣].

لقد دل كتاب الله على تفاضل جماعات الصحابة، فالله عز وجل فضل الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، والمقصود بالفتح صلح

---

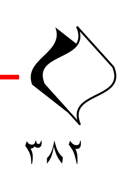
٩٣٩ التقريب مع التدريب ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤.

٩٤٠ المقدمة ١٤٩.

٩٤١ اختصار علوم الحديث -مع الباعث الحثيث-١٥٦.

٩٤٢ اللوامع ٢/ ٣٧٢.

٩٤٣ المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٦٧ . ٢٧٣.



الحديبية[٩٤٤]. قال سبحانه: {لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: ١٠]، وفضل الله السابقين

الأولين من المهاجرين والأنصار على من دونهم، فقال سبحانه: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} الآية [التوبة: ١٠٠].

وهذا نص على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما يقول القرطبي[٩٤٥]، وقد اختلف في تعيين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على أقوال[٩٤٦]:

القول الأول: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين.

القول الثاني: أنهم أهل بيعة الرضوان.

القول الثالث: أنهم أهل بدر.

القول الرابع: أنهم جميع الصحابة بلا استثناء وأن الذين اتبعوهم بإحسان هم تابعوهم من غير الصحابة.

هذه الأقوال المنقولة عن السلف من الصحابة والتابعين، وزاد المتأخرون قولين:

القول الخامس: أنهم السابقون بالموت والشهادة، قال ابن الجوزي: ذكره الماوردي[٩٤٧]

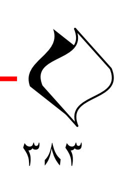
---

٩٤٤ كان الصحابة يعدون الفتح يوم الحديبية كما رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه، انظر الصحيح مع الفتح ٧/ ٤٤١، وفي البخاري من حديث عمر رضي الله عنه أن قوله: «إنا فتحنا لك فتحا مبينا، نزل في منصرفه له من الحديبية.

٩٤٥ انظر تفسيره ٨/ ٢٣٦.

٩٤٦ انظر تفسير الطبري ١١/ ٦، والاستيعاب -بهامش الإصابة- ١/ ٢، ٣ وزاد المسير ٣/ ٤٩٠، وتفسير القرطبي ٨/ ٢٣٦، والدر المنثور ٣/ ٢٦٩،٢٧٠.

٩٤٧. زاد المسير ٣/ ٤٩٠.



القول السادس: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة، قال ابن الجوزي: ذكره القاضي أبو يعلى[٩٤٨].

قال القرطبي: «واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من المهاجرين الأولين من غير خلاف بينهم»[٩٤٩]، والذي أرى في اللفظ دلالة عليه أن المراد بالسابقين الأولين الذين سبقوا إلى الإسلام والهجرة والنصرة وابتدروا ذلك قبل تمكن الإسلام وتتابع الناس عليه، ولا شك أن أول من يدخل في هؤلاء أوائل من أسلم من المهاجرين كالخلفاء الأربعة ومن الأنصار الذين أسلموا ليلتي العقبة. ولعل جميع من أسلم حتى غزوة الحديبية من السابقين الأولين[٩٥٠]، ذلك أن صلح الحديبية كان فتحًا للمسلمين، فقد نزل قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} [الفتح: ١] في منصرفه له من الحديبية [٩٥١]، ولم يكن الصحابة يعدون الفتح إلا الحديبية كما قال البراء رضي الله عنه: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية» [٩٥٢] وفي مغازي الواقدي عن أبي بكر وعمر أن كلا منهما قال: «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية [٩٥٣] فكان يوم الحديبية فتحاً للإسلام والمسلمين تتابع الناس بعده على الإسلام لما ترتب على الصلح من وقوع الأمن ورفع الحرب وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك كما وقع لخالد وعمرو وغيرهما، ولعله مما يقوي هذا الرأي تفسير جمع من أهل العلم الفتح

---

٩٤٨ زاد المسير ٣/ ٤٩١

٩٤٩ تفسير القرطبي ٨/ ٢٣٦.

٩٥٠ انظر سير أعلام النبلاء ١/ ١٤٤، ١٤٥ ففيه سرد أسماء واحد وخمسين صحابيًا من السابقين إلى الإسلام ذكرهم الذهبي تحت عنوان والسابقون الأولون.

٩٥١ كما ثبت في صحيح البخاري، انظره مع الفتح ٨/ ٥٨٣، ٥٨٧.

٩٥٢ أخرجه البخاري، انظر الصحيح مع الفتح ٧/ ٤٤١.

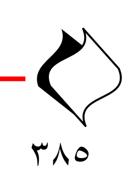
٩٥٣ المغازي ٢/ ٦٠٩-٦١٠.

بالحديبية في قوله: {لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا} [الحديد:١٠] فيستأنس بهذا التفضيل في الآية على أنه للسابقين الأولين، وبتفسير العلماء للفتح بالحديبية على أن السابقين هم من أسلم قبل الحديبية. والله أعلم.

ودل كتاب الله على تفضيل المهاجرين على الأنصار فقد قدم الله ذكرهم على ذكر الأنصار في كتابه، قال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيم} [الأنفال: ٧٤] فقدم ذكر الذين هاجروا على الذين آووا ونصروا.

وقال سبحانه: {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} [التوبة: ١١٧] فبدأ بذكر المهاجرين بعد النبي له ثم بذكر الأنصار، وقال سبحانه: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون، وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [الحشر: ٨، ٩]، فبدأ بذكر المهاجرين ثم الأنصار، وأفرد سبحانه ذكر المهاجرين في مواضع من كتابه كقوله: {فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}... الآية [آل عمران: ١٩٥] وقال سبحانه: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُون} [التوبة: ٢٠].

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُون، الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون} [النحل: ٤١، ٤٢].



قال ابن تيمية رحمه الله في بيان أصول أهل السنة: «ويفضلون من أنفق من قبل الفتح–وهو صلح الحديبية–وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار»[٩٥٤].

وفي عقيدة الإمام أحمد أنه «كان يقول: أفضل الصحابة أهل بيعة الرضوان وخيرهم وأفضلهم أهل بدر، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وأعيانهم الأربعون أهل الدار، وخيرهم عشرة شهد لهم النبي عه بالجنة وهو عنهم راض وأعيانهم أهل الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين وأفضلهم الخلفاء الأربعة[٩٥٥].

وأما قول المصنف: "**ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أو شهراً أو سنة أقل أو كثر**".

صنف العلماء الصحابة في طبقات اختلفوا في عددها، قال السيوطي في شرح التقريب: «واختلف في عدد طبقاتهم–يعني الصحابة–باعتبار السبق إلى الإسلام أو الهجرة أو شهود المشاهد الفاضلة، فجعلهم ابن سعد خمس طبقات وجعلهم الحاكم اثنتي عشرة طبقة»[٩٥٦].

قال أحمد شاكر رحمه الله: «وزاد بعضهم أكثر من ذلك، والمشهور ما ذهب إليه الحاكم[٩٥٧].والمراتب التي جعلها الحاكم للصحابة هي:

١–قوم أسلموا بمكة.

٢–أصحاب دار الندوة.

٣–المهاجرة إلى الحبشة.

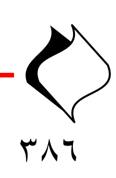
---

٩٥٤ العقيدة الواسطية –ضمن المجموعة العلمية ص ٨٥.

٩٥٥ طبقات الحنابلة ٢/ ٢٧٢.

٩٥٦ تدريب الراوي ٢/ ٢٧٢.

٩٥٧ الباعث الحثيث ص ١٥٦.



٤-أصحاب بيعة العقبة الأولى.

٥-أصحاب بيعة العقبة.

٦-أول المهاجرين الذين وصلوا والنبي في قباء قبل أن يدخلوا المدينة ويبني المسجد.

٧-أهل بدر.

٨-المهاجرة الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

٩-أهل بيعة الرضوان.

١٠-المهاجرة بين الحديبية والفتح.

١١-الذين أسلموا يوم الفتح.

١٢-صبيان وأطفال رأوا النبي له يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرها وعدادهم في الصحابة[٩٥٨].

ولعل المراتب السبع الأولى هي مراتب السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والله أعلم.

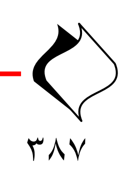
أما الطبقات الخمس التي جعلها ابن سعد في كتابه للصحابة فالأمر فيها ما قاله أحمد شاكر: «لو كان المطبوع كاملًا لاستخرجناها منه وذكرناها»[٩٥٩]، وأظن أن الطبقات التي جعلها ابن سعد هي الطبقات التي صنف عليها ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» من ترجم له من الصحابة، فإنه قال: «بدأت بذكر العشرة ثم ذكرت من بعدهم على ترتيب طبقاتهم»[٩٦٠] والطبقات التي ذكرها خمس هي:

---

٩٥٨ الباعث الحثيث ١٥٦ .

٩٥٩ الباعث الحثيث ١٥٦.

٩٦٠ صفة الصفوة ١/ ٢٣٤.



الطبقة الأولى على السابقة في الإسلام ممن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، وحلفائهم ومواليهم[٩٦١].

الطبقة الثانية: من لم يشهد بدرا من المهاجرين والأنصار وله إسلام قديم[٩٦٢].

الطبقة الثالثة: من شهد الخندق وما بعدها[٩٦٣].

الطبقة الرابعة: من أسلم عند الفتح وفيما بعد ذلك[٩٦٤].

الطبقة الخامسة: الذين توفي رسول الله له وهم أحداث الأسنان[٩٦٥].

وفي المطبوع من طبقات ابن سعد ذكر الطبقتين الأوليين على نفس الوصف الذي ذكره ابن الجوزي تماما[٩٦٦]. والعلماء وإن أرادوا بهذا التقسيم معرفة الصحابة لا ذكر التفاضل إلا أنهم قد اعتبروا وجوه الفضل والتفاضل في التقسيم، والله أعلم[٩٦٧].

وأما قول المصنف: **"ترحم عليهم وتذكر فضله وتكف عن زلته، ولا نذكر أحدا منهم إلا بخير، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»"**[٩٦٨]، **وقال سفيان ابن عيينة: "من نطق في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة فهو صاحب هوى "**[٩٦٩].

---

٩٦١ صفة الصفوة ١/ ٣٧٠.

٩٦٢ صفة الصفوة ١/ ٥٠٦.

٩٦٣ صفة الصفوة ١/ ٦٥٠.

٩٦٤ صفة الصفوة ١/ ٧٢٥

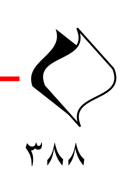
٩٦٥ صفة الصفوة ١/ ٧٤٦.

٩٦٦ انظر طبقات ابن سعد ٣/ ٦، ٤، ٥.

٩٦٧ المصدر: مباحث المفاضلة في العقيدة ص ٢٧١ ـ ٢٧٣.

٩٦٨ انظر المعجم الكبير للطبراني برقم (١٠٤٤٨)، قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة (٧٥) ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضا.

٩٦٩ الغنية لطالبي طريق الحق ١/ ٧٩.



فمن أصول أهل السُّنَّة والجماعة: سلامةَ قلوبهم تجاه أصحاب النبي ﷺ، وذلك لأنهم حَمَلة ميراث النبوة، فهم علماء هذه الأمة وخيرها وأبرُّها، كما قال عنهم ابن مسعود رضي الله عنه: «مَن كان منكم مستنًّا، فليستنَّ بمَن قد مات؛ فإنَّ الحيَّ لا يُؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد، أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلُّها تكلفًا؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه، وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم حقَّهم، وتمسَّكوا بهديهم؛ فإنَّهم كانوا على الهُدى المستقيم»[٩٧٠].

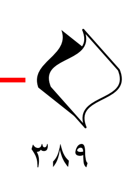
وقد عَلَّق شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على هذا الأثر؛ فقال: «وقول عبد الله بن مسعود: «كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا»: كلامٌ جامع، بيَّن فيه حُسن قَصدهم، ونيَّاتهم ببر القلوب، وبيَّن فيه كمال المعرفة، ودقتها بعمق العلم، وبيَّن فيه تيسير ذلك عليهم، وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف... وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء على الناس، الذين هداهم الله لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فليسوا مِن المغضوب عليهم الذين يتبعون أهواءهم، ولا من الضالين الجاهلين... بل لهم كمال العلم، وكمال القصد؛ إذ لو لم يكن كذلك للزم أن لا تكون هذه الأمةُ خيرَ الأمم، وأن لا يكونوا خيرَ الأمة، وكلاهما خلاف الكتاب والسُّنَّة.

وأيضًا فالاعتبار العقليُّ يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ مَن تأمَّل أمة محمد ﷺ، وتأمل أحوال اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين-تبيَّن له مِن فضيلة هذه الأمة على سائر الأمم في العلم النافع والعمل الصالح ما يضيق هذا الموضع عن بسطه.

والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، ولهذا لا تجد أحدًا من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه وعلى أمثاله، وتَجد

---

٩٧٠ أخرجه ابن عبد البرَّ في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٤٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٤)، مع اختلاف يسير في الألفاظ.



مَن ينازع في ذلك كالرافضة من أجهل الناس. ولهذا لا يُوجد في أئمة الفقه الذين يُرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث، ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في الجيوش المؤيدة المنصورة جيش رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجاهدوا عدوَّه مَن هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سِيرة محمودة مَن هو رافضي...»[٩٧١].

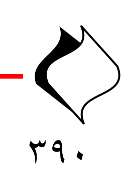
فالله جل وعلا قد اختار هؤلاء الصفوة لصحبة نبيه ﷺ، واختارهم لإقامة دينه؛ فحفظوا لنا القرآن وحفظوا سنة النبي عليه الصلاة والسَّلام، وما انحسروا في المدينة، وإنما جاهدوا في سبيل نشر هذا الدِّين في ربوع الأرض، وانطلقوا يُبَلِّغون دين الله، وقد بلغ الإسلام في عهدهم مبلغًا عظيمًا، حتى إن بعضهم تُوفي عند أسوار القسطنطينية؛ كأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، مع أنها لم تفتح إلا في زمن العثمانيين.

فالصحابة فازوا بخيرية الصحبة، فكان لهم السبق في الإيمان والفضل وجلالة القَدْر، وحمل ميراث النبوة وتبليغه، والجهاد في سبيله؛ فكانوا فرسانًا بالنهار رهبانًا بالليل.

ولذلك أهل السنة-والحمد لله-قلوبهم سليمة دائمًا من الغل أو الحقد والحسد تِجاه الصَّحب والآل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد زكَّى المهاجرين والأنصار ومَن جاءوا بعدهم مُستغفرين لهم؛ فقال جل وعلا: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا

---

٩٧١ منهاج السنة النبوية» (٢/ ٧٩-٨١).



الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠].

وكذلك قلوب أهل السنة نقية تجاه حَمَلة ميراث النبوة من العلماء الصَّادقين والدُّعاة المخلصين والمقتفين للآثار النبي الأمين ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال: «العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورثوا دينارًا ولا درهمًا، وَرَّثوا العلم؛ فمَن أَخَذَه أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ»[٩٧٢].

وأمَّا أهل الباطل فديدنهم بُغض أصحاب النبي ﷺ وبُغض حملة شريعته؛ لأنهم مخالفون لهم، وهم مُبغضون ناقمون على مخالفيهم حتى ولو كانوا في ذات فِرقتهم؛ فقد يحكمون بكفرهم وتبديعهم وتفسيقهم؛ إذا خالفوا نهجهم ولو يسيرًا.

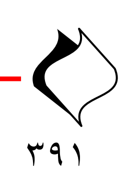
أمَّا أهل السنة فقلوبهم تلهج-دائمًا-بالثناء والترضي على أصحاب النبي ﷺ، «ويَقْبَلُونَ ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ من فضائلِهم ومَرَاتِبِهم».

ومن ذلك ما جاء في قول الله عز وجل: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩].

وقوله جل وعلا: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، فقد أخبر الله-تعالى-في هذه الآية أنه رضي عن هؤلاء رضًا مطلقًا، ورَضي عمن بعدهم رضًا مقيدًا، وهو شرط اتباعهم بإحسان؛ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «فقد أخبر اللهُ العظيم أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأولين من المهاجرين

---

٩٧٢ أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢١٢).



والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل مَن أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض–أو سَبَّ– بَعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخَيرهم وأفضلهم–أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم–أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم؛ عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون مَن قدم الله ذكرهم ورفع شأنهم.

وأمَّا أهل السنة فإنهم يَترضون عنهم، ويَسبون مَن سَبَّه اللهُ ورسولُه، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويُعادون مَن يعادي الله، وهم مُتَّبعون لا مُبتدعون، ويَقتدون ولا يَبتدئون، ولهذا هم حزبُ الله المفلحون وعباده المؤمنون»[٩٧٣].

وقوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥].

والمراد بـ{المؤمنين} في الآية: أصحاب النبي ﷺ؛ فتوعد الله مَن اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد مُتبعهم بإحسان بالرِّضوان في قوله جل وعلا: {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ}.

وقد شهد لهم النبي ﷺ بأنهم في أعلى درجات الإيمان والفضل والمنزلة، فقال: «لا تسبُّوا أصحابي، لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيدِه لو أنَّ أحدَكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفَه»[٩٧٤].

وهم في الفضل متفاوتون؛ فمن أنفق قبل الفتح (صُلح الحديبية) لا يستوي مع مَن أنفق بعده، وكذلك المهاجرون مُقَدَّمون على الأنصار، ويأتون في الفضل على مراتب؛ فأهل بدر، ثم أهل بيعة الرِّضوان، ثم من جاء بعدُ.

---

٩٧٣ تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٣).

٩٧٤ أخرجه البخاري (٣٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري ڤ، ومسلم (٤٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاء في فضل أهل بدر؛ قوله ﷺ: «لعلَّ اللهَ اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شِئتم، فقد وَجَبت لكم الجنة-أو-فقد غفرتُ لكم»[٩٧٥]، وقال الله-جل وعلا-عن أهل بيعة الرضوان: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ونشهد بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ منهم؛ فقد شهد ﷺ للعشرة؛ فقال: «أبو بكر في الجنة، وعمرُ في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[٩٧٦].

وشهد ﷺ لثابت بن قيس بالجنة؛ فعن أنس بن مالك ﵁ أنه قال: «لما نزلت هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} [الحجرات: ٢] إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا مِن أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شأنُ ثابت؟ اشتكى؟»». قال سعد: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنْزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أني مِن أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا مِن أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو مِن أهلِ الجَنَّة»[٩٧٧].

وشهد ﷺ لعُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه أنه من السَّبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ[٩٧٨].

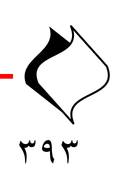
---

٩٧٥ أخرجه البخاري (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٩٧٦ أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٧٥) والترمذي (٣٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٤٦).

٩٧٧ أخرجه مسلم (١١٩).

٩٧٨ أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



وشهد ﷺ لبلالٍ بالجنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال، حَدِّثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام؛ فإني سمعتُ دَفَّ نَعليك[٩٧٩] بين يدي في الجنَّة!». قال: ما عملت عملًا أرجى عندي: أني لم أتطهر طهورًا-في ساعة ليل أو نهار-إلَّا صَلَّيت بذلك الطهور ما كُتِب لي أن أُصَلِّي»[٩٨٠].

وبشَّر ﷺ خديجة بنت خويلد ببيت في الجنة مِن قَصب؛ لا صخب، فيه ولا نصب[٩٨١].

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أَنتِ زوجتي في الدنيا والآخرة»[٩٨٢].

وشهد ﷺ لغيرهم من الصحابة.

فكلُّ مَن ثبت أنَّ النبي ﷺ قد شهد لهم بالجنة-فإننا نشهد لهم كذلك.

فلا شك أن الصحابة لهم قدم سبقٍ في الإسلام، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه» [٩٨٣]، فلو جاء أحد ممن بعدهم بمثل أحد ذهباً وأن لك هذا وأنفقته ما بلغت هذا المقدار من فضلهم، لم تبلغه لا المد ولا حتى النصيف مما أعطاهم الله سبحانه وتعالى.

---

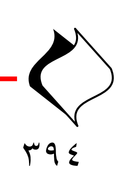
٩٧٩ أي: حركة نعليه وصوتهما في الأرض.

٩٨٠ أخرجه البخاري (١١٤٩).

٩٨١ أخرجه البخاري (٣٨١٩) ومسلم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٣٨١٩) ومسلم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

٩٨٢ أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٧٠٥٣).

٩٨٣ انظر صحيح البخاري كتاب المناقب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا، برقم (٣٦٧٣)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنه، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، برقم (٢٥٤١)، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١) وقال عقبه حديث حسن صحيح، وأحمد (١١٠٧٩).



ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني» [٩٨٤]، فأعطاهم الخيرية، ونحن من جاء بعدهم ليس لنا إلا أن نترضى عليهم.

ربنا ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، فهؤلاء الذين سبقونا بالإيمان وسبقونا بالفضل، وسبقونا بالنصرة، وسبقونا الذود عن حياض الإسلام، وكذلك هم نقلة لكتاب الله، وذلك كونهم دلونا لهذا الخير فلهم أُجورنا وأجر من عمل بهذا العمل إلى يوم القيامة، وكما قال بعض السلف: "من طعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فمراده ليس أعيانهم[٩٨٥]" أعيانهم عند الله عز وجل قدرهم ومكانتهم ومنزلتهم.

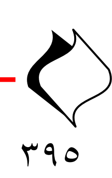
لكن أراد هذا الطاعن أن يطعن في النقلة ليطعن في هذا الدين، هؤلاء هم النقلة هؤلاء هم الحفظة الذين نقلوا لك كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنت طعنت في الناقل فإنما تقصد الطعن في المنقول، والمنقول ما هو؟ كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإذا شُككت في الناقل فهذا التشكيك القصد منه التشكيك في المنقول، والمنقول هو كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

من جمع هذا القرآن؟ من حفظه وقدمه لهذه الأمة؟ أليسوا هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا شككت في عدالتهم وشككت في أمانتهم فعند ذلك ما بقي قيمة لكتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن صاحب السنة ليس لديه مشكلة مع القرآن، ولا مع السنة، فهو يؤمن بأن القرآن محفوظ، وأن القرآن كامل وليس فيه نقص وليس فيه تحريف، ويعرف أن الذين نقلوا وحفظوه عدول.

---

٩٨٤ انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق، بـاب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (٦٤٢٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، بـاب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٦)، والترمذي (٣٨٥٩)، وابن ماجه (٢٣٦٢)، وأحمد (٣٥٨٣).

٩٨٥ انظر الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي صفحة (٤٩).



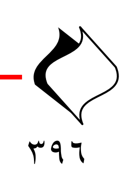
لكن عند أولئك الذين طعنوا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل المشكلة، فعندهم مشكلة مع القرآن فهم يرون أن فيه حذفاً، ويرون أن فيه تحريفاً، ويرون أن وفيه زيادة إلى غير ذلك، فالمشكلة مشكلتهم هم.

فكما قال قائل لما سئل، لماذا أنت تحولت من عقيدة الرافضة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة؟ قال: لماذا لا أتحول وقد أصبحت والحمد لله مرتاحاً للقرآن أؤمن وأعتقد به، ومطمئن بأنه كامل؛ وأن نقلته عدول، وأصبحت والحمد لله آمن على ديني، لأنه إذا كان أولئك لا يستحقون الجنة فعقلاً كيف أستحقها، فإذا كان أبو بكر وعمر لا يستحقون الجنة فكيف أنا أستحق الجنة.

فلماذا لا أكون على عقيدة أهل السنة، والحمد لله أهل السنة ما عندهم أي إشكال مع أحد من الصحابة كلهم عدول، وكلهم على فضل، وكلهم على خير، وكلهم على منزلة وعلى مكانة، يترضون عليهم جميعاً، وتجد أن أسماءهم، وأسماء آبائهم، وأسماء أبنائهم، وأسماء إخوانهم، وأبناء عمومتهم تشمل جميع أسماء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم دون تفريق.

فيتسمون بجميع أسماء الصحابة، لا نستثني منهم أحداً، فكل أسمائهم مقبولة لديهم ويفتخرون بذلك، فصاحب السنة بحمد الله تعالى ليس عنده أي غلٍ أو حقدٍ أو تحاملٍ على أي أحد منهم بل الإقرار بالفضل والترضي والاعتراف بالقيمة والمنزلة والمكانة التي أعطاهم الله إياها، وكيف لا يكون ذلك والله تعالى قد زكاهم، ونبيه صلى الله عليه وسلم قد زكاهم، ألم يقل عز وجل: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ }[التوبة:١٠٠]، فالله رضي عنهم، {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ }[الفتح:١٨].

قال الإمام الشعبي: «ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرَّافضة في خصلتين: سئل اليهود: مَن خير أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى، فقالوا:



أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة: مَن شَرُّ أهل مِلتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد. أَمَرَهم بالاستغفار لهم فشَتَموهم»[٩٨٦].

فهذا والله من الخذلان، ولكن حقيقة طعن هؤلاء إنما هو الطعن في الدين، فأرادوا الطعن في الدين من خلال الطعن في النقلة الذين نقلوا لك هذا الدين.

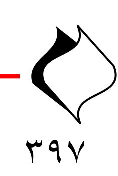
فاعرف لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حقهم، وقدرهم، وهذا الذي عمل به أهل السنة، ودونوه جملة وتفصيلا، ولذلك ذكروا من فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جملة، وذكروا من فضائل أعيانهم واحداً واحدا، فكيف ينقم من ينقم على أبي بكر، هل لأنه من صدق النبي صلى الله عليه وسلم، أو لأنه هاجر معه، أو لأنه وقف تلك المواقف في خدمة الإسلام، وكيف من ينقم من ينقم على عمر رضي الله عنه وهو الذي-بعد فضل الله عز وجل-انتشر الإسلام على يديه شرقاً وغرباً وبلغت الفتوحات في عهده ما لم تبلغه في زمنٍ من الأزمان.

فقلوب أهل السنة سليمة سالمة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نحفظ لهم الحق ونحفظ لهم الفضل، ونحفظ لهم القدر، ونترضى عليهم ونترحم عليهم، ونعرف أن فضلهم على هذه الأمة لا يمكن أن يوازيه شيء.

هذه العقيدة السليمة الصافية ليست العقيدة التي تصب حقداً وغلاً على أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم.

وأما قول المصنف: **"وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»."**

٩٨٦ «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.



هذا الحديث رواه ابن عبد البر[٩٨٧]، وابن حزم[٩٨٨]، من طريق سلام بن سليم، قال: حدثنا الحارث بن غصين، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)) وسلام بن سليم، ويقال ابن سليمان، متروك متهم قال ابن معين: ليس حديثه بشيء، وقال ابن حبان: يروى عن الثقات الموضوعات كأنه كان المعتمد لها"[٩٨٩].

وأخرجه الخطيب[٩٩٠]، والبيهقي[٩٩١]، والديلمي[٩٩٢]، من طريق سليمان ابن أبي كريمة عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: ((إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأيها أخذتم به اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة))؛ وهذا إسناد ضعيف جدا: سليمان بن أبي كريمة ضعيف، وجويبر هو ابن سعيد الأزدي، متروك، كما قال الدارقطني والنسائي وغيرهما، وضعفه ابن المديني جدا[٩٩٣] . والضحاك هو ابن مزاحم الهلالي لم يلق ابن عباس، وقال البيهقي عقبه: "هذا حديث متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة، لم يثبت في هذا إسناد".

ورواه ابن عساكر في "تاريخه"[٩٩٤] والديلمي في "مسنده"[٩٩٥]، من طريق نعيم بن حماد حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب مرفوعا: ((سألت ربي عز وجل فيما اختلف فيه أصحابي من بعدي فأوحى الله إلي: ((يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء، بعضها

---

٩٨٧ "جامع بيان العلم وفضله" (٨٩٥).
٩٨٨ "الإحكام" (٢٤٤/٦).
٩٨٩ "المجروحين" (١ /٣٣٩).
٩٩٠ "الكفاية في علم الرواية" (ص ٤٨).
٩٩١ "المدخل" (١٥٢).
٩٩٢ مسند الديلمي (٤ / ٧٥).
٩٩٣ "ميزان الاعتدال" (٢٢٢/٢)، و "التهذيب" (١٠٦/٢).
٩٩٤ تاريخ ابن عساكر (٣٨٣/١٩).
٩٩٥ مسند الديلمي (١٩٠/٢).

أضوأ من بعض؛ فمن أخذ بشيء مما هم عليه من اختلافهم فهو عندي على هدى "وهذا إسناد تالف، نعيم بن حماد ضعيف، وعبد الرحيم بن زيد العمي كذاب.[٩٩٦]" ، وذكره ابن عبد البر معلقًا من طريق أبي شـــهاب الحناط عن حمزة الجزري عن نافع عن ابن عمر مرفوعا به.

ثم قال ابن عبد البر: "وهذا إسناد لا يصح، ولا يرويه عن نافع من يحتج به" .[٩٩٧]

وحمزة هذا هو ابن أبي حمزة، قال ابن معين: لا يساوى فلسا، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن عدى: عامة ما يرويه موضوع"[٩٩٨].

وقد تواردت نصوص أهل العلم بعدم صحة هذا الحديث: فقال الإمام أحمد: "لا يصح هذا الحديث"[٩٩٩].

وَقَالَ الْحَافِظ أَحْمد بن عَمْرو بن عبد الْخَالِق الْبَزَّار: "هَذَا الْكَلَام لم يَصح عَن النَّبِي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم"[١٠٠٠].

وقال ابن حزم: "باطل مكذوب من توليد أهل الفسق لوجوه ضرورية.[١٠٠١]"

وقال ابن الملقن: "جميع طرقه ضعيفة"[١٠٠٢].

وقال ابن القيم: "روي من طرق، ولا يثبت شيء منها "[١٠٠٣].

---

٩٩٦ التهذيب" (٦/٢٧٤).

٩٩٧ "جامع بيان العلم وفضله" (٢/ ١٨٣).

٩٩٨ "ميزان الاعتدال" (١ /٦٠٦).

٩٩٩ "سلسلة الأحاديث الضعيفة"، للشيخ الألباني (١ /١٤٥).

١٠٠٠ "البدر المنير" (٩ /٥٨٧).

١٠٠١ "الإحكام في أصول الأحكام" (٥ /٦١).

١٠٠٢ "البدر المنير" (٩ /٥٨٧).

١٠٠٣ "إعلام الموقعين" (٢ /٢٤٢).

وقال الشوكاني: "صرح أئمة الجرح والتعديل بأنه لا يصح منها شيء، وأن هذا الحديث لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"[١٠٠٤].

وقال الألباني: "موضوع"[١٠٠٥].

قال الإمام ابن حزم رحمه الله في بيان بطلان هذا الحديث متنا: "من المحال أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع كل قائل من الصحابة رضي الله عنهم ، وفيهم من يحلل الشيء وغيره منهم يحرمه، ولو كان ذلك لكان بيع الخمر حلالا اقتداء بسمرة بن جندب، ولكان أكل البرَد للصائم حلالا اقتداء بأبي طلحة وحراما اقتداء بغيره منهم، ولكان ترك الغسل من الإكسال واجبا اقتداء بعلي وعثمان وطلحة وأبي أيوب وأبي بن كعب، وحراما اقتداء بعائشة وابن عمر، ولكان بيع الثمر قبل ظهور الطيب فيها حلالا اقتداء بعمر، حراما اقتداء بغيره منهم، وكل هذا مروي عندنا بالأسانيد الصحيحة "[١٠٠٦]

فتبين بما سبق بطلان هذا الحديث وعدم صحته سندا ومتنا، فلا تجوز نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم، لعموم قوله: ((مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ))[١٠٠٧] والله تعالى أعلم.[١٠٠٨]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

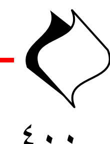
١٠٠٤ "الفتح الرباني" (١٧٩/٥).

١٠٠٥ "السلسلة الضعيفة" (٥٨).

١٠٠٦ "الإحكام" (٦ /٢٤٤).

١٠٠٧ رواه مسلم في مقدمة الصحيح (ص ٧).

١٠٠٨ المصدر: موقع الإسلام سؤال وجواب.



[٢٦] "والسمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى. ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين، لا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرى أن عليه إماما، برا كان أو فاجرا".

الشرح

مسألة الإمامة الكبرى يذكرها علماء أهل السنة والجماعة في ضمن مسائل الاعتقاد وذلك تحت عنوان الخلافة والإمامة، ومعلوم أن الإمامة على نوعين: صغرى وكبرى، فالصغرى إمامة الصلاة، والعظمى أو الكبرى إمامة المسلمين.

فدونوا هذه القواعد في هذه المسائل في كتب عقائدهم لكي يعرف الإنسان ماذا يجب عليه تجاه ولي أمره، لما في ذلك من المصالح الكبرى والصغرى المتحققة من جراء ذلك

وقد شرع المصنف في ذكر عدد من المسائل تحت هذا الباب، وذكر في هذا النص الذي يحتوي على ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: السمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى.

المسألة الثانية: من ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين.

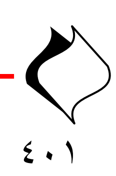
المسألة الثالثة: لا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرى أن عليه إماما، برا كان أو فاجرا.

وسيكون الشرح وفق هذا التقسيم.

أما المسألة الأولى: وهي قول المصنف **"والسمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى"**.

فهذه من الأصول والقواعد المهمة، فالسمع والطاعة للأئمة تكون بالمعروف، لذلك قال المصنف: **"فيما يحب الله ويرضى"**، ويمكن تناول هذه المسألة من جانبين:

الجانب الأول: وجوب السمع والطاعة لولي الأمر.



فمن عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة للأئمة فيما يُحب الله ويرضى، فالسمع والطاعة إنما يكون في المعروف إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

فلابد من السمع والطاعة في المنشط وفي المكره، وفيما تُحب وفيما لا تُحب، بشرط أن يكون ذلك المأمور به ليس فيه معصيةٌ لله عز وجل، فلابد من السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين

ومن الأدلة على ذلك:

- قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩].
- وقال عليه الصلاة والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)[١٠٠٩].

فمأمورٌ أن تسمع وتطيع حتى وإن كان ذلك الشخص على فجور، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أدوا الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم»[١٠١٠]، ومعلومٌ أن ولاية أمر المسلمين واستتبابها فيه من المصالح العظمى للدين والدنيا ما يعلمه كل عاقل، فمن أول المصالح استتباب الأمن، واستتباب الأمن معنى ذلك أن الشعائر ستُقام، ومعنى ذلك أن الأعراض والأموال والأنفس ستُحفظ، وإذا ضاع أمن الناس فإن الواحد منهم لن يستطيع حتى أن يقيم صلاة الجماعة، ولن يستطيع أن يأمن على نفسه ولا على ماله، ولا على عرضه.

١٠٠٩ أخرجه البخاري (٢٩٥٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٣٥).

١٠١٠ انظر صحيح البخاري كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا» برقم (٧٠٥٢)، ومسلم كتاب الإمارة، بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، برقم (١٨٤٣)، والترمذي (٢١٩٠)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٣٦٤١).

فنعمة الأمن من أعظم النعم، ومن أسباب تحقيقها استقرار الحكم لولي الأمر، ونحن نرى بعض البلدان التي انعدم أمنها بسبب عدم استقرار الحكم فيها، أما البلد الذي استقر فيه الحكم لولي الأمر في ذلك البلد الغالب عليه الأمن والاستقرار.

فكل بلدٍ متى ما كان لها ولي أمر استقر حالها، واستتب أمنها.

وهذا بخلاف أهل البدع، فإنهم لا يسمعون ولا يطيعون لولاة الأمور، كالخوارج، فهم يرون أن ولي الأمر إذا عصى كفر ووجب قتله وخلعه وإزالته من الإمامة، وكذلك المعتزلة فإنهم يرون أنه إذا عصى ولي الأمر وفعل الكبيرة خرج من الإمامة فلا يطيعونه، بل إن من أصول الدين عندهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه الخروج على ولاة الأمور إذا جاروا وظلموا، والروافض كذلك يرون أنه ليس هناك طاعة إلا للإمام المعصوم، وأما ولاة الأمور الموجودين في كل وقت فهم كفرة فسقة يجب قتلهم وخلعهم وإزالتهم من الإمامة، ولا طاعة إلا للإمام المعصوم، وهم الأئمة الاثنا عشر الذي نص عليهم بزعمهم.

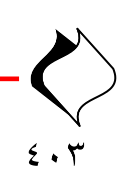
الجانب الثاني: أن السمع والطاعة تكون بالمعروف.

ومن الأدلة على ذلك:

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[١٠١١].
- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ»[١٠١٢].

١٠١١ رواه مسلم (١٤٦٩/٣) (١٨٣٩)

١٠١٢ رواه مسلم (٤٤٨/١) (٦٤٨)



- وحديث عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[١٠١٣] ولا يجوز الخروج على ولاة الأمور للمعاصي بل يجب الصبر وعدم الخروج.
- وحديث: ((لا طاعة لمخلوق في معصية اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)[١٠١٤]).
- قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المعْرُوفِ))[١٠١٥].

أقوال العلماء[١٠١٦]:

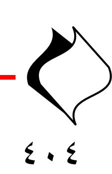
قال أبو الحسنِ الأشعريُّ–رحمه الله–وهو يُعدِّدُ ما أَجْمَعَ عليه السلفُ مِنَ الأصول: «وأجمعوا على السَّمْعِ والطَّاعةِ لأئمَّةِ المسلمين، وعلى أنَّ كُلَّ مَنْ وَلِيَ شيئًا مِنْ

١٠١٣ رواه مسلم (٣/١٤٨٢) (١٨٥٥)

١٠١٤ أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٩٥) مِنْ حديثِ عليّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه. وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ: «مسند أحمد» (٢/ ٢٤٨)، والألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

١٠١٥ أخرجه البخاريُّ في «الأحكام» بابُ السمعِ والطاعة للإمام ما لم تكن معصيةً (٧١٤٥)، ومسلمٌ في «الإمارة» (١٨٤٠)، مِنْ حديثِ عليّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

١٠١٦ وللمَزيدِ يمكن مُراجعةُ المصادرِ التالية: «مقالات الإسلاميّين» (١/ ٣٤٨) و«الإبانة» (٦١) كلاهما للأشعري، «الشريعة» للآجُرّي (٣٨ ـ ٤١)، «اعتقاد أئمَّة الحديث» للإسماعيلي (٧٥ ـ ٧٦)، «الشرح والإبانة» لابن بطَّة (٢٧٦ ـ ٢٧٨)، «الاعتقاد» للبيهقي (٢٤٢ ـ ٢٤٦)، «العقيدة الواسطية» مع شرحها للهرَّاس (٢٥٧ ـ ٢٥٩)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزّ (٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤٤).



أمورهم عن رِضًى أو غَلَبةٍ وامتدَّتْ طاعتُه مِنْ بَرٍّ وفاجرٍ لا يَلْزَمُ الخروجُ عليهم بالسيف، جارَ أو عَدَلَ»[١٠١٧].

وقال الصابونيُّ -رحمه الله-: «ويرى أصحابُ الحديثِ: الجمعةَ والعيدين وغيرَهما مِنَ الصلوات خَلْفَ كُلِّ إمامٍ مسلمٍ بَرًّا كان أو فاجرًا، ويَرَوْنَ جهادَ الكَفَرَةِ معهم وإِنْ كانوا جَوَرَةً فَجَرَةً، ويَرَوْنَ الدعاءَ لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح وبَسْطِ العدل في الرعيَّة، ولا يَرَوْنَ الخروجَ عليهم وإِنْ رَأَوْا منهم العدولَ عن العدل إلى الجَوْرِ والحيف، ويَرَوْنَ قتالَ الفِئَةِ الباغية حتَّى ترجع إلى طاعةِ الإمام العَدْل»[١٠١٨].

وقال ابنُ تيميَّة -رحمه الله-: «فأهلُ السنَّةِ لا يُطيعون وُلَاةَ الأمورِ مطلقًا، إنما يُطيعونهم في ضِمْنِ طاعةِ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمرِ مِنكُم﴾[النساء: ٥٩]»[١٠١٩]، وقال ـ رحمه الله ـ ـ أيضًا ـ: «ولهذا كان مذهبُ أهلِ الحديث: تَرْكَ الخروجِ بالقتال على الملوك البُغَاة، والصبرَ على ظُلْمِهم إلى أَنْ يَسْتريحَ بَرٌّ أو يُسْتراحَ مِنْ فاجرٍ»[١٠٢٠].

وقال النوويُّ -رحمه الله-: «لا تُنازِعوا وُلَاةَ الأمورِ في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلَّا أَنْ تَرَوْا منهم مُنْكَرًا مُحقَّقًا تعلمونه مِنْ قواعدِ الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأَنْكِروه عليهم وقولوا بالحقّ حيث ما كنتم، وأمَّا الخروجُ عليهم وقتالُهم فحرامٌ بإجماع المسلمين وإِنْ كانوا فَسَقَةً ظالمين، وقد تَظاهَرَتِ الأحاديثُ بمَعْنَى ما ذَكَرْتُه، وأَجْمَعَ أهلُ السنَّة أنه لا يَنْعَزِلُ السلطانُ بالفسق»[١٠٢١].

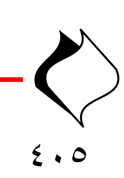
١٠١٧ «رسالةٌ إلى أهل الثغر» للأشعري (٢٩٦).

١٠١٨ «عقيدة السلف» للصابوني (٩٢).

١٠١٩ «منهاج السنَّة» لابن تيمية (٢/ ٧٦).

١٠٢٠ «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٤٤٤).

١٠٢١ «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٢٩).



فالسمع والطاعة تكون لولاة الأمور في طاعة الله، أما المعاصي فلا يطاع فيها، فإذا أمر الأمير شخصاً بشرب الخمر فلا يطيعه، أو أمره أن يقتل أحداً بغير حق لا يطيعه، وإذا أمر الوالد ولده بالمعصية فلا يطيعه، وإذا أمر الزوج زوجته بالمعصية فلا تطيعه، وإذا أمر السيد عبده بالمعصية فلا يطيعه، لكن لا يتمرد عليه، فليس للرعية أن يتمردوا على الأمير أو ولي الأمر، بل لا يطيعونه في المعصية وما عدا ذلك فيطيعونه، في الأمور المباحة ويطيعونه في طاعة الله ورسوله.

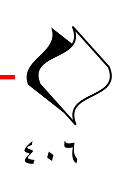
المسألة الثانية: قول المصنف: **"ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين".**

ذكر المصنف هنا صورة من صور الولاية وهي: (ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين).

وصور الخلافة متعددة منها:

الصورة الأولى: وهي الصورة المثلى لقيام الخلافة أو الولاية، هي أن تكون الخلافة بإجماع الناس، وإجماع الناس يتحقق بصور شتى، فغالباً ما يكون باتفاق أهل الحل والعقد؛ لأن الناس في شعائر الدين الكبرى مثل الحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي مصالح الدنيا العظمى مثل البيعة والسمع والطاعة وغيرها، لا يتم أمرهم إلا بأهل الحل والعقد منهم، ومن سوى أهل الحل والعقد تبع لأهل الحل والعقد بالضرورة؛ لأن الدهماء والعامة والغوغاء والسواد الأعظم لا يمكن تحقيق رغبتهم جميعاً أو التعرف على آرائهم بطريق سليم، ولا يمكن أيضاً أن يكون عندهم من الفقه والرشد ما يجعلهم يعرفون المصالح العظمى للأمة كما يريد الله عز وجل، وكما هو على قواعد الشرع.

فإذا اجتمع على الخليفة أهل الحل والعقد، وليس المراد بإجماع الناس كل فرد بعينه، بل المراد أهل الحل والعقد ورؤساء القبائل والأعيان والوجهاء فإذا بايعوه تمت البيعة، ولا يشترط أن يبايع كل واحد بعينه،



فعلى هذا فالإجماع ينعقد في مسألة الولاية والخلافة ببيعة أهل الحل والعقد، وهذه صورة من صور الولاية تتبعها أو تأتي دونها صور أخرى.

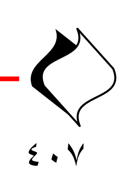
قال الشوكانيُّ ـ رحمه الله ـ: «طريقُها أَنْ يجتمع جماعةٌ مِنْ أهلِ الحَلِّ والعقد فيعقدون له البَيْعةَ ويقبل ذلك، سواءٌ تَقَدَّمَ منه الطلبُ لذلك أم لا، لكنَّه إذا تَقَدَّمَ منه الطلبُ فقَدْ وَقَعَ النهيُ الثابتُ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم عن طَلَبِ الإمارة[١٠٢٢]؛ فإذا بُويِعَ بعد هذا الطلبِ انعقدَتْ ولايتُه وإنْ أَثِمَ بالطلب، هكذا ينبغي أَنْ يُقالَ على مقتضى ما تَدُلُّ عليه السنَّةُ المطهَّرة،... والحاصلُ: أنَّ المعْتَبَرَ هو وقوعُ البَيْعةِ له مِنْ أهلِ الحَلِّ والعقد؛ فإنها هي الأمرُ الذي يجب بَعْدَه الطاعةُ ويَثْبُتُ به الولايةُ وتَحْرُمُ معه المخالَفةُ، وقد قامَتْ على ذلك الأدلَّةُ وثَبَتَتْ به الحجَّةُ...»، ثمَّ قال: «قد أَغْنَى اللهُ عن هذا النهوضِ وتَجَشُّمِ السفر وقَطْعِ المفاوِزِ ببَيْعةِ مَنْ بايَعَ الإمامَ مِنْ أهل الحَلِّ والعقد؛ فإنها قد ثَبَتَتْ إمامتُه بذلك ووَجَبَتْ على المسلمين طاعتُه، وليس مِنْ شرطِ ثبوتِ الإمامةِ أَنْ يُبايِعَهُ كُلُّ مَنْ يصلح للمُبايَعة، ولا مِنْ شرطِ الطاعةِ على الرجل أَنْ يكون مِنْ جملةِ المبايِعِين؛ فإنَّ هذا الاشتراطَ في الأمرين مردودٌ بإجماع المسلمين: أوَّلِهم وآخِرِهم، سابِقِهم ولاحِقِهم»[١٠٢٣].

الصورة الثانية: ثبوت البيعة بتعيين جماعةٍ تختار وليَّ العهد:

وذلك بأَنْ يَعْهَدَ وَلِيُّ الأمرِ الأوَّلُ إلى جماعةٍ معدودةٍ تَتوفَّرُ فيها شروطُ الإمامةِ العُظْمى؛ لِتقومَ باختيارِ وليِّ العهدِ المناسِبِ فيما بينهم يَتوالَوْن عليه ويُبايِعونه، كمِثْلِ ما فَعَلَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه، حيث عَهِدَ إلى نَفَرٍ مِنْ أهل الشورى لاختيارِ واحدٍ منهم، قال الخطَّابيُّ ـ رحمه الله ـ: «ثمَّ إنَّ عُمَرَ لم يُهْمِلِ الأمرَ ولم يُبْطِلِ

١٠٢٢ وذلك في حديثِ عبد الرحمن بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا...» الحديث [مُتَّفَقٌ عليه: أخرجه البخاريُّ في «الأحكام» بابُ مَن لم يَسْأَلِ الإمارةَ أعانَهُ اللهُ عليها (٧١٤٦)، ومسلمٌ في «الأيمان» (١٦٥٢)].

١٠٢٣ «السيل الجرَّار» للشوكاني (٤/ ٥١١ ـ ٥١٣).



الاستخلاف، ولكِنْ جَعَلَهُ شُورَى في قومٍ معدودين لا يَعْدُوهم؛ فكُلُّ مَنْ أقامَ بها كان رِضًا ولها أهلًا؛ فاختاروا عثمانَ وعَقَدوا له البَيْعة»[١٠٢٤]، ثمَّ لَمَّا اسْتُشْهِدَ عثمانُ رضي الله عنه بايَعُوا عليًّا رضي الله عنه.

فتصلح الخلافة بالانتخاب والاختيار كما ثبتت الخلافة لـ أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالاختيار والانتخاب، وكما ثبتت الولاية أيضاً لـ عثمان باختيار أهل الحل والعقد وبالإجماع، وكما ثبتت الخلافة لـ علي بمبايعة أكثر أهل الحل والعقد.

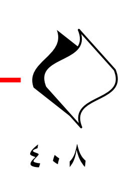
الصورة الثالثة: الخلافة بولاية العهد من الخليفة السابق.

فتثبت الخلافة بولاية العهد من الخليفة السابق كما ثبتت الخلافة لـ عمر رضي الله عنه بولاية العهد من أبي بكر.

وذلك بأَنْ يَعْهَدَ وليُّ الأمرِ إلى مَنْ يَرَاهُ أَقْدَرَ على مَهَمَّةِ حمايةِ الدِّين وسياسةِ الدنيا فيَخْلُفَه مِنْ بَعْدِه؛ فإنَّ بَيْعَته على الإمامةِ تَلْزَمُ بعهدِ مَنْ قَبْلَه، كمِثْلِ ما وَقَعَ مِنْ عهدِ أبي بكرٍ لعُمَرَ رضي الله عنهما؛ فإنَّ الصدِّيقَ رضي الله عنه لَمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ عَهِدَ إلى عُمَرَ رضي الله عنه في الإمامة، ولم يُنْكِرْ ذلك الصحابةُ رضي الله عنهم، وقَدِ اتَّفَقَتِ الأمَّةُ على انعقادِ الإمامة بولايةِ العهد، وقد عَهِدَ مُعاويةُ رضي الله عنه إلى ابنه يَزيدَ كما عَهِدَ غيرُهم، ويدلُّ عليه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أعطى الراية يوم مُؤْتَةَ زيد بنَ حارثةَ وقال: «فَإِنْ قُتِلَ زَيْدٌ ـ أَوِ اسْتُشْهِدَ ـ فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ ـ أَوِ اسْتُشْهِدَ ـ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ[١٠٢٥]»، فاسْتُشْهِدُوا جميعًا، ثمَّ أَخَذَها خالدُ بنُ الوليدِ ولم يكن رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تَقَدَّمَ إليه في ذلك، والحديثُ دلَّ على وجوبِ نَصْبِ الإمامِ والاستخلافِ، قال الخطَّابيُّ ـ رحمه الله ـ: «فالاستخلافُ سنَّةٌ

١٠٢٤ «مَعالِم السنن» للخطَّابي مع «سنن أبي داود» (٣/ ٣٥١).

١٠٢٥ أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٥٠) مِنْ حديثِ عبد الله بنِ جعفرٍ رضي الله عنهما. وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ: «مسند أحمد» (٣/ ١٩٢)، والألبانيُّ في «أحكام الجنائز» (٢٠٩).



اتَّفَقَ عليها المَلَأُ مِنَ الصحابة، وهو اتِّفاقُ الأمَّة، لم يُخالِفْ فيه إلَّا الخوارجُ والمارقةُ الذين شَقُّوا العَصَا وخَلَعُوا رِبْقَةَ الطاعة»[١٠٢٦].

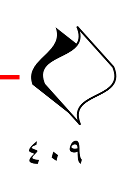
الصورة الرابعة: من صور الخلافة بالقوَّة والغلبة والقهر .

فهو صورة من صور إقامة الإمامة في الدين، فإمامة الناس في دينهم ودنياهم وهي الإمارة التي لها السمع والطاعة فقد تكون بالغلبة أيضاً، وتثبت الخلافة أيضاً بالقوة والغلبة إذا غلب الناس بسيفه وقهرهم بسيفه واجتمعت عليه الكلمة فتمت له البيعة ولا يجوز الخروج عليه، حتى لو لم يكن الأمر برضا أهل الحل والعقد.

فإذا غَلَبَ على الناسِ حاكمٌ بالقوَّة والسيف حتَّى أَذْعَنُوا له واستقرَّ له الأمرُ في الحكمِ وتمَّ له التمكينُ؛ صارَ المتغلِّبُ إمامًا للمسلمين وإِنْ لم يَسْتَجْمِعْ شروطَ الإمامة، وأحكامُه نافذةٌ، بل تجب طاعتُه في المعروف وتَحْرُمُ مُنازَعتُه ومعصيتُه والخروجُ عليه قولًا واحدًا عند أهلِ السنَّة؛ ذلك لأنَّ طاعته خيرٌ مِنَ الخروج عليه؛ لِمَا في ذلك مِنْ حَقْنِ الدماءِ وتسكينِ الدَّهْماء، ولِمَا في الخروجِ عليه مِنْ شَقِّ عَصَا المسلمين وإراقةِ دمائهم، وذهابِ أموالهم وتسلُّطِ أعداء الإسلام عليهم، قال الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ: "ومَنْ خَرَجَ على إمامٍ مِنْ أئمَّةِ المسلمين وقد كان الناسُ اجتمعوا عليه وأَقَرُّوا له بالخلافة بأيِّ وجهٍ كان بالرِّضَا أو الغَلَبة؛ فقَدْ شَقَّ هذا الخارجُ عَصَا المسلمين، وخالَفَ الآثارَ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فإنْ مات الخارجُ ماتَ مِيتةً جاهليَّةً، ولا يَحِلُّ قتالُ السلطانِ ولا الخروجُ عليه لأَحَدٍ مِنَ الناس؛ فمَنْ فَعَلَ ذلك فهو مُبْتَدِعٌ على غيرِ السنَّةِ والطريق"[١٠٢٧].

١٠٢٦ «مَعالِم السنن» للخطَّابي مع «سنن أبي داود» (٣/ ٣٥١).

١٠٢٧ «المسائل والرسائل» للأحمدي (٢/ ٥).



وقد حَكَى الإجماعَ على وجوبِ طاعةِ الحاكمِ المتغلّبِ الحافظُ ابنُ حجرٍ ـ رحمه الله ـ في «الفتح»[١٠٢٨]، والشيخُ محمَّد بنُ عبد الوهَّاب ـ رحمه الله ـ كما في «الدُّرَر السنيَّة»[١٠٢٩].

فمن ولي الخلافة إما بإجماع المسلمين ورضاهم به، فهو بهذا أميرٌ عليهم أو حتى لو كان عن غلبة بحيث استتب له الأمر في ذلك فإنه عند أهل السنة لابد من السمع والطاعة له، أما إذا كان هناك إمامان وكان أولهما قد بويع وجاء آخر وأراد أن يخرج على هذا الإمام ويدعي الإمامة له فإنه يُقاتل الثاني ويكون الأمر والطاعة للأول منهما.

لقوله صلى الله عليه وسلم: "ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر"[١٠٣٠] .

وقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"[١٠٣١].

قال النوويُّ ـ رحمه الله: «وأمَّا الطريقُ الثالثُ فهو القهرُ والاستيلاء: فإذا ماتَ الإمامُ فتَصَدَّى للإمامة مَنْ جَمَعَ شرائطَها مِنْ غيرِ استخلافٍ ولا بيعةٍ، وقَهَرَ الناسَ بشوكته وجنوده؛ انعقدَتْ خلافتُه ليَنْتَظِمَ شَمْلُ المسلمين، فإنْ لم يكن جامعًا للشرائط بأَنْ كان فاسقًا أو جاهلًا فوجهانِ: أَصَحُّهما: انعقادُها لِمَا ذَكَرْناهُ وإِنْ كان عاصيًا بفِعْلِه»[١٠٣٢].

وبعد بيان طرق الولاية العامة يتبقى هنا **ثلاثة أمور**:

الأمر الأول: انعقادُ الولايةِ أو الإمامةِ العُظْمى بأساليبِ النُّظُمِ المسْتَوْرَدَةِ

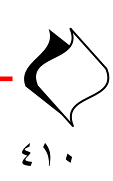
١٠٢٨ «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٧)، وقد حكاهُ عن ابنِ بطَّالٍ ـ رحمه الله ـ.

١٠٢٩ انظر: «الدُّرَر السنيَّة في الأجوبة النجدية» لعبد الرحمن بنِ محمَّد بن قاسم (٧/ ٢٣٩).

١٠٣٠ رواه مسلم (١٨٤٤).

١٠٣١ رواه مسلم (١٨٥٣).

١٠٣٢ «روضة الطالبين» للنووي (١٠/ ٤٦).



أمَّا انعقادُ الولايةِ أو الإمامةِ العُظْمى بأساليبِ النُّظُمِ المسْتَوْرَدَةِ الفاقدةِ للشرعية الدينية؛ فبغضِّ النظر عن فسادِ هذه الأنظمةِ وخَطَرِ العملِ بها على دِينِ المسلم وعقيدتِه، فإنَّ مَنْصِبَ الإمامةِ أو الولايةِ يَثْبُتُ بها ويجري مجرى طريقِ الغَلَبةِ والاستيلاءِ والقهر، وتنعقدُ إمامةُ الحاكمِ وإنْ لم يكن مُسْتَجْمِعًا لشرائطِ الإمامة، ولو تَمَكَّنَ لها دون اختيارٍ أو استخلافٍ ولا بَيْعةٍ.

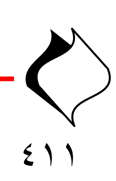
الأمر الثاني: إذا تَعَدَّدَ الأئمَّةُ والسلاطينُ فالطاعةُ بالمعروف إنَّما تجب لكُلِّ واحدٍ منهم بعد البَيْعةِ له على أهل القطر الذي تَنْفُذُ فيه أوامِرُه ونواهيه، وضِمْنَ هذا السياقِ يقول الشوكانيُّ ـ رحمه الله ـ: «وأمَّا بعد انتشارِ الإسلام واتِّساعِ رقعته وتَباعُدِ أطرافه، فمعلومٌ أنه قد صارَ في كُلِّ قطرٍ أو أقطارِ الولايةُ إلى إمامٍ أو سلطانٍ، وفي القطر الآخَرِ أو الأقطار كذلك، ولا يَنْفُذُ لبَعْضِهم أمرٌ ولا نهيٌ في قُطْرِ الآخَرِ وأقطاره التي رجعَتْ إلى ولايته؛ فلا بأسَ بتَعَدُّدِ الأئمَّةِ والسلاطين، ويجب الطاعةُ لكُلِّ واحدٍ منهم بعد البَيْعةِ له على أهل القُطْر الذي ينفذ فيه أوامرُه ونواهيه، وكذلك صاحِبُ القطر الآخَر، فإذا قامَ مَنْ يُنازِعُه في القطر الذي قد ثَبَتَتْ فيه ولايتُه وبايَعَهُ أهلُه كان الحكمُ فيه أَنْ يُقْتَلَ إذا لم يَتُبْ، ولا تجب على أهل القطر الآخَرِ طاعتُه ولا الدخولُ تحت ولايته لِتَباعُدِ الأقطار،...

فاعْرِفْ هذا فإنه المناسِبُ للقواعد الشرعية، والمطابِقُ لِمَا تدلُّ عليه الأدلَّةُ، ودَعْ عنك ما يُقالُ في مُخالَفته؛ فإنَّ الفرق بين ما كانَتْ عليه الولايةُ الإسلاميةُ في أوَّلِ الإسلامِ وما هي عليه الآنَ أَوْضَحُ مِنْ شمس النهار، ومَنْ أَنْكَرَ هذا فهو مُباهِتٌ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخَاطَبَ بالحجَّة لأنه لا يَعْقِلُها»[١٠٣٣].

الأمر الثالث: تَوَلِّي الكافرُ الحُكْمَ.

وأمَّا إنْ تَوَلَّى الكافرُ الحُكْمَ: فإنْ تَوفَّرَتِ القدرةُ والاستطاعةُ على تنحيته وتبديله بمسلمٍ كُفْءٍ للإمامة مع أَمْنِ الوقوعِ في المفاسِدِ وَجَبَتْ إزالتُه إجماعًا؛

١٠٣٣ «السيل الجرَّار» للشوكاني (٤/ ٥١٢).



- لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلأَمرِ مِنكُم﴾ [النساء: ٥٩]، والكافرُ لا يُعَدُّ مِنَ المسلمين.
- وقال الله –عزَّ وجلَّ–: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

قال القرطبيُّ: "نَهى الله المؤمنين بِهذه الآية أن يَتَّخِذوا من الكُفَّار واليهود وأهل الأهواء دُخلاءَ ووُلَجاء يُفاوضونهم في الآراء، ويُسندون إليهم أمورَهم"[١٠٣٤].

- قال الله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

قال القاضي ابن العربيّ: "إنَّ الله سبحانه لا يَجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بالشَّرع، فإن وجد فبِخلاف الشرع"[١٠٣٥].

قال القاضي عياض: "فلو طرأَ عليه كُفرٌ وتغيير للشَّرع، أو بدعةٌ، خرجَ عن حكم الولاية، وسقطَت طاعته، ووجب على المسلمين القيامُ عليه وخَلْعُه، ونصب إمام عادلٍ إن أمكنَهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلاَّ لطائفةٍ وجب عليهم القيامُ بِخَلع الكافر"[١٠٣٦].

- وقولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: "لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ"[١٠٣٧]، وقولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: "إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"[١٠٣٨]، وقولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: "لَا، مَا صَلَّوْا"[١٠٣٩]، قال ابنُ حجرٍ ـ رحمه الله ـ: "ومُلخَّصُه أنَّه يَنْعَزِلُ بالكفر

١٠٣٤ تفسير "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٤/ ١٧٩).

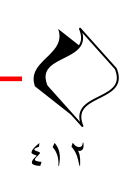
١٠٣٥ "أحكام القرآن" (١/ ٦٤١)، وانظر: تفسير "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٥/ ٤٢١).

١٠٣٦ "شرح صحيح مسلم" للنووي (٦/ ٣١٤).

) ١٠٣٧ أخرجه مسلمٌ في «الإمارة» (١٨٥٥) مِنْ حديثِ عوف بنِ مالكٍ رضي الله عنه.

١٠٣٨ مُتَّفَقٌ عليه: أخرجه البخاريُّ في «الفِتَن» بابُ قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا» (٧٠٥٦)، ومسلمٌ في «الإمارة» (١٧٠٩)، مِنْ حديثِ عُبادةَ بنِ الصامت رضي الله عنه.

١٠٣٩ أخرجه مسلمٌ في «الإمارة» (١٨٥٤) مِنْ حديثِ أمّ سَلَمة رضي الله عنها.



إجماعًا؛ فيجبُ على كُلِّ مسلمٍ القيامُ في ذلك: فمَنْ قَوِيَ على ذلك فله الثَّوابُ، ومَنْ داهَنَ فعليه الإثمُ"[١٠٤٠].

فإنْ عَجَزُوا عن إزالتِه وإقامةِ البديل، أو لا تنتظمُ أمورُ السِّياسة والحكمِ بإزالتِه في الحالِ خشيةَ الاضطراب والفوضى وسُوءِ المآل؛ فالواجبُ الصَّبرُ عليه وهُمْ معذورون؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ[١٠٤١]»، وهذا أحقُّ موقفًا مِنَ الخروج عليه؛ لأنَّ «دَرْءَ المَفَاسِدِ أَوْلَى مِنْ جَلْبِ المَصَالِحِ»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

قال العلَّامةُ ابنُ بازٍ ـ رحمه الله ـ: «إذا رأى المسلمون كفرًا بَواحًا عندهم مِنَ اللهِ فيه برهانٌ فلا بَأْسَ أَنْ يخرجوا على هذا السلطانِ لإزالته إذا كان عندهم قدرةٌ، أمَّا إذا لم تكن عندهم قدرةٌ فلا يخرجون، أو كان الخروجُ يُسبِّبُ شرًّا أَكْثَرَ فليس لهم الخروجُ؛ رعايةً للمَصالِحِ العامَّة، والقاعدةِ الشرعية المجْمَعِ عليها أنه: لا يجوز إزالةُ الشرِّ بما هو أَشَرُّ منه، بل يجب دَرْءُ الشرِّ بما يُزيلُه أو يُخفِّفُه، أمَّا دَرْءُ الشرِّ بشرٍّ أَكْثَرَ فلا يجوز بإجماعِ المسلمين»[١٠٤٢].

المسألة الثالثة: قول المصنف: **"لا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرى أن عليه إماما، برا كان أو فاجرا".**

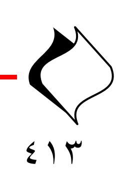
تنقسم البيعة إلى قسمين:

القسم الأول بيعة الانعقاد وهذه يتولاها أهل الحل والعقد.

١٠٤٠ «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ١٢٣).

١٠٤١ هو جزءٌ مِنْ حديثٍ مُتَّفَقٍ عليه: أخرجه البخاريُّ في «الاعتصام بالكتاب والسنَّة» باب الاقتداء بسنن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم (٧٢٨٨)، ومسلمٌ ـ واللفظُ له ـ في «الحجّ» (١٣٣٧)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠٤٢ انظر: «مُراجَعات في فقه الواقع السياسيِّ والفكري» للرفاعي (٢٤). وللشيخ ابنِ عثيمين ــ رحمه الله ــ كلامٌ نفيسٌ في «الشرح الممْتِع على زاد المسْتَقْنِع» (١١/ ٣٢٣).



والقسم الثاني: بيعة العامة أي بيعة سائر المسلمين للخليفة، وهذا ما تم بالنسبة للخلفاء الراشدين جميعا، فأبو بكر الصديق–رضي الله عنه–بعد أن بايعه أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، دُعِي المسلمون للبيعة العامة في المسجد، فصعد المنبر بعد أن أخبرهم عمر بن الخطاب–رضي الله عنه–باختيارهم له، ومبايعتهم إياه، وأمرهم بمبايعته فبايعه المسلمون، وما حدث مع أبي بكر الصديق حدث مع كل الخلفاء الراشدين.

وهذا القسم هو ما أراده المصنف هنا، أمر البيعة هو أن يكون في عنق المسلم بيعة لولي الأمر فهذا أمرٌ بما جاءت به النصوص، كما في الحديث: «وأنه من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[١٠٤٣] ، لقوله صلى الله عليه وسلم: "ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر"[١٠٤٤].

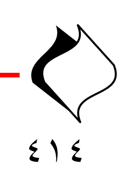
فلا يحل لأحدٍ أن يبيت ليلة ولا يرى أن عليه إمامًا براً كان أو فاجراً ما دام أمر المسلمين قائماً، سواء كانت الولاية على الشروط الشرعية أو تخلفت فيها الشروط الشرعية، فيجب أن يكون في عنق المسلم بيعة للإمام الواقع أو للإمامة الحاصلة في وقته، سواء كان هذا الإمام متوفرة فيه شروط الإمامة أو لا تتوفر، كما ذكر أهل العلم، بناء على الأحاديث الواردة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

١٠٤٣ انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة، بَابُ الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم (١٨٥١)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة برقم (٦٤٢٣).

١٠٤٤ رواه مسلم (١٨٤٤).



[٢٧] "والحج والغزو مع الإمام ماض، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة، ويصلي بعدها ست ركعات، يفصل بين كل ركعتين، هكذا قال أحمد بن حنبل".

الشرح

قول المصنف يشتمل على مسألتين:

المسألة الأولى: قول المصنف: **"والحج والغزو مع الإمام ماض، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة"**

وهذه المسألة تتكون من شقين:

الشق الأول: قول المصنف: **"والحج والغزو مع الإمام ماض"**

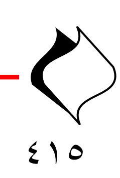
وقال محمد بن أبي زمنين[١٠٤٥] –رحمه الله–: "ومن قول أهل السنة أن الحج والجهاد مع كل بر أو فاجر من السنة والحق، وقد فرض الله الحج فقال: (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) [آل عمران: ٩٧]، وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد علم أحوال الولاة الذين لا يقوم الحج والجهاد إلا بهم، فلم يشترط ولم يبين وما كان ربك نسيا"[١٠٤٦].

وقال قوام السنة الأصفهاني: «والجهاد ماض منذ بعث الله نبيه إلى آخر عصابة تقاتل الدجال»[١٠٤٧].

١٠٤٥ أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين الأندلسي، شيخ قرطبة، صاحب جد وإخلاص، ومجانبة للأمراء، وله مصنفات، توفي سنة ٣٩٩هـ. انظر الديباج المذهب ٢/ ٢٣٢، وسير أعلام النبلاء ١٨٩/١٧.

١٠٤٦ أصول الدين لابن أبي زمنين ص ٢٨٨.

١٠٤٧ الحجة ٢/ ٢٩١.



كما قرر ذلك علي بن المديني[١٠٤٨]، والطحاوية[١٠٤٩]، وابن بطة[١٠٥٠]، والصابوني[١٠٥١]، وابن قدامة[١٠٥٢]، وابن تيمية [١٠٥٣]، وغيرهم.

وقد حكى محمد بن حبيب مفاسد ترك الغزو مع أئمة الجور فقال: «سمعت أهل العلم يقولون: لا بأس بالجهاد مع الولاة، وإن لم يضعوا الخمس موضعه، وإن لم يوفوا بعهد إن عاهدوا، ولو عملوا ما عملوا، ولو جاز للناس ترك الغزو معهم بسوء حالهم لاستذل الإسلام، وتخيفت أطرافه، واستبيح حريمه، ولعلى الشرك وأهله»[١٠٥٤].

ويريد المصنف هنا أن يميز بين مذهب أهل السنة وبين قول الرافضة الذين عطلوا الجهاد، وعطلوا صلاة الجمعة بدعوى أنها لا تصح إلا بعد خروج المهدي المنتظر على حد زعمهم.

فشيوخ الشيعة يقولون: "إن صلاة الجمعة لا تجب عليهم حتى يخرج مهديهم المزعوم من سردابه لكي يصلي بهم"[١٠٥٥] .

وشيوخ الشيعة يقولون: "إن الجهاد قبل خروج المهدي المنتظر حرام كحرمة الميتة والدم ولحم الخنزير"[١٠٥٦].

قال ابن تيمية رحمه الله: "ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات-لا يدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة

١٠٤٨ انظر: أصول السنة للالكائي ١/ ١٩٧.

١٠٤٩ انظر شرح الطحاوية ٢/ ٥٥٥.

١٠٥٠ انظر الإبانة الصغرى ص ٢٧٨.

١٠٥١ انظر: عقيدة السلف الصابوني ص ٢٩٤.

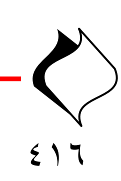
١٠٥٢ انظر لمعة الاعتقاد ص ٣٧.

١٠٥٣ انظر: مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٩٠، ٣٠/ ٣٨.

١٠٥٤ أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٩.

١٠٥٥ انظر مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة لمحمد جواد العاملي ج٢/ ٦٩ كتاب الصلاة.

١٠٥٦ انظر كتاب فروع الكافي ج٥ / ٧٨٧.



وغيرهم–فإن كان الإمام مستوراً لم يظهر منه بدعة ولا فجور صُلّي خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين".

قال ابن تيمية: "وَمَنْ أَنْكَرَ مَذْهَبَ الرَّوَافِضِ وَهُوَ لَا يُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ بَلْ يُكَفِّرُ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ وَقَعَ فِي مِثْلِ مَذْهَبِ الرَّوَافِضِ فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَنْكَرَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُمْ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ وَتَكْفِيرَ الْجُمْهُورِ"[١٠٥٧]

فالرافضة كانوا يقولون لا جهاد حتى يخرج الرضا من آل محمد، فقد جاء في فروع الكافي عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: "القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير"[١٠٥٨]

وقد أحدث الخميني تغييرًا في المذهب الرافضي، فقرر أن للولي الفقيه جميع ما للإمام من الوظائف والأعمال إلا البداءة بالجهاد فهو من وظائف المهدي، ثم تناقض الخميني فجعل الجهاد منوطًا بجيش جمهوريته.[١٠٥٩]

أما الخوارج فيجمعون على وجوب الخروج على الإمام الجائر[١٠٦٠] فكيف يجاهدون معه؟ بل كانوا يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.[١٠٦١]

قال ابن حزم: "جميع فرق الضلالة لم يجر الله على أيديهم خيرًا، ولا فتح الله بهم من بلاد الكفر قرية، ولا رفعوا للإسلام راية، وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين، ويفرقون كلمة المؤمنين، ويسلون السيف على أهل الدين، ويسعون في الأرض مفسدين، أما الخوارج والشيعة فأمرهم في هذا أشهر من أن يتكلف ذكره"[١٠٦٢]

والشق الثاني: قول المصنف: **"وصلاة الجمعة خلفهم جائزة"**

١٠٥٧ مجموع الفتاوى: ٢٣/ ٣٥٤.

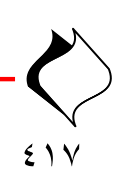
١٠٥٨ الكافي ١/ ٣٣٤، وانظر مختصر التحفة الاثنى عشرية ص ٢٢١.

١٠٥٩ انظر: أصول الشيعة للقفاري: ٣/ ١١٧٢؛ المصدر: مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة: ص: ٣٤.

١٠٦٠ الفرق بين الفرق، ص ٧٣.

١٠٦١ مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة: ص: ٣٤.

١٠٦٢ الفصل: ٥/ ٩٨.



أولاً: حكم الصلاة خلف الفساق.

عند أهل السنة أنه يصلى خلف كل بر وفاجر، هذا هو الصواب، فأنت تصلي خلف الأمراء وتجاهد معهم وإن كانوا أهل معاصي، وتصلي خلف أئمة المساجد وإن كان فيهم معصية.

وفي صحيح البخاري: أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً.

قال النووي: «وأما صلاة ابن عمر خلف الحجاج بن يوسف فثابتة في «صحيح البخاري»»[١٠٦٣].

روى البخاري في صحيحه قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمٍ قَالَ: كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْحَجَّاجِ «أَنْ لَا يُخَالِفَ ابْنَ عُمَرَ فِي الْحَجِّ»، فَجَاءَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَا مَعَهُ يَوْمَ عَرَفَةَ حِينَ زَالَتْ الشَّمْسُ فَصَاحَ عِنْدَ سُرَادِقِ الْحَجَّاجِ فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ مِلْحَفَةٌ مُعَصْفَرَةٌ، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟»، فَقَالَ: «الرَّوَاحَ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ»، قَالَ: «هَذِهِ السَّاعَةَ؟!»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَأَنْظِرْنِي حَتَّى أُفِيضَ عَلَى رَأْسِي ثُمَّ أَخْرُجُ»، فَنَزَلَ حَتَّى خَرَجَ الْحَجَّاجُ فَسَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي، فَقُلْتُ: «إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ فَاقْصُرْ الْخُطْبَةَ وَعَجِّلْ الْوُقُوفَ»، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ: «صَدَقَ»[١٠٦٤].

قال ابن حجر: «وَفِيهِ: صِحَّةُ الصَّلَاةِ خَلْفَ الْفَاسِقِ»[١٠٦٥].

١٠٦٣ «المجموع» (٤/ ٢٢٢)، وكذا ابن الملقن في «البدر المنير» (٤/ ٥٢٠)، والحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ٤٣).

١٠٦٤ «صحيح البخاري» رقم (١٦٦٠)

١٠٦٥ «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٥١٢).

وروى ابن أبي شيبة في «المصنف» عن عُمَيْرٍ بن هَانِئٍ قال: شَهدت ابن عمر والحجاج مُحَاصِرٌ ابن الزبير، فكان منزل ابن عمر بينهما، فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء، وربما حضر الصلاة مع هؤلاء»[١٠٦٦] .

وفي صحيح البخاري أيضاً، أن صلى الله عليه وسلم قال: "يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وأن أخطأوا فلكم وعليهم"[١٠٦٧].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف من يعرفون فجوره كما صلى عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط[١٠٦٨]، وكان قد يشرب الخمر وصلى مرة الصبح أربعاً وجلده عثمان بن عفان على ذلك[١٠٦٩]، فمثل هذه الأمور أهل السنة وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لنا فيهم الأسوة والقدوة، فهم أسوتنا وقدوتنا.

ثانياً: الصلاة خلف المبتدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهماً بالإلحاد وداعياً إلى الضلال)[١٠٧٠].

وسار التابعون ومن تبعهم بإحسان من أئمة السلف على هذا، فقرروه قولاً وفعلاً، فمن ذلك:

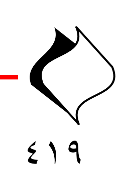
١٠٦٦ «المصنف» (٢/ ١٥٢) قال ابن حجر: «إسناده صحيح». «المطالب العالية» (٣/ ٧٠٢).

١٠٦٧ صحيح البخاري مع فتح الباري ٢/ ٣٢٩.

١٠٦٨ الحديث رواه أحمد (١/ ٤٥٠) (٤٢٩٨، والطبراني (٩/ ٢٩٩) (٩٥٢٠). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٣٢٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٦/ ١٤٦).

١٠٦٩ رواه أحمد (١/ ١٤٤) (١٢٢٩)، والبيهقي (٨/ ٣١٨) (١٧٩٨٥). قال شعيب الأرناؤوط محقق ((المسند)): إسناده صحيح على شرط مسلم.

١٠٧٠ مجموع الفتاوى ٣/ ٢٨١



ما جاء عن الأعمش رحمه الله أنه قال: (كان كبار أصحاب عبد الله –يعني ابن مسعود– يصلون الجمعة مع المختار ويحتسبون بها)[١٠٧١].

وقد كان أبو وائل رحمه الله يصلي الجمعة مع المختار بن أبي عبيد[١٠٧٢].

وعن الحسن رحمه الله أنه سئل عن الصلاة خلف صاحب البدعة، فقال الحسن: (صل خلفه، وعليه بدعته)[١٠٧٣].

وعن الحكم بن عطية رحمه الله أنه قال: سألت الحسن وقلت: رجل من الخوارج يؤمنا، أنصلي خلفه؟ قال: (نعم، قد أم الناس من هو شر منه)[١٠٧٤].

وعن ابن وضاح رحمه الله: قال: سألت الحارث بن مسكين: هل ندع الصلاة خلف أهل البدع؟ فقال: (أما الجمعة خاصة فلا، وأما غيرها من الصلاة فنعم)[١٠٧٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما الصلاة خلف أهل الأهواء والبدع، وخلف أهل الفجور، ففيه نزاع مشهور وتفصيل ليس هذا موضع بسطه.

ولكن أوسط الأقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الإمامة، لا يجوز مع القدرة على غيره، فإن من كان مظهراً للفجور أو البدع يجب الإنكار عليه ونهيه عن ذلك، وأقل مراتب الإنكار هجره لينتهي عن فجوره وبدعته، ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية، فإن الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه، بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسر بالذنب، فهذا لا ينكر عليه في الظاهر، فإن

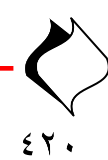
١٠٧١ رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١/ ٤٧٥) برقم (٥٤٩٧)، وابن أبي زمنين في ((أصول السنة)) ص ٢٨٤ برقم (٢١٠).

١٠٧٢ رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١/ ٤٧٥) برقم (٥٤٩٧)، وَعَبَد الرزاق في ((المصنف)) (٢/ ٣٨٦) برقم (٣٧٩٨).

١٠٧٣ (صحيح البخاري كتاب الأذان ٥٦) وقال: باب إمامة المفتون والمبتدع. وَعَلَّقَ قَوْل الحسن: (صلِّ وعليه بدْعَتُهُ).

١٠٧٤ رواه ابن أبي زمنين في ((أصول السنة)) ص ٢٨٤ برقم (٢١١).

١٠٧٥ رواه ابن أبي زمنين في ((أصول السنة)) ص ٢٨٤ برقم (٢١٢).



الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلن فلم تنكر ضرت العامة، ولهذا كان المنافقون تقبل منهم علانيتهم، وتوكل سرائرهم إلى الله تعالى بخلاف من أظهر الكفر)١٠٧٦

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وَلَوْ عَلِمَ الْمَأْمُومُ أَنَّ الإِمَامَ مُبْتَدِعٌ يَدْعُو إلَى بِدْعَتِهِ، أَوْ فَاسِقٌ ظَاهِرُ الْفِسْقِ، وَهُوَ الإِمَامُ الرَّاتِبُ الَّذِي لا تُمْكِنُ الصَّلاةُ إلا خَلْفَهُ، كَإِمَامِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ، وَالإِمَامِ فِي صَلاةِ الْحَجِّ بِعَرَفَةَ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَأْمُومَ يُصَلِّي خَلْفَهُ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَحْمَد وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ.

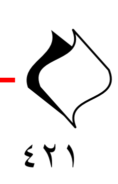
وَلِهَذَا قَالُوا فِي الْعَقَائِدِ: إنَّهُ يُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَالْعِيدَ خَلْفَ كُلِّ إمَامٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا.

وَكَذَلِكَ إذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَرْيَةِ إلا إمَامٌ وَاحِدٌ، فَإِنَّهَا تُصَلَّى خَلْفَهُ الْجَمَاعَاتُ؛ فَإِنَّ الصَّلاةَ فِي جَمَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ، وَإِنْ كَانَ الإِمَامُ فَاسِقًا. هَذَا مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ: أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمَا، بَلْ الْجَمَاعَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِ أَحْمَد.

وَمَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ خَلْفَ الإِمَامِ الْفَاجِرِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يُصَلِّيهَا وَلا يُعِيدُهَا؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ خَلْفَ الأَئِمَّةِ الْفُجَّارِ وَلا يُعِيدُونَ، كَمَا كَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ، وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ يُصَلُّونَ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ؛ حَتَّى إنَّهُ صَلَّى بِهِمْ مَرَّةً الصُّبْحَ أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا مَعَك مُنْذُ الْيَوْمَ فِي زِيَادَةٍ !! وَلِهَذَا رَفَعُوهُ إلَى عُثْمَان...

١٠٧٦ مجموع الفتاوى ٢٣/٣٤٢.



وَالْفَاسِقُ وَالْمُبْتَدِعُ صَلاتُهُ فِي نَفْسِهِ صَحِيحَةٌ؛ فَإِذَا صَلَّى الْمَأْمُومُ خَلْفَهُ لَمْ تَبْطُلْ صَلاتُهُ، لَكِنْ إنَّمَا كَرِهَ مَنْ كَرِهَ الصَّلاةَ خَلْفَهُ لأَنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ، وَمِنْ ذَلِكَ [يعني: ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَةً أَوْ فُجُورًا لا يُرَتَّبُ إمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ التَّعْزِيرَ حَتَّى يَتُوبَ فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُهُ حَتَّى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا وَإِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ إذَا تَرَكَ الصَّلاةَ خَلْفَهُ وَصَلَّى خَلْفَ غَيْرِهِ أَثَّرَ ذَلِكَ حَتَّى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يَنْتَهِيَ النَّاسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِهِ. فَمِثْلُ هَذَا إذَا تَرَكَ الصَّلاةَ خَلْفَهُ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ وَلَمْ يَفُتْ الْمَأْمُومَ جُمُعَةٌ وَلا جَمَاعَةٌ. وَأَمَّا إذَا كَانَ تَرَكَ الصَّلاةَ يَفُوتُ الْمَأْمُومَ الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ فَهُنَا لا يَتْرُكُ الصَّلاةَ خَلْفَهُمْ إلا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

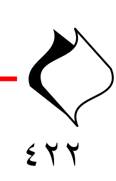
وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ الإِمَامُ قَدْ رَتَّبَهُ وُلاةُ الأُمُورِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي تَرْكِ الصَّلاةِ خَلْفَهُ مَصْلَحَةٌ، فَهُنَا لَيْسَ عَلَيْهِ تَرْكُ الصَّلاةِ خَلْفَهُ، بَلْ الصَّلَاةُ خَلْفَ الإِمَامِ الأَفْضَلِ أَفْضَلُ"١٠٧٧.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين، ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وإذا كان قادراً على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من أظهر البدع والفجور منعه.

وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه والأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل، كما قال النبي–صلى الله عليه وسلم–في الحديث الصحيح: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا سواء فأقدمهم هجره، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً[١٠٧٨]).

١٠٧٧ انظر: مجموع الفتاوى: ٢٣/ ٣٥٢ . ٣٥٤.

١٠٧٨ أخرجه مسلم في صحيحه ١٠٧٩.



وإن كان في هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره، كما هجر النبي –صلى الله عليه وسلم– الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى تاب الله عليهم، وأما إذا وُلِّي غيره بغير إذنه، وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً، وكان قد رَدَّ بدعة ببدعة)[١٠٧٩].

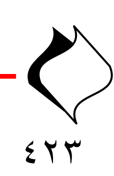
وخلاصة القول: أن أكثر العلماء يرون جواز الصلاة خلف المبتدع على التفصيل الذي قدمناه، ومنهم من منعها وأبطلها وقال بوجوب إعادتها، وممن رجح صحة الصلاة: الإمام البخاري وابن حجر وابن تيمية، ومن المعاصرين الشيخ ابن باز –رحمه الله– وهو يفصل بين من كانت بدعته شركية كفرية وبين من ليس كذلك فيقول: (تصح الصلاة خلف المبتدع وخلف المسبل إزاره وغيرهما من العصاة في أصح قولي العلماء، ما لم تكن البدعة مكفرة لصاحبها، فإن كانت مكفرة له كالجهمي ونحوه ممن بدعتهم تخرجهم عن دائرة الإسلام، فلا تصح الصلاة خلفهم، ولكن يجب على المسئولين أن يختاروا للإمامة من هو سليم من البدعة والفسق، مرضي السيرة؛ لأن الإمامة أمانة عظيمة، القائم بها قدوة للمسلمين، فلا يجوز أن يتولاها أهل البدع والفسق مع القدرة على تولية غيرهم).

والعلماء ذكروا تفاصيل كثيرة تتعلق بالتفريق بين الصلوات العادية وبين صلاة الجمعة والعيدين ويوم عرفة، والتفريق بين من كان مستور الحال ومن هو مجاهر بفسقه أو بدعته، وبين من بدعته مكفرة وبين من هو دون ذلك، وبين من كان هذا المسجد هو الوحيد في ذلك المكان وبين من بإمكانه أن يصلي في مسجد غيره إلى غير ذلك من التفاصيل التي يصعب إيرادها في مثل هذا الشرح.

قال سفيان الثوري في عقيدته: «يا شعيب، لا ينفعك حتى ترى الصلاة خلف بر وفاجر.

قال شعيب: فقلت لسفيان: يا أبا عبد الله! الصلاة كلها؟

١٠٧٩ مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٦).



قال: لا؛ ولكن صلاة الجمعة والعيدين، صل خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فأنت مخير، لا تصل إلا خلف من تثق به وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة"[١٠٨٠]

وجاء في اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل: «وصلاة الجمعة خلفه–أي خلف إمام المسلمين–وخلف من ولي جائزة تامة ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع تارك للأثر مخالف للسنة...»[١٠٨١].

ومما قاله سهل بن عبد الله التستري في اعتقاده: «ولا يترك الجماعة خلف كل وال جائر أو عدل»[١٠٨٢].

كما قرر ذلك أبو الحسن الأشعري[١٠٨٣]، وابن بطة[١٠٨٤]، وقوام السنة الأصفهاني[١٠٨٥].

وهذه المسألة قد دلت عليها الأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة، كما أن في تقريرها مجانبة لطوائف المبتدعة لا سيما الرافضة حيث يشترط الرافضة وجود الإمام الغائب لأداء صلاة الجمعة. [١٠٨٦]كما وضحه ابن تيمية بقوله: "والرافضة لا يصلون إلا خلف المعصوم، ولا معصوم عندهم، وهذا لا يوجد في سائر الفرق أكثر مما يوجد في الرافضة، فسائر أهل البدع سواهم لا يصلون الجمعة والجماعة إلا خلف أصحابهم، كما هو دين الخوارج والمعتزلة وغيرهم، وأما أنهم لا يصلون ذلك بحال فهذا ليس إلا للرافضة»[١٠٨٧].

١٠٨٠ أخرجه اللالكائي ١/ ١٥٤.

١٠٨١ أخرجه اللالكائي ١/ ١٩١، وانظر اعتقاد علي بن المديني في أصول السنة للالكائي ١/ ١٩٨.

١٠٨٢ أخرجه اللالكائي ١/ ١٨٣.

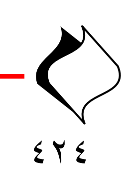
١٠٨٣ الإبانة ص ٧١.

١٠٨٤ الإبانة الصغرى ص ٢٧٨.

١٠٨٥ الحجة في بيان الحجة ٢/ ٤٧٧.

١٠٨٦ انظر مختصر التحفة الاثنى عشرية ص٢١٨، وفقه الإمامية للسالوس ص ٢٠٢.

١٠٨٧ منهاج السنة ٥/ ١٧٠.



ومما يحسن إلحاقه بهذه المسألة[١٠٨٨]: ما قرره ابن تيمية من مشروعية الفصل بين الفرض والنفل في صلاة الجمعة، لما جاء في الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ((نهى أن توصل صلاة بصلاة حتى يفصل بينهما بقيام أو كلام))[١٠٨٩] ثم علل ابن تيمية ذلك بقوله: «فإن كثيرا من أهل البدع لا ينوون الجمعة بل ينوون الظهر، ويظهرون أنهم سلموا، وما سلموا، فيصلون ظهرة، ويظن الظان أنهم يصلون السنة، فإذا حصل التمييز بين الفرض والتفل كان في هذا منع لهذه البدعة»[١٠٩٠].

المسألة الثانية: قول المصنف: **"ويصلي بعدها ست ركعات، يفصل بين كل ركعتين، هكذا قال أحمد بن حنبل[١٠٩١]."**

ورد في عدد الركعات التي تُصلى بعد الجمعة عدة أحاديث:

الحديث الأول: أنها ركعتان.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (كَانَ لاَ يُصَلِّي بَعْدَ الْجُمُعَةِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ)[١٠٩٢] .

الحديث الثاني: أنها أربع ركعات.

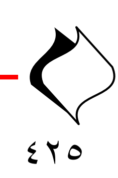
١٠٨٨ المصدر: مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة.

١٠٨٩ أخرجه مسلم ٢/ ١٠١، وأحمد ٤/ ٩٠، وأبو داود ١/ ٢٠٨.

١٠٩٠ مجموع الفتاوى ٢٤/ ٢٠٣.

١٠٩١ جاء في شرح السنة للبربهاري للشيخ عبد العزيز الراجحي (نسخة الشاملة) ما نصه:" أما قول المؤلف: إنه يصلي بعدها ست ركعات يفصل بين كل ركعتين ونسبه إلى الإمام أحمد بن حنبل، فالصواب أنه يصلي أربع ركعات بسلامين، وأن يصلي أربع ركعات سواء في المسجد أو في البيت، وهذا هو الصواب الذي دلت عليه النصوص، خلافاً لما ذكره المؤلف." انتهى كلامه. قلت: كلام الشيخ يعوزه التحرير فالكلام ثابت عن الإمام أحمد وهذا ما سيأتي بيانه في شرح المسألة

١٠٩٢ رواه البخاري (٩٣٧)، ومسلم (٨٨٢).



فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعًا)[١٠٩٣] .

وقد اختلف العلماء في ذلك على عدة أقوال بناء على اختلاف هذه الأحاديث.

القول الأول: أنه يصلي ركعتين: جاء ذلك من فعل ابن عمر رضي الله عنهما.

القول الثاني: وإليه ذهب أكثر الفقهاء استحباب صلاة أربع ركعات بعد الجمعة. يروى ذلك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأصحابه[١٠٩٤]، وهو اختيار الحنفية[١٠٩٥]، واختيار الإمام الشافعي حيث قال: "أما نحن فنقول: يصلي أربعا"[١٠٩٦] .

القول الثالث: التخيير بين الركعتين والأربع.

قال الإمام أحمد: "إن شاء صلى بعد الجمعة ركعتين، وإن شاء صلى أربعا"[١٠٩٧] .

القول الرابع: التفصيل: فمن صلى سنة الجمعة البعدية في المسجد صلاها أربعا، ومن صلاها في البيت صلى ركعتين فقط:

قال ابن القيم رحمه الله: "قال شيخنا أبو العباس ابن تيمية: إن صلى في المسجد صلى أربعا، وإن صلى في بيته صلى ركعتين.

قلت (ابن القيم): وعلى هذا تدل الأحاديث، وقد ذكر أبو داود عن ابن عمر أنه كان إذا صلى في المسجد صلى أربعا، وإذا صلى في بيته صلى ركعتين"[١٠٩٨] .

١٠٩٣ رواه مسلم (٨٨١).

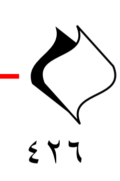
١٠٩٤ كما في "مصنف ابن أبي شيبة" (٢/ ٤٠-٤١).

١٠٩٥ كما في "رد المحتار" (٢/ ١٢-١٣)

١٠٩٦ "الأم" (٧/ ١٧٦)

١٠٩٧ "المغني" (٢/١٠٩).

١٠٩٨ "زاد المعاد" (١/ ٤١٧).



القول الخامس: استحباب ست ركعات: وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن جماعة من السلف[١٠٩٩]، وهو اختيار أبي يوسف والطحاوي من الحنفية[١١٠٠]، وهو رواية عن الإمام أحمد ذكرها ابن قدامة في "المغني"، واستغربها الحافظ ابن رجب في "القواعد"[١١٠١].

وجاء في مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود: "سمعت أحمد يقول: الصلاة بعد الجمعة إن صلى أربعاً فحسن، وإن صلى ركعتين فحسن، وإن صلى ستةً فحسن."[١١٠٢]

وجاء في مسائل الإمام أحمد رواية ابنه أبي الفضل صالح: "قلت: كم يصلي قبل الجمعة وبعدها؟

قال: لا بأس بما صلى، إن صلى بعدها ستا أو أربعا أو ركعتين فلا بأس."[١١٠٣]

قال ابن قدامة: فَصْلٌ: قَالَ أَحْمَدُ: إنْ شَاءَ صَلَّى بَعْدَ الْجُمُعَةِ رَكْعَتَيْنِ، وَإِنْ شَاءَ صَلَّى أَرْبَعًا، وَفِي رِوَايَةٍ: وَإِنْ شَاءَ سِتًّا، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَالنَّخَعِيُّ، وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ يَرَوْنَ أَنْ يُصَلِّيَ بَعْدَهَا أَرْبَعًا؛ لِمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُصَلِّيًا بَعْدَ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعًا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عَلِيٍّ، وَأَبِي مُوسَى، وَعَطَاءٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَحُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَالثَّوْرِيِّ، أَنَّهُ يُصَلِّي سِتًّا، لِمَا رُوِيَ «عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ كَانَ إذَا كَانَ بِمَكَّةَ، فَصَلَّى الْجُمُعَةَ، تَقَدَّمَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَصَلَّى أَرْبَعًا، وَإِذَا كَانَ فِي الْمَدِينَةِ صَلَّى الْجُمُعَةَ، ثُمَّ رَجَعَ إلَى

١٠٩٩ انظر "مصنف ابن أبي شيبة" (٢/ ٤٠-٤١).

١١٠٠ انظر "شرح معاني الآثار" (١/ ٣٣٧)

١١٠١ "القواعد" (ص/١٥).

١١٠٢ مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود –ص ٨٦ –رقم: ٤١٧.

١١٠٣ مسائل الإمام أحمد رواية ابنه أبي الفضل صالح –المجلد: ٣/ ٢٣٨، رقم: ١٧٣٢.

بَيْتِهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَلَمْ يُصَلِّ فِي الْمَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَفْعَلُ ذَلِكَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

وَلَنَا أَنَّ النَّبِيَّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّه بِدَلِيلِ مَا رُوِيَ مِنْ الْأَخْبَارِ، وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–كَانَ يُصَلِّي بَعْدَ الْجُمُعَةِ رَكْعَتَيْنِ.» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: وَكَانَ لَا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فِي بَيْتِهِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَهْمَا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ كَانَ حَسَنًا: قَالَ أَحْمَدُ، فِي رِوَايَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ: وَلَوْ صَلَّى مَعَ الْإِمَامِ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ شَيْئًا حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ، كَانَ جَائِزًا.

قَدْ فَعَلَهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ. وَقَالَ، فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُد: يُعْجِبُنِي أَنْ يُصَلِّيَ. يَعْنِي بَعْدَ الْجُمُعَةِ."[١١٠٤].

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

"كيف يجمع بين قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا)، وبين فعله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يصلي في بيته ركعتين؟

فأجاب:

"اختلف بهذا أهل العلم:

فقال بعضهم: إنه يصلي ستاً، ركعتان ثبتتا بالسنة الفعلية، وأربع بالسنة القولية، هذا قول.

قول ثانٍ: أن المعتبر القول، وهو أن يصلي أربعاً، فتكون سنة الجمعة أربعاً فقط.

القول الثالث: التفصيل: إن صلى في المسجد صلى أربعاً، وإن صلى في بيته فركعتان، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

[١١٠٤] المغني لابن قدامة: ٢ / ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

والحمد لله، الأمر واسع، يعني: لو أنه ذهب إلى البيت وصلى أربعاً بتسليمتين كان حسناً ما يضر إن شاء الله "[١١٠٥].

المتن

قال المصنف–رحمه الله–:

[٢٨] "والخلافة في قريش إلى أن ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام".

الشرح

اشتراط القرشية في الخلافة هي مسألة خلافية بين العماء، فجمهور السلف يرون أن هذا شرط من شروط الإمامة –إذا أمكن–وذلك لورود النصوص عليه صريحة وانعقد إجماع الصحابة والتابعين عليه، وأطبق عليه جماهير علماء المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من أهل البدع كالخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة.

فجماهير علماء المسلمين قاطبة ذهبوا إلى اشتراط هذا الشرط وحكي الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين، وبه قال الأئمة الأربعة[١١٠٦] :

- فقال الإمام أحمد في رواية الإصطخري: «الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة»[١١٠٧] .
- «وقد نص الشافعي رضي الله عنه على هذا في بعض كتبه[١١٠٨] .»
- وكذلك رواه زرقان عن أبي حنيفة»[١١٠٩] .

١١٠٥ "لقاءات الباب المفتوح" (لقاء رقم/٢١٤، سؤال رقم/٨).

١١٠٦ المصدر: الإمامة العظمى للدميجي: ص ٢٦٥ . ٢٩٥.

١١٠٧ طبقات الحنابلة ١/ ٢٦، لابن أبي يعلى.

١١٠٨ الأم ١/ ١٤٣.

١١٠٩ أصول الدين ص ٢٧٥.

- وقال الإمام مالك: ولا يكون–أي الإمام–إلا قرشياً. وغيره لا حكم له إلا أن يدعو إلى الإمام القرشي»[١١١٠].

ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من الخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة[١١١١]

أدلة أهل السنة والجماعة على اشتراط القرشية

استدل المثبتون بعدة أدلة صريحة صحيحة من السنة والإجماع فمن السنة ما يلي:

(١) ما رواه البخاري في صحيحه عن معاوية رضي الله عنه تعالى عنه. حيث قال البخاري: «باب الأمراء من قريش، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية–وهم عنده في وفد من قريش–أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك من قحطان[١١١٢] فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله لا يقول: ((إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين))"[١١١٣].

١١١٠ أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢١.

١١١١ سيأتي ذكر أسمائهم وآرائهم قريبا.

١١١٢ قول عبد الله بن عمرو بن العاص–الذي أنكره عليه معاوية في الحديث المذكور–إنه سيكون ملك من قحطان... الخ. إن أراد به القحطاني الذي صحت الرواية بملكه فلا وجه لإنكاره لثبوت أمره في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، أخرجه البخاري في الفتن باب في تغير الزمان حتى يعبدوا الأوثان (١٣/ ٧٦ من الفتح) وذكره في المناقب في ذكر قحطان (٦/ ٥٤٥) وأخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء. ح: ٢٩١٠ (٤/ ٢٢٣٢) وهذا القحطاني لم يعرف اسمه عند الأكثرين وقيل اسمه جهجاه وقيل شعيب بن صالح، وقيل غير ذلك. والله أعلم. انظر فتح الباري ١٣/ ١١٥، وأضواء البيان ١/ ٥٥.

١١١٣ رواه البخاري في كتاب الأحكام باب الأمراء من قريش (١٣/ ١١٤ من الفتح).

(٢) ومنها الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[١١١٤]

قال الحافظ ابن حجر: «وليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش»[١١١٥].

(٣) ومنها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم»[١١١٦].

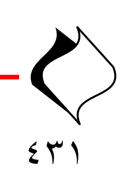
(٤) وفي مسند الإمام أحمد أن أبا بكر وعمر لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الأنصار لاختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تكلم أبو بكر ولم يترك شيئا أنزل في الأنصار وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأنهم إلا ذكره، وقال: ولقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا سلكت وادي الأنصار، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء» [١١١٧]وقد مر معنا في الرواية الواردة في الصحيح والتي أثبتناها في مبايعة أبي بكر رضي الله تعالى

١١١٤ رواه البخاري في ك: الأحكام باب الأمراء من قريش (١٣/ ١١٤ من الفتح) ومسلم في كتاب الامارة باب الخلافة في قريش ح: ١٨٢٠ (٣/ ١٤٥٢).

١١١٥ فتح الباري ١٣/ ١١٧.

١١١٦ رواه البخاري كتاب المناقب باب ٢/ ٦/ ٥٢٦.ومسلم في ك: الامارة ب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح: ١٨١٨ (٣/ ١٤٥١) ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٤٣.

١١١٧ رواه أحمد في مسنده بإسناد مرسل حسن (١/ ٥) وله شواهد تقويه انظر تخريجه في ص ١٤٥ من طرق الانعقاد من هذا البحث



عنه عند ذكره لهذا الحديث بمعناه لا بلفظه حيث قال: ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش»[١١١٨]

(٥) ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب البيت ونحن فيه فقال: «الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك، ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» [١١١٩]وقال ابن حزم وهذه رواية «الأئمة من قريش» جاءت مجيء التواتر رواها أنس بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومعاوية وروى جابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وعبادة بن الصامت معناها[١١٢٠].

وقال الحافظ ابن حجر: «قد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابيا لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يرد إلا عن أبي بكر الصديق»[١١٢١] إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

ثانيا: الإجماع:

أما الإجماع: فقد حكاه غير واحد من العلماء منهم: النووي حيث قال في شرحه لحديث: الناس تبع لقريش... الخ الحديث: «هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر

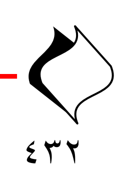
١١١٨ انظر ص ١٤٥.

١١١٩ رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ١٨٣، وقال الهيثمي رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٩٢/٥ وروى ابن أبي عاصم في السنة الشطر الأول منه وصححه الألباني انظر ٢/ ٥٣١ من كتاب السنة، وقال ابن حجر: وأخرجه الطبراني والطيالسي والبزار.

والمصنف في التاريخ -يعني البخاري-وأخرج النسائي وأبو يعلى نحوه وغيرهم. (١٣/ ١١٤ من فتح الباري) وسئل الإمام أحمد عن هذا الحديث فقال: لا أعرفه إلا ان ابن أبي ذئب قد حدث عنه معمر غير حديث (المسند من مسائل الإمام أحمد. ورقة ٨) وقد صحح أحمد شاكر هذا الإسناد في تخريجه للمسند: ح ٧٦٤٠ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ح: ٢٧٥٥ (٢/ ٤٠٦) وانظر زيادة تخريج في الروض النضير ٥/ ١٨.

١١٢٠ الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٩٨.

١١٢١ فتح الباري ٧/ ٣٢.



على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها الأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة [١١٢٢]

ومنهم القاضي عياض فقد نقل عنه النووي قوله: «اشتراط كونه–أي الإمام– قرشيا هو مذهب العلماء كافة، قال: وقد احتج به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد، قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار قال: ولا اعتداد بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه يجوز كونه من غير قريش، ولا سخافة ضرار بن عمرو في قوله: إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي لهوان خلعه إن عرض منه أمر، وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين والله أعلم»[١١٢٣].

ومن حكى هذا الإجماع أيضا الماوردي [١١٢٤]والإيجي في المواقف[١١٢٥] وابن خلدون في المقدمة [١١٢٦]والغزالي في فضائح الباطنية [١١٢٧]وغيرهم.

ومن المتأخرين الشيخ محمد رشيد رضا حيث قال: «أما الإجماع على اشتراط القرشية فقد ثبت بالنقل والفعل، رواه ثقات المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء مذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون...»[١١٢٨].

١١٢٢ شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٢٠٠.

١١٢٣ شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٢٠٠.

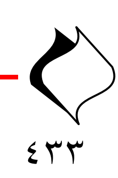
١١٢٤ الأحكام السلطانية ص ٦.

١١٢٥ ص ٣٩٨

١١٢٦ ص ١٩٤.

١١٢٧ ص ١٨٠.

١١٢٨ الخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا ص ١٩.



ولكن الحافظ ابن حجر يعترض على هذا الإجماع بقوله: «قلت: ويحتاج من نقل الإجماع إلى تأويل ما جاء عن عمر من ذلك، فقد أخرج أحمد عن عمر بسند رجاله ثقات أنه قال: «إن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل... الحديث». ومعاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش، فيحتمل أن يقال: لعل الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيا، أو تغير اجتهاد عمر في ذلك والله أعلم[١١٢٩].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: "فاشتراط كونه قرشيًا هو الحق، ولكن النصوص الشرعية دلت على أن ذلك التقديم الواجب لهم في الإمامة مشروط بإقامتهم الدين، وإطاعتهم لله ورسوله، فإن خالفوا أمر الله فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم"[١١٣٠].

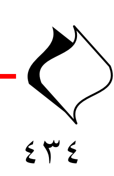
وقد دل على ذلك قول أبي بكر: "وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله، واستقاموا على أمره"، وقوى هذا القول ابن حجر من ثلاثة أوجه، وبما أخرجه أحمد من حديث ذي مخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم وصيره في قريش، وسيعود إليهم"، قال ابن حجر: "وسنده جيد، وهو شاهد قوي"[١١٣١].

القائلون بعدم اشتراط القرشية وأدلتهم:

١١٢٩ فتح الباري ١٢/ ١١٩ والواقع أنه لا يرجع إلى التأويل إلا إذا صح الخبر في مخالفة عمر للإجماع، ولكن هذا الأثر ضعيف لانقطاعه وسيأتي الكلام عليه قريبا ص. ٢٧٧

١١٣٠ أضواء البيان ١/ ٢٤.

١١٣١ فتح الباري ١٣/ ١١٦.



أول من قال بعدم اشتراط القرشية الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه «إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماما»[١١٣٢].

وزعم ضرار بن عمرو–من شيوخ المعتزلة–أيضا أن الإمامة تصلح في غير قريش «حتى إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي إذ هو أقل عددا وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة[١١٣٣].

قال الشهرستاني: والمعتزلة–أي جمهورهم–وإن جوزوا الإمامة في غير قرشي، إلا أنهم لا يجيزون تقديم النبطي على القرشي»[١١٣٤]، وزعم الكعبي أن القرشي أولى بها من الذي يصلح لها من غير قريش، فإن خافوا الفتنة جاز عقدها لغيره»[١١٣٥].

ومن الأشاعرة إمام الحرمين الجويني حيث مال إلى عدم اشتراطه، وزعم أنه من أخبار الآحاد، وهو على مذهبه الباطل–في عدم الاحتجاج بخبر الآحاد–لا يحتج به في مثل هذه المسائل حيث قال: «وهذا مسلك لا أوثره، فإن نقلة هذا الحديث معدودون لا يبلغون مبلغ عدد التواتر. والذي يوضح الحق في ذلك: أنا لا نجد في أنفسنا ثلج الصدور واليقين المثبوت بصدد هذا من فلق[١١٣٦] في رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما لا نجد ذلك في سائر أخبار الآحاد، فإذا لا يقتضي هذا الحديث العلم باشتراط النسب في الإمامة[١١٣٧] وقال في كتابه «الإرشاد»: «وهذا مما يخالف

١١٣٢ الملل والنحل ١/ ١١٦.

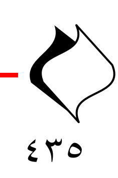
١١٣٣ الملل والنحل للشهرستاني حـ١، ص ٩١.

١١٣٤ الملل والنحل ١/ ٩١.

١١٣٥ أصول الدين ص ٢٧٥.

١١٣٦ الفلق: بيان الحق بعد إشكاله.

١١٣٧ غياث الأمم للجويني ص ١٦٣.



فيه بعض الناس، وللاحتمال فيه عندي جال، والله أعلم بالصواب[١١٣٨]. وقد اختلف قول أبي بكر الباقلاني، فاشترط القرشية في كتابه الإنصاف» فقال: «ويجب أن يعلم أن الإمامة لا تصلح إلا لمن تجتمع فيه شرائط منها: أن يكون قرشية لقوله ع الأئمة من قريش»[١١٣٩] ولم يشترطها في كتابه «التمهيد» حيث قال: «إن ظاهر الخبر لا يقضي بكونه قرشيا، ولا العقل يوجبه»[١١٤٠].

وإلى نفي اشتراط القرشية ذهب أكثر الكتاب المحدثين منهم: الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» وذهب إلى أن الأحاديث الواردة مجرد أخبار لا تفيد حكما[١١٤١]، ومنهم العقاد[١١٤٢]، ومنهم د. علي حسني الخربوطلي في كتابه «الإسلام والخلافة»[١١٤٣] وتجرأ على رمي الأحاديث المذكورة بالوضع، ومنهم د. صلاح الدين دبوس في كتابه «الخليفة توليته وعزله» وذهب إلى أن هذه الأحاديث مجرد أخبار[١١٤٤](٤)، ومنهم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله–وعفا عنه–واعتبرها من باب السياسة الشرعية المتغيرة بتغير العوامل[١١٤٥].

واستدل من ذهب إلى نفي اشتراط القرشية بما يلي:

١١٣٨ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لابي المعالي الجويني. ص ٤٢٧ ط. ١٣٦٩هـ.ن: مكتبة الخانجي بمصر تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد.

١١٣٩ الإنصاف للباقلاني ص ٦٩.

١١٤٠ نقلا عن الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف في تعليقه على الصواعق المحرقة للهيثمي ص٩. ولم أقف على هذا الكلام في كتاب التمهيد لأن النسخة الموجودة المتداولة الآن من تحقيق جماعة من المستشرقين، وقد حذفوا كتاب الإمامة كاملا، وقد نسب هذا الكلام إلى الباقلاني ابن خلدون أيضا. انظر المقدمة ص ١٩٤.

١١٤١ ١/ ٩٠

١١٤٢ الديموقراطية في الإسلام ص ٦٩ ط. رابعة ن: دار المعارف مصر.

١١٤٣ ص ٤٢.

١١٤٤ ص ٢٧٠.

١١٤٥ نظام الإسلام في الحكم والدولة ص ٧١.

(١) بقول الأنصار يوم السقيفة «منا أمير ومنكم أمير»[١١٤٦] قالوا: فلو لم يكن الأنصار يعرفون أنه يجوز أن يتولى الإمامة غير قرشي لما قالوا ذلك.

(٢) ومن أدلتهم أيضا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[١١٤٧] فالحديث أوجب الطاعة الكل إمام وإن كان عبدا، فدل على عدم اشتراط القرشية.

(٣) واستدلوا أيضا بقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: "إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته... فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة؛ استخلفت معاذ بن جبل"[١١٤٨] والمعروف أن معاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش[١١٤٩]، فدل على الجواز. كما روى عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: «لو أدركني أحد رجلين، ثم جعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح»[١١٥٠] .

(٤) فاستنتجوا من قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش...» أن هذا تعليل لطاعة العرب لهم فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار...

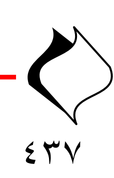
١١٤٦ سبق تخريجه في مبايعة أبي بكر ص ١٤٥ من فصل طرق الانعقاد.

١١٤٧ سبق تخريجه عند الحديث على اشتراط الحرية من هذا الفصل ص ٢٤١.

١١٤٨ رواه أحمد في مسنده (١/ ١٨) وقال عنه الحافظ ابن حجر: رجاله ثقات (فتح الباري ١٣/ ١١٩) لكن في إسناده انقطاع لأن شريح بن عبيد تابعي متأخر لم يدرك عمر، وكذلك راشد بن سعد الحمصي لم يدرك عمر، فالحديث ضعيف لانقطاعه انظر المسند تحقيق أحمد شاكر ح: ١٠٨ (١/ ٢٠١).

١١٤٩ انظر الإصابة لابن حجر ٩/ ٢١٩.

١١٥٠ المسند (١/ ٢٠) وصحح الأستاذ أحمد شاكر إسناده ح: ١٢٩ (١/ ١١٢).



(٥) ومنهم من قال: إن هذه الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة إنها هي على سبيل الإخبار، وليس فيها أمر يجب امتثاله، ذهب إلى ذلك بعض الكتاب المتأخرين كالشيخ محمد أبي زهرة[١١٥١] ود. صلاح الدين دبوس[١١٥٢] وغيرهم.

(٦) واستدلوا على ذلك أيضا بقوله تعالى: {إن أكرمكم عند أتقاكم} [الحجرات آية ١٣] . فجعل الأفضلية والإكرام بالتقوى لا بالمعايير الأخرى كالنسب ونحوه، بل وردت أحاديث تحذر من التفاخر بالأنساب والأحساب، وتنهى عن العصبية الجاهلية منها:

أ–قوله: «أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم»[١١٥٣] .

ب–ومنها قوله: «إن الله أذهب عنكم عبية [١١٥٤]الجاهلية وفخرها بالآباء: الناس رجلان، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[١١٥٥].

مناقشة هذه الأدلة

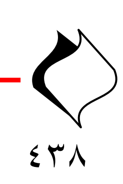
١١٥١ تاريخ المذاهب الإسلامية (١/ ٩٠).

١١٥٢ الخليفة توليته وعزله ص ٢٧٠.

١١٥٣ رواه البخاري في ك: مناقب الأنصار، ب: القمامة في الجاهلية (فتح الباري ١/١٥٦) ورواه مسلم واللفظ له في الجنائز ب: التشديد في النباحة ح/ ٩٣٤، (٢/ ٦٤٤).

١١٥٤ عبية الجاهلية: بضم العين المهملة وكسر الموحدة المشددة وفتح المثناة التحتية المشددة: أي فخرها وتكبرها، قال الخطابي: العبية الكبر والنخوة، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها، وأصله مهموز من العبء وهو الثقل وفيه لغة أخرى وهي العبية بالكسر انظر (غريب الحديث للخطابي ١/ ١٩٠ ط. مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ١٤٠٢ ه).

١١٥٥ رواه أبوداود في سننه ك: الأدب، ب: التفاخر بالأحساب (١٤/ ٢١ عون المعبود) وأخرج نحوه الترمذي في ك: المناقب، ب: فضل الشام واليمن (٥ / ٧٣٥) وقال: «حسن غريب». وسبق تخريجه ص ١١٨ من فصل مقاصد الإمامة.



(١) أما استدلالهم بقول الأنصار «منا أمير ومنكم أمير» فواضح البطلان، وذلك لرجوعهم رضي الله عنهم عن هذا القول في تلك اللحظة بعد أن سمعوا النص الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو بكر رضي الله تعالى عنه

في قوله: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، بر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء»[١١٥٦]. فيحتمل أنهم قالوا هذا القول قبل أن يعرفوا النص الذي يثبت الخلافة في قريش ولهذا رجعوا إلى رشدهم لما عرفوا الحقيقة.

(٢) أما استدلالهم بأحاديث الأمر بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، فقد سبق الجواب عليها مفصلا[١١٥٧]، وأن المراد إما إمامة المتغلب أو الإمارة الصغرى على بعض الولايات، أو لأجل المبالغة في الأمر بالطاعة وضربه مثلا.

(٣) أما استدلالهم بقول عمر في إرادته استخلاف معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله تعالى عنه فهذا لم يتم، وإنما رشح عمر ستة قرشيين اختارهم وقال: «ليختاروا أحدهم»، وأيضا لو ثبت ذلك فإن النص مقدم على قول الصحابي وإن بلغ من الفضل ما بلغ، ولعله اجتهاد من عمر رضي الله تعالى عنه ثم تراجع عنه إلى النص، وقد أجاب الحافظ في الفتح[١١٥٨] على هذا الاعتراض باحتمالين هما:

أ-إما أن يكون الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيًا.

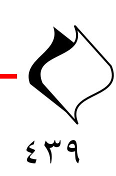
ب-وإما أن يكون قد تغير اجتهاد عمر في ذلك.

قلت: وإما أن يريد من قوله ذلك الولاية الصغرى، أي على أحد الأقاليم، وهذا لا يشترط فيه النسب اتفاقا، هذا على افتراض صحة الحديث وإلا فقد سبق أن بينا

١١٥٦ رواه أحمد (١/ ٥) وسبق تخريجه في طرق الانعقاد ص ١٤٦.

١١٥٧ انظر الجواب على هذا الحديث مفصلا ص ٢٤٢ من هذا الفصل عند الحديث على اشتراط القرشية ففيه ما يغني عن الإعادة.

١١٥٨ فتح الباري ١٣/ ١١٩.



ضعفه لانقطاع سنده فلا يصلح للاحتجاج به أما الحديث الثاني والذي فيه ذكر سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة فيحتمل إرادة التولية الصغرى أيضا، أو أنه يعتبر قرشيًا، لأن أبا حذيفة القرشي[١١٥٩] قد تبناه وهو مولى له، ومولى القوم منهم، وقد أرضعته زوجه-وهو كبير-بعد تحريم التبني فأصبح ابنا له، وقصة إرضاعه مشهورة، وهي في صحيح مسلم وغيره، قال ابن عبد البر: «وهو يعد في قريش لما ذكرنا»[١١٦٠] ويقصد قوله: «لأنه لما اعتقته مولاته زوج أبي حذيفة تولى أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة ولذلك عد في المهاجرين»[١١٦١]، أما أبو عبيدة فقرشي باتفاق[١١٦٢] .

(٤) أما استدلالهم بقول أبي بكر: «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش...»[١١٦٣] وقولهم بأن هذا تعليل لطاعة العرب لهم، فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار، هكذا عللوه، وهو تعليل بعيد، لأنه ظاهر في أحقية قريش بالخلافة فهو بحق دليل على اشتراط القرشية لا على نفيها، والنصوص التي ذكرت استدلال أبي بكر مبينة لهذا الظاهر، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بدليل تسليمهم بالطاعة لأبي بكر رضي الله عنه حينها بين لهم هذا الدليل... والله أعلم.

(٥) وأما من قال بأنها على سبيل الإخبار وليس فيها أمر فمردود لأنها أمر في صيغة الخبر، وقد وردت بعض الأحاديث بالأمر الصريح كقوله صلى الله عليه وسلم: قدموا قريشا ولا تقدموها(هـ) فهذا أمر منه صلى الله عليه وسلم بذلك.

كما أنه لو كان إخبار من النبي صلى الله عليه وسلم لتحقق الخبر، وهو أنه لن يتولى الخلافة إلا قرشي، لأن خبر الصادق لابد أن يتحقق، لكن الواقع غير ذلك،

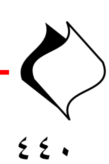
١١٥٩ الإصابة ٨١ / ١١.

١١٦٠ الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر ٤/ ١٠١

١١٦١ الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة لابن حجر ٤/ ١٠١

١١٦٢ الإصابة ٥/ ٢٨٥.

١١٦٣ أخرجه البيهقي وعند الطبراني مثله انظر فتح الباري ١٣/ ١١٨، ورواه ابن أبي عاصم في السنة ٢/ ٦٣٧ وصححه الألباني انظر (إرواء الغليل ح: ٥١٩ (٢/ ٢٩٥).



فقد تولى الخلافة غيرهم، منهم من يدعي كذبًا أنه قرشي كالعبيدين الذي تسموا بالفاطميين[١١٦٤]، ومنهم من لم يدع ذلك كسلاطين الدولة العثمانية، قال ابن حزم: «هذان الخبران–يقصد حديث ابن عمر ومعاوية السابق ذكرهما–وإن كانا بلفظ الخبر فهما أمر صحيح مؤكد، إذ لو جاز أن يوجد الأمر في غير قريش لكان تكذيبا لخبر النبي صلى الله عليه وسلم وهذا كفر ممن أجازه»[١١٦٥] .

(٦) وأما ما قالوه من أن الإسلام نهى عن العصبية، وأن تسود طائفة معينة على سائر المسلمين، وأنه جاء بالمساواة بين المسلمين جميعا لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى... الخ» نقول: إن الإسلام باشتراطه أن يكون الإمام قرشيا لم يكن بذلك داعيا إلى العصبية القبلية التي نهى عنها في أكثر من موضع، فإن الإمام في نظر الإسلام ليس له أي مزية على سائر أفراد الأمة ولا لأسرته أدنى حق زائد على غيرهم، فالإمام وغيره من أفراد المسلمين سواء في نظر الإسلام، بل هو متحمل من التبعات والمسؤوليات ما يجعله من أشد الناس حملا وأثقلهم حسابا يوم القيامة.

هذا وليس معنى أن الإسلام نهى عن العصبية أن الناس لا تفاضل بينهم، بل التفاضل بين الخلق في الدنيا من صميم الفطرة، ووردت أدلة شرعية على ذلك. فجمهور العلماء[١١٦٦] على أن جنس العرب خير من غيرهم، كما أن جنس قريش خير من غيرهم، وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الناس أكرم؟ فقال أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: فيوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال أفعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». وفي رواية:

١١٦٤ انظر لكشف كذبهم وتبين أصلهم تاريخ السيوطي ص ٤.

١١٦٥ المحلى لابن حزم ١٠/ ٥٠٣.

١١٦٦ مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٩/ ٢٩.



«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[١١٦٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذهبت طائفة إلى عدم التفضيل بين الأجناس، وهذا قول طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر ابن الطيب وغيره... وهذا القول يقال له مذهب الشعوبية، وهو قول ضعيف من أقوال أهل البدع»[١١٦٨]. وقال: «لكن تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد، فإن في غير العرب خلق كثير خير من أكثر العرب، وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار خير من أكثر قريش.... قال: «والمقصود أنه أرسل --إلى جميع الثقلين الإنس والجن فلم يخص العرب دون غيرهم من الأمم بأحكام شرعية، ولكن خص قريشا بأن الإمامة فيهم، وخص بني هاشم بتحريم الزكاة عليهم، وذلك لأن جنس قريش لما كانوا أفضل، وجب أن تكون الإمامة في أفضل الأجناس مع الإمكان، وليست الإمامة أمرا شاملا وانا يتولاها واحد من الناس»[١١٦٩]. وقال شيخ الإسلام: «وإذا فرضنا أثنين أحدهما أبوه نبي والآخر أبوه كافر وتساوياً في التقوى والطاعة من كل وجه كانت درجتهما في الجنة سواء، ولكن أحكام الدنيا بخلاف ذلك في الإمامة والزوجية والشرف وتحريم الصدقة ونحو ذلك...» قال: «والخير في الأشراف أكثر منه في الأطراف»[١١٧٠].

أما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة، ومدح الله عز وجل للشخص المعين وكرامته عند الله وفضله فهذا لا يؤثر فيه النسب، وإنها المؤثر الوحيد هو التقوى والعمل الصالح، كما قال عز وجل «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[١١٧١].

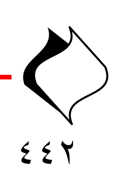
١١٦٧ متفق عليه رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٦/ ٣٨٧ من الفتح) ورواه مسلم في كتاب الفضائل ب: من فضائل يوسف عليه السلام حديث رقم ١٣٧٨ (٤/ ١٨٤٦).

١١٦٨ منهاج السنة ٢/ ٢٦٠.

١١٦٩ مجموع الفتاوى ١٩/ ٣٠ وانظر قريبا منه منهاج السنة ٢/ ٢٦٠.

١١٧٠ المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي ص ٣٥٠.

١١٧١ سورة الحجرات الآية ١٣.



وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في فضل قريش على سائر القبائل[١١٧٢] منها قوله: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[١١٧٣]. فالحاصل أن هناك من ألغى فضيلة الأنساب مطلقا، وهناك من يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم منه في الإيمان والتقوى فضلا من هو مثله. قال ابن تيمية: «فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة وفضيلة الأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية، فالأول يفضل به لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد، والثاني يفضل به لأنه الحقيقة والغاية، وأن كل من كان أتقى كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا، لأن الحقيقة قد وجدت فلم يعلق الحكم بالمظنة»[١١٧٤] فالمقصود أن اشتراط القرشية في الإمام ليس له علاقة بالعصبية القبلية التي نهى الإسلام عنها البتة. كما أن النسب في حد ذاته في أصل الشيعة لا قيمة له ذاتية، وإنما هي صفة كمال.

هذا وأهل السنة لم يقصروها على نوع بعينه من قريش وإنما كان من انتسب إلى قريش جازت له الإمامة إذا توفرت شروطها الأخرى، وهناك من المبتدعة من قصرها على فرع معين، فقصرها بعضهم على بني هاشم، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

١-الراوندية[١١٧٥]: وهؤلاء يرون أنها يجب أن تكون في العباس بن عبد المطلب وولده إلى أن ينتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور.

٢-الرافضة: وهؤلاء يرون أنها تكون في علي رضي الله عنه، ثم في ولده من بعده، ثم اختلفوا بعد ذلك إلى مذاهب شتى:

١١٧٢ من شاء الاستزادة فليرجع إلى كتاب السنة لابن أبي عاصم ٢/ ٦٣٢.

١١٧٣ رواه مسلم والترمذي وأحمد وغيرهم وسبق تخريجه مس ٢٦٨ من هذا الفصل.

١١٧٤ منهاج السنة ٢/ ٢١٦.

١١٧٥ هم أتباع أبي هريرة الراوندي من فرقة الكيسانية انظر المقالات ١/ ٩٦ واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٩٥ ط. جديدة ١٣٩٨ هـ ن. مكتبة الكليات الأزهرية.

فزعمت الزيدية منهم أنها لا تكون إلا في ولد علي رضي الله عنه، ومن خرج من ولد الحسن أو الحسين شاهرًا سيفه وفيه علامات الإمامة فهو الإمام.

وزعمت الإمامية أنها في واحد مخصوص من أولاد علي رضي الله عنه وهو محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الذي ينتظرونه حيث قالوا: إن الإمامة في علي ثم الحسن ثم الحسين ثم تسلسلت في أبنائهم إلى محمد بن الحسن العسكري «المنتظر». وقال بعض الغلاة من الروافض: إن الإمامة في الأصل في علي وولده ثم أخرجوها إلى جماعة من غير قريش، إما بدعواهم وصية بعض الأئمة إليه، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام إلى من يزعمون أن الإمامة انتقلت إليه كالبيانية في دعواها انتقال روح الإله من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى بيان، وكدعوى من ادعى أن الروح انتقلت إلى الخطاب الأسدي، وكدعوى المنصورية نبوة أبي منصور العجلي وإمامته[١١٧٦]، وكدعوى الإسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرهم من الطوائف الباطنية التي تظهر الرفض والتشيع والانتساب إلى آل البيت، وباطنهم الكفر المحض.

المتن

قال المصنف–رحمه الله–:

[٢٩] "ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين فهو خارجي، وقد شق عصا المسلمين، وخالف الآثار، وميتته ميتة جاهلية".

فتنة الخوارج من أعظم الفتن التي أصابت المسلمين، وأشغلتهم بل وتسببت في قتل اثنين من الخلفاء الراشدين، هما عثمان وعلي رضي الله عنهما.

١١٧٦ انظر أصول الدين ص ٢٧٥.

فسفكت الدماء، واستحلت الأموال والأعراض وذلك بسبب فتنة هؤلاء، وهؤلاء ما قامت فتنتهم إلا على أمرين:

الأمر الأول: الخروج على ولي الأمر.

الأمر الثاني: الطعن في العلماء.

فخرجوا على ولي الأمر، وطعنوا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم علماء الأمة، ولذلك هؤلاء الخوارج في صفاتهم المتقدمة هي عين صفاتهم هذا اليوم، وفي كل زمان، هذا ديدنهم ومعلوم أن استقامة أحوال الناس لا تكون إلا بطاعة لولي الأمر ولزوم العلماء، ولذلك لما ذكر العلماء قول الله عز وجل: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء:٥٩]، فسروا ولاة الأمر بأنهم الولاة والعلماء.

ففتنة الخوارج دائماً في كل زمان تقوم على الخروج على ولي الأمر، وعلى انتقاص العلماء، وحفظ أحوال الناس لا يكون إلا بحفظ حقوق هذين الأمرين.

ولذلك لما سئل أبو حنيفة –رحمه الله تعالى–عن قومٍ خرجوا على ولي الأمر وخرجوا على خليفة المسلمين، وخرجوا بدعوى أنهم يريدون إصلاح الأمر وما حصل من الظلم والفساد من جهة ذلك الخليفة قال مجيباً عن حال هؤلاء أنهم يفسدون أكثر مما يصلحون، فعلينا أن نعرف نعمة الله علينا باستقرار أمرنا من خلال وجود ولياً لأمرنا، فعند أهل السنة قواعد وضوابط في التعامل مع الحكام تحكمها النصوص لا تحكمها الأهواء ولا تحكمها نزعات الناس ورغباتهم، إنما يحكمها شرعٌ بحمد الله تعالى أوجب عليك السمع والطاعة في السراء والضراء، وعلى المنشط والمكره، فيما تُحب وفيما لا تُحب، وليس لك أن تشق عصا الطاعة، وليس لك أن تبيت ليلة واحدة وليس في عنقك بيعة لولي الأمر.

ومن هنا يجب على العقلاء من الناس أن لا يتتبعوا زلات الولاة، أو زلات العلماء، وعليهم أن يعرفوا أن حفظ حقوق هؤلاء فيه استقامة لأحوال الناس، واستقامة لمعايشهم ومصالحهم، وأن من يؤلب الناس على ولي الأمر ويتتبع تلك المسالك ونحو

ذلك فإنما قصده القضاء على هذه المصالح، وهو بهذا الفعل مصادم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا به حيث قال: «عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد»[١١٧٧]، وفي رواية: «عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[١١٧٨]، فأمرنا بالسمع والطاعة، وأمرنا بأن نصبر على ولاة أمورنا مهما لقينا، وها هو يوصي الأنصار بأنهم عليهم أن يصبروا حتى يلقوه على الحوض، «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[١١٧٩].

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر والطاعة ولزوم الأمر ولزوم الجماعة، ولزوم ولي الأمر، وهذا معروفٌ ومقررٌ عند أهل السنة، فبتالي نجد أي مجتمعٍ بحمد الله تعالى السنة فيه قائمة هذه الأمور مستقرة في بلدانهم وأوطانهم، ونرى بحمد الله تعالى الدروس والعبر من حولنا، فكم من بلادٍ لم تستقر بسبب الخروج على ولي أمرها، وحالها أسوأ من الحال الذي كانت عليه عندما كان فيها دولة وحكومة وفي هذا عبرة لمن يعتبر.

وتذكر قول الإمام أبي حنيفة: أن هؤلاء الذين يؤلبون ويخرجون: "إنما يفسدون أكثر مما يصلحون"(١١٨٠) فقد تكون المصلحة محتملة، لكن الفساد واقعٌ لا محالة، فما قرره العلماء في هذا الجانب إنما هو من منطلق ما جاءت به النصوص الشرعية.

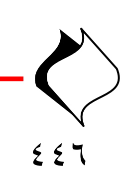
المتن

١١٧٧ انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، برقم (١٨٣٨)، وأبو داود (١٨٣٤)، والترمذي (١٧٠٦)، وابن ماجه (٢٨٦١)، والنسائي (٤١٩٢)، والإمام أحمد في المسند مسند المدنيين (١٦٦٤٦).

١١٧٨ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الأَذَانِ، بَابُ إِمَامَةِ المَفْتُونِ وَالمُبْتَدِعِ، برقم (٦٩٦)، وابن ماجه (٢٨٦٠)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٢٧٥٢).

١١٧٩ انظر صحيح البخاري كتاب الجزية، بـاب مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، برقم (٣١٦٣)، ومسلم كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ برقم (١٠٥٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٣٣٤٧).

١١٨٠ انظر الفقه الأكبر صفحة (١٠٨).



قال المصنف-رحمه الله-:

[٣٠] "ولا يحل قتال السلطان والخروج عليه وإن جاروا، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: «اصبر، وإن كان عبدا حبشيا» (١١٨١)، وقوله للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» (١١٨٢)، وليس من السنة قتال السلطان؛ فإن فيه فساد الدين والدنيا".

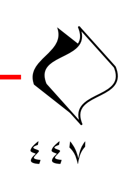
الشرح

ما نسمعه في كثيرٍ من الأزمان وفي كثيرٍ من البلدان من خروجٍ على ولي الأمر فإنما هو مفسدة متحققة ومتعينة، وما يدعون إليه في كثيرٍ منه ليس بمتحقق ولا يتحقق ولا يمكن تحقيقه، فمن خرج على إمامٍ من أئمة المسلمين فهو خارجي يستحق ما جاء في الوعيد في شأن الخوارج، فأي إنسان خرج على ولي الأمر الذي ارتضاه الناس وبايعوه بأن يكون ولياً عليهم فهذا الذي خرج عليه يُلقب ويقال إنه من الخوارج.

ومعلوم أن هؤلاء تتطور عقائدهم حتى إنهم كفروا عامة المسلمين، واستباحوا دماء المسلمين، واستباحوا أعراضهم، ولا يتورعون عن دم مسلم، فإن أوائلهم بقروا بطن الجارية وأخرجوا منها جنينها وذبحوه، هذا الذي فعلوه في زمن علي رضي الله عنها، وهكذا من هم على طريقهم وعلى دربهم وعلى منهجهم، القتل عندهم مبرر بأي وسيلة ومع كائنٍ من كان، فهو مبرر ويعدونه من عقائدهم.

١١٨١ انظر سنن أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) قال الترمذي عقبه حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ (١٧١٤٢)، قال الشيخ الالباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (٥٨) صحيح.

١١٨٢ انظر صحيح البخاري كتاب الجزية، باب مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، برقم (٣١٦٣)، ومسلم كتاب الزكاة، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ برقم (١٠٥٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٣٣٤٧).



فلا يتورعون عن دم مسلم، مع أن دم المسلم عند الله سبحانه وتعالى أعظم من حرمة الكعبة، لكن هؤلاء بفكرهم المنحرف حكموا بكفر عامة المسلمين وكذلك انطلقوا يعيثون في الأرض فسادا، فمن خرج على إمامٍ من أئمة المسلمين فهو عندنا خارجي قد شق عصا المسلمين وخالف الآثار وميتته ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان، والخروج عليه وإن جار.

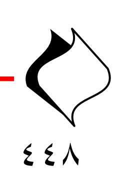
حتى وإن جار السلطان ليس لك الخروج إلا أن يُرى كفراً بواحا عندك من الله فيه سلطان، وحجة بينة واضحة لا تخفى، ويُجمع أئمة علماء المسلمين على ذلك، إما لشبهة أو لجور أو لظلم أو لوقوعٌ في ذنب فهذا يُعد من الخروج الذي لا يحل لإنسان أن يسلك سبيله، وليست السنة قتال السلطان، فهذا شأن أهل السنة، إنما هم عونٌ للسلطان على ما فيه طاعة لله عز وجل.

المتن

قال المصنف–رحمه الله–:

"الخوارج إذا عرضوا للمسلمين في أنفسهم وأموالهم وأهاليهم، وليس له إذا فارقوه أن يطلبهم، ولا يجهز على جريحهم ولا يأخذ فيئهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا يتبع مدبرهم".

الشرح



ويحل قتال الخوارج إذا عرضوا المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأهليهم فإذا هم أعرضوا وابتعدوا ولم يواجهوا ويحملوا السلاح فعند ذلك لا يُقاتلون، لكن إذا بدأوا في القتال يحل قتلهم.

فليس له إذا فارقوه أن يطلبهم، ليس للإمام أن يطلبهم ولا يُجهز على جريحهم، ولا يأخذ فيأهم ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم لأنهم بغاة حكمهم حكم البغاة، ليس حكمهم حكم الكفار، فهذا منهج أهل السنة فيهم، وبحمد الله تعالى من سار على السنة بحمد الله تعالى استقرت بلدانه واستقرت أوطانه، ومن خرج عن السنة نرى ما يكون من حالهم في بلدانهم، وما يكون من فتنهم وشرهم نسأل الله عز وجل العافية والسلامة.

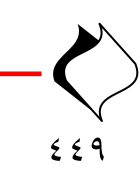
فالخوارج لهم أحكام عند أهل السنة، ومعلومٌ أن أوائلهم خرجوا على علي رضي الله عنه وانحازوا إلى حروراء، وقاتلوا جيش علي رضي الله عنه، ولما سئل عنهم علي رضي الله عنه أكفارٌ هم؟ قال: "من الكفر فروا" قال: ماذا تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: "إخواننا بغوا علينا"(١١٨٣) فعدوا من البغاة، وهم على بدعة، وعلى ضلالة، ولكن لم يُحكم بكفرهم.

وإذا كان لهم منعة وقوة وشوكة وانحياز في مكانٍ معين فهؤلاء لا يُقاتلون حتى يُقاتلوا فإذا قاتلوا فيُقاتلون، أما إذا كان منهم أُناس خرجوا على هيئة جماعات ونحو ذلك وكان شأنهم كقطاع الطرق فإنهم يُتتبعون ويُقضى عليهم وتستأصل شوكتهم ويُكف عن الناس شرهم.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

١١٨٣ انظر مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٩٤٢).



[٣٢] "واعلم –رحمك الله–أنه لا طاعة لبشر في معصية الله عز وجل؛ من كان من أهل الإسلام، ولا يشهد على أحد ولا يشهد له بعمل خير ولا شر، فإنك لا تدري بما يختم له، ترجو له، وتخاف عليه ولا تدري ما يسبق له عند الموت إلى الله من الندم، وما أحدث الله في ذلك الوقت إذا مات على الإسلام ترجو له رحمة الله، وتخاف عليه، ولا ندري ما سبق له عند الموت إلى الله من الندم، وما أحدث الله في ذلك الوقت إذا مات على الإسلام، نرجو له رحمة الله، ونخاف عليه ذنوبه، وما من ذنب إلا وللعبد منه توبة".

(الشرح)

في هذا النص عدة مسائل:

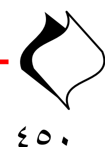
أولاً: قول المصنف: **"واعلم –رحمك الله–أنه لا طاعة لبشر في معصية الله عز وجل".**

وهذا ثابت بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))[١١٨٤]، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: ((إنما الطاعة في المعروف))[١١٨٥]، فلا يطاع أي بشر في المعصية ولو كان أميراً، فإذا أمرك الأمير وقال: اشرب الخمر، فلا تطعه، أو أمرك بالقتل بغير الحق فلا تطعه.

وهنا تنبيه واستدراك حسن من المصنف، فبعد ذكر القواعد في لزوم الطاعة والصبر على الأثرة وعدم جواز الخروج والقتال ذكر الشرط الأساس للطاعة، وهو أن تكون في غير معصية، وإذا أمر المسلم بمعصية فلا يعني ذلك أن يجوز له الخروج، غاية ما في الأمر أنه لا يطيع في المعصية إنما يطيع بالمعروف.

١١٨٤ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٧١٧) (٦/٥٤٥) والخلال في السنة (٥٨) (١/١١٣)

١١٨٥ أخرجه أحمد في مسنده (٦٢٢) (٢/٥٦)



وهذه مسألة ربما يقف عندها بعض الناس من غير تبصر، وهي أن هناك أشياء قد يأمر بها الوالي المسلم فتكون معصية عند المأمور، لكن هي محل خلاف عند الآخرين، فهذه القضية يرجع فيها إلى أهل العلم، لأنك قد تؤمر بأمر تظن أنه معصية فتعصي الوالي فيترتب على هذا فتنة، في حين أن هذا الأمر قد يكون جائزاً عند آخرين من أهل العلم، فيجب في مثل هذه القضايا أن يرجع إلى أهل العلم ولا يجتهد فيها الفرد برأيه.

أما المعاصي المجمع عليها كما لو قال لك: اسرق أو كل الربا، فلا يجوز أن يطاع الوالي في معصية الله عز وجل.

ثانياً: قول المصنف-رحمه الله تعالى-:

"من كان من أهل الإسلام، ولا يشهد على أحد ولا يشهد له بعمل خير ولا شر، فإنك لا تدري بما يختم له، ترجو له، وتخاف عليه ولا تدري ما يسبق له عند الموت إلى الله من الندم، وما أحدث الله في ذلك الوقت إذا مات على الإسلام ترجو له رحمة الله، وتخاف عليه، "

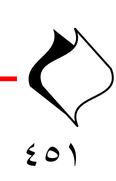
أولاً: أقسام الشهادة.

يقسم أهل السنة الشهادة إلى قسمين عامة وخاصة:

فالعامة: أَنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة أو لشخص معين بأنه في النار، فلا نعيّن إلا ما عيّنه الله أو رسوله.

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِكُلِّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ. وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُونَ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِدُخُولِهِ فِي الْمُتَّقِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى التَّقْوَى عُلِمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَلِهَذَا يَشْهَدُونَ



بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ [صَلَّى للهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وَلَهُمْ فِيمَنِ اسْتَفَاضَ فِي النَّاسِ حُسْنُ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ قَوْلَانِ"[١١٨٦].

- قال الشيخ ابن عثيمين: "الشهادة بالجنة أو بالنار ليس للعقل فيها مدخل فهي موقوفة على الشرع فمن شهد له الشارع بذلك؛ شهدنا له، ومن لا؛ فلا، لكننا نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء، وتنقسم الشهادة إلى قسمين عامة وخاصة:

فالعامة: هي المعلقة بالوصف، مثل أن نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة، أو لكل كافر بأنه في النار، أو نحو ذلك من الأوصاف التي جعلها الشارع سبباً لدخول الجنة.

والخاصة: هي المعلقة بشخص، مثل أن نشهد لشخص معين بأنه في الجنة أو لشخص معين بأنه في النار، فلا نعيّن إلا ما عيّنه الله أو رسوله. "اهـ[١١٨٧]

ثانياً: مسألة الشهادة لمعين بجنة أو نار.

فمن معتقد أهل السنة والجماعة أن من كان من أهل القبلة لا يشهد له بالجنة ولا يشهد له بالنار، لكن نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، إلا من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم.

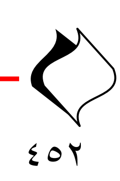
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إِنَّمَا قَدْ نَقِفُ فِي الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ؛ فَلَا نَشْهَدُ لَهُ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ بَاطِنِهِ وَمَا مَاتَ عَلَيْهِ لَا نُحِيطُ بِهِ، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ.

وأهل السنة لَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

القول الأول: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ. وَهَذَا قَوْلُ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْأَوْزَاعِيِّ.

١١٨٦ منهاج السنة ٣ / ٤٩٦ - ٤٩٧

١١٨٧ شرح اللمعة (ص١٤٤).



وَالقول الثَّانِي: أَنَّهُ يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فِيهِ نَصٌّ. وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ."[١١٨٨].

وقد استدل لهذا القول:

-حديث الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة"، وهذا في حديث الذي قتل نفسه بعد أن أثنى عليه الناس.

-الحديث الآخر: "إن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة"[١١٨٩]. والشاهد من هذه الأحاديث أن خاتمة السوء لا تؤمن فكيف يقطع للرجل بالجنة؟

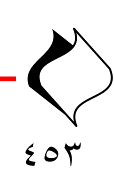
-حديث أبي هريرة في الصحيح قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر فلم نغنم ذهبا ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع فأهدى رجل من بني الضبيب يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما يقال له مدعم فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحط رحلاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سهم عائر فقتله فقال الناس هنيئا له الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا"[١١٩٠].

فهذا مع شهادة الناس له بالجنة بين النبي صلى الله عليه وسلم أن حقيقة حاله على خلاف ما شهد له به.

١١٨٨ انظر المسألة في منهاج السنة: ٣ /٤٩٧ . ٥٠٠ .

١١٨٩ أخرجه البخاري: (٣٢٠٨)، ومسلم:(٢٦٤٣).

١١٩٠ أخرجه البخاري: (٦٣٢٩).



-حديث أم العلاء في البخاري قالت: "سكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمرضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم وما يدريك أن الله أكرمه فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما عثمان فقد جاءه والله اليقين وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به قالت فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا وأحزنني ذلك قالت فنمت فأريت لعثمان عينا تجري فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال ذاك عمله"[١١٩١]، والشاهد من الحديث نص وإقرار، أما النص فالقصة وما وجه به النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وأما الإقرار فلقولها لا أزكي أحداً بعده.

وهذا كالصريح في النهي، قال ابن كثير: "وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر/ والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم"[١١٩٢]. ومثله قال العيني في العمدة.

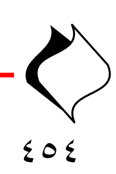
وقد بوب عليه البيهقي: "باب لا يشهد لأحد بجنة ولا نار إلاّ لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بها"[١١٩٣].

هذا مع أن عثمان بن مظعون (أبو السائب) رضي الله عنه بدري قال الله له اصنع ما شئت فقد غفرت لك، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم السلف الصالح يوم مات زينب، وقد روي أنه قبله وسالت دموعه، وهو أول من دفن بالبقيع

١١٩١ أخرجه البخاري:(٢٥٤١)

١١٩٢ تفسير ابن كثير:(٤/ ١٥٦).

١١٩٣ (الكبرى ٤/ ٧٦).



ومع ذلك يقول: "وما يدريك؟! وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به".

وممن نقل عنه القول في هذه المسألة من العلماء:

- ما روي عن الإمام سفيان بن عيينة في اعتقاده قوله: السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة: إثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم.[١١٩٤]
- ونقل عن الإمام أحمد فيمن خرج عليه اللصوص والخوارج قال: "وإن قتل هذا في تلك الحال وهو يدفع عن نفسه وماله رجوت له الشهادة كما جاء في الأحاديث[١١٩٥].
- وقال الإمام أحمد: "ولا نشهد على أهل القبلة بعمل يعمله بجنة ولا نار، نرجو للصالح ونخاف عليه ونخاف على المسيء المذنب، ونرجو له رحمة الله". اهـ[١١٩٦]
- وهي عين كلمة علي بن المديني كما وروى عن سفيان الثوري قوله: "يا شعيب بن حرب لا ينفعك ما كتبت لك حتى لا تشهد لأحد بجنة ولا نار إلا للعشرة الذين شهد لهم رسول الله وكلهم من قريش". اهـ[١١٩٧]
- وقال الإمام أبو عمرو الداني: "ومن قولهم: أن لا ينزل أحد من أهل القبلة جنة ولا نارا إلا من ورد التوقيف بتنزيله، وجاء الخبر من الله تبارك وتعالى، ورسوله عن عاقبة أمره".[١١٩٨]

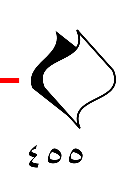
١١٩٤ رواه الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٦)

١١٩٥ اعتقاد الإمام أحمد (١/ ١٦١)

١١٩٦ أصول السنة (ص ٥٠)

١١٩٧ اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٦٢).

١١٩٨ الرسالة الوافية (ص ٩٦)



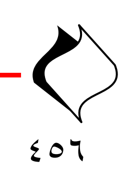
- وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: "ويعتقد ويشهد أصحاب الحديث أن عواقب العباد مبهمة لا يدري أحد بم يُختم له، ولا يحكمون لواحد بعينه أنه من أهل الجنة، ولا يحكمون على أحد بعينه أنه من أهل النار؛ لأن ذلك مغيّب عنهم لا يعرفون على ما يموت عليه الإنسان، أعلى الإسلام أم على الكفر."[١١٩٩]
- وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: "لا أحد يشهد لأحد بالجنة أو النار إلا من ثبت له ذلك. وأهل السنة والجماعة لا يشهدون لِمُعَيَّنٍ بالجنة إلا لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، كالعشرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، الذين ثبتت الأحاديث في تعيينهم أنهم من أهل الجنة. وأما مَنْ سواهم فلا يشهدون له بذلك، ولكنهم يرجون لجميع المؤمنين دخول الجنة، ويخافون على مَنْ أذنب من النار، ولا يقطعون لمعين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من ثبت له ذلك". اهـ[١٢٠٠].

فهذا مذهب جمهور أهل السنة كما ترى.

وَالقول الثَّالِثُ: يَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ» ". وَقَالَ: " «يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ

١١٩٩ اعتقاد أصحاب الحديث (ص ٩٦).

١٢٠٠ جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية (٢٠٦).



السَّيِّئِ» "[١٢٠١] فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ. وَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ يَقُولُ: " أَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فِي الْجَنَّةِ " وَيَحْتَجُّ بِهَذَا"[١٢٠٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالْقَوْلُ بِكَوْنِ الرَّجُلِ الْمُعَيَّنِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ:

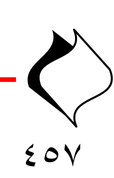
١٢٠١ الْحَدِيثُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–

- فِي الْبُخَارِيِّ ٣/ ١٦٩ (كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ كَمْ يَجُوزُ)، ٢/ ٩٧ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ).
- مُسْلِمٍ ٢/ ٦٥٥ –٦٥٦ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى).
- سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٢/ ٢٦١ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.
- سُنَنِ النَّسَائِيِّ ٤/ ٤١، (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الثَّنَاءِ).
- سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ١/ ٤٧٨ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ).

وَجَاءَ حَدِيثٌ آخَرُ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–

- فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ
- وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ،
- وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٣/ ٢٩٦ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)،
- الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ١٣/ ٢٧٧–٢٧٨ وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى

١٢٠٢ منهاج السنة ٥/ ٢٩٥.

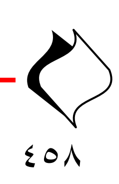


- إِخْبَارَ الْمَعْصُومِ، فأَهْلَ السُّنَّةِ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ[١٢٠٣]، وَيَشْهَدُونَ «أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ: " «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[١٢٠٤]، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ " «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» "، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–[١٢٠٥]. فَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ إِمَامٍ لِأَهْلِ السُّنَّةِ، يَشْهَدُونَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهِيَ شَهَادَةٌ بِعِلْمٍ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.
- وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ تَوَاطُؤَ شَهَادَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. كَمَا فِي الصَّحِيحِ «عَنِ النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–أَنَّهُ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ: "وَجَبَتْ وَجَبَتْ". وَمُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا: شَرًّا فَقَالَ: " وَجَبَتْ وَجَبَتْ

١٢٠٣ وَرَدَ حَدِيثَانِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ: الْأَوَّلُ قَالَ فِي أَوَّلِهِ النَّبِيُّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: اثْبُتْ حِرَاءُ، إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ. الْحَدِيثُ، وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٤/ ٢٩٤ –٢٩٥ (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابٌ فِي الْخُلَفَاءِ ٩، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٥/ ٣١٥ –٣١٦ (كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ مَنَاقِبِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ؛ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ١/ ٤٨ (الْمُقَدِّمَةُ، فَضَائِلُ الْعَشَرَةِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ)، ج [٠–٩] الْأَرْقَامُ ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣٨، ١٦٤٤، ١٦٤٥، وَالْحَدِيثُ الثَّانِي أَوَّلُهُ: عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَفِي الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ج [٥–٩] الْأَرْقَامُ ١٦٣١، ١٦٣٧، وَصَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ الْحَدِيثَ فِي: صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ ٤–٣٥.

١٢٠٤ هَذَا جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ عَنْ عَلِيٍّ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–فِي: الْبُخَارِيِّ ٥/ ٧٧–٧٨ (كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ فَضْلِ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا)، ٦/ ١٤٩ (كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ)، مُسْلِمٍ ٤/ ١٩٤١–١٩٤٢ (كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابٌ: مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ بَدْرٍ) ؛ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٣/٦٤–٦٥ (كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابٌ فِي حُكْمِ الْجَاسُوسِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا)، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٥/ ٨٢–٨٤ (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ٢/ ٣٦–٣٧. وَجَاءَ الْحَدِيثُ مُخْتَصَرًا بِمَعْنَاهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٤/ ٢٩٦ (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابٌ فِي الْخُلَفَاءِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ١٥ ٨٣–٨٤.

١٢٠٥ الْحَدِيثُ عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–فِي مُسْلِمٍ ٤/ ١٩٤٢ (كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابٌ: مِنْ فَضَائِلِ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ)، وَنَصُّهُ فِيهِ: أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ–إِنْ شَاءَ اللَّهُ–مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا " قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْتَهَرَهَا. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٧٢]، وَالْحَدِيثُ عَنْهَا أَيْضًا فِي الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) ٦/ ٣٦٢، ٤٢٠ وَعَنْ حَفْصَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–فِي: سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ٢/ ١٤٣١ (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ ذِكْرِ الْبَعْثِ).



". فقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا قَوْلُكَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ؟ قَالَ: "هَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ. وَهَذِهِ الْجِنَازَةُ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: " وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ"»[١٢٠٦].

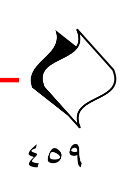
وَفِي الْمُسْنَدِ «عَنِ النَّبِيِّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَنَّهُ قَالَ: " يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ»[١٢٠٧]

- وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُ ذَلِكَ تَوَاطُؤُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ النَّبِيَّ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: " «لَمْ يَبْقَ بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ»[١٢٠٨].

١٢٠٦ الْحَدِيثُ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي الْبُخَارِيِّ ١٦٩/٣ (كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ كَمْ يَجُوزُ)، ٩٧/٢ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ)، مُسْلِمٍ ٦٥٥/٢-٦٥٦ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِيمَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ مِنَ الْمَوْتَى)، سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٢٦١/٢ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ عُمَرَ وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، سُنَنِ النَّسَائِيِّ ٤١/٤، (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الثَّنَاءِ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ٤٧٨/١ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)، وَجَاءَ حَدِيثٌ آخَرُ بِمَعْنَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ وَسُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ فِي الْمَوْضِعَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَهُوَ فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٢٩٦/٣ (كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ٢٧٧/١٣-٢٧٨ وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

١٢٠٧ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي: سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ٢/ ١٤١١ (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ)، وَقَالَ الْمُعَلِّقُ فِي الزَّوَائِدِ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَلَيْسَ لِأَبِي زُهَيْرٍ هَذَا عَنِ ابْنِ مَاجَهْ سِوَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ فِي بَقِيَّةِ الْكُتُبِ السِّتَّةِ، وَالْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) ٣/ ٤١٦، ٦/ ٤٦٧.

١٢٠٨ الْحَدِيثُ-مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي: الْبُخَارِيِّ ٣١/٩ (كِتَابُ التَّعْبِيرِ، بَابُ الْمُبَشِّرَاتِ)، وَجَاءَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ آخَرَ بِنَفْسِ الْمَعْنَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-فِي مُسْلِمٍ ٣٤٨/١ (كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٣٢١/١ (كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي الدُّعَاءِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)، سُنَنِ النَّسَائِيِّ ١٤٨/٨ (كِتَابُ التَّطْبِيقِ، بَابُ تَعْظِيمِ الرَّبِّ فِي الرُّكُوعِ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ١٢٨٣/٢ (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ٢٧٥/٣.



«وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [سُورَةُ يُونُسَ: ٦٤] قَالَ: "هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ"[١٢٠٩].

وَقَدْ فَسَّرَهَا أَيْضًا بِثَنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، «فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِعَمَلَ لِنَفْسِهِ فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ. فَقَالَ: " تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[١٢١٠].

وَالرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَقَدْ تَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَوَاطَأَتْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْرٍ كَانَ حَقًّا، كَمَا إِذَا تَوَاطَأَتْ رِوَايَاتُهُمْ أَوْ رَأْيُهُمْ فَإِنَّ الْوَاحِدَ قَدْ يَغْلَطُ أَوْ يَكْذِبُ، وَقَدْ يُخْطِئُ فِي الرَّأْيِ، أَوْ يَتَعَمَّدُ الْبَاطِلَ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ، وَإِذَا تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ أَوْرَثَتِ الْعِلْمَ، وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَ قَالَ: النَّبِيُّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: " «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ عَلَى أَنَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَحَرِّيَهَا، فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ»[١٢١١] [١٢١٢]"

كما قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى[١٢١٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذلك من أجمعت الأمة على الثناء عليه فإننا نشهد له بالجنة فمثلا الإمام أحمد رحمه الله الشافعي أبو حنيفة مالك سفيان الثوري

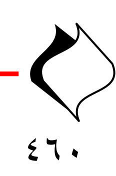
١٢٠٩ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٣/٣٦٤-٣٦٥ (كِتَابُ الرُّؤْيَا، بَابُ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَتَكَرَّرَ هَذَا الْحَدِيثُ: ٤/٣٥٠ (كِتَابُ التَّفْسِيرِ، وَمِنْ سُورَةِ يُونُسَ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ٢/١٢٨٣ (كِتَابُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَابُ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ)

١٢١٠ الْحَدِيثُ-مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ-عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-فِي مُسْلِمٍ ٤/ ٢٠٣٤-٢٠٣٥ (كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ إِذَا أُثْنِيَ عَلَى الصَّالِحِ فَهِيَ بُشْرَى وَلَا تَضُرُّ)، سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ ٢/ ١٤١٢ (كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْحَلَبِيِّ) ٥/ ١٥٦، ١٥٧، ١٦٨.

١٢١١ الْحَدِيثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، فِي الْبُخَارِيِّ ٣/ ٤٦ (كِتَابُ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، بَابُ الْتِمَاسِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ)، مُسْلِمٍ ٢/ ٨٢٢ (كِتَابُ الصِّيَامِ، بَابُ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُوَطَّأِ ١/ ٣٢١ (كِتَابُ الِاعْتِكَافِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)، الْمُسْنَدِ (ط. الْمَعَارِفِ) ٦/ ٢٣١.

١٢١٢ منهاج السنة: ٣ /٤٩٧ . ٥٠٠

١٢١٣ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١١٧/٣).



سفيان بن عيينة وغيرهم من الأئمة أجمعت الأمة على الثناء عليهم فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة. شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أجمع الناس بالثناء عليه إلا من شذ ومن شذ، شذ في النار يشهد له بالجنة على هذا الرأي." اهـ [١٢١٤] والله أعلم.

وقد أجيب على أدلة هذا القول بأن الحديث الأول يفيد أن شهادة المؤمنون لبعضهم بالخير والصلاح توجب نفعه وصلاحه في الآخرة، ولا يجزم بها على العموم، فإحسان الظن بالمسلمين هو الأصل ولكن هذا لا يبنى عليه يقين بمآله.

وهنا فائدة مهمة على قوله: "وجبت وجبت" وهي على الصحيح من التحقيق والجزم، فقيل إنها من خصائصه صلى الله عليه وسلم، ولا يجزم بها لغيره لأنها غيب، ولعل نبينا اطلع على ذلك بطريق الوحي. واختار هذا القول ابن التين.

ويرده قول عمر لها أيضا لجنازة مرت عليه، كما في الصحيح.

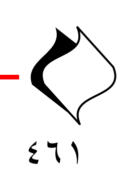
وفي معناها أيضا قال الإمام الطحاوي:

(وجه ذلك عندنا والله أعلم أن الشهادة بالخير لمن شهد له به ستر من الله عز وجل عليه في الدنيا ومن ستره الله عز وجل في الدنيا لم يرفع عنه ستره في الآخرة) اهـ [١٢١٥]

ومما قيل في معناها أيضا: أن انطلاق الألسنة بالثناء الحسن علامة على وجوب الجنة للمثنى عليه به، وليست جزما على الغيب. والله أعلم.

١٢١٤ لعل الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله تعالى– ذكره بالمعنى وهذا نصه قال ابن تيمية: (وَمَعَ هَذَا يُمكن الْعلم بذلك للْوَلِيّ نَفسه وَلغيره وَلكنه قَلِيل وَلَا يجوز لَهُم الْقطع على ذَلِك فَمن ثبتَتْ وِلَايَته بِالنَّصِّ وَأَنه من أهل الْجنَّة كالعشرة وَغَيرهم فعامة أهل السّنة يشْهدُونَ لَهُ بِمَا شهد لَهُ بِهِ النَّص، وَأما من شاع لَهُ لِسَان صدق فِي الْأمة بِحَيْثُ اتّفقت الْأمة على الثَّنَاء عَلَيْهِ فَهَل يشْهد لَهُ بذلك هَذَا فِيهِ نزاع بَين أهل السّنة وَالْأَشْبَه أَن يشْهد لَهُ بذلك هَذَا فِي الْأَمر الْعَام) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (٢/٢٢١).

١٢١٥ بيان مشكل الآثار (٨/ ١٠٨)



أما الحديث الثاني: فهو أصرح في بيان المقصود لقوله: (يوشك) وقوله: (بالثناء الحسن والثناء السيئ) يعني ما هو إلا ثناء على الظاهر لا يجزم له على الحقيقة بالجنة أو النار، فيخلص من هذا أن الكلمة على الرجاء والتمني وليست على التحقيق والتألي.

ومن الخلاف: هل هذا خاص بزمن الصحابة أم أنه عاما للمؤمنين في كل زمان؟ الصحيح المختار: أنه عام ولكن في غير زمن الصحابة يحتاج إلى الإجماع.

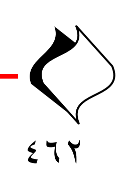
وعليه فرأي الجمهور هو الصواب، وهو أنه لا يشهد لأحد بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا إذا ورد نص أو إجماع.

وأعني بالإجماع هنا ما يراد به حكم الجماعة المسلمة في وقت ما على المعين بأنه من أهل الجنة، فهو من أهل الجنة إن شاء الله تعالى حسب الظاهر للمسلمين وقتئذ ولا يقطع به جزما لأنه ضرب من الغيب، لذلك نصوب من يقول: هو من أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا: لا يصح الاستثناء للمعين بالشهادة فنقول هو شهيد إن شاء الله، للنهي الوارد فيما ذكرنا أعلاه، وإنما نقول نرجو له الشهادة أو نقول كما علمنا عمر: من فعل كذا فهو شهيد عن عُمَرَ أَنَّهُ خَطَبَ فَقَالَ تَقُولُونَ فِي مَغَازِيكُمْ فُلَانٌ شَهِيدٌ وَمَاتَ فُلَانٌ شَهِيدًا وَلَعَلَّهُ قَدْ يَكُونُ قَدْ أَوْقَرَ رَاحِلَتَهُ أَلَا لَا تَقُولُوا ذَلِكُمْ وَلَكِنْ قُولُوا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ"[١٢١٦].

وخلاصة القول: هذه المسألة من مسائل الأسماء والأحكام، قوله: **"ومن كان من أهل الإسلام فلا تشهد له بعمل خيرٍ ولا شر"**، يعني ليس لك أن تشهد لمعين أنه من أهل الجنة أو من أهل النار، لأنك لا تدري ماذا يُختم له، فقد يُصبح المرء مسلماً

١٢١٦ انظر فتح الباري لابن حجر (٦/٩٠).



ويُمسي كافراً يمسي كافراً ويصبح مؤمناً، فلا يُدرى ما هي خاتمة كل أحدٍ منا، ولذلك كان من الدعاء: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

فقد ترى الرجل على معصية وعلى شر، وعلى حالٍ لا يرضي الله عز وجل لكن قد يُختم له بخاتمة حسنة، فقد يتوب فيتوب الله عليه، فلذلك لا نشهد لأحدٍ بعينه بجنة أو نار، لكن نرجو للمحسن الخير ونخاف على المسيء، فإنك لا تدري بما يُختم له عند الموت ترجو له رحمة الله وتخاف عليه ذنوبه، فترجو إذا كان على خير أن يُختم له بخير، وإن كان على شر أن يُختم له إن شاء الله تعالى بتوبة.

ثالثاً: قول المصنف رحمه الله تعالى: **"وما من ذنب إلا وللعبد منه توبة".**

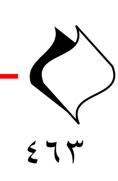
ولذلك الذي قال: إن الله لا يغفر لفلان كما جاء في الحديث عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك[١٢١٧].

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

فالإنسان إذا رأى من أخيه المؤمن حال خير فيرجو له الخير، وإذا رأى من حال شر فعليه أن يدعو له ويحاول أن ينصحه في بعده عنه، لكن يخافه ويخوفه بذنبه، فيقول: يا أخي يُخشى عليك ويخاف عليك أنك إذا مت على هذا الذنب أن ينالك من العقوبة كذا وكذا، بدليل كذا وكذا، أما أن تقول له أنت إنسان هالك أو أنت إنسان من أهل النار أو غير ذلك، فهذا ليس من الحق في شيء.

فلا يدري أحدنا ما يسبق له عند الموت إلى الله من ندم، وما أحدث الله في ذلك الوقت إذا مات على الإسلام، فإذاً ترجو له رحمة الله وتخاف عليه ذنوبه، وهكذا

١٢١٧ رواه مسلم (٢٦٢١).



كلٌ منا يعيش بين مقامي الخوف والرجاء، كما قال الله عن أهل الإيمان، أولئك يرجون رحمته ويخافون عذابه.

والمؤمن بين حال الخوف والرجاء إلى أن تصل الروح الحلقوم، فإذا أيقن في الموت وانقطاع العمل عند ذلك يحسن الظن بالله، لأن الله عز وجل يقول: «أنا عند حسن ظن عبدي بي» (١٢١٨)، فإذا ظن الإنسان بالله خيراً فالله سبحانه وتعالى يوفقه لهذا الخير.

فيظن الإنسان في هذه اللحظة بنفسه خيرا، ويظن بالله خيرا، أن يُختم له بخاتمة حسنة، وما من ذنبٍ إلا وللعبد منه توبة، حتى الشرك إذا تاب العبد تاب الله عليه، وباب التوبة مفتوح، والله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، فرحمة الله سبحانه وتعالى واسعة، وباب التوبة مفتوح إلى أن تبلغ الروح الحلقوم، أو تخرج الشمس من مغربها فهذا حال انقطاع التوبة.

فعلى الإنسان أن يؤمل نفسه، ويؤمل بأن أي عاصي قد يتوب، ويرجو لعل الله أن يتوب عليه، ولذلك ذلك الذي قتل تسعة وتسعين نفسا فذهب إلى ذلك العابد وقال: "لا أعلم لك توبة فأجهز عليه وكمل به المائة، فلما ذهب إلى العالم قال: ومن يرد عنك باب التوبة؟ "(١٢١٩) فباب التوبة مفتوح ولذلك لا ينبغي أن تكون عوناً للشيطان على أخيك المسلم إنما أمله واطلب منه أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى

١٢١٨ انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: ٢٨]، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ فَضْلِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، برقم (٢٠٦٧)، والترمذي (٢٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٢٢)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١٠٦٨٤).

١٢١٩ انظر صحيح البخاري كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الغَارِ، برقم (٣٤٧٠)، ومسلم كتاب التَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ، برقم (٢٧٦٦)، وابن ماجه (٢٦٢٢)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (١١١٥٤).

عسى أن يتوب الله عليه، وبحمد لله تعالى لسنا نصارى، النصارى لا يمكن أن يتوب إلا ويأتي إلى القسيس ويعترف بين يديه بذنوبه.

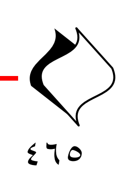
وذنوبك بينك وبين الله عز وجل لا تكشف سترها لأحدٍ من الناس مهما كان ذلك الإنسان، والجأ إلى الله سبحانه وتعالى فهو المطلع على ذنوبك، وناجه عز وجل واسأله عز وجل أن يتوب عليك من ذلك الذنب، فلا تكشف ستر الله سبحانه وتعالى عليك، لا تقل: حتى لو كان لعالم أنا كنت كذا وكذا وكذا، لأن التوبة بينك وبين الله سبحانه وتعالى.

فذنوبك سترها الله عليك فاسأل الله عز وجل أن يتجاوزها عنك، وأن يغفر لك ذلك الذنب، أما ما يفعله بعض الناس من حكاية حاله حتى بعد توبته فذلك ليس من الحق بشيء، فإذاً ما من ذنبٍ إلا وللعبد منه توبة.

فمن تاب تاب الله عليه، والمهم أن تكون التوبة نصوحاً بأن يندم صاحب الذنب على ما مضى، ثم يعزم عزماً جازماً على ألا يعود إليه، أما إذا كانت التوبة مؤقتة كأن يتوب في رمضان وهو ينوي أنه يرجع إلى المعاصي بعد انتهاء رمضان فهذه ليست توبة، فلا بد أن يعزم عزماً جازماً على ألا يعود إلى المعصية بعد تركه إياها، والندم عليها.

ولا بد من رد المظالم إلى أهلها، وأن تكون التوبة قبل وصول الروح إلى الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها في آخر الزمان، فإذا تحققت هذه الشروط فهي توبة نصوح.

وأي ذنب ولو كان كفراً أو شركاً فإن له توبة، فقد عرض الله التوبة على أكثر الناس كفراً وهم المثلثة من النصارى الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، فقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ} [المائدة:٧٣-٧٤].



(المتن)

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٣٣] "والرجم حق".

الشرح

ذكر الرجم إشارة إلى جميع الحدود التي تقررت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكأن الشيخ أشار إليه لأنه من الحدود النادرة الوقوع، ولأن نفوس بعض الناس تنفر منه، وتكلم أهل الأهواء في الرجم، وجحده الخوارج، وسخر منه الفلاسفة كما سخروا من شرائع الأنبياء.

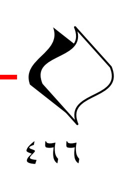
وقوله: **"الرجم حق"** هذه من مسائل الفروع، لكن المؤلف نص عليها للرد على الخوارج وبعض المعتزلة الذين أنكروا الرجم، بحجة أنه زيادة على القرآن وهم لا يقبلون ما زاد عن القرآن بزعمهم.

وقد ذكر غير واحد من علماء أهل السنة حد الرجم–في حق الزاني المحصن–في عقائدهم.

قال الإمام أحمد بن حنبل في اعتقاده: "والرجم حق على من زنا وقد أحصن إذا اعترف أو قامت عليه البينة"[١٢٢٠].

وقال ابن بطال: "أجمع الصحابة وأئمة الأمصار على أن المحصن إذا زنا عامدًا عالمًا مختارًا فعليه الرجم، ودفع ذلك الخوارج وبعض المعتزلة واعتلوا بأن الرجم لم يذكر

١٢٢٠ أخرجه اللالكائي ١/ ١٩٢، وانظر اعتقاد ابن المديني كما جاء في اللالكائي ١/ ١١٨.



في القرآن، وحكاه ابن العربي عن طائفة من أهل المغرب لقيهم وهم من بقايا الخوارج"[١٢٢١].

وقال ابن قدامة: "وجوب الرجم على الزاني المحصن رجلًا كان أو امرأة، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعمار، ولا نعلم فيه مخالفًا إلا الخوارج"[١٢٢٢].

والرجم يكون للزاني المحصن، فإذا زنا وثبتت عليه البينة بشهادة أربعة عدول أو بإقراره على نفسه، وكان قد تزوج ولو في العمر مرة ولو لم يكن معه زوجة، وإذا تزوج ولو ليلة واحدة ودخل بها فإنه يسمى محصناً، فإذا زنا بعد ذلك رجم.

وإن لم يكن محصناً بأن لم يتزوج فإنه يجلد مائة جلدة ويغرب عاماً عن البلد، قال الله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} [النور:٢].

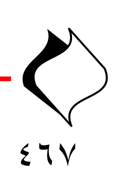
وفي حديث عبادة بن الصامت، قال عليه الصلاة والسلام: (خذوا عني، خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً: الثيب بالثيب جلد مائة والرجم، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام)[١٢٢٣].

فالثيب يرجم بالحجارة حتى يموت، والبكر يجلد مائة جلدة ويغرب عن البلد عاماً.

١٢٢١ فتح الباري ١٢/ ١١٨، وانظر ١٢/ ١٤٨.

١٢٢٢ المغني ١٢/ ٣٠٩، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/ ٣٣٩.

١٢٢٣ رواه مسلم: ٣٣٠١



المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٣٤] "والمسح على الخفين سنة".

الشرح

ذكر المصنف المسح على الخفين إشارة إلى الأحكام التي علمت بالقواطع الشرعية أو بالنصوص القطعية ثم أنكرها، من أنكرها، فكل حكم من الأحكام الشرعية–وإن لم يدخل في العقيدة–تواترت به النصوص أو أجمع عليه السلف أو كان دليله صحيحاً ولو لم يتواتر فإن جحده يعتبر من مخالفة العقيدة، فلذلك ذكر السلف المسح على الخفين.

وقد خالفت فيه الرافضة، كما خالفت في تجويز مسح الرجل بدل الغسل، فردوا السنة وعملوا بعكسها في مقام واحد، وهذا دليل انتكاس عندهم في العقول والأصول، ففي الوقت الذي أنكروا فيه المسح على الخفين أجازوا المسح بدون خفين.

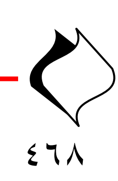
وهناك طوائف من الخوارج وطوائف من الجهمية وغيرهم أنكروا المسح على الخفين.

وقال الإمام النووي: "أجمع من يعتد به في الإجماع على جواز المسح على الخفين في السفر والحضر سواء كان لحاجة أو لغيرها... وإنما أنكرته الشيعة والخوارج ولا يعتد بخلافهم"[١٢٢٤]

وقال ابن تيمية: "وقد تواترت السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين، وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، كما تخالف الخوارج نحو ذلك"[١٢٢٥]

١٢٢٤ شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ١٦٠.

١٢٢٥ منهاج السنة النبوية ٤/ ١٧٤.



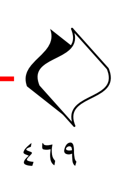
وقال في موضع آخر "وكان سفيان يذكر من السنة المسح على الخفين؛ لأن هذا–أي ترك المسح على الخفين–كان شعارًا للرافضة"[١٢٢٦]

والأحاديث في المسح على الخفين متواترة خلافاً للروافض الذين أنكروا المسح على الخفين، فالعلماء يذكرون المسح على الخفين في كتب العقائد للرد على الخوارج والروافض الذين ينكرون المسح على الخفين، وكذلك غسل الرجلين في الوضوء وهم يقولون: إن الواجب مسح ظهور القدمين، فإذا كانت الرجلان مكشوفتين فيمسحونها بعد تبليل أيديهم بالماء، وإذا كان عليهما الخفان وجب خلع الخفين ومسح ظهور القدمين.

حتى إن الذين نقلوا كيفية الوضوء عن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: غسلاً للرجلين المكشوفتين ومسحاً للخفين، وأكثر الذين نقلوا نص الآية وهي قوله عز وجل في سورة المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ} [المائدة:٦]، فالآية متواترة؛ لأن القرآن كله متواتر، لكن تواتر كيفية الوضوء غسلاً ومسحاً أقوى من تواتر نص الآية، وذلك أن الصحابة كلهم يتوضؤون، وكلهم شاهدوا غسل الرجلين ومسح الخفين من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن لم يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم فقد نقله عن غيره بخلاف نص الآية، فليس كل أحد يحفظ الآية فالبعض يحفظ الآية والبعض لا يحفظها، أما الوضوء فكلهم يتوضئون وليس هناك أحد لا يتوضأ، فالآية متواترة ونقل كيفية الوضوء أقوى تواتراً وأكثر عدداً من الذين نقلوا نص الآية.

قال الحافظ ابن حجر: "وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الأَخْبَار عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِفَة وُضُوئِهِ أَنَّهُ غَسَلَ رِجْلَيْهِ وَهُوَ الْمُبَيِّن لأَمْرِ اللَّه، وَلَمْ يَثْبُت عَنْ أَحَد مِنْ الصَّحَابَة خِلَاف ذَلِكَ إِلا عَنْ عَلِيّ وَابْن عَبَّاس وَأَنَس، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُمْ الرُّجُوع عَنْ ذَلِكَ،

١٢٢٦ مجموع الفتاوى ٢٢/ ٤٢٣.



قَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى: أَجْمَعَ أَصْحَاب رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى غَسْل الْقَدَمَيْنِ، رَوَاهُ سَعِيد بْن مَنْصُور"[١٢٢٧].

وأما الآية، وهي قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) [المائدة: ٦]، فإنها لا تدل على جواز مسح الرجلين، وبيان ذلك: أن في الآية قراءتين:

الأولى: (وَأَرْجُلَكُمْ) بنصب اللام، فتكون الأرجل معطوفة على الوجه، والوجه مغسول، فتكون الأرجل مغسولة أيضاً، فكأن لفظ الآية في الأصل: (اغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم) ولكن أُخِّرَ غسلُ الرجل بعد مسح الرأس للدلالة على أن ترتيب الأعضاء في الوضوء يكون على هذا النحو، غسل الوجه، ثم الأيدي، ثم مسح الرأس، ثم غسل الأرجل" [١٢٢٨]

القراءة الثانية: (وَأَرْجُلِكُمْ) بكسر اللام، فتكون معطوفة على الرأس، والرأس ممسوح، فتكون الأرجل ممسوحة.

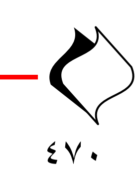
غير أن السنة بينت أن المسح إنما هو على الخفين أو الجوربين بشروط معروفة في السنة[١٢٢٩].

وبهذا يتبن أن الآية على القراءتين لا تدل على مسح الأرجل، وإنما تدل على وجوب غسل الأرجل، أو مسح الخفين لمن يلبس الخفين.

١٢٢٧ "فتح الباري" (١/٣٢٠).

١٢٢٨ انظر: "المجموع" (١/٤٧١).

١٢٢٩ انظر: "المجموع" (١/٤٥٠)، "الاختيارات" (ص ١٣).



وقد ذهب بعض العلماء—على قراءة الجر—إلى أن الحكمة من ذكر المسح في حق الأرجل مع أنها مغسولة إشارة إلى أنه ينبغي الاقتصاد في استعمال الماء عند غسل الرجلين، لأن العادة الإسراف عند غسلهما، فأمرت الآية بالمسح أي بأن يكون الغسل بلا إسراف في الماء.

قال ابن قدامة: "ويحتمل أنه أراد بالمسح الغسل الخفيف. قال أبو علي الفارسي: العرب تسمي خفيف الغسل مسحا، فيقولون: تمسحت للصلاة. أي توضأت "[١٢٣٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وفي ذِكر المسح على الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجل فإن السرف يعتاد فيهما كثيراً"[١٢٣١]

المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٣٥] "وتقصير الصلاة في السفر سنة".

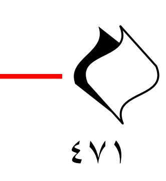
الشرح

من السنن والأحكام قصر الصلاة في السفر، ولها أحكام فقهية معلومة في أبوابها.

فما جاء في شرع الله عز وجل فيجب أن يُعظم، ويجب أن يُحترم، فحدود الله سبحانه وتعالى وأحكام شرعها مقامها في النفس عظيم، فليس لك أن ترد سنة من

١٢٣٠ "المغني" (١/١٨٦).

١٢٣١ "منهاج السنة" (٤/١٧٤).



السنن، وليس لك أن تستهزئ بها، وعليك بامتثالها، فـ ((إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ تؤتى رُخَصُه كما يُحِبُّ أنْ تؤتى عزائمُه))[١٢٣٢].

فإذا كانت هناك رخصة من الرخص كقصر الصلاة في السفر أو نحو ذلك فعليك أن تأتي بها لأن الله تعالى يُحبها منك كما يُحب أن تؤتى فرائضه.

قصر الصلاة يكون في الرباعية وهي الظهر والعصر والعشاء، أما المغرب والفجر فلا يقصران.

وقرر أهل السنة مشروعية قصر الصلاة في السفر –كما جاءت به السنة– وكما قال الإمام المزني[١٢٣٣] في عقيدته: "وإقصار الصلاة في الأسفار"[١٢٣٤].

كما قرر ذلك قوام السنة الأصفهاني[١٢٣٥]، خلافا لبعض الخوارج الذين لا يجيزون القصر إلا مع الخوف[١٢٣٦].

المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٣٦] "والصوم في السفر؛ من شاء صام ومن شاء أفطر".

الشرح

والإنسان مخير في الصوم في السفر فمن شاء صام ومن شاء أفطر؛ لما ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسافر ومعه أصحابه

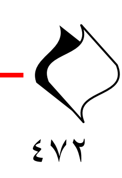
١٢٣٢ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٥٦٨)، الطبراني في المعجم الأوسط: (٨/ ٨٢).

١٢٣٣ أبو إبراهيم إسماعيل بن يحي المزني المصري، تلميذ الشافعي، الإمام الفقيه الزاهد، له مصنفات كثيرة، منها مختصره في الفقه، توفي سنة ٢٩٤هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٩٣، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٢.

١٢٣٤ شرح السنة للمزني ص٨٩.

١٢٣٥ انظر الحجة ٢/ ٤٧٧.

١٢٣٦ انظر: مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية ٢٤/ ٢٢، ومختصر الفتاوى المصرية ص ٧٢.



فبعضهم صائم وبعضهم مفطر، ولا يعيب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم.

واختلف العلماء هل الأفضل للمسافر الصوم أو الفطر؟ فقيل الصوم أفضل؛ لأنه أسرع في براءة الذمة، وقيل: الفطر أفضل؛ لأنه أخذ برخصة الله، وقيل: هما سواء.

والصواب: إن كان الصوم يشق على المسافر فالفطر أفضل، وإن لم يشق فقيل الفطر أفضل؛ لأنه فيه أخذ برخصة الله، وإن كان الإنسان نشيطاً فله أن يصوم وإن رأى أن يفطر فلا حرج، الأمر في هذا واسع.

المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٣٧] "ولا بأس بالصلاة في السراويل".

الشرح

السَّرَاوِيلُ: يُذكر ويُؤنث. والجمع: السَّرَاوِيلاتُ.[١٢٣٧]

قال سيبويه: "ولا يُكَسَّر لأَنه لو كُسِّر لم يرجع إلاَّ إلى لفظ الواحد فتُرِكَ وقد قيل سَراوِيل جمع واحدته سِرْوالة"[١٢٣٨].

والسروال هو الذي يستر النصف الأسفل من جسم الإنسان، ويضع على كتفيه الرداء ويصلي في رداء وسروال أو رداء وإزار، أو قميص وهو الثوب.

يشترط في السراويل أن تكون ساترة وأن تكون واسعة وألا يكون فيها تشبه، وينطبق هذا الحكم على الألبسة الحديثة كالبنطلونات، فالبنطلون هو نوع من السراويل

١٢٣٧ مختار الصحاح مادة س ر و ل.

١٢٣٨ لسان العرب مادة سرل.

لكنه ضيق، ولذلك إذا كان واسعاً فلا حرج فيه، أما إذا لم يكن واسعاً فلا تنبغي الصلاة فيه.

واختلف أهل العلم في حكم الصلاة بالسراويل:

قال البخاري في كتاب الصلاة بَاب الصَّلَاةِ فِي الْقَمِيصِ وَالسَّرَاوِيلِ وَالتُّبَّانِ وَالْقَبَاءِ.

وعن أشهب فيمن اقتصر على الصلاة في السراويل مع القدرة يعيد في الوقت إلا إن كان صفيقا وعن بعض الحنفية يكره[١٢٣٩]

قال العيني في شرح البخاري: "واختلف أصحاب مالك فيمن صلى في سراويل وهو قادر على الثياب ففي المدونة لا يعيد في الوقت ولا في غيره وعن ابن القاسم مثله وعن أشهب عليه الإعادة في الوقت وعنه أن صلاته تامة إن كان ضيقا.

وأخرج أبو داود من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي في لحاف ولا يوشح به وأن تصلي في سراويل ليس عليك رداء وبظاهره أخذ بعض أصحابنا وقال تكره الصلاة في السراويل وحدها والصحيح أنه إذا ستر عورته لا تكره الصلاة فيه" انتهى الكلام العيني[١٢٤٠]

قال الشافعي: "ويصلى الرجل في السراويل إذا وارى ما بين السرة والركبة، والإزار أستر وأحب منه. قال وأحب إلى أن لا يصلى إلا وعلى عاتقه شيء عمامة أو غيرها ولو حبلا يضعه".[١٢٤١]

١٢٣٩ فتح الباري ١/ ٤٧٦.

١٢٤٠ تحفة الأحوذي ٢/ ٢٦٣.

١٢٤١ الأم ١/ ٨٩.

وقال: "وأحب أن لا يصلى في القميص إلا وتحته إزار أو سراويل أو فوقه سترة فإن صلى في قميص واحد يصفه ولم يشف كرهت له ولا يتبين أن عليه إعادة الصلاة والمرأة في ذلك أشد حالا من الرجل" ١٢٤٢

وسئل مالك عن الرجل يصلي محلول الإزار وليس عليه سراويل ولا ازار قال مالك: "لا بأس بذلك وهو عندي أستر من الذي يصلي متوشحا بثوب واحد قلت فما قول مالك فيمن صلى متزرا أو بسراويل وهو يقدر على الثياب قال لا أحفظ عن مالك فيه شيئا ولا أرى أن يعيد في الوقت ولا في غيره"١٢٤٣

وفي فيض القدير: "ونهى أن يصلي الرجل في سراويل أعجمي أو عربي لا ينصرف وليس عليه رداء لأن السروال بمفرده يصف الأعضاء ولا يتجافى عن البدن والنهي للتنزيه عند الشافعية"١٢٤٤.

وفي المغني لابن قدامة: "ولا يجزئه مئزر وحده ولا سروال وحده لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلي أحدكم في ثوب واحد ليس على عاتقه منه شيء"١٢٤٥.

(المتن)

قال المصنف رحمه الله تعالى: "

[٣٨] "والنفاق أن تظهر الإسلام باللسان وتخفي الكفر".

الشرح

النفاق لغة:

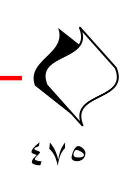
أولًا: أصل الكلمة.

١٢٤٢ الأم ١/ ٩٠.

١٢٤٣ المدونة الكبرى ١/٩٥-٩٦.

١٢٤٤ فيض القدير ٦/٣٤٢.

١٢٤٥ المغني ١٠/٩.



اختلف علماء اللغة في أصل النفاق،

فقيل: إن ذلك نسبةً إلى النفق وهو السرب في الأرض، لأن المنافق يستر كفره ويغيبه، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه.

وقيل: سمي به من نافقاء اليربوع، فإن اليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طلب من القاصعاء قصع فخرج من النافقاء، كذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه،

وقيل: نسبة إلى نافقاء اليربوع أيضاً، لكن من وجه آخر وهو إظهاره غير ما يضمر، وذلك: أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض ترك قشرة رقيقة حتى لا يعرف مكان هذا المخرج، فإذا رابه ريب دفع ذلك برأسه، فخرج، فظاهر جحره تراب كالأرض، وباطنه حفر، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر"[١٢٤٦]

ثانيًا: معناه

هو: اختلاف السر مع العلانية.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والنفاق لغةً: "مخالفة الباطن للظاهر" ١٢٤٧

قال ابن تيمية: "والنفاق يطلق على:

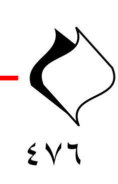
النفاق الأكبر: الذي هو إضمار الكفر.

وعلى النفاق الأصغر: الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات"[١٢٤٨]

١٢٤٦ انظر معاجم اللغة؛ مادة (نفق): ((لسان العرب)) (١٠/ ٣٥٨)، و((تاج العروس)) (١٣/٤٦٣)، و((معجم مقاييس اللغة)) (٥/٤٥٤)، و((مفردات القرآن)) (ص٨١٩). وانظر معنى النفاق في: ((شرح السنة النبوية)) للبغوي (١/٧١، ٧٢)، و((تفسير القرطبي)) (١/١٩٥)، و((حاشية مختصر سنن أبي داود)) (٧/٥٢-٥٣)، و((المنافقون في القرآن الكريم)) د. عبد العزيز الحميدي (١٣).

١٢٤٧ ((فتح الباري)) (١/٨٩).

١٢٤٨ مجموع الفتاوى ١١/ ١٤٠.



وقال أيضا: "فأطلقت لفظ النفاق على إبطان الكفر وإبطان المعصية"١٢٤٩

وقال ابن تيمية: "ولفظ النفاق من هذا الباب فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة، فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين ثم إبطان ما يخالف الدين، ما أن يكون كفرًا أو فسقًا فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن التكذيب فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار، وإن أظهر أنه صادق أو موف أو أمين وأبطن الكذب والغدر والخيانة أو نحو ذلك، فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقًا، فأطلق النفاق عليهما في الأصل بطريق التواطؤ، وعلى هذا فالنفاق اسم جنس تحته نوعان: نفاق في أصل الدين، ونفاق في الشرائع"١٢٥٠

ومن أسماء النفاق

بيّن ابن حزام أن من أسماء النفاق الضلالة، والإركاس، وخلاف الهدى"[١٢٥١]

قال تعالى (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا).

وقال ابن القيم: "وأخبر أنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض المخادعون المستهزئون المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدى وأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون وأنهم مرضى القلوب"[١٢٥٢].

أنواع النفاق:

النفاق نوعان:

النوع الأول: النفاق الاعتقادي، وهو مخرجٌ من الملة.

١٢٤٩ مجموع الفتاوى ١١/ ١٤١.

١٢٥٠ مجموع الفتاوى ١١/ ١٤٣.

١٢٥١ المحلى ١١/ ٢٠٤.

١٢٥٢ طريق الهجرتين الطبقة (١٥).

والنوع الثاني: النفاقُ العملي، وهو لا يخرج من الملة.

وقد تنوعت عبارات العلماء في التعبير عن أقسام النفاق عمومًا، وهذا يعود إلى الاعتبارات التي يرجع إليها ذلك التعبير.

الفريق الأول: من يقسمه باعتبار نوعه.

فبعض الأئمة كالإمام الترمذي، والإمام ابن العربي المالكي، والحافظ ابن كثير، وابن حجر يقسمون النفاق إلى نفاق اعتقادي، وهو المخرج من الملة وإلى نفاق عملي. وهذا باعتبار نوعه

قال الإمام الترمذي رحمه الله في تعليقه على حديث: ((أربع من كن فيه كان منافقاً.)) "..وإنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما نفاق التكذيب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روي عن الحسن البصري شيئاً من هذا أنه قال: النفاق نفاقان، نفاق عمل ونفاق التكذيب"١٢٥٣

وقال الإمام ابن العربي: "النفاق هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد. (أصوله) وهي قسمان:

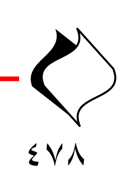
أحدهما: أن يكون الخبر أو الفعل في توحيد الله وتصديقه.

(والثاني) أو يكون في الأعمال.

فإن كان في التوحيد كان صريحاً، وإن كان في الأعمال كانت معصية، وكان نفاقاً دون نفاق كما تقدم القول في كفر دون كفر..."١٢٥٤

١٢٥٣ ((عارضة الأحوذي)) (١٠/١٠٠)، والمقصود بنفاق التكذيب أن يظهر الإيمان بلسانه أو فعله وهو مكذّب بقلبه كالمنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٢٥٤ ((عارضة الأحوذي)) (١٠/١٠٠).



وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب"[١٢٥٥]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والنفاق لغةً: "مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في الترك اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه"[١٢٥٦] .

الفريق الثاني: من يقسمه باعتبار حكمه.

وتارة يعبرون عن أقسام النفاق باعتبار حكمه، كما عبر بذلك الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم والحافظ ابن رجب فيقولون بتقسيم النفاق إلى الأكبر المخرج من الملة وإلى نفاق أصغر غير مخرج من الملة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أُبي وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول... فهذا ضرب النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها"[١٢٥٧]

ويقول أيضاً: "والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان أصغر، وأكبر"[١٢٥٨].

قال ابن تيمية: "والنفاق يطلق على النفاق الأكبر الذى هو إضمار الكفر ، وعلى النفاق الأصغر الذى هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات"[١٢٥٩]

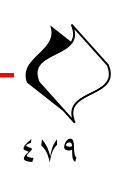
١٢٥٥ ((تفسير ابن كثير)) (١/٤٧).

١٢٥٦ ((فتح الباري)) (١/٨٩).

١٢٥٧ ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/٤٣٤-٤٣٥).

١٢٥٨ ((الإيمان الأوسط)) (ص: ٦٦).

١٢٥٩ مجموع الفتاوى ١١/ ١٤٠.



وقال أيضا: "فأطلقت لفظ النفاق على إبطان الكفر وإبطان المعصية"[١٢٦٠].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان أقسام النفاق: وهو نوعان: أكبر، وأصغر؛ فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذّب به"[١٢٦١].

والحديث عن النفاق يمكن تناوله من جانبين:

الجانب الأول: المسائل المتعلقة بالنفاق العملي الذي لا يخرج من الملة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريفه:

تعريف النفاق العملي هو: اختلاف السر مع العلانية في الواجبات، فيقع النفاق العملي الذي لا يُخرج من الملة يقع في الواجبات، بأن يختلف الظاهر مع الباطن، الباطن الذي هو السر، والظاهر الذي هو العلانية.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله بعدما شرح خصال هذا النوع: "وحاصل الأمر أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية كما قاله الحسن"[١٢٦٢]فإذا اختلف الظاهر مع الباطن أو السر مع العلانية في الواجبات سمي ذلك نفاقاً عمليا.

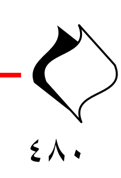
ومن الأقوال المأثورة التي تندرج تحت هذا القسم:

وسئل حذيفة عن النفاق فقال: "أن تتكلم باللسان ولا تعمل به".

١٢٦٠ مجموع الفتاوى ١١/ ١٤١.

١٢٦١ ((مدارج السالكين)) (٣٧٦/١)، وانظر في هذا التقسيم: ((جامع العلوم والحكم)) (ص٤٠٣) .لابن رجب، و((الرياض النضرة)) للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، رحمه الله (ص٢٤٠).

١٢٦٢ ((جامع العلوم والحكم)) (ص٤٠٦).



وقال الفريابي رحمه الله حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة عن أبي الشهب قال قال الحسن "من النفاق اختلف اللسان والقلب واختلف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج"[١٢٦٣]

وقال أيضًا حدثنا هشام بن عمار الدمشقي حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا عوف الأعرابي عن الحسن قال "كان يقال النفاق اختلف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج، وكان يقال أس النفاق الذي يبنى عليه النفاق الكذب"[١٢٦٤]

المسألة الثانية: أمثلة النفاق العملي وخصاله:

من أمثلة النفاق العملي وخصاله إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، فهذه بعض صور النفاق العملي، فهو يقع في الواجبات.

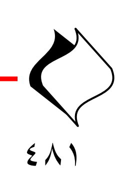
قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[١٢٦٥]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)).[١٢٦٦]

١٢٦٣ صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي: ص ٥٤. وقال المحقق: "الأثر إسناده صحيح وهو موقوف على الحسن البصري".

١٢٦٤ صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي: ص ٥٤.

١٢٦٥ رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

١٢٦٦ رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .



ومن أمثلته كذلك ما رواه البخاري في (باب ما يكره من ثناء السلطان، وإذا خرج قال غير ذلك): قال أناس لعبد الله بن عمر: إنا ندخل على سلطاننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال: كنا نعدها نفاقاً"[١٢٦٧].

ومن أمثلته الإعراض عن الجهاد فإنه من خصال المنافقين[١٢٦٨] فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق)) [١٢٦٩]

المسألة الثالثة: حكمه

هذا النوع حكمه أنه معصية من المعاصي، وذنبٌ وكبيرة من كبائر الذنوب.

قال الإمام ابن العربي: "وإن كان في الأعمال كانت معصية، وكان نفاقاً دون نفاق كما تقدم القول في كفر دون كفر..."[١٢٧٠]

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب"[١٢٧١]

ومع ذلك لا يستهان به فإن كثيره قد ينقل إلى النفاق المخرج من الملة وبخاصة عند وقوع المحن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيرًا وينافق أكثرهم أو كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا وقد رأينا ورأى غيرنا من

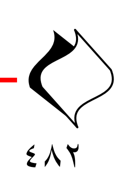
١٢٦٧ رواه البخاري (٧١٧٨).

١٢٦٨ ((مجموع الفتاوى)) (٤٣٦/٢٨)، و((شرح صحيح مسلم)) للنووي (٥٦/١٣).

١٢٦٩ رواه مسلم (١٩١٠).

١٢٧٠ ((عارضة الأحوذي)) (١٠٠/١٠).

١٢٧١ ((تفسير ابن كثير)) (٤٧/١).



هذا ما فيه عبرة، وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسول باطنًا وظاهرًا لكن إيمانا لا يثبت على المحن، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين (قالوا آمنا)، فقيل لهم (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًا"[١٢٧٢]

قال ابن تيمية: "كثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه، وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه"[١٢٧٣]

قال ابن تيمية: "قال تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، والريب يكون في علم القلب وفى عمل القلب بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا"[١٢٧٤]

المسألة الرابعة: هذا النوع هو الذي خافه الصحابة على أنفسهم.

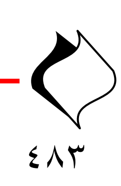
عن ابن أبي مليكة قال: "أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل"[١٢٧٥]

١٢٧٢ مجموع الفتاوى ٧/ ٢٧٨

١٢٧٣ مجموع الفتاوى ٧/ ٢٧٨

١٢٧٤ مجموع الفتاوى ٧/ ٢٧٨

١٢٧٥ رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث رقم (٤٨)، ورواه موصولاً الخلال في ((السنة)) (٣/٦٠٧-٦٠٨)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (٢/٦٣٤). وانظر ((تغليق التعليق)) (٢/٥٢-٥٣).



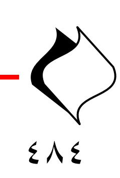
فعن النفاق الذي خافه الصحابة على أنفسهم، يقول ابن رجب: "ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر، برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقاً، كما في (صحيح مسلم) عن حنظلة الأسدي: أنه مر بأبي بكر وهو يبكي، فقال: ما لك؟ قال: نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فإذا رجعنا، عافسنا الأزواج والضيعة فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فالله إنا لكذلك، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال :((مالك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، وذكر له مثل ما قال لأبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة على مجالسكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة))[١٢٧٦] ، ومما ورد في هذا المعنى أي: خوف الصحابة من النفاق ما قاله ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل"[١٢٧٧][١٢٧٨]

ويقول الحافظ ابن حجر في تعليقه على هذا الأثر: والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلّهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن

١٢٧٦ رواه مسلم (٢٧٥٠).

١٢٧٧ رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث رقم (٤٨)، ورواه موصولاً الخلال في ((السنة)) (٣/٦٠٧-٦٠٨)، ومحمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (٢/٦٣٤). وانظر ((تغليق التعليق)) (٢/٥٢-٥٣).

١٢٧٨ ((جامع العلوم والحكم)) (ص٤٠٨).



قد يعرض عليه في عمله ما يشعر به مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم[١٢٧٩].

الجانب الثاني: المسائل المتعلقة بالنفاق الاعتقادي المخرج من الملة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعريفه:

النفاق الاعتقادي فهو إبطان الكفر، وإظهار الإسلام، فإذاكان هذا الشخص مبطناً للكفر مظهراً للإسلام فنقافه يُسمى نفاقاً اعتقادياً، وهو من أشد أنواع الكفر ومن أخطرها، كما قال الله سبحانه وتعالى في حكمه: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء:١٤٥].

قال الحافظ ابن رجب–رحمه الله–: النفاق الأكبر وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار"[١٢٨٠]

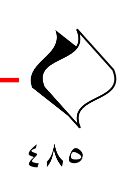
المسألة الثانية: أقسام النفاق الاعتقادي.

النفاق الاعتقادي له قسمان:

القسم الأول: أن يكون الإنسان مبطناً للكفر تمامًا مظهراً للإسلام.

١٢٧٩ ((فتح الباري)) (١/١١١)، وانظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص٤٠٩)، و((جامع العلوم والحكم)) (ص٤٠٧).

١٢٨٠ ((جامع العلوم والحكم)) (ص٤٠٣).



القسم الثاني: أن تكون فيه مادة إيمان ومادة نفاق، شيء من الإيمان وشيء من النفاق، فإذا كان فيه شيء من الإيمان، وشيءٌ من النفاق بحسب ما يغلب عليه ويُختم به عليه، فقد يُختم عليه بحال النفاق فيكون منافقاً، وقد يُختم عليه بأن يكون الإيمان في ذلك الحال يغلب عليه فعند ذلك يكون مؤمناً.

ولذلك عندما ذُكر هذا في سورة البقرة ذُكرت الصورتان، ذُكرت في بداية سورة البقرة الصورتان، فضرب الله سبحانه وتعالى له مثلاً نارياً ومثلاً مائياً فاقرأ أوائل سورة البقرة لأن سورة البقرة تحدثت عن أهل الإيمان، ثم تحدثت عن أهل النفاق.

فتأملها تجد فيها هذه الصور.

قال تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)

فهذا هو المثل المائي وهو الصورة الأولى من صور النفاق الاعتقادي.

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات: " وتقدير هذا المثل: أن الله سبحانه، شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدي ثم قال: والتشبيه ها هنا في غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولًا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك النور فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.



وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) [البقرة: ٨] .

والصواب: أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير –رحمه الله– هذه الآية هاهنا وهي قوله تعالى: (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) [المنافقون: ٣] ؛ فلهذا وجه ابن جرير هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان، أي في الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.[١٢٨١]

وقال تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وهذا هو المثل الناري وهو الصورة الثانية من صور النفاق الاعتقادي.

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات: "قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صـــالح، عن ابن عباس ، وعن مرة، عن ابن مســعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: (فلما أضاءت ما حوله) زعم أن ناسا دخلوا في الإسلام مقدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة، فأوقد نارا، فأضاءت ما حوله من قذى، أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقي منه فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى، فكذلك المنافق: كان في ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، وعرف الخير والشر، فبينا هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر.

١٢٨١ تفسير ابن كثير ١/ ٤

وقال مجاهد: (فلما أضـــاءت ما حوله) أما إضـــاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى.

وقال عطاء الخراساني في قوله: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحيانا ويعرف أحيانا، ثم يدركه عمى القلب. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة، والحسن والسدي، والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين، كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون.

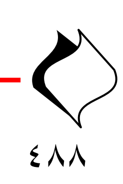
وقال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: أما النور: فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة: فهي ضـــلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدى، ثم نزع منهم، فعتوا بعد ذلك"[١٢٨٢].

المسألة الثالثة: أمثلته.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعض هذه الصور فقال: "فمن النفاق ما هو أكبر، ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أُبي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسـول أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضـه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرّة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومازال بعده، بل هو أكثر منه على عهده"[١٢٨٣]. وقال في موضع آخر: "فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه، فإنه لا

١٢٨٢ تفسير ابن كثير: ١/ ٤.

١٢٨٣ ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/٤٣٤).



يرى وجوب تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به، ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر- علماً وعملاً- وأنه يجوز تصديقه وطاعته لكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحداً، ويرى أنه تحصيل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، إما بطريق الفلسفة والصبو، أو بطريق التهود والتنصر"[١٢٨٤].

ونقل هذه الأنواع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فقال: "فأما النفاق الاعتقادي فهو ستة أنواع، تكذيب الرسول، أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول، أو بغض الرسول أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية بانتصار دين الرسول، فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار"[١٢٨٥]

فيتحصل مما ذكره هذان الإمامان-بعد دمج الأنواع المتشابهة أو المتقاربة-خمس صفات أو أنواع وهي:

١-تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو تكذيب بعض ما جاء به.

٢-بغض الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بغض ما جاء به.

٣-المسرّة بانخفاض دين الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الكراهية بانتصار دين الرسول صلى الله عليه وسلم.

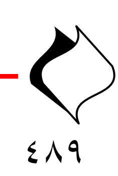
٤-عدم اعتقاد وجوب تصديقه فيما أخبر.

٥-عدم اعتقاد وجوب طاعته فيما أمر.

وبالنظر إلى الآيات التي ذكرت أحوال المنافقين، وكلام المفسرين حولها، يمكن أن يضاف إلى هذه الصفات صفات أخرى وهي:

١٢٨٤ ((الإيمان الأوسط)) (ص١٨٠).

١٢٨٥ مجموعة التوحيد)) (ص٧).



٦-أذى الرسول صلى الله عليه وسلم أو عيبه ولمزه.

٧-مظاهرة الكافرين ومناصرتهم على المؤمنين.

٨-الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين لأجل إيمانهم وطاعتهم لله ولرسوله.

٩-التولي والإعراض عن حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالوقوع في أي صفة من هذه الصفات يخرج من الملة، وهذه الصفات أكثرها متعلق بحق الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "فالنفاق يقع كثيراً في حق الرسول، وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته"[١٢٨٦] [١٢٨٧]

المسألة الرابعة: حكمه.

أولًا: الحكم الأخروي.

أوضحت الآيات والأحاديث حكم المنافق ومصيره الأخروي، ومن الآيات في تكفيرهم، ومصيرهم في الآخرة،

بل إن كفرهم من أسوأ أنواع الكفار، ومصيرهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، لأنهم زادوا على كفرهم، الكذب والمراوغة والخداع للمؤمنين، ولذلك فصّل القرآن الحديث حولهم وحول صفاتهم لكي لا يقع المؤمنون في حبائلهم وخداعهم.

ومن الآيات الواردة في ذلك:

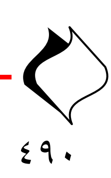
قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) [البقرة:٨]،

وقوله عز وجل: (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [النساء:١٣٨]،

وقوله سبحانه:(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) [النساء:١٤٥]،

١٢٨٦ ((الإيمان الأوسط)) (ص١٨١)، وانظر: ((الإيمان)) (ص٢٨٥).

١٢٨٧ المصدر: نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي – ص: ٢٥٣



وقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) [التوبة:٦٨]،

وقوله تعالى(: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) [التوبة:٧٣-٧٤]،

أما الحكم الدنيوي:

فهم في الدنيا تجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهرة على تفصيل في ذلك سيأتي ذكره.

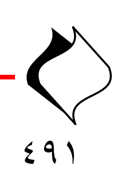
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن كثيرًا من الفقهاء يظن أن من قيل هو كافر فإنه يجب أن تجري عليه أحكام المرتد ردة ظاهرة فلا يرث ولا يورث ولا يناكح حتى أجروا هذه الأحكام على من كفروه بالتأويل من أهل البدع، وليس الأمر كذلك فإنه قد ثبت أن الناس كانوا ثلاثة أصناف مؤمن وكافر مظهر للكفر ومنافق مظهر للإسلام مبطن للكفر، وكان في المنافقين من يعلمه الناس بعلامات ودلالات، بل من لا يشكون في نفاقه، ومن أنزل القرآن ببيان نفاقه كابن أبي وأمثاله، ومع هذا فلما مات هؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون، وكان إذا مات لهم ميت آتوهم ميراثه وكانت تعصم دماؤهم حتى تقوم السنة الشرعية على أحدهم بما يوجب عقوبته".١٢٨٨

ومراتب المنافق في الباطن والظاهر ثلاثة مراتب:

١ ما أسره في أنفسه وكتمه، أو نحوه وما في حكمه ويأتي إن شاء الله زيادة توضيح. وهذا يسمى الباطن المحض.

٢ ما أظهره إظهارًا عامًا. وهذا يسمى بالإظهار الأكبر، أو الإظهار المحض

١٢٨٨ مجموع الفتاوى ٧/ ٦١٧.



٣ بينهما وهي المرتبة المتوسطة وهي الإظهار الأصغر أو الإظهار الخاص: وهي ما أظهره عند شياطينه أو عند منافق مثله أو عند بعض المؤمنين يظن عدم ضررهم لكونهم صغارًا أو أهل بيته أو فساقًا سماعين له، وكذا المبتدع إذا عاند. وهذا باطن باعتبار وظاهر باعتبار.

وكل مرتبة لها أحكام تختلف عن الأخرى، والخلط في أحكامها أدى إلى أغلاط وأخطاء.

وملخص الأسماء والأحكام في هذه المراتب الثلاث.

فالأول: يطلق عليه اسم منافق وهو حكمًا معصوم الدم والمال.

والثالث وهو الأصغر يطلق عليه اسم منافق وبالنسبة للحكم أنه جائز القتل من الإمام أو العلماء ويُراعى في ذلك المصلحة والقدرة وفيه الإنذار والتوعد مع التكرار أو الإقامة عليه.

أما الثاني: فيطلق عليه اسم مرتد، وإن ثبت بالبينة حكم عليه بالقتل ردة وجوبًا[١٢٨٩].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "المنافقين إذا أظهروا أنفاقهم صاروا مرتدين "[١٢٩٠]

خامسًا: من أنكر النفاق

قال الملطي: "ومنهم (أي المرجئة) صنف زعموا أن ليس في هذه الأمة نفاق"[١٢٩١]

١٢٨٩ جزء في النفاق تبويب علي بن خضير الخضير ص ١٥

١٢٩٠ مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب (١/ ٢٢٨).

١٢٩١ التنبيه والرد على أهل الهواء والبدع ١/١٥٦.

وقال سفيان الثوري: "خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث:

نقول الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: قول ولا عمل.

ونقول: الإيمان يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص.

ونحن نقول: النفاق، وهم يقولون: لا نفاق."[١٢٩٢]

قال ابن تيمية رحمه الله "فإن كثيرا من المتأخرين ما بقي في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق وأعرضوا عن حكم المنافقين، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة، والنفاق شعب كثيرة، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم"[١٢٩٣]

قال ابن تيمية: "وطوائف من أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة كراميهم وغير كراميهم يقولون: إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق، ومنهم من يدعى الإجماع على ذلك؛ وقد ذكر أبو الحسن في بعض كتبه الإجماع على ذلك؛ ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان مع مخالفة صريح المعقول بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد وقالوا لا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ومعصية يستحق بها العقاب".[١٢٩٤]

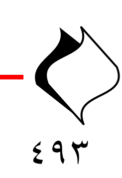
وقال الأشعري عن الكرامية أصحاب محمد بن كرام: "وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله كانوا مؤمنين على الحقيقة"[١٢٩٥].

١٢٩٢ صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي: ص ٧٨.

١٢٩٣ مجموع الفتاوى ٧/ ٢١٢.

١٢٩٤ مجموع الفتاوى ٧/ ٣٥٣.

١٢٩٥ مقالات الإسلاميين ١/ ١٤١.



وقال البغدادي: "قول الكرامية أنهم الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار الفرد سواء كان معه إخلاص أو نفاق"[١٢٩٦].

قال: "وزعمت الكرامية مجسمة خراسان أن أمة الإسلام جامعة لكل من أقر بشهادتي الإسلام لفظًا وقالوا كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن حقا وهو من أهل ملة الإسلام سواء كان مخلصا فيه أو منافقًا مضمر الكفر فيه والزندقة، ولهذا زعموا أن المنافقين في عهد رسول الله كانوا مؤمنين حقًا وكان إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل والأنبياء والملائكة مع اعتقادهم النفاق وإظهار الشهادتين"[١٢٩٧]

(المتن)

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٣٩] "واعلم أن الدنيا دار إيمان وإسلام، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيها مؤمنون مسلمون في أحكامهم ومواريثهم وذبائحهم والصلاة عليهم، لا تشهد لأحد بحقيقة الإيمان حتى يأتي بجميع شرائع الإسلام، فإن قصر في شيء من ذلك كان ناقص الإيمان حتى يموت، وعلم إيمانه إلى الله تعالى: تام الإيمان أو ناقص الإيمان، إلا ما ظهر لك من تضييع شرائع الإسلام.

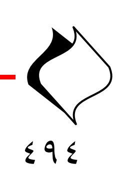
الشرح

ثم قال: "**وأعلم بأن الدنيا دار إيمان وإسلام**"،

هذه العبارة فيها بعض الغموض فهي تحتمل أحد أمرين:

١٢٩٦ الفرق بين الفرق ١/ ٣٤٣.

١٢٩٧ الفرق بين الفرق ١/٩.



الاحتمال الأول: أن يكون مقصود المصنف هو تقسيم الدور إلى قسمين دار إيمان ودار كفر.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود أن التعامل مع أهل الإسلام على أن هناك من هو مؤمن ومن هو مسلم.

وعلى الاحتمال الأول:

وقد ذكر أبو بكر الإسماعيلي عن أئمة الحديث أنهم يعتبرون ظهور الأحكام هو الحاكم على الدار بكونها دار إسلام أو لا حيث قال رحمه الله: "ويرون–أي أئمة الحديث–الدار دار الإسلام لا دار الكفر كما رأته المعتزلة ما دام النداء بالصلاة والإقامة ظاهرين وأهلها ممكنين منها آمنين"[١٢٩٨]. اهـ

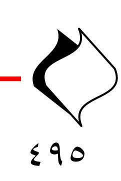
وقال ابن القيم–رحمه الله–: "قال الجمهور: دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم تجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها، فهذه الطائف قريبة إلى مكة جدًا ولم تصر دار إسلام بفتح مكة وكذلك الساحل"[١٢٩٩]. اهـ

وقد اعتبر ابن تيمية رحمه الله إن إقامة التوحيد هو الحد الفاصل بين دار الكفر ودار الإسلام حيث قال: "فأما التوحيد فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة وبه حقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر"[١٣٠٠]. اه

١٢٩٨ راجع اعتقاد أئمة الحديث لأبي بكر الإسماعيلي ١/ ٧٦.

١٢٩٩ أحكام أهل الذمة لابن القيم ج ٢/ ٧٢٨.

١٣٠٠ راجع: منهاج السنة النبوية ٥/ ٣٤٣، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١/ ١٣٨، مدارج السالكين ٣/ ٤٨٦.



وقد ورد في اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول: "الدار إذا ظهر فيها القول بخلق القرآن والقدر وما يجري مجرى ذلك فهي دار كفر"١٣٠١.

وقال ابن حزم رحمه الله: "وإذا كان أهل الذمة في مدائنهم لا يمازجهم غيرهم فلا يسمى الساكن فيهم لإمارة عليهم أو لتجارة بينهم كافرًا ولا مسيئًا بل هو مسلم محسن، ودارهم دار إسلام لا دار شرك لأن الدار إنما تنسب للغالب عليها والحاكم فيها والمالك لها" ١٣٠٢.

قال ابن تيمية رحمه الله: "ثم من هذه الأمكنة ما سكنه بعد ذلك الكفار وأهل البدع والفجور، ومنها ما خرب وصار غير هذه الأمكنة، والبقاع تتغير أحكامها بتغير أحوال أهلها، فقد تكون البقعة دار كفر إذا كان أهلها كفارًا، ثم تصير دار إسلام إذا أسلم أهلها، كما كانت مكة شرفها الله في أول الأمر دار كفر وحرب، وقال الله تعالى فيها (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك) [محمد، الآية: ١٣]، ثم لما فتحها النبي صلى الله عليه وسلم صارت دار إسلام وهي في نفسها أما القرى وأحب الأرض إلى الله"١٣٠٣.

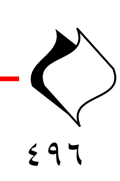
ومن أصول الخوارج المتقدمين: وصاف ديار المسلمين بأنها دار كفر وحرب وردة.

فقول طوائف من الخوارج والمعتزلة: إن دار الإسلام تتحول إلى دار كفر بارتكاب الكبائر.

١٣٠١ راجع اعتقاد الإمام المبجل ابن حنبل ١/ ٣٠٥.

١٣٠٢ راجع المحلى لابن حزم ١١/ ٢٠٠.

١٣٠٣ راجع مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٤٣، ١٤٤)



قال نافع بن الأزرق: "الدار دار كفر؛ إلا من أظهر إيمانه، ولا يحل أكل ذبائحهم، ولا تناكحهم، ولا توارثهم، ومن جاء منهم فعلينا أن نمتحنه، وهم ككفار العرب، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل"[١٣٠٤]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في حق الخوارج: "وسموا دارهم دار الهجرة، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب"[١٣٠٥]

وقد استفاضت كتب الفرق في بيان موقف فرق الخوارج من هذه المسألة، فبعضهم يرى أن ديار المخالفين ديار كفر، وبعضهم يرى أن دار السلطان أو معسكر السلطان وما حوله دار كفر، وبعضهم يتوقف في ذلك.[١٣٠٦]

يقول الأشعري في هذا: "وزعموا أن الدار – يعنون دار مخالفيهم – دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر، يعني عندهم". وهكذا عند البغدادي إلا أنه قصر الدار على مكة، فهي دار التوحيد عندهم إلا معسكر السلطان، فالأشعري يذكر أنهم عمموا الحكم على جميع دور مخالفيهم، والبغدادي خصصها بدور مكة.

وأما على الاحتمال الثاني لمعنى كلام المصنف: أنه تُجري على المسلم أحكام الإسلام الظاهرة، ويتعامل معه بحسب ما يظهر منه، أما الباطن فأمره إلى الله سبحانه وتعالى. وأن نعلم أن الإنسان يدخل في دائرة الإسلام بنطقه للشهادتين، وهذا النطق يضمن له حقوقًا في الإسلام، لا يمكن رفعها عنه إلا بموجب شرعي.

فالدنيا دار عمل، فإما أن يكون الإنسان على صورة الإسلام أو على صورة الإيمان أو على صورة الإحسان التي هي مجموع الأمرين أي الإسلام والإيمان.

١٣٠٤ انظر: "الملل والنحل" للشهرستاني (١/١١٩).

١٣٠٥ انظر النبوات (١/ ١٤٠-١٤١).

١٣٠٦ انظر: ((المقالات)) (١/١٨٥)، و((الفرق بين الفرق)) (ص١٠٦).

لكن هذا الإنسان في حقيقة أمره لا يرتقي إلى مرتبة الإيمان حتى يقوم بشرائع الإسلام، فيوافق قوله عمله، فتحصل الموافقة بين القول والعمل، ويقوي هذا الاعتبار العبارة التي وردت بعد ذلك في كلام المصنف حيث قال:

"**فأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيها مؤمنون مسلمون في أحكامهم ومواريثهم وذبائحهم والصلاة عليهم**"، أي في إجراء الأحكام الظاهرة، فالواحد من المسلمين تُعامله على ظاهره من حيث الأحكام والمواريث والذبائح والصلاة على أنه مسلم بنطقه بالشهادتين، وعلى أنه من أمة محمد، فالدخول في هذا الإسلام سهل، لكن الخروج منه وإخراج الناس منه فهذا من أصعب ما يكون ومن أشد ما يكون.

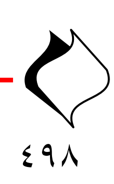
فنطق الإنسان بالشهادتين يوجب له أحكام الإسلام، وعليك أن تعامله بموجب هذا الظاهر.

ثم قال المصنف: "**لا تشهد لأحد بحقيقة الإيمان حتى يأتي بجميع شرائع الإسلام، فإن قصر في شيء من ذلك كان ناقص الإيمان حتى يموت**"، أي يجب أن نتعامل مع الناس بحسب ظاهرهم ونجري عليهم الأحكام بحسب ظاهرهم، أما البواطن وحقيقة الإيمان فذاك أمرٌ مرده إلى الله سبحانه وتعالى، فأنت لا تدري عن حال ذلك الشخص، هل هو على حال إيمان أو يظهر منه ما لا يُبطن في حال نفسه.

وأهل السنة لا يَسلبون الإيمان من الفاسق من أهل ملة الإسلام، ولا يقولون بخلوده في النار، وإنما يُبقون عليه اسم الإيمان، وإن كان ليس كامل الإيمان، بل هو مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته.

هذا؛ لأن الدِّين ثلاث دوائر: (الإسلام والإيمان والإحسان).

فأوسع الدوائر الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فليس كل مسلم مُحسن، ولكن كل مُحسن مسلم.



ولا نستطيع أن نُخرِج الإنسان من الإسلام بعد أن نطق بالشهادتين إلا بموجب ذلك يقينًا، وهو ما يُسَمَّى بأحكام الرِّدة والمرتد، ولها ضوابط معلومة عند أهل العلم.

فإذاً لا نشهد له بحقيقة الإيمان حتى نرى فيه مثلاً أنه يصلي مع الجماعة يقوم بشعائر الإسلام، ومواظب على أحكام الإسلام، عند ذلك نشهد له أنه من أهل الإيمان حقيقة، لكن لا نعلم ماذا يُختم له في أمره.

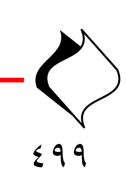
فإذا رأينا الرجل يعتاد المساجد ويقصدها في صلاة الجماعة فهذا دليل إيمانه، فإن قصر في شيءٍ من ذلك كان ناقص الإيمان حتى يتوب، فالناس في إيمانهم ليسوا سواء فإيمان أبي بكر ليس كإيمان غيره من الناس، وإيمان عمر ليس كغيره من الناس، وهكذا الناس في هذا متفاوتون بقدر طاعتهم وبقدر ما يتقربون به إلى الله عز وجل.

وكما جاء في الحديث: ((وما تقرب إلي عبدي بأفضل مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه))[١٣٠٧].

فالتقرب إلى الله تعالى والقرب إلى الله عز وجل يكون بكثرة الطاعات، فيأتي الإنسان أول ما يأتي بالفرائض، ثم يُتبعها النوافل، والناس في هذا درجات وعلى أحوال، ومعلوم أن الله تعالى قد يفتح للعبد في الطاعة من حيث النوافل بحسب حاله، فهناك من فتح الله عليه في صيام التطوع، وهناك من فتح الله عليه في صلاة الرواتب والنوافل، وهناك من فتح عليه ببر الوالدين، وهناك من فتح الله عليه سبحانه وتعالى بالبذل في سبيل الله عز وجل وإنفاق الأموال.

فالطاعات كأبواب الرزق، فيفتح الله على فلان ما لا يفتح على فلان، فأبواب الطاعات وبالأخص النوافل كثيرة وعظيمة، فيمن الله عليك بشيءٍ منها ما لا يمن على الآخر، وكم من الله عز وجل على إنسان بالعلم، ولكن لم يمن عليه بكثرة صلاةٍ

١٣٠٧ انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق، بَابُ التَّوَاضُعِ، برقم (٦٥٠٢).



أو صيام ومن على آخر بالصلاة والصيام مثلاً، ومن على آخر ببر الوالدين، ومن على آخر بصلة الأرحام، وهكذا أبواب الطاعات مثل أبواب الرزق في هذا.

ولعل قصة الإمام مالك مع العُمَري العابد تَصلح كمدخل يُقَرِّب تلك الصورة، فقد كتب عبد الله بن عبد العزيز العُمَري العابد إلى الإمام مالك يحضُّه على الانفراد والعمل، ويَرغب به عن الاجتماع إليه في العِلم؛ فكتب إليه مالك: «إنَّ الله عز وجل قَسم الأعمال كما قسم الأرزاق؛ فَرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة. ونَشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر وقد رضيتُ بما فَتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلانا على خير، ويجب على كلِّ واحدٍ مِنَّا أن يَرضى بما قُسِم له، والسَّلام» (١٣٠٨).

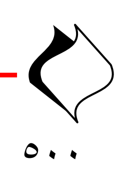
فإن قصر الإنسان في شيء من ذلك كان ناقص الإيمان حتى يتوب، واعلم أن حقيقة إيمانه موكولة إلى الله تعالى، سواء كان تام الإيمان أو ناقص الإيمان، إلا ما ظهر لك من تضييع شرائع الإسلام، فإذا رأينا الإنسان على تضييع شرائع الإسلام الظاهرة فعند ذلك بقدر ما عليه هذا يُذم ويُقال فيه أن فيه من التفريط كذا وكذا.

فإذا جاءك إنسان مثلاً يسأل عن إنسان لتزويجه لابنته وأنت ترى فيه من شرائع الإسلام شيء من التضييع فتقول له مثلاً هو على حال كذا وكذا من تضييع شرائع الإسلام.

وقول المصنف: **"فإن قصر في شيء من ذلك كان ناقص الإيمان حتى يموت"**

أهل السنة توسطوا بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وبين الوعيدية (الخوارج والمعتزلة)؛ فالخوارج يقولون: هو

(١٣٠٨) «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ١٨٥)، ونقلها عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١١٤).



كافر في الدنيا، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، ويتفقون على أنه في الآخرة خالد مخلد في النار.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمِيَّة رحمه الله: "وهم-أهل السُّنَّة-في باب الأسماء والأحكام والوَعْد والوَعِيد وسَطٌ بين الوَعِيدية الذين يَجعلون أهلَ الكبائر من المسلمين مُخلَّدين في النار، ويُخرجونهم من الإيمان بالكُليَّة، ويُكذِّبون بشفاعة النَّبي ﷺ.

وبين المرْجِئة الذين يقولون: إيمان الفُسَّاق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصَّالحات ليست من الدِّين والإيمان، ويُكذِّبون بالوعيد والعِقاب بالكُليَّة.

فيُؤمِن أهل السُّنَّة والجَمَاعَة بأن فُسَّاق المسلمين معهم بعضُ الإيمان وأصلُه، وليس معهم جميعُ الإيمان الواجِب الذي يَستوجبون به الجنة، وأنهم لا يُخلَّدون في النار؛ بل يَخرج منها من كان في قلبه مِثقالُ حبَّة من إيمان أو مِثْقال خَرْدَلة من إيمان، وأن النَّبي ﷺ ادَّخَر شفاعَتهُ لأهل الكبائِر من أمَّته" (١٣٠٩).

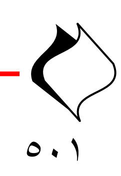
فأهلُ السُّنَّة والجماعة لا يُوجِبون العذابَ في حقِّ كلِّ مَن أتى كبيرةً، ولا يَشهدون لمسلم بعَيْنِه بالنار لأَجْلِ كبيرةٍ واحدة عَمِلَها، بل يجوزُ عندهم أن صاحِبَ الكبيرة يُدخِلُه اللهُ الجنةَ بلا عذابٍ؛ إما لحَسناتٍ تَمْحُو كبيرتَه منه أو من غيره، وإما لمِصائِبَ كفَّرَتْها عنه، وإما لدُعاءٍ مُستَجاب منه أو من غيره فيه، وإما لغير ذلك (١٣١٠).

المتن

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

(١٣٠٩) «مجموع الفَتاوى» (٣/٣٧٤-٣٧٥).

(١٣١٠) انظر «مَجموع الفَتاوى» (١٢/٤٧٩-٤٨٣).



[٤٠] "والصلاة على من مات من أهل القبلة سنة: المرجوم، والزاني، والزانية، والذي يقتل نفسه، وغيرهم من أهل القبلة، والسكران وغيره، الصلاة عليهم سنة".

الشرح

الصلاة على من مات من أهل القبلة سنة، وهذا وسيأتي ذكر الصلاة على الجنازة في الفقرة (٥٩).

فالصلاة على الميت المسلم فرض كفاية، متى قام بها البعض سقطت عن الآخرين، وأهل المعاصي من المسلمين يُصَلَّى عليهم كسائر المسلمين.

قال ابن عبد البر رحمه الله: "أجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على المسلمين المذنبين من أجل ذنوبهم، وإن كانوا أصحاب كبائر" ١٣١١

قال الخرقي: "ولا يصلي الإمام على الغال ولا على من قتل نفسه " وقال ابن قدامة شارحاً ذلك: "الغال هو الذي يكتم الغنيمة أو بعضها ليأخذه لنفسه ويختص به، فهذا لا يصلي عليه الإمام ولا على من قتل نفسه متعمداً، ويصلي عليه سائر الناس، نص عليهما أحمد"[١٣١٢]

فنصلي حتى على المرجوم وعلى الزاني والزانية والذي قتل نفسه كما هو الراجح وغيره من أهل القبلة وكذا السكران كل ذلك تُصلى عليهم صلاة الجنازة.

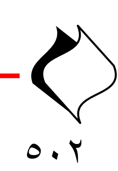
فهم بذنوبهم أهل كبيرة من الكبائر لكن هذه الكبيرة لا توجب خروجهم عن الإسلام كما هو الراجح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقيدة أهل السنة: "ولا يَسْلِبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإسْلَامَ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كما تَقُولُهُ المعْتَزِلَةُ"[١٣١٣]

١٣١١ "الاستذكار" (٣/٢٩).

١٣١٢ المغني ٢/٤١٥

١٣١٣ مجموع الفتاوى ٣/ ١٠٠.



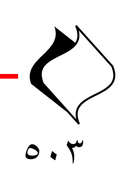
المتن

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٤١] "ولا نخرج أحدا من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله، أو يرد شيئا من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يذبح لغير الله، أو يصلي لغير الله، فإذا فعل شيئا من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام، وإذا لم يفعل شيئا من ذلك فهو مؤمن مسلم بالاسم لا بالحقيقة".

(الشرح)

لا يُخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام إلا إذا فعل شيئاً من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام.



فالذي يقع في كفرٍ أو في شركٍ أو في ردة أو في نفاقٍ أكبر فعند ذلك فهو ليس بمؤمن ولا مسلم في الحقيقة وعلى هذا من كان على كبيرة من كبائر الذنوب فهذا لا يُخرج ولا يُخرج إلا من فعل أمراً مخرجاً من الملة وهذا معروفٌ ضوابطه وقواعده في أنواع الكفر وأنواع الشرك وأنواع النفاق وأنواع الردة بحثها العلماء وبينوا ما يجب فيها في هذا الجانب.

ولتوضيح هذه المسألة ينبغي معرفة الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك.

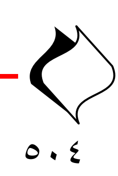
والأصل في هذه المسألة حديث النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: ((من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا[١٣١٤] الله في ذمته))[١٣١٥].

أن المقصود من هذا الحديث–كما بين العلماء–أن المسلم المصلي لا يجوز تكفيره وإخراجه من الإسلام؛ بل يبقى على هذا الأصل؛ إلا أن يأتي بأمر مكفِّر. قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: "فيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك"[١٣١٦]. ولهذا فقد أخرج البخاري عقب هذا الحديث ما يوضحه؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا،

١٣١٤ قال ابن رجب: ((فلا تخفروا الله في ذمته)) "أي: لا تغدروا بمن له عهد من الله ورسوله، فلا تفوا له بالضمان، بل أوفوا له بالعهد" ((فتح الباري)) (٥٨/٣).

١٣١٥ أخرجه البخاري (٣٩١).

١٣١٦ فتح الباري (٥٩٢/١).



واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله))[١٣١٧].

فهذا الحديث متعلق بمسائل "التكفير"، وأنه لا يجوز تكفير المسلم —وإن كان مبتدعاً– بكل ذنب، ما لم تكن بدعته مكفرة.

قال الطحاوي في عقيدته: "ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين".

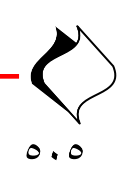
قال ابن أبي العز في شرحه: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا)). ويشير الشيخ–رحمه الله–بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحلَّه.

والمراد بقوله: "أهل قبلتنا" من يدَّعي الإسلام، ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ: "ولا نكفرِّ أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلَّه"[١٣١٨].

الأمر الثاني: أن ذكر أئمة أهل السنة لعبارة (ولا نكفر أحد من أهل القبلة بذنب) في اعتقاداتهم كان سببه هو الرد على الخوارج الذين يكفِّرون بالكبائر غير المكفّرة كالزنا والسرقة.

١٣١٧ أخرجه البخاري (٣٩٢).

١٣١٨ شرح العقيد الطحاوية، ص (٤٢٦–٤٢٧)، ط: التركي والأرناؤوط.



قال ابن تيمية رحمه الله "ولهذا قال علماء السنة في وصفهم «اعتقاد أهل السنة والجماعة» أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب، إشارة إلى بدعة الخوارج المكفرة بمطلق الذنوب"[١٣١٩]

الأمر الثالث: أن المقصود بالذنب في قولهم (يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب) هو المعاصي فيما دون الشرك.

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله - في بيان اعتقاد أهل السنة: "ولا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب، كنحو الزنا والسرقة، وما أشبه ذلك من الكبائر، وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر"[١٣٢٠]

وقال ابن تيمية أيضا: "ونحن إذا قلنا: أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب، وأما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور"[١٣٢١].

وقال ابن تيمية أيضا "إنه قد تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دلّ عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ولا يخرجونه من الإسلام بعملٍ إذا كان فعلاً منهياً عنه مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر مالم يتضمن ترك الإيمان"[١٣٢٢]

وقال الشيخ حافظ حكمي: "ولا نكفر بالمعاصي مؤمنا إلا مع استحلاله لما جنى، «ولا نكفر بالمعاصي» التي قدمنا ذكرها وأنها لا توجب كفراً، والمراد بها الكبائر التي ليست بشرك"[١٣٢٣].

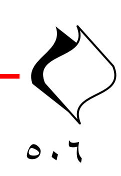
١٣١٩ مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٧٤).

١٣٢٠ مقالات الإسلاميين ط المكتبة العصرية، (١/ ٣٤٧).

١٣٢١ مجموع الفتاوى (٧/٣٠٢).

١٣٢٢ مجموع الفتاوى (٢٠/ ٩٠).

١٣٢٣ معارج القبول (٢/٤٣٨).



الأمر الرابع: أن أهل القبلة قد يقع منهم ما يخرج من الملة كأن يقع في الشرك الأكبر والكفر المخرج من الملة.

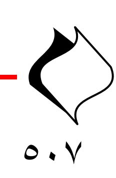
قال ابن تيمية: "قد تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يُكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ولا يخرجونه من الإسلام بعمل، إذا كان فعلاً منهياً عنه؛ مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر، ما لم يتضمن ترك الإيمان، وأما إن تضمن ترك ما أمر الله به من الإيمان؛ مثل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت؛ فإنه يكفر به"[١٣٢٤].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ـ في رده على أحد مخالفيه ـ "وأما المسألة الثالثة: وهي من أكبر تلبيسك الذي تلبس به على العوام، أن أهل العلم قالوا: لا يجوز تكفير المسلم بالذنب، وهذا حق ولكن ليس هذا ما نحن فيه، وذلك أن الخوارج يكفرون من زني أو من سرق أو سفك الدم بل كل كبيرة إذا فعلها المسلم كفر.

وأما أهل السنة فمذهبهم أن المسلم لا يكفر إلا بالشرك، ونحن ما كفّرنا الطواغيت وأتباعهم إلا بالشرك، وأنت رجل من أجهل الناس تظن أن من صلى وادعى أنه مسلم لا يكفر–إلى أن قال–أرأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قاتلوا من منع الزكاة، فلما أرادوا التوبة قال أبوبكر لا نقبل توبتكم حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، أتظن أن أبابكر وأصحابه لا يفهمون وأنت وأبوك الذين تفهمون؟ يا ويلك أيها الجاهل الجهل المركب إذا كنت تعتقد هذا"[١٣٢٥]

١٣٢٤ الفتاوى (٢٠/٩٠).

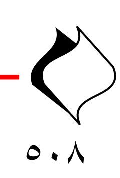
١٣٢٥ الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب) وهي القسم الخامس من مؤلفاته، ط جامعة الإمام محمد بن سعود، ص (٢٣٣ ـ ٢٣٤).



وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ١٢٩٢هـ - وأبوه عبد الرحمن هو صاحب كتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)-رحمهما الله-في رده على الملا داود بن جرجيس العراقي "وأما قوله: «إن الشيخ أحمد بن تيمية وتلميذه ابن القيم لا يكفران أحداً من أهل القبلة». فيقال: لو عرف هذا مَنْ أهل القبلة في هذا الموضع، ومن المراد بهذه العبارة لما أوردها هنا محتجاً بها على دعاء غير الله وعدم تكفير فاعله؟؟. ومن أعرض عن كلام أهل العلم ورأي أن مَنْ صلى وقال لا إله إلا الله فهو من أهل القبلة وإن ظهر منه من الشرك والترك لدين الإسلام ما ظهر، فقد نادى على نفسه بالجهالة والضلالة، وكشف عن حاصله من العلم والدين بهذه المقالة. وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله قول القائل «لا نكفر أهل الذنوب»، وهذا يزعم أنه على مذهب الإمام أحمد. ومقصود من قالها: إنما هو البراءة من مذهب الخوارج الذين يكفرون بمجرد الذنوب، وهذا وَضَعَ كلامهم في غير موضعه وأزال بهجته لأنه تأوله في أهل الشرك ودعاء الصالحين، فالتبس عليه الأمر ولم يعرف مراد من قال هذا من السلف، وهذا الفهم الفاسد مردود بكتاب الله وسنة رسوله وبإجماع أهل العلم. وقد عقد الفقهاء من أرباب المذاهب بابا مستقلا في هذه المسألة، وذكروا حكم المرتد من أهل القبلة، وقرروا من المكفرات أشياء كثيرة دون ما نحن فيه، وجزموا بأن العصمة بالتزام الإسلام ومبانيه ودعائمه العظام، لا بمجرد القول والصلاة مع الإصرار على المنافي، وهذا يعرفه صغار الطلبة، وهو مذكور في المختصرات من كتب الحنابلة وغيرهم، فهذا لم يعرف ما عرفه صبيان المدارس والمكاتب، فالدعوى عريضة والعجز ظاهر"[١٣٢٦]

هذا، وقد دلّ على صحة ما ذكرناه هنا إجماع الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم أجمعوا على أن المعاصي غير المكفرة كشرب الخمر لا يكفر صاحبها إلا بالاستحلال، هذا ما اتفقوا عليه في حادثة قدامة بن مظعون، كما أجمعوا على أن المعاصي المكفرة

١٣٢٦ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، (جـ ٩، كتاب الردود، صـ ٢٩٠ - ٢٩١).



يكفر صاحبها بمجرد اتيانها (سواء كانت فعلا أو تركا) دون نظر في جحد أو استحلال، كإجماعهم على تكفير تارك الصلاة، وإجماع الصحابة حجة قطعية على الأولين والآخرين من خالفها فهو مخطئ ضال، وسيأتي شرح لهذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

الأمر الخامس: أن أهل السنة توسطوا بين طائفتين ضلتا في هذه الباب.

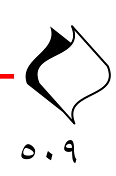
وهم المرجئة من جهة الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، وبين الخوارج من جهة أخرى الذين يكفرون بكل ذنب.

وقال شارح الطحاوية: "قوله: "ولا نكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله: "أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله: "ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين" يشير الشيخ –رحمه الله– إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء وتخليدهم في النار، وما من الأئمة إلا من حكي عنه في ذلك قولان؛ كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وصار بعضهم يحكي هذا النزاع في جميع أهل البدع وفي تخليدهم، حتى التزم تخليدهم كل من يُعتقد أنه مبتدع بعينه، وفي هذا من الخطأ ما لا يحصى، وقابله بعضهم فصار يظن أنه لا يُطلق كفر أحد من أهل الأهواء، وإن كانوا أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والإلحاد"[١٣٢٧]

قال ابن أبي العز–رحمه الله–"واعلم –رحمك الله وإيانا–أن باب التكفير وعدم التكفير، بابٌ عظُمت الفتنة والمحنة فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتتت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم، فالناس فيه – في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة،

١٣٢٧ الفتاوى، (٧/٦١٨-٦١٩).



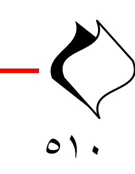
المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر، أو المخالفة لذلك في اعتقادهم على طرفين ووسط، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية.

فطائفة تقول: لا نكفِّر من أهل القبلة أحداً، فتنفي التكفير نفياً عاماً، مع العلم بأن في أهل القبلة: المنافقين، الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يُظهر بعض ذلك حيث يمكنهم، وهم يتظاهرون بالشهادتين.

وأيضاً: فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة، والمحرمات الظاهرة المتواترة، ونحو ذلك؛ فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قُتل كافراً مرتداً. والنفاق والردة مظنتهما البدع والفجور، كما ذكره الخلال في كتاب "السنة" بسنده إلى محمد بن سيرين، أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) [الأنعام: ٦٨]. ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول: بأنا لا نكفر أحداً بذنب. بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب؛ كما تفعله الخوارج."[١٣٢٨].

وقال الشيخ سليمان بن سحمان –رحمه الله– راداً على بعض من اغتر بمقالة "عدم تكفير أهل القبلة" ليحملها على الجهمية: "وأما ما ذكرته من استدلال المخالف بقوله صلى الله عليه وسلم "من صلَّى صلاتنا.." وأشباه هذه الأحاديث، فهذا استدلال جاهل بنصوص الكتاب والسنة، لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فإن هذا فرضه ومحلّه في أهل الأهواء من هذه الأمة ومن لا تخرجه بدعته من الإسلام؛ كالخوارج ونحوهم، فهؤلاء لا يكفرون؛ لأن أصل الإيمان الثابت لا يحكم بزواله إلا بحصول مناف لحقيقته، مناقض لأصله، والعمدة استصحاب الأصل وجوداً وعدماً، لكنهم يُبَدّعون، ويضللون، ويجب هجرهم، وتضليلهم، والتحذير عن مجالستهم ومجامعتهم، كما هو طريقة السلف في هذا الصنف.

١٣٢٨ شرح العقيد الطحاوية، (ص ٤٣٢-٤٣٤).



وأما الجهمية وعباد القبور: فلا يستدل بمثل هذه النصوص على عدم تكفيرهم إلا من لم يعرف حقيقة الإسلام"[١٣٢٩].

وسيأتي مزيد تفصيل عن مسألة الردة في الفقرة (١٠٢).

(المتن)

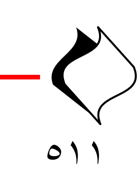
قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٤٢] "وكل ما سمعت من الآثار شيئا مما لم يبلغه عقلك، نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن» (١٣٣٠)، وقوله: «إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا» (١٣٣١)، «وينزل يوم عرفة» «ويوم القيامة».

[١٣٢٩] إجماع أهل السنة النبوية على تكفير المعطلة الجهمية، ص (١٥٧).

١٣٣٠ انظر صحيح مسلم كتاب القدر، بَابُ تَصْرِيفِ اللهِ تَعَالَى الْقُلُوبَ كَيْفَ شَاءَ، برقم (٢٦٥٤)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٦٦١٠).

١٣٣١ انظر صحيح البخاري كتاب التهجد، بَابُ الدُّعَاءِ فِي الصَّلاَةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، برقم (١١٤٥)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالْإِجَابَةِ فِيهِ، رقم (٧٥٨)، وأبو داود (١٣١٥)، والترمذي (٤٤٦)، وابن ماجه (١٣٦٦)، ومالك (٣٠)، والدارمي (١٥١٩)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٧٥٩٢)



«وأن جهنم لا تزال يُطرح فيها حتى يضع عليها قدمه جل ثناؤه»، وقول الله تعالى للعبد: «إن مشيت إليّ هرولت إليك» (١٣٣٢)، وقوله: «إن الله تبارك وتعالى ينزل يوم القيامة» (١٣٣٣)، وقوله: «إن الله خلق آدم على صورته (١٣٣٤)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إني رأيت ربي في أحسن صورة» .(١٣٣٥) وأشباه هذه الأحاديث، فعليك بالتسليم والتصديق والتفويض والرضى، ولا تفسر شيئا من هذه بهواك، فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فسر شيئا من هذا بهواه أو رده فهو جهمي".

(الشرح)

يرد بعض الناس النصوص لأن عقله لم يستطع أن يستوعب ذلك النص، ومعلوم أنا مأمورون بأن نسلم ونصدق، فأحياناً قد لا يصل الإنسان إلى فهم النص، أو معرفة معنى النص، أو أن هناك في النص أمراً متعلقاً بالكيفية، وهذا لا تبلغه عقول البشر.

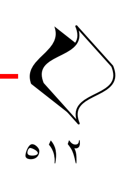
فالواجب على الإنسان أن يُسلم ويصدق بهذا الجانب، فالنصوص لم تأتي بما ترده العقول، ولم تأتي بما يصادم العقل، لكن أحياناً لا تبلغ العقول مبلغ فهم هذا النص، فهذا يأتي من حالين:

١٣٣٢ انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: ٢٨]، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، برقم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وأحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٩٣٥١).

١٣٣٣ انظر جامع الترمذي (٢٣٨٢)، قال الشيخ الالباني في صحيح الترغيب والترهيب الجزء الثاني، صفحة (١١٧): صحيح.

١٣٣٤(٥) انظر صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ، برقم (٢٦١٢)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٧٣٢٣).

١٣٣٥ انظر جامع الترمذي رقم (٣٢٣٣)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدِ بَنِي هَاشِمٍ (٢٦٣٤)، قال الشيخ الالباني في مشكاة المصابيح الجزء الأول، صفحة (٢٢٥): صحيح.



إما حال المعنى أو حال الكيف، فحال المعنى فقد يكون بسبب ما يسمى الاشتباه النسبي، بمعنى: أن النص قد يتضح لك ويخفى علي أو العكس، يتضح لي ويخفى عليك، فالمعنى قد لا يبلغه عقلك أو فهمك، وهذا وقع حتى لبعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فالصحابة رضوان الله عليهم لما سمعوا قول الله عز وجل :{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام:٨٢]، جاءوا يبكون ويقولون للنبي: "وأينا لم يظلم نفسه" ففهموا من الظلم ظلم النفس، فأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المعنى الحق، وقال: «ألم تسمعوا لقول العبد الصالح يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم» (١٣٣٦)، فأفهمهم بأن المراد من الظلم هنا هو الشرك؛ لأن الظلم على ثلاثة أنواع:

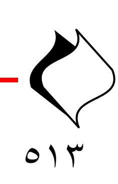
ظلم النفس، وظلم الغير، والظلم بمعنى الشرك.

وهذا عدي بن حاتم عربي قُح، عندما سمع قول الله عز وجل :{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [البقرة:١٨٧]، جاء بحبلين بعقالين أحدهما أسود والثاني أبيض ووضعهما تحت وسادته وأخذ ينظر إليهما، يريد أن يتبين إليه الأبيض من الأسود، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن قفاك لعريض ألم يقل من الفجر)) (١٣٣٧)، فبين له أن المعنى هنا بياض النهار وسواد الليل.

فيقع التباس وعدم قدرة على الفهم من جهة المعنى.

١٣٣٦ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ: ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ برقم (١٥)، ومسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ صِدْقِ الْإِيمَانِ وَإِخْلَاصِهِ (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٧)، والإمام أحمد في المسند مسند المكثرين من الصحابة (٣٥٨٩).

١٣٣٧ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: ١٨٧]، برقم (١٩١٦)، ومسلم كِتَاب الصِّيَامِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدُّخُولَ فِي الصَّوْمِ يَحْصُلُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ... برقم (١٠٩٠)، والترمذي (٢٩٧٠)، والنسائي (٢١٦٩)، والإمام أحمد في المسند أَوَّلُ مُسْنَدِ الْكُوفِيِّينَ (١٩٣٧٥).



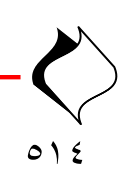
أو أن الأمر متعلق بالكيفية كقوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا» فنحن لا نعلم كيف نزوله، ولا كيف استوائه فلا نعلم هذه الكيفيات فبعض الأمورٌ أحياناً لا تبلغها عقولنا، فما جاء النص بما يصادم العقل، لكن قد يأتي النص بما لم يبلغه العقل، وما لم يصل إليه عقل الإنسان، إما معنىً من جهة قصور فهمنا أو حقيقة من جهة أن هذا الأمر غيبٌ من الغيوب.

فهذه النصوص نقابلها بالتسليم والتصديق، وإذا كان الأمر متعلقاً بالمعنى سألنا من كان فيها أفقه وأعلم وأعرف، فبالتالي سيبين لك ما هو المعنى المراد من هذا النص، وإن كان أمراً متعلقاً بالكيفية فليس لك إلا القبول والتسليم، فهذه النصوص التي ذكرها من نزول الله عز وجل وكذلك من قوله ((من آتاني يمشي أتيته هرولة)) ونحو ذلك فهذه النصوص بعضها متعلق بالكيف وبعضها متعلق بالمعنى.

فما كان متعلقاً بالكيف فليس لك إليه سبيل؛ لأنه محجوبٌ عنا، والله تعالى قد قال: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦]، فليس لك أن تتخوض أو تخوض في شأن الكيف ولا سبيل لك إليها.

فلا سبيل لك إلى هذه الكيفيات، فمثلاً الروح بين جنبيك وأقرب شيء إليك ومع ذلك لا سبيل إلى معرفة كنهها وكيفيتها مع أنها مخلوقة وبين جنبي الإنسان، فإذاً علينا التسليم والتصديق والتفويض، فالتفويض هنا متعلقٌ بالكيف.

أما تفويض المعنى فليس هناك أبداً في النصوص ما لا يُعلم معناه، اعلم هذا جزما، ولا يقول قائل: هذه الحروف المقطعة في أوائل السور لا يُعلم معناها فهذه ليست كلاماً وإنما هي حروف، ولذلك أنت تقرأها ألف لام ميم، تقرأها حرفاً حرفاً، ومعلوم أن الكلام مركبٌ من الحروف.



فأنت عندما تنطقها، تنطقها حروفاً لا تنطقها كلمة فليس ألف لام ميم مثل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)، فهذه تقرأ حرفاً حرفًا وهذه تُقرأ كلمة، فكيف تطلب لها معنى وهي ليست كلامًا، فالكلام كما قال ابن مالك في تعريفه:

كَلاَمُنَا لَفْظٌ مُفِيْدٌ كَاسْتَقِمْ وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ [١٣٣٨]

فالكلام ما أفاد معنى، ولا يكون كلاماً حتى يكون مركباً من حروف.

أما الحروف فهي ليست كلاماً حتى تطلب لها معنى، ومعلوم أن الله تعبدنا بالنصوص ألفاظا تلاوة، وتعبدنا بالقرآن كذلك معنى، فنحن متعبدون بإتباع ما جاء فيه، ولا يُعقل أن الله سبحانه وتعالى يتعبدنا بأمرٍ ليس لنا سبيل إلى معرفة معناه، فأمر المعنى أهل السنة لا يفوضون المعاني، وإنما يفوضون الكيفيات.

فليس لإنسان أن يفسر شيئاً من ذلك بهواه أو يرده فإذا رده كان شأنه شأن الجهمية؛ لأن الجهمية هم الذين عطلوا النصوص، عطلوها ألفاظاً بردها، وعطلوها معانٍ بتحريف معانيها، فقالوا: (استوى) استولى، وقالوا: "(اليد) بمعنى النعمة والقدرة"[١٣٣٩] وقالوا: "(وجاء ربك) وجاء أمر ربك"[١٣٤٠] فهذا شأن الجهمية في رد النصوص، إما ردها ألفاظاً بقولهم: "إنها أخبار آحاد ولا يُحتج بها في باب العقائد أو ردوها معانٍ بحيث أولوا أو حرفوا معانيها من المعاني الحقة إلى المعاني الباطلة"[١٣٤١]

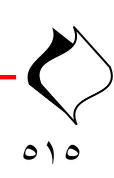
وبحمد الله تعالى هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو محكم في تنزيله ومحكم في معانيه لكن إذا كان الإنسان يجهل التعامل مع ألفاظ النصوص ومعرفة معانيها فذاك الذي يروج عليه تأويلات هؤلاء، وتأويلاتهم في غاية من الحمق،

١٣٣٨ انظر ألفية ابن مالك صفحة (٩).

١٣٣٩ انظر الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة صفحة (٤٠).

١٣٤٠ انظر الرد على الجهمية للدارمي صفحة (٧٦).

١٣٤١ انظر الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة الجزء الرابع، صفحة (١٥٢٩،١٥٣٠).



فعندما يقول: بل يداه مبسوطتان، ويفسرها ويؤولها بالنعمة والقدرة، كيف يكون المعنى وهو هنا جاء بلفظ التثنية، هل سيقول نعمتاه أو قدرتاه، والله تعالى يقول: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}، ويقول: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}.

كذلك جاءت النصوص ببيان أن هناك قبضة وأن هناك يمين، {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر:٦٧]، وجاء إثبات الأصابع وجاء إثبات الكف، كل هذا في النصوص واضح على أنها يدٌ حقيقية، فهذه التأويلات كلها يعني تأويلات قبيحة وواضحة البطلان، لكن من كان لا بصيرة له ولا علم له ستروج عليه هذه الأقوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على من أنكر نصوص الصفات: "وكل من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر، وهو من وجوه:

أحدها: بيان أن العقل لا يحيل ذلك.

والثاني: أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل.

والثالث: أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بها بالاضطرار، كما علم أنه جاء بالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوات.

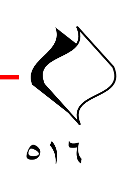
الرابع: أن يبين أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص، وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك تفصيله، وإنما عقله مجملاً إلى غير ذلك من الوجوه، على أن الأساطين من هؤلاء والفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية، وإذا كان هكذا، فالواجب تلقّي علم ذلك من النبوات على ما هو عليه"[١٣٤٢].

فأورد–رحمه الله–أربعة ردود هي:

أولاً: "بيان أن العقل لا يحيل ذلك".

فالنصوص الشرعية فيما أخبرت به من أمور الغيب وغيرها العقل لا يحيلها، وإن كان قد لا يدركها، فمما ينبغي اعتقاده أن نصوص الكتاب والسنة الصحيحة

١٣٤٢ مجموع الفتاوى (٣/ ١٧).



والصريحة في دلالتها، لا يعارضها شيء من المعقولات الصريحة، ذلك أن العقل شاهد بصحة الشريعة إجمالا وتفصيلا، فأما الإجمال، فمن جهة شهادة العقل بصحة النبوة وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فيلزم من ذلك تصديقه في كل ما يخبر به من الكتاب والحكمة.

وأما التفصيل، فمسائل الشريعة ليس فيها ما يرده العقل؛ بل كل ما أدركه العقل من مسائلها فهو يشهد له بالصحة تصديقا وتعضيدا، وما قصر العقل عن إدراكه من مسائلها، فهذا لعظم الشريعة، وتفوقها، ومع ذلك فليس في العقل ما يمنع وقوع تلك المسائل التي عجز العقل عن إدراكها، فالشريعة قد تأتي بما يحير العقول لا بما تحيله العقول.

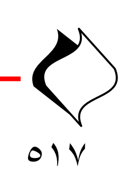
ثانياً: "أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل".

فمن قول أهل السنة الإيمان بالنصوص على ظاهرها ورد التأويل الفاسد، ويقصد بظاهر النصوص مدلولها المفهوم بمقتضى الخطاب العربي، لا ما يقابل النص عند متأخري الأصوليين، والظاهر عندهم على حد تعريفهم: ما احتمل معنى راجحاً وآخر مرجوحاً، والنص هو ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، (فلفظة الظاهر قد صارت مشتركة، فإن الظاهر في الفطر السليمة، واللسان العربي، والدين القيم، ولسان السلف، غير الظاهر في عرف كثير من المتأخرين)١٣٤٣.

فالواجب في نصوص الوحي إجراؤها على ظاهرها المتبادر من كلام المتكلم، واعتقاد أن هذا المعنى هو مراد المتكلم، ونفيه يكون تكذيباً للمتكلم، أو اتهاماً له بالعي وعدم القدرة على البيان عما في نفسه، أو اتهاماً له بالغبن والتدليس وعدم النصح للمكلف، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى وحق رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم.

ومراد المتكلم يعلم:

١٣٤٣ ((مجموع الفتاوى)) لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٣/ى١٧٥).



أ–إما باستعماله اللفظ الذي يدل بوضعه على المعنى المراد مع تخلية السياق عن أية قرينة تصرفه عن دلالته الظاهرة.

ب–أو بأن يصرح بإرادة المعنى المطلوب بيانه.

ج–أو أن يحتف بكلامه من القرائن التي تدل على مراده.

وعلى هذا فصرف الكلام عن ظاهره المتبادر –من غير دليل يوجبه أو يبين مراد المتكلم–تحكم غير مقبول سببه الجهل أو الهوى، وهذا وإن سماه المتأخرون تأويلاً إلا أنه أقرب إلى التحريف منه إلى التأويل١٣٤٤.

إذ لم يعرف القول بالتفويض بهذا المعنى في القرون الثلاثة الأولى، بل ظهر في القرن الرابع، كما قال ابن تيمية وقال: وأول من قال به أبو منصور الماتريدي —المتوفى ٣٣٣هـ– وأبو الحسن الأشعري —المتوفى ٣٢٤ في محاولة للتوسط بين منهج السلف في إثبات النصوص وبين المنهج العقلي المستمد من الفلسفة اليونانية... وإنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله تعالى فيهم: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ .انتهى بتصرف.

ولا يسلم لهذا المتأول تأويله حتى يجيب على أمور أربعة:

أحدهما: أن يبين احتمال اللفظ لذلك المعنى الذي أورده من جهة اللغة.

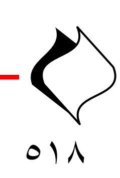
الثاني: أن يبين وجه تعيينه لهذا المعنى أنه المراد.

الثالث: أن يقيم الدليل الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره؛ لأن الأصل عدمه.

قال ابن الوزير رحمه الله: "من النقص في الدين رد النصوص والظواهر، ورد حقائقها إلى المجاز من غير طريق قاطعة تدل على ثبوت الموجب للتأويل"١٣٤٥.

١٣٤٤ التأويل: هو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج على دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ. ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٢٦٤).

١٣٤٥ ((إيثار الحق)) لابن الوزير (ص١٢٩).



الرابع: أن يبين سلامة الدليل الصارف عن المعارض، إذ دليل إرادة الحقيقة والظاهر قائم، وهو إما قطعي، وإما ظاهر، فإن كان قطعيا لم يلتفت إلى نقيضه، وإن كان ظاهراً فلابد من الترجيح١٣٤٦.

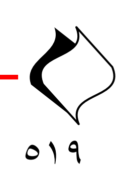
ومما يدل على إعمال الظواهر أنه لا يتم بلاغ ولا يكمل إنذار، ولا تقوم الحجة ولا تنقطع المعذرة بكلام لا تفيد ألفاظه اليقين، ولا تدل على مراد المتكلم بها؛ بل على خلاف ذلك، فينتفي عن القرآن — والعياذ بالله — معنى الهداية، وشفاء الصدور، والرحمة، التي وصف الله تعالى بها كتابه الكريم، ومعاني الرأفة والرحمة والحرص على رفع العنت والمشقة عن الأمة، التي وصف الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز، وهو الذي ترك الأمة على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فلا التباس في أمره ونهيه، ولا إلغاز في إرشاده وخبره، باطنه وظاهره سواء، كيف لا، وهو القائل: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم...))١٣٤٧.

ودلالته صلى الله عليه وسلم للأمة في شأن اعتقادها أهم أعماله، وأولاها بالإيضاح والإفهام بلسان عربي مبين، والجزم واقع بأن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فهموها على وجهها الذي يفهمه العربي، بغير تكلف ولا تمحل في صرف ظواهرها، ومن كان باللسان العربي أعرف ففهمه لنصوص الوحي أرسخ، وقد قال عمر رضي الله عنه: (يا أيها الناس، عليكم بديوان شعركم في الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم)١٣٤٨.

١٣٤٦ ((مجموع الفتاوى)) لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/٣٦٠-٣٦٢)، و((الصواعق المرسلة)) لابن قيم الجوزية (١/٢٨٨-٢٩٠)، و((بدائع الفوائد)) لابن قيم الجوزية (٤/١٠٠٩).

١٣٤٧ رواه مسلم (١٨٤٤). من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

١٣٤٨ انظر ((تفسير القرطبي)) (١٠/١١١) و((الموافقات)) للشاطبي (٢/٨٨).



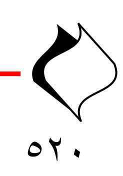
وقال ابن تيمية رحمه الله: "لم يكن في الصحابة من تأول شيئا من نصوصه – أي نصوص الوحي – على خلاف ما دل عليه، لا فيما أخبر به الله عن أسمائه وصفاته، ولا فيما أخبر به عما بعد الموت"١٣٤٩.

وفي إنكار التأويل الكلامي ومناهج الفلاسفة ومن تأثر بهم من المتكلمين، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل– ولو كان مستكرهاً– ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم، وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف"١٣٥٠.

ويقول ابن تيمية رحمه الله مبيناً خطورة التأويل: "فأصل خراب الدين والدنيا، إنما هو من التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه، ولا دل عليه أنه مراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل، وليس هذا مختصاً بدين الإسلام فقط؛ بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد"١٣٥١.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية: "فعُمدَةُ مَن يُخالِفُ الكتاب والسنَّة هو الاحتجاجُ بقياسٍ فاسد، أو نقلٍ كاذب، أو خطابٍ شيطاني، وأشنعُ مِن هؤلاء مَن يؤصِّلُ بعقلِهِ الفاسدِ أو ذوقِهِ الشيطاني أصولاً يتَّخذَها ديناً وشرعاً يعارِضُ بها نصوص الكتاب

١٣٤٩ ((مجموع الفتاوى)) لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/٢٥٢).
١٣٥٠ ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/٢٦٧).
١٣٥١ ((أعلام الموقعين)) لابن قيم الجوزية (٤/٢١٦).



والسنَّة، فإنْ وافَقَتْ النصوصُ ما أصَّلَهُ هو بعقله أو ذوقه احتجَّ بها اعتضاداً لا اعتماداً، وإن خالفت ما أصَّلَهُ كانت له معها إحدى ثلاث طرق:

الأولى: ردُّ النصوص وتكذيبها إن كانت أحاديث، وبخاصةٍ أحاديث الآحاد.

الثانية: صرفُها عن ظواهرها التي وُضعت لها.

الثالثة: إبقاؤها على ظواهرها مع اعتقاد نفي مقتضى الظاهر، ويسمِّي ذلك تفويضاً "١٣٥٢.

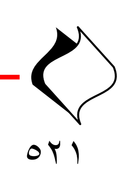
ففي لزوم الإيمان بالنصوص على ظاهرها ودفع التأويل المتعسف بغير دليل موافقة لنصوص الكتاب والسنة لفظا ومعنى، مع بعد عن التكلف في الدين، والقول على الله بغير علم، والافتراء على رسوله الأمين، فضلاً عن ما في ذلك من مصلحة سد باب الخروج على العقيدة ببدعة محدثة، وسد باب الخروج على الشريعة، والاجتراء على الحرمات، والتهاون بالطاعات والوقوع في المنكرات، بصرف ألفاظ الوعد والوعيد عن حقيقتها وظاهرها، ودعوى أن كل ذلك غير مراد.

"وهذه القاعدة تفيد بطلان مذهب المفوضة في الصفات، الذين يفوضون معاني النصوص إلى الله، مدعين أن هذا هو مذهب السلف، وقد علم براءة مذهب السلف من هذا المذهب بتواتر الأخبار عنهم بإثبات معاني هذه النصوص على الإجمال والتفصيل، وإنما فوضوا العلم بكيفيتها لا العلم بمعانيها"١٣٥٣.

ثالثاً: أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بها بالاضطرار، كما علم أنه جاء بالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوات

١٣٥٢ (الفتاوى (ص٦٤ وص١٤٢).

١٣٥٣ ((القواعد المثلى)) للشيخ ابن عثيمين (ص٣٥).



قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيَّن جميع الدين أصولَه وفروعَه، باطنه وظاهرَه، عِلمَهُ وعملَهُ، فإنَّ هذا الأصل هو أصلُ أصولِ العلمِ والإيمان"١٣٥٤

بل كان قول أهل العلم: من الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم.

ومما يشهد للصحابة في فهمهم مراد الله ومراد نبيه صلى الله عليه وسلم، والأخذ بظواهر النصوص، وتفسيرها مما يظهر منها: قول ابن مسعود رضي الله عنه: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه١٣٥٥.

وقال مسروق رحمه الله: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحثنا فيها ويفسرها عامة النهار.١٣٥٦

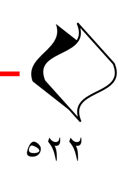
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس١٣٥٧.

١٣٥٤ الفتاوى: ١٥٥/١٩.

١٣٥٥ رواه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٣٥٦ رواه الطبري في تفسيره (٦٠/١).

١٣٥٧ رواه أبو خيثمة في ((العلم)) (٤٨)، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) ٣٨٣/٦، وأحمد في ((فضائل الصحابة)) (ص٨٤٧) (١٥٥٦)، والطبري في تفسيره (٦٥/١). والحاكم (٦١٨/٣) كلهم موقوفاً عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال ابن كثير في تفسيره (١٣/١): إسناده صحيح، وقال الألباني في كتاب ((العلم)) لأبي خيثمة: إسناده صحيح على شرط الشيخين. ورواه الطبراني (١٠٨/١١)، والأصبهاني في ((حلية الأولياء)) (٣١٦/١) مرفوعا عن ابن عباس. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٤٤٩/٩): رواه الطبراني وفيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف.



وقال مجاهد رحمه الله: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها"١٣٥٨.

فلم يتوقف الصحابة عن تفسير النصوص والأخذ بظواهرها؛ ويستثنى من ذلك النصوص الخاصة بصفات الله تعالى، فقد أخذوا بظواهرها فأثبتوها دون تفسير أو تكييف لمعناها.

قال ابن تيمية رحمه الله: "إن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله، ولا قال هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن في القرآن آيات لا يعلم معناها، ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس، وهذا لا ريب فيه"١٣٥٩.

قال الذهبي: قال سفيان١٣٦٠وغيره: "قراءتها-أي آيات الصفات-تفسيرها"، يعني أنها بينة واضحة في اللغة، لا يبتغى بها مضايق التأويل والتحريف١٣٦١.١٣٦٢ والواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأي فيها.

ودليل ذلك: السمع، والعقل.

أما السمع:

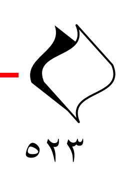
١٣٥٨ رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٦/١٥٤)، والدارمي (٢٧٣/١) (١١٢٠)، والطبري في تفسيره (٦٥/١)، والطبراني (٧٧/١١)، والحاكم (٣٠٧/٢).

١٣٥٩ ((مجموع الفتاوى)) لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨٥/١٣).

١٣٦٠ وهو الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى، روى ذلك عنه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤٣١/٣)، والدارقطني في ((الصفات)) (ص٤١، ٤٢) وانظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص ١١٨)، و((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن قيم الجوزية (١/١١٤، ١١٥).

١٣٦١ ((العلو)) للذهبي (٥٧٤).

١٣٦٢ المصدر: علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة لمحمد يسري ص ٣٥٣.



فقوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقوله: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [يوسف: ٢].

وقوله: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الزخرف: ٣].

وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليل شرعي.

وقد ذم الله تعالى اليهود على تحريفهم، وبين أنهم بتحريفهم من أبعد الناس عن الإيمان.

فقال: (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: (مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) الآية [النساء: ٤٦].

وأما العقل: فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين فوجب قبوله على ظاهره وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة١٣٦٣.

واعلم أن من قواعد أهل السنة المقررة أن الأصل أن يحمل النص على ظاهره، وأن الظاهر مراد، وأن الظاهر ما يتبادر إلى الذهن من المعاني، وأنه لا يخرج عن هذا الظاهر إلا بدليل، فإن عدم الدليل كان الحمل على الظاهر هو المتعين، والحمل على خلافه تحريف، فالنصوص الشرعية نصوص هداية ورحمة لا نصوص إضلال، فلو قدر أن المتكلم أراد من المخاطب حمل كلامه على خلاف ظاهره وحقيقته من غير قرينة ولا دليل ولا بيان لصادم هذا الفعل مقصود الإرشاد والهداية وأن ترك المخاطب والحالة هذه بدون ذلك الخطاب خير له وأقرب إلى الهدى...ومن أسباب إخراج النصوص

١٣٦٣ المصدر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لمحمد بن صالح بن عثيمين -ص٤٢.

عن ظواهرها عند البعض دعوى معارضتها للمعقول كالشأن في كثير من العقائد الإسلامية، إذ أن من طالع كتب المؤولة وجد عندهم توسعا عجيبا في هذا الباب، وكلما خاضوا بالتأويل في باب جرهم ذلك إلى استسهال التأويل في باب آخر وهكذا حتى آل الأمر بالباطنية مثلا إلى تأويل جملة الشريعة حتى ما يتعلق منها بالأحكام الشرعية كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل ذلك كله من قبيل الباطن المخالف للظاهر،... والذي يعنينا هنا أن نؤكد على أن هذه النصوص الشرعية يجب حملها على ظواهرها ولا يصح تأويلها لمجرد تنزيلها على واقع حالي أو لتوهم معارضتها للمعقول، وأن تأويلها والحالة هذه مخرج لها عن قصد الشارع وبالتالي فتنزيلها بعد التأويل تنزيل لها على واقع غير مراد ولا مقصود للشارع"١٣٦٤.

أمَّا أهلُ البدع والتأويل فردوا النصوص بعقولهم الفاسدة: فقد وصفهُم الإمام أحمد رحمه الله بقوله: "مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جُهَّالَ الناسِ بما يُشبِّهُون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلِّين".١٣٦٥

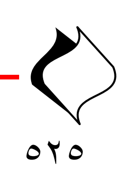
ونقل الشاطبيُّ آثاراً تؤكدُ أنَّه لا يعارَضُ النقلُ بالعقلِ ثم قال: "فالحاصلُ من مجموع ما تقدَّم أن الصحابة ومَن بعدهم لم يعارِضوا ما جاء في السنن بآرائهم، علموا معناها أو جهلوه" ١٣٦٦.

رابعاً: "أن يبين أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص، وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك تفصيله، وإنما عقله مجملاً إلى غير ذلك من الوجوه، على أن الأساطين من هؤلاء والفحول معترفون بأن العقل لا سبيل

١٣٦٤ المصدر: منارات وعلامات في تنزيل أحاديث الفتن على الوقائع والحوادث لعبد الله بن صالح العجيري ص٨

١٣٦٥ الرد على الجهمية (ص٥٢).

١٣٦٦ الاعتصام (٣٣٦/٢).



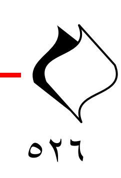
له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية، وإذا كان هكذا، فالواجب تلقّي علم ذلك من النبوات على ما هو عليه."

بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الكلام على مسألة التعارض المتوهم في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) ومما قاله في ذلك: "ليس في المعقول الصريح ما يمكن أن يكون مقدما على ما جاءت به الرسل وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق وأنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله من الخبر والطلب، ولا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن جميع ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي فمتي علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزما قاطعا أنه حق وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي ولا عقلي ولا سمعي وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حجج داحضة وشبه من جنس شبه السفسطائية، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح كان هذا العقل شاهدا بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل فيكون هذا العقل والسمع جميعا شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع"١٣٦٧

"فالعقل الصريح عند أهل السنة يوافق النقل الصحيح، وعند الإشكال يقدمون النقل ولا إشكال؛ لأن النقل لا يأتي بما يستحيل على العقل أن يتقبله، وإنما يأتي بما تحار فيه العقول، والعقل يصدق النقل في كل ما أخبر به ولا العكس.

ولا يقللون من شأن العقل؛ فهو مناط التكليف عندهم، ولكن يقولون: إن العقل لا يتقدم على الشرع -وإلا لاستغنى الخلق عن الرسل- ولكن يعمل داخل دائرته، ولهذا سموا أهل السنة لاستمساكهم واتباعهم وتسليمهم المطلق لهدي النبي صلى الله

١٣٦٧ درء تعارض العقل والنقل ١/ ١١١



عليه وسلم. قال الله تعالى :(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [القصص: ٥٠]١٣٦٨.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٤٣] "ومن زعم أنه يرى ربه في دار الدنيا فهو كافر بالله".

(الشرح)

تقدم الكلام في مسألة رؤية الله عز وجل في الدنيا وأن هذه المسألة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي:

المسألة الأولى: رؤية الإنسان لربه في الحياة الدنيا.

المسألة الثانية: رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه في ليلة المعراج.

المسألة الثالثة: رؤية الله في المنام.

أما **مسألة الأولى** وهي: رؤية الإنسان لربه في الحياة الدنيا.

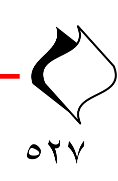
فقد حسمها النص الشرعي كما جاء في الحديث «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ» (١٣٦٩)

فرؤية الإنسان لربه في الحياة الدينا فهي أمرٌ ممتنع ومن زعمه من أهل الباطل فهو لم يرى الله عز وجل حقيقة.

ولذلك لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم ابن صياد في لقائه معه عندما أخذ يسأله قال: ماذا ترى؟ قال: أرى عرشاً على الماء، قال له النبي صلى الله عليه

١٣٦٨ الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري ص ١٥٧.

١٣٦٩ أخرجه مسلم في صحيحه (٤ / ٢٢٤٥)



وسلم :((ذاك عرش الشيطان)) (١٣٧٠) ، فالشيطان قد يسول لهؤلاء أنهم يرون الله عز وجل وما ذلك إلا استغلالاً لجهلهم، فلجهلهم بما جاءت به النصوص من امتناع رؤية الله عز وجل في الحياة الدنيا الشيطان قد يتلاعب ببعض الناس فيُخيل له أنه يرى الله عز وجل، وقد تقدم بيان ذلك.

وأما **المسألة الثانية** وهي: رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه في ليلة المعراج فقد وقع الخلاف فيها بين أحد قولين:

إما إنكار هذه الرؤيا وأنها لم تقع.

وإما إثباتها ولكن على أنها رؤية بالقلب، وليست رؤية بالعين، فقد حصل الاختلاف بين الصحابة في هذه المسألة، فعائشة–رضي الله عنها–ومن معها لم يثبتوا هذه الرؤية.

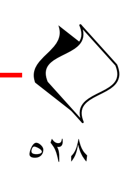
وابن عباس أثبتها، ولكن رواية عند عباس بين أن تكون مطلقة حيث قال: "رأى محمد ربه" ومقيده بقوله: "رأى محمد ربه بقلبه"(١٣٧١)

والصواب: كما يرى شيخ الإسلام بن تيمية أن الرؤيا وقعت بالقلب ولم تقع بالعين هذا الخلاف في هذه المسألة.

وأما **المسألة الثالثة**: فهي لو أن الإنسان رأى في المنام أنه رأى الله عز وجل في المنام، فقال العلماء: هذه الرؤيا تُعبر، وتعبيرها وتفسيرها وأنه يرى إيمانه، فبقدر بهاء تلك الصورة التي رآها وحسنها بقدر ما يكون قدر إيمانه، فهي تعبر بأن الإنسان رأى إيمانه فبقدر بهاء الصورة بقدر ما يكون قوة الإيمان.

١٣٧٠ انظر صحيح مسلم كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ، برقم (٢٩٢٥)، والترمذي (٢٢٤٧) وقال عقبه هذا حديث حسن، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١١٩٢٦).

١٣٧١ انظر صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ مَعْنَى قَوْلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم: ١٣]، وَهَلْ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، برقم (١٧٦)، والترمذي (٣٢٨١) وقال عقبه هذا حديث حسن، والإمام أحمد في المسند مِنْ مُسْنَدِ بَنِي هَاشِمٍ (١٩٥٦).



والرؤى كما هو معلوم تُعبر الرؤى كما رأى عزيز مصر عندما رأى سبع بقرات فعُبرت هذه بأنه سبع سنين، فالرؤيا تعبر وهذا تعبيرها لمن رأى هذه الرؤيا.

قال الإمام سعيد بن عثمان الدارمي: "وفي المنام يمكن رؤية الله تعالى على كل حال وفي كل صورة"[١٣٧٢]

قال الإمام البغوي: "رؤية الله في المنام جائزة"[١٣٧٣]

قال ابن تيمية: "ومن رأى الله عز وجل في المنام فإنه يراه في صورة من الصور بحسب حال الرائي إن كان صالحا رآه في صورة حسنة ولهذا رآه النبي –صلى الله عليه وسلم– ((في أحسن صورة)) "١٣٧٤

وقال أيضًا: "وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة على قدر إيمانه ويقينه فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق١٣٧٥"

المتن

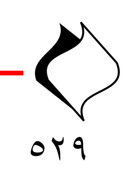
قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

١٣٧٢ الرد على المريسي (تحقيق الدكتور رشيد الألمعي) ج٢ ص٧٣٨-٧٣٩.

١٣٧٣ شرح السنة ١٢/٢٢٧-٢٢٨.

١٣٧٤ مجموع الفتاوى ٥/ ٢٥١.

١٣٧٥ مجموع الفتاوى،٣/٣٩٠.



[٤٤] "والفكرة في الله تبارك وتعالى بدعة؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الله»[١٣٧٦]. فإن الفكرة في الرب تقدح الشك في القلب".

الشرح

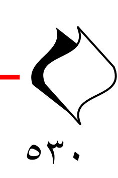
أي: لا يجوز للعبد أن يخوض بعقله في ذات الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا الأمر لا سبيل إليه كما ذكرنا سابقاً فليس للعبد أن يتفكر في ذات الله سبحانه وتعالى، وإنما يكون التفكر في خلق الله عز وجل، وفي آيات الله عز وجل في هذا الكون ومن ذلك النفس، ومن ذلك ما خلقه الله عز وجل في هذا الكون، وقد قال الله عز وجل :{وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} [الذاريات:٢١]، وقال: {أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية٢٠:١٧]، فيكون التفكر في مخلوقات الله عز وجل كما جاء بذلك الأثر عن ابن عباس.

أما التفكر في ذات الله عز وجل فهذا لا سبيل إليه وهو مظنة الخطأ والفساد والانحراف عن دين الله عز وجل فأمرٌ لا سبيل لك إليه فليس لك أن تدخل فيه كما ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ

١٣٧٦ ورد في الأثر عن عبد الله بن عباس قال: "فكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السموات إلى كرسيه سبعة آلاف نور، وهو فوق ذلك سبحانه وتعالى".

أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (برقم ١٦). والأصبهاني في الترغيب والترهيب (١٧٣/٢). وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٢١٢). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٢٣، رقم٨٨٧).

وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١٠٦-١٠٧). وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٢٣)، وعزاه لعبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة وأورده ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٨٣) وقال: "موقوف وإسناده جيد". وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص١٥٩) بعد أن ذكر من أخرج الحديث: "وأسانيدها ضعيفة ولكن باجتماعها تكتسب قوة، والمعنى صحيح". وأورده السيوطي في الجامع الصغير (١٣٢/١)، وسكت عنه، كما سكت عنه المناوي في فيض القدير (٢٩٢/٣). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٩٦/٤)، وضعيف الجامع (٣٩/٣).



لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، والله عز وجل عد المحرمات في قوله عز وجل :{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٣].

فجعل التقول على الله عز وجل أخطر من الشرك، فقال العلماء: إن الله تعالى في هذه الآية تدرج في المحرمات من الأدنى إلى الأعلى، فكان أعلاها وأخطرها أن نتقول على الله تعالى بغير علم، فالذي يخوض بفكره في ذات الله تعالى يكون قد وقع في أشد الأمور خطرا.

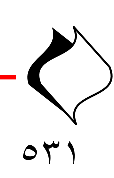
قال شيخ الإسلام-رحمه الله-، بعد أن أورد هذا الأثر: ((... لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة، والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة، وهي المخلوقات.

وأما الخالق-جل جلاله سبحانه وتعالى-فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة، فيذكره العبد. وبالذكر، وبما أخبر به عن نفسه، يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة؛ لا تنال بمجرد التفكير والتقدير؛ أعني من العلم به نفسه؛ فإنه الذي لا تفكير فيه.

فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك، فيدخل فيها التفكير والتقدير، كما جاء به الكتاب والسنة)) (١٣٧٧).

فبيَّن-رحمه الله-، أن الله ﷻ-والمراد ذاته وصفاته-لا يدخل تحت مجال التفكير الإنساني، والعقل البشري القاصر؛ لأن مبنى التفكير على قياس الغائب على الشاهد، وإيجاد العلاقة بين النظير ونظيره، والله ﷻ ليس له ندٌّ ولا مثيلٌ ولا مسامٍ ولا نظيرٌ حتى يقاس عليه، أو توجد بينه وبينه علاقة، تؤدي إلى إدراك كنهه وحقيقته.

(١٣٧٧) مجموع الفتاوى (٤/٣٩-٤٠).



وفي حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: ((أَنَّ النَّبِي صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنِ الأُغْلُوطَاتِ)) (١٣٧٨).

قال عيسى بن يونس (١٣٧٩) -رحمه الله-، وهو أحد رواة الحديث: ((والأغلوطات ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف)) (١٣٨٠).

وقال الخطابي-رحمه الله-في معالم السنن: ((وفيه كراهية التعمق والتكلف فيما لا حاجة للإنسان إليه من المسائل، ووجوب التوقف عما لا علم للمسؤول به)) (١٣٨١).

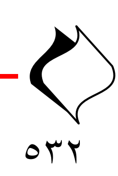
ولا شك أن معرفة حقيقة كنه الله ﷻ، وكيفية ذاته وصفاته، مما لا يحتاج إليه أحد، ولا يتوقف الإيمان به ﷻ على معرفة كيفية ذاته وصفاته، فالبحث في ذلك من التعمق والتكلف فيما لا حاجة للإنسان إليه، فوجب التوقف عما لا علم للإنسان به، ولا يمكنه أن يحيط به بحال من الأحوال.

(١٣٧٨) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٤٤)، كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا برقم (٣٦٥٦). والإمام أحمد في المسند (٥/٤٣٥)، وقال محقق المسند حمزة أحمد الزين: "إسناده حسن"، (١٧/٧٨) برقم (٢٣٥٧٧-٢٣٥٧٨) ط/دار الحديث؛ وضعف إسناده الألباني كما في تخريج أحاديث مشكاة المصابيح(١/٨١).

(١٣٧٩) عيسى بن يونس بن أبي إسحاق الهمداني، أبو عمرو السبيعي، الكوفي الإمام القدوة، الحافظ الحجة، أخو الحافظ إسرائيل بن يونس، أخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي سنة ١٨٧هـ.انظر ترجمته في: السير(٨/٤٨٩)، تهذيب التهذيب (٣/٣٧١).

(١٣٨٠) أورده ابن بطة في الإبانة (١/٤٠١).

(١٣٨١) معالم السنن (٥/٢٥٠).



وحديث الوسوسة معروف، وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا للنبي ﷺ: «إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. فقال النبي ﷺ: «أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» (١)(٣٨٢).

فالذي وجدوه هو ضيق الصدر وتعاظم واستكبار هذا الأمر؛ لأنهم قالوا: «إن أحدنا ليجد في نفسه ما لِأَن يَخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به»؛ فقال النبي ﷺ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».

فضيق الصدر دليل على قوة الإيمان، ودليل على أن هذا خاطر يَمر من خواطر الشيطان؛ وعلاجه: أن يقطعه، وأن يستعيذ الإنسان من الشيطان الرجيم، والله تعالى يقول: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} [الأعراف: ٢٠٠].

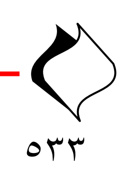
فالشيطان دائم الوسوسة لابن آدم، فعليه أن يعود إلى حِصن الإيمان، وإلى العقيدة الصحيحة ليستمسك بها ويلجأ إليها؛ فهي النجاة والمخرج من هذه الوساوس.

وفي الحديث الآخر يقول النبي ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ» (٢)(٣٨٣)، أي: لينتهِ عن التفكير في هذه الخطرات الشيطانية، وليستعذ بالله عز وجل من هذا الخاطر ولا يسترسل في التفكير فيه.

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» كِتَاب (الإِيمَان)، بَاب (بَيَانِ الْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهَا)، برقم (١٣٢)، وأبو داود (٥١١١)، وأحمد في «المسند»، (مُسْنَد الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ) (٩٦٩٤).

(٢) انظر: «صحيح البخاري»، كِتَاب (بَدْءِ الخَلْقِ)، بَاب (صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ)، برقم (٣٢٧٦)، ومسلم، كِتَاب (الإِيمَان)، بَاب (بَيَانِ الْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهَا) (١٣٤)، وأبو داود (٤٧٢١)، وأحمد في «المسند»؛ مُسْنَد (الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ) (٨٣٧٦).



(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٤٥] "واعلم أن الهوام والسـباع والدواب كلها، نحو الذر [والذباب] والنمل كلها مأمورة، لا يعملون شيئًا إلا بإذن الله تبارك وتعالى".

(الشرح)

هذه المسألة مرتبطة بما بعدها ويأتي لها لواحق؛ لأنها متعلقة بباب القدر، فجميع الخلق مربوبون لله واقعون تحت قدرته ومشيئته لا يخرجون عن ذلك بأي حال من الأحوال.

ما يتعلق بالإيمان بالقدر خيره وشره، وهو أصلٌ مِن أُصُول اعتقادِ أهل السُّنَّة والجَمَاعَة، وركنٌ مِن أركان الإيمان.

قال العلَّامة ابنُ القيّم رحمه الله: «إنَّ أهمَّ ما يَجب معرفتُه على المكَلَّف النَّبيل فضلًا عن الفاضل الجليل ما وَرَدَ في القضاء والقَدَر والحِكمة والتَّعليل، فهو مِن أَسْنَى المقاصد، والإيمانُ به قُطْب رَحَى التَّوحيد ونِظامه، ومبدأُ الدِّين المبين وخِتامه، فهو أحدُ أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التي يَرجع إليها ويَدور في جميع تصاريفه عليها، فالعدلُ قِوَام الملك، والحِكمة مَظهر الحمد، والتَّوحيد مُتضمن لنهاية الحِكمة وكمال النِّعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ فبالقدرة والحكمة ظَهَر خَلْقُه وشَرعه المبين؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]»(١٣٨٤).

والقَدَر في اللغة: مَصدر قَدَرْتُ الشَّيء إذا أَحَطتُ بمقداره.

(١٣٨٤) مُقَدِّمة كتابه «شِفاء العَليل» (ص٣).

وهو عند أهل السُّنَّة والجَمَاعَة: قُدرة الله وعِلمه ومَشيئته وخَلقه وكتابته، فلا تتحرك ذَرَّةٌ فما فوقها إلا بمشيئته وعِلمه وقُدرته (١٣٨٥).

ومن أدلة القَدَر:

قوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر:٦٢]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١-٢].

وحديث جِبريل لما سأل رسولَ الله ﷺ عن الإيمان، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أن تُؤمن باللهِ ومَلائكته وكُتُبه ورُسله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقَدَر؛ خَيره وشَرِّه» (١٣٨٦).

المتن

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[٤٦] "والإيمان بأن الله تبارك وتعالى قد علم ما كان من أول الدهر، وما لم يكن مما هو كائن، أحصاه وعده عدا، ومن قال: إنه لا يعلم ما كان وما هو كائن فقد كفر بالله العظيم".

الشرح

فنحن نعلم أن ما في هذا الكون مسخرٌ ومخلوقٌ من الله سبحانه وتعالى، فالله عز وجل كما قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، ونحن نؤمن بأن الإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان، والقدر له أربع مراتب:

(١٣٨٥) انظر: «شفاء العليل» لابن القَيِّم (ص١١٤).

(١٣٨٦) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

المرتبة الأولى: العلم.

والمرتبة الثانية: الكتابة.

والمرتبة الثالثة: المشيئة.

والمرتبة الرابعة: الخلق.

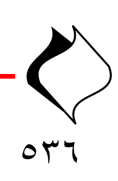
فالمرتبة الأولى: مرتبة العلم.

فيجب أن تعلم وتوقن بأن الله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل خلقها، وعلم ما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيءٍ علما، ولذلك لما ذكر الله تعالى الخلق استدل به على العلم والقدرة {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق:١٢]، ثم قال بعدها: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

فتأمل السياق في الحديث عن الخلق، الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن هذا حديث عن الخلق، لكنه دلالة على أمرين هم؟ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، فالخلق دليل على القدر، فكيف يخلق من لا يقدر، فهل الذي لا يقدر يستطيع أن يخلق؟ فبما أنه هو الخالق فهو قادر، وكيف يخلق ما لا يعلم؟ فبالتالي استشهد بخلقه على قدرته وعلى علمه، لذلك قال: {لتعلموا أن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما}.

فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل خلقها، وهو سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون، بل ما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله سبحانه وتعالى عندما ذكر أصحاب النار قال عنهم: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه}، فلو أُخرج أهل النار من النار وعادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم.

فإذاً يعلم مالم يكن لو كان كيف يكون، فعلمه سبحانه وتعالى محيطٌ بكل شيء، وكان أول من أنكره القدرية فأنكروا علم الله السابق، فزعم القدرية الأوائل أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، فهذا أول حال القدرية، ثم إن القدرية



بعد ذلك تراجعوا عن إنكار العلم السابق وأثبتوا العلم السابق، ولكن أنكروا قدرة الله في فعل العبد، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء قبل كونها.

وأما المرتبة الثانية: فهي أن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

فعندما خلق الله القلم قال له أكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب كل شيء، فأمره بكتابة كل شيء، كما ورد في حديث عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة... " الحديث"[١٣٨٧].

والمرتبة الثالثة: المشيئة فالله سبحانه وتعالى كما قال: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، فمشيئة الله عز وجل نافذة وتامة وواقعة ولا يقع في هذا الكون ما لا يشاء سبحانه وتعالى،

والمرتبة الرابعة: الخلق كما قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، وكما قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات:٩٦]، فهو سبحانه وتعالى خالق الأشياء.

فإذاً لابد أن نؤمن بأن من مراتب القدر العلم السابق، وأن الله سبحانه وتعالى أحاط بكل شيءٍ علما، فلابد من الايقان بذلك واعتقاد ذلك، وأن الذي قال إن الله لا يعلم فقد كفر بالله العظيم.

وأما أنواع التقدير:

فقد ذكر ابنُ القيّم **أقسامَ التَّقدير الخمسة**، وأَوْضَحَها بأدلَّتِها، وهي باختصار:

التقدير الأول: تقدير المِقادير قبل خَلق السَّماوات والأرض، وهو التقدير العام الشَّامل لكل شيءٍ في اللوح المحفوظ، وقد سبق ذِكر بعض الأدلة عليه.

١٣٨٧ أخرجه أحمد في مسنده (٣١٧/٥). وأبو داود في سننه (٧٦/٥، رقم٤٧٠٠). الترمذي في سننه (٤٢٤/٥، رقم٣٣١٩).

التقدير الثاني: تقدير الرَّبِّ -تبارك وتعالى- شقاوة العِباد وسَعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خَلْقِهم، وهو تقديرٌ ثَان بعد التقدير الأَوَّل، فعن عِمران بن حُصين قال: «قيل: يا رسول الله، عُلِمَ أهلُ الجَنَّة من أهل النَّار؟ فقال: «نَعَمْ». قيل: فَفِيم يعملُ العاملون؟ قال: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له» (١٣٨٨).

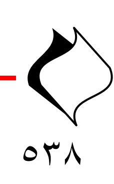
التقدير الثالث: المتَعَلِّق بالجنين وهو في بطن أُمِّه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصَّادقُ المصدوقُ: «إنَّ أحدَكم ليُجمع خَلْقُه في بَطن أُمِّه أربعين يومًا، ثُمَّ يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثُمَّ يكون في ذلك مُضغةً مثل ذلك، ثُمَّ يُرسل اللهُ إليه الملك؛ فيَنفخ فيه الرُّوح، ويُؤمر بأربع كلماتٍ؛ بكتبِ رزقِه وأجلِه وعملِه وشقي أو سعيد، فوالذي لا إلهَ غيرُه، إنَّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتَّى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيَسبق عليه الكتابُ فيَعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدَكم لَيعمل بعمل أهلِ النَّار حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذِرَاع فيَسبق عليه الكتابُ فيَعمل بعمل أهلِ الجَنَّة فيَدخلها» (١٣٨٩).

التقدير الرابع: التقدير في ليلة القَدْر؛ قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ١-٥].

قال أبو عبد الرَّحمن السُّلَمِيُّ: «يُقَدِّر أمرَ السَّنَة كلها في ليلة القَدْر»، وهذا هو الصَّحيح: أنَّ القَدْر مَصدر قَدَرَ الشيء يَقْدُرُهُ قَدْرًا، فهي ليلة الحُكم والتقدير.

(١٣٨٨) أخرجه البخاري (٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) واللفظ له.

(١٣٨٩) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).



التقدير الخامس: التقدير اليَومي؛ قال تَعَالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩].

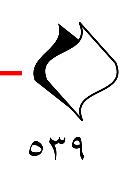
قال مجاهدٌ والكلبيُّ وعُبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: «مِن شأنِه: أن يُحيي ويُميت، ويَرزق ويَمنع، ويَنصر، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويَفك عانيًا، ويَشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويُعطي سائلًا، ويَتوب على قومٍ، ويكشف كربًا، ويَغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا، ويَرفع آخرين. دخل كلامُ بعضهم في بعض...».

إلى أن قال ابن القَيّم رحمه الله: «فهذا تقديرٌ يوميٌّ، والذي قبله تقديرٌ حَوْلِيٌّ، والذي قبلَه تقديرٌ عُمري عند تَعَلُّق النَّفس به، والذي قبله كذلك عند أَوَّل تخليقه، وكونه مضغة، والذي قبله تقديرٌ سَابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقديرٌ سابقٌ على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك الدليل على عِلم الرَّبِّ وقُدرته وحكمته، وزيادة التعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسِه وأسمائه» (١٣٩٠).

قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «واعلم أنَّ مَذهبَ أهلِ الحَقّ إثباتُ القَدَر، ومعناه: أنَّ الله-تبارك وتعالى-قَدَّر الأشياء في القِدَم، وعَلِمَ-سبحانه-أنَّها ستقع في أوقاتٍ معلومة عنده عز وجل، وعلى صفاتٍ مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قَدَّرها عز وجل، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه عز وجل لم يُقَدِّرها، ولم يتقدم علمُه عز وجل بها، وأنَّها مُستأنفة العلم، أي: إنَّما يَعلمها-سبحانه-بعد وقوعِها، وكذبوا على الله سُبحانه وتَعالى وجَلَّ عن أقوالهم الباطلة علوًّا كبيرًا.

وسُمِّيت هذه الفرقةُ قدريَّة؛ لإنكارهم القَدَر؛ قال أصحابُ المقالات من المتَكَلِّمين: وقد انقرضت القدريةُ القائلون بهذا القول الشَّنيع الباطل، ولم يَبق أحدٌ من أهل القِبلة

(١٣٩٠) «شفاء العليل» (ص٣١-٤٩).



عليه، وصارت القدريةُ في الأزمان المتأخرة تَعتقد إثبات القَدَر، لكن يقولون: الخير من الله، والشَّرُّ مِن غيره» (١٣٩١).

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٤٧] "«ولا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل وصداق» قل أو كثر، ومن لم يكن لها ولي فالسلطان ولي من لا ولي له".

(شرح)

أشار المصنف هنا إلى حديث: ((لا يحلُّ نكاحٌ إلا بوليّ وصداقٍ وشاهدَي عدلٍ))[١٣٩٢].

وقد تضمن الحديث بعض شروط عقد النكاح وهي:

١–الولي.

٢–وشاهدين عدل.

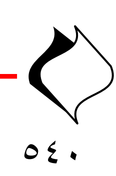
٣–والصداق الذي هو المهر.

ولعقد النكاح مجموعةٌ من الأركان التي لا يُنعقد إلا بها، وقد اختلف الفقهاء في عدد تلك الأركان، فمنهم من جعلها ركناً واحداً، ومنهم من جعلها أكثر من ذلك. ومن تلك الأركان:

صِيغَة العقد: وهو الرُّكنُ الوحيد المجمَع عليه بين فقهاء المذاهب بما فيهم: أبو حنيفة، وتَتَكوَّنُ الصّيغة من الإيجاب والقَبول،

(١٣٩١) «شرح النووي على مسلم» (١/ ١٥٤).

١٣٩٢رواه الألباني، في إرواء الغليل، عن الحسن البصري، الصفحة أو الرقم: ٦/٢٦٠، مرسل ورجاله ثقات رجال مسلم.



فالإيجاب: هو ما يَصدر من العاقد الأول سواء كان الزوج أو الزوجة أو وليّيهما أو وكيليهما.

والقَبول: هو ما يصـــدر من العاقد الثّاني كذلك وهما فيهما ســـواء، ويتحقّق الإيجاب والقبول باللّفظ، أي الكلام الذي به يَدلّ ويُعبّر فيه العاقد عن رغبته من إجراء العقد[١٣٩٣].

المَهر أو الصَّـــداق: وهو رُكنٌ من أركان عقد النّكاح عند الجمهور وشـــرطٌ له عند الحنفيّة، والدّليل عليه القرآن والسُّنة النبوية والإجماع.

ودليله من القرآن: قوله تعالى: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ)، [النساء، آية: ٤].

وأما السُـــنّة: فقول الرّســـول عليه الصّـــلاة والسّـــلام: (الْتمسْ ولَو خاتماً مِن حديدٍ)[١٣٩٤]، وذلك يَدُلُّ على اشتراطه، كما قال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام: (لا يحلُّ نكاحٌ إلا بوليٍّ وصداقٍ وشاهدَي عدلٍ)[١٣٩٥].

وأما الإجماع: فقد انعقد الإجماع على ذلك، فلا يَجوز التَّراضـــي على إســـقاط المهر من العقد.[١٣٩٦]

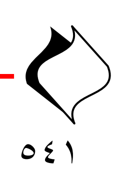
العاقِدان: وهما الزَّوج والزّوجة، وكلٌ منهما ركنٌ مُستقلّ بذاته، فلا ينعقد الزّواج بأحدهما فقط إلا إن وُجِد الآخر، ويُشـــتَرَطُ في الزّوجة أن تكون خاليةً من مَوانِع الزواج الشـــرعيّة، ومنها مثلاً أن تَكون مُتزَوّجَة بغيره، أو مُعْتَدَّة من طلاق لغيره، أو مُطلَّقة منه ثلاث طلقات ما لم تُحَلَّل، أو مُرتَدة، أو مَجوسية، أو وثَنِيَّة، أو أَمَة (عَبْدَةً)

١٣٩٣ الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي (الطبعة الرابعة)، دمشق: دار الفكر، صفحة ٢٩٤٣، جزء ٤. بتصرّف.

١٣٩٤ رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن سهل بن سعد الساعدي، الصفحة أو الرقم: ٥١٣٥.

١٣٩٥ رواه الألباني، في إرواء الغليل، عن الحسن البصري، الصفحة أو الرقم: ٦/٢٦٠، مرسل ورجاله ثقات رجال مسلم.

١٣٩٦ روضة المستبين في شرح كتاب التلقين لأبي محمد القرشي (الطبعة الأولى)، صفحة ٧٤٤، جزء ١. بتصرّف.



والنَّاكِحُ حُر، أو تَكونَ مَحْرَماً له، أو زوجةً خامِسَــة، أو يَكونُ مُتَزَوِّجاً بأخِتها وغيرها ممّن لا يجمع بينه وبينها، أو تكون مُحْرِمَةً بحجّ أو عمرة.[١٣٩٧]

الشُّــهود: فلا يَنْعَقِدُ النِّكاح إلا بِحُضُور شـاهدين من الرجال أو بحضـور رجلٍ وامرأتين، ويشـــترط فيهما أن يكونا مُســـلمين بالِغَين عاقِلين حُرَّيْن عَدلَين سَميعَيْن بَصيرَين عارِفَين لِسان المتَعاقِدَيْن[١٣٩٨].

الوَلِيّ: فَلَا يَصـــح النِّكاح إِلَّا بولِي، لقَوْله تَعَالَى: (فَلَا تَعْضُـــلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ)، [البقرة، آية: ٢٣٢] وقيل إن هذه الآية ســبب نزولها: (أن أختَ مَعقِلِ بنِ يَســارٍ طلَّقَها زوجُها، فترَكها حتى انقَضَــتْ عِدَّتُها فخطَبها، فأبَى مَعقِلٌ، فنزَلَتْ: (فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ) [البقرة، آية: ٢٣٢]).[١٣٩٩] وَعَن عَائِشَة رَضِي الله عَنْهَا أَن النَّبِي صـــلّى الله عَلَيْهِ وَســـلّم قَالَ: (أَيّمَا امْرَأَة نَكَحَت بِغَيْر إِذن وَليهَا فنكاحها بَاطِل ثَلَاثاً).[١٤٠٠] فَلَا تَصِـحُّ عبارَة الْمَرْأَة فِي عقد الزواج سـواءً كان ذلك إيجَاباً أم قبولاً، فَلا يجوز للمرأة البكر أن تزوّج نَفسـهَا بنفسـها حتى إن أذن لها الولي بذلك، وَلَا يجوز أن يزوّجها أحد غير وليها لَا بِولَايَة وَلَا بوكالة.[١٤٠١]

والوَلِيُّ لُغةً: هو القَريبُ، مِنَ الوَلْي، وهو القُربُ، ووَلِيَ الأمرَ: إذا قام به، وتولَّى الأمرَ، أي: تقَلَّدَه، وتولَّى فُلانًا: اتَّخَذه وليًّا.[١٤٠٢]

١٣٩٧ روضــة الطالبين وعمدة المفتين للنووي (الطبعة الثالثة)، بيروت: المكتب الإســلامي، صــفحة ٤٣، جزء ٧. بتصرّف.

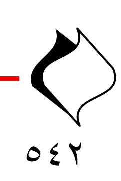
١٣٩٨ روضــة الطالبين وعمدة المفتين للنووي (الطبعة الثالثة)، بيروت: المكتب الإســلامي، صــفحة ٤٣، جزء ٧. بتصرّف.

١٣٩٩ رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن الحسن البصري، الصفحة أو الرقم: ٤٥٢٩.

١٤٠٠ رواه الإمام الشافعي، في الأم، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، الصفحة أو الرقم: ٦١١/٨، صحيح.

١٤٠١ كفاية الأخيار في حل غاية الاختصـار لأبي بكر الحسيني (الطبعة الأولى)، دمشـق: دار الخير، صـفحة ٢٥٦، جزء ١. بتصرّف.

١٤٠٢((تهذيب اللغة)) للأزهري (٣٢٣/١٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٠٧/١٥، ٤١١).



والوَلِيُّ اصْطِلاحًا: مَن له ولايةُ التصَرُّفِ في المالِ والنَّفسِ جَميعًا[١٤٠٣].

وقول المصنف: "**ومن لم يكن لها ولي فالسلطان ولي من لا ولي له**".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: "وإذا رضيت رجلًا، وكان كفئا لها، وجب علي وليها-كالأب ثم الأخ ثم العم-أن يزوجها به، فإن عضلها أو امتنع عن تزويجها زوجها الولي الأبعد منه، أو الحاكم بغير إذنه باتفاق العلماء، فليس للولي أن يجبرها على نكاح من لا ترضاه، ولا يعضلها عن نكاح من ترضاه إذا كان كفئًا باتفاق الأئمة وإنما يجبرها ويعضلها أهل الجاهلية والظلمة الذين يزوجون نساءهم لمن يختارونه لغرض، لا لمصلحة المرأة، ويكرهونها على ذلك أو يخجلونها حتى تفعل، ويعضلونها عن نكاح من يكون كفئا لها العداوة أو غرض، وهذا كله من عمل الجاهلية والظلم والعدوان، وهو مما حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم-، واتفق المسلمون على تحريمه، وأوجب الله على أولياء النساء أن ينظروا في مصلحتهن، لا في أهوائهم كسائر الأولياء والوكلاء ممن تصرف لغيره، فإنه يقصد مصلحة من تصرف له، لا يقصد هواه، فإن هذا من الأمانة التي أمر الله أن تؤدي إلى أهلها فقال تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)، [النساء: ٥٨]".[١٤٠٤]

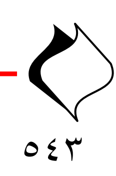
المتن

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[٤٨] "وإذا طلق الرجل امرأته ثلاثا فقد حرمت عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره".

١٤٠٣ ((المبسوط)) للسرخسي (٤/١٩٦).

١٤٠٤ مجموع الفتاوى:٣٢/ ٥٢.



الشرح

ثم ذكر قول جمهور العلماء في مسألة الطلاق أن من طلق امرأته ثلاثاً حرمت عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

وتعريف الطلاق

يُعرّف الطلاق لغةً بما يأتي:

- التحرّر من الشيء والتحلّل منه: وجمعه: أطلاق، والفعل منه: طَلَقَ، فيُقال: طلق المسجون؛ أي تحرّر من القيد، وطُلّقت المرأة من زوجها؛ أي تحلّلت منه، وخرجت عن عصمته.
- الانشراح والبسط والعطاء: وذلك حين يُقال: طلق يده بالخير؛ أي بسطها وبذلها للعطاء، وطلقه مالاً؛ أي أعطاه إياه.

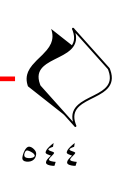
ويُعرّف الطلاق اصطلاحاً بأنّه: إزالة عقد النكاح بلفظٍ مخصوصٍ، أو بكلّ لفظٍ يدل عليه.

والنكاح الذي يُعتبر به الطلاق هو النكاح الذي وقع صحيحاً بكلّ شروطه وأركانه، والأصل فيه أن يكون بيد الزوج وحده، ولذلك جاء في بعض تعاريف الطلاق أنّه قطع النكاح بإرادة الزوج، ويصحّ أن يُنيب ويوكّل غيره بالطلاق، ويصحّ دون إنابةٍ، وذلك للقاضي وحده،[١٤٠٥] وتحصل الفُرقة بين الزوجين بالخلع أيضاً بناءً على طلب الزوجة أو وليّها إن لم تستطع الاستمرار في علاقتها مع زوجها بالنظر إلى الضوابط المحدّدة والمقرّرة،[١٤٠٦] كما قد يقع التفريق بين الزوجين من قِبل القاضي بناءً على عدّة شروطٍ واعتباراتٍ.[١٤٠٧] أنواع الطلاق قسّم الفقهاء

١٤٠٥ انظر: الموسوعة الفقهية (الطبعة الأولى)، الكويت: دار الصفوة، صفحة ٥، جزء ٢٩. بتصرّف.

١٤٠٦ انظر: "الخلع تعريفه وطريقته لمحمد صـــالح المنجد" "، www.islamqa.info، اطّلع عليه بتاريخ ٢-١٠-٢٠١٩. بتصرّف.

١٤٠٧ "قانون الأحوال الشخصية"، www.aliftaa.jo، اطّلع عليه بتاريخ ٢-١٠-٢٠١٩. بتصرّف.



الطلاق إلى عدة أنواع؛ وذلك بعدّة اعتباراتٍ، وتفصيل ذلك فيما يأتي:[١٤٠٨]

باعتبار الحِلّ والحُرمة يُقسم الطلاق من حيث موافقته للسنة وعدم موافقته إلى طلاقٌ سني وطلاقٌ بدعيّ، وفيما يأتي تفصيل كلّ واحدٍ منهما:[١٤٠٩]

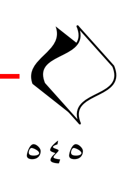
الطلاق السنيّ: وهو الطلاق الذي يقع وفق الضوابط والشروط التي وضعها الإسلام، وهذه الشروط هي: أن يقع بطلقةٍ واحدةٍ، وفي طُهرٍ لم يُجامع الرجل فيه زوجته، وتكمُن الحكمة من هذه الشروط بإعطاء الزوج فرصةً لمراجعة زوجته؛ فيطلّقها مرةً يعقبها رجعة، وأمّا الحكمة من عدم طلاقها حين الحيض؛ لئلا تطول مدة العدة عليها، إذ إنّ مدة الحيض لا تُحسب من العدة، فيكون الطلاق إضراراً بالزوجة، والدليل على طلاق السنة قول الله -تعالى-: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)،[الطلاق، آية: ١] كما حُرّم طلاق الرجل لزوجته في الطهر الذي جامعها فيه؛ إذ إنّها لا تعلم إن كانت حاملاً أم لا، وبالتالي فإنّها لا تعلم إن كانت ستعتدّ بالأقراء أم بوضع الحمل.

الطلاق البدعي: وهو الطلاق المخالف للضوابط والشروط التي وضعها الشارع للطلاق، كأن يطلق الرجل زوجته ثلاثاً بلفظٍ واحدٍ، أو مُتفرقات ولكن في مجلسٍ واحدٍ، أو كأن يُطلّقها حال الحيض أو النفاس، أو في طهر جامعها فيه، وقد أجمع العلماء على تحريم هذا النوع من الطلاق، وأنّ صاحبه آثم، وقد اختلف الفقهاء في وقوعه، وذهبوا في ذلك إلى قولين:

القول الأول: ذهب الجمهور من العلماء إلى وقوع الطلاق البدعي، واستدلّوا بعموم الآيات التي تتحدّث عن الطلاق، وقالوا بأنّ العموم يشمل الطلاق البدعي،

١٤٠٨ "أقسام الطلاق "، لفارس العزاوي، www.alukah.net، اطّلع عليه بتاريخ ٢٠١٩/٩/٢١.

١٤٠٩ فقه السنة لسيد سابق (الطبعة الأولى)، القاهرة: دار الحديث، صفحة ٦٣٩/٦٤٠.



واستدلوا أيضاً بأمر النبي–عليه السلام–لابن عمر أن يراجع زوجته التي طلّقها وهي حائض.

القول الثاني: ذهب كلٌّ من عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وطاووس وابن تيمية وابن القيم والظاهرية إلى عدم وقوع الطلاق البدعي، واستدلّوا بأن عموم الآيات التي تتحدث عن الطلاق لا يشملها الطلاق البدعي؛ لأنّه ليس من الطلاق الذي أذن الله به بل أمر بخلافه. باعتبار الرجعة وعدمها يحرص الإسلام على حفظ العلاقة الزوجية واستمرارها، وفي حال الطلاق فقد أذن الله للرجل بأن يُراجع امرأته ويردّها إلى عصمته في بعض الحالات،

وفيما يأتي تفصيل أنواع الطلاق باعتبار الرجعة وعدمها:[١٤١٠]

الطلاق الرجعي: وهو الطلاق الذي يجوز معه الزوج أن يُرجع زوجته إلى عصمته خلال فترة العدة بعد الطلقة الأولى والثانية دون عقدٍ جديدٍ.[١٤١١]

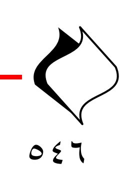
الطلاق البائن: وهو الطلاق الذي يرفع قيد النكاح على الفور، وتترتب عليه آثار الطلاق في الحال، ويُقسم إلى:

طلاق بائن بينونة صغرى: وهو الطلاق الذي يقع بعد انتهاء عدة الطلقة الأولى أو الطلقة الثانية، ويكون الرجوع بعد الطلاق البائن بينونة صغرى بعقدٍ جديدٍ.

طلاق بائن بينونة كبرى: وهو الطلاق الذي يقع بعد الطلقة الثالثة، ولا يحلّ للزوج مُراجعة زوجته إلّا بعد مُضي العدة، وزواجها برجلٍ غيره وانفصالها عنه بموتٍ أو طلاقٍ، ثُم انقضاء عدّتها، فإذا حصل ذلك جاز للزوج الأول الرجوع إليها بعقدٍ جديدٍ، لقول الله تعالى: (فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).[البقرة، آية: ٢٣٠] وممّا يترتب على المرأة بسبب

١٤١٠ الموسوعة الفقهية (الطبعة الأولى)، الكويت: دار الصفوة، صفحة ٢٩–٣٠، جزء ٢٩. بتصرّف.

١٤١١ "الطلاق الرجعي والبائن"، www.al-eman.com، اطّلع عليه بتاريخ ٢–١٠–٢٠١٩. بتصرّف.



الفُرقة بينها وبين زوجها العدة الواجبة بأدلة الكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قول الله: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ)،[البقرة، آية: ٢٢٨] وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)،[البقرة، آية: ٢٣٤].

وأمّا من السنة فقول النبي عليه الصلاة والسلام: ((لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ، تُحِدُّ علَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إلَّا علَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْرًا)).[١٤١٢]

المتن

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

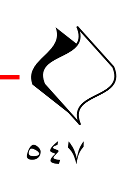
[٤٩] "ولا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمدا رسول الله عبده ورسوله إلا بإحدى ثلاث: زان بعد إحصان، أو مرتد بعد إيمان، أو قتل نفسا مؤمنة [بغير حق] فيقتل به، وما سوى ذلك فدم المسلم على المسلم حرام [أبدا] حتى تقوم الساعة".

(الشرح)

لما ورد في الحديث عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)) (١٤١٣)

١٤١٢ رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، الصفحة أو الرقم: ١٢٨١.

١٤١٣ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: ٤٥]، برقم (٦٨٧٨)، وصحيح مسلم كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ، بَابُ مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ، برقم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والترمذي (٣٢٨١)، وابن ماجه (٢٥٣٤)، والنسائي (٤٠١٦)، والإمام أحمد في المسند مِنْ مُسْنَدِ بَنِي هَاشِمٍ (١٩٥٦)، والدارمي (٢٣٤٤).



وهذا الحديث قاعدة من قواعد الدين الحنيف الذي يقرر حفظ نفس المسلم من الهلاك إلا عندما يرتكب جريمة الزنا أو القتل والردة، بأسلوب رادع زاجر[١٤١٤].

وقال ابن حجر الهيتمي-رحمه الله -: وهو من القواعد الخطيرة؛ لتعلقه بأخطر الأشياء، وهو الدماء، وبيان ما يحل منها وما لا يحل، وإن الأصل فيها العصمة، وهو كذلك عقلًا؛ لأنه مجبول على محبة بقاء الصور الإنسانية المخلوقة في أحسن تقويم[١٤١٥]

وقوله في الحديث:

((**لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ**))؛ أي: لا يجوز إراقته، والحكم شامل للرجال والنساء، كما لا يجوز قتل مسلم بشبهة أو اختلاف رأي، كما قال القرطبي-رحمه الله-: "ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف"[١٤١٦]؛ قال تعالى :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

((**إلا بإحدى ثلاثٍ**))؛ أي: خصال ثلاث.

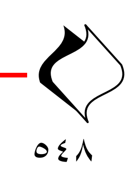
((**الثيب الزاني**)) وهو من تزوج ووطئ في نكاح صحيح، وزنا بعد ذلك، سواءٌ أكان ذكرًا أم أنثى، إذا كان بالغًا عاقلًا حرًّا، وعقوبته الرجم، وهو الرمي بالحجارة حتى الموت؛ لأنه مشروع في حقه، وقد رجم نبي الله صلى الله عليه وسلم ماعزًا والغامدية، وكذا اليهوديين.

((**والنفس بالنفس**))؛ أي: تقتل النفس في مقابلة النفس؛ أي: قصاصًا بشرطه؛ قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ البقرة: [١٧٨]، وقال تعالى :﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ويستدل به

١٤١٤ الإلمام (٣٣٤).

١٤١٥ فتح المبين (١٣٣).

١٤١٦ تفسير القرطبي (٢/ ٣٤).



– أي الحديث – أصحاب أبي حنيفة – رضي الله عنهم في قولهم –: يقتل المسلم بالذمي، ويقتل الحر بالعبد [١٤١٧].

((**التارك لدِينه**))؛ أي: المرتد عنه لغير الإسلام فيقتل، ما لم يعُدْ إلى الإسلام؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ((من بدَّل دِينه، فاقتلوه)) [١٤١٨]، ولأن العلة التبديل، وقد وجد.

فائدة: "استدل كثير من العلماء بهذا الحديث على أن تارك الصلاة لا يقتل بتركها؛ لكونه ليس من هؤلاء الثلاثة، أما ابن القيم–رحمه الله –فقال: إن هذا الحديث حجة في قتل تارك الصلاة، فإن تارك الصلاة تارك لدينه؛ فالصلاة ركن الدين الأعظم، لا سيما إذا قلنا: إنه كافر، فقد ترك دينه بالكلية." [١٤١٩]

((**المفارق للجماعة**))؛ أي: المفارق لجماعة المسلمين بترك دينه، فهي صفة موضحة ومؤكدة؛ لأن من ترك دين الإسلام، لم يعد يتقيد بشيء مما عليه جماعة المسلمين.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:"

[٥٠] "وكل شيء مما أوجب الله عليه الفناء يفنى، إلا الجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والصور، ليس يفنى شيء من هذا أبدا، ثم يبعث الله الخلق

١٤١٧ شرح مسلم للنووي (١١/ ١٣٧ ح ١٦٧٦).

١٤١٨ رواه البخاري (٢/ ٣٦٣ ح ٣٠١٧).

١٤١٩ توضيح الأحكام (٥/ ١٧١)، الصلاة وحكم تاركها، لابن القيم (٣٤).

على ما ماتوا عليه يوم القيامة، فيحاسبهم بما شاء، فريق في الجنة وفريق في السعير، ويقول لسائر الخلق ممن لم يخلق للبقاء كونوا ترابا".

الشرح

قول المصنف: **"وكل شيء مما أوجب الله عليه الفناء يفنى، إلا الجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والصور، ليس يفنى شيء من هذا أبدا"**

قال الله عز وجل :{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن ٢٦:٢٧]، فالله سبحانه وتعالى كتب الفناء لكن هذا الفناء لا يقع على كل الخلق، وإنما هناك من الخلق ما لم يكتب الله عز وجل عليه الفناء، من ذلك: الجنة، والنار، والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، والصور، فهذه لا تفنى، هذه مستثناة من الفناء، وبقية المخلوقات تفنى ويتم تبديل السموات والأرض كما هو وارد في النصوص.

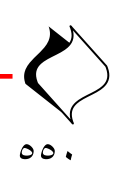
فقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى كالجنة والنار والعرش[١٤٢٠].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما العرش فلم يكن داخلا فيما خلقه في الأيام الستة ولا يشقه ويفطره، بل الأحاديث المشهورة دلت على ما دل عليه القرآن من بقاء العرش، فقد ثبت في الصحيح أن جنة عدن سقفها عرش الرحمن قال صلى الله عليه وسلم: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن""[١٤٢١].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في المراد بالمستثنى في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى

١٤٢٠ الفتاوى (٣٠٧/١٨).

١٤٢١ نقض التأسيس (١٥٥/١).



فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) [الزمر: ٦٨] إلى أقوال كثيرة، وقد ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) بقوله:

"وحاصل ما جاء في ذلك عشرة أقوال:

الأول: أنهم الموتى كلهم لكونهم لا إحساس لهم فلا يصعقون، وإلى هذا جنح القرطبي في (المفهم) وفيه ما فيه، ومستنده أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، وتعقبه صاحبه القرطبي في (التذكرة) فقال: قد صح فيه حديث أبي هريرة.

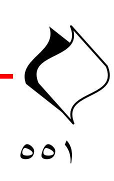
الثاني: وفي الزهد لهناد بن السري عن سعيد بن جبير موقوفاً: (هم الشهداء)، وسنده إلى سعيد صحيح وهذا هو القول الثاني.

الثالث: الأنبياء، وإلى ذلك جنح البيهقي في تأويل الحديث في تجويزه أن يكون موسى ممن استثنى الله، قال: ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم كالشهداء فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى صعقوا ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون موسى ممن استثنى الله، فإن كان منهم فإنه لا يذهب استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع له في صعقة الطور.

ثم ذكر أثر سعيد بن جبير في الشهداء وحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((أنه سأل جبريل عن هذه الآية من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم شهداء الله عز وجل)).[١٤٢٢] صححه الحاكم ورواته ثقات ورجحه الطبري.

الرابع: قال يحي بن سلام في تفسيره: "بلغني أن آخر من يبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يموت الثلاثة ثم يقول الله لملك الموت مت فيموت". قلت: وجاء نحو هذا مسنداً في حديث أنس أخرجه البيهقي وابن مردويه

١٤٢٢ رواه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/٢٧٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في ((التلخيص)): صحيح على شرط البخاري ومسلم. وقال ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٢٩/٦١٧): إسناده صحيح. وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/٣٧٨): رواته ثقات.



بلفظ: "فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبريل وميكائيل وملك الموت" الحديث، وسنده ضعيف.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن إسماعيل ووصله إسماعيل بن أبي زياد الشامي في تفسيره عن ابن عباس مثل يحي بن سلام ونحوه عن سعيد بن المسيب أخرجه الطبري وزاد "ليس فيهم حملة العرش لأنهم فوق السماوات".

الخامس: يمكن أن يؤخذ مما في الرابع.

السادس: الأربعة المذكورون وحملة العرش، وقع ذلك في حديث أبي هريرة الطويل المعروف بحديث الصور وقد تقدمت الإشارة إليه وأن سنده ضعيف مضطرب، وعن كعب الأحبار نحوه وقال: هم اثنا عشر، أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه البيهقي من طريق زيد بن أسلم مقطوعاً ورجاله ثقات.

وجمع في حديث الصور بين هذا القول وبين القول إنهم الشهداء، ففيه فقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله فمن استثنى حين الفزع؟ قال: ((الشهداء)) ثم ذكر نفخة الصعق على ما تقدم.

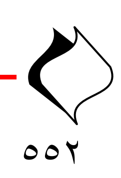
السابع: موسى عليه السلام وحده، أخرجه الطبري بسند ضعيف عن أنس وعن قتادة وذكره الثعلبي عن جابر.

الثامن: الولدان الذين في الجنة والحور العين.

التاسع: هم وخزان الجنة والنار وما فيها من الحيات والعقارب، حكاهما الثعلبي عن الضحاك بن مزاحم.

العاشر: الملائكة كلهم، جزم به أبو محمد بن حزم في الملل والنحل فقال: الملائكة أرواح لا أرواح فيها، فلا يموتون أصلاً.

وأما ما وقع عند الطبري بسند صحيح عن قتادة قال: قال الحسن: يستثني الله وما يدع أحدا إلا أذاقه الموت فيمكن أن يعد قولاً آخر.



قال البيهقي: "استضعف بعض أهل النظر أكثر هذه الأقوال لأن الاستثناء وقع من سكان السماوات والأرض وهؤلاء ليسوا من سكانها؛ لأن العرش فوق السماوات فحملته ليسوا من سكانها، وجبريل وميكائيل من الصافين حول العرش، ولأن الجنة فوق السماوات والجنة والنار عالمان بانفرادهما خلقتا للبقاء".

ويدل على أن المستثنى غير الملائكة ما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وصححه الحاكم من حديث لقيط بن عامر مطولاً وفيه: ((يلبثون ما لبثتم ثم تبعث الصائحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من أحد إلا مات حتى الملائكة الذين مع ربك)) [١٤٢٣]

.ولعل الذي تطمئن إليه النفس من هذه الأقوال هو ما ذكره الحسن رحمه الله: من أن الله سبحانه وتعالى يستثني، وهو أعلم بما استثناه. فقد يتناول الاستثناء هذه الأقوال جميعاً، وقد يتناول غيرها، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله جل جلاله، فإنه عز وجل قد ذكر ذلك على سبيل الإطلاق"[١٤٢٤]. "ولا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع"[١٤٢٥]، فلا سبيل إلى العلم بذلك إلا عن طريق الخبر، إما من كتاب الله عز وجل، وإما عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وبكل حال: النبي صلى الله عليه وسلم قد توقف في موسى عليه السلام، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه أم لا؟

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بكل من استثنى الله؛ لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم

١٤٢٣ رواه أحمد في ((المسند)) (٤/١٢) (١٦٢٥١). قال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/٧٢): غريب جدا وألفاظه في بعضها نكارة. وضعف إسناده الألباني في ((تخريج كتاب السنة)) (٦٣٦).

١٤٢٤ انظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/٢٦١).

١٤٢٥ ((تفسير القاسمي)) سورة الزمر ٦٨.

يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم" [١٤٢٦].

وعلى هذا فالذي يظهر والله أعلم أن الملائكة عليهم السلام يموتون كما يموت غيرهم من الجن والإنس، أما المستثنى فعلمه عند الله[١٤٢٧].

المتن

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥١] "والإيمان بالقصاص يوم القيامة بين الخلق كلهم، بني آدم والسباع والهوام حتى للذرة من الذرة، حتى يأخذ الله لبعضهم من بعض؛ لأهل الجنة من أهل النار، وأهل النار من أهل الجنة وأهل الجنة بعضهم من بعض وأهل النار بعضهم من بعض".

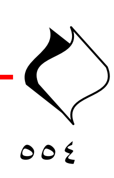
(الشرح)

وهذه مسائل من مسائل اليوم الآخر فيما يتعلق في النفخ في الصور ثم بعد ذلك يُبعث الخلق على ما ماتوا عليه يوم القيامة، بحسب ما كان من حالهم في هذه الدنيا، ثم يكون الحساب بعد الحشر، وبعد أن يأذن الله سبحانه وتعالى بالقضاء بين الخلائق بعد شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك يبقى الناس إما فريق إلى الجنة وإما فريقٌ إلى السعير، فهناك فريق في الجنة وفريق في السعير، هذا مما كتب الله سبحانه وتعالى عليهم الحساب.

أما الحيوانات ونحو ذلك فهذه كتب الله عليها الفناء، ولذلك الكافر يوم القيامة يقول: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}، يتمنى أن يكون تراباً؛ لأن القصاص عندما يقتص الله سبحانه وتعالى حتى للحيوانات من بعضها بعضاً فيُقتص حتى للشاة الجلحاء من

١٤٢٦ ((مجموع الفتاوى)) (٤/٢٦١).

١٤٢٧ المصدر: المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع لمجموعة مؤلفين – بتصرف – ص: ٦٩٣



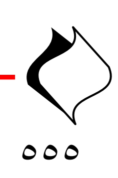
الشاة القرناء، أي من الشاة التي ليس لها قرون يُقتص لها من الشاة التي لها قرون، فيؤخذ حق هذا من هذا، ثم بعد ذلك يكتب الله سبحانه وتعالى على تلك الحيوانات أنها تكون ترابا.

ويدخل بعد ذلك أن الجنة أو النار يدخلها المكلفون، وهم الإنس والجن، فالقصاص سيكون بين الخلائق كلهم، والله سبحانه وتعالى يقتص لكل أحد من كل أحد بحسب ما عليه، ومعلوم أن القصاص بين الخلق إنما يكون في الحسنات والسيئات، فإذا كان للمسيء حسنات إذا كان لهذا المسيء أو لهذا الإنسان الذي أساء على ذلك الإنسان حسنات أُخذ من حسناته.

إذا لم يكن له حسنات يؤخذ من سيئات المظلوم وتكون في ميزان ذلك الظالم، إلى أن يقتص للجميع، وقد يتحمل الله عز وجل عن بعض خلقه، يتحمل عنهم سبحانه وتعالى شيئاً من ذلك، فيُبدل ذلك الأمر بحسنات أو يعني يُعطى ذلك الإنسان بما يعني يزيل عنه تلك المظلمة، فالقصاص واقع، ولذلك معلومٌ أن أمر العباد كما قال العلماء: مبنيٌ على التشاح، ما بينك وبين الله عز وجل مبني على العفو، وقد يعفو الله عز وجل عنك، أما ما بينك وبين العباد فإنه لابد من القصاص.

ولذلك احذر أشد الحذر أن تكون لك مظلمة على مسلم، أو على أي إنسان، احذر أشد الحذر من الظلم، فالظلم ظلمات يوم القيامة، والله تعالى كما قال في الحديث القدسي: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما)) (١٤٢٨)، ودائمًا الإنسان كما قال الله سبحانه وتعالى في شأنه: {كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق٧:٦]، فقد يكون هناك مخدوم لديك، أو

١٤٢٨ انظر صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، برقم (٢٦٨٧)، والترمذي (٢٤٩٥) قال عقبه هذا حديث حسن، وابن ماجه (٤٢٥٧)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْأَنْصَارِ (٢١٤٢٠)، والدارمي (٢٨٣٠).

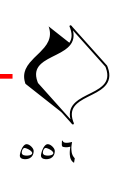


عامل لديكِ، أو موظف لديك، أو سـائق لديك أو نحو ذلك فالنفس دائماً تحمل الإنسان على الظلم.

{وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ}، النفس فيها حقها من الشح، وفيها حقها من الاستعلاء والظلم، ولذلك على الإنسان أن يكون متفقدًا لنفسه في معاملته مع الآخرين وإياك والظلم، فذلك العامل، أو ذلك السائق، أو تلك الخادمة، أو ذلك الموظف ونحو ذلك لضعفه وقلة حيلته لا يستطيع أن يرفع تلك المظلمة عن نفسه وقد يسكت، وقد يتأذى منك من معاملتك وبعد ذلك تأتي يوم القيامة وإذا عليك من الأوزار والأمور ما الله به عليم.

فعند ذلك لابد من القصاص، فيجب تقوى الله عز وجل فيمن تحتنا من الخدم، ومن العاملين، نتقي الله عز وجل في ذلك، لأن المعاملة معهم يومية، في اليوم الواحد أن تحتاجه في عدة أمور إياك أن تكون ممن يظلم هؤلاء، أو يأخذ شيئاً من حقوقهم أو أن يهينهم ونحو ذلك فهذا من الظلم الذي حرمه الله سبحانه وتعالى على نفسه وجعله بيننا وبين العباد محرما.

فلابد من القصاص فتأمل هذا النص لابد أن يقتص كل أحد من كل أحد، ثم أنت في تلك اللحظة لو جاءك أعز الناس إليك {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس٣٧:٣٤]، لو قيل لك في ذلك اليوم بأعز الناس إليك حسنة واحدة ستقول نفسي نفسي، أولاً أنا أنجو النجاة لنفسي ثم إذا نجوت سل ما تشاء، فكيف إذا جيء في القصاص وأُخذ من حسناتك، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :«أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار، قال: بل المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة



وزكاة وصيام وصدقة ولكن يؤخذ من حسناته لهذا ولهذا حتى لا يبقى من حسناته شيء، ثم يؤخذ من سيئاتهم ثم يُكب في النار».(١٤٢٩)

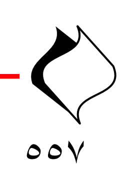
فانظر إلى هذا المفلس فإنه صاحب صلاة وصيام وصدقة وطاعات، لكنه ذو معاملة سيئة للناس، والنتيجة: أنه أفلس يوم القيامة فلم يعد عنده رصيد كل الرصيد سُحب بسبب الظلم الحاصل منه، فقد يظلم الإنسان زوجه قد يظلم الإنسان قريبه قد يظلم أهله، إلى غير ذلك من أنواع المظالم، فلماذا لا نكون متحسسين مع أنفسنا في جميع معاملاتنا، لماذا نخسر تلك الحسنات التي جمعناها، لماذا نضيعها ولابد يوماً أن يأتي هذا الحساب وهذا القصاص.

فإذا كنا بهذا الحال فنحن كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ممن أفلس والله المستعان، نعم.

ثم تنشر صحائف الأعمال؛ فإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ؛ فالناس على هذين الحالين؛ كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩]، فيجد في نفسه من السعادة والفرح بهذه الحال؛ لأنه قد آمن وصدق وعمل لهذا اليوم، فوجد ثمرة ذلك وثوابه عند الله سبحانه وتعالى، وأمَّا حال الآخر فقد قال الله عز وجل عنه: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} [الحاقة: ٢٥-٢٩]، ثم يكون الجزاء: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} [الحاقة: ٣٠-٣٢].

فالله يجازي الناس بأعمالهم؛ فإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وإمَّا آخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّرَاءِ ظَهْرِهِ، ثم يبدأ بعد ذلك الحساب.

١٤٢٩ انظر صحيح مسلم كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، برقم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨) قال عقبه هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٨٠٢٩).



فالمؤمن حسابه عرضٌ وتقرير وليس حساب نقاش؛ لأنَّ من نوقش الحساب عذاب؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنه، قالت: قال رسول الله ﷺ :«مَن حُوسب يوم القيامة عُذِّب»، فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: {فسوف يحاسب حسابا يسيرا} [الانشقاق: ٨]؟ فقال: «ليس ذاك الحساب، إنَّما ذاك العَرْضُ؛ مَن نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب١٤٣٠» .

فيُقرر اللهُ العبدَ المؤمنَ بما فعل في الدنيا، كما جاء في الحديث: «إنَّ الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه ويَستره، فيقول: أتعرف ذنبَ كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته، وأمَّا الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} [هود: ١٨١٤٣١]".

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٢] "وإخلاص العمل لله".

الشرح

إخلاص العمل لله هو أساس العمل، فركني العمل: الإخلاص والإتباع، فإذا كان العمل خالصاً وفق السنة قُبل، أما إذا اختل الإخلاص أو اختل الإتباع لا قيمة لعملٍ تعمله، {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، فلابد من إخلاص العمل لله عز وجل، والإخلاص أشد الأشياء على النفس.

١٤٣٠ أخرجه البخاري (٦٥٣٦) ومسلم (٢٨٧٦).

١٤٣١ أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

كما قال أهل العلم: "عالجت نفسي في كل شيء فما وجدت أشد علي من نيتي لأنها تتقلب علي" [١٤٣٢] فالنفس دائماً تسعى لحظها، ولذلك أنت معها في جهاد، فاحرص أشد الحرص على الإخلاص، أن تكون مخلصاً في عملك، كما جاء في الحديث: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)) (١٤٣٣)، فبحسب تلك النية التي عقدت عليها ذلك العمل بحسب ما يكون قبول هذا العمل.

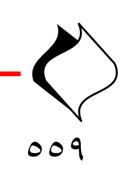
ولذلك جاء في الحديث: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من أشرك معي في عملٍ غيري تركته وشركه)) (١٤٣٤)، فالله تعالى غني، لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، فلابد أن تُخلص العمل لله عز وجل، وكما قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ}، فيسعى العبد إلى ما عند الله عز وجل ويطلب ما عنده عز وجل سيكفيه ويغنيه ويعطيه، وكل عملك أيها لإنسان كُتب وأنت في بطن أمك، كُتب رزقك وكُتب الأجل وكُتب كل شيء في حياتك.

فهذا العمل الذي أنت تُقدم عليه أخلصه لله عز وجل واجعله لوجهه سبحانه وتعالى لا تكن ممن أراد به شيئاً من الدنيا، لأنك إن أردت شيئاً من ذلك فاعلم أن الله تبارك وتعالى لا يقبل أن يكون معه شريك في العمل، لذلك الإخلاص عزيز، ومن أصعب الأشياء.

١٤٣٢ قاله سفيان الثوري، انظر قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد الجزء الثاني، صفحة (٢٦٤).

١٤٣٣ انظر صحيح البخاري بَابُ بَدْءِ الوَحْيِ برقم (١)، ومسلم كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْغَزْوُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، والنسائي (٧٥)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ (١٦٨).

١٤٣٤ انظر صحيح مسلم كِتَابُ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ برقم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٧٩٩٩).



وضد الإخلاص الشرك، والشرك كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: ((الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل)) (١٤٣٥).

ولما سمع أبو بكر هذا بكى وقال: "وما النجاة والمخرج يا رسول الله؟ " قال: ((أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم))، وفي رواية: ((وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم)) (١٤٣٦)، هذا الدعاء يهجره الناس كثيراً بينما نحتاجه في كل وقت، أن نسأل الله عز وجل أن يعفو عنا ما قد يقع من خللٍ في نياتنا، وفي نوايانا، فعلينا بالإخلاص.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٣] "والرضا بقضاء الله".

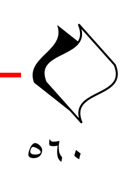
الشرح

ثم ذكر المصنف ما يتعلق بالرضا بقضاء الله والصبر على حكم الله، فهنا مقامان: مقام الرضا ومقام الصبر، ومقام الرضا أعظم من مقام الصبر، لأنك قد تصبر ولكن قد لا تكون راضيًا، فلابد من الإيمان بقضاء الله وقدره والصبر على حكمه، والرضا بقضائه سبحانه وتعالى.

فإذا أردت أن ينتظم لك التوحيد فعليك بالإيمان بقضاء الله وقدره، يجب أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وبحمد الله لدى أهل الإيمان هذه النعمة العظمى، الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره،

١٤٣٥ انظر مسند الإمام أحمد أَوَّلُ مُسْنَدِ الْكُوفِيِّينَ برقم (١٩٦٠٦)، قال الشيخ الالباني في تحقيق الإيمان لابن تيمية صفحة (٥٨): صحيح.

١٤٣٦ انظر الأدب المفرد (٧١٦)، صححه الشيخ الالباني في صحيح الأدب المفرد صفحة (٢٦٦).



فلدى المسلم كنز من الكنوز التي أعطاها الله عز وجل لأهل الإيمان، بأن الإنسان إذا أصابته مصيبة قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، واسترجع وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون وصبر على قضاء الله وقدره، ورضي بقضاء الله عز وجل وقدره، فهذا يعطيه السكينة والطمأنينة في النفس فلا يجزع ولا يسخط ولا يقول قولاً كفرياً ولا يصيبه ما يصيب أولئك الذين ما آمنوا بقضاء الله وقدره.

ولذلك قال ابن عباس: "القدر نظام التوحيد"(١٤٣٧)

هناك فرق بين الصبر والرضا، فرق في التعريف، وفرق في الحكم[١٤٣٨].

أما الحكم، فالصبر واجب، بحيث يأثم الإنسان إذا لم يصبر على ما أصابه من مكروه، ويعرض نفسه بهذا لعقوبة الله تعالى.

وأما الرضا، فهو درجة أعلى من الصبر، وهي درجة السابقين بالخيرات، ولذلك كانت مستحبة وليست واجبة، فلا يأثم المسلم إذا لم يصل إليها، غير أنه مطالب بمجاهدة نفسه والشيطان حتى يصل إلى تلك الدرجة العالية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل: مستحب في أحد قولي العلماء وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر"[١٤٣٩].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "فما يقع من المصائب يستحب الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا يجب، لكن يجب الصبر عليه "[١٤٤٠]

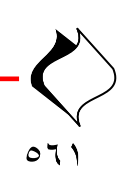
وأما الفرق بين الصبر والرضا في التعريف، فالصبر هو أن يمنع الإنسان نفسه من فعل شيء، أو قول شيء يدل على كراهته لما قدره الله، ولما نزل به من البلاء، فالصابر

١٤٣٧ انظر القدر للفريابي صفحة (١٤٣)، وضعفه الشيخ الالباني انظر ضعيف الجامع الصغير صفحة (٦٠٢).

١٤٣٨ المصدر: موقع الإسلام سؤال وجواب.

١٤٣٩ مجموع الفتاوى (١٠/٦٨٢).

١٤٤٠ "مجموع فتاوى ابن عثيمين "(٢/٩٢).



يمسك لسانه عن الاعتراض على قدر الله، وعن الشكوى لغير الله، ويمسك جوارحه عن كل ما يدل على الجزع وعدم الصبر، كاللطم وشق الثياب وكسر الأشياء وضرب رأسه في الحائط وما أشبه ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله: "الصبر: حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله، والقلب عن التسخط، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها"[١٤٤١].

وأما الرضا فهو صبر وزيادة، فالراضي صابر، ومع هذا الصبر فهو راضٍ بقضاء الله، لا يتألم به.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "الصبر: يتألم الإنسان من المصيبة جدا ويحزن، ولكنه يصبر، لا ينطق بلسانه، ولا يفعل بجوارحه، قابض على قلبه، موقفه أنه قال: (اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها)، (إنا لله وإنا إليه راجعون)... الرضا: تصيبه المصيبة، فيرضى بقضاء الله.

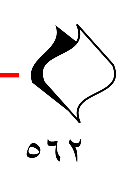
والفرق بين الرضا والصبر: أن الراضي لم يتألم قلبه بذلك أبدًا، فهو يسير مع القضاء (إن إصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له)، ولا يرى الفرق بين هذا وهذا بالنسبة لتقبله لما قدره الله عز وجل، أي إن الراضي تكون المصيبة وعدمها عنده سواء"[١٤٤٢]

ومجرد شعور الإنسان بالضيق وعدم التحمل، وتمنيه أن ما وقع به من الشدة لم يكن وقع.

كل هذا لا ينافي الصبر، مادام قد أمسك قلبه ولسانه وجوارحه عن كل ما يدل على الجزع، وما دام لم يعترض على قضاء الله تعالى، بل الصبر في الغالب لا يكون إلا مع هذا الضيق والمشقة والتعب.

١٤٤١ "عدة الصابرين" (ص/٢٣١).

١٤٤٢ "مجموع فتاوى ابن عثيمين "(٣/٢٠٦).



وأما الراضي: فلا يجد ذلك الضيق والألم؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لن يختار له إلا ما هو خير، فهو يتقلب فيما يختاره الله بنفس راضية مطمئنة.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "الصبر مثل اسمه مر مذاقه... لكن عواقبه أحلى من العسل فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا، ولكن إيمانه يحميه من السخط.

والرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، وإن كان قد يحزن من المصيبة ؛ لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة، أو أُصيب بضدها، فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت، بل لتمام رضاه بربه سبحانه وتعالى يتقلب في تصرفات الرب عز وجل، ولكنها عنده سواء، إذ ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه"[١٤٤٣]

وهناك درجة أعلى من الرضا وهي درجة الشكر، بأن يشكر الإنسان الله تعالى على ما أصابه من بلاء وشدة، فيرى أن ما أصابه كان نعمة من الله ولذلك يقوم بشكرها.

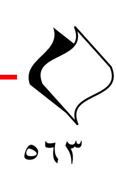
ويصل الإنسان إلى درجة الصبر ثم الرضا ثم الشكر بما يأتي:

١- أن ينظر إلى اختيار الله تعالى له، وأن الله لن يختار له إلا الخير.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))[١٤٤٤]

١٤٤٣ "مجموع فتاوى ابن عثيمين" (٦٩٢/١٠).

١٤٤٤ رواه مسلم (٢٩٩٩).



٢- أن يتأمل فيما أصابه: فإنه سبب لتكفير ذنوبه، حتى يلقى الله تعالى طاهرا من الخطايا، قال صلى الله عليه وسلم: ((مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))[١٤٤٥]

٣- أن ينظر إلى ما أصابه وأن الله تعالى رفق به فيه، فكم من الناس أصيب بما هو أشد من ذلك وأعظم؟

قال ابن القيم: بعد أن ذكر الصبر والرضا: "عبودية العبد لربه في قضاء المصائب الصبر عليها، ثم الرضا بها وهو أعلى منه، ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا، وهذا إنما يتأتى منه، إذا تمكن حبه من قلبه، وعلم حسن اختياره له وبره به ولطفه به وإحسانه إليه بالمصيبة، وإن كره المصيبة"[١٤٤٦].

٤- أن ينظر إلى عواقب الابتلاء والشدة، وأن الله يسوقه إليه بهذه الشدة التي تجعله يكثر من ذكر الله تعالى ودعائه والتضرع إليه.

٥- أن ينظر إلى ثواب الصبر والرضا (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ))[١٤٤٧] ورضا الله تعالى عن العبد أعظم من دخول الجنة، قال الله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة:٧٢]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: ((يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ))، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا

١٤٤٥ رواه الترمذي، وصححه الألباني في "سنن صحيح الترمذي".

١٤٤٦ الفوائد (١/١١٢-١١٣).

١٤٤٧ رواه الترمذي وصححه الألباني في "سنن صحيح الترمذي ".



وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: ((هَلْ رَضِيتُمْ؟)) فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: ((أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ!)) فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: ((أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا))[١٤٤٨].

قال ابن القيم: بعد أن ذكر نحوا من هذه الأسباب التي تعين العبد على الرضا بقضاء الله تعالى: "فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر "[١٤٤٩].

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٤] "والصبر على حكم الله".

الشرح

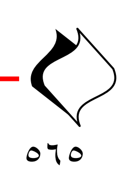
وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فضل الصبر.

الصبر من أعظم خصال الخير التي حث الله عليها في كتابه العظيم، وأمر بها رسوله الكريم–صلى الله عليه وسلم–في سنته المطهرة، وقد وردت مادة **(صبر)** في القرآن الكريم في مائة وأربعة مواضع، على تنوع في مواردها وأسباب ذكرها.

١٤٤٨ رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

١٤٤٩ "طريق الهجرتين "(٤١٧/١).



فقد أمر الله نبيه بخلق الصبر فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى :﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأمر الله به المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأثنى على أهله، فقال تعالى: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأخبر بمحبته للصابرين، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ومعيَّته لهم، فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وأخبر أن الصبرَ خير لأصحابه، فقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

ووعدهم أن يجزيهم أعلى وأوفى وأحسن مما عملوه، فقال تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالى :﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وبشرهم؛ فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وأخبر أن جزاءهم الجنة فقال تعالى: ﴿ **وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً** ﴾ [الإنسان: ١٢].

وقد قرن الله الصبر بالقيم العليا في الإسلام.

فقرنه باليقين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].



وقرنه بالتوكل، قال تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨- ٥٩] .

وقرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاة ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقرنه بالتقوى في عدة آيات منها: قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وفي قوله تعالى :﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[سورة يوسف ٩٠] .

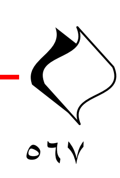
وقرن الله-تبارك وتعالى-الصبر بالعمل، فقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١].

وقرنه بالجهاد، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، وفي قوله تعالى :﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِين** ﴾ [محمد: ٣١].

وقرنه بالاستغفار: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** ﴾ [غافر: ٥٥].

وقرنه بالتسبيح، في قوله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ** ﴾ [الطور: ٤٨]، وفي قوله تعالى في سورة طه :﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه: ١٣٠].

وقرن الصبر في القرآن الكريم بالحق، في قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ *إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ — ٣].



وقرنه بالرحمة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧].

وقرنه بالشكر في عدة آيات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

وحديث القرآن عن الصبر متنوع وممتع، مما يدل على أهميته ومكانته العظيمة، وكذا الشأن في السنة النبوية، فقد حث النبي–صلى الله عليه وسلم–أمته على هذا الخلق الكريم، وكانت سيرته–صلى الله عليه وسلم–أنموذجاً يحتذى في التخلق بخلق الصبر بشتى أنواعه وأعلى درجاته، ومن قرأ في سيرته العملية وسنته القولية سيجد أن للصبر شأناً عظيماً.

قال صلى الله عليه وسلم: ((**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**))[١٤٥٠].

وقال بعض السلف: "**الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر**"[١٤٥١]

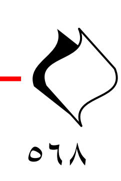
المسألة الثانية: أنواع الصبر.

الصبر ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صبر على الطاعة حتى يفعلها، فإن العبد لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبرٍ ومصابرة ومجاهدة لعدوه الباطن والظاهر، فبحسب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات وفعله للمستحبات.

١٤٥٠ صحيح مسلم (٢٩٩٩)

١٤٥١ أخرجه وكيع بن الجراح في الزهد (٢/٤٥٦) برقم (٢٠٣)، والطبراني في الكبير (٩/١٠٧)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٧١ ح٤٩٧٦)، موقوفاً على ابن مسعود بلفظ" :**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**"



القسم الثاني: صبر عن المنهي عنه حتى لا يفعله، فإن النفس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء، تأمره بالمعصية وتجرئه عليها، فبحسب قوة صبره يكون تركه لها.

قال بعض السلف: "أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلا صديق"[١٤٥٢].

وعن سهل بن عبد الله التستري: "ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله، ولا يجتنب الآثام إلا صِدِّيق مقرب، وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر"[١٤٥٣].

القسم الثالث: الصبر على ما يصيبه بغير اختياره من المصائب،

والمصائب نوعان:

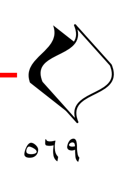
النوع الأول: نوع لا اختيار للخلق فيه، كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها؛ لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقدره، وإنه لا مدخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارا، وإما اختيارا، فإن فتح الله على قلبه باب الفكرة في فوائدها، وما في حشوها[١٤٥٤] من النعم، والألطاف[١٤٥٥] انتقل من الصبر عليها إلى الشكر لها والرضا بها، فانقلبت حينئذ في حقه نعمة، فلا يزال يجري قلبه ولسانه-أي دأبه وشأنه-فيها: **"رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن**

١٤٥٢ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠ /١٩٧) بإسناده عن سهل بن عبد الله التستري ضمن كلام له طويل بلفظ: "ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله، ولا يجتنب الآثام إلا صِدِّيق مقرب، وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر".

١٤٥٣ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠ /١٩٧).

١٤٥٤ معنى الحشى: الناحية، والمقصود نواحيها أو داخلها. انظر: لسان العرب مادة (حشا) (١٤/١٨٠-١٨١).

١٤٥٥ اللطيف من الكلام: ما غمض معناه وخفي، واللطف في العمل: الرفق فيه. انظر: لسان العرب مادة(لطف) (٩/٣١٦).



عبادتك"[١٤٥٦]، وهذا يقوى ويضعِف بحسب قوة محبة العبد لله وضعفها، بل هذا يجده أحدنا في الشاهد كما قال الشاعر يخاطب محبوبا له ناله ببعض ما يكره:

لئن ساءني أن نِلتِني بمساءة = لقد سرني أني خطرت ببالِكِ.

النوع الثاني: أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه.

فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون، وكان نبينا-صلى الله عليه وسلم-إذا أوذي يقول: **"يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر"**[١٤٥٧].

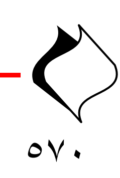
وأخبر عن نبي من الأنبياء أنه ضربه قومه فجعل يقول: **"اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"** [١٤٥٨].

وقد روي عنه-صلى الله عليه وسلم-أنه جرى له هذا مع قومه فجعل يقول مثل ذلك، **فجمع في هذا ثلاثة أمور**: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون، وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور، والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى:

١٤٥٦ يشير إلى حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أخذ بيده وقال: "يا معاذ والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، أخرجه أبو داود في سننه (١٨١/٢) كتاب الوتر باب في الاستغفار برقم(١٥٢٢) والإمام أحمد في المسند (٢٤٥،٢٤٧/٥). والنسائي في سننه (٥٣/٣) كتاب السهو باب نوع آخر من الدعاء. والإمام أحمد في المسند(٢٤٥،٢٤٧/٥).

١٤٥٧ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٢٨)، رقم (٣٤٠٥). ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (١٠٩/٣).

١٤٥٨ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤) رقم (٣٤٧٧). ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب غزوة أحد (١٧٩/٥).



﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة الآية ٢٤]"[١٤٥٩].

ويعين العبد على هذا الصبر عدةُ أشياء:

أحدها: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه، ومشيئته والعباد آلة، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تستريح من الهم والغم والحزن.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى الآية: ٣٠]. فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطها عليه، عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم.

وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية.

وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة.

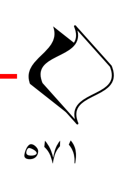
قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمة من جواهر الكلام: **"لا يرجونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنّ عبدٌ إلا ذنبه"**[١٤٦٠]

وروي عنه وعن غيره: **"ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة"**[١٤٦١]

١٤٥٩ المصدر: قاعدة في الصبر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص: ٩ ، ١٠.

١٤٦٠ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٢/٧) رقم (٩٧١٨)، والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٦٦٢/٢) رقم (١٥٨٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣٨٣/١) رقم (٥٤٧، ٥٤٨).

١٤٦١ رواه الزبير بن بكار في الأنساب)كما عزاه إليه الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٩٧/٢)، ولم أجده في القسم المطبوع من كتاب الأنساب(، أن العباس لما استسقى به عمر قال" :اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة"، ضمن دعاء طويل.



الثالث: أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفى وصبر، كما قال تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الشورى الآية: ٤٠].

ولما كان الناس عند مقابلة الأذى **ثلاثة أقسام** :**ظالم** يأخذ فوق حقه، **ومقتصد** يأخذ بقدر حقه، **ومحسن** يعفو ويترك حقه.

ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: "ألا ليقم من وجب أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفى وأصلح"[١٤٦٢].

وإذا شهد مع ذلك؛ فوت الأجر بالانتقام والاستيفاء سهل عليه الصبر والعفو.

وأخرجه أبوبكر أحمد بن مروان الدينوري (ت: ٣٣٣) في المجالسة وجواهر العلم (١٠٢/٣ -١٠٣ ط. دار ابن حزم) موقوفاً على العباس في دعائه عندما استسقى به عمر، فكان من دعائه" :اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة."

كما أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٦/ ٣٥٨ -٣٥٩ ط دار الفكر، ص: ١٨٤ تراجم عبادة بن أوفى –عبد الله بن ثوب). من طريق أبي صالح باذام مولى ابن هانيء عن العباس بن عبد المطلب في حديث طويل.

وقد ثبت في صحيح البخاري استسقاء عمر بدعاء العباس (٤٩٤/٢ مع الفتح) كتاب الاستسقاء –باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا– (ح: ١٠١٠)، دون بيان صفة دعائه على وجه التفصيل، فلم يرد ذكر هذا اللفظ.

وانظر الكلام على هذا الحديث في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٣٧، ٣٣٨، ط دار الإفتاء).

[١٤٦٢] أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم ((إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجره فلا يقوم إلا من عفى في الدنيا وذلك قوله :﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾)). أورده السيوطي في الدر المنثور (١١/٦). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٩٨/١١). وأخرجه ابن حبان في روضة العقلاء (ص: ٢٧٦، ٢٧٧) عن الحسن البصري مرسلاً، ووصله البيهقي في شعب الإيمان (١٣٦/١٣) برقم (٧٠٥٠). ورواه هناد ابن السري في الزهد (٩٠٤/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٠٤/٩) عن الحسن البصري موقوفاً.



الرابع: أن يشهد أنه إذا عفى وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش، والغل، وطلب الانتقام، وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلا وآجلا على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافا مضاعفة، ويدخل في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران الآية:١٣٤، ١٤٨].

فيصير محبوبا لله، ويصير حاله حال من أُخِذَ منه دراهم فَعُوِّضَ عنها ألوفاً من الدنانير، فحينئذ يفرح بما مَنَّ الله عليه أعظم فرحٍ ما يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلاً يجده في نفسه، فإذا عفى أعزه الله.

وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: ((**ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً**))[١٤٦٣]

فالعز الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عِزٌّ في الظاهر وهو يورث في الباطن ذُلاً، والعفو ذل في الباطن وهو يورث العز باطناً وظاهراً.

السادس-وهي من أعظم الفوائد-: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفى عن الناس عفى الله عنه، ومن غفر غفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه على ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره ويكفي العاقل هذه الفائدة.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه، ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا يكون

١٤٦٣ أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأدب والبر والصلة باب استحباب العفو (٢٠/٨).

أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفى وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه وانتقامه، لها، فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما انتقم لنفسه قط.[١٤٦٤]

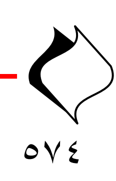
فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم يكن ينتقم لنفسه مع أن أذاه أذًى لله ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها وأبعدها من كل خُلقٍ مذموم، وأحقها بكل خُلقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها.

فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من العيوب والشرور بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

التاسع: إن أوذي على ما فعله لله أو على ما أمره به من طاعته ونهى عنه من معصيته وجب عليه الصبر ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أوذي في الله، فأجره على الله، ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبت دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله تلفه كان على الله خلفه[١٤٦٥].

١٤٦٤ انظر: صحيح البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي-صلى الله عليه وسلم-. (٦/٥٦٦ مع الفتح) رقم: (٣٥٦٠). وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب مباعدته-صلى الله عليه وسلم-للآثام، رقم (٢٣٢٧-٢٣٢٨).

١٤٦٥ روى أبو يعلى في مسنده (٤/٣٦ ح ٢٠٤٠ تحقيق حسين سليم أسد)، عن بشر بن الوليد الكندي عن المسور بن الصلت عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال: "كل معروف صدقة، وما أنفق الرجل على أهله وماله كتب له صدقة، وما وقى به عرضه فهو صدقة. قال: وكل نفقة مؤمن في غير معصية فعلى الله خلفه ضامناً إلا نفقة في بنيان". قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٣٦): "وفي إسناد أبي يعلى مسور بن الصلت وهو ضعيف" ورواه أيضا الدار قطني في سننه (٣/٢٨ برقم ١٠١)، والحاكم في مستدركه (٢/٥٠) كلاهما من طريق عبد الحميد بن الحسن الهلالي عن محمد بن المنكدر بنحوه.



وإن كان قد أوذي على معصية، فليرجع باللوم على نفسه، ويكون في لومه لها شغل عن لومه لمن آذاه.

وإن كان قد أوذي على حضٍ، فليوطن نفسه على الصبر، فإن نيل الحظوظ دونه أَمْرٌ أَمَرُّ من الصبر، فمن لم يصبر على حرِّ الهواجر[١٤٦٦]، والأمطار، والثلوج، ومشقة الأسفار، ولصوص الطريق، وإلا فلا حاجة له في المتاجر، وهذا أمر معلوم عند الناس أن من صدق في طلب شيء من الأشياء بذل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.

العاشر: أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفع عنه أحد من خلقه، قال الله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال الآية (٤٦)]. وقال :﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران الآية (١٤٦)].

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبذل من إيمانه جزءاً في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص والله تعالى يدفع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر: أن يشهد أن صبره حكم منه على نفسه، وقهر لها، وغلبة لها، فمتى كانت النفس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه، وأسره، وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعاً لها سامعاً منها مقهوراً معها لم تزل به حتى تهلكه، أو تتداركه رحمة من ربه.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وشاهده ليس من شرط هذا الكتاب "وتعقبه الذهبي بقوله :"بل ضعفوه".

١٤٦٦ جمع هاجرة: وهي نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر، أو نصف النهار عند اشتدادا الحر. انظر: لسان العرب مادة (هجر) (٥/٢٥٤).

فلو لم يكن في الصبر إلا قهره لنفسه ولشيطانه، فحينئذ يظهر سلطان القلب وتثبت جنوده، فيفرح ويقوى ويطرد العدو عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصره الله خير الناصرين، إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه.

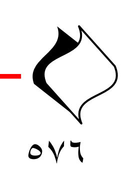
الرابع عشر: أن صبره على من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه وندامته واعتذاره، ولوم الناس له فيعود بعد إيذائه له مستحييا منه، نادماً على ما فعله، بل يصير موالياً له وهذا معنى قوله: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [فصلت الآيتان: ٣٥،٣٤].

الخامس عشر: ربما كان انتقامه ومقابلته سبباً لزيادة شر خصمه وقوة نفسه وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه كما هو المشاهد، فإذا صبر وعفى أمن من هذا الضرر.

والعاقل لا يختار أعظم الضررين بدفع أدناهما، وكم قد جلب الانتقام والمقابلة من شر عجز صاحبه عن دفعه، وكم قد ذهبت به نفوس ورئاسات وأموال وممالك لو عفى المظلوم لبقيت عليه.

السادس عشر: أن من اعتاد الانتقام ولم يصبر، لابد أن يقع في الظلم، فإن النفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها، لا علما، ولا إرادة، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلى حد لا يعقل ما يقول وما يفعل، فبين هو مظلوم ينتظر النصر والعز، إذ انقلب ظالماً ينتظر المقت والعقوبة.

السابع عشر: أن هذه المظلمة التي قد ظُلمها هي سبب، إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.



الثامن عشر: أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه، فإن من صبر وعفا كان صبره وعفوه موجباً لذل عدوه، وخوفه وخشيته منه، ومن الناس، فإن الناس لا يسكتون عن خصمه وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله، ولهذا تجد كثيراً من الناس إذا شتم غيره أو آذاه يحب أن يستوفي منه، فإذا قابله استراح وألقى عنه ثقلاً كان يجده.

التاسع عشر :أنه إذا عفى عن خصمه، استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونه وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو.

العشرون :أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد أخرى، وهلم جرًّا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سبباً لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك.[١٤٦٧]

(المتن)

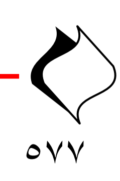
قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٥] "والإيمان بما قال الله عز وجل".

الشرح

الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان وهو الاعتقادُ الجازمُ أن الله تعالى أنزل على رسله كتبًا حجة على العالمين، ومحجة للعاملين؛ يعلمونهم بها الحكمة، ويزكونهم.

١٤٦٧ المصدر: قاعدة في الصبر لشيخ الإسلام ابن تيمية



ونؤمن بأن الله تعالى أنزل مع كل رسول كتابًا؛ لقوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}.

ونعلم من هذه الكتب:

١-التوراة: التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، وهي أعظم كتب بني إسرائيل؛ قال عز وجل: {فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ}.

٢ -الإنجيل: الذي أنزله الله تعالى على عيسى ﷺ، وهو مصدق للتوراة، ومتمم لها؛ قال جل وعلا: {وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}. {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}.

٣-الزَّبور: الذي آتاه الله تعالى داود ﷺ.

٤ -صُحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام.

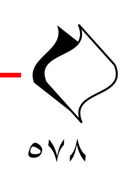
٥-القرآن العظيم: الذي أنزله الله على نبيه، محمد خاتم النبيين {هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} فكان {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}؛ فنسخ الله به جميع الكتب السابقة، وتكفل بحفظه عن عبث العابثين، وزيغ المحرفين؛ قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}؛ لأنه سيبقى حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة (١٤٦٨).

من ثمرات الإيمان بالكتب:

أولًا: العلم برحمة الله وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

ثانيًا: ظُهُور حِكمته تعالى؛ حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها، وكان خاتم هذه الكتب القرآن العظيم مُناسبًا لجَميع الخَلْقِ في كلِّ عَصر ومكانٍ إلى يوم القيامة.

(١٤٦٨) انظر: «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العثيمين» (٣/ ٢٤١).



ثالثًا: شكر نعمة الله على ذلك (١٤٦٩).

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٦] "والإيمان بأقدار الله كلها، خيرها وشرها، وحلوها ومرها، قد علم الله ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، لا يخرجون من علم الله، ولا يكون في الأرضين ولا في السماوات إلا ما علم الله عز وجل".

الشرح

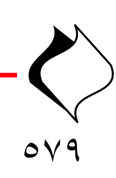
المؤمن يؤمن بكل ما قضاه الله عز وجل وقدره خيراً أو شر حلواً أو مر فهو يؤمن به ويرضى به من الله سبحانه وتعالى.

ثم قد علم الله ما العباد عاملون وإلى ما هم سائرون ولا يخرجون من علم الله عز وجل، ولا يكون في الأراضين ولا في السموات وإلا ما علم الله عز وجل وهذا قد تقدم بأنه أحد مراتب القدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولا خالق مع الله عز وجل.

فالله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، فكذب القدرية الذين قالوا: إن العبد يخلق فعله؛ فالعبد لا يخلق فعله، والله تعالى خالق كل شيء، لكن الله عز وجل شاء وأراد عز وجل أن يكون لهذا العبد فعل، وأن يكون لهذا العبد مشيئة، وذلك الفعل وتلك المشيئة لا تخرج عن كونها خلق الله عز وجل ولا تخرج عن إرادة الله عز وجل ومشيئته سبحانه وتعالى.

الإيمان بالقدر خيره وشره هو الركن السادس من أركان الإيمان هو الاعتقاد الجازم بتقدير تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته؛ قال جل

(١٤٦٩) انظر: «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ العثيمين» (٢٥٩/٣، ٢٦٠).



وعلا: {إنا كل شيء خلقناه بقدر}، ونؤمن مع ذلك أن الله تعالى جعل للعبد اختيارًا وقدرة بهما يكون الفعل، وإن كان لا يخرج بهما عن مشيئته سبحانه؛ قال سبحانه: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

والاعتقاد أن الله تعالى أرسل {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، ولولا أن فعل العبد يقع بإرادته واختياره ما بطلت حجته جل وعلا على الناس بإرسال رسله.

وقد تقدم الحديث عن مراتب القدر في الفقرة: (٢٦)

من ثمرات الإيمان بالقدر:

أولًا: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كليهما بقضاء الله وقدره.

ثانيًا: راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشًا، وأروح نفسًا، وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

ثالثًا: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدره من أسباب الخير والنجاح؛ فيشكر الله تعالى على ذلك ويدع الإعجاب (١٤٧٠).

(١٤٧٠) «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» (٣/٢٥٦-٢٦٠) بتصرف.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٧] "وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك".

الشرح

الله سبحانه وتعالى عالِمٌ بكل شيء أزلًا، قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُني، إنَّك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: ((إنَّ أول ما خَلق اللهُ القلم، فقال له: اكتب. قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة))، يا بُني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن مات على غير هذا فليس مِنِّي)) (١٤٧١).

فمقادير كلِّ شيء حتى قيام السَّاعة قد كُتبت في اللوح المحفوظ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنتُ خلفَ رسول الله ﷺ يومًا، فقال: ((يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يَضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصحف)) (١٤٧٢).

(١٤٧١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤٥).

(١٤٧٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٠٢).



فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فهذا سابق في القدر، سابق في علم الله

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٥٨] "ولا خالق مع الله عز وجل".

(الشرح)

الله تعالى خالق كل شـــيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا وهو خالقه...

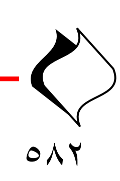
ومن أدلة القرآن الكريم:

١–قال تعالى في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث كسر أصنامهم ثم جاء إليه قومه يناقشونه مسرعين فقال لهم كما حكى الله عنه : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصـــافات:٩٥-٩٦]، أي خلقكم وعملكم فتكون (ما) مصـــدرية، وقيل: إنها بمعنى الذي، فيكون المعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم وهو الأصنام[١٤٧٣] وقد ذكر ابن كثير القولين ثم قال: "وكلا القولين متلازم، والأول أظهر" [١٤٧٤] وقد علل ذلك بما يؤيده من رواية البخاري في أفعال العباد عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله يصنع كل صانع وصنعته))[١٤٧٥]، وتلا بعضهم عند ذلك وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات: ٩٦] ، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة فالله تعالى خالق الخلق وأفعالهم كما دلت على ذلك الآية والحديث.

١٤٧٣ انظر: ((زاد المسير في علم التفسير)) لابن الجوزي (٧٠/٧).

١٤٧٤ ((تفسير ابن كثير)) (٢٢/٧).

١٤٧٥ رواه البخاري في ((خلق أفعال العباد)) (١٠٢). وصـــححه ابن حجر في ((فتح الباري)) (٥٠٧/١٣)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٦٣٦) وقال: على شرط مسلم.

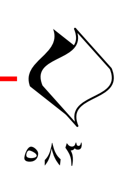


٢-وقد وردت آيات كثيرة تدل دلالة واضحة على أن كل شيء مما في هذا الكون مخلوق لله سبحانه وتعالى، وقد وردت هذه الآيات بلفظ العموم فقال تعالى: (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الرعد: ١٦] ، وفي آية أخرى(: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [غافر: ٦٢] ، وهذه نصوص واضحة في الدلالة على مرتبة الخلق، وقد جاءت الآية الأولى في معرض إنكار أن يكون للشركاء خلق كخلقه، سبحانه وتعالى فنفى ذلك سبحانه آمراً رسوله أن يقرر هذه الحقيقة التي تفصل في الأمر وتدل على وحدانية الله تعالى وانفراده بالخلق والرزق :(اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) وفي موضع آخر جاءت هذه الآية لبيان قدرة الله تعالى وكماله ودلائل وحدانيته : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) [الزمر:٦٢] ، أما الآية الثانية فقد جاءت أيضاً لبيان قدرة الله التامة حيث جعل لعبادة الليل والنهار ثم بين سبحانه أنه خالق كل شيء.

٣-وقال تعالى ممتناً على الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن أمرهم بالتثبت في خبر الفاسق. (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ). [الحجرات: ٧]، والشاهد قوله: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ).. (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ) ...فهو سبحانه هو الذي جعل الإيمان محبوباً أو أحب الأشياء إليكم، وهو الذي حسنه بتوفيقه وقربه منكم، وهو الذي جعل ما يضاد الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروها عندكم، وذلك بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادة فعله، فالفاعل في كل ذلك هو الله تعالى[١٤٧٦].

وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على أن الله تعالى هو المضل، والهادي، والمؤيد لعباده المؤمنين، والهازم لأعدائهم، وأنه المضحك، والمبكي، والمميت، والمحيي، وكل

١٤٧٦ انظر: ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لصديق خان (٩/٧٤)، وانظر: ((تفسير ابن السعدي)) (٧/١٣١)، وانظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧).



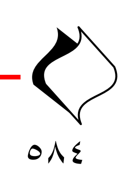
ذلك دليل على مرتبة الخلق، وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لآية الحجرات السابقة، حديثاً يدل على هذه المرتبة عن ابن رفاعة الزرقي قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((استووا حتى أثني على ربي، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسالك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسالك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق)) [١٤٧٧] فترى في هذا الحديث بأن الله تعالى هو الفاعل لهذه الأمور، وهذا دليل على مرتبة الخلق.

الأدلة من السنة:

١-عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يقول: ((اللهم أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها...)) الحديث[١٤٧٨] والشاهد قوله :((اللهم آت نفسي

١٤٧٧ رواه أحمد (٤٢٤/٣) (١٥٥٣١)، والبزار (١٧٥/٩)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٥٣٨). وقال: [فيه] عبد الواحد بن أيمن مشهور ليس به بأس في الحديث، روى عنه أهل العلم، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٢٤/٦): رجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١٦٣/٢) والألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٣٨).

١٤٧٨ رواه مسلم (٢٧٢٢).



تقواها وزكها...))، فالفاعل هو الله تعالى، فهو الذي يطلب منه ذلك ولفظ ((خير)) ليس للتفضيل بل لا مزكي للنفس إلا الله، ولهذا قال بعد ذلك: ((أنت وليها ومولاها))[١٤٧٩]. فهو سبحانه الملهم للنفس الخير والشر، قال تعالى :(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) [الشمس:٨] ، قال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية :فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [الشمس:٨] ، أي: فالخلق والإنسان قادر على سلوك أيهما شاء ومخير فيه، وقال ابن زيد في معنى الآية: (جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى).[١٤٨٠]

٢- وعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول خلف الصلاة، فأملى عليّ المغيرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: خلف الصلاة: ((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)).[١٤٨١] والشاهد قوله:((اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت))، فالمعطي والمانع هو الله تعالى فهو الفاعل لهما، وهذا يدل على أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى وقوله: ((ولا ينفع ذا الجد منك الجد)) أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، أو لا ينجيه حظه منك، بل ينفعه عمله الصالح.

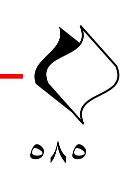
٣-وقد قال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: ((يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت بلى يا رسول الله، قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله)) [١٤٨٢] والشاهد قوله :((لا حول ولا قوة إلا بالله))، ففيها الاعتراف بأنه لا صانع غير الله، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً،

١٤٧٩ انظر: ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (٤١/١٧).

١٤٨٠ ((الكشف والبيان)) للثعلبي (٢١٣/١٠)، و ((زاد المسير)) (١٤٠/٩)، و ((تفسير البغوي)) (٤٣٨/٨).

١٤٨١ رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

١٤٨٢ رواه البخاري (٤٠٢٥) بلفظ: ((ألا أدلك على كلمة)) بدلاً من ((ألا أدلك على كنز))، ومسلم (٢٧٠٤).



فمعناها: لا حركة، ولا استطاعة، ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى[١٤٨٣] وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله، وقيل: ((لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته))[١٤٨٤]، وحكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكله متقارب، والكنز هنا: معناه ثواب مدخر في الجنة عند الله وهو ثواب نفيس [١٤٨٥].

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٥٩] "والتكبير على الجنائز أربع، وهو قول مالك بن أنس وسفيان الثوري والحسن بن صالح وأحمد بن حنبل والفقهاء، وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم".

الشرح

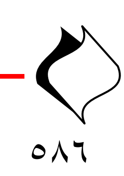
ثبت في صحيح البخاري: ((أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات))[١٤٨٦] وهذا هو قول جمهور العلماء وهم مالك بن أنس وسفيان الثوري والحسن بن صالح وأحمد بن حنبل والفقهاء كلهم، فهم يرون أن التكبير على الجنائز أربع تكبيرات، ومن العلماء من أجاز خمس تكبيرات أو ستاً أو سبعاً، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه

١٤٨٣ انظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٥/٢٤٣)، ((لسان العرب)) (١١/١٨٤) مادة: (حول).

١٤٨٤ رواه البزار (٥/٣٧٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/٤٤٦) (٦٦٤)، والديلمي (٥/٣٧٥) (٨٤٧٨). بلفظ: ((إلا بعون الله)) بدلاً من ((إلا بمعونته)). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/١٠٢): رواه البزار بإسنادين أحدهما: منقطع وفيه عبد الله بن خراش، والغالب عليه الضعف، والآخر: متصل حسن، وقال الحسيني في ((البيان والتعريف)) (٢/٢٨٩): سنده لا بأس به.

١٤٨٥ ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (١٧/٢٦-٢٧)، وانظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/١٥٤).

١٤٨٦ أخرجه البخاري (١٢٤٥) واللفظ له، ومسلم (٩٥١).



وسلم كبر على بعض الجنائز خمس تكبيرات، ولكن الجمهور على أربع، قال النووي رحمه الله: استقرت الشريعة على أربع، وأن هذا كان أولاً، ثم استقرت الشريعة الاقتصار على أربع تكبيرات، والصواب أن المسألة فيها خلاف، لكن الأرجح الذي عليه الجمهور هو الاقتصار على أربع تكبيرات.

والمصنف هنا يرجّح أن مسألة التكبير أربع، وهو قول الجمهور، لكن لا يعني أنه هو الصورة الوحيدة للتكبير، فللتكبير صور عديدة فعلها النبي صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لأحد أن يُنكر على فاعلها، وكل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من صور الأفعال إذا لم يرد له فيها خصوصية أو يرد النسخ فإنها تبقى من صور الفعل الجائزة، مثل صلاة الخوف فلها عدة صور كلها جائزة، وصلاة الكسوف والخسوف لها عدة صور كلها جائزة، وصلاة الاستسقاء لها عدة صور كلها جائزة، وكذلك صلاة الجنازة في تكبيراتها، فالذي عليه جمهور السلف أنها أربع؛ لكن النبي صلى الله عليه وسلم فعل غير ذلك فمن زاد فلا حرج عليه.

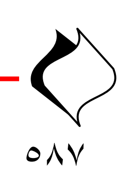
(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: "

[٦٠] "والإيمان بأن مع كل قطرة ملك ينزل من السماء حتى يضعها حيث أمره الله عز وجل"[١٤٨٧].

الشرح

١٤٨٧ وردت في ذلك بعض الآثار عن بعض التابعين. انظرها في: تفسير الطبري (١٤/ ١٩-٢٠)، و «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٢٢، ٤/ ٣٠٥)، و«الدر المنثور» (٦/ ٢٦٤-٢٦٥، ٨/ ٢٦٤)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٣/ ٩٦٨، ٤/ ١٢٧٤).



معلوم أن الملائكة الله عز وجل وكل إليهم يعني أمور الخلق، فكل ملك له وظيفة، فهناك ملائكة موكلون بالقطر أي بالمطر، الله عز وجل جعل هذا من وظائفهم.

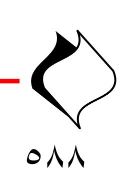
وهناك ملائكة موكلون بالرزق، وهناك ملائكة موكلون بالعرش، وهناك ملائكة موكلون بأعمال العباد، وهناك الحفظة، فأعمال الملائكة لا تحصى كثرة.

لا يعلم حديث في هذا، والذي ثبت أن ميكائيل عليه السلام موكَّل بالقطر، أي بالمطر.

قال الشيخ الراجحي في شرح السنة للبربهاري: "جاء هذا من قول الحسن بن قتيبة والحسن البصري، وذلك أن الله تعالى وكل بالقطر ملكاً وهو ميكائيل، وجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، فهؤلاء الأملاك الثلاثة هم رؤساء الملائكة وهم مقدمون عليهم؛ ولهذا توسل النبي صلى الله عليه وسلم بربوبية الله لهؤلاء الأملاك الثلاثة في حديث عائشة في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل استفتح بهذا الاستفتاح :((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[١٤٨٨].

قال العلماء: توسل النبي صلى الله عليه وسلم بربوبية الله لهؤلاء الأملاك الثلاثة؛ لأن كل ملك موكل بما فيه الحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر والمطر الذي فيه حياة الأبدان والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي فيه إعادة الأرواح إلى أجسادها فتعود الحياة إلى الأجسام.

١٤٨٨ صحيح مسلم (٧٧٠).



أما كون ميكائيل عليه الصلاة والسلام موكل بالقطر فهذا ثابت عند النسائي في الكبرى وذكره ابن أبي حاتم في التفسير عند قوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته.....) الآية ولفظه ((أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل قال: هاتوا قالوا: أخبرنا عن علامة النبي قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر قال: يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه قال: كان يشتكي عرق النسا فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا قال أبي: قال بعضهم: يعني الإبل فحرم لحومها قالوا: صدقت قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع قال: صوته قالوا: صدقت إنما بقيت واحدة وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك قال: جبريل عليه السلام قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان فأنزل الله عز وجل: {من كان عدوا لجبريل} إلى آخر الآية[١٤٨٩]

وعن ابن عباس، قال: "أقبلت يهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد، ما هو؟ قال: ((ملَكٌ من الملائكة وُكلَ بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله.)) فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: ((زَجْرُهُ السحابَ إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر.)) قالوا: "صدقت" فأخبرنا عمّا حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: ((اشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يلائمه

١٤٨٩ رواه أحمد في المسند ١٦١/٤وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح.

إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرّمها.)) قالوا: "صدقت". قال الترمذي: "هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ"١٤٩٠

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٦١] "والإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم حين كلم أهل القليب يوم بدر، أن المشركين كانوا يسمعون كلامه".

الشرح

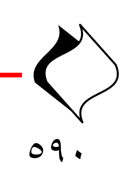
وقد اختلف العلماء في مسـألة سماع الأموات للأحياء على فريقين رئيسيين وفريق ثالث يرى التوقف:

الفريق الأول: القول إثبات السـماع مطلقاً للأموات، وتأويل الآيات التي فيها نفي السماع.

وهذا مذهب الجمهور من العلماء (١٤٩١)، حيث ذهبوا إلى إجراء الأحاديث التي فيها إثبات السـماع على ظاهرها وعمومها، وقالوا: إن الميت بعد موته يسـمع كلام الأحياء ويشعر بهم.

١٤٩٠ جامع الترمذي، كتاب التفسير، تفسير سورة الرعد، (٥/٢٩٤).

(١٤٩١) نسـبه للجمهور: ابن جرير الطبري، في تهذيب الآثار (٢/٤٩١)، وابن رجب، في أهوال القبور، ص (١٣٣)، والعيني، في عمدة القاري (٨/٢٠٢).



وهو اختيار جمع من المحققين، كابن حزم (١٤٩٢)، والقاضي عياض (١٤٩٣)، والنووي (١٤٩٤)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤٩٥)، وابن القيم (١٤٩٦)، والحافظ ابن كثير (١٤٩٧).

واختلف أصحاب هذا المذهب في الجواب عن الآيات التي فيها نفي السماع على أقوال:

القول الأول: أن الموتى في الآيات المراد بهم الأحياء من الكفار، والمعنى: إنك لا تُسْمِع الكفار الذين أمات الله قلوبهم إسماع هدىً وانتفاع، «وشُبِّهُوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس؛ لأنهم إذا سمعوا ما يُتلى عليهم من آيات الله، فكانوا أقماع القول، لا تعيه آذانهم، وكان سماعهم كلا سماع، كانت حالهم -لانتفاء جدوى السماع- كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع». (١٤٩٨)

وهذا القول فيه حمل للآيات على المجاز، وذلك بتشبيه الكفار الأحياء بالموتى.

وقد قال بهذا القول: ابن قتيبة (١٤٩٩)، والخطابي (١٥٠٠)، والبغوي (١٥٠١)، والزمخشري (١٥٠٢)، والسهيلي (١٥٠٣)، وأبو العباس القرطبي

(١٤٩٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٣٧٣).

(١٤٩٣) إكمال المعلم (٨/٤٠٥).

(١٤٩٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٢٩٩).

(١٤٩٥) مجموع الفتاوى (٤/٢٧٣، ٢٩٨)، (٢٤/١٧٢، ٢٩٧، ٣٨٠).

(١٤٩٦) الروح، ص (١٤١).

(١٤٩٧) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٧).

(١٤٩٨) انظر: الكشاف (٣/٣٧٠).

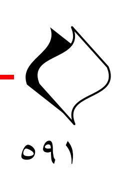
(١٤٩٩) تأويل مختلف الحديث، ص (١٤٣).

(١٥٠٠) غريب الحديث، للخطابي (١/٣٤٢).

(١٥٠١) شرح السنة (٧/١٢٢).

(١٥٠٢) الكشاف (٣/٣٧٠).

(١٥٠٣) الروض الأنف (***). نقله عنه الحافظ ابن حجر، في الفتح (٣/٣٧٧).



(١٥٠٤)، والسمعاني (١٥٠٥)، والقاري (١٥٠٦)، والسيوطي (١٥٠٧)، والشنقيطي، وابن عثيمين (١٥٠٨).

قال الشنقيطي: «اعلم أن التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن أن معنى قوله: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى)، أي لا تسمع الكفار -الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه-إسماع هدىً وانتفاع؛ لأن الله كتب عليهم الشقاء، فختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم الغشاوة، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع». أهـ (١٥٠٩)

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها (١٥١٠):

الدليل الأول: أنَّ الله تعالى بعد أن نفى السماع عنهم قال: (وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)، فمقابلته جلَّ وعلا الإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها - لمن يؤمن بآياته - دليلٌ واضح على أنَّ المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء، لا موت مفارقة الروح للبدن، ولو كان المراد بالموت في قوله: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) مفارقة الروح للبدن لما قابل ذلك بقوله: (وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ)، بل لقابله بما يناسبه، كأن يُقال: إن تسمع إلاّ من لم يمت.

(١٥٠٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٥٨٥).

(١٥٠٥) تفسير السمعاني (٤/١١٢).

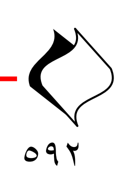
(١٥٠٦) مرقاة المفاتيح (٧/٤٧٥).

(١٥٠٧) الحاوي في الفتاوى (٢/١٢).

(١٥٠٨) الشرح الممتع (***) الطبعة الجديدة. كتاب الجنائز

(١٥٠٩) أضواء البيان (٦/٤١٦)، باختصار.

(١٥١٠) انظر: تأويل مختلف الحديث، ص (١٤٣)، والروح، لابن القيم، ص (١٤١-١٤٢)، وأضواء البيان (٦/٤١٦-٤١٩).



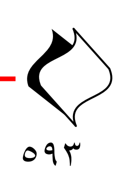
الدليل الثاني: أنَّ استقراء القرآن الكريم يدل على أن الغالب استعمال الموتى بمعنى الكفار، كقوله تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام:٣٦]، وقد أجمع (١٥١١) من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في الآية هم الكفار.

وكقوله تعالى: (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[الأنعام:١٢٢]، فقوله: (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا)، أي: كافراً؛ فأحييناه، أي: بالإيمان والهدى، وهذا لا نزاع فيه بين المفسرين، وفيه إطلاق الموت وإرادة الكفر.

وكقوله: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ) [فاطر:٢٢]، أي: لا يستوي المؤمنون والكافرون.

الدليل الثالث: أنَّ قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى، وما في معناها من الآيات، كلها تسلية للنبي ﷺ؛ لأنه يحزنه عدم إيمانهم، كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) [الأنعام:٣٣]، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) [الحجر:٩٧]، وقوله: (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) [النحل:١٢٧]، وقوله: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [الشعراء:٣] إلى غير ذلك من الآيات، ولما كان يحزنه كفرهم وعدم إيمانهم أنزل الله آيات كثيرة تسلية له ﷺ، بَيَّنَ له فيها أنه لا قدرة له على هدي من أضله الله، ومن الآيات النازلة تسلية له ﷺ، قوله هنا: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى)، أي لا تُسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول، ولو كان معنى الآية وما شابهها: إنك لا تسمع الموتى، أي: الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له ﷺ.

(١٥١١) لم أقف على حكاية الإجماع في أن المراد بالموتى في الآية هم الكفار، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٢٧/٣) قولاً آخر في معنى الآية: أنهم الموتى حقيقة، ضربهم الله مثلاً، والمعنى أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله.

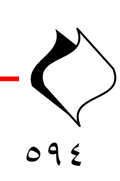


واعتُرِضَ: بأن ما ذُكِرَ من معنى آيتي النمل والروم مسلم فيه، لكن ذلك لا يمنع الاستدلال بهما على نفي سماع الموتى؛ لأنَّ الموتى لما كانوا لا يسمعون حقيقة، وكان ذلك معروفاً عند المخاطبين شبه الله تعالى بهم الكفار الأحياء في عدم السماع، فدل هذا التشبيه على أن المشبه بهم — وهم الموتى في قبورهم — لا يسمعون، كما يدل مثلاً تشبيه زيد في الشجاعة بالأسد على أن الأسد شجاع، بل هو في ذلك أقوى من زيد، ولذلك شُبِّهَ به، وإن كان الكلام لم يُسقْ للتحدث عن شجاعة الأسد نفسه، وإنما عن زيد، وكذلك آيتا النمل والروم، وإن كانتا تحدثتا عن الكفار الأحياء وشُبّهوا بموتى القبور، فذلك لا ينفي أن موتى القبور لا يسمعون، بل إنَّ كل عربي سليم السليقة، لا يفهم من تشبيه موتى الأحياء بهؤلاء إلا أن هؤلاء أقوى في عدم السماع منهم، وإذ الأمر كذلك فموتى القبور لا يسمعون.(١٥١٢)

واعتُرِضَ أيضاً: بأنَّ الله تعالى قال في آية أخرى: (وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) [فاطر:٢٢] وهذه الآية صريحة بنفي سماع الأموات، ولا يتأتى حملها على المعنى الذي ذكِرَ.

وأجيب: بأن هذه الآية هي كآيتي النمل و الروم المتقدمتين، لأن المراد بقوله: (مَّن فِي الْقُبُورِ) الموتى، فلا فرق بين قوله: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) وبين قوله: (وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ)؛ لأن المراد بالموتى ومن في القبور واحد، كقوله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) [الحج:٧]، أي يبعث جميع الموتى، من قُبر منهم ومن لم يُقْبَر، وقد دلت قرائن قرآنية على أن معنى آية فاطر هذه كمعنى آية الروم، منها قوله تعالى قبلها:(إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) [فاطر:]؛ لأن معناها لا ينفع إنذارك إلا من هداه الله ووفقه، فصار ممن يخشى ربه بالغيب ويقيم الصلاة، وما أنت بمسمع من في القبور، أي الموتى، أي الكفار الذين سبق لهم الشقاء، ومنها قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) [فاطر:١٩]، أي المؤمن

(١٥١٢) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢١-٢٢).



والكافر وقولـــه تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ) [فاطر:٢٢] أي المؤمنون والكفار، ومنها قولـــــه تعالى بعدها: (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) [فاطر:٢٣] أي ليس الإضلال والهدى بيدك، ما أنت إلا نذير وقد بلغت.(١٥١٣)

القول الثاني: أنَّ الموتى في الآيات المراد بهم الذين ماتوا حقيقة، لكن المراد بالسماع المنفي هو خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع به صاحبه، وأن هذا مثلٌ ضربه الله للكفار؛ إذ الكفار يسمعون الحق، ولكن لا ينتفعون به.

قالوا: وقد يُنفى الشيء لانتفاء فائدته وثمرته، كما في قولــه تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْـــمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَـــلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف:١٧٩]. (١٥١٤)

وهذا رأي: شـــيخ الإســـلام ابن تيمية، وابن القيم (١٥١٥)، وابن رجب (١٥١٦)، والأبي (١٥١٧)، وذكره ابن جرير الطبري احتمالاً آخر في معنى الآية.

قال الطبري:« معنى الآية: إنك لا تســـمع الموتى إسماعاً ينتفعون به؛ لأنهم قد انقطعت عنهم الأعمال، وخرجوا من دار الأعمال إلى دار الجزاء، فلا ينفعهم دعاؤك إياهم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته، فكذلك هؤلاء الذين كتب ربك عليهم أنهم لا يؤمنون لا يُسْـــمِعُهم دعاؤك إلى الحق إسماعاً ينتفعون به؛ لأن الله تعالى ذكره قد ختم عليهم أن لا يؤمنوا، كما ختم على أهل القبور من أهل الكفر أنهم لا ينفعهم بعد خروجهم من دار الدنيا إلى مســـاكنهم من القبور إيمان ولا عمل؛ لأن الآخرة

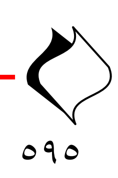
(١٥١٣) انظر: أضواء البيان (٦/٤١٩).

(١٥١٤) انظر: أهوال القبور، ص (١٣٥).

(١٥١٥) الروح، ص (١٤١).

(١٥١٦) أهوال القبور، ص (١٣٤-١٣٥).

(١٥١٧) إكمال إكمال المعلم (٣/٣٣٠-٣٣١).



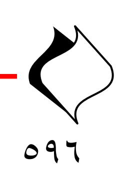
ليست بدار امتحان، وإنما هي دار مجازاة، وكذلك تأويل قولـه تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) [فاطر:٢٢] ».أهـ (١٥١٨)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "قولـــه: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) إنما أراد به السـماع المعتاد الذي ينفع صـاحبه؛ فإن هذا مثل ضُـرب للكفار، والكفار تسـمع الصـوت، لكن لا تسـمع سماع قبولٍ بفقهٍ واتباع، كما قال تعالى:(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْـمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) [البقرة:١٧١]، فهكذا الموتى الذين ضُـرب لهم المثل لا يجب أن يُنفى عنهم جميع السـماع المعتاد، أنواعَ السـماع، كما لم يُنْفَ ذلك عن الكفار ؛ بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به، وأما سماعٌ آخر فلا يُنفى عنهم". أهـ (١٥١٩)

وهذا القول: دلت عليه آيات من كتاب الله، جاء فيها التصريح بالبكم والصَّمَم والعمى مُسنداً إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويبصرون، والمراد بصممهم: صممهم عن سماع ما ينفعهم دون غيره، فهم يسـمعون غيره، وكذلك في البصـر والكلام، وذلك كقولـه تعالى في المنافقين: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ) [البقرة:١٨] فقد قال فيهم: (صم بكم) مع شدة فصاحتهم، وحلاوة ألسنتهم، كما صرح به في قولـــه تعالى فيهم: (وَإِن يَقُولُوا تَسْـمَعْ لِقَوْلِهِمْ) [المنافقون:٤] أي لفصـاحتهم، وقولـــه تعالى: (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَـلَقُوكُم بِأَلْسِـنَةٍ حِدَادٍ) [الأحزاب:١٩]، فهؤلاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم، وإذا ذهب الخوف سلقوا المسلمين بألسِنةٍ حِداد، هم الذين قال الله فيهم: صـم بكم عمي، وما ذلك إلا أن صـممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شـيء خاص، وهو ما يُنتفع به من الحق، فهذا وحده هو الذي صَـمُّوا عنه فلم يسـمعوه، وبكموا عنه فلم ينطقوا به، وعموا عنه فلم يروه، مع أنهم يسـمعون غيره ويبصـرونه وينطقون به، كما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى

(١٥١٨) تهذيب الآثار (٢/٥٢٠).

(١٥١٩) مجموع الفتاوى (٤/٢٩٨).



عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون) [الأحقاف:٢٦].(١٥٢٠)

واعتُرِضَ هذا القول: بأن فيه قلب للتشبيه المذكور في الآيات، حيث جُعل المشبه به مشبهاً؛ لأن القيد المذكور في هذا القول يصدق على موتى الأحياء من الكفار، فإنهم يسمعون حقيقة، ولكن لا ينتفعون من سماعهم، كما هو مشاهد، فكيف يجوز جعل المشبه بهم-من موتى القبور-مثلهم في أنهم يسمعون ولكنهم لا ينتفعون من سماعهم، مع أن المشاهد أنهم لا يسمعون مطلقاً، ولذلك حسن التشبيه المذكور في الآيات، فبطل القيد الذي ذكره أصحاب هذا القول. (١٥٢١)

القول الثالث: أن معنى الآيات: إنك لا تُسمع الموتى بطاقتك وقدرتك، ولكن الله تعالى هو الذي يسمعهم إذا شاء؛ إذ هو القادر على ذلك دون من سواه.

وهذا رأي: ابن التين (١٥٢٢)، والإسماعيلي (١٥٢٣)، وذكره ابن جرير الطبري احتمالاً آخر في معنى الآية (١٥٢٤).

واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

الدليل الأول: أن الله تعالى بعد أن نفى السماع قال:(وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ) [النمل: ٨١]، فبين أن الهداية من الكفر إلى الإيمان بيده دون من سواه، فنفيه سبحانه عن نبيه ﷺ أن يكون قادراً أن يُسمع الموتى إلا بمشيئته، هو كنفيه أن يكون قادراً على هداية الكفار إلا بمشيئته.

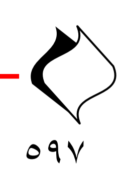
(١٥٢٠) انظر: أضواء البيان (٦/٤٢٠-٤٢١).

(١٥٢١) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢٢).

(١٥٢٢) نقله عنه الحافظ ابن حجر، في الفتح (٣/٢٧٧).

(١٥٢٣) المصدر السابق.

(١٥٢٤) تهذيب الآثار (٢/٥١٩).



الدليل الثاني: أن الله تعالى أثبت لنفسه القدرة على إسماع من شاء من خلقة بقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء)، ثم نفى عن نبيه ﷺ القدرة على ما أثبته وأوجبه لنفسه من ذلك، فقال له: (وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) ولكن الله هو الذي يسمعهم دونك وبيده الإفهام والإرشاد والتوفيق، وإنما أنت نذير فبلغ ما أرسلت به.(١٥٢٥)

أدلة القائلين بإثبات السماع مطلقاً للأموات:

استدل القائلون بإثبات السماع مطلقاً للأموات بأدلة منها:

الدليل الأول: مناجاة النبي ﷺ لقتلى بدر من المشركين (١٥٢٦)، وهذا الحديث الصحيح أقسم فيه النبي ﷺ أن الأحياء الحاضرين ليسوا بأسمع لما يقوله ﷺ من أولئك الموتى بعد ثلاث، وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى، ولم يذكر النبي ﷺ فيه تخصيصاً.(١٥٢٧)

واعتُرِضَ: بأن عائشة رضي الله عنها روت الحديث بلفظ: «إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ»، وهذا يدل على أن الرواية التي فيها التصريح بالسماع غير محفوظة.

وأجيب: بأن تأول عائشة رضي الله عنها بعض آيات القرآن، لا تُرد به روايات الصحابة العدول الصحيحة الصريحة عنه ﷺ، ويتأكد ذلك بثلاثة أمور:

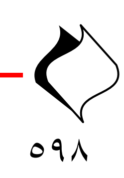
الأول: أن رواية العدل لا ترد بالتأويل.

الثاني: أن عائشة رضي الله عنها لما أنكرت رواية ابن عمر عن النبي ﷺ: ((إنهم ليسمعون الآن ما أقول)). قالت: إن الذي قاله ﷺ:«إنهم ليعلمون الآن أن

(١٥٢٥) انظر: تهذيب الآثار، للطبري (٢/٥١٩).

(١٥٢٦) تقدم الحديث في أول المسألة.

(١٥٢٧) انظر: أضواء البيان (٦/٤٢٢).



الذي كنت أقول لهم هو الحق » فأنكرت السماع ونَفَتْهُ عنهم، وأثبتت لهم العلم، ومعلومٌ أنَّ من ثبت له العلم صح منه السماع.

الثالث: هو ما جاء عنها مما يقتضي رجوعها عن تأويلها إلى الروايات الصحيحة، قال الحافظ ابن حجر: «ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة وفيه: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وأخرجه أحمد (١٥٢٨) بإسناد حسن؛ فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار، لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة، لكونها لم تشهد القصة». أهـ (١٥٢٩)

وقال الإسماعيلي: «كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رَدِّ رواية الثقة إلا بنصٍ مثله، يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته». أهـ (١٥٣٠) (١٥٣١)

(١٥٢٨) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٦/١٧٠)، والطبري في تهذيب الآثار (٢/٥١٧)، من طريق هُشَيْمٌ قَالَ: أخبرنا مُغِيرَةُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بِأُولَئِكَ الرَّهْطِ فَأُلْقُوا فِي الطُّوَى، عُتْبَةُ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ، وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: جَزَاكُمُ اللَّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيٍّ، مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْمًا جَيَّفُوا ؟ فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْهُمْ، أَوْ لَهُمْ أَفْهَمُ لِقَوْلِي مِنْكُمْ».

وإسناده ضعيف، إبراهيم: هو ابن يزيد النخعي، لم يسمع من عائشة، ورواية مغيرة بن مقسم عنه ضعيفة.

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٩٠) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات، إلا أن إبراهيم لم يسمع من عائشة، ولكنه دخل عليها». وانظر: مسند الإمام أحمد (٤٢/٢٣٠)، بإشراف د/ عبد الله التركي.

(١٥٢٩) فتح الباري (٧/٣٥٤).

(١٥٣٠) انظر: فتح الباري (٧/٣٥٤).

(١٥٣١) أضواء البيان (٦/٤٢٩)، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٥٨٥)، وأهوال القبور، ص (١٣٤).

الدليل الثاني: عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ....»(١٥٣٢)، وهذا الحديث فيه تصريح من النبي ﷺ بأن الميت في قبره يسمع قرع نعال من دفنوه إذا رجعوا، وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى، وظاهره العموم في كل من دُفِنَ، ولم يذكر النبي ﷺ فيه تخصيصاً. (١٥٣٣)

واعتُرِضَ: بأن ما ورد في هذا الحديث مخصوص بأول الدفن، عند سؤال الملكين، وهو غير دائم، فلا يفيد عموم سماع الأموات في كل الأحوال والأوقات. (١٥٣٤)

وأيضاً: فإن الروح تعاد للبدن عند المساءلة -كما ثبت بذلك الحديث- (١٥٣٥) لذا فإن سماع الميت قرع النعال، إنما هو بسبب اتصال الروح بالبدن، وهذا الاتصال غير دائم، بل هو مخصوص بوقت السؤال (١٥٣٦)، وعليه فلا يصح الاستدلال بهذا الحديث، على عموم سماع الأموات في كل وقت وحين.

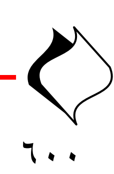
(١٥٣٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث (٢٨٧٠).

(١٥٣٣) أضواء البيان (٦/٤٢٣، ٤٢٥)، وانظر: تفسير القرطبي (١٣/١٥٤)، ومجموع الفتاوى (٤/٢٩٩)، وأهوال القبور، ص (١٣٤)، والروح (٥٤، ١٤١)، وروح المعاني (٢١/٧٦).

(١٥٣٤) انظر: فتح القدير، لابن الهمام (٢/١٠٤)، وفيض القدير (٢/٣٩٨)، ومحاسن التأويل (٨/٢١).

(١٥٣٥) عود الروح للبدن وقت المسائلة في القبر، جاء في حديث طويل، من رواية المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب ﷺ، مرفوعاً، والشاهد من الحديث قوله ﷺ:«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ....». وسيأتي الحديث بطوله في مبحث الترجيح.

(١٥٣٦) قال الحافظ ابن حجر، في فتح الباري (٣/٢٨٤): «الحياة في القبر للمساءلة، ليست الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا، التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبيره وتصرفه وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة، فهي إعادة عارضة، كما حيي خلق لكثير من الأنبياء لمساءلتهم عن أشياء ثم عادوا موتى». أهـ. وانظر: الروح، لابن القيم، ص (١٥١)، وأهوال القبور، لابن رجب، ص (١٣٧).



الدليل الثالث: عن أبي هريرة ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ».(١٠٣٧)، وهذا الحديث فيه مخاطبة النبي ﷺ لأهل القبور بقوله:« السلام عليكم »، وقوله:« وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »، وهذا يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه؛ لأنهم لو كانوا لا يسمعون سلامه وكلامه لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم، ولا شك أن ذلك ليس من شأن العقلاء، فمن البعيد جداً صدوره من النبي ﷺ.(١٠٣٨)

واعتُرِضَ: بأن الصحابة ﷺ كانوا يخاطبون النبي ﷺ في تشهد الصلاة بقولهم: "السلام عليك أيها النبي... " (١٠٣٩) وهم خلفه، وقريباً منه، وبعيداً عنه، في مسجده، وفي غير مسجده، وكذا جمهور المسلمين اليوم، وقبل اليوم، الذين يخاطبونه بذلك، أفيقال: إنه يسمعهم، أو أنه من المحال السلام عليه، وهو لا يشعر بهم ولا يعلم؟ (١٠٤٠)

واعتُرِضَ أيضاً: بأن السلام على القبور إنما هو عبادة، والقصد منه تذكير النفس بحالة الموت، وبحالة الموتى في حياتهم، وليس القصد من السلام مخاطبتهم، أو أنهم يسمعون ويجيبون. (١٠٤١)

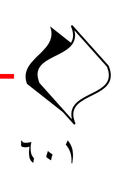
(١٠٣٧) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الطهارة، حديث (٢٤٩).

(١٠٣٨) أضواء البيان (٦/٤٢٥، ٤٣٢)، وانظر: تفسير القرطبي (١٣/١٥٤)، ومجموع الفتاوى (٢٤/٢٩٧)، وتفسير ابن كثير (٣/٤٤٧-٤٤٩)، والروح، ص (٥٤).

(١٠٣٩) عن ابن عباس ﷺ قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ، فَكَانَ يَقُولُ: التَّحِيَّاتُ الْمُبَارَكَاتُ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ».
أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، حديث (٤٠٣).

(١٠٤٠) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٣٩)، وانظر تعليقه على أصل الكتاب، ص (٩٦).

(١٠٤١) المحرر الوجيز (٤/٢٧٠).

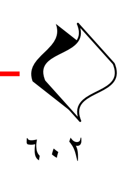


الدليل الرابع: ما جرى عليه عمل الناس-قديماً وإلى الآن-من تلقين الميت في قبره، ولولا أنه يســـمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة، وكان عبثاً، فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره، فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل: يا فلان بن فلانة، فإنه يســـمعه ولا يجيب، ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يستوي قاعداً، ثم يقول: يا فلان بن فلانة، فإنه يقول: أرشـــدنا رحمك الله، ولكن لا تشـــعرون، فليقل: أذكر ما خرجت عليه من الدنيا، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، فإن منكراً ونكيراً، يأخذ كل واحد منهما بيد صـــاحبه ويقول: انطلق بنا، ما نقعد عند من قد لُقِّنَ حُجَّته، فيكون اللهُ حجيجَه دونهما، فقال رجل: يا رسول الله، فإن لم يعرف أمه؟ قال: فينسبه إلى حواء، يا فلان بن حواء ».(١٠٤٢) قالوا: فهذا الحديث وإن لم يثبت إلا أن اتصـــال العمل به في سـائر الأمصـار والأعصـار، من غير إنكار، كافٍ في العمل به، ولولا أن المخاطب يســـمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشـــب والحجر والمعدوم، وهذا وإن استحسـنه واحد، فالعلماء قاطبة على اسـتقباحه واسـتهجانه، قالوا: وقد كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»(١٠٤٣)، فأخبر النبي ﷺ أنه يُسـأل حينئذ، وإذا كان يُسـأل فإنه يسمع التلقين.(١٠٤٤)

(١٠٤٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/٢٤٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٤٥): «رواه الطبراني في الكبير، وفي إسـناده جماعة لم أعرفهم». وقال ابن القيم في حاشـيته على مختصـر سـنن أبي داود (١٣/١٩٩): «هذا الحديث متفق على ضعفه».

(١٠٤٣) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الجنائز، حديث (٣٢٢١). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٣٠٥).

(١٠٤٤) الروح، لابن القيم، ص (٧٠-٧١)، وانظر: أضواء البيان (٦/٤٣٧).



واعتُرِضَ: بأن حديث تلقين الميت لا يصح، بل هو حديث متفق على ضعفه. (١٠٤٥)

الدليل الخامس: أن عمرو بن العاص ﷺ قال-في وصيته عند موته-:«فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا (١٠٤٦) عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي"(١٠٤٧)، وهذا يدل على أن الميت ترد عليه روحه ويسمع حس من هو على قبره وكلامهم، وهذا الحديث إنما قاله عمرو عن النبي ﷺ؛ لأن مثله لا يدرك إلا من جهة النبي ﷺ.(١٠٤٨)

الدليل السادس: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«ما من رجل يمر على قبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام». (١٠٤٩)

(١٠٤٥) انظر: أحكام الجنائز، للألباني، ص (١٩٨).

(١٠٤٦) أي: ضعوه وضعاً سهلاً. انظر: مشارق الأنوار (٢/٢٢٣)، والنهاية في غريب الحديث (٢/٤١٣).

(١٠٤٧) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٢١).

(١٠٤٨) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٣٣٢)، والروح، ص (٦٣-٦٤)، وأهوال القبور، ص (١٤٣)، وأضواء البيان (٦/٤٣٢).

(١٠٤٩) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/٥٨)، وتمام في «الفوائد» (١/٦٣)، والبغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/١٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/٣٨٠)، (٢٧/٦٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٩١١)، جميعهم من طريق: الربيع بن سليمان المرادي، عن بشر بن بكر، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، به. مرفوعاً.

وأخرجه ابن جميع الصيداوي في «معجم الشيوخ» (١/٣٥٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/٥٩٠)، كلاهما من طريق: الربيع بن سليمان، عن بشر بن بكر، عن ابن زيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، مرفوعاً.

وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/٣٧٩) من طريق محمد بن أحمد الأعرابي، عن بكر بن سهل الدمياطي، عن محمد بن مخلد الرعيني، عن ابن زيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، مرفوعاً.

وأخرجه أيضاً (١٠/٣٨٠) من طريق محمد بن يعقوب الأصم، عن بكر بن سهل، عن محمد بن مخلد، عن ابن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، مرفوعاً.

وعن أبي هريرة ﷺ:"أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحدٍ مَرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه فوقف عليه رسول الله ﷺ ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) [الأحزاب:٢٣] ثم قال رسول الله ﷺ:«أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه».(١٥٥٠)

والحديث مداره على «عبد الرحمن بن زيد بن أسلم» متفق على تضعيفه، وقد اضطرب فيه. قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٩١١/٢): «لا يصح هذا الحديث، وقد أجمعوا على تضعيف عبد الرحمن بن زيد. قال ابن حبان في كتابه «المجروحين» (٥٧/٢): كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك». أهـ

وقد تُوبع عبد الرحمن بن زيد في روايته عن أبيه، فأخرج ابن أبي الدنيا في «كتاب القبور» كما في الروح، لابن القيم، ص (٥٥) قال: حدثنا محمد بن قدامة الجوهري، حدثنا معن بن عيسى القزاز، حدثنا هشام بن سعد، حدثنا زيد بن أسلم، عن أبي هريرة ﷺ قال: «إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه ردَّ عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام».

إلا أن هذه المتابعة ضعيفة ولا يصح اعتبارها؛ لثلاث علل:

الأولى: أنها موقوفة على أبي هريرة.

العلة الثانية: الانقطاع بين زيد بن أسلم، وأبي هريرة؛ فإن زيداً لم يسمع من أبي هريرة، كما قال ابن معين، والذهبي. انظر: تهذيب التهذيب (٣٤١/٣)، وجامع التحصيل (١٧٨/١)، وسير أعلام النبلاء (٥٩٠/١٢).

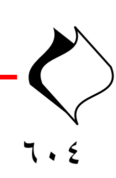
العلة الثالثة: ضعف الجوهري، قال ابن معين: «ليس بشيء»، وقال أبو داود: «ضعيف، لم أكتب عنه شيئاً قط». انظر: تهذيب الكمال (٣١٢/٢٦)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني (٤٧٤/٩).

(١٥٥٠) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧١/٢) من طريق سليمان بن بلال، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قَطَن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة، به. مرفوعاً.

قال الحاكم: «حديث صحيح على شرط الشيخين». وتعقبه الذهبي بقوله: «كذا قال، وأنا أحسبه موضوعاً، وقطن لم يروِ له البخاري، وعبد الأعلى لم يخرجا له».

وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٤/٢٠)، عن أبي بلال الأشعري، عن يحيى بن العلاء، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن، عن عبد الله بن عمر، به.

وذِكْرُ ابن عمر فيه وهم، أو تصحيف؛ بدليل أن أبا نعيم الأصبهاني أخرجه في الحلية (١٠٨/١)، من طريق الطبراني، عن عبيد بن عمير، مرسلاً. ولم يذكر ابن عمر.



وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ:"ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام ».(١٥٥١)

وأخرجه الحاكم في المستـدرك (٣١/٣)، من طريق العطاف بن خالد المخزومي، قال: حدثني عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن أبيه: أن النبي ﷺ زار قبور الشـهداء بأحد فقال: اللهم إن عبدك ونبيك يشـهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه».

قال الحاكم: «هذا إسناد مدني صحيح ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «مرسل».

وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١٢١/٣)، قال: أخبرنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا عمرو بن صهبان، عن معاذ بن عبد الله، عن وهب بن قطن، عن عبيد بن عمير، مرسلاً.

وأخرجه الحاكم في المسـتدرك (٢٢١/٣) قال: حدثني محمد بن صـالح بن هانئ، ثنا يحيى بن محمد بن يحيى الشهيد، ثنا عبد الله بن عبد الوهاب الحجبي، ثنا حاتم بن إسماعيل، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي ذر ﷺ قال: «لما فرغ رسـول الله ﷺ يوم أحد مر على مصـعب الأنصاري مقتولاً على طريقة، فقرأ: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ).

قلت: الحديث معلول، بسبب الاضطراب في إسناده، قال الحافظ ابن رجب في «أهوال القبور»، ص (١٤٢): «ورواه يحيى بن العلاء، عن عبد الأعلى بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ. خرجه الطبراني، وذكر ابن عمر فيه وهم». أهـ.

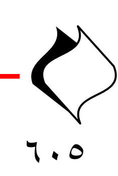
ثم قال الحافظ ابن رجب: «وروي عن عبيد بن عمير، عن أبي ذر، ولعل المرسل أشبه، وبالجملة الضعف أشبه، وبالجملة فهذا إسناد مضطرب، ومتنه مختص بالشهداء». أهـ

ولـه شاهد من حديث سهل بن سعد ﷺ، أخرجه ابن الجعد في مسنده (٤٣٢/١) قال: حدثنا محمد بن حبيب الجارودي، ثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل بن سعد قال: «وقف رسول الله ﷺ على قتلى أحد فقال: اشهدوا لهؤلاء الشهداء عند الله عز وجل يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم، فو الذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رجوت له، أو قال: إلا ردوا عليه».

وفي إسناده «محمد بن حبيب الجارودي» قال الذهبي في الميزان (١٠٠/٦): «غمزه الحاكم النيسابوري، وأتى بخبر باطل اتهم بسنده». أهـ، قلت: وحديثه هذا الأشبه أن إسناده موضوع. وانظر: لسان الميزان (١١٥/٥)، والمغني في الضعفاء (٥٦٥/٢).

النتيجة: أن الحديث ضعيف، وممن ضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣٦٥/١١)، حديث (٥٢٢١).

(١٥٥١) أخرجه ابن عبد البر، في الاستذكار (١٦٥/٢) قال: أخبرنا أبو عبد الله عبيد بن محمد قراءة مني عليه سنة تسعين وثلاثمائة في ربيع الأول قال: أملت علينا فاطمة بنت الريان المستملي في دارها بمصر في شوال سنة اثنتين



وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به، ورد عليه، حتى يقوم ».(١٥٥٢)

وأربعين وثلاث مائة قالت: حدثنا الربيع بن سليمان المؤذن صاحب الشافعي قال: حدثنا بشر بن بكير، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس ب قال: قال رسول الله ﷺ....، فذكره.

قال الحافظ ابن رجب: «قال عبد الحق الإشبيلي: إسناده صحيح. يشير إلى أن رواته كلهم ثقات، وهو كذلك، إلا أنه غريب، بل منكر».

وقد تبع العراقيُ في «تخريج الإحياء» (***) عبدَ الحق الإشبيلي في تصحيحه للحديث، وأقرّه المناوي في «فيض القدير» (٥/٤٨٧).

قال الألباني، في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٩/٤٧٥): «هذا إسناد غريب؛ الربيع بن سليمان فمن فوقه؛ ثقات معروفون من رجال التهذيب، وأما من دونه فلم أعرفهما، لا شيخ ابن عبد البر، ولا المملية فاطمة بنت الريان، وظني أنها تفردت — بل شذت — بروايتها الحديث عن الربيع بن سليمان بهذا الإسناد الصحيح له عن ابن عباس؛ فإن المحفوظ عنه إنما هو بالإسناد الأول». أهـ

قلت: ومراده بالإسناد الأول: حديث أبي هريرة، من طريق زيد بن أسلم، وقد تقدم.

ثم ساق الألباني الحديث من طريق بشر بن بكر، عن عبد الرحمن بن زيد، وبيّن أن هذا هو المحفوظ، ثم قال: «ومن هذا التحقيق يتبين أن قول عبد الحق الإشبيلي إسناده صحيح، غير صحيح، وإن تبعه العراقي في تخريج الإحياء، وأقره المناوي». أهـ

وقال ابن باز في مجموع الفتاوى (***): «في إسناده نظر».

قلت: إسناد هذا الحديث الأشبه أنه موضوع، وأنه مركب من إسناد حديث أبي هريرة، الذي يُروى من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ومن الإسناد الذي يُروى من طريق قطن بن وهب، وقد تقدما.

(١٥٥٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» [كما في الروح، لابن القيم، ص (٥٤)] قال: حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد بن أسلم، عن عائشة ل قالت: قال رسول الله ﷺ:«ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلا استأنس به، وردَّ عليه، حتى يقوم».

قال الحافظ ابن رجب في «أهوال القبور»، ص (١٤٣): «رواه عبد الله بن سمعان، وهو متروك».

وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (***): «حديث عائشة (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم) أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور، وفيه عبد الله بن سمعان، ولم أقف على حاله». أهـ

وقال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٣/٢٩٧): «عبد الله بن سمعان: ذكره شيخي العراقي في تخريج الإحياء في حديث عائشة، وقال: وفي سنده عبد الله بن سمعان لا أعرف حاله. قلت: يجوز لاحتمال أن يكون هو المخرّج له في بعض الكتب، وهو عبد الله بن زياد بن سمعان، ينسب إلى جده كثيراً، وهو أحد الضعفاء». أهـ

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو رزين: يا رســـول الله، إن طريقي على الموتى، فهل من كلام أتكلم به إذا مررت عليهم؟ قال: قل: الســـلام عليكم أهل القبور من المسـلمين والمؤمنين، أنتم لنا سـلف، ونحن لكم تبع، وإنا إن شـاء الله بكم لاحقون. قال أبو رزين: يا رسـول الله، يســمعون؟ قال: يســمعون، ولكن لا يســتطيعون أن يجيبوا. قال: يا رزين، ألا ترضى أن يرد عليك بعددهم من الملائكة ».(١٠٥٣)

قالوا: فهذه الأحاديث يعضد بعضها بعضاً، وهي تدل صراحة على أن الميت يشعر بزيارة الحي، ويرد عليه السلام. (١٠٥٤)

واعتُرِضَ: بأن هذه الأحاديث كلها ضـــعيفة، ولا يصـــح الاســـتدلال بها. (١٠٥٥)

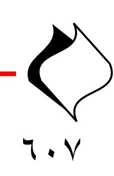
الدليل السابع: عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:« مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي، حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ».(١٠٥٦)

(١٠٥٣) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١٩/٤)، من طريق: محمد بن الأشعث، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، به.
وأعله العقيلي بمحمد بن الأشـعث، حيث قال: «محمد بن الأشـعث: مجهول في النسـب والرواية، وحديثه غير محفوظ» ثم ساق الحديث وقال: «ولا يعرف إلا بهذا اللفظ، وأما السلام عليكم يا أهل القبور، إلى قوله: وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. فيروى بغير هذا الإسناد، من طريق صالح، وسائر الحديث غير محفوظ». أهـ
وأقرّه الحافظ ابن رجب، في «أهوال القبور»، ص (١٤١)، والذهبي في الميزان (٧٤/٦)، وابن حجر في اللســان (٨٤/٥). وحكم على الحديث بالنكارة: الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣٧٢/١١).

(١٠٥٤) انظر: الروح، لابن القيم، ص (٥٤-٧٧)، وأهوال القبور، ص (١٤٢)، وروح المعاني (٧٦/٢١).

(١٠٥٥) انظر: روح المعاني (٧٨/٢١)، ومقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٣٨).

(١٠٥٦) أخرجه الإمام أحمد في مسـنده (٥٢٧/٢)، وأبو داود في سـننه، في كتاب المناسـك، حديث (٢٠٤١)، وصححه النووي في «رياض الصالحين» ٣١٦/١)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٦٣/٦): «رواته ثقات»، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٥٧٠/١).



واعتُرِضَ: بأن الحديث ليس صـــريحاً في سماعه ﷺ ســـلام من ســـلم عليه عند قبره.(١٥٥٧)

الدليل الثامن: كثرة المرائي التي تقتضي سماع الموتى ومعرفتهم لمن يزورهم، وهذه المرائي وإن لم تصلح بمجردها لإثبات مثل ذلك، فهي على كثرتها وأنها لا يحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى، وقد قال النبي ﷺ:"أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي الْعَشْــرِ الْأَوَاخِرِ »(١٥٥٨) يعني ليلة القدر، فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شـــيء كان كتواطىء روايتهم له.(١٥٥٩)

(١٥٥٧) قاله الألباني في تعليقه على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٨٠).

(١٥٥٨) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجمعة، حديث (١١٥٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الصيام، حديث (١١٦٥).

(١٥٥٩) انظر: الروح، ص (٦٣)، وأضواء البيان (٤٣١/٦).

الفريق الثاني: مذهب نفي سماع الأموات مطلقاً، وتأويل الأحاديث التي فيها إثبات السماع.

حيث ذهب هؤلاء إلى إجراء الآيات التي فيها نفي السماع على ظاهرها وعمومها، وقالوا: إن الميت لا يسمع شيئاً من كلام الأحياء، ولا يشعر بهم.

واختلف أصحاب هذا المذهب في الجواب عن الأحاديث التي فيها إثبات السماع على أقوال:

القول الأول: أن ما وقع للنبي ﷺ-من إسماع قتلى بدر-هو معجزة من معجزاته ﷺ، فقد أحياهم الله له حتى سمعوا كلامه، وهذا خاص به دون غيره من الناس.

وهذا رأي: قتادة، والبيهقي (١٥٦٠)، والمازري (١٥٦١)، وابن عطية، وابن الجوزي (١٥٦٢)، وابن قدامة (١٥٦٣)، والسهيلي (١٥٦٤)، وابن الهمام (١٥٦٥)، والقاضي أبي يعلى (١٥٦٦)، والألباني.

قال قتادة: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً وَنَقِيمَةً وحسرة وندماً». (١٥٦٧)

وقال ابن عطية: «فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة لمحمد ﷺ، في أن رد الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم

(١٥٦٠) نقله عنه الحافظ ابن حجر، في الفتح (٣٢٤/٧).

(١٥٦١) المعلم بفوائد مسلم (***).

(١٥٦٢) كشف المشكل (١٤٨/١).

(١٥٦٣) المغني (٣٥٢/٧)، (٦٣/١٠).

(١٥٦٤) الروض الأنف (***). نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٠٤/٧).

(١٥٦٥) فتح القدير، لابن الهمام (١٠٤/٢).

(١٥٦٦) نقله عنه الحافظ ابن رجب، في «أهوال القبور»، ص (١٣٣).

(١٥٦٧) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، حديث (٣٩٧٦).

على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين منهم ».(١٥٦٨)

وقال الألباني: «والتحقيق أن الأدلة من الكتاب والسنة على أن الموتى لا يسمعون، وهذا هو الأصل، فإذا ثبت أنهم يسمعون في بعض الأحوال، كما في حديث خفق النعال، أو أن بعضهم سمع في وقت ما، كما في حديث القليب، فلا ينبغي أن يُجعل ذلك أصلاً، فيقال إن الموتى يسمعون؛ فإنها قضايا جزئية، لا تُشَكِّل قاعدة كلية، يُعارض بها الأصل المذكور، بل الحق أنه يجب أن تستثنى منه، على قاعدة استثناء الأقل من الأكثر، أو الخاص من العام». أهـ (١٥٦٩)

أدلة هذا القول:

استدل أصحاب هذا القول على ما ذهبوا إليه بأدلة منها:

الدليل الأول: أن النبي ﷺ قال: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ولم يقل: «لما يُقال»، فدل على أن سماعهم هذا، هو من خصائصه ﷺ دون غيره من الناس.(١٥٧٠)

الدليل الثاني: أن الحديث رُوي بلفظ: «وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَسْمَعُونَ كَلَامِي"(١٥٧١)، حيث قيد النبي ﷺ سماعهم له باللحظة التي ناجاهم فيها، ومفهومه أنهم لا يسمعون في غير هذا الوقت، وفيه تنبيه على أن الأصل في الموتى أنهم لا يسمعون، ولكن أهل القليب في ذلك الوقت قد سمعوا نداء النبي ﷺ، وبإسماع الله تعالى إياهم، خرقاً للعادة، ومعجزة للنبي ﷺ.(١٥٧٢)

(١٥٦٨) المحرر الوجيز (٢٧٠/٤، ٤٣٦).

(١٥٦٩) مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٤٠). باختصار.

(١٥٧٠) انظر: روح المعاني (٧٧/٢١).

(١٥٧١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣١/٢). وإسناده حسن.

(١٥٧٢) انظر: روح المعاني (٧٧/٢١)، ومقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢٩).

الدليل الثالث: أن النبي ﷺ أقرَّ عمر وغيره من الصحابة ﵃ على ما كان مستقراً في نفوسهم واعتقادهم أن الموتى لا يسمعون، يدل على ذلك رواية:«.... فَسَمِعَ عُمَرُ صَوْتَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُنَادِيهِمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ؟ وَهَلْ يَسْمَعُونَ؟ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا» (١٥٧٣)، وقد صرح عمر ﵁ أن الآية المذكورة هي العمدة في تلك المبادرة، وأنهم فهموا من عمومها دخول أهل القليب فيه، ولذلك أشكل عليهم الأمر، فصارحوا النبي ﷺ بذلك ليزيل إشكالهم، فبين لهم حقيقة الأمر، وبهذا يتضح أن النبي ﷺ أقر الصحابة – وفي مقدمتهم عمر – على فهمهم للآية على ذلك الوجه العام الشامل لموتى القليب وغيرهم؛ لأنه لم يُنكِرْه عليهم، ولا قال لهم: أخطأتم، فالآية لا تنفي مطلق سماع الموتى، ولا أنه ﷺ أقرهم على ذلك، ولكنه بين لهم ما كان خافياً عليهم من شأن القليب، وأنهم سمعوا كلامه حقاً، وأن ذلك أمر خاص مستثنى من الآية، معجزة له ﷺ. (١٥٧٤)

واعتُرِضَ: بأن سماع الموتى قد ثبت في غير هذه القصة، فعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ....»(١٥٧٥)، فقد أثبت في هذا الحديث سماع الموتى لقرع النعال، فدل على عدم اختصاص ذلك بالنبي ﷺ.

وأجيب: بأن ما ورد في هذا الحديث مخصوص بأول الدفن عند سؤال الملكين وهو غير دائم، فلا يفيد عموم سماع الأموات في كل الأحوال والأوقات. (١٥٧٦)

(١٥٧٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٨٧). وسنده صحيح على شرط مسلم.

(١٥٧٤) انظر: فتح الباري (٧/٣٥٤)، ومقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٣٠-٣١).

(١٥٧٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (١٣٣٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث (٢٨٧٠).

(١٥٧٦) انظر: فتح القدير، لابن الهمام (٢/١٠٤)، وفيض القدير (٢/٣٩٨)، ومحاسن التأويل (٨/٢١).

القول الثاني: أن معنى الحديث إخبار النبي ﷺ بأن المشـــركين من قتلى بدر لما عاينوا العذاب بعد موتهم علموا أن ما كان يدعوهم إليه هو الحق، وأن هذا هو مراده ﷺ، ولم يُرِدْ أنهم يسمعون كلامه وقت مخاطبته لهم.

وهذا مذهب عائشة رضي الله عنها، حيث ذهبت إلى تخطئة ابن عمر في روايته للحديث، وأنه لم يحفظه بلفظه عن النبي ﷺ.

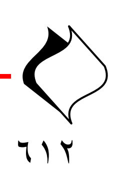
عن هشـام بن عروة، عن أبيه قال: «ذُكِرَ عِنْدَ عَائِشَـةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَفَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ:«إِنَّ الْمَيِّـتَ يُعَـذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِبُكَـاءِ أَهْلِـهِ» فَقَـالَـتْ: وَهَـلَ (١٥٧٧)؛ إِنَّمَا قَالَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّهُ لَيُعَذَّبُ بِخَطِيئَتِهِ وَذَنْبِهِ، وَإِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ الْآنَ». قَالَتْ: وَذَاكَ مِثْلُ قَوْلِهِ: إِنَّ رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْقَلِيبِ، وَفِيهِ قَتْلَى بَدْرٍ مِنْ الْمُشْـرِكِينَ؛ فَقَالَ لَهُمْ مَا قَالَ: «إِنَّهُمْ لَيَسْـمَعُونَ مَا أَقُولُ»، إِنَّمَا قَالَ: «إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ»، ثُمَّ قَرَأَتْ:(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) و (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)». (١٥٧٨)

القول الثالث: أن النبي ﷺ قال ذلك على جهة الموعظة للأحياء، لا لإفهام الموتى.

(١٥٧٧) الوهل: هو الوهم والغلط، يقال: وهل إلى الشيء، إذا ذهب وهمه إليه، ويكون بمعنى سها وغلط، يقال منه: وهل في الشيء، وعن الشيء. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/٢٣٢)، ومشارق الأنوار (٢/٢٩٧).

(١٥٧٨) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، حديث (٣٩٧٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنائز، حديث (٩٣٢).

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٧٦)، بإسناد حسن، عن عائشة ل قالت: «أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقَتْلَى أَنْ يُطْرَحُوا فِي الْقَلِيبِ فَطُرِحُوا فِيهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ فَإِنَّهُ انْتَفَخَ فِي دِرْعِهِ فَمَلَأَهَا فَذَهَبُوا يُحَرِّكُوهُ فَتَزَايَلَ فَأَقَرُّوهُ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِ مَا غَيَّبَهُ مِنْ التُّرَابِ وَالْحِجَارَةِ فَلَمَّا أَلْقَاهُمْ فِي الْقَلِيبِ وَقَفَ عَلَيْهِمْ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا. فَقَالَ لَهُ أَصْـــحَابُهُ: يَا رَسُـــولَ اللَّهِ، أَتُكَلِّمُ قَوْمًا مَوْتَى؟ فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا وَعَدْتُهُمْ حَقٌّ. قَالَتْ عَائِشَـــةُ: وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: لَقَدْ سَمِعُوا مَا قُلْتَ لَهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ عَلِمُوا».



ذكره ابن الهمام وجهاً آخر في الجواب عن الحديث. (١٥٧٩)

أدلة القائلين بنفي سماع الأموات مطلقاً:

استدل القائلون بنفي سماع الأموات لكلام الأحياء بأدلة، منها:

الدليل الأول: أن في سياق آيتي النمل والروم ما يدل على أن الموتى لا يسمعون، وبيان ذلك أن الله تعالى قال في تمام الآيتين: (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) حيث شبه سبحانه موتى الأحياء من الكفار بالصم، والصم لا يسمعون مطلقاً، بلا خلاف، وهذا يدل على أن المشبه بهم، وهم الصم، والموتى، لهم حكم واحد، وهو عدم السماع، وفي التفسير المأثور ما يدل على هذا، فعن قتادة قال – في تفسير الآية –:« هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء، كذلك لا يسمع الكافر، (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءِ) يقول: لو أن أصم ولّى مدبراً ثم ناديته، لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما سمع"(١٥٨٠).(١٥٨١)

الدليل الثاني: أن عائشة، وعمر، وغيرهما من الصحابة ﷺ، فهموا الآيات على ظاهرها من نفي سماع الموتى مطلقاً، وفهمهم حجة، وهو دليل على أن الآيات صريحة في نفي سماع الأموات، ومما يؤيد صحة فهمهم أن النبي ﷺ أقرهم على ذلك، ولم يُنقل عنه ﷺ أنه خطأهم على فهمهم هذا. (١٥٨٢)

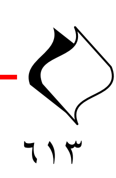
الدليل الثالث: قوله تعالى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ

(١٥٧٩) فتح القدير، لابن الهمام (١٩٥/٥).

(١٥٨٠) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩٧/١٠).

(١٥٨١) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢٣).

(١٥٨٢) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢٤)، والمعلم بفوائد مسلم (***)، وفتح القدير، لابن الهمام (١٩٥/٥).



وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [فاطر:١٣-١٤]، وهذه الآية صريحة في نفي السماع عن أولئك الذين كان المشركون يدعونهم من دون الله تعالى، وهم موتى الأولياء والصالحين، فدل على أن الموتى لا يسمعون مطلقاً. (١٥٨٣)

واعتُرِضَ: بأن هذا التفسير مخالف لما عليه الأكثر من المفسرين؛ لأنهم قالوا: إن المراد بالذين لا يسمعون في الآية: الأصنام؛ لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع، وإذا كان المنفي في الآية سماع الجمادات، انتفى الاستدلال بها على نفي سماع الأموات.

وأجيب: بأن الآية قد اختُلِفَ في تفسيرها على القولين المذكورين، والأصح أن المراد بالذين لا يسمعون هم الموتى من الأولياء والصالحين، يدل على ذلك:

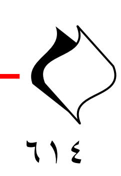
قوله تعالى في تمام الآية السابقة: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) والأصنام لا تبعث؛ لأنها جمادات غير مكلفة كما هو معلوم، بخلاف العابدين والمعبودين، فإنهم جميعاً محشورون، كما قال تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا) [الفرقان:١٧-١٨]

وقوله تعالى: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) [نوح:٢٣]، ففي التفسير المأثور عن ابن عباس ﷺ: «أن هؤلاء الخمسة أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هلك أولئك وَتَنَسَّخَ العلم عُبِدَتْ» (١٥٨٤). (١٥٨٥)

(١٥٨٣) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢٦).

(١٥٨٤) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، حديث (٤٩٢٠).

(١٥٨٥) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٢٤-٢٧).



الدليل الرابع: قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ» (١٥٨٦)، ووجه الاستدلال من الحديث أن النبي ﷺ لا يسمع سلام المسَلِّمِين عليه، إذ لو كان يسمعه بنفسه، لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه، وإذ الأمر كذلك فبالأولى أنه ﷺ لا يسمع غير السلام من الكلام، وإذا كان كذلك فلأن لا يسمع السلام غيرُه من الموتى أولى وأحرى. (١٥٨٧).

القول الرابع: أن الأصل عدم سماع الأموات؛ لعموم وظاهر الآيات، لكن يستثنى من ذلك ما صح به الدليل ولا يُتجاوزُ به إلى غيره، ومما ورد به الدليل: سماع قتلى بدر من المشركين، وسماع الميت لقرع النعال المشيعين له.

وهذا رأي: الشوكاني، والألوسي (١٥٨٨)، وذكره أبو العباس القرطبي احتمالاً آخر في الجمع، واختاره أبو عبد الله القرطبي (١٥٨٩).

قال أبو العباس القرطبي: «لو سلمنا أن الموتى في الآية على حقيقتهم؛ فلا تعارض بينها وبين أن بعض الموتى يسمعون في وقتٍ ما، أو في حالٍ ما، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص، وقد وجد هنا بدليل هذا الحديث (١٥٩٠)». أ.هـ (١٥٩١)

(١٥٨٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٨٧)، والترمذي، في سننه، في كتاب الدعوات، حديث (٣٦٠٠)، والنسائي في سننه، في كتاب السهو، حديث (١٢٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/٤١٠)، حديث (١٢٨١).

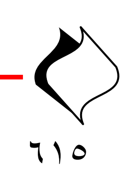
(١٥٨٧) انظر: مقدمة الألباني على كتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» ص (٣٦-٣٧).

(١٥٨٨) روح المعاني (٢١/٧٩).

(١٥٨٩) انظر: التذكرة، ص (١٥٢).

(١٥٩٠) أي: حديث القليب.

(١٥٩١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٥٨٦)، وانظر: (١/٣٣٣)، (٧/١٥١).



وقال الشـــوكاني: «وظاهر نفي إسماع الموتى العموم، فلا يُخَصُّ منه إلا ما ورد بدليل، كما ثبت في الصـــحيح أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب بدر، وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا». أهـ (١٥٩٢)

الفريق الثالث: التوقف.

وهذا مذهب ابن عبد البر، حيث أورد الآيات والأحاديث ثم قال: «وهذه أمور لا يُستطاع على تكييفها، وإنما فيها الاتباع والتسليم». أهـ (١٥٩٣).[١٥٩٤]

المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٦٢] "والإيمان بأن الرجل إذا مرض يأجره الله على مرضه".

الشرح

لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما مِن مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المسْلِمَ إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بها عنْه، حتَّى الشَّــوْكَةِ يُشــاكُها))١٥٩٥ فالمرض كفارة للذنوب، والأمراض تحط الخطايا عن المسلم كما تحط الشجرة ورقها.

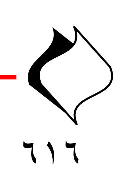
فعن عبد الله بن مسعود قال: دَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَهو يُوعَكُ، فَمَسِــسْــتُهُ بيَدِي، فَقُلتُ: يا رَســولَ اللهِ، إنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَــدِيدًا، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: ((أَجَلْ إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُم)) قالَ: فَقُلتُ: ذلكَ أنَّ لكَ أَجْرَيْنِ، فَقالَ رَســولُ اللهِ صَــلَّى اللَّهُ عليه وســلَّمَ: ((أَجَلْ))، ثُمَّ

(١٥٩٢) فتح القدير، للشوكاني (٢١٦/٤).

(١٥٩٣) التمهيد (٢٤٠/٢٠).

١٥٩٤ المصدر: التحقيق في سماع الأموات لكلام الأحياء، إعداد أحمد بن عبد العزيز القصير.

١٥٩٥ أخرجه البخاري (٥٦٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٢).



قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِن مَرَضٍ، فَما سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ به سَيِّئَاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا))[١٥٩٦].

وقد استشكل بعض الشراح المعاصرين قول المصنف **"يأجره الله على مرضه"** على اعتبار أن بعض الأحاديث جاءت بالقول بتكفير الذنوب وليس بإعطاء الأجر.

وهذا الإشكال لا وجه له لأن الأحاديث جاءت بذكر الأجر ومن ذلك أن حديث عبد الله بن مسعود السابق ذكره اشتمل على ذكر الأجر حيث قال ابن مسعود رضي الله عنه: "فَقُلتُ: ذلكَ أنَّ لكَ أجْرَيْنِ" فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال: ((أَجَلْ))، فالحديث اشتمل على الأمرين وجود الأجر وحط الخطايا ولا تعارض بين الأمرين.

ولا شك أن الرجل إذا مرض يأجره الله على مرضه، فالمؤمن حتى الشوكة يُشاكها يؤجر على ذلك، وفي الحديث: قوله صلى الله عليه وسلم: ((ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له درجة ومحيت عنه بها خطيئة)) [١٥٩٧].

وفي رواية: ((إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)) [١٥٩٨]. وفي بعض النسخ: ((وحط عنه بها)).

وفي رواية: ((إلا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة))[١٥٩٩].

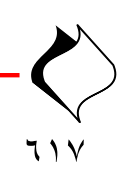
فكل أمرٍ وكل حال المؤمن له فيه أجر، إن سراء شكر فله الأجر وإن ضراء صبر فله الأجر وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

١٥٩٦ صحيح مسلم:٢٥٧١.

١٥٩٧ صحيح مسلم:٢٥٧٢.

١٥٩٨ صحيح مسلم:٢٥٧٢

١٥٩٩ أخرجه البخاري (٥٦٤٠) مختصرا بنحوه، ومسلم (٢٥٧٢) واللفظ له.



وسلم :((عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له))[١٦٠٠].

المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[٦٣] "والشهيد يأجره الله على القتل".

الشرح

وذلك لما روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة)) [١٦٠١].

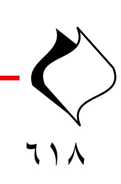
فالشهيد بالرغم من عظم منزلته الرفيعة التي يراها أُعدت له في أعلى درجات الجنة، فإنه يتمنى أن يعود إلى الدنيا، ليستمر في جهاد أعداء الله، فيقاتل ويُقتل ولو عشر مرات، لما يرى من ثواب الجهاد وكرامة المجاهدين عند الله عز وجل.

فالجهاد في سبيل الله من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرب به المتقربون وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض، وما ذاك إلا لما يترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين والمنافقين وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين.

وقال تعالى – في فضل المجاهدين: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

١٦٠٠ صحيح مسلم (٢٩٩٩).

١٦٠١ أخرجه البخاري (٢٨١٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٧٧).



وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ففي هذه الآية الكريمة الترغيب العظيم في الجهاد في سبيل الله-عز وجل-، وبيان أن المؤمن قد باع نفسه وماله على الله-عز وجل-، وأنه-سبحانه- قد تقبل هذا البيع وجعل ثمنه لأهله الجنة، وأنهم يقاتلون في سبيله فيقتلون ويقتلون، ثم ذكر- سبحانه-أنه وعدهم بذلك في أشرف كتبه وأعظمها التوراة والإنجيل والقرآن،

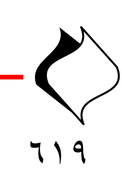
والشهيد يأجره الله سبحانه وتعالى على القتل، ولا شك أن مقام الشهداء من أرفع المقامات

وعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه".[١٦٠٢]

وعن مسروق قال: سألْنا عبد الله عن هذه الآية {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون} قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا))[١٦٠٣].

١٦٠٢ رواه الترمذي (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩).

١٦٠٣ رواه مسلم (١٨٨٧).



وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يغفر للشهيد كلُّ ذنبٍ إلا الدَّيْن)).[١٦٠٤]

والشهيد من الذين يأمنون فتنة القبر ودليله: ما رواه رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: (كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً)[١٦٠٥].

والشهيد اختص بحياة في البرزخ امتاز بها عن غيره من المؤمنين، قال شارح الطحاوية في الشهداء: (فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة منهم، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه)[١٦٠٦].

المتن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

١٦٠٤ رواه مسلم (١٨٨٦) .

١٦٠٥ رواه النسائي (رقم/٢٠٥٣)، وحسنه ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٧٤٣/٥)، وصححه الشيخ الألباني في "أحكام الجنائز" (ص/٥٠).

١٦٠٦ ((شرح الطحاوية)) (٣٩٦).

[٦٤] "والإيمان بأن الأطفال إذا أصابهم شيء في دار الدنيا يألمون، وذلك أن بكر ابن أخت عبد الواحد[١٦٠٧] قال: لا يألمون، وكذب".

(الشرح)

هذه المقولة نسبها ابن حزم إلى تلميذ بكر ابن أخت عبد الواحد فقال: "ومن حماقاتهم قول عبد الله بن عيسى تلميذ بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد المذكور فإنه كان يقول إن المجانين والبهائم والأطفال مالم يبلغوا الحلم فإنهم لا يألمون البتة لشيء مما ينزل بهم من العلل وحجته في ذلك أن الله تعالى لا يظلم أحدا "[١٦٠٨]

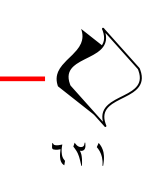
وذكر البغدادي في الفرق بين الفرق هذه المقولة ضـــمن مقولات البكرية أتباع بكر بن أخت عبد الواحد، فقال: "ومن ضلالاته أيضا ما عاند فيه العقلاء فزعم أن الأطفال في المهد لا يألمون وإن قطعوا أو حرقوا، وأجاز أن يكونوا في وقت الضـــرب والقطع والإحراق متلذذين مع ظهور البكاء والصياح منهم"١٦٠٩.

١٦٠٧ بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد البصـــري الزاهد. قال ابن قتيبة: كان له أصـــحاب وأتباع خلطوا عنه مقالات. ذكره ابن حزم في الملل والنحل في جملة الخوارج وقال: كان يقول في كل ذنب ولو صـغر حتى الكذبة الخفيفة على سبيل المزاح ففاعله كافر مشرك بالله من أهل النار إلا إن كان من أهل بدر فهو كافر مشرك من أهل الجنة. وكان تلميذه عبد الله بن عيسى يقول: إن المجانين والأطفال والبهائم لا يألمون البتة بشـيء مما نزل بهم من العلل، وَغيرها لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ونقل ابن قتيبة مسألة الإيلام، عن بكر نفسه، ومن شنعه: أن من سرق حبة خردل كان مخلدا في النار مع الكفرة وبالغ ابن قتيبة في الرد عليه في هذه المقالة. انظر: لسان الميزان الترجمة رقم: ١٦١١

وقال أبو الحســن الأشـعري: "وبحثوا في عقاب الأطفال؟: فقال أكثر المعتزلة أن الله سـبحانه يؤلمهم عبرة للبالغين، ثم يعوضـــهم، ولولا أنه يعوضـــهم لكان إيلامه إياهم ظلما. إلا أن إجماعهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يؤلم الله ســبحانه الأطفال في الآخرة ولا يجوز أن يعذبهم" ((مقالات الإسلاميين)) (١/٣١٩).

١٦٠٨ الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤/ ١٤٦

١٦٠٩ الفرق بين الفرق: ١٨٧



وقال الشهرستاني في الملل والنحل: "وزعم أيضا أن الأطفال في المهد لا يألمون وإن قطعوا وحرقوا، وأجاز أن يكونوا في وقت العذاب متلذذين، وإن أظهروا البكاء والضجيج، وقال: لو خلق الله الألم فيهم بلا جرم لكان ظالما لهم، وزعم أيضا أن الله لا يؤلم البهائم، لأنه ليس لها ذنوب، وأجاز أن يسيء بعض البهائم إلى بعض، فقيل له: بماذا تعلم المسيء أنه مسيء؟ قال: بخجله واعتذاره وهربه، كالعقربة إذا لسعت هربت من خوف القتل. وهذا دليل أنها عالمة بأنها جانية. فقيل له: إذا كان العالم بأنه جاني عندك، مستحقا للخلود في النار، وكان شرًا من عابد وثن، لزمك أن يكون العقرب بهذه الصفة"[١٦١٠].

وهذه الدعوى مصادمة للحقيقة والواقع، فلا شك أن الأطفال إذا أصابهم شيء في دار الدنيا يألمون، فالطفل يألم حقيقة برغم الدعوى التي ابتدعها هذا المبتدع.

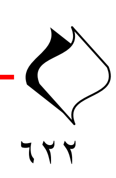
(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–: "

[٦٥] "واعلم أنه لا يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، ولا يعذب الله أحدا إلا بذنوبه، بقدر ذنوبه، ولو عذب الله أهل السماوات وأهل الأرضين برهم وفاجرهم، عذبهم غير ظالم لهم، لا يجوز أن يقال لله تبارك وتعالى: إنه يظلم، وإنما يظلم من يأخذ ما ليس له، والله جل ثناؤه له الخلق والأمر، الخلق خلقه، والدار داره، لا يسأل عما يفعل بخلقه، ولا يقال: لم وكيف؟ لا يدخل أحد بين الله وبين خلقه".

(الشرح)

١٦١٠ الملل والنحل: ١/ ١٤٦



كما جاء في الحديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله"(١٦١١)، والحديث نصُّه عن عائشة–رضي الله عنها–: أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال: ((سدِّدوا وقاربِوا وأبشِروا؛ فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنةَ عملُه))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يَتغمدَني اللهُ بمغفرة ورحمة))[1612]

وفي رواية عن عائشة، قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–: ((سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدخِل أحدَكم عملُه الجنةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلَّ.))[1613]

وعن أبي هريرة–رضي الله عنه–قال: قال رسولُ الله–صلى الله عليه وسلم–: ((لن ينجِّي أحدًا منكم عملُه))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني اللهُ برحمة، سدِّدوا وقاربوا، واغدُوا ورُوحوا، وشيء من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا)).[1614]

والعلماء يفرقون بين الباء الواردة هنا في قوله: "بعمله" فهذه تسمى باء المقابلة، وبين الباء الواردة في قوله تعالى: {جزاء بما كانوا يعملون} فهذه تسمى باء السبب.

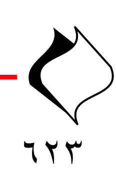
فهناك باء السبب وهناك باء المقابلة والفرق بينهما في المعنى هو أن تكون الجنة ثمناً لعملك فهذا غير ممكن، لأن عملك لو وزن بنعمة واحدة من نعم الله عز وجل لرجحت تلك النعمة على جميع أعمالك، كما جاء في ذلك الحديث الذي صححه

١٦١١ انظر صحيح البخاري كِتَابُ المرْضَى، بَابُ تَمَنِّي المرِيضِ الموْتَ، برقم (٥٦٧٣)، ومسلم كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى (٢٨١٦)، وابن ماجه (٤٢٠١)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٤٢٠١).

١٦١٢ رواه البخاري في صحيحه ٨/٩٨، حديث رقم ٦٤٦٧، باب القصد والمداومة على العمل.

١٦١٣ رواه البخاري في صحيحه ٨/٩٨، حديث رقم ٦٤٦٤، باب القصد والمداومة على العمل.

١٦١٤ رواه البخاري في صحيحه ٨/٩٨، حديث رقم ٦٤٦٣، باب القصد والمداومة على العمل، ورواه مسلم في صحيحه ٤/٢١٦٩، حديث رقم ٢٨١٦، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله.



ابن القيم[١٦١٥] وهو الرجل الذي عبد الله سبحانه وتعالى خمسمائة عام وكان يعيش على تلك الرمانة.

وهو متفرغ متبتل العبادة خمسمائة عام، فلما جاء يوم القيامة قال الله عز وجل: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي قال: لا يا رب بل بعملي، فأمر الله عز وجل أن يوزن عمل هذا الإنسان بنعمة البصر فرجحت نعمة البصر على عمل هذا العبد»(١٦١٦).

فليست الجنة ثمناً مقابلاً، تدخلها بعملك ولكنها سبب، الأعمال سبب، كما قال تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فالعمل سبب وليس ثمن، فلابد من العمل.

وأما دخول الجنة كمقابل فلا، فهذا بفضلٍ من الله تعالى ورحمة، فإذاً لا يدخل الجنة أحدٌ إلا برحمة الله عز وجل، والنبي صلى الله عليه وسلم قال كما جاء في الحديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى بفضلٍ منه ورحمة». (١٦١٧)

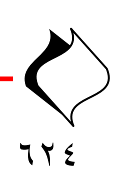
فاعلم أنه لن يدخل أحد الجنة بمقابل عمله، أما دخوله الجنة فيكون بسبب عمله، كما ذكر الله سبحانه وتعالى من أهل الإيمان قال: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} [الانشقاق:٧]، إلى أن قال: {جزاء بما كانوا يعملون}، فإذاً هذا الدخول كان سببه عمل العبد.

فإذاً نفرق بين باء السبب وباء المقابلة، فإذا قيل يعني قول الله عز وجل :{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فتقول هذه باء السبب، والوارد في الحديث «لن يدخل أحدكم

١٦١٥ شفاء العليل: ١/ ٣٤٦.

١٦١٦ انظر المستدرك للحاكم (١٦٨٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٣٠٠)، قال الشيخ الالباني في السلسلة الضعيفة الجزء الثالث، صفحة (٣٣١): ضعيف.

١٦١٧ سبق تخريجه.



الجنة بعمله» (١٦١٨)، باء المقابلة، فإذاً لن يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله، ولن يعذب الله أحداً إلا بذنبه، {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى:٣٠]، فالإنسان بقدر ذنوبه.

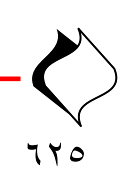
ولو عذب الله سبحانه وتعالى أهل السموات برهم وفاجرهم لكان عذبهم وهو غير ظالمٍ لهم، لأن العبد في كل أحواله مقصر، ولذلك العبد عقب الصلاة وهي عبادة عندما يُسلم يقول استغفر الله استغفر الله استغفر الله.

فلا يجوز أن يقول عن الله سبحانه وتعالى إنه ظالم؛ لأن الله تعالى يقول: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}.

فالله تعالى قد جعل للجنة أسبابًا، وأمر الإنسان بالأخذ بهذه الأسباب، فسبب دخول الجنة: الاستقامة على أوامر الله سبحانه وتعالى، ولذلك ذكر العلماء أن الباء في قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وردت في ثلاثة مواضع: في سورة السجدة آية (١٧)، وفي سورة الأحقاف آية (١٤)، وفي سورة الواقعة آية (٢٤)، وقال سبحانه: {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٧]، وقال أيضًا جل جلاله: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٩]، فالباء هنا باء السببية، وليست باء المقابلة؛ لأن باء المقابلة هي باء الثَّمن والعِوض، فالعمل ليس ثمنًا للجنة، وإنما سببٌ لدخولها.

وقال ابن أبي العز: "فإن الباء التي في النفي غيرُ الباء التي في الإثبات؛ فالمنفي في قوله-صلى الله عليه وسلم-: ((لن يَدخُل الجنةَ أحدٌ بعملِه)) باء العِوض، وهو أن يكونَ العملُ كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلةُ أن العاملَ مستحقٌّ دخولَ الجنة على ربِّه بعمله! بل ذلك برحمةِ الله وفضله، والباء التي في قوله-تعالى-:﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾]السجدة: ١٧] ونحوها - باءُ السبب؛ أي: بسبب

١٦١٨ سبق تخريجه.



عملكم، والله – تعالى – هو خالقُ الأسباب والمسببات، فرجع الكلُّ إلى محض فضل الله ورحمته[١٦١٩]"

وقال النووي – رحمه الله:-"وفي ظاهر هذه الأحاديث دَلالةٌ لأهل الحق أنه لا يستحقُّ أحدٌ الثوابَ والجنة بطاعته، وأما قوله – تعالى :- ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾]النحل: ٣٢[، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾]الزخرف: ٧٢]، ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يُدخَل بها الجنة، فلا يُعارِض هذه الأحاديثَ، بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال، والهداية للإخلاص فيها، وقَبُولها – برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرَّد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال؛ أي: بسببها، وهي من الرحمة، والله أعلم[١٦٢٠]"

يقول شارح الطحاوية في هذه المسالة: "وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضل فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات. فالمنفي في قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((لن يدخل أحد منكم عمله الجنة)) باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله، بل ذلك برحمه الله وفضله. والباء التي في قوله: (جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة: ١٧] وغيرها باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خلق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته"[١٦٢١].

١٦١٩ شرح الطحاوية؛ لابن أبي العز ٢/٦٤٣.
١٦٢٠ شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١١٦.
١٦٢١ شرح العقيدة الطحاوية ص: ٦٤٣.

المتن

قال المصنف–رحمه الله–:

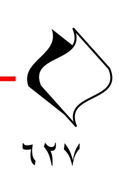
[٦٦] "وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ولا يقبلها أو ينكر شيئا من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتهمه على الإسلام؛ فإنه رجل رديء القول والمذهب، وإنما طعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأنه إنما عرفنا الله وعرفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا القرآن وعرفنا الخير والشر والدنيا والآخرة بالآثار، وأن القرآن إلى السنة أحوج من السنة إلى القرآن".

الشرح

كانت قريش تُسمي النبي ﷺ تارةً مجنونًا، وتارة شاعرًا، وتارة كاهنًا، وتارة مُفتريًا. فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامَّة؛ فإنَّ السنة هي ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه، اعتقادًا واقتصادًا، وقولًا وعملًا.

فلا بد من نصيب من هذا الميراث، فكما آذوا النبي ﷺ وشتموه وذموه بهذه الألقاب، فلا شك أن مَن يرث هذا الميراث الذي هو الحق، لا بد أن يتحمل شيئًا من هذه الشتائم والسباب الذي يقوله هؤلاء، لكن الأمر كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[التوبة:٣٢].

فأهل البدع يُسمون مَن خالفهم بالألقاب الشَّنيعة للتَّنفير، وبهذا يُسمون أهل السنة بالألقاب التي هم بها أليق، فالرافضة يُسمونهم: نواصب؛ لأنهم زعموا أنهم يُبغضون عليًّا، وقد كذبوا، فليسوا يُبغضون عليًّا، بل يُحبونه، ولكن لا يغلون فيه، ولا يُعطونه غير حقِّه، خلاف الرافضة؛ فقد غلوا فيه، وأعطوه غير حقِّه. وهكذا نُفاة الصِّفات يُسمون أهل السنة: حشوية، ومجسمة، ومُشبهة، وهم في الحقيقة الحشوية، وهم المجسمة، وهم المشبهة الذين شبَّهوه بالمعدومات والنَّاقصات والجمادات، قبَّحهم



الله. وهكذا نُفاة القدر، وهكذا المرجئة، كل طائفةٍ تُسمي خصمها بالألقاب الشَّنيعة.

وقال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي: «علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الجهمية: أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابتة. وعلامة القدرية: أن يسموا أهل السنة مجبرة، وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية"(١٦٢٢).

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتاب: "الغنية" نحو ما ذكر وزاد: "علامة الرافضة: تسميتهم أهل السنة ناصبة، وكل ذلك عصبية، وغياض لأهل السنة ولا اسم لهم إلا اسم واحد وهو: (أصحاب الحديث)، ولا يلتصق بهم ما لقيهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي تسمية كفار مكة: ساحرًا وشاعرًا ومجنونًا ومفتونًا وكاهنًا، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولًا نبيًّا بريًّا من العاهات كلها: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}" (١٦٢٣).

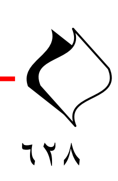
وقد عرف أن من سمات أهل الباطل طعنهم في الصحابة الذين هم أئمة السلف، فها هي الفرق الكبار: المعتزلة والخوارج والشيعة كلهم يطعن في الصحابة رضوان الله عليهم طعنا صريحا[١٦٢٤]:

أما المعتزلة فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصحابة وأسقط عدالة ابن مسعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى من الصحابة بالاجتهاد، وقال: إن ذلك منهم إنما كان لأجل أمرين: إما لجهلهم بأن ذلك لا يحل لهم، وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسب إليهم. فنسب خيار الصحابة إلى الجهل أو النفاق.

(١٦٢٢) نقله عنه الذهبي في «العلو» (ص ١٩٠).

(١٦٢٣) «الغنية» (ص٧١)، مكة المكرمة، المطبعة الميرية، ١٣١٤هـ.

١٦٢٤ الفرق بين الفرق للبغدادي ٣١٨ وما بعدها



ثم إنه أبطل إجماع الصــــحابة ولم يره حجة، وأجاز أن تجتمع الأمة على الضلالة[١٦٢٥].

وأيضـا —كان زعيمهم واصـل بن عطاء الغزال يشـكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشـــة وكل من شـــهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشـــهورة: لو شـــهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشـــهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسـق ولا أعرفه بعينه. ووافقه على ذلك صـاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفسق كل من الفريقين.

وأما الخوارج فتكفيرهم لعلي وأكثر الصـــحابة رضـــي الله عنهم واســتباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

أما الشـيعة فشـعارهم الطعن في سـائر الصـحابة — عدا آل البيت — وغلاتهم من السبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

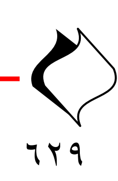
والأشـاعرة ونحوهم من المتكلمين ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله —بعد أن حكى عنهم هذا الكلام-: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض"[١٦٢٦]. [١٦٢٧]

فالخوارج طعنوا في أصـــحابِ النبي، طعنوا ما طعنوا وكفَّروا ما كفَّروا. وكذلك جاء من بعدهم المعتزلة حتى يقول عمرو بن عبيد: "لو جاءَ كلا الفريقين عليّ ومَن معه، ومعاوية ومَن معه، يشـــهدون عندي على حزمة بَقْل ما قبلت شـــهادةَ أحدٍ

١٦٢٥ فضل الإجماع ص ١٤٠

١٦٢٦ مجموع الفتاوى ٤ / ١٥٧

١٦٢٧ المصدر: موقع الدرر السنية الموسوعة العقدية



منهم"١٦٢٨فطعنوا بها في هذه المرجعية، وأطلق عمرو بن عبيد على ابنِ عمر أنه من الحشوية.

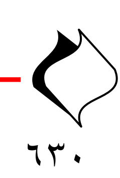
فإذا سمعت الرجل يطعن في الآثار ولا يقبلها أو يُنكر شيئاً من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فاتهمه على الإسلام وهذا ما كان عليه حال أهل الكلام من الطعن في الآثار ومن الطعن في الأحاديث فهؤلاء كما ذكرنا سابقاً انتقصوا النصوص وقالوا: إذا كانت أخبار آحاد فهذه لا يحتج بها في باب العقائد فيرمون بها عرض الحائط حتى لو كانت في البخاري ومسلم فهي مرفوضة عندهم فيطعنون فيها من جهة ثبوتها، وما لم يطعنوا في ثبوته طعنوا في دلالته.

ولذلك استهزئوا في الأحاديث واستهزئوا في آثار السلف الصالح، فإذا رأيت رجل من هذه الشاكلة ومن هذا الصنف فاعلم أنه من أهل الأهواء والبدع، فهؤلاء إنما في الحقيقة يطعنون في الرسول ويطعنون في الصحابة، لأنه إنما عرفنا الله عز وجل وعرفنا رسوله وعرفنا القرآن وعرفنا الخير والشر والدنيا والآخرة عرفناها من أي طريق؟ من طريق الآثار.

فهؤلاء إذا طعنوا إنما يطعنون في الدين، فنحن إذا لم يكن هذا السبيل إلى معرفة الدين فما هو السبيل إلى معرفة الدين، ولا شك أن القرآن إلى السنة أحوج من السنة إلى القرآن، يعني القرآن أحوج إلى السنة لماذا؟ لأنها شارحة، ومفصلة وموضحة فأنت جاءك حكم الصلاة لكن كيف تُصلى هذه الصلاة، وما تفاصيلها ووضوئها وغير ذلك إنما تأخذه من خلال السنة.

فهي شارحة ومفصلة ومبينة لما جاء في القرآن، ثم إن الكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة منهيٌ عنه، فالكلام والجدل في أساسه يعني ممنوع وباطل، ويقصد به كلام أهل المنطق وسبل أهل المنطق من الخوض في الأمور بالعقل استقلالاً دون عودة إلى النصوص وباب القدر في الأخص.

١٦٢٨ العرش للذهبي (١ / ٥١).



فمن سمات أهل الباطل انتقاصهم لعلوم السلف وقولهم: بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

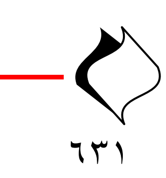
قال ابن تيمية: "ولا يجوز أن يكون الخالفون أَعْلَمَ مِنْ السَّالِفِينَ كَمَا قَدْ يَقُولُهُ بَعْضُ الْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَ السَّلَفِ؛ بَلْ وَلَا عَرَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا: مِنْ أَنَّ "طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ "وَطَرِيقَةَ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ "فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ: إنَّمَا أَتَوْا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا: أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ} وَأَنَّ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ هِيَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِي النُّصُوصِ الْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اللُّغَاتِ. فَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ أَوْجَبَ "تِلْكَ الْمَقَالَةَ "الَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ الْإِسْلَامِ وَرَاءَ الظَّهْرِ وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ. وَبَيْنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ."[١٦٢٩]

المتن

قال المصنف–رحمه الله–:

[٦٧] "والكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأن القدر سر الله ونهى الرب تبارك وتعالى الأنبياء عن الكلام في القدر،

١٦٢٩ مجموع الفتاوى ٥/ ٨-٩



ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخصومة في القدر، وكرهه العلماء وأهل الورع ونهوا عن الجدال في القدر، فعليك بالتسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في جملة الأشياء وتسكت عما سوى ذلك".

(الشرح)

في هذا النص إشارة إلى ما وقع في عصر النبوة لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة يتنازعون في شأن القدر خرج مغضباً وكأنما في وجهه يعني فقع الرمان من شدة غضبه صلى الله عليه وسلم.

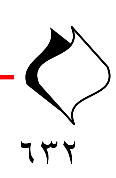
فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: «وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: ((ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكما))، وقال: "فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده"[١٦٣٠].

وقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر ويذمون من خاض فيه بل حذروا من ذلك، فهذا الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: "باب شرك فتح على أهل الصلاة: التكذيب بالقدر فلا تجادلوهم فيجري شركهم على أيديكم"[١٦٣١]. ويقول أيضًا رضي الله عنه: "ما غلا أحد في القدر إلا خرج من الإسلام"[١٦٣٢]

١٦٣٠ أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨)، وقال أحمد شاكر، أسناده صحيح. المسند تحقيق أحمد شاكر (١٠/ ١٥٣)، حديث رقم (٦٦٦٨)، وأخرجه أيضا ابن ماجه: المقدمة، باب في القدر (٣٣/١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

١٦٣١ أخرجه الآجري في الشريعة (ص٢١٥)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنة: (٤/ ٦٣٠).

١٦٣٢ أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٤/ ٦٣٢).



فالسلف رحمهم الله تعالى كرهوا الكلام في القدر والخوض فيه، لكن لما خاضت المبتدعة في هذا الأمر وحادوا عن الصواب رأي السلف الصالح أنه يجب عليهم أن يبينوا للناس الحق والصواب فيما ضل فيه هؤلاء، ذلك لأنه لم يظهر القول في القدر إلا بعد مضي نصف القرن الأول تقريبا، حيث إن معبدًا الجهني[١٦٣٣] هو أول من أثار القول في هذا الأمر.

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى يحيي بن يعمر، أنه قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن خطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عند الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم[١٦٣٤] وذكر من شأنهم أنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" [١٦٣٥]

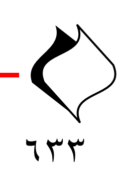
وقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على نهج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كما ذكر الإمام البربهاري هنا.

ولا شك أن الخوض في أمور العقيدة بالعقل استقلالاً دون الرجوع إلى النصوص والتحاكم إليها والاستضاءة بالنصوص هذه مهلكة للإنسان، وكل من خاض من هؤلاء في هذا الأمر دون معرفة بالنص فإنه هالك، ولذلك وقع ما وقع من الفرق،

١٦٣٣ معبد بن عبد الله الجهني نزيل البصرة، كان داعية إلى الضلال وهو أول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة، قال ابن أبي حاتم: كان صدوقًا في الحديث وكان رأسًا في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسا، وقد قتله عبد الملك سنة ٨٠هـ. الجرح والتعديل (٨/٢٨٠)، وميزان الاعتدال (٤/١٤١)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).

١٦٣٤ ويتقفرون العلم: أي يطلبونه ويتتبعونه. النهاية لابن الأثير (٤/ ٩٠).

١٦٣٥ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: ١/ ٣٦.



ووقع ما وقع من قول القدرية وقول الجبرية ونحوهم لا لشيء إلا لأن هؤلاء تركوا النصوص تمامًا وخاضوا في الأمر من جهة عقولهم.

فوقع التحسين والتقبيح العقلي، ووقع الطعن في أفعال الله عز وجل وفي علم الله عز وجل كل ذلك من طريق هؤلاء.

وأما أصل القدر؟ فكما قاله الطحاوي: "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين" [١٦٣٦]

وعلم القدر قال عنه علي رضي الله عنه: (القدر سر الله فلا تكشفه) [١٦٣٧] وسماه الطحاوي بالعلم المفقود، لأن الله طواه عن الخلق، [١٦٣٨] ونحن نؤمن بأن له تعالى في خلقه حكماً عظيمة، وإذا كان هناك من الحكم ما هون خاف فلا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته تبارك وتعالى[١٦٣٩].

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله–:

[٦٨] "والإيمان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسري به إلى السماء وصار إلى العرش وكلمه الله تبارك وتعالى، ودخل الجنة واطلع إلى النار ورأى الملائكة ونشرت له الأنبياء، ورأى سرادقات العرش والكرسي وجميع ما في

١٦٣٦ ((شرح العقيدة الطحاوية)) (ص: ٢٧٦).

١٦٣٧ ((شرح العقيدة الطحاوية)) (ص: ٢٧٧).

١٦٣٨ ((شرح العقيدة الطحاوية)) (ص: ٢٩٢).

١٦٣٩ ((شرح العقيدة الطحاوية)) (ص: ٢٩٢).

السماوات وما في الأرضين في اليقظة، حمله جبريل على البراق حتى أداره في السماوات، وفرضت عليه الصلاة في تلك الليلة، ورجع إلى مكة في تلك الليلة، وذلك قبل الهجرة".

الشرح

إثبات الإسراء والمعراج للنبي–صلى الله عليه وسلم–أمر جاءت به نصوص الكتاب والسنة.

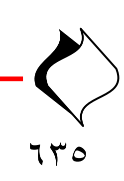
فالإسراء ثابت في كتاب الله –عز وجل–قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).

والمعراج ثابت بالأحاديث الصحيحة التي تفيد العلم والقطع.

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه "التنوير في مولد السراج المنير"– وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد" :–**وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء**[١٦٤٠] عن: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة، وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أُمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة، وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، **فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون**؛ {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف: ٨][١٦٤١]

١٦٤٠ اشتهر بحديث الإسراء، وإلا فهو مشتمل على المعراج أيضًا؛ فالكلام عن الأمرين معًا.

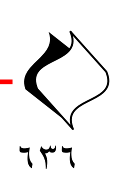
١٦٤١ ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥) .



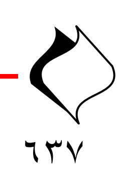
ومع ثبوت دلالة الكتاب –نصًّا وظاهرًا– واستفاضة الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تواترًا؛ فقد ذهبت طائفة من المعتزلة ومنكري السنة والعقلانيين[١٦٤٢] إلى إنكار الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج، ولهم في ذلك لجاجات لا تنتهي.

ومما ورد في شأن الإسراء والمعراج ما جاء عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه)). قال: ((فركبته حتى أتيت بيت المقدس))، قال: ((فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء)). قال: ((ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل صلى الله عليه وسلم: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا –صلوات الله عليهما–، فرحبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا

١٦٤٢ من المعاصرين: أبو رية في كتابه ''أضواء على السنة المحمدية'' (ص: ١٢٣)، ود. أحمد شلبي في الجزء الثالث من كتابه ''المكتبة الإسلامية المصورة لكل الأعمار.''



عَلِيًّا] [مريم: ٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون صلى الله عليه وسلم، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى صلى الله عليه وسلم، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال)). قال: ((فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى صلى الله عليه وسلم، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم)).قال: ((فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف على أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف)).قال: ((فلم أزل أرجع بين ربي -تبارك وتعالى- وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة)).قال :((فنزلت حتى انتهيت إلى موسى صلى الله عليه



وسلم فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف))، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ((فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)).[١٦٤٣]

هذا الحديث في أعلى درجات الصـــحة؛ إذ رواه إماما أهل الحديث البخاري ومسلم في صحيحيهما، اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، على أنه قد ثبتت معجزة الإسراء والمعراج للنبي صلى الله عليه وسلم من طرق مستفيضة بلغت حد التواتر -كما تقدم-، فلا يسوغ مخالفتها بالعقل أو الهوى.

وتفضَّل هذه الرواية على غيرها بأنها أصحها وأقواها؛ لذا يقول الشيخ أحمد شاكر (ت ١٣٧٧هـ) عن تلك الرواية: "هي أجودها وأنقاها، وقد رجحها كثير من الحفاظ على غيرها، وإن كان فيها شيء من الاختصار في بعض المواضع".[١٦٤٤]

معنى الإسراء

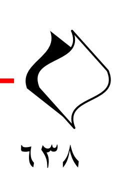
أصل الإسراء لغة السير ليلا يقال: أسرى يسري إسراء ويأتي لازما فيقال: سرى الرجل ويأتي متعديا فيقال: أسرى به.

وأما الإسراء شرعا واصطلاحا فهو السفر برسول الله -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى بيت المقدس ليلا على البراق، والبراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض طويل.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي أنهما يشتركان في السير ليلا فالمعنى اللغوي والاصطلاحي كلاهما فيه السير ليلا فكل من المعنيين فيه السير في الليل، لكن المعنى اللغوي أوسع، ثم يأتي المعنى الاصطلاحي بقيود وشروط زائدة على المعنى اللغوي وهو كونه سفرا وبرسول الله -صلى الله عليه وسلم-وعلى البراق ومن مكة إلى بيت المقدس.

١٦٤٣ أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) واللفظ لمسلم.

١٦٤٤ جمهرة مقالات أحمد شاكر (٢/ ٧٢٠).

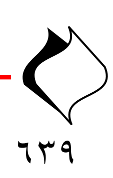


معنى المعراج

أما المعراج لغة فهو على وزن مفعال مشتق من العروج وهي آلة العروج التي يعرج فيها ويصعد، يشمل السلم ويشتمل الدرجة والمعراج شرعا واصطلاحا هو العروج برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلا من بيت المقدس إلى السماء. والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في المعراج يشتركان في أن كلا منهما صعود وعروج من أسفل إلى أعلى، فالعروج لغة الصعود من أسفل إلى أعلى، والعروج شرعا العروج برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلا من بيت المقدس إلى السماء،

فالمعنى اللغوي والاصطلاحي يشتركان في أن كلا منهما فيه الصعود وعروج من أسفل إلى أعلى وهذا قدر مشترك، ثم يأتي المعنى الاصطلاحي بقيود وشروط زائدة على المعنى اللغوي وهو أن العروج من مكان خاص وإلى علو خاص من بيت المقدس إلى السماء، والمعنى اللغوي أوسع دائرة، فإذن عرفنا أن الإسراء هو الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلا من مكة إلى بيت المقدس على الدابة على البراق والبراق دابة فوق الحمار ودون البغل يعني: أكبر من الحمار وأقصر من البغل دابة بيضاء، والعروج هو صعود النبي -صلى الله عليه وسلم- من بيت المقدس إلى السماء.

ما وقع في الإسراء والمعراج معلومٌ وثبتت به النصوص من إسراء النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السماء، ثم صلى الله عليه وسلم بلغ إلى سدرة المنتهى وقد جاء بذلك النصوص، فالإسراء ورد في القرآن، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء: ١]، فهذا أمر الإسراء، والمعراج جاءت به السنة، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى أكرم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا وسلاه بهذا ولذلك الناس بعد أن أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر انقسموا إلى مؤمنٍ ومكذب.



وممن شهد له بالإيمان بذلك الصديق أبو بكر، ولذلك سمي الصديق؛ لأنه صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال في ذلك الأمر.

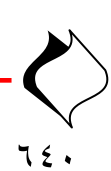
والعلماء لهم أقوال في الإسراء والمعراج هل أسري به–عليه الصلاة والسلام– وعرج به وهو نائم؟ هل أسري به بروحه أو بروحه وجسده؟ العلماء لهم أقوال أربعة في هذا أقوال العلماء في الإسراء والمعراج أربعة:

القول الأول: أن الإسراء كان مناما أسري به –صلى الله عليه وسلم–وهو نائم وهذا أضعف.

القول الثاني: أن الإسراء كان بروحه–صلى الله عليه وسلم–دون جسده وهذا نقله إسحاق عن عائشة–رضي الله عنها–ونقل عن معاوية ونقل عن الحسن البصري.

القول الثالث: أن الإسراء كان مرارا مرة منامًا ومرة يقظة وبعضهم قال: مرة قبل الوحي ومرة بعد الوحي وبعضهم قال: الإسراء ثلاث مرات مرة قبل الوحي ومرتين بعده وهذا يفعله ضعفاء الحديث كما سيأتي كلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة يقولون: الإسراء كان مرة منامًا وكان مرة يقظة فتكون مرة منام كالتوطئة والتمهيد لليقظة كما حصل في الوحي، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– في الوحي أول ما ابتدأ به الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح ستة أشهر كان بدئ به الوحي من ربيع إلى رمضان ثم فاجأه الحق وجاء بعد ذلك جبريل وجاءه الوحي في رمضان قالوا: كما أن الوحي كان في المنام ثم في اليقظة فكذلك الإسراء والمعرج كان مرة مناما كتوطئة ثم كان يقظة.

القول الرابع: إن الإسراء كان بروحه وجسده مرة واحدة بعد الوحي يقظة لا مناما وهذا أرجح الأقوال وأصحها، وهذا هو الصواب أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة لا في النوم بروحه وجسده بجسد النبي–صلى الله عليه وسلم– وروحه بعد البعثة، فالإسراء كانت بروحه وجسده يقظة لا مناما مرة واحدة في ليلة



واحدة بعد البعثة وقبل الهجرة وإلى هذا ذهب جمهور العلماء والمحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت على هذا القول ظاهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك وليس في العقل ما يحيل ذلك حتى يحتاج إلى تأويل.

الفرق بين القول الأول والثاني

الفرق بين من قال: إن الإسراء كان مناما وبين من قال: إن الإسراء كان بروحه هو أن من قال: إن الإسراء كان منامًا قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى في نومه أمثالًا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة من قبيل الحلم فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء وذهب به إلى بيت المقدس وجسده باق وروحه أيضا لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له الأمثال وهذا معنى الإسراء على حد قولهم.

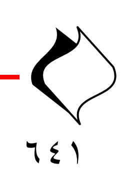
ومن قال: إن الإسراء كان بروحه قال: إن الروح ذاتها أسري بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه وقالوا: وهذا من خصائص النبي-صلى الله عليه وسلم-إذ إن غيره لا تنال روح الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

والقدر مشترك بين القولين الذي اتفقوا فيه هو أن الجسد باق، لكن من قال: إن الإسراء كان منامًا قال: الروح أيضا باقية والملك هو الذي ضرب له الأمثال، ومن قال: الإسراء كان بروحه قال الجسد باق والروح هي التي صعدت وأسري بها ثم رجعت.

الأدلة التي استدل بها أهل القول الأول:

استدل القائلون بأن الإسراء كان مناما بدليل شرعي ودليل عقلي.

الدليل الأول: أما الدليل الشرعي استدلوا بحديث الإسراء والمعراج الذي رواه شريك بن أبي نمر فإنه قال في بعض ألفاظ حديث شريك لما ذكر الحديث الإسراء أن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال: (ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام). قالوا: هذا دليل على الإسراء كان منامًا.



والصـــواب :أن حفاظ الحديث قد غلَّطوا شـــريكًا في بعض ألفاظ حديث الإسراء هذا، وقد تفطن لهذه العلة الإمام مسلم-رحمه الله-فقال في صحيحه عقب ذكره لرواية شريك مختصرًا: "وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص".[١٦٤٥]"

ولهذا يقول الإمام النووي: "وقد جاء في رواية شـــريك في هذا الحديث في الكتاب أوهام أنكرها عليه العلماء، وقد نبه مســـلم على ذلك بقوله: فقدم وأخر، وزاد ونقص منها"[١٦٤٦].

ويقول الإمام ابن القيم (ت ٧٥١هـ): "وقد غلَّط الحفاظ شريكًا في ألفاظ من حديث الإســراء، ومســلم أورد المســند منه، ثم قال: (فقدم وأخر وزاد ونقص)، ولم يسرد الحديث، فأجاد رحمه الله.[١٦٤٧]"

الدليل الثاني: الدليل العقلي للذين قالوا: إن الإســـراء كان مناما: قالوا: إن الأجســام الأرضـية من طبيعتها الثقل فلا يعقل أن تصـعد إلى السـماء وليسـت في الروحانيات كالملائكة فإنها خفيفة بخلاف الروح، فإن من طبيعتها الخفة.

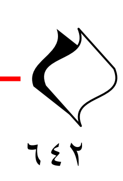
والجواب: أن نقول هذا معارضة لمقصد العقل والعقل لا يعارض النقل إذا صح النقل فلا يجوز لنا أن نعارضه الواجب التسليم والخضوع لكلام الله وكلام رسوله وأن نتلقاه بقبول وتسليم ولا نعارضه بعقولنا.

وأيضـا نقول لهم: لو لم يعقل صـعود البشـر أيضـا نرد عليهم بدليل عقلي نقارع الحجة بالحجة لو لم يعقل صعود البشر لما صح المقابل له وهو نزول الملائكة الأرض، فأنتم تقولون: الأجسـام الأرضـية من طبيعتها الثقل فلا يعقل أن تصـعد إلى السـماء نقول لكم: الملائكة من طبيعتهـا العلو والخفـة فلا يعقـل أن تنزل إلى الأرض، فلو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة

١٦٤٥ صحيح مسلم (١/ ١٤٨).

١٦٤٦ شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٢٠٩).

١٦٤٧ زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٣٨).



والوحي وهذا كفر، وبهذا يبطل قول الذين قالوا: إن الإســراء وقع منامًا للنبي -عليه الصلاة والسلام-.

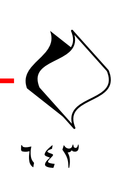
وأما الذين قالوا إن الإسراء وقع للروح فقط فمما استدلوا به

فدليلهم: الدليل العقلي الذي استدل به أهل القول الأول قالوا: أن الأجسام الأرضية من طبيعتها الثقل فلا يعقل أن تصعد إلى السماء بخلاف الروح فإن من طبيعتها الخفة فلا مانع من العروج بها.

والجواب: أن نقول: هذا معارضة النصوص بالعقل والعقل لا يعارض النصوص، والواجب التسليم لله ولرسوله، ثم أيضا لو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهذا كفر، ويرد على هذا القول أيضا بقول الله سبحانه: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) والعبد يطلق على الروح والجسد.

وأيضا من أدلتهم استدلوا بها أنهم استدلوا بقول عائشة -رضي الله عنها:- "ما فقد جسد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ولكن أسري بروحه" فلا ينكر ذلك من قولها، وهذا إن صح عن عائشة فهو اجتهاد منها لا تعارض به النصوص.

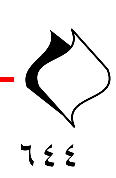
ويرد أيضا على من قال: إن الإسراء كان مناما أو الإسراء بالروح أنه لو كان الإسراء منامًا، وأن جسد النبي -صلى الله عليه وسلم- وروحه باق في مكة، ولو كان الإسراء بروحه وجسده باق لما بادرت كفار قريش إلى تكذيب النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا ما ارتدت جماعة ممن كان أسلم لأنه ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم-بعد الإسراء والمعراج لما أخبر بذلك ارتدت جماعة بسبب ذلك، وقالوا: لا يمكن أن يصعد بروحه، وكيف يسافر إلى بيت المقدس مسافة شهر في ليلة واحدة ثم يصعد إلى السماوات وبين كل سماء إلى سماء مسافة خمسمائة عام ويرجع في ليلة واحدة استبعدوا هذا -والعياذ بالله- فارتدوا، ولو كان مناما أو الإسراء كان مناما و كان روحه وجسده باق لما أنكروه ولما بادروا؛ لأنهم يصدقون بالرؤية فلو كان جسده



باق عندهم لما كان هناك كبير شــيء في النوم والله -تعالى- قال: (سُــبْحَانَ الَّذِي أَسْــرَى بِعَبْدِهِ) والتســبيح إنما يكون في الأمور العظام، وهذا يدل على أن الإســراء بروحه وجسده فإذن الصواب أن الإسراء بروحه وجسده.

أما أهل القول الثالث الذين قالوا: كان الإسراء مرة مناما ومرة يقظة أو مرة قبل الوحي ومرة بعده، أو مرتين مرة قبل ومرة بعده، أو مرتين أو مرة قبل ومرتين بعده **دليلهم قالوا**: أرادوا أن يجمعوا بين حديث شــريك وقوله حين ختم القصــة: ((ثم اســتيقظت وأنا في المســجد الحرام)) وبين ســائر روايات الحديث التي لم تذكر هذه الألفاظ فقالوا: إن الإسراء كان مرارا مرة مناما كما يفيده حديث شريك ومرة يقظة كما يفيد ســائر الروايات، وبعضــهم قال: مرة قبل الوحي ومرة بعده وبعضــهم قال: ثلاث مرات مرة قبل الوحي ومرتين بعده جمعا بين الأدلة في زعمهم كلما اشــتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق بين الأدلة في نظرهم، وهذا يفعله ضــعفاء الحديث. والجواب عن شبهتهم أجاب عنها العلامة ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد أجاب عنها بما ملخصه قال: بأنه ثبت في حديث الإسـراء والمعراج أن الله فرض على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- الصلاة في أول الأمر خمسين صلاة في اليوم والليلة، ثم جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يتردد بين ربه وبين موسى في السماء السادسة في كل مرة يأمره موســى -عليه الصــلاة والســلام- بأن يســأل ربه التخفيف لأمته فيحط الله -تبارك وتعالى- عنه خمسا وعشرا حتى صارت إلى خمس صلوات ثم نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي فلو كان الإسـراء والمعراج مناما للزم من ذلك أن يعيد الله فرضية الصلاة مرة ثانية خمسين ثم يحطها إلى خمس وهذا فاسد. وبهذا يبطل هذا القول.

أما أهل القول الرابع الذين قالوا: إن الإسراء مرة واحدة بجسده وروحه يقظة لا مناما في ليلة واحدة قبل البعثة قبل الوحي وبعد البعثة وقبل الهجرة، هذا القول تؤيده النصوص من الكتاب والسنة.



وهذا هو الصواب أن الإسراء مرة واحدة لا مرارا بروحه وجسده لا مناما ولا بالروح فقط يقظة لا مناما في ليلة واحدة هي الإسراء والمعراج بعد البعثة وقبل الهجرة من أدلة هذا القول:

الدليل الأول: قول الله –تعالى–: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) ووجه الدلالة أن العبد إذا أطلق فهو عبارة عن مجموع الجسد والروح سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ العبد اسم للروح والجسد كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح إذا أطلق وهذا يدل على أن الإسراء بروحه وجسده. ولهذا قال الطحاوي –رحمه الله–: وعرج بشخصه وأسري بشخصه والشخص اسم للروح والجسد، فالطحاوي –رحمه الله–يثبت أن الإسراء بروحه وجسده كما عليه المحققون.

الدليل الثاني: ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم –رحمهما الله– بروايات متعددة أنه أسري برسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعرج بشخصه إلى السماء وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم إماما وأنه التقى بعدد من الأنبياء في كل سماء وأن الله فرض عليه الصلاة خمسين ثم خففها إلى خمس بواسطة تردده بين ربه وبين موسى وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى على صورته التي خلق عليها، وكل هذه الروايات ظاهرها أنه أسري بروحه وجسده –عليه الصلاة والسلام–. وبهذا يتبين أن الصواب أنه أسري بروحه وجسده عليه الصلاة والسلام وأنه لا بد للمسلم أن يؤمن بالإسراء والمعراج.

فنحن نؤمن بأن النبي صلى الله عليه وسلم عُرج به بجسده وروحه صلى الله عليه وسلم، وأن هذا العروج حقيقة وليس مناماً، ونؤمن بأنه شاهد هذا كله صلى الله عليه وسلم كما جاءت بذلك النصوص.

وخلاصة القول:

أنه لم يقع عند السلف خلاف قوي في أن الإسراء والمعراج كان يقظة، إنما الخلاف في الروح والجسد، وإن كان هناك ثلاثة أقوال:

القول الأول: فهناك قول يقول: بأن المعراج كان بالروح فقط، وممن نسب إليه هذا القول :عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، لكن يقولان بأنه يقظة هذا هو الظاهر من قولهم.

القول الثاني: وقال جمهور السلف قديماً وحديثاً وعليه أغلب الصحابة والتابعين وتابعيهم: إن الإسراء والمعراج بالروح والجسد، وإن هذا هو معنى كونه معجزاً تحدى الله به المشركين، وصار آية من آيات الله عز وجل ومن خصائص النبي صلى الله عليه وسلم.

وهناك أقوال أرادت أن تجمع بين هذه الأقوال

القول الثالث: كالقول بأن الإسراء والمعراج حصلا أكثر من مرة، مرة بالروح والجسد ومرة بالروح فقط، ومرة يقظة ومرة مناماً إلى آخره.

القول الرابع: ومنهم من قال :إن الإسراء كله منام، وهذا قول ضعيف لا يتماشى مع مقاصد الشرع في ذكر الإسراء والمعراج؛ لأنه لو كان مناماً لكان حلماً، والأحلام لا يتميز بها أحد، فلذلك شنع السلف على هذا القول.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله–:

[٦٩] "واعلم أن أرواح الشهداء في قناديل تحت العرش تسرح في الجنة، وأرواح المؤمنين تحت العرش، وأرواح الكفار والفجار في برهوت، وهي في سجين".

الشرح

معلوم أن الروح لها ثلاث تعلقات:

التعلق الأول: في الحياة الدنيا: فالبدن هو الأصل في الحياة الدنيا؛ لذلك الأحكام معلقة بالبدن في الحياة الدنيا، والروح تبع.

التعلق الثاني: وفي البرزخ: الأصل هو الروح والبدن تبع

التعلق الثالث: ويوم القيامة: فالتعلق بالروح والبدن معاً.

فلذلك الأحكام تكون على هذه الأحوال، ففي أمور البرزخ الأصل يكون فيه للروح، فنحن نعلم أن الروح تفارق البدن عند الموت فإذا كانت روح مؤمنة أودعت في كفنٍ من أكفان الجنة ثم صُعد بها إلى السماء حتى تُفتح لها أبواب السماء، ثم يكون هناك موطنها من الجنة، إما في أجواف طيرٍ خضر أو في قناديل معلقة تحت العرش، أما إذا كانت روح خبيثة فإنها تُغلق عنها أبواب السماء.

ثم إذا وضع الإنسان في قبره عند تلك اللحظة تعود إليه روحه، فيُسأل ثم بعد ذلك يكون للبدن نعيمه أو عذابه، ويكون للروح نعيمها أو عذابها، حتى إذا كان يوم القيامة وقع الأمر على الروح والبدن معاً إما نعيمٌ وإما عذاب.

وأرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي:

أولاً: **أرواح الأنبياء**، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين، في الرفيق الأعلى، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر لحظات حياته يقول :((اللهمَّ الرفيق الأعلى)).[١٦٤٨]

الثاني: **أرواح الشهداء**، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون، قال تعالى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [آل عمران: ١٦] ، وقد

١٦٤٨ رواه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤).

سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هذه الآية، فقال: ((إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: "أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل)) رواه مسلم في صحيحه[١٦٤٩] وهذه أرواح بعض الشهداء لا كل الشهداء، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند عن عبد الله بن جحش)) :أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولّى، قال: إلا الدين، ساربي به جبريل آنفاً)) [١٦٥٠].

الثالث: أرواح المؤمنين الصالحين: تكون طيوراً تعلق في شجر الجنة، ففي الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :((إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة)) رواه أحمد١٦٥١.

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء:

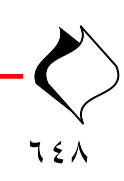
أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش.

أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها. وكون أرواح المؤمنين في أجواف طير يعلق شجر الجنة لا يشكل عليه الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه ((أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن، وترقى به إلى السماء، فتقول الملائكة: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من

١٦٤٩ رواه مسلم (١٨٨٧).

١٦٥٠ رواه أحمد (٣٥٠/٤) (١٩١٠٠). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٣٠/٤): فيه أبو كثير وهو مستور وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني في ((إرواء الغليل)) (١٩/٥): إسناده جيد.

١٦٥١ رواه أحمد (٤٥٥/٣) (١٥٨١٤). قال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦٩٤/٢)، وشعيب الأرناؤوط محقق ((المسند)): إسناده صحيح على شرط الشيخين.



الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غم الدنيا، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية))[١٦٥٢]، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنة.

الرابع: أرواح العصاة:... أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلغ قفاه، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور، ضيق أعلاه، وأسفله واسع، توقد النار من تحته، والمرابي يسبح في بحر من دم، وعلى الشط من يلقمه حجارة[١٦٥٣] وقد ورد في الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله، والذي يمشي بالنميمة بين الناس، والذي غلَّ من الغنيمة ونحو ذلك.

الخامس: أرواح الكفار: في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة، ذكر حال الكافر، وما يلاقيه عند النزع، وبعد أن تقبض روحه ((تخرج منه كأنتن ريح، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواح الكفار))[١٦٥٤].

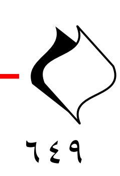
إشكال وجوابُه:

قد يقال: سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الأبدان، ثم تُسأل، وبعد ذلك ينعم المؤمن، ويعذب الكافر، فكيف تقول بعد ذلك: إن نسم المؤمنين في الجنة، ونسم الكفار في النار؟

١٦٥٢ رواه النسائي (٤/٨)، وابن حبان (٧/٢٨٤) (٣٠١٤)، والحاكم (١/٥٠٤). وقال: سنده صحيح، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/٢١٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)).

١٦٥٣ الحديث رواه البخاري (٧٠٧٤). من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

١٦٥٤ رواه النسائي (٤/٨)، وابن حبان (٧/٢٨٤) (٣٠١٤)، والحاكم (١/٥٠٤). وقال: سنده صحيح، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥/٢١٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)).



حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر، ولكن ليس الأمر كذلك، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زاذان عن البراء حديث صحيح، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية[١٦٥٥]

وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية: "وأرواح المؤمنين في الجنة، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن، كما أنها قد تكون في البدن، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم، أما كونها في الجنة ففيه أحاديث عامة، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء، واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره"[١٦٥٦].

ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة، ومقعده من النار لو كان كافراً، قال :((ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد جسده كما بدئ، وتجعل نسمته في نسم طيب، وهي طير تعلق في شجر الجنة))[١٦٥٧]، وفي لفظ((:وهو طير يعلق في شجر الجنة))[١٦٥٨]، وفي لفظ :((ثم يعاد جسده إلى ما بدئ منه)) [١٦٥٩]

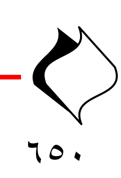
١٦٥٥ ((مجموع الفتاوى)) (٥/٤٤٦).

١٦٥٦ ((مجموع الفتاوى)) (٥/٤٤٧).

١٦٥٧ رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان (٧/٣٨٠) (٣١١٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: حسن غريب، وقال محمد المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (١/١١٩) رجاله رجال مسلم، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/١١٥) كما قال ذلك في المقدمة.

١٦٥٨ رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان (٧/٣٨٠) (٣١١٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: حسن غريب، وقال محمد المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (١/١١٩) رجاله رجال مسلم، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/١١٥) كما قال ذلك في المقدمة.

١٦٥٩ رواه الطبري في تفسيره (١٦/٥٩٦-٥٩٧).



فالروح كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء، ثم تسأل، ثم تكون طيراً يعلق بشجر الجنة إلى أن يبعث العباد، ومع كونها في الجنة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد، كحال الإنسان في النوم، فإنها تجول في ملكوت السماوات والأرض، مع أن لها تعلق بالجسد، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنة: (ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى، وهي في تلك بمنزلة نزول الملك، وظهور الشعاع في الأرض، وانتباه النائم) .[١٦٦٠] [١٦٦١]

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة:

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة، تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت!

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس!

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله.

١٦٦٠ ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣٦٥/٢٤).المصدر: القيامة الصغرى لعمر بن سليمان الأشقر، ص ١٠٢-١٠٦.

١٦٦١ المصدر: القيامة الصغرى لعمر بن سليمان الأشقر، ص ١٠٢-١٠٦.

قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربها كل يوم تسلم عليه.

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض. وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن، كحياته وإدراكه! وقولهم مخالف للكتاب والسنة.

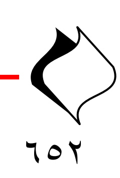
وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح! وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم.

...**ويتلخص من أدلتها:** أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت،

فمنها: أرواح في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها أرواح في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه. كما في (المسند) عن عبدالله بن جحش :((أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولى، قال: إلا الدين، سارني به جبرائيل آنفا)) [١٦٦٢]

١٦٦٢ رواه أحمد (١٣٩/٤) (١٧٢٩٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٢٣/٣) والطبراني (٢٤٧/١٩). وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٢٧/٤): رواه أحمد وفيه أبو كثير وهو مستور وبقية رجاله موثقون. وقال الألباني في ((شرح العقيدة الطحاوية)) (٤٥٣): صحيح.



ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة))[١٦٦٣]

ومنهم من يكون محبوساً في قبره.

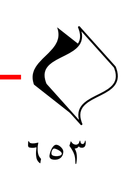
ومنهم من يكون في الأرض. ومنها أرواح في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره، في قوله تعالى: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [آل عمران:١٦٩]، وقوله تعالى: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ) [البقرة:١٥٤] فهي: أن الله تعالى: جعل أرواحهم في أجواف طير خضر. كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)) :لما أصيب إخوانكم، يعني يوم أحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مظلة في ظل العرش)) الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود[١٦٦٤]، وبمعناه في حديث ابن مسعود رواه مسلم.[١٦٦٥] فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان، أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها. ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير. وتأمل لفظ الحديثين، ففي (الموطأ) أن

١٦٦٣ رواه بنحوه أحمد (١١/٥) (٢٠١٣٦)، والطبراني في ((الأوسط)) (٢٤٤/٣). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٢٩/٤): رواه الطبراني في ((الأوسط)) وفيه أسلم بن سهل الواسطي قال الذهبي: لينه الدارقطني، وهذه عبارة سهلة في التضعيف وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني في ((شرح العقيدة الطحاوية)) (٤٥٥): صحيح.

١٦٦٤ رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد (٢٦٥/١) (٢٣٨٨)، والحاكم (٩٧/٢). والحديث سكت عنه أبو داود. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)): حسن.

١٦٦٥ انظر: صحيح مسلم (١٨٨٧).



كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)).[١٦٦٦] فقوله نسمة المؤمن تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: هي في جوف طير خضر، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم.

وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في (السنن)[١٦٦٧] .

وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، والله أعلم.

وكأنه-والله أعلم-كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول.[١٦٦٨]

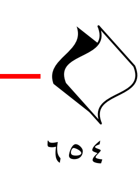
(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

١٦٦٦ رواه مالك في ((الموطأ)) (٢/٣٣٧) بلفظ: (طير) بدلاً من (طائر). والحديث رواه النسائي (٤/١٠٨)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (٣/٤٥٥) (١٥٨١٦). قال ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٢/٦١٤)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/١٢٥)، وابن حجر في ((توالي التأسيس)) (١/٢٠٣)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): صحيح.

١٦٦٧ الحديث روي في ((السنن)) بلفظ: ((إن الله عزو جل حرم على الأرض أجساد الأنبياء)). رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٣/٩١)، وابن ماجه (١٦٣٦). قال الحاكم (١/٤١٣): هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): صحيح.

١٦٦٨ المصدر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي-بتصرف-٢/٥٨٢.



[٧٠] "والإيمان بأن الميت يقعد في قبره، وترسل فيه الروح حتى يسأله منكر ونكير عن الإيمان وشرائعه، ثم يسل روحه بلا ألم".

شرح

ومن الأحاديث الواردة في هذا: ما رواه أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا قبر الميت–أو قال: أحدكم–أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير. فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا...))[١٦٦٩][١٦٧٠].

وفي حديث أنس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ الْعَبْدَ إذا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عنه أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ: ما كُنْتَ تَقُولُ فِي هذا الرَّجُلِ؟ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فيقول: أَشْهَدُ أَنَّهُ عبد اللَّهِ وَرَسُولُهُ...))[١٦٧١].

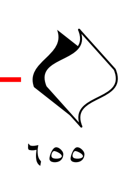
وهذه الأحاديث متلقاة عند أهل العلم بالقبول، قال ابن أبي عاصم: وفي المساءلة أخبار ثابتة، والأخبار التي في المساءلة في القبر منكر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم، فنرغب إلى الله أن يثبتنا في قبورنا عند مسألة منكر ونكير بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. انتهى[١٦٧٢].

١٦٦٩ رواه الترمذي (١٠٧١)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٨٦٤). قال الترمذي: حسن غريب. وحسنه ابن حجر في ((هداية الرواة)) (١/١١٥) –كما أشار إلى ذلك في المقدمة –. وكذلك الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).

١٦٧٠ المصدر: تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ص٢٨٩.

١٦٧١ أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

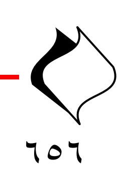
١٦٧٢ السنة: (ص٤١٩–٤٢٠).



ومنكر ونكير هما ملكان جاء وصفهما في السنة بأنهما أسودان أزرقان، يأتيان العبد في قبره فيقعدانه ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فأما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد صلى الله عليه وسلم، فينعم في قبره. وأما الكافر فلا يحار جوابا، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح منها صيحة يسمعها كل من يليه إلا الثقلين.

وورد تسمية الملكين في حديث أبي هريرة الذي عند الترمذي وغيره، وذكرهما يتقوى كما لا يخفى بالطريق التي عند الطبراني في المعجم الأوسط (٤٦٢٩)، وفيها ابن لهيعة وموسى ابن جبير الحذاء، وهذا الأخير وثقه ابن حبان وقال: يخطئ ويخالف، وفي ابن لهيعة كلام معروف، وباقي رجاله ثقات، فتسمية الملكين حسن بمجموع الطريقين، هذا بالإضافة أن تسميتهما وردت في أخبار أخرى مرسلة وموقوفة، وهي:

١-مرسل عطاء بن أبي رباح: أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (زوائده رقم٢٨١)، والآجري في الشريعة (رقم٨٦١-دار الوطن) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم١٠٣) من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "يا عمر كيف بك إذا أنت مت، فانطلق أهلك فقاسوا لك ثلاثة أذرع وشبر في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليه التراب، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما مثل البرق الخاطف، فتلتلاك وثرثراك وهوّلاك، فكيف بك عند ذلك يا عمر ؟"، قال: يا رسول الله ومعي عقلي؟، قال: "نعم"، قال: "إذا أكفيكهما."



٢-مرسل عمرو بن دينار المكي: عند عبد الرزاق في المصنف (٣/٥٨٢-٥٨٣) بسند صحيح عنه، ولفظه نحو الذي قبله، وذكر تسمية الملكين عن عبيد بن عمير.

فلا شك أن مجموع هذه الطرق يعطي قوة لتسمية الملكين، والله أعلم.

وأما قول منكر ونكير فقد ورد ذكرهما عن الصحابة وأئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين. ومن ذلك:

ما أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي من طريق غندر عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن تميم بن غيلان بن سلمة قال: (جاء رجل إلى أبي الدرداء وهو مريض)... إلى أن قال أبو الدرداء: ((ثم جاءك ملكان أسودان أزرقان جعدان أسماؤهما منكر ونكير...))[١٦٧٣]

وقد ذكر جملة من أئمة السلف عبارة (منكر ونكير) وممن ذكره هذه العبارة:

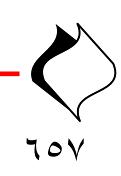
قال الإمام أحمد بن حنبل: ".. وأن هذه الأمة تفتن في قبورها، وتسأل عن الإيمان والإسلام، ومن ربه ومن نبيه، ويأتيه منكر ونكير، كيف شاء وكيف أراد.."[١٦٧٤].

وورد أن أبا عبيد القاسم بن سلام سأل الإمام أحمد عنهما فقال: "هذه اللفظة (منكر ونكير) تقول هذا أو تقول ملكين؟، قال: نقول منكر ونكير وهما ملكان"[١٦٧٥]

١٦٧٣ المصنف (٣/٥٣) (٧/١١٤)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١/١٣٣)، وهذا اسناد رجاله ثقات، وتميم بن غيلان بن سلمة ترجمه البخاري في التاريخ الكبير (٢/١٥٣)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/٤٤١)، وابن حبان في الثقات (٤/٨٦)، وهو ثقفي وروى عنه غير يعلى بن عطاء: ابن جريج وعبد العزيز بن أبي رواد، وما أحسبه سمع أبا الدرداء، والله أعلم.

١٦٧٤ أصول السنة (٣١).

١٦٧٥ طبقات ابي يعلى ١/٥٥.



وقال أبوبكر الاسماعيلي: "ويؤمنون بمسألة منكر ونكير على ما ثبت به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١٦٧٦].

وقال أبي بكر بن أبي عاصم: "وفي المساءلة أخبار ثابتة والأخبار التي في المساءلة في القبر منكر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم."[١٦٧٧]

وقال شيخ الاسلام: "إذا ثبتت الرسالة ثبت ما أخبر به الرسول مما ينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة" [١٦٧٨].

وقال الإمام الطحاوي: (وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ..) [١٦٧٩].[١٦٨٠]

وأما ما ورد في تفصيل صفة الملكين، وأن أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما مثل صياصي البقر، وأصواتهما مثل الرعد، ونحو ذلك أحاديث لا تصح.[١٦٨١]

وللناس في سؤال منكر ونكير: هل هو خاص بهذه الأمة أم لا ثلاثة أقوال: الثالث: التوقف، وهو قول جماعة، منهم: أبو عمر بن عبد البر، فقال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال :((إن هذه الأمة تبتلى في

١٦٧٦ اعتقاد أئمة الحديث (٧٠).

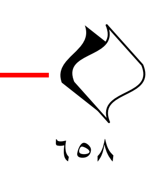
١٦٧٧ كتاب السنة (ص٤١٩-٤٢٠).

١٦٧٨ الأصفهانية (٢/٢١٤).

١٦٧٩ العقيدة الطحاوية (٥٠).

١٦٨٠ وانظر في ذلك كلام البربهاري في السنة (٣٧)، وصديق حسن خان في قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (١٣٣)، وابن قدامة في لمعة الاعتقاد (٢٦)، ومرعي الكرمي في أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات (٢١٣)، والكلاباذي في التعرف لمذهب أهل التصوف (٥٧)، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (٣٠٥).

١٦٨١ انظر السلسلة الضعيفة (٣٥٨٥).



قبورها))[١٦٨٢]، منهم من يرويه: تُسأل[١٦٨٣]، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خصت بذلك، وهذا أمر لا يقطع به، ويظهر عدم الاختصاص، والله أعلم"[١٦٨٤].[١٦٨٥]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٧١] "ويعرف الميت الزائر إذا أتاه، ويتنعم في القبر المؤمن ويعذب الفاجر كيف شاء الله".

الشرح

١٦٨٢ رواه مسلم (٢٨٦٧).

١٦٨٣ رواه الطبري في ((تفسيره)) (١٦/٦٠٠–٦٠١) عن الربيع، وأبي قتادة، وغيرهما. وعزاه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٢٢/٢٥٤) لابن أبي شيبة، وقال: وقال ابن أبي شيبة: تُسأل في قبورها. ولم أجده في ((مصنفه)) إنما روى الحديث (٣/٥٠) كما في ((صحيح مسلم)) –حيث رواه مسلم من طريق ابن أبي شيبة أصلاً–((إن هذه الأمة تبتلى في قبورها...)).

١٦٨٤ انظر: ((التمهيد)) (٢٢/٢٥٣).

١٦٨٥ المصدر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ٢/٥٨١

قوله: **"ويعرف الميت الزائر إذا أتاه"** عالم البرزخ من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى العلم بتفاصيله إلا من جهة الخبر الصادق: الكتاب والسنة الصحيحة، وقد جاء فيهما كثير من التفاصيل التي تتحدث عما يواجهه الإنسان بعد الموت.

ومن التفاصيل التي وردت في ذلك: أن الميت يتعرف إلى من يزوره من الأحياء إذا كان يعرفهم في الدنيا، روى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من أحد مر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا، فسلم عليه، إلا عرفه ورد عليه السلام))[١٦٨٦]

ومما يقوي هذا الحديث أيضا الآثار المتكاثرة الواردة عن السلف في هذا الباب، حتى قال ابن القيم رحمه الله: "والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به "[١٦٨٧]، ومثله يقول ابن كثير[١٦٨٨] وقد جمع هذه الآثار الحافظ ابن أبي الدنيا في كتاب "القبور"، تحت باب "معرفة الموتى بزيارة الأحياء "، والقرطبي في "التذكرة"، كما جمعها الحافظ السيوطي في "شرح الصدور في أحوال الموتى وزيارة القبور"

وأما العلماء المتأخرون، فأكثرهم على تقرير هذا الوارد في كتب الأثر.

١٦٨٦ رواه ابن عبد البر في "الاستذكار" (١/١٨٥). ونقل ابن تيمية عن عبد الله بن المبارك ثبوت هذا الحديث، فقال: " قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم " انتهى. "مجموع الفتاوى" (٢٤/٣٣١)، وكذلك صحح الحديث من المتأخرين: الحافظ عبد الحق الإشبيلي، والقرطبي في "المفهم" (١/٥٠٠)، وابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٤/١٧٣)، والعراقي في تخريج "إحياء علوم الدين" (٤/٤٩١)، والزبيدي في "شرح الإحياء" (١٠/٣٦٥)، والسيوطي في "الحاوي" (٢/٣٠٢)، والعظيم أبادي في "عون المعبود" (٣/٢٦١)، والشوكاني في "نيل الأوطار" (٣/٣٠٤) وغيرهم وللحديث شاهدان آخران عن أبي هريرة، وعن عائشة رضي الله عنهما، لكن في أسانيدهما ضعف لا يصلحان معه للاعتبار. انظر "السلسلة الضعيفة" للشيخ الألباني (رقم/٤٤٩٣).

١٦٨٧ "الروح"(ص: ٥).

١٦٨٨ "تفسير القرآن العظيم" (٦/٣٢٥).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الروح تشرف على القبر، وتعاد إلى اللحد أحيانا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام))[١٦٨٩]، والميت قد يعرف من يزوره، ولهذا كانت السنة أن يقال: ((السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين))"[١٦٩٠] .

وهذه المسألة لها ارتباط بمسألة سماع الأموات للأحياء وقد تقدم الكلام عليها وذكر الخلاف فيها في الفقرة: (٦١) فليرجع إليها.

قول المصنف: **ويتنعم في القبر المؤمن ويعذب الفاجر كيف شاء الله**".

١٦٨٩ أفاد الحافظ العراقي في تخريجه "إحياء علوم الدين" (٥٢٢/٤) أن ابن عبد البر خرجه في "التمهيد " و"الاستذكار" (١/ ١٨٥) بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، وممن صححه-أيضا-الحافظ عبد الحق الاشبيلي في أحكامه (١/ ٨٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- (الفتاوى ٣٣١/٢٤) "قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي ﷺ، وصححه عبد الحق صاحب "الأحكام".

وممن ضعفه: ابن حبان في (المجروحين ٢٣/٢) من حديث أبو هريرة، قال-فيه-عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقلب الأخبار وهو لا يعلم فاستحق الترك.

وابن-القيسراني (معرفة التذكرة ١٩٣) بضعف، فيه عبد الرحمن بن زيد.

وابن عساكر (تاريخ دمشق ٣٨/١٠).

ومحمد ابن عبد الهادي (الصارم المنكي ٣٦٦) ضعيف، والمحفوظ موقوف.

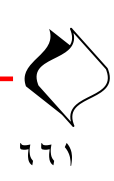
والإمام الذهبي (العلل المتناهية ٣٥٠) و (ميزان الاعتدال ٥٦٥/٢) فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

وقال في (سير أعلام النبلاء ٥٩٠/١٢) غريب، ومع ضعفه، ففيه انقطاع.

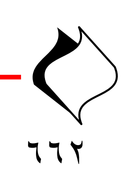
والألباني في (ضعيف الجامع ٥٢٠٨).

قال الشيخ ابن باز عليه رحمة الله (مجموع الفتاوي ١٣/ ٣٣٦) في إسناده نظر.

١٦٩٠ مجموع الفتاوى" (٣٠٣/٢٤-٣٠٤).



وذلك لما ورد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رؤوسنا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا... - ثُمَّ ذكر صفة قبض روح المؤمن ونعيمه في القبر ثم قال -: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيَقُولانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا قَالَ فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا قَالَ ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ



أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعَةَ))[١٦٩١].

والحياة البرزخية فيها أمور كثيرة ثابتة، ومنها كون الإنسان يأتيه عمله، فإن كان صالحاً أتاه على أحسن صورة، وإن كان غير صالح أتاه على أقبح صورة.

وإذا كان الميت من أهل الجنة فتح له باب إلى الجنة ورأى مقعده فيها، وإذا كان من أهل النار فتح له باب من النار فيرى مقعده فيها.

وقد ثبت عودة الروح للإنسان في قبره على نحو الله أعلم به، فإن الإنسان إذا دفن في قبره تأتيه روحه فيحس ويتنعم ويتألم ويشعر بمن حوله بعد الدفن مباشرة ويسمع وقع نعال الذين يدفنونه كما ورد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم[١٦٩٢].
))

هذا أمر معروف، فالمؤمن يفتح له باب إلى الجنة، والكافر يفتح له باب إلى النار، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، وأما المؤمن فيفسح له في قبره مد البصر.

ثم تسل روح المؤمن بلا ألم كما تسل الشعرة من العجين، وأما الكافر فإنها تنزع روحه نزعاً كما ينزع السفّود من الصوف المبلول.

وقد تقدم تفصيل هذه المسألة في الفقرة (١٧).

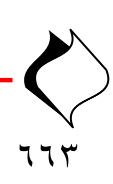
(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٧٢] "واعلم أن [الشر والخير] بقضاء الله وقدره".

١٦٩١ رواه أحمد (١٧٨٠٣) وأبو داود (٤٧٥٣)، والحديث: صححه الشيخ الألباني في " أحكام الجنائز " (ص ١٥٦).

١٦٩٢ رواه البخاري (١٢٧٣).



الشرح

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة، وقد ورد ذكر القدر في القرآن ومنه ما جاء في قوله تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) القمر: ٤٩. وقوله تعالى: (وكان أمر الله قدرا مقدورا) الأحزاب: ٣٨.

القَدَرُ ـ في اللغة ـ: التقديرُ، وهو مصدرٌ، يقال: قَدَرتُ الشيءَ أَقْدُرُه قَدْرًا وقَدَرًا إذا أحَطْتُ بمقداره، والقَدَرُ: وقتُ الشيءِ أو مكانُه المقدَّرُ له، ويُطْلَقُ القَدَرُ على القضاء الذي يقضي به اللهُ على عِبَادِه، وجمعُه أقدارٌ.[١٦٩٣]

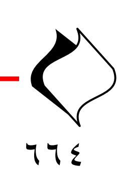
قال الأزهريُّ: «قال الليث: القَدَرُ: القضاءُ الموفَّق، يقال: قدَّر اللهُ هذا تقديرًا، قال: وإذا وافقَ الشيءُ الشيءَ قلتَ: جاء قَدَرُه»[١٦٩٤].

وَقَدَرُ اللهِ تَعَالَى هُوَ: تَعَلُّقُ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ ـ أَزَلًا ـ بِالكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا؛ فَلَا حَادِثَ إِلَّا وَقَدْ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى، أَيْ: سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وَتَقَدَّمَتْ بِهِ إِرَادَتُهُ؛ فَكُلُّ حَادِثٍ فَهُوَ حَادِثٌ عَلَى وَفْقِ مَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللهِ وَمَضَتْ بِهِ إِرَادَتُهُ

والإيمانُ بالقَدَرِ ركنٌ عظيمٌ مِن أركانِ الإسلام، لا يَصِحُّ إيمانُ المسلمِ إلَّا بتحقيقه، وقد انعقد إجماعُ السلفِ قاطبةً ومَن بَعْدَهم مِن أئمَّةِ السنَّةِ العدولِ الأثباتِ على وجوبِ الإيمان بالقَدَر، وأنَّ الأمور كُلَّها: خيرَها وشرَّها، نَفْعَها وضَرَّها بتقديرِ الله ـ تعالى ـ، قال عبدُ الغنيّ المقدسيُّ ـ رحمه الله ـ في: «وأَجْمَعَ أئمَّةُ السلفِ مِن أهل الإسلام على الإيمانِ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه، حُلْوِه ومُرِّه، قليلِه وكثيرِه، بقضاءِ الله وقَدَرِه، لا يكون شيءٌ إلَّا بإرادته، ولا يجري خيرٌ وشرٌّ إلَّا بمَشيئته، خَلَقَ مَن شاءَ للسعادة واستعمله بها فضلًا، وخَلَقَ مَن أراد للشقاء واستعمله به عدلًا؛ فهو سرٌّ استأثر به، وعِلْمٌ حَجَبَه

١٦٩٣ انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١١/ ٥٥)، «المعجم الوسيط» (٢/ ٧١٨)، «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١١٨).

١٦٩٤ «تهذيب اللغة» (٩/ ٣٧).



عن خَلْقِه، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ، قال الله –عزَّ وجلَّ–﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [الأعراف :١٧٩] ، وقال– تعالى–: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣] ، وقال–عزَّ وجلَّ– ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] " ١٦٩٥.

وأكَّد ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الإجماعَ بقوله: "وأمَّا السلفُ والأئمَّةُ كما أنهم مُتَّفِقون على الإيمانِ بالقَدَر، وأنه ما شاءَ كان وما لم يَشَأْ لم يكن، وأنه خالِقُ كُلِّ شيءٍ مِن أفعال العباد وغيرِها، وهُمْ مُتَّفِقون على إثباتِ أَمْرِه ونَهْيِه، ووَعْدِه ووَعِيدِه، وأنه لا حُجَّةَ لأَحَدٍ على الله في تركِ مأمورٍ ولا فعلِ محظورٍ؛ فهُمْ ـ أيضًا ـ مُتَّفِقون على أنَّ اللهَ حكيمٌ رحيمٌ، وأنه أَحْكَمُ الحاكمين وأَرْحَمُ الراحمين"١٦٩٦.

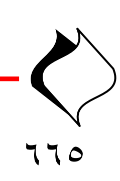
والواجبُ في معرفةِ القَدَر ـ الذي هو الإيمانُ بتَقَدُّمِ عِلْمِ الله بما يكون مِن أسباب الخَلْق، وصدورِ جميعِ المخلوقات عن تقديرٍ منه ـ يَتَمَحْوَرُ على أمرين أساسيَّيْن وهُما:

الأوَّل: وجوبُ الإيمانِ بالقَدَر، والإقرارِ بجميعه، والاعتمادِ في معرفته على الكتاب والسنَّة، والحذرِ مِن الاعتماد على نظرِ العقل والقياس المحض.

الثاني: التسليمُ بقضاءِ الله وقَدَرِه، وتركُ التنقير والبحث عن القَدَرِ والتعمُّقِ في التفكير فيه والنظر، واجتنابُ السؤالِ عنه والمناظَرةِ عليه والخصومةِ به؛ «لأنَّ القَدَرَ سِرٌّ مِن سِرِّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، بل الإيمان بما جَرَتْ به المقاديرُ مِن خيرٍ أو شرٍّ واجبٌ على العباد أَنْ يُؤْمِنوا به، ثمَّ لا يأمن العبدُ أَنْ يبحث عن القَدَرِ فيُكذِّبَ بمَقاديرِ اللهِ الجاريةِ على العباد؛ فيَضِلَّ عن طريقِ الحقِّ... هذا مذهبُ المسلمين، وليس لأَحَدٍ

١٦٩٥ الاقتصاد في الاعتقاد(١٥١).

١٦٩٦ «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٦٦).



على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حجَّةٌ، بل لله الحجَّةُ على خَلْقه، قال اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُل فَلِلَّهِ ٱلحُجَّةُ ٱلبَٰلِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَىٰكُم أَجمَعِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٩]»[١٦٩٧]

ولهذا نَهى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن التنقير والبحثِ عن القَدَرِ وعَدَمِ التوقُّف عند بابِه في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((... وَإِذَا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا))[١٦٩٨]

وقوله: **"واعلم أن الشر والخير"** هذا اللفظ ورد في قوله صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره))[١٦٩٩]

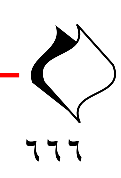
والحديثُ دَلَّ دلالةً ظاهرةً على مذهبِ أهلِ السـنَّةِ في إثباتِ القَدَرِ ووجوبِ الإيمانِ بجميعِ المقادير: خيرِها وشرِّها، حُلْوِها ومُرِّها، نَفْعِها وضرِّها، قليلِها وكثيرِها، وأنه واقعٌ مِن الله ـ تعالى ـ على العباد في الوقت الذي أراد أَنْ يَقَعَ، لا يَتقدَّمُ الوقتَ ولا يَتأخَّرُ على ما سَبَقَ بذلك في علمِ الله، تجري الواقعاتُ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وتحت تصرُّفه وإرادته؛ فما شاءَ كان وما لم يَشَأْ لم يكن، وما أصابَ العبدَ لم يكن لِيُخْطِئَه وما أَخطأَهُ لم يكن لِيُصيبَه، وما تَقَدَّمَ لم يكن لِيتأخَّرَ وما تَأَخَّرَ لم يكن لِيَتَقدَّمَ؛ فلا مانِعَ لِمَا أعطى ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، ولا يكون في مُلْكِهِ إلَّا ما يُرِيدُ، وهو ـ سبحانه ـ غيرُ ظلَّامٍ للعبيد.

وجاء في لفظ: ((أن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره)). بزيادة حلوه ومره، قد جاءت في عدة أحاديث:

١٦٩٧ «الشريعة» للآجُرّي (٢/ ٧٠٢)، وانظر: «الإبانة» لابن بطَّة، الكتاب الثاني: القَدَر، المجلَّد (١/ ٢٤٦).

١٦٩٨ أخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٠/ ١٩٨)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحِلْية» (٤/ ١٠٨)، مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعًا. وهذا الطريقُ حسَّنه ابنُ حجرٍ في «الفتح» (١١/ ٤٧٧)، وله طُرُقٌ أخرى صحَّحه الألبانيُّ بمجموعها، انظر: «السلسلة الصحيحة» (١/ ٤٢ ـ ٤٦).

١٦٩٩ رواه مسلم (٨).



فمنها حديث عمر الطويل في قصة جبريل، وأصل الحديث في الصحيح، ولكن هذه الزيادة عند ابن حبان.[١٧٠٠]

وحديث ابن عمر عند ابن أبي شـيبة[١٧٠١] والبيهقي والطبراني، والسـنة لابن أبي عـاصـم.[١٧٠٢] وكـذلـك في حـديـث جبريـل الطويـل، وحـديـث عبـد الله بن عمرو عند الطبراني في الأوسـط[١٧٠٣]، وحديث عدي بن حاتم عند ابن ماجه[١٧٠٤]، وحديث أنس عند ابن النجار[١٧٠٥].

وقال الحافظ ابن حجر "إنها من باب التقرير بالإبدال، يعني أنها وردت لتأكيد المعنى"[١٧٠٦].

ويمكن أن يقال: إن لفظ خيره وشـره أعم من حلوه ومره، فهو من باب ذكر الخاص بعد العام، وذلك لأن الخير قد يكون مراً، والشـر قد يكون حلواً، قال تعالى :(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) [البقرة: ٢١٦].

١٧٠٠ رواه ابن حبان في صحيحه، (١ /٣٩٠)، مِن حديثِ عبد الله بنِ عمر عن أبيه رضي الله عنهما. وعلق عليه الشيخ الالباني في التعليقات الحسان: ١٦٨ -صحيح.

١٧٠١ الإيمان لابن أبي شيبة:١١٩، وقال الألباني صحيح ورجاله ثقات لكنه في صحيح مسلم من طرق أخرى.

١٧٠٢ تخريج كتاب السنة ١٧٢ وقال الألباني: إسناده ضعيف.

١٧٠٣ المعجم الأوسـط للطبراني ٣/ ١١٢، وقال لم يرو هذا الحديث عن مقاتل إلا عمر تفرد به محمد بن يعلى، وأورده ابن الوزير اليماني في العواصم والقواصم: ٢٩٠/٦، وقال: رجاله موثقون.

١٧٠٤ أخرجه ابن ماجة (٨٧) والطبراني (١٧/ ٨١) (١٨٢)، انظر: مجمع الزوائد: ٩/ ٤٠٦، والحديث فيه عبد الأعلى بن أبي المساور وهو متروك، وقال الألباني ضعيف جدًا (ضعيف ابن ماجة: ١٧) وقال أيضًا في تخريج كتاب السنة لابن أبي عاصم: ١٣٥ إسناده ضعيف جدًا.

١٧٠٥ أورده الذهبي في سـير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٨٧، وابن عسـاكر في تاريخ دمشـق (٢٣/ ٢٠٨)، وأبو طاهر السلفي في الطيوريات (٢٩٧).

١٧٠٦ فتح الباري: (١١٨/١).

وقال ابن القيم: "الفرق بين كون القدر خيرا شرا وكونه حلوا ومرا قيل الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل، والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسوئها فهو حلو ومر في مبدأه وأوله، وخير وشر في منتهاه وعاقبته، وقد أجرى الله سبحانه سنته وعادته أن حلاوة الأسباب في العاجل تعقب المرارة في الآجل، ومرارتها تعقب الحلاوة فحلو الدنيا مر الآخرة ومر الدنيا حلو الآخرة، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل اللذات تثمر الآلام والآلام تثمر اللذات، والقضاء والقدر منتظم لذلك انتظاما لا يخرج عنه شيء البتة.

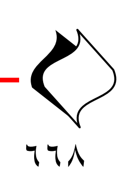
والشر مرجعه إلى الآلام وأسبابها، والخير مرجعه إلى اللذات وأسبابها، والخير المطلوب هو اللذات الدائمة، والشر المرهوب هو الآلام الدائمة، فأسباب هذه الشرور وإن اشتملت على لذة ما وأسباب تلك الخيرات وإن اشتملت على ألم ما، فألم تعقبه اللذة الدائمة أولى بالإيثار والتحمل من لذة يعقبها الألم الدائم، فلذة ساعة في جنب ألم طويل كلا لذة وألم ساعة في جنب لذة طويلة كلا ألم[١٧٠٧]".

ويجدرُ التنبيهُ والإشارةُ إلى أنَّ وَصْفَ القَدَرِ بالشرِّ واقعٌ في مفعولات الله ـ تعالى ـ ومقدوراتِه المُنْفَصِلةِ عنه التي لا يَتَّصِفُ بها، دون أفعاله القائمةِ به؛ فأفعالُ الله – تعالى– كُلُّها خيرٌ وحكمةٌ؛ ولهذا قال صلَّى الله عليه وسلَّم :((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))[١٧٠٨]

قال ابن القيم رحمه الله: "معنى قول السلف من أصول الإيمان: الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره...أن القدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشيئته وذلك خير محض وكمال من كل وجه فالشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله وإنما يدخل الشر الجزئي

١٧٠٧ شفاء العليل لابن القيم – ٢/٧٣٣.

١٧٠٨ جزءٌ مِن حديثٍ رواهُ مسلمٌ في "صلاة المسافرين وقَصْرِها"٦ /٥٧ ـ ٦٠ (بابُ صلاةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ودعائِه في الليل، مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.



الإضافي في المقضي المقدر ويكون شرا بالنسبة إلى محل وخيرا بالنسبة إلى محل آخر وقد يكون خيرا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر له من وجه بل هذا هو الغالب.

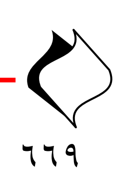
وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه بل من وجه دون وجه وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض وكذلك الآلام والأمراض وإن كانت شرورا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة...

فالخير والشر من جنس اللذة والألم والنفع والضرر وذلك في المقضي المقدر لا في نفس صفة الرب وفعله القائم به فإن قطع يد السارق شر مؤلم ضار له وأما قضاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل خير وحكمة ومصلحة...

في امتناع إطلاق القول نفيا وإثباتا أن الرب تعالى مريد للشر وفاعل له هذا موضع خلاف اختلف فيه مثبتو القدر ونفاته:

فقال النفاة: لا يجوز أن يقال إن الله سبحانه مريد للشر أو فاعل له قالوا لا يريد الشر وفاعله شرير هذا هو المعروف لغة وعقلا وشرعا كما أن الظالم فاعل الظلم والفاجر فاعل الفجور ومريده والرب يتعالى ويتنزه عن ثبوت معاني أسماء السوء له فإن أسمائه كلها حسنى وأفعاله كلها خير فيستحيل أن يريد الشر فالشر ليس بإرادته ولا بفعله قالوا وقد قام الدليل على أن فعله سبحانه غير مفعوله والشر ليس بفعل له فلا يكون مفعولا له.

وقابلهم الجبرية فقالوا بل الرب سبحانه يريد الشر ويفعله قالوا لأن الشر موجود فلا بد له من خالق ولا خالق إلا الله وهو سبحانه إنما يخلق بإرادته فكل مخلوق فهو مراد له وهو فعله ووافقوا إخوانهم على أن الفعل عين المفعول والخلق نفس المخلوق ثم قالوا والشر مخلوق له ومفعول فهو فعله وخلقه وواقع بإرادته قالوا وإنما لم يطلق القول إنه يريد الشر ويفعل الشر أدبا لفظيا فقط كما لا يطلق القول بأنه رب الكلاب

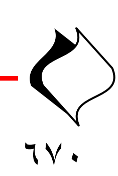


والخنازير ويطلق القول بأنه رب كل شيء وخالقه قالوا وأما قولكم أن الشرير مريد الشر وفاعله فجوابه من وجهين:

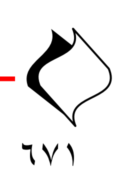
أحدهما: إنما يمنع ذلك بأن الشرير من قام به الشر وفعل الشر لم يقم بذات الرب فإن أفعاله لا تقوم به إذ هي نفس مفعولاته وإنما هي قائمة بالخلق وكذلك اشتقت لهم منها الأسماء كالفاجر والفاسق والمصلي والحاج والصائم ونحوها

الجواب الثاني: أن أسماء الله تعالى توقيفية ولم يسم نفسه إلا بأحسن الأسماء قالوا والرب تعالى أعظم من أن يكون في ملكه مالا يريده ولا يخلقه فإنه الغالب غير المغلوب.

وتحقيق القول في ذلك: أنه يمتنع اطلاق إرادة الشر عليه وفعله نفيا وإثباتا في إطلاق لفظ الإرادة والفعل من إيهام المعنى الباطل ونفي المعنى الصحيح فإن الإرادة تطلق بمعنى المشيئة وبمعنى المحبة والرضا فالأول كقوله إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ وقوله :وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ وقوله : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً) والثاني: كقوله: (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) وقوله: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) فالإرادة بالمعنى الأول تستلزم وقوع المراد ولا تستلزم محبته والرضا به وبالمعنى الثاني لا تستلزم وقوع المراد وتستلزم محبته فإنها لا تنقسم بل كل ما أراده من أفعاله فهو محبوب مرضي له ففرق بين إرادة أفعاله وإرادة مفعولاته فإن أفعاله خير كلها وعدل ومصلحة وحكمة لا شر فيها بوجه من الوجوه وأما مفعولاته فهي مورد الانقسام وهذا إنما يتحقق على قول أهل السنة أن الفعل غير المفعول والخلق غير المخلوق كما هو الموافق للعقول والفطر واللغة ودلالة القرآن والحديث وإجماع أهل السنة كما حكاه البغوي في شرح السنة عنهم وعلى هذا فهاهنا إرادتان ومرادان إرادة أن يفعل ومرادها فعله القائم به وإرادة أن يفعل عبده ومرادها مفعوله المنفصل عنه وليسا بمتلازمين فقد يريد من عبده أن يفعل ولا يريد من نفسه إعانته على الفعل وتوفيقه له وصرف موانعه عنه كما أراد من إبليس أن يسجد لآدم ولم يرد من نفسه أن يعينه على السجود ويوفقه له ويثبت قلبه عليه ويصرفه إليه



ولو أراد ذلك منه لسجد له لا محالة وقوله فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ إخباره عن إرادته لفعله لا لأفعال عبيده وهذا الفعل والإرادة لا ينقسم إلى خير وشر كما تقدم وعلى هذا فإذا قيل هو مريد للشر أوهم أنه محب له راض به وإذا قيل أنه لم يرده أوهم أنه لم يخلقه ولا كونه وكلاهما باطل ولذلك إذا قيل أن الشر فعله أو أنه يفعل الشر أوهم أن الشر فعله القائم به وهذا محال وإذا قيل لم يفعله أو ليس بفعل له أوهم أنه لم يخلقه ولم يكونه وهذا محال فأنظر ما في إطلاق هذه الألفاظ في النفي والإثبات من الحق والباطل الذي يتبين بالاستفصال والتفصيل وأن الصواب في هذا الباب ما دل عليه القرآن والسنة من أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى لا وصفا ولا فعلا ولا يتسمى باسمه بوجه من الوجوه وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم كقوله تعالى (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) [الفلق: ١-٢] فما هاهنا موصولة أو مصدرية والمصدر بمعنى المفعول أي من شر الذي خلقه أو من شر مخلوقه وقد يحذف فاعله كقوله حكاية عن مؤمني الجن (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) [الجن: ١٠] وقد يسند إلى محله القائم به كقول إبراهيم الخليل (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [الشعراء: ٧٨-٨٠]، وقول الخضر (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) [الكهف: ٧٩] وقال في بلوغ الغلامين (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) [الكهف: ٨٢] وقد جمع الأنواع الثلاثة في الفاتحة في قوله (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: ٦-٧] والله تعالى إنما نسب إلى نفسه الخير دون الشر فقال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران: ٢٦] وأخطأ من قال المعنى بيدك الخير والشر لثلاثة أوجه:



أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف بل ترك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد.

الثاني: أن الذي بيد الله تعالى نوعان فضل وعدل كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع)) [١٧٠٩] فالفضل لإحدى اليدين والعدل للأخرى وكلاهما خير لا شر فيه بوجه

الثالث: أن قول النبي صلى الله عليه وسلم :((لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك)) [١٧١٠] كالتفسير للآية ففرق بين الخير والشر وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه وقطع إضافة الآخر إليه مع إثبات عموم خلقه لكل شيء.[١٧١١]

قوله: **"بقضاء الله وقدره"**

تعددت الأقوال في الفرق بين القضاء والقدر:

القول الأول: ذهب بعض العلماء إلى أن القضاء والقدر مترادفان.

وهذا موافق لقول بعض أئمة اللغة الذين فسروا القدر بالقضاء، قال الفيروزآبادي:

القدر: "القضاء والحكم". [١٧١٢]

القول الثاني: وذهب آخرون من العلماء إلى التفريق بينهما.

ولكن اختلفوا في أيهما أعم وأسبق

فمنهم من ذهب إلى أن القضاء سابق على القدر.

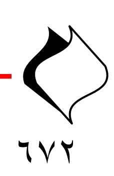
فقال:

١٧٠٩ رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (١٩٣).

١٧١٠ رواه مسلم (٧٧١).

١٧١١ المصدر: شفاء العليل لابن القيم – ٧٣٣/٢.

١٧١٢ "القاموس" المحيط (ص ٥٩١).



القضاء: هو ما علمه الله وحكم به في الأزل.

والقدر: هو وجود المخلوقات موافقة لهذا العلم والحكم.

قال الحافظ ابن حجر: "قال العلماء:

القضاء: هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل.

والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله". [١٧١٣]

وقال في موضع آخر: "

القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل.

والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل"[١٧١٤]

وقال الجرجاني "

القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود، واحدا بعد واحد، مطابقا للقضاء.

والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال.

والفرق بين القدر والقضاء: هو أن

القضاء: وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة.

والقدر: وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها". [١٧١٥]

ومن العلماء فريق آخر عكس هذا القول، فجعلوا القدر سابقا على القضاء:

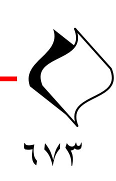
فالقدر: هو الحكم السابق الأزلي.

والقضاء: هو الخلق.

١٧١٣ "فتح الباري" (٤٧٧/١١)

١٧١٤ (١٤٩/١١).

١٧١٥ "التعريفات" (ص١٧٤).



قال الراغب الأصفهاني: "والقضاء من الله تعالى أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير، **فالقدر** هو التقدير، **والقضاء** هو الفصل والقطع.

وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المِعَدِّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، ويشهد لذلك قوله تعالى: (وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا)، وقوله: (كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا)، وقوله: (وَقُضِيَ الأَمْرُ). أي فصل، تنبيهًا أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه ". [١٧١٦]

القول الثالث: ومن العلماء من اختار أنهما بمعنى واحد إذا افترقا، فإذا اجتمعا في عبارة واحدة: صار لكل واحد منهما معنى.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "

القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير؛ قال تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) [المرسلات: ٢٣].

وأما القضاء؛ فهو في اللغة: الحكم.

ولهذا نقول: إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن تفرقا؛ على حد قول العلماء: هما كلمتان: إن اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا.

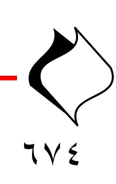
فإذا قيل: هذا قدر الله؛ فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكرا جميعًا؛ فلكل واحد منهما معنى.

فالتقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

وأما القضاء؛ فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا.

فإن قال قائل: متى قلنا: إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا؛ فإن هذا يعارض قوله

١٧١٦ "المفردات" (ص٦٧٥).



تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان: ٢]؛ فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

-إما أن نقول: إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي، وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رؤوس الآيات.

ألم تر إلى أن موسى أفضل من هارون، لكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالى عن السحرة: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) [طه: ٧٠]؛ لتتناسب رؤوس الآيات.

وهذا لا يدل على أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة.

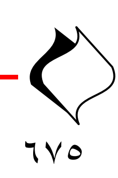
-أو نقول: إن التقدير هنا بمعنى التسوية؛ أي: خلقه على قدر معين؛ كقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) [الأعلى: ٢]؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية.

وهذا المعنى أقرب من الأول؛ لأنه يطابق تمامًا لقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)؛ فلا إشكال". [١٧١٧]

والخلاصة: أن الخطب في هذه المسألة يسير جدا، وليس وراءها كبير فائدة، ولا تتعلق بعمل ولا اعتقاد، وغاية ما فيها اختلاف في التعريف، ولا دليل من الكتاب والسنة يفصل فيها، والمهم هو الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان، والتصديق به.

قال الخطابي رحمه الله بعد أن ذكر أن القدر هو التقدير السابق وأن القضاء هو الخلق، قال: "جماع القول في هذا الباب -أي القضاء والقدر- أنهما أمران لا ينفك

١٧١٧ "شرح العقيدة الواسطية" (١٨٩/٢).



أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه"[١٧١٨] انتهى.

وقال الشيخ عبد الرحمن المحمود: "لا فائدة من هذا الخلاف؛ لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر... فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل عليه الآخر[١٧١٩]."

وعلى المسلم أن يتيقن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، فالآجال والأعمار والذوات والأشخاص والصفات والحركة والسكون والأفعال وكل شيء قد قضاه الله وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام:٥٩].

فلا بد للمسلم أن يؤمن بقضاء الله وقدره في كل شيء، وأن الله قد علم الأشياء قبل كونها، وكتبها في اللوح المحفوظ، وأراد كل شيء في هذا الوجود قضاءً وقدراً، وخلق كل شيء في هذا الوجود.

[١٧١٨] "معالم السنن" (٣٢٣/٢)

١٧١٩ "القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة" (ص ٤٤).

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٧٣] "والإيمان بأن الله تبارك وتعالى هو الذي كلم موسى بن عمران يوم الطور وموسى يسمع من الله الكلام بصوت وقع في مسامعه منه لا من غيره، فمن قال غير هذا فقد كفر".

الشرح

يشير المصنف رحمه الله إلى ما جاء في:

قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) الأعراف: ١٤٣.

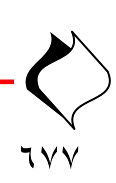
وقوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) النساء: ١٦٤.

وقوله تعالى (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) [الأعراف:١٤٤]

لا شك أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى، وموسى كليم الله عز وجل، وتكليمه كان يوم الطور، وأن موسى سمع كلام الله سبحانه وتعالى بصوت وقع في مسامعه، وهذا الكلام من الله عز وجل لموسى، ومن قال غير ذلك فقد كفر بالله العظيم، فنحن نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يتكلم وأن كلامه بحرفٍ وصوتٍ مسموعين وأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يُسمع موسى كلامه، فلذلك موسى كليم الله عز وجل.

و"سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رجل قال: إن الله لم يكلم موسى تكليماً، وإنما خلق الكلام والصوت في الشجرة وموسى عليه السلام سمع من الشجرة لا من الله، وأن الله عز وجل لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخذه من اللوح المحفوظ، فهل هو على الصواب أم لا؟

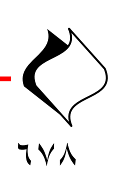
فأجاب: الحمد لله، ليس هذا على الصواب، بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الأمة وأئمتها، بل هو كافر يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وإذا قال لا



أكذب بلفظ القرآن وهو قوله (وكلم الله موسى تكليماً) بل أقر بأن هذا اللفظ حق لكن، فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين فرقة. وأول من قال هذه المقالة في الإسلام كان يقال له الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم أضحى، فإنه خطب الناس فقال في خطبته: ضحوا أيها الناس، تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه. وكان ذلك في زمن التابعين فشكروا ذلك، وأخذ هذه المقالة عنه جهم بن صفوان وقتله بخراسان سلمة بن أحور، وإليه نسبت هذه المقالة التي تسمى مقالة الجهمية، وهي نفي صفات الله تعالى، فإنهم يقولون: إن الله لا يرى في الآخرة ولا يكلم عباده، وأنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات، ويقولون القرآن مخلوق.

ووافق الجهم على ذلك المعتزلة أصحاب عمرو بن عبيد وضموا إليها بدعاً أخرى في القدر وغيره، لكن المعتزلة يقولون إن الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة، لكن حقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاماً في غيره إما في شجرة وإما في هواء وإما في غير ذلك من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ولا قدرة ولا رحمة ولا مشيئة ولا حياة ولا شيء من الصفات.

والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول، فيقولون: أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولا يتكلم، وتارة لا يظهرون هذا اللفظ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الإسلام واليهود والنصارى، فيقرون باللفظ ولكن يقرنونه بأنه خلق في غيره كلاماً. وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة من أن الله كلم موسى تكليماً وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن المؤمنين يرون



ربهم في الآخرة كما تواترت به الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن لله علماً وقدرة ونحو ذلك".

إلى أن قال: "وأما إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بأن القرآن مخلوق، وهذا بلا ريب يستتاب فإن تاب وإلا قتل، فإنه أنكر نص القرآن، وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله، والذي يقول القرآن مخلوق فهو في المعنى موافق له فلذلك كفره السلف."

إلى أن قال: "ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم: إن من قال أن كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤول عنه، كان حقيقة قوله أن الشجرة هي التي قالت لموسى (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) [طه: ١٤] ومن قال هذا مخلوق قال ذلك، فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، كلاهما مخلوق، وكلاهما قال ذلك، فإن كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضاً كفر. ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون وإن كانوا لا يفهمون ذلك، فإن فرعون كذب موسى فيما أخبر به: من أن ربه هو الأعلى، وأنه كلمه كما قال تعالى: (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) [غافر:٣٦-٣٧] وهو قد كذب موسى في أن الله كلمه، ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الله سبحانه أنطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقاً خارجاً عن المعتاد، قال تعالى: (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) [يس:٦٥] وقال تعالى: (حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) [فصلت:٢٠-٢١] .

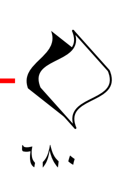
وقال تعالى: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) [النور:٢٤] .

وقد قال تعالى: (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق) [ص: ١٨] وقد ثبت أن الحصى كان يسبح في يد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الحجر كان يسلم عليه، وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات، فلو كان إذا خلق كلاماً في غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى، ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران، بل قد ثبت أن الله خالق أفعال العباد، فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلماً بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم، وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله يقولون:

وكل كلام في الوجود كلامه... سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون: إن كلام الآدميين غير مخلوق، فإن كل واحد من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فأولئك يجعلون الجميع مخلوقاً وأن الجميع كلام الله، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية بسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلط الله أعداء الدين فإن الله يقول: (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) [الحج:٤٠-٤١] وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته؟ وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسماء الله وآياته؟

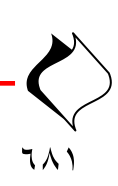
الوجه الثاني: أن يقال لهؤلاء الضالين: ما خلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره، فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعماً أو لوناً أو ريحاً كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المطعوم،



وإذا خلق بمحل حياة أو علماً أو قدرة أو إرادة أو كلاماً كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم، فإذا خلق كلاماً في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام، كما لو خلق فيه إرادة أو حياةً أو علماً، ولا يكون الله هو المتكلم به، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعاً أو بصراً كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات، ولا المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه في غيره من الكلام ولا يكون متكلماً بذلك الكلام.

الوجه الثالث: أن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه، والناس متفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام، فلا يكون مريد إلا بإرادة، وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك.

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر، فإنما يسمى بالحي من قامت به الحياة، وبالمتحرك من قامت به الحركة، وبالعالم من قام به العلم، وبالقادر من قامت به القدرة، فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات، وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر، وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته، وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة فكذلك في الأفعال مثل تكلم وكلم ويتكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك سواء، قيل أن الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل، لا

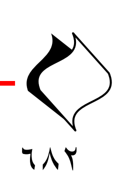


نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصــدر، فإذا قيل كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم، وكذلك التعلم والتكلم، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم، فإذا قيل: تكلم فلان أو كلم فلان فلاناً ففلان هو المتكلم والمكلم، فقوله تعالى :وكلم الله موسى تكليماً [النسـاء:١٦٤] وقوله :(تلك الرسـل فضـلنا بعضـهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات) [البقرة:٢٥٣] وقوله: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) [الأعراف:١٤٣] يقتضــي أن الله هو المكلم، فكما يمتنع أن يقال: هو المتكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره فهذه ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه يلزم الجهمية على قولهم أن يكون كل كلام خلقه الله كلاماً له إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه، وكل من فعل كلاماً ولو في غيره كان متكلماً به عندهم، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلولا قائماً يدل لكونه خلق صوتاً في محل والدليل يجب طرده فيجب أن يكون كل صوت يخلقه له كذلك وهم يجوزون أن يكون الصــوت المخلوق على جميع الصــفات، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت الذي هو ليس بكلام.

الثاني: أن الصــفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمه إلى ذلك المحل ولا يعود حكمه إلى غيره.

الثالث: أنه مشتق المصدر منه اسم الفاعل والصفة المشبهة به ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة أن من قال أن الله خلق كلاماً في غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً إلى ذلك المحل لا إلى الله.

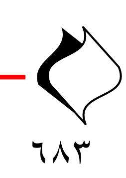
الرابع: أن الله أكد تكليم موســى بالمصــدر فقال تكليماً، قال غير واحد من العلماء: التوكيد بالمصــدر ينفي المجاز، لئلا يظن أنه أرسـل إليه رسـولاً أو كتب إليه كتاباً بل كلمه منه إليه.



والخامس: أن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً) [الشورى: ٥١]الآية، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب، وقال (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) [الأعراف:١٤٤] وقال (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإْسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:١٦٣-١٦٤] ، والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه، لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة، وموسى إنما عرفه بواسطة، ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين.

ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وأنه يقتضي تعطيل الرسالة فإن الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله، بل يقتضي تعطيل التوحيد، فإن من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات، بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها في الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص.

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول المتفلسفة الدهرية الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق لا صفة له، وقد علم أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الذهن، وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسى ويقولون إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال، وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع الأنبياء وحقيقة قولهم إن القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة، وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء؟ وكلام



السـلف والأئمة في مثل هؤلاء لا يحصـى قال حرب بن إسماعيل الكرماني: سمعت إسـحاق بن راهويه يقول: (بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، وكيف يكون شـيء من الرب عز ذكره مخلوقاً؟ ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا علم الله وقدرته ومشـيئته مخلوقة، فإن قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله تبارك اسمه ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة، وهو الكفر المحض الواضح لم يزل الله عالماً متكلماً له المشيئة في خلقه، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر.

وهذه المسـألة في أصـول أهل الإيمان والسـنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم" [١٧٢٠]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٧٤] "والعقل مولود، أعطي كل إنسان من العقل ما أراد الله يتفاوتون في العقول مثل الذرة في السماوات، ويطلب من كل إنسان من العمل على قدر ما أعطاه الله من العقل، وليس العقل باكتساب، إنما هو فضل من الله تبارك وتعالى".

الشرح

قول المصنف: "والعقل مولود"

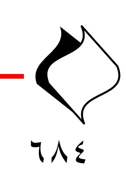
أولاً: معنى العقل:

للعقل تعريفات عدّةٌ في نظر العلماء، ومنها:

أما في اللغة فكما قال الخليل بن أحمد: "العقل نقيض الجهل. يقال: عقل يعقل عقلًا؛ إذا عرف ما كان يجهله قبلُ، أو انزجر عما كان يفعله[١٧٢١]".

١٧٢٠ المصدر: مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية – ١/ ٤٧٤

١٧٢١ العين للخليل بن أحمد (١/ ١٥٩).



وهنا مسألة وهي هل العقل غريزي أم مكتسب

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية: "والقول إن العقل غريزة، قال به الإمام أحمد بن حنبل–رحمه الله–ومعظم السلف".[١٧٢٢]

وقال الإمام أحمد لما سـئل عن العقل: "هو نور الغريزة، مع التجارب يزيد، ويقوى بالعلم وبالحِلْم".[١٧٢٣]

وقال الحارث المحاسـبي: "فالعقل غريزة جعلها الله–عز وجل–في الممتحنين من عباده"[١٧٢٤].

وقال: "فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح، لا يقدر أحدٌ أن يصفَه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله"[١٧٢٥].

ويعارض المحاسـبي قولَ البعض: إن العقل معرفةٌ: "وقد زعَم قومٌ أن العقل معرفةٌ نظمها الله ووضـعها في عباده، ويتَّسِـع بالعلم المكتسـب الدال على المنافع والمضـار، والذي هو عندنا أنه غريزة، والمعرفة عنه تكون"[١٧٢٦]

فقد حكى أبو الطيب عن أبي الحسـن علي بن حمزة الطبري قوله في تعريف العقل، فقال: "العقل نور وبصـيرة في القلب، منزلته من القلب كمنزلة البصـر من العين".[١٧٢٧]

١٧٢٢ الرد على المنطقيين لابن تيمية، ص ٩٤.

١٧٢٣ طبقات الشافعية للسبكي ٢/٤١.

١٧٢٤ العقل وفهم القرآن، للمحاسبي ص: ٢٠٣.

١٧٢٥ العقل وفهم القرآن، للمحاسبي ص: ٢٠٤.

١٧٢٦ العقل وفهم القرآن، ص ٢٠٥.

١٧٢٧ المسودة في أصول الفقه لآل ابن تيمية (ص: ٥٥٦).

وبيان هذا كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الاستقامة): "فإن العقل قد يراد به القوة الغريزية في الإنسان التي بها يعقل، وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم؛

فالأول: قول الإمام أحمد وغيره من السلف: العقل غريزة، والحكمة فطنة.

والثاني: قول طوائف من أصحابنا وغيرهم: العقل ضرب من العلوم الضرورية.[١٧٢٨]

وكلاهما صحيح؛ فإن العقل في القلب مثل البصر في العين؛ يراد به الإدراك تارة، ويراد به القوة التي جعلها الله في العين يحصل بها الإدراك؛ فإن كلَّ واحدٍ من علم العبد وإدراكه، ومن عمله[١٧٢٩]وحركته، ولكل منهما قوة، ولا حول ولا قوة الا بالله"[١٧٣٠].

وهو بهذا المعنى على ضربين: غريزي، ومكتسب؛ يقول ابن القيم: "والعقل عقلان:

عقل غريزة: وهو أبُ العلمِ، ومربّيه ومثمرُه.

وعقل مكتسب مستفاد: وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته.

فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالًا منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما".[١٧٣١]

١٧٢٨ عزاه ابن مفلح إلى الحنابلة والجمهور. ينظر: أصول الفقه لابن مفلح (١/ ٣٥).

١٧٢٩ كذا على الصواب، وفي المطبوع من الاستقامة: (وعلمه).

١٧٣٠ الاستقامة (٢/ ١٦١-١٦٢).

١٧٣١ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١١٧).

وقال ابن تيمية: "الْعَقْلُ الْغَرِيزَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي الْعَبْدِ الَّتِي يَنَالُ بِهَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ"[١٧٣٢]

وأما مسكن العقل:

قال ابن تيمية: "أَيْنَ مَسْكَنُ الْعَقْلِ فِيهِ؟ فَالْعَقْلُ قَائِمٌ بِنَفْسِ الْإِنْسَانِ الَّتِي تَعْقِلُ وَأَمَّا مِنْ الْبَدَنِ فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَلْبِهِ كَمَا **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ **وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ**: بِمَاذَا نِلْت الْعِلْمَ: قَالَ: "بِلِسَانِ سَئُولٍ وَقَلْبٍ عَقُولٍ "[١٧٣٣]

العلاقة بين النفس والقلب والعقل.

"وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ لَهَا تَعَلُّقٌ بِهَذَا وَهَذَا وَمَا يَتَّصِفُ مِنْ الْعَقْلِ بِهِ يَتَعَلَّقُ بِهَذَا وَهَذَا لَكِنَّ مَبْدَأَ الْفِكْرِ وَالنَّظَرِ فِي الدِّمَاغِ وَمَبْدَأَ الْإِرَادَةِ فِي الْقَلْبِ.

وَالْعَقْلُ يُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ وَيُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ فَالْعِلْمُ وَالْعَمَلُ الِاخْتِيَارِيُّ أَصْلُهُ الْإِرَادَةُ وَأَصْلُ الْإِرَادَةِ فِي الْقَلْبِ وَالْمُرِيدُ لَا يَكُونُ مُرِيدًا إلَّا بَعْدَ تَصَوُّرِ الْمُرَادِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ مُتَصَوِّرًا فَيَكُونُ مِنْهُ هَذَا وَهَذَا وَيَبْتَدِئُ ذَلِكَ مِنْ الدِّمَاغِ وَآثَارُهُ صَاعِدَةٌ إلَى الدِّمَاغِ فَمِنْهُ الْمُبْتَدَأُ وَإِلَيْهِ الِانْتِهَاءُ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ لَهُ وَجْهٌ صَحِيحٌ."[١٧٣٤]

قال ابن تيمية: "إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْقَلْبَ لِلْإِنْسَانِ يَعْلَمُ بِهِ الْأَشْيَاءَ كَمَا خَلَقَ لَهُ الْعَيْنَ يَرَى بِهَا الْأَشْيَاءَ وَالْأُذُنَ يَسْمَعُ بِهَا الْأَشْيَاءَ كَمَا خَلَقَ لَهُ سُبْحَانَهُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ لِأَمْرِ مِنْ الْأُمُورِ وَعَمَلٍ مِنْ الْأَعْمَالِ. فَالْيَدُ لِلْبَطْشِ وَالرِّجْلُ

١٧٣٢ مجموع الفتاوى٩/ ٣٠٥
١٧٣٣ مجموع الفتاوى٩/ ٣٠٣-٣٠٤
١٧٣٤ مجموع الفتاوى٩/ ٣٠٣-٣٠٤.

لِلسَّـعْيِ وَاللِّسَـانُ لِلنُّطْقِ وَالْفَمُ لِلذَّوْقِ وَالْأَنْفُ لِلشَّـمِّ وَالْجِلْدُ لِلَّمْسِ وَكَذَلِكَ سَـائِرُ الْأَعْضَاءِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ."[١٧٣٥]

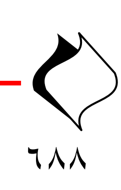
قال ابن قيم الجوزية: "وَمَعْلُومٌ: أَنَّ أُمُورَ الْقَلْبِ أَكْمَلُ وَأَقْوَى مِنْ أُمُورِ النَّفْسِ. لَكِنَّ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ نُكْتَةً لَطِيفَةً. وَهِيَ أَنَّ النَّفْسَ مِنْ جُنْدِ الْقَلْبِ وَرَعِيَّتِهِ. وَهِيَ مِنْ أَشَدِّ جُنْدِهِ خِلَافًا عَلَيْهِ، وَشِقَاقًا لَهُ. وَمِنْ قِبَلِهَا تَتَشَوَّشُ عَلَيْهِ الْمَمْلَكَةُ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ الدَّاخِلُ، فَإِذَا حَصَـلَ لَهُ كَمَالٌ بِالْغِنَى: لَمْ يَتِمَّ لَهُ إِلَّا بِغِنَاهَا أَيْضًـا. فَإِنَّهَا مَتَى كَانَتْ فَقِيرَةً عَادَ حُكْمُ فَقْرِهَا عَلَيْهِ. وَتَشَـوَّشَ عَلَيْهِ غِنَاهُ. فَكَانَ غِنَاهَا تَمَامًا لِغِنَاهُ وَكَمَالًا لَهُ. وَغِنَاهُ أَصْـلًا بِغِنَاهَا. فَمِنْهُ يَصِـلُ الْغِنَى إِلَيْهَا. وَمِنْهَا يَصِـلُ الْفَقْرُ وَالضَّـرَرُ وَالْعَنَتُ إِلَيْهِ."[١٧٣٦]

وقال ابن قيم الجوزية: "اللَّهَ سُـبْحَانَهُ جَعَلَ فِي الْعَيْنِ قُوَّةً بَاصِـرَةً، كَمَا جَعَلَ فِي الْأُذُنِ قُوَّةً سَـامِعَةً، وَفِي الْأَنْفِ قُوَّةً شَـامَّةً، وَفِي اللِّسَـانِ قُوَّةً نَاطِقَةً وَقُوَّةً ذَائِقَةً، فَهَذِهِ قُوًى أَوْدَعَهَا اللَّهُ سُـبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْأَعْضَـاءِ، وَجَعَلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا رَابِطَةً، وَجَعَلَ لَهَا أَسْبَابًا مِنْ خَارِجٍ، وَمَوَانِعَ تَمْنَعُ حُكْمَهَا، وَكُلُّ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ انْطِبَاعٍ، وَمُقَابَلَةٍ، وَشُعَاعٍ، وَنِسْـبَةٍ، وَإِضَـافَةٍ: فَهُوَ سَـبَبٌ وَشَـرْطٌ، وَالْمُقْتَضَـى هُوَ الْقُوَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْمَحَلِّ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ ذِكْرَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَالْمَقْصُودُ أَمْرٌ آخَرُ.

وَأَمَّا مُعَايَنَةُ الْقَلْبِ: فَهِيَ انْكِشَـافُ صُـورَةِ الْمَعْلُومِ لَهُ، بِحَيْثُ تَكُونُ نِسْـبَتُهُ إِلَى الْقَلْبِ كَنِسْـبَةِ الْمَرْئِيِّ إِلَى الْعَيْنِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُـبْحَانَهُ الْقَلْبَ يُبْصِـرُ وَيَعْمَى، كَمَا تُبْصِـرُ الْعَيْنُ وَكَمَا تَعْمَى، قَالَ تَعَالَى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦] فَالْقَلْبُ يَرَى وَيَسْمَعُ، وَيَعْمَى وَيَصِمُّ، وَعَمَاهُ وَصَمَمُهُ أَبْلَغُ مِنْ عَمَى الْبَصَرِ وَصَمَمِهِ.

١٧٣٥ مجموع الفتاوى٩/ ٣٠٧.

١٧٣٦ مدارج السالكين٢/ ٤٢٠.



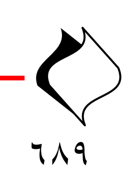
وَأَمَّا مَا يُثْبِتُهُ مُتَأَخِّرُو الْقَوْمِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ الثَّالِثِ وَهُوَ رُؤْيَةُ الرُّوحِ، وَسَمْعُهَا وَإِرَادَتُهَا، وَأَحْكَامُهَا، الَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنْ أَحْكَامِ الْقَلْبِ فَهَؤُلَاءِ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ الرُّوحَ غَيْرُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَاهُنَا أُمُورًا مَعْلُومَةً، وَهِيَ: الْبَدَنُ، وَرُوحُهُ الْقَائِمُ بِهِ، وَالْقَلْبُ الْمُشَاهَدُ فِيهِ، وَفِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَالْغَرِيزَةِ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الْعَاقِلَةُ الَّتِي مَحَلُّهَا الْقَلْبُ، وَنِسْبَتُهَا إِلَى الْقَلْبِ كَنِسْبَةِ الْقُوَّةِ الْبَاصِرَةِ إِلَى الْعَيْنِ، وَالْقُوَّةِ السَّامِعَةِ إِلَى الْأُذُنِ، وَلِهَذَا تُسَمَّى تِلْكَ الْقُوَّةُ قَلْبًا، كَمَا تُسَمَّى الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ بَصَرًا، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ق: ٣٧] وَلَمْ يُرِدْ شَكْلَ الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْقُوَّةَ وَالْغَرِيزَةَ الْمُودَعَةَ فِيهِ.

وَالرُّوحُ: هِيَ الْحَامِلَةُ لِلْبَدَنِ، وَلِهَذِهِ الْقُوَى كُلِّهَا، فَلَا قِوَامَ لِلْبَدَنِ وَلَا لِقُوَاهُ إِلَّا بِهَا، وَلَهَا بِاعْتِبَارِ إِضَافَتِهَا إِلَى كُلِّ مَحَلٍّ حُكْمٌ وَاسْمٌ يَخُصُّهَا هُنَاكَ، فَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى مَحَلِّ الْبَصَرِ سُمِّيَتْ بَصَرًا، وَكَانَ لَهَا حُكْمٌ يَخُصُّهَا هُنَاكَ، وَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى مَحَلِّ السَّمْعِ سُمِّيَتْ سَمْعًا، وَكَانَ لَهَا حُكْمٌ يَخُصُّهَا هُنَاكَ، وَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى مَحَلِّ الْعَقْلِ وَهُوَ الْقَلْبُ سُمِّيَتْ قَلْبًا، وَلَهَا حُكْمٌ يَخُصُّهَا هُنَاكَ، هِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ رُوحٌ.

فَالْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ وَالْعَاقِلَةُ وَالسَّامِعَةُ وَالنَّاطِقَةُ رُوحٌ بَاصِرَةٌ وَسَامِعَةٌ وَعَاقِلَةٌ وَنَاطِقَةٌ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا الْعَاقِلُ، الْفَاهِمُ الْمُدْرِكُ، الْمُحِبُّ الْعَارِفُ، الْمُحَرِّكُ لِلْبَدَنِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْخِطَابِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَهُ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِحَسَبِ مُتَعَلَّقَاتِهِ، فَإِنَّهُ يُسَمَّى نَفْسًا مُطْمَئِنَّةً وَنَفْسًا لَوَّامَةً، وَنَفْسًا أَمَّارَةً، وَلَيْسَ هُوَ ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ بِالذَّاتِ وَالْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ هُوَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ لَهَا صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

وَهُمْ يُشِيرُونَ بِالنَّفْسِ إِلَى الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ لَهُ نَفْسٌ، وَفُلَانٌ لَيْسَ لَهُ نَفْسٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَوْ فَارَقَتْهُ نَفْسُهُ لَمَاتَ، وَلَكِنْ يُرِيدُونَ تَجَرُّدَهُ عَنْ صِفَاتِ النَّفْسِ الْمَذْمُومَةِ.



وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ النَّفْسَ إِذَا تَلَطَّفَتْ وَفَارَقَتِ الرَّذَائِلَ صَارَتْ رُوحًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَمْ تُعْدَمْ، وَيُخْلَقُ لَهُ مَكَانَهَا رُوحٌ لَمْ تَكُنْ، وَلَكِنْ عُدِمَتْ مِنْهَا الصِّفَاتُ "الْمَذْمُومَةُ، وَصَارَتْ مَكَانَهَا الصِّفَاتُ الْمَحْمُودَةُ، فَسُمِّيَتْ رُوحًا.

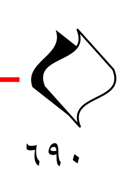
وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مُجَرَّدٌ، وَإِلَّا فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمَّاهَا نَفْسًا فِي الْقُرْآنِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا أَمَّارَةً، وَلَوَّامَةً، وَمُطْمَئِنَّةً **قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾** [الزمر: ٤٢] وَيَدْخُلُ فِي هَذَا جَمِيعُ أَنْفُسِ الْعِبَادِ حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ، وَسَمَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُوحًا عَلَى الْإِطْلَاقِ مُؤْمِنَةً كَانَتْ أَوْ كَافِرَةً، بَرَّةً أَوْ فَاجِرَةً كَقَوْلِهِ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ**»[١٧٣٧]، وَقَوْلِهِ: «**إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَنَا حَيْثُ شَاءَ، وَرَدَّهَا حَيْثُ شَاءَ**»[١٧٣٨]، وَقَوْلِهِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ قَبْضِ الرُّوحِ وَصِفَتِهِ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا كَانَ كَذَا وَكَذَا فَسَمَّى الْمَقْبُوضَ رُوحًا كَمَا سَمَّاهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ نَفْسًا وَهَذَا الْمَقْبُوضُ وَالْمُتَوَفَّى شَيْءٌ وَاحِدٌ، لَا ثَلَاثَةٌ وَلَا اثْنَانِ، وَإِذَا قُبِضَ تَبِعَتْهُ الْقُوَى كُلُّهَا الْعَقْلُ، وَمَا دُونَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ حَامِلَ الْجَمِيعِ وَمَرْكَبِهِ."[١٧٣٩]

وقول المصنف: "أعطي كل إنسان من العقل ما أراد الله يتفاوتون في العقول مثل الذرة في السماوات"

١٧٣٧ صحيح مسلم: (٩٢٠).

١٧٣٨ الإمام لابن دقيق العيد: ٣/ ٥٨٢، والاستذكار لابن عبد البر ١/ ١٢٩، والتمهيد ٥/ ٢٠٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣٢٤، وابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح ١/ ٣٢٨ مرسلًا وأصله في الصحاح عن ابن مسعود، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٦٥٧) إسناده صحيح مرسلًا.

١٧٣٩ مدارج السالكين ٢/ ٢٣٣-٢٣٥.



الله عز وجل ركب ابن أدم ومما ركب فيه آلة الفهم، وآلة الفهم هي العقل، وهذا العقل لا شك أن الناس فيه على درجات وعلى أحوال، فقد يمن لله عز وجل على إنسان من الفهم والحفظ والاستيعاب ما لا يمنه على آخرين.

بل إن الله عز وجل قد يسلب العقل بعض بني أدم، فتراه في حال جنون، وفقدان عقل، فهذا أمرٌ الله عز وجل فاوت فيه بين العباد، وذلك كله متحانٌ واختبارٌ من الله عز وجل لعباده، والله عز وجل بيده كل شيء، فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع، وهو الذي سبحانه وتعالى يخلق، وهو الذي يرزق سبحانه وتعالى، فلا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى.

فهو سبحانه وتعالى فاضل بين العباد في عقولهم، وأعطي كل إنسان ما أراد الله عز وجل وفاوت بين عقول العباد، وذلك فيه من المصالح الدنيوية والأخروية منه ما نعلمه ومنه ما لا نعلمه في هذا، وكم من إنسانٍ أُعطي عقلاً فكان عالماً أو له مكانة وقيادة في هذه الأمة، وكم من إنسانٍ أعطي من العقل قدرًا معينًا فهيأ الله عز وجل أن يكون في مهنة أو في حرفة أو في صنعة من صنائع الناس، فبالتالي أصبحت معايش الناس تعتمد على هذا التنوع الذي تُدار به هذه الحياة.

ولذلك الله سبحانه وتعالى فاوت بين العباد حتى في أرزاقهم، بل فاوت بينهم حتى في أجسامهم (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)، فيُطلب من كل إنسان من العمل على قدر ما أعطاه الله عز وجل من العقل فلذلك قال الله عز وجل :{لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، فبالتالي على الوسع ومن الوسع ما يتعلق بالبدن ومن الوسع ما يتعلق بالعقل.

وقوله: **"ويطلب من كل إنسان من العمل على قدر ما أعطاه الله من العقل"** فكل إنسانٍ بحسب ما أعطاه الله عز وجل من العقل يُطالب بقدر ذلك من العمل، والعقل هبة ومنة من الله سبحانه وتعالى ولكن لا شك أن هذه الهبة والمنة من الله سبحانه وتعالى على العبد أن يُسخرها فيما أحب الله عز وجل وفيما رضي سبحانه

وتعالى، فإذا من الله عز وجل على الإنسان بحسن فهم فعليه أن يسخر هذا الفهم فيما ينفع في أمر الدنيا وفي أمر الآخرة.

فهذه نعمة حقها أن تُذكر وتُشكر وتُرعى، ومن رعايتها استعمالها فيما يُرضي الله سبحانه وتعالى وليس هذا في العقل فحسب بل حتى الجوارح، فالعين نعمة وهي آلة النظر، والأذن نعمة وهي آلة السمع، وكذلك العقل نعمة وهي آلة الفهم.

فهذه آلات وأدوات الله سبحانه وتعالى ركبها في الإنسان، قال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل:٧٨]، فهذه أدوات الله عز وجل امتن عليك بها فاستعملها في طاعة الله عز وجل وسخرها في مرضاة الله عز وجل وفيما أوجب الله سبحانه وتعالى عليك، فكل هذا أمانة الله استرعانا عليها، {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦]، فنحن مسئولون عن هذا كله، مسئولون عن ما علمنا وما سمعنا، وما رأينا، وكيف وظفت هذه الآلات وهذه الأدوات، هذا لابد من السؤال عنه في يوم القيامة.

وقوله: "**وليس العقل باكتساب، إنما هو فضل من الله تبارك وتعالى**".

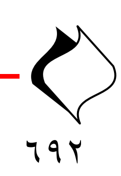
سبق شرح هذه المسألة وبيان قول السلف من أن العقل في أصله غريزي، وأن العقل يطلق على أمرين فمنه ما هو غريزي، ومنه ما هو مكتسب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن العقل قد يراد به القوة الغريزية في الإنسان التي بها يعقل، وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم".[١٧٤٠]

يقول ابن القيم: "والعقل عقلان:

عقل غريزة: وهو أبُ العلمِ، ومربّيه ومثمرُه.

وعقل مكتسب مستفاد: وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته.

١٧٤٠ الاستقامة (٢/ ١٦١-١٦٢).



فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء". [١٧٤١]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٧٥] "واعلم أن الله فضل العباد بعضهم على بعض في الدين والدنيا عدل منه، لا يقال: جار ولا حابى، فمن قال: إن فضل الله على المؤمن والكافر سواء فهو صاحب بدعة، بل فضل الله المؤمنين على الكافرين. والطائع على العاصي، والمعصوم على المخذول، عدل منه، هو فضله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء".

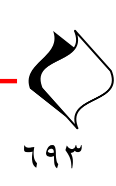
الشرح

المفاضلة بين العباد أمرٌ بيد الله عز وجل وما كان بيد الله عز وجل فهو ملكه، والله سبحانه وتعالى قال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}، فالله اختار أن يفضل فلان على فلان من الناس وهذه المفاضلة قد تكون في المال، وقد تكون في العلم، وقد تكون في النسب، وقد تكون في أمورٍ متعددة فهذا فضل الله سبحانه وتعالى، وفضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه وتعالى.

والله سبحانه وتعالى قال: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) النساء: ٣٢.

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ النحل: ٧١.

١٧٤١ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١١٧).



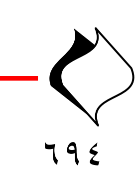
وكتب عمر رضي الله عنه رسالة إلى أبي موسى الأشعري، يقول له فيها: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له، كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله، رواه ابن أبي حاتم[١٧٤٢].

فقد يُفاضل الله سبحانه وتعالى بين الذكر والأنثى، قد يفاضل الله سبحانه وتعالى بين الإخوة، وقد يفاضل الله سبحانه وتعالى بين بني الجنس الواحد، كل ذلك تحت قدرته، وتحت إرادته سبحانه وتعالى حتى في الأولاد، (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (**٤٩**) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠)) [الشورى: ٤٩-٥٠]، فقد يكون الإنسان عقيمًا، وقد يكون ذا أولاد من الذكور أو الإناث أو من الذكور والإناث.

فالإنسان في هذا الكون يسير على قدر الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى هو المتصرف والمدبر لأمر هذا الكون كله، وكله ابتلاء، فالنعمة ابتلاء وضدها ابتلاء، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك:٢]، كل أمرٍ نحن فيه هو ابتلاء.

ليرى الله عز وجل منك ما أنت صانع وما أنت فاعل، فإذاً هذه المفاضلة موجودة، ولا شك أن أهل الإيمان أفضل من الكفار، وأكبر نعمة منها الله عز وجل على الإنسان أن هداه لهذا الدين، والله سبحانه وتعالى سماه نعمة، {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة:٣]، فسماها نعمة ولا شك أنها أعظم النعم على العبد أن هداه الله عز وجل لنعمة الإسلام.

١٧٤٢ الدر المنثور: ٥/ ١٠٦ وعزاه لابن أبي حاتم.



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٧٦] "ولا يحل أن تكتم النصيحة للمسلمين، برهم وفاجرهم في أمر الدين، فمن كتم فقد غش المسلمين، ومن غش المسلمين فقد غش الدين، ومن غش الدين فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

الشرح

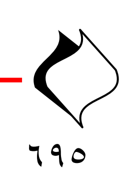
جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (١٧٤٣)، فالنصح معناه الإخلاص، فلابد أن الإنسان يُخلص النصيحة ويُخلص النُصح لذاك المنصوح، فالنصيحة لله عز وجل هي النصيحة لدينه ولكتابه، فلابد من الإنسان أن يُخلص القصد في تعلم كتاب الله عز وجل وفي تعليمه والدعوة إليه وفي كل أمرٍ فيه خدمة لكلام الله عز وجل.

وهكذا النصيحة للنبي صلى الله عليه وسلم تكون بالإيمان به، وتحكيم شرعه، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتعبد لله بما شرعه.

وهكذا للأئمة والولاة من المسلمين، وتكون النصيحة لهم بمحبة الخير لهم، وعدم الخروج عليهم، ونصيحتهم.

فلابد للإنسان أن يُخلص النصح فإذا كُلف الإنسان في عملٍ أو وظيفة فلا يعتقد أن ما أُعطي من كسبٍ أو راتبٍ من الدولة أو من ولي الأمر في هذه الوظيفة هو حق مكتسب له أصلاً، فإنما هي أجرة مقابل ما تقوم به من عمل، فهذه

١٧٤٣ انظر صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، برقم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ (١٦٩٤٠).



المصلحة التي أسند إليك ولي الأمر أن تقوم بها، سواء كانت وظيفة تعليم أو وظيفة إدارة في أي مكان من مصالح المسلمين ومن مصالح الأمة اعلم أن هذا الوالي قد جعلك وكيلاً عنه فيها، فيجب أن تنصح لهم.

وتكون النصيحة لعامة المسلمين بمحبة الخير لهم، ودفع الشر عنهم، وتحمل أثقالهم، ودفع المضار عنهم، وإطعام جائعهم، ونصح جاهلهم، وكف الأذى عنهم.

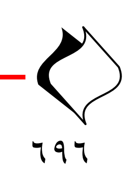
فيجب أن تنصح لعامة الناس، فمن حاد عن هذه النصيحة فهو غاش، وهذا الغش غشٌ للمسلمين ومن غش المسلمين غش الدين، ومن غش الدين فقد خان الله ورسوله والمؤمنين في هذا الشيء، ونحن نعلم أن كل واحدٍ منا يجب أن يمثل الدين؛ لأن غير المسلم إنما ينظر لك من خلال الدين فيقول: انظر هذا المسلم هذه أخلاقه، يكذب أو يفعل أو يفعل، فلا يتكلم عنك إلا على صفة أنك مسلم.

فمعنى هذا: أن سوء هذا الخلق منك والخيانة منك نُسبت إلى الإسلام، فتكون بأعمالك وأخلاقك غششت الدين، والله تعالى يقول :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال:٢٧ -٢٨

وكثيرٌ من الناس يمنعه الدخول في الإسلام ما يراه من أفعال وأخلاق بعض المسلمين، فبعض أفعال المسلمين وبعض المسلمين لهم من الأفعال والأخلاق والأقوال ما يكون للأسف صدٌ عن دين الله، فيكون هذا الإنسان تسبب سواء شعر أو لم يشعر في إبعاد الناس عن الدين.

[

ونحن نعلم أن الفتوحات الإسلامية في كثيرٍ من البلدان إنما انتشرت بأخلاق الإسلام، لما رأى أهل تلك البلاد ما عليه أخلاق المسلمين وقد كانوا تجاراً فدخلوا في دين الله عز وجل طواعية بدون قتال وبدون سيف لما رأوه من أخلاق بعض المسلمين وسلوكياتهم.



ونحن نعلم اليوم أن كثير من الشعوب تنفر عن الإسلام بسبب بعض أخلاقيات بعضنا، فيقول: إذا كان هذا دينه لم يردعه عن هذه السلوكيات وهذه الأعمال فماذا سيكون هذا الدين؟ فإذاً من لم ينصح لهذا الدين فيكون قد غش المسلمين وغش هذا الدين وخان الله عز وجل وخان رسوله صلى الله عليه وسلم.

فليعلم كل واحدٍ منا أنه يحمل بيده أمانة الدين، أمانة الدين في ذات نفسك وفي أسرتك وبين أهلك وأقاربك وجيرانك وبينك وبين الآخرين؛ ومعاملة حتى غير المسلمين، فكل هذا أنت تحمل أمانته، فكيف تخون تلك الأمانة، فإذا خنتها قد كنت ممن خان هذا الدين، وتحمل وزر ما يكون بسبب هذه الأخلاق من سوءٍ في معاملة المسلمين أو صدٍ عن سبيل الله عز وجل تجاه غير المسلمين.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:



[٧٧] "والله تبارك وتعالى سميع بصير، سميع عليم، يداه مبسوطتان، قد علم الله أن الخلق يعصونه قبل أن يخلقهم، علمه نافذ فيهم، فلم يمنعه علمه فيهم أن هداهم للإسلام، ومن به عليهم كرمًا وجودًا وتفضلًا فله الحمد".

الشرح

قول المصنف: **"والله تبارك وتعالى سميع بصير، سميع عليم، يداه مبسوطتان"**.

هذه الصفات دل عليها الكتاب والسنة:

قال تعالى:(إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) [الشورى: ١١].

وقال تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا) [النساء: ١٤٨].

وقال تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة ٦٤].

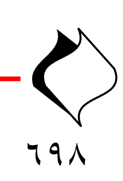
ومن السنة:

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: ((يا أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، ولكن تدعون سميعاً بَصيراً، إنَّ الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)) .[١٧٤٤]

قال ابن القيم: "ومعرفة العبد لأسماء الله وصفاته على الوجه الذي أخبر الله عز وجل به في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم-تُوجب على العبد القيام بعبودية الله على الوجه الأكمل، فكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان الحب والإخلاص والتعبد أقوى، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر؛ إذ كل اسم من أسمائه عز وجل له تَعَبُّد مُختص به؛ علمًا ومعرفة وحالًا.

(علمًا ومعرفة): أي: إنَّ مَن عَلِم أنَّ الله مسمى بهذا الاسم، وعرف ما يتضمنه من الصفة، ثم اعتقد ذلك-فهذه عبادة.

١٧٤٤ رواه البخاري: ٦٣٨٤



و(حالًا) أي: إن لكل اسم من أسماء الله مدلولًا خاصًا وتأثيرًا معينًا في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك-تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه.

وهذه الطريقة مُشتقة من قلب القرآن؛ قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}.

والدعاء بها يتناول: دعاء المسألة. ودعاء الثناء. ودعاء التعبد.

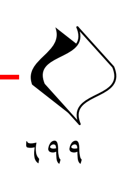
وهو-سبحانه-يدعو عباده إلى أن يَعرفوه بأسمائه وصفاته، ويُثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظِّهم من عبوديتها (١٧٤٥).

وقال ابن القيم: "فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشيةَ الله لا محالة؛ فلكلِّ اسم من أسماء الله تأثير معين في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك-تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه.

ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها؛ فالأسماء الحسنى والصفات العُلى مقتضية لآثارها من العبودية، وهذا مُطَّرِد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح؛ فمثلًا: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يُثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنَّه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يُرضي الله، وأن يجعل تعلق

(١٧٤٥) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٠).



هذه الأعضـــاء بما يحبه الله ويرضـــاه؛ فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح"[١٧٤٦].

فالله ســـبحانه وتعالى بصـــير عليم بأحوالنا مطلع عليها لا يخفى عليه خافية، ومثل هذه المعرفة لأسماء الله تعالى توجب على الواحد منا أن ينظر في ثمراتها ما تثمره في القلب.

فإذا كنت قد علمت أن من أسمائه السميع والبصير والعليم مثلاً فهذا العلم عقيدة، وذكرك لهذه الأسماء عقيدة وتثاب عليها، لكن أيضاً من العقيدة أنك إذا كنت قد علمت أنه عليم سميع بصير أن تراقبه أن تتقيه أن تخشاه أن تخافه، أن ترجوه أن تدعوه، فهذه الأسماء تدلك على أن الله سبحانه وتعالى إذا كنت في حاجة فاطلب السميع البصير العليم بحالك، مالك تلجأ إلى الخلق، وتترك مالك الملك أن يفرج كربتك أن يعنيك على ما أنت فيه، أن يشفيك من مرضك أو نحو ذلك، أين صدق اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى؟

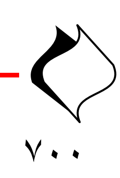
أيضاً إذا كنت على حال معصية لماذا لا تراقب الله عز وجل أين خشية الله عز وجل في قلبك أين تقواه؟ أين مخافة عقابه ومخافة انتقامه سبحانه وتعالى أليس الله سبحانه وتعالى أغير حتى من النبي صلى الله عليه وسلم، أغير من الخلق أجمعين، يغار سبحانه وتعالى على حرماته كما جاء في الحديث: ((أتعجبون من غيرة سعد، فو الله لأنا أغير منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)) [١٧٤٧]وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن))[١٧٤٨]، فأين مراقبة الله عز وجل في هذه الأمور؟

ويداه عز وجل مبسوطتان فهو سبحانه وتعالى ينفق كيف يشاء سبحانه وتعالى.

١٧٤٦ «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٩٠).

١٧٤٧ أخرجه البخاري: (٧٤١٦)، وأخرجه مسلم (١٤٩٩) واللفظ له.

١٧٤٨ أخرجه البخاري: ٤٦٣٧، ومسلم: ٢٧٦٠ واللفظ له.



{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}، فهو سبحانه وتعالى بيده ملكوت كل شيء، بيده خزائن السموات الأرض سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يعلم حتى معصية الخلق له، عليمٌ بهذا الشيء، ولكن سبحانه وتعالى يُمهل ولا يُهمل، فقد يُمهل للعاصي أو قد يجعل له هذه الدنيا لكنه في الآخرة يكون هذا العاصي ممن خسر آخرته.

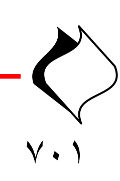
وقول المصنف: **"قد علم الله أن الخلق يعصونه قبل أن يخلقهم، علمه نافذ فيهم".**

قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «واعلم أنَّ مَذهبَ أهلِ الحَقِّ إثباتُ القَدَر، ومعناه: أنَّ الله-تبارك وتعالى-قَدَّر الأشياء في القِدَم، وعَلِمَ-سبحانه-أنَّها ستقع في أوقاتٍ معلومة عنده عز وجل، وعلى صفاتٍ مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قَدَّرها عز وجل، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه عز وجل لم يُقَدِّرها، ولم يتقدم علمُه عز وجل بها، وأنَّها مُستأنفة العلم، أي: إنَّما يَعلمها-سبحانه-بعد وقوعِها، وكذبوا على الله سُبحانه وتَعالى وجَلَّ عن أقوالهم الباطلة علوًّا كبيرًا.

وسُمِّيت هذه الفرقةُ قدريَّة؛ لإنكارهم القَدَر؛ قال أصحابُ المقِالات من المتَكَلِّمين: وقد انقرضت القدريةُ القائلون بهذا القول الشَّنيع الباطل، ولم يَبق أحدٌ من أهل القِبلة عليه، وصارت القدريةُ في الأزمان المتأخرة تَعتقد إثبات القَدَر، لكن يقولون: الخير من الله، والشَّرُّ مِن غيره» (١٧٤٩).

فالله-تَعالى علم الأشياء قبل كونها، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما أخبر-مثلًا-عن شأن أهل النار فقال: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام: ٢٨]؛ فلو رُدُّوا إلى الدنيا فسيكون منهم عودة إلى ما نَهاهم الله عنه، وهذا لا يكون ولكنه لو كان فسيكون بهذه الحال، فالله سبحانه وتعالى علم الأشياء

(١٧٤٩) «شرح النووي على مسلم» (١/ ١٥٤).



قبل كونها، وهو عليم بها أثناء كونها، وعليم بما سيكون، وعليم بما لم يكن لو كان كيف يكون، فسبحان مَن وَسِع علمُه كل شيء!

فهو عليمٌ بما الخلقُ عاملون بعلمِه القديم الذي هو مَوصوفٌ به أزلًا وأبدًا؛ ونحن نؤمن أن الله متصف بجميع الصفات أزلًا وأبدًا.

وغُلاة القدرية يقولون-والعياذ بالله-: إن الله لا يعلم أنَّ العبد سيَعمل هذا العمل إلَّا عند وقوعه. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

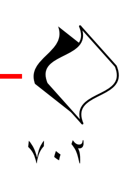
والله سبحانه وتعالى عالمٌ بكل شيء أزلًا، قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُني، إنَّك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «إنَّ أول ما خَلق اللهُ القلم، فقال له: اكتب. قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة»، يا بُني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن مات على غير هذا فليس مِنِّي"(١٧٥٠).

فمقادير كلِّ شيء حتى قيام السَّاعة قد كُتبت في اللوح المحفوظ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كنتُ خلفَ رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يَضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصحف» (١٧٥١).

(١٧٥٠) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤٥).

(١٧٥١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣) (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٠٢).



فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فهذا سابق في القدر، سابق في علم الله، والنصوص في العلم والكتابة -بحمد الله تعالى- كثيرة وواضحة في الدلالة على هاتين المرتبتين: العلم والكتابة.

والإنسان كما هو مُبتلى بالمصائب مُبتلى كذلك بالنِّعم امتحانًا من الله؛ قال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥]، وقد بَيَّن سليمان عليه السلام ذلك بعد ما استقر عنده عرش ملكة سبأ، كما في قوله تعالى: {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

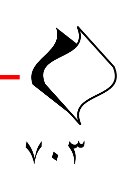
وعلى العبد أن يرضى ويُسَلِّم بما قَدَّر الله وقَسم من نعم بين خلقه، ويعلم أنَّ الخلق مقهورون مربوبون لله سبحانه؛ قال تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}.

وقال جل جلاله: {وما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهدي قلبه}؛ قال علقمةُ بن قيس في تفسيرها: «هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله فيَرضى ويُسَلِّم"(١٧٥٢).

وقال تعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم}؛ فهذا أمر كوني قدري، وعلى الإنسان فيه أن يَرضى ويُسَلِّم.

وقول المصنف: **"فلم يمنعه علمه فيهم أن هداهم للإسلام، ومن به عليهم كرمًا وجودًا وتفضلًا فله الحمد"**

(١٧٥٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١).



كما أن الله لا يمنعه عز وجل علمه فيهم أن هداهم للإسلام ومن به عليهم كرماً وجوداً وتفضلا، فقد يقع من الإنسان معصية، وقد يقع من الله عز وجل مغفرة وهداية لهذا العاصي، ولذلك نرى أن بعض الناس كانوا من كبار العصاة، فقد كان الفضيل بن عياض من قطاع الطرق[١٧٥٣]، ثم من الله عز وجل فأصبح إماماً من أئمة المسلمين، وعالم من علمائهم، فالله عز وجل يمتن على بعض خلقه.

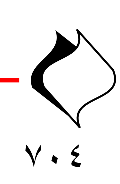
ونعلم عداوة عمر رضي الله عنه لدين الإسلام قبل إسلامه، فماذا كان من شأن عمر بعد إسلامه؟

فبالتالي فالإنسان حتى عندما يرى العاصي من العصاة لا ينبغي أن يدعو عليه، وليحرص على أن يدعو له لعل الله عز وجل أن يهديه ولعل الله عز وجل أن ينفع به الإسلام والمسلمين.

لذلك لما جاء ذلك الرجل الذي شرب الخمر فجُلد ثم جاء الثانية فجُلد، ثم جاء الثالثة فجُلد، وقال أحد الصحابة: "لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به"(١٧٥٤) فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنه.

١٧٥٣ واسمه فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي، أبو علي الزاهد، أحد صلحاء الدنيا وعبادها، ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد مدينة بخراسان، سكن بمكة ومات بها؛ وكان الفضيل بن عياض شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ(١)}الحديد، فلما سمعها قال بلى يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم نرتحل وقال بعضهم حتى نصبح فإن فضيل على الطريق يقطع علينا، قال ففكرت قلت أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني هاهنا وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم إني قد تُبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام؛ وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث ثم تعبد وانتقل إلى مكة فنزلها إلى أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعا كثير الحديث. انظر: تهذيب الكمال ١٠٥/١٥، تهذيب التهذيب ٨ / ٢٦٦.

١٧٥٤ انظر: صحيح البخاري كِتَابُ الحُدُودِ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ لَعْنِ شَارِبِ الخَمْرِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَ المِلَّةِ، برقم (٦٧٨٠).



فالإنسان لا يعيب أخاه فقد يهديه الله عز وجل، ويعلم الله عز وجل من هذا العاصي أنه سيكون على هدى، فالإنسان لا يدري بما يختم له في هذه الحياة الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم :((إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها)) [١٧٥٥].

وقد جاء حديث عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ)) . أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَسَنَدُهُ مُنْقَطِعٌ[١٧٥٦] .

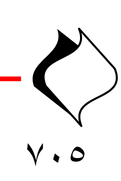
قال الصنعاني ـ رحمه الله ـ في سبل السلام عند شرحه لهذا الحديث: وَكَأَنَّ مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ أَيْ عَابَهُ مِنْ الْعَارِ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ لَزِمَ بِهِ عَيْبٌ كَمَا فِي الْقَامُوسِ يُجَازَى بِسَلْبِ التَّوْفِيقِ حَتَّى يَرْتَكِبَ مَا عَيَّرَ أَخَاهُ بِهِ، وَذَاكَ إذَا صَحِبَهُ إعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ بِسَلَامَتِهِ مِمَّا عَيَّرَ بِهِ أَخَاهُ، وَفِيهِ أَنَّ ذِكْرَ الذَّنْبِ لِمُجَرَّدِ التَّعْيِيرِ قَبِيحٌ يُوجِبُ الْعُقُوبَةَ[١٧٥٧] .

وقال البغوي ـ-رحمه الله–في شرح السنة: وَرُوِيَ عَن خَالِد بْن معدان، عَن معَاذ بْن جبل، قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من عير أَخَاهُ بذنب، لم يمت حَتَّى يعمله)) . وَإِسْنَاده هَذَا الحَدِيث غير مُتَّصِل، وخَالِد بْن معدان لم يدْرك معَاذًا،

١٧٥٥ رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣). من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

١٧٥٦ أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (٢٨٨)، وابن حبان في ((المجرحين)) (٢/٢١٢)، وهو غريب وليس إسناده بمتصل، وقال الصنعاني في سبل السلام ٤/ ٣٦٨: "كأنه حسنه الترمذي لشواهده فلا يضره انقطاعه".

١٧٥٧ سبل السلام ٤/ ٣٦٨.



وَرُوِيَ عَنْ مَكْحُولٍ الشَّامِيِّ، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمُهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ))[١٧٥٨] .

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَوْ سَخِرْتُ كَلْبًا، خَشِيتُ أَنْ أَحُورَ كَلْبًا . وقَالَ إِبْرَاهِيم: إِنِّي لأرى الشَّيْء، فأكره أَن أعيبه مَخَافَة أَن أبتلى بِهِ، إِن عَبْد اللَّهِ، كَانَ يَقُول: إِن الْبلَاء مُوكل بالْقَوْل"[١٧٥٩]

وقد ذكر العلامة الشيخ ابن عثيمين–رحمه الله–في شرح رياض الصالحين عند حديث واثلة بنت الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك)) .

"يعني أن الإنسان إذا عير أخاه في شيء ربما يرحم الله هذا المعير ويشفى من هذا الشيء ويزول عنه، ثم يبتلى به هذا الذي عيره، وهذا يقع كثيرا، ولهذا جاء في حديث آخر في صحته نظر لكنه موافق لهذا الحديث: من عير أخاه بذنب لن يمت حتى يعمله، فإياك وتعيير المسلمين والشماتة فيهم فربما يرتفع عنهم ما شمتهم به ويحل فيك"[١٧٦٠] .

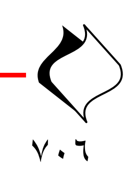
(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

١٧٥٨ أخرجه الترمذي (٢٥٠٨) في صفة القيامة من طريق مكحول عن واثلة بن الأسقع، وقال: حديث حسن غريب، ومكحول قد سمع من واثلة، وقد حسنه الحافظ ابن حجر بشاهده المتقدم من طريق خالد بن معدان عن معاذ بن جبل.

١٧٥٩ شرح السنة: ١٣/ ١٤٠.

١٧٦٠ شرح رياض الصالحين ١/ ١٨٧٥.



[٧٨] "واعلم أن البشارة عند الموت ثلاث بشارات؛ يقال: أبشر يا حبيب الله برضى الله والجنة، ويقال: أبشر يا عدو الله بغضب الله والنار، ويقال: أبشر يا عبد الله بالجنة بعد الإسلام. هذا قول ابن عباس"[١٧٦١].

(الشرح)

قول المصنف: **"واعلم أن البشارة عند الموت ثلاث بشارات"**.

تعريف البشارة:

أولًا: أصل الكلمة.

قال ابن فارس: (الباء والشين والراء أصل واحد، ظهور الشيء مع حسن وجمال والبشير حسن الوجه والبَشارة الجمال. قال الأعشى:

ورأت بأن الشيب جـــا نبه البشاشة والبشارة [١٧٦٢]). [١٧٦٣]

ثانيًا: تصريفها:

قال الجوهري: (بَشَرْتُ الرجل أبْشُرُهُ، بالضم، بَشْرَاً وبُشُوراً من البُشْرَى، وكذلك الإبْشَارُ والتَّبْشِيرُ ثلاث لغات، والاسم البِشارَةُ والبُشارَةُ بالكسر والضم. يقال: بَشَرْتُه بمولودٍ فأبْشَرَ إبْشَاراً أي سُرَ)[١٧٦٤].

ثالثًا: معناها.

البشارة في اللغة: البِشْرُ الطلاقة وقد بَشَرَه بالأمر يَبْشُرُه بالضم بَشراً وبُشُوراً وبُشْراً وبَشَرَه به بَشْراً.

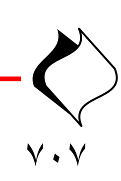
وبَشَّرَهُ وأَبْشَرَهُ فَبشِرَ به، وبَشَرَ يَبْشُرُ بَشْراً وبُشُوراً. يقال: بَشَرْتُه فَأَبْشَرَ واسْتَبْشَرَ وتَبَشَّرَ وبَشِرَ: فَرِحَ.

١٧٦١ العاقبة في ذكر الموت للأشبيلي: (١١٨).

١٧٦٢ ديوان الأعشى (١١٣).

١٧٦٣ معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت:٣٩٥هـ) ١/٢٥١.

١٧٦٤ الصحاح للجوهري ٢/٥٩٠.



وفي التنزيل العزيز: {فاســـتبشـــروا ببيعكم الذي بايعتم به....} التوبة، الآية: ١١١. وفيه أيضاً: {وأبشروا بالجنة....} فصلت، الآية: ٣٠. واستَبْشَرَه: كَبَشَّره. [١٧٦٥]

وقال الزجاج: معنى يَبْشُرُك يَسُرُّكَ ويُفْرِحُك، وَبَشَرْتُ الرَّجُلَ أَبْشُرُهُ إذا أَفْرَحْتَه، وَبَشِرَ يُبْشِرُ إذا فرح، قال ومعنى يَبْشُرُكَ ويُبَشِّرُكَ من البُشَارَة. قال: وأصل هذا كله أن بَشَرَةَ الإنسان تنبسط عند السرور؛ ومن هذا قولهم: فلان يلقاني بِبِشْرٍ أي بوجه مُنْبَسِطٍ. [١٧٦٦]

رابعًا: استعمالاتها.

النوع الأول: البشارة المطلقة. فهذه لا تكون إلا بالخير.

النوع الثاني: البشـــارة المقيدة. وإنما تكون بالشـــر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى {فبشرهم بعذاب أليم} الانشقاق، الآية ٢٤.

قال ابن فارس: (يقال بشرت فلانا أبشره تبشيراً وذلك يكون بالخير وربما حمل عليه غيره من الشـر، وأظن ذلك جنسـاً من التبكيت، فأما إذا أطلق الكلام إطلاقاً فالبشارة بالخير والنذارة بغيره) [١٧٦٧].

أنواع البشارة للمؤمن والكافر.

وقد عد العلماء أنواع البشرى التي يبشر بها المؤمن وهي:

أولًا: في الحياة الدنيا وقسمت إلى قسمين:

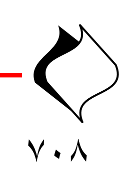
أحدهما: ثناء المثنين عليه.

الثاني: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو ترى له.

١٧٦٥ انظر تهذيب اللغة للأزهري ٣٥٩/١١، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٥١/١، المصـــباح المنير للفيومي ٥٦/١ الصحاح للجوهري ٥٩٠/٢، القاموس المحيط للفيروزأبادي ٣٧٣/١، لسان العرب ٢٨٧/١-٢٨٨.

١٧٦٦ تهذيب اللغة للأزهري (ت:٣٧٠هـ) ٣٥٩/١١، لسان العرب ٢٨٨/١.

١٧٦٧ معجم مقاييس اللغة ٢٥١/١.



قال ابن تيمية: (وقد فَسّر النبي صلى الله عليه وسلم البشرى في الدنيا بنوعين: أحدهما: ثناء المثنين عليه.

الثاني: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو ترى له، فقيل :((يا رسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن))[١٧٦٨]، وقال البراء بن عازب: ((سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله: (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، فقال: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له))[١٧٦٩]. [١٧٧٠]

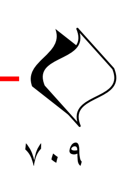
ثانيًا: عند الموت.

وقد جاء ذلك صريحاً في كتاب الله تعالى أن الملائكة تتنْزل على المؤمنين بعدم الخوف والحزن، والبشرى بالجنة، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) [فصّلت: ٣٠- ٣٢] ، أي إن الذين أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم تتنّزل عليهم الملائكة عند الموت والاحتضار قائلين لهم ألا تَخَافُوا مما تقدمون عليه من عمل الآخرة وَلا تَحْزَنُوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين؛ فإنا نخلفكم فيه (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فيبشروهم بذهاب الشر وحصول الخير، ذكر هذا ابن كثير.

١٧٦٨ رواه مسلم (٢٦٤٢). من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

١٧٦٩ رواه الترمذي (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٣١٦٠)، وأحمد (٥/٣١٥) (٢٢٧٤٠)، والحاكم (٢/٣٧٠). من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في ((الكافي الشاف)) (١٤٤): رجاله ثقات إلا أنه معلول فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)).

١٧٧٠ مجموع الفتاوى: ١/ ٨.



وقد وردت النصوص بأن كلا من المؤمن والكافر يبشر عند موته، ومن ذلك ما ورد في الحديث عن عبادة بن الصامت، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه)).[١٧٧١]

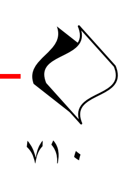
والشاهد قوله في حال المؤمن: ((ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته)).

وقوله في حال الكافر: ((وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته)).

وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيّب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فلا يفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي

١٧٧١ رواه البخاري (٦٥٠٧).



ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل بها من السماء، ثم تصير إلى القبر))[١٧٧٢].

ثالثًا: وفي القبر.

فعن عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مَقعده بالغَداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنَّة فمِن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقالُ: هذا مَقعدُك حتى يَبعثَك الله يوم القيامة))١٧٧٣.

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ:

(إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ...إلى أن قال—في وصف حال المؤمن في القبر-فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ.

قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ

١٧٧٢ رواه ابن ماجه (٣٤٥٦)، وأحمد (٢/٣٦٤) (٨٧٥٤)، والطبري في ((مسند عمر)) (٢/٥٠٣). وقال: إسناده صحيح، وقال البوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (٢/٣٣٣): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقال الذهبي في ((العرش)) (٢٩): صحيح على شرط الشيخين.

١٧٧٣ أخرجه البخاري: (٦٥١٥)، وأخرجه مسلم: (٢٨٦٦).

يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي)[١٧٧٤]

رابعًا: عند البعث.

عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت النبي–صلى الله عليه وسلم–يقول: ((إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ. فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا. فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا))[١٧٧٥]

وقد أشار غير واحد من العلماء إلى هذه المواطن:

وقال وكيع وابن زيد: "البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث"[١٧٧٦]

١٧٧٤ رواه أحمد (٣٦٢/٤) وصححه الألباني في "أحكام الجنائز" (١٥٦).

١٧٧٥ رواه أحمد في "المسند" (٣٩٤) وابن ماجه في "السنن" (٣٧٨١) وحسنه البوصيري في الزوائد والألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٨٢٩). ويقول السيوطي في شرح الحديث (١٢٤٢/٢): (كالرجل الشاحب) قال السيوطي: هو المتغير اللون، وكأنه يجيء على هذه الهيئة ليكون أشبه بصاحبه في الدنيا، أو للتنبيه له على أنه كما تغير لونه في الدنيا لأجل القيام بالقرآن كذلك القرآن لأجله في السعي يوم القيامة حتى ينال صاحبه الغاية القصوى في الآخرة." انتهى.

١٧٧٦ تفسير القرطبي: ٨/ ٢٦٠.

وذكر ابن كثير عن زيد بن أسلم قوله: بأن البشرى تكون عند الموت وفي القبر وحين البعث[١٧٧٧] .

ثم علّق ابن كثير على رأي زيد بقوله: "وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع"[١٧٧٨] .

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) [فصلت: الآية ٣٠]، تضمن ثلاث بشارات، وهذه البشارات خاصة بالمؤمن:

١-(أَلَّا تَخَافُوا) هذه البشارة الأولى.

٢-(وَلَا تَحْزَنُوا) البشارة الثانية.

٣-(وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ) بشارة ثالثة.

وقول المصنف: **"يقال: أبشر يا حبيب الله برضى الله والجنة، ويقال: أبشر يا عدو الله بغضب الله والنار، ويقال: أبشر يا عبد الله بالجنة بعد الإسلام. هذا قول ابن عباس"**

ذكره الديلمي مختصراً فقال عن ابْن عَبَّاس: "إِذا أَمر الله عز وَجل ملك الْمَوْت بِقَبض أَرْوَاح من اسْتوْجبَ النَّار من مذنبي أمتِي قَالَ بشرهم بِالْجنَّةِ بعد انتقام كَذَا وَكَذَا على قدر مَا يحبسون فِي النَّار[١٧٧٩]"

وأورده السيوطي في كتاب شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور وعزاه إلى الفردوس للديلمي[١٧٨٠]، وقال: "وفي الفردوس، عن ابن عباس مرفوعًا: (إذا أمر الله

١٧٧٧ رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (ص: ٣٣٧٦) عن زيد بن أسلم، رضي الله عنه، يا أيتها النفس المطمئنة قال: بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع.

١٧٧٨ ((تفسير ابن كثير)) (٤/١٠٠-١٠١).

١٧٧٩ الفردوس بمأثور الخطاب للدَّيْلَمي ولم يسنده ولده، رقم: ٩٧٩، ١/ ٢٥٣.

١٧٨٠ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور: ص: ١٠٣.

ملك الموت بقبض أرواح من استوجب النار من مذنبي أمتي قال: بشرهم بالجنة بعد انتقام كذا وكذا على قدر ما يعملون يحبسون في النار. فالله سبحانه أرحم الراحمين). "وفي إحياء فضائل أهل البيت وعزاه للديلمي، وقال: "ولم يسنده ولده"،[١٧٨١] وفي كتاب بشرى الكئيب بلقاء الحبيب ولم يعزه لأحد. ١٧٨٢.

هذا ما وقفت عليه، وقد ذكر بعض من حقق شرح السنة للبربهاري أن الصواب في كلمة (الإسلام) عند قول ابن عباس **"بالجنة بعد الإسلام"** هو (الانتقام) وهذا يشهد له ما ورد في الأثر المذكور هنا عن ابن عباس.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٧٩] "واعلم أن أول من ينظر إلى الله في الجنة الأضراء، ثم الرجال، ثم النساء، بأعين رؤوسهم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته"(١٧٨٣)، والإيمان بهذا واجب وإنكاره كفر".

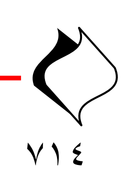
الشرح

قول المصنف: **"واعلم أن أول من ينظر إلى الله في الجنة الأضراء، ثم الرجال، ثم النساء".**

١٧٨١ إحياء فضائل أهل البيت: ص: ٤٦.

١٧٨٢ بشرى الكئيب بلقاء الحبيب؛ في ذكر ما يلقاه المؤمن عند قبض روحه من الكرامة، ص: ٣١.

١٧٨٣ انظر صحيح البخاري كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، برقم (٧٤٣٩)، وابن ماجه (١٧٩)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١١١٢٠).



هذا النص في الأولية في النظر إلى وجه الله يوم القيامة يحتاج إلى دليل ينص على ذلك، ولم أقف على نص في هذه المسألة سوى ما ورد عَنِ الْحَسَنِ، أنه قَالَ: "أَوَّلُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَعْمَى»[١٧٨٤] وفي سنده نظر.

والأضراء جمع ضرير وهو ذاهب البصر[١٧٨٥]

وقول المصنف: "**بأعين رؤوسهم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته"(١٧٨٦)، والإيمان بهذا واجب وإنكاره كفر**".

فالرؤيا ثابتة، فأهل الإيمان سيرون ربهم عز وجل، والله تعالى يقول: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة:٢٢. ٢٣]، وكما جاء في الحديث، «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته"(١٧٨٧).

والأحاديث في رؤية الله تعالى بلغت حد التواتر، فقد رواها من الصحابة نحو ثلاثين صحابيًّا في الصحاح، والسنن، والمسانيد[١٧٨٨]

ورؤية الله أفضل ما أُعطي الإنسان من النعيم، ومنها ما يكون في عرصات القيامة، ومنها ما يكون بعد دخول أهل الجنة إلى لجنة.

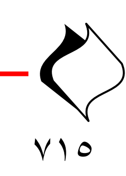
١٧٨٤ أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: (٣/ ٥٢٣ رقم ٩٢٤)، إلا أن سنده فيه جهالة، ولا يصح، ورواه أبو الشيخ كما في الدر المنثور (٦/ ٢٩٤)، وأورده السيوطي في البدور السافرة في أحوال الآخرة (٦١٤ رقم ٢٢٥٠)، وقال: "وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي كلاهما في السنة عن الحسن" وذكره.

١٧٨٥ ذكر أن (الأعمى) تشمل أعمى البصر والبصيرة. أما (الكفيف) فأعمى البصر فقط. وأما (الضرير) فهو من اعتمى في حياته، و(الأكمه) من وُلد أعمى.

١٧٨٦ انظر صحيح البخاري كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣]، برقم (٧٤٣٩)، وابن ماجه (١٧٩)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١١١٢٠).

١٧٨٧ تقدم تخريجه.

١٧٨٨ انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ص: ٢٠٩-٢١٠، حادي الأرواح ص ٢٣١



وقد تقدم الحديث عن مسألة الرؤية على وجه التفصيل في الفقرة رقم (١٤) فليرجع إليه.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٨٠] "واعلم –رحمك الله– أنها ما كانت زندقة قط، ولا كفر ولا شك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأصحاب الكلام والجدل والمراء والخصومة، والعجب وكيف يجترئ الرجل على المراء والخصومة والجدال، والله تعالى يقول: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} فعليك بالتسليم والرضى بالآثار وأهل الآثار، والكف والسكوت".

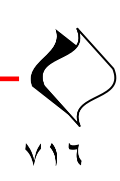
الشرح

معلوم أن باب الضلالة سببه هو البعد عن كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فبعد ما أحدث الناس ما أحدثوا من علم الكلام وعلم الفلسفة أرادوا أن يُلبسوا هذه العلوم لباس الإسلام، وبالتالي أرادوا أن يخضعوا الإسلام لهذه العلوم، فنشأ ما نشأ من مقالات الكفر والضلال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "ولا يجوز لعاقل أن يظن أنَّ الميزان العقلي الذي أنزله الله هو منطق اليونان لوجوه:

أحدها: إنَّ الله أنزل الموازين مع كتبه قبل أن يخلق اليونان من عهد نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، وهذا المنطق اليوناني وضعه قبل المسيح بثلاثمائة سنة، فكيف كانت الأمم المتقدمة تزن به؟

الثاني: إنَّ أمتنا أهل الإسلام ما زالوا يزنون بالموازين العقلية، ولم يسمع سلفًا بذكر هذا المنطق اليوناني، وإنما ظهر في الإسلام لما عربت الكتب الرومية في عهد دولة المأمون أو قريبًا منها.



الثالث: إنَّه ما زال نظار المسلمين بعد أن عرب وعرفوه، يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله في موازينهم العقلية والشرعية...ثم هذا جعلوه ميزان الموازين العقلية التي هي الأقيسة العقلية، وزعموا أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن أن يزل في فكره، وليس كذلك فإنه لو احتاج الميزان إلى ميزان للزم التسلسل"[١٧٨٩]

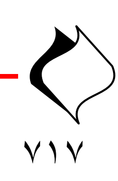
فسبب الضلال هو إتباع الهوى، والهوى أساسه رأي الإنسان واغترارە بقوله، فيأتي الضلال من جهة اتباع الهوى، فما كانت زندقة قط ولا كفر ولا شكٌّ ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأهل الكلام والجدل والمراء والخصومة فهي علوم فاسدة، علوم مآلها الشك والضياع، والفساد.

بالتالي ولدت هذا الكفر والضلال، أما الرجوع إلى كلام الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهي مصدر الهدى، فالله تعالى يقول عن كتابه: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء:٩]، ويقول: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:٢]، ويقول عن رسوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى:٥٢].

فالهدى في هذا الطريق، ولذلك الله سبحانه وتعالى قد قال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام:١٥٣]، والله تعالى يقول: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك:٢٢]، لذلك من خاض في هذا الطريق إلى آخره أعلن توبته، ها هو قائلهم يقول:

"نهاية إقدام العقول عقال — وأكثر سعي العالمين ضلال
أرواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

١٧٨٩ مجموع الفتاوى: (٩/ ٢٤٠-٢٤١).



"١٧٩٠(١٧٩١)

فلا يمكن أن يأتي هذا الباطل بنور، فالنور طريقه معروف واضح بين، وهو في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال ابن القيم معقباً على كلام الرازي بعد أن نقله: "فليتأمل اللبيب ما في كلام هذا الفاضل من العبر فإنه لم يأت في المتأخرين من حصل من العلوم العقلية ما حصله ووقف على نهايات أقدام العقلاء وغايات مباحث الفضلاء وضرب بعضها ببعض ومخضها أشد المخض، فما رآها تشفي علة داء الجهالة ولا تروي غلة ظمأ الشوق والطلب، وأنها لم تحل عنه عقدة واحدة من هذه العقد الثلاث التي عقدها أرباب المعقولات على قافية القلب.

١–فلم يستيقظ لمعرفة ذات الله ولا صفاته ولا أفعاله، وصدق والله فإنه شاك في ذات رب العالمين هل له ماهية غير الوجود المطلق يختص بها أم ماهيته نفس وجوده الواجب، ومات ولم تنحل له عقدتها.

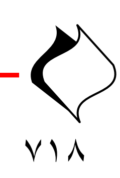
٢–وشاك في صفاته هل هي أمور وجودية أم نسب إضافية عدمية ومات ولم تنحل له عقدتها.

٣–وشاك في أفعاله هل هي مقارنة له أزلا وأبدا لم تزل معه أم الفعل متأخر عنه تأخرا لا نهاية لأمده فصار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا ومات لم تنحل له عقدتها. فننظر في كتبه الكلامية قول المتكلمين، وفي كتبه الفلسفية قول الفلاسفة، وفي كتبه التي خلط فيها بين الطريقتين يضرب أقوال هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء، ويجلس بينهما حائرا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء"[١٧٩٢]

١٧٩٠ انظر: الفتوى الحموية الكبرى (١٩١)

١٧٩١ أقسام اللذات للرازي ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الرابع، صفحة.(٢٥٠)

١٧٩٢ الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ٢/ ٦٦٦



والِآخر يقول في حكاية حيرته:

"لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرى إلى واضعاً كف حائرٍ على ذقن هكذا، أو قارعاً سن نادمِ"١٧٩٣.

فالله عز وجل وصف هذا الحال في قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك:٢٢]، فهؤلاء يحكون حيرتهم. وثالثهم يقول في هذا يقول: "درست المناهج الفلسفية والطرق الكلامية فما رأيتها تروي يعني غليلاً ولا تشفي عليلاً، لا تروي عطشان ولا تشفي مريضاً، لكن بعض الناس كما قالوا: أنصاف فالأنصاف لا يعرفون الغاية والنهاية، يخوضون في هذه العلوم ويتهوكون ويضربون بكلام الله وكلام رسوله عرض الحائط، ثم بعد ذلك النتيجة هي الحيرة والضلال، والعجب كل العجب كيف يجترأ الرجل على الخصومة والمراء والجدال والله تعالى يقول: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}، فهذا الجدال المذموم الذي عليه حال هؤلاء وهم الذين كفروا؛ كفروا بكلام الله، وكفروا بكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالمنهج البين الواضح والنور والهدى والحق المبين هو الذي أنزله الله تبارك وتعالى وحفظه وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم، فماذا بعد الهدى إلا الضلال، ماذا بعد الحق إلا الضلال، فليسعنا ما وسع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فكما قال القائل: "من لم يسعه ما وسع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلا وسع الله عليه"١٧٩٤ ألا يسعنا الأمر الذي كان عليه النبي، فالنبي صلى الله عليه وسلم جاء بكلام الله والوحي المنزل عليه؟ وهكذا أصحابه؛ فإذا لم يسع الإنسان ما وسع النبي صلى الله عليه وسلم، فلا وسع الله على من لم يسعه هذا الحال.

١٧٩٣ نهاية الإقدام (٣).

١٧٩٤ انظر شرح السنة للبغوي برقم (١٠٥)، ومشكاة المصابيح (١٩٣)

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٨١] "والإيمان بأن الله–تبارك وتعالى–يعذب الخلق في النار في الأغلال والأنكال والسلاسل، والنار في أجوافهم وفوقهم وتحتهم، وذلك أن الجهمية–منهم هشام الفوطي[١٧٩٥]–قال: إنما يعذب الله عند النار، رد على الله وعلى رسوله".

الشرح

معلوم أن الله سبحانه وتعالى أعد جهنم للكافرين قال تعالى: (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) البقرة، الآية: ٢٤

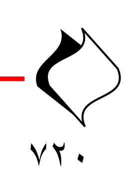
وقال: (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) (آل عمران: ١٣١).

وقال: (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها) (الكهف:٢٩).

وقال: (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) (الكهف:١٠٢).

١٧٩٥ هشام بن عمرو أبو محمد الفوطي، المعتزلي، الكوفي، مولى بني شيبان، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال؛ أخذ عنه عباد بن سلمان وغيره.

ونهى عن قول: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقال: لا يعذب الله كافرا بالنار، ولا يحيي أرضا بمطر، ولا يهدي ولا يضل، ويقول: يعذبون في النار لا بها، ويحيي الأرض عند المطر لا به، وأن معنى: ونعم الوكيل أي المتوكل عليه. قلت: هذا غاية ما عند هؤلاء المتقعرين من العلم، عبارات وشقاشق لا يعبأ الله بها، يحرفون الكلم عن مواضعه قديما وحديثا، فنعوذ بالله من الكلام وأهله. سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٥٤٧). وانظر: الفرق بين الفرق: (ص ١٥٩) – الفرق بين الفرق: (ص ١٤٥) – الملل والنحل: (٧٢/١) – شرح الأصفهانية: (ص ٦٥) – تاج العروس: (١٠٤/٣٤) – الفرق بين الفرق: (ص ٦٥) – مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: (١٠٦/١) – التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: (ص ٢٣، و ص ٣٨) – الملل والنحل: (١٨٤/١) – التنبيه والرد: (ص ٣١) – التعريفات للجرجاني: (ص ٢٥٧) – الملل والنحل: (٧٢/١) – الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار: (٦٠٧/٢) – لوامع الأنوار البهية: (٧٨/١) – الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد: (ص ٢٥٥).



روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله إذ سمع وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تدرون ما هذا)) قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها)).[١٧٩٦]

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((احتجت النار والجنة فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها))[١٧٩٧]. وأخرجه مسلم بمعناه[١٧٩٨]

وقد تقدم الحديث عن المسائل المتعلقة بالنار عند شرح الفقرة رقم: (٢١).

وأعد الله عز وجل فيها الأغلال والأنكال والسلاسل، وأعد فيها شجرة الزقوم وكل هذا ثابت في النصوص، فلا يأتي من يأتي ويكذب بعذاب النار فهو واقع لا محالة على أهل الكفر والمعاصي لمن شاء الله تعذيبه، فهو عذابٌ حقيقة وتعذيب في النار وليس عند النار.

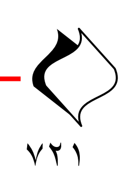
ومعلوم أن النار دركات، والجنة درجات، والدركات أسفلها أشدها عذاباً لذلك الله تعالى قال: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[النساء:١٤٥] .

وقول المصنف: **"وذلك أن الجهمية–منهم هشام الفوطي–قال: إنما يعذب الله عند النار، رد على الله وعلى رسوله".**

١٧٩٦ أخرجه مسلم: (٢٨٤٤).

١٧٩٧ أخرجه البخاري: (٧٤٤٩).

١٧٩٨ أخرجه مسلم: (٢٨٤٦).



قال الذهبي: "هشام بن عمرو أبو محمد الفوطي[١٧٩٩]، المعتزلي، الكوفي، مولى بني شيبان، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال؛ أخذ عنه عباد بن سلمان وغيره.

ونهى عن قول: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقال: لا يعذب الله كافرا بالنار، ولا يحيي أرضا بمطر، ولا يهدي ولا يضل، ويقول: يعذبون في النار لا بها، ويحيي الأرض عند المطر لا به، وأن معنى: ونعم الوكيل أي المتوكل عليه" ١٨٠٠.

وقال الملطي في التنبيه والرد: "ومن فضـــائح الفوطي وبدعه قوله إن الجنة والنار ليســـتا بمخلوقتين الآن وإن كل من قال إنهما مخلوقتان الآن فهو كافر. وهذا القول منه زيادة منه على ضـــلالة المعتزلة، لأن المعتزلة لا يكفرون من قال بوجودهما وإن كانوا ينكرون وجودهما الآن" ١٨٠١.

قال عَبْد القَاهر البَغْدادي: "الفضيحة السَّابِعَة من فضائح الفوطي قَوْله بتكفير من قَالَ إن الْجنَّة وَالنَّار مخلوقتان، وأخلافه من الْمُعْتَزلَة شـــكوا في وجودهَا الْيَوْم وَلم يَقُولُوا بتكفير من قَالَ إنهما مخلوقان والمثبتون لخلقهما يكفرون من أنكرهما ويقسمون بِاللَّه تَعَالَى أن من أنكرهما لَا يدْخل الْجنَّة وَلَا ينجو من النَّار"[١٨٠٢].

والمعروف عن هشام الفوطي أنه من المتقعرين في الكلام ولعل مقولته هذه هي من هذا الباب، ولذلك أورد الذهبي بعد ذكره لترجمته ما نقله المبرد عن تقعيره للكلام وعلق عليه، فقال:

قَالَ المبَرِّد: قَالَ رَجُلٌ لِهِشَامٍ الفُوَطِيِّ: كَمْ تَعُدُّ مِنَ السِّنِيْنَ؟

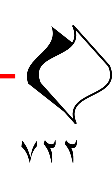
قَالَ: مِنْ وَاحِدٍ إِلَى أَكْثَرَ مِن أَلفٍ.

١٧٩٩ طبقات المعتزلة: ٦١، الفهرست لابن النديم: ٢١٤.

١٨٠٠ سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٥٤٧). وانظر: الفرق بين الفرق: (ص١٤٥و ١٥٩).

١٨٠١ التنبيه والرد: (ص ٣١).

١٨٠٢ الفرق بين الفرق ص ١٤٩، وانظر: التبصـــير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: (ص ٢٣، و ص ٣٨)



قَالَ: لَمْ أُرِدْ هَذَا، كَمْ لَكَ مِنَ السِّنِّ؟

قَالَ: اثْنَانِ وَثَلاَثُوْنَ سِنّاً.

قَالَ: كَمْ لَكَ مِنَ السِّنِيْنَ؟

قَالَ: مَا هِيَ لِي، كُلُّهَا للهِ.

قَالَ: فَمَا سِنُّكَ؟

قَالَ: عَظْمٌ.

قَالَ: فَابْنُ كَمْ أَنْتَ؟

قَالَ: ابْنُ أُمٍّ وَأَبٍ.

قَالَ: فَكَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟

قَالَ: لَوْ أَتَى عَلَيَّ شَيْءٌ، لَقَتَلَنِي.

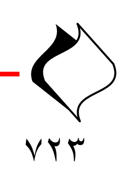
قَالَ: وَيْحَكَ! فَكَيْفَ أَقُوْلُ؟

قَالَ: قُلْ: كَمْ مَضَى مِنْ عُمُرِكَ.

قُلْتُ: هَذَا غَايَةُ مَا عِنْدَ هَؤُلاَءِ المتَقَعِّرِينَ مِنَ العِلْمِ، عِبَارَاتٌ وَشَقَاشِقُ لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهَا، يُحَرِّفُوْنَ بِهَا الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه قَدِيْماً وَحَدِيْثاً، فَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الكَلاَمِ وَأَهْلِهِ[١٨٠٣]".

وعبارة المصنف: قال "إنما يعذب عند النار" وعبارة الذهبي في السير "يعذبون في النار لا بها"

١٨٠٣ سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٥٤٧).



(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[٨٢] "واعلم أن الصلاة الفريضة خمس، لا يزاد فيهن ولا ينقص، في مواقيتها، وفي السفر ركعتان إلا المغرب، فمن قال: أكثر من خمس، فقد ابتدع، ومن قال: أقل من خمس فقد ابتدع، لا يقبل الله شيئًا منها إلا لوقتها، إلا أن يكون نسيان فإنه معذور، يأتي بها إذا ذكرها، أو يكون مسافرا فيجمع بين الصلاتين إن شاء".

الشرح

قول المصنف: "واعلم أن الصلاة الفريضة خمس، لا يزاد فيهن ولا ينقص".

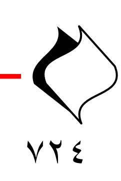
وذلك لما ورد في الحديث: عن طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضـــي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ الصَّلاةِ؟ فَقَالَ: ((الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلا أَنْ تَطَّوَّعَ شَيْئًا)) ولفظ مسلم: ((خَمْسُ صَـــلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لا، إِلا أَنْ تَطَوَّعَ)).[١٨٠٤]

وعن أنس بن مالك: أنَّ رجُلًا قال: يا رسولَ اللهِ كم افترَضَ اللهُ على عبادِه مِن الصَّلاةِ؟ قال: ((خمسَ صلواتٍ)) قال: هل قبْلَهنَّ أو بعدَهنَّ شيءٌ؟ قال: ((افترَضَ اللهُ على عبادِه خمسَ صلواتٍ)) فقال: هل قبْلَهنَّ أو بعدَهنَّ شيءٌ؟ قال: ((افترَضَ اللهُ على عبادِه خمسَ صـــلواتٍ)) قال: فحلَفَ الرَّجلُ باللهِ لا يزيدُ عليهنَّ ولا ينقُصُ منهنَّ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنْ صدَق دخَل الجنَّةَ))[١٨٠٥]

وقول المصنف: **"في مواقيتها"**

١٨٠٤ رواه البخاري (١٨٩١) ومسلم (١١).

١٨٠٥ صـــحيح ابن حبان (١٤٤٧) وأورده من ثلاث طرق، كلها صـــحاح، وقال الأرناؤوط في تخريج صـــحيح ابن حبان إسناده صحيح على شرط مسلم.



أي أن للصـــلاة أوقاتًا محدودة لابد أن تؤدى فيها، وذلك لقوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا). [النساء: ١٠٣]

ومعنى: (موقوتًا) أي: منجمًا في أوقات محدودة.

ومن السـنة عن عبد الله بن عمرو: أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قال: ((وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس، ووقت صلاة المغرب ما لم يغب الشفق، وقت العشاء إلى نصـف الليل الأوسـط، ووقت صـلاة الصـبح من طلوع الفجر وما لم تطلع الشـمس، فإذا طلعت الشـمس فأمسـك عن الصـلاة، فإنها تطلع بين قرني شيطان))[١٨٠٦].

وقول المصنف: **"وفي السفر ركعتان إلا المغرب"**

لقوله تعالى:﴿ وَإِذَا ضَـرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُـرُوا مِنَ الصَّـلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّـذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَـافِرِينَ كَـانُوا لَكُمْ عَـدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١] .

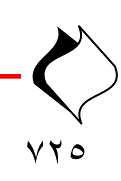
ومن السنة: ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ مِنْ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَـلِّي رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ))[١٨٠٧]

وقال ابن عمر رضـي الله عنهما: ((صَـحِبْتُ رَسُـولَ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فَكَانَ لَا يَزِيدُ فِي السَّـفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَذَلِكَ، رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ))[١٨٠٨]. يعني في أول خلافة عثمان، وإلا فعثمان رضـي الله عنه كان يتم في آخر خلافته.

١٨٠٦ رواه مسلم (٦١٢).

١٨٠٧ رواه البخاري (١٠٨١) ومسلم (٧٢٤)

١٨٠٨ رواه البخاري (١١٠٢) ومسلم (٦٨٩).



ولما بلغ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه صلى بمنى أربع ركعات قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ)[١٨٠٩]

وقصر الصلاة يكون في الصلاة الرباعية فقط وهي كل من صلاة الظهر والعصر والعشاء، وأما صلاة المغرب وصلاة الفجر فلا تقصر، ويُعدّ قصرُ الصّلاةِ للمُسافرِ من السُّننِ المؤكّدةِ عن الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- كما يرى ذلك الحنفيّةُ والمالكيّةُ، أما الشافعيّةُ والحنابلةُ فيَرَون جوازَ إتمامِ الصّلاةِ، وكان الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- يقصرُ في الصّلاة في جميع أسفاره ولم يثبت عنه -عليه الصّلاة والسّلام- أنّه أتمّ الصّلاة في السّفر.[١٨١٠]

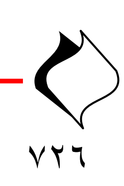
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله:- "ويكره إتمام الصلاة في السفر، قال أحمد: لا يعجبني، ونقل عن أحمد إذا صلى أربعاً أنه توقف في الإجزاء، ولم يثبت أن أحداً من الصحابة كان يتم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم في السفر، وحديث عائشة في مخالفة ذلك لا تقوم به الحجة"[١٨١١]

وقال ابن القيم رحمه الله: "وكان صلى الله عليه وسلم يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافراً إلى أن يرجع إلى المدينة، ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية في سفره البتة.

١٨٠٩ رواه البخاري (١٠٨٤) ومسلم (٦٩٥).

١٨١٠ الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري (الطبعة الثانية)، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، صفحة ٤٢٧-٤٢٨، جزء ١. بتصرّف.

١٨١١ "الاختيارات" (ص ٣٢).



وأما حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصر في السفر ويتم، ويفطر ويصوم[١٨١٢]، فلا يصح، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم"

وقد رُوي: كان يقصر وتُتم، وتفطر ويصوم.

قال شيخنا ابن تيمية: وهذا باطل، ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع أصحابه، فتصلي خلاف صلاتهم"[١٨١٣].

بل ذهب بعض الأئمة كالإمام أبي حنيفة وابن حزم رحمهما الله إلى أن قصر الصلاة للمسافر واجب، ولا يجوز له إتمامها.

والراجح هو قول جمهور العلماء، أن القصر سنة مستحبة وليس واجباً، ويدل لذلك أن عثمان وعائشة رضي الله عنهما، قد أتما الصلاة في السفر، ولو كان القصر واجباً لما أتما، وقد تابع الصحابة عثمان رضي الله عنهم على إتمام الصلاة بمنى، ولو كان الإتمام حراماً، لم يتابعوه في ذلك.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: "لو كان فرض المسافر ركعتين لما أتم عثمان ولا عائشة ولا ابن مسعود، ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم"[١٨١٤].

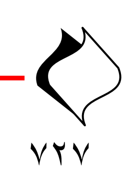
وقول المصنف: **"فمن قال: أكثر من خمس، فقد ابتدع، ومن قال: أقل من خمس فقد ابتدع"**

يعني أن الصوات المفروضة هي خمس صلوات في اليوم والليلة، وفي هذا رد على من قال بأن الوتر واجب وكما ورد أنَّ رجُلًا مِن بَني كِنانةَ يُدْعى المخْدِجِيَّ، سَمِع رجُلًا بالشامِ يُدْعى أبا محمَّدٍ يقولُ: إنَّ الوِترَ واجبٌ، قال المخْدِجيُّ: فرُحتُ إلى

١٨١٢ أخرجه الدارقطني ٢/١٨٩-ومن طريقه البيهقي ٣/١٤١-من طريق سعيد بن محمد بن ثواب، عن أبي عاصم، عن عمرو بن سعيد، عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها، به.

١٨١٣ "زاد المعاد" (١/٤٦٤).

١٨١٤ "الأم" (١/١٥٩).



عُبادةَ بنِ الصامتِ فأخبَرتُه، فقال عُبادةُ: كذَب أبو محمَّدٍ؛ سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: (خَمسُ صلواتٍ كتَبهُنَّ اللهُ على العِبادِ، فمَن جاء بهنَّ لم يُضيِّعْ منهنَّ شيئًا استخفافًا بحقِّهنَّ، كان له عندَ اللهِ عهدٌ أنْ يُدخِلَه الجنَّةَ، ومَن لم يأتِ بهنَّ، فليس له عندَ اللهِ عهدٌ؛ إنْ شاء عذَّبه، وإنْ شاء أدخَلَه الجنَّةَ)[١٨١٥].

قال ابن قدامة رحمه الله: "الوتر غير واجب وبهذا قال مالك والشافعي. وقال أبو حنيفة: هو واجب ".

ثم قال: "قال أحمد: من ترك الوتر عمدًا فهو رجل سوء، ولا ينبغي أن تقبل له شهادة، وأراد المبالغة في تأكيده لما قد ورد فيه من الأحاديث في الأمر به، والحث عليه"[١٨١٦].

وقول المصنف: **"لا يقبل الله شيئًا منها إلا لوقتها، إلا أن يكون نسيان فإنه معذور، يأتي بها إذا ذكرها، أو يكون مسافرا فيجمع بين الصلاتين إن شاء"**

تأخير الصلاة عن وقتها على نوعين:

النوع الأول: تأخيرها لعذر شرعي.

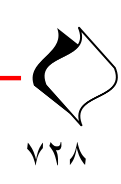
النوع الثاني: تأخيرها لغير عذر شرعي.

أما النوع الأول: وهو تأخيرها عن وقتها لعذر شرعي فالفقهاء متَّفقون على أنَّ من أخَّر الصّلاة فخرج وقتها لعذرٍ لا إثم عليه، وذلك مثل: النِّسيان لقول النَّبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((رُفِعَ عن أُمَّتي الخطَأ، والنِّسيان، وما اسْتُكرِهُوا عليْه))،[١٨١٧] أو النَّوم؛ لِما رُوِي أنَّ بعض الصّحابة رضي الله عنهم: (ذكروا تفريطَهم في النّومِ، فناموا حتّى طلعتِ الشّمسُ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ليس في النّومِ

١٨١٥ سنن أبي داود (١٤٢٠)، وقال الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (صحيح).

١٨١٦ انتهى بتصرف من "المغني" (٨٢٧/١).

١٨١٧ انظر المحلى لابن حزم، ١٩٣/٥. صحيح.



تفريطٌ، إنَّما التفريطُ في اليقظةِ، فإذا نسـيَ أحدُكم صـلاةً أو نام عنها فلْيُصـلِّها إذا ذكرَها، ولوقتِها من الغدِ)[١٨١٨]، فلا خِلاف على أنَّ تأخير الصّـلاة عن وقتها لعُذرَي النّسيان أو النّوم لا إثم فيه.[١٨١٩]

وقد اختُلِف في تأخير الصّلاة عن وقتها للسّفر والمطر؛ أي تأخير الظُّهر لتُصلّى مع العصـر، وتأخير المغرب لتُصـلّى مع العشـاء جمع تأخيرٍ في حال السَّـفر والمطر، فهذان عُذران يُجيزان تأخير الصّلاة عن وقتها عند جمهور الفُقهاء.

فعن ابن عباس -رضـي الله عنهما-عن النبي -صـلَّى الله عليه وآله وسـلَّم- (كان في السـفر إذا زاغت الشـمس في منزله جمع بين الظهر والعصـر قبل أن يركب، فإذا لم تزغ له في منزله، سـار حتّى إذا حانت العصـر نزل فجمع بين الظهر والعصـر، وإذا حانت له المغرب في منزله جمع بينها وبين العشـاء، وإذا لم تحن في منزله ركب حتى إذا كانت العشاء نزل فجمع بينهما)[١٨٢٠]

قال الشـوكاني بعد نقله الرواية عن مسـند أحمد: ورواه الشـافعي في مسـنده بنحوه وقال فيه: وإذا سـار قبل أن تزول الشـمس أخّر الظهر حتّى يجمع بينها وبين العصر في وقت العصر[١٨٢١].

مسألة: تأخير الصَّلاة إلى آخر وقتها

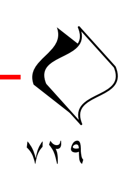
تأخير الصَّـلاة إلى آخر وقتها هو ألّا تُصـلّى الصَّـلاة في أوّل وقتها بل في آخره، قبل انقضـاء وقت الصَّـلاة بزمنٍ يسـيرٍ، وتأخير الصَّـلاة إلى آخر وقتها إن كان لعُذرٍ -مثل الأعذار التي سـبق الحديث عنها- فلا حرَج ولا إثم في تأخيرها، أمَّا إن كان

١٨١٨ رواه الترمذي انظر صحيح الترمذي:(١٧٧) وقال الألباني صحيح؛ ورواه ابن ماجة، انظر: صحيح ابن ماجة، عن أبي قتادة، (٥٧٨) وقال الألباني: صحيح.

١٨١٩ المصدر: الموسوعة الفقهية الكويتية (الطبعة الثانية)، الكويت: دار السلاسل، ٧/ ١٨٦-١٨٧، بتصرّف.

١٨٢٠ مسـند أحمد بن حنبل:٥/٢٤١؛ سـنن أبي داود:١٨/٢، كتاب الصـلاة، باب الجمع بين الصـلاتين، الحديث ١٢٢٠.

١٨٢١ نيل الأوطار:٢١٣/٣.



تأخيرها إلى آخر الوقت دون عُذرٍ فهو خِلاف الأولى؛ إذ إنَّ الأصـــل والأكمل والأفضـل أداء الصّـلاة على وقتها[١٨٢٢]؛ لِما للمُسـارعة في الخيرات وأداء العبادة من

١٨٢٢ الصلاة على وقتها في الحضر هو قول أهل السنة وخالف في ذلك كل من:

١- الشـيعة الاثنا عشـرية؛ فقد اتّفقت الإمامية على أنّه يجوز الجمع بين الصـلاتين في الحضـر اختياراً وإن كان التفريق أفضل.

يقول الطوسي: يجوز الجمع بين الصلاتين، بين الظهر والعصر وبين المغرب وعشاء الآخرة، في السفر والحضر وعلى كلّ حال، ولا فرق بين أن يجمع بينهما في وقت الأولة منهما أو وقت الثانية، لأنّ الوقت مشترك بعد الزوال وبعد المغرب على ما بيّناه .(الخلاف:١/٥٨٨، المسألة ٣٥١).

فقالت الإمامية ـ إنّه إذا زالت الشمس دخل الوقتان ـ أي وقت الظهر والعصر ـ إلاّ أنّ صلاة الظهر يُؤتى بها قبل العصر، وعلى ذلك فالوقت بين الظهر والغروب وقت مشترك بين الصلاتين، غير انّه يختص مقدار أربع ركعات من الزوال بالظهر ومقدار أربع ركعات من الآخر للعصـر وما بينهما وقت مشـترك، فلو صـلّى الظهر والعصر في أي جزء من بين الزوال والغروب فقد أتى بهما في وقتهما، وذلك لأنّ الوقت مشترك بينهما، غير انّه يختص بالظهر مقدار أربع ركعات من أوّل الوقت ولا يصحّ فيه العصر ويختص بالعصر بمقدار أربع ركعات من آخر الوقت ولا يصحّ إتيان الظهر فيه.

هذا هو واقع المذهب، ولأجل ذلك فالجامع بين الصلاتين في غير الوقت المختص به آت بالفريضة في وقتها فصلاته أداء لا قضاءً .ومع ذلك فلكلّ من الصلاتين ـ وراء وقت الاجزاء ـ وقت فضيلة.

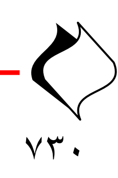
فوقت فضـيلة الظهر من الزوال إلى بلوغ ظل الشـاخص الحادث بعد الانعدام أو بعد الانتهاء مثله، ووقت فضيلة العصر من المثل إلى المثلين عند المشهور.

وبذلك يعلم وقت المغرب والعشاء، فإذا غربت الشمس دخل الوقتان إلى نصف الليل، ويختص المغرب بأوّله بمقدار أدائه والعشـاء ب آخره كذلك وما بينهما وقت مشـترك، ومع ذلك انّ لكلّ من الصـلاتين وقت فضيلة، فوقت فضيلة صلاة المغرب من المغرب إلى ذهاب الشفق وهي الحمرة المغربية، ووقت فضيلة العشاء من ذهاب الشفق إلى ثلث الليل . انظر العروة الوثقى:١٧١، فصل في أوقات اليومية.

٢- ما ذكر عن الظاهرية وبعض الفقهاء من جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء في الحضر من غير عذر من سفر أو مطر أو مرض.

قال ابن رشـد: وأمّا الجمع في الحضـر لغير عذر فإن مالكاً وأكثر الفقهاء لا يجيزونه، وأجاز ذلك جماعة من أهل الظاهر، وأشهب من أصحاب مالك.

وسـبب اختلافهم، اختلافهم في مفهوم حديث ابن عباس، فمنهم من تأوّله على أنّه كان من سـفر. ومنهم من أخذ بعمومه مطلقاً، وقد خرّج مسـلم زيادة في حديثه وهو قوله: من غير خوف ولا سـفر ولا مطر، وبهذا تمسّك أهل الظاهر.بداية المجتهد:٢/٣٧٤، الطبعة المحققّة.



فضلٍ عند الله تعالى، كما جاء في قوله سبحانه: (...فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...)،[سورة البقرة، آية: ١٤٨] وقوله تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)،[سورة آل عمران ١٣٣] ولِما كان عليه النَّبيّ -عليه الصَّلاة والسَّلام-وصحابته-رضي الله عنهم-من حرصٍ على أداء الصلّاة على وقتها.[١٨٢٣]

وأما النوع الثاني: وهو تأخيرها عن وقتها لغير عذر شرعي.

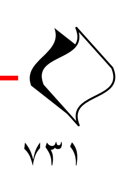
وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: "تارك الصلاة عمدًا لا يشرع له قضاؤها، ولا تصحُّ منه، بل يكثر من التطوُّع، وكذا الصوم، وهو قول طائفة من السَّلف؛ كأبي عبد الرحمن صاحب الشافعي، وداود وأتباعه، وليس في الأدلة ما يُخالف هذا بل يوافقه[١٨٢٤]."

قال ابن القيِّم رحمه الله في مقرِّرًا لهذه المسألة: "ما وقته أوسع من فعله كالصلاة فِعْلُه في وَقْته شرطٌ في كَوْنه عبادة مأمورًا بها، فإنَّه إنَّما أمر به على هذه الصِّفة، فلا تكون عبادة على غيرها... فما أَمَر الله به في الوقت، فتَرْكُه المأمورَ حتَّى فات وقته لم يُمكن فعله بعدَ الوقت شرعًا؛ ولهذا لا يُمكن فعل الجُمُعة بعد خروج وَقْتها، ولا الوقوف بعرفة بعد وقته... ولا مشروع إلاَّ ما شرعه الله ورسوله، وهو سبحانه ما شرع فِعْلَ الصلاة والصِّيام والحج إلاَّ في أوقات مُختصة به، فإذا فاتت تلك الأوقات لم تكن مشروعة، ولم يشرع الله سبحانه فعل الجمعة يوم السبت، ولا الوقوف بعرفة في اليوم العاشر، ولا الحج في غير أشهره.

قال النووي: فرع في مذاهبهم من الجمع بلا خوف ولا سفر، ولا مطر ولا مرض، مذهبنا (الشافعي) ومذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد والجمهور انّه لا يجوز، وحكى ابن المنذر عن طائفة جوازه بلا سبب، قال: وجوّزه ابن سيرين لحاجة أو ما لم يتّخذه عادة .المجموع:٤/٢٦٤.

١٨٢٣ "حكم تأخير الصلاة إلى آخر وقتها" لخالد عبد المنعم الرفاعي.

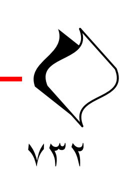
١٨٢٤ "الاختيارات" (ص: ٣٤).



ومن أخَّر صلاة النهار، فصلاَّها بالليل أو صلاة الليل، فصلاَّها بالنَّهار، فهذا الذي فعله غير الذي أمر به وغير ما شرعه الله ورسوله، فلا يكون صحيحًا ولا مقبولاً...

والله سبحانه قد جعل لكلِّ صلاة وقتًا محدودَ الأول والآخر، ولم يأذن في فعلها قبل دخول وقتها، ولا بعد خُرُوج وقتها، والمفعول قبل الوقت وبعده أمرٌ غير المشروع، فلو كان الوقت ليس شرطًا في صِحَّتها، لكان لا فرق في الصِّحة بين فعلها قبل الوقت وبعده؛ لأنَّ كلتا الصَّلاتين صلاَّها في غير وقتها، فكيف قبلت من هذا المفرِّط بالتفويت، ولم تقبل من المفرط بالتعجيل؟!

وقد أمر الله سبحانه المسلمين حال مواجهة عدوِّهم أن يصلوا صلاةَ الخوف، فيقصروا من أركانها، ويفعلوا فيها الأفعالَ الكثيرة، ويستدبروا فيها القبلة، ويسلمون قبل الإمام، بل يصلُّون رجالاً وركبانًا، حتَّى لو لم يُمكنهم إلا الإيماء، أَتَوا بها على دوابِّهم إلى غير القبلة في وقتها، ولو قبلت منهم في غير وقتها وصحَّت، لجاز لهم تأخيرها إلى وقت الأمن وإمكان الإتيان بها، وهذا يدل على أنَّها بعد خروج وقتها لا تكون جائزة ولا مقبولة منهم مع العُذر الذي أصابهم في سبيله وجهاد أعدائه، فكيف تقبل من صحيحٍ مقيمٍ لا عذر له الْبَتَّةَ وهو يسمع داعيَ الله جهرة، فيدعها حتى يخرج وقتها، ثم يصليها في غير الوقت؟! وكذلك لم يفسح في تأخيرها عن وقتها للمريض، بل أمره أنْ يصلي على جنبه بغير قيام ولا ركوع ولا سجود إذا عَجَز عن ذلك، ولو كانت تقبل منه وتصح في غير وقتها، لجاز تأخيرها إلى زمن الصِّحَّة. فأخبرونا :أيُّ كتابٍ أو سنة أو أَثَرٍ عن صاحب نطق بأنَّ من أخر الصلاة وفوَّتها عن وقتها الذي أمر الله بإيقاعها فيه عمدًا يقبلها الله منه بعد خروج وقتها، وتصح منه، وتبرأ ذمته منها، ويثاب عليها ثواب من أدَّى فريضته؟! هذا والله ما لا سبيلَ لكم إليه البتة، حتَّى تقوم الساعة ونحن نُوجِد لكم عن أصحاب رسول الله مثل ما قلناه وخلاف قولكم.



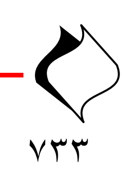
فصل في قول أبي بكر الصديق الذي لم يُعلَم أن أحدًا من الصحابة أنكره عليه؛ قال عبدالله بن المبارك: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن زيد: أن أبا بكر قال لعمر بن الخطاب: إنّي موصيك بوصية إنْ حفظتها: إنَّ لله حقًّا بالنهار لا يقبله باللَّيل، وحقًّا بالليل لا يقبله بالنَّهار... فهذا أبو بكر قال: إنَّ الله لا يقبل عَمَل النهار بالليل، ولا عمل الليل بالنَّهار، ومن يُخالفنا بهذه المسألة يقولون بخلاف هذا صريحًا، وأنَّه يقبل صلاةَ العشاءِ الآخرة وقت الهاجرة، ويقبل صلاةَ العصر نصف النَّهار... فهذا قول أبي بكر، وعمر، وابنه عبدالله، وسعد بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وبديل العقيلي، ومحمد بن سيرين، ومطرف بن عبدالله، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم وغيره"[١٨٢٥].

وقال ابن حزم: "من تعمَّد ترك الصَّلاة حتى خرج وقتها، فهذا لا يقدر على قضائها أبدًا، فليكثر من فعل الخير وصلاة التطوُّع؛ ليثقل ميزانه يوم القيامة، ولْيَتُب وليستغفر الله -عز وجل-."[١٨٢٦]

وقال ابن رجب: "المعذور إنَّما أمره بالقضاء؛ لأنَّه جعل قضاءه كفَّارة له، والعامد ليس القضاء كفَّارة له؛ فإنه عاصٍ تلزمه التوبة من ذنبه بالاتِّفاق... والعامد لم يأتِ نصٌّ بأن القضاء كفَّارة له، بل ولا يدل عليه النظر؛ لأنَّه عاصٍ آثم يَحتاج إلى توبة، كقاتل العمد، وحالف اليمين الغموس... وقد نص الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: على أن المصلي لغير الوقت كالتارك للصلاة في استتابته وقتله، فكيف يؤمر بفعل صلاة حكمها حكم ترك الصلاة؟... ولا يُعرف عن أحد من الصَّحابة في وجوب القضاء على العامد شيء، بل ولم أجد صريحًا عن التابعين-أيضًا-فيه شيئًا،

١٨٢٥ كتاب الصَّلاة وحكم تاركها (ص: ٧٣ - ٨٠).

١٨٢٦ "المحلى" (٢/٢٣٥).



إلا عن النخعي، وقد وردت آثارٌ كثيرة عن السَّــلف في تارك الصــلاة عمدًا أنَّه لا تقبل منه صلاة، كما رُوي عن الصديق -رضي الله عنه-."[١٨٢٧]

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[٨٣] "والزكاة من الذهب والفضة والتمر والحبوب والدواب، على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن قسمها فجائز، وإن أعطاها الإمام فجائز".

الشرح

قول المصنف: **"والزكاة"**

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام

ومن الأدلة عليها:

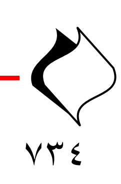
من القرآن:

قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). [التوبة، آية:٦٠] .

وقال الله تعالى: (وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ)، [البقرة: آية: ٤٣] وقوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)،[التوبة، آية: ١٠٣] وقوله تعالى: (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)[الأنعام، آية: ١٤١] وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ فِي أمْوَالِهِمْ حَقٌ مَعْلومٌ لِلسَّائِلِ والْمحْرُومِ)[سورة المعارج، آية: ٢٤-٢٥]

ومن السنة:

١٨٢٧ "فتح الباري" (١٣٣/٥-١٣٩).



وقد ثَبت فِي «الصَّحِيح» أَنَّ جِبْرِيل لما جَاءَ إِلَى النَّبِي ﷺ فِي صُورَة أَعْرَابِي وسَأَلَهُ عَن الإِسْلَام قَالَ: «الإِسْلَامُ: أَن تشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وأَن مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وتقيمَ الصَّلَاةَ، وتؤتِي الزَّكَاة، وتصوم رَمَضَانَ، وتحجَّ البَيْتَ إِن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا»[١٨٢٨]

حديث ابن عمر –رضي الله عنهما–أنَّ النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريًّا العشر، وفيما سُقِيَ بالنَّضح نصف العشر))١٨٢٩

وحديث أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه–أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: ((ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة))[١٨٣٠]

تعريف الزكاة.

عرّف العلماء الزكاة بأنها حصّة مُقدّرة من المال فرضها الله عز وجل للمُستحقّين الذين سماهم في كتابه العزيز، أو هي القدر الواجب إخراجه لمستحقيه في المال الذي بلغ نصاباً مُعيّناً بشروط مخصوصة، وقيل هي: مقدار مخصوص في مال مخصوص لطائفة مخصوصة، ويطلق لفظ الزكاة على نفس الحصة المخرجة من المال المزكى١٨٣١. والزكاة الشرعيّة قد تُسمّى في لغة القرآن الكريم وسنة رسوله المصطفى – صلى الله عليه وسلم – (صدقة) كما قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، [التوبة، آية: ١٠٣] وفي الحديث الصحيح الذي يرويه عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: ((إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ

١٨٢٨ صحيح مسلم (٨).

١٨٢٩ رواه البخاري (١٤٨٣).

١٨٣٠ رواه البخاري (١٤٠٥)، ومسلم (٩٧٩).

١٨٣١ رسالة في الفقه الميسر للشيخ صالح بن غانم السدلان، (الطبعة الأولى)، المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، صفحة ٥٩. بتصرّف.

فادعُهم إلى شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ وأني رسولُ اللهِ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم صدقةً في أموالهم تُؤخذُ من أغنيائِهم وتردُّ على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائمَ أموالِهم واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنها ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ)).١٨٣٢

وقول المصنف: **"من الذهب والفضة والتمر والحبوب والدواب"**.

ذكر المصنف بعض الأصناف التي تجب فيها الزكاة، ومعلوم أن الزكاة واجبة فيما أوجب الله عز وجل الزكاة فيه، وهناك أربعة أنواع تجب فيها الزكاة وهي:

١-النقدان وما يقوم مقامها من الذهب من الأوراق النقدية.

٢-بهيمة الأنعام السائمة.

٣-الخارج من الأرض.

٤-عروض التجارة.

وكلها لابد فيها من بلوغ النصاب ومن بلوغ الحول إلا الخارج من الأرض فإنه تجب فيه الزكاة عند حصاده وأخذه.

وفي الأصناف التي تجب فيها الزكاة اختلاف بين العلماء

قال ابن قدامة: "وأما ما اتفقوا عليه:

فصنفان من المعدن: الذهب والفضة اللتين ليستا بحلي.

وثلاثة أصناف من الحيوان: الإبل والبقر والغنم.

وصنفان من الحبوب: الحنطة والشعير.

وصنفان من الثمر: التمر والزبيب، وفي الزيت خلاف شاذ"[١٨٣٣].

١٨٣٢ رواه أبو داود، (١٥٨٤).

١٨٣٣ بداية المجتهد ونهايةالمقتصد:١/ ١١.

وليس المقام هنا شرح ما يتعلق بالزكاة فذلك مظانه في كتب الفقه فليرجع إليها.

وقول المصنف: **"فإن قسمها فجائز، وإن أعطاها الإمام فجائز"**

قرر أهل السنة دفع الزكاة إلى الإمام الشرعي، إن كان يصرفها في مصارفها الشرعية[١٨٣٤].

وقد سئل ابن عمر وسعد بن أبي وقاص وأبو سعيد الخدري-رضي الله عنهم- عن الزكاة أينفذها على ما أمر الله تعالى، أو يدفعها إلى الولاة؟ قال: بل يدفعها إلى الولاة[١٨٣٥].

وقال محمد بن سيرين: "كانت الزكاة من الفاجر وغيره تدفع إلى رسول الله وإلى من استعمل، وإلى أبي بكر وإلى من استعمل، وإلى عمر وإلى من استعمل، وإلى عثمان وإلى من استعمله، فلما كان معاوية ومن بعده اختلف الناس، فمنهم من دفعها، ومنهم من تصدق بها"[١٨٣٦]

قال الإمام مالك: "إذا كان الإمام عدلا لم ينبغ للناس أن يتولوا تفرقة زكاتهم، ووجب عليهم دفعها إلى الإمام"[١٨٣٧].

وقال الإمام أحمد: "ودفع الصدقات إليهم جائزة ونافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه برًا أو فاجرًا""[١٨٣٨]

وقال أبو زرعة الرازي في اعتقاده: "ودفع الصدقات من السوائم إلى أولى الأمر من أئمة المسلمين"[١٨٣٩]

١٨٣٤ استدلوا بحديث معاذ لما أرسله إلى اليمن وفيه: «فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم». أخرجه البخاري ومسلم. فدل على أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها. انظر فتح الباري ٣/ ٣٤٠.

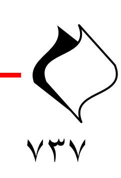
١٨٣٥ أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٦.

١٨٣٦ أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٦.

١٨٣٧ أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة ص ٢٨٧.

١٨٣٨ أخرجه اللالكائي ١/ ١٦٠.

١٨٣٩ أخرجه اللالكائي ١/١٧٨.



كما قرر ذلك علي بن المديني[١٨٤٠]، وأبو حاتم[١٨٤١]، وابن بطة[١٨٤٢]، وابن الحنبلي[١٨٤٣]، وغيرهم.

وخالف الخوارج ذلك، فزعموا عدم إجزاء الزكاة التي تدفع إلى الأمراء بدعوى أن الأمراء لا يضعونها في مواضعها، وطالبوا بأداء الزكاة إليهم[١٨٤٤].

كما خالف في ذلك الروافض، حيث أشار ابن الحنبلي إلى ذلك بقوله: "وإخراج الصدقات واجبة في جميع ما يقع عليه الزكاة، وينبغي أن يسلمها إلى الإمام، أو يفرقها على المستحقين، وإن بعض الرافضة لا يرون ذلك، وليس من شرائطهم"[١٨٤٥]

وما تقدم ذكره هو في تقرير المسألة من جانبها العقدي، حيث قرر علماء السنة مشروعية صرف الزكاة بإعطائها لولي الأمر، أو أن يصرفها الإنسان بنفسه.

وأما تقرير المسألة في جانبها الفقهي فقد ورد في إعطاء الزكاة للإمام أدلة ومن ذلك ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة قال: "بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة"١٨٤٦.

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم–لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: ((إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ فادعُهم إلى شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ وأني رسولُ اللهِ فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ فإن هم أطاعوك لذلك

١٨٤٠ انظر أصول السنة للالكائي ١/ ١٦٨.

١٨٤١ انظر أصول السنة للالكائي ١/ ١٨٠.

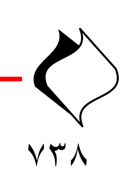
١٨٤٢ انظر شرح السنة: ص٢٧٨.

١٨٤٣ انظر الواضحة لابن الحنبلي: ص: ١٠٧١.

١٨٤٤ انظر: مناظرة وهب بن منبه لبعض المتأثرين برأي الخوارج في سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٤–٤٥٥). المصدر: مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة؛ ص ٣٦.

١٨٤٥ الواضحة: ص: ١٠٧١.

١٨٤٦ صحيح مسلم (٩٨٣).



فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم صدقةً في أموالهم تُؤخذُ من أغنيائِهم وتردُّ على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائمَ أموالِهم واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنها ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ)) [١٨٤٧].

وفيهما دلالة على مشروعية بعث ولي الأمر العمال لأخذ الصدقة وجبايتها من الناس، وإذا بعث ولي الأمر السعاة لأخذ الزكاة يتم دفعها إليهم وبذلك برأت ذمة الإنسان بدفعها للسعاة الذين يبعثهم ولي الأمر.

ولو كان بإمكانه دفعها إلى الإمام وتفريقها بنفسه فقد اختلف الفقهاء في ذلك:

فذهب مالك وأبو حنيفة وأبو عبيد، وهو القديم من قولي الشافعي، إلى التفريق بين الأموال الظاهرة، وهي الزروع، والمواشي، والمعادن، ونحوها، وبين الأموال الباطنة وهي الذهب والفضة والتجارات.

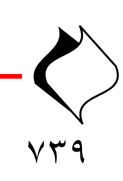
فأما الظاهرة فيجب دفعها إلى الإمام، لأن أبا بكر طالبهم بالزكاة وقاتلهم عليها، ووافقه الصحابة على هذا، فليس للمزكي إخراجها بنفسه، حتى لقد صرح الشافعية بأنه لو أخرجها كذلك لم تجزئه. ولأن ما للإمام قبضه بحكم الولاية لا يجوز دفعه إلى المولى عليه، كولي اليتيم.

وأما زكاة الأموال الباطنة

فقال الحنفية: للإمام طلبها، وحقه ثابت في أخذ الزكاة من كل مال تجب فيه الزكاة، للآية. وما فعله عثمان رضي الله عنه أنه فوض إلى الملاك زكاة المال الباطن، فهم نوابه في ذلك، وهذا لا يسقط طلب الإمام أصلا، ولهذا لو علم أن أهل بلدة لا يؤدون زكاتهم طالبهم بها. فأما إذا لم يطلبها لم يجب الدفع إليه [١٨٤٨].

١٨٤٧ صحيح البخاري (٧٣٧٢)، وصحيح مسلم (١٩).

١٨٤٨ المغني: ٢/ ٦٤١-٦٤٣، فتح القدير والعناية: ١/ ٤٨٧-٤٨٨، والدسوقي: ١/ ٥٠٣.



وقال المالكية والشافعية: زكاة الأموال الباطنة مفوضة لأربابها، فلرب المال أن يوصلها إلى الفقراء وسائر المستحقين بنفسه[١٨٤٩].

وذهب الحنابلة، وهو الجديد المعتمد من قولي الشافعي: إلى أن الدفع إلى الإمام غير واجب في الأموال الظاهرة والباطنة على السواء، فيجوز للمالك صرفها إلى المستحقين مباشرة، قياسا للظاهرة على الباطنة، ولأن في ذلك إيصال الحق إلى مستحقه الجائز تصرفه، فيجزئه، كما لو دفع الدين إلى غريمه مباشرة، وأخذ الإمام لها إنما هو بحكم النيابة عن مستحقها، فإذا دفعها إليهم جاز؛ لأنهم أهل رشد.

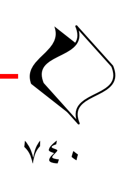
ثم قال الشافعية في الأظهر: الصرف إلى الإمام أفضل من تفريقها بنفسه؛ لأنه أعرف بالمستحقين، وأقدر على التفريق بينهم، وبه يبرأ ظاهرا وباطنا[١٨٥٠].

ثم قال الحنابلة: تفرقتها بنفسه، أولى وأفضل من دفعها إلى الإمام، لأنه إيصال للحق إلى مستحقه، فيسلم عن خطر الخيانة من الإمام أو عماله؛ ولأن فيه مباشرة تفريج كربة من يستحقها، وفيه توفير لأجر العمالة، مع تمكنه من إعطاء محاويج أقربائه، وذوي رحمه، وصلتهم بها، إلا أنه إن لم يثق بأمانة نفسه فالأفضل له دفعها إلى الساعي، لئلا يمنعه الشح من إخراجها.

أما لو طلب الإمام العادل الزكاة فإنه يجب الدفع إليه اتفاقًا، وسواء كان المال ظاهرا أو باطنا، والخلاف في استحقاقه جمع زكاة المال الباطن لا يبيح معصيته في ذلك إن طلبه، لأن الموضع موضع اجتهاد، وأمر الإمام يرفع الخلاف كحكم

١٨٤٩ الدسوقي: ١/٤٣٢، الأحكام السلطانية للماوردي: ص ١١٣

١٨٥٠ المغني: ٢/ ٦٤٤، وشرح المنهاج: ٢/ ٤٢، وتحفة المحتاج: ٣/ ٣٤٤.



القاضـي، كما هو معلوم من قواعد الشـريعة. وصـرح المالكية بأن الإمام العدل إن طلبها فادعى المالك إخراجها لم يصدق ١٨٥١"١٨٥٢.

وأما دفع الزكاة إلى الأئمة الجائرين، وإلى البغاة، فإن أخذ الإمام الجائر الزكاة قهرا أجزأت عن صـاحبها. وكذا إن أكره الإمام المزكي فخاف الضـرر إن لم يدفعها إليه.

واختلف الفقهاء فيمن كان قادرا على الامتناع عن دفعها إلى الإمام الجائر، أو على إخفاء ماله، أو إنكار وجوبها عليه، أو نحو ذلك:

فذهب الجمهور من الحنفية والمالكية إلى عدم جواز دفعها إلى الإمام حينئذ، وأنها لا تجزئ عن دافعها على التفصـيل التالي: فقال الحنفية: إذا أخذ الخوارج والسـلاطين الجائرون زكاة الأموال الظاهرة كزكاة السوائم والزروع وما يأخذه العاشـر، فإن صـرفوه في مصـارفه المشـروعة فلا إعادة على المزكي، وإلا فعلى المزكي فيما بينه وبين الله تعالى إعادة إخراجها.

وفي حالة كون الآخذ لها البغاة ليس للإمام أن يطالب أصـحاب الأموال بها؛ لأنه لم يحمهم من البغاة، والجباية بالحماية، ويفتى البغاة بأن يعيدوا ما أخذوه من الزكاة.

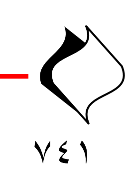
وأما الأموال الباطنة فلا يصح دفعها إلى السلطان الجائر[١٨٥٣].

وقال المالكية: إن دفعها إلى السلطان الجائر اختيارا، فدفعها السلطان لمستحقها أجزأت عنه، وإلا لم تجزئه. فإن طلبها الجائر فعلى ربها جحدها والهرب بها ما أمكن، فإن أكرهه جاز. وهذا إن كان جائرا في أخذها أو صرفها، وسواء كانت من الأموال

١٨٥١ الدسوقي: ١/ ٥٠٣.

١٨٥٢ المصدر: الموسوعة الكويتية (٢٤/ ٣٦٨-٣٦٩).

١٨٥٣ فتح القدير ١/ ٥١٢، وحاشية ابن عابدين: ٢/ ٢٤، والفتاوى الهندية: ١/ ١٩٠.



الظاهرة أو الباطنة. أما إن كان عادلا فيها وجائرا في غيرها، فيجوز الدفع إليه مع الكراهة[١٨٥٤].

أما الشافعية فذهبوا إلى أنه إن طلب الإمام الجائر زكاة المال الباطن، فصرفها إليه أفضل، وكذا زكاة المال الظاهر سواء لم يطلبها أو طلبها، وفي التحفة إن طلبها وجب الدفع إليه[١٨٥٥].

وذهب الحنابلة إلى أن دفع الزكاة إلى الإمام الجائر والبغاة والخوارج إذا غلبوا على البلد جائز سواء كانت من الأموال الظاهرة أو الباطنة. ويبرأ المزكي بدفعها إليهم، سواء صرفها الإمام في مصارفها أو لا. واحتجوا بما ورد في ذلك عن بعض الصحابة، منهم سعد بن أبي وقاص وجابر وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم[١٨٥٦]"[١٨٥٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن كان الإمام ظالماً لا يصرفه في مصارفه الشرعية، فينبغي لصاحبه ألا يدفع الزكاة إليه، بل يصرفها هو إلى مستحقها"[١٨٥٨]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٨٤] "واعلم أن أول الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله".

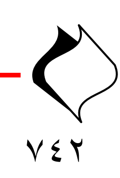
١٨٥٤ الشرح الكبير وحاشية الدسوقي: ١/ ٥٠٢-٥٠٤.

١٨٥٥ القليوبي:٢/ ٤٢-٤٣، وتحفة المحتاج: ٣/ ٣٤٤، ومغني المحتاج: ١/ ٤١٤.

١٨٥٦ شرح منتهى الإرادات: ١/ ٤١٩، والمغني: ٢/ ٦٤٤.

١٨٥٧ المصدر: الموسوعة الكويتية (٢٤/ ٣٧٠).

١٨٥٨ مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٨١.



الشرح

فأول ما يدخل به المرء إلى الإسلام هو النطق بالشهادتين فيُطالب بأن ينطق بالشهادتين فينطقها ويُفهم بمعناها ثم يُشرح له بقية فرائض الإسلام،

وقد دَلت السنة النبوية، وإجماع أهلها، على أن من قال كلمة الشهادة فقد دخل في الإسلام، واستدلوا بأدلة كثيرة، منها :

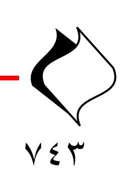
١-حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول اللهِ، فَإِذَا فَعَلوا ذَلِكَ فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"[١٨٥٩]

٢-حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمر أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله)[١٨٦٠]

٣-وفي الحديث الصحيح الذي يرويه عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: (إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ فادعُهم إلى شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ وأني رسولُ اللهِ، فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوك لذلك فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم صدقةً في أموالهم تُؤخذُ من

١٨٥٩ رواه مسلم في" صحيحه"، كتاب الفضائل، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (١٨٥٠/٤ (برقم:٢٤٠) ؛ والنسائي في "السنن الكبرى" كتاب السير، باب بما يأمره الإمام إذا دفعها إليه٨/ ١٧، برقم ٨٥٩٤.

١٨٦٠ متفق عليه، رواه البخاري في" صحيحه"، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩/ ٣٩) برقم: (٧٢٨٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب" :الأمر بقتال الناس حتى يقولوا :لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٥١) برقم: (٢٠).



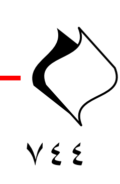
أغنيائِهم وتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائمَ أموالِهم واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فإنها ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ). ١٨٦١

٤ -لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللهِ بنَ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ المغِيرَةِ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: يا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لكَ بهَا عِنْدَ اللهِ، فَقالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَعْرِضُهَا عليه، وَيُعِيدُ له تِلكَ المقالَةَ حتَّى قالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ ما كَلَّمَهُمْ: هو علَى مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عَنْكَ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {ما كانَ للنبيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولو كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لهمْ أنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى في أَبِي طَالِبٍ، فَقالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهو أَعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦]). ١٨٦٢

فاتفقت الأحاديث على البدء بكلمة الشهادة، والسلف مجمعون على أنها أول واجب على المكلف، وبهذا خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم سائر الناس، من كان منهم عارفاً أو جاهلاً، وثنياً أو يهوديّاً أو نصرانياً، وقد ثبت في الأخبار والسير أن أهل اليمن الذين بعث إليهم معاذ بن جبل رضي الله عنه إذ ذاك كان

١٨٦١ متفق عليه، رواه البخاري في" صحيحه "كتاب الزكاة، باب :"أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا ٢/ ١٢٨" برقم (١٤٩٦)، ومسلم في "صحيحه"، كتاب :الإيمان، باب :"الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام:(١/ ٥٠) برقم: (١٩).

١٨٦٢ رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب: "إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله" (٢/ ٩٥) برقم:(١٣٦٠)، ومسلم في" صحيحه " كتاب الإيمان، باب" :أول الإيمان قول لا إله إلا الله" (١/ ٤٠) برقم: (٢٤).



فيهم يهود ونصارى وعبدة أوثان، وأهل خيبر الذين بعث لهم عليًا رضي الله عنه كانوا يهودًا.

وحكى الإجماع على ذلك ابن المنذر[١٨٦٣] ، وقال القرطبي: "هذا الذي عليه أئمة الفتوى، ومن قبلهم من أئمة السلف، واحتج بعضهم بما تقدم من القول في أصل الفطرة، وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة أنهم حكموا بإسلام من أسلم من جفاة العرب ممن كان يعبد الأوثان فقبلوا منهم الإقرار بالشهادتين والتزام أحكام الإسلام"[١٨٦٤]

وقال ابن منده: "ذكر ما بعث الله عز وجل به رسوله عليه السلام إلى عباده ليدعوهم إليه، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله"[١٨٦٥]

وقال ابن تيمية: "وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء المسلمين، فإنهم مجمعون على ما علم بالاضطرار من دين الرسول أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين سواء كان معطلاً أو مشركاً أو كتابياً، وبذلك يصير الكافر مسلماً، ولا يصير مسلماً بدون ذلك"[١٨٦٦]

وتبين من الأحاديث السابقة أيضا أن الحكم معلق بالقول، أي:(نطق اللسان)، وهذا محل اتفاق أيضا بين أهل السنة، ولا يحكم بإسلام الكافر إلا إذا نطق بها، ولم يخالف في ذلك إلا المرجئة"[١٨٦٧]

قال ابن تيمية: "وأما من سأل عمن اعتقد الإيمان بقلبه ولم يقر بلسانه، هل يصير مؤمناً؟ فالجواب: أما ما مع القدرة على الإقرار باللسان فإنه لا يكون مؤمناً

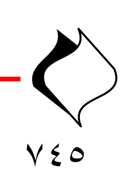
١٨٦٣ الإجماع لابن المنذر، ص: (١٣٣)، ونقل ابن تيمية الإجماع أيضًا في" :درء تعارض العقل والنقل " (١٢/ ٨).

١٨٦٤ فتح الباري، لابن حجر (١٣/ ٣٥٢) ، وهو بمعناه مطولا في المفهم للقرطبي:(١/ ١٨٢).

١٨٦٥ الإيمان، لابن منده(:١/ ١٦٢).

١٨٦٦ درء تعارض العقل والنقل: (٨/ ٧).

١٨٦٧ أصول الدين للبغدادي: (ص: ٢٦٨)، وشرح الفقه الأكبر لملا علي قاري: (ص: ٦٩-٧٠).



لا باطناً ولا ظاهراً عند السلف والأئمة وعامة طوائف القبلة، إلا جهمًا ومن قال بقوله، كالصالحي، وطائفة من المتأخرين؛ كأبي الحسن، وأتباعه، وبعض متأخري أصحاب أبي حنيفة: زعموا أن الإيمان مجرد تصديق القلب، وأن قول اللسان إنما يعتبر في أحكام الدنيا والآخرة، فيجوّزون أن يكون الرجل مؤمنًا بقلبه وهو يسبّ الأنبياء والقرآن

...وأما الأخرس فليس من شرط إيمانه نطق لسانه، والخائف لا يجب عليه النطق عند من يَخافه، بل لا بد من النطق فيما بينه وبين الله"١٨٦٨

مسألة:

فيما تقدم تبين أن قول أهل السنة والجماعة بأن النطق بالشهادتين والإقرار بهما هو أول واجب، وفي هذا رد على من زعم من أهل الكلام إن أول واجب على المكلف النظر، والنظر عندهم يسبقه شك، فيقولون: يجب على المكلف أن يجرِّد ذهنه من أي اعتقاد سابق، ثم بعد ذلك يبدأ وينظر في الأدلة حتى يكون عنده إيمان من غير تقليد، ولذلك عندهم مسألة: هل إيمان المقلِّد يصح؟ فالبعض منهم يقول: لا يصح، والبعض منهم يقول: يصح ولكنه يكون عاصيًا بترك هذا الاستدلال.

وهي مسألة من أساسها فاسدة؛ لأنه ما من أحد يفعل مثل هذا فيكون عندما بلغ سن البلوغ والتكليف جرَّد ذهنه من كل اعتقاد وبدأ ينظر في وجود الله تعالى وفي الإيمان وفي التوحيد.

يقول الجويني في كتاب الإرشاد، "مسألة باب أحكام النظر، فيقول: اعلم أن أول واجب على العاقل البالغ باستكمال سن البلوغ النظر أو القصد إلى النظر. (١٨٦٩)

فهو أوجب شيئًا ما أوجبه الله تعالى؛ ولم يوجبه رسوله—صلى الله عليه وسلم-.

١٨٦٨ جامع المسائل لابن تيمية: (٧/ ٥٩-٦١).

(١) انظر كتاب الإرشاد صفحة (٢٥).



ولذلك من المضحك أنهم يفرِّعون على هذه المسألة مسائل في الفقه؛ ويقولون: لو أن شخصًا تزوج بجارية قبل البلوغ، فما حكم العقد بعد البلوغ؟ فالبعض يفتي بوجوب تجديد العقد بعد البلوغ؛ لأن الإيمان السابق لا يعتد به وإنما الإيمان يبدأ بعد البلوغ.

قال ابن تيمية: "ومن سلك الطرق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ ثم يحدث نظرا يعلم به وجود الصانع، ولم يحتج إلى أن يبقى شاكّا مرتابا في كل شيء وإنما كان مثل هذا يعرض للجهم بن صفوان وأمثاله فإنهم ذكروا أنه بقي أربعين يوما لا يصلي حتى يثبت أن له ربّا يعبده، فهذه الحالة كثيرا ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة،"[١٨٧٠]

(المتن)

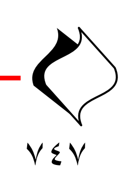
قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٨٥] "وأن ما قال الله كما قال، ولا خلف لما قال، وهو عند ما قال".

شرح

في هذا النص بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة في إثبات صفة العلم لله عز وجل، وأن علمه سبحانه سابق وأنه لا يلحقه النسيان أو الجهل، وأن قوله هو الصدق والحق بنفسه، وفي ذلك رد على ما زعمه اليهود والروافض ومن شاكلهم من زعمهم البداءة

١٨٧٠ شرح العقيدة الأصفهانية ١/ ١٨٢



على الله كما سيأتي بيانه: وقد دلت النصوص على ما ذهب إليه أهل السنة ومن تلك النصوص: أن الله سبحانه هو الحق:

قال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) [الحج: الآية: ٦٢].

قال ابن كثير عند تفسيرها: (أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه)[١٨٧١].

وكتابه الذي هو القرآن وهو كلامه –سبحانه وتعالى–حق

قال تعالى: (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) [فاطر: الآية: ٣١].

قال الطبري: " (هُوَ الْحَقُّ) يقول: هو الحق عليك وعلى أمتك أن تعمل به، وتتبع ما فيه دون غيره من الكتب التي أوحيت إلى غيرك، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) يقول تعالى ذكره: إن الله بعباده لذو علم وخبرة بما يعملون بصير بما يصلحهم من التدبير."[١٨٧٢]

وقال تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء الآية ٨٧].

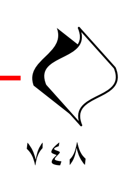
وقال الطبري عند تفسيرها: "فإن قولي الصدق الذي لا كذب فيه، ووعدي الصدق الذي لا خُلْف له"(ومن أصدق من الله حديثًا) ،"يقول: وأي ناطق أصدق من الله حديثًا"[١٨٧٣]

وقال تعالى: (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا) [النساء: الآية: ١٢٢].

١٨٧١ تفسير ابن كثير، سورة الحج ص

١٨٧٢ تفسير الطبري: تفسير سورة فاطر: ص: ٤٣٨.

١٨٧٣ تفسير الطبري: تفسير سورة النساء ص: ٩٢.



قال الطبري: "يقول: ومن أصدق، أيها الناس، من الله قيلا أي: لا أحد أصدق منه قيلا"[١٨٧٤]

وقال تعالى: (وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) [الروم: الآية: ٦] .

قال الطبري: "أي: هذا الذي أخبرناك به –يا محمد–من أنا سننصر الروم على فارس، وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة"(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل." ١٨٧٥

وقال تعالى: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [الأنعام: ٥٩] .

وقال تعالى: (لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى). [طه:٥٢.]

وقال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) [الحشر:٢٢] .

وفي السنة أحاديث كثيرة تدل على ما دلت عليه تلك الآيات

مسألة: حكم القول بالبداءة على الله.

يطلق البداء في اللغة على معنيين:

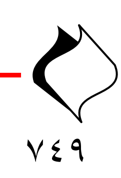
المعنى الأول: (الظهور بعد الخفاء).

يقال: بدا الشيء بُدوًّا وبداءً أي: ظهر ظهوراً بيناً.[١٨٧٦]

١٨٧٤ تفسير الطبري: تفسير سورة النساء ص: ٩٨.

١٨٧٥ تفسير الطبري: سورة الروم الآية: ٦، ص: ٤٠٥.

١٨٧٦ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص١١٣، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤/٣٠٢.



ومنه قوله تعالى:{ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون} [سورة الزمر آية: ٤٧]. "أي ظهر لهم من الله من العذاب مالم يكن في حسابهم". [١٨٧٧]

المعنى الثاني: (تغير الرأي عما كان عليه).

قال ابن فارس: "تقول بَدَا لي في هذا الأمر بَدَاءٌ: أي تغير رأيي عما كان عليه"[١٨٧٨]

وقال الجوهري: "بدا له في الأمر بَدَاءً أي: نشأ له فيه رأي" [١٨٧٩].

والبداء بمعنييه المتقدمين غير جائز على الله تعالى؛ لأنه يستلزم الجهل بالعواقب، وحدوث العلم. والله تعالى منزه عن ذلك.

قال ابن الأثير: "والبداء استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم، وذلك على الله غير جائز". [١٨٨٠]

ويفرق أهل السنة بين النسخ والبداءة الذي يقول بها الرافضة، فالنسخ يقع في الأحكام ولا يقع في الأخبار كما سبق بيان ذلك.

وفي هذا يقول الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: "فإن قال قائل: ما الفرق بين البَداء والنَّسخ؟

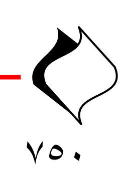
قيل له–وبالله تعالى التوفيق–: الفرق بينهما لائح، وهو أن البَداء أن يأمر بالأمر، والآمِر لا يدري ما يؤول إليه الحال، والنَّسخ: هو أن يأمر بالأمر والآمِر يدري أنه سيحيله في وقت كذا، ولا بد قد سبق ذلك في علمه وحتمه من قضائه، فلما كان هذان الوجهان معنيينِ متغايرين مختلفين، وجب ضرورة أن يعلق على كل واحد منها اسمٌ يعبَّر به عنه غيرُ اسم الآخر؛ ليقع التفاهم ويلوح الحق؛ فالبَداء ليس من صفات الباري تعالى، ولسنا نعني الباء والدال والألف، وإنما نعني المعنى الذي

١٨٧٧ انظر: تفسير ابن كثير ٤/٥٧.

١٨٧٨ معجم مقاييس اللغة ١/٢١٢.

١٨٧٩ الصحاح ١/٧٧.

١٨٨٠ النهاية ١/١٠٩.



ذكرنا من أن يأمر بالأمر لا يدري ما عاقبته، فهذا مبعد من الله عز وجل، وسواء سموه نسخًا أو بَداءً أو ما أحبوا، وأما النَّسخ فمن صفات الله تعالى من جهة أفعاله كلها، وهو القضاء بالأمر قد علم أنه سيحيله بعد مدة معلومة عنده عز وجل، كما سبق في علمه تعالى.[1881]"

وبالتالي من قال بالبداءة على الله عز وجل فذاك قد خالف السنة وخالف الحق، وهذا قول الروافض الذين يدعون أن الله عز وجل يبتدئ له القول، وأنه يغير ما يقول سبحانه وتعالى، فقوله الحق سبحانه وتعالى.

وأول من ادعى البداء على الله تعالى هم اليهود، قالوا: إن الله تعالى خلق الخلق، ولم يكن يعلم هل يكون فيهم خير أو شر، وهل تكون أفعالهم حسنة أم قبيحة، فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح السادس من التوراة ما نصه: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه جداً فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته لأني حزنت أني عملتهم)١٨٨٢

وعقيدة البداء هي محل إجماع الرافضة، كما نقل إجماعهم عليها إمامهم المفيد[1883] وصرح بمخالفة الرافضة فيها لسائر الفرق الإسلامية.

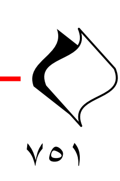
وقال: "واتفقوا (أي الإمامية) على إطلاق لفظ البداء في وصف الله تعالى، وإن كان ذلك من جهة السمع دون القياس... وأجمعت المعتزلة، والخوارج، والزيدية، والمرجئة، وأصحاب الحديث، على خلاف الإمامية في جميع ما عددناه" [1884].

١٨٨١ الإحكام في أصول الأحكام: ٤ /٤٧١.

١٨٨٢ ((الكتاب المقدس))، الإصحاح السادس، سفر التكوين.

١٨٨٣ (هو: محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالمفيد المتوفى عام ٤١٣هـ. قال عنه الطوسي: «انتهت إليه رياسة الإمامية في وقته» الفهرست للطوسي ص١٩٠. وقال عنه يوسف البحراني: «من أجل مشايخ الشيعة ورئيسهم وأستاذهم». لؤلؤة البحرين ص٣٥٨).

١٨٨٤ أوائل المقالات ص٤٨،٤٩.



وعقيدة البداء عند الرافضة، من أعظم ما شنع به الناس عليهم، ولذا حاول بعضهم التخلص من هذه الفضيحة بتأول معنى البداء على الله بأنه لا يستلزم الجهل، وأنه نسخ في التكوين كالنسخ في التشريع.[١٨٨٥]

لكن أنى لهم ذلك وقد جاء في كتبهم، وعلى ألسنة علمائهم نسبة الجهل وحدوث العلم صراحة لله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

جاء في تفسير العياشي[١٨٨٦]-وهو من أشهر كتب التفسير عندهم-عن أبي جعفر أنه قال في تفسير قوله تعالى:{وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة}[البقرة ٥١]. قال: "كان في العلم والتقدير ثلاثين ليله، ثم بدا لله فزاد عشراً فتم ميقات ربه الأول والآخر أربعين ليلة"[١٨٨٧]

فتأمل قولهم: "كان في العلم والتقدير" لتعلم نسبتهم حدوث العلم صراحة لله تعالى.

ومن الروايات الصريحة أيضاً في ذلك ما رواه إمامهم الملقب بالصدوق[١٨٨٨] ونسبه إلى جعفر الصادق -وهو من ذلك برئ-، أنه قال :"ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل ابني"[١٨٨٩].

١٨٨٥انظر: حق اليقين في مفرق أصول الدين لعبد الله شبّر ٧٨/١.

١٨٨٦ العياشي: هو محمد بن مسعود بن عياش. وصفه الطوسي بقوله":كان أكثر أهل المشرق علماً وفضلاً وأدباً وفهماً ونبلاً في زمانه". رجال الطوسي ص٤٩٧.

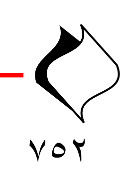
وقال عنه المجلسي: "من عيون هذه الطائفة ورئيسها وكبيرها، مقدمة بحار الأنوار ص١٣٠.

وقال الطباطبائي في تفسيره: "إن من أحسن ما ورثناه من ذلك (أي: علم التفسير) كتاب التفسير المنسوب إلى شيخنا العياشي" مقدمة تفسير العياشي ٤/١).

١٨٨٧ تفسير العياشي: (١/ ٤٤).

١٨٨٨ هو: محمد بن علي بن الحسين بن موسى الملقب بالصدوق، المتوفى:٣٨١هـ .قال عنه المجلسي: «أمره في العلم والفهم، والثقافة، والفقاهة، والجلالة، الوثاقة، وكثرة التصنيف، وجودة التأليف، فوق أن تحيطه الأقلام...» مقدمة بحار الأنوار ص٦

١٨٨٩ كمال الدين وتمام النعمة ٦٩.



قال الصدوق في تفسيره :"يقول ما ظهر لله أمر كما ظهر له في إسماعيل ابني إذ اخترمه في حياتي.." [١٨٩٠]

وكما دلت هذه الروايات في كتبهم على نسبة الجهل لله تعالى، فقد دلت على ذلك أقوال علمائهم المتقدمين والمعاصرين.

يقول الطوسي[١٨٩١] الملقب عندهم (بشيخ الطائفة) معللاً ما جاء في كتبهم من الروايات التي وقتت خروج المهدي عندهم، ثم افتضاح كذبهم بعدم خروجه في الزمن الذي حددوه: "فالوجه في هذه الأخبار أن تقول إن صحت: أنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى قد وقّت هذا الأمر في الأوقات التي ذكرت، فلما تجدد ما تجدد، تغيرت المصلحة واقتضت تأخيره إلى وقت آخر وكذلك فيما بعد" [١٨٩٢].

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٨٦] "والإيمان بالشرائع كلها".

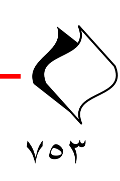
الشرح

قول المصنف يحتمل ثلاثة احتمالات:

١٨٩٠ كمال الدين وتمام النعمة ٦٩.

١٨٩١ (هو: محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى ٤٦٠هـ .قال عنه الحلي: "شيخ الإمامية–قدس الله روحه–رئيس الطائفة جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة عين صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقه..." رجال الحلي ص١٤٨.)

١٨٩٢ الغيبة ص٢٦٣.



الاحتمال الأول: أن يراد بالشرائع شرائع الأنبياء عمومًا كما قال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) [المائدة: الآية: ٤٨].

وقال الحافظ ابن حجر: "وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: سَبِيلًا وَسُنَّةً... قوله: "وقال ابن عباس"، وصل هذا التعليق عبد الرزاق في تفسيره بسند صحيح. والمنهاج: السبيل: أي: الطريق الواضح. والشرعة والشريعة بمعنى، وقد شرع أي: سن، فعلى هذا فيه لف ونشر غير مرتب "[١٨٩٣].

الاحتمال الثاني: أن يراد بها شرائع الدين الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم.

الاحتمال الثالث: أن يراد بالعبارة الأمرين جميعًا.

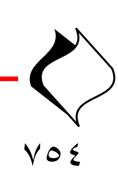
والمسلم مأمور بأن يؤمن بالرسل جميعًا وبكل ما جاؤا به على وجه العموم، قال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) [البقرة، الآية: ٢٨٥].

ومأمور بأن يؤمن بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على وجه التحديد، قال تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ) [الحشر: الآية: ٧].

ويمكن تقسيم الشرائع ثلاثة أنواع:

النوع الأول: شريعة منزَّلة: وهي ما جاءت به الرسل من الكتاب والحكمة، وهي السنة.

١٨٩٣ فتح الباري (١ /٩٤-٩٩، طيبة)



النوع الثاني: شريعة مؤوَّلة: وهي الاجتهاد المشروع على وَفْق النصوص والأصول التي جاءت بها الرسالات، وهذه الأصول هي في شريعتنا أصول الفقه المستفادَة من تصرفات الشارع في أحكامه، وتصرفات العرب في كلامها.

النوع الثالث: شريعة مبدَّلة: وهي الشرائع المكافِحة لما جاءت به الرسالة؛ كشرائع ملزِمة وقانون عام مبدَّل وُضع للناس بديلًا ملزِمًا عما أنزل الله"[١٨٩٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فدين الأنبياء واحد؛ وهو دين الإسلام، كلُّهم مسلمون مؤمنون، كما قد بيَّن الله في غير موضع من القرآن، لكن بعض الشرائع تتنوَّع؛ فقد يُشرّع في وقتٍ أمرًا لحكمة، ثم يشرع في وقت آخر أمرًا آخر لحكمة؛ كما شرع في أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة؛ فتنوعت الشريعة والدين واحدُ، وكان استقبال الشام ذلك الوقت من دين الإسلام، وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام، ثم لما نسخ صار دينُ الإسلام هو الناسخَ، وهو الصلاة إلى الكعبة، فمن تمسَّك بالمنسوخ دون الناسخ، فليس هو على دين الإسلام، ولا هو متبع لأحد من الأنبياء"[١٨٩٥].

يقول شيخ الإسلام: "ومَن بدَّل شرع الأنبياء وابتدع شرعًا، فشرعُه باطل لا يجوز اتِّباعه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ولهذا كفر اليهود والنصارى؛ لأنهم تمسكوا بشرع مبدَّل منسوخ"؛[١٨٩٦]

وقال أيضًا: "ومعلوم أن من أسقط الأمرَ والنهي الذي بعث الله به رسلَه، فهو كافر باتِّفاق المسلمين واليهود والنصارى"[١٨٩٧]

١٨٩٤ انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٨)، و (٣٥/ ٣٩٥-٣٩٦).

١٨٩٥ مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٦٤ – ٣٦٥).

١٨٩٦ مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٦٥).

١٨٩٧ مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٦).

وأما المســـلم، فهو يصـــدق بما أنزل الله من خبر، ويقبل ما أنزل من تكليفٍ ويلتزمه دون ما ســـواه، واثقًا مُطمئِنًّا لحكم ربه وشـــريعته، وعلمه تعالى وحِكمته، وعدله ورحمته.

وأهل السنة يؤمنون بالشرائع كلها بفرضها ونفلها وهذه الشرائع بحمد الله تعالى عُلمت وضُبطت أحكامها وبينت كما هو معلوم في كتب الفقه فهي واضحة جلية بحمد الله تعالى.

ويتفرع عن هذه المسألة هل شرع من قبلنا شرع لنا

قال محمد الأمين بن المختار الشـنقيطي: "شـرع من قبلنا إذا لم يصـرح شـرعنا بنسـخه هل هو شـرع لنا؟ وهل كان النبي صـلى الله عليه وسـلم متعبدا قبل البعثة باتباع شريعة من قبله؟ فيه روايتان:

إحداهما: أنه شرع لنا اختارها التميمي وهو قول الحنفية.

الثانية: ليس شرعا لنا، وعن الشافعي كالمذهبين.

اعلم أولًا كونه متعبدا بعد البعثة بشـــرع من قبلنا أو غير متعبد به متفرع على الاختلاف في شـرع من قبلنا، فعلى أنه شـرع لنا بعد وروده في شـرعنا فهو مُتَعَبِّدٌ به وعلى العكس فلا.

وحاصـل ما ذكره المؤلف في هذا الأصـل أن فيه قولين، ورجح أنه شـرع لنا إن ثبت بشرعنا أنه كان شرعًا لمن قبلنا ولم ينسخ في شرعنا، وهو مشهور مذهب مالك وأبي حنيفة.

ومشهور مذهب الشافعي: أنه ليس شرعا لنا.

وحاصل تحرير هذه المسألة أن لها واسطة وطرفين:

طرف يكون فيه شرعًا إجماعًا.

وطرف يكون فيه غير شرع لنا إجماعًا.



وواسطة هي محل الخلاف المذكور.

– أما الطرف الذي يكون فيه شرعا لنا إجماعا فهو ما ثبت بشرعنا أنه كان شرعا لمن قبلنا ثم ثبت بشرعنا أنه شرع لنا كالقصاص فإنه ثبت بشرعنا أنه كان شرعا لمن قبلنا في قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} ٢. ثم صرح لنا في شرعنا بأنه شرع لنا في قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} ٣.

– أما الطرف الثاني الذي يكون فيه غير شرع لنا إجماعا فهو أمران:

أحدهما: ما لم يثبت بشرعنا أصلا كالمأخوذ من الإسرائيليات.

الثاني: ما ثبت بشرعنا أنه كان شرعًا لهم وصرح في شرعنا بنسخه كالأصر والأغلال التي كانت عليهم كما في قوله تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}.

وقد ثبت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ: {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}. ((قال –الله– قد فعلت))٣

الواسطة هي ما ثبت بشرعنا أنه شرع لمن قبلنا ولم يصرح بنسخه في شرعنا.

وحجة الجمهور أنه ما ذكر لنا في شرعنا إلا لنعمل به سواء علينا أكان شرعا لمن قبلنا أم لا.

وقد دلت على ذلك آيات كثيرة: كتوبيخه تعالى لمن لم يعقل وقائع الأمم الماضية كما في قوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}

وقد صرح تعالى بأن الحكمة في قص أخبارهم إنما هي الاعتبار بأحوالهم في قوله تعالى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)، وقال تعالى: (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده).

وحجة الشافعي رحمه الله قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وحمل رحمه الله الهدى في قوله تعالى: (فبهداهم اقتده)، والدين في قوله تعالى: (شرع لكم من الدين) الآية، على خصوص التوحيد دون فروعه العملية، وقال: إن الخطاب الخاص به صلى الله عليه وسلم في نحو قوله: (فبهداهم اقتده)، لا يشمل حكمه الأمة إلا بدليل منفصل لأنه لا يشملها في الوضع اللغوي فإدخالها فيه صرف للفظ اللغوي عن ظاهره فيحتاج إلى دليله.

وأجيب عن استدلال الشافعي بأن النصوص دالة على شمول الهدى والدين في الآيتين للأمور العملية"[١٨٩٨]

(المتن)

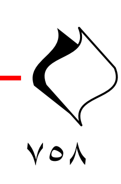
قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٨٧] "واعلم أن الشراء والبيع ما بيع في أسواق المسلمين حلال ما بيع على حكم الكتاب والإسلام والسنة، من غير أن يدخله تغيير أو ظلم أو جور أو خلاف للقرآن أو خلاف للعلم."

الشرح

قال تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة: الآية: ٢٧٥]

١٨٩٨ مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر، ص: ١٦١-١٦٢.



ومن ضمن ذلك ما يكون من الشراء والبيع فهذا الشراء وهذا البيع هو بضوابطه الشرعية، فمتى كان بضوابطه الشرعية من غير أن يدخله نوع تغيير أو ظلم أو جور أو خلاف ما جاءت به النصوص فهو أمر حلال.

أما إذا دخله أمرٌ من الأمور من غشٍ أو من سوء معاملة ونحو ذلك فعند ذلك ينتقل من الحِل إلى الحرمة.

وقد قرر أهل السنة في عقائدهم إباحة المكاسب والطيبات خلافًا لليهود ومن سلك مسلكهم من الرافضة، والمعتزلة، والمتصوفة، وطائفة من مصنفي الفقهاء كما سيأتي.

قال ابن بطة: "ولا تحرم شيئًا مما أحله الله فإن فاعل ذلك مفتر على الله، راد لقوله معتد ظالم،... ثم إن الروافض تشبهت باليهود في تحريم ما أحل الله... وحرموا الجري[١٨٩٩] ولحم الجزور"[١٩٠٠]

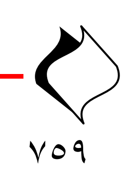
وقال أبو عمرو الداني: "وأكل الحلال فريضة، لقوله-تعالى-: (كلوا من الطيبات) وتجنب الشبهات واتقاؤها من كمال الورع، وفي ذلك السلامة من الحرام لقوله صلى الله عليه وسلم: «من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»[١٩٠١]، والحلال موجود وغير معدوم، قال الله-تعالى-: (وأحل الله البيع وحرم الربا» وقال: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)، والتجارة رزق من رزق الله، وحلال من حلال الله تعالى، ولو كان الحلال معدومًا على ما يزعمه بعض المعتزلة لصار الحرام مباحًا للضرورة"[١٩٠٢].

١٨٩٩ قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ١٥٣) الجريُ ضرب من السمك لا يأكله اليهود.

١٩٠٠ الإبانة الصغرى: ص: ٢٩٢.

١٩٠١ أخرجه البخاري (٥٢)، وأخرجه مسلم (١٥٩٩).

١٩٠٢ الرسالة الوافية ص: (١٤٥-١٤٦).



وقال قوام السنة الأصفهاني: "والشراء والبيع حلال إلى يوم القيامة على حكم الكتاب والسنة"[١٩٠٣]

وهذا كذلك فيه ردٌّ على زعم بعض المتصوفة بوجوب ترك التجارة والمكاسب والزهد في الدنيا والانقطاع عنها، ومعلوم أن هناك فارق بين قول أهل السنة في الزهد وبين قول هؤلاء المتصوفة الذين انحرفوا في هذا الباب؛ إذ زعموا أن الزهد في الدنيا هو الانقطاع عنها، وزعموا كذلك أن الاشتغال بالتكسُّب والتجارة كله حرام، وزعموا أن هذه الأموال أموالٌ محرمة.

قال تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة ٢٧٥].

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: "كسبٌ فيه بعضُ الدنيّة خيرٌ من الحاجةِ بين الناس"[١٩٠٤]

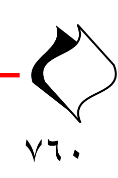
وبَيَّنَ ابنُ خفيف رحمه الله معتقد أهل السنة في ذلك، فقال: «ومما نعتقده أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرم الله الغش والظلم، وأن من قال بتحريم تلك المكاسب فهو ضالٌ مضلٌّ مبتدع»، وهذا الأمر يوجد في أفهام الصوفية، ويروِّجون له؛ بزعم أن الاشتغال بالتكسب وبالتجارة مما حرمه الله.

وقال ابن خفيف: «إذ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصناعات بشيء، وإنما حرم الله ورسوله الفساد لا الكسب والتجارات، فإنها على أصل الكتاب والسنة جائزة إلى يوم القيامة، وإن مما نعتقد أن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات»[١٩٠٥]، يعني: يجعل الخلقَ ممنوعين من الوصول إلى ذلك.

١٩٠٣ الحجة ٢/ ٣٦٦.

١٩٠٤ انظر كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية الجزء الثالث، صفحة (٢٧٧).

١٩٠٥ الفتوى الحموية الكبرى: ص: ٤٥٨.



وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل نقل عن بعض السلف من الفقهاء أنه قال: أكل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان.

فكان من جوابه: "هذا القائل الذي قال: أكل الحلال متعذر، لا يمكن وجوده في هذا الزمان غالط مخطئ في قوله باتفاق أئمة الإسلام، فإن مثل هذه المقالة كان يقولها بعض أهل البدع، وبعض أهل الفقه الفاسد، وبعض أهل النسك الفاسد، فأنكر الأئمة ذلك، حتى الإمام أحمد في ورعه المشهور كان ينكر مثل هذه المقالة[١٩٠٦].

إلى أن قال: "ومثل هذا كان يقوله بعض المنتسبين إلى العلم من أهل العصر، وبناء على هذه الشبهة الفاسدة، وهو أن الحرام قد غلب على الأموال لكثرة الغصوب والعقود الفاسدة ولم يتميز الحلال من الحرام.

ووقعت مثل هذه الشبهة عند طائفة من مصنفي الفقهاء، فأفتوا بأن الإنسان لا يتناول إلا مقدار الضرورة، وطائفة لما رأت مثل هذا الحرج سدت باب الورع..."[١٩٠٧].

ويقول شارح «العقيدة الطحاوية»: "قد ظَنَّ بعضُ الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مُقَدَّرة فلا حاجة إلى الأسباب! وهذا فاسد؛ فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مُستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عُرف في موضعه. وقد كان النبي ﷺ -أفضل المتوكلين- يَلبس لَأْمَةَ الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: {مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} [الفرقان: ٧]. ولهذا تجد كثيرًا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يُرزقون على يد مَن يُعطيهم؛ إمَّا صدقة، وإمَّا هدية..."(١٩٠٨).

١٩٠٦ انظر تفصيل ذلك في كتاب الحث على التجارة للخلال.

١٩٠٧ مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣١١، ٣١٢؛ باختصار، وانظر ٢٩/ ٥٩٣.

(١٩٠٨) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص٢٧٠)، دار السلام، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

وقال ابنُ القيم: "وفي الأحاديث الصَّحيحة الأمر بالتَّداوي، وأنَّه لا يُنافي التوكل، كما لا يُنافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتمُّ حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نَصَبَها الله مقتضيات لمسبباتها قَدَرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يَقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة ويُضعفه من حيث يظنُّ مُعطلها أنَّ تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزًا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يَضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلَّا كان معطلًا للحكمة والشرع؛ فلا يجعل العبد عجزه توكلًا ولا توكله عجزًا» (١٩٠٩).

وقال ابنُ حَجَر: «المراد بالتوكل: اعتقاد ما دَلَّت عليه هذه الآية: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦]، وليس المراد به: ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين؛ لأنَّ ذلك قد يَجُرُّ إلى ضِد ما يَرَاه من التوكل، وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد، وقال: لا أعمل شيئًا حتى يَأتيني رزقي! فقال: هذا رجل جَهِل العلمَ؛ فقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي"(١٩١٠)، وقال: «لو تَوكلتم على الله حقَّ تَوكله لرزقكم كما يَرزق الطير تَغدو خماصًا، وتَروح بِطانًا» (١٩١١)، فذكر أنَّها تَغدو وتروح في طلب الرزق، قال: وكان الصحابة يَتَّجِرون ويَعملون في نَخيلهم، والقدوةُ بهم"(١٩١٢).

(١٩٠٩) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ١٥)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(١٩١٠) جزء من حديث؛ أورده البخاري تعليقًا في باب (مَا قِيل فِي الرِّمَاحِ) (٤/ ٤٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩٤٠١)، وأحمد في «المسند» (٥١١٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩). ولابن رجب الحنبلي رسالة ماتعة في شرح هذا الحديث، بعنوان: «الحِكَم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: «بُعِثتُ بالسَّيف بين يدي السَّاعة».

(١٩١١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤) من حديث عمر ﭬ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

(١٩١٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

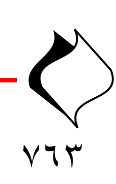
[٨٨] "واعلم – رحمك الله–أنه ينبغي للعبد أن تصحبه الشفقة أبداً ما صحب الدنيا؛ لأنه لا يدري على ما يموت، وبما يختم له، وعلى ما يلقى الله، وإن عمل كل عمل من الخير، وينبغي للرجل المسرف على نفسه أن لا يقطع رجاءه من الله تعالى عند الموت، ويحسن ظنه بالله تبارك وتعالى ويخاف ذنوبه، فإن رحمه الله فبفضل، وإن عذبه فبذنب."

الشرح

فمعلوم أن العبد المؤمن يعيش بين مقام الرجاء ومقام الخوف، فإن كان على خير فيجب أن يكون في حال شفقة ووجل، لأنه أولاً لا يدري هل هذا العمل مقبول أو مردود وهل جاء على وجهه أو لم يأت على وجهه، ومع ذلك كما قال الله تعالى عن أهل الإيمان: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}.

فهو يرجو رحمة الله عز وجل، وفي ذات الوقت مشفق، فالإنسان على هذا الحال إلى أن تأتيه غرغرة الموت، فعندما ينقطع العمل وهو مقبل إلى الله عز وجل عند ذلك يحسن الظن ويعظم جانب الرجاء، وإن كان العبد على تقصير كما قال، وينبغي للرجل المسرف على نفسه أن لا يقطع رجاءه من الله، فإذا كان على حال ذنب وعلى حال معصية عليه أن يرجو الله المغفرة الله، فلا ييأس من روح الله قال تعالى: (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف، الآية:٨٧].

فلا ييأس المؤمن من روح الله سبحانه وتعالى، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى، ولا يقنط من رحمة الله تعالى ففي مقام الذنب على الإنسان أن يرجو عفو الله تعالى لكن



ليس الأمر بالعكس كما يفعله بعض الناس، فإذا جاء فعل المعصية قال: إن الله غفور رحيم، فيجب أن تعلم أنه شديد العقاب، لكن عليه أن يراجع نفسه.

فعليه أن يستغفر وأن يتوب وأن يعلق رجاءه بالله عز وجل أن يغفر له هذا الذنب، فبعض الناس يأتيه الشيطان فيصيبه بحالة قنوط وحال يأس فيقول: إن الله لا يغفر لك، إن ذنبك عظيم، إنك فعلت كذا وكذا، وقمت بكذا وكذا حتى يسد عليه باب الرجاء، فالله سبحانه وتعالى فتح لك باب التوبة، ووعد بمغفرة الذنب فلماذا لا تتوب وترجع إلى الله سبحانه وتعالى.

فعلى الإنسان كما قال: وينبغي للرجل المسرف على نفسه أن لا يقطع رجاءه بالله تعالى عند الموت ويحسن ظنه بالله تبارك وتعالى ويخاف ذنوبه فإن رحمه الله فبفضلٍ وإن عذبه فبذنبه، لاشك أن ما دون الشرك تحت المشيئة فإن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له.

ولا شك أن المؤمن يَعيش بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}، فإن الإنسان يعيش بين المقامين إلا في حالة واحدة عند انقطاع العمل والإقبال على الله سبحانه وتعالى؛ فيُغَلِّب في هذا الحال جانب الرجاء على جانب الخوف؛ لأن العمل قد انتهى.

فلا بد أن تكون العبودية مبنية على الحب والخوف والرجاء، ومتى اختلَّ ركن من هذه الأركان اختلت العبودية، ويبعث على تحقيق العبودية أمران اثنان: مشاهدة منة الله تعالى ونعمه، ومطالعة عيوب النفس والعمل.

قال ابن القيم رحمه الله: "قال شيخ الإسلام: العارفُ يَسير إلى الله بين مشاهدة المِنَّة ومطالعة عيب النَّفس والعمل، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصَّحيح من حديث شَدَّاد بن أوس رضي الله تعالى عنه: ((سَيِّدُ الاستغفار أن يَقول العبدُ: اللهم أنتَ ربِّي لا إله الا أنت، خَلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك مِن شَرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لَكَ بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ إنَّه لا

يَغفر الذنوب إلا أنت)) (١٩١٣)، فجمع في قوله ﷺ: ((أَبُوءُ لَكَ بنعمتك عليَّ وأَبُوء بذنبي)) مشاهدةَ المِنَّة ومطالعةَ عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لوليِّ النِّعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل تُوجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسًا، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس؛ فلا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يَمُنُّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصِّرف والإفلاس المحض، دخول مَن كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه؛ فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربّه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأنَّ في كل ذَرَّة مِن ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طَرفة عين هلك وخسر خسارة لا تُجبر، إلا أن يَعود الله تعالى عليه ويَتداركه برحمته. ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حِجاب أغلظ من الدَّعوى" (١٩١٤).

ولما كان رسولنا ﷺ أحسن افتقارًا إلى الله كان أتم الخلق عبودية له عز وجل.

وهذا حال الأئمة والصالحين، وقد قال ابن القيم عن افتقار شيخه ابن تيمية لربّه: «ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية قَدَّس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء».″(١٩١٥).

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

(١٩١٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(١٩١٤) «الوابل الصيب» (ص٧، ٨).

(١٩١٥) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٠، ٥٢١).



[٨٩] "والإيمان بأن الله تبارك وتعالى أطلع نبيه على ما يكون في أمته إلى يوم القيامة".

الشرح

الغيب نوعان:

النوع الأول: غيب مطلق، كمعرفة موعد الساعة، ونزول الغيث، ونحو ذلك؛ وهذا النوع لا يعلمه إلا الله.

قال الله تعالى: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون}،

وقال تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}،

وقال الله تعالى: {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير}،

وقال تعالى: {قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون}،

وقال تعالى: {قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين}، إلى غير هذا من الآيات التي تدل على أن الله سبحانه استأثر بهذا النوع من علم الغيب.

وروى البخاري في صحيحه[١٩١٦] من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير"، وذكر مسلم حديث عمر بن الخطاب الذي فيه: أن جبريل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم سأله عن الساعة، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله: (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير)"[١٩١٧]

النوع الثاني: غيب نسبي، وهو ما غاب عن بعض الخلق عِلْمُه، وبلغ بعضَهم، فهذا إنما يسمى غيبا بالنسبة للجاهل به الذي لا يعلمه، وليس بغيب للذي يعلمه.

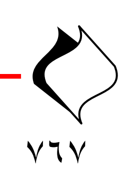
وهذا الغيب النسبي يمكن للإنسان أن يعرفه إما بطريق الوحي، أو بالتجربة، أو بالعلم الحديث، أو غير ذلك مما يمكن به الاستعلام عما يخفى على كثير من الناس بالطرق الممكنة، كمعرفة ما في قعر البحار، وأغوار الأرض، وأجواء السماء.

قال ابن تيمية: "وأما ما يعلمه بعض المخلوقين: فهو غيب عمن لم يعلمه، وهو شهادة لمن علمه" [١٩١٨]

١٩١٦ صحيح البخاري (٤٦٢٧).

١٩١٧ أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١٩١٨ "النبوات " (٢/ ١٠٢٢).



أما قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) [الجن، الآية:٢٦-٢٧].

فقد قال ابن كثير: "وقوله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) هذه كقوله تعالى: (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) [البقرة: ٢٥٥]، وهكذا قال ها هنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطَّلِع أحدٌ من خلقه على شيء من علمه، إلا مما أطلعه تعالى عليه؛ ولهذا قال: (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول)، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري"[١٩١٩]

قال ابن عاشور: "يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس.

فيعلم من هذا الإيمان: أن الغيب الذي يطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة، وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه، أو أن يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة، كقوله تعالى: (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) [الروم ٢-٤]

والمراد بهذا: الاطلاع المحقق، المفيد علمًا، كعلم المشاهدة" ١٩٢٠

وقد خصص القاضي عياض لهذا الأمر فصلًا، ثم قال: "والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل الينا خبرها على التواتر..." [١٩٢١]

والجمهور على أن هذا الإخبار بالمغيبات يعد من جملة معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، ووجها من وجوه إعجاز الكتاب الذي جاء به.

١٩١٩ "تفسير ابن كثير" (٨/ ٢٤٧).

١٩٢٠ "التحرير والتنوير"(٢٩/ ٢٤٨).

١٩٢١ (الشفا، ١/ ٣٣٥).



قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) [الجن، الآية:٢٦-٢٧].

وهذا الغيب المستثنى هو بعض لا كله، قال أبو السعود: «... أي فلا يطلع على غيبه اطلاعا كاملا ينكشف به جلية الحال انكشافا تاما موجبا لعين اليقين أحدا من خلقه (إلا من ارتضى من رسول)، أي إلا رسولا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته»[١٩٢٢]

وكذلك قال القاضي ابن عطية: (إلا من ارتضى من رسول) معناه فإنه بظهره على من شاء مما هو قليل من كثير»[١٩٢٣].

وهو هذا الغيب الذي اطلع عليه الرسول الكريم هو الذي له تعلق بالرسالة ليبين للناس دينهم، وليكون له ذلك أيضا معجزة.

والنبي الكريم ينفي عن نفسه علم جميع الغيب، وكذلك علّمه الله أن يقول: (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الاعراف،١٨٨)

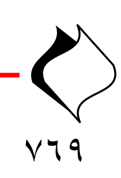
قال ابن كثير في تفسيره: "أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه"[١٩٢٤].

وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأدب، فقال حين اختصم إليه رجلان: ((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من

١٩٢٢ (إرشاد العقل السليم، ٥/٢٠٢).

١٩٢٣ (في المحرر الوجيز)

١٩٢٤ تفسير ابن كثير: (٣/ ١٨٨).



بعض، فاقتضي له على نحو ما اسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار)) [١٩٢٥].

وعلق الحافظ ابن عبد البر على هذا قائلا: "في هذا الحديث من الفقه أن البشر لا يعلمون ما غيب عنهم وستر من الضمائر وغيرها لأنه قال صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: ((إنما أنا بشر)) أي إني من البشر ولا أدري باطن ما تتحاكمون فيه عندي وتختصمون إليّ وإنما أقضي بينكم على ظاهر ما تقولون وتدلون به من الحجاج وإنما يعلم الأنبياء من الغيب ما أعلموا به بوجه من وجوه الوحي" [١٩٢٦]

ولذلك حين سمع النبي صلى الله عليه وسلم جواري يضربن بالدف، في يوم عرس، وقالت إحداهن فينا نبي يعلم ما في غد. قال لها: ((دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين)) [١٩٢٧]

قال ابن حجر: "إنما أنكر عليها ما ذكر من الإطراء حين أطلق علم الغيب له، وهو صفة تختص بالله تعالى (قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله) [النمل:٦٥]" [١٩٢٨].

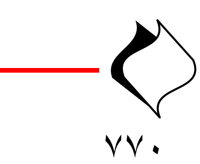
وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأمور كثيرة من أمور الغيب كأشراط الساعة، والفتن التي ستقع بعده، ووصف الجنة والنار، ومن ذلك ما سيقع من اختلاف أمته وافتراقها كما سيأتي في كلام المصنف، وكل هذا من الغيب الذي أطلعه الله عليه.

١٩٢٥ صحيح البخاري: (٧١٦٩).

١٩٢٦ (التمهيد،٢٢/٢١٦).

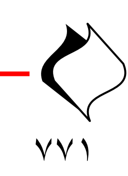
١٩٢٧ (صحيح البخاري) (٥١٤٧).

١٩٢٨ فتح الباري: (١٠/١٧٤).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:



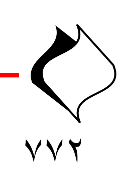
[٩٠] "واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي» ".(١٩٢٩)

وهكذا كان الدين إلى خلافة عمر، وهكذا كان في زمن عثمان رضي الله عنه، فلما قتل عثمان جاء الاختلاف والبدع، وصار الناس أحزابا وصاروا فرقا، فمن الناس من ثبت على الحق عند أول التغيير، وقال به ودعا الناس إليه.

فكان الأمر مستقيماً حتى كانت الطبقة الرابعة في خلافة بني فلان انقلب الزمان وتغير الناس جدًا، وفشت البدع، وكثرت الدعاة إلى غير سبيل الحق والجماعة، ووقعت المحن في شيء لم يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابه، ودعوا إلى الفرقة، ونهى رسول الله عن الفرقة، وكفر بعضهم بعضا، وكل داع إلى رأيه، وإلى تكفير من خالفه فضل الجهال والرعاع ومن لا علم له، وأطمعوا الناس في شيء من أمر الدنيا وخوفوهم عقاب الدنيا، فاتبعهم الخلق على خوف في دنياهم ورغبة في دنياهم، فصارت السنة وأهلها مكتومين.

وظهرت البدعة وفشت، وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتى، ووضعوا القياس، وحملوا قدرة الرب في آياته وأحكامه وأمره ونهيه على عقولهم وآرائهم، فما وافق عقولهم قبلوه وما لم يوافق عقولهم ردوه، فصار الإسلام غريبا، والسنة غريبة، وأهل السنة غرباء في جوف ديارهم".

١٩٢٩ انظر: سنن أبي داود برقم (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) وقال عقبه: حديث أبي هريرة حديثٌ حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٩١) والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ المكثرين من الصحابة (٨٣٩٦)، وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة(٤٠٢). وصححه الحاكم (١ / ١٢٨) بل قال: إنه حديث كبير في الأصول، وحسنه ابن حجر في "تخريج الكشاف" (٦٣)، وصححه ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٣ / ٣٤٥)، والشاطبي في "الاعتصام" (١ / ٤٣٠)، والعراقي في "تخريج الإحياء" (٣ / ١٩٩) وتوارد على ذكره والاستشهاد به أهل العلم في كتب السنة، وقد ورد عن جماعة من الصحابة بطرق كثيرة، أكثرها وأصحها على تحديد عدد الفرق بثلاث وسبعين فرقة.



الشرح

أطلع الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على أمورٍ من حال هذه الأمة، ومن ذلك أن الله تعالى زوى له الأرض وأطلعه صلى الله عليه وسلم على ما يبلغه ملك هذه الأمة من هذه الأرض، فعن ثوبان مولى سول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ اللهَ زَوى لي الأرضَ. أو قالَ: إن ربِّي زوى لي الأرضَ، فرأيْتُ مشارقَها ومغاربَها، وإن مُلكَ أمتي سيبلغُ ما زُوِيَ لي منها، وأعطيْتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ))[١٩٣٠]

وكذلك مما أطلع الله عز وجل نبيه ما يكون من حال الافتراق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، قيل يا رسول الله من هم؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) (١٩٣١)، أو من كان على مثل أنا عليه اليوم وأصحابي.

التفرق والاختلاف في هذه الأمة واقع لا محالة، يشهد له التاريخ، وتشهد له نصوصٌ من سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

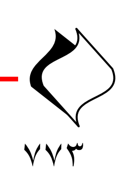
فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهُ مَن يَعِشْ مِنكُم بَعدِي فَسَيَرَى اختِلاَفًا كَثِيرًا)[١٩٣٢]

فهذا الافتراق أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيقع في الأمة، والعلماء تكلموا في هذا الحديث من جهة معناه، فقيل هنا: هل هذا الافتراق للأمة هي أمة الإجابة أو أمة الدعوة؟

١٩٣٠ أخرجه أبو داود في سننه (٤٢٥٢)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (صحيح).

١٩٣١ تقدم تخريجه.

١٩٣٢ رواه أبو داود (٤٠٦٧)، وصححه الألباني في " صحيح أبي داود"



والمقصود بأمة الدعوة: هم كل من كان مبعوثًا إليهم نبي أو رسول آمنوا به أم لم يؤمنوا. فيدخل في (الأمة)-على هذا الإطلاق-: المؤمن والكافر، المستجيب المهتدي والمكذب الضال المعاند.

قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ) [النحل الآية: ٣٦].

فأطلق لفظ الأمة على الفريقين.

والمقصود بأمة الإجابة: وهم الذين آمنوا بالرسول وصدقوه وأذعنوا له واتبعوا النور الذي أنزله الله معه. فلفظ الأمة على هذا الإطلاق -يدخل فيه جميع المؤمنين والمسلمين، وهو خاص بهم، فيخرج جميع من لم يؤمن بالرسول.

قال تعالى: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) [الأعراف الآية: ١٨١]

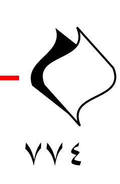
وهذا الإطلاق أخص من سابقه -كما هو ظاهر. وهذان هما المعنيان الاصطلاحيان للفظ (الأمة) على سبيل العموم.

أما إذا أضيف إلى نبينا محمد له أو أريد به ذلك فله ثلاثة معاني؛ أحدها أخص من الآخر، وهي:

الأول: أمة الاتباع: وهم أهل العمل الصالح الذين ساروا على هديه وسنته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((... إذا قيل:... أمة محمد لم يكن فيهم -من هذه الجهة- لا اتحاد ولا رفض ولا تكذيب بالقدر ولا غير ذلك من البدع، وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد ابتدع هذه البدع))[١٩٣٣]. ومن أمثلته: قوله: «لا يزال في أمتي أمة قائمة بأمر الله...) الحديث.

الثاني: أمة الإجابة: وهم مطلق المسـلمين. قال تعالى: (وكذلك جعلنكم أمة وسطًا) [البقرة: الآية ١٤٣].

١٩٣٣ مجموع الفتاوى (١٤/ ٩٢) و (٣٢/ ١٧٩).



الثالث: أمة الدعوة: وهم الإنس كافة والجن قاطبة منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى قيام الساعة. قال: (والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسل به؛ إلا كان من أصحاب النار)[١٩٣٤]. فيندرج تحت مسمى (الأمة) بهذا الإطلاق جميع أرباب الملل والنحل الذين ليسوا على قبلتنا.

وبناء على ما سبق؛ فالمعنى الأول أخص من الثاني، والثاني أخص من الثالث[١٩٣٥].

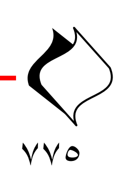
والصواب أن المقصود بها أمة الإجابة، فسيقع الافتراق في أمة الإجابة؛ وعلى هذا فالمراد بالأمة المسلمون الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتكون الفرق الثلاث والسبعون منحصرة في أهل القبلة، وإن كانت بدعة بعضها بدعة مكفرة ومخرجة من الإسلام، أو كان منهم من هو منافق في الباطن، وتكون الفرقة الناجية هي المتمسكة بالإسلام المحض الخالص الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله –: "وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة: مَن كان منهم منافقاً، فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقا بل كان مؤمنا بالله ورسوله في الباطن، لم يكن كافراً في الباطن؛ وإن أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار.

ومن قال إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة

١٩٣٤ أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، (١/ ١٣٤رقم: ١٥٣).

١٩٣٥ انظر: فتح الباري (١١/ ٤١١).



الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفَّر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضا ببعض المقالات."[١٩٣٦]

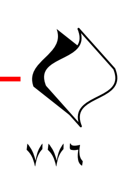
فمعلومٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم جاهد في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل حتى وصل الأمر في ذروته عند فتح مكة، ثم بعد ذلك انتشر أمر الإسلام واجتمع للنبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ما اجتمع من أمة الإسلام، وظهرت في هذا الوقت بوادر المتنبئين، مثل مسيلمة ومثل الأسود العنسي هؤلاء ظهروا بالتنبؤ وقضي عليهم، حتى إن الأسود العنسي قتل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومسيلمة قُتل بعد ذلك فهذه بدايات الفتن.

ولقد كان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان متفقين لا تنازع بينهم، وكانوا على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول.[١٩٣٧] إلى أن حدث في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه أمور أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة فقتلوا عثمان رضي الله عنه سنة (٣٥هـ)، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان، ووقعت الفتنة، وأدى ذلك إلى اقتتالهم بصفين سنة (٣٧هـ)، واتفقوا على تحكيم حكمين، فخرجت الخوارج من ذلك الحين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له: "حروراء" فكف عنهم إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، فعلم علي رضي الله عنه أنهم الطائفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلهم فهم الفرقة المارقة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "تمرق مارقة عند فُرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق".[١٩٣٨]

١٩٣٦ "مجموع الفتاوى " (٧ / ٢١٨).

١٩٣٧ منهاج السنة ٣٠٦/١.

١٩٣٨أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ١١٣/٣ ط١، دار المعرفة



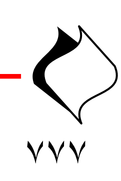
لكن بدايات الفتن الحقيقية كانت في زمن عثمان، لما قتل عثمان رضي الله عنه جاء الاختلاف والبدع، ظهر الخوارج، وظهر التشيع، وتلاه بعد ذلك ظهور القدرية وظهور الإرجاء، ثم تلاه ظهور الجهمية، هذه أكبر المقالات، الخوارج والتشيع متزامنين ثم كذلك الإرجاء والقدر متزامنين ثم الجهمية فهذه بدايات ظهور البدع.

لكن بقيت هذه البدع محصورة في أُناس، أو في طوائف، والملك والسيادة وولاية الأمر للمسلمين كانت لدى أهل السنة والغلبة لعلماء السنة.

قال ابن القيم رحمه الله: "مضى الرعيل الأول [من الصحابة] في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء، ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم، وأن لا يخرجوا عن طريقهم، فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأئمة، ومع هذا لم يفارقوه بالكلية، بل كانوا للنصوص معظمين، وبها مستدلين، ولها على العقول والآراء مقدمين، ولم يدع أحد منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص، وإنما أتوا من سوء الفهم فيها، والاستبداد بما ظهر لهم منها دون من قبلهم، ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم، فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر، ورموهم بالعظائم، وتبرؤوا منهم، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير، وكانوا لا يرون السلام عليهم ولا مجالستهم، وكلامهم فيهم معروف في كتب السنة، وهو أكثر من أن يذكر هاهنا.

فلما كثرت الجهمية في أواخر عصر التابعين كانوا هم أول من عارض الوحي بالرأي، ومع هذا كانوا قليلين أولاً مقموعين مذمومين عند الأئمة، وأولهم شيخهم الجعد بن درهم، وإنما نفق عند الناس بعض الشيء لأنه كان معلم مروان بن محمد وشيخه ولهذا كان يسمى مروان الجعدي، وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة وشتتهم في البلاد ومزقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة"[١٩٣٩]

١٩٣٩ الصواعق المرسلة ٣/١٠٦٩، ١٠٧١.



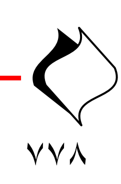
قال المصنف: **"فكان الأمر مستقيماً حتى كانت الطبقة الرابعة في خلافة بني فلان"،** يقصد في خلافة بني العباس وفي عهد المأمون تحديدًا، فلما تولى المأمون هو الذي أظهر الجهمية والمعتزلة، وأعطاهم السيادة في القضاء وفي ولاية أمور المسلمين العلمية، وبالتالي كان حرباً على علماء السنة، فامتحن الإمام أحمد، وقتل من قُتل من علماء المسلمين.

قال ابن تيمية: "الجهمية لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق، لكن قوى أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه. ثم لما تولى الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء، ودعا إلى قولهم في آخر عمره، وكتب وهو بالثغر بطرسوس إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا القرآن مخلوق، فلم يجبه أحد؛ ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه، فأجاب أكثرهم، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد، وبقي اثنان لم يجيبا: الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه؛ وكان هذا سنة ثماني عشر ومائتين". (١٩٤٠)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن تلك الحقبة الزمنية وما قبلها وما بعدها: "وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى، وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك، مثل دولة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) والرشيد (١٧٠-١٩٤هـ) ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين. كان أهل السنة في تلك الأيام أقوى وأكثر، وأهل البدع أذل وأقل. فإن المهدي قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصى عدده إلا الله، والرشيد كان كثير الغزو والحج.

وذلك أنه لما انتشرت الدولة العباسية وكان في أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «الفتنة ها هنا»؛ ظهر

١٩٤٠مجموع الفتاوى ١٣/١٨٣.



حينئذ كثير من البدع، وعربت أيضاً إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم من المجوس الفرس، والصابئين الروم، والمشركين الهنود، وكان المهدي من خيار خلفاء بني العباس، وأحسنهم إيماناً وعدلاً وجوداً، فصار يتتبع المنافقين الزنادقة كذلك.

وفي دولة "أبي العباس المأمون" ظهر "الخرمية" ونحوهم من المنافقين، وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين، وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة.

فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين، وقوى ما قوى من حال المشركين وأهل الكتاب، كان من أثر ذلك ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل الضلال وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة. وذلك بنوع رأي يحسبه صاحبه عقلاً وعدلاً، وإنما هو جهل وظلم، إذ التسوية بين المؤمن والمنافق، والمسلم والكافر أعظم الظلم، وطلب الهدى عند أهل الضلال أعظم الجهل، فتولد من ذلك محنة الجهمية، حتى امتحنت الأمة بنفي الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى، مما يطول وصفه) (١٩٤١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ثم بعد انقراض أكابر التابعين ظهرت الجهمية ثم لما عربت كتب الفرس والروم ظهر التشبه بفارس والروم وكتب الهند انتقلت بتوسط الفرس إلى المسلمين وكتب اليونان انتقلت بتوسط الروم إلى المسلمين فظهرت الملاحدة الباطنية الذين ركبوا مذهبهم من قول المجوس واليونان مع ما أظهروه من التشيع وكانت قرامطة البحرين أعظم تعطيلا وكفرا كفرهم من جنس كفر فرعون بل شر منه"١٩٤٢

وقال ابن تيمية: "وأنه بعد ذلك أواخر المائة الثانية وقبلها وبعدها اجتلبت كتب اليونان وغيرهم من الروم من بلاد النصارى وعربت وانتشر مذهب مبدلة الصابئة مثل أرسطو وذويه، ظهر في ذلك الزمان الخرمية، وهم أول القرامطة الباطنية الذين كانوا في

١٩٤١ مجموع الفتاوى ٤/٢١،٢٠.

١٩٤٢ بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٧٨).

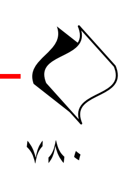
الباطن يأخذون بعض دين الصابئين المبدلين، وبعض دين المجوس، كما أخذوا عن هؤلاء كلامهم في العقل والنفس، وأخذوا عن هؤلاء كلامهم في النور والظلمة، وكسوا ذلك عبارات وتصرفوا فيه وأخرجوه إلى المسلمين، وكان من القرامطة الباطنية في الإسلام ما كان، وهم كانوا يميلون كثيرا إلى طريقة الصابئة المبدلين، وفي زمنهم صنفت رسائل إخوان الصفا، وذكر ابن سينا أن أباه كان من أهل دعوتهم من أهل دعوة المصريين منهم، وكانوا إذ ذاك قد ملكوا مصر وغلبوا عليها، قال ابن سينا وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة لكونهم كانوا يرونها، وظهر في غير هؤلاء من التجهم ما ظهر، وظهر بذلك تصديق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى ((قال فمن))[١٩٤٣].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر وذراعا بذراع)) فقيل يا رسول الله كفارس والروم قال: ((فمن الناس إلا أولئك))[١٩٤٤] ومعلوم أن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المجوس والصابئين والمشركين فكان أول ما ظهر من البدع فيه شبه من اليهود والنصارى.

والنبوة كل ما ظهر نورها انطفت البدع، وهي في أول الأمر كانت أعظم ظهورا فكان إنما يظهر من البدع ما كان أخف من غيره، كما ظهر في أواخر عصر الخلفاء الراشدين بدعة الخوارج والتشيع، ثم في أواخر عصر الصحابة ظهرت القدرية والمرجئة،

١٩٤٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لتتبعن سنن من كان قبلكم". انظر: فتح الباري (٣ ١/٣٠٥) ح ٧٣٢٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٥٧/٨).

١٩٤٤ صحيح البخاري (٧٣١٩).



ثم بعد انقراض أكابر التابعين ظهرت الجهمية، ثم لما عربت كتب الفرس والروم ظهر التشبه بفارس والروم.

وكتب الهند انتقلت بتوسط الفرس إلى المسلمين، وكتب اليونان انتقلت بتوسط الروم إلى المسلمين، فظهرت الملاحدة الباطنية الذين ركبوا مذهبهم من قول المجوس واليونان، مع ما أظهروه من التشيع، وكانت قرامطة البحرين أعظم تعطيلا وكفرا، كفرهم من جنس كفر فرعون بل شر منه"١٩٤٥.

قال الذهبي: "لما تولى المأمون الخلافة على رأس المائتين، نجم التشيع وأبدى صفحته. (وكان المأمون شيعياً)" (١٩٤٦).

فالمأمون أول من أعلن بدعة القول بخلق القرآن من السلاطين ودعا إليها بقوة السلطان، "وكان كلامه في القرآن سنة اثنتي عشرة ومائتين فأنكر الناس ذلك واضطربوا ولم ينل مقصوده ففتر إلى وقت" (١٩٤٧) "ولكنه لم يرجع عن قوله وصمم على امتحان العلماء في سنة ثمان عشرة وشدد عليهم فأخذه الله." (١٩٤٨)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما أظن أن الله يغفل عن المأمون، ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها" (١٩٤٩)

قال السيوطي: "أول من أدخل المنطق والفلسفة وسائر علوم اليونان في ملة الإسلام وأحضرها من جزيرة قبرص المأمون". (١٩٥٠)

١٩٤٥ بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤٧٨.

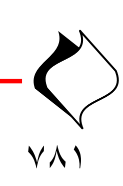
١٩٤٦ سير أعلام النبلاء ٢٨١/١٠.

١٩٤٧ سير أعلام النبلاء ٢٨١/١٠.

١٩٤٨ سير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٠، فوات الوفيات ٢٣٨/٢.

١٩٤٩ لوامع الأنوار البهية ٩/١.

١٩٥٠ الوسائل إلى مسامرة الأوائل ص١١٨.



قال ابن تيمية: "فلما ابتدعت الجهمية هذه المقالات في أثناء المائة الثَّانية أنكر ذلك سلف الأمة وأئمتها، ثم استفحل أمرهم في أوائل المائة الثالثة بسبب ما أدخلوه في شركهم وفريتهم من ولاة الأمور، وجرت المحنة المشهورة"١٩٥١

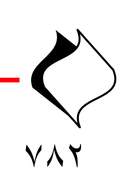
وفي هذه المرحلة قويت شوكت التعطيل واتسعت دائرته ونشط دعاته وكثرت طوائفه. فبعد أن كان خصوم أهل السنة هم الجهمية فقط، ظهر المعتزلة الذين حملوا راية التعطيل ووجهوا دفته، ودخلوا فيه بقوة هيأها لهم المأمون ومن بعده المعتصم ثم الواثق. وشايعهم على ذلك العديد من الفرق الضالة، فجمعت المعتزلة من ذلك الوقت بين بليتين "بلية نفي الصفات" و"بلية نفي القدر". وفي هذه المرحلة ظهر القرامطة، وبدؤوا يظهرون قولهم.

فكان قاضي القضاة في عهد المأمون، وفي عهد المعتصم والواثق أحمد بن أبي دؤاد، هذا كان كما يسمَّى اليوم منصب وزير العدل، أي قاضي القضاة، وبالتالي كان له منصب عال عند بني العباس، وعند المأمون، وعند الواثق، وعند المعتصم، عند هؤلاء الثلاثة، إلى أن جاء المتوكل فأبعده عن هذا المنصب وأعاد الحق إلى أهل السنة، وبعد ذلك ظهر قول أهل السنة ولكن بعد امتحان عصيب في هذه المسألة.

وانفسح المجال لأهل السنة أن يرفعوا صوتهم عالياً بمعتقدهم، وتثبيت أركانه، وتشييد بنيانه، ومواجهة أهل البدع وأقوالهم بالنقض والرد، وكشف عوارهم، وبيان زيفهم، فألفوا المصنفات الكثيرة الحاوية للسنن والآثار، ونشطوا في ذلك نشاطا ملحوظا في تدوين السنة النبوية بجميع فروعها، ولا سيما في باب العقيدة

إذاً هؤلاء المبتدعة في تلك الفترة أجبروا الناس وخوفوهم بشأن الدنيا، وبالتالي اتبعهم الناس على خوفٍ في دنياهم ورغبة في هذه الدنيا فصارت السنة وأهلها مكتومين وظهرت البدع وفشت وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوهٍ شتى، وذلك من محاسن دولة بني أمية وهذه دائماً تغبط لبني أمية أنه ما كان في عهد بني أمية بدعة

١٩٥١ التسعينية ١/ ٢٩٥



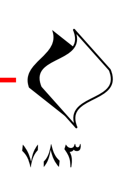
تظهر، ما كان يُنقم إلا اثنين من بني أمية مروان الحمار الذي هو آخر خلفاء بني أمية لأنه كان يسمى مروان الجعدي وكان على عقيدة الجعد، ومروان الحمار الذي هو آخر خلفاء بني أمية الذي من شؤمه أن سقطت على يديه دولة بني أمية، ويزيد الناقص كان قدرياً هؤلاء الاثنين فقط كانوا على البدعة.

لكن دولة بني أمية لذلك أهل التاريخ قد يغبطون دولة بني أمية لأن من محاسنها أن السنة فيها قائمة، وكذلك دولة بني العباس إلى خلافة هارون الرشيد كانت السنة قائمة، وكانوا حرباً على الزنادقة وحرباً على المبتدعة إلى أن جاء المأمون، فالمأمون والمعتصم والواثق هؤلاء الثلاثة كانوا على نصرة للمعتزلة، ولذلك كانوا حرباً على علماء أهل السنة.

وبالتالي من هنا يعلم الإنسان أنه بظهور دولة تنصر السنة فهذا فيه إعلاء لكلمة الله عز وجل وبغياب دولة تقيم السنة، أو أن الدولة إذا كانت ضد أهل السنة، فعند ذلك هذا يكون حرب على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فأي دولة تنصر السنة فهذه دولة يجب أن يُعلى من شأنها وأن يُرفع من أمرها لأن في نصرتها نصرة للحق، والحق بحاجة إلى قوة تحميه، والتاريخ يشهد.

فلما تكون هناك دولة تحترم السنة وعلماء السنة تظهر السنة، ولما تكون الدولة دولة بدعة تغيب السنة، فهذا الذي كان في ذلك العصر فصارت السنة وأهلها مكتومين وظهرت البدع وفشت وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوهٍ شتى ووضعوا القياس وحملوا قدرة الرب وآياته وأحكامه وأمره ونهيه على عقولهم وآرائهم فما وافق عقولهم قبلوه، وما لم يوافق عقولهم ردوه فصار الإسلام غريبا، والسنة غريبة وأهل السنة غرباء في جوف ديارهم.

فهم في ديارهم غرباء، فبالتالي إذا كانت الدولة دولة سنة فهذه نصرة للسنة، ولعلماء السنة، ونصرة لكلام الله وكلام رسوله، إذا غابت دولة السنة ظهرت البدع وبالتالي أصبح السنة وأهلها غرباء حتى ولو كانوا في جوف ديارهم والتاريخ عبرة.



(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٩١] "واعلم أن المتعة –متعة النساء– والاستحلال حرام إلى يوم القيامة.

الشرح

ذكر المصنف نوعين من الأنكحة المحرمة، وهي:

أولًا: المتعة "**المتعة –متعة النساء–**"

ثانيًا: "**والاستحلال**".

أولًا: المتعة.

وبين أن المتعة المقصود بها هنا هي متعة النساء لأن لفظ المتعة يطلق كذلك على متعة الحج باعتبار أن الحج له ثلاث صيغ إما الإفراد، وإما القران، وإما التمتع.

والأصل في الزواج الاستمرار والدوام، وقد جعل الله تعالى الزواج من آياته التي تدعو إلى التفكر والتأمل، وجعل تعالى بين الزوجين المودة والرحمة، وجعل الزوجة سكناً للزوج، ورغَّب في إنجاب الذرية، وجعل للمرأة عدة وميراثاً، وكل ذلك منتفٍ في هذا النكاح المحرَّم.

والزواج المؤقت – وهو زواج المتعة – كان مباحًا في أول الإسلام ثم نُسخت الإباحة، وصار محرَّماً إلى يوم الدين.

فعن علي رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله وسلم نهى عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر". وفي رواية: "نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية" [١٩٥٢].

١٩٥٢ رواه البخاري (٣٩٧٩)، ومسلم (١٤٠٧).

وعن الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً" [١٩٥٣].

والمرأة المتمتع بها عند الرافضة —الشيعة وهم الذين يقولون بجوازه— ليست زوجة ولا أمَة، وقد قال تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) [المؤمنون: ٥ — ٧]

وقد استدل الرافضة لإباحة المتعة بما لا يصلح دليلاً ومنه:

أ. قول الله تعالى: (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) [النساء: ٢٤.]

فقالوا: إن في الآية دليلاً على إباحة المتعة، وقد جعلوا قوله تعالى أجورهن قرينة على أن المراد بقوله استمتعتم هو المتعة.

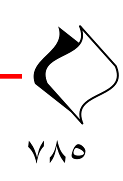
والرد على هذا: أن الله تعالى ذكر قبلها ما يحرم على الرجل نكاحه من النساء، ثم ذكر ما يحل له في هذه الآية، وأمر بإعطاء المرأة المزوَّجة مهرها.

وقد عبَّر عن لذة الزواج هنا بالاستمتاع، ومثله ما جاء في السنَّة من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المرأة كالضِّلَع إن أقمتَها كسرتَها، وإن استمتعتَ بها استمتعتَ بها وفيها عوج"[١٩٥٤]

وقد عبَّر عن المهر هنا بالأجر، وليس المراد به المال الذي يُدفع للمتمتَّع بها في عقد المتعة، وقد جاء في كتاب الله تعالى تسمية المهر أجراً في موضع آخر وهو

١٩٥٣ رواه مسلم (١٤٠٦).

١٩٥٤ رواه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (١٤٦٨).



قوله:(يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن)، فتبيَّن أنه ليس في الآية دليل ولا قرينة على إباحة المتعة.

ولو قلنا تنزلاً بدلالة الآية على إباحة المتعة فإننا نقول إنها منسوخة بما ثبت في السنة الصحيحة من تحريم المتعة إلى يوم القيامة.

ب. ما روي عن بعض الصحابة من تجويزها وخاصة ابن عباس.

والرد: هذا من اتباع الرافضة لأهوائهم فإنهم يكفرون أصحاب النبي رضي الله عنهم ثم تراهم يستدلون بفعلهم هنا، وفي غيره من المواضع.

فأما من ثبت عنه القول بالجواز فهم ممن لم يبلغهم نص التحريم، وقد رد الصحابة رضي الله عنهم (ومنهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير) على ابن عباس في قوله بإباحة المتعة.

فعن علي أنه سمع ابن عباس يليّن في متعة النساء فقال: "مهلا يا ابن عباس فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية"[١٩٥٥].

فالمتعة حرام، بحيث إن الإنسان يستحل المرأة في مدة محدودة معلومة، من يوم أو يومين أو شهر أو شهرين يحدد بداية ونهاية لهذا الأمر.

قال ابن بطة: "ومن السنة أن يعلم أن المتعة حرام إلى يوم القيامة"[١٩٥٦].

وقال قوام السنة الأصفهاني: "ومتعة النساء حرام إلى يوم القيامة"[١٩٥٧].

١٩٥٥ رواه مسلم (١٤٠٧).

١٩٥٦ الإبانة الصغرى ص ٢٩٠.

١٩٥٧ الحجة ٢/ ٣٨ = باختصار، وانظر: ٢/ ٢٩٩.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالروايات المستفيضة المتواترة متواطئة على أنه حرم المتعة بعد إحلالها»[١٩٥٨].

وجاء تقرير حرمة نكاح المتعة خلافًا للروافض الذين يزعمون أن متعة النساء خير العبادات وأفضل القربات، ويوردون في فضائلها أخبارا كثيرة موضوعة ومفتراة.[١٩٥٩]

وقد حكي الإجماع على تحريم نكاح المتعة غير واحد من الأئمة، كما بينه الحافظ ابن حجر بقوله: "قال ابن المنذر: لا أعلم اليوم أحدا يجيزها إلا بعض الروافض، ولا معتمد لقول يخالف كتاب الله وسنة رسوله.

وقال عياض: ثم وقع الإجماع من جميع العلماء على تحريمها إلا الروافض.

وقال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح على قاعدتهم في الرجوع في المختلفات إلى علي وآل بيته؛ فقد صح عن علي أنها نسخت، ونقل البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة، فقال: هي الزنا بعينه.

وقال القرطبي: الروايات كلها متفقة على أن زمن إباحة المتعة لم يطل وأنه حرم، ثم أجمع السلف والخلف على تحريمها إلا من لا يلتفت إليه من الروافض"[١٩٦٠].

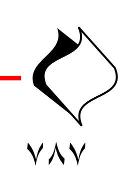
ولا تتوقف مخازي الرافضة عند حد فهم يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ومن بعض صور حالهم:

قال ابن تيمية عن أولئك الروافض: "وهؤلاء يحرمون نكاح نسائهم–أي نساء أهل الكتاب–وأكل ذبائحهم، وهذا ليس من أقوال أحد من أئمة المسلمين المشهورين

١٩٥٨ منهاج السنة النبوية ٤/ ١٩٠.

١٩٥٩ مختصر التحفة الاثنى عشرية ص ٢٢٧.

١٩٦٠ فتح الباري ٩/ ١٧٣.



بالفتيا، ولا من أقوال أتباعهم، وهو خطا مخالف للكتاب والسنة والإجماع القديم" .[١٩٦١]

وأباح جمهور السلف الصالح نكاح المحصنات من أهل الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) [المائدة: ٥] وحرم الرافضة ما أحل الله فمنعوا نكاح الكتابيات.

ومع أن الرافضة حرموا نكاح الكتابيات، إلا أنهم غلب عليهم الإباحية والفجور، فقارنوا عارية الفرج والزنا باسم المتعة، وأباحوا وطء الناس النساء في أدبارهن كما هو مقرر في كتبهم.[١٩٦٢]

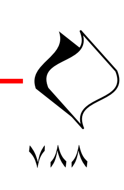
وعندهم ما يسمى كذلك نكاح الاستبضاع: وهي أن يأذن الرجل لزوجه أن تُمكِّن من نفسها رجلاً معينًا، ويسمى كذلك إعارة الفرج: وهو مزيج من أنكحة الجاهلية وأنكحة مجوسية وبوذية، وهو نكاح ابتدعه الشيعة بغرض عفة المرأة في حال سفر زوجها، وهو أن الرجل إذا أراد السفر أودع زوجته عند أحد أقاربه أو أصدقائه تقيم معه يستمتع بها، ويحدد له الزوج حدود الاستمتاع، إما استمتاع كامل ومعاشرة كمعاشرة الأزواج، وإما استمتاع دون الفرج، ولا يحل له تعدى الحدود التي حددها الزوج، وإذا ما تعدى الصديق أو القريب تلك الحدود يكون خائنا للأمانة ويدخل في دائرة الحرام حيث المبرر لهذا النكاح أنه حصن للزوجة وضمان للرجل أن زوجته لم تخنه!!

وهذا الحرام بعينه والعياذ بالله فأهل السنة–بحمد الله تعالى–من الله عز وجل عليهم بحفظ أعراضهم وبحفظ أنسابهم وهذا كله حرام.

وهذا أحد الأنكحة التي كانت موجودة قبل الإسلام، وجاء الإسلام فحرمها،

١٩٦١ مجموع الفتاوى ٣٥/ ٢١٣، وانظر: ٣٢/ ١٨١.

١٩٦٢ انظر أصول الشيعة للقفاري ٣/ ١٢٣.



وقد ذكرت السيدة عائشة أمُّ المؤمنين-رضي الله عنها-أربعةً منها، فعن عروة بن الزبير أن عائشة زوجَ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته «أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ: يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ.

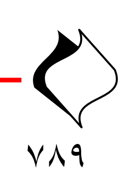
وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ" ١٩٦٣.

ثانيًا: "**والاستحلال**".

نكاح التحليل "وهو عقد له صور متعددة، منها:

١٩٦٣ أخرجه البخاري في كتاب النكاح من "صحيحه" حديث رقم (٥١٢٧)



١-أن يقوم الزوج المطلِّق أو الزوجة أو وليها باستئجار "تيس "من البشر، فيشترط عليه أن يتزوج مطلَّقته، ويدخل بها، ثم يطلقها، مع إعطائه مبلغاً من المال.

٢-أن يتزوج رجل تلك المطلقة بدون اتفاق منه مع أحد، وقصده: أن يحلها للأول، ثم يطلقها.

ونكاح "التحليل" عقد محرَّم فاسد، ويستحق فاعله اللعن.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُحِلَّ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ"[١٩٦٤]

وقال ابن القيم رحمه الله: "ولعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهما: إما خَبَر عن الله تعالى بوقوع لعنته عليهما، أو دُعاء عليهما باللعنة، وهذا يدلُّ على تحريمه، وأنه من الكبائر" [١٩٦٥]

وعن عُقْبَة بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟)) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((هُوَ الْمُحَلِّلُ، لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ))[١٩٦٦]

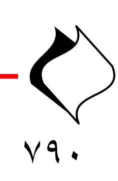
فهذه الأحاديث تدل على تحريم نكاح التحليل، وأنه من كبائر الذنوب، وتدل أيضا على عدم صحته.

"وقد صرح الجمهور-المالكية والشافعية والحنابلة وأبو يوسف من الحنفية-بفساد هذا النكاح ؛ للحديثين السابقين، ولأن النكاح بشرط الإحلال في معنى النكاح المؤقت، وشرط التأقيت في النكاح يفسده، وما دام النكاح فاسداً: فلا يقع به

١٩٦٤ رواه الترمذي (١١٢٠) وصححه، والنسائي (٣٤١٦)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وصححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري" انتهى من "التلخيص الحبير" (٣ / ٣٧٢).

١٩٦٥ "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٥ / ٦٧٢).

١٩٦٦ رواه ابن ماجه (١٩٣٦)، وحسنه الألباني في "صحيح ابن ماجه".



التحليل، ويؤيد هذا قول عمر رضـــي الله عنه: "والله لا أوتى بمحلل ومحلل له إلا رجمتهما"[١٩٦٧].

وتحدث شـيخ الإسـلام عن شـناعة نكاح التحليل، فكان مما قاله: "يوجد في نكاح التحليل من الفســاد أعظم ما يوجد في نكاح المتعة[١٩٦٨]؛ إذ المتمتع قاصـد للنكاح إلى وقت، والمحلل لا غرض له في ذلك؛ فكل فسـاد نهي عنه المتمتع فهو في التحليـل وزيادة؛ ولهـذا تنكر قلوب النـاس التحليـل أعظم ممـا تنكر المتعـة، والمتعـة أبيحت أول الإسـلام، وتنازع السـلف في بقاء الحل، ونكاح التحليل لم يبح قط، ولا تنازع السلف في تحريمه.

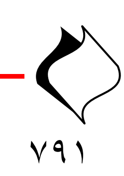
ومن شـــنع على الشـــيعة بإباحة المتعة مع إباحته للتحليل فقد ســلطهم على القدح في السنة، كما تسلطت النصارى على القدح في الإسلام بمثل إباحة التحليل، حتى قـالوا: إن هؤلاء قـال لهم نبيهم: إذا طلق أحـدكم امرأتـه لم تحـل لـه حتى تزني؛ وذلك أن نكاح التحليل سفاح كما سماه الصحابة بذلك"[١٩٦٩].

وبسط ابن القيم الحديث عن قبائح التحليل ومفاسده، فكان مما قاله: "وأما في هذه الأزمان التي قد شـكت الفروج فيها إلى ربها مفســدة التحليل، وقبح ما يرتكبه المحللون مما هو رمد بل عمل في عين الدين، وشـــجن في حلوق المؤمنين، من قبائح تشـــمت أعداء الدين به، وتمنع كثيرًا من يريد الدخول فيه بســـببه، بحيث لا يحيط بتفاصـــيلها خطاب، ولا يحصـــرها كتاب، يراها المؤمنون كلهم من أقبح القبائح، ويعدونها من أفضـح الفضـائح، وقد قلبت من الدين رسمه، وغيرت منه اسمه، وضـمخ التيس المستعار فيها المطلقة بنجاسة التحليل.

١٩٦٧ "الموسوعة الفقهية" (١٠ / ٢٥٦،٢٥٧).

١٩٦٨ ذكر شيخ الإسلام أن نكاح التحليل أعظم فسادًا من نكاح المتعة من عشرة أوجه. انظر إغاثة اللهفان ١/ ٤١٧-٤٢١.

١٩٦٩ مجموع الفتاوى ٣٠/ ٢٢٣، ٢٢٤، وانظر: ٣٢/ ١٥٦، ٣٣/ ٣٩.



إلى أن قال: ثم سل من له أدنى اطلاع على أحوال الناس: كم من حرة مصونة أنشب فيها المحلل مخالب إرادته فصارت له بعد الطلاق من الأخدان، وكان بعلها منفردًا بوطئها، فإذا هو والمحلل فيها ببركة التحليل شريكان، فلعمر الله كم أخرج التحليل مخدرة من سترها إلى البغاء، وألقاها بين براثن العشراء، ولولا التحليل لكان منال الثريا دون منالها" [١٩٧٠].

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–: "

[٩٢] "واعرف لبني هاشم فضلهم؛ لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعرف فضل قريش والعرب وجميع الأفخاذ، فاعرف قدرهم وحقوقهم في

١٩٧٠ إعلام الموقعين ٣/ ٤١، ٤٣.



الإسلام، ومولى القوم منهم، وتعرف لسائر الناس حقهم في الإسلام و [تعرف فضل] الأنصار، ووصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وآل الرسول فلا تنساهم، تعرف فضلهم، وجيرانه من أهل المدينة، فاعرف فضلهم."

الشرح

قول المصنف: **"واعرف لبني هاشم فضلهم؛ لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم".**

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "واختلف في آل النبي صلى الله عليه وسلم على أربعة أقوال:

القول الأول: هم الذين حرمت عليهم الصدقة. وفيهم ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في رواية عنه.

والثاني: أنهم بنو هاشم خاصة وهذا مذهب أبي حنيفة، والرواية عن أحمد، واختيار ابن القاسم صاحب مالك.

والثالث: أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى بني غالب، ويدخل فيهم بنو المطب، وبنو أمية، وبنو نوفل ومن فوقهم إلى بني غالب، وهذا اختيار أشهب من أصحاب مالك حكاه صاحب "الجواهر" عنه وحكاه اللخمي في "التبصرة" عن أصبغ، ولم يحكه عن أشهب.

وهذا القول في الآل أعني -أنهم الذين تحرم عليهم الصدقة هو منصوص الشافعي وأحمد والأكثرين، وهو اختيار جمهور أصحاب أحمد والشافعي.

القول الثاني: إن آل النبي صلى الله عليه وسلم هم ذريته وأزواجه خاصة، حكاه ابن عبد البر في التمهيد.

القول الثالث: إن آله صلى الله عليه وسلم أتباعه إلى يوم القيامة حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم، وأقدم من روى عنه هذا القول جابر بن عبد الله، ذكره البيهقي عنه، ورواه عن سفيان الثوري وغيره، واختاره بعض أصحاب الشافعي. حكاه عنه أبو الطب الطبري في تعليقه، ورجحه الشيخ محي الدين النووي في شرح مسلم واختاره الأزهري.

القول الرابع: إن آله صلى الله عليه وسلم هم الأتقياء من أمته حكاه حسين والراغب وجماعة.

ثم ذكر رحمه الله حجج هذه الأقوال وبين ما فيها من الصحيح والضعيف إلى أن قال: "والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني. أما القول الثالث والرابع فضعيفان" ١٩٧١.

وإن من علامات محبته صلى الله عليه وسلم والتي يجب على المؤمن الأخذ بها، محبته لمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين فمن أحب شيئًا أحب من يحبه١٩٧٢.

فإن من محبة الله وطاعته: محبة رسوله وطاعته.

ومن محبة رسوله وطاعته: محبة من حب الرسول، وطاعة من أمر الرسول بطاعته١٩٧٣

أ-قال البيهقي: "ودخل في جملة محبته صلى الله عليه وسلم حب آله" ١٩٧٤.

١٩٧١ جلاء الأفهام (ص ١٦٤-١٧٧).

١٩٧٢ الشفا (٥٧٣/٢).

١٩٧٣ حقوق آل البيت (ص ١٩).

١٩٧٤ شعب الإيمان للبيهقي (٢٨٢/١).

"وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول صلى الله عليه وسلم" ١٩٧٥.

فعن زيد بن أرقم ١٩٧٦ رضي الله عنه قال: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى "خما" بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: ((أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين:

أوليهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به)) فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: ((وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)). فقيل لزيد: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قيل: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قيل: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم"١٩٧٧.

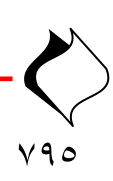
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله لما أنزل عليه {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}١٩٧٨. سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم كيف يصلون عليه فقال: "قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على

١٩٧٥ مجموع الفتاوى (٤٠٧/٣).

١٩٧٦ زيد بن أرقم بن زيد، صحابي جليل، لم يشهد بدرًا ولا أحدًا لصغر سنه، وأول مشاهده الخندق وقيل المريسيع، مات بالكوفة سنة ست وستين، وقيل ثمان وستين. الإصابة (٥٤٢/١).

١٩٧٧ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل على بر؟ لي طالب رضي الله عنه (/ ١٢٢، ١٢٣).

١٩٧٨ الآية (٦) من سورة الأحزاب.



محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد "١٩٧٩. فالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حق له ولآله دون سائر الأمة١٩٨٠.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أرقبوا١٩٨١ محمدا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته"١٩٨٢.

وعنه أيضا أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي" [١٩٨٣].

"فآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقا في الخمس والفيء وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١٩٨٤].

"فالصلاة على آله هي من تمام الصلاة عليه وتوابعها، لأن ذلك مما تقر به عينه، ويزيده الله به شرفا وعلوًا، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا"[١٩٨٥].

"وكذلك علينا احترامهم وإكرامهم والإحسان إليهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا.

١٩٧٩ أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. فتح الباري (١/ ١٥٢) ح ٦٣٥٧. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على صلى الله عليه وسلم بعد التشهد (١٦/٢).

١٩٨٠ جلاء الأفهام (ص ١٧٤).

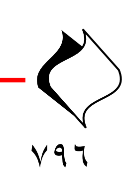
١٩٨١ أرقبوا: المراقبة للشيء المحافظة عليه، يقول: احفظوه فيهم فلا تسيئوا إليهم. فتح الباري (٧٩/٧).

١٩٨٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصحابة، باب مناقب قرابة الرسول كله صلى الله عليه وسلم. فتح الباري (٧٨/٧) ح ٣٧١٣.

١٩٨٣ أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم. فتح الباري (٧٧/٧، ٧٨) ح ٣٧١٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا نورث وما تركناه صدقة" (١٥٥/٥، ١٥٦).

١٩٨٤ مجموع الفتاوى (٤٠٧/٣).

١٩٨٥ جلاء الأفهام (ص ١٧٥).



ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعليّ وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين"[١٩٨٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١٩٨٧] "وآل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين حرمت عليهم الصدقة، هكذا قال الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما من العلماء".

والأحاديث في فضائلهم ومناقبهم كثيرة جدًا، وهي مبسوطة في الصحيحين والمسند والسنن وغيرها من كتب الحديث.

وقول المصنف: "**وتعرف فضل قريش والعرب وجميع الأفخاذ، فاعرف قدرهم وحقوقهم في الإسلام، ومولى القوم منهم وتعرف لسائر الناس حقهم في الإسلام**"

قال ابن تيمية رحمه الله: "ولا ريب أن لآل محمد صلى الله عليه وسلم حقا على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة مالا يستحقه سائر بطون قريش، كما أن قريشا يستحقون من المحبة والموالاة مالا يستحقه غير قريش من القبائل، كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة مالا يستحقه سائر أجناس بني آدم، وهذا على مذهب الجمهور الذين يرون فضل العرب على غيرهم، وفضل قريش على سائر العرب وفضل بني هاشم على سائر قريش، وهذا هو المنصوص عن الأئمة كأحمد وغيره.

والنصوص دلت على هذا القول، كقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريش من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"١٩٨٨.

١٩٨٦ تفسير ابن كثير (١١٣/٤).

١٩٨٧ مجموع الفتاوى (٤٠٧/٣).

١٩٨٨ أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم (٧/ ٥٨).



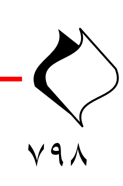
وكقوله في الحديث الصحيح: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"١٩٨٩ وأمثال ذلك"١٩٩٠

هذا من تفضيل الجملة على الجملة وهو لا يقتضي تفضيل كل فرد على كل فرد فالعرب في الأجناس، وقريش فيها ثم هاشم في قريش، مظنة أن يكون فيهم من الخير أعظم مما يوجد في، غيرهم، ولهذا كان في بنى هاشم النبي صلى الله عليهم وسلم الذي لا يماثله أحد في قريش فضلا عن وجوده في سائر العرب وغير العرب، وكان في قريش الخلفاء الراشدون وسائر العشرة وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب، وكان في العرب من السابقين الأولين من لا يوجد له نظير في سائر الأجناس. فلابد أن يوجد في الصنف الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول. وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء، والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك المؤمنون المتقون من قريش وغيرهم أفضل ممن ليس مثلهم في الإيمان والتقوى من بني هاشم. فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب دون من ألغى فضيلة الأنساب مطلقا ودون من ظن أن الله تعالى يفضل الأنسان بنسبه على من هو مثله في الإيمان والتقوى، فضلا عمن هو أعظم إيمانا وتقوى، فكلا القولين خطأ وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة وفضيلة لأجل المظنة والسبب.

والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية.

١٩٨٩ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} فتح الباري (٦/ ٣٨٧) ح ٣٣٥٣، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب باب الأرواح جنود مجندة (٨/ ٤١، ٤٢) واللفظ له.

١٩٩٠ منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٩٩).



فالأول: يفضل به لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد.

والثاني: يفضل به لأنه الحقيقة والغاية، ولأن كل من كان أتقى لله كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا، لأن الحقيقة قد وجدت، فلم يعلق الحكم بالمظنة، ولأن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه، فلا يستدل بالأسباب والعلامات

فالاعتبار العام هو التقوى كما قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الآية (١٣) من سورة الحجرات. فكل من كان أتقى كان أفضل مطلقا، وإذا تساوى اثنان في التقوى استويا في الفضل سراء كانا أو أحدهما عربيين أو أعجميين، أو قرشيين أو هاشميين أو كان أحدهما من صنف والآخر من صنف، وإن قدر أن أحدهما له من سبب الفضيلة ومظنتها ما ليس للآخر، فإذا كان ذلك قد أتى بحقيقة الفضيلة كان أفضل ممن لم يأت بحقيقتها، وإن كان أقدر على الإتيان بها، فالعالم خير من الجاهل، وإن كان الجاهل أقدر على تحصيل العلم.[١٩٩١]

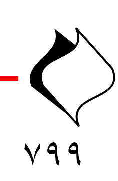
وقول المصنف: **"و [تعرف فضل] الأنصار"**

مما ورد في فضائل الأنصار ما يا يأتي:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغضهم"[١٩٩٢].

١٩٩١ انظر: منهاج السنة (٤/ ٦٠٢-٦٠٣-٦٠٤-٦٠٨) بتصرف.

١٩٩٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان. انظر: فتح الباري (١١٣/٧) ح ٣٧٨٤ واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته... (٦٥/١).



وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أو قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ((لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شعبا لسلكت في وادي الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار))[١٩٩٣]

وعن البراء رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم أو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله))[١٩٩٤]

وقول المصنف: **"ووصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم،**

فمما ورد في وصية رسول الله–صلى الله عليه وسلم–فيهم ما ورد عن أنس رضي الله عنه: قال مرّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال ما يبكيكم قالوا: ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم منا فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، قال فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية برد قال فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم))[١٩٩٥].

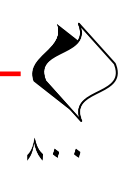
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ملحفة متعطفا بها على منكبيه وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم))[١٩٩٦]

١٩٩٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٧٩).

١٩٩٤ أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٨٣).

١٩٩٥ أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٩٩) ومسلم (٢٥١٠).

١٩٩٦ أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٠٠).



وعن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار))[١٩٩٧]

فمن توقيره وبره صلى الله عليه وسلم توقير أصحابه ومنهم الأنصار، وبرهم ومعرفة حقهم والاقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين، القادحة في أحد منهم، وأن نلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان دينهم من الفتن أحسن التأويلات ويخرج لهم أصوب الخارج، إذ هم أهل لذلك، ولا يذكر أحد منهم بسوء ولا يغمص١٩٩٨ عليه أمر، بل تذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم، ويسكت عما وراء ذلك١٩٩٩.

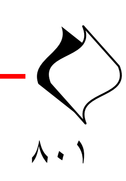
فهم أناس قد اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسماع حديثه من فمه الشريف وتلقي الشريعة وأمور الدين عنه وتبليغ ما بعث الله به رسوله من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها. فكان لهم الأجر العظيم لصحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه في سبيل الله وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام والدعوة إليه، ولهم من الأجر مثل أجور من بعدهم لأنهم الواسطة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.

ولقد أوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيؤون بعدهم أبد الآبدين.

١٩٩٧ رواه مسلم (٢٥٠٦).

١٩٩٨ لا يغمص: لا يعاب ولا ينقص في أمر من أموره. النهاية (٣/ ٣٨٦).

١٩٩٩ الشفا (٢/ ٦١١، ٦١٢).



ولقد أثنى ربهم عليهم أحسن الثناء ورفع ذكرهم في التوراة والإنجيل والقرآن ووعدهم المغفرة والأجر العظيم فقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الأَنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}[٢٠٠٠] وأخبر في آية أخرى برضاه عنهم، ورضاهم عنه فقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[٢٠٠١] ثم بشرهم بما أعدلهم فقال: {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

وقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}[٢٠٠٢] وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو عنهم والاستغفار لهم فقال: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ}[٢٠٠٣] وأمره بمشاورتهم تطيبا لقلوبهم، وتنبيها لمن بعدهم من الحكام على المشاورة في الأحكام فقال: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}[٢٠٠٤].

وندب من جاء بعدهم إلى الاستغفار لهم، وأن لا يجعلوا في قلوبهم غل للذين آمنوا فقال: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[٢٠٠٥].

[٢٠٠٠] الآية (٢٩) من سورة الفتح.

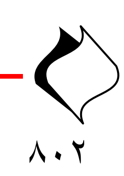
[٢٠٠١] الآية (١٠٠) من سورة التوبة.

[٢٠٠٢] الآية (١٨) من سورة الفتح.

[٢٠٠٣] الآية (١٥٩) من سورة آل عمران.

[٢٠٠٤] الآية (١٥٩) من سورة آل عمران.

[٢٠٠٥] الآية (١٠) من سورة الحشر.



وأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ونهى عن النيل منهم فقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"٢٠٠٦ كما شهدها بكونهم خير أمته التي هي خير الأمم فقال صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني"٢٠٠٧.

وقال صلى الله عليه وسلم: "خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم"٢٠٠٨ فهذه بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على فضل أولئك الأخيار الذين اختارهم الله لصحبة نبيه وشرفهم بحمل رسالته من بعده والدعوة إلى سبيله ونصرة دينه. فالصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم وثنائه عليهم وثناء رسوله صلى الله عليه وسلم قال النووي: "الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به"٢٠٠٩

وقال ابن حجر: "اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة"٢٠١٠.

وعن أبي زرعة قال: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله

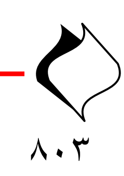
٢٠٠٦ تقدم تخريجه ص ٣٥٣.

٢٠٠٧ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد. انظر: فتح الباري (٥/ ٢٥٩) ح ٢٦٥٢. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم. انظر (٧/ ١٥٨).

٢٠٠٨ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: فتح الباري (٧/ ٣) ح ٣٦٥٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٧/ ١٨٥).

٢٠٠٩ تدريب الراوي (٢/ ٢١٤).

٢٠١٠ الإصابة (١/ ١٧).



صلى الله عليه وسلم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة" ٢٠١١.

ومذهب أهل السنة والجماعة في الصحابة وسط بين الإفراط والتفريط فليسوا من المفرطين الغالين الذين يرفعون من يعظمون منهم إلى مالا يليق إلا بالله أو برسله. وليسوا من المفرطين الجافين الذين ينتقصونهم ويسبونهم فهم وسط بين الغلاة والجفاة.

ويحبونهم جميعا وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف فلا يرفعونهم إلى مالا يستحقون، ولا يقصرون بهم عما يليق بهم، فألسنتهم رطبة بذكرهم بالجميل اللائق بهم، وقلوبهم عامرة بحبهم، وما صح فيما جرى بينهم من خلاف فهم فيه مجتهدون إما مصيبون ولهم أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإما مخطئون ولهم أجر الاجتهاد وخطؤهم مغفور، وليسوا معصومين، بل هم بشر يصيبون ويخطون، ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم، وما أقل خطأهم إذا نسب إلى خطأ غيرهم ولهم من الله المغفرة والرضوان.

وكتب أهل السنة مليئة ببيان هذه العقيدة الصافية النقية في حق هؤلاء الصفوة المختارة من البشر لصحبة خير البشر صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين[٢٠١٢].

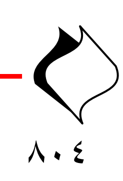
وقول المصنف: "**وآل الرسول فلا تنساهم، تعرف فضلهم**".

تقدم الحديث عن آل الرسول–صلى الله عليه وسلم–في بداية هذه الفقرة.

وقول المصنف: "**وجيرانه من أهل المدينة، فاعرف فضلهم**".

٢٠١١ كتاب الكفاية (ص ٩٧) للخطب البغدادي.

٢٠١٢عقيدة أهل السنة والأثر في الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم (ص ٢٤–٢٥) تأليف الشيخ عبد المحسن العباد، مقالة طبعت في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد الثاني، السنة الرابعة.



إن من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم المدينة النبوية[٢٠١٣] التي هي دار المصطفى ومهاجره، فقد اختارها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قرارا، وجعل أهلها شيعة له وأنصارا. وهي التي، انتشر منها دين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل مشارق الأرض ومغاربها.

وهي التي ورد في فضلها وتعظيم شأنها وتحريمها وفضل بعض البقاع فيها الكثير من الأحاديث الثابتة الصحيحة والتي أورد بعضا منها ههنا على سبيل المثال لا الحصر.

فعن سفيان بن أبي زهير[٢٠١٤] رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون[٢٠١٥] فيتحملون بأملهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

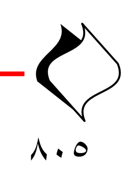
وتفتح الشام، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح العراق، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون"[٢٠١٦].

٢٠١٣ ذكر ذلك: البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (٢/١٣٠)، والقاضي عياض في الشفا (٢/٦١٩)

٢٠١٤ سفيان بن أبي زهير الأزدي، من أزد شنوءة (بفتح المعجمة وبضم النون وبعد الواو همزة) من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. يعد في أهل المدينة. الإصابة (٢/ ٥٢).

٢٠١٥ يقال بسست الناقة وأبسستها إذا سقتها وزجرتها وقلت لها بس بس بكسر الباء وفتحها. النهاية (١/ ١٢٧).

٢٠١٦ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة "واللفظ له". انظر: فتح الباري (٤/ ٩٠) ح ١٨٧٥، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار (٤/ ١٢٢).



وعن عبد الله بن زيد بن عاصم[٢٠١٧] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها تمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة"[٢٠١٨].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاها أو يقتل صيدها" وقال: "المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كانت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة"[٢٠١٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه قال ثم يدعو أصغر وليد له فيعطه ذلك الثمر"[٢٠٢٠]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المدينة حرم فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف"[٢٠٢١].

٢٠١٧ عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب الأنصاري المازني، صحابي شهير اختلف في شهوده بدرا، وشهد أحدا وغيرها، وشارك مع وحشي في قتل مسيلمة، يقال قتل يوم الحرة سنة ثلاث وستين. الإصابة (٢/ ٣٠٥).

٢٠١٨ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي صلى الله عليه وسلم ومده. فتح الباري (٤/ ٣٤٦) ح ٢١٢٩، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة "واللفظ له" (٤/ ١١٢).

٢٠١٩ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٤/ ١١٣).

٢٠٢٠ أخرجه بهذا اللفظ، مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٤/ ١١٦، ١١٧).

٢٠٢١ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٤/ ١١٦).

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها"[٢٠٢٢].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء"[٢٠٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام"[٢٠٢٤]. وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي"[٢٠٢٥].

والأحاديث في فضل المدينة كثيرة ومتنوعة، ولقد أفرد البخاري في صحيحه كتابا لفضائل المدينة، وكذا مسلم في صحيحه قد أورد في آخر كتاب الحج العديد من الأحاديث الواردة في شأن المدينة، وكذا الحال عند أصحاب السنن والمسانيد.

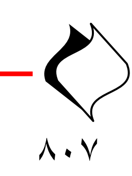
والمقصود من تعظيم المدينة هو تعظيم حرمها وهذا أمر واجب في حق من سكن بها أو دخل فيها، مع ما يجب على ساكنيها من مراعاة حق المجاورة وحسن التأدب فيها وذلك لما لها من المنزلة والمكانة عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم. فإنها من المواطن التي عمرت بالوحي والتنزيل، واشتملت تربتها على جسد

٢٠٢٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٣) ح ١٨٧٦، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا (١/ ٩٠-٩١).

٢٠٢٣ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة، انظر: فتح الباري (٤/ ٩٤) ح ١٨٧٧، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله (٤/ ١٢٢).

٢٠٢٤ أخرجه البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة. انظر: فتح الباري (٦٣/٣) ح ١١٩٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة (٤/ ١٢٤).

٢٠٢٥ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب ١٢. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٩) ح ١٨٨٨، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (٤/ ١٢٣).



سيد البشر وانتشر عنها من دين الله وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتشر، فهي مشاهد الفضائل والخيرات ومعاهد البراهين والمعجزات.

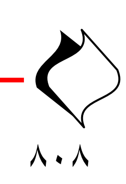
فحري بمن أكرمه الله بالإقامة فيها أن يتزود فيها من الأعمال الصالحة التي تنفعه بعد الموت، وأن يحذر من الوقوع فيها بما يسخط الله عز وجل. وفيما سبق ذكره من الأحاديث خير شاهد على فضل سكناها والترغيب في الإكثار من العمل الصالح فيها، والتحذير من الإساءة والمعصية والإفساد فيها.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٩٣] "واعلم – رحمك الله–أن أهل العلم لم يزالوا يردون قول الجهمية حتى كان في خلافة بني فلان تكلم الرويبضة في أمر العامة، وطعنوا على آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذوا بالقياس والرأي، وكفروا من خالفهم، فدخل في قولهم الجاهل والمغفل والذي لا علم له، حتى كفروا من حيث لا يعلمون، فهلكت الأمة من وجوه، وكفرت من وجوه، وتزندقت من وجوه، وضلت من وجوه، [وتفرقت] وابتدعت من وجوه، إلا من ثبت على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره وأمر أصحابه، ولم يخطئ أحدا منهم، ولم [يجاوز] أمرهم، ووسعه ما وسعهم، ولم يرغب عن طريقتهم ومذهبهم، وعلم أنهم كانوا على الإسلام الصحيح والإيمان الصحيح، فقلدهم دينه [واستراح]، وعلم أن الدين إنما هو بالتقليد، والتقليد لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم".

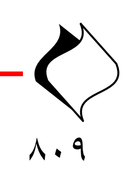
الشرح



قول المصنف: **"واعلم أن أهل العلم لم يزالوا يردون قول الجهمية"**، يشير بذلك إلى منهج وأصل وغاية من غايات الدين، عمل به السلف حتى صار من سماتهم ومن أصولهم ومناهجهم الكبرى، وهو الرد على المخالف، ونظراً لأن أشد المخالفين وأكثرهم فتنة وأعمهم بلوى هم الجهمية فذكرهم هنا بالاسم، ولأن السلف اجتمعت قواهم واحتشدت على الجهمية.

وكثير من السلف قد لا يكون له كثير كلام في الأهواء والبدع والفرق، وكثير من السلف لم يتعرض للرد على فرق الضلال لكنهم فيما يتعلق بالجهمية أسهموا في ذلك، حتى من لم يعرف عنه الاهتمام بهذه المواقف، لأن أصول الجهمية أصول لعامة أهل الأهواء الذين جاءوا بعدهم، والعجيب أن جميع الفرق التي فارقت أهل السنة والجماعة أخذت بأصل أو أكثر من أصول الجهمية، مما يدل على عموم البلوى بالجهمية، وأن السلف حينما احتشدت جهودهم ضد هذه الفرقة فذلك لأنهم عرفوا أصولها الفاسدة وتمويهاتها، وعرفوا أيضاً مخاطر أصول الجهمية على الأمة، فالجهمية هم أشد الفرق على الأمة وأكثرها تمويهاً وتلبيساً على الناس.

ثم قال المصنف: **"حتى كان في خلافة بني فلان"** فهذا لم يحدث إلا في عهد بني العباس وليس في أوله، إنما في القرن الثالث في عهد المأمون وما بعده، أما قبل ذلك فرغم ما حصل من ظهور أوائل الفرق الكلامية إلا أنه لم يحدث أن تكلم الرويبضة–وهو الإنسان التافه الحقير–باسم الدين وباسم الأمة، أي: رغم وجود الفرق في عهد بني أمية وأول دولة بني العباس إلا أن السلطة كانت قوية حازمة ضد الأهواء، وكانت أيدي السلاطين بأيدي العلماء ضد جميع الفرق، فلما كان في عهد المأمون توجه المأمون لتأثره بالجهمية والمعتزلة إلى الميل لتلك الفرق الضلة، وإتاحة الفرصة لها لتخرج أعناقها وترفع رايتها، بل إنه أيدها وعمل أعمالاً هي من سبيل الافتراق، فأذن بسب بعض الصحابة كـ معاوية رضي الله عنه علناً، بل أمر به، وأمر بإحداث بعض البدع في المساجد كبدعة الذكر الجماعي، ونصر الجهمية في القول



بخلق القرآن، وأرغم الأمة عليها، ومن هنا تكلمت الرويبضة، وهو الرجل التافه الحقير، والذي يتمثل بكثير ممن انطووا تحت لواء الجهمية والمعتزلة من طلاب الشهرة وأهل الأهواء.

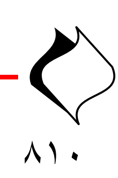
قال ابن تيمية: "فما إن جاء أول المائة الثالثة، وولي على الناس عبد الله المأمون (١٩٨هـ -٢١٨هـ)، وكان يحب أنواع العلوم، وكان مجلسه عامراً بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات فأمر بتعريب كتب اليونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد فعربت له، واشتغل بها الناس، والملك سوق ما سوق فيه جلب إليه، فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن كان أبوه الرشيد قد أقصاهم وتتبعهم بالحبس والقتل. فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه، فقبلها، واستحسنها، ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها" (٢٠٢٦)

وقال ابن تيمية: "الجهمية لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق، لكن قوى أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه. ثم لما تولى الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء، ودعا إلى قولهم في آخر عمره، وكتب وهو بالثغر بطرسوس إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا القرآن مخلوق، فلم يجبه أحد؛ ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه، فأجاب أكثرهم، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد، وبقي اثنان لم يجيبا: الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه؛ وكان هذا سنة ثماني عشر ومائتين". (٢٠٢٧)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن تلك الحقبة الزمنية وما قبلها وما بعدها: "وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى، وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك، مثل دولة

(٢٠٢٦) الصواعق المرسلة ٣/١٠٧٢.

٢٠٢٧ مجموع الفتاوى ١٣/١٨٣.



المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) والرشيد (١٧٠-١٩٤هـ) ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين. كان أهل السـنة في تلك الأيام أقوى وأكثر، وأهل البدع أذل وأقل. فإن المهدي قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصـى عدده إلا الله، والرشيد كان كثير الغزو والحج.

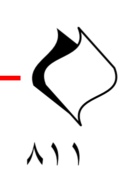
وذلك أنه لما انتشـرت الدولة العباسـية وكان في أنصـارها من أهل المشـرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «الفتنة ها هنا»؛ ظهر حينئذ كثير من البدع، وعربت أيضـاً إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم من المجوس الفرس، والصابئين الروم، والمشركين الهنود، وكان المهدي من خيار خلفاء بني العباس، وأحسنهم إيماناً وعدلاً وجوداً، فصار يتتبع المنافقين الزنادقة كذلك.

وفي دولة «أبي العباس المأمون" ظهر "الخرمية" ونحوهم من المنافقين، وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين، وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودة.

فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسـلمين، وقوى ما قوى من حال المشـركين وأهل الكتاب، كان من أثر ذلك ما ظهر من اسـتيلاء الجهمية والرافضـة وغيرهم من أهل الضـلال وتقريب الصـابئة ونحوهم من المتفلسـفة. وذلك بنوع رأي يحسـبه صـاحبه عقلاً وعدلاً، وإنما هو جهل وظلم، إذ التسـوية بين المؤمن والمنافق، والمسـلم والكافر أعظم الظلم، وطلب الهدى عند أهل الضـلال أعظم الجهل، فتولد من ذلك محنة الجهمية، حتى امتحنت الأمة بنفي الصـفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى، مما يطول وصفه" (٢٠٢٨)

وذلك لكفرهم وضـلالهم، والجهمية هم الذين أنكروا أسماء الله وصـفاته، وقالوا: إن الله ليس له سمع ولا بصـر ولا علم ولا قدرة، فهم ينفون جميع الصـفات والأسماء، وهم بهذا يصـفون العدم، فالشـيء الذي ليس له اسـم ولا صـفة يكون عدماً، ولهذا

٢٠٢٨ مجموع الفتاوى ٤/٢١،٢٠.

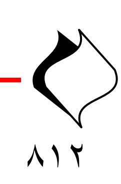


كفر العلماء الجهمية وأخرجوهم من الاثنتين والسبعين الفرقة وقالوا: هم كفار؛ لأنهم ما أثبتوا وجوداً لله، ونفوا الأسماء والصفات فأنكروا بقولهم وجود الله.

فلما كانت خلافة المأمون ترجمت كتب اليونان والرومان، ودخل على المسلمين شر كثير، واعتنق المأمون مذهب المعتزلة وأثروا عليه، وقرب المعتزلة فصاروا أقرباءه، حتى صار رئيس القضاة في زمن المأمون أحمد بن أبي دؤاد وهو من المعتزلة، وهو الذي امتحن الإمام أحمد إمام أهل السنة، وأراده على القول بخلق القرآن فامتنع، فضُرب الإمام أحمد وسجن وسحب حتى أغمي عليه، ورفض رفضاً قاطعاً أن يقول: إن القرآن مخلوق، مع أنه مجبر ومكره له عذر.

وبعض العلماء ترخص تحت وطأة الإكراه والإلزام والجبر، فهو معذور، والله تعالى عذر المكره إذا تكلم بكلمة الكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، قال الله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل:١٠٦]، فتأول بعض العلماء فسلموا من العذاب، حتى قال بعضهم للإمام أحمد: لك رخصة يا إمام! لو تأولت، فامتنع الإمام وثبت، وصبر على الأذى والسجن والضرب والسحب والإيذاء، وخشي أن يتأول فيضل الناس بسببه، وقد قال له أحدهم: لو تأولت يا إمام! فقال: انظر إلى هؤلاء الكتاب، وكان هناك مساحة كبيرة من دار الخليفة كلها مملوءة من الكتاب، وكل واحد معه قلم يريد أن يكتب مقالة الإمام أحمد، أي: أنه ينتظر كلمة يتكلم بها فيكتبها، فقال: أتريد أن أضل هؤلاء؟ كلا، بل أموت ولا أضلهم.

فثبت رضي الله عنه وأرضاه في المحنة، حتى قيل: إن الخليفة الراشد أبا بكر ثبت يوم الردة، حتى أن عمر رضي الله عنه، وهو من هو أشكل عليه وقال: يا خليفة رسول الله! كيف تقاتلهم وقد صلوا، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، ما استمسك السيف بيدي، والله لو لعبت الكلاب بخلاخل أمهات



المؤمنين لقاتلتهم حتى يؤدوا إلي ما أدوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه، فشرح الله صدر عمر لرأي أبي بكر، وثبت ثبوت الجبال الراسيات رضي الله عنه وأرضاه، فأجمع الصحابة على قوله وأخذوا برأيه وأنه على الحق، فشرحت صدورهم لذلك، حتى قال بعض المسلمين: لولا أن الله ثبت أبا بكر لما عبد الله في الأرض، ولأطبقت العرب على الردة إلا من ثبته الله.

فثبت الله الجزيرة بـ أبي بكر رضي الله عنه يوم الردة، والإمام أحمد يوم المحنة، وقد اختبر المأمون–بناء على رأي المعتزلة الذين أثروا عليه–الإمام أحمد، وألزموا أهل السنة أن يقولوا: إن القرآن مخلوق، وأمر الخليفة بأن يؤتى بالعلماء من أنحاء الخلافة مقيدين بالسلاسل، فمن لم يقل بأن القرآن مخلوق أوذي وسحب وضرب وألقي في السجون، فمنهم من تأول، ومنهم من مات في السجن، ومنهم من مات في الطريق، ومنهم الإمام أحمد الذي رفض وامتنع على الرغم من شدة ما لقي من العذاب.

وقول المصنف: **"تكلم الرويبضة في أمر العامة"** والرويبضة: الجاهل الذي ليس عنده علم فيتكلم في أمر العامة بسبب فساد أمر الناس، وإلا فإن الرويبضة لا يتكلم في وقت قوة الإسلام وظهوره.

وجاءت النصوص تحذر من ترؤس هؤلاء الجهلة وتصدرهم لقيادة الأمة إذ بذلك تجتلب المحن والفتن على المسلمين ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق الرويبضة، قيل وما الرويبضة؟ قال : الرجل التافه في أمر العامة))[٢٠٢٩].

٢٠٢٩ رواه ابن ماجه (٤٠٣٦)، وأحمد (٢٩١/٢) (٧٨٩٩)، والحاكم (٥١٢/٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في ((نهاية البداية والنهاية))

فترؤس هؤلاء الأصاغر إضاعة للأمانة ومؤذن بقرب قيام الساعة ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سأله أعرابي: متى الساعة؟ قال عليه الصلاة والسلام: ((فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)) قال: وكيف إضاعتها؟ قال: ((إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)) [٢٠٣٠].

يقول ابن حجر: "إن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم وذلك من جملة الأشراط ومقتضاه أن العلم ما دام قائما ففي الأمر فسحة وكأن المصنف أشار إلى أن العلم إنما يؤخذ عن الأكابر" [٢٠٣١]

وقول المصنف: **"وطعنوا على آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم"** أي طعنوا في الحديث الوارد عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهذا مما يدل على أن قصد الجهمية والمعتزلة هو الطعن في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الفرق التي سبقت كان لها منهج منحرف وضال في نظرتها لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنها لم تجرؤ على الطعن في النصوص، ولم يجرؤ على رد الأحاديث إلا المعتزلة والجهمية.

وفي هذه المرحلة قويت شوكت التعطيل واتسعت دائرته ونشط دعاته وكثرت طوائفه. فبعد أن كان خصوم أهل السنة هم الجهمية فقط، ظهر المعتزلة الذين حملوا راية التعطيل ووجهوا دفته، ودخلوا فيه بقوة هيأها لهم المأمون ومن بعده المعتصم ثم الواثق. وشايعهم على ذلك العديد من الفرق الضالة، فجمعت المعتزلة من ذلك الوقت بين بليتين "بلية نفي الصفات" و "بلية نفي القدر". وفي هذه المرحلة ظهر القرامطة، وبدؤوا يظهرون قولهم.

(٢١٤/١): إسناده جيد. وقال أحمد شاكر في ((المسند)) (١٩٤/١٦): إسناده صحيح. وقال الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): صحيح.

٢٠٣٠ رواه البخاري (٥٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٠٣١ ((فتح الباري)) (١/ ١٤٣).

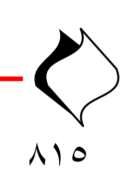


قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكانت "محنة الإمام أحمد" سنة عشرين ومائتين، وفيها شرعت القرامطة الباطنية يظهرون قولهم، فإن كتب الفلاسفة قد عربت وعرف الناس أقوالهم فلما رأت الفلاسفة أن القول المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته هو هذا القول الذي يقوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم، ورأوا أن هذا القول الذي يقولونه فاسد من جهة العقل؛ طمعوا في تغيير الملة. فمنهم من أظهر إنكار الصانع، وأظهر الكفر الصريح، وقاتلوا المسلمين، وأخذوا الحجر الأسود، كما فعلته قرامطة البحرين". (٢٠٣٢)

وفي هذه المرحلة أيضاً ظهرت «الصفاتية" وهم وإن كانوا من أقرب المتكلمين إلى السنة إلا أنهم خالفوا قول أهل السنة بنفيهم للصفات الاختيارية، وعلى رأس أولئك عبد الله بن سعيد بن كلاب (٢٣٤هـ) والحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٣٤) وأبو العباس القلانسي وغيرهم، ومنذ ذلك الحين اتسعت دائرة التعطيل وعظم خطره وكثر خصوم السنة.

وهكذا الشأن إذا مكن لأهل البدع وكان لهم الدولة والسلطة، فإذا مُكِّن لهم بدولة وسلطة رأيت العجب العجاب. وهكذا الرافضة لم يكن لهم دولة حتى كان لهم من الجانب الإسماعيلي، دولة الفاطميين فبدأت لهم دولة، ومن الجانب الاثنا عشري الجعفري الإمامي فعندما ظهرت الدولة البويهية كان لها دور، ثم الدور الأظهر للدولة الصفوية، وكذلك حتى الأشاعرة أصبح لهم دولة لما قام ابن تومرت وأسَّس دولة الموحدين، فبدأ يُنْشَأُ لهم دولة، على يد المهدي بن تومرت (٥٢٤هـ) صاحب دولة الموحدين واسمه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت، الذي تلقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة، ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب ونشر دعوته بين أناس من البربر وغيرهم من الجهال الذي لا

٢٠٣٢ مجموع الفتاوى ٥/٥٥٨.



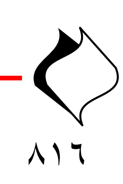
يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله فعلمهم بعض شرائع الإسلام واستجاز أن يظهر لهم أنواعاً من المخاريق ليدعوهم بها إلى الدين، وادعى أنه المهدي الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعظم اعتقاد أتباعه فيه، واستحلوا بسبب ما علمهم من المعتقد الأشعري والفلسفي دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية الذين كانوا على معتقد أهل السنة واتهموهم زوراً وبهتاناً أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة.

فهكذا الفكر إذا وجد له دولة أصبح له شر وخطر عظيم، إذا كان فكرًا منحرفًا عن الحق، فلما ظهر لهم دولة أصبحت لهم شوكة، وأصبحوا بعد ذلك يُكرِهون الناس كَرْهاً على أقوالهم ومقالاتهم.

وقول المصنف: "**وأخذوا بالقياس والرأي**" وهو يقصد المعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام الذين يأخذون بآرائهم وأهوائهم وشهواتهم ويتركون النصوص وتزعموا هذا المنهج مع من وافقهم على هذا الرأي، والمقصود هو استعمال الرأي في أمور العقيدة وأصول الدين، لأنه نمن العروف أن القياس والرأي إذا كان في الاجتهاديات فهو جائز بالضوابط الشرعية، بل الأصل في العالم والمجتهد أنه يقيس مسألة على مسألة ترجع إلى دليل، وكذلك يبدي رأيه في الاستدلال والترجيح، فهذا ليس هو المقصود هنا، إنما المقصود بالقياس والرأي المذموم ما كان في أصول الدين والعقيدة، لأنها توقيفية غيبية لا يعلمها إلا الله عز وجل.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: رَأْيُ أَفْقَهِ الْأُمَّةِ، وَأَبَرِّ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقِهِمْ عِلْمًا، وَأَقَلِّهِمْ تَكَلُّفًا، وَأَصَحِّهِمْ قُصُودًا، وَأَكْمَلِهِمْ فِطْرَةً، وَأَتَمِّهِمْ إدْرَاكًا، وَأَصْفَاهُمْ أَذْهَانًا، الَّذِي شَاهَدُوا التَّنْزِيلَ، وَعَرَفُوا التَّأْوِيلَ، وَفَهِمُوا مَقَاصِدَ الرَّسُولِ؛ فَنِسْبَةُ آرَائِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَقُصُودُهُمْ إلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–كَنِسْبَتِهِمْ إلَى صُحْبَتِهِ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ



مَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْفَرْقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ فِي الْفَضْلِ؛ فَنِسْبَةُ رَأْيِ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى رَأْيِهِمْ كَنِسْبَةِ قَدْرِهِمْ إِلَى قَدْرِهِمْ.

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: الرَّأْيُ الَّذِي يُفَسِّرُ النُّصُوصَ، وَيُبَيِّنُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ مِنْهَا، وَيُقَرِّرُهَا وَيُوَضِّحُ مَحَاسِنَهَا، وَيُسَهِّلُ طَرِيقَ الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهَا، كَمَا قَالَ عَبْدَانُ: سَمِعْت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ يَقُولُ: لِيَكُنْ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْأَثَرُ، وَخُذْ مِنْ الرَّأْيِ مَا يُفَسِّرُ لَك الْحَدِيثَ، وَهَذَا هُوَ الْفَهْمُ الَّذِي يَخْتَصُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

وَمِثَالُ هَذَا رَأْيُ الصَّحَابَةِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-فِي الْعَوْلِ فِي الْفَرَائِضِ عِنْدَ تَزَاحُمِ الْفُرُوضِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَنَا عَاصِمٌ الْأَحْوَلُ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ الْكَلَالَةِ، فَقَالَ: إنِّي سَأَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، أَرَاهُ مَا خَلَا الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ.

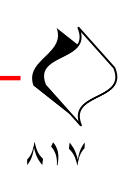
"فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَا مَعَ مَا صَحَّ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: "أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إنْ قُلْت فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِي "، وَكَيْفَ يُجَامِعُ هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي تَقَدَّمَ «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»؟

فَالْجَوَابُ أَنَّ الرَّأْيَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: رَأْيٌ مُجَرَّدٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ خَرْصٌ وَتَخْمِينٌ، فَهَذَا الَّذِي أَعَاذَ اللَّهُ الصِّدِّيقَ وَالصَّحَابَةَ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: رَأْيٌ مُسْتَنِدٌ إلَى اسْتِدْلَالٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مِنْ النَّصِّ وَحْدَهُ أَوْ مِنْ نَصٍّ آخَرَ مَعَهُ،

فَهَذَا مِنْ أَلْطَفِ فَهْمِ النُّصُوصِ وَأَدَقِّهِ.



النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: الَّذِي تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَتَلَقَّاهُ خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهِمْ؛ فَإِنَّ مَا تَوَاطَئُوا عَلَيْهِ مِنْ الرَّأْيِ لَا يَكُونُ إلَّا صَوَابًا، كَمَا تَوَاطَئُوا عَلَيْهِ مِنْ الرِّوَايَةِ وَالرُّؤْيَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَصْحَابِهِ وَقَدْ تَعَدَّدَتْ مِنْهُمْ رُؤْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ» فَاعْتَبَرَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَوَاطُؤَ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ، فَالْأُمَّةُ مَعْصُومَةٌ فِيمَا تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ رِوَايَتِهَا وَرُؤْيَاهَا، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ سَدَادِ الرَّأْيِ وَإِصَابَتِهِ أَنْ يَكُونَ شُورَى بَيْنَ أَهْلِهِ، وَلَا يَنْفَرِدُ بِهِ وَاحِدٌ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَوْنِ أَمْرِهِمْ شُورَى بَيْنَهُمْ، وَكَانَتْ النَّازِلَةُ إذَا نَزَلَتْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لَيْسَ "عِنْدَهُ فِيهَا نَصٌّ عَنْ اللَّهِ وَلَا عَنْ رَسُولِهِ جَمَعَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ جَعَلَهَا شُورَى بَيْنَهُمْ.

النَّوْعُ الرَّابِعُ مِنْ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: أَنْ يَكُونَ بَعْدَ طَلَبِ عِلْمِ الْوَاقِعَةِ مِنْ الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا فِي الْقُرْآنِ فَفِي السُّنَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا فِي السُّنَّةِ فَبِمَا قَضَى بِهِ الْخُلَفَاء "الرَّاشِدُونَ أَوْ اثْنَانِ مِنْهُمْ أَوْ وَاحِدٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ فَبِمَا قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ وَنَظَرَ إلَى أَقْرَبِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَقْضِيَةِ أَصْحَابِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الرَّأْيُ الَّذِي سَوَّغَهُ الصَّحَابَةُ وَاسْتَعْمَلُوهُ، وَأَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ.[٢٠٣٣]

وقوله: **"وكفروا من خالفهم"** فكل من لم يقل بقولهم كفروه ومن ذلك قولهم: إن القرآن مخلوق فهو كافر عند المعتزلة ومن وافقهم.

قال ابن تيمية: "وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَحَدٌ إلَّا وَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَقَالَةٌ يُكَفِّرُ قَائِلُهَا عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَصْحَابَهُ وَفِي التَّعْمِيمِ مَا يُغْنِي عَنْ التَّعْيِينِ

٢٠٣٣ إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٦٣-٦٨

فَأَيُّ فَرِيقٍ أَحَقُّ بِالْحَشْوِ وَالضَّلَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُودَ الرِّدَّةِ فِيهِمْ كَمَا يُوجَدُ النِّفَاقُ فِيهِمْ كَثِيرًا. وَهَذَا إذَا كَانَ فِي الْمَقَالَاتِ الْخَفِيَّةِ فَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ فِيهَا مُخْطِئٌ ضَالٌّ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ صَاحِبُهَا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ فِي طَوَائِفَ مِنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ؛"٢٠٣٤

قال ابن تيمية رحمه الله: "ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم". ٢٠٣٥

وأمر إنزال الأحكام على الأنام مِن أخطر ما يكون؛ إذ هما حق لله ولرسوله ﷺ، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنَّ الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله؛ ليس لأحد في هذا حكم، وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه اللهُ ورسولُه؛ وتحريم ما حَرَّمه الله ورسوله، وتصديق ما أخبر الله به ورسوله» (٢٠٣٦).

وقوله: **"فدخل في قولهم الجاهل والمغفل والذي لا علم له"** فالجاهل لجهله تبع المعتزلة، والمغفل كذلك، وكذلك من لا علم له، أما صاحب البصيرة والفطنة فلا يقبل قولهم.

إذاً: دخل في قولهم ثلاثة أصناف من الناس:

الصنف الأول: الجاهل.

٢٠٣٤ مجموع الفتاوى ٤/ ٥٣

٢٠٣٥ منهاج السنة النبوية ٤ /٥٤٣

(٢٠٣٦) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥٤، ٥٥٥).



والثاني: المغفل.

والثالث: الذي لا علم له.

قال ابن رجب الحنبلي: "وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم. فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله. ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين.

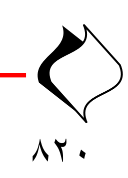
وهذا يلزم منه ما قبله لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولا ممن كان قبلهم فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله كان أعلم ممن كان أقل منهم قولا بطريق الأولى. كالثوري والأوزاعي والليث. وابن المبارك. وطبقتهم. وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضاً.

فإن هؤلاء كلهم أقل كلاماً ممن جاء بعدهم وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم ونسبته لهم إلى الجهل وقصور العلم ولا حول ولا قوة إلا بالله ولقد صدق ابن مسعود في قوله في الصحابة أنهم أبر الأمة قلوباً. وأعمقها علوماً. وأقلها تكلفاً. وروي نحوه عن ابن عمر أيضاً. وفي هذا إشارة إلى أن من بعدهم أقل علوماً وأكثر تكلفاً.

وقال ابن مسعوداً أيضاً: "إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه فمن كثر علمه، وقل قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم".٢٠٣٧

وقوله: **"حتى كفروا من حيث لا يعلمون"** أي: بهذه المقالة.

٢٠٣٧ بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص٤



وقوله: **"فهلكت الأمة من وجوه"** أي: هلكت الأمة من هذا الوجه حيث إنهم صدقوهم وأخذوا بقولهم واتبعوهم.

وقوله: **"وكفرت من وجوه"** يعني: من تبعهم في القول بخلق القرآن.

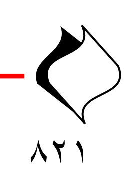
وقوله: **"وتزندقت من وجوه"** الزندقة هي النفاق، أي: أن من الناس من كفر، ومن الناس من تزندق وصار منافقاً، ومن الناس من ضل وصار مبتدعاً، والنتيجة أن هلكت الأمة من هذه الوجوه.

فقد ظهر في ذلك الزمان الخرمية، وهم أول القرامطة الباطنية الذين كانوا في الباطن يأخذون بعض دين الصـــابئين المبدلين، وبعض دين المجوس، كما أخذوا عن هؤلاء كلامهم في العقل والنفس، وأخذوا عن هؤلاء كلامهم في النور والظلمة، وكسوا ذلك عبارات وتصـــرفوا فيه وأخرجوه إلى المســـلمين، وكان من القرامطة الباطنية في الإســـلام ما كان، وهم كانوا يميلون كثيرا إلى طريقة الصـــابئة المبدلين، وفي زمنهم صنفت رسائل إخوان الصفا، وذكر ابن سينا أن أباه كان من أهل دعوتهم من أهل دعوة المصـــريين منهم، وكانوا إذ ذاك قد ملكوا مصـــر وغلبوا عليها، قال ابن ســـينا وبســـبب ذلك اشـــتغلت في الفلســـفة لكونهم كانوا يروتها، وظهر في غير هؤلاء من التجهم ما ظهر[٢٠٣٨].

وقوله: **"وضلت من وجوه [وتفرقت] وابتدعت من وجوه"**

وظهر بذلك تصـــديق ما أخبر به النبي صـــلى الله عليه وســـلم كما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) قالوا

٢٠٣٨ بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤٧٨.



يا رسول الله: اليهود والنصارى((قال فمن))[٢٠٣٩]، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر وذراعا بذراع" فقيل يا رسول الله كفارس والروم قال: "فمن الناس إلا أولئك"[٢٠٤٠] ومعلوم أن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المجوس والصابئين والمشركين فكان أول ما ظهر من البدع فيه شبه من اليهود والنصارى.

والنبوة كل ما ظهر نورها انطفت البدع، وهي في أول الأمر كانت أعظم ظهورا فكان إنما يظهر من البدع ما كان أخف من غيره، كما ظهر في أواخر عصر الخلفاء الراشدين بدعة الخوارج والتشيع، ثم في أواخر عصر الصحابة ظهرت القدرية والمرجئة، ثم بعد انقراض أكابر التابعين ظهرت الجهمية، ثم لما عربت كتب الفرس والروم ظهر التشبه بفارس والروم."[٢٠٤١].

وقوله: **"إلا من ثبت على قول رسول صلى الله عليه وسلم وأمره وأمر أصحابه، ولم يخطئ أحداً منهم، ووسعه ما وسعهم، ولم يرغب عن طريقتهم ومذهبهم"** أي: لم يرغب عنها بل رغب فيها.

فإقامة دين الله وتحقيقه يكون عن طريق ما شرع في هذا الدين، لا عن طريق البدع وما تهواه النفوس فالبدع قد حذرنا نبينا صلى الله عليه وسلم منها بقوله: "إياكم ومحدثات الأمور" وهذا الحديث يعني في هذا المقام أن ليس لأحد الحق في التعبير عن ذلك إلا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فعلى المسلم أن يدرك هذا الأمر وليحذر من سبل أهل الضلال والانحراف.

٢٠٣٩ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لتتبعن سنن من كان قبلكم". انظر: فتح الباري (٣ /٣٠٥) ح ٠ ٧٣٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٥٧/٨).

٢٠٤٠ صحيح البخاري (٧٣١٩) .

٢٠٤١ بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤٧٨.

قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}٢٠٤٢.

ولقد حكم الله عز وجل بالضلال على هذا الصنف فقال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ}٢٠٤٣.

فالمتبعون لأهوائهم المحكمون لها، لابد وأن يكونوا نابذين لهدي الله المتمثل في الكتاب والسنة، واللذين يشتملان على قواعد هذا الدين وأصوله والتي من ضمنها تحريم الابتداع في الدين والإحداث فيه، وتحريم الغلو بشتى مظاهره وأشكاله، وتحريم الشرك بمختلف صوره وألوانه.

ولذلك حكم الله بضلالهم وغوايتهم وبعدهم عن الصراط المستقيم. فحري بأمثال هؤلاء أن يقلعوا عن غيهم، وأن يتحكموا في عواطفهم كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وإن الناظر في أحوال أولئك المفتونين بالبدع تحت دعوى الدين يجد أنهم قد رغبوا في تلك الأمور المبتدعة لأنها أمور لا مشقة فيها على النفس فجعلوها بدلا مما يجب عليهم من الأعمال والطاعات التي تشق على نفوسهم الضعيفة المريضة.

ويحق للمرء أن يتساءل أي حق يجيز لهؤلاء أن يبتدعوا في دين الله بزيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل؟ لا شك أن فعل هذه الأمور يناقض الدين ويضاده جملة وتفصيلا، ولا عذر لفاعله فيما أقدم عليه، وإن كان فعل ذلك بحسن نية، فحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين، فلقد كان جل ما أحدث أهل الملل قبلنا من التغيير في دينهم عن حسن نية، فمازالوا على حالهم تلك حتى صارت أديانهم على غير ما جاءت به رسلهم.

٢٠٤٢ الآية (١٥٣) من سورة الأنعام.

٢٠٤٣ الآية (٥٠) من سورة القصص.

ومما يؤسف له أن كثيرا من الناس يتمسك بتلك البدع تقليدا لمشايخه أو عشيرته أو أهل بلده. إلى غير ذلك من العصبيات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي أعمت بصائر الكثير منهم وأضلتهم عن سبيل الله.

ولقد كان من الحري بهؤلاء أن يقتدوا بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا أشد الأمة محبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وأشدهم تعظيما له وكانوا أحرص الناس على الخير ممن جاء بعدهم، والذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في هذا السبيل. فلقد كان من سنن الصحابة رضوان الله عليهم حرصهم على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم يؤمنون بأن منشأ محبته وثباتها قوتها إنما يكون بمتابعته صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وسلوكه وتصرفاته.

كما أنهم يؤمنون بأن الابتداع في الدين يضاد الدين وينافيه ولذلك لم يعهد عنهم أنهم ابتدعوا أشياء من عند أنفسهم كما ابتدع المتأخرون ما ابتدعوه من البدع.

وقوله: **"وعلم أنهم كانوا على الإسلام الصحيح والإيمان الصحيح"**

أي: تيقن أن الصحابة كانوا على الإسلام الصحيح والإيمان الصحيح. فإذا كان هذا هو شأن الصحابة فيما أثر عنهم من الآثار وهم المشهود لهم بأنهم أشد الأمة تمسكًا وحرصًا على الدين، أفلا يسع من جاء بعدهم ما وسعهم، فيتركوا تلك الأمور المبتدعة التي أحدثت من بعدهم، والتي لم يأذن بها الله ولم تكن من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، من ولا من عمل أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، ومن لم يتسع له ما اتسع للصحابة رضي الله عنهم، فلا وسع الله عليه في الدنيا ولا في الآخرة.

فعن قتادة قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى

الله عليه وسلم، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم"٢٠٤٤.

وقوله: **"فقلدهم دينه [واستراح]"** يعني اتبعهم، وليس معناه التقليد بغير بصيرة.

وقوله: **"وعلم أن الدين إنما هو بالتقليد، والتقليد دين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم"** والمراد بالتقليد الاتباع، وإلا فالتقليد مذموم إذا كان بغير بصيرة.

فنؤمنُ بأن أصحابَ النبي ﷺ كما وصفهم ابن مسعود حينما قال: **"من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ "**(٢٠٤٥)، أولئك أصحابُ محمد أبَرُّ هذه الأمةِ قلوباً وأعمُقها علماً، وأقلها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه وإقامةِ دينه فاعرفوا لهم حقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، وكما أُثِر عنه رضي الله عنه حيث قال: **"إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبعُ ولا نبتدع"**.

فأصحابُ النبي ﷺ خيرُ هذه الأمة، والله تعالى قد زكَّاهم في كتابه وأمرَ بلزومِ سبيلهم حيث قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرضيَ الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار رضاءً مطلقا بدونِ قيد، ورضيَ عنهم بعدهم رضاءً مقيَّداً.. مقيَّداً بأي أمر؟ باتباعهم بإحسان ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾

٢٠٤٤ جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٩).

(٢٠٤٥) رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/٩٤٧ــــ رقم ١٨١٠)، وفي إسناده ضعف، إلا أنه أثر مشهور متداول في مصنفات أهل السنة، ومعناه صحيح مستقر عندهم.

ونهى الله سبحانه وتعالى عن الافتراقِ عنهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

نهى عن الافتراقِ عن هذا الطريقِ وهذا السبيل، والمعالم بحمد لله تعالى واضحة، مرجعيةٌ استقامَ عليها الأوائل وحفظوها لنا بأسانيدها الصحيحةِ الثابتة ونقلوها لنا، وأصبحت-بحمد الله تعالى-ميراثاً سليماً من كل بدعةٍ ومن كل شائبة يتوارثه أهل السنَّةِ جيلاً بعدَ جيل، وينقله الخيارُ من هذه الأمة، ينقله ورثةُ الأنبياء لكلِّ جيلٍ من هذه الأجيال.

فلذلك لا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بثباته وعدمِ اضطرابه، ولا عجبَ أن يتسمَ هذا المنهج بلزومِ كلام الله وبلزومِ كلام رسولهﷺ، ولا عجبَ أن يستمرَ هذا الإسناد محفوظاً جيلاً بعدَ جيل.

فهذه هي مرجعيةُ أهل السنَّة التي بحمد الله تعالى نُقلِت لنا في كتبِ الاعتقاد، ولزِمَها أهلُ السنَّةِ على مدى هذه الأزمانِ وعلى هذه الأعصار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخصٍ انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًا، إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ؛ فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مُسَلَّمًا إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابه، ولو

كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله ﷺ وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول، قبل وجود المتبوعين الذين تُنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاءوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قِيلَ في دين الإسلام، مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل(٢٠٤٦).

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾(٢٠٤٧)

وقال أيضـًا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠﴾(٢٠٤٨).

(المتن)

(٢٠٤٦) منهاج السنة ج٥/٢٦١-٢٦٣.

(٢٠٤٧) التوبة.

(٢٠٤٨) الحشر.

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٩٤] "واعلم أن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو مبتدع، ومن سكت فلم يقل: مخلوق ولا غير مخلوق، فهو جهمي، هكذا قال أحمد بن حنبل. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، وعليكم بسنتي «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ»".(٢٠٤٩).

الشرح

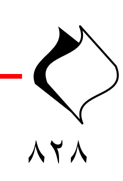
قول المصنف: **"واعلم أن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو مبتدع، ومن سكت فلم يقل: مخلوق ولا غير مخلوق، فهو جهمي، هكذا قال أحمد بن حنبل.**

صفة الكلام تأتي–من حيث الأهمية–بعد صفة العُلو لله سبحانه وتعالى؛ لذلك اهتم بها أئمة السلف، وأكدوا على ثُبوتها لله تعالى حقيقة، وأوردوا في ذلك أدلة كثيرة، ودفعوا شبهات المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومَن دَار في فَلَكِهم القائلين بأنَّ الله خلق القرآن في غيره، وردوا كذلك على الكلَّابية الذين قالوا: القرآن حكاية عن كلام الله، وردوا–أيضًا–على الأشاعرة الذين قالوا: القرآن عبارة عن كلام الله.

فالمعطلة أرادوا بقولهم هذا: إسقاط قيمة الوحي؛ ليصبح لدى الناس خلل في اتباع الوحي، فأهل السنة يؤمنون بأن أول مصدر للتشريع هو وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ، أي: كلامه بحروفه ومعانيه، وأن الله تعالى قاله بحرف وصوت.

ومن أركان الإيمان السِّتة: الإيمانُ بالكُتُبِ التي أنزلها اللهُ، كما دلَّ على ذلك قولُه سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

٢٠٤٩ انظر سنن أبي داود برقم (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال عقبه: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ (١٧١٤٢)، والدارمي (٩٦)، وقال الشيخ الالباني في صحيح الجامع الصغير الجزء الثاني، صفحة (٨٠٥): صحيح.



وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦]، وكذلك جاء في حديث جبريل عليه السلام، وفيه: «الإيمان، قال: «أن تُؤمن باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، وتُؤمن بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه»(٢٠٥٠).

ومن الإيمانِ بالكتب: الإيمانُ بِأَنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ.

والقرآنُ في الأصل: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا؛ قال الله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}، أي: قراءته، فهو مَصدر على وزن فُعلان–بالضم– كالغُفران والشُّكران (٢٠٥١).

وفي الاصطلاح هو: «كلام الله المنَزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس"(٢٠٥٢).

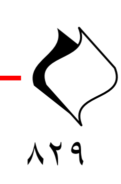
والقرآنُ كلامُ الله، وهو صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ عز وجل؛ قال تَعَالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وروي عن جَابِر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قَالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفسَهُ فِي المَوْسِمِ؛ فَيَقُولُ: «أَلَا رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي"(٢٠٥٣).

(٢٠٥٠) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢٠٥١) انظر: «لسان العرب» (١/ ١٢٩)، و«مناهل العرفان» للزرقاني (١/ ٧).

(٢٠٥٢) انظر: «مناهل العرفان» (١/ ١٠-١٣)، و«مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص ٢٠-٢١)، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢٠٥٣) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، والحاكم (٢/ ٦٦٩) وصححه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال في «المجمع» (٦/ ٣٥): «رجاله ثقات».



وَالذِي عَلَيهِ إِجماعُ السَّلفِ الصَّالحِ مِنَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم وَالتَّابعِينَ لَهم بِإحسَانٍ: أَنَّ القرانَ كلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ حُرُوفه وَمَعَانِيه، مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ نَزَلَ بِهِ جِبريلُ عليه السلام إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ.

وقالَ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله: «وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَخَلَفِهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ سَمِعَهُ مِن اللَّهِ عز وجل"(٢٠٥٤).

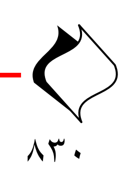
ثم قال: «الآثار مُتواترة عنهم-أي: عن الصحابة والتابعين-بأنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله، ولما ظهر مَن قال: إنه مخلوق، قالوا ردًّا لكلامه: إنه غير مخلوق، ولم يريدوا بذلك أنه مُفترى، كما ظنه بعض الناس؛ فإن أحدًا من المسلمين لم يَقل: إنه مفترى، بل هذا كفر ظاهر يَعلمه كل مسلم، وإنَّما قالوا: إنه مخلوق خلقه الله في غيره، فرَدَّ السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك، وصنفوا في ذلك مصنفات متعددة، وقالوا: «منه بدأ وإليه يعود».

وأوَّل مَن عُرف أنه قال: مخلوق-الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان.

وأول مَن عُرف أنه قال: هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول؛ فمنهم مَن قال: الكلام معنى واحد قائم بذات الرَّبِّ، ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يَتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل هو مخلوق خلقه في غيره.

وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار؛ فإنَّه مِن المعلوم بصريح العقل أن معنى (آية الكرسي) ليس معنى (آية الدَّيْن)، ولا معنى {قل هو الله أحد} معنى {تبت يدا أبي لهب وتب}؛ فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه؟!

(٢٠٥٤) «مجموع الفتاوى» (٥/٢٣٣).



ومنهم مَن قال: هو حروف، أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يَزل ولا يزال موصوفًا بها.

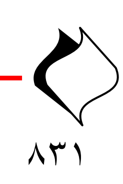
وكلا الحزبين يقول: إن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وإنه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا إبراهيم، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين، ولم يقل أحدٌ من السلف: إنَّ هذا القرآن عبارة عن كلام الله، ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم: إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق، فضلًا عن أن يقول: إن صوتي به قديم أو غير مخلوق؛ بل كانوا يقولون بما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يَقرءونه بأصواتهم، ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مَخلوق» (٢٠٥٥).

وأما المعتزلة والجهمية فقالوا: القرآن كلام الله مخلوق؛ فهم أضافوا الكلام إلى الله من باب إضافة الوصف على حد قولهم: (ناقة الله).

ومن المتفلسفة مَن يزعم أن المعاني والحروف تأليفه؛ لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم على غيره من العلماء.

وقال شيخُ الإسلام: «وَالَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَإِنَّمَا قَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ» لِأَنَّ الجَهْمِيَّة-مِن المعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ-كَانُوا يَقُولُونَ: إنَّهُ خَلَقَ الكَلَامَ فِي المحَلِّ. فَقَالَ السَّلَفُ: «مِنْهُ بَدَأَ». أَيْ: هُوَ المتَكَلِّمُ بِهِ؛ فَمِنْهُ بَدَأَ، لَا مِنْ بَعْضِ المخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة:١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

(٢٠٥٥) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٠١، ٣٠٢).



وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: «إِلَيْهِ يَعُودُ»: أَنَّهُ يُرْفَعُ مِن الصُّدُورِ وَالمصَاحِفِ؛ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا مِنْهُ حَرْفٌ، كَمَا جَاءَ فِي عِدَّةِ آثارٍ» (٢٠٥٦).

وأمَّا قوله رحمه الله: «وَأَنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَام غَيْرِهِ» فيريدُ به شيخُ الإسلامِ: أنَّ اللهَ تكلَّمَ بالقرآنِ حقيقةً، وَأَنَّهُ لَيسَ بِكَلَامِ جبريل، وَلَا كلامِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وفي قوله رحمه الله: «وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ القَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ» يُشير به إِلَى الكُلَّابيَّة الذينَ قالوا: إِنَّهُ حكايةٌ، وَإِلَى الأشاعرةِ الذينَ قالوا: إِنَّهُ عبارةٌ، فالكُلَّابيَّة والأشاعرةُ متفقونَ عَلَى أنَّ هَذَا القرآنَ الذي بَينَ أيدينَا ليسَ كلامَ اللهِ، بَل هُوَ إِمَّا حِكَاية أَو عبارَة؛ فَالأشاعرةُ يقولونَ: إنَّ اللهَ عَبَّرَ عن كلامِهِ النفسِيّ بحروفٍ وَأصواتٍ مخلوقةٍ.

والكُلَابيَّة يقولونَ: إنَّ القرآنَ معنى قائم بذاتِ اللهِ، وأنَّهُ لا يُسْمَعُ عَلَى الحقيقةِ، والحروفُ والأصواتُ حكايةٌ لَهُ ودالَّةٌ عَلَيهِ، كَمَا يَحْكِي الصَّدَى كلامَ المتكلِّمِ.

وقوله رحمه الله: «بَل إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً؛ فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا»- يريدُ به شيخُ الإسلامِ رحمه الله: أنَّ القرآنَ-وإن حُفِظَ فِي الصُّدورِ، أو تُلِيَ بالألسنِ، أو كُتِبَ في المصاحفِ، أو سُمِعَ بالآذانِ-فإنَّ ذلكَ لا يُخرجُهُ عن كونِهِ كلام اللهِ وإن بلغهُ الرسولُ الملَكِي جبريلُ للرَّسولِ البشريّ محمَّدٍ ﷺ، وبلغَهُ نبينا محمَّد ﷺ لأُمَّتِهِ، فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضَافُ حقيقةً إلى مَن قالَهُ مُبتدئًا، لا إِلَى مَن قالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

قال العلَّامةُ ابنُ عُثَيمين رحمه الله: «قوله: «هو كلامُ الله؛ حُرُوفه ومَعانيه»-هذا مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجَماعَة. قالوا: إنَّ اللهَ-تَعَالَى-تَكَلَّمَ بالقرآنِ بِحُرُوفِهِ وَمَعانِيهِ.

(٢٠٥٦) «مجموع الفتاوى» (٦/٥٢٨، ٥٢٩).

وقوله: «ليس كلامُ الله الحُرُوفُ دون المعاني». وهذا مذهبُ المعتزلَةِ وَالجهميَّةِ؛ لِأَنَّهُم يقولونَ: إِنَّ الكلامَ ليسَ معنًى يقومُ بذاتِ اللهِ، بل هُوَ شـــيءٌ مِن مَخلوقَـاتِهِ؛ كَالسـماءِ والأرضِ والناقةِ والبيتِ، وما أشـبهَ ذلكَ؛ فليسَ معنًى قائمًا فِي نفسِـهِ، فكلامُ اللهِ حروفٌ خَلَقَهَا اللهُ عز وجل، وَسَمَّاها كلامًا، كَمَا خَلَقَ الناقةَ، وسمَّاهَا ناقة اللهِ، وَكَمَا خَلَق البيتَ، وَسَمَّاه بَيت اللهِ.

وَلِهَذَا كـانَ الكلامُ عندَ الجهميَّةِ والمعتزِلَـةِ هُوَ الحروفُ؛ لِأَنَّ كلامَ اللهِ عنـدَهُم عبارةٌ عَن حروفٍ وأصواتٍ خَلَقَهَا اللهُ عز وجل، وَنَسَبَهَا إِلَيهِ تَشريفًا وَتَعظِيمًا.

قوله: «ولا المعاني دون الحُرُوف»:

وَهَذَا مَذهَبُ الكُلَابيَّةِ وَالأشـعَرِيَّةِ؛ فَكَلامُ اللهِ عِندَهُم مَعنًى فِي نَفسِـهِ، ثُمَّ خَلَقَ أَصوَاتًا وَحُرُوفًا تَدُلُّ عَلَى هَذَا المعنَى؛ إِمَّا عِبَارة أَو حِكَايَة.

وأما مسـألة: هل اللفظ بالقرآن مخلوق أو لا؟ هل يجوز أن يقول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق؟

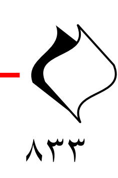
فـاللفظ يأتي بمعنى: التلفظ، ويأتي بمعنى الملفوظ؛ هـل هو الملفوظ الخـارج، أو حركة اللسان التلفظ؟

فمعلوم أنه إن أريد الأول وهو التلفظ: فالتلفظ من أفعال العبد، وأفعال العباد مخلوقة.

وإن عُني باللفظ الملفوظ فالملفوظ هو القرآن.

لهذا صارت الكلمة محتملة، واستعمال المحتملات في العقيدة بدعة؛ فإنه لا يجوز أن تسـتعمل مثل هذه العبارة التي قد تحتمل شـيئًا آخر؛ فيفهم الناس منها فهمًا غير سليم.

ولهذا كان الإمام أحمد يقول: «مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع أيضًـــا»؛ لأنها تحتمل هذه وهذه، وقد



سكت السلف عن الإطلاق؛ لأنَّ الألفاظ المحتملة فيما يتصل بذات الله جل وعلا أو صفاته أو أفعاله أو أمور العقيدة والغيبيات لا يجوز استعمالها، وينهى عنها.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله:

وَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ فَالْ *** إِطْلَاقُ وَالإِجْمَالُ دُونَ بَيَانِ

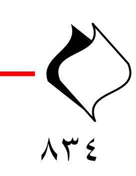
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الوُجُودَ وَخَبَّطَا الـ *** أَذْهَانَ وَالآرَاءَ كُلَّ زَمَانِ (٢٠٥٧)

ومعلوم أنه ثَمَّ فرق ما بين التلاوة وبين المتلو، وما بين الدراسة والمدروس، وما بين القراءة والمقروء، فكما قال أئمة السلف: الصوت صوت القاري والكلام كلام الباري جل وعلا، فالجهة منفكة لا تلازم بين التلاوة والمتلو؛ لأن التلاوة فِعل العبد والمتلو كلام الله جل وعلا، ولهذا بدَّع السلف من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ لأن كلمة (لفظي) تحتمل أن يكون المراد التلفظ الذي هو عمل العبد؛ فتكون الكلمة صحيحة، وأما الملفوظ فهو كلام الحق جل وعلا فليس بمخلوق.

لذا استعمل هذه اللفظة بعض أهل البدع والاعتزال والجهمية ليستروا قولهم بخلق القرآن؛ فاستعملوا قولًا محتملًا حتى لا يقعوا في المساءلة والعقاب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة، صارت طائفة يقولون إن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا، وعارضهم طائفة

(٢٠٥٧) انظر: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لابن القيم.



أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة. فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع."[٢٠٥٨]

وقول المصنف: **"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، وعليكم بسنتي «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ»"**

تقدم شرح المسائل المتعلقة بهذا الحديث في أكثر من موضع من هذا الشرح.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[٩٥] "واعلم أنه إنما جاء هلاك الجهمية أنهم [فكروا] في الرب، فأدخلوا لم وكيف، وتركوا الأثر، ووضعوا القياس، وقاسوا الدين على رأيهم فجاءوا بالكفر عيانا لا يخفي أنه كفر، وأكفروا الخلق واضطرهم الأمر حتى قالوا بالتعطيل.

وقال بعض العلماء–منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه–: الجهمي كافر، ليس من أهل القبلة، حلال الدم، لا يرث ولا يورث؛ لأنه قال: لا جمعة ولا جماعة، [ولا عيدين] ولا صدقة[٢٠٥٩]، وقالوا: إن من لم يقل: القرآن مخلوق فهو كافر، واستحلوا السيف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وخالفوا من كان قبلهم، وامتحنوا الناس بشيء لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من أصحابه، وأرادوا تعطيل المساجد والجوامع، وأوهنوا الإسلام، وعطلوا الجهاد، وعملوا في لفرقة، وخالفوا الآثار، وتكلموا بالمنسوخ، واحتجوا

٢٠٥٨ مجموع الفتاوى ٧/ ٦٥٥

٢٠٥٩ انظر كتاب طبقات الحنابلة الجزء الثاني، صفحة.(٣٠)

بالمتشابه، فشككوا الناس في آرائهم وأديانهم، واختصموا في ربهم، وقالوا: ليس عذاب قبر، ولا حوض ولا شفاعة، والجنة والنار لم يخلقا، وأنكروا كثيرا مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستحل من استحل تكفيرهم ودماءهم من هذا الوجه؛ لأن من رد آية من كتاب الله فقد رد الكتاب كله، ومن رد أثرا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رد الأثر كله، وهو كافر بالله العظيم، فدامت لهم المدة، ووجدوا من السلطان معونة على ذلك، ووضعوا السيف والسوط دون ذلك، فدرس علم السنة والجماعة [وأوهنوهما] وصارتا مكتومين؛ لإظهار البدع والكلام فيها ولكثرتهم، واتخذوا المجالس، وأظهروا رأيهم، ووضعوا فيها الكتب، وأطمعوا الناس، وطلبوا لهم الرياسة، فكانت فتنة عظيمة لم ينج منها إلا من عصم الله، فأدنى ما كان يصيب الرجل من مجالستهم أن يشك في دينه، أو يتابعهم أو يزعم أنهم على الحق، ولا يدري أنه على الحق أو على الباطل، فصار شاكا، فهلك الخلق، حتى كان أيام جعفر –الذي يقال له المتوكل– فأطفأ الله به البدع، وأظهر به الحق، وأظهر به أهل السنة، وطالت ألسنتهم، مع قلتهم وكثرة أهل البدع إلى يومنا [هذا] والرسم وأعلام الضلالة قد بقي قوم يعملون بها، ويدعون إليها، لا مانع يمنعهم، ولا أحد يحجزهم عما يقولون ويعملون".

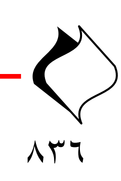
(الشرح)

شرع المصنف هنا في ذكر جملة من مقالات الجهمية ومنها:

قول المصنف: **"واعلم أنه إنما جاء هلاك الجهمية أنهم [فكروا] في الرب، فأدخلوا لم وكيف"**

وفي الحديث: ((تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ)) (٢٠٦٠).

(٢٠٦٠) كشف الخفاء للعجلوني الجزء أو الصفحة: ١/ ٣٧١، وقال: أسانيده ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة ومعناه صحيح، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧٦) حسن.



قال شيخ الإسلام-رحمه الله-، بعد أن أورد هذا الأثر: ((... لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة، والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة، وهي المخلوقات.

وأما الخالق-جل جلاله سبحانه وتعالى-فليس له شبيه ولا نظير، فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة، فيذكره العبد. وبالذكر، وبما أخبر به عن نفسه، يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة؛ لا تنال بمجرد التفكير والتقدير؛ أعني من العلم به نفسه؛ فإنه الذي لا تفكير فيه.

فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك، فيدخل فيها التفكير والتقدير، كما جاء به الكتاب والسنة)) (٢٠٦١).

فبيَّن-رحمه الله-، أن الله ﷻ-والمراد ذاته وصفاته-لا يدخل تحت مجال التفكير الإنساني، والعقل البشري القاصر؛ لأن مبنى التفكير على قياس الغائب على الشاهد، وإيجاد العلاقة بين النظير ونظيره، والله ﷻ ليس له ندٌّ ولا مثيلٌ ولا مسامٍ ولا نظيرٌ حتى يقاس عليه، أو توجد بينه وبينه علاقة، تؤدي إلى إدراك كنهه وحقيقته.

وفي حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: ((أَنَّ النَّبِي صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنِ الأُغْلُوطَاتِ)) (٢٠٦٢).

(٢٠٦١) مجموع الفتاوى (٤/٣٩-٤٠).

(٢٠٦٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٤٤)، كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا برقم (٣٦٥٦).

والإمام أحمد في المسند (٥/٤٣٥)، وقال محقق المسند حمزة أحمد الزين: "إسناده حسن"، (١٧/٧٨) برقم (٢٣٥٧٧-٢٣٥٧٨) ط/دار الحديث؛ وضعف إسناده الألباني كما في تخريج أحاديث مشكاة المصابيح (١/٨١).

قال عيسى بن يونس (٢٠٦٣) -رحمه الله-، وهو أحد رواة الحديث: ((والأغلوطات ما لا يحتاج إليه من كيف وكيف)) (٢٠٦٤).

وقال الخطابي-رحمه الله-في معالم السنن: "وفيه كراهية التعمق والتكلف فيما لا حاجة للإنسان إليه من المسائل، ووجوب التوقف عما لا علم للمسؤول به" (٢٠٦٥).

ولا شك أن معرفة حقيقة كنه الله ﷻ، وكيفية ذاته وصفاته، مما لا يحتاج إليه أحد، ولا يتوقف الإيمان به ﷻ على معرفة كيفية ذاته وصفاته، فالبحث في ذلك من التعمق والتكلف فيما لا حاجة للإنسان إليه، فوجب التوقف عما لا علم للإنسان به، ولا يمكنه أن يحيط به بحال من الأحوال.

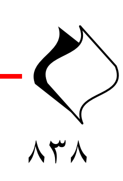
وقول المصنف: **"وتركوا الأثر، ووضعوا القياس، وقاسوا الدين على رأيهم فجاءوا بالكفر عيانا لا يخفي أنه كفر، وأكفروا الخلق واضطرهم الأمر حتى قالوا بالتعطيل"**.

فمن مقالات الجهمية أنهم اعتمدوا العقل علماً وأصلاً، وبعد ذلك بعقولهم الفاسدة أخذوا يطعنون في الشرع، ويتركون نصوص الكتاب والسنة، ويتركون ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ومن جاء بعدهم في هذا الباب، واعتمدوا على ظلمات مركبة من المنطق والفلسفة، وعقدوا عليها أموراً في هذا الباب أوجبت عند هؤلاء رد كثير من نصوص القرآن والسنة، ومن يقرأ في كتب القوم، يجد أن هذه الكتب اعتمدت على مقدمات منطقية فلسفية أخذوها من فلاسفة اليونان وفلاسفة

(٢٠٦٣) عيسى بن يونس بن أبي إسحاق الهمداني، أبو عمرو السبيعي، الكوفي الإمام القدوة، الحافظ الحجة، أخو الحافظ إسرائيل بن يونس، أخرج له أصحاب الكتب الستة، توفي سنة ١٨٧هـ.
انظر ترجمته في: السير (٨/٤٨٩)، تهذيب التهذيب (٣/٣٧١).

(٢٠٦٤) أورده ابن بطة في الإبانة (١/٤٠١).

(٢٠٦٥) معالم السنن (٥/٢٥٠).



الهند وغيرهم، وبنوا عليها معتقدهم في هذا الباب، وبالتالي فإن الصراع قائم بين نصوص الكتاب والسنة وبين فلسفة اليونان وفلسفة الهند وغيرها من الفلسفات التي تأثر بها هؤلاء وأدخلوها على المسلمين على صورة مضيئة توهم أن هذا هو الحق؟

قال ابن تيمية: "ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم في الغالب يعلم الذكي منهم والعاقل: أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة، وأن حجته ليست ببينة، وإنما هي كما -قيل فيها: (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) [الذاريات: ٨]

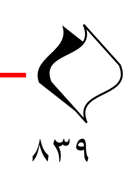
حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

ويعلم العليم البصير أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي رضي الله عنه حيث قال: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الكلام "٢٠٦٦.

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر – والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم – رحمتهم وترفقت بهم؛ أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهوما وما أعطوا علوما، وأعطوا سمعا وأبصارا وأفئدة (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون) [الأحقاف: ٢٦]. ومن كان عليما بهذه الأمور: تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه، وذموا أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد من الله إلا بعدا"٢٠٦٧

٢٠٦٦جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢ / ١٩٣

٢٠٦٧ مجموع الفتاوى ٥ / ١١٩



وقول المصنف: **"وقال بعض العلماء–منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه–: الجهمي كافر، ليس من أهل القبلة، حلال الدم، لا يرث ولا يورث؛ لأنه قال: لا جمعة ولا جماعة، [ولا عيدين] ولا صدقة"**

لفظ الجهمية تارة يراد به:

معنىً عامًّا يشمل كل من قال بنفي الصفات، فيدخل في ذلك أتباع الجهم، والمعتزلة، والكلابية، والأشاعرة، والماتريدية.

وقد شارك المعتزلة في نفي الصفات الروافض اليوم الإمامية الاثنا عشرية، والزيدية فهم في مسائل الأسماء والصفات يحملون فكر الاعتزال، فلو جئت إلى الزيدية، ولو جئت إلى الروافض تناقشهم في مسائل الصفات تجد أن ما عندهم هو ما عند المعتزلة.

وكذلك من الخوارج الإباضية اليوم فهم في مسائل الصفات وفي بعض المسائل على عقيدة الاعتزال، يدعون إليها بنفس الكلام الذي يقوله المعتزلة.

وتارة يراد به معنى خاصًا وهم الجهمية المحضة أتباع الجهم بن صفوان.

ولقد استفاض عن الأئمة تكفير الجهمية بالعموم، قال ابن القيم نقل تكفير الجهمية عن خمسمائة من العلماء، ونظم هذا في الكافية الشافية فقال:

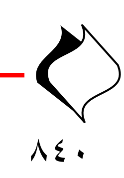
ولقد تقلد كفرهم خمسون في *** عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عن *** هم بل حكاه قبله الطبراني

كما استفاض عن الإمام أحمد، وغيره قولهم: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، وهذا قول الجهمية، والمعتزلة. ولا ريب أن من أقيمت عليه الحجة، وبين له بطلان بدعته، وظهر عناده؛ فإنه كافر؛ فيكفر بعينه، هذا وقد نقل الخلال[٢٠٦٨]، والخطيب البغدادي[٢٠٦٩] عن أحمد رحمه الله تكفير ابن أبي دؤاد.

٢٠٦٨ (السنة ٥/١١٧).

٢٠٦٩ (تاريخ بغداد ٤/١٥٣).



وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في: "وقد نقل عن الإمام أحمد أنه كفر قوماً معينين"[من الجهمية] ٢٠٧٠.

وقول المصنف: **"واستحلوا السيف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وخالفوا من كان قبلهم"**

ومن مقولات الجهمية وعلى رأسهم المعتزلة أنهم يرون الخروج على الأئمة بالسيف فهم يَرَوْن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون ضوابط شرعية، مما أدى إلى لازم ذلك من الخروج على جماعة المسلمين بالسيف والقتال.

ولا شَكَّ أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الإسلام، وشريعة من شرائعه، لكن لا بد أن تؤدى بالوسائل الشرعية، فيجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وأن ينهي عن المنكر، لكن لا يخرج على جماعة المسلمين بحجة أنه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر؛ لأنه إذا خرج عليهم بالسلاح كان إفساده أكثر من إصلاحه؛ ويترتب على خروجه من المنكر أعظم مما هم موجود وقائم.

وهناك شواهد عبر التاريخ مما صنع الخوارج والمعتزلة الذين خرجوا بالقوة على جماعة المسلمين بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فأفسدوا أكثر مما أصلحوا، فالمعتزلة يرون أنه إذا عصى ولي الأمر وفعل الكبيرة خرج من الإمامة فلا يطيعونه، بل إن من أصول الدين عندهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه الخروج على ولاة الأمور إذا جاروا وظلموا، والروافض كذلك يرون أنه ليس هناك طاعة إلا للإمام المعصوم، وأما ولاة الأمور الموجودين في كل وقت فهم كفرة فسقة يجب قتلهم وخلعهم وإزالتهم من الإمامة، ولا طاعة إلا للإمام المعصوم، وهم الأئمة الاثنا عشر الذي نص عليهم بزعمهم.

٢٠٧٠ (مجموع الفتاوى ١٢/٤٨٩).

ويستثنى من طوائف المتكلمين الأشعرية فإنهم لا يرون الخروج على الأئمة بالسيف موافقة لأهل الحديث كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. ٢٠٧١

قول المصنف: **"وامتحنوا الناس بشيء لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من أصحابه".**

سيأتي الحديث عن مسألة امتحان الناس على وجه التفصيل في الفقرة: (١٤٢).

وقول المصنف: **"وأرادوا تعطيل المساجد والجوامع، وأوهنوا الإسلام، وعطلوا الجهاد"**

فجهم وأتباعه يقولون: إن الإيمان عندهم مجرد التصديق، فمن صدق بقلبه فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان وإن تكلم بالكفر، وسب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وسخر بالدين، وأحل المحرمات، وفعل غير ذلك من الأمور التي هي كفر بواح.

فالجهمية مرجئة[٢٠٧٢]، وهم أشد فرق الإرجاء لأنهم قالوا يكفي في الإيمان المعرفة فقط.

ففرعون عندهم مؤمن وإبليس عندهم مؤمن.

٢٠٧١ مجموع الفتاوى (٦/٥٥).

٢٠٧٢ المرجئة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان، وهؤلاء يسمون مرجئة الفقهاء. وهم علماؤهم وأئمتهم وأحسنهم قولاً.

وقد استقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس هي:

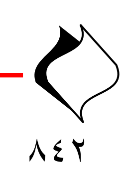
١-زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان وأن الإيمان هو التصديق.

٢-زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

٣-زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان.

القسم الثاني: الذين قالوا: "هو تصديق القلب فقط وإن لم يتكلم به".

وهذا قول الجهمية، وهو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه. فالجهم كان يقول إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به. وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول. ولكن هذا هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه؟! ولكن قالوا مع ذلك



ولم يكفر فرعون عندهم بعدم الإيمان وإنما بمخالفة الأمر، وإبليس لم يكفر بعدم الإيمان؛ بل بمخالفة الأمر، وهكذا، وهذا القول مشهور عنهم في أنه يثبت الإيمان بالمعرفة.

والتصديق عندهم يتساوى فيه العباد، ولا يقبل الزيادة والنقصان فهو إما أن يعدم وإما أن يوجد، ولا يقبل التبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، ولا يتفاضل الناس فيه، فإيمان الملائكة والأنبياء والصديقين وإيمان فساق الأمة وأهل الخنا والفجور سواء[٢٠٧٣].

وفي هذا القول استهانة بالأعمال وإخراجها عن مسمى الإيمان، التي من أعظمها الفرائض وأعظم الفرائض هي الصلاة، وكذلك من أعظم الأعمال الجهاد الذي هو من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرب به المتقربون وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض.

وقول المصنف: **"وعملوا في الفرقة"**

تعد مقالة التعطيل من أكثر المقالات خطورة نظراً لأبعادها الخطيرة التي تشكلها على الإسلام وأهله:

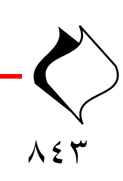
إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا على تكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة.

القسم الثالث: الذين يقولون: "الإيمان هو القول فقط".

فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار، وهذا قول الكرامية.

وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، بل يقولون إنه مؤمن كامل الإيمان، وإنه من أهل النار. ٢٠٧٢

٢٠٧٣ انظر مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢).



فالبعد الأول: الذي يدلل على خطورة هذه المقالة كونها تمس أعظم جوانب هذا الدين وأكبر مسائله ألا وهو الإيمان بالله عز وجل الذي هو أول أركان الإيمان وأعظم مبانيه.

فأصحاب هذه المقالة الأوائل سعوا في صد الناس عن هذا الدين من طريق الوقوف على بابه الذي يدخل منه، ذلك لأن من عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل. فأرادوا بتعطيلهم لأسماء الله وصفاته قطع الطريق من أوله.

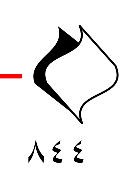
فبدعة هؤلاء كانت في أعظم مسائل الإيمان ألا وهي الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، بل أعظم مسائل الدين وهذا ما لم يسبقهم إليه أحد من أهل المقالات إلا القدرية فقد روى عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن أبي المعتمر سليمان بن طرخان التيمي (٢٠٧٤) قال: (ليس قوم أشد نقضاً للإسلام من الجهمية والقدرية، وأما الجهمية فقد بارزوا الله تعالى؛ وأما القدرية فقد قالوا في الله عز وجل) (٢٠٧٥)

ودخل رأس من رؤوس الزنادقة يقال له «شمعلة» على المهدي فقال: دلني على أصحابك. فقال: أصحابي أكثر من ذلك. فقال: دلني عليهم. فقال: صنفان ممن ينتحل القبلة: الجهمية والقدرية، الجهمي إذا غلا قال ليس ثم شيء وأشار إلى السماء. والقدري إذا غلا قال: هما اثنان، خالق خير وخالق شر فضرب عنقه وصلبه. (٢٠٧٦)

(٢٠٧٤) شيخ الاسلام أبو المعتمر سليمان بن طرخان القيسي البصري مولاهم، لم يكن تيميا بل نزل فيهم، ثقة عابد، مات سنة ١٤٣هـ (التقريب ١/٣٢٦).

(٢٠٧٥) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ١/١٠٤، ١٠٥ رقم (٨).

(٢٠٧٦) كتاب خلق أفعال العباد ص١١، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ١/٤٨.



وقال عبد الله بن المبارك: (ليس تعبد الجهمية شيئاً) (٢٠٧٧) وقد مضى عصر الصحابة (٢٠٧٨) وعقيدة الإيمان بأسماء الله وصفاته محفوظة مصونة. إلى أن ابتدع الجعد مقالته في أواخر عصر التابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام، أعني أن الله ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى استولى ونحو ذلك هو الجعد بن درهم) (٢٠٧٩)

وأما البعد الثاني: في خطورة هذه المقالة فهو كونها أول مقالة تعارض الوحي بالعقل، فلم تكن المقالات السابقة لهذه المقالة تطعن في الدين من هذا الجانب، فالخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة عند ظهورهم لم يدع أحد منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص، وإنما أتوا من سوء الفهم للنصوص والاستبداد بما ظهر لهم منها دون من قبلهم، فكانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على قولهم، ولا يدعون أنهم عندهم عقليات تعارض النصوص، فأصحاب مقالة التعطيل هم الذين فتحوا هذا الباب العظيم من أبواب الشر إذ طعنوا في نصوص الوحي وقدموا شبههم العقلية عليها. (٢٠٨٠)

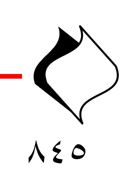
وأما البعد الثالث: لهذه المقالة فهو ما أفرزته هذه المقالة من الفرق والآراء المنحرفة، فقد تولد عن هذه المقالة أنماط مختلفة وطروحات غريبة عن جوهر الإسلام وصفائه.

(٢٠٧٧) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ١/١٠٩ رقم (١٧).

(٢٠٧٨) كان آخر الصحابة موتاً الطفيل عامر بن واثلة الليثي رضي الله عنه، وصحح الذهبي أنه مات سنة عشر ومائة. انظر تدريب الراوي ٢/٢٢٩،٢٢٨.

(٢٠٧٩) –الفتوى الحموية ص٤٧.

(٢٠٨٠) –انظر درء تعارض العقل والنقل ٥/٢٤٤.



وضربت هذه المقالة أطنابها في الفكر الإسلامي، ولا يتصور مدى الضرر الذي الحقته بحياة المسلمين وعقيدتهم.

فالتيار الفلسفي والكلامي بتفرعاته ومدارسه وطوائفه إنما هو نتاج هذه المقالة الخبيثة التي تولى كبر إظهارها شيخ المعطلة النفاة الجعد بن درهم، وتبعه في ذلك تلميذه الجهم بن صفوان ثم توالت طوائف الباطل تذكى نار هذه المقالة وتنفث من خلالها سمومها إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه."

قال المصنف: **"وخالفوا الآثار، وتكلموا بالمنسوخ، واحتجوا بالمتشابه، فشككوا الناس في آرائهم وأديانهم، واختصموا في ربهم"**

تنوع طعن المخالفين لأهل السنة في رد النصوص الواردة في القرآن والسنة، فمن الطعن في نصوص القرآن من حيث دلالتها والقول بأنها ظنية الدلالة، والطعن في نصوص السنة من حيث كونها أخبار آحاد، وتلون البعض منهم من حيث قبول النصوص في بعض أبواب الدين وعدم قبولها في البعض، مع أن القائل لها واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من المعلوم النبي ﷺ في هذه المسائل لم يتكلم بخلاف الحق ولم يرد خلاف الحق كما يزعم هؤلاء، فكلهم شكّكوا في هذه الأمور، فإذا كل من ظن أن غير الرسول ﷺ أعلم بهذا منه أو أكمل بياناً منه، أو أحرص على هدي الخلق منه، فهو من الملحدين لا من المؤمنين، فينبغي التنبه لهذه الحقيقة، والصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيل السلف هم في هذا الباب على الاستقامة.

فكلّ فريقٍ من أهل الباطل أصّل لنفسه أصلَ دينٍ صنعه؛ إمّا برأيه وقياسه الذي يُسمّيه عقليّات؛ وإمّا بذوقه وهواه الذي يُسمّيه ذوقيّات؛ وإمّا بما يتأوّله من القرآن، ويُحرّف فيه الكلم عن مواضعه، ويقول إنّه إنّما يتّبع القرآن كالخوارج؛ وإمّا بما يدّعيه في الحديث والسنّة ويكون كذباً وضعيفاً كما يدّعيه الروافض؛ من النصّ والآيات. وكثيرٌ ممّن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتجّ من القرآن بما يتأوّله على غير تأويله،

ويجعل ذلك حجّة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه، كالجهميّة والمعتزلة في الصفات والأفعال، بخلاف مسائل الوعد والوعيد؛ فإنّهم قد يقصدون متابعة النصّ." ٢٠٨١

ومن سمات مناهج أهل الباطل أن عامتهم لا يعرفون ما جاء في الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول: إما عجزًا وإما تفريطًا، فإنه يحتاج إلى مقدمتين:

أن الرسول قال كذا، وأنه أراد به كذا.

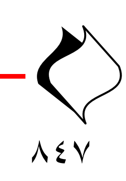
أما المقدمة الأولى: فعامتهم لا يرتابون في أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع مَن يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها، وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ، ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها، والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث؛ فإن هؤلاء يقطعون قطعًا يقينًا بعامة المتون الصحيحة التي في الصحيحين كما قد بسطناه في غير هذا الموضع.

وأما المقدمة الثانية: فإنهم لا يعرفون معاني القرآن والحديث، ومنهم من يقول: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم، وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضع."**٢٠٨٢**

وقال ابن تيمية: "وإذا كانت الطائفة عن الله وعن رسوله أبعد، كانت عنهما أنأى، حتى تجد في أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره، بل ربما ذكرت

٢٠٨١ النبوات لابن تيمية١ / ٤٢٢

٢٠٨٢ انظر مجموع الفتاوى ج٥/ ٢٩ وج١٦/٤٣٣، ودرء تعارض العقل والنقل ج١/٧ وج٣/ ٧٧ والصواعق المرسلة ج٢/٤٥٦، و٦٣٣.



عنده آية فقال: لا نسلّم صحة الحديث. وربما قال لقوله عليه السلام: كذا.. وتكون آية من كتاب الله. وقد بلغنا من ذلك عجائب، وما لم يبلغنا أكثر"[٢٠٨٣]

وقال ابن تيمية: "وجماع الأمر أن الأدلة نوعان: شرعية، وعقليه.

فالمدعون لمعرفة الإلهيات بعقولهم، من المنتسبين إلى الحكمة والكلام والعقليات، يقول من يخالف نصوص الأنبياء منهم: إن الأنبياء لم يعرفوا الحق الذي عرفناه، أو يقولون: عرفوه ولم يبينوه للخلق كما بيناه، بل تكلموا بما يخالفه من غير بيان منهم.

والمدعون للسنة والشريعة واتباع السلف من الجهال بمعاني نصوص الأنبياء يقولون: إن الأنبياء ـ والسلف الذين اتبعوا الأنبياء ـ لم يعرفوا معنى هذه النصوص التي قالوها والتي بلغوها عن الله، أو إن الأنبياء عرفوا معانيها ولم يبينوا مرادهم للناس، فهؤلاء الطوائف قد يقولون: نحن عرفنا الحق بعقولنا، ثم اجتهدنا في حمل كلام الأنبياء على ما يوافق مدلول العقل، وفائدة إنزال هذه المتشابهات المشكلات اجتهاد الناس في أن يعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في تأويل كلام الأنبياء الذي لم يبينوا به مرادهم، أو أنا عرفنا الحق بعقولنا، وهذه النصوص لم تعرف الأنبياء معناها، كما لم يعرفوا وقت الساعة، ولكن أمرنا بتلاوتها من غير تدبر لها ولا فهم لمعانيها.

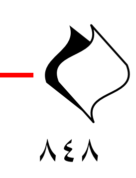
أو يقولون: بل هذه الأمور لا تعرف بعقل ولا نقل، بل نحن منهيون عن معرفة العقليات، وعن فهم السمعيات، وإن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات، ولا يفهمون السمعيات."[٢٠٨٤]

قال المصنف: **"وقالوا: ليس عذاب قبر، ولا حوض ولا شفاعة، والجنة والنار لم يخلقا، وأنكروا كثيرا مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"**

سبق الحديث عن هذه المسائل وشرحها فيما تقدم من مسائل في هذا الكتاب بما يغني عن إعادة شرحها فليرجع إليها.

٢٠٨٣ مجموع الفتاوى ٤/ ٩٦.

٢٠٨٤ درء تعارض العقل والنقل١/ ١٨-١٩



قال المصنف: **"فاستحل من استحل تكفيرهم ودماءهم من هذا الوجه؛ لأن من رد آية من كتاب الله فقد رد الكتاب كله، ومن رد أثرا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رد الأثر كله، وهو كافر بالله العظيم"**

تقدم قريبًا ذكر ما يتعلق بتكفير الجهمية بسبب ما قالوه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنَّ الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله؛ ليس لأحد في هذا حكم، وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه اللهُ ورسولُه؛ وتحريم ما حَرَّمه الله ورسوله، وتصديق ما أخبر الله به ورسوله» (٢٠٨٥).

ومن نماذج تكفير الأئمة للجهمية بسبب أقوالهم ما رواه أبو مطيع قال: سألت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف رَبِّي في السماء أم في الأرض؟ قال: قد كفر؛ لأن الله تعالى يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه:٥]، وعرشه فوق سبع سماوات، قال: فإنه يقول: {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ولكن لا يدري؛ العرش في الأرض أو في السماء! قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر"(٢٠٨٦).

قال المصنف: **"فدامت لهم المدة، ووجدوا من السلطان معونة على ذلك، ووضعوا السيف والسوط دون ذلك، فدرس علم السنة والجماعة [وأوهنوهما] وصارتا مكتومين؛ لإظهار البدع والكلام فيها ولكثرتهم، واتخذوا المجالس، وأظهروا رأيهم، ووضعوا فيها الكتب، وأطمعوا الناس، وطلبوا لهم الرياسة، فكانت فتنة عظيمة لم ينج منها إلا من عصم الله، فأدنى ما كان يصيب الرجل من مجالستهم أن يشك في دينه، أو يتابعهم أو يزعم أنهم على الحق، ولا يدري أنه على الحق أو على الباطل، فصار شاكا، فهلك الخلق"**

(٢٠٨٥) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥٤، ٥٥٥).

(٢٠٨٦) «الفقه الأكبر»، رواية أبي مطيع البلخي (ص٤٠، ٤٤، ٤٩-٥٠).

المصنِّفُ هنا يُتمُّ ما قد ذكره من قبل من شأنِ ما كان في عصر المأمون؛ الخليفةُ العباسي الذي أدنى الجهمية من المعتزلة وغيرهم، وجعلَ لهم السيادةَ والرئاسة وبالتالي امتحنَ الناس وبالذات في مسألةِ القولِ بخلق القرآن.

وذكَرَ ما كان من حالِ الناسِ في ذلك الوقت من أن سوقَ البدعة قد ظهرت، وظهرَ الزنادقة الباطنية والفلاسفة وعلَت رايتهم وكان ذلك على حسابِ السنَّةِ وعلمائها، وكان ما كان من امتحانِ علماء السنَّة وعلى رأسهم الإمامُ أحمد بما يسمى بفتنةِ القولِ بخلقِ القرآن. فهذا كل ما ذكره هنا وهو استعراضُ المِحالِ في حالِ ذلك الزمان من ظهور البدع وانغراس السنَّة وإخفاءِ معالمها على يدِ (المأمون) ومن بعده (المعتصم) ومن بعده (الواثق)، إلى أن جاءَ (المتوكِّل).

قال المصنف: **"حتى كان أيام جعفر–الذي يقال له المتوكل–فأطفأ الله به البدع، وأظهر به الحق، وأظهر به أهل السنة، وطالت ألسنتهم، مع قلتهم وكثرة أهل البدع إلى يومنا [هذا] والرسم وأعلام الضلالة قد بقي قوم يعملون بها، ويدعون إليها، لا مانع يمنعهم، ولا أحد يحجزهم عما يقولون ويعملون".**

ذكرَ المصنِّف هنا أنه لما جاءَ المتوكل أعادَ الأمر لأهل السنَّة وأحيي السنَّة وسعى في إظهارها مع أنه لم تزل هناك بقايا من أقوال المبتدِعة لأنهم بعد أن كان لهم سلطانٌ وشوكة سعوا في نشرِ بدعهم.

ففي سنة ٢٣٤ أشخص المتوكِّل الفقهاء والمحدِّثين، وأمرهم أن يجلسوا للنّاس وأن يحدِّثوا بالأحاديث فيها الردّ على المعتزلة والجهميّة، وأن يحدِّثوا في الرّؤية، فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، ووضع له منبر واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً من الناس، وجلس أبوبكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة واجتمع عليه نحو من ثلاثين

ألفاً"[٢٠٨٧]

والتّاريخ يعرب عن شدّة تفاقم أمر المعتزلة سنة بعد سنة وانجذاب المتوكِّل إلى أهل الحديث، وتخطئة عمل أبيه الواثق، حيث إنّ أباه قتل بسيفه أحمد بن نصر لأجل قوله بعدم خلق القرآن وصلبه وكانت جثّته باقية على الصّليب إلى عام ٢٣٧، ولكنّ المتوكِّل أمر بإنزال جثّته وهو نوع تخطئة لعمل أبيه أوّلاً، وإمضاء لمنهج أهل الحديث ثانياً.

يقول الطبري: "وقد كان المتوكِّل لما أفضت إليه الخلافة، نهى عن الجدال في القرآن وغيره، ونفذت كتبه بذلك إلى الآفاق، وهمّ بإنزال أحمد بن نصر عن خشبته، فاجتمع الغوغاء والرّعاع إلى موضع تلك الخشبة وكثروا وتكلّموا، فبلغ ذلك المتوكّل، فوجّه إليهم نصر بن اللّيث، فأخذ منهم نحواً من عشرين رجلاً فضربهم وحبسهم، وترك إنزال جثّة أحمد بن نصر من خشبته لما بلغه من تكثير العامّة في أمره، وبقي الّذين أُخِذوا بسببه في الحبس حيناً... فلمّا دفع بدنه إلى أوليائه في الوقت الّذي ذكرت، حمله ابن أخيه موسى إلى (بغداد) وغسل ودفن وضمّ رأسه إلى بدنه[٢٠٨٨]".

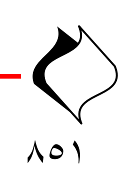
ومع ذلك لم يكتف في قطع جذور المعتزلة عن بلاطه وصار بصدد الانتقام من آل ابن أبي دؤاد.

يقول الطبري :"وفي سنة ٢٣٧ غضب المتوكِّل على ابن أبي دؤاد وأمر بالتّوكيل على ضياع أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر، وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأوّل ابنه أبا الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دؤاد في ديوان الخراج وحبس إخوته عند عبيد الله بن السريّ خليفة صاحب الشرطة"[٢٠٨٩]

٢٠٨٧ مناقب الإمام أحمد: ص ٣٧٥ . ٣٨٥.

٢٠٨٨ تاريخ الطبري: ج ٧، حوادث سنة ٢٣٧، ص ٣٦٨ . ٣٦٩.

٢٠٨٩ تاريخ الطبري: ج ٧، حوادث سنة ٢٣٧، ص ٣٦٧ . ٣٦٨.



والظّاهر من الخطيب في تاريخه أنّ عزل محمّد بن أحمد كان يوم الأربعاء بعشر بقين من صفر سنة ٢٤٠ وصُودرت أمواله، ومات أبو الوليد محمّد بن أحمد ببغداد في ذي القعدة سنة ٢٤٠ ومات أبوه أحمد بعده بعشرين يوماً "[٢٠٩٠]

ثمّ إنّ إبعاد المعتزلة عن الساحة وأفسح للناس إظهار حقدهم وإبداء كامل غيظهم في مناسبات شتّى.

منها ما عرفت عند إنزال جثّة أحمد بن نصر، ومنها ما فعلوه في تشييع جنازة أحمد بن حنبل، فقد شيّعه جماعة كثيرة قال ابن الجوزي: عن بعض الشهود أنّه مكث طول الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكّن إلاّ بشقِّ النّفس لكثرة ازدحام النّاس عليه"[٢٠٩١]

وأخذ الشعراء يهجون المعتزلة. يقول شاعرهم:

أفلت سعود نجومك ابن دؤاد * وبدتْ نحوسك في جميع إياد

فرحت بمصرعك البريّة كلّها * من كان منها موقتاً بمعاد

كم من كريمة معشر أرملتَها * ومحدِّث أوثقتَ بالأقيادِ

كم مجلس لله قد عطّلتَه * كيلا يحدّث فيه بالإسناد

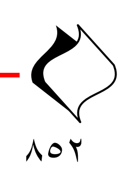
كم من مساجد قد منعتَ قضاتها * من أن يعدّل شاهد برشاد

كم من مصابيح لها أطفأتها * كيما تزلّ عن الطّريق الهادي[٢٠٩٢]

٢٠٩٠ تاريخ بغداد: ج ١، ص ٢٩٨، ولاحظ الكامل لابن الاثير ج ٥، حوادث سنة٢٤٠، ص ٢٩٤.

٢٠٩١ مناقب الامام أحمد: ص ٤١٨.

٢٠٩٢ تاريخ بغداد: ج ٤، ص ١٥٥.



وأخذ أهل الحديث يجلسون في المساجد ويروون الأحاديث ضدّ الاعتزال ويكفّرون المعتزلة. سأل أحدهم أحمد بن حنبل عمّن يقول إنّ القرآن مخلوق، فقال: كافر. قال: فابن دؤاد؟ قال كافر بالله العظيم[٢٠٩٣].

وأرادَ المصنِّف أن يبيّنه في هذا الأمر، وفي هذه الأمور دروسٌ وعبر كما ذكرنا سابقاً من أنه إذا كانت الولاية لأمراء يعظِّمون السنَّة فذاك من فضلِ الله عز وجل على الأمة.

فإذا رأيت وليّاً للأمر يعظِّم السنَّة وعلماء السنَّة فاعلم أن هذا فيه الخير للأمة، وأن غياب ذلك الولي للأمر فيهِ غيابٌ للسنَّة وضياعٌ للسنَّة وذلك بإخفاءِ معالمها لأنه إذا جاءَ ولي الأمر يعظِّم البدعة فإنه سيُظهر راية البدعة فيكون ذلك على حساب السنَّة.

٢٠٩٣ تاريخ بغداد: ج ٣، ص ٢٨٥.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–: "

[٩٦] "واعلم أنه لم تجئ بدعة قط إلا من الهمج الرعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، فمن كان هكذا فلا دين له، قال الله تبارك وتعالى: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}، وقال: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} وقال: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} وهم علماء السوء، أصحاب الطمع والبدع".

(الشرح)

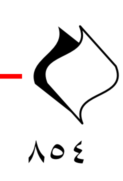
قول المصنف: **"واعلم أنه لم تجئ بدعة قط إلا من الهمج الرعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، فمن كان هكذا فلا دين له"**

كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :"الناسُ ثلاثة: عالمٌ رباني، ومتعلمٌ على سبيلِ نجاة، وهمجٌ رُعاع أتباعُ كل ناعق، لم يستضيئوا بنورِ العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق"(٢٠٩٤)

فالهمجُ الرعاع هم الذين يسعون لهذه البدع ويسارعون إليها، قال أبو الوفاء ابن عقيل: «لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاعٍ وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع؛ مثل: تعظيم القبور...»(٢٠٩٥).

٢٠٩٤ انظر كتاب تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي صفحة (٤٣٢).

(٢٠٩٥) انظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص ٣٥٤).



ويعتبر ظهور الجهل وانتشاره من علامات قرب وقوع الساعة ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم ويكثر فيها الهرج والهرج: القتل))[٢٠٩٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا)) ٢٠٩٧

الجهل خطر عظيم يقود الناس إلى البدعة والإحداث في الدين والسير على غير هدى وخير مثال على ذلك ما ورد عن الصــــحابة في بيان خطورة الجهل على أصحابه ونضرب لذلك بمثالين:

المثال الأول: ما حدث وعبد الله بن مسعود حاضر وذلك أن أناسا من أهل الكوفة خرجوا إلى الجبانة يتعبدون واتخذوا مســـجدا وبنوا بنيانا فأتاهم عبد الله بن مسعود فقالوا: مرحبا بك يا أبا عبد الرحمن لقد سرنا أن تزورنا قال: ما أتيتكم زائرا ولست بالذي أترك حتى يهدم مسجد الجبان إنكم لأهدى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! أرأيتم لو أن الناس صنعوا كما صنعتم من كان يجاهد العدو ومن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومن كان يقيم الحدود ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم وعلموا من أنتم أعلم منهم قال واســـترجع فما برح حتى قلع أبنيتهم وردهم"[٢٠٩٨].

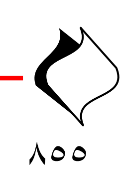
فانظر كيف عزا ابن مسعود رضي الله عنه ما فعلوه إلى الجهل إذ أمرهم بالتعلم فقال: ارجعوا فتعلموا ممن هو أعلم منكم.

المثال الثاني: ما قاله ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وأن أشد ما يفرق الأمة ويوقع بينها الاختلاف هو الجهل بدينها فقد خلا عمر بن الخطاب

٢٠٩٦ رواه البخاري (٧٠٦٣)، ومسلم (٢٦٧٢).

٢٠٩٧ رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

٢٠٩٨ ((شرح السنة)) للبغوي (١٠/٥٤).



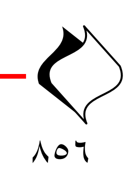
رضي الله عنه ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ودينها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: كيف تختلف هذه ونبيها واحد وقبلتها واحدة ــ زاد سعيد وكتابها واحد ــ قال: فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أنزل وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل فيكون لكل قوم فيه رأي فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا قال: فزجره عمر وانتهره عليّ فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه فأرسل إليه وقال : أعد عليّ ما قلته فأعاد عليه فعرف عمر قوله وأعجبه. وما قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الحق فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها فلم يتعد ذلك فيها وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أو جهل فذهب كل إنسان مذهبا لا يذهب إليه الآخر وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات فلم يكن بد من الأخذ ببادئ الرأي أو التأويل بالترخص الذي لا يغني من الحق شيئا إذ لا دليل عليه من الشريعة فضلوا وأضلوا[٢٠٩٩]"

لذلك كان على المجتهد المتصدر للتعليم والفتيا العلم بعلوم الشريعة المتضمن العلم

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "على أن ليس لأحد أبدا أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس ..."[٢١٠٠]

٢٠٩٩ انظر ((الاعتصام)) للشاطبي (٤٥٣).

٢١٠٠ ((الرسالة)) للشافعي (٣٩).



فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا.. وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة له إن شاء الله.[٢١٠١]

وقول المصنف: **"قال الله تبارك وتعالى: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}، وقال: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} وقال: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} وهم علماء السوء، أصحاب الطمع والبدع".**

وهكذا شأن علماءُ السوء وأهلُ الطمع والبدع فهم الذين يسعون لانتشار البدعة ولذلك يقول عبد الله بن المبارك:

(وهل أفسدَ الدينَ إلا المـــــــلوك وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها)(٢١٠٢) .

فالفسادُ للدين يأتي من جهةِ العبَّادِ وعلماءِ السوء، فالعبَّاد وعلماء السوء يكونون سبباً في هدمِ هذا الدين ولذلك قد جاءَ في الأثر: (اتقوا فتنةَ العالم الفاجر والعابد الجاهل فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون).(٢١٠٣)

قال الإمام بن القيم–رحمه الله:–قال محمد بن الفضــل: ذهاب الإســلام على يدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس من التعلم.

قلت–أي ابن القيم–:

الصنف الأول: من له علم بلا عمل؛ فهو أضر شيء على العامة؛ فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومبخسة.

٢١٠١ ((الرسالة)) للشافعي (٤١).

٢١٠٢ انظر كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجزء الثاني، صفحة (٨).

٢١٠٣ انظر كتاب شرح السنة للبغوي الجزء الأول، صفحة (٣١٨).



الصنف الثاني: العابد الجاهل؛ فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله.

وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: "حذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"؛ فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: الذين لا علم لهم ولا عمل؛ وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض؛ وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين؛ فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن؛ فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه"**٢١٠٤**.

قال الشعبي: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يفسد الزمان ثلاثة: أئمة مضلون، وجدال منافق بالقرآن، والقرآن حق، وزلة عالم"٢١٠٥.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ويل للأتباع من عثرات العالم". قيل: وكيف ذاك يا أبا العباس؟، قال: "يقول العالم من قبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيدع ما كان عليه" وفي لفظ: "فيلقى من هو أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيخبره فيرجع ويقضي الأتباع بما حكم"٢١٠٦.

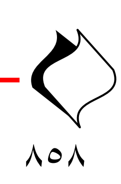
وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر"٢١٠٧.

٢١٠٤ مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٩٠.

٢١٠٥ إعلام الموقعين (٢/ ١٩٣).

٢١٠٦ إعلام الموقعين (١/ ١٢٥).

٢١٠٧ إعلام الموقعين (٢/ ١٩٥).



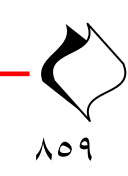
قال ابن القيم: "والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وسلم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها: أن تجريد المتابعة أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائنا من كان. بل تنظر في صحة الحديث أولا. فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيا، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق والمغرب، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها بل لابد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى النص ولا تضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعا ولكن لم يصل إليك. هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك، فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك أيضا فهلا وافقته إن كنت صادقا؟.

فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا بها ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه.

فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلد به ولذلك سمي تقليدا.

بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى سنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول فإذا وصل



استغنى بدلالته على الاستدلال بغيره فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى.

قال الشافعي: "أجمع الناس على أن من استبانت له سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد"٢١٠٨.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٩٧] "واعلم أنه لا يزال الناس في عصابة من أهل الحق والسنة، يهديهم الله ويهدي بهم غيرهم، ويحيي بهم السنن، فهم الذين وصفهم الله مع قلتهم عند الاختلاف، وقال: {الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} فاستثناهم فقال: {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وقال رسولُ الله ﷺ: «لا تزالُ عصابةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون»(٢١٠٩).

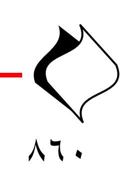
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا [تزال عصابة] من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»".

الشرح

من رحمةِ الله عز وجل بالأمة أنه مع ظهور البدع لا تزالُ طائفة على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم ظاهرون، فهذا الحق –بحمد الله تعالى– في كل

٢١٠٨ الروح لابن القيم (٢/ ٧٦٨، ٧٦٩).

٢١٠٩ انظر سنن ابن ماجه برقم (٧)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٨٢٧٤)، قال الشيخ الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه الجزء الأول، صفحة (٧٩): صحيح.



زمانٍ وفي كل مكان له رجال يدعون إليه ويعملون به ويعلّمونه للناس، وأمرُ هؤلاءِ واضح بيّن وهو تمسكهم بما كان عليه أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم.

فمن حفظ هذا الدين إبقاء طائفة في كل زمان من الأزمنة تنصــر هذا الدين وتحفظه وتبلغه.

وللحديث عن أمر الطائفة المنصورة يمكن ترتيب ذلك في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: الأحاديث الواردة في الطائفة المنصورة.

وهذا الحديث من الأحاديث المستفيضة المشهورة، بل يمكن أن يكون متواترًا فقد رواه ما يقرب من عشرين صحابيًّا، رضي الله عنهم.

والمتأمل في هذه الأحاديث يجد أنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أحاديث مطلقة لم تحدد بلدًا بعينه.

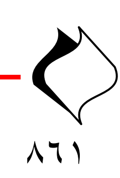
القسم الثني: بعضها حدد هذه الطائفة ببيت المقدس، وبعضها بالشام.

أما القســم الأول: فهناك أحاديث مطلقة لم تحدد بلدًا بعينه. فقد ورد في شأنها عدة أحاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم منها:

- حديث الْمُغِيرَةِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ"[٢١١٠].
- حديث ثوبان، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ))[٢١١١].

٢١١٠ البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

٢١١١ أخرجه مسلم (١٩٢٠)



- حديث جابر بن سمرة، رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: ((لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ))[٢١١٢].
- حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))[٢١١٣].
- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)) ٢١١٤.
- حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: ((لَا يَزَالُ لِهَذَا الْأَمْرِ-أَوْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ-عِصَابَةٌ عَلَى الْحَقِّ، وَلَا يَضُرُّهُمْ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ))٢١١٥.
- حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَال: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام)) ٢١١٦.

٢١١٢ أخرجه مسلم (١٩٢٢).

٢١١٣ أخرجه مسلم (١٩٢٣).

٢١١٤ صحيح الجامع (٧٢٨٧)

٢١١٥ أخرجه الإمام أحمد (٨٢٧٤).

٢١١٦ أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، والإمام أحمد (١٩٨٥١).

القسم الثني: بعضها حدد هذه الطائفة ببيت المقدس، وبعضها بالشام.

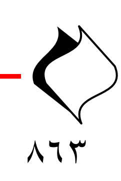
ومن تلك الأحاديث:

- حديث معاوية، رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ)). قَالَ عُمَيْرٌ: فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ: قَالَ مُعَاذٌ: وَهُمْ بِالشَّأْمِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ: وَهُمْ بِالشَّأْمِ. ٢١١٧.
- حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لَا تَزَالُ عِصابَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ علَى أبوابِ دِمَشْقَ ومَا حَوْلَهُ، وعلَى أبوابِ بيتِ المَقْدِسِ ومَا حَوْلَهُ، لَا يَضُرُّهُم خِذْلانُ مَن خذَلهم، ظَاهِرِين علَى الحَقِّ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ))[٢١١٨].
- حديث أبو أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: ((بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ))[٢١١٩].

٢١١٧ البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧).

٢١١٨ أخرجه أبو يعلى (٦٤١٧)، والطبراني في الأوسط (٤٧)، وابن عدي في الكامل ٨٤/٧.

٢١١٩ مسند الإمام أحمد (٢٢٣٢٠) وجادةً؛ قَالَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَنِ: (وَجَدْتُ فِي كِتَابِ أَبِي بِخَطِّ يَدِهِ: حَدَّثَنِي مَهْدِيُّ بْنُ جَعْفَرٍ الرَّمْلِيُّ، حَدَّثَنَا ضَمْرَةُ، عَنِ السَّيْبَانِيِّ–وَاسْمُهُ يَحْيَى بْنُ أَبِي عَمْرٍو–عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَضْرَمِيِّ، وفي إسناده



- حديث مُرَّة بن كعب البهزي، رضـــي الله عنه، أنه سمع النبي صـــلى الله عليه وســـلم يقول: ((لَا تَزَالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظـاهِرين على مَن نَاوَأَهُمْ، وَهُمْ كـالإِنَاءِ بينَ الأَكَلَـةِ حتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ وهُمْ كَذَلِكَ". قلنا: يا رســول الله، وأين هم؟ قال: "بأَكْنَافِ بيتِ المَقْدِسِ"[٢١٢٠].

المسألة الثانية: الجمع بين روايات الحديث.

ولا خلاف بينها بإذن الله، حيث يمكن توجيه تحديد الطائفة بالشـــام وبيت المقدس على ما يكون قبل قيام الساعة، حيث تدل النصوص الكثيرة على أن معظم الأحاديث المتعلقة بالمهدي وعيسى ونحوهما من أحداث السـاعة إنما تكون بالشـام، فيكون قوله: "ببيت المقدس". أي حال إتيان الأمر.

قـال الحـافظ ابن حجر فيمـا نقلـه عن الطبري: "المراد بالـذين يكونون ببيت المقدس الذين يحصرهم الدجال إذا خرج، فينزل عيسى إليهم فيقتل الدجال، ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى ...." [٢١٢١]

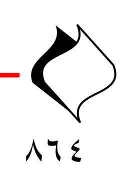
وأما الأحاديث التي دلت على وجود الطائفة المنصـــورة ولم يرد فيها التحديد فتحمل على إطلاقها، والله أعلم، ويؤخذ منها وجود هذه الطائفة ولا يلزم أن تكون محددة بمكان.

وقال ابن حجر-رحمه الله-ناقلًا قول النووي في المســـألة "ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض،

عمرو بن عبد الله الســيباني الحضـرمي، لم يوثقه غير ابن حبان والعجلي، وللحديث شـاهد من حديث مُرَّة بن كعب البهزي، رضي الله عنه.

٢١٢٠ أخرجه الطبراني ٣١٧/٢٠ (٧٥٤).

٢١٢١ انظر: فتح الباري (٢٩٤/١٣).



ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد فإذا انقرضوا جاء أمر الله "[٢١٢٢].

المسألة الثالثة: الأقوال في تفسير الطائفة المنصورة.

تعددت الأقوال في تفسير من هم أهل الطائفة المنصورة؟

القول الأول: أنهم أصحاب الحديث.

قال الإمام الترمذي-رحمه الله-: قال محمد بن إسماعيل البخاري قال: قال علي بن المديني: "هم أصحاب الحديث"[٢١٢٣].

وأما الإمام أحمد فيقول: "إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث، فلا أدري من هم"[٢١٢٤]

وقال ابن تيمية: "بل هم الوسط في فرق الأمة. كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وفي باب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرافضة والخوارج"[٢١٢٥].

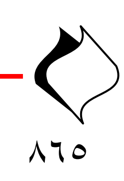
وذكر كثير من العلماء أن المقصود بالطائفة المنصورة هم: (أهل الحديث).

٢١٢٢ فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).

٢١٢٣ سنن الترمذي: ٤٣٢/٦ برقم (٢١٩٢).

٢١٢٤ انظر: معرفة علوم الحديث: الحاكم: ص ٣.

٢١٢٥ ينظر: شرح العقيدة الواسطية: ١٢٤.



وقال القاضي عياض موضحاً مراد الإمام أحمد: "إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث" [٢١٢٦].

ويتضح من قول القاضي عياض-رحمه الله-إنه أراد أن يزيل الإشكال الحاصل في تخصيص أهل الحديث دون غيرهم.

القول الثاني: أنهم أهل العلم.

فالإمام البخاري سماها بأهل العلم، ومستنده بذلك قول معاوية رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول: ((مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين، وَإِنَّمَا أنَا قَاسِمٌ واللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يأْتِيَ أَمْرُ اللهِ)).

قال الكرماني (رحمه الله) في شرحه لصحيح البخاري: "فإن قلت: ليس في الباب ما يدل على أنهم أهل العلم على ما ترجم عليه، قلت: نعم فيه، إذ من جملة الاستقامة أن يكون فيهم الفقيه والمتفقه، ولابد منه لترتبط الأخبار المذكورة بعضها بالبعض" [٢١٢٧].

وقد علق على ذلك ابن حجر في فتح الباري بقوله: "وزعم بعض الشرّاح أنه استفاد ذلك من حديث معاوية، لأن فيه ((مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ))، وهو غاية البعد" [٢١٢٨]

القول الثالث: أنهم المجتهدون.

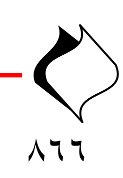
وإلى هذا ذهب السيوطي: إلى أنهم المجتهدون، فلا يخلو الزمان من مجتهد حتى تأتي أشراط الساعة الكبرى[٢١٢٩].

٢١٢٦ انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٣٥٠/٦.

٢١٢٧ صحيح البخاري بشرح الكرماني: ٥٨/٢٥.

٢١٢٨ انظر: فتح الباري: ١٢٤/١٧.

٢١٢٩ انظر: الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج: ٧٨٠/٢.



وعلق السدي على كلام السيوطي بقوله: "كأن السيوطي رحمه الله تعالى قصد بذلك التنبيه على صـــحة دعواه، فإنه رحمه الله كان يدعي الاجتهاد المطلق، وأهل عصره أنكروا، لكن كثيراً ممن جاء بعده سَلَّمَ له بذلك"[٢١٣٠].

القول الرابع: أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين.

قال النووي: "ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شـــجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض ..." [٢١٣١]

المسألة الرابعة: الصفات الواردة لهذه الطائفة المنصورة.

الحديث فيه بشـــارة لهذه الأمة المحمدية ببقاء واســـتمرار وجود طائفة من هذه الأمة على الحق إلى أن يأتي أمر الله، لا يضـــرهم خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل.

ومن الألفاظ الواردة في روايات الحديث:

أولًا: لفظ (طائفة)، (عصابة)، (جماعة)

قال السـندي :(الطائفة: الجماعة من الناس، والتنكير للتقليل، أو التعظيم لِعظم قدرهم ووفور فضلهم، ويحتمل التكثير أيضاً فإنهم وإن قلوا فهم الكثيرون، فإن الواحد لا يساويه الألف، بل هم الناس كلهم)[٢١٣٢].

٢١٣٠ ينظر: شرح سنن ابن ماجه للسندي: ١/٧، المقدمة.

٢١٣١ انظر: شرح النووي على مسلم (١٣/٦٧).

٢١٣٢ انظر: شرح سنن ابن ماجه للسندي: ١/٧، المقدمة: باب إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم (٦).



وهذه الجماعة أو الطائفة تجتمع وتأتلف على منهج واحد، وهذا الذي يفهم من لفظ (عصـــابة) كما في رواية جابر بن سمرة، وهو التعصـــب لمنهج واحد وهو الحق.

وهذا المعنى الدقيق في قوله صلى الله عليه وسلم ((عِصَابَة)) يؤكده قوله صلى الله عليه وسلم بعده ((عَلَى الْحَقِّ))، أو ((عَلَى أَمْرِ اللهِ)).

يعني اجتماعهم على منهج الإسلام الوسطي المعتدل الخالي من التشدد والغلو والتنطع، والذي يجمع ولا يفرق ويوحد ولا يمزق، ويصـــدق على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَـهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبهذا يخرج من مراد الآية طائفة الخوارج الذين أوغلوا في قتل المسلمين وتكفيرهم واستحلوا دمائهم وأموالهم وأعراضهم وذراريهم، فهم بذلك مبتدعون خرجوا على الدين، وعلى خيار المسلمين.

ثانيًا: (على الحق).

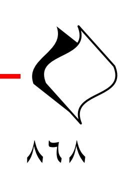
أما نوع الحق الذي تتمســك به هذه الجماعة، أو الطائفة، هو دين الإســلام بكل جزئياته وتفاصيله من أصول وفروع.

قال السـندي: "أي بأمره، أي شـريعته ودينه وترويج سـنة نبيه، أو بالجهاد مع الكفار"[٢١٣٣]

فرواية أبي هريرة، ومعاوية رضـــي الله عنهما بلفظ: ((عَلَى أمْرِ اللهِ)) [٢١٣٤]، إذ فســرت الحق ب (أمر الله)، قال تعالى :﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ

٢١٣٣ شرح سنن ابن ماجة: ٧/١ المقدمة، باب إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢١٣٤ صحيح البخاري: ٣١٣/١ في كتاب العلم: باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، برقم (٧١)، سنن ابن ماجه: ٢٨/١ المقدمة: باب إتباع النبي صلى الله عليه وسلم برقم (٧).



كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨]، وأمر الله: أمر الدين من الحلال والحرام وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

ورواية أحمد من طريق أبي هريرة رضي الله عنه: ((عَلَى هَذَا الأَمْر))[٢١٣٥] ، وطريق معاوية رضي الله عنه: ((وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الأَمَّةُ مُسْتَقِيماً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ))[٢١٣٦] قولاً واحداً، وهو ذاته بقاء أمرهم مستقيماً، والمستقيم طريق الحق الذي ليس فيه زيغ ولا ضلال، كما عليه في سورة الفاتحة :﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ و ٧]. أي الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذه لا تكون إلاَّ في الأُمَّة القائمة على أمر الله عز وجل، وهذا الحق لا يمكن تجزئته تبعاً لتنوع ما يقوم به أفراد هذه الأمة من أمر هذا الدين في كل من فقه اختصاصه وعمل به في مصالح الأمة.

ثالثًا: التأكيد على ظهورهم وغلبتهم لإعدائهم واستمرارهم

وهذا ما أكدته الروايات السابق ذكرها ومما ورد فيها:

((ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ))

((ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ))

((يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

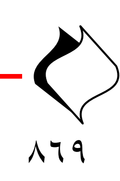
((عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى))

((لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ))

((لَا يَضُرُّهُم خِذْلانُ مَن خذَلهم، ظَاهِرِين علَى الحَقِّ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ))

٢١٣٥ مسند أحمد ٣٢١/٢، في مسند أبي هريرة من باقي مسند الشاميين برقم (٨٠٧٥).

٢١٣٦ صحيح البخاري: ١٢٣/١٧ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة...)) برقم (٧٣١٢).



((ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ))

((ظاهِرِين على مَن نَاوَأَهُمْ))

فهي الروايات جميعًا تؤكد على الاستمرار بقهرهم العدو، وذلك في كل صولة وجولة، سواء أكان ذلك معنوياً أم مادياً، حتى وإن أصاب هذه الفئة ضررٌ ولأواءٌ. أي أن جهادهم في قهر الأعداء مستمر وبشتى أنواعه، ولا يفهم بأن القهر يجب أن يكون بالقوة العسكرية فحسب إنما يتعدد ليشمل كل شيء، فالوسائل متعددة ومتنوعة، وهذا هو الحاصل اليوم بحمد لله وتوفيقه، فالأعداء في كيد مستمر لهذه الأمة بسبب خوفهم المستمر من عودتها.

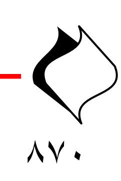
وهذا من منَّة الله سبحانه على عباده أن يحفظ لهم دينهم بتثبيت طائفة من المسلمين على دينه، ومنحها القوة الإيمانية، مما يجعلهم على الدوام ينافحون ويدفعون عن بيضة الإسلام مهما اشتدت الخطوب والمآسي.

وتؤكد كذلك على عدم التأثر بخلاف المخالفين، ولا بإرجاف المرجفين: فماهيتها: أنها لا تتأثر بخلاف المخالفين،

وتؤكد على إن الخير سيستمر في هذه الأمة، وأنها لا تخلو من قائم لله بالحجة، ومن ناصر للحق، مستمسك به، حتى تقوم الساعة، وأن هذه الطائفة المنصورة باقية حتى يأتي أمر الله، وإن أصابها من لأواء وأذى، يؤكد هذا ما رواه أبو مالك الأشعري رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلاثِ خِلالٍ، أَلاَّ يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهلَكُوا جَمِيعاً، وَأَلاَّ يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَلاَّ تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلالَةٍ))[٢١٣٧].

وتؤكد على ثباتهم على ذلك حتى تنتهي آجالهم، أو يأتيهم أمر الله عز وجل:

٢١٣٧ سنن أبي داود: ٢/٥٠٠ برقم (٤٢٥٣).



يعني ثباتهم على الحق في مواجهة المحن والفتن والشدائد مهما كان نوعها وشكلها، فلا يؤثر في نفوسهم ما يفعله الكفار والمنافقون والمرجفون والمخذِّلون، ولا يضرهم خلاف من خالفهم، فهم ثابتون راسخون كرسوخ الجبال الراسيات، ولا يخافون في الله عز وجل لومة لائم، لا يخافون إلاَّ الله، بل يزيدهم بالله يقيناً وإصراراً على المواجهة مهما كلف ذلك، فهم في فداء دائم لا ينقطع ولا يفتر، ويبقى حالهم كذلك حتى تنتهي آجالهم، أو يأتي أمر الله، وأمر الله: ريح طيبة لينة، كريح المسك تقبض أرواح المؤمنين، كما في رواية عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ))، فقال عبدالله: أَجَلْ، ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ رِيحاً كَرِيحِ الْمِسْكِ، مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلا تَتْرُكُ نَفْساً فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ الإِيمَانِ إِلاَّ قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ))[٢١٣٨].

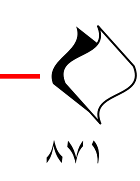
قال الإمام النووي: "أنهم لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قُرب يوم القيامة وعند تظاهر أشراطها، فأطلق في هذا الحديث بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراطها ودنوها المتناهي في القرب، والله أعلم."[٢١٣٩][٢١٤٠]

(المتن)

٢١٣٨ صحيح مسلم: ٧٦/٧، كتاب الإمارة: باب قوله صلى الله عليه وسلم :((لا تزال طائفة ..)) برقم (١٩٢٤).

٢١٣٩ شرح صحيح مسلم للنووي: ٤٠٩/١.

٢١٤٠ المصدر: بحث الطائفة المنصورة وصفاتها على موقع الألوكة، بتصرف.



قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[٩٨] "واعلم – رحمك الله– أن العلم ليس بكثرة الرواية [والكتب]، إنما العالم من اتبع العلم والسنن، وإن كان قليل العلم [والكتب] ومن خالف الكتاب والسنة فهو صاحب بدعة، وإن كان كثير العلم [والكتب]".

(الشرح)

فمن منهجِ أهل السنَّة أن الإيمان قولٌ وعمل فلابد أن يكونَ هذا الإنسان قد حقق كلا الإمرين حتى يكون من أهل الإيمان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الْفِرَقِ بَيْنَ الْمِنْهَاجِ النَّبَوِيّ الْإِيمَانِيِّ الْعِلْمِيِّ الصلاحي وَالْمِنْهَاجِ الصَّابِئِ الْفَلْسَفِيِّ وَمَا تَشَعَّبَ عَنْهُ مِنْ الْمِنْهَاجِ الْكَلَامِيِّ وَالْعِبَادِيِّ الْمُخَالِفِ لِسَبِيلِ الْأَنْبِيَاءِ وَسُنَّتِهِمْ. وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ دَعَوْا النَّاسَ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ أَوَّلًا بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعِبَادَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِمَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ. فَأَصْلُ عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ: هُوَ الْعِلْمُ بِاَللَّهِ وَالْعَمَلُ لِلَّهِ." (٢١٤١)

فمعلومٌ أن الناسَ على ثلاثةِ أصناف:

١) قومٌ اعتنوا بالعلم دونَ العمل وإن كان علمهم لم ينبنِ على الكتابِ والسنَّة: وهؤلاءِ هم أهلُ الكلام أي بنوا علمهم على الرأيِ والقياس وعلى الفلسفة وخلا علمهم من العمل، لا يوجد عندهم منهج عمل.

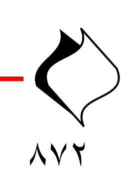
٢) وقومٌ اعتنوا بالعمل دون العلم: وهم المتصوفة وأشباههم فهؤلاءِ عملٌ بلا علم.

٣) أما أهلُ السنَّة فهم اعتنوا بالعلمٌ والعمل معًا.

فأولئك وقعوا في مفسدتين:

- المتكلم لم يبنِ علمه على الكتابِ والسنَّة ثم إنه تركَ العمل.

٢١٤١ مجموع الفتاوى: ٢/ ١٦.



- والمتصوّف لم يبنِ عمله على الكتابِ والسنَّة ثم إنه تركَ العلم فبالتالي ضلوا وأضلوا.
- أما أهل السـنَّة فإن منهجهم يقومُ على العلمِ والعمل معاً، وهذا العلمُ والعمل مبنيٌ على كتابِ الله عز وجل وسنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى ما كان عليه السلفُ الصالح.

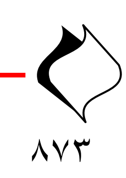
قال ابن تيمية: "وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة: كَانُوا يَقُولُونَ مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى. وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ يَقُولُ: "احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ". فَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ أَشْبَهَ الْيَهُودَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ بَلْ بِالْغُلُوِّ وَالشِّرْكِ أَشْبَهَ النَّصَارَى الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} فَالْأَوَّلُ مِنْ الْغَاوِينَ وَالثَّانِي مِنْ الضَّالِّينَ."[٢١٤٢]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

٢١٤٢ مجموع الفتاوى١/ ١٩٦–١٩٧.



[٩٩] "واعلم–رحمك الله–أن من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأويله من غير حجة من السنة والجماعة فقد قال على الله ما لا يعلم، ومن قال على الله ما لا يعلم، فهو من المتكلفين، والحق ما جاء من عند الله، والسنة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر وعمر [وعثمان] ومن اقتصر على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه [أصحابه و] الجماعة فلج على أهل البدع كلها، واستراح بدنه وسلم له دينه إن شاء الله؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستفترق أمتي»[(٢١٤٣)] وبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناجي منها فقال: «ما كنت أنا عليه اليوم وأصحابي».[(٢١٤٤)]

فهذا هو الشفاء والبيان والأمر الواضح والمنار المستنير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والتعمق، وإياكم والتنطع، وعليكم بدينكم العتيق»".[(٢١٤٥)]

الشرح

٢١٤٣ انظر سنن أبي داود برقم (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) وقال عقبه: حديث أبي هريرة حديثٌ حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٩١) والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ المكثرين من الصحابة (٨٣٩٦)، وذكره الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة (٤٠٢).

٢١٤٤ تقدم تخريجه.

٢١٤٥ أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٦٦ رقم ١٤٢–١٤٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٨٧ رقم ١٠٨)، ومحمد بن نصر المروري في والسنة» (ص ٢٩–٣٠)، وعبد الرزاق في "جامع معمر" الملحق بالمصنف (١١/ ٢٥٢ رقم ٢٠٤٦٥) ومن طريقه الطبراني في "المعجم الكبير" (٩/ ١٧٠ رقم ٨٨٤٥)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص ٢٧١. ٢٧٢ رقم ٣٨٧) من حديث أبي قلابة قال: قال عبد الله بن مسعود "تعلموا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق». وهو أثر صحيح. كذا أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن» (ص ٢٧٢ رقم ٣٨٨)، وابن ساكر في تاريخ دمشق» (٣٣/ ٥٢) و (٤٣/ ٣١٥) من طريق عائذ الله أبي إدريس الخولاني عن عبد الله بن مسعود.

قول المصنف: **"واعلم–رحمك الله–أن من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأويله من غير حجة من السنة والجماعة فقد قال على الله ما لا يعلم، ومن قال على الله ما لا يعلم، فهو من المتكلفين".**

قال تعالى: {ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله}؛ فغاية الضلال أن يكون الإنسان متبعًا لهواه، فهذا الاتباع للهوى سيضله وسيبعده عن طريق الهدى؛ قال تعالى: {إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس}؛ فالظن هنا إشارة إلى القياس الفاسد، {وما تهوى الأنفس}: إشارة إلى اتباع الهوى؛ فالعبد أمامه عدوان: ظن وقياس فاسد، وهوى متبع، فإذا سَلَّمه الله من هذين، وجعل قياسه مبنيًا على كلام الله وكلام رسوله ﷺ–فقد نجا، وإذا كان هواه وأمره تابعًا لأوامر الله عز وجل فقد نجا.

أما إذا ترك شرع الله عز وجل، ثم سار وَفْق هوى نفسه؛ فليعلم أنه على مهلكة، وكذلك إذا كان على غير علم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ فسيستبدل هذا بظنٍّ فاسد، وإذا لم يكن على معرفة بالحق سيستبدل الحق بالباطل.

فحذرنا الله من هذه الحال؛ فلا يُظن أن هذا فقط حكاية وخبر عن الأوائل، وإنما هي أسباب الهلاك في كل زمان.

قال ابن القيم: "فَسَادَ الدِّينِ إمَّا أَنْ يَقَعَ:

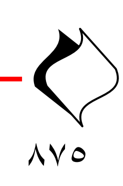
بالِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَالتَّكَلُّمِ بِهِ وَهُوَ الْخَوْضُ.

أَوْ يَقَعُ فِي الْعَمَلِ بِخِلَافِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَهُوَ الِاسْتِمْتَاعُ بِالْخَلَاقِ.

فَالْأَوَّلُ الْبِدَعُ.

وَالثَّانِي اتِّبَاعُ الْهَوَى"[٢١٤٦].

٢١٤٦ إعلام الموقعين ١/ ٥٩–٦٠



فلا نجاة إلا باتباع الهدى؛ فمن لم يكن متبعًا للهدى علمًا وعملًا؛ فإنه يكون مائلًا إلى طريق الباطل، وأهل الباطل من أوصافهم: اتباع الظن وهوى الأنفس.

فالقياس الفاسد هو أصل الضلال، فأصل ضلال مَن ضَلَّ إنما هو بقياسه الفاسد؛ فإبليس أَوَّلُ مَن ضَلَّ، وكان ضلاله من جهة قياسه الفاسد؛ إذ ظَنَّ نفسَه خيرًا من آدم عليه السلام؛ لأنه خُلِق من نار، وآدم خُلق من طين؛ فظنَّ أنَّ النار أفضل من الطين، ولذلك أبى الاستجابة لأمر الله بالسجود لآدم، قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [ص: ٧١- ٧٦]؛ فعندما قاس مثل هذا القياس الفاسد ضَلَّ عن اتِّباع أمر الله عز وجل؛ فكان هذا هو أصلُ الضلال.

وإذا تتبعنا أهلَ الباطل–قديمًا وحديثًا–وجدنا أنَّ أصلَ ضلالهم هو بتقديمهم للقياس الفاسد على النصوص الشرعية المنزلة.

والقياس منه ما يكون صحيحًا، وهو أحد الأدلة المعتبرة في الاستدلال عند أهل العلم، ومن القياس كذلك ما يكون فاسدًا، وهو أصلٌ من أصول الضلال؛ فيَضل الإنسان من جهة قياسه، فمثلًا هنا أهل التصوف ظَنُّوا أنَّ وَجْدَهم وذَوْقَهم يُوازي ما يجده أهل الإيمان مِن ذَوْقٍ، (وهو ذوق وحلاوة الإيمان)؛ فظنوا أنهم إذا وصلوا إلى أي حلاوة بطريق آخر؛ فإن هذا يُغنيهم عن حلاوة الإيمان الحقّ؛ فكان في هذا ضلالهم.

وكذلك اتِّبَاعُ الهوى وتقديمُه على اتِّبَاع أَمر الله– أصلٌ من أصول الضَّلال، وهذا حاصلٌ عند سائر أهل الضلال، ولذلك حَذَّر الله عز وجل في كثير من آيات القرآن من اتباع الهوى، وذم الذين اتَّبعوا أهواءهم؛ فبالتالي ضلوا وأضلوا؛ لأنَّهم سلكوا طريق



الهوى؛ ومن ذلك قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٥٠]، وقوله عز وجل: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون"٢١٤٧، والمقصود به هو الرأي الباطل الذي ليس من الدين، لأن الرأي ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١-رأي باطل بلا ريب.

٢-رأي صحيح.

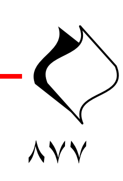
٣-رأي هو موضع الاشتباه.

والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف، فاستعملوا الرأي الصحيح وعملوا به وأفتوا به، وسوغوا القول به.

وذموا الباطل ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله.

والقسم الثالث: سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بد، ولم يلزموا أحدا العمل به، ولم يحرموا مخالفته ولا جعلوا مخالفته مخالفا

٢١٤٧ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام: باب ما يذكر من ذم الرأي. فتح الباري (١٣/ ٢٨٢) ح ٧٣٠٧.



للدين، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده، فهو بمنزلة ما أبيح للمضـطر من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة إليه٢١٤٨.

والحديث ههنا يتناول الرأي الباطل فقط وهو على أنواع:

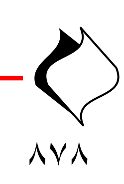
النوع الأول: الرأي المخالف للنص، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فسـاده وبطلانه، ولا تحل الفتيا به ولا القضـاء، وإن وقع فيه من وقع بنوع تأويل وتقليد.

النوع الثاني: هو الكلام في الدين بالخرص والظن، مع التفريط والتقصـير في معرفة النصـوص وفهمها واسـتنباط الأحكام منها، فإن من جهلها وقاس برأيه فيما سـئل عنه بغير علم، بل لمجرد قدر جامع بين الشـيئين ألحق أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما يفرق بينهما في الحكم، من غير نظر إلى النصوص والآثار، فقد وقع في الرأي المذموم الباطل.

النوع الثالث: الرأي المتضـمن تعطيل أسماء الرب وصـفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضـعها أهل البدع والضـلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية٢١٤٩ ومن ضاهاهم، حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة وشبههم الداحضة في رد النصـوص الصـحيحة الصـريحة، فردوا لأجلها ألفاظ النصـوص التي وجدوا السـبيل إلى تكذيب رواتها وتخطئتهم، ومعاني النصـوص التي لم يجدوا إلى رد ألفاظها سـبيلا، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل، فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده، وأنكروا مباينته للعالم، واسـتواءه على عرشـه وعلوه على المخلوقات، وعموم قدرته على كل شـيء،

٢١٤٨ إعلام الموقعين (١/ ٦٧). وقد تناول ابن القيم في هذا الكتاب القول بالتفصيل عن أنواع الرأي فمن أراد التوسع والاستفادة فليرجع إليه.

٢١٤٩ سموا بذلك لقولهم في القدر، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالا، فأثبتوا خالقا مع الله. الملل والنحل (١/ ٥٤)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٦)



بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة والأنبياء والجن والإنس عن تعلق قدرته ومشيئته وتكوينه لها، ونفوا لأجلها حقائق ما أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وحرفوا لأجلها النصوص عن مواضعها وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأي المجرد الذي حقيقته أنه زبالة الأذهان ونخالة الأفكار وعفارة[٢١٥٠] الآراء ووساوس الصدور فملؤوا به الأوراق سوادا والقلوب شكوكا، والعالم فسادا.

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله كم نفي بهذه الآراء من حق، وأثبت بها من باطل، وأميت بها من هدى وأحيي بها من ضلالة؟ وكم هدم بها من معقل للإيمان، وعمر بها من دين الشيطان؟ وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل بل هم شر من الحمر، وهم الذين يقولون يوم القيامة {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[٢١٥١].

النوع الرابع: الرأي الذي أحدثت به البدع، وغيرت به السنن وعم به البلاء، وتولى عليه الصغير وهرم فيه الكبير.

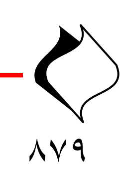
فهذه الأنواع الأربعة من الرأي الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه لإخراجه من الدين[٢١٥٢].

ومما ورد عن السلف في ذم الرأي الذي من هذا القبيل ما يلي:

[٢١٥٠] العفارة: الخبث والشيطنة. النهاية (٣/ ٢٦٢).

[٢١٥١] الآية (١٠) من سورة الملك.

[٢١٥٢] إعلام الموقعين (١/ ٦٧-٦٩).



عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم"٢١٥٣.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "اتقوا الرأي في دينكم"٢١٥٤.

وروي عنه كذلك قوله: "أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم"٢١٥٥.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه"٢١٥٦.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إنما هو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن قال بعد ذلك برأيه فلا أدري أفي حسناته يجد ذلك أم في سيئاته"٢١٥٧.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "لا يأتي عليكم عام إلا هو شر من الذي قبله، أما إني لا أقول أمير خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن فقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفا، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم"٢١٥٨.

ومما ورد كذلك من الآثار عن التابعين ما يلي:

[٢١٥٣] المصدر السابق (١/ ٥٤).

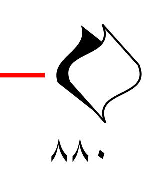
[٢١٥٤] إعلام الموقعين (١/ ٥٥).

[٢١٥٥] المصدر السابق (١/ ٥٥).

[٢١٥٦] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب كيف المسح (١/ ١١٤، ١١٥) ح ١٦٢ وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٥٨).

[٢١٥٧] إعلام الموقعين (١/ ٥٨، ٥٩).

[٢١٥٨] أخرجه الدارمي في السنن، المقدمة، باب تغير الزمان وما يحدث فيه (١/ ٦٥). وأورده ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٥٧).



قول الشعبي: "ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوه، وما كان رأيهم فاطرحوه في الحش"٢١٥٩.

وعن ابن شهاب الزهري قال: "دعوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي"٢١٦٠.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الناس: "أنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم"٢١٦١.

فهذه الأقوال عن أولئك الأئمة من الصحابة والتابعين أجمعت على إخراج الرأي عن العلم وذمه والتحذير منه والنهي عن الفتيا به، فرضي الله عن أئمة الإسلام وجزاهم عن نصيحتهم خيرا، ولقد سلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم.

وقول المصنف: **"والحق ما جاء من عند الله، والسنة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر وعمر [وعثمان] ومن اقتصر على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه [أصحابه و] الجماعة فلج على أهل البدع كلها، واستراح بدنه وسلم له دينه إن شاء الله؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستفترق أمتي»(٢١٦٢) وبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناجي منها فقال: «ما كنت أنا عليه اليوم وأصحابي».(٢١٦٣)**

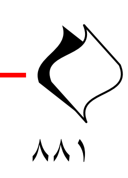
٢١٥٩ إعلام الموقعين (١/ ٧٣).

٢١٦٠ المصدر السابق (١/ ٧٤).

٢١٦١ المصدر السابق (١/ ٧٤).

٢١٦٢ انظر سنن أبي داود برقم (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) وقال عقبه: حديث أبي هريرة حديثٌ حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٩١) والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ المكثرين من الصحابة (٨٣٩٦)، وذكره الشيخ الالباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة (٤٠٢).

٢١٦٣ تقدم تخريجه.



فهذا هو الشفاء والبيان والأمر الواضح والمنار المستنير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والتعمق، وإياكم والتنطع، وعليكم بدينكم العتيق»"

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: روي عنه أنه قال: "من أحدث رأيا ليس في كتاب الله ولم تمض به سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدر ما هو عليه إذا لقي الله عز وجل" ٢١٦٤.

وعنه رضي الله عنه قال: "عليك بتقوى الله والاستقامة واتبع ولا تبتدع"٢١٦٥

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: روي عنه رضي الله عنه أنه قال: "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم"٢١٦٦، وعنه أنه قال: "إنا نقتدي ولا نبتدئ ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر"٢١٦٧. وعنه رضي الله عنه أنه قال: "الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة" ٢١٦٨

وعن سالم بن عبد الله٢١٦٩ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها".

٢١٦٤ أخرجه الدارمي في سننه، باب الفتيا وما فيه من الشدة (١/ ٥٧) وأخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب تغيير البدع (ص ٣٨). وأورده الشاطبي في الاعتصام (١/ ٨١).

٢١٦٥ أخرجه الدارمي في سننه، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع (١/ ٥٣).

٢١٦٦ أخرجه الدارمي في سننه، باب في كراهة أخذ الرأي (١/ ٦٩)، وأخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، باب ما يكون من بدعة (ص ١٠)، وأخرجه اللالكائي في السنة (١/ ٨٦) ح ١٠٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨١): رجاله رجال الصحيح.

٢١٦٧ أخرجه اللالكائي في السنة (١/ ٨٦) ح ١٠٦.

٢١٦٨ أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٠٣) وقال على شرطهما وأقره الذهبي، واللالكائي في السنة (١/ ٥٥) ح ١٤، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ١١) وابن عبد البر في جامعه (٢/ ٢٣٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٨) رجاله ثقات.

٢١٦٩ سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أحد فقهاء المدينة السبعة ومن أفاضل التابعين، مات سنة ١٠٦ هـ. تهذيب التهذيب (٣/ ٤٣٧، ٤٣٨).

فقال بلال بن عبد الله٢١٧٠: والله لنمنعهن. قال: فأقبل عليه عبد الله فسبه سبًا سيئًا ما سمعته سبه مثله قط. وقال: أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول والله لنمنعهن ٢١٧١.

وعن حذيفة بن اليمان قال رضي الله عنه: "يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقا بعيدا، فإن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا"٢١٧٢.

قال ابن حجر: "فقوله: "يا معشر القراء" المراد بهم العلماء بالقرآن والسنة العباد. وقوله: "استقيموا" أي اسلكوا طريق الاستقامة وهي كناية عن التمسك بأمر الله فعلا وتركا. وقوله "سبقتم" بفتح أوله كما جزم به ابن التين وحكى غيره ضمه والأول المعتمد، والمراد أنه خاطب بذلك من أدرك أوائل الإسلام فإذا تمسك بالكتاب والسنة سبق إلى كل خير لأن من جاء بعده إن عمل بعمله لم يصل إلى ما وصل إليه من سبقه إلى الإسلام، وإلا فهو أبعد منه حسا وحكما. وقوله "فإن أخذتم يمينا وشمالا" أي خالفتم الأمر المذكور.

وكلام حذيفة موافق لقوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}"٢١٧٣.

ومن أقوال التابعين ومن بعدهم:

ما ورد عن عمر بن عبد العزيز٢١٧٤ رحمه الله تعالى: فمما نقل عنه أنه كتب عامل له يسأله عن الأهواء؟، فكتب إليه: "أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والاقتصاد

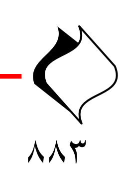
٢١٧٠ بلال بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ذكره مسلم في الطبقة الأولى من المدنيين وعده يحي القطان في فقهاء أهل المدينة. تهذيب التهذيب (١/ ٥٠٤).

٢١٧١ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد (٢/ ٣٢).

٢١٧٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥٠)

٢١٧٣ فتح الباري (١٣/ ٢٥٧) باختصار يسير.

٢١٧٤ عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي الصالح عده بعضهم خامس الخلفاء، ولي الخلافة عام ٩٩ هـ، وتوفي عام ١٠١ هـ، وله أخبار في العدل والزهد كثيرة. تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨).



في أمره واتباع سنته وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدثون بعده مما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة..." ٢١٧٥

وروي عنه أنه قال: "سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله، من عمل بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا" ٢١٧٦.

وعن محمد بن مسلم الزهري٢١٧٧:

روي عنه أنه قال: "كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضا سريعا، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله"٢١٧٨.

وعن مجاهد بن جبر٢١٧٩: روي عنه أنه قال عند تفسير قوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} الآية. قال الرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول: الرد إلى السنة"٢١٨٠.

٢١٧٥ الشريعة للآجري (ص ٤٨)، وكتاب البدع والنهي عنها لابن وضاح (ص ٣٠)، وكتاب الاعتصام للشاطبي (١/ ٥٠)، وجامع بيان العلم وفضله (ص ٢١).

٢١٧٦ الشريعة للآجري (ص ٤٨)، وجامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣٢)، والاعتصام للشاطبي (١/ ٨٧).

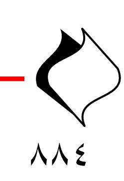
٢١٧٧ تابعي من أهل المدينة، أول من دون الحديث وهو من كبار الحفاظ الفقهاء، لقي بعض الصحابة قال مالك: "بقي ابن شهاب وما له في الدنيا نظير"، توفي عام ١٢٤ هـ.

التذكرة (١٠٨)، والبداية (٩/ ٣٤٥).

٢١٧٨ أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٤٥) باب اتباع السنة.

٢١٧٩ هو مجاهد بن جبر المكي تابعي إمام في التفسير، مات في السجود عام ١٠٤ هـ وقيل ١٠٣ هـ. التذكرة (٩٢)، والتهذيب (١٠/ ٤٢).

٢١٨٠ أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠٥).



وعن أبي العالية٢١٨١: روي عنه أنه قال: "تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يمينا أو شمالا، وعليكم بسنة نبيكم، وما كان عليه أصحابه"٢١٨٢.

وعن أيوب السختياني٢١٨٣: روي عنه أنه قال: "إذا حُدث الرجل بسنة فقال: دعنا من هذا وأنبئنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال"٢١٨٤.

وعلى هذا مضى سلف الأمة جيلًا بعد جيل يتمسكون بالكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة.

(العلمَ ما كان فيه "قال حدَّثنا "وما سوى ذلك وسواسُ الشياطين) (٢١٨٥)
فتلك الفلسفات وتلك الآراء الفاسدة هي في ذاتها وأصلها إنما جاءت من قومٍ لا يعرفونَ الله عز وجل ولا يؤمنون بالله عز وجل ولا بكتبه ولا برسله وفاقدُ الشيء لا يعطيه.

فمَن أرادَ التمسك بالحق فهذا الحق–بحمد الله تعالى–قائم باقٍ إلى يومِ القيامة، ما على الإنسان إلا أن يتعلمه وأن يعملَ به، أما التنطُّع والبعد عن الحق فنتيجته الضلالُ والانحراف والعياذُ بالله.

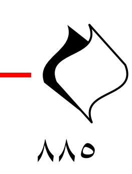
٢١٨١ أبو العالية رُفيع –بضم الراء مصغرا –بن مهران الرياحي–مولى امرأة من بني رياح، قال أبو بكر ابن أبي داود: "ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابة من أبي العالية"، توفي عام ١٣ هـ. التذكرة (٦١)، والطبقات (٧/ ١١٢)، واللباب (٢/ ٤٦).

٢١٨٢ أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ٣٢)، وأورده الشاطبي في الاعتصام (١/ ٨٥)

٢١٨٣ هو: أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني –بفتح السين–نسبة إلى عمل السختيان وبيعه–وهي الجلود الضأنية–قال ابن سعد: "كان أيوب ثقة ثبتا في الحديث جامعا عدلا ورعا كثير العلم حجة"، توفي سنة ١٣١ هـ. انظر: الطبقات (٧/ ٢٤٦)، واللباب (٢/ ١٠٨)

٢١٨٤ أورده السيوطي في مفتاح الجنة (ص ٣٥) وعزاه للبيهقي.

٢١٨٥ انظر كتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع صفحة (٤١).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٠٠] "واعلم أن الدين العتيق ما كان من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتل عثمان بن عفان وكان قتله أول الفُرقة، وأول الاختلاف، فتحاربت الأمة وتفرقت واتبعت الطمع والأهواء والميل إلى الدنيا، فليس لأحد رخصة في شيء أحدثه مما لم يكن عليه أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يكون [رجل] يدعو إلى شيء أحدثه من قبله [أو من قبل رجل] من أهل البدع، فهو كمن أحدثه، فمن زعم ذلك أو قال به، فقد رد السنة وخالف [الحق و] الجماعة، وأباح البدع، وهو أضر على هذه الأمة من إبليس.

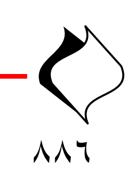
ومن عرف ما ترك أصحاب البدع من السنة، وما فارقوا فيه فتمسك به فهو صاحب سنة وصاحب جماعة، وحقيق أن يتبع وأن يعان، وأن يحفظ، وهو ممن أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم".

الشرح

قول المصنف: **"واعلم أن الدين العتيق ما كان من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتل عثمان بن عفان وكان قتله أول الفُرقة، وأول الاختلاف"**.

فالدينُ العتيق هو ما كانَ من وفاةِ النبي صلى الله عليه وسلم إلى قتلِ عثمان ففي تلك الفترة لم تظهر البدع وإنما ظهرت البدع من حينِ مقتلِ عثمان فظهر الخوارج وظهر التشيُّع، هذه أول ظهور البدع.

ولقد كان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان متفقين لا تنازع بينهم، وكانوا على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق الموافق لصحيح



المنقول وصريح المعقول.[٢١٨٦] إلى أن حدث في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه أمور أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة فقتلوا عثمان رضي الله عنه سنة (٣٥هـ)، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان، ووقعت الفتنة.

فبدعة الخوارج وبدعة الشيعة، حدثتا في ذلك الوقت لما وقعت الفتنة،[٢١٨٧] بعد مقتل عثمان رضي الله عنه فلما قتل ذو النورين بين ظهراني المسلمين في الشهر الحرام، وفي حرم الرسول صلى الله عليه وسلم بأعين المسلمين، وانشقت العصا وتفرقت الجماعة، تشاءمت الأعين، وتخاذلت الأنفس، اختلفت الآراء، وتباعدت القلوب، وساءت الظنون، واستعلت الريب، واستقوت التهم، وجدت كل فتنة فرصتها، فلفظت غصتها، واشتغل الرعاع، وأسلم الشارك، وتزاحف أئمة الهدى رغبة في زهرة الدنيا، فأخذت الغواة أزمة الضلالة، فتهوست لها من قلوب أهل الغفلة.[٢١٨٨]

وقول المصنف: **"فتحاربت الأمة وتفرقت واتبعت الطمع والأهواء والميل إلى الدنيا"**

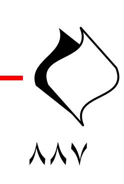
يشير المصنف إلى أن فتنة مقتل عثمان وأدت إلى اقتتالهم بصفين سنة (٣٧هـ)، واتفقوا على تحكيم حكمين، فخرجت الخوارج من ذلك الحين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له: "حروراء" فكف عنهم إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم، فعلم علي رضي الله عنه أنهم الطائفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلهم فهم الفرقة المارقة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: "تمرق مارقة عند فُرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق".[٢١٨٩]

٢١٨٦ منهاج السنة ١/٣٠٦.

٢١٨٧ منهاج السنة ١/٣٠٨.

٢١٨٨ذم الكلام للهروي ص ٣٠٣

٢١٨٩ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٣/١١٣ ط١، دار المعرفة



وحدثت أيضاً في خلافة علي رضي الله عنه (٣٥-٤٠هـ) بدعة (التشيع) لكن أصحابها كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلي وشيعته، بل كانوا ثلاث طوائف.

الطائفة الأولى:

"**الغلاة**" المدعين لإلهية علي، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار، فإنه خرج ذات يوم فسجدوا له، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: أنت هو. قال: من أنا؟ قالوا: أنت الله الذي لا إله إلا هو. فقال: ويحكم هذا كفر فارجعوا عنه وإلا ضربت أعناقكم، فصنعوا به في اليوم الثاني والثالث كذلك، فأخرهم ثلاثة أيام -لأن المرتد يستتاب ثلاثة أيام- فلما لم يرجعوا أمر بأخاديد من نار فخدت عند باب كنده، وقذفهم في تلك النار، وروى عنه أنه قال:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً / أججت ناري ودعوت قنبراً

والطائفة الثانية:

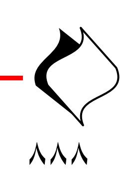
"**السابة**" الذين يسبون أبا بكر وعمر، فإن علياً لما بلغه ذلك طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك عنه، وقيل إنه أراد قتله فهرب منه إلى أرض قرقيسيا أي ما تسمى اليوم (قرغيزيا).

والطائفة الثالثة:

"**المفضلة**" الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر، فأمر بجلدهم، فقد روى عنه أنه قال: "فلا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري".

وقد تواتر عنه أنه كان يقول على منبر الكوفة: "خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر، روى هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهاً ورواه البخاري[٢١٩٠] وغيره)

٢١٩٠ أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب حدثنا الحميدي وعبد الله. ٥/٧



قال الهروي: (وأما فتنة قصب السلف [أي الرفض] فإن الكوفة دارها التي حرفتها، ثم طار في الأفاق شررها، واستطار فيها ضررها، وإنما هاجتها أحلام فيها ضيق، وأشربتها قلوب فيها حمق، ولها عروق خفية، السلامة للقلوب في ترك إظهار بعضها، وأربابها أحمق خلق الله تعالى، عرضت تساوى بين علي بن أبي طالب وأبي بكر وعمر، ثم أخذت تفضله عليهما وتخاصمهما وتضلهما وتوليه حقهما، ثم جاءت تعدله بالمصطفى صلى الله عليه وسلم وتشركه في وحي السماء، ثم خطأت جبريل عليه السلام في نزوله، فخلّت الأمة من النبوة، وأحوجتها إلى علي رضي الله عنه، ثم ادعت له الإلهية ثم ادعتها لولده.

قال الإمام المطلبي: "لو كانوا دواباً لكانوا حُمُراً، ولو "كانوا طيراً لكانوا رخماً".[٢١٩١]

فاستظهرت بهؤلاء الغالية أرباب القلوب المريضة، فتظاهرت على قصب السلف الذين هم الناقلون وفيهم قانون الدين والملة، فهؤلاء الذين قالوا في السلف الصالح بالقول السيئ أرادوا القدح في الناقل لأن القدح في الناقل إبطال المنقول، فأرادوا إبطال الشرع الذي نقلوا، وإنما تعلقوا بعلي بن أبي طالب تسلحاً.

ولم تكابد الأمة من شؤم شيء ما كابدت من شؤم تلك الفتنة. لم يكد قلب مسلم يسلم من شرب منها إلا من رحم ربك فعصم.[٢١٩٢]

فإذاً ما كان في هذه الفترة من وفاةِ النبي صلى الله عليه وسلم إلى مقتلِ عثمان كان الناسُ في سلامة من البدع، فهذا الذي كانَ عليه حال السنَّة، ثم لنعلم أنه عندما ظهرت تلك الفِرق ظهرت البدع فيبقى أن قولَ الخوارج محدَث، وقولَ التشيُّع محدَث، وهكذا ما جاءَ بعدهم من قول القَدَرية والمرجئة.

فبحمدِ الله تعالى التاريخُ شاهد وهذه الأمور محفوظةٌ بأزمانها وأوقاتها ويُقرُّ كل واحدٍ من أولئك المبتدِعة أن أصله هو من ذاك الزمن، ويُعلَم متى يكون الأمر سنَّة؛

٢١٩١ منهاج السنة ١/٣٠٨،٣٠٧، مجموع الفتاوى ١٣/٣٤،٣٣.

٢١٩٢ ذم الكلام للهروي ص٣٠٥،٣٠٤ «بتصرف»

إذا كان موافقاً لما كانَ عليه الناسُ في ذلك الوقتُ وفي تلك الفترة، ما عداه بدأ بعده ظهور البدع فحريٌّ بالإنسانِ أن يتمسكَ وسيُعانُ-بإذن الله تعالى-على حفظ هذه السنَّة متى ما كان قد أخلص النية وعقدَ العزم وشمَّر عن ساعدِ الجِّد في مسألةِ حفظِ هذه السنَّة والقيامِ بها.

وقول المصنف: **"فليس لأحد رخصة في شيء أحدثه مما لم يكن عليه أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يكون [رجل] يدعو إلى شيء أحدثه من قبله [أو من قبل رجل] من أهل البدع، فهو كمن أحدثه، فمن زعم ذلك أو قال به، فقد رد السنة وخالف [الحق و] الجماعة، وأباح البدع، وهو أضر على هذه الأمة من إبليس".**

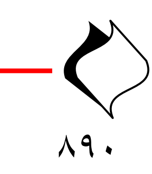
جماع الدين أصلان: وهما:

الأول: ألا نعبد إلا الله، وهو معنى: (لا إله إلا الله).

والثاني: ولا نعبده إلا بما شرع، أي: بما أرسل به رسله، وهو معنى (محمد رسول الله)، وأن نبتعد عن جميع البدع؛ كما قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠].

وبهذا يتم الدين، وإذا لزم الإنسان هذين الأصلين فقد جمع الله له السعادة كلها، وتحققت له العبودية التي مَن لزمها فاز في الدارين.

وقد بَيَّن لنا رسولنا ﷺ لنا ما نَعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة، وكما أننا مأمورون ألا نخاف إلا الله، ولا نتوكل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وألا تكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ﷺ ونُطيعه، ونتأسى به؛ قال الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧].



فالبدع ليست مما دعا إليه الرسول ولا يُحبها الله، فإن الرسول ﷺ دعا إلى كلِّ ما يحبه الله، فأمر بكلِّ مَعروف ونهى عن كل منكر (٢١٩٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثا٢١٩٤.

قال النووي: "أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"٢١٩٥، فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبر بهلاك كل من بالغ في التعمق في أمور الشرع وغلا فيها وتكلف في أمور لم ترد عن الشارع الكريم ولم تكن من مقصوده.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٠١] "واعلموا – رحمكم الله–أن أصول البدع أربعة أبواب، انشعب من هذه الأربعة اثنان [وسبعون] هوًى، ثم يصير كل واحد من البدع [يتشعب] حتى تصير كلها [إلى] ألفين وثمان مائة [مقالة]، وكلها ضلالة، وكلها في النار إلا واحدة، وهو من آمن بما في هذا الكتاب، واعتقده من غير ريبة في قلبه، ولا شكوك، فهو صاحب سنة، وهو الناجي إن شاء الله".

الشرح

(٢١٩٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٦٠).

٢١٩٤ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم: باب هلك المتنطعون (٨/ ٥٩).

٢١٩٥ شرح النووي لمسلم (١٦/ ٢٢٠).



قول المصنف: **"واعلموا – رحمكم الله–أن أصول البدع أربعة أبواب، انشعب من هذه الأربعة اثنان [وسبعون] هوًى"**

لعل قول المصنف هنا مستفاد من كلام بعض الأئمة كما سيأتي، وإلا فمعلوم أن النصوص الواردة في ذكر الافتراق والبدع لم تحدد أسماء تلك الفرق بأعيانها وإنما جاءت النصوص بذكر عدد تلك الفرق دون تخصيص، ولعل بعض أهل العلم اجتهد في تتبع تلك الفرق من حيث أصولها، ومن ذلك ما ذكر من أن أصولُ البدعِ أنها أربع.

فقد روى الآجري بسنده عن يوسف بن أسباط. يقول: "أصول البدع أربع الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، ثم تتشعب كل فرقة ثماني عشرة طائفة، فتلك اثنتان وسبعون فرقة، والثالثة والسبعون الجماعة التي قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنها الناجية)"[٢١٩٦].

وفي السنة لابن أبي عاصم قال أبو بكر بن أبي عاصم: سمعت المسيب بن واضح سنة تسع وعشرين ومائتين يقول: أتيت يوسف بن أسباط فقلت: يا أبا محمد إنك بقية من مضي من العلماء وأنت حجة على من لقيت، وأنت إمام سنة، ولم آتك أسمع منك الأحاديث، ولكن أتيتك أسألك عن تفسيرها، وقد جاء هذا الحديث: «إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فما هذه الفرق حتى نجتنبهم؟ فقال: أصلها أربعة: القدرية، والمرجية والشيعة، والخوارج؛ فثمانية عشر منها في الشيعة"[٢١٩٧].

وروى ابن بطة بسنده في الإبانة الكبرى: قال: قال حفص بن حميد، قلت لعبد الله بن المبارك: على كم افترقت هذه الأمة؟ فقال: الأصل أربع فرق: هم الشيعة،

٢١٩٦ الشريعة للآجري: ٣٠٣-٣٠٤.

٢١٩٧ رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٩٥٣)، ٢/ ٤٦٣. ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى ح: ٢٥٥ (ص ٢٣١) من طريق ابن أبي عاصم، وروى نحوه عن ابن المبارك ح: ٢٥٧ (ص ٢٣٤).



والحرورية، والقدرية، والمرجئة، فافترقت الشيعة على ثنتين وعشرين فرقة وافترقت الحرورية على إحدى وعشرين فرقة وافترقت القدرية على ست عشرة فرقة، وافترقت المرجئة على ثلاث عشرة فرقة؛ قال: قلت يا عبد الرحمن لم أسمعك تذكر الجهمية)، قال: إنما سألتني عن فرق المسلمين"[٢١٩٨]

قال أبو حاتم: "وأخبرت عن بعض أهل العلم أول ما افترق من هذه الأمة الزنادقة والقدرية والمرجئة والرافضة والحرورية فهذا جماع الفرق وأصولها ثم تشعبت كل فرقة من هذه الفرق على فرق وكان جماعها الأصل واختلفوا في الفروع فكفر بعضهم بعضا وجهل بعضهم بعضا"[٢١٩٩]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "قالا يوسف بن أسباط وعبد الله بن المبارك وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين قالا: "أصول البدع أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، فقيل لابن المبارك والجهمية فأجاب بأن أولئك ليسوا من أمة محمد وكان يقول إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية؛ وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم."[٢٢٠٠]

وقول المصنف: **"ثم يصير كل واحد من البدع [يتشعب] حتى تصير كلها [إلى] ألفين وثمان مائة [مقالة]، وكلها ضلالة، وكلها في النار إلا واحدة، وهو من آمن بما في هذا الكتاب، واعتقده من غير ريبة في قلبه، ولا شكوك، فهو صاحب سنة، وهو الناجي إن شاء الله"**

ثم تشعبت تلك الأصول:

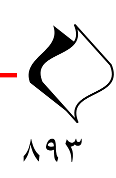
فمقالة الخوارج ويتشعب منها ما تشعب من فرق.

ومقالة التشيُّع ويتشعب منها ما تشعب من فرق.

٢١٩٨ الإبانة الكبرى لابن بطة: الكتاب الأول: الإيمان ١/ ٣٧٩-٣٨٠ رقم ٢٧٨ ط: دار الراية.

٢١٩٩ الإبانة الكبرى لابن بطة: الكتاب الأول: الإيمان ١/ ٣٨٠ ط: دار الراية.

٢٢٠٠ ((مجموع الفتاوى)) (٣/٣٤٩).



ومقالة القَدَر ويتشعب منها ما تشعب من فرق.

ومقالة الإرجاء كذلك.

فهذه أصولُ البدع يعدُّونها، ولا يُدخِلون التجهم لأن التجهم يعدُّونه أنه من خارجِ الملة.

ثم معلومٌ أن كل واحدٍ من هذه تفرَّع عنها عددٌ من البدع والمقالات التي يصعب حصرها وعدها، ولذلك هذا مصداقُ قول الله عز وجل :﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء:٨٢] فأمرُ البدعِ دائماً في اختلاف، ودائماً في فُرقة، ودائماً في نزاع حتى أن أولئك يكفِّر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضًا.

قال ابن تيمية: "وَهَذَا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي اشْتَرَكُوا فِيهِ أَصْلٌ فَاسِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى جَهْلٍ وَظُلْمٍ، وَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي ظُلْمِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي ظُلْمِ النَّاسِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْعَالِمَ الْعَادِلَ أَعْدَلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

وَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الرَّافِضَةِ وَمَنْ لَمْ يُكَفِّرْ فُسِّقَ. وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَبْتَدِعُونَ رَأْيًا، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ."[٢٢٠١]

وهناك أقوال أخرى في عد أصول البدع:

فمنهم من عدها خمسة أصول.

ومنهم من عدها ستة أصول.

ومنهم من عدها سبعة أصول.

ومنهم من عدها ثمانية أصول.

ومنهم من عدها تسعة أصول.

٢٢٠١ منهاج السنة النبوية٥/ ١٥٧.



ومنهم من عدها عشرة أصول.٢٢٠٢

وتفصيل ذلك:

أولاً: من أرجعها إلى أربعة أصول:

١-محمد بن علي بن النعمان الكوفي (معاصر لأبي حنيفة) (٢٢٠٣):

١. القدرية. ٢. الخوارج.

٣. العامة (٢٢٠٤). ٤. الشيعة (٢٢٠٥).

٢-الحسن بن موسى النوبختي (القرن الثالث الهجري) (٢٢٠٦):

١. الشيعة. ٢. المعتزلة.

٣. المرجئة (٢٢٠٧). ٤. الخوارج (٢٢٠٨).

ثانياً: من أرجعها إلى خمسة أصول:

٢٢٠٢ المصدر: انظر: كتاب المسائل العقدية المتعلقة بحديث افتراق الأمم للباحث أحمد سردار.

(٢٢٠٣) محمد بن علي بن النعمان البجلي الكوفي، أبو جعفر، الإمامي الرافضي المتكلِّم، والملقَّب بـ شيطان الطاق –نسبة إلى سوقٍ في طاق المحامل بالكوفة–، وتُنسب إليه فرقة الشيطانية–أو النعمانية–من الرافضة الإمامية، وله كتب مصنَّفة، منها كتاب "الإمامة" و"الرد على المعتزلة"، من أقواله: أن الله يعلم الأشياء إذا قدّرها وأرادها لا قبل ذلك، وأن الله نورٌ على صورة إنسان ربّاني وليس بجسم. انظر: مقالات الإسلاميين (١/٣٧، ٤٣)، الفرق بين الفرق ص (٥٣)، الملل والنحل ص (١٨٦)، الفهرست ص (٢٥٠)، السير (١٠/٥٥٣–٥٥٤)، لسان الميزان (٦/٣٧٨–٣٧٩) ت(٧٨٧٢).

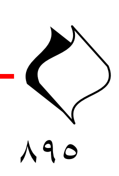
(٢٢٠٤) الرافضة يطلقون لقب "العامة" على أهل السنة. راجع ص (٦٩١–٦٩٢).

(٢٢٠٥) الملل والنحل (١/٤٠٥–٤٠٦).

(٢٢٠٦) الحسن بن موسى النوبختي، أبو محمد، الشيعي المتفلسف، من متكلِّمي الإمامية، وله تصانيف كثيرة جداً، منها: "الإمامة" و"التوحيد" و"حدوث العالم" و"الآراء والديانات". السير (١٥/٣٢٧)، لسان الميزان (٢/٤٧٧–٤٧٨) ت(٢٦١٩).

(٢٢٠٧) تقدّم ص (٦٩١) أن النوبختي رمى أهل السنة بأنهم مرجئة.

(٢٢٠٨) فرق الشيعة ص (٢٨).



١- عبد الله بن المبارك المروزي (ت: ١٨١هـ):

١. الشيعة: ٢٢ فرقة.
٢. الحرورية: ٢١ فرقة.
٣. القدرية: ١٦ فرقة.
٤. المرجئة: ١٣ فرقة (٢٢٠٩).
٥. أهل السنة.
فالمجموع: ٧٣ فرقة.

٢- يوسف بن أسباط الشيباني (ت: ١٩٥هـ):

١. القدرية: ١٨ فرقة.
المرجئة: ١٨ فرقة.
٣. الشيعة: ١٨ فرقة.
٤. الخوارج: ١٨فرقة (٢٢١٠).
٥. أهل السنة.
فالمجموع: ٧٣ فرقة.

٣- الحسن بن علي البربهاري (ت: ٣٢٩هـ):

١. القدرية.
٢. المرجئة.
٣. الشيعة.
٤. الخوارج (٢٢١١).
٥. أهل السنة.

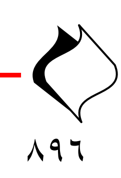
٤- عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (ت: ٣٨٧هـ):

قال –رحمه الله-: ((فاعلم –رحمك الله–أن لهذه الفرق والمذاهب كلها أصولاً أربعة...، فأما الأربعة الأصول التي بها يُعرفون، وإليها يرجعون فهو ما حدثنا...))

(٢٢٠٩) الإبانة الكبرى (٣٧٩/١-٣٨٠).

(٢٢١٠) المصدر السابق (٣٧٧/١-٣٧٨).

(٢٢١١) شرح السنة ص (١٠٥) فقرة (١٠٩)، (١٢٨-١٢٩) فقرة (١٥٦).



(٢٢١٢)، فروى قول يوسف بن أسباط وعبد الله بن المبارك، فالأصول عنده:

١. الشيعة. ٢. الخوارج.

٣. القدرية. ٤. المرجئة.

٥. أهل السنة.

٥- جماعة من العلماء:

ذكر شيخ الإسلام أن طائفة من السلف والعلماء من أصحاب أحمد وغيره وافقوا ابن المبارك ويوسف بن أسباط على عدد الأصول التي ذكراها (٢٢١٣).

كما نسب ذلك الطرطوشي إلى العلماء فقال: ((اعلم أن علماءنا قالوا: أصول البدع أربعة...: الخوارج...، والروافض، والقدرية، والمرجئة)) (٢٢١٤).

٦- القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت: ٤١٥هـ):

١. المعتزلة. ٢. الخوارج.

٣. المرجئة. ٤. الشيعة.

٥. النوابت (٢٢١٥).

(٢٢١٦)

٧- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ):

١. المعتزلة. ٢. المرجئة.

٣. الشيعة. ٤. الخوارج.

(٢٢١٢) الإبانة الكبرى (١/٣٧٦).

(٢٢١٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٥٠-٣٥١) (١٢/٤٨٦) (١٣/١٤٣) (١٧/٤٤٧)، شرح العقيدة الأصفهانية (١٨٤)، النبوات (١٤٢-١٤٣)، الصفدية (٢/٢٤٠).

(٢٢١٤) الحوادث والبدع ص (٣٣).

(٢٢١٥) لقب "النوابت" تطلقه المعتزلة على أهل السنة والجماعة.

(٢٢١٦) فضل الاعتزال ص (١٦٤).



٥. أهـل السـنـة

(٢٢١٧).

٨- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ):

ذكر —رحمه الله-:

١. الجهمية. ٢. القدرية.

٣. الخوارج. الرافضة.

ثم قال: ((وهؤلاء الفرق الأربع هم رؤوس البدعة)) (٢٢١٨).

ثالثاً: من أرجعها إلى ستة أصول:

١- طائفة من العلماء:

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن أصول الفرق عند طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم:

١. الروافض. ٢. الخوارج. ٣. القدرية.

٤. المرجئة. ٥. الجهمية (٢٢١٩). ويُضاف: أهل السنة.

رابعاً: من أرجعها إلى سبعة أصول:

١- عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ):

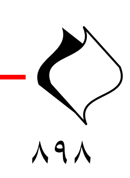
١. الحرورية ٢. القدرية. ٣. الجهمية.

٤. المرجئة. ٥. الرافضة. ٦. الجبرية

(٢٢١٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٢٦٥).

(٢٢١٨) فتح الباري (١٣/٣٤٤).

(٢٢١٩) مجموع الفتاوى (٣/٣٥١). قال: ((فعلى قول هؤلاء يكون كل طائفة من المبتدعة الخمسة اثنا [كذا] عشر فرقة)) أقول: حسبما ذكره -رحمه الله-يكون المجموع هو (٦٠) لا (٧٢)، فالله أعلم.



(٢٢٢٠).

٧. أهـــل السـنـة والجماعة.

٢- علي بن محمد الجرجاني (٢٢٢١) (ت: ٨١٩هـ).

٣- زين الدين بن إبراهيم بن محمد -الشهير بابن نجيم (٢٢٢٢) (ت: ٩٧٠هـ).

٤- محمد عبد الرؤوف المناوي (٢٢٢٣) (ت: ١٠٣١هـ).

٥- محمد بن علي بن محمد الحصكفي (٢٢٢٤) (ت: ١٠٨٨هـ).

٦- أيوب بن موسى الكفوي (٢٢٢٥) (ت: ١٠٩٤هـ).

٧- محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز -المعروف بابن عابدين-(٢٢٢٦) (ت: ١٢٥٢هـ).

وهؤلاء كلهم اتفقوا على أن الأصول هي:

١. الجبرية: ١٢ فرقة.

٢. القدرية ١٢ فرقة.

٣. الروافض: ١٢ فرقة.

٤. الخوارج: ١٢ فرقة.

٥. المعطلة: ١٢ فرقة.

٦. المشبهة: ١٢ فرقة.

(٢٢٢٠) تلبيس إبليس ص (١٩).

(٢٢٢١) التعريفات ص (٥٧).

(٢٢٢٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٧/٩٣).

(٢٢٢٣) التوقيف على مهمات التعاريف (١/١٠٤).

(٢٢٢٤) الدر المختار شرح تنوير الأبصار (٥/٤٧٢).

(٢٢٢٥) الكليات ص (٢١٠).

(٢٢٢٦) رد المحتار على الدر المختار (٦/٦٩٨).

٧. أهل السنة والجماعة.

فالمجموع: ٧٣ فرقة.

٨- أحمد بن يحيى بن المرتضى (٢٢٢٧) (ت: ٨٤٠هـ):

ذكر أن الأمة سبع فرق، فذكر:

١. المجبرة. ٢. الرافضة. ٣. الخوارج.

٤. الحشوية (٢٢٢٨). ٥. المعتزلة (٢٢٢٩).

ولم أهتدِ إلى الباقيتين.

خامساً: من أرجعها إلى ثمانية أصول:

١- الملاّ علي بن سلطان الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ) (٢٢٣٠):

١. المعتزلة:	٢. الشيعة:	٣. الخوارج:
٢٠ فرقة.	٢٢ فرقة.	٢٠ فرقة.
٤. المرجئة:	٥. النجارية (٢٢٣١):	٦. الجبرية:
٥ فرق.	٣	فرقة واحدة.

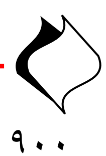
(٢٢٢٧) أحمد بن يحيى بن المرتضى الحسني، ولد في ذمار باليمن، عالم بالدين والأدب، من أئمة الزيدية باليمن، معتزلي المذهب، بويع بالإمامة سنة (٧٩٣هـ)، ثم حُبِس، ثم فَرَّ خِلسة وعكف على التصنيف، من مصنّفاته: "البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار" و"الشافية شرح الكافية"، مات سنة (٨٤٠هـ). الأعلام (١/٢٦٩).

(٢٢٢٨) المعتزلة تطلق لقب "الحشوية" على أهل السنة.

(٢٢٢٩) المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل -ضمن كتاب: فرق وطبقات المعتزلة-ص (١٢-١٧).

(٢٢٣٠) التقسيم الذي ذكره القاري تابَعَ فيه الإيجي في المواقف، والإيجي ممن عدّد الثنتين والسبعين فرقة، لكن لما اقتصر القاري على ذكر عدد فروع الأصول دون ذكر أسمائها.

(٢٢٣١) هم أتباع الحسين بن محمد النجار وقد وافقوا الأشاعرة في أصول، ووافقوا القدرية في أصول، وانفردوا بأصول لهم. انظر: الفرق بين الفرق ج: ١ ص: ١٩٥



فرق.

٧. المشبهة: فرقة.

٨. أهل السنة والجماعة (٢٢٣٢).

فالمجموع: ٧٣ فرقة.

٢- محمد بن أحمد السفّاريني (ت: ١١٨٨هـ):

١. المعتزلة: ٢٢ فرقة.

٢. الشيعة: ٢٢ فرقة.

٣. الخوارج: ١٢ فرقة.

٤. المرجئة: ٥ فرق.

٥. النجارية: ٣ فرق.

٦. الجبرية: فرقة واحدة.

٧. المشبهة: ٣ فرق (٢٢٣٣).

فالمجموع (٦٨) فرقة، فإذا أضيف أهل السنة والجماعة صار المجموع (٦٩) فرقة!.

سادساً: من أرجعها إلى تسعة أصول:

١. الروافض: ٢٠ فرقة.

٢. الخوارج: ٢٠ فرقة.

٣. القدرية: ٢٠ فرقة.

٤. المرجئة: ٧ فرق.

٥. النجارية: فرقة واحدة.

٦. الضرارية (٢٢٣٤): فرقة واحدة

(٢٢٣٢) مرقاة المفاتيح (١/٢٤٨).

(٢٢٣٣) لوامع الأنوار البهية (١/٩٢).

(٢٢٣٤) أصحاب ضرار بن عمرو وحفص الفرد واتفقا في التعطيل، وعلى أنهما قالا الباري تعالى عالم قادر على معنى أنه ليس بجاهل ولا عاجز وأثبتا لله سبحانه ماهية لا يعلمها إلا هو. انظر: الملل والنحل ج: ١ ص: ٩٠

٧. الجهمية: فرقة واحدة.

٨. الكرامية: ٣ فرق (٢٢٣٥).

قلتُ: مجموع الفرق التي ذكرها (٧٣) فرقة، فأين الفِرقة الناجية؟!.

سابعاً: من أرجعها إلى عشرة أصول:

١- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي البغدادي -صاحب أبي حنيفة-(ت: ١٨٢هـ):

قال -رحمه الله-: ((دعوا قول أصحاب الخصومات وأهل البدع في الأهواء من:

١. المرجئة.

٢. والرافضة.

٣. والزيدية.

٤. والمشبهة.

٥. والشيعة.

٦. والخوارج.

٧. والقدرية.

٨. والمعتزلة

٩. والجهمية)) (٢٢٣٦).

٢- محمد بن عبد الله بن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ):

١. الروافض: ٢٠ فرقة.

٢. الخوارج: ٢٠ فرقة.

٣. القدرية المعتزلة: ٢٠ فرقة.

٤. المرجئة: ٧ فرقة.

٥. الضرارية: فرقة واحدة.

٦. الجهمية: فرقة واحدة.

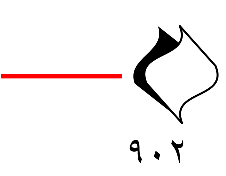
٧. الكرامية:

٨. النجارية:

٩. جهمية مرجئة:

(٢٢٣٥) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/٢٠) دون أن يعزوه لقائل معيّن.

(٢٢٣٦) ذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٦/٤٧٦).



فرقة واحدة. فرقة واحدة. فرقة واحدة (٢٢٣٧).

١٠. أهل السنة والجماعة. فالمجموع: ٧٣ فرقة.

٣- بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني (ت: ٨٥٥هـ):

١. الخوارج: ١٥ فرقة.	٢. الشيعة: ٣٣ فرقة.	٣. المعتزلة: ٦ فرق.
٤. المرجئة: ١٢ فرقة.	٥. المشبهة: ٣ فرق.	٦. الجهمية: فرقة واحدة.
٧. الضرارية: فرقة واحدة.	٨. الكلابية: فرقة واحدة.	٩. النجارية: فرقة واحدة.
١٠. أهل السنة والجماعة (٢٢٣٨). [٢٢٣٩]	قلت: المجموع (٧٤) فرقة!	

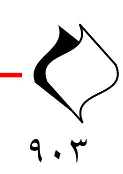
(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

(٢٢٣٧) عارضة الأحوذي (١٠٩/١٠).

(٢٢٣٨) عمدة القاري (١٩٥/٢٤).

٢٢٣٩ المصدر: المباحث العقدية في حديث افتراق الأمم ص٧٢٦-٧٣٢.



[١٠٢] "واعلم – رحمك الله – لو أن الناس وقفوا عند محدثات الأمور ولم يتجاوزوها بشيء [ولم] يولدوا كلاما مما لم يجئ فيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه لم تكن بدعة".

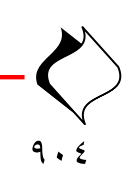
الشرح

البعد عن الكتاب والسُنَّة لا شك أنه طريق هلاك، فأقوال السلف موجودة، وإن شئت ارجع إلى شرح أصول اعتقاد أهل السُنَّة للالكائي، وإن شئت ارجع إلى كتاب الشريعة للآجري، وإن شئت ارجع إلى كتاب السُنَّة للإمام أحمد، والسُنَّة لعبد الله بن الإمام أحمد، وكتب السلف الحمد لله مطبوعة ومخدومة في هذا الزمان.

ولذلك مَن كان على عقيدة أهل السُنَّة عليه أن يعتني بجمع المأثور، وينظر في المأثور عن علماء السلف في صفات الله تعالى، وهو محفوظٌ وبأسانيده بفضل الله تعالى، فهو العلم كما قال الإمام الشافعي:

العلم ما كان فيه قال حدثنا // وما سوى ذلك وسواس الشياطين

فينبغي لطالب العلم إذا أراد أن يكون على بصيرةٍ وعلى بينة، وأراد أن يؤصِّل لنفسه، فعليه أن يعتني بالمأثور، فما جعل الكثير من طلبة العلم في حيرةٍ واضطراب، وفي شكٍ وارتياب إلا أنهم لم يجعلوا لعلمهم الذي يعتنون بجمعه أصلًا وأساسًا يعتمدون عليه، بل غاية الكثير منهم إذا استحسن كلامًا من فلان، قال به وحمله في فكره وفي رأسه، ثم يأتي آخر بكلامٍ يناقضه ويضادُّه فيحمله، فيكون في حيرةٍ واضطراب، وتستمر هذه الحيرة معه، لأنه لا يعلم مع مَن يعلم مع مَن يتلقى وممن يأخذ، فتجده اليوم على فكرٍ معين ثم غدًا على فكرٍ آخر، وكل هذا سببه السطحية التي هو عليها، وإذا أردت أن تؤسِّس علمًا واعتقادًا في نفسك فاجعله على هذه الثوابت.



فانظر إلى ما في كتاب الله تعالى واعرفه واحفظه، وانظر إلى ما في سنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-واعرفها واحفظها، وانظر فيما هو من المأثور من كلام السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم واعرفه واحفظه، ثم بعد ذلك يكون قد وسعك ما وسعهم ولك في ذلك غنية، فهم أئمة وأعلام هدى، والعلم يؤخذ منهم وعنهم وكما يقول بعض السلف: «**من لم يسعه ما وسع الرسول ﷺ وما وسع الصحابة فلا وسع الله عليه**»(٢٢٤٠).

ولا شك أن كل واحدٍ يعرف لهؤلاء ما لهم من قدر، وما لهم من منزلة، فهؤلاء أصحاب محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-فهم خير هذه الأمة، قومٌ اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه.

لو أغلقَ الناس بابَ المحدثَات لانتهت البدع لكنهم لما فتحوا على أنفسهم هذا الباب توالت البدع ولا تزال تتوالى.

وكما يقول شيخ الإسلام: "**إذا كان الغلط في الأوائل شبرًا صار من بعده ذراعًا، ثم باعًا، ثم إلى ما شاء الله**"(٢٢٤١)، فالبعد عن الكتاب والسُنَّة لا شك أنه طريق هلاك.

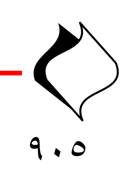
(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: "

[١٠٣] "واعلم – رحمك الله – أنه ليس بين العبد وبين أن يكون مؤمنا حتى يصير كافرا إلا أن يجحد شيئًا مما أنزله الله تعالى، أو يزيد في كلام الله، أو ينقص، أو ينكر شيئا مما قال الله، أو شيئا مما تكلم به رسول الله صلى الله عليه

(٣) انظر كتاب سير أعلام النبلاء الجزء (١١) صفحة (٣١٣).

(١) انظر كتاب بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية صفحة (٤٥١).



وسلم، فاتق الله – رحمك الله – وانظر لنفسك، وإياك والغلو في الدين، فإنه ليس من طريق الحق في شيء".

الشرح

يتحدث المصنف هنا عن الردة

والردة في اللغة:

صــرف الشــيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رددته فارتد، ويقال: رده: أي صرفه. ورد الشيء عليه: لم يقبله منه.

والارتـداد، والردة: الرجوع في الطريق الـذي جـاء منـه لكن الردة تخص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره، قال الله تعالى:(وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ) [المائدة: ٢١] أي: لا ترجعوا.

والردة اسـم من الارتداد، وهو التحول والرجوع عن الشـيء إلى غيره، ومنه الرجوع عن الإسلام.

والمرتد أي: الراجع، وهو الذي رجع عن دينه، وكفر بعد إسلامه.[٢٢٤٢]

الردة في الاصطلاح:

هي الكفر بعد الإسـلام طوعا؛ إما باعتقاد، أو بفعل، أو بقول، أو شـك. و(هي قطع الإسـلام بنية كفر، أو قول كفر، أو فعل مكفر؛ سـواء قاله: اسـتهزاء، أو عناداً، أو اعتقادًا)[٢٢٤٣].

قـال الله تعـالى: (وَمَن يَرْتَـدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْـحَابُ النارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢١٧]،

٢٢٤٢ انظر معاجم اللغة: ((لسان العرب)): (ج ٣، ص ١٧٢) و ((المفردات في غريب القرآن)) (ص ١٩١). و((النهاية في غريب الحديث)) (ج٢، ص ٢١٤)

٢٢٤٣ انظر ((قليوبي وعميرة)) ((كتاب الردة)) (ج ٤، ص ١٧٤) وهو حاشيتا الشيخين قليوبي وعميرة على شرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين للنووي في فقه الشافعي.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:((من بدل دينه فاقتلوه))[٢٢٤٤] .

واتفق أهل السنة والجماعة؛ بأن الردة لا تصح إلا من عاقل؛ فأما من لا عقل له؛ كالطفل، والمجنون، ومن زال عقله؛ بإغماء، أو نوم، أو مرض، أو شرب دواء يباح شربه؛ فلا تصح ردته، ولا حكم لكلامه بغير خلاف [٢٢٤٥].

الردَّة لها صور متعددة إذا وقعُ الإنسان المسلم في شيء منها فإنه يكون مرتدًا هذا إذا اجتمعت فيه شروط المرتد وانتفت موانعه؛ من تلك الصور:

أولًا: إنكاره لشيءٍ من أمورِ الدين، فمتى ما أنكرَ أو جحدَ شيئاً من أمورِ الدين، فمن جحدَ شيئاً مما أنزله الله عز وجل، أو أنكرَ آيةً واحدة أو كلمةً واحدة من كلامِ الله عز وجل أو جحدَ سنَّةً من السنن.

ثانيًا: الاستهزاء بأمرٍ من أمورِ الدين كما لو أن إنساناً استهزأ بسنَّةٍ من السنن.

ثالثًا: أو زادَ في كلامِ الله أو نقصَ منه.

رابعًا: أو سب الله، أو سب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو سب الدين.

خامساً: أو أهان الدين أو رمى بالمصحف أو ألقاه في القاذورات.

وغير ذلك من الصور.

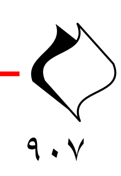
فالردَّة قد تكون في اعتقاد وقد تكون في قول ينطقه الإنسان، أو قد تكون في فعل فيكونُ مرتدا.

فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا)).٢٢٤٦

٢٢٤٤ رواه البخاري (٣٠١٧). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٢٤٥ المصدر: الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه عند أهل السنة عبد الله بن عبد الحميد الأثري – ص٢٣٣

٢٢٤٦ رواه مسلم (١١٨).



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ الْعَبْد لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مَا يَتَبَيَّنُ فيهَا يَزِلُّ بهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ))٢٢٤٧.

يقول ابن حجر في شرح الحديث: (لا يلقي لها بالًا: أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئًا).٢٢٤٨

وقال اتعالى: (وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

والمعنى أي: واعلَموا- أيُّها المؤْمنونَ- أنَّ اللهَ تعالى يحجُزُ بين العَبدِ وقَلبِه إذا شاء، فلا يستطيعُ المرءُ أن يُدرِكَ ويعِيَ به شيئًا مِن حقٍّ أو باطلٍ، إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى، فقُلوبُكم بيَدِ خالِقِكم سُبحانه، يُصَرِّفُها ويُقَلِّبُها كيف يشاءُ؛ يُصَرِّفُها مِن الهُدى إلى الضَّلالةِ، ومِن الضَّلالةِ إلى الهُدى، فإيَّاكم أن تردُّوا أمْرَ اللهِ حين يأتيكم، أو تتثاقَلُوا وتتباطَؤُوا عن الاستجابةِ له، فلا تأمَنُوا حينَها أن يُحالَ بينَكم وبينَ قُلوبِكم، فلا تَقْدِروا على الاستجابةِ بعد ذلك إذا أردْتُموها[2249]

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ: يا مقلِّبَ القُلوبِ! ثبِّتْ قَلبي علَى دينِك، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ بهِ، فهل تخافُ علَينا؟! قال: نعَم؛ إنَّ القُلوبَ بين أُصبعَينِ من أصابعِ اللهِ، يقلِّبُها كيف يشاءُ))[2250].

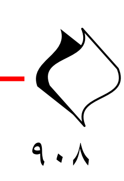
فعلى الإنسانِ أن يأخذَ بشرعَ الله عز وجل وأن يلزمه، لا يزيد عليه ولا ينقص منه.

٢٢٤٧ صحيح البخاري: (٦٤٧٨)

٢٢٤٨ ((فتح الباري)) (١١/٣١١).

٢٢٤٩ ((تفسير ابن جرير)) (١١/١١٢ – ١١٣).

٢٢٥٠ أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجة (٣٨٣٤)، وأحمد (١٢١٠٧)، والبزار (٧٥٠٨). حسنه الترمذي، وقال الذهبي في ((الميزان)) (٢/٣٤٣): صحيح غريب. وقال المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (١/١١٢): رجاله رجال مسلم في الصحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢١٤٠).



قول المصنف: **"فاتق الله – رحمك الله – وانظر لنفسك، وإياك والغلو في الدين، فإنه ليس من طريق الحق في شيء".**

مما لا شك فيه أن الجهل من أخطر ما يكون على المسلم، لذا فإن الشيطان إذا وجد في الإنسان جهلًا أوقعه في أحد أمرين خطيرين: إمَّا التساهل والانحلال، وإمَّا الغلو والتشدد.

أما المعنى اللغوي للغلو: فجاء في مقاييس اللغة: الغين–واللام–والحرف المعتل – أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر. يقال: غلا السعر يغلو غلاء، وذلك ارتفاعه. وغلا الرجل في الأمر غلوا، إذا جاوز حده. وغلا بسهمه غلوا، إذا رمى به سهما أقصى غايته. وتغالى النبت ارتفع وطال. وتغالى لحم الدابة: إذا انحسر عنه وبره، وذلك لا يكون إلا عن قوة وسمن وعلو... الخ ٢٢٥١ وفي التهذيب "... غلا السعر غلاء ممدود. وغلا في الدين يغلو غلوا: إذا ب وز الحد..."٢٢٥٢.

وفي اللسان: "... أصل الغلاء: الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء. وغلا في الدين والأمر يغلو غلوا: جاوز حده.

وفي التنزيل: {لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}٢٢٥٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الغلو: هو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك "٢٢٥٤.

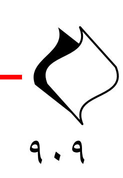
الغلو في الشرع: هو مجاوزة حدود ما شرع الله سواء كان ذلك التجاوز في جانب الاعتقاد أو القول أو العمل.

٢٢٥١ معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨).

٢٢٥٢ تهذيب اللغة (٨/ ١٩٥، ١٩٢).

٢٢٥٣ لسان العرب (١٥/ ١٣١، ١٣٢) مادة (غلا).

٢٢٥٤ اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٠٦).



وقد جاء ذكر لفظ الغلو في القرآن الكريم في موضعين وكان الخطاب فيهما للنصارى باعتبارهم أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف وأما الموضعان:

فأحدهما: في قوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}٢٢٥٥.

والموضع الثاني: قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}٢٢٥٦.

قال ابن جرير الطري:

"يعني جل ثناؤه بقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}: يا أهل الإنجيل من النصارى {لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} يقول: "لا تتجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق، لأن الله لم يتخذ ولدًا، فيكون عيسى أو غيره من خلقه ابنا {وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ}.

وأصل الغلو في كل شيء: مجاوزة حده الذي حده، ويقال منه في الدين قد غلا فهو يغلو غلوًا" ٢٢٥٧.

والغلو كان أول خطوات الانحراف عن الدين القويم والوقوع في الشرك.

فقد روى الطبري بسنده عن عكرمة قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام "٢٢٥٨.

٢٢٥٥ الآية (١٧١) من سورة النساء.

٢٢٥٦ الآية (٧٧) من سورة المائدة.

٢٢٥٧ تفسير الطري (٦/٣٤).

٢٢٥٨ تفسير الطري (٢٩/ ٩٩).

فكان مبدأ الشرك في قوم نوح، وكان سببه غلوهم في الصالحين فقد روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه باب قوله تعالى {وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً} عن ابن عباس أنه قال: "أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت "٢٢٥٩.

فالغلو في الصالحين هو الطامة الكبرى والبلية العظمى التي جنحت بالبشرية عن جادة الحق والصواب إلى ظلمات الشرك والضلال باتخاذ أنداد لله من خلقه واعتقاد أنها تملك شيئا من خصائص الإلهية.

قال ابن القيم: "ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في الخلوق وإعطائه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه.

وهذا التشبيه الواقع في الأم هو الذي أبطله الله سبحانه وبحث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله٢٢٦٠.

ولهذا نهي الشارع الحكيم عن الغلو بشتى صوره وأشكاله وحذر منه وذلك لما له من آثار سيئة على الدين ولما فيه من منافاة لعقيدة التوحيد وهدم لأصليّ ا لدين: ا لتوحيد، والإتباع.

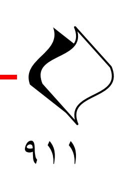
ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الغلو في الدين وأخبر أنه سببا لهلاك من قبلنا من الأمم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين "٢٢٦١.

٢٢٥٩ انظر فتح الباري (٨/ ٦٦٧).

٢٢٦٠ إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٦).

٢٢٦١ أخرجه الأمام أحمد في المسند (١/ ٢١٥، ٣٤٧). والنسائي في السنن (٥/ ٨ ١. ٢)كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى. وابن ماجه في سننه، أبواب المناسك، باب قدر حصى الرمي (٢/ ١٨٣) ح ٣٠٦٤.



قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله "إياكم والغلو في الدين عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال "٢٢٦٢.

وسبب قول النبي صلى الله عليه وسلم لهذه العبارة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس غداة العقبة وهو على ناقته "القط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات مثل حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: أيها الناس إياكم والغلو في الدين... "الحديث.

فسبب ورود الحديث ينبهنا إلى أمر هام جدا وهو أن الغلو قد يبدأ بشيء صغير ثم تتسع دائرته فتهلك بذلك أمم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه فالغلو فيه: مثل رمي الحجارة ونحو ذلك، بناء على أنه بالغ في الحصى الصغار، ثم علل ذلك بأن ما أهلك. كان قبلنا إلا الغلو في الدين كما تراه في النصارى٢٢٦٣.

ولو لم يرد في السنة إلا هذا الحديث لكفى به زاجرا ورادعا للأمة عن الوقوع في الغلو، كيف والسنة مليئة بالأحاديث التي تحذر من الغلو وتبين خطره وهلاكه.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون": قالها ثلاثًا٢٢٦٤.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: رواه أحمد والنسائي وابن ماجة من حديث عوف بن أبي جميلة عن زيادة بن حصين عن ألي العالية عنه وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٠٦). وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٧٨) ح ١٢٨٣ وقال في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٤٦/١) إسناده صحيح. وقد صححه ابن خزيمة والحاكم (٤٦٦/١) والذهبي والنووي وابن تيمية.

٢٢٦٢ اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٥٦).

٢٢٦٣ اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٠٦).

٢٢٦٤ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٥٨/٨)

قال النووي: "هلك المتنطعون": أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم٢٢٦٥.

وقال أيضا: "المتنطعون: المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد"٢٢٦٦، فهذا الحديث موافق لما جاء في الحديث السابق من الإخبار بهلاك أصحاب الغلو. وهناك أحاديث كثيرة نهي فيها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم عن الغلو في جوانب معينة من الدين نذكر اثنين منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها. فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ال فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني "٢٢٦٧.

فسمى النبي صلى الله عليه وسلم الغلو في جانب العبادات والسنن التي سنها لهم رغبة عن الشرع الذي جاء به، وتبرأ ممن هذه حاله، حتى وإن كان الدافع لذلك التقرب إلى الله تعالى ذلك لأن هذا الغلو فيه هدم للأصل الثاني من أصول هذا الدين ألا وهو الإتباع فنحن مأمورون بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم والأخذ بسنته. والغلو

٢٢٦٥ شرح النووي (١٦/٢٢٠).

٢٢٦٦ رياض الصالحين باب الاقتصاد في الطاعة (ص ٨٨).

٢٢٦٧ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح: باب الترغيب في النكاح. انظر: فتح الباري (٩/ ١٠٤) ح ٥٠٦٣ واللفظ له. ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح: باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... انظر: (٤/ ١٢٨).

.

في هذا الجانب مناقض تماما لهذا الأصل، ولذلك فلا غرابة أن يتبرأ النبي صلى الله عليه وسلم ممن غلا في جانب ما سنه وشرعه للأمة.

لأنه لو فتح هذا الباب وولجته الأمة لأصبحت عبادة الله مجالا لأهواء الناس وعقولهم وبذلك يتلاشى دينها وتنطمس معالمه فتستحق بذلك غضب الله ومقته فتهلك كما هلكت الأمم السابقة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال "ما هذا الحبل؟ "قالوا: هذا حبل زينب فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد"٢٢٦٨ وعند مسلم "حبل لزينب تصلي ".

قال ابن حجر: "وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق فيها... ٢٢٦٩".

وهذا كثير في الناس اليوم، إمَّا أن تراه متساهلًا غير ملتزم بأمور الدين، فقد يكون مضيعًا لفرائض الإسلام، واقعًا في الشهوات المحرمة، مبتعدًا عن هدي الإسلام في هيئته ولباسه وكلامه وحياته كلها.

وإما أن تراه غاليًا متشددًا في الدين على جهل.

فيدخل الشيطان على الإنسان من هذا الباب، لما يَرى عنده من قلة علمٍ، فيبدأ بعد ذلك يزين له الآراء والأحكام والأقوال المتشددة، حتى يوقعه في غلُوّ يُخرجه عن هذا الدين، والنبي ﷺ حَذَّرنا من الغلُوِّ في الدين؛ فقال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ»

٢٢٦٨ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة. انظر: فتح الباري (٣٦١٣) ح ١١٥٠. وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومراجع الصلاة، باب أمر من نعس في صلاته... (١٨٩/٢).

٢٢٦٩ فتح الباري (٣/ ٣٧).

(٢٢٧٠)، وقال هذا عند لقط الحصى من المزدلفة، فنهى عن الغلُوِّ في قدر الحصى، فما بالنا في سائر أمور الدين؟

وبَيَّن النبي ﷺ حال الخوارج، فقال: «تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ» (٢٢٧١).

إذًا هم أهل دين والتزام، حتى إن أحدهم من كثرة تعبُّده وصلاته وصيامه يفوق الصحابة في ذلك، ويحقرون صلاتهم إلى صلاتهم، ومع ذلك يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

وفي كتاب «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان" لابن القيم، بيان لمسالك ودروب الشيطان التي يَسلكها مع بني آدم فيجدر الاطلاع عليه.

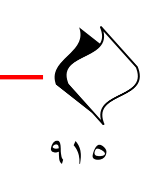
وينبغي على الإنسان أن يحذر هذه الأبواب، وأن يُغلقها جميعًا، ولا يظن أنها باب أو بابان أو ثلاثة، بل هي أبواب كثيرة، والنجاة من ذلك كله أن يعتصم الإنسان بالعلم الصحيح والعمل الصحيح؛ لأن الشهوات تأتي في ناحية الإرادة والعمل؛ والشبهات تأتي في ناحية التفكير والنظر، فإذا سلِم الإنسان في فكره ونظره لا يسلَم حتى يكون على علم، وإذا سلِم في إرادته لا يسلَم حتى يكون على عمل صحيح، فبالتالي يغلق أبواب الشر كلها على الشيطان.

فإذا بنى الإنسان فكره ونظره على علم صحيح، مَيَّز فيه بين ما هو من دين الله تعالى وما ليس من دينه عز وجل. وهذا كله إنما يتأتى من العلم المبنيّ على الكتاب

---

(١) انظر «سنن ابن ماجه» برقم (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وأحمد في «المسند»، (ومِنْ مُسْنَدِ بَنِي هَاشِـمٍ) (١٨٥١)، وقال الألباني في «التعليقات الحسـان على صـحيح ابن حبان» (٧٠/٦): «صحيح».

(١) انظر: «صـحيح البخاري»، كِتَاب (اسْـتِتَابَةِ المُرْتَدِّينَ وَالمعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ)، بَاب (قَتْلِ الخَوَارِجِ وَالمُلْحِدِينَ بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ)، برقم (٦٩٣١)، ومسـلم كِتَاب (الزَّكَاةِ)، بَاب (ذِكْرِ الخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ) (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٧٦٤)، وابن ماجه (١٦٩)، والنسائي (٢٥٧٨)، ومالك (١٠)، وأحمد في «المسند»، (مُسْنَد الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ) (١١٢٨٥).



والسنة، ولذلك لا تَستغرب عندما يبوِّب البخاري بابًا بعنوان: «باب العلم قبل القول والعمل»؛ لأن العلم يَحرس الإنسان ويحميه وينجيه بإذن الله–عز وجل–من المهالك.

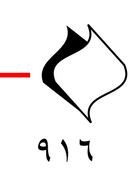
فالإنسان بحاجة إلى ما يُصحِّح به نظره وفكره، حتى تستقيم لديه الموازين؛ فيَعرف ما ينفعه وما يضره، وهذا إنما يتأتى بالعلم؛ لأن هذا العلم مِن أول ما يغرس في هذا الإنسان معرفة الله عز وجل، ولذلك الجهل إنما يؤدي إلى الجهل بالله عز وجل، وتذكر قول الله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} [الحشر:١٩]، وتأمل قوله تعالى: {فأنساهم أنفسهم}؛ بمعنى: أن يصل الإنسان إلى حالٍ لا يَعرف فيه ما يصلحه وينفعه.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٠٤] "وجميع ما وصفت لك في هذا الكتاب، فهو عن الله، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه وعن التابعين، والقرن الثالث إلى القرن الرابع، فاتق الله يا عبد الله، وعليك بالتصديق والتسليم والتفويض [والرضى] لما في هذا الكتاب، ولا تكتم هذا الكتاب أحدا من أهل القبلة، فعسى يرد الله به [حيرانا] عن حيرته، أو صاحب بدعة من بدعته، أو ضالا عن ضلالته، فينجو به.

فاتق الله، وعليك بالأمر الأول العتيق، وهو ما وصفت لك في هذا الكتاب، فرحم الله عبدا، ورحم والديه قرأ هذا الكتاب، وبثه وعمل به ودعا إليه، واحتج به، فإنه دين الله ودين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه من انتحل شيئا خلاف ما في هذا الكتاب، فإنه ليس يدين لله بدين، وقد رده كله، كما لو أن



عبدا آمن بجميع ما قال الله تبارك وتعالى، إلا أنه شك في حرف فقد رد جميع ما قال الله تعالى، وهو كافر، كما أن شهادة أن لا إله إلا الله لا تقبل من صاحبها إلا بصدق النية وخالص اليقين، كذلك لا يقبل الله شيئا من السنة في ترك بعض، ومن ترك من السنة شيئا فقد ترك السنة كلها.

فعليك بالقبول، ودع عنك المحك واللجاجة، فإنه ليس من دين الله في شيء، وزمانك خاصة زمان سوء، فاتق الله."

(الشرح)

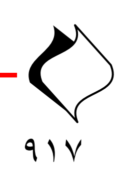
المصنِّف كتبَ هذا الكتاب في زمانٍ تفشت فيه البدع وكثُرَ أهلها حتى إنه ظهرت الزندقة وظهرت فرقُ الباطنية، وظهرَ الفلاسفة، وأصبحَ لكلٍّ راية، فلابد من نصحِ الناس وتعليمهم والقيام بما أوجبه الله عز وجل على العلماء في بيانِ أمر السنَّة حتى يتميز أهلُ الحق من غيرهم، وحتى يعرفَ الإنسان ما هو الحق وما هو خلاف الحق فبالتالي ألَّفَ هذه الرسالة وحث على لزومها، وحث على قراءتها حتى يكون في ذلك نشرٌ للسنَّة وإعلاءٌ لكلمتها.

وإن كان المصنف قد بالغ في وصف كتابه من جهة من رد شيئًا مما كتب فيه فقال: "**فإنه من انتحل شيئا خلاف ما في هذا الكتاب، فإنه ليس يدين لله بدين، وقد رده كله**".

فالعصمة هي لكتاب الله وحده، ولقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وكما قال الإمام مالك: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويُرَدُّ عليه إلا صاحب هذا القبر» (٢٢٧٢)، فإذًا تبقى أقوال الرجال قابلة للحق وقابلة للخطأ.

---

(٢) انظر: كتاب الرد على الأخنائي قاضي المالكية صفحة (١٩٧).



وقال مالك: «لما حج المنصور دعاني فدخلتُ عليه، فحادثته، وسألني فأجبته. فقال: عزمت أن آمر بكتبك هذه -يعني الموطَّأ- فتنسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ويدعوا ما سوى ذلك من العلم المحدث، فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

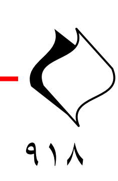
قلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. فقال: لعمري، لو طاوعتني لأمرت بذلك» [٢٢٧٣].

ومن القواعد التي تقرَّر في منهج أهل السنة والجماعة: أن الحق يُقبل من أيِّ كائن كان، فإن الإنسان إذا جاء بالحق فليس العبرة بأنه جاء من فلان، ولكن العبرة أن هذا هو الحق، وقد يكون الإنسان على عِلم وعلى هدى ولكنه قد يخرج عن الحق.

فإذًا كما يقول العلماء في ذلك: الحق لا يقوم بالرجال، ولكن الرجال يقومون بالحق، فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، فكون الإنسان جاء بالحق وقال بالحق وحتى لو كان كافرًا أو فاجرًا فيبقى الحقُّ حقًّا، والباطل يبقى باطلًا حتى وإن جاء من عالم.

فإذًا كما يقول شيخ الإسلام في تقرير هذه القاعدة: "الواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك ويتبعه أين يجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة فلا ينتصر لشخص انتصارًا مطلقًا عامًا إلا لرسول الله، ولا لطائفة انتصارا مطلقا عاما إلا للصحابة رضي الله عنهم أجمعين. فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط بخلاف أصحاب عالم من العلماء، فإنهم قد يجتمعون

٢٢٧٣ تذكره الحفاظ للإمام الذهبي:١\١٩٥، الانتقاء لابن عبد البر ((ص ٤١)) .



على خطأ بل كل قول قالوه ولم يقله غيرهم من الأئمة لا يكون إلا خطأ، فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مسلمًا إلى عالم واحد وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله، وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم، ولا بد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول قبل وجود المتبوعين الذين تنسب إليهم المذاهب في الأصول والفروع، ويمتنع أن يكون هؤلاء جاؤوا بحق يخالف ما جاء به الرسول، فإن كل ما خالف الرسول فهو باطل، ويمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة. فلابد أن يكون قوله إن كان حقًا مأخوذًا عما جاء به الرسول موجودًا فيمن قبله.

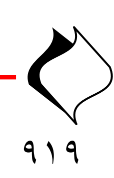
وكل قول قيل في دين الإسلام مخالف لما مضى عليه الصحابة والتابعون لم يقله أحد منهم، بل قالوا خلافه فإنه قول باطل"[٢٢٧٤]

وقال ابن القيم: "والمصنفون في السنة جمعوا بين بيان فساد التقليد وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولابد إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة قول المعصوم، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرموه، وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم، فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك، فيأخذون الدين بالخطأ ولابد فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون ما لم يشرع، ولابد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولابد"[٢٢٧٥].

وقال ابن القيم: "والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وسلم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها: أن تجريد المتابعة أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائنا من كان. بل تنظر في صحة الحديث أولا. فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيا،

٢٢٧٤ منهاج السنة النبوية: ٣/ ١٠٣.

٢٢٧٥ إعلام الموقعين (٢/ ١٩٢).



فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق والمغرب، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها بل لابد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى النص ولا تضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعا ولكن لم يصل إليك. هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك، فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك أيضا فهلا وافقته إن كنت صادقا؟

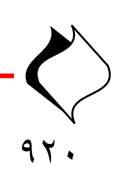
فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا بها ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه.

فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلد به ولذلك سمي تقليدا. بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى سنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول فإذا وصل استغنى بدلالته على الاستدلال بغيره فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى.

قال الشافعي: "أجمع الناس على أن من استبانت له سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد"[٢٢٧٦].

٢٢٧٦ الروح لابن القيم (٢/ ٧٦٨، ٧٦٩).



(المتن)

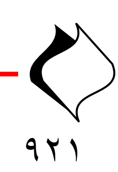
قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٠٥] "وإذا وقعت الفتنة فالزم جوف بيتك، وفر من جوار الفتنة، وإياك والعصبية، وكل ما كان من قتال بين المسلمين على الدنيا فهو فتنة، فاتق الله وحده لا شريك له، ولا تخرج فيها، ولا تقاتل فيها، ولا تهوى، ولا تشايع، ولا تمايل، ولا تحب شيئًا من أمورهم، فإنه يقال: من أحب فعال قوم –خيرا كان أو شرا– كان كمن عمله. وفقنا الله وإياكم لمرضاته، وجنبنا وإياكم معصيته."

الشرح

الأصل في هذه المسألة ما ورد في السنة من النصوص التي تدل على ذلك ومنها:

عن أبي إدريس الخولاني رضي الله عنه أنه سمع حذيفة يقول: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد الخير شر؟ قال: ((نعم)). فقلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: ((نعم وفيه دخَنٌ))، قال قلت: وما دخَنُهُ؟ قال: ((قومٌ يستنُّونَ بغيرِ سُنتي ويَهْدونَ بغير هدْيِي تعرفُ منهُمْ



وتُنكرُ))، فقلت هل بعد ذلك الخير من شـــر؟ قال ((نعم، فتنةٌ عمياءٌ، دُعاةٌ على أبوابِ جهنم، مَنْ أجابَهُمْ إليها قذفوهُ فيها)). فقلت: يا رسـول الله! صِـفْهُمْ لنا، قال: ((نعم، قوم من جَلدتِنا ويتكلمونَ بألســنتِنا))، فقلت: يا رســول الله، وما تأمرني إن أدركت ذلك، قال: ((تلزَمُ جماعةَ المسلمين وإمامِهِمْ))، قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: ((فاعتزلْ تلك الفرقُ كلِّها، ولوْ أنْ تعَضَّ على أصلِ الشجرةِ حتى يُدركُكَ الموتُ وأنتَ على ذلك))[٢٢٧٧].

وعن أبي هريرة رضـــي الله تعالى عنه عن النبي–صـــلى الله عليه وســـلم–أنه قال :((ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به)) [٢٢٧٨].

أي: من وجد عاصمًا وموضعًا يلتجئ إليه ويعتزل فيه فليعتزل.[٢٢٧٩]

وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن))[٢٢٨٠].

وعن عديسة بنت إهبان بن صيفي الغفاري قالت: ((جاء علي بن أبي طالب إلى أبي فدعاه للخروج معه، فقال له أبي: إن خليلي وابن عمك عهد إلي إذا اختلف الناس أن اتخذ ســيفًا من خشـــب فقد اتخذته فإن شـــئت خرجت به معك... قالت: فتركه)) [٢٢٨١]

٢٢٧٧ رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

٢٢٧٨ رواه البخاري (٧٠٨٢).

٢٢٧٩ انظر: ((فتح الباري)) (١٣/٣٠) بتصرف يسير.

٢٢٨٠ رواه البخاري (١٩).

٢٢٨١ رواه الترمذي (٢٢٠١)، وابن ماجه (٣٢١٤)، وأحمد (٦/٣٩٣) (٢٧٢٤٤). قال الترمذي: حسـن غريب، وقال الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): حسن صحيح.

وعن أبي موسى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال في الفتن: ((كسروا فيها سيوفكم وقطعوا أوتاركم واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دخل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم)). ٢٢٨٢

قال الحافظ ابن حجر: (والمراد بالفتنة في هذا الباب: هو ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك حيث لا يعلم المحق من المبطل). ٢٢٨٣

فهذا حالُ أهل السنَّة في الفتن؛ كانوا أبعدُ الناس عنها، وهذا المذهب منسوب إلى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وهم: سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة[٢٢٨٤]، وأبو بكرة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهو: مذهب الحسن البصري[٢٢٨٥] والمشهور عن الإمام أحمد بن حنبل وعامة أهل الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (... ولهذا كان مذهب أهل الحديث ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح بر، أو يستراح من فاجر)[٢٢٨٦].

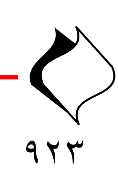
٢٢٨٢ رواه أبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وأحمد (٤/٤١٦) (١٩٧٤٥)، والحاكم (٤/٤٨٧). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده عبد الحق الإشبيلي في ((الأحكام الصغرى)) (٩٠٩) كما أشار إلى ذلك في المقدمة، وصححه ابن دقيق في ((الاقتراح)) (١٠١).

٢٢٨٣ ((فتح الباري)) (١٣/٣١).

٢٢٨٤ ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (٤/١٧١).

٢٢٨٥ ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/١٣٥).

٢٢٨٦ ((مجموع الفتاوى)) (٤/٤٤٤).



ولذلك إذا رأى المسلم فتنةً من الفتن التي تقع لا يسارع فيها، وعليه أن يرجعَ أولَّ ما يرجع إلى أهل العلم فيسألهم عن تلكَ الأحوال وتلك الأمور؛ فكما قال الحسن البصري رحمه الله: "العالِم يرى الفتنة وهي مقبلة، والناس لا يرونها إلا وهي مدبرة."[٢٢٨٧]

وهذا عروة بن الزبير من كبار التابعين، وأئمتهم، ذُكر في ترجمته أنه رجل -كما قال أحمد بن عبد الله العجلي- صالح لم يدخل في شيء من الفتن[٢٢٨٨]، هذه منقبة ومزية.

وإن كان غالبُ الفتن إنما يقع لأمرٍ من أمورِ الدنيا؛ لمصلحةٍ من مصالحِ الدنيا، فيقع القتال بين الناس في طلبِ الرئاسة أو طلبِ حكم، أو تنافس على أمرٍ من أمورِ الدنيا ونحوها فلا يكون الإنسان ممن تهزُّه أو تدعوه العصبية، أو يكون مسارعاً لأي فوضى أو أي فتنة.

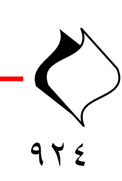
فيجب على الإنسانِ إذا رأى الفتن أن يلزمَ قعرَ بيته، وأن يبتعد عنها، وأن يعتزلها، وقيل ليزيد بن الشخير: "ما كان مطرف بن عبد الله يصنع إذا هاج الناس؟، إذا حصلت فتنة؟، قال: يلزم قعر بيته ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي"، وكان مطرف يقول: "لأنْ آخذ بالثقة في القعود أحبُّ إليّ من أن ألتمس فضل الجهاد بالتغرير.[٢٢٨٩]"

فكذلك حتى إذا صانكَ الله عز وجل من أن تكونَ يدك ممتدة بالفتنة أيضاً صُن لسانك، فأحياناً قد يزِّلَ الإنسان بلسانه ويقول مثلاً: ما نراه من فتنة في البلد الفلاني أو المكان الفلاني أحسن أنهم فعلوا كذا وهذا هو كذا وكذا؛ فأصبح مشايعاً لهؤلاء ولو بلسانه.

٢٢٨٧ منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٠٩).

٢٢٨٨ انظر: الثقات للعجلي (ص: ٣٣١)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٩/ ١٠١)، وسير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤/ ٤٣٦).

٢٢٨٩ سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٧).



وعن عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–لما سئل عما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم؟ فقال: "تلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر ألسنتنا." [٢٢٩٠]

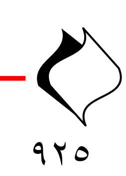
فعليك إن منَّ الله عز وجل عليك بأن يدكَ لم تشارك في هذه الفتنة، فكذلك كُفَّ لسانك، فلا تُشايع ولا تُمايل، لا تَمِل لفئة دون فئة، فقد يكون الإنسان يُشايع بقوله ويشارك في هذا بقوله وإن كان الله عز وجل قد عافاه من أن تمتدَ إلى ذلك يده وهو لا يدري ما عليه الحال عند هؤلاء أو أين الحق وأين الباطل فيما هم عليه.

فلن تسلمَ من الإثم إذا كان هذا الفعل أمراً محرماً، فاحذر حتى المشايعة والميل حتى بعباراتِ اللسان فالبعض لا يتورَّع من هذا القول فبالتالي يعدُّ مشاركاً في الإثم الذي وقعَ فيه أولئك، فإن كان أولئك وقعت أيديهم في تلك الفتن فأنت أصبحتَ واقعاً فيه بلسانك لذلك قال المصنف: **"من أحبَ فعالَ قومٍ خيراً كان أو شرا كان كمن عمله ."**

فحالُ لأهل السنَّة كما ذكر المصنف: **"فالزم جوفَ بيتك وفرَّ من جوارِ الفتنة، وإياك والعصبية، وكل ما كانَ من قتالٍ بين المسلمين على الدنيا فهو فتنة، فاتقِ الله وحده لا شريك له، لا تخرج فيها ولا تقاتل فيها، ولا تهوى ولا تشايع ولا تمايل** "هذه كلها معالم للسنَّة فلماذا لا يلتزمها صاحب السنَّة في كل نواحيها، فهذا الذي كان عليه علماء السنَّة.

والحوادث والفتن تتجدد في كل زمانٍ وفي كل مكان، فاحذر المشايعة والميل حتى ولو بقلبك ولو بلسانك، ففتنةٌ عافاك الله منها فلا تدخل فيها، لا تسارع فيها حتى ولو بالكلام.

٢٢٩٠ انظر: التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٣٣٥)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ٣٠٦).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٠٦] "وأقل النظر في النجوم إلا ما تستعين به على مواقيت الصلاة، واله عما سوى ذلك، فإنه يدعو إلى الزندقة.

الشرح

خلق الله النجوم لثلاثة أمور:

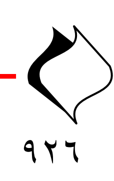
الأولى: زينة للسماء.

قال تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ). [الملك: ٥].

الثانية: رجوماً للشياطين.

قال تعالى (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ) [الملك: ٥].

قال تعالى(: وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا)[الجن: ٩] .والرجم: الرمي.



الثالثة: علامات يهتدى بها.

قال تعالى: (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [النحل: ١٦] .

وينقسم علم النجوم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، فهذا محرم باطل لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر))[٢٢٩١].

وقوله في حديث زيد بن خالد: ((من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب))[٢٢٩٢]، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم في الشمس والقمر:((إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته))[٢٢٩٣]، فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

قوله صلى الله عليه وسلم: «أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم»[٢٢٩٤].

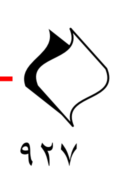
وهذا ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

٢٢٩١ رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد (٢٢٧/١) (٢٠٠٠)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٣٨/٨)، والطبراني (١٣٥/١١)، كلهم رووه بلفظ: ((من اقتبس علماً من النجوم)) بدلاً من ((من اقتبس شعبةً من النجوم))، والحديث سكت عنه أبو داود، وقال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (١٩٣/٣٥)، والنووي في ((رياض الصالحين)) (٥٣٦)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١٤٤/٤)، وأحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٣١٢/٣): إسناده صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)).

٢٢٩٢ رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

٢٢٩٣ رواه البخاري (١٠٦٠)، ومسلم (٩١٥)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

٢٢٩٤ رواه البخاري في ك: مناقب الأنصار، ب: النياحة في الجاهلية (فتح الباري ١٥٦/١) ورواه مسلم واللفظ له في الجنائز ب: التشديد في النياحة ح/ ٩٣٤، (٢/ ٦٤٤).

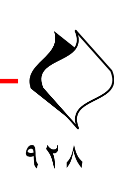


النوع الأول: أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر، لأن من ادعى أن مع الله خالقاً، فهو مشرك شركاً أكبر، فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مسخراً.

النوع الثاني: أن يجعلها سبباً يدعي به علم الغيب، فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا، لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء، لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة لأنه ولد في النجم الفلاني. فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة، لأن الله يقول(: قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى أنواع الحصر، لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب، فقد كذب القرآن.
النوع الثالث: أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه، فهذا شرك أصغر.

الثاني: **علم التسيير**، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [النحل: ١٥]، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية، فقال تعالى: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [النحل: ١٦]، فالاستدلال بهذه النجوم على الأحوال المناخية لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن، كالقبلة، والشمال، والجنوب.

وهذا ينقسم إلى نوعين:



النوع الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية، فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة، فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة، فهذا فيه فائدة عظيمة.

النوع الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا، فهذا جائز، قال تعالى: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [النحل: ١٦] .

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

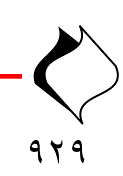
والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني، فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو البحر أو بالرياح.

فبين المصنف رحمه الله القسم الذي يجوز تعلمه من علم النظر في النجوم؛ لا يتعلم الإنسان من علم النجوم إلا ما يحصل به معرفة مواقيت الصلاة، وكذلك يدخل في ذلك مواقيت الزرع ونحو ذلك، فهذا القدر يُتعلَم ولا شيء فيه، لكن دعوى أن لهذه النجوم تأثير بمجريات الكون، وأن هذه الأبراج تعمل كذا وكذا، وإذا كان كذا صارَ كذا فذاك كله من علمِ التنجيم وهو علمٌ باطل.

ثم حذر طالب العلم بأن لا ينظر في علومِ النجوم إلا بالقدرِ المعيَّن الذي هو أن تكون على ما تُهتدى به،

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:



[١٠٧] "وإياك والنظر في الكلام والجلوس إلى أصحاب الكلام، وعليك بالآثار، وأهل الآثار، وإياهم فاسأل، ومعهم فاجلس، ومنهم فاقتبس".

الشرح

تقدم الحديث عن علم الكلام وذمه في أكثر من موطن ومن ذلك ما جاء الفقرة رقم (١٠) والفقرة رقم (٨٠) وغيرها من الفقرات فليرجع إليها.

وعلم المنطق والفلسفة قال عنه ابن تيمية: "فإني كنت دائما أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد" ٢٢٩٥.

ولا شك أن طالب العلم عندما يكون على منهج النبوة فإنه ليس بحاجة لتعلم تلك العلوم وجعلها أساساً لصياغة علم العقيدة ففرق بين المنهجين.

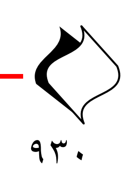
فكل بدعة تقوم في مقابلها تموت السنة، فهؤلاء لما أحيوا بدعة المنطق والفلسفة، كان مقابل هذا أن أماتوا علم مصطلح الحديث، وبالتالي لا تجد عند عامة هؤلاء علم أو معرفة بالصحيح من السقيم، لا عند أهل الفلسفة والكلام ولا عند أهل التصوف.

ولذلك تجد أن كتب هؤلاء مملوءة بأحاديث موضوعة أحياناً وأحاديث مكذوبة، والواحد منهم لا يدري ولا يفرق هل هذا ثبتت صحته أو لم تثبت صحته، بينما هو يجيد علم المنطق إجادة تامة، فهنا نتذكر قول ابن عباس –رضي الله عنهما–إذ يقول: "مَا أَتَى عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً، وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً، حَتَّى تَحْيَى الْبِدَعُ، وَتَمُوتَ السُّنَنُ " ٢٢٩٦.

ففي مقابل إحياء البدع تموت السنة، ولذلك انظر لهؤلاء في علم العقيدة تجد أن أهل الفلسفة والكلام نبذوا كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم، واستجهلوا أعلام هذه الأمة وأفضل هذه الأمة علماً وخيراً واعتقاداً وسلوكاً أصحاب المصطفى ﷺ ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين

٢٢٩٥ الرد على المنطقيين ١/ ٢

٢٢٩٦ انظر المعجم الكبير للطبراني برقم (١٠٦١٠).



الذين إذا قرأ الإنسان في سيرهم احتقر نفسه لما كانوا عليه من العلم والفضل، حتى أن أحدهم ليحفظ ألوف المسائل.

قال ابن رجب الحنبلي :"وأما ما أحدث بعد الصحابة من العلوم التي توسع فيها أهلها وسموها علوما وظنوا أن من لم يكن عالماً بها فهو جاهل أو ضال فكلها بدعة وهي من محدثات الأمور المنهي عنها. فمن ذلك ما أحدثته المعتزلة من الكلام في القدر وضرب الأمثال لله٢٢٩٧."

إلى أن قال رحمه الله: "وينقسم هؤلاء إلى قسمين:

أحدهما: من نفى كثيراً مما ورد به الكتاب والسنة من ذلك لاستلزامه عنده للتشبيه بالمخلوقين كقول المعتزلة: "لو رؤي لكان جسما لأنه لا يرى إلا في جهة" وقولهم: "لو كان له كلام يسمع لكان جسما"، ووافقهم من نفى الاستواء فنفوه لهذه الشبهة: وهذا طريق المعتزلة والجهمية وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم وقد سلك سبيلهم في بعض الأمور كثير ممن انتسب إلى السنة والحديث من المتأخرين.

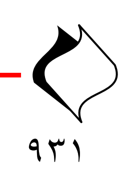
والثاني: من رام إثبات ذلك بأدلة العقول التي لم يرد بها الأثر ورد على أولئك مقالتهم كما هي طريقة مقاتل بن سليمان ومن تابعه كنوح بن أبي مريم وتابعهم طائفة من المحدثين قديماً وحديثاً. وهو أيضاً مسلك الكرامية فمنهم من أثبت لإثبات هذه الصفات الجسم إما لفظاً وإما معنى. ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة وغير ذلك مما هي عنده لازم الصفات الثابتة.

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله في رده على جهم بأدلة العقل وبالغوا في الطعن عليه٢٢٩٨".

وكل هذا الاعتقاد الذي جاء به كل من الفلاسفة وأهل الكلام ومن سار على نهجهم حملهم على أن تنبذ النصوص عندهم، وشكَّكُوا وطعنوا في كلام الله تعالى وكلام

٢٢٩٧ بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص ٢

٢٢٩٨ بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص٣.



رسوله ﷺ، واستعاضوه واستبدلوا به بدلاً من هذا بقواعد المنطق والفلسفة، وركبوا التوحيد على هذا الأساس.

ومن عاد إلى كتبهم وقرأ سيجد علماً لا أساس له من الكتاب والسنة ومركبٌ وفق قواعد المنهج الفلسفي.

فإذاً لما أدخل هؤلاء الفلسفة والمنطق في هذا العلم وفي غيره، كان هذا على حساب الكتاب والسنة، وهكذا فعل المتصوفة لما أحدثوا ما أحدثوا من البدع، كان هذا على حساب إتباع السنة.

قال ابن رجب الحنبلي: "الصواب في ذلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وإيجازه، فما سكت من سكت من كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلا ولا عجزاً، ولكن سكتوا عن علم وخشية للّه.

وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم ولكن حباً للكلام وقلة ورع كما قال الحسن وسمع قوما يتجادلون "هؤلاء قوم ملوا العبادة وخف عليهم القول وقل ورعهم فتكلموا".٢٢٩٩

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٠٨] "واعلم أنه ما عبد الله بمثل الخوف من الله، وطريق الخوف والحزن والشفقات والحياء من الله تبارك وتعالى".

الشرح

تقدم الكلام على هذه المسألة في الفقرة رقم (٨٨) فليرجع إليها.

٢٢٩٩بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص٤.

والإنسان المؤمن دائماً وَجِل وخائف، يخاف من معصيةِ الله عز وجل، يخاف من ذنبه، يخاف ألا تُقبل عبادته وطاعته، فدائماً المؤمن في هذه الدنيا في وَجَل وفي خوف.

فعلى المسلم أن يراقبَ الله عز وجل، عليه أن تستحي من الله عز وجل لأنه إذا انعدمَ الحياء فهذا من انعدامِ الإيمان، وإذا رأيت الحياءَ في الرجل فاعلم أنه علامةُ إيمان ولذلك لما كان ذلك الرجل ينصح أخاه بالحياء نهاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال إن: ((الحياءَ من الإيمان)) ٢٣٠٠.

فعلى الإنسانِ أن يُكثرَ من الشفقة والحياء والخوف من الله عز وجل لأن هذه الأمور إذا خبت وضعفت في القلوب فإن الإنسان يستمرئ الباطل ويجد الحلاوة في الباطل، ثم هذه إذا وُجدت في القلوب هي حواجز وموانع، وكلما هممت بمعصية خفت وخشيت من الله، استحيت من الله عز وجل، فإذا وُجدت هذه الأمور فهذه التي توقظ الإيمان في القلب، إذا خبت وانعدمت فهذا دليل أن الإيمان قد فُقد.

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: "أصل كل خير في الدنيا والآخرة: الخوف من اللَّه عزَّ وجل، وكل قلبٍ ليس فيه خوف اللَّه فهو قلب خرب"[٢٣٠١].

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

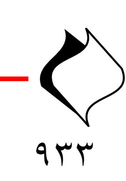
[١٠٩] "واحذر أن تجلس مع من يدعو إلى الشوق والمحبة، ومن يخلو مع النساء وطريق المذهب، فإن هؤلاء كلهم على ضلالة".

(الشرح)

يرشد لأنواع من الضلالات التي يقع بها الناس:

٢٣٠٠ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ: الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، برقم (٢٣)، ومسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، (٣٦)، وأبو داود (٤٧٩٥)، والترمذي (٢٦١٥) وقال عقبه: هذا حديث صـــحيح، وابن ماجه (٥٨)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٤٥٥٤)، ومالك في الموطأ (١٠).

٢٣٠١ مجموع رسائل ابن رجب ٤/٩٤.



قول المصنف: **"واحذر أن تجلس مع من يدعو إلى الشوق والمحبة"**

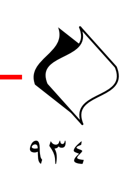
معلوم أن صاحب الحق يعيش بين مقام الرجاء وبين مقام الخوف ويعبد الله عز وجل في بيوتِ الله عز وجل ويبتعد عن كلِ بدعة فمَن أرادَ العبادة فهذه بيوت الله عز وجل طاهرة مطهَّرة –بحمد الله تعالى– بريئة من كل باطل، أما اجتماعات وخلوات أولئك فكلها دعوة إلى المحبة وعشق النساء ونحو ذلك، فهذه كلماتهم وهذه عباراتهم يملؤون مجالسهم بها.

والمصنف هنا يتحدث عن المتصوِّفة، وما أحدثوه تحت مسمى الشوق والمحبة من أمور مبتدعة كان من أخطرها الاجتماعات التي أحدثوها وسموها زورًا وبهتانًا مجالس السماع والذكر وجعلوا سماعهم مصحوبًا بالدفوف والطبول والأشعار الماجنة وغير ذلك بزعم أنها تحرك أشواقهم وتحرك مشاعرهم وتلعبُ بمشاعرهم.

وعن تطور هذه بدعة السماع يحدثنا ابن القيم رحمه الله فيقول:

"**(المرحلة الأولى)** فإنَّ أصل سماع القصائد كان تلحينًا بإنشاد قصائد مُرقِّقة للقلوب، تتضمن تحريكَ المحبة والشوق والخشية والحزن والأسف وغير ذلك، وكانوا يشترطون له المكان والإمكان والخلَّان، ويشترطون أن يكون المجتمعون لهذا السماع من أهل الطريق المريدين لوجه الله والدار الآخرة، وأن يكون الشعر المسموع خاليًا عما تَحظُر الشريعةُ سماعَه وتكرهه، وبعضهم كان يشترط أن يكون القوَّال منهم، وبعضهم يشترط كون الذي أنشأ القصيدة من أهل الطريق، إلى غير ذلك من الشروط والأوضاع التي احترزوا بها من مُفسِدات السماع.

ولكن لما كان الأصل غيرَ مشروعٍ آل الأمرُ إلى ما آل إليه من الفساد الذي لا يعلمه إلا الله، لأنَّه من عند غير الله، فليس عليه حارسٌ وحافظ من الله، بل هو بمدرجة كل سالكٍ في الباطل، وهو مجمَعُ المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السَّبُع وما ذُبح على النُّصُب.



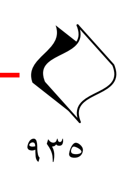
(المرحلة الثانية) ثمّ إنهَّم أضافوا إلى هذا الصوت ما يُنفِّذه ويُوصِله إلى شَغَاف القلب، من الآلات التي أخفُّها التغبير، وهو ضربٌ بقضيب على جلد أو مخدَّةٍ على توقيع خاص، فعظُمَ إنكارُ الأئمة لذلك كالشافعي وأحمد، فقال الشافعي: "هو من إحداث الزنادقة"، وقال أحمد: "بدعة".

(المرحلة الثالثة) ثمّ لم يقتصروا على هذه الحركة، فتعدَّوها إلى حركة الدُّفوف، وهي أقبح من حركة التغبير، وفيها ما فيها، وزيادة التشبه بالنساء، فإنَّ الدفّ في الأصل إنما هو للنساء عادة ورخصة، وقد لعن رسول الله–صلى الله عليه وسلم– المتشبّهين من الرجال بالنساء[٢٣٠٢].

(المرحلة الرابعة) ثمّ لم يقتصروا على هذه الحركة حتى تعدَّوها إلى حركات الأوتار والعِيْدان، التي هي في الأصل من إحداث الفلاسفة أعداء الرسل، ثمّ ضمُّوا إلى ذلك حركة الرقص، التي سببها استخفاف الشيطان لأحدهم، وركوبه على كتفه، ودقُّه برجليه في صدره، وكلما دقَّه برجليه ورقَص على صدره رقصَ هو كرقص الشيطان عليه، وقد شاهد ذلك بعض أهل البصائر عيانًا، ثمّ ضمُّوا إلى صوت الغناء صوتَ اليَراع والشبابة وغيرها.

فاقتضت هذه الهيئة الاجتماعية حركةً باطنة، فإنَّ استماعَ الأصوات المطربة يُثير حركةَ النفس بحسب تلك الأصوات، وللأصوات طبائع متنوعة بتنوع آثارها في النفس، وكذلك للكلام المسموع نظمه ونثره، فيجمعون بين الصوت المناسب والحرف المناسب، فيتولد من بينهما حركاتٌ نفسية تُثِير كامنَها وتُزعِج قاطنَها، وهذا أمر يشترك فيه بنو آدم من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، ويُثير من قلب كل أحدٍ ما فيه. ومعلوم أنَّ النفوس فيها الشهوات كامنة، ولكنها مقهورة مقيَّدةٌ لا بقيود الأوامر، فإذا صادفها السماع أحياها وأطلقها من قيودها، وافْتكَّها من أَسْرها، وأجلب عليها بكل

٢٣٠٢ كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٨٥) عن ابن عباس.



مُعِين ومُمِدّ. وهذا أمر لا ينكره إلا أحد رجلين: إما غليظ كثيف الحجاب، وإما مكابر."[٢٣٠٣]

قال ابن القيم: "الأعمال أربعة: فواحد منها مقبول، وثلاثة أرباعها مردودة، فالمقبول ما وافق الأمر وأريد به وجهُ الله، ولا يقبل الله عملًا سواه.

والمردود أن لا يكون خالصًا لله ولا موافقًا لأمره، أو ينتفي عنه أحدهما.

فالمقبول ما وُجِد فيه الأمران، والمردود ما انتفى عنه الأمران أو أحدهما، ولهذا اشتدت وَصاة الشيوخ المستقيمين بهذا الأصل، وأخبروا أن من عدل عنه فهو مطرود وعن طريق قصده مصدود.

قال ابن أبي الحواري: من عمل عملًا بلا اتباع سنة فباطل عمله"[٢٣٠٤].

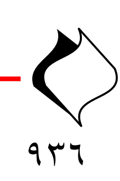
قال ابن القيم: "واعلم أنَّ بدعة السماع تتضمن **الغلوَّ في الدين واتباعَ الهوى والعَشْوَ عن ذكر الله**، فإنهم حسبوا أنَّ هذه البدعة دين وقُربةٌ تُقرِّبهم إلى الله، **وهذا من أقبح الغلو**، وهو يوجب الانحراف عن الصراط المستقيم، **واتباعُ الهوى** يوجب الضلالَ عن سبيل الله، قال تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦].

والعَشْو عن ذكر الله يوجب مقارنة الشيطان له. قال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: ٣٦]، وذكر الله هنا هو كتابه، ومن العشو عنه: التعوُّضُ عنه بسماع الشيطان المحدث.

وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية: ١٨-١٩].

٢٣٠٣ الكلام على مسألة السماع: ص: ٢٠٧-٢١١

٢٣٠٤ الكلام على مسألة السماع ص: ١٥٨



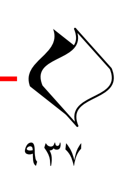
فالشريعة التي جعله ربه عليها تتضمن ما أمره به ورضيه له، وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعلمون، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه دينًا، وينهى عما يُبغِضه ويذمّه إلا بهُدًى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله، وأمره والمؤمنين باتباعها. ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، فيذمُّونهم بذلك ويحذّرون عنهم، ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق.[٢٣٠٥]"

ويقول ابن القيم رحمه الله في وصف سماع المتصوفة: "فمضرة هذا السماع على النفوس أعظم من مضرَّة حُمَيّا الكُؤوس.

ولما كانت المفسدة فيه ظاهرة معلومة، أخرجه أهلُه في قالَبٍ يُلطِّف ما فيه من المنكر، فجمعوا عليه أخلاطًا من الناس، وقالوا: إنَّ هذا الاجتماع شبكةٌ نصطاد بها النفوسَ إلى التوبة، ونسوقُها بها إلى الله والدار الآخرة. ونعم واللهِ هو شبكة وأيُّ شبكة! يصطاد بها الشيطانُ النفوسَ المبطِلة إلى ما هو أعظم من المعاصي الظاهرة، ويقودها بها إلى الغيّ والهوى، فلهذا نصَبه هؤلاء الفسَّاق من المخانيث والزُّناة وعُشّاق الصور، فجعلوه شبكة لهم لصيدِ الأَغْيَد والغَيْداء والغَزَالِ والغزالة، ووضعوه على ما يليق بمقاصدهم من الأوضاع، فشرطوا أن يكون المغنِّي أمردَ جميلا، تدعو صورتُه وصوته وشكله ودَلُّه وحركاتُه إلى تعلق القلوب به وعشقه، فإن فاتَ فامرأةٌ كذلك، وإذا جمعَ السماعُ العاشقَ والمعشوقَ، وتقابلَا وتعانَقَا في الرقص:

فظُنَّ شرًّا ولا تسألْ عن الخبرِ

٢٣٠٥ الكلام على مسألة السماع: ١٦٢-١٦٣



وإذا حضر المردان الحِسان هذا السماعَ فهو عندهم الغاية، ولاسيما إذا ألبسوهم المِصبغاتِ، وزيّنوهم كما تُزيَّن العرائسُ، وأخلَوا لهم طابق الرقص، ودار حولهم العشّاق والفسَّاق كالهالة حول القمر، وأداروا عليهم من الأعين النِّطاق، فللشيطان لا للهِ كم من زَعْقةٍ وصَرْخةٍ وزَفْرةٍ وأنَّةٍ وحَسْرة ووَجْدٍ وأسفٍ وحزنٍ، وكم من قلوبٍ تُشقَّق قبل الجيوب، وعبراتٍ تُسكَب في غير رضا علام الغيوب، فيا لها حضرةً ما أحبَّها إلى الشيطان! وما أبغضَها إلى الرحمن!

ويتزايد الأمر حتى يُغنُّوا بأشعارٍ طالما عُصِيَ الله بها في الأرض، من أشعار الفسّاق والفجّار، المتضمنة لتهييجِ النفوس على ما يُبغِضه الله ويَمقُت عليه، ومدْح ما حرَّمه ولعنَ فاعله، والابتهاجِ به، والافتخارِ بنيله، والتَبجُّح بالوصول إليه. وربما تعدَّوا ذلك إلى الغناء بالأشعار الكفرية التي تُحادُّ ما أنزل الله، كأشعار أهل الإلحاد من الاتحادية والحلولية، والأشعار المتضمنة لكثير من ألفاظ القرآن"[٢٣٠٦]

وفرق فيها بين السماع القرآني والسماع البِدعي والشيطاني.

أما سماع صاحب السنة فهو كتابُ الله عز وجل وفيه–بحمد الله تعالى–من ترقيقِ القلوب وفيه من الحق وفيه من البيان ما يجعل المؤمن لا يملُّ من سماعه فاحذر حال المتصوِّفة.

قول المصنف: "**ومن يخلو مع النساء**" فبعض أهل التصوف قد استحلوْا الخلوة مع النساء وعُرِفَ عن بعض المتصوفة أنهم في اجتماعاتهم ومجالسهم وموائدهم يجتمع فيها النساء والولدان والمردان ونحو ذلك فيكون بابَ فتنة وبابَ شر.

والخلوة بالنساء الأجنبيات أمر منهي عنه لما يفضي إليه من الأمور المحرمة ولذلك نهى الله تعالى عن سلوك الطريق الموصل إلى هذا؛ ليقطع على الشيطان خطواته، فأمر بغضِّ البَصر والستر والعفاف؛ فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا

٢٣٠٦ الكلام على مسألة السماع: ص: ٢٠٧–٢١١



فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور: ٣٠، ٣١] ونهى عن الخضوع بالقول؛ فقال سبحانه: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [الأحزاب: ٣٢]، وذلك كله لمنع وقوع فاحشة الزنا التي حرمها الله فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}؛ وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من الخلوة والاختلاط بالنساء الأجنبيات، فقال ﷺ: «لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ»(٢٣٠٧)، وقال عليه الصلاة والسَّلام: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»(٢٣٠٨)؛ كل هذا صيانة للعباد والبلاد عن مفاسد هذه الأمراض الخطيرة التي تَنتج عن العِشق والتَّعَلُّق بغير الله.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١١٠] "واعلم–رحمك الله–أن الله–تبارك وتعالى–دعا الخلق كلهم إلى عبادته، ومنَّ بعد ذلك على من شاء بالإسلام تفضلا منه".

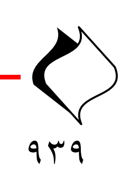
الشرح

بعثَ الله عز وجل رسوله للناسِ كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨]،﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]، ولكن الله تعالى منَّ على مَن شاء بأن يدخلَ في دينِ الله عز وجل.

ومسألة الهُدَى والضَّلال هي قلْب أبواب القدَر ومسائله، فإنَّ أفضلَ ما يقدِّره الله للعبد هو الهُدَى؛ فهو مِن أعظمِ النِّعَم، وأعظمُ ما يبتَلِيه به ويقدِّره عليه هو الضَّلال، وقد

(٢٣٠٧) أخرجه البخاري (٣٠٠٦) ومسلم (١٣٤١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢٣٠٨) أخرجه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.



اتَّفقَتْ رسُل الله جميعًا، وكذلك كُتُبه المنزلة على أن الله يُضِلُّ مَن يشاء، ويهدي مَن يشاء، فالهدَى والإضلال بيده، لا بيدِ العبد، أمَّا طلَب الهداية والسعي إليها مِن طلَب العبدِ وكسبه.

لذلك كان مِن الضروري ذكْر مَراتِب الهداية كما وردَتْ في القرآن الكريم، وتتلخَّص في أربع مَراتِب؛ هي:

١-الهداية العامَّة.

٢-هداية الدلالة والبيان، والإرشاد والتعليم.

٣-هداية التوفيق والمعونة.

٤-الهداية إلى الجَنَّة والنَّار يوم القيامة.

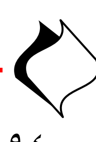
المرتبة الأولى: الهداية العامَّة:

وهي هداية عامَّة لجميع الكائنات، فاللهُ قد هَدَى كلَّ نفس إلى ما يُصلِح شأنها ومعاشها، وفطَرَها على جلْب النافع، ودفْع الضارِّ عنها، وهذه أَعمُّ مَراتِب الهداية.

والله عزَّ وجلَّ يقول :﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى *الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى *وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، وفيها ذَكَرَ اللهُ أربعة أمور عامَّة وهي: الخلْق، والتسويَة، والتقدير، والهداية، وجعَلَ التسويَة مِن تَمام الخلْق، والهداية مِن تَمام التقدير، وبذلك تَكُون التسويَة والهداية كمالَيْن للخلق والتقدير؛ ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧] .

وأمثلة هذا النوع من الهداية كثيرةٌ لا يُحصِيها إلا الله؛ مثل: هداية النحل إلى سلوك السُّبُل التي فيها مَراعِيها على تبايُنِها واختلافها، ثم عَوْدها إلى بيوتها مِن الشجر والجبال وما يَعْرِشُ بنو آدم؛ ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨].

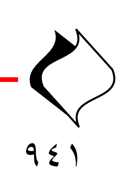
المرتبة الثانية: هداية الدلالة والبيان والإرشاد:



وهذا النوع هو وظيفة الرسل والكتب المنزلة مِن السماء، وهو خاصٌّ بالمكلَّفين، وهذه الهداية هي التي أثبَتَها لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، كما أنَّ هذا النوع مِن الهداية أخصُّ مِن التي قبْلَها، فهي مصدر التكليف ومَناطُه، وبها تقوم حُجَّة الله على عِباده؛ فإن الله تعالى لا يُدخِل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسل الذين يُبيِّنون للناس طريق الغيِّ مِن الرشاد :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر: ٥٧] ، ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، يقول ابن كثير: (أي: إنه تعالى أنزَلَ كُتبَه، وأرسَلَ رسُلَه بالبشارة والنذارة، وبيَّن ما يحبُّه ويَرضاه ممَّا يكرهه ويأباه؛ لئلَّا يبقى لمعتَذِر عذر؛ ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ [طه: ١٣٤].

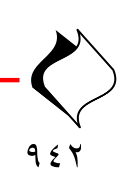
وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضِي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((... لا أحد أحب إليه العُذر مِن الله؛ مِن أجْل ذلك بعَثَ النبيِّين مُبَشِّرين ومُنذِرين)).

والله تعالى لم يمنع أحدًا هذه الهداية، ولم يَحُلْ بين أحدٍ مِن خلْقه وبين هذه الهداية، بل خلَّى بينهم وبينها، ومَنَحَهم مِن الوَسائل والأدوات التي تُساعِدهم على تقبُّلها والاستِفادة بها؛ كالعقل والفطرة، وأقام لهم بذلك أسبابَ الهداية ظاهرةً وباطنةً، ومَن حَرَمَه مِن خلْقه بعضًا مِن هذه الأدوات والوسائل؛ كزوال العقل أو الصِّغَر أو المرض، فقد حطَّ عنه مِن التكاليف بحسب ما حرَمَه من ذلك؛ قال تعالى :﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((رُفِع القلمُ عن ثلاث: عن النائم حتى يستَيقِظ، وعن الصبيِّ حتى يَبلُغ، وعن المجنون حتى يفيق))، كما اتَّفق رِجالُ الأصول على أنه: (إذا أخَذَ ما وهب انقطَع ما وجب).



وهذه الهداية لا تستَلزِم حُصُول التوفيق، واتِّباع الحقِّ مِن العِباد؛ بدليل أنَّ بعض الناس آمَن بدعوة الرسُل، وبعضهم كفَر بها، ولكنَّها سببٌ في حصول الاهتِداء، والسبب هنا قد اكتَمَل بإرسال الرسُل، ووصول دعوة وبلاغ الرسل إلى أُمَمِهم، فلا نقص إذًا في السبب، إنما النقص يرجع إلى العبد الذي لم يَقبَل، ولم يَنتَفِع بما جاءَتْ به الرسل بسبب فساد الفطرة، وطغيان المادَّة؛ قال تعالى :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[فصلت: ١٧]، ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾؛ أي: بَيَّنَّا لهم ودعوناهم، فاستحبُّوا العَمَى على الهدى؛ أي: بصَّرناهم وبيَّنَّا ووضَّحنا لهم الحقَّ على لسان نبيِّهم صالح، فخالَفُوه، وكذَّبُوه، وعَقَروا ناقة الله تعالى، التي هي بُرهان على صدْق نبيِّهم، فعَدَمُ الاهتِدَاء واقِعٌ بسبب القُصُور الحادِث في المحلِّ القابِل للأثر وهو الإنسان، وليس في قُصُور السبب، فكانت النتيجة أنْ أضلَّهم اللهُ عقوبةً على ترْك الاهتِداء، وعدم الاستِجابة لما جاءَتْ به الرسل.

وهذا شأنُ الله في كلِّ نعمة أنعَمَ بها على عباده إذا كفروا؛ فإنه يَسْلبها منهم بعد أن كانَتْ حظًّا لهم :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾]الأنفال: ٥٣]، والقرآن الكريم قد قصَّ علينا ما كان مِن الأُمَم التي أَرسَل اللهُ إليها رسُلًا فلم تستَفِد بهَديِهم؛ فقال يصِف حالهم في نار جهنم: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩]، فالذي حدَث مِن الله هو الهداية، وكان مِن العبد التكذيب والضلال، رغم أنه كان في مَقدُورِه أن يَتَّبِع الرسول، ويُؤمِن بما جاء به، وليس ذلك شيئًا خارجًا عن قُدرته أو فوق طاقته، ففي مثل هذه الحالة فإن الله يُخَلِّي بين العبد ونفسِه، والنفس بطبعها أمَّارة بالسوء إلا ما رحمَ ربي، فإذا وُكِل الإنسان إلى نفسه قادَتْه إلى الهلاك، وهو بذلك يكُون قد قُطِع عنه تَوفِيقُه، ولم يُرِد اللهُ أن يُعِينَه على نفسه ليُقبِل العبدُ بقلبه إلى الله، وهو سبحانه إذا فعَل



ذلك بأحدٍ مِن خلْقه فليس ظالمِا؛ لأنه لم يَسْلبه حقًّا له، ولم يمنعه مِن الدلالة أو البيان، وهذا في مَقدُور العبد فعْلُه، ولكنَّه حرَمَه التوفيق والسداد عدلًا منه في خلْقه.

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام والمعونة:

وهذه المرتبة أَخَصُّ مِن التي قبْلها، فهي هداية خاصَّة تأتي بعد هداية البيان؛ تحقيقًا لقوله تعالى:﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، فلا تكون لملَكٍ مُقرَّب، ولا نبيٍّ مُرسَل، إنما هي خاصَّة بالله وحدَه، فلا يَقْدِر عليها إلا هو، ولا يُعطِيها إلا لِمَن حقَّق شروطها واستَوفى أسبابها.

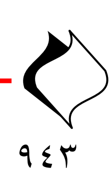
﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وهذا النوع من الهداية هو الذي نَفَاه الله عن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧].

وهذا النوع من الهداية يستَلزِم أمرَيْن:

أحدهما :فعْل الربِّ تعالى، وهو الهدى بخلْق الداعية إلى الفعْل والمشيئة له.

الثاني :فعْل العبد، وهو الاهتِداء، وهو نتيجة للفعل الأول "الهدى"؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]، ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، ولا سبيل إلى وجود الأثر الذي هو الاهتِداء مِن العبد إلا بعد وُجود المؤثِّر الذي هو الهداية مِن الله، فإذا لم يحصُل فعْل الله لم يحصُل فعْل العبد، وهذا النَّوْعُ مِن الهداية لا يَقْدِر عليه أحدٌ إلا الله سبحانه، قال أهل الجنة :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

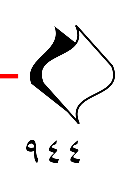


كما أنَّ هذا النوعِ مِن الهداية هو الذي نَفَاه القرآنُ عن الظالمين والفاسقين والكاذبين والمسرف المرتاب، وكلُّ آية في القرآن وردَتْ في نفي الهُدَى فيجب حَمْلُها على هذا النوع؛ لأن هذا فضْلُه يختصُّ به مَن يشاء مِن عباده، ولا حرج في ذلك.

المرتبة الرابعة: مرتبة الهداية إلى الجَنَّة والنار يوم القيامة:

وهذه المرتبة، وهي آخِر مَراتِب الهداية، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجَنَّة، وهو الصراط الموصِل إليها، فمَن هُدِي في هذه الدار الدنيا إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسُله وأنزل به كُتبه، هُدِي يوم القيامة إلى الصراط المستقيم، الموصِل إلى جَنَّته ودارِ ثوابه، وعلى قدْر ثُبُوت قدَم العبد، وسَيْرِهِ على هذا الصراط الذي نصَبَه الله لعباده في هذه الدار الدنيا، يكُون ثُبُوت قدَمه وسَيْره على الصراط المنصوب على متْن جهنم؛ قال تعالى :﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ *مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] ، ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ *سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ *وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤ – ٦]، فهذه هداية بعد قتلهم؛ ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾؛ أي: إلى الجَنَّة، وذلك يفسّره قوله :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩] ، ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾؛ أي: أَمْرَهم وحالَهم ويَعصِمهم أيَّام حياتهم في الدنيا، ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾؛ أي: عرَّفهم بها وهَداهم إليها.

أمَّا مَن يترك أسباب الهداية ويقول: لو شاء الله هدايتي لهداني، ولو شاء أن أقوم للصلاة لقمتُ. فهذا مناف للشرع والعقل، فلا بد للإنسان أن يقوم بأسباب العمل الصالح؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد ركَّب في الإنسان من المشيئة والإرادة ما هو تَبَع لمشيئته وإرادته جلَّ وعلا، لكن الإنسان يُختبر بهذه الأسباب، فلا يجوز له تعطيلها بأي حال من الأحوال.

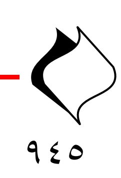


وعلى العبد أن يأخذ بالأسباب الشرعية التي شرعها الله سبحانه وتعالى؛ لكي ينال ما كتبه الله عليه في أمر القَدَر، وقد يناله وقد لا يناله، لكنه مُطالب بأن يأخذ بهذه الأسباب التي أرادها الله سبحانه وتعالى.

فإنَّ مِن خَلْقِ الله تعالى أن ركَّب للأمور أسبابًا، ومِن خلق الله عز وجل أن جعل للعبد إرادة ومشيئة، وهذه الإرادة والمشيئة لا تخرج عن إرادته ومشيئته سبحانه وتعالى، فعلى هذا أمر الله تعالى العباد واختبرهم وابتلاهم؛ فمنهم مَن أطاع-بمعنى: أنه أخذ بأسباب السعادة وقام بهذه الأسباب، وطلبها من الله تعالى؛ فأعانه عليها-ومنهم مَن حُرم مِن هذا.

والفضل مِن قبل ومن بَعد لله سبحانه وتعالى الذي هيَّأ للعبد هذه الأسباب من جهة، والذي أعانه على هذه الأمور من جهة، فعلى العبد أن يُوازن بين هذا وهذا، فالله قد أمر العبد وخَلق له إرادة، كما قال: {إنَّا هديناه السبيلا إما شاكرا وإما كفورا}؛ فهداه السبيل وركَّب فيه من أسباب الهداية ما ركَّب، وشاء أن يمتحنه؛ فإما أن يقوم بالطاعة أو يقوم بالمعصية، وكلا العبدين قد أوتي من القوة والصحة والأسباب ما يُعينه على فعل ما أراد، لكن هذا أعان على نفسه فاتَّبع أسباب الهداية فسار عليها، وذاك حَرَم نفسه فَوُكِل إليها، فالعبد بالتالي في حال جهاد مع نفسه، وفي حال مجاهدة مع قَدَر الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يعلم ما خاتمته التي يموت عليها، ولكنه يعلم أن الله تعالى قد جعل للجنة أسبابًا، وأمره بالأخذ بهذه الأسباب، فسبب دخول الجنة: الاستقامة على أوامر الله سبحانه وتعالى، ولذلك ذكر العلماء أن الباء في قوله تعالى: {جزاء بما كانوا يعملون} هي باء السبب، وليست باء المقابلة والعِوض، فالجنة ليست ثمنًا لعمل العبد؛ قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «{جزاءً بما كانوا يعملون} أي: بعملهم، أو بالذي كانوا يعملونه لأن (ما) في قوله: {بما كانوا يعملون } يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون اسمًا موصولًا، والباء هنا للسببية»(٢٣٠٩).

(٢٣٠٩) «تفسير العلامة محمد العثيمين»، تفسير سورة الواقعة.



وقال لأهل النار: {جزاء وفاقًا}، فكلٌّ يجازيه الله سبحانه وتعالى بحسب عمله.

ومدار الثواب والعقاب على العمل؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٢٣١٠).

فعلى الإنسان أن يحقق أسباب السعادة ونيل رضوان الله سبحانه وتعالى، فالجنة لا تحصل بالجسم ولا بالمال ولا بالحسب والنسب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مَناف، لا أُغني عنكم مِن الله شيئًا، يا عبَّاس بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمَّة رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سَلِيني ما شئتِ من مالي؛ لا أُغني عنك من الله شيئًا» (٢٣١١).

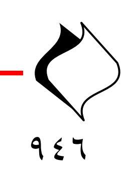
ففاطمة رضي الله عنها مع كونها بنت النبي ﷺ الذي هو أعظم الخلق عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن هذا النسب لا يُغني عنها من الله شيئًا، حتى تؤمن وتعمل صالحًا.

فعلى هذا يقصد بهذه المنازعة: أن يسعى العبد لأسباب السعادة؛ ويسأل الله القبول، ويحسن ظنه بالله؛ لأنه سبحانه قال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠]، وبعد الإيمان والعمل الصالح يرجو أن يكون من أهل الجنة، ولا يقولَنَّ-مثلًا-أنا على قَدَر الله تعالى؛ فإن شاء هداني وإن لم يشأ لم يهدني. فيترك أسباب نَيل الخير.

والإنسان في الأمور الدنيوية يعلم أنه من غير الممكن أن يترك الأسباب ويحصِّل نتائجها، ومن فعل ذلك سخر الناس منه واستهزئوا به؛ كمن يُريد الولد بلا زواج، وكمن

(٢٣١٠) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وأيضًا بلفظ: «إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وأشار بأصابعه إلى صدره».

(٢٣١١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



يريد المال بدون عمل، وفرق كبير بين التوكل والتواكل؛ فالتواكل يكون بترك الأخذ بالأسباب. وهو مذموم. والتوكل المشروع يكون بالأخذ بالأسباب، مع سؤال الله عز وجل العون والتوفيق والهداية والسداد على فعل الطاعات.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١١١] "والكف عن حرب علي ومعاوية وعائشة وطلحة والزبير، ومن كان معهم، ولا تخاصم [فيهم]، وكل أمرهم إلى الله تبارك وتعالى، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم وذكر أصحابي وأصهاري وأختاني»٢٣١٢،

٢٣١٢ ورد في مجمع الزوائد للهيثمي: (٩/ ١٦٠) عن سهل بن سعد الساعدي ((احفظوني في أصحابي وأصهاري وأَخْتاني لا يطلُبَنَّكم اللهُ بمَظلمةٍ منهم)) وقال: فيه جماعة لم أعرفهم.

وجاء في تاريخ دمشق (٢١/ ٨١) عن ابن مندة بسنده عن سهل بن مالك الأنصاري بلفظ ((أيُّها النَّاسُ احفظوني في أصحابي وأصهاري وفي أختاني لا يطلُبَنَّكم اللهُ بمظلَمة أحدٍ منهم فإنَّها ممَّا لا تُوهبُ أيُّها النَّاسُ ارفعوا ألسِنتَكم عن المسلمين وإذا مات أحدٌ من المسلمين فقولوا فيه خيرًا)) وهو غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه.

وجاء في الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/ ٤٢٤) عن أبي سعيد الخدري مرسلًا ((احفَظُوني في أصحابي وأَصْهاري، فمَن حَفِظَني فيهم كان عليه مِنَ اللهِ حافِظٌ، ومَن لم يَحْفَظْني فيهم تَخَلَّى اللهُ عنه، ومَن تَخَلَّى اللهُ عنه أَوْشَكَ أنْ يَأْخُذَه)).

وورد بلفظ: (أيها الناس احفظوني في أصحابي وأصهاري وأختاني) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ١٠٤ رقم ٥٦٤٠). وورد بألفاظ متقاربة، وكلها لا تصح، انظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٣٦٠١)، و«ضعيف الجامع» (١٥٣٧-١٥٣٨). وقد قال النبي: (لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه). أخرجه البخاري (٣٩٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) وهذا لفظه. أما الأصهار والأختان، ففيهم قول الله تبارك وتعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي) [الشورى: ٢٣]..

وقوله: «إن الله تبارك وتعالى نظر إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم»٢٣١٣".

(الشرح)

موقفُ أهل السنَّة مما وقع بين أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم؛ هو الكَف وعدم الخوض في هذه المسألة.

ونعرفُ أن لهؤلاءِ -رضوان الله عليهم أجمعين- السبقِ والفضلِ والمكانة والمنزلة ما يكون -بحمد الله تعالى- أضعاف ما قد يقع منهم من خطأ أو زلل، فإذا الله عز وجل منَّ عليك أن لا تكون في تلك الأمور في حينها فكُفَّ عن ذكرِ هذه الأمور بلسانك.

ولهذا نترحم على جميع الصحابة والآل ونترضى عنهم، كما أثنى الله جل وعلا عليهم، ونتولاهم جميعًا.

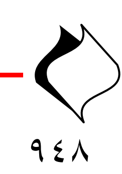
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأهل السنة وسط في بابِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَ الرَّافضةِ والخَوَارِجِ».

فالرَّافضة: هم الذين غلوا في عليّ رضي الله عنه وأهل البيت، ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثَّلاثة، وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وفضلاء المهاجرين والأنصار، وكفَّروهم ومَن تولاهم، وكفَّروا مَن قاتل عليًّا، حتى وصل بهم الأمر إلى أن كفروا جُلَّ الصحابة إلا نفر يسير جدًّا.

وأما الخوارج فقابلوا الرَّوافض؛ فكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة بعد التحكيم، وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

والنواصب: هم الذين نصبوا العداوة لعليّ ومَن والاه، وهم الذين استحلوا قتله بعد أن كفروه، وقتله أحد رءوسهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

٢٣١٣ انظر صحيح البخاري كِتَابُ المغَازِي برقم (٣٩٨٣)، ومسلم كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَهْلِ بَدْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَقِصَّةِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ (٦٠٠).



أما أهل السـنة والجماعة فهداهم الله تعالى للحق والصـواب، فلم يغلوا في علي وأهل البيت، ولم ينصبوا العداوة للصحابة رضوان الله عليهم، ولم يكفّروهم، ولم يفعلوا كما فعل النواصـــب من عداوة أهل البيت. بل يعترفون بحق الجميع وفضـــلهم، ويوالونهم، ويكفون عن الخوض فيما جرى بينهم، ويترحَّمون على جميع الصــــحابة، فكانوا وسطًا بين غلو الرافضة وجفاء الخوارج (٢٣١٤).

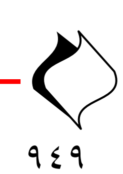
ومحبتهم لأهلِ بيتِ رســـولِ اللهِ ﷺ محبةٌ شـــرعيَّة دونَ إفراطٍ أو تَفْريطٍ؛ فهم يَعْرِفُونَ لهم حَقَّهم، ويَحفظونَ وَصِـــيَّةَ رســـولِ اللهِ فيهم، ولا يُغالونَ في مَحَبَّتِهِم؛ ولا يَرفعونهم فوق منزلتهم البشرية غلوًّا فيهم، وكذلك لا ينتقصونهم قدرهم جفاء لهم.

وما وقع بين الأصـحاب الكرام من خلاف فيجب الإمسـاك عن الخوض فيه، والتماس العذر لهم؛ يقول العلامة ابن عثيمين رحمه الله: «موقف أهل الســـنة في الخلاف والفتن التي حصلت بين الصحابة رضي الله عنهم: موقفهم في ذلك: أن ما جرى بينهم فإنه باجتهاد من الطرفين، وليس عن سوء قصد، والمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وليس ما جرى بينهم صـــادر عن إرادة علو ولا فسـاد في الأرض؛ لأنَّ حال الصـحابة رضـي الله عنهم تأبى ذلك، فإنهم أوفر الناس عقولًا، وأقواهم إيمانًا أشـــدهم طلبًا للحق، كما قال النبي ﷺ: «خيرُ النَّاس قَرْني» (٢٣١٥). وعلى هذا فطريق السـلامة: أن نسـكت عن الخوض فيما جرى بينهم، ونَرُدَّ أمرهم إلى الله؛ لأن ذلـك أســـلم من وقوع عـداوة أو حقـد على أحـدهم» (٢٣١٦).

(٢٣١٤) انظر «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» لعبد العزيز السلمان (٥٠٥-٥٠٨)، المملكة العربية السـعودية، رئاسـة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشـاد، الطبعة الحادية عشـرة، ١٤٠٢هـ.

(٢٣١٥) أخرجه البخاري (٣٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢٣١٦) «مذكرة على العقيدة الواسـطية» لابن عثيمين (ص ٨٢)، مدار الوطن للنشـر-الرياض، ١٤٢٦هـ.



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

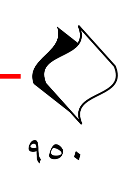
[١١٢] "واعلم – رحمك الله–أنه لا يحل مال امرئ مسـلم إلا بطيبة من نفسـه، وإن كان مع رجل [مال] حرام فقد ضـمنه، لا يحل لأحد أن يأخذ منه شـيئا إلا بإذنه، فإنه عسـى [أن] يتوب هذا فيريد أن يرده على أربابه فأخذت حراما".

[١١٣] والمكاسب [مطلقة] ما بان لك صحته فهو مطلق إلا ما ظهر فساده، وإن كان فاسدا، يأخذ من الفساد مسيكة نفسه، لا تقول: أترك [المكاسب] وآخذ ما أعطوني، لم يفعل هذا الصحابة ولا العلماءُ إلى زماننا هذا، وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: (كسبٌ فيه بعضُ الدنيّةِ خيرٌ من الحاجةِ بين الناس) (٢٣١٧).

الشرح

تقدم الإشارة لهذه المسألة في الفقرة: (٨٧).

٢٣١٧ انظر كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية الجزء الثالث، صفحة (٢٧٧).



فمعلومٌ أنه لا يحلُّ امرئٍ مسلم إلا بطيبةٍ من نفسه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه))[٢٣١٨].

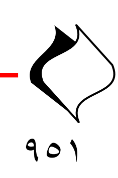
فليس لك الحق في أن تأخذَ من مالِ أخيك حتى وإن كان شيئاً يسيراً لم تطب به نفسه، لا يجوز لك أن تأخذه في هذا الشيء حتى لو كان المال الذي في يده مال حرام فهو ضامن له إلا إذا كان ولي أمر أو سلطان وأرادَ أن يُخرجَ هذا المال من يدِ هذا الذي اغتصبَ هذا المال فذاك في ولاية السلطان، أما أنت فليس لك حقٌ في أخذه فلعل الله عز وجل أن يتوبَ على هذا الشخص فيُرجِع هذا المال إلى أهله فلا تقول إنه مال حرام وأنا لي حق في أخذه، ليس لك الحق في أخذه مهما كان.

ثم المكاسب-بحمد الله تعالى-مطلقة إلا ما بانَ بيانُ تحريمه في هذا الشيء، ثم إن الأمر بالتكسُّب وطلبُ القوت والرزق أمرٌ شرعي، وترك التكسُّب والدعوة إلى أن يعيشَ الناس على التكفف من غيرهم والسؤال من غيرهم والعيش بالأربطة وغير ذلك والتفرغ للعبادة، كما يدعو إليه المتصوفة؛ كل هذا ليس من دين الله عز وجل، ونحن نعلم أن أصحابَ النبي صلى الله عليه وسلم كان منهم التاجر، وكان منهم الفلاح المزارع، وكان منهم مَن يقوم بالاحتطاب؛ إلى غير ذلك فهم كانوا أهل صنعة وأهل حرفة.

وما كان من أصحاب السخرة فلأنهم من المهاجرين الذين لم يجدوا لهم فرصةً للعمل باعتبارِ أن المكاسب والأعمال في المدينة كانت في ذلك الوقت محدودة، ثم إن أهلِ السخرة بمجردِ أن تغير وجاءت الفتوحات على أهل الإسلام لم يبقوا في المسجد.

فهذا أبو هريرة ممن كان في السخرة أصبحَ يوماً أميراً للمدينة فلم يكن حالُ أهل السخرة حالُ تعبد، وإنما كان حال اقتصادي دعا إليه الحال الذي كان عليه حالُ الناس في ذلك الوقت من قلةِ المكاسب، ثم لما فتحَ الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يبقَ أحدٌ في السخرة.

٢٣١٨ رواه أبو يعلى وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٦٢).



قال ابن حجر: "ودعوى أن جمهور الصحابة كانوا على التقلل والزهد ممنوعة بالمشهور من أحوالهم، فإنهم كانوا على قسمين بعد أن فتحت عليهم الفتوح، فمنهم من أبقى ما بيده مع التقرب إلى ربه بالبر والصلة والمواساة مع الاتصاف بغني التنفس، ومنهم من استمر على ما كان عليه قبل ذلك فكان لا يبقي شيئا مما فتح عليه به وهم قليل بالنسبة للطائفة الأخرى، ومن تبحر في سير السلف علم صحة ذلك، فأخبارهم في ذلك لا تحصى كثرة، وحديث خباب في الباب شاهد لذلك.

والأدلة الواردة في فضل كل من الطائفتين كثيرة: فمن الشق الأول بعض أحاديث الباب[٢٣١٩] وغيرها.

ومن الشق الثاني حديث سعد بن أبي وقاص رفعه ((إن الله يحب الغني التقي الخفي))[٢٣٢٠]، أخرجه مسلم، وهو دال لما قلته سواء حملنا الغنى فيه على المال أو على غنى النفس، فإنه على الأول ظاهر وعلى الثاني يتناول القسمين فيحصل المطلوب. والمراد بالتقي وهو بالمثناة من يترك المعاصي امتثالا للمأمور به واجتنابًا للمنهي عنه، والخفي ذكر للتتميم إشارة إلى ترك الرياء والله أعلم.

ومن المواضع التي وقع فيها التردد من لا شيء له فالأولى في حقه أن يتكسب للصون عن ذل السؤال، أو يترك وينتظر ما يفتح عليه بغير مسألة، فصح عن أحمد مع ما اشتهر من زهده وورعه أنه قال لمن سأله عن ذلك: "إلزم السوق". وقال الآخر:

٢٣١٩ يعني الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر؛ ومنها:

حديث (٦٤٤٤) عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

وحديث (٦٤٥٠) أنس رضي الله عنه قال: لم يأكل النبي: على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرققا حتى مات.

وحديث (٦٤٥١) عائشة رضي الله عنها قالت: لقد توفي النبي وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فكلته ففني.

٢٣٢٠ صحيح مسلم (٢٩٦٥).

"استغن عن الناس، فلم أر مثل الغني عنهم"، وقال: "ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله وأن يعودوا أنفسهم التكسب، ومن قال بترك التكسب في أحمق يريد تعطيل الدنيا". نقله عنه أبو بكر المروزي، وقال: "أجرة التعليم والتعلم أحب إلي من الجلوس لانتظار ما في أيدي الناس"، وقال أيضا: "من جلس ولم يحترف دعته نفسه إلى ما في أيدي الناس"، وأسند عن عمر رضي الله عنه "كسب عليه بعض الشيء خير من الحاجة إلى الناس"، وأسند عن سعيد بن المسيب أنه قال عند موته وترك مالًا "اللهم إنك تعلم أني لم أجمعه إلا لأصون به ديني" وعن سفيان الثوري وأبي سليمان الداراني ونحوهما من السلف نحوه، بل نقله البربهاري عن الصحابة والتابعين وأنه لا يحفظ عن أحد منهم أنه ترك تعاطي الرزق مقتصرا على ما يفتح عليه"[٢٣٢١]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١١٤] "والصلوات الخمس جائزة خلف [من] صليت خلفه، إلا أن يكون [جهميا]، فإنه معطل، وإن صليت خلفه فأعد صلاتك، وإن كان إمامك يوم الجمعة جهميا، وهو سلطان فصل خلفه، وأعد صلاتك، وإن كان إمامك من السلطان وغيره صاحب سنة، فصل خلفه ولا تعد صلاتك".

الشرح

تقدم الكلام بالتفصيل عن هذه المسألة في الفقرة (٢٧) فاليرجع إليها.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

٢٣٢١ فتح الباري: ١٣/ ٤٩–٥٠.

[١١٥] "والإيمانُ أن أبا بكرٍ وعمر -رحمة الله عليهما- في حجرةِ عائشة مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قد دُفنا هناك معاً، فإذا أتيت القبرَ فالتسليمُ عليهما واجبٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الشرح

وهنا يجدر التنبيه إلى عدة مسائل:

المسألة الأولى: مسألة جواز السلام على النبي صلى الله عليه وسلم عند حجرته.

فمما أفتى به الإمام مالك من جواز السلام على النبي صلى الله عليه وسلم عند حجرته التي دفن فيها وذلك لمن قدم من سفر هو ما أفتى به باقي الأئمة الأربعة.

وقد احتجوا بفعل ابن عمر كما احتج به مالك[٢٣٢٢].

ومنهم من احتج بحديث "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام"[٢٣٢٣].

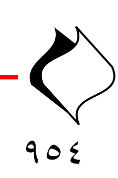
فقد اعتمد الإمام أحمد في زيارة قبره المكرم على هذا الحديث. وعن أحمد أخذ ذلك أبو داود[٢٣٢٤] فلم يذكر في زيارة قبره المكرم غير هذا الحديث وترجم عليه: "باب زيارة القبر"[٢٣٢٥].

٢٣٢٢ الرد على الأخنائي (ص ١٣٧-١٣٨).

٢٣٢٣ تقدم تخريجه ص ٥٧٦.

٢٣٢٤ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي، السجستاني أبو داود، مصنف السنن وغيرها، ثقة حافظ من بار العلماء وأئمة الحديث، مات سنة خمس وسبعين ومائتين. تهذيب التهذيب (٤/١٦٩-١٧٣).

٢٣٢٥ مجموع الفتاوى (٢٧/٣٣٠).



فهذا الحديث هو عمدة الإمام أحمد وأبي داود وأمثالهم وهو غاية ما عندهم في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن دلالة الحديث على المقصود فيها نزاع وتفصيل[٢٣٢٦].

فليس في لفظ الحديث المعروف في السنن والمسند (عند قبري) مع أن الذين احتجوا بهذا الحديث قالوا إن هذا هو المراد، ولم يرد على كل مسلم عليه في شرق الأرض وغربها مع أن المعنى أي أنه يرد على كل مسلم في شرق الأرض وغربها إن كان هو المراد بطل الاستدلال بالحديث من كل وجه على اختصاص تلك البقعة بالسلام.

وإن كان المراد بالسلام في الحديث هو السلام عليه عند قبره كما فهمه عامة العلماء، فهل يدخل فيه من سلم من خارج الحجرة؟

فهذا مما تنازع فيه الناس، وقد توزعوا في دلالته.

فمن الناس من يقول هذا إنما يتناول من سلم عليه عند قبره كما كانوا يدخلون الحجرة في زمن عائشة رضي الله عنها فيسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم فكان يرد عليهم فأولئك سلموا عليه عند قبره وكان يرد عليهم[٢٣٢٧].

وهذا السلام عليه عند قبره كان مشروعا لما كان ممكنا بدخول من يدخل على عائشة رضي الله عنها.

٢٣٢٦ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولو أريد إثبات سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الحديث لكان هذا مختلفا فيه، فالنزاع في إسناده ودلالة متنه". الرد على الأخنائي (ص٢٠٣).

وقال ابن عبد الهادي: "وهذا الحديث لا يسلم من مقال في إسناده ونزاع في دلالته "وقد تقدم الكلام على إسناده (وأما نزاع في دلالة الحديث فمن جهة احتمال لفظه فإن قوله: "ما من أحد يسلم علي" يحتمل أن يكون المراد به عند قبره ما فهمه جماعة من الأئمة ويحتمل أن يكون معناه على العموم وأنه لا فرق في ذلك بين القريب والبعيد وهذا هو ظاهر الحديث وهو الموافق للأحاديث المشهورة. الرد على السبكي (ص٢٥٩)

٢٣٢٧ هذا على قول من خص الحديث على السلام القريب وقالوا إنما هو فيمن سلم عليه من قريب والقريب أن يكون في بيته، فإن لم يحد بذلك لم يبق له حد محدود من جهة الشرع. الرد على الأخنائي (ص ١٧٠)

وقالوا: فأما من كان في المسجد فهؤلاء لم يسلموا عليه عند قبره بل سلامهم عليه كالسلام عليه إذا دخل المسلم المسجد وخرج منه.

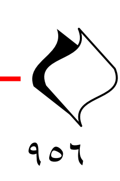
والذين استدلوا بهذا الحديث على اختصاص تلك البقعة بالسلام جعلوه متناولا لمن سلم عليه من داخل الحجرة أو من خارجها.

وقد اعترض على من احتج بهذا الحديث "ما من أحد يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام" على استحباب السلام للقادم عند الحجرة.

فقيل: إن هذا الحديث لو دل على استحباب السلام عليه من المسجد لما اتفق الصحابة على ترك ذلك، ولم يفرق في ذلك بين القادم من السفر وغيره؟

فقد اتفق الصحابة ابن عمر وغيره على أنه لا يستحب لأهل المدينة الوقوف عند القبر للسلام إذا دخلوا وخرجوا بل يكره ذلك، فلما اتفقوا على ترك ذلك مع تيسره علم أنه غير مستحب بل لو كان جائزا لفعله بعضهم وبهذا يتبين ضعف حجة من احتج بالحديث على استحباب السلام عليه من المسجد.

ولهذا كان أكثر السلف لا يفرقون بين الغرباء وأهل المدينة ولا بين حال السفر وغيره فإن استحباب هذا لهؤلاء وكراهته لهؤلاء حكم شرعي يفتقر إلى دليل شرعي ولا يمكن لأحد أن ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شرع لأهل المدينة الإتيان عند الوداع للقبر وشرع لهم ولغيرهم ذلك عند القدوم من سفر، وشرع للغرباء تكرر ذلك كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه، ولم يشرع ذلك لأهل المدينة، فمثل هذه الشريعة ليس منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن خلفائه ولا هو معروف من عمل الصحابة وإنما نقل عن ابن عمر السلام عند القدوم من السفر، وليس هذا من عمل الخلفاء وأكابر الصحابة، كما كان ابن عمر يتحرى الصلاة والنزول والمرور حيث حل ونزل وعبر النبي صلى الله عليه وسلم في السفر، وجمهور الصحابة لم يكونوا يصنعون ذلك بل أبوه عمر كان ينهي عن مثل ذلك فعن المعرور بن سويد عن عمر قال: خرجنا معه في حجة حجها فقرأ بنا في صلاة الفجر ألم تر كيف فعل



ربك بأصحاب الفيل، ولإيلاف قريش في الثانية، فلما رجع من حجه رأى الناس ابتدروا المسجد فقال: "ما هذا؟ فقالوا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: وهذا ملة أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعا، من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ومن لم تعرض له فليمض"[٢٣٢٨][٢٣٢٩]. ومن استدل بهذا الحديث من العلماء ذكر أنه يرد على القريب وخصوا الجواز للمسافر القادم أو المقيم المسافر.

وليس في الحديث ما يدل على التخصيص، ذلك أنه يمتنع أن يقال إنه يرد على هؤلاء ولا يرد على أحد من أهل المدينة المقيمين فيها، فيمتنع أن يكون المعنى من سلم منكم يا أهل المدينة لم أرد عليه ما دمتم مقيمين بها فإن المقام بها هو غالب أوقاتهم، وليس في الحديث تخصيص، ولا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك.

يبين هذا: أن الحجرة لما كانت مفتوحة وكانوا يدخلون على عائشة لبعض الأمور ويسلمون عليه إنما كان يرد عليهم إذا سلموا.

فإن قيل: إنه لم يكن يرد عليهم فهذا تعطل للحديث.

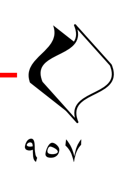
وإن قيل: كان يرد عليهم من هناك، ولا يرد إذا سلموا من خارج فقد ظهر الفرق.

وإن قيل: بل هو يرد على الجميع فحينئذ إن كان رده لا يقتضي استحباب هذا السلام بطل الاستدلال به.

وإن كان رده يقتضي الاستحباب وهو من سلم من خارج، لزم أن يستحب لأهل المدينة السلام كلما دخلوا المسجد وخرجوا وهو خلاف ما أجمع عليه الصحابة

٢٣٢٨ عزاه شيخ الإسلام إلى سنن سعيد بن منصور. انظر: الرد على الأخنائي (ص١٧٠،١٦٩)

٢٣٢٩ الرد على الأخنائي (ص ١٦٩، ١٧٠) بتصرف



والتابعون لهم بإحسـان وخلاف قول المفرقين[٢٣٣٠] -أي بين أهل المدينة والغرباء- الذين استدلوا بهذا الحديث.

هذا ولم يعتمد الأئمة لا الأربعة ولا غير الأربعة على شيء من الأحاديث التي يرويها البعض في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم كحديث "من زارني في مماتي فكأنما زارني في حياتي".

وحديث: "من زارني وزار أبي في عام واحد ضمنت له على الله الجنة" ونحو ذلك فإن هذه الأحاديث وأمثالها لم روها أحد من أئمة الإسلام ولم يعتمدوا عليها، ولم يروها لا أهل الصحاح ولا أهل السنن التي يعتمد عليها كأبي داود والنسائي لأنها ضعيفة بل موضوعة كما قد بين العلماء الكلام عليها"[٢٣٣١].

المسألة الثانية: تخصيص السلام أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالمكان القريب من الحجرة

أما تخصيص السلام أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالمكان القريب من الحجرة فهذا محل النزاع.

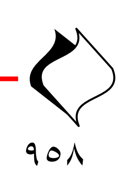
وللعلماء في ذلك ثلاثة أقوال:

القول الأول: منهم من ذكر استحباب السلام أو الصلاة والسلام عليه إذا دخل المسجد، ثم بعد أن يصلي في المسجد استحب أيضا أن يأتي إلى الحجرة ويصلي ويسلم كما ذكر ذلك طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

القول الثاني: ومنهم من لم يذكر إلا النوع الثاني فقط أي أنه يأتي إلى الحجرة ويصلي ويسلم.

٢٣٣٠ الرد على الأخنائي (ص ١٧٦، ١٧٧).

٢٣٣١ مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٥، ٦٣٨) بتصرف



القول الثالث: ومنهم من لم يذكروا إلا النوع الأول فقط أي السلام أو الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد، وفي التشهد في الصلاة وهذا ما ذكره كثير من السلف٢٣٣٢.

فهذا النوع الأول-أي السلام عند دخول المسجد-هو المشروع لأهل البلد وللغرباء في هذا المسجد وغير هذا المسجد.

وأما النوع الثاني-أي السلام عليه عند الحجرة-فهو الذي فرق من استحبه بين أهل البلد والغرباء سواء فعله مع الأول أو مجردا عنه فاستحبوه للغرباء دون أهل البلد، محتجين على ذلك بفعل ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي هذا الاستحباب نظر "لأن الأمر إذا فعله من الصحابة الواحد والاثنان والثلاثة وأكثر، دون غيرهم كان غايته أن يثبت به التسويغ بحيث يكون هذا مانعا من دعوى الإجماع على خلافه، بل يكون كسائر المسائل التي يساغ فيها الاجتهاد، أما أن يجعل من سنة الرسول وشريعته وحكمه ما لم تدل عليه سنته لكون بعض السلف فعل ذلك فهذا لا يجوز٢٣٣٣.

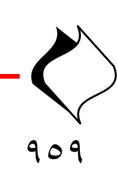
فالأولى في هذه المسألة أن يقال: إن فعل ابن عمر إنما يدل على التسويغ بحيث يكون فعل من فعل ذلك اقتداء بفعل بعض الصحابة لم يبتدع شيئا من عنده.

أما أن يقال إن فعل هذا عبادة وطاعة يشرع فعلها احتجاجا بفعل بعض الصحابة-ولا سيما إذا عرف أن جمهور الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك-فلا يكفي الاحتجاج بفعل بعض الصحابة على استحبابه بل الأمر يحتاج إلى دليل شرعي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما أن يقال إن الرسول ندب إلى ذلك ورغب فيه وجعله عبادة وطاعة يشرع فعلها، فهذا يحتاج إلى دليل شرعي ولا يكفي في ذلك فعل بعض السلف.

٢٣٣٢ الرد على الأخنائي (ص ١٤٢).

٢٣٣٣ الرد على الأخنائي (ص ١٧٧-١٧٨).



ولا يجوز أن يقال إن الله ورسوله يحب ذلك أو يكرهه، وإنه سن ذلك وشرعه، أو نهي عن ذلك وكرهه، ونحو ذلك إلا بدليل يدل على ذلك لا سيما إذا عرف أن جمهور أصحابه لم يكونوا يفعلون ذلك.

فيقال: لو كان ندبهم إلى ذلك وأحبه لهم لفعلوه فإنهم كانوا أحرص الناس على الخير، ونظائر هذا متعددة والله أعلم"٢٣٣٤.

وفي الوقت ذاته لا يقال: انعقد إجماعهم٢٣٣٥ على تركه فيبدع من فعله مع أنه قد ثبت فعله من بعض الصحابة كما ثبت من فعل ابن عمر رضي الله عنهما.

هذا فيما يتعلق بالسلام عليه عند حجرته للقادم من السفر.

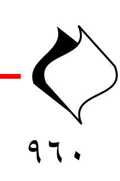
أما الشخص المقيم فلم يستحب أحد من علماء السلف أن يأتي أحد إلى الحجرة للسلام أو الصلاة، بل هو منهي عنه لأن في تخصيص الحجرة للصلاة والسلام بهذه الصورة جعلا لها عيدا، وكذلك فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لم يكونوا يفعلون ذلك. وقد تقدم نقل كلام الإمام مالك في هذه المسألة بعينها وكيف أنه كره ذلك لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك وقال رحمه الله: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها". ٢٣٣٦.

فوقوف أهل المدينة بالقبر من البدع التي لم يفعلها الصحابة، وهذه الزيارة منهي عنها لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني" وروي مثل ذلك في السلام عليه، فعلم أنه يكره تخصيص تلك البقعة بالصلاة والسلام بل يصلى ويسلم في جميع المواضع وذلك واصل إليه فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها.

٢٣٣٤ الرد على الأخنائي (ص ١٧٩).

٢٣٣٥ قال شيخ الإسلام ابن تيمية وإذا فعله من الصحابة الواحد والاثنان والثلاثة وأكثر دون غيرهم كان غايته أن يثبت به التسويغ بحيث يكون مانعًا من دعوى الإجماع.

٢٣٣٦ مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٦).



المسألة الثالثة:

والذين أجازوا السلام عليه عند الحجرة للغرباء اختلفوا كيف يسلم عليه هل تستقبل الحجرة أم القبلة؟ على قولين:

القول الأول: فالأكثرون يقولون يستقبل الحجرة كمالك والشافعي وأحمد.

القول الثاني: وأبو حنيفة يقول يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره في قول وخلفه في قول.

لأن الحجرة النبوية لما كانت خارجة عن المسجد لم يكن يمكن أحدا أن يستقبل وجهه صلى الله عليه وسلم، ويستدبر القبلة، كما صار ذلك ممكنا بعد دخولها في المسجد، بل كان إن استقبل القبلة صارت عن يساره، وحينئذ فإن كانوا يستقبلونه ويستدبرون الغرب فقول الأكثرين أرجح وإن كانوا يستقبلون القبلة حينئذ ويجعلون الحجرة عن يسارهم فقول أبي حنيفة أرجح"٢٣٣٧.

المسألة الرابعة:

والسلف كلهم متفقون على أن الزائر لا يسأله شيئا ولا يطلب منه ما يطلب في حياته ويطلب منه يوم القيامة لا شفاعة ولا استغفار ولا غير ذلك.

وإنما كان نزاعهم في الوقوف للدعاء له والسلام عليه٢٣٣٨.

فقد تكلم السلف في الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم عند قبره

١-فمنهم من نهي عن الوقوف للدعاء له دون السلام عليه.

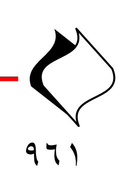
٢-ومنهم من رخص في الدعاء له والسلام عليه.

٣-ومنهم من نهي عن الدعاء له والسلام عليه٢٣٣٩ (أي عند قبره).

٢٣٣٧ مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٣٠).

٢٣٣٨ الرد على الأخنائي (ص ١٦٦).

٢٣٣٩ الرد على الأخنائي (ص ١٦٣).



المسألة الخامسة:

ولا يجوز السجود للحجرة ولا الطواف بها بل هو كفر بإجماع المسلمين٢٣٤٠

بل ولا الصلاة إليها لما ثبت في صحيح مسلم من أبي مرثد الغنوي أنه قال صلى الله عليه وسلم: "لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها"٢٣٤١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والصلاة إلى الحجرة والتمسح بها وإلصاق البطن بها وغير ذلك مما يفعله الجهال منهي عنه باتفاق المسلمين"٢٣٤٢.

قال أبو بكر الأثرم٢٣٤٣ قلت لأبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل-: قبر النبي صلى الله عليه وسلم يلمس ويتمسح به؟ فقال: ما أعرف هذا. قلت لأبي عبد الله: إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر. وقلت له: ورأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه، ويقيمون ناحية فيسلمون. فقال أبو عبد الله: نعم، وهكذا كان ابن عمر يفعل. ثم قال أبو عبد الله: بأبي وأمي صلى الله عليه وسلم"٢٣٤٤.

المسألة السادسة:

أبو بكر وعمر رضي الله عنهما دُفنا في حجرة عائشة -رضي الله عنها- فبالتالي رأى من رأى من العلماء أن مَن جاءَ يسلِّم على النبي صلى الله عليه وسلم عند حجرته فإنه يأتي ويسلِّم عليهما، والمسألة فيها قولان:

القول الأول:

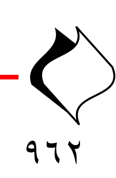
٢٣٤٠ الرد على الأخنائي (ص ١٧٧، ٢١٥).

٢٣٤١ تقدم تخريجه ص ٥٨٩.

٢٣٤٢ الرد على الأخنائي (ص ٢٢٩).

٢٣٤٣ أحمد بن محمد بن هانئ الطائي ويقال الكلبي، أبو بكر الأثرم ثقة حافظ، صاحب تصانيف، روى عن أحمد بن حنبل وتفقه عليه، وسأله عن المسائل والعلل، توفي سنة ٢٦١ هـ، وقيل بعدها. تهذيب التهذيب (١/ ٧٨-٧٩).

٢٣٤٤ الرد على الأخنائي (ص ١٧٨).



فقد رأى من رأى من العلماء هذا جائزا اقتداء بمن فعل ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم وابن عمر كان يسلم ثم ينصرف، ولا يقف، يقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف[٢٣٤٥]. وكان يفعل ذلك إذا قدم من سفر أو أراده.

فعن عبد الله بن دينار[٢٣٤٦] قال رأوا ابن عمر إذا قدم من سفر دخل المسجد فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، ويصلى ركعتين[٢٣٤٧].

وفي رواية عنه أنه قال: "رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما"[٢٣٤٨].

وفي المصنف لابن أبي شيبة بسنده عن نافع عن ابن عمر أنه كان إذا أراد أن يخرج دخل المسجد فصلى ثم أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه ثم يأخذ وجهه، وكان إذا قدم من سفر يفعل ذلك قبل أن يدخل منزله[٢٣٤٩].

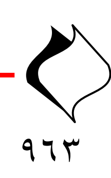
٢٣٤٥ مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٠٠).

٢٣٤٦ عبد الله بن دينار العدوي مولاهم أبو عبد الرحمن المدني، مولى ابن عمر، ثقة من الرابعة، مات سنة سبع وعشرين ومائة. تهذيب التهذيب (٥/ ٢٠١-٢٠٣).

٢٣٤٧ أخرجه إسماعيل القاضي (ص ٤١) ح ٩٩ وقال الألباني: إسناده موقوف صحيح.

٢٣٤٨ أخرجه إسماعيل القاضي (ص ٤١) ح ٩٨ وقال الألباني: إسناده موقوف صحيح وهو في الموطأ ح ٣٩٧ برواية يحيى بن يحيى الليثي بهذا اللفظ، ومن طريقه رواه البيهقي (٥/ ٢٤٥).

٢٣٤٩ المصنف (٣/ ٣٤١).



وفي المصنف لعبد الرزاق[٢٣٥٠] عن معمر[٢٣٥١] عن أيوب[٢٣٥٢] عن نافع[٢٣٥٣] قال: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه.

القول الثاني:

هناك من السلف من يقول: أنه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص ثابت صحيح في هذه المسألة، يأمر فيه الأمة بالإتيان إلى قبره للسلام عليه، كما ورد ذلك في شأن السلام عليه في التشهد وعند دخول المساجد والخروج منها، وكذلك فإن الذي كان عليه فعل جمهور الصحابة من بعده صلى الله عليه وسلم هو عدم الإتيان للقبر للسلام، ولا تخصيصه بأي عمل من الأعمال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وجمهور الصحابة كانوا يدخلون المسجد ويصلون فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يسلمون عليه عند الخروج من المدينة وعند القدوم من السفر، بل يدخلون المسجد فيصلون فيه ويسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم ولا يأتون القبر، ومقصود بعضهم التحية"[٢٣٥٤]

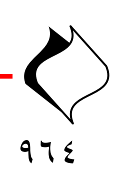
٢٣٥٠ عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم، أبو بكر الصنعاني ثقة، حافظ، مصنف شهير مات سنة إحدى عشر ومائتين. تهذيب التهذيب (٦/ ٣١٠-٣١٥).

٢٣٥١ معمر بن راشد الأزدي الحداني مولاهم، البصري، نزيل اليمن ثقة، ثبت فاضل، أخرج له الجماعة، مات سنة أربع وخمسين ومائة. تهذيب التهذيب (١/ ٢٤٣-٢٤٦).

٢٣٥٢ هو: أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني بفتح السين-نسبة إلى عمل السختيان وبيعه-وهي الجلود الضأنية-قال ابن سعد: "كان أيوب ثقة ثبتًا في الحديث جامعًا عدلًا ورعًا كثير العلم حجة"، توفي سنة ١٣١ هـ. انظر: الطبقات (٧/ ٢٤٦)، واللباب (٢/ ١٠٨).

٢٣٥٣ هو نافع مولى ابن عمر وقد تقدم ترجمته.

٢٣٥٤ مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤١٤).



وعلى هذا سار كثير من السلف من بعدهم. روى ابن أبي شيبة[٢٣٥٥] في المصنف[٢٣٥٦] عن خالد بن الحارث[٢٣٥٧] قال سئل هشام[٢٣٥٨] أكان عروة[٢٣٥٩] يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيسلم عليه؟ قال: لا.

وعن نوح بن يزيد قال: أخبرنا أبو إسحاق يعني إبراهيم بن سعد قال: ما رأيت أبي قط يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يكره إتيانه"[٢٣٦٠].

٢٣٥٥ عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن أبي شيبة، أبو بكر، الكوفي، ثقة حافظ صاحب تصانيف، ومن أشهر كتبه المصنفة، توفى سنة ٢٣٥ هـ. تهذيب التهذيب (٦/ ٢-٤).

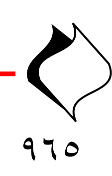
٢٣٥٦ (٣/ ٣٤١).

٢٣٥٧ خالد بن الحارث بن عبيد الهجيمي، أبو عثمان البصري، ثقة ثبت، من الثامنة، مات سنة ست وثمانين ومائة. تهذيب التهذيب (٣/ ٨٣-٨٤).

٢٣٥٨ هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، ثقة، فقيه ربما دلس من الخامسة، مات سنة خمس أو ست وأربعين ومائة. تهذيب التهذيب (١١/٤٨-٥١)

٢٣٥٩ هو عروة بن الزبير وقد تقدم ترجمته ص ٥٢٨.

٢٣٦٠ الرد على الأخنائي (ص ٢٦٨). وقال شيخ الإسلام بعد إيراده لهذا الأثر وعزوه إلى أبي الحسن علي بن عمر القزويني في أماليه ما نصه: "ونوح بن يزيد بن سيار المؤدب هذا الراوي عن ابراهيم ابن سعد هو ثقة معروف بصحبة ابراهيم وله اختصاص به روى عنه أحمد بن حنبل وأبو داود وغيرهما قال أبو بكر الأثرم: ذكر لي أبو عبد الله نوح بن يزيد المؤدب فقال هذا شيخ كبير أخرج أبي كتاب إبراهيم بن سعد فرأيت فيه ألفاظا وقال محمد بن المثنى: سألت أحمد بن حنبل عنه فقال: اكتب عنه فإنه ثقة حج مع إبراهيم بن سعد وكان يؤدب ولده. وذكره ابن حبان في الثقات. وأما إبراهيم بن سعد فهو من أكابر علماء المدينة وأكثرهم علما وأوثقهم وكان قد خرج الى بغداد روى عنه الناس: أحمد بن حنبل وطبقته، ومن سعة علمه روى عنه الليث بن سعد وهو أقدم وأجل منه. وأما أبوه سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري الذي ذكر عنه ابنه إبراهيم أنه قال: ما رأيت أبي قط أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكره إتيانه وهو من أفضل أهل المدينة في زمن التابعين ومن أصلحهم وأعبدهم، وكان قاضي المدينة في زمن التابعين في زمن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وأمثاله... توفي سنة ست وعشرين ومائة... وقد أدرك بالمدينة جابر ابن عبد الله وسهل بن سعد الساعدي وغيرهما من الصحابة، ورأى كبار التابعين مثل سعيد بن المسيب وسائر الفقهاء السبعة، ومعلوم أنه لم يكن ليخالفهم فيما اتفقوا عليه، بل قد يخالف ابن عمر، فإن ما نقله عنه ابنه يقتضي أنه كان صلى الله عليه وسلم يأتيه لا عند السفر ولا غيره بل يكره إتيانه مطلقا كما كان جمهور الصحابة على ذلك لما فهموا من نهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأنه أمر بالصلاة والسلام عليه في كل زمان ومكان... مع أن سعد بن إبراهيم هذا في دينه وعبادته وصيامه وتلاوته للقرآن بحيث كان يختم باليوم والليلة كثيرا.



قال معمر: فذكرت ذلك-أي فعل ابن عمر-لعبيد الله بن عمر[٢٣٦١] فقال: "لا نعلم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك[٢٣٦٢].

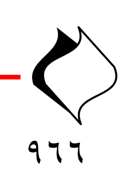
وأبو الحسن علي بن عمر القزويني وغيره من أهل العلم والذين ذكروا هذه الآثار عن الصحابة والتابعين وتابعيهم ليبينوا للناس كيف كان السلف يفعلون في مثل ذلك". الرد على الأخنائي (ص ٢٦٨، ٢٧٠).

٢٣٦١ عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، أبو عثمان القرشي العدوي ثم العمري المدني، إمام، مجود، حافظ، ثقة ثبت، من صغار التابعين، مات سنة بضع وأربعين ومائة. سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٠٤-٣٠٧).

٢٣٦٢ المصنف لعبد الرزاق (٣/ ٥٧٦) ح ٦٧٢٤

قال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي بعد أن أورد هذا الأثر في تعليقه على كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص ١٢٨-١٢٩) أقول: يستفاد من قول عبيد الله ابن عمر الإمام المدني، الثقة الثبت. أن الصحابة الكرام وفيهم الخلفاء الراشدون ما كانوا يأتون قبر النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما كان من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا قدم من سفر. مع حبهم الشديد لرسول الله وإكرامهم إياه وطاعتهم وانقياد" فهلا آن للأمة الإسلامية أن تتوب إلى رشدها، فتتبع هؤلاء العظماء والفقهاء النبلاء، وإننا على ثقة أنهم ما وقفوا جميعا هذا الموقف إلا على أساس متين، وصراط مستقيم من العلم النبوي الصحيح، وعلى إدراك واع لمقاصد الشريعة وأهدافها.

إنه ما كان ذلك منهم مع حبهم الشديد الصادق لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذا لتوجيهاته الكريمة مثل قوله: "لا تتخذوا قبري عيدا" ومثل قوله: "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد" ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لعنة الله على ليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". تنفيذا لهذه التوجيهات العظيمة الهادفة إلى حماية التوحيد وصيانة العقيدة الاسلامية من شوائب الغلو، الضلال الذي وقع فيه أهل الكتاب كان ذلك الموقف الواعي الرشيد من الصحابة الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون والفقهاء المبرزون مثل زيد ين ثابت وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وغيرهم من علماء الصحابة وعظمائها وساداتها...".



(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

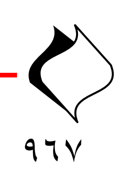
[١١٦] "والأمرُ بالمعروف والنهيُّ عن المنكرِ واجبٌ إلا من خِفتَ سيفه أو عصاه".

الشرح

الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة من شعائر الإسلام، والله عز وجل أثنى على هذه الأمة بأن من خصائصها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله قد مدح هذه الأمة بقوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}، فهذه الأمة لا تنال الخيرية إلا بهذه الشروط: أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله عز وجل، والله عز وجل قد قال: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، وقال جل وعلا قال: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة آتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}؛ فعَظَّم الله عز وجل هذا الأمر، وهو ما أوجب النبي ﷺ تغييره؛ فقال: «مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يَستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(٢٣٦٣).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب من واجبات الدين، وأمر عظيم من شعائره، لكن بعض المتصوفة أسقطوه، حتى إنهم لا يرون استحسانًا لحسنة، ولا استقباحًا لسيئة، بل إنهم يتبجحون ويتفاخرون بما يرتكبونه من منكرات وقبائح، وكتبهم شاهدة بذلك، ويكفي مثالًا على ذلك «طبقات الشعراني»؛ حيث تجد فيه الكثير من مخازي هؤلاء، وكل ذلك لأنهم أسقطوا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢٣٦٣) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.



ولذلك نبَّه المصنف على أهمية هذا الباب، ونحن نعلم أن العلماء والأمراء هم مِن أعظم مَن يجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالعلماء لأن الله قد أعطاهم الله الفقه في الدين، ولذلك اشترط العلماء في الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أمورًا منها: أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالمًا بما يأمر به وبما ينهى عنه، ثم أن يكون حكيمًا في أمره ونهيه، ثم بعد ذلك يصبر على ما يلقاه في سبيل القيام بهذا الواجب، فلابد أن تجتمع فيه هذه الأمور الثلاثة (العلم والحكمة والصبر)؛ قال تعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

وكذلك يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الولاة والأمراء؛ لأن بيدهم السلطة وقوة التنفيذ؛ قال الله عز وجل: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}.

فالولاة قد أعطاهم الله التمكين في الأرض، وبالتالي إذا قام هذا المجتمع على هذه الأسس صلح حاله.

فعلى العبد أولًا: أن يصلح نفسه؛ بأن يأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر؛ لأن النفس أمَّارة بالسوء، وبالتالي لا بد من قَسْرها وحملها على فعل الطاعات واجتناب المحرمات، ثم ينتقل الإنسان من نفسه إلى أهله؛ لقول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة}، ولقول النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده؛ فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(٢٣٦٤)؛ فيجب على الإنسان أن يكون آمرًا لأهله بالمعروف وناهيًا لهم عن المنكر، ثم بعد ذلك الأقربين إليه، ثم جيرانه، ثم من حوله من المجتمع؛ لأن هذا المجتمع هو كيان واحد، فإذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر كان ذلك سبب نجاتنا.

(٢٣٦٤) أخرجه البخاري (٥٢٠٠) ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.



وقد قص الله علينا أن سبب هلاك بني إسرائيل أنهم: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه}.

أمَّا غلاة المتصوفة فتجدهم على الضد من ذلك، بل إنهم يَستهينون بالأوامر، ومن ذلك أن أحد شيوخهم سأل مُريدًا عنده؛ فقال له: إذا أرسلتك في حاجة ومررت بمسجد وقد أُقيمت الصلاة؛ فماذا تفعل؟ هل تمضي في حاجتي أو تصلي مع الناس؟ فقال: لا، بل أمضي في حاجتك.

فانظر كيف عطَّلوا أمر الصلاة، وإقامة الصلاة من أوجب الأمر بالمعروف؛ ومع ذلك يثني الشيخ على هذا المريد؛ لأنه قَدَّم أمره على أمر الله عز وجل، وهكذا يُربون أتباعهم على مثل هذه الأحوال، ويرون أنها من أحسن الأحوال وأعظم المقامات.

ومن الشواهد على تعطيلهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعض اجتماعات الصوفية في موالدهم؛ فتجد- والله- من الفضائح والمخازي ما الله به عليم؛ ومن ذلك: أنهم لا يصلون مع الجماعة، وقد لا يصلون بالمرَّة؛ ولا يتناهون عن المنكر؛ فيجتمع الرجال مع النساء، ويتعاطون الخمر والحشيش ونحو ذلك، ويقع ما يقع من المفاسد العظيمة؛ حتى اشتهر أنه كلما وجدت فوضى وزحام؛ فالغالب أنه مولد، فيُعبرون عن الفوضى بكلمة (مولد)؛ لأن بعض هذه الموالد التي يجتمع لها أتباع هؤلاء المتصوفة تُرتكب فيها شتى أنواع الفواحش والمنكرات، وكل ذلك على مرأى ومَسمع منهم.

فبدل أن يُعظموا أوامر الله عز وجل؛ فيأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، عَطَّلوا هذه الشعيرة من شعائر الإسلام.

فعلينا أن ننتبه إلى موطن الخلل الذي يدخل على هذه الأمة، فنحن نرى الأمة وفيها كتاب الله، وفيها سنة نبيه ﷺ، وفيها أحكام الدِّين، ولكن مع ذلك نرى من أحوالها العجب العجاب، فهذا الدَّاء جاء إليها من أمثال هؤلاء الذين عطَّلُوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١١٧] "والتسليمُ على عبادِ الله أجمعين".

الشرح

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قول المصنف: "**والتسليم**".

فقد جاء الأمر بإفشاء السلام في نصوص الكتاب والسنة:

قال الله تعالى: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [النور: ٦١].

والذي نص عليه المفسرون في تأويل هذه الآية ثلاثة أمور:

أن يسلم الإنسان على أخيه إذا دخل بيته.

أن يسلم على أهل بيته إذا دخل عليهم.

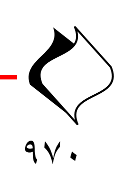
أن يسلم على عباد الله الصالحين إن كان البيت خالياً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حق المسلم على المسلم خمسٌ: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس))[٢٣٦٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يا أيُّها النَّاس أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا باللَّيل والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام)).[٢٣٦٦]

٢٣٦٥ رواه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢٦١٢).

٢٣٦٦ رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤) مِن حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وقال الحاكم (١٤/٣): صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (٤٠/٤).



وعد النبي صلى الله عليه وسلم رد السلام من حق الطريق، قال صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ». فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا؟ قَالَ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا». قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ»[٢٣٦٧]

وإفشاء السلام سبب للسلامة من الحقد وسبب لسلامة الصدر: فعن البراء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أفشوا السلام؛ تسلموا»[٢٣٦٨] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٢٣٦٩]

وفي إفشائه أجر كبير فقد ثبت عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال: السلام عليكم كتبت له عشر حسنات، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله كتبت له عشرون، حسنة ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتبت له ثلاثون حسنة»[٢٣٧٠].

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عشر». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد فجلس، فقال:

٢٣٦٧ رواه البخاري: (٢٤٦٥).

٢٣٦٨ أخرجه ابن حبان (٤٩١)، وانظر: (الصحيحة) (١٤٩٣)، (الإرواء) (٧٧٧).

٢٣٦٩ رواه مسلم: (٥٤).

٢٣٧٠ رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣٤).

«عشـرون». ثم جاء آخر فقال: السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد فجلس، فقال: «ثلاثون»[٢٣٧١].

المسألة الثانية: قول المصنف: **"على عباد الله أجمعين"**.

الأصـل أن ألا يبدأ كافراً بالسـلام فإن سـلم عليه أحد من أهل الكتاب قال: وعليكم.

والكلام هنا في جهتين:

الأولى: أننا لا نسلم على أهل الكتاب، ولكن يجوز لحاجة البدء بغير السلام من التحايا، كطاب صباحكم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام»[٢٣٧٢]

الثانية: إذا سـلّم علينا أهل الكتاب، وهنا لا يخلو حالهم معنا من أحد أمور ثلاثة ذكرها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في الشرح الممتع:

الأول: أن يقول بلفظ صريح: السام عليكم فيجاب: وعليكم.

الثاني: أن نشك هل قال: السام أو قال: السلام، فيجاب: وعليكم.

الثالث: أن يقول بلفظ صـريح: السـلام عليكم. فيجاب: عليكم السـلام؛ لقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}. فهذه الآية مع قول النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم»، يدلان على هذا التفصيل، وإعمال النصوص كلِّها أولى من إهمال بعضها.

قال ابن القيم رحمه الله: "فلو تحقق السـامع أن الذمي قال له: "سـلام عليكم " لا شـك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السـلام، أو يقتصر على قوله: "وعليك"؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب

٢٣٧١ رواه أبو داود: (٥١٩٥) وسكت عنه (وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح).

٢٣٧٢ رواه مسلم (٢١٦٧).

العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان. وقد قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل. ولا ينافي هذا شيئاً من أحاديث الباب بوجه ما، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما أمر بالاقتصار على قول الراد "وعليكم" بناء على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث عائشة رضي الله عنها فقال: «ألا تريني قلتُ: وعليكم، لما قالوا: السامّ عليكم»؟ ثم قال: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»، والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور، لا فيما يخالفه. قال تعالى: {وإِذَا جاؤوكَ حيوْكَ بما لَمْ يُحيك به الله، وَيَقولُونَ في أنْفُسهِمْ لوْلاَ يُعَذبُنا الله بما نَقُولُ}، فإذا زال هذا السبب وقال الكتابي: سلام عليكم ورحمة الله، فالعدل في التحية يقتضي أن يردّ عليه نظير سلامه، وبالله التوفيق"[٢٣٧٣]

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[١١٨] "ومَن تركَ صلاةَ الجمعةِ والجماعةَ في المسجدِ من غيرِ عذرٍ فهو مبتدِع، والعذرُ كمرضٍ لا طاقة له بالخروجِ إلى المسجد، أو خوفٍ من سلطانٍ ظالم، وما سوى ذلك فلا عذرَ له، ومَن صلى خلفَ إمامٍ فلم يقتدِ به فلا صلاةَ له".

الشرح

الصلاة جماعة مع المسلمين في بيوت الله من أهم الفرائض، وهي من شعائر الإسلام، الواجب على كل مكلف أن يعتني بها، وأن يبادر ويسارع إلى إقامة الصلاة في الجماعة مع المسلمين، وأن يتباعد عن مشابهة أهل النفاق.

٢٣٧٣ أحكام أهل الذمة ١/٤٢٥.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها-يعني الصلاة في الجماعة- إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل-يعني من الصحابة-يؤتى به يهادى بين الرجلين-يعني المريض أو كبير السن-حتى يقام في الصف" من شدة حرصهم على أداء الصلاة مع الجماعة.

ويقول النبي ﷺ : ((من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر)) [٢٣٧٤] قيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما هو العذر؟ قال: ((خوف أو مرض)).

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل أعمى وقال يا رسول الله ليس لي قائد يلائمني إلى المسجد فهل لي من رخصة أن أصلي في بيتي؟ فقال له النبي ﷺ ((هل تسمع النداء إلى الصلاة؟)) فقال: نعم. قال: ((فأجب))[٢٣٧٥] رواه مسلم في صحيحه.

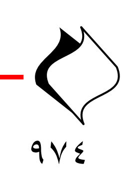
وفي رواية أخرى عند غير الإمام مسلم: ((لا أجد لك رخصة[٢٣٧٦])).

وقول المصنف: **"فهو مبتدِع"** يشير بذلك إلى ما يفعله بعض المتصوفة، فالصوفية كما يقول ابن القيم: "فالعارفون المتَّبعون منهم إذا جاء الأمرُ والنهيُ بادروا إليه ولو فرَّقهم وأذهب جَمعيتهم.

٢٣٧٤ رواه ابن ماجه في (المساجد والجماعات) باب التغليظ في التخلف عن الجماعة برقم (٧٩٣.(

٢٣٧٥ رواه مسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء برقم (٦٥٣)، والنسائي في (الإمامة) باب المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن برقم (٨٥٠).

٢٣٧٦ رواه أبو داود في (الصلاة) باب التشديد في ترك الجماعة برقم (٥٥٢)، وابن ماجه في (المساجد والجماعات) باب التغليظ في التخلف عن الجماعة برقم (٧٩٢).



والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يُفَرِّقه عن الله لم يُلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

ومن ذلك قول قائلهم:

يُطالب بالأوراد مَن كان غافلًا فكيف بقلبٍ كل أوقاته وِرْدُ

ثم هؤلاء -أيضًا- قسمان:

منهم مَن يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم مَن يقوم بها، ويَترك السُّنَنَ والنوافلَ وتَعَلُّمَ العلم النافع لجمعيته"[٢٣٧٧].

فبعض الصوفية يزعمون أنهم في حالٍ من الترقي والتعبد حتى يصلوا إلى الكشف، وإذا وصلوا إلى مقام الكشف، فعند ذلك يسقطون عن أنفسهم جميع التكاليف.

فلا يرى الواحد منهم أنه مخاطب بأحكام العبودية، ويرى أنه قد وصل أي: قد انتهى، ورفعت عنه التكاليف.

وهذا يفعله بعض المتصوفة اليوم، وهذا معلوم عند من يقرأ كلام المتصوفة، ويعلم أن عندهم في التعبد درجات، حتى يصل الإنسان إلى مثل هذه الدرجة فإذا وصل إليها لا يخاطب بحلالٍ ولا بحرام.

فإذا سئل أحد هؤلاء: لماذا لا تصلي الجمعة مع الناس؟ ولماذا لا تشهد الجماعة مع الناس؟

قال: هذه صلاة الغافلين، أما أنا فمع الله دائمًا.

فيفتَرون على الله سبحانه وتعالى بمثل هذه المزاعم الكاذبة التي هي في حقيقتها افتراء وكذبٌ على دين الله سبحانه وتعالى، فأنبياء الله تعالى وخاتمهم محمد ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت له

٢٣٧٧ «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ١٠٦-١١١).

عندها عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غَفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ((أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟)) (٢٣٧٨).

فالنبي ﷺ بلغ ما بلغ من الدرجة والمنزلة عند الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك كان أشد الأمة حرصًا على عبادة الله جل وعلا، ولم يزعم هذا الزعم الذي زعمه هؤلاء.

فالشاهد: أن المتصوفة عندهم كثير من الزَّلَّات والأخطاء التي في حقيقتها انحراف عن منهج النبوة، فهم قومٌ استدرجهم الشيطان وأوقعهم في هذه المزالق.

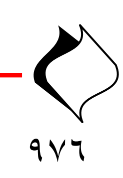
وقول المصنف: **"ومَن صلى خلفَ إمامٍ فلم يقتدِ به فلا صلاةَ له".**

يَجِبُ على المأمومِ الائتمامُ بإمامِه ومتابعتُه، وعدمُ مخالفتِه؛ لما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنَّما جُعِلَ الإمامُ ليؤتَمَّ به؛ فلا تختلِفُوا عليه، فإذا رَكَع، فاركعوا، وإذا قال: سمِعَ اللهُ لِمَن حمِدَه، فقولوا: ربَّنا لكَ الحمدُ، وإذا سجَد فاسجُدوا، وإذا صَلَّى جالسًا، فصَلُّوا جلوسًا أجمعون..)) (٢٣٧٩).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ركِب فرسًا فصُرِع عنه، فجُحِشَ شقُّه الأيمنُ، فصلَّى صلاةً من الصلواتِ وهو قاعدٌ، فصَلَّيْنا وراءَه قعودًا، فلمَّا انصرَف، قال: ((إنَّما جُعِلَ الإمامُ ليؤتَمَّ به، فإذا صلَّى قائمًا فصلُّوا قيامًا، فإذا ركَع

(١) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب (التهجد)، بَاب: (قِيَام النَّبِيِّ ﷺ اللَّيْلَ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ)، برقم (١١٣٠)، ومسلم كتاب (صِفَة الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ)، بَاب (إِكْثَارِ الْأَعْمَالِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ) (٢٨١٩)، والترمذي (٤١٢)، وابن ماجه (١٤١٩)، والنسائي (١٦٤٤)، وأحمد في «المسند، (أَوَّل مُسْنَدِ الْكُوفِيِّينَ) (١٨١٩٨).

٢٣٧٩ انظر صحيح البخاري كِتَابُ الأَذَانِ، بَابٌ: إِقَامَةُ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلاَةِ، برقم (٧٢٢)، ومسلم كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ التَّسْمِيعِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالتَّأْمِينِ، (٤٠٩)، وأبو داود (٦٠٣)، والترمذي (٢٥٠)، والنسائي (٩٢١)، وابن ماجة (٨٤٦)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٧١٤٤)، والدارمي (١٣٥٠).



فـارْكعوا، وإذا رفَع فـارْفعوا، وإذا قـال: سمِعَ اللهُ لِمَن حمِـده، فقولوا: ربَّنـا ولـكَ الحمدُ)) [٢٣٨٠].

وعن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّها قالت: صلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسـلَّم في بيتِه وهو شـاكٍ، فصـلَّى جالسًـا وصـلَّى وراءَه قومٌ قيامًا، فأشـار إليهم أنِ اجلســوا، فلمَّا انصــرف قال :((إنَّما جُعِلَ الإمامُ ليؤتمَّ به، فإذا ركَع فاركعوا، وإذا رفَع فارْفَعوا، وإذا صلَّى جالسًا فصلُّوا جلوسًا)). [٢٣٨١]

عن البراءِ بن عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال :((كنَّا نُصلِّي خلفَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسـلَّم، فإذا قال: سمِعَ اللهُ لِمَن حمِدَه، لم يَحْنِ أحدٌ منَّا ظَهرَه حتى يضـعَ النبيُّ صـلَّى اللهُ عليه وسلَّم جبهتَه على الأرضِ)). [٢٣٨٢]

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِـيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم قال: ((أمَا يَخشَـى أحدُكم–أو: ألا يَخشَى أحدُكم–إذا رفَعَ رأسَه قبلَ الإمامِ، أن يجعلَ اللهُ رأسَه رأسَ حمارٍ، أو يجعلَ اللهُ صورتَه صورةَ حمارٍ؟!)). [٢٣٨٣]

,نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ حزمٍ[٢٣٨٤]، وابنُ عبد البرِّ [٢٣٨٥]، وابنُ رُشدٍ [٢٣٨٦].

٢٣٨٠ رواه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١).

٢٣٨١ رواه البخاري (٦٨٨)، ومسلم (٤١٢).

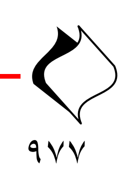
٢٣٨٢ رواه البخاري (٨١١)، ومسلم (٤٧٤).

٢٣٨٣ رواه البخاريُّ (٦٩١)، ومسلم (٤٢٧).

٢٣٨٤ قال ابنُ حزم: (واتَّفقوا أنَّ مَن فَعَل ما يفعله الإمامُ من ركوع وســجود وقيام بعدَ أنْ فعلَه الإمام، لا معه ولا قبله، فقدْ أصاب). ((مراتب الإجماع)) (ص: ٢٦).

٢٣٨٥ قال ابنُ عبد البَرِّ: (فقد أجمَع العلماءُ على أنَّ الائتمامَ واجبٌ على كلِّ مأموم بإمامه في ظاهر أفعاله، وأنَّه لا يجوزُ له خلافه لغير عُذر) ((التمهيد)) (٦/١٣٦)، ويُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٢/١٧٠).

٢٣٨٦ قال ابنُ رُشــد: (وأجمَع العلماء على أنَّه يجب على المأموم أن يتبع الإمامَ في جميع أقواله وأفعاله، إلَّا في قوله: سمِع الله لِمَن حمِده، وفي جلوسه إذا صلَّى جالسًا لمرضٍ عند مَن أجاز إمامةَ الجالس). ((بداية المجتهد)) (١/١٥٠).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٢٠] "والأمرُ بالمعروفِ والنهيُّ عن المنكرِ باليدِ واللسانِ والقلبِ بلا سيف".

الشرح

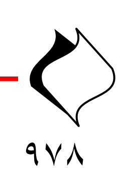
جاء في الحديث: ((من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان)) (٢٣٨٧).

ولا شَكَّ أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الإسلام، وشريعة من شرائعه، لكن لا بد أن تؤدى بالوسائل الشرعية، فيجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وأن ينهي عن المنكر، لكن لا يخرج على جماعة المسلمين بحجة أنه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر؛ لأنه إذا خرج عليهم بالسلاح كان إفساده أكثر من إصلاحه؛ ويترتب على خروجه من المنكر أعظم مما هم موجود وقائم.

وهناك شواهد عبر التاريخ مما صنع الخوارج والمعتزلة الذين خرجوا بالقوة على جماعة المسلمين بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فأفسدوا أكثر مما أصلحوا، والقاعدة الأصولية العامة تقول: إن درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المصالح؛ فإذا كان هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيجلب مَفسدة، أو سيترتب عليه مفسدة أعظم من المفسدة القائمة؛ فتركه أَوْلَى، وكذلك لا يُزال المنكر بمُنكر أشد منه

والمسلمون فيما يجب عليهم من إنكار المنكر درجات:

٢٣٨٧ انظر صحيح مسلم كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ، برقم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (٤٠١٣)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (١١٠٧٢).



الدرجة الأولى: فمنهم من يجب عليه إنكار المنكر بيده، كولي الأمر ومن ينوب عنه ممن أُعطي صلاحية لذلك، كالوالد مع ولده، والسيد مع عبده، والزوج مع زوجته؛ إن لم يكف مرتكب المنكر إلا بذلك.

الدرجة الثانية: ومنهم من يجب عليه إنكاره بالنصح والإرشاد والنهي والزجر والدعوة بالتي هي أحسن دون اليد والتسلط بالقوة؛ خشية إثارة الفتن وانتشار الفوضى.

الدرجة الثالثة: ومنهم من يجب عليه الإنكار بالقلب فقط؛ لضعفه نفوذاً ولساناً، وهذا أضعف الإيمان.

قال الإمامُ ابن القيم رحمه الله: «فإنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يَزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يَقِلَّ وإن لم يَزل بجُملته.

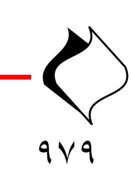
الثالثة: أن يَخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يَخلفه ما هو شَرٌّ منه.

فالدرجتان الأُولَيَان مَشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهلَ الفجور والفسوق يَلعبون بالشِّطْرَنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحبُّ إلى الله ورسوله؛ كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك.

وإذا رأيت الفُسَّاق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مُكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلَّا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تُفَرِّغَهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون ونحوها وخِفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسِّحْر؛ فَدَعْهُ وكتبه الأولى، وهذا بابٌ واسعٌ.



وسمعت شيخَ الإسلام ابن تيمية –قَدَّس الله روحه ونور ضريحه– يقول: مَررت أنا وبعض أصحابي في زمن التَّتار بقومٍ منهم يشربون الخمر؛ فأنكر عليهم مَن كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلتُ له: إنَّما حَرَّم الله الخمر؛ لأنَّها تَصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يَصدهم الخمر عن قتل النفوس وسَبْي الذرية وأخذ الأموال؛ فَدَعْهُم"(٢٣٨٨).

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٢١] "والمستورُ من المسلمين مَن لم تظهر له ريبة".

الشرح

قال ابن القيم: "مَنْ ظَهَرَتْ لَنَا مِنْهُ عَلَانِيَةُ خَيْرٍ قَبِلْنَا شَهَادَتَهُ وَوَكَلْنَا سَرِيرَتَهُ إلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَجْعَلْ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى السَّرَائِرِ، بَلْ عَلَى الظَّوَاهِرِ، وَالسَّرَائِرُ تَبَعٌ لَهَا، وَأَمَّا أَحْكَامُ الْآخِرَةِ فَعَلَى السَّرَائِرِ، وَالظَّوَاهِرُ تَبَعٌ لَهَا. وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: "مَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ"[٢٣٨٩].

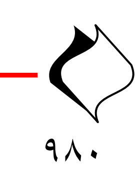
فالأصـــل أن لا يفتِّش عن الناس أو تمتحن الناس، فالناس يُؤخَذون بما يظهرُ من أحوالهم فلا يجوز أن تمتحنَ الإنسان مادام مستور الحال فيُعامَل بما يظهر من حاله.

وموضـوع السـتر فيه تفصيل قال أبو زكريا النووي – رحمه الله – في شرح صـحيح مســـلم – عند قوله صـــلى الله عليه وســـلم :((ومن ســـتر مســـلما ســـتره الله يوم القيامة))[٢٣٩٠]، "وأما السـتر المندوب إليه هنا فالمراد به السـتر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد.

(٢٣٨٨) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٣/ ١٢، ١٣).

٢٣٨٩ إعلام الموقعين ١/ ١١٤.

٢٣٩٠ رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).



وأما المعروف بذلك فيستحب ألا يستر عليه، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر، إن لم يخف من ذلك مفسدة، لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء، والفساد، وانتهاك المحرمات، وجسارة غيره على مثل فعله.

وهذا كله في ستر معصية وقعت وانتقضت.

أما مسألة معصية يراه عليها وهو متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه، ومنعه منها على من قدر على ذلك، ولا يحل تأخيرها. فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر، إذا لم تترتب على ذلك مفسدة – كما تقدم.

ثم قال: وأما الرواة، والشهود، والأمناء على الصدقات، والأوقاف، والأيتام ونحوهم فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم. وليس هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبة. وهذا مجمع عليه"[٢٣٩١].

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

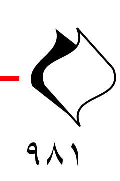
[١٢٢] "وكلُ علمٍ ادَّعاه العباد من علمِ الباطنِ لم يوجد بالكتابِ والسنَّة فهو بدعةٌ وضلالة ولا ينبغي لأحدٍ أن يعملَ به ولا يدعو إليه".

(الشرح)

مما يدِّعيه المنحرفة من المتصوفة أن لهم علم الباطن وهذا حالُ الباطنية، وهذا موجود عند المتصوفة وغيرهم؛ أنهم يقولون نحن علماء الباطن وأنتم علماء الظاهر، أو نحن علماء الحقيقة وأنتم علماء الشريعة، فهذا كله من الدعاوى الباطلة.

وهؤلاءِ أرادوا أن يُفسدوا الدين من جهةِ أن يجعلوا له معانٍ ظاهرة ومعانٍ باطنة، فهذه النصوص واضحةُ المعاني معلومةُ المعاني والله عز وجل خاطبنا بما يظهرُ منها.

٢٣٩١ شرح صحيح مسلم للنووي: ٨/ ١١١.



وإن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصـــوفة هو تفريقهم بين الحقيقة والشريعة وادعاؤهم بأن الحقيقة غير الشريعة.

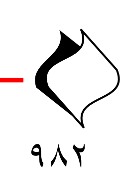
ومصطلح الشريعة والحقيقة مصطلح خاص بهم وكل من قرأ في كتب المتصوفة يجد بأن المتصـــوفة يكررون هذا المصـــطلح بكثرة وهو في الحقيقة لا يبعد كثيرا عن مصطلح الظاهر والباطن الذي وضعه الباطنية كمصطلح خاص بهم إلا أن الصوفية قد شاركوا الباطنية في مصطلح الظاهر والباطن أيضا، وكلا المصطلحين وضعهما الصوفية والباطنية ليهدموا بهما الشريعة الإسلامية ويقضوا عليها.

ويعني المتصوفة بهذين المصطلحين بأن هناك في الإسلام علمين علم يخص أهل الظاهر وهي الشرعية الإسلامية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما فيها من عقائد وعبادات وآداب وأخلاق وســـلوك وهذا علم يرتفع عنه المتصـــوفة ويرون الوقوف عند هذا العلم انحطاطا وأن الإنسان الذي تعلم العلم الشرعي "الكتاب والسنة "يعتبر في نظر المتصوفة في درجة العوام الذين لا يعتد بفتواهم.

والعلم الثاني العلم الذي يطلق عليه المتصـــوفة علم الحقيقة وهو الذي يعبرون عنه بالعلم اللدني ويعتقد المتصوفة بأن هذا هو العلم النافع وهو الذي من عرفه يستحق أن يسمى عالما في زعمهم.

وأما الكيفية التي ينال بها هذا العلم اللدني حسب زعم المتصوفة فهي المجاهدة التي إذا استمر عليها الإنسان ينزل عليه علم الحقيقة من الله والذي يقولون عنه أنه سر من أسرار الله لا ينزله إلا على قلوب الخاصة ويعنون بهذا أنفسهم لأنهم يقولون لا ينزل هذا العلم إلا على أولياء الله وقد حصروا الولاية في أنفسهم.

ومن هنا بعد القوم عن الشريعة الإسلامية الغراء التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وســـلم من عند الله وفيها هدى ونور أصبحوا يبحثون عن الهداية والوصـــول إلى مرضاة الله عن طريق علمهم المزعوم والذي وصفوه بأنه بعيدا كل البعد عن المعاني التي تدل عليها النصوص القرآنية والحديثية على حسب الأساليب المعروفة في اللغة العربية



وكل من اعترض على تفسيرهم الباطل سدوا عليه الباب بأن هذا علم الحقيقة أو علم الباطن وأن هذا العلم لا يدركه إلا أهل الحقيقة ويعنون أنفسهم ولذا لا ينبغي لأهل الرسوم أن يعترضوا عليهم لأنهم يجهلون هذا العلم ولقد صرح المتصوفة بأن هناك علما يسمى علم الحقيقة يختلف تماما عن علم الشريعة الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وإليك النصوص من كتبهم أنفسهم.

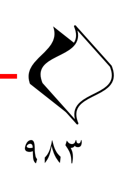
قال المنوفي في كتابه (جمهرة الأولياء): "إن القوم يرجعون بسند طريقهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث إن جبريل عليه السلام نزل بالشريعة أولاً فلما تقررت ظواهر الشريعة واستقرت نزل إليه بالحقيقة المقصودة والحكمة المرجوة... من أعمال الشريعة فخص الرسول صلى الله عليه وسلم بباطن الشريعة بعض أصحابه دون البعض" ثم قال في نفس الصفحة:

"وأول من أظهر علم القوم وتكلم فيه سيدنا علي وذكر السلسلة الصوفية في تلقي العلوم اللدنية إلى أن وصل إلى الجنيد الذي قال عنه أنه صحب الشافعي في علوم الظاهر ثم صحب وأخذ عن خاله السريسقطي علوم الباطن وعن الجنيد أخذ المحاسبي ثم انتشر هذا الطريق انتشارا لا ينقطع حتى ينقطع عمر الدنيا"[٢٣٩٢].

وقد ذكر ابن عجيبة في "الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية" شرح الحديث المكذوب على الرسول صلى الله عليه وسلم والذي هو: ((إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله))[٢٣٩٣] ثم ذكر في نفس الكتاب شرح هذا الحديث المكذوب فقال: "قال بعضهم في شرح هذا الحديث هي أسرار الله يبديها الله إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهي

٢٣٩٢ ((جمهرة الأولياء)) للمنفوي (١/ ١٥٩).

٢٣٩٣ قال ابن تيمية في ((درء التعارض)) (٥/٨٥) ليس له إسناد صحيح، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣٩/١) إسناده ضعيف، وقال الألباني في ((الضعيفة)) (٨٧٠) ضعيف جدا.



من الأسـرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص فإذا سمعها العوام أنكروها ومن جهل شـيئا عاداه"[٢٣٩٤].

وينبغي أن نتذكر جيدا بأن المتصـــوفة يقصـــدون بكلمة العوام علماء الأمة الإسلامية من محدثين ومفسرين وفقهاء.

فمن النصوص المتقدمة نخرج بالنتائج الآتية:

أن المتصـوفة يقولون بأن هناك حقيقة تختلف عن الشـريعة ومع هذا فإننا نلاحظ أيضا بأن البعض منهم قالوا إنها نزلت على الرسول بعد استكمال الشرعية.

والبعض الآخر قال: إنها أسرار الله يبديها الله لأوليائه.

وكلا القولين تترتب عليهما أمورا خطيرة.

وادعاء أن لها علم باطن هذا فيه اتهامٌ للنبي صـــلى الله عليه وســـلم أنه كتمَ الحق فأظهرَ لنا أمراً وأخفى عنا غيره، وهذا الذي يزعمه هؤلاء؛ أن الذي أظهره النبي صـــلى الله عليه وســـلم هذا هو الظاهر، وأن ما عندهم هو علم الباطن، فكل هذا من الافتراء والكذب ومحاولة تشويه دين الإسلام.

فالله تعالى أنزلَ كتاباً وأرسـلَ رسـولاً، وهذه الآيات وهذه النصـوص وهذه المعاني واضـــحة بيّنة لأنها بلســـانٍ عربيٍّ مبين ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسـف:٢]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشـعراء:١٩٥] فهو بيّن واضـح ليس للأمرِ ظاهر وباطن كما يزعم هؤلاء الذين أرادوا تحريفَ دينِ الإسلام.

وفي ســبيل ترويج باطلهم أظهروا ما يســمى بالذوق والكشــف والوجد فجعلت الصـوفية «الذوق» هو وسـيلة المعرفة، دون الشـرع والعقل، فقصـرت رحمة الله على فئة

٢٣٩٤ ((الفتوحات الإلهية في شـرح المباحث الأصـلية)) لابن عجيبة على هامش ((إيقاظ الهمم في شرح الحكم)) لابن عجيبة على هامش (١/٢٩).

قليلة في عباده، وصيَّرت الإنسان كمن يمشي في ضوء الشمس وهو مغمض عينيه، فلا يستفيد من ضوئها، أو كمن يحاول أن يبصر في الظلام فلا يستفيد من عينيه.

وبذلك اختلفت طرائقهم وأفكارهم، وصارت مصادر المعرفة عند الصوفية مختلفة ومتباينة؛ لأن كل صوفي يتحدث عنها من واقع تجربته الخاصة.

وعن مفهوم الذوق عند الصوفية، يقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل: إن الصوفية تعتقد أن الذوق الفردي لا الشرع، ولا العقل هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها لمعرفة الله وصفاته، وما يجب له، فهو – أي الذوق – الذي يقوم حقائق الأشياء ويحكم عليها بالخَيْرِيَّة أو الشَّرِّية، بالحُسُنِ والقُبْحِ، بأنها حق أو باطل، فلا جَرَمَ أن تدين الصوفية بعدد عديد من أرباب وآلهة، ولا عجب أن ترى النِّحلَةَ منها تخضع لصنم يكفر به سواها من النِّحل الصوفية، لا عجب في ذلك كله ما دامت تجعل «الذوق» (٢٣٩٥) الفردي حاكماً وقيماً على المسميات وأسمائها (٢٣٩٦).

وعن تعريف كلمة الذوق عند الصوفية، يذكر الشيخ الوكيل – رحمه الله – جانباً من التعريفات التي قالوها: يعرف القيصري الذوق بقوله (**٢٣٩٧**): «ما يجده العالم على سبيل الوجدان والكشف، لا البرهان والكسب، ولا على طريق الأخذ بالإيمان والتقليد»[٢٣٩٨].

أو هو: «أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث في التجلي البرقي»[٢٣٩٩].

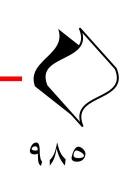
(٢٣٩٥) يعني الذوق الخاص بكل إنسان ونتيجة لهذا يصبح الدين والأخلاق بلا معيار ولا ميزان.

(٢٣٩٦) كتاب «هذه هي الصوفية» تأليف الشيخ عبد الرحمن الوكيل (ص٣٣).

(٢٣٩٧) طبقات الصوفية للسلمي ص١٨١.

٢٣٩٨ «مطلع خصوص الكلم» (ص ١٩٣).

٢٣٩٩ (جامع الأصول للكمشخانلي ص ١٠١



ويقول ابن عربي: «اعلم أن العلوم الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفة باختلاف القوى الحاصلة مع كونها ترجع إلى عين واحدة»[٢٤٠٠] (٢٤٠١).

وهذا يثبت مدى اعتقاد الصوفية في أن «الذوق» هو وسيلة المعرفة لديهم ويقول الشيخ الوكيل: «كل صوفي يؤمن بأن الذوق وحده وسيلة المعرفة، أما العقل عندهم فهو طاغوت أخرق، وأما الشرع فمادية تنشب مخالبها في الصخر دون أن ترمق السماء بنظرة واحدة، وهو نوع من عبادة التاريخ الميت، ولهذا تتباين عندهم قيم الأشياء تبعاً لتباين الذوق!![٢٤٠٢].

وأما الكشف فقد روجت الصوفية لفكرة الكشف، ويتفيهقون بأن مرتبة الكشف وراء طور العقل، وبأن مرتبة الكشف هي نيلُ ما ليس له العقل يَنَال، لا نَيْلُ ما هو ببديهة العقل محال.

يعرف الصوفية الكشف بأنه الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً، والله سبحانه هو القائل: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾.

ورداً على مقولتهم الباطلة: «وبالكشف يظهر ما ليس له العقل ينال». يقول الشيخ الوكيل رحمه الله: من الذي جعل من الشرع قسماً لا يناله العقل؟ بل الكشف، من قال هذا؟ ومن أين جاءوا بهذا؟ وهل في مقدور كل مسلم الكشف والمعاينة؟ يجيبون هم بأن هذا لخواص الخواص!! وهذا يستلزم أن الخواص والعوام لا يمكن أن يصلوا إلى معرفة أهم حقائق الشرع، ثم ما هذا الذي لا يظهر إلا بالكشف؟! إن كان هو عين ما في الشريعة فما للكشف فائدة إذاً.

٢٤٠٠ (فصوص الحكم ص ١٠٧).

(٢٤٠١) كتاب هذه هي الصوفية (ص١٣٧). ويعني بالعين الواحدة: الذات الإلهية!!.

٢٤٠٢ كتاب مصرع التصوف (ص١٨٦) تعليق (٢)

وإن كان غير ما فيها، قالوا بجواز عبادة الله بغير ما شـــرعه الله، وتلك هي الطامة الكبرى (٢٤٠٣).

وادعاء أن لهم علم باطن هذا فيه اتهامٌ للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كتمَ الحق فأظهرَ لنا أمراً وأخفى عنا غيره، وهذا الذي يزعمه هؤلاء؛ أن الذي أظهره النبي صلى الله عليه وسلم هذا هو الظاهر، وأن ما عندهم هو علم الباطن، فكل هذا من الافتراء والكذب ومحاولة تشويه دين الإسلام.

فالله تعالى أنزلَ كتاباً وأرسلَ رسولاً، وهذه الآيات وهذه النصوص وهذه المعاني واضحة بيِّنة لأنها بلسانٍ عربيّ مبين ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]، وقال:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] فهو بيّن واضح ليس للأمرِ ظاهر وباطن كما يزعم هؤلاء الذين أرادوا تحريفَ دينِ الإسلام.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٢٣] "وأيُّما امرأةً وهبت نفسها لرجل فإنها لا تحلُّ له يُعاقبانِ إن نالَ منها شيئًا إلا بوليٍّ وشاهدي عدلٍ وصداق".

الشرح

والأصل في ذلك قوله تعالى: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) [الأحزاب الآية:٥٠]

قال الباجي رحمه الله: "لا خلاف أنه لا يجوز نكاح بدون مهر لغير النبي صلى الله عليه وسلم، والأصل في ذلك قوله تعالى: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْـــتَنْكِحَهَا خَالِصَـــةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) [الأحزاب الآية:٥٠]، فأخبر

(٢٤٠٣) مصرع التصوف للبقاعي (ص١٨٨، ١٩٢) – تحقيق عبد الرحمن الوكيل.



تعالى أن ذلك خالص للنبي صـلى الله عليه وسـلم دون سـائر المؤمنين فلا يحل ذلك لغيره

ومن جهة السنة أن المرأة قالت له يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك فلم ينكر ذلك عليها فلو كان منكرا لأنكره عليها ولم يقرها عليه لأن النبي صـلى الله عليه وسـلم لا يقر على الباطل، ثم إنه لما سـأل القائم نكاحها لم يجعل له إلى ذلك سـبيلا دون صـداق، مع حاجة القائم وفقره وعدم ما يصـدقها إياه، حتى أنكحه إياها بما معه من القرآن، ولو جاز أن يخلو نكاح غير النبي صـلى الله عليه وسـلم من عوض لما منعه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك مع شدة الفقر والحاجة" انتهى [٢٤٠٤]

المراد بهبة المرأة نفسـها لرجل: هو أن يتزوجها، لكن من غير مهر، وهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، ليس لأحد من أمته.

وقد ذكر الطبري أن هناك خلافًا بين العلماء في هل هناك امرأة وهبت نفسـها للنبي صلى الله عليه وسلم على قولين:

القول الأول: قال لم يكن عند رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم امرأة وهبت نفسها.

والقول الثاني: قالوا: قد كان عنده منهن فإن بعضـهم قال: كانت ميمونة بنت الحارث. وقال بعضهم: هي أم شريك. وقال بعضهم: زينب بنت خزيمة[٢٤٠٥].

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: "أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ لِأَهَبَ لَكَ نَفْسِي، فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتِ المَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا، فَقَالَ: ((هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ ؟))، فَقَالَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا ؟))، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَدْتُ

٢٤٠٤ "المنتقى شرح الموطأ"(٣/ ٢٧٥).

٢٤٠٥ تفسير الطبري سورة الأحزاب ٤٢٤.

شَــيْئًا، قَالَ: ((انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ))، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُــولَ اللَّهِ وَلاَ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي – قَالَ سَــهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ – فَلَهَا نِصْــفُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ، إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَــيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَــتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَــيْءٌ ؟))، فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مَجْلِسُــهُ، ثُمَّ قَامَ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: ((مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟))، قَالَ: مَعِي سُــورَةُ كَذَا، وَسُــورَةُ كَذَا، وَسُــورَةُ كَذَا – عَدَّهَا – قَالَ: ((أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ ؟))، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ((اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ))."[2406]

قال ابن الجوزي رحمه الله: "(فصـعد النظر فيها وصـوبه) أي نظر إلى وجهها وحط النظر إلى ما دونه، وهذا يدل على جواز النظر إلى المرأة التي يراد نكـاحهـا، وإنما فعل ذلك لجواز أن يريدها، فلما لم يُردها، طأطأ رأسه" [2407]

وقال النووي رحمه الله: "أَمَّا صَعَّدَ: فَبِتَشْدِيدِ الْعَيْنِ أَيْ رَفَعَ، وَأَمَّا صَوَّبَ: فَبِتَشْدِيدِ الْوَاوِ أَيْ خَفَضَ".

وقال: "فِيهِ دَلِيلٌ لِجَوَازِ النَّظَرِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً وَتَأَمُّلِهِ إِيَّاهَا". [2408]

وقال المصنف: **"يُعاقبانِ إن نالَ منها شيئا إلا بوليٍّ وشاهدي عدلٍ وصداق".**

أي ليس لامرأة أن تأتي للرجل وتقول: أنا وهبتُ لك نفســـي، بل لابد من مهرٍ وصداق فإذا مكنَّته من نفسها وتمكنَ منها فعندئذٍ يعاقبان على ذلك.

(المتن)

٢٤٠٦ رواه البخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥)

٢٤٠٧ "كشف المشكل" (٢/ ٢٧٠).

٢٤٠٨ "شرح مسلم" (٩/٢١٢).



قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٢٤] "وإذا رأيت الرجلَ يطعنُ على أحدٍ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه صاحبُ قول سوءٍ وهوى لقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا»٢٤٠٩".

قد علمَ النبي صلى الله عليه وسلم ما يكونُ منهم الزللِ بعد موته فلم يقل فيهم إلا خيرا، وقوله: «ذروا أصحابي لا تقولوا فيهم إلا خيرا» (٢٤١٠) ولا تحدث بشيءٍ من زللهم ولا حربهم، ولما غابَ عنك علمه، ولا تسمعه من أحدٍ يحدِّثُ به فإنه لا يسلمُ لك قلبك إن سمعته.

الشرح

من علاماتِ أهل البدع الطعنُ في أصحابِ النبي ﷺ والخوض فيما وقعَ بينهم، فإذا رأيت الإنسان يطعنُ في أصحاب النبي أو يخوض فيما حدث بينهم فاعلم أنه صاحب بدعة.

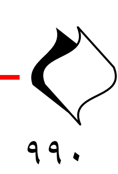
وقد عرف الطعن في الصحابة عن الروافض والخوارج والمعتزلة

أما الرافضة فشعارهم الطعن في سائر الصحابة – عدا آل البيت – وغلاتهم من السبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

٢٤٠٩ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٤٢٧)، قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء الأول، صفحة (٧٥): ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضا.

٢٤١٠. ورد بلفظ ((دعوا لي أصحابي)) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٦ رقم: ١٣٨١٢)، ومن طريقه الضياء المقدسي في المختارة (٦/ ٦٦ رقم: ٢٠٤٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤).



وأما الخوارج: فتكفيرهم لعلي وأكثر الصحابة رضي الله عنهم واستباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

أما المعتزلة: فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصحابة وأسقط عدالة ابن مسعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى من الصحابة بالاجتهاد، وقال: إن ذلك منهم إنما كان لأجل أمرين:

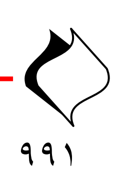
الأمر الأول: إما لجهلهم بأن ذلك لا يحل لهم.

الأمر الثاني: وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسب إليهم.

فنسب خيار الصحابة إلى الجهل أو النفاق، ثم إنه أبطل إجماع الصحابة ولم يره حجة، وأجاز أن تجتمع الأمة على الضلالة[٢٤١١].

وأيضا — كان زعيمهم واصل بن عطاء الغزال يشكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشة وكل من شهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشهورة: لو شهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق ولا أعرفه بعينه.

٢٤١١ فضل الإجماع ص ١٤٠



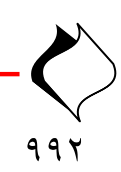
ووافقه على ذلك صاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفسق كل من الفريقين، وأطلق عمرو بن عبيد على ابنِ عمر أنه من الحشوية٢٤١٢.٢٤١٣

ومن بعض فرق المتكلمين من حمل هذا النفس ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله –بعد أن حكى عنهم هذا الكلام–: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض"[٢٤١٤].

٢٤١٢ قال ابن تيمية: "وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: "حَشْوِيَّةٌ" فَهَذَا اللَّفْظُ لَيْسَ لَهُ مُسَمًّى مَعْرُوفٌ لَا فِي الشَّرْعِ وَلَا فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الْعُرْفِ الْعَامِّ؛ وَلَكِنْ يُذْكَرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا اللَّفْظِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ. وَقَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ حَشْوِيًّا. وَأَصْلُ ذَلِكَ: أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ قَالَتْ قَوْلًا تُخَالِفُ بِهِ الْجُمْهُورَ وَالْعَامَّةَ يُنْسَبُ إلَى أَنَّهُ قَوْلُ الْحَشْوِيَّةِ أَيْ الَّذِينَ هُمْ حَشْوٌ فِي النَّاسِ لَيْسُوا مِنْ الْمُتَأَهِّلِينَ عِنْدَهُمْ؛ فَالْمُعْتَزِلَةُ تُسَمِّي مَنْ أَثْبَتَ الْقَدَرَ حَشْوِيًّا وَالْجَهْمِيَّة يُسَمُّونَ مُثْبِتَةَ الصِّفَاتِ حَشْوِيَّةً وَالْقَرَامِطَةُ –كَأَتْبَاعِ الْحَاكِمِ –يُسَمُّونَ مَنْ أَوْجَبَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ حَشْوِيًّا. وَهَذَا كَمَا أَنَّ الرَّافِضَةَ يُسَمُّونَ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ قَوْلَ الْجُمْهُورِ وَكَذَلِكَ الْفَلَاسِفَةُ تُسَمِّي ذَلِكَ قَوْلَ الْجُمْهُورِ "فَقَوْلُ الْجُمْهُورِ وَقَوْلُ الْعَامَّةِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. فَإِنْ كَانَ قَائِلُ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْخَاصَّةَ لَا تَقُولُهُ؛ وَإِنَّمَا تَقُولُهُ الْعَامَّةُ وَالْجُمْهُورُ فَأَضَافَهُ إلَيْهِمْ وَسَمَّاهُمْ حَشْوِيَّةً. وَالطَّائِفَةُ تُضَافُ تَارَةً إلَى الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ مَقَالَتِهَا كَمَا يُقَالُ: الْجَهْمِيَّة والإباضية والأزارقة والْكُلَّابِيَة وَالْأَشْعَرِيَّةُ والكَرَّامِيَة وَيُقَالُ فِي أَئِمَّةِ الْمَذَاهِبِ: مَالِكِيَّةٌ وَحَنَفِيَّةٌ وَشَافِعِيَّةٌ وَحَنْبَلِيَّةٌ. وَتَارَةً تُضَافُ إلَى قَوْلِهَا وَعَمَلِهَا كَمَا يُقَالُ: الرَّوَافِضُ وَالْخَوَارِجُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَلَفْظَةُ الْحَشْوِيَّةِ لَا يَنْبَنِي لَا عَنْ هَذَا وَلَا عَنْ هَذَا." مجموع الفتاوى١٢/ ١٧٦

٢٤١٣ انظر الفرق بين الفرق ص/١٢١، التبصير في الدين ص٦٩، الملل والنحل للشهرستاني ١/٤٩ .ميزان الاعتدال ٢٧٥/٣ عقيدة أهل السنة في الصحابة الجزء: ٢ / ٨٢٠..

٢٤١٤ مجموع الفتاوى ٤ / ١٥٧



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٢٥] "وإذا سمعتَ الرجلَ يطعنُ على الآثارِ أو يردَّ الآثار أو يريدُ غير الآثار فاتهمه على الإسلام ولا تشكَ أنه صاحبُ هوى مبتدِع".

الشرح

تقدم الحديث عن هذه المسألة في أكثر من موطن في الفقرات (٦٦)، (٨٠)، (٩٥)، فليرجع إليها.

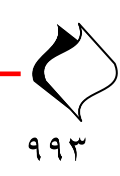
(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٢٦] "واعلم أن جورَ السلطان لا يُنقصُ فريضة من فرائض الله عز وجل التي افترضها على لسانِ نبيه ﷺ، جوره على نفسه، وتطوُّعك وبرُّك معه تامٌ لك إن شاء تعالى يعني الجماعة والجمعةُ معهم، والجهادُ معهم، وكل شيءٍ من الطاعاتِ فشاركه فيه فلك نيته."

الشرح

تقدم الحديث عن مسألة صلاة الجمعة والجماعة خلف السلطان الجائر وكذلك الجهاد معه في الفقرة (٢٧) فعلماء السنة يرون أنه إذا رأى الإنسان من السلطانِ جوراً هذا لا يبرر أنه لا يقوم مع السلطان بما فرضَ الله عليه من الجمعة والجماعة والجهاد وأداء الزكاة ونحو ذلك، فكل هذه الأعمال عليه أن يعملها وأن على السلطان أثم جوره، ولك



برُّك الذي أنت قمت به كما قالَ النبي: ﷺ((أدُّوا الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم)).[٢٤١٥]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–: "

[١٢٧] وإذا رأيت الرجل يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحبُ هوى، وإذا رأيت الرجل يدعو للسلطانِ بالصلاح فاعلم أنه صاحبُ سنَّةٍ إن شاء الله لقولِ فضيْلٍ بن عِياض: (لو كانت لي دعوةٌ ما جعلتها إلا في السلطان).

أنبأنا أحمدُ بن كامل قال حدَّثنا الحسين بن الطبري حدَّثنا مَردويه والصائغ قال: سمعت فضيلاً يقول: (لو أنَّ لي دعوةً مستجابةً ما جعلتها إلا في السلطان)، قيل له: يا أبا عليّ فسِّر لنا هذا قال: (إذا جعلتها في نفسي لم تعدُني وإذا جعلتها في السلطانِ صَلُح فصَلَّح بصلاحه العبادُ والبلاد)[٢٤١٦] فأُمرنا أن ندعوَ لهم

٢٤١٥ انظر صحيح البخاري كِتَابُ المَنَاقِبِ، بَابُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ، برقم (٣٦٠٣)، ومسلم كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ (١٨٤٣)، والترمذي (٢١٩٠)، والإمام أحمد في المسند مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ (٣٦٤١).

٢٤١٦ قال الباحث عبد الله زقيل: "روى أبو نعيم في الحلية (٨/٩١) قال: حدثنا محمد بن ابراهيم، ثنا أبو يعلى، ثنا عبد الصمد بن يزيد البغدادي –ولقبه من دونه–قال سمعت الفضيل بن عياض يقول: لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام. قيل له: وكيف ذلك يا أبا علي؟ قال: متى ما صيرتها في نفسي لم تجزني، ومتى صيرتها في الإمام فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد.

قيل: وكيف ذلك يا أبا علي؟ فسر لنا هذا.

قال: أما صلاح البلاد فإذا أمن الناس ظلم الإمام عمروا الخرابات ونزلوا الارض، وأما العباد فينظر إلى قوم من أهل الجهل فيقول: قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم من تعلم القرآن وغيره، فيجمعهم في دار خمسين خمسين أقل أو أكثر، يقول للرجل: لك ما يصلحك، وعلم هؤلاء أمر دينهم، وانظر ما أخرج الله عز وجل من فيهم مما يزكى الأرض فرده عليهم. قال: فكان صلاح العباد والبلاد، فقبل ابن المبارك جبهته وقال: يا معلم الخير من يحسن هذا غيرك.

بالصلاح ولم نُؤمَر أن ندعو عليهم وإن ظلموا وإن جاروا لأن ظلمهم وجورهم على أنفسهم وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين."

الشرح

من سمات أهل السنة أنهم يدعون للسلطان بالصلاح:

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: "مَن قال: الصلاة خلفَ كُلِّ برٍّ وفاجرٍ، والجهاد مَعَ كُلِّ خليفةٍ، ولم يَرَ الخروجَ على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خَرَجَ من قول الخوارج أوله وآخره".٢٤١٧

وقال الإمام إسماعيل الصابوني رحمه الله: "ويرى أصحاب الحديث: الجمعة، العيدين، وغيرهما من الصلوات، خلف كلِّ إمام مسلم، برَّاً كان أو فاجراً، ويرون

وقد أوردها ابن عبد البر في جامع العم وفضله (٦٤١/١) بغير إسناد، وقال سمير الزهيري في تخريجه في الحاشية: صحيح ... وعبد الصمد بن يزيد هو المعروف بمردويه، أبو عبد الله الصائغ، خادم الفضيل بن عياض كان ثقة من أهل السنة والورع. ا.هـ.

ورواها أبو يعلى (٣٦/٢) في طبقات الحنابلة أيضا بدون إسناد.

وقد رد الشيخ بكر أبو زيد نسبة هذه المقولة إلى الإمام أحمد في التأصيل (ص ٧٦) فقال: ومنها: القولة المشهورة: "لو كان لي دعوة صالحة لصرفتها إلى الإمام". ونسبتها إلى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-، وقد بحثت طويلا فلم أرها منسوبة إليه مسندة، وإنما رأيتها مسندة للفضيل بن عياض —رحمه الله تعالى— بلفظ: "لو أن لنا دعوة مستجابة ما صيرناها إلا للإمام".

أخرج هذا الأثر: أبو نعيم في العادلين، وحلية الأولياء، وابن عبد البر في جامع بيان العلم، والبربهاري في شرح السنة وبين وجهها بقوله: "وإذا جعلتها في نفسي لم تعدني، وإذا جعلتها في السلطان صلحَ، فصلح بصلاحه العباد والبلاد" انتهى.

لكن في كتاب السنة للخلال بسنده عن الإمام أحمد ما نصه: وإني لأدعو له—الإمام—بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار، والتأييد وأرى ذلك واجبا عليَّ " انتهى.

ثم رأيتها منسوبة—غير مسندة—إلى الإمام أحمد—رحمه الله—في فتاوى ابن تيمية (٣٩١/٢٨)، وكشاف القناع (٣٢/٢). ا.هـ.

٢٤١٧ شرح السنة للبربهاري ص١٣٢ رقم ١٥٩.

جهـاد الكفرة معهم وإن كـانوا جورة فجرة، ويرون الـدُّعـاء لهم بالإصـــلاح والتوفيق والصلاح.

ولا يرون الخروج عليهم بالســـيف، وإن رأوا منهم العُدول عن العدل إلى الجور والحيف"[٢٤١٨].

وقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: "ولا نرى الخروجَ على أئمتنا وولاةِ أُمورنا وإن جـارُوا، ولا نـدعُو عليهم، ولا ننزعُ يداً من طاعتهم، ونرى طاعَتهم من طاعـة الله عزَّ وجل فريضةً ما لم يأمروا بمعصيةٍ، وندعُو لهم بالصلاح والمعافاة". [٢٤١٩]

وقـال الخلال رحمـه الله: "أخبرنا أبو بكر المروذي قـال: سمعتُ أبا عبـد الله وذكَرَ الخليفة المتوكل رحمه الله فقال: إني لأدعو له بالصـــلاح والعافية، وقال: لإن حَدَثَ به حَدَثٌ لتنظرنَّ ما يحلُّ بالإسلام"[٢٤٢٠].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "وإني لأرى طاعةَ أميرِ المؤمنين في الســـرِّ والعلانيةِ، وفي عُســـري ويُســـري، ومَنشـــطي ومكرهي، وأثرةٍ عليَّ، وإني لأدعو اللهَ له بالتسديدِ والتوفيقِ في الليلِ والنهارِ". [٢٤٢١]

وقال البيهقي رحمه الله: "قال أبو عثمان رحمه الله: فانصح للسلطان، وأكثر له من الدُّعاء بالصـــلاح والرَّشـــاد، بالقول والعمل والحكم، فإنهم إذا صـــلحوا صـــلح العباد بصـلاحهم، وإياك أن تدعو عليهم باللعنة، فيزدادوا شرًّاً، ويزداد البلاء على المسلمين، ولكن ادع لهم بالتوبة، فيتركوا الشرّ، فيرتفع البلاء عن المؤمنين"[٢٤٢٢].

٢٤١٨ عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص٢٩٤.

٢٤١٩ شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٥٤٠.

٢٤٢٠ السنة ١/ ٨٤ ح١٦ (أول كتاب المسند: ما يُبتدأ به من طاعة الإمام، وترك الخروج عليه، وغير ذلك) . وقال المحقق الزهراني: (إسناد هذا الأثر صحيح).

٢٤٢١ البداية والنهاية ١٤/ ٤١٣.

٢٤٢٢ شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٢٦ رقم ٧٤٠١ (فصل في نصيحة الولاة ووعظهم).

وقال أبو عمر بن الصلاح رحمه الله: "والنصيحة لأئمة المسلمين: أي لخلفائهم وقادتهم: معاونتهم على الحقِ وطاعتهم فيه، وتنبيههم وتذكيرهم في رفقٍ ولُطفٍ، ومجانبة الخروج عليهم، والدُّعاء لهم بالتوفيق، وحث الأغيار على ذلك"[٢٤٢٣].

وقال النووي عن حكم الدُّعاء لولاة أمور المسلمين في خطبة الجمعة: "الدُّعاءُ لأئمة المسلمين وولاة أُمورهم بالصلاح والإعانة على الحقِ والقيام بالعدل ونحو ذلك، ولجيوش الإسلام، فمستحبٌ بالاتفاق". [٢٤٢٤]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهم، يُعظِّمون قدرَ نعمة الله به –أي بالسلطان–ويرون الدُّعاءَ له ومناصحته من أعظم ما يتقرَّبون به إلى الله تعالى، مع عدم الطمَع في ماله ورئاسته، ولا لخشية منه، ولا لمعاونته على الإثم والعدوان" [٢٤٢٥].

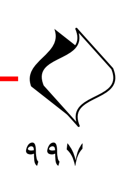
فإذا كنت صاحبَ سنَّة فاحفظ لسانك عن مثلِ هذا الحال، وإذا كان هناك أمر فادعو الله عز وجل أن يصلحَ من شأنه وأن يصلحَ من حاله، فنعمةُ السلطان استتابُ للأمن الذي هو من أعظم النعم التي يمنُّ الله عز وجل بها عليك، ومن أعظمها أن الله عز وجل منَّ عليك أن تأتي وتصلي مع الجماعة فبالتالي حفظُ جانبِ السلطان ليس نفاقاً، وليس كما يدعي أهل الأهواء في كلامهم وإنما هو أمرٌ واجبٌ ديناً؛ أنت تدينُ الله به.

واعلم أن من سمات أهل البدع أنهم يدعون على السلطان، فإذا رأيت الرجل يدعو على السلطان أو يتتبع السلطان فاعلم أنه صاحب هوى وهذا الوصف ليسَ من حالِ أهلِ السنَّة ولو انتسبَ هذا الشخص لأهلِ السنَّة فحاله هذه خلافُ السنَّة، وهذا حالُ الخوارج والمعتزلة الذين من سماتهم التتبعِ والدعاءِ على السلاطين ونحو ذلك.

٢٤٢٣ صيانة صحيح مسلم ص٢٢٤.

٢٤٢٤ المجموع شرح المهذب ٤/ ٣٩١.

٢٤٢٥ السياسة الشرعية ص٢٣٣-٢٣٤.

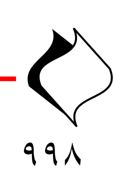


وقال الإمام الآجري رحمه الله: "قد ذكرت من التحذير من مذاهب الخوارج ما فيه بلاغ لمن عصمه الله تعالى، عن مذهب الخوارج، ولم ير رأيهم، وصبر على جور الأئمة، وحيف الأمراء، ولم يخرج عليهم بسيفه، وسأل الله تعالى كشف الظلم عنه، وعن المسلمين، ودعا للولاة بالصلاح، وحج معهم، وجاهد معهم كل عدو للمسلمين وصلى معهم الجمعة والعيدين، فإن أمروه بطاعة فأمكنه أطاعهم، وإن لم يمكنه اعتذر إليهم، وإن أمروه بمعصية لم يطعهم، وإذا دارت الفتن بينهم لزم بيته وكف لسانه ويده، ولم يهو ما هم فيه، ولم يعن على فتنة، فمن كان هذا وصفه كان على الصراط المستقيم إن شاء الله"[٢٤٢٦]..

فالواجبُ عليك إذا رأيت من سلطانك ما يخالف الشرع أن تناصحه نصيحةَ سر، لا تبدأ في تقليب الناس عليه، ولا تذكر في ذلك مساوئه، وإنما يجب ويتعيَّن عليك الدعاء له بالصلاح.

قال الشيخ صالح الفوزان: "**لا يجوز الدُّعاء عليهم** :لأن هذا خروجٌ معنوي، مثل الخروج عليهم بالســـلاح، وكونه دعا عليهم لأنه لا يرى ولايتهم، فالواجب الدعاء لهم بالهدى والصلاح، لا الدعاء عليهم، فهذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة، فإذا رأيتَ أحداً يدعو على ولاة الأمور فاعلم أنه ضـــالٌ في عقيدته، وليس على منهج السلف، وبعض الناس قد يتخذ هذا من باب الغيرة والغضب لله عز وجل، لكنها غيرة وغضب في غير محلهما، لأنهم إذا زالوا حصلت المفاسد. والإمام أحمد صَبَرَ في المحنة، ولم يثبت عنه أنه دعا عليهم أو تكلَّم فيهم، بل صـــبر، وكانت العاقبة له، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، فالذين يدعون على ولاة أمور المسلمين ليسوا على مذهب أهل الســـنة والجماعة، وكذلك الذين لا يدعون لهم، وهذا علامة أن عندهم انحرافاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وبعضهم يُنكر على الذين يدعون في خطبة الجمعة لولاة الأمور، ويقولون: هذه مداهنة، هذا نفاق، هذا تزلف، سبحان الله! هذا مذهب أهل

٢٤٢٦ ((الشريعة)) ص ٣٥.

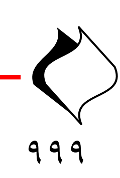


السـنة والجماعة، بل من السـنة الدعاء لولاة الأمور؛ لأنهم إذا صـلحوا صـلح الناس، فأنت تدعو لهم بالصــلاح والهداية والخير، وإن كان عندهم شــرّ، فهم ما داموا على الإسـلام فعندهم خير، فما داموا يُحكِّمون الشـرع، ويُقيمون الحدود، ويصـونون الأمن، ويمنعون العدوان عن المســلمين، ويكفون الكفار عنهم، فهذا خير عظيم، فيُدعى لهم من أجل ذلك، وما عندهم من المعاصي والفسق، فهذا إثمه عليهم، ولكن عندهم خير أعظم، ويُدعى لهم بالاســتقامة والصــلاح، فهذا مذهب أهل الســنة والجماعة، أما مذهب أهل الضلال وأهل الجهل، فيرون هذا من المداهنة والتزلُّف، ولا يدعون لهم، بل يدعون عليهم .**والغيرة ليســت في الدعاء عليهم**، فإن كنت تريد الخير فادعُ لهم بالصــلاح والخير، فالله قادرٌ على هدايتهم وردهم إلى الحق، فأنت هل يئســت من هدايتهم؟ هذا قنوط من رحمة الله، وأيضـاً الدعاء لهم من النصـيحة. فهذا أصـل عظيم يجب التنبه له، وبخاصة في هذه الأزمنة".[٢٤٢٧]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

٢٤٢٧ التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية ص١٧١–١٧٣.



[١٢٨] "ولا تذكر أحداً من أمهات المؤمنين إلا بخير".

الشرح

من أصـول أهل السـنة أنهم يتولون أزواج رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم. ويحفظون لهن فضلهن، وحقوقهن. فقد أبانهن الله من نساء العالمين في الفضيلة فقال تعالى: {يَا نِسَـاءَ النَّبِيِّ لَسْـتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَـاءِ}[٢٤٢٨]. وجعلهن أمهات المؤمنين فقال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}[٢٤٢٩، ٢٤٣٠].

وجعل حرمة الزوجية بعد وفاة النبي صـلى الله عليه وسـلم باقية ما بقين فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُـولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً}[٢٤٣١] فعلينا من حفظ حقوقهن بعد ذهابهن بالصـلاة عليهن مع الصـلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن أبي حميد السـاعدي رضـي الله عنه أنهم قالوا: يا رسـول الله كيف نصـلى عليك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صـليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد"[٢٤٣٢].

فالصـلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن[٢٤٣٣]. وكذلك الاسـتغفار لهن، وذكر مدائحهن، وفضـائلهن وحسـن الثناء عليهن، وما على الأولاد في أمهاتهم اللاتي

٢٤٢٨ الآية (٣٢) من سورة الأحزاب.

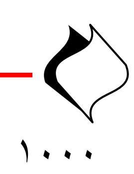
٢٤٢٩ الآية (٦) من سورة الأحزاب.

٢٤٣٠ مجموع الفتاوى (١٥٤/٣) وتفسير القرطبي (١/ ١٢٣، ١٧٧).

٢٤٣١ الآية (٣) من سورة الأحزاب.

٢٤٣٢ أخرجه البخاري في صـحيحه، كتاب الدعوات، باب هل يصـلى على غير النبي صـلى الله عليه وسـلم. فتح الباري (١/ ١٦٩) ح ٦٣٦٠ وأخرجه مسـلم في صـحيحه، كتاب الصـلاة، باب الصـلاة على النبي صـلى الله عليه وسلم بعد التشهد (١٧/٢).

٢٤٣٣ جلاء الأفهام (ص ٢٠٠)



ولدهم وأكثر، وذلك لمكانتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزيادة فضلهن على غيرهن من نساء هذه الأمة[٢٤٣٤].

وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم هن من دخل بهن من النساء وهن إحدى عشرة:

١- خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[٢٤٣٥].

٢- عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها[٢٤٣٦].

٣-سودة بنت زمعة رضي الله عنها[٢٤٣٧].

٤-حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها وعن أبيها[٢٤٣٨].

٢٤٣٤ شعب الإيمان للبيهقي (١/٢٨٢-٢٨٤).

٢٤٣٥ وهي أولهن، وقد تزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فآمنت به ونصرته فكانت له وزير صدق وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح ومن خصائصها رضي الله عنها:

١-أنه لم يتزوج عليها غيرها.

٢-أن أولاده كلهم منها إلا إبراهيم فإنه من سريته مارية.

٣-أنها خير نساء الأمة. جلاء الأفهام (ص ١٨٠).

٢٤٣٦تزوجها وهي بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين وقيل لثلاث وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى، وهي بنت تسع سنين، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة.

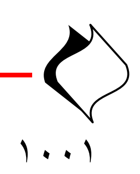
ومن خصائصها رضي الله عنها:

١-أنها كانت أحب أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة" قيل ومن الرجال؟ قال: "أبوها" متفق عليه (خ/٤٣٥٨) (م/٢٣٨٤).

٢-أنه لم يتزوج بكرا غيرها. جلاء الأفهام (ص ١٨٢-١٨٥).

٢٤٣٧ سودة بنت زمعة بن قيس. تزوجها بعد خديجة، وكبرت عنده وأراد أن يطلقها فوهبت يومها لعائشة رضي الله عنها فأمسكها وهذا من خواصها: أنها آثرت حرمها لعائشة تقربًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحبًا له. جلاء الأفهام (ص ١٨٢).

٢٤٣٨ حفصة بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد عائشة، وقيل إنها ولدت قبل المبعث بخمسة سنين، وكانت قبل أن يتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم عند حصن بن حذافة وكان ممن شهد بدرًا ومات بالمدينة. وكانت رضي الله عنها صوامة قرامة.



٥-أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما[٢٤٣٩].

٦-أم سلمة رضي الله عنها[٢٤٤٠].

٧-زينب بنت جحش رضي الله عنها[٢٤٤١].

٨-زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها[٢٤٤٢].

٩-جويرية بنت الحارث رضي الله عند[٢٤٤٣].

١٠-صفية بنت حيي رضي الله عنها[٢٤٤٤].

الإصابة (٣٦٢/٤، ٣٦٠) وجلاء الأفهام (ص ١٨٥).

٢٤٣٩ واسمها رملة بنت صخر بن حرب، هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عنه النجاشي. وهي التي أكرمت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس عليه أبوها لما قدم المدينة، وقالت: إنك مشرك، ومنعته من الجلوس عليه. الإصابة (٢٩٨/٤-٣٠٠).

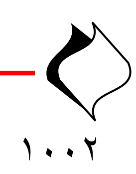
٢٤٤٠ واسمها هند بنت أبي أمية، وكانت قبله عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد، وتوفيت سنة اثنتين وستين ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم موتا، وقيل: بل ميمونة.
الإصابة (٤/ ٤٠٧-٤٠٨) وجلاء الأفهام (ص ١٩٥-١٩٧).

٢٤٤١ زينب بنت جحش: وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطب، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها فزوجها الله إياه من فوق سبع سموات وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتقول: "زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماواته" توفيت بالمدينة ودفنت بالبقيع. الإصابة (٣٠٧/٤-٣٠٨).

٢٤٤٢ زينب بنت خزيمة الهلالية، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت قبله عند عبد الله بن جحش فاستشهد بأحد، وكانت تسمى أم المساكين، لكثرة إطعامها المساكين، ولم تلبث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا يسيرا شهرين أو ثلاثة ثم توفيت رضى الله عنها. الإصابة (٤/ ٣٠٩-٣١٠) وجلاء الأفهام (ص ١٩٨).

٢٤٤٣ جويرية بنت الحارث المصطلقية، وكانت سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوجها سنة ست من الهجرة وتوفيت سنة ست وخمسين، وهي التي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق، وقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من بركتها على قومها. الإصابة (٢٥٧/٤-٢٥٨) وجلاء الأفهام (ص ١٩٨).

٢٤٤٤ صفية بنت حيي من ذرية هارون بن عمران، أخي موسى، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع، فإنها سبيت من خيبر، وكانت قبله تحت كنانة بن أبي الحقيق، فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل سنة خمسين.



١١-ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها[٢٤٤٥].

فهؤلاء جملة من دخل لهن من النساء وهن إحدى عشرة.

أمهاتُ المؤمنين يكفيهنَّ هذا الفخر أنهنَّ أمهاتٌ لنا، ويا عجباً كيف يطعن الإنسان في أمه، فهؤلاء أمهات المؤمنين فالله عز وجل قال: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦] فأعطاهنَّ هذا الشرف وهو أعلمُ سبحانه وتعالى أنهم يستحقون لهذا الشرف.

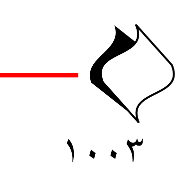
فكيفَ يأتي مَن يطعن في شرفِ أمهات المؤمنين؟! فالطعنُ في شرفهنَّ طعنٌ في شرفِ النبي ﷺ لأنهن أزواج النبي ﷺ، بل طعن في الأمةِ كلها فيجب أن نحفظَ حق النبي ﷺ في أمهاتِ المؤمنين.

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

من خصائصها أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "إنك لابنة نبي وإن عمك لبي وإنك تحت نبي". الإصابة (٤/٣٣٧-٣٣٨) وجلاء الأفهام (ص ١٩٨-١٩٩).

٢٤٤٥ ميمونة بنت الحارث الهلالية تزوجها بسرف، وبنى بها بسرف، وماتت بسرف، وهي على سبعة أميال من مكة، وهي آخر من تزوج من أمهات المؤمنين، وتوفيت سنة ثلاث وستين، وهي خالة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهي خالة خالد بن الوليد أيضا. الإصابة (٤/٣٩٧-٣٩٩) وجلاء الأفهام (ص ١٩٩).



[١٢٩] "وإذا رأيت الرجلَ يتعاهدُ الفرائض مع السلطانِ وغيره فاعلم أنه صاحبَ سنَّةٍ إن شاء الله تعالى.

وإذا رأيت الرجلَ يتهاونُ في الفرائض في جماعةٍ وإن كان مع السلطان فاعلم أنه صاحبُ هوى."

الشرح

قول المصنف: **"وإذا رأيت الرجلَ يتعاهدُ الفرائض مع السلطانِ وغيره فاعلم أنه صاحبَ سنَّةٍ إن شاء الله تعالى".**

تقدم الكلام عن حكم صلاة الجماعة في الفقرة (١١٨) فليرجع إليها هناك، ومن من علامات صاحب السنة المحافظة على صلاة الجماعة مع السلطان أو مع غيره ممن ينيبه السلطان، حتى وإن كان السلطان برًا أم فاجراً، وهم بهذا يطبقون ما جاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وأن أخطأوا فلكم وعليهم"[٢٤٤٦].

وهذا كان هدي الصحابة فقد روى ابن أبي شيبة في "المصنف" عن عُمَيْرِ بن هَانِئٍ قال: شَهدت ابن عمر والحجاج مُحَاصِرٌ ابن الزبير، فكان منزل ابن عمر بينهما، فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء، وربما حضر الصلاة مع هؤلاء»[٢٤٤٧].

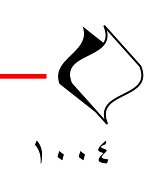
وقد تقدم الحديث في هذا المسألة بتفصيل أكثر في الفقرة (٢٧) فليرجع إليها.

وقول المصنف: **"وإذا رأيت الرجلَ يتهاونُ في الفرائض في جماعةٍ وإن كان مع السلطان فاعلم أنه صاحبُ هوى."**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين، ولا يعاديهم، وإن رأى

٢٤٤٦ صحيح البخاري مع فتح الباري ٢/ ٣٢٩.

٢٤٤٧ «المصنف» (٢/ ١٥٢) قال ابن حجر: «إسناده صحيح». «المطالب العالية» (٣/ ٧٠٢).



بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وإذا كان قادراً على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من أظهر البدع والفجور منعه.

وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه والأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الصحيح: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا سواء فأقدمهم هجره، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً."[٢٤٤٨]

.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٣٠] "والحلال ما شهدت عليه وحلفت عليه أنه حلال، وكذلك الحرام، وما حاك في صدرك فهو شبهة".

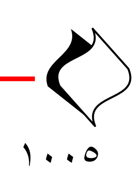
شرح

وذلك لما جاء في الحديث من قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب))[٢٤٤٩]

قال النووي رحمه الله: "الأشياء ثلاثة أقسام:

٢٤٤٨ أخرجه مسلم في صحيحه ١٠٧٩.

٢٤٤٩ صحيح البخاري (٥٢، ٢٠٥١) وصحيح مسلم: (١٥٩٩).



حلال بيِّن واضح لا يخفى حله، كالخبز والفواكه والزيت والعسل.

وحرام بيِّن، كالخمر والخنزير والميتة والبول والدم المسفوح.

والمشتبهات غير الواضحة الحل والحرمة؛ فلهذا قال: ((لا يعلمهن))؛ أي: لا يعلم حكمها ((كثيرٌ من الناس))، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك"[٢٤٥٠]

فما نص الله على تحليله فهو الحلال كقوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ}. وقوله: {وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ}. ونحو ذلك. وما نص الله على تحريمه فهو الحرام البيّن، مثل قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ}، {وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً}. وكتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكل ما جعل الله فيه حدا أو عقوبة أو وعيدا فهو حرام.

وأما الشبهات فهي كل ما تتنازعه الأدلة من الكتاب والسنة وتتجاذبه المعاني فالإمساك عنه ورع.

وقد اختلف العلماء في المشتبهات التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث:

فقالت طائفة: هي حرام لقوله: "استبرأ لدينه وعرضه" قالوا: ومن لم يستبرئ لدينه وعرضه فقد وقع في الحرام.

وقال الآخرون: هي حلال، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث «كالراعي يرعى حول الحمى» فيدل على أن ذلك حلال وأن تركه ورع.

وقالت طائفة أخرى: المشتبهات المذكور في هذا الحديث لا نقول إنها حلال ولا إنها حرام فإنه صلى الله عليه وسلم جعلها بين الحلال البين والحرام البين فينبغي أن نتوقف عنها وهذا من باب الورع أيضاً.

٢٤٥٠ شرح مسلم للنووي (١١/ ٢٣ ح ١٥٩٩).



وقال بعض العلماء: المشتبهات ثلاثة أقسام:

القسم الأول: منها ما يعلم الإنسان أنه حرام ثم يشك فيه هل زال تحريمه أم لا، كالذي يحرم على المرء أكله قبل الذكاة إذا شك في ذكاته لم يزل التحريم إلا بيقين الذكاة والأصل في ذلك حديث عدى بن حاتم أنه قال: يا رسول الله إني أرسل كلبي وأسمي عليه فأجد معه على الصيد كلبا آخر قال: «لا تأكل إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره»[٢٤٥١] فأفتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشبهة أيضاً خوفاً من أن يكون الكلب الذي قتله غير مسمى عليه فكأنه أهل لغير الله به.

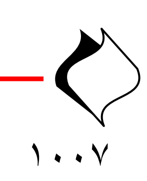
القسم الثاني: وعكس ذلك أن يكون الشيء حلالاً فيشك في تحريمه كرجل له زوجة فشك في طلاقها أو أمة فيشك في عتقها. فما كان من هذا القسم فهو على الإباحة حتى يعلم تحريمه والأصل في هذا الحديث عبد الله بن زيد فيمن شك في الحدث بعد أن تيقن الطهارة.

القسم الثالث: أن يشك في شيء فلا يدري أحلال أم حرام ويحتمل الأمرين جميعاً ولا دلالة على أحدهما فالأحسن التنزه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في التمرة الساقطة حين وجدها في بيته فقال: "واللَّهِ إنِّي لأَنْقَلِبُ إلى أهْلِي فأجِدُ التَّمْرَةَ ساقِطَةً علَى فِراشِي، أوْ في بَيْتِي، فأرْفَعُها لِآكُلَها، ثُمَّ أخْشَى أنْ تَكُونَ صَدَقَةً، أوْ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَأُلْقِيها[٢٤٥٢]".

وأما إن جوز نقيض ما ترجح عنده بأمر موهوم لا أصل له كترك استعمال ماء باق على أوصافه مخافة تقدير نجاسة وقعت فيه أو كترك الصلاة في موضع لا أثر فيه مخافة أن يكون فيه بول قد جف أو كغسل ثوب مخافة إصابة نجاسة لم يشاهدها ونحو ذلك فهذا يجب أن لا يلتفت إليه فإن التوقف لأجل التجويز هوس والورع منه وسوسة شيطان إذ ليس فيه من معنى الشبهة شيء والله أعلم.

٢٤٥١ صحيح البخاري: (٢٠٥٤).

٢٤٥٢ صحيح مسلم:١٠٧٠.



وقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا يعلمهن كثير من الناس)) أي لا يعلم حكمهن من التحليل والتحريم وإلا فالذي يعلم الشبهة يعلمها من حيث إنها مشكلة لترددها بين أمور محتملة، فإذا علم بأي أصل يلتحق زال كونها شبهة وكانت إما من الحلال أو من الحرام وفيه دليل على أن الشبهة لها حكم خاص بها يدل عليه دليل شرعي يمكن أن يصل إليه بعض الناس[٢٤٥٣].

ومسألة الحلال والحرام تتبين بأمور:

أولها: النصوص، فالحلال ما أحلّه الله والحرام ما حرمه الله، وقد جاءت النصوص في بيان أن الأصل في الأمور الحل، وأن الحرام ما نُص عليه أو دخل في قاعدة من القواعد التي يتبين بها الحرام من خلال النصوص الشرعية أو الإجماع، هذا أمر.

الأمر الآخر: أن هناك درجة أخرى للتمييز بين الحلال والحرام بعد النصوص الشرعية، وهو الفطرة والعقل السليم، فإن الفطرة والعقل السليم رُكّبت على أنها توافق الشرع في الإقرار بما أحله الله عز وجل والنفور مما حرمه الله.

وقول المصنف: **"وما حاك في صدرك فهو شبهة"**.

جاء في الحديث: ((البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ))[٢٤٥٤].

فقوله: ((والإِثْمُ مَاحَاكَ فِي صَدْرِكَ)) يعني ما تردد في صدرك، كما جاء ((وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)) فكل شيء لا تحب أن يراه منك الناس، فاعلم أنه من الإثم، إذا تردد الإنسان في فعل شيء أو عدمه، يستحي منه أمام الناس، أو يخاف فليعلم أنه هو الإثم.

وهذا فيه دلالة على أن الفطر السوية ملهمة بتوفيق الله تبارك وتعالى لإدراك الخير والشر، إدراك الخير والشر، الفطر السوية تعرف الحق من الباطل، وتعرف الخير من

٢٤٥٣ انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد، الحلال بين والحرام بين.

٢٤٥٤ صحيح مسلم:٢٥٥٣.

الشر، وتعرف الطاعة والبر من الإثم والحرام، فالفطر إذا حرفت انحرفت، أما إذا تركت فالأصل فيها: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ففيه إثبات أن الفطر السوية تهتدي بفضل الله تبارك وتعالى بسبب استقامتها، وعدم انحرافها، إلى معرفة الإثم من ضده فقط إنما إذا لم يتعرض لها فتحرف عن هذه الاستقامة،((إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه.

فالمصنف هنا يشير إلى المعنى الفطري في المسلمين الذين هم على الاستقامة، وهم عامة المسلمين الذين لم تدخلهم الشبهات ولا الشهوات، أما إذا دخلت على الإنسان الشبهات والشهوات فإنه قد يحلف على الحلال بأنه حرام والعكس كذلك، لأنه مسخت فطرته، وفسد عقله، وتبع هواه.

إذاً: فكلام الشيخ هنا ينطبق على المسلم الذي هو على الفطرة في الأصل ولم ينجرف بالشهوات ولم ينحرف بالشبهات، فهذا يجد أن الحلال بيّن ويحلف عليه أنه حلال بمقتضى أنه يفقه دين الله عز وجل، وكذلك الحرام.

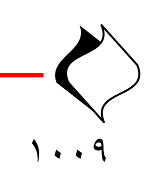
أما الشيء الذي لا تدري أهو حلال أم حرام؛ وعندك فيه إشكال، فاتركه فهذا شبهة، ومن فعل المشتبه أوصله إلى الحرام، ومن ترك المشتبه صار حاجزاً بينه وبين الحرام.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٣١] "والمستور من بان ستره، والمهتوك من بان هتكه".

شرح



تقدم الحديث عن الستر في الفقرة (١٢١) عند قول المصنف: **"والمستورُ من المسلمين مَن لم تظهر له ريبة"**

فقول المصنف: **"والمستور من بان ستره"** المراد به هو الذي لم يظهر منه بدعة ولا فجور ولا فسق فيقال له: مستور.

وقول المصنف: **"والمهتوك من بان هتكه"** أي المفضوح الذي فضح نفسه.

وجاء في الحديث ((كُلُّ أُمَّتِي مُعافًى إلَّا المجاهِرِينَ، وإنَّ مِنَ المجاهَرَةِ أنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ باللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وقدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عليه، فَيَقُولَ: يا فُلانُ، عَمِلْتُ البارِحَةَ كَذا وكَذا، وقدْ باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عنْه))٢٤٥٥.

قال الإمام النووي رحمه الله: "من جاهر بفسقه أو بدعته جاز ذكره بما جاهر به" ٢٤٥٦.

وقال ابن حجر: "المجاهر الذي أظهر معصيته وكشف ما ستر الله عليه فيحدث بها"٢٤٥٧

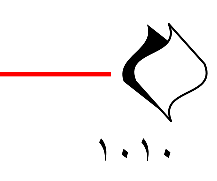
قوله ﷺ: ((كل أمتي معافى))، حمله بعض أهل العلم على أن المعافاة هنا من ذم الناس وعيبهم وإساءتهم إليه ووقيعتهم في عرضه، فإذا جاهر فإنه تناله ألسنتهم ولربما حصل له شيء من التعدي من جهتهم بأنواعه المختلفة، هكذا فسره بعض أهل العلم. والحديث يحتمل أن يكون المراد معافى من العقوبة

قال النووي رحمه الله: "فيكره لمن ابتلي بمعصية أن يخبر غيره بها بل يقلع ويندم ويعزم أن لا يعود فإن أخبر بها شيخه أو نحوه ممن يرجو بإخباره أن يعلمه مخرجا منها

٢٤٥٥ صحيح البخاري: (٦٠٦٩)

٢٤٥٦ فتح الباري: (١١/ ٤١٢).

٢٤٥٧ فتح الباري: (١١/ ٤١٢).



أو ما يسلم به من الوقوع في مثلها أو يعرفه السبب الذي أوقعه فيها أو يدعو له أو نحو ذلك فهو حسن وإنما يكره لانتفاء المصلحة"[٢٤٥٨].

وقال الغزالي الكشف المذموم إذا وقع على وجه المجاهرة والاستهزاء لا على السؤال والاستفتاء بدليل خبر من واقع امرأته في رمضان فجاء فأخبر المصطفى فلم ينكر عليه". [٢٤٥٩]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٣٢] "وإن سمعت الرجل يقول: [فلان] مشبه، وفلان يتكلم في التشبيه، فاتهمه، واعلم أنه جهمي.

وإذا سمعت الرجل يقول: فلان ناصبي، فاعلم أنه رافضي.

وإذا سمعت الرجل يقول: تكلم بالتوحيد، واشرح لي التوحيد، فاعلم أنه خارجي معتزلي.

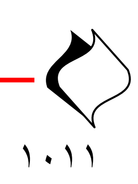
أو يقول: فلان [مجبر]، أو يتكلم بالإجبار، أو يتكلم بالعدل، فاعلم أنه قدري؛ لأن هذه الأسماء محدثة أحدثها أهل الأهواء.

قال عبد الله بن المبارك: لا تأخذوا عن أهل الكوفة في الرفض [شيئًا]، ولا عن أهل الشام في السيف [شيئًا] ولا عن أهل البصرة في القدر [شيئًا]، ولا عن أهل خراسان في الإرجاء [شيئًا]، ولا عن أهل مكة في الصرف، ولا عن أهل المدينة في الغناء، لا تأخذوا عنهم في هذه الأشياء شيئًا".

الشرح

٢٤٥٨ "فيض القدير" (٥ /١١-١٢).

٢٤٥٩ "فيض القدير" (٥ /١١-١٢).



يبيّن المصنف أسباب هذه الألقاب التي يطلقها المبتدعة على أهل السنة؛ فانظر كيف يركّبون باطلهم بسبب أنهم يعتقدون أن في السنة نقصاً.

وقد أعطى المصــنف أمثلة من معتقدات كل من الجهمية، والرافضــة، والمعتزلة، والقدرية، وكيف أنهم جاؤا بلوازم فاسدة نابعة من معتقداتهم.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية: "فلا بد للمنحرفين عن سـنته أن يعتقدوا فيها نقصًا يذمونهم به، ويسمونهم بأسماء مكذوبة–وإن اعتقدوا صدقها–" ٢٤٦٠

ومقصود المؤلف أن بعض من ألف في مجال كتب الفرق والمقالات وبناء على معتقده المخالف تراه يكيل لأهل السنة الألقاب الشنيعة المنفرة، فتجده قد جمع بين الجهل بمعتقد أهل السنة والظلم لهم، فإن من سمات أهل الباطل أنهم جمعوا بين الجهل والظلم قال ابن تيمية: "وَهَذَا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي اشْتَرَكُوا فِيهِ أَصْلٌ فَاسِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى جَهْلٍ وَظُلْمٍ، وَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي ظُلْمِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَصَارُوا بِمَنْزِلَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي ظُلْمِ النَّاسِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُسْلِمَ الْعَالِمَ الْعَادِلَ أَعْدَلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ. وَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الرَّافِضَةِ وَمَنْ لَمْ يُكَفِّرْ فُسِّقَ. وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَبْتَدِعُونَ رَأْيًا، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ،"[٢٤٦١]

وقد عرف أن من سمات أهل الباطل تكفيرهم لخصومهم قال ابن تيمية: "وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَحَدٌ إلَّا وَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَقَالَةٌ يُكَفِّرُ قَائِلُهَا عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَصْحَابَهُ وَفِي التَّعْمِيمِ مَا يُغْنِي عَنْ التَّعْيِينِ فَأَيُّ فَرِيقٍ أَحَقُّ بِالْحَشْوِ وَالضَّلَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُودَ الرِّدَّةِ فِيهِمْ كَمَا يُوجَدُ النِّفَاقُ فِيهِمْ كَثِيرًا. وَهَذَا إذَا كَانَ فِي الْمَقَالَاتِ الْخَفِيَّةِ فَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ فِيهَا مُخْطِئٌ ضَالٌّ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ

٢٤٦٠ مجموع الفتاوى ٣/ ٥٩.

٢٤٦١ منهاج السنة النبوية٥/ ١٥٧.

الَّتِي يَكْفُرُ صَاحِبُهَا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ فِي طَوَائِفَ مِنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ؛"٢٤٦٢

فقول المصنف: **"وإن سمعت الرجل يقول: [فلان] مشبه، وفلان يتكلم في التشبيه، فاتهمه، واعلم أنه جهمي".**

من أعظم الافتراءات التي أشاعها المعطلة النفاة لأسماء الله وصفاته، وصفهم أهل السنة والجماعة-كذباً وزوراً-بأنهم مشبِّهة مجسِّمة، وما ذلك إلا لتمسكهم بما جاءهم عن الله ﷻ في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهي فرية قديمة تلقفها المعطلة النفاة خلفاً عن سلفٍ، يدل على ذلك تقدم كلام السلف في دحض هذه الشبهة ودفع هذه الفرية، من ذلك قول الإمام ابن خزيمة-رحمه الله-: ((فاسمعوا يا ذوي الحجا ما نقول في هذا الباب، ونذكر بهت الجهمية، وزورهم وكذبهم، على علماء أهل الآثار، ورميهم خيار الخلق-بعد الأنبياء-بما الله قد نزههم عنه، وبرأهم منه، بتزور الجهمية على علمائنا أنهم مشبِّهة)) (٢٤٦٣).

وسبب هذه الفرية على أهل السنة ما قاله شيخ الإسلام: ((فالمعتزلة والجهمية ونحوهم من نفاة الصفات، يجعلون كل من أثبتها مجسِّماً مشبِّهاً)) (٢٤٦٤).

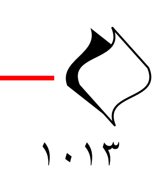
وقد تواترت النصوص من القرآن والسنة والآثار عن السلف الصالح في إثبات الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، فأصل النصوص التي وردت في ذلك قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (٢٤٦٥).

٢٤٦٢ مجموع الفتاوى ٤/ ٥٣.

(٢٤٦٣) التوحيد لابن خزيمة (١/١١٤)، وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/١٧٩، ٥٣٣)، المختار في أصول السنة (ص ٨٢).

(٢٤٦٤) منهاج السنة (٢/١٠٥).

(٢٤٦٥) الآية [١١] من سورة الشورى.



فالجهمية ينكرون الأسماء والصفات، ويقولون: ليس لله علم ولا سمع ولا بصر، ويقولون: إن من أثبت العلم والسمع والبصر لله فهو مشبه.

ويقولون: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساويًا، وكل ذلك من المحال، ونحو ذلك من الكلام. فهذا المعطل لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم الذي جاء به المعطل تابع لهذا المفهوم.

فإذا رأيت الرجل يقول لمن أثبت الصفات مشبه، فاعلم أنه جهمي أو معتزلي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكقول الجهمي: مَن قال: إن الله فوق العرش، فقد زعم أنه محصور، وأنه جسم مركب محدود، وأنه مشابه لخلقه، وكقول الجهمية المعتزلة: مَن قال: إن لله علمًا وقدرة، فقد زعم أنه جسم مركب، وهو مشبه؛ لأن هذه الصفات أعراض، والعَرَض لا يقوم إلا بجوهر مُتحيز، وكل متحيز جسم مركب، أو جوهر فرد، ومن قال ذلك فهو مُشبه؛ لأن الأجسام متماثلة، ومن حكى عن الناس المقالات، وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة بناء على عقيدته التي هم مخالفون له فيها، فهو وربه، والله من ورائه بالمرصاد، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ".[٢٤٦٦]

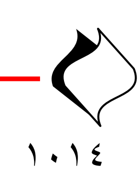
وكان الواجب عليهم أن يثبتوا لله استواء يليق بجلاله ويختص به، فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي هي من لوازم المخلوقات، ويجب نفيها في حق الله.

فأهل التعطيل وقعوا في أربعة محاذير:

الأول: كونهم مثلوا ما فهموه من النصوص بصفات المخلوقين، وظنوا أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني: أنهم عطلوا النصوص عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله.

٢٤٦٦ الأسماء والصفات لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٨٧.



الثالث: أنهم بنفي تلك الصفات صاروا معطلين لما يستحقه الرب من صفات الكمال.

الرابع: أنهم وصفوا الرب بنقيض تلك الصفات، من صفات الأموات والجمادات والمعدومات٢٤٦٧.

والجهمية من المعتزلة ومن وافقهم بنوا دليلهم في نفي الصفات على أن القديم لا يكون محلاً للصفات والحركات، فلا يكون جسماً ولا متحيزاً؛ لأن الصفات أعراض وهم يستدلون على حدوث الجسم بحدوث الأعراض والحركات، وأن الجسم لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

فهم بهذا القول نفوا صفات البارئ، وجعلوا نفيها يتوقف عليه ثبوت الصانع، وحدوث العالم، فإذا جاء في القرآن والسنة ما يدل على إثبات الصفات لم يكن القول بموجبه.

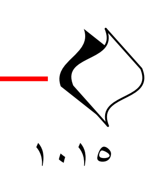
والمتدبر لحججهم يرى فيها الأمور التالية:

أولاً: أنهم يستدلون لأقوالهم بعبارات مبتدعة، وفيها الكثير من الاشتباه والإجمال، وذلك كلفظ العرض، والجسم، والحيز، والمركب، وغير ذلك، فهم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ليخدعوا به جهال الناس بما يشبهون عليه، وهذه الألفاظ المجملة تتضمن معاني باطلة، ومعاني أخرى صحيحة، فهم بهذا ينفون كلا المعنيين الحق والباطل.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما في هذه الألفاظ من معانٍ، وما تدل عليه من عبارات(٢٤٦٨)، وكيف استعملها هؤلاء المعطلة في نفي صفات البارئ عز وجل، حيث ادعوا أن هذه الأمور من مستلزمات الجسمية، والله منزه عن ذلك، وقد بين شيخ الإسلام أن استعمال هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً لم يرد عن السلف، ولا جاء

٢٤٦٧ الرسالة التدمرية ٧٩-٨٠

(٢٤٦٨) انظر: شرح ابن تيمية لهذه العبارات في نقض تأسيس الجهمية ١/ ٥٠٤، ٥١١، وفي مجموع الفتاوى ٥/ ٤١٨-٤٣٠.



به أثر صحيح، ولم يستعملها الأقدمون بالمعنى الاصطلاحي الذي اتفق عليه هؤلاء، بل جميعهم معترفون بأن العلو صفة كمال، كما أن السفل صفة نقص، وما ثبت لله من العلو فهو العلو المناسب لكمال ذاته، المنزهة عن اعتبارات المحدثين ومماثلتهم.

ومعلوم أن القول بأن العلو يستلزم هذه المعاني المبهمة إنما هو مأخوذ من قياس الغائب على الشاهد، ومحاولة تطبيق الاعتبارات الإنسانية على الصفات الإلهية وهذا قياس خاطئ إذ ليس معنى كونه في السماء أن السماء تحويه، وتحيط به، وتحصره، أو هي محمل وظرف له، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو فوق كل شيء، وعلا كل شيء(٢٤٦٩).

ثانياً: إن من استدل به المعتزلة لا أصل له من الكتاب أو السنة بل هو مأخوذ من كلام الفلاسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعاً ليس بعالم ولا قادر ولا حي(٢٤٧٠).

كما أن مذهب المعتزلة في الذات قريب من مذهب اليونان القائلين بأن ذات الله واحدة، لا كثرة فيها بوجه من الوجوه (٢٤٧١).

ثالثاً: أن أصل هذه القاعدة التي اعتمد عليها المعتزلة في نفي الصفات إنما هي مأخوذة من قولهم في دليل حدوث العالم (٢٤٧٢)، الذي أثبتوا فيه حدوث العالم بحدوث الأجسام وهذا دليل قد بين الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر: أنه دليل محرم في شرائع الأنبياء، ولم يستدل به أحد من الرسل ولا أتباعهم(٢٤٧٣)، فهي بهذا طريق يحرم سلوكها لما فيها من لخطر والتأويل، وما يلزم عليها من لوازم باطلة؛ لأنها مستلزمة لنفي الصانع بالكلية، وهي مستلزمة لنفي صفاته، ونفي أفعاله، ونفي المبدأ والمعاد، فهذه الطريق

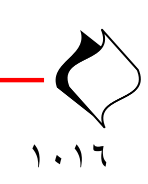
(٢٤٦٩) انظر: كتاب: موقف ابن تيمية من قضية التأويل ص ٣٨١-٣٨٥.

(٢٤٧٠) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٧٧، وموقف المعتزلة من السنة النبوية ص ٥٣.

(٢٤٧١) موقف المعتزلة من السنة النبوية ص ٥٣.

(٢٤٧٢) انظر الكلام على دليل حدوث العالم في: مجموع الفتاوى ١٣/ ١٥٣.

(٢٤٧٣) انظر كتاب: رسالة أهل الثغر ص ١٦٤-١٧٢ تحقيق عبدالله شاكر الجنيدي، رسالة ماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.



لا تتم إلا بنفي سمع الرب، وبصره، وقدرته، وحياته، وإرادته، وكلامه، فضلاً عن نفي علوه على خلقه، ونفي الصفات الخبرية من أولها إلى آخرها، فلو صحت هذه الطريقة لنفت الصانع، وأفعاله، وصفاته، وكلامه، وخلقه للعالم، وتدبيره له، وما يثبته أصحاب هذه الطريقة من ذلك لا حقيقة له، بل هو لفظ لا معنى له، وبهذه الطريقة قالت الجهمية بفناء الجنة والنار، وأن الله بذاته في كل مكان، وقال إخوانهم: إنه ليس داخل العالم، ولا خارج العالم، وقالوا بخلق القرآن، إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة(٢٤٧٤).

فكل هذا تجده لوازم في عقولهم، فيفهمون من إثبات السلف للاستواء على العرش: أن العرش يحوي الله سبحانه وتعالى، أو يحيط به جل وعلا.

وإنما نُفَسِّر الاستواء بمعنى العلو والارتفاع، والكيف لا نَعلمه، وإنما يعلمه الله سبحانه وتعالى.

فيأتي هؤلاء بلوازم فاسدة ليركبوا عليها هذا الاستنتاج الفاسد.

وقول المصنف: **"وإذا سمعت الرجل يقول: فلان ناصبي، فاعلم أنه رافضي".**

فالرافضة عندهم أن حب أبي بكر عندهم لا يستقيم مع ولاية عليّ رضي الله عنهما، فلابد لكي يوالي أحدهم عليًّا أن يبغض أبا بكر، مع أن السلف لم يبغضوا عليًّا رضي الله عنه، ولم يُناصبوه العداء، لكن هذه مقاييسهم الفاسدة.

فهذه الملازمة الباطلة الفاسدة لا توجد إلا في معتقد الرافضة وأذهانهم، فمحاولة حصر قضية الولاء والبراء بين الصحابة بأحد هذين خيارين إنما هي لازم قولهم في الصحابة، وأما أهل السنة فإنهم يوالون جميع الصحابة ويحبونهم ولا يفرقون بينهم ويعرفون لهم فضلهم، ويؤمنون بأن أصحابَ النبي ﷺ كما وصفهم ابن مسعود حينما قال: "من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ " (٢٤٧٥)،

(٢٤٧٤) مختصر الصواعق ١/ ٢٥٦، ٢٥٧، ودرء تعارض العقل والنقل ١/ ٤٠-٣٨.

(٢٤٧٥) رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/٩٤٧ــــ رقم ١٨١٠)، وفي إسناده

أولئك أصحابُ محمد أبَرُّ هذه الأمةِ قلوباً وأعمُقها علماً، وأقلها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه وإقامةِ دينه فاعرفوا لهم حقهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، وكما أُثِر عنه ﷺ حيث قال: "إنا نقتدي ولا نبتدئ، ونتبعُ ولا نبتدع".

فأصحابُ النبي ﷺ خيرُ هذه الأمة، والله تعالى قد زكَّاهم في كتابه وأمرَ بلزومِ سبيلهم حيث قال ﷻ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، فرضيَ الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار رضاءً مطلقا بدونِ قيد، ورضيَ عنهم بعدهم رضاءً مقيَّداً.. مقيَّداً بأي أمر؟ باتباعهم بإحسان ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

ونهى الله سبحانه وتعالى عن الافتراقِ عنهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

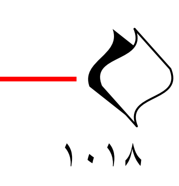
فأهل السنة وسط في بابِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَ الرَّافضةِ والخَوارجِ.

فالرَّافضة: هم الذين غلوا في عليٍّ رضي الله عنه وأهل البيت، ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثَّلاثة، وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وفضلاء المهاجرين والأنصار، وكفَّروهم ومَن تولاهم، وكفَّروا مَن قاتل عليًّا، حتى وصل بهم الأمر إلى أن كفروا جُلَّ الصحابة إلا نفر يسير جدًّا.

وأما الخوارج فقابلوا الرَّوافض؛ فكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة بعد التحكيم، وقاتلوهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم.

والنواصب: هم الذين نصبوا العداوة لعليٍّ ومَن والاه، وهم الذين استحلوا قتله بعد أن كفروه، وقتله أحد رءوسهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

ضعف، إلا أنه أثر مشهور متداول في مصنفات أهل السنة، ومعناه صحيح مستقر عندهم.



أما أهل السنة والجماعة فهداهم الله تعالى للحق والصواب، فلم يغلوا في علي وأهل البيت، ولم ينصبوا العداوة للصحابة رضي الله عنهم ولم يكفّروهم، ولم يفعلوا كما فعل النواصب من عداوة أهل البيت. بل يعترفون بحق الجميع وفضلهم، ويوالونهم، ويكفون عن الخوض فيما جرى بينهم، ويترحّمون على جميع الصحابة، فكانوا وسطًا بين غلو الرافضة وجفاء الخوارج (٢٤٧٦).

ومحبتهم لأهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ محبةٌ شرعيَّة دونَ إفراطٍ أو تَفْريطٍ؛ فهم يَعْرِفُونَ لهم حَقَّهم، ويَحفظونَ وَصِيَّةَ رسولِ اللهِ فيهم، ولا يُغالونَ في مَحَبَّتِهِم؛ ولا يَرفعونهم فوق منزلتهم البشرية غلوًّا فيهم، وكذلك لا ينتقصونهم قدرهم جفاء لهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن معتقد أهل السنة: "ويتبرؤون مِن طريقة الرَّوَافِضِ الذين يُبْغِضُونَ الصَّحابة، ويَسُبُّونَهُم، ومن طريقة النَّواصب الذين يؤذون أهلَ البيت بقولٍ أو عملٍ" ٢٤٧٧.

فأهل السنة والجماعة يتميزون بالوسطية والاعتدال بين الفرق الأخرى التي تقف على طرفي نقيض؛ والحق بين هذا وذاك، وتلكم هي الوسطية والطريقة السوية.

وقول المصنف: **"وإذا سمعت الرجل يقول: تكلم بالتوحيد، واشرح لي التوحيد، فاعلم أنه خارجي معتزلي".**

للمعتزلة شرط في الانتساب إليهم وهو: أن الذي يكون على الاعتزال عليه أن يقول بالأصول الخمسة، وهي:

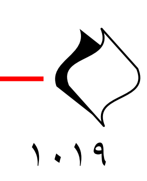
١-العدل.

٢-والتوحيد.

٣-والمنزلة بين المنزلتين.

(٢٤٧٦) انظر «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» لعبد العزيز السلمان (٥٠٥-٥٠٨)، المملكة العربية السعودية، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠٢هـ.

٢٤٧٧ مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ١/ ٤٠٨.



٤-والوعد والوعيد.

٥-والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالتوحيد عندهم: نفي الصفات.

والعدل: هو القول بالقدر.

والوعد والوعيد: هو قولهم في مسائل الإيمان.

والمنزلة بين المنزلتين: هذه في مسألة مرتكب الكبيرة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا هو الأصل الخامس عند هؤلاء.

فلابد لمن يكون معتزلياً أن يكون على هذا.

منهج السلف في التوحيد يقوم على أمرين؛ هما:

١-العلم بالله.

٢-والعمل لله.

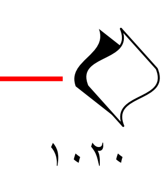
فجمعوا بذلك بين التصديق العِلمي والعَمل الحُبّي، وبذلك تميز منهج أهل السنة والجماعة (السلف) عن المناهج الأخرى.

حيث حققوا كِلا الأمرين؛ من القول التصديقي المعتمد على معرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله الواردة في الكتاب والسنة. والعمل الإرادي، وذلك باتباع الأوامر واجتناب النواهي وفق ما شرعه الله في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولذلك كان كلامهم وعملهم باطنًا وظاهرًا بعلم، وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونًا بالآخر، وهؤلاء هم المسلمون حقًّا؛ الذين سَلِموا من آفات منحرفة المتكلمة والمتصوفة.

فوقعت كل طائفة من هاتين الطائفتين المنحرفتين في مفسدتين:

إحداهما: القول بلا علم إن كان متكلمًا، والعمل بلا علم إن كان متصوفًا.



والمفسدة الثانية: فوت المتكلم العمل، وفوت المتصوف القول والكلام (٢٤٧٨).

وهو ما وقع من البدع الكلامية والعملية المخالفة للكتاب والسنة.

فالكلاميون: غالب نظرهم وقولهم في الثبوت والانتفاء، والوجود والعدم، والقضايا التصديقية؛ فغايتهم مجرد التصديق والعلم والخبر؛ فاعتنوا بجانب علمي لم يَنْبَنِ على الكتاب والسنة؛ لذلك عَطَّلوا أسماء الله تعالى، وعَطَّلوا صفاتِه عز وجل.

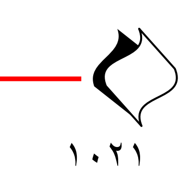
وعندما عَرَّفوا التوحيد؛ قالوا: «واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله». وأهملوا جانب توحيد العبادة: «واحد في ذاته» قالوا: «لا شريكَ له». و«واحد في صفاته»: «لا نظير له». و«واحد في أفعاله»: «لا نِدَّ له». فهذا تقسيمهم للتوحيد(٢٤٧٩)، ويُلاحظ أنه قد خلا في هذه الثلاثة من الجانب العملي، فلا يوجد عمل، ثم إذا تحدثوا عن ذات الله تعالى تحدثوا بالتعطيل؛ فقالوا بما قالوا: "ليس في جهة، ولا في عُلو، ولا في مكان، ولا في حيز" ولا إلى غير ذلك؛ فجعلوه والعدم سواء، وإذا تحدثوا عن صفات الله تعالى تحدثوا عن سبع صفات فقط، وإذا تحدثوا عن أفعال الله تعالى هذا هو الذي سَلِم لهم: «توحيد الربوبية»؛ فلم يَسلم لهم إلا توحيد الربوبية، ونحن نعلم أن كفار قريش كانوا مُقِرّين بتوحيد الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ه﴾ [لقمان:٢٥]؛ فهذا حاصل توحيد هؤلاء.

وأمَّا الصُّوفيون: فغالب طلبهم وعملهم في المحبة والبغضة، والإرادة والكراهة، والحركات العملية؛ فاعتنوا بجانب العمل، وأهملوا جانب العلم، وكذلك عملهم لم ينبنِ على السنة، وإنَّما انبنى على البدعة؛ إذ غايتهم المحبة والانقياد والعمل والإرادة.

وهكذا إذا جئنا إلى أهل التصوف لم نجد عندهم من حقيقة التوحيد شيء.

(٢٤٧٨) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤١) بتصرف.

(٢٤٧٩) انظر: «المِلل والنِّحَل» للشهرستاني (١/ ٤٢)، مؤسسة الحلبي.



أمَّا توحيدُ أهل السُّنَّة فيقوم على هذين الأصلين العظيمين: أن تَعرف اللهَ، وذاك بمعرفة أسمائه وصفاته التي وردت في الكتاب والسُّنَّة. وأن تعبد الله، وهذا باتِّباع شرع الله ۵ على لسان رسوله ﷺ.

فالسلف وأتباعهم جعلوا من توحيد الأسماء والصفات إحدى الرَّكيزتين التي قام عليها منهجهم المعتمد على نصوص الكتاب والسنة، وذلك لما لهذا التوحيد من أهمية ومنزلة، وهذا ما تشهد له كثرة النصوص الشرعية الواردة في هذا الشأن.

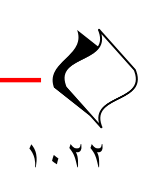
فلذلك لا بد لصاحب السُّنَّة أن يدرس هذا الباب، وأن يَبني هذه الدراسة على الكتاب والسنة؛ ليعرف الله عز وجل، فلن تكون من أصحاب السنة ولن تكون من أتباع السلف حتى تُعنى بهذا الباب، وطبعًا العلم بهذا الباب– كما ذكر العلماء مطلوب لذاته، ليس وسيلة للعمل كما يزعم البعض؛ فكلٌّ من العِلم بالله والعمل لله مطلوب لذاته؛ فقد يكون منه ما هو وسيلة، ومنه ما هو غاية؛ فيجب أن نعلم أنه لا بد من معرفة هذا الباب وتعلمه؛ باعتبار أنه أمر مطلوب لذاته، وإن كان لا يُكتفى به وحده، بل لا بد وأن يجتمع معه عبادة الله عز وجل، وإلا فإن العبد لا يكون مؤمنًا، وبهذا نعلم أن من أهمية هذا الباب أنه أصلٌ عظيمٌ في منهج أهل السنة والجماعة

وقول المصـــــنف: **"أو يقول: فلان [مجبر]، أو يتكلم بالإجبـار، أو يتكلم بالعدل، فاعلم أنه قدري"**.

فـالقـدريَّةُ نَفَوْا مُتعلق قـدرة الله بأفعـال العبـاد تنزيهًـا لله بزَعْمهم، فـأفعـالُ العبـاد عندهم لا تَدخُل تحت مشيئة الله وإرادته.

ولذلك قالوا بهذا اللازم الفاســـد الذي لا وجود له في معتقدهم المنحرف عن الحق.

وقد ضَـــلَّ في هذا الباب (باب أفعال الله) الجبريةُ والقدريةُ، وما زال إلى يوم الناس هذا مَن يَخبط فيه بين قائل بأن العبد مجبر على أفعاله، وبين قائل بأن العبد لا



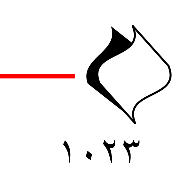
فِعل له ولا اختيار، وإنما هو كالريشة في مَهَبِّ الرِّيح، وأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هذا وذاك.

وقد أوضَح شيخُ الإسلامِ رحمه الله هذا في «مَجموع الفَتاوى» قول أهل السنة فقال: «وهم في باب خَلقِ الله وأمرِه وسطٌ بين المكذِّبين بقُدرة الله الذين لا يُؤمنون بقُدرتِه الكاملة ومَشِيئته الشاملة وخَلقِه لكل شيء، وبين المفسدين لدِين الله الذين يَجعلون العبدَ ليس له مَشِيئةٌ ولا قُدرة ولا عمل، فيُعطِّلون الأمر والنهي والثوابَ والعقاب، فيَصِيرون بمَنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فيُؤمن أهل السُّنَّة بأنَّ الله على كل شيء قدير، فيَقدر أن يهدي العبادَ ويُقلِّب قلوبهم، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في مُلكِه ما لا يُريد، ولا يَعجَز عن إنفاذ مُرادِه، وأنه خالِق كلِّ شيء من الأعيان والصِّفات والحَرَكات. ويُؤمنون أن العبدَ له قُدرة ومشيئة وعملٌ، وأنه مُختار ولا يُسمُّونه مَجْبورًا؛ إذ المجْبور مَن أُكْرِه على خلاف اختِياره، والله عز وجل جعَل العبدَ مُختارًا لِمَا يفعله، فهو مختارٌ مُريد، والله خالِقُه وخالِقُ اختياره، وهذا ليس له نَظِيرٌ؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله» (٢٤٨٠).

وقال العلَّامة السِّعْدي "وهدَى الله أهلَ السُّنَّة والجَمَاعَة للتوسُّط بين طائفتين منحرفتينِ هم القدرية والجبرية، فآمَنوا بقضاء الله وقدَره وشُمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي مِن جُملتِها أفعالُ المكلَّفين وغيرهم، وآمَنوا بأنه ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكُن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعَل للعِباد قُدرة وإرادة تقَعُ بها أقوالُهم وأفعالهم على حسب اختِيارهم وإرادتهم، فآمَنوا بكلِّ نصٍّ فيه تعميمُ قدرة ومشيئة،

(٢٤٨٠) «مَجموع الفَتاوى» (٣/٣٧٣، ٣٧٤).



وبكلِّ نصٍّ فيه إثباتُ أنَّ العباد يعملون ويفعلون كلَّ الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقُدْرَتِهم، وعَلِموا أن الأمرينِ لا يَتنافيانِ"(٢٤٨١).

وبهذا يتبين أن الملازمة الفاسدة إنما هي في أذهان وعقيدة القدرية إذ لا تنافي بين مشيئة الله ومشيئة العبد في معتقد أهل السنة والجماعة.

وقول المصنف: **"لأن هذه الأسماء محدثة أحدثها أهل الأهواء".**

وقال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي: «علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الجهمية: أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابتة. وعلامة القدرية: أن يسموا أهل السنة مجبرة، وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية"(٢٤٨٢).

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتاب: "الغنية" نحو ما ذكر وزاد: «علامة الرافضة: تسميتهم أهل السنة ناصبة، وكل ذلك عصبية، وغياض لأهل السنة ولا اسم لهم إلا اسم واحد وهو: (أصحاب الحديث)، ولا يلتصق بهم ما لقيهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي تسمية كفار مكة: ساحرًا وشاعرًا ومجنونًا ومفتونًا وكاهنًا، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولًا نبيًّا بريًّا من العاهات كلها: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} (٢٤٨٣).

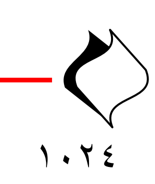
وقد عرف أن من سمات أهل الباطل طعنهم في الصحابة الذين هم أئمة السلف، فها هي الفرق الكبار: المعتزلة والخوارج والشيعة كلهم يطعن في الصحابة رضوان الله عليهم طعنا صريحا[٢٤٨٤]:

(٢٤٨١) «التنبيهات اللطيفة» (ص٦١، ٦٢).

(٢٤٨٢) نقله عنه الذهبي في «العلو» (ص ١٩٠).

(٢٤٨٣) «الغنية» (ص٧١)، مكة المكرمة، المطبعة الميرية، ١٣١٤هـ.

٢٤٨٤ الفرق بين الفرق للبغدادي ٣١٨ وما بعدها



أما المعتزلة فقد طعن زعيمهم النظام في أكثر الصحابة وأسقط عدالة ابن مسعود، وطعن في فتاوى علي بن أبي طالب، وثلب عثمان بن عفان، وطعن في كل من أفتى من الصحابة بالاجتهاد، وقال: إن ذلك منهم إنما كان لأجل أمرين: إما لجهلهم بأن ذلك لا يحل لهم، وإما لأنهم أرادوا أن يكونوا زعماء وأرباب مذاهب تنسب إليهم. فنسب خيار الصحابة إلى الجهل أو النفاق.

ثم إنه أبطل إجماع الصحابة ولم يره حجة، وأجاز أن تجتمع الأمة على الضلالة[٢٤٨٥].

وأيضا — كان زعيمهم واصل بن عطاء الغزال يشكك في عدالة علي وابنيه، وابن عباس، وطلحة، والزبير، وعائشة وكل من شهد حرب الجمل من الفريقين، فقال مقالته المشهورة: لو شهد عندي علي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهما؛ لعلمي بأن أحدهما فاسق ولا أعرفه بعينه. ووافقه على ذلك صاحبه عمرو بن عبيد وزاد عليه بأن قطع بفسق كل من الفريقين.

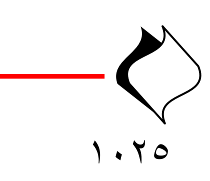
وأما الخوارج فتكفيرهم لعلي وأكثر الصحابة رضي الله عنهم واستباحتهم لدمائهم وأموالهم مشهور معلوم، بل ساقوا الكفر إلى كل من أذنب من هذه الأمة.

أما الشيعة فشعارهم الطعن في سائر الصحابة — عدا آل البيت — وغلاتهم من السبئية والبيانية وغيرهم قد حكم علماء الإسلام عليهم بالردة والخروج من الدين بالكلية.

والإمامية منهم ادعت ردة أكثر الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

والأشاعرة ونحوهم من المتكلمين ممن يدعي في طريقة الخلف العلم والإحكام، وفي طريقة السلف السلامة دون العلم والإحكام، يلزمهم تجهيل السلف من الصحابة

٢٤٨٥ فضل الإجماع ص ١٤٠



والتابعين وهو طعن فيهم من هذا الوجه. ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله —بعد أن حكى عنهم هذا الكلام-: "ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض"٢٤٨٦.٢٤٨٧

وقول المصنف: **"قال عبد الله بن المبارك: لا تأخذوا عن أهل الكوفة في الرفض [شيئا]، ولا عن أهل الشام في السيف [شيئا] ولا عن أهل البصرة في القدر [شيئا]، ولا عن أهل خراسان في الإرجاء [شيئا]، ولا عن أهل مكة في الصرف، ولا عن أهل المدينة في الغناء، لا تأخذوا عنهم في هذه الأشياء شيئًا".**

شرح

حذر السلف من أرباب الكفر والبدع، حذروا كذلك من أرباب الأقوال الشاذة.

وبمثل ما ورد عن ابن المبارك ورد عن الأوزاعي أنه قال: "لا نأخذ من قول أهل العراق خصلتين، ولا من قول أهل مكة خصلتين، ولا من قول أهل المدينة خصلتين، ولا من قول أهل الشام خصلتين:

فأما أهل العراق فتأخير السحور وشرب النبيذ،

وأما أهل مكة فالمتعة والصرف،

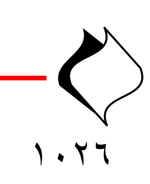
وأما أهل المدينة فإتيان النساء في أدبارهن والسماع،

وأما أهل الشام فبيع العصير وأخذ الديون قال: وهذان الأمران قد ذهبا. أما بيع العصير فليس في الشام اليوم عالم يبيحه، وأما الديون فقد منعهموه السلطان"٢٤٨٨.

٢٤٨٦ مجموع الفتاوى ٤ / ١٥٧

٢٤٨٧ المصدر موقع الدرر السنية الموسوعة العقدية

٢٤٨٨ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١/ ٤١.



وقال ابن تيمية: "كَانَ الْأَوْزَاعِيّ يَقُول من أَخذ يَقُول أهل الْكُوفَة فِي النَّبِيذ وَبقول أهل مَكَّة فِي الْمُتْعَة وَالصرْف وَيقُول أهل الْمَدِينَة فِي الْغناء أَو قَالَ الحشوش والغناء فقد جمع الشَّرّ كُله أَو كَلَاما هَذَا مَعْنَاهُ"٢٤٨٩

وقال الأوزاعي: "من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام"٢٤٩٠.

وقوله أيضاً: "يُترك من قول أهل مكة المتعة والصرف، ومن قول أهل المدينة السماع وإتيان النساء في أدبارهن، ومن قول أهل الشام الجبر والطاعة، ومن قول أهل الكوفة النبيذ والسحور"٢٤٩١.

وعن إسماعيل بن إسحاق القاضي قال: "دخلت على المعتضد فدفع إلي كتاباً نظرت فيه وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء وما احتجّ به كلٌ منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق، فقال: لم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب"٢٤٩٢.

وعن سليمان التيمي قال: "لو أخذتَ برخصة كل عالِم اجتمع فيك الشرّ كله"٢٤٩٣.

قوله: **"لا تأخذوا عن أهل الكوفة في الرفض [شيئا]"**

قال الهروي: (وأما فتنة قصب السلف [أي الرفض] فإن الكوفة دارها التي حرفتها، ثم طار في الأفاق شررها، واستطار فيها ضررها، وإنما هاجتها أحلام فيها

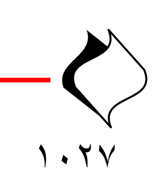
٢٤٨٩ الاستقامة ١/ ٣٧٤.

٢٤٩٠ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٥٦)، وإسناده حسن.

٢٤٩١ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٥٦) وإسناده ضعيف، وله شواهد ومتابعات، انظر تلخيص الحبير (٣/ ١٨٧).

٢٤٩٢ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٥٦) وإسناده صحيح، وانظر سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٦٥).

٢٤٩٣ أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٩٢٧) وإسناده صحيح، وانظر المسودة (ص: ٥١٨-٥١٩).



ضيق، وأشربتها قلوب فيها حمق، ولها عروق خفية، السلامة للقلوب في ترك إظهار بعضها، وأربابها أحمق خلق الله تعالى، عرضت تساوى بين علي بن أبي طالب وأبي بكر وعمر، ثم أخذت تفضله عليهما وتخاصمهما وتضللهما وتوليه حقهما، ثم جاءت تعدله بالمصطفى صلى الله عليه وسلم وتشركه في وحي السماء، ثم خطأت جبريل عليه السلام في نزوله، فخلّت الأمة من النبوة، وأحوجتها إلى علي رضي الله عنه، ثم ادعت له الإلهية ثم ادعتها لولده.

قال الإمام المطلبي: "لو كانوا دواباً لكانوا حُمُراً، ولو "كانوا طيراً لكانوا رخماً". [٢٤٩٤]

فاستظهرت بهؤلاء الغالية أرباب القلوب المريضة، فتظاهرت على قصب السلف الذين هم الناقلون وفيهم قانون الدين والملة، فهؤلاء الذين قالوا في السلف الصالح بالقول السيئ أرادوا القدح في الناقل لأن القدح في الناقل إبطال المنقول، فأرادوا إبطال الشرع الذي نقلوا، وإنما تعلقوا بعلي بن أبي طالب تسلحاً.

ولم تكابد الأمة من شؤم شيء ما كابدت من شؤم تلك الفتنة. لم يكد قلب مسلم يسلم من شرب منها إلا من رحم ربك فعصم. [٢٤٩٥]

ومنذ أن ظهر التشيع واليهود[٢٤٩٦] والمجوس[٢٤٩٧] يوقدون ناره تحت دعوى أن للرسول صلى الله عليه وسلم وصياً هو علي بن أبي طالب، ولكن الصحابة تمالؤا على ظلمه وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب.

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه وتشيعه، حتى صار ملجأً لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين، فقد دخل في الرافضة أهل الزندقة والإلحاد من "النصيرية" و

٢٤٩٤ منهاج السنة ٣٠٧،٣٠٨/١، مجموع الفتاوى ٣٣،٣٤/١٣.

٢٤٩٥ ذم الكلام للهروي ص٣٠٤،٣٠٥ «بتصرف»

٢٤٩٦ انظر كتاب بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود، لعبد الله الجميلي.

٢٤٩٧ انظر كتاب «وجاء دور المجوس» لعبد الله الغريب.

"الإسماعيلية" وأمثالهم من الملاحدة "القرامطة" وغيرهم ممن كان بخراسان والعراق والشام وغير ذلك.[٢٤٩٨]

ومن شنيع عقائدهم القول بأن القرآن مبدل ومحرف ومزيد فيه ومنقوص منه، وأن معظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم ماعدا علي بن أبي طالب ونفر قليل معهم.

وقد وصل الضلال ببعضهم والجراءة على الله تعالى، إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة، وأنه أرسل إلى علي فعدل إلى محمد.

ولم يزل الرفض يبتعد بأهله عن الدين والعقل والفطرة إلى يومنا هذا.[٢٤٩٩]

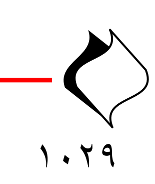
وقوله: **"ولا عن أهل الشام في السيف [شيئا]"**

لم أقف في هذه المسألة على شرح لها في كتب المتقدمين أو إشارة إليها، وقد وقفت في كتاب مختصر تاريخ دمشق في ذكر ما ورد في ذم أهل الشام على بعض النصوص التي تشير إلى ما ذكره ابن المبارك من حال أهل الشام، وإن كان بعض هذا الكلام لا يعول عليه لضعف أسانيده، ولكن يستأنس به في تصور حال أهل الشام في فترة من فترات التاريخ.

وقد جاء في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور بعد ما سرد بعض الآثار ما نصه: "قال: والمراد في هذه الحكايات ما كان عليه أهل الشام من طاعة أئمتهم وأمرائهم، واقتدائهم في الفتن والحروب بآرائهم، من غير نظر في عواقب الفتن كما فعلوا في سالف الزمن من قتالهم علي بن أبي طالب، وهو الإمام المرتضى، وفعلهم يوم الحرة، وحصار ابن الزبير. وتلك أمور قد خلت، وفتن قد مضت، عصم الله منها.

٢٤٩٨ مجموع الفتاوى ٢٨/٥٢٨.

٢٤٩٩ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ١/١٠.



وهذا، لما كان يجري بين أهل الشام والعراق من الحروب، وأما الآن فقد آلف الله بين القلوب".

فلعل هذا الكلام يفسر كلام ابن المبارك **"ولا عن أهل الشام في السيف [شيئا]"**.

وأنتقي مما ورد في مختصر تاريخ دمشق بعض النصوص التي وردت في نسبة السيف لأهل الشام:

فعن سليمان بن يسار قال: كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار أن اختر لي المنازل فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، إنه بلغنا أن الأشياء اجتمعت فقال السخاء: أريد اليمن، فقال حسن الخلق: أنا معك. وقال الجفاء: أريد الحجاز، فقال الفقر: وأنا معك، وقال البأس: أريد الشام، فقال السيف: وأنا معك. وقال العلم: أريد العراق، فقال العقل: وأنا معك. وقال الغني: أريد مصر، فقال الذل: وأنا معك.

فاختر لنفسك يا أمير المؤمنين.

فلما ورود الكتاب على عمر بن الخطاب قال: فالعراق إذاً، فالعراق إذاً.

ورواه ابن عائشة أيضاً: قال ابن عساكر: والمحفوظ عن كعب سوء القول في العراق، وضعف هذه الأحاديث.

وعن أنس بن مالك قال: "وهبطت ملائكة الخير والشر، وملائكة الحياء والإيمان، وملائكة الصحة والشفاء، وملائكة الغنى، وملائكة الشرف، وملائكة المروءة، وملائكة الجفاء، وملائكة الجهل، وملائكة السيف، وملائكة اليأس، حتى انتهوا إلى العراق"، وفيه: "فقال بعضهم لبعض: "افترقوا". وقال ملك السيف: أنا أسكن الشام، فقال له ملك البأس: أنا معك".

وعن علي بن زيد بن جدعان قال: قال رجل لعمرو بن العاص: صف لي الأمصار. قال: أهل الشام أطوع الناس للمخلوق وأعصاهم للخالق، وأهل مصر

أكيسهم صغاراً، وأحمقهم كباراً، وأهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة وأعجزهم فيها، وأهل العراق أطلب الناس للعلم وأبعدهم منه.

قدم عبد الله بن الكواء على معاوية، قال: فأخبرني عن أهل الشام. قال: جند أمير المؤمنين، ولا أقول فيهم شيئاً. قال: لتقولن. قال: أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق، ولا يحسبون للسماء ساكناً.

وفي حديث آخر: أطوع الناس لمخلوق في معصية الخالق، وأجرؤهم على الموت لا يدري ما بعده"[٢٥٠٠].

وقوله: **"ولا عن أهل البصرة في القدر [شيئًا]"**

حدثت بدعة "القدرية" في آخر عصر الصحابة[٢٥٠١] وكان القدر قد حدث أهله قبل أهل النفي للصفات، فمقالة القدر ظهرت في خلافة عبد الله الزبير (٦٤–٧٣هـ) بعد موت معاوية.[٢٥٠٢]

ولهذا تكلم فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وواثلة بن الأسقع.[٢٥٠٣] رضي الله عنهم.

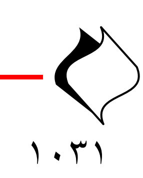
وابن عباس مات (٦٨هـ) قبل ابن الزبير وابن عمر مات عقب موته (٧٤هـ). وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين، فبقي الناس يخوضون في القدر

٢٥٠٠ انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، ١/ ٤٠_٤١ بتصرف.

٢٥٠١ منهاج السنة ١/٣٠٨.

٢٥٠٢ الحسنة والسيئة ص١٠٣.

٢٥٠٣ منهاج السنة ص١٠٣.



بالحجاز، والشـــام، والعراق، وأكثره كان بالشـــام والعراق بالبصـــرة، وأقله كان بالحجاز.[٢٥٠٤]

وأول من عرف بنفي القدر، رجل مجوسي يقال سيسويه من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهني.[٢٥٠٥]

قال الهروي: (فأما القدر فأول من تكلم به معبد الجهني رجل من أهل البصـرة، كان عنده حظ من العلم يقال له "معبد بن خالد، ويقال معبد ابن عبد الله بن عويم، مات بعد الهزيمة وكان يومئذ مع ابن الأشعث، وأصابته جراحة، وهو أول من تكلم بالقدر، وهو الذي تبرأ منه عبد الله بن عمر بن الخطاب.[٢٥٠٦] مات قبل التســـعين[٢٥٠٧] قتله الحجاج بن يوســـف وقيل صـــلبه عبد الملك بن مروان ســـنة ثمانين.[٢٥٠٨]

وأخذ غيلان الدمشقي عن معبد الجهني[٢٥٠٩]

قال الهروي: "فتكلم عليه عمرو بن عبيد، وجادل به غيلان بن مسلم الدمشقي وغيلان هو ابن أبي غيلان أبو مروان من موالي عثمان، وكان عنده حظ من العلم، تكلم به أيام عبد الملك بن مروان، واستتابه عمر بن عبد العزيز، ثم ظهر منه تكذيب التوبة[٢٥١٠] زمن يزيد بن عبد الملك ثم لما ولى هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦هـــ)

٢٥٠٤ الحسنة السيئة ص١٠٣.

٢٥٠٥ تهذيب التهذيب ٢٢٥/١٠.

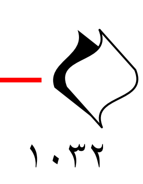
٢٥٠٦ ذم الكلام ص٣٠٣.

٢٥٠٧ سير أعلام النبلاء ١٨٧/٤.

٢٥٠٨ تهذيب التهذيب ٢٢٥/١٠، سير أعلام النبلاء ١٨٧/٤.

٢٥٠٩ سير أعلام النبلاء ١٨٧/٤.

٢٥١٠ ذم الكلام ص٣٠٣.



أرسل إلى غيلان وأحضر له الأوزاعي لمناظرته، ثم قتله[٢٠١١] فصلب على باب الشام بأخزى حالة لقيها بشر".[٢٠١٢]

"وأما عمرو بن عبيد فهو عمرو بن كيسان أبو عثمان مولى بني تميم البصري، مات سنة ثلاث وأربعين ومائة في طريق مكة فإنه أول من بسط أساسه فأصبح رأسه، ونظم له كلاما ونصبه إماماً، ودعا إليه ودل عليه، فصار مذهباً يسلك، وهو إمام الكلام وداعية الزندقة الأولى رأس المعتزلة، سموا به لاعتزاله حلقة الحسن البصري، وهو الذي لعنه إمام أهل الأثر مالك بن أنس الأصبحي، وإمام أهل الرأي النعمان بن ثابت الكوفي أبو حنيفة، وحذر منه إمام أهل الشرق عبد الله بن المبارك الحنظلي، فسلط الله عليه وعلى من استتبع واخترع، سيفاً من سيوف الإسلام وهو أبوبكر أيوب بن أبي تميمة السختياني، فهتك استاره، وأظهر عواره، ورسمه باللعنة وألحق به بلاء تلك الفتنة"[٢٠١٣].

وعن الشيباني قال: قال لي الأوزاعي: "يا أبا زرعة هلك عبادنا وخيارنا في هذا الرأي، يعني القدر.

كان المتكلم في القدر بالشام: غيلان القدري، وتبعه على ذلك أتباع، فأخذه هشام بن عبد الملك فصلبه، وكفى أهل الشام أمره.

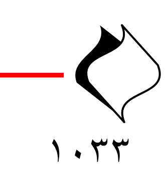
وقد كانت القدرية بالبصرة أكثر، وضررهم على أهل السنة أكبر، فإنهم صنفوا في نفيه التصانيف، وألف أهل الاعتزال فيه التأليف، فأفناهم الله وأبادهم[٢٠١٤]".

٢٠١١ الشريعة للآجري ص٢٢٨، التنبيه والرد للملطي ص١٦٨.

٢٠١٢ ذم الكلام ص٣٠٣.

٢٠١٣ ذم الكلام ص٣٠٣.

٢٠١٤ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور



ونفاة القدر أرادوا منازعة الله في الربوبية فضاهوا بذلك المجوسية الأولى وهم الزنادقة.[٢٠١٥]

قوله: **"ولا عن أهل خراسان في الإرجاء [شيئا]"**

وحدثت المرجئة، وكان أكثرهم من أهل الكوفة، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة فقالوا إن الأعمال ليست من الإيمان.[٢٠١٦]

وأول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعد فتنة ابن الأشعث سنة (٨٣هـ) وقيل إن أول من قال به هو ذر بن عبد الله المرهبي الهمداني (توفي قبل المائة).

فقد أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن سلمة بن كهيل (قال: وصف "ذر" الإرجاء وهو أول من تكلم فيه، ثم قال إني أخاف أن يتخذ هذا ديناً، فلما أتته الكتب من الأفاق قال فسمعته يقول بعد وهل أمر غير هذا).

وقال أبو داود: كان مرجئاً وهجره إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير بالإرجاء.[٢٠١٧]

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: (أن حماد بن أبي سليمان (ت١٢٠هـ) هو أول من قال بالإرجاء)[٢٠١٨]

وكانت بدعة الإرجاء مقتصرة في بدايتها على إرجاء الفقهاء ولذلك كانت هذه البدعة أخف البدع، فإن كثيراً من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم،[٢٠١٩] إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر

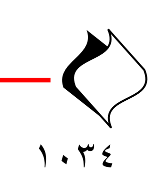
٢٠١٥ ذم الكلام ص٣٠٥.

٢٠١٦ مجموع الفتاوى ٣٨/١٣.

٢٠١٧ السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٣٢٩/١ رقم ٦٧٧).

٢٠١٨ تهذيب التهذيب ٢١٨/٣.

٢٠١٩ مجموع الفتاوى ٢٩٧/٧، ٣١١ ٥٠٧/٥.



بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة، وعلى أنه لابد في الإيمان أن يتكلم بلسانه، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب. فكان الخلاف معهم في الأعمال هل هي من الإيمان؟، وفي الاستثناء ونحو ذلك عامته نزاع لفظي.[٢٥٢٠]

وصارت المرجئة بعد ذلك على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان، وهؤلاء يسمون مرجئة الفقهاء. وهم علماؤهم وأئمتهم وأحسنهم قولاً.

وقد استقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس هي:

١-زعمهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان وأن الإيمان هو التصديق.

٢-زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

٣-زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان.

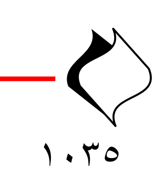
القسم الثاني: الذين قالوا: "هو تصديق القلب فقط وإن لم يتكلم به".

وهذا قول الجهمية، وهو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه. فالجهم كان يقول إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به. وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول. ولكن هذا هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه؟! ولكن قالوا مع ذلك إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا على تكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة.

القسم الثالث: الذين يقولون: "الإيمان هو القول فقط".

فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمنًا من أهل النار، وهذا قول الكرامية.

٢٥٢٠ مجموع الفتاوى ١٣/٤٨،٣٨.



وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، بل يقولون إنه مؤمن كامل الإيمان، وإنه من أهل النار.[٢٠٢١]

فالمرجئة ليسوا صنفًا واحدًا، وإنما هم أصناف خمسة وهي: الجهمية، والكرامية، والأشاعرة، والماتريدية، ومرجئة الفقهاء، فهم خمسة أصناف، ومقالة الإرجاء تشمل كل هؤلاء، وجل هؤلاء المرجئة كانوا في جهة المشرق في خراسان وما حولها.

قوله: **"ولا عن أهل مكة في الصرف"**

والمقصود بالصرف هو ربا الفضل وتعريفه.

تعريفه: لغة: الفضل هو الزيادة.

واصطلاحًا: هو بيع المال الربوي بجنسه مع زيادة في أحد العوضين.

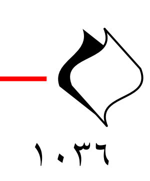
مثل :أن يبيعه مد قمح بمدين منه، أو مائة غرام ذهب بمائة وعشرة منه.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول به ثم رجع عنه؛ فمذهب الجمهور، على أن ما نسب إلى ابن عباس، ومن معه ثبت رجوعهم عنه، ولم يصدر ابن عباس في هذا الرأي الذي رآه أولًا فيما ينسبه إليه الناسبون عن سنة عملية رآها بنفسه من رسول الله–صلى الله عليه وسلم–أو حفظها منه؛ بل كان اجتهادًا منه.

فقد روى مسلم في "صحيحه "من طريق أبي نضرة، قال: سألت ابن عمر وابن عباس عن الصرف، فلم يريا به بأسا.

فإني لقاعد عند أبي سعيد الخدري فسألته عن الصرف، فقال: ما زاد فهو ربا، فأنكرت ذلك لقولهما، فقال: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله–صلى الله عليه وسلم–، جاءه صاحب نخله بصاع من تمر طيب، وكان تمر النبي–صلى الله عليه وسلم–هذا اللون، فقال له النبي–صلى الله عليه وسلم–: "أنى لك هذا؟"،

٢٠٢١ مجموع الفتاوى ١٣/٣٨،٤٨–٥٥،٥٦.



قال: انطلقت بصاعين فاشتريت به هذا الصاع، فإن سعر هذا في السوق كذا، وسعر هذا كذا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "ويلك! أربيت، إذا أردت ذلك فبع تمرك بسلعة ثم اشتر بسلعتك أي تمر شئت".

قال أبوسعيد: فالتمر بالتمر أحق أن يكون ربا، أم الفضة بالفضة؟! قال: فأتيت ابن عمر بعد ذلك فنهاني، ولم آت ابن عباس، قال: فحدثني أبو الصهباء أنه سأل ابن عباس عنه بمكة فكرهه[٢٠٢٢].

وأخرج الطحاوي بسند صحيح عن أبي نضرة، عن أبي الصهباء، أن ابن عباس نزع عن الصرف[٢٠٢٣].

وللآثر طريقين آخرين:

الأول: من طريق سليمان بن علي الربعي، عن أبي الجوزاء، قال: "سمعته يأمر بالصرف -يعني بن عباس-، ويحدث ذلك عنه، ثم بلغني أنه رجع عن ذلك، فلقيته بمكة، فقلت: إنه بلغني أنك رجعت، قال: نعم، إنما كان ذلك رأياً مني، وهذا أبوسعيد يحدث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه نهى عن الصرف"[٢٠٢٤]

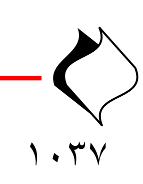
والثاني: عن أبي سعيد، قال: قلت لابن عباس: أرأيت الذي تقول الدينارين بالدينار، والدرهمين بالدرهم، أشهد أني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم، لا فضل بينهما".

فقال بن عباس أنت سمعت هذا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقلت: نعم، فقال: فإني لم أسمع هذا

٢٠٢٢ صحيح مسلم مع النووي (٦ / ٢٦).

٢٠٢٣ "شرح معاني الآثار" (٤/ ٧١).

٢٠٢٤ أخرجه أحمد في " مسنده " (٣ / ٥١)، وابن ماجه في "سننه" (٢ / ٧٥٩ / ٢٢٥٨) واللفظ له. وإسناده صحيح



قال أبوسعيد: ونزع عنها ابن عباس"[٢٥٢٥].

قال ابن قدامة؛ "والمشهور عن ابن عباس أنه رجع إلى قول الجماعة"[٢٥٢٦]

قوله: **"ولا عن أهل المدينة في الغناء، لا تأخذوا عنهم في هذه الأشياء شيئًا"**.

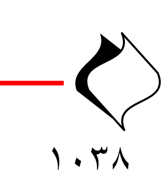
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "قَالَ أَبُو الْقَاسِم وَقد سمع الأكابر الأبيات بالألحان فَمن قَالَ بإباحته مَالك بن أنس وَأهل الْحجاز كلهم يبيحون الْغناء فَأَما الحداء فإجماع مِنْهُم على إبَاحَته.

قلت: هَذَا النَّقْل يتَضَمَّن غلطا بِإِثْبَات بَاطِل وَترك حق وَقد تبع فِيهِ أَبَا عبد الرَّحْمَن على مَا ذكره فِي مَسْأَلَة السماع وَذَلِكَ أَن الْمَعْرُوف عِنْد أَئِمَّة السّلف من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ مثل عبد الله بن مَسْعُود وَعبد الله بن عمر وَعبد الله بن عَبَّاس وَجَابِر بن عبد الله وَغَيرهم وَعَن أَئِمَّة التَّابِعين ذمّ الْغناء وإنكاره وَكَذَلِكَ من بعدهمْ من أَئِمَّة الْإِسْلَام فِي الْقُرُون الثَّلَاثَة حَتَّى ذكر زَكَرِيَّا بن يحيى السَّاجِي فِي كِتَابه الَّذِي ذكر فِيهِ إِجْمَاع أهل الْعلم وَاخْتِلَافهمْ فَذكر أَنهم متفقون على كَرَاهَته إِلَّا رجلَانِ إِبْرَاهِيم بن سعد من أهل الْمَدِينَة وَعبيد بن الْحسن الْعَنْبَرِي من أهل الْبَصْرَة.

وَأما نقلهم لإباحته عَن مَالك وَأهل الْحجاز كلهم فَهَذَا غلط من أَسْوَأ الْغَلَط فَإِن أهل الْحجاز على كَرَاهَته وذمه وَمَالك نَفسه لم يخْتَلف قَوْله وَقَول أَصْحَابه فِي ذمه وكراهته بل هُوَ من المبالغين فِي ذَلِك حَتَّى صنف أَصْحَابه كتبا مُفْردَة فِي ذمّ الْغناء وَالسَّمَاع وَحَتَّى سَأَلَهُ إِسْحَاق بن عِيسَى الطباع عَمَّا يترخص فِيهِ أهل الْمَدِينَة من الْغناء فَقَالَ إِنَّمَا يَفْعَله عندنَا الْفُسَّاق.

٢٥٢٥ أخرجه الطحاوي في "شرح معاني الآثار " (٤ / ٦٤) بسند صحيح.

٢٥٢٦ المغني ٦/ ٥٢.



وَقد ذكر مُحَمَّد بن طَاهِر فِي مَسْأَلَة السماع حِكَايَة عَن مَالك أَنه ضرب بطبل وأنْشد أبياتا وَهَذِه الْحِكَايَة مِمَّا لَا يتنازع أهل الْمعرفَة فِي أَنَّهَا كذب على مَالك وَكَذَلِكَ الشَّافِعِي لم يخْتَلف قَوْله فِي كَرَاهَته وَقَالَ فِي كِتَابه الْمَعْرُوف بأدب الْقُضَاة الْغناء لَهو مَكْرُوه يشبه الْبَاطِل وَمن استكثر مِنْهُ فَهُوَ سَفِيه ترد شَهَادَته وَقد قَالَ عَن السماع الديني الْمُحدث خلفت بِبَغْدَاد شَيْئا أحدثته الزَّنَادِقَة يسمونه التغبير يصدون بِهِ النَّاس عَن الْقُرْآن.

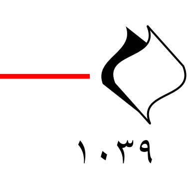
نعم كَانَ كثير من أهل الْمَدِينَة يسمع الْغناء وَقد دخل مَعَهم فِي ذَلِك بعض فقهائهم فَأَما أَن يكون هَذَا قَول أهل الْحجاز كلهم أَو قَول مَالك فَهَذَا غلط وَكَانَ النَّاس يعيبون من اسْتحلَّ ذَلِك من أهل الْمَدِينَة كَمَا عابوا على غَيرهم حَتَّى كَانَ الْأَوْزَاعِيّ يَقُول من أَخذ بقول أهل الْكُوفَة فِي النَّبِيذ وَبقول أهل مَكَّة فِي الْمُتْعَة وَالصرْف وَيَقُول أهل الْمَدِينَة فِي الْغناء أَو قَالَ الحشوش والغناء فقد جمع الشَّرّ كُله أَو كلَاما هَذَا مَعْنَاهُ وَأما فُقَهَاء الْكُوفَة فَمن أَشد النَّاس تَحْرِيمًا للغناء وَلم يتنازعوا فِي ذَلِك وَلم يَكُونُوا يعتادونه كَمَا كَانَ يَفْعَله أهل الْمَدِينَة بل كَانُوا بالنبيذ الْمُتَنَازع فِيهِ وَقد سُئِلَ مالك عما يترخص فِيهِ بعض أهل الْمَدِينَة من الْغناء فَقَالَ لَا إِنَّمَا يَفْعَله عندنَا الْفُسَّاق، وَقد سُئِلَ الْقَاسِم بن مُحَمَّد عَن الْغناء فَقَالَ إِذا ميز الله الْحق من الْبَاطِل من أَي قسم يكون الْغناء"[٢٥٢٧]

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[١٣٣] "وإذا رأيت الرجل يحب أبا هريرة وأنس بن مالك وأسيد بن حضير فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله.

٢٥٢٧ الاستقامة ١/ ١٧٣-١٧٥.



وإذا رأيت الرجل يحب أيوب، وابن عون، ويونس بن عبيد، وعبد الله بن إدريس الأودي، والشعبي، ومالك بن مغول، ويزيد بن زريع، ومعاذ بن معاذ، ووهب بن جرير، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، [ومالك بن أنس، والأوزاعي، وزائدة بن قدامة، فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيت الرجل يحب] الحجاج بن المنهال، وأحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر، فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله إذا ذكرهم بخير، وقال بقولهم".

الشرح

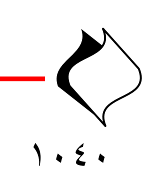
قول المصنف: **"وإذا رأيت الرجل يحب أبا هريرة وأنس بن مالك وأسيد بن حضير فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله".**

ما أشار إليه المصنف هنا من الاستدلال على كون الرجل صاحب سنة أم لا ذكره غير واحد من علماء السنة في كتبهم ومن ذلك ما ذكره الآجري رحمه الله: حيث قال: "عَلَامَةُ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا: سُلُوكُ هَذَا الطَّرِيقِ ، كِتَابُ اللَّهِ، وَسُنَنُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسُنَنُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ بَلَدٍ إِلَى آخِرِ مَا كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِثْلَ الْأَوْزَاعِيِّ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَالْقَاسِمِ بْنِ سَلَّامٍ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ، وَمُجَانَبَةُ كُلِّ مَذْهَبٍ يَذُمُّهُ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ"[٢٥٢٨]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "القرائن وحدها قد تفيد العلم الضروري كما يعرف الرجلُ رضا الرجل وغضبه، وحبه وبغضه، وفرحه وحزنه، وغير ذلك مما في نفسه بأمورٍ تظهر على وجهه قد لا يمكنه التعبير عنها"[٢٥٢٩].

٢٥٢٨ الشريعة (١/٣٠١).

٢٥٢٩ شرح الاصبهانية، (ص٥٤٥) ط. دار المنهاج.



ومما ورد في السنة من هذا المعنى ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغضهم"[٢٥٣٠].

وعليه فإن محبة علماء السنة هو دليل على أن الشخص من أهل السنة، وكذلك محبته لأهل البدعة تدل على أنه من أهل البدع.

وهنا أراد المصنف ضرب مثل لحب الصحابة الكرام وأعطى مثالًا على ذلك بثلاثة من الصحابة الكرام وهم كل من أبي هريرة وأنس بن مالك وأسيد بن حضير رضي الله عنهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم وعرف عنهم أنهم رووا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بل وعرف عن اثنان منهم الإكثار من رواية الحديث وهم كل من أبي هريرة وأنس بن مالك رضي الله عنهما.

ومعلوم أن من واجب الأمة نحو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتهم والترضي عنهم والدعاء لهم كما أمرنا الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[٢٥٣١].

فهم قوم اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إليه وسماع حديثه من فمه الشريف ونصرته والذب عنه والجهاد معه في سبيل الله ونشر دين الإسلام.

وبعد وفاته كانوا هم الواسطة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الأمة، فقد بلغوا عن رسول الله ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها ونشروا

[٢٥٣٠] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان. انظر: فتح الباري (١١٣/٧) ح ٣٧٨٤ واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته... (٦٥/١).

[٢٥٣١] الآية (١٠) من سورة الحشر.

هذا الدين في شتى بقاع الأرض: وجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وذبوا عن هذا الدين بسنانهم ولسانهم فكان لهم بذلك الأجر العظيم والمنزلة العالية عند ربهم وعند نبيهم وعند المسلمين الموحدين جميعًا.

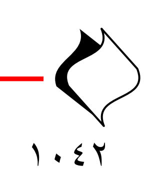
فإذا أنزلوا هذه المنزلة استحقوا من جماعة المسلمين أن يحبوهم ويتقربوا إلى الله عز وجل بمحبتهم لأن الله تعالى إذا رضي عن أحد أحبه وواجب على العبد أن يحب من يحب مولاه[٢٥٣٢].

ولا شك أن أبا هريرة رضي الله عنه صحابي جليل، صحِب النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من أربع سنوات ولازمه ملازمة كاملة، يلازمه على ملء بطنه فيحضر وهم غائبون، ويحفظ إذا نسوا، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم وفعل ما يساعده على حفظ الأحاديث، فلأجل ذلك حفظ أحاديث لم يحفظها غيره من الصحابة، وكان يقول: إنكم تقولون أكثر علينا أبو هريرة، والله الموعد، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق، وإن إخواننا من الأنصار ليشغلهم العمل في أموالهم، وكنت امرءا مسكينا ألزم رسول الله عليه الصلاة والسلام على ملء بطني أحفظ إذا نسوا، وأحضر إذا غابوا، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة: إن من بسط ثوبه حتى أفرغ من مقالتي وضمه إليه كان ذلك سببا في بقاء حفظه. يقول أبو هريرة: فعلت ذلك فلم أنْسَ شيئا بعد ذلك.

كان رضي الله عنه يبيت أول الليل يدرس الأحاديث ويتذكرها ويكررها حتى لا ينساها، وحتى يحفظ منها ما قد يخاف أن ينساه، فلذلك حفظ الحديث الكثير الذي ما حفظه غيره.

وأما أنس بن مالك بن النَّضر الخزرجي الأنصاري فهو صحابي جليل، ولد بالمدينة، وأسلم صغيراً وكناه النبي صلى الله عليه وسلم بأبي حمزة؛ خدم الرسول عليه الصلاة والسلام في بيته وهو ابن عشر سنين، دعا له صلى الله عليه

٢٥٣٢ شعب الإيمان للبيهقي (١/٢٨٧).



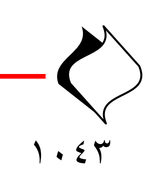
وسلم ((اللهم أكثر ماله وولده وبارك له، وأدخله الجنة)) فعاش طويلا، ورزق من البنين والحفدة الكثير. روى كثيرًا من الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما أسيد بن حضير بن عبد الأشهل الأنصاري -رضي الله عنه-، فهو فارس قومه ورئيسهم، فأبوه حضير الكتائب زعيم الأوس، وواحد من كبار أشراف العرب في الجاهلية. واشتهر أسيد بن حضير بأنه يكتب العربية ويحسن السباحة والرمي، وكانوا في الجاهلية يسمون من كانت فيه هذه الخصال بالكامل. كما يُعدّ أسيد رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، وكان إسلامه رضي الله عنه على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ومن مناقب أسيد بن حضير ما جاء في سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس، نعم الرجل معاذ بن جبل، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح".

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد منهم يلحق في الفضل، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر رضي الله عنهم جميعًا.

والمصنف بذكره لهؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم يشير بذلك إلى حب الصحابة على وجه العموم فكلهم صحابة كرام، وكذلك لحب المهاجرين والأنصار فأبو هريرة رضي الله عنه من المهاجرين؛ وأنس بن مالك وأسيد بن حضير رضي الله عنهما من



الأنصار، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغضهم"[٢٥٣٣].

وجميعهم من رواة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يدل على فضل الصحابة رضوان الله عليهم ووجوب تعظيمهم وإكرامهم وكونهم خير قرون هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد عقد البخاري ومسلم في صحيحيهما وكذا أهل السنن وغيرهم، كل منهم كتابا لفضائل الصحابة أوردوا فيه الكثير من الأحاديث الواردة في فضل الصحابة رضوان الله عليهم.

وعن معتقد السلف نحو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أبو زرعة الرازي [٢٥٣٤]: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق. وذلك أن الرسول حق والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة. وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة"[٢٥٣٥].

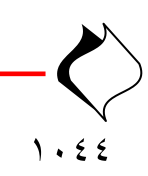
وقال الخطب البغدادي[٢٥٣٦]: "عدالة الصحابة ثابتة ومعلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن، فمن ذلك:

[٢٥٣٣] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان. انظر: فتح الباري (١١٣/٧) ح ٣٧٨٤ واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته... (٦٥/١).

[٢٥٣٤] هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرازي، أبو زرعة من أئمة حفاظ الحديث، ذكر أنه يحفظ مائة ألف حديث، توفي سنة (٦٤ هـ). تهذيب التهذيب (٣٠/٧-٣٤).

٢٥٣٥ الكفاية في علم الرواية (ص ٩٧).

٢٥٣٦ أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين وصاحب مصنفات من أشهرها تاريخ بغداد، توفي سنة (٤٦٣ هـ). الأعلام (١٧٢/١).



قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}[٢٠٣٧].

وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}[٢٠٣٨].

وهذا اللفظ وإن كان عامًا فالمراد به الخاص وقيل: هو وارد في الصحابة دون غيرهم.

وقوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}[٢٠٣٩].

وقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[٢٠٤٠].

وقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[٢٠٤١].

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[٢٠٤٢].

وقوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٢٠٤٣].

في آيات يكثر إيرادها، ويطول تعدادها.

٢٠٣٧ الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

٢٠٣٨ الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

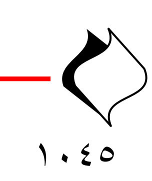
٢٠٣٩ الآية (١٧) من سورة الفتح.

٢٠٤٠ الآية (١٠٠) من سورة التوبة.

٢٠٤١ الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة الواقعة.

٢٠٤٢ الآية (٦٤) من سورة الأنفال.

٢٠٤٣ الآيتان (٨، ٩) من سورة الحشر.



ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة مثل ذلك، وأطنب في تعظيمهم وأحسن الثناء عليهم....

وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له...

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

وهذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء[٢٥٤٤].

وقال ابن حجر: "اتفق أهل السنة على أن جميع الصحابة عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة "[٢٥٤٥].

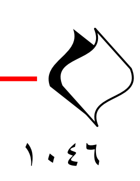
وقال صاحب العقيدة الطحاوية: "ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من بغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإحسان، وبغضهم كفر وطغيان"[٢٥٤٦]

وقال البيهقي: "وإذا ظهر أن حب الصحابة من الإيمان فحبهم أن يعتقد فضائلهم ويعترف لهم بها ويعرف لكل ذي حق منهم حقه، ولكل ذي عنا في

٢٥٤٤ الكفاية في علم الرواية (ص ٩٣-٩٦).

٢٥٤٥ الإصابة (١/ ١٧).

٢٥٤٦ شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٨).



الإسلام عناه ولكل ذي منزلة عند الرسول صلى الله عليه وسلم مزلته، وينشر محاسنهم

ويدعو بالخير لهم ويقتدي بما جاء في أبواب الدين عنهم ولا يتتبع زلاتهم وهفواتهم ولا يتعمد تهجين أحد منهم ببث ما لا يحسن عنه، ويسكت عما لا يقع ضرورة إلى الخوض فيه فيما كان بينهم وبالله التوفيق "[٢٠٤٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[٢٠٤٨].

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه".

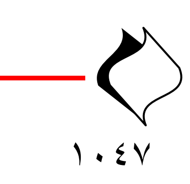
ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع: من فضائلهم ومراتبهم فيفضلون من أنفق من قبل الفتح-وهو صلح الحديبية-وقاتل، على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر-: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"[٢٠٤٩] وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة[٢٠٥٠] كما أخبر به صلى الله عليه وسلم، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

٢٠٤٧ شعب الإيمان للبيهقي (ص ٢٩٧).

٢٠٤٨ الآية (١٠) من سورة الحشر.

٢٠٤٩ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا. فتح الباري (٧/٣٠٤-٣٠٥) ح ٣٩٨٣، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر (/ ١٦٨-١٦٩).

٢٠٥٠ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان (٧/١٦٩).



ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة كالعشرة وغيرهم من الصحابة.

وقول المصنف: **"وإذا رأيت الرجل يحب أيوب، وابن عون، ويونس بن عبيد، وعبد الله بن إدريس الأودي، والشعبي، ومالك بن مغول، ويزيد بن زريع، ومعاذ بن معاذ، ووهب بن جرير، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، [ومالك بن أنس، والأوزاعي، وزائدة بن قدامة، فاعلم أنه صاحب سنة"**

من علامات صاحب السنة حبه لعلماء السنة وقد أشار غير واحد من العلماء لهذا الأمر، ومِن ذلك:

قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله: ابن عون في البصريين إذا رأيت الرجل يحبه فاطمئن إليه وفي الكوفيين: مالك بن مغول. وزائدة بن قدامة إذا رأيت كوفياً يحبه فارج خيره ومن أهل الشام: الأوزاعي وأبو إسحاق الفزاري ومن أهل الحجاز مالك بن أنس. [٢٥٥١]

قولُ أحمد بن عبد الله بن يونس (ت ٢٢٧ هـ): "امتحن أهل الموصل بمعافى بن عمران، فإن أحبُّوه فهم أهل السنة، وإن أبغضوه فهم أهل بدعة."[٢٥٥٢]...

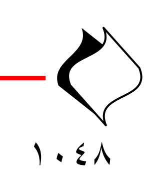
قال الإمام نُعيم بن حماد رحمه الله: "إذا رأيت العراقي يتكلم في أحمد، فاتهمه في دينه، وإذا رأيت الخرساني يتكلم في إسحاق، فاتهمه، وإذا رأيت البصري يتكلم في وهب بن جرير، فاتهمه في دينه"[٢٥٥٣].

وبعد أن أشار المصنف إلى طبقة الصحابة أشار إلى طبقة التابعين، وتابعي التابعين، ومنهم:

٢٥٥١ أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي ٦٢.

٢٥٥٢ أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٧٤) برقم (٥٨)، وانظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٩/ ٤٩٣).

٢٥٥٣ السير ٣٨١/١١.



أولًا: **"أيوب"** هو: أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني بفتح السين–نسبة إلى عمل السختيان وبيعه–وهي الجلود الضأنية–قال ابن سعد: "كان أيوب ثقة ثبتًا في الحديث جامعًا عدلًا ورعًا كثير العلم حجة"، توفي سنة ١٣١ هـ.[٢٠٠٤]

ومما روي عنه أنه قال: "إذا حُدث الرجل بسنة فقال: دعنا من هذا وأنبئنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال"[٢٠٠٥].

وعن عُمارة بن زاذان قال: قال لي أيوب: «يا عُمارة: إذا رأيت صاحب سنة وجماعة فاقبله على ما كان فيه»٢٠٠٦.

ثانيًا: **"وابن عون"** هو عبد الله بن عون شيخ أهل البصرة وعالمهم، من أهل الورع، قال ابن مهدي: «ما كان بالعراق أعلم بالسنة من ابن عون»، مات سنة ١٥٠هـ.٢٠٠٧

ومما روي عنه: قال محمد بن عبد الله الأنصاري: حدثني صاحب لي عن ابن عون، أنه سأله رجل فقال: أرى قوما يتكلمون في القدر. أفأسمع منهم؟ فقال(:وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) إلى قوله (الظالمين).[٢٠٠٨]

قال معاذ بن معاذ: ما رأيت رجلا أعظم رجاء لأهل الإسلام من ابن عون، لقد ذكر عنده الحجاج، وأنا شاهد، فقيل: يزعمون أنك تستغفر له؟ فقال: ما لي أستغفر للحجاج من بين الناس، وما بيني وبينه؟ وما كنت أبالي أن أستغفر له الساعة.

٢٠٠٤ انظر: الطبقات (٧/ ٢٤٦)، واللباب (٢/ ١٠٨).

٢٠٠٥ أورده السيوطي في مفتاح الجنة (ص ٣٥) وعزاه للبيهقي.

٢٠٠٦ المعجم لابن الأعرابي(٤٣١)

٢٠٠٧ انظر: «العبر في خبر من غبر» (١/ ٢١٥)، و«الكامل في التاريخ» (٥/١٠٢)، وشذرات الذهب» (١/ ٢٣٠).

٢٠٠٨ سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦٧.

قال الذهبي: "وقد سعت به المعتزلة إلى إبراهيم بن عبد الله بن حسن، الذي خرج بالبصرة فقالوا: ها هنا رجل يربث عنك الناس. فأرسل إليه إبراهيم: أن ما لي ولك؟ فخرج عن البصرة حتى نزل القريطية وأغلق بابه.[٢٥٥٩]

ثالثًا: "ويونس بن عبيد" هو يونس بن عبيد أبو عبد الله مولى لعبد القيس، كان إمامًا علمًا وحافظًا مقدمًا متقنًا، مات سنة ١٣٩ هـ.[٢٥٦٠]

قال عنه الذهبي: "الإمام القدوة، الحجة أبو عبد الله العبدي، مولاهم البصري. من صغار التابعين وفضلائهم"[٢٥٦١].

ومما روي عنه قال الذهبي: "وقال سعيد بن عامر الضبعي: حدثنا أسماء بن عبيد، سمعت يونس بن عبيد يقول: ليس شيء أعز من شيئين: درهم طيب، ورجل يعمل على سنة".[٢٥٦٢]

عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا إبراهيم بن الحسن الباهلي، حدثنا حماد بن زيد قال: قال يونس بن عبيد: "ثلاثة احفظوهن عني: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلون أحدكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء"[٢٥٦٣].

رابعًا: "وعبد الله بن إدريس الأودي" هو عبد الله بن إدريس الأودي أبو محمد الكوفي الحافظ العابد، قال أبو حاتم: "هو إمام من أئمة المسلمين حجة"، مات سنة ١٩٢ هـ.[٢٥٦٤]

٢٥٥٩ سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٠.

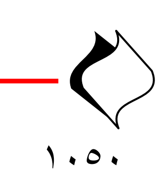
٢٥٦٠ انظر: شذرات الذهب، (٢/ ٢٠)، والمنتظم، (٨/ ٢٠)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٢٩).

٢٥٦١ سير أعلام النبلاء (٦/٢٨٨).

٢٥٦٢ سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٠.

٢٥٦٣ سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٩٢.

٢٥٦٤ انظر: شذرات الذهب (١/ ٣٣٠)، والطبقات الكبرى، لابن سعد (١/ ١٧٠)، و«الوافي بالوفيات» (١٧/ ٣٧).



حدث عنه: مالك، وهو من مشـــايخه، وابن المبارك، ويحيى بن آدم، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو بكر وعثمان ابنا أبي شـــيبة، وهناد، وأبو كريب، وأبو سعيد الأشج، والحسن بن عرفة، وأحمد بن عبد الجبار العطاردي، وخلق كثير.[٢٠٦٥]

خامسًا: "والشعبي" هو عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي كان حافظ ثقة مفتي أدرك جماعة من الصحابة، مات سنة١٠٤هـ.[٢٠٦٦]

قال ابن عيينة: "علماء الناس ثلاثة؛ ابن عباس في زمانه، والشـــعبي في زمانه، والثوري في زمانه[٢٠٦٧]".

ومما روي عن الشعبي أنه قال: "أدركت خمسمائة صحابي أو أكثر يقولون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي".

وأما عمرو بن مرزوق، فرواه عن شـــعبة، وفيه: يقولون: "علي وطلحة والزبير في الجنة".[٢٠٦٨]

ســـــادسًـــا: "ومالك بن مغول" هو مالك بن مغول البجلي الكوفي كان كثير الحديث ثقة حجة، مات سنة ١٥٩هـ.[٢٠٦٩]

وعن مالك بن مغول قال لي الشـــعبي: "ما حدثوك هؤلاء عن النبي–صـــلى الله عليه وسلم–فخذه، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش".[٢٠٧٠]

قال أحمد: ثقة، ثبت في الحديث.[٢٠٧١]

٢٠٦٥ سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٣.

٢٠٦٦ انظر: «المنتظم، (٧/ ٩٢)، و«البداية والنهاية» (٩/٢٣٠)، وتاريخ بغداد (٢٢٧/١٢).

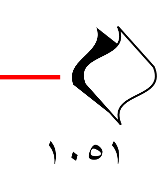
٢٠٦٧ سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٠٠.

٢٠٦٨ سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٠١.

٢٠٦٩ انظر: «العبر في خبر من غبر» (١/ ٢٣٣)، و«الكامل» (٥/ ٢٢٧)، وشذرات الذهب، (١/ ٢٤٧).

٢٠٧٠ سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧٦.

٢٠٧١ سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧٤.



سابعًا: **"ويزيد بن زريع"** هو يزيد بن زريع أبو معاوية الحافظ، المجود، محدث البصرة، شيخ الإمام أحمد في الحديث، كان ثقة عابدًا ورعًا، قال أحمد بن حنبل: كان ريحانة البصرة، ما أتقنه، وما أحفظه؛ مات سنة ١٨٢ هـ.[٢٥٧٢]

قال الذهبي: وكان صاحب سنة واتباع، كان يقول: من أتى مجلس عبد الوارث[٢٥٧٣] فلا يقربني.[٢٥٧٤]

قال صالح بن حاتم بن وردان: سمعت يزيد بن زريع يقول: "لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد".[٢٥٧٥]

ثامنًا: **"ومعاذ بن معاذ"** هو معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان بن الحر بن مالك بن الخشخاش، التميمي القاضي الإمام الحافظ، أبو المثنى العنبري البصري. كان من الأثبات في الحديث أثنى عليه أحمد بن حنبل وغيره، مات سنة ١٩٦ هـ.[٢٥٧٦]

٢٥٧٢ انظر: العبر في خبر من غبر، (١/ ٢٨٤)، والبداية والنهاية، (١٠/ ١٨٢)، والمنتظم، (٩/ ٨٢)، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٧.

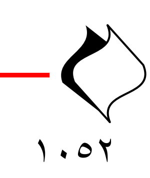
٢٥٧٣ عبد الوارث بن سعيد ابن ذكوان الإمام، الثبت، الحافظ أبو عبيدة العنبري، قال الذهبي: وكان عالما مجودًا، من فصحاء أهل زمانه، ومن أهل الدين والورع، إلا أنه قدري مبتدع، وعن الحسن بن الربيع قال: كنا نسمع من عبد الوارث، فإذا أقيمت الصلاة ذهبنا، فلم نصل خلفه، قال: وقيل لعبد الله بن المبارك: كيف رويت عن عبد الوارث، وتركت عمرو بن عبيد؟ قال: إن عمرا كان داعيا. قال الذهبي: ومع هذا، فحديثه في الكتب الستة. وعاش بعد حماد بن زيد أشهرًا قليلة، مات في المحرم سنة ثمانين ومائة.

وقال البخاري: قال عبد الصمد: إنه لمكذوب على أبي، وما سمعته منه قط، يعني القدر. " سير أعلام النبلاء ٨/٣٠١-٣٠٤.

٢٥٧٤ سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٧.

٢٥٧٥ سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٨.

٢٥٧٦ انظر: «المنتظم» (١٠/ ٣٤)، و«شذرات الذهب» (١/ ٣٤٥)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٥٤).



قال أحمد بن حنبل: "معاذ بن معاذ إليه المنتهى في التثبت بالبصـرة، وقال: هو قرة عين في الحديث، رواها المروذي عنه".[٢٥٧٧]

تاسـعًا: "**ووهب بن جرير**" هو: وهب بن جرير بن حازم بن زيد بن عبد الله بن شـجاع، الحافظ الصـدوق الإمام، أبو العباس الأزدي البصـري؛ كان ثقة، مات سنة ٢٠٦ هـ[٢٥٧٨]

قال الذهبي: "روى عثمان بن سعيد عن ابن معين: وهب بن جرير ثقة"[٢٥٧٩].

عاشـرًا: "**وحماد بن سلمة**" هو: حماد بن سـلمة بن دينار أبو سـلمة البصـري الحافظ عالم أهل البصرة كان سيد أهل وقته، مات سنة ١٦٦ هـ.[٢٥٨٠]

قال الذهبي: "ولم يكن مثل حماد بالبصرة ولم يكن يثلبه إلا معتزلي أو جهمي لما كان يظهر من السنن الصحيحة.

قال شـيخ الإسـلام في الفاروق له قال أحمد بن حنبل: "إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام فإنه كان شديدا على المبتدعة"٢٥٨١

الحادي عشـــر: "**وحماد بن زيد**" هو حماد بن زيد بن درهم أبو إسماعيل، العلامة، الحافظ الثبت، محدث الوقت، إمام أهل البصرة، كان من أهل الورع والدين، مات سنة ١٧٩ هـ.٢٥٨٢

٢٥٧٧ سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٥).

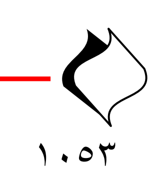
٢٥٧٨ انظر: الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٩٨)، و«العبر في خبر من غبر، (١/ ٣٥٠)، وشذرات الذهب» (٢/ ١٦).

٢٥٧٩ سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٤٤).

٢٥٨٠ انظر: شذرات الذهب» (١/ ٢٩٢)، و«العبر في خبر من غبر، (١/ ٢٤٨)، والوافي بالوفيات» (١٣/ ٨٩).

٢٥٨١ سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٥٠).

٢٥٨٢ انظر: العبر في خبر من غبر، (١/ ٢٧٤)، و«شـذرات الذهب» (١/٢٩٢)، والأنسـاب، للسـمعاني (١/ ١٢١).



قال الذهبي: "قال عبد الرحمن بن مهدي: أئمة الناس في زمانهم أربعة: سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة.

وقال يحي بن معين: ليس أحد أثبت من حماد بن زيد.

وقال يحي بن يحي النيسابوري: ما رأيت شيخا أحفظ من حماد بن زيد.

وقال أحمد بن حنبل: حماد بن زيد من أئمة المسلمين، من أهل الدين، هو أحب إلي من حماد بن سلمة.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: "لم أر أحدا قط أعلم بالسنة، ولا بالحديث الذي يدخل في السنة من حماد بن زيد."[٢٥٨٣]

قال الذهبي: "قال عبد الرحمن بن أبي حاتم الحافظ: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب: سمعت حماد بن زيد يقول: إنما يدورون على أن يقولوا: ليس في السماء إله-يعني الجهمية-.

وعن أبي النعمان عارم، قال: قال حماد بن زيد: القرآن كلام الله، أنزله جبريل من عند رب العالمين.

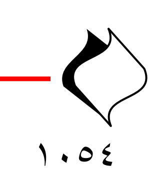
قلت: لا أعلم بين العلماء نزاعا، في أن حماد بن زيد من أئمة السلف، ومن أتقن الحفاظ وأعدلهم، وأعدمهم غلطا، على سعة ما روى -رحمه الله-"[٢٥٨٤]

وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه: "إذا رأيت بصرياً يحب حماد بن زيد فهو صاحب سنة"[٢٥٨٥].

٢٥٨٣ سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٨).

٢٥٨٤ سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٦١).

٢٥٨٥ أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي ٦٢



الثاني عشــــر: **"ومالك بن أنس"** هو: مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وأحد أئمة أهل الســـنة المشـــهورين، وإليه تنســـب المالكية له مؤلفات عدة على رأســـها (الموطأ) الكتاب المشهور، ولد بالمدينة، وتوفى بها عام ١٧٩ هـ.٢٠٨٦

ومما روي عنه قال رحمه الله تعالى: "من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرســـالة، لأن الله يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا"٢٠٨٧.

وكان رحمه الله كثيرا ما يقول:

وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع٢٠٨٨

ومن قوله كذلك: "قبض رســـول الله صـــلى الله عليه وســـلم وقد تم هذا الأمر واســـتكمل، فإنما ينبغي أن نتبع آثار رســـول الله صـــلى الله عليه وســـلم ولا نتبع الرأي"٢٠٨٩.

وجاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة فقال له: قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم كذا وكذا، فقال الرجل: أرأيت، فقال مالك: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ٢٠٩٠

الثالث عشــــر: **"والأوزاعي"** هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، شـــيخ الإســـلام، وعالم أهل الشـام، كان عابدا مجاهدا، قال عنه الحاكم: الأوزاعي إمام عصـره عمومًا وإمام أهل الشام خصوصًا، توفي ببيروت عام ١٥٧ هـ.[٢٠٩١]

٢٠٨٦ الديباج المذهب (١/ ٨٢-١٣٥) والبداية (١٠/ ١٧٤).

٢٠٨٧ الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

٢٠٨٨ الاعتصام للشاطبي (١/ ٨٥).

٢٠٨٩ الاعتصام للشاطبي (١/ ١٠٥).

٢٠٩٠ المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص ٢٠١).

٢٠٩١ البداية والنهاية (١٠/ ١١٥-١٢٠).

ومما روي عن الأوزاعي قال: "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته"[٢٥٩٢].

وقال الأوزاعي رحمه الله: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يَستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية مُوافقة للسنة. وكان مَن مضى مِن سلفنا لا يُفَرِّقون بين الإيمان والعمل، والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنَّما الإيمان اسم يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل؛ فمَن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق بعمله؛ فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها. ومَن قال بلسانه ولم يَعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله؛ لم يُقبل منه وكان في الآخرة من الخاسرين» (٢٥٩٣).

وقال بقية بن الوليد رحمه الله: "إنا لنمتحن الناس بالأوزاعي فمن ذكره بخير عرفنا أنه صاحب سنة"[٢٥٩٤].

الرابع عشر: "وزائدة بن قدامة" هو زائدة بن قدامة أبو الصلت الثقفي الكوفي الحافظ، الإمام الثبت، قال أبو حاتم: "صاحب سنة"، مات سنة ١٦١ هـ.٢٥٩٥

وعن أحمد بن حنبل: "المتثبتون في الحديث أربعة: سفيان، وشعبة، وزهير، وزائدة".٢٥٩٦

قال أحمد بن يونس: رأيت زهير بن معاوية جاء إلى زائدة، فكلمه في رجل يحدثه، فقال: أمن أهل السنة هو؟ قال: ما أعرفه ببدعة. فقال: من أهل السنة هو؟

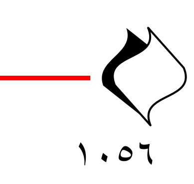
٢٥٩٢ انظر كتاب الأسماء والصفات ص (٣٠٤).

٢٥٩٣رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٨٠٧).

٢٥٩٤ تهذيب التهذيب ٢١٧/٦.

٢٥٩٥ انظر: العبر في خبر من غبر، (١/ ٢٣٦)، و«شذرات الذهب (١/ ٢٥١) و«الوافي بالوفيات، (١٤/ ١١٤).

٢٥٩٦ سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٧٦).



فقال زهير: متى كان الناس هكذا؟ فقال زائدة: متى كان الناس يشتمون أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما-؟[٢٥٩٧]

وقول المصنف: **"وإذا رأيت الرجل يحب] الحجاج بن المنهال، وأحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر، فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله إذا ذكرهم بخير، وقال بقولهم"**

وقول المصنف: **"الحجاج بن المنهال"** هو الحافظ الإمام القدوة العابد الحجة أبو محمد البصري الأنماطي؛ قال أبو حاتم: ثقة فاضل، وقال أحمد بن عبد الله العجلي: ثقة، رجل صالح، قال خلف كردوس: كان حجاج صاحب سنة يظهرها، مات في سنة ست عشرة ومائتين.[٢٥٩٨]

وقول المصنف: **"وأحمد بن حنبل"** هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس الشيباني، أحد الأئمة الأعلام. كنيته: أبو عبد الله[٢٥٩٩].

قال يحيى بن معين أيضًا: كان في أحمد بن حنبل خصالٌ ما رأيتُها في عالم قط، كان محدثًا، وكان حافظًا، وكان عالِمًا، وكان ورِعًا، وكان زاهدًا، وكان عاقلًا"[٢٦٠٠].

قال الإمام أبو حاتم إذا رأيت البغدادي يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة وإذا رأيته يبغض ابن معين فاعلم أنه كذاب)).٢٦٠١

قال قتيبة: خيرُ أهل زماننا: ابن المبارك، ثم هذا الشاب-يعني: أحمد بن حنبل- وإذا رأيت رجلًا يحب أحمد، فاعلم أنه صاحب سُنة، ولو أدرك عصر الثوري

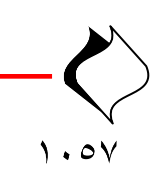
٢٥٩٧ سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٧٧).

٢٥٩٨ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٥٣.

٢٥٩٩ سير أعلام النبلاء للذهبي. ١١ /. ١٩٨.

٢٦٠٠ (البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠ صـ ٣٥٠).

٢٦٠١ تهذيب التهذيب ٢٤٨/١١.



والأوزاعي والليث، لكان هو المقدَّم عليهم، فقيل لقتيبة: يضـــم أحمد إلى التابعين؟ قال: إلى كبار التابعين.

وقال قتيبة: لولا الثوري لمات الورعُ، ولولا أحمدُ لأحدَثوا في الدِّين؛ أحمد إمام الدنيا"[٢٦٠٢]

وقول المصنف: **"وأحمد بن نصر"** هو الإمام الكبير الشهيد، أبو عبد الله، أحمد بن نصـــر بن مالك بن الهيثم الخزاعي المروزي ثم البغدادي. كان جده أحد نقباء الدولة العباسية، وكان أحمد أمارًا بالمعروف، قوالا بالحق[٢٦٠٣].

قال ابن كثير: "كان أحمد بن نصـر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصـالح والاجتهاد في الخير، وكان من أئمة الســـنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وكان الواثق من أشـد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلا ونهارا، سـرا وجهارا، اعتمادا على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون، من غير دليل ولا برهان، ولا حجة ولا بيان، ولا سنة ولا قرآن.

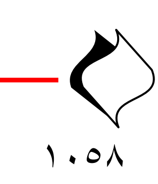
فقام أحمد بن نصـــر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن النكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها"[٢٦٠٤].

وقول المصنف: **"فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله إذا ذكرهم بخير، وقال بقولهم"**

٢٦٠٢ سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/ ١٩٥.

٢٦٠٣ سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/ ١٦٦.

٢٦٠٤ البداية لابن كثير: ٥/ ٣٢٣.



ذكر المصنف -رحمه الله-لهؤلاء الأئمة هو لما عرف عنهم من تمسكهم بالكتاب والسنة رواية ودراية، مع ما ذكر عنهم في سيرهم من الفقه في دين الله مع ما كانوا عليه من العبادة والزهد والورع والحرص على نشر السنة وتعليمها والدعوة إليها والجهاد في سبيلها، فهم أئمة الهدى علمًا وقدوة، ومن كبار علماء الأمة وساداتها.

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

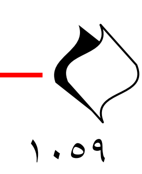
[١٣٤] "وإذا رأيت الرجل جالس مع رجل من أهل الأهواء، فحذره وعرفه، فإن جلس معه بعدما علم فاتقه، فإنه صاحب هوى".

الشرح

الآثار الواردة في التحذير من مجالسة أهل البدع والأهواء كثيرة جدًا في كتب أهل السنة، من حيث الأصل، قال الإمام البغوي: "وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم، وعلماء السنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة، ومهاجرتهم"[٢٦٠٥].

قال الشاطبي: "فإن الإيواء يجامع التوقير، ووجه ذلك ظاهر؛ لأن المشي إليه والتوقير له تعظيمٌ له لأجل بدعته؛ وقد علمنا أن الشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا كالضرب والقتل، فصار توقيره صدوداً عن العمل بشرع

٢٦٠٥ "شرح السنة" (١/٢٢٧).



الإســـلام، وإقبالاً على ما يضـــاده وينافيه، والإســـلام لا ينهدم إلا بترك العمل به، والعمل بما ينافيه"[٢٦٠٦].

والتحذير يشمل أمورًا منها:

١-مجالستهم.

٢-مجادلتهم.

٣-الاستماع إليهم.

٤-مصاهرتهم[٢٦٠٧].

٥-مؤاخاتهم.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية-رحمه الله-: "فالمصـاحبة والمصـاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله"[٢٦٠٨]

وعَنْ هِشَامٍ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدٌ يَقُولَانِ: "لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، وَلَا تُجَادِلُوهُمْ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ"[٢٦٠٩].

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: يَكُونُ مَجْلِسُـــكَ مَعَ الْمَسَـــاكِينِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْلِسَ مَعَ صَـــاحِبِ بِدْعَةٍ"[٢٦١٠].

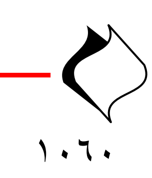
٢٦٠٦ (الاعتصام) (١/٨٥).

٢٦٠٧ عن ابن سـيرين قال: "تزوج عمران بن حطان خارجية وقال سـأردها قال فصـرفته إلى مذهبها". سـير أعلام النبلاء: (٤/ ٢١٣).

٢٦٠٨ مجموع الفتاوى (١٥/٣٢٧).

٢٦٠٩ "الإبانة عن شـريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صـحبة قوم يمرضـون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٠٠).

٢٦١٠ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٥٧).



وعن سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدَّتِي أَسْمَاءَ تُحَدِّثُ قَالَتْ: دَخَلَ رَجُلَانِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ مِن أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فَقَالَا: يَا أَبَا بَكْرٍ نُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ قَالَ: لا، قَالَا: فَنَقْرَأُ عَلَيْكَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ قَالَ: لَا، لِتَقُومَانِ عَنِّي، أَوْ لَأَقُومَنَّ"[٢٦١١].

وعن سَلَّامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ قَالَ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَسْأَلُكَ عَنْ كَلِمَةٍ، قَالَ أَيُّوبُ وَجَعَلَ يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ: وَلَا نِصْفَ كَلِمَة، وَلَا نِصْفَ كَلِمَةٍ"[٢٦١٢].

قَالَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: لَا تُمَكِّنُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مِنْ سَمْعِكَ فَيَصُبُّ، فِيهَا مَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ قَلْبِكَ"[٢٦١٣].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: "من سمع مبتدعاً لم ينفعه الله بما سمع، ومن صافحه فقد نقض الإسلام عروةً عروةً" ٢٦١٤.

قال الإمام مالك: "وكان يقال لا تُمكن زائغ القلب من أذنيك فإنك ما تدري ما يعلمك من ذلك"[٢٦١٥].

"والهجر الشرعي نوعان:

أحدهما: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

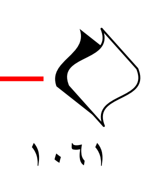
٢٦١١ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٠٣).

٢٦١٢ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٠٧).

٢٦١٣ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٤١).

٢٦١٤ الأمر بالاتباع، للسيوطي، (ص: ١٩).

٢٦١٥ الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ لابن أبي زيد القيرواني١/ ١١٩.



فالنوع الأول: هو المذكور في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨].. فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم، وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم، وأمثال ذلك...

النوع الثاني: الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها، كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر"[٢٦١٦].

والتحذير من المجالسة والاستماع لأهل البدع والأهواء فجاء لأسباب منها:

أولًا: أن المجالسة قد تكون سببًا للدخول في بدع أهل الأهواء وضلالاتهم.

لأنه في مقابل كل بدعة تهدم سنة، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام أيضاً: "من أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشِّرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا، فإن البدع هي مبادئ الكفر ومظان الكفر، كما أن السنن المشروعة هي مظاهر الإيمان، ومقوية للإيمان، فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية"[٢٦١٧].

ثانيًا: وأنها سبب لدخول الشبه والشكوك.

فعَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ: "لَا تُجَالِسُوا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا تَعْرِفُونَ"[٢٦١٨].

٢٦١٦ ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/٢٠).

٢٦١٧ مجموع الفتاوى (١٠/٥٦٥).

٢٦١٨ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٦٩).



وعَنْ عَمْرِو ابْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: "لَا تُجَالِسْ صَاحِبَ زَيْغٍ، فَيُزِيغَ قَلْبَكَ"[٢٦١٩].

ثالثًا: أنها ممرضة للقلوب.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "لَا تُجَالِسْ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ"[٢٦٢٠].

وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: "لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةٌ لِلْقُلُوبِ"[٢٦٢١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث"[٢٦٢٢].

رابعًا: أن في ذلك مساواة بين الحق والباطل.

قِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ: إِنَّ رَجُلًا يَقُولُ: أَنَا أُجَالِسُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَأُجَالِسُ أَهْلَ الْبِدَعِ، فَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: "هَذَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ"[٢٦٢٣].

خامسًا: أن المجالسة تدل على المجانسة.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ} [آل عمران: ١١٨].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب»[٢٦٢٤].

٢٦١٩ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٧١).

٢٦٢٠ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٧٦).

٢٦٢١ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٣٧٨).

٢٦٢٢ اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٨١).

٢٦٢٣ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٣٥).

٢٦٢٤ أخرجه البخاري حديث (٦١٦٨)، ومسلم حديث (٢٦٤٠).



وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء على دين خليله»[٢٦٢٥].

وعن يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ الْقَطَّانَ، يَقُولُ لَمَّا قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الْبَصْرَةَ: جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى أَمْرِ الرَّبِيعِ يَعْنِي ابْنَ صُبَيْحٍ، وَقَدْرَهُ عِنْدَ النَّاسِ، سَأَلَ: أَيُّ شَيْءٍ مَذْهَبُهُ؟ قَالُوا: مَا مَذْهَبُهُ إِلَّا السُّنَّةُ قَالَ: مَنْ بِطَانَتُهُ؟ قَالُوا: أَهْلُ الْقَدَرِ قَالَ: هُوَ قَدَرِيٌّ"[٢٦٢٦].

وقال الْفُضَيْلَ ابْنَ عِيَاضٍ: "الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ سُنَّةٍ يُمَالِي صَاحِبَ بِدْعَةٍ إِلَّا مِنَ النِّفَاقِ"[٢٦٢٧].

قال الخطابي رحمه الله في شرح سنن أبي داود عند شرحه لقوله ﷺ ((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي))[٢٦٢٨] وإنما حذر من صحبة من ليس بتقي وزجر عن مخالطته ومؤاكلته فإن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب يقول: لا تؤالف من ليس من أهل التقوى والورع ولا تتخذه جليساً تطاعمه وتنادمه". اهـ[٢٦٢٩]

وقال في شرح حديث ((الأرواح جنود مجندة))[٢٦٣٠]: يقول صلى الله عليه وسلم: "إن الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا فتأتلف وتختلف على حسب ما جعلت عليه من التشاكل أو التنافر في بدء الخلقة ولذلك ترى البَر الخير يحب شكله

٢٦٢٥ أخرجه الإمام أحمد حديث (٨٠٢٨)، وأبو داود حديث (٤٨٣٣)، والترمذي حديث(٢٣٧٨).

٢٦٢٦ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٢٦).

٢٦٢٧ "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" لابن بطة في "باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان" رقم: (٤٣٤).

٢٦٢٨ رواه الترمذي في كتاب الزهد من سننه، باب ما جاء في صحبة المؤمنين ٤/٦٠٠ (٢٣٩٥)، وقال: "هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه"، ورواه ابن حبان في صحيحه ٢/٣١٤، والإمام أحمد ٣/٣٨، وأبو داود في سننه ٤/٢٥٩، والدارمي ٢/١٤٠، والحاكم وصححه في المستدرك ٤/١٤٣، والطبراني في الأوسط ٣/٢٧٧، وأبو يعلى في مسنده ٢/٤٨٤، والبيهقي في الشعب ٧/٤٢، والمزي في تهذيب الكمال ١٠/١٧١، وغيرهم.

٢٦٢٩ معالم السنن ط/حلب (٤/ ١١٥).

٢٦٣٠ صحيح البخاري: (٣٣٣٦)، صحيح مسلم: (٢٦٣٨).



ويحن إلى قربه وينفر عن ضده، وكذلك الرَّهِق الفاجر يألف شِكله ويستحسن فعله وينحرف عن ضده". اهـ[٢٦٣١]

وهذا هو الأصل في التعامل مع أهل البدع ولكن الهجر له ضوابطه الشرعية المبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، وهذا مما يختلف باختلاف البدعة نفسها، واختلاف مبتدعها، واختلاف أحوال الهاجرين، واختلاف المكان والقوة والضعف، والقلة والكثرة، فلا بد من مراعاة كل هذا.

فمن الأمور التي يجب مراعاتها في أمر الهجر:

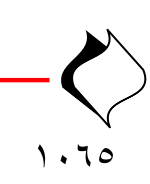
الأمر الأول: مراعاة حال الهاجرين

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: "وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم فإن المقصود به-يعني الهجر- زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر؛ بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف... وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل، ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع - كما كثر القدَر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة- وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه"[٢٦٣٢]

الأمر الثاني: التفريق بين من يدعو لبدعته وبين من لا يدعو لبدعته.

٢٦٣١ معالم السنن (٤/ ١١٥).

٢٦٣٢ ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/٢٠٣).



فيستثنى في أمر المجالسة والاستماع عند بعض العلماء ما لو كان ذلك الشخص لديه بعض العلم الصحيح ولم يكن في ذات الوقت داعيًا لبدعته.

قال الذهبي: "وعن الحسن بن الربيع قال: كنا نسمع من عبد الوارث، فإذا أقيمت الصلاة ذهبنا، فلم نصل خلفه.

قال: وقيل لعبد الله بن المبارك: كيف رويت عن عبد الوارث، وتركت عمرو بن عبيد؟ قال: إن عمرًا كان داعيا. ومع هذا، فحديثه في الكتب الستة"٢٦٣٣

وأما إذا كان داعيا لبدعته فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إنّ الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم"٢٦٣٤

الأمر الثالث: أن بعض أهل البدع قد يحمد من وجه ويذم من وجه.

فلكل أحد حسناته وسيئاته كما قرره شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله في قوله: "إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، سنة وبدعة، استحق من الموالاة بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بقدر ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا ومن هذا، كاللص الفقير نقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المال ما يكفي حاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنّة والجماعة"[٢٦٣٥].

وقال ابن تيمية رحمه الله: "ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض

٢٦٣٣ سير أعلام النبلاء ٨/٣٠١ -٣٠٤.

٢٦٣٤ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨/٢٠٥).

٢٦٣٥ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨/٢٠٩).



من وجه، هذا هو مذهب أهل السـنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم". [٢٦٣٦]

وقال شارح الطحاوية: "والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوبا من وجه مبغوضا من وجه، والحكم للغالب. [٢٦٣٧]"

الأمر الرابع: أن أنواع الهجر ثلاثة:

الأول: الهجر ديانة، أي: الهجر لحق الله تعالى، وهو من عمل أهل التقوى، في هجر السيئة، وهجر فاعلها، مبتدعًا أو عاصيًا.

وهذا النوع من الهجر على قسمين:

القسم الأول: هجر ترك: بمعنى هجر السيئات، وهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم إلا لحاجة أو مصلحة راجحة، قال الله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ٥]، وقال سبحانه: {وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل: ١٠]، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]، وقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء: ١٤٠]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)) [أخرجه البخاري في الإيمان.].

٢٦٣٦ منهاج السنة النبوية ٤ / ٥٤٣.

٢٦٣٧ شرح العقيدة الطحاوية: ٢/ ٥٤٧.



القسم الثاني: هجر تعزير: وهذا من العقوبات الشرعية التبصيرية التي يوقعها المسلم على المبتدعة على وجه التأديب، في دائرة الضوابط الشرعية للهجر حتى يتوب المبتدع ويفيء.

وهذا النوع بقسميه من أصول الاعتقاد، والأمر فيه أمر إيجاب في أصل الشرع، ومباحثه في كتب السنن والتوحيد والاعتقاد وغيرها.

النوع الثاني: الهجر لاستصلاح أمر دنيوي، أي الهجر لحق العبد، وفيه جاءت أحاديث الهجر بما دون ثلاث ليال، رواها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم بأسانيد في الصحيحين وغيرها، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال. وليس هو مجال حديثنا.

النوع الثالث: الهجر قضاء، وهو من العقوبات التعزيرية للمعتدين، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزير.[٢٦٣٨]

وأما المجادلة والمناظرة لأهل البدع:

فإن الأصل كما تقدم عدم مجادلتهم ومناظرتهم لكن هذا الأصل له استثناء حيث ورد عن السلف أنهم ناظروا أهل البدع والأهواء، وفي شأن هذا الأمر يفصل الأمر لنا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: "ولعل الراجح في المسألة أن الأمر يختلف باختلاف المِصْلَحَةِ.

١-فإن كان الخصم في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزام الناس بها أمكن أن يقال له: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على

٢٦٣٨ من رسالة (هجر المبتدع)، بتصرف.



الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق.

وهذه الطريق تكون أصلح إذا لَبَّسَ مُلَبِّسٌ منهم على ولاة الأمور، وأدخلوه في بدعتهم، كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال: إئتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة.

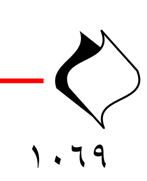
وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أدَّاه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة.

وبهذا ناظر الإمام أحمد الجهمية لما دعوه إلى المحنة، وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم.

فلما ذكروا حججهم كقوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام ١٠٢]، وقوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء ٢]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تجيء البقرة وآل عمران"، وأمثال ذلك من الأحاديث.

أجابهم عن هذه الحجج بما بين به أنها لا تدل على مطلوبهم.

ولما قالوا: ما تقول في القرآن أهو الله أو غير الله؟ عارضهم بالعلم فقال: ما تقولون في العلم أهو الله أو غير الله؟ ولما ناظره أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث–وكان من أحذقهم بالكلام–ألزمه التجسيم، وأنه إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً.



فأجابه الإمام أحمد: بأن هذا اللفظ لا يُدرى مقصود المتكلم به، وليس له أصل في الكتاب والسنة والإجماع، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله.

وأخبره أني أقول: هو أحد، صمد، لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفواً أحد، فبين أني لا أقول هو جسم ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام، فليست هذه من الحجج الشرعية التي يجب على الناس إجابة من دعا إلى موجبها، فإن الناس إنما عليهم إجابة الرسول فيما دعاهم إليه وإجابة من دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا إجابة من دعاهم إلى قول مبتدع، ومقصود المتكلم بها مجمل لا يُعرف إلا بعد الاستفصال والاستفسار، فلا هي معروفة في الشرع، ولا معروفة بالعقل إن لم يستفسر المتكلم بها.

فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً.

٢-وأما إذا كان المناظر معارضاً للشرع بما يذكره، أو ممن لا يمكن أن يرد إلى الشريعة.

مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات أو ممن يدَّعي أن الشرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع، ونحو ذلك.

أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء.

فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها إما:

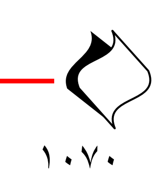
١-بألفاظهم.

٢-وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم.

وحينئذ يقال لهم الكلام إما:

أ-أن يكون في الألفاظ.

ب-وإما أن يكون في المعاني.



ج-وإما أن يكون فيهما.

فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع بل يسميه علة وعاشقاً ومعشوقاً ونحو ذلك.

فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً.

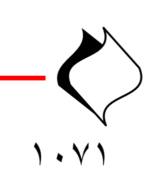
وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ. كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب.

وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة.

فإنه يقال له: إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة، وفي كل منها تلبيس وإيهام، فلابد من الاستفسار والاستفصال؛ أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات.

وقد ظن طائفة من الناس أن ذم السلف والأئمة للكلام إنما لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المحدثة كلفظ (الجوهر) و(الجسم) و(العرض)، وقالوا: إن مثل هذا لا يقتضي الذم، كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، وقد ذكر هذا صاحب الإحياء وغيره.

وليس الأمر كذلك: بل ذمهم للكلام لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث الألفاظ، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفته للعقل الصريح، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل قطعاً. ثم من الناس من يعلم بطلانه بعقله، ومنهم من لا يعلم ذلك.



وأيضــــاً: فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشــتراك الأسماء، وفي ذلك من فســاد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله.

فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والســـنة فالمعاني الصــحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة[٢٦٣٩].

وقال ابن عثيمين: "المجادلة والمناظرة نوعان:

النوع الأول: مجادلة مماراة: يماري بذلك السـفهاء، ويجاري العلماء، ويريد أن ينتصر قوله؛ فهذه مذمومة.

النوع الثـاني: مجـادلـة لإثبـات الحق وإن كـان عليـه؛ فهـذه محمودة مـأمور بها[٢٦٤٠].

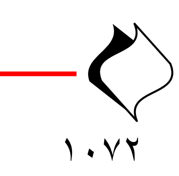
وقال الكرماني: "الجدال: هو الخصـام، ومنه قبيح وحسـن وأحسـن؛ فما كان للفرائض فهو أحسن، وما كان للمستحبات فهو حسن، وما كان لغير ذلك فهو قبيح"[٢٦٤١].

فهذه الخصومات وهذا الجدل وهذا المـِراء أمرٌ محدَث لا يُوجِد إلا الشك في القلوب ويبعِد عن الحق، ومهما حصـل من نفع منه في بعض الأحيان، فهو يسير لكن شره وفير، وقد يقول هؤلاء: نحن نخاصم به أهل الباطل، الذي لا يؤمن بالقرآن والسنَّة، وهذه حجة باطلة فهؤلاء لا الإسلام نصروا ولا الباطل كسـروا، فالقرآن، خاطب الكفار وخاطب المشـركين وخاطب أهل الكتاب، خاطبهم بقال الله وقال الرســـول، وفيه من الحجج والبراهين ما يكفي لبيان

٢٦٣٩ انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/٢٢٨-٢٣٣).

٢٦٤٠ العلم ص ١٦٤.

٢٦٤١ فتح الباري لابن حجر ١١/ ٣١٤.



الحق ودفع الباطل، ففي القرآن والســـنَّة من الأدلة العقلية واليقينية ما يغني ويشفي ولسنا بحاجة إلى فلسفةٍ ولا إلى علم كلام.

(المتن)

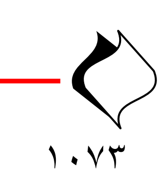
قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

[١٣٥] "وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده، ويريد القرآن، فلا [تشك] أنه رجل قد احتوى على الزندقة، فقم من عنده [ودعه]".

الشرح

جاء في الســـنة الإخبار عن هذا الصـــنف من الناس فعن المقدام بن معدي كرب قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: ((يوشِـكُ أنْ يقعُدَ الرجلُ مُتَّكِئًا على أَرِيكَتِهِ، يُحَدِّثُ بحديثٍ مِنْ حديثي، فيقولُ: بينَنَا وبينَكُمْ كتابُ اللهِ، فما وجدْنا فيه مِنْ حلالٍ اسْـــتَحْلَلْناهُ، وما وجدَنا فيه مِنْ حرامٍ حرَّمْناهُ، ألَا وإِنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ مثلَ ما حرَّمَ اللهُ))[٢٦٤٢].

٢٦٤٢ صحيح الترمذي: (٢٦٦٤)، وأخرجه ابن ماجه (١٢)، وأحمد (١٧١٩٤) باختلاف يسير.



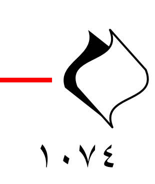
والمقصود بالسنة هنا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله وتقريراته. فالصحابة والتابعون وتابعوهم ومن سار على نهجهم يؤمنون بهذا الأصل الذي هو سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويوجبون العمل والاحتجاج بها، ويعتبرونها مصدرا مستقلا في التشريع، فلا يجب عرض ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم على القرآن، بل يجب اتباعه وطاعته مطلقا سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن.

فالإجماع من الأمة منعقد على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه في جميع ما جاء به من ربه عز وجل، وذلك لثبوت الأمر بهذا في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بل إن الأمر بوجوب طاعته صلى الله عليه وسلم يعد من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة التي لا يعذر إنسان بجهلها.

وقد حكى الشافعي رحمه الله تعالى إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، على أن من استبانت له سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى[٢٦٤٣].

٢٦٤٣ الرسالة التبوكية لابن القيم (ص ٣٧).



وقد تمثل إجماع الأمة على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه في اعتبار السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع وذلك بعد المصدر الأول الذي هو القرآن الكريم[٢٦٤٤].

ولقد كان من مظاهر ذلك الإجماع الاعتناء بسنته وحفظها ونقلها، وتعليمها في كل عصر من العصور.

فلقد اعتُني بالسنة فنقلها الخلف عن السلف، وحافظوا عليها، ووضعوا لها القواعد التي اعتنت بسلامتها سندا ومتنا.

وإيراد المصنف لهذه المسألة نظرًا لأنها ظهرت في زمن متقدم، فهذا القول ظهر في أواخر القرن الثاني الهجري فقد قام في الأمة من يدعو إلى إلغاء السنة بالكلية، وعدم الاعتداد بها في مصدرية التشريع نتيجة للشبهات التي خلفها الشيعة والخوارج والمعتزلة.

وقد ذكر الإمام الشافعي مناظرة جرت بينه وبين أحد أفراد هؤلاء، وذلك في كتاب (جماع العلم) المطبوع مع الأم٢٦٤٥

وفي القرن الثالث عشر الهجري ظهرت هذه الفتنة من جديد فكانت نشأتها في مصر وترعرعت وقويت في الهند.٢٦٤٦

فالدعوة إلى الاعتماد على القرآن دون السنة في التشريع الإسلامي بدأت تغزو الهند منذ نهاية القرن التاسع عشر، على إثر انتشار الأفكار التي بثها أعضاء حركة أحمد خان، غير أن مفعولها سرى بشكل واضح في بنجاب بأواسط الهند الموحدة ففي سنة ١٩٠٠م نهض من تلك البقعة غلام أحمد القادياني وأدعى النبوة، ومنها

٢٦٤٤ مجموع الفتاوى (١١/ ٣٣٩).

٢٦٤٥ الأم (٢٧٣/٧). في باب (حكاية قول الطائفة التي ردت الأخبار كلها).

٢٦٤٦ (دراسات في الحديث النبوي) للأعظمي (ص٢٦).

في عام ١٩٠٢م بدأ غلام نبي المعروف بعبد الله جكر الوي مؤسس الحركة القرآنية نشاطه الهدام، بإنكار السنة كلها متخذاً مسجداً بلاهور مقراً لحركته تلك، وقد تزعم حركة القرآنيين في بداية الأمر شخصيتان: محب الحق عظيم أبادي في بهار–شرقي الهند–وعبد الله جكر الوي في لا هور في آن واحد من منبع متحد"[٢٦٤٧]

والطعن في السنة والتشكيك فيها وغير ذلك من الأمور هو نتاج المدرسة العقلية، وكل هذه أصولها عند المعتزلة،

ويظهر بين فترة وأخرى فرق وأقوال وجماعات تُظهر شيئًا من الاعتزال، فالذي يظهر على أيدي هؤلاء العقلانيين هو ليس بجديد وإنما هو في حقيقته تراث اعتزالي، فإن هذا الكلام بعينه موجود عند المعتزلة الذين كانوا يطعنون في كبار الصحابة وفي مسائل السنة.

وهذا الفكر أصبح له صولة وجولة، يظهر في صور جماعات معينة وأسماء جديدة، لكن بعينها هي شُبَهُ المعتزلة نفسها تكررت وأعيدت فأحيت هذه المقالات.

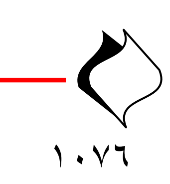
(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٣٦] "واعلم أن الأهواء كلها ردية تدعو كلها إلى السيف، وأرداها وأكفرها: الروافض، والمعتزلة، والجهمية، فإنهم [يريدون الناس] على التعطيل والزندقة".

شرح

٢٦٤٧ (القرآنيون لخادم بخش ص ١٩–٢٠).



قول المصنف: **"واعلم أن الأهواء كلها ردية تدعو كلها إلى السيف"**

ومعنى **"السـيف"**: الخروج على أئمة المسلمين وولاتهم، والخروج على جماعة المسلمين.

ومعنى **"تدعو"** إلى السيف بمعنى أنها تراه وتعتقده سواء فعلته أو لم تفعل.

وقد تقدم في الفقرة (٢٦) موقف السلف من الخروج وحمل السيف على الحكام وعلى جماعة المسلمين فليرجع إليه.

قال ابن تيمية-رحمه الله-: "ولهذا كان مذهبُ أهلِ الحديث: تَرْكَ الخروجِ بالقتال على الملوك البُغَاة، والصبرَ على ظُلْمِهم إلى أَنْ يَسْتريحَ بَرٌّ أو يُسْتراحَ مِنْ فاجرٍ"[٢٦٤٨].

وحمل السيف والخروج على الحكام هو سمة من سمات أهل الأهواء عمومًا وقد ورد عند عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قلابة، قال: سمعته يقول: "ما ابتدع قوم بدعة قط إلا استحلوا بها السيف"[٢٦٤٩]

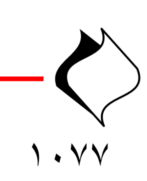
وعن أبي قلابة قال: "ما ابتدع قوم بدعة إلا استحلوا السيف"[٢٦٥٠].

وعن أيوب، عن أبي قلابة، قال: "إن أهل الأهواء أهل الضلالة، ولا أرى مصيرهم إلا إلى النار، فجربهم فليس أحد منهم ينتحل قولا أو قال :حديثا فيتناهى به الأمر دون السيف، وإن النفاق كان ضروبا، ثم تلا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، سورة التوبة الآية ٧٥ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾

٢٦٤٨ «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٤٤٤).

٢٦٤٩ مصنف عبد الرزاق ج١٠/١٥١.

٢٦٥٠ الشريعة للأجري ١ /٤٦، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٤٧).



فاختلف قولهم واجتمعوا في الشك والتكذيب، وإن هؤلاء اختلف قولهم واجتمعوا في السيف، ولا أرى مصيرهم إلا إلى النار".

قال أيوب عند ذا الحديث أو عند الأول: "وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب يعني: أبا قلابة"[٢٦٥١].

كان أيوب يسمي أهل الأهواء كلهم خوارج، ويقول: "إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف"[٢٦٥٢]

وممن عرف عنه الخروج على الحكام كل من الخوارج والمعتزلة، الذين يَرَوْن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون ضوابط شرعية، مما أدى إلى لازم ذلك من الخروج على جماعة المسلمين بالسيف والقتال.

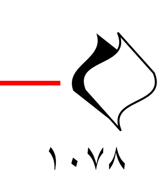
ولا شَكَّ أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الإسلام، وشريعة من شرائعه، لكن لا بد أن تؤدى بالوسائل الشرعية، فيجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وأن ينهي عن المنكر، لكن لا يخرج على جماعة المسلمين بحجة أنه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر؛ لأنه إذا خرج عليهم بالسلاح كان إفساده أكثر من إصلاحه؛ ويترتب على خروجه من المنكر أعظم مما هم موجود وقائم.

وهناك شواهد عبر التاريخ مما صنع الخوارج والمعتزلة الذين خرجوا بالقوة على جماعة المسلمين بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فأفسدوا أكثر مما أصلحوا، والقاعدة الأصولية العامة تقول: إن درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المصالح؛ فإذا كان هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيجلب مَفسدة، أو سيترتب عليه مفسدة أعظم من المفسدة القائمة؛ فتركه أَوْلَى، وكذلك لا يُزال المنكر بمُنكر أشد منه؛

ومعلوم أن البدعة تجر البدعة، والبدع توصل إلى القتال من باب التكفير الذي تساهل فيه الكثير من المبتدعة، وذلك يؤدي غالبًا إلى القتال والحروب بين المسلمين.

٢٦٥١ سنن الدارمي (١٠١)، والفريابي في القدر (٣٢٧).

٢٦٥٢ «شرح السُّنَّة» للبغوي (١٠/ ٢٣٣)، «اعتقاد أهل السنة» للالكائي (١/ ١٤٣).



قال ابن تيمية: "وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَحَدٌ إلَّا وَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مَقَالَةٌ يُكَفِّرُ قَائِلُهَا عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَصْحَابَهُ وَفِي التَّعْمِيمِ مَا يُغْنِي عَنْ التَّعْيِينِ فَأَيُّ فَرِيقٍ أَحَقُّ بِالْحَشْوِ وَالضَّلَالِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ يَقْتَضِي وُجُودَ الرِّدَّةِ فِيهِمْ كَمَا يُوجَدُ النِّفَاقُ فِيهِمْ كَثِيرًا. وَهَذَا إذَا كَانَ فِي الْمَقَالَاتِ الْخَفِيَّةِ فَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ فِيهَا مُخْطِئٌ ضَالٌّ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ صَاحِبُهَا؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ فِي طَوَائِفَ مِنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَعْلَمُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ؛"٢٦٥٣

واستثنى ابن تيمية من فرق الأهواء الأشعرية فقال: "والأشعرية لا يرون الخروج على الأئمة بالسيف موافقة لأهل الحديث وهم في الجملة أقرب المتكلمين إلى أهل السنة والحديث٢٦٥٤.

وقول المصنف: **"وأرداها وأكفرها: الروافض، والمعتزلة، والجهمية، فإنهم [يريدون الناس] على التعطيل والزندقة"**

قوله: **"الروافض"** مقالة الشيعة حدثت في خلافة علي رضي الله عنه (٣٥-٤٠هـ) لكن أصحابها كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلي وشيعته، بل كانوا ثلاث طوائف.

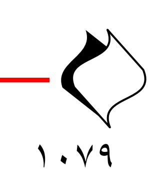
الطائفة الأولى:

"الغلاة" المدعين لإلهية علي، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار.

والطائفة الثانية:

٢٦٥٣ مجموع الفتاوى ٤/ ٥٣

٢٦٥٤ مجموع الفتاوى (٦/٥٥).



"**السـابة**" الذين يسبون أبا بكر وعمر، فإن علياً لما بلغه ذلك طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك عنه، وقيل إنه أراد قتله فهرب منه إلى أرض قرقيسيا أي ما تسمى اليوم (قرغيزيا).

والطائفة الثالثة:

"**المفضلة**" الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر، فأمر بجلدهم، فقد روى عنه أنه قال:

"فلا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري. وقد تواتر عنه أنه كان يقول على منبر الكوفة: "خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر، روى هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهاً ورواه البخاري[٢٦٥٥] وغيره. قال الإمام المطلبي: "لو كانوا دواباً لكانوا حُمُراً، ولو "كانوا طيراً لكانوا رخماً".[٢٦٥٦]

ولم تكابد الأمة من شؤم شيء ما كابدت من شؤم تلك الفتنة. لم يكد قلب مسلم يسلم من شرب منها إلا من رحم ربك فعصم.[٢٦٥٧]

ومنذ أن ظهر التشيع واليهود[٢٦٥٨] والمجوس[٢٦٥٩] يوقدون ناره تحت دعوى أن للرسول صلى الله عليه وسلم وصياً هو علي بن أبي طالب، ولكن الصحابة تمالؤا على ظلمه وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب.

"ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه وتشيعه، حتى صار ملجأً لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين، فقد دخل في الرافضة أهل الزندقة والإلحاد من "النصيرية" و "الإسماعيلية" وأمثالهم من الملاحدة "القرامطة" وغيرهم ممن كان بخراسان والعراق

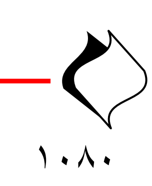
٢٦٥٥ أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب حدثنا الحميدي وعبد الله. ٧/٥

٢٦٥٦ منهاج السنة ٣٠٧،٣٠٨/١، مجموع الفتاوى ٣٣،٣٤/١٣.

٢٦٥٧ذم الكلام للهروي ص٣٠٤،٣٠٥ «بتصرف»

٢٦٥٨ انظر كتاب بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود، لعبد الله الجميلي.

٢٦٥٩انظر كتاب «وجاء دور المجوس» لعبد الله الغريب.



والشام وغير ذلك.[٢٦٦٠]

"ولم يزل الرفض يبتعد بأهله عن الدين والعقل والفطرة إلى يومنا هذا.[٢٦٦١]

قول المصنف: **"والمعتزلة"**

وهم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وكانت البصرة مركزاً للمعتزلة، وكانت كما يقولون: البصرة عشَّ القدرية، والكوفة عشَّ التشيُّع، فكانت مقالة القدرية أظهر في البصرة.

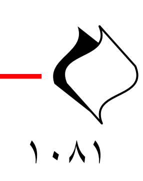
وواصل بن عطاء له قصة في مسألة مرتكب الكبيرة عندما جاء السائل يسأل الحسن البصري، وكان هو في مجلس الحسن البصري ومن أحد تلاميذه، وجاء السائل يسأل عن هذه المسألة، فسارع واصل بالإجابة وقال: أنه في منزلة بين المنزلتين، فجاء بمسألة مرتكب الكبيرة بقول أحدثه في هذا، إذ لم يكن هناك في ذلك الحين إلا قول الخوارج، وحكمهم على مرتكب الكبيرة، وقول أهل السنة، وقول المرجئة. فجاء واصل بقول يوافق فيه الخوارج من حيث النتيجة؛ لأن الفرق بين مقالة الخوارج ومقالة المعتزلة في هذه المسألة هو أنهم اختلفوا في حكم مرتكب الكبيرة في الدنيا، وإنما في المآل أي في الآخرة هم على قول واحد، إذ أن كلًّا من الخوارج والمعتزلة يقول: إنه خالد مخلد في النار، لكن المعتزلة يجعلونه في الدنيا لا مؤمن ولا كافر، ويقولون في منزلة بين المنزلتين.

فأظهر واصل بن عطاء هذه المقالة واعتزل مجلس الحسن البصري، ومن هنا من بعد ذلك سمي أتباعه المعتزلة. فنشأ الاعتزال في البصرة، وكانت في ذلك الوقت مرتع للبدع فكان فيها الخوارج والقدرية والمرجئة، وكذلك كان فيها شيء من التشيُّع.

وهم فرق كثيرة يجمعها ما يسمونه بأصولهم الخمسة وهي:

٢٦٦٠مجموع الفتاوى ٢٨/٥٢٨.

٢٦٦١شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ١/١٠.



١ـ التوحيد، ٢ـ العدل، ٣ـ الوعد والوعيد، ٤ـ المنـزلة بين المنـزلتين، ٥ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالتوحيد عندهم: نفي الصفات.

والعدل: هو القول بالقدر.

والوعد والوعيد: هو قولهم في مسائل الإيمان.

والمنزلة بين المنزلتين: هذه في مسألة مرتكب الكبيرة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا هو الأصل الخامس عند هؤلاء.

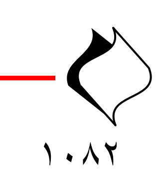
فمن هنا كان الاعتزال مركباً من عدة مقالات، فأخذ شيئًا من القدرية، وأخذ شيئًا من الخوارج، وأخذ كذلك شيئًا من الجهمية وإن كان هذا بعد ذلك.

فمثلاً تأثرهم بالخوارج لأن واصل بن عطاء كان يقول في مسألة أهل صفين، ومسألة التحكيم كان يقول: إن أحد الطائفتين يعني فاسق لا بعينه، فيفسق ولكن بدون تحديث أو تعيين أي الطائفتين كذلك. وكان يقال عنه: "لو جاء علي وأصحابه ومعاوية أصحابه يشهدون عندي على حزمة بقل، لرددت شهادة الاثنين"[٢٦٦٢].

وهذا يظهر مدى العلاقة بين الخوارج وبين المعتزلة فيما بعد، لأنه لا يزال إلى اليوم فكر الاعتزال موجوداً عند بقية الخوارج وهم الإباضية، والإباضية اليوم في مسائل الصفات وفي بعض المسائل على عقيدة الاعتزال، يدعون إليها بنفس الكلام الذي يقوله المعتزلة. وللاعتزال كذلك صلة بالتشيُّع لأن المعتزلة لو درسْت في تاريخهم، يزعمون أن واصل بن عطاء تتلمذ على الحسن والحسين ابني عليٍّ رضي الله عنهم، فيزعمون ويدَّعون ذلك.

وكان هناك تقارب بين المعتزلة والروافض، ولذلك الروافض اليوم الإمامية الاثنا عشرية، والزيدية في مسائل الأسماء والصفات يحملون فكر الاعتزال، فلو جئت إلى

(١) انظر كتاب العرش للذهبي الجزء الأول، صفحة (٥١).



الزيدية، ولو جئت إلى الروافض تناقشهم في مسائل الصفات تجد أن ما عندهم هو ما عند المعتزلة.

وكان من أشهر مقالات واصل بن عطاء مسألة المنزلة بين المنزلتين، ومقالة القدرية، وكذلك ميله في مسائل الإيمان إلى قول الخوارج في ذلك لأنهم يقولون: "إن الإيمان قول واعتقاد وعمل لكن لا يزيد ولا ينقص"[٢٦٦٣].

وهذا يظهر أن الاعتزال في حقيقته يحمل خليطاً من الآراء الباطلة التي كانت موجودة في ذلك العصر، فقد جمع المعتزلة بين أفكار الجهمية، والقدرية، والخوارج، والرافضة.

فقد شاركوا الجهمية في بعض أصولهم، فوافقوهم في إنكار الصفات، فزعموا أن ذات الله لا تقوم بها صفة ولا فعل، كما سيأتي تفصيله. وقالوا بإنكار رؤية الله يوم القيامة وقالوا إن القرآن مخلوق إلى غير ذلك.

كما شاركوا القدرية في إنكارهم لقدرة الله في أفعال العباد، وأخذوا عنهم القول بأن العباد يخلقون أفعالهم.

كما شاركوا الخوارج في مسألة الإيمان، وقالوا بقولهم إن الإيمان قول، واعتقاد، وعمل، لا يزيد ولا ينقص، وأنه إذا ذهب بعضه زال كلّه.

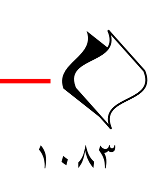
وبناءً على ذلك شاركوهم في مسألة مرتكب الكبيرة، فالمعتزلة وإن قالوا بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، لكنهم وافقوا الخوارج في قولهم بأن مرتكب الكبيرة في الآخرة خالد مخلد في النار.

وأخذوا كذلك عن الخوارج رأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما أنهم شاركوا الروافض في الطعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان من كلام واصل بن عطاء في أهل صفين قوله: "إن كليهما فاسق لا بعين" وقوله عن علي ومعاوية رضي الله عنهما: "لو أن كليهما جاء عندي يشهد على حزمة بقل ما قبلت شهادتهما"، وأواخر المعتزلة كانوا أقرب إلى التشيع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقدماء الشيعة كانوا مخالفين للمعتزلة بذلك (يعني مسائل الصفات والقدر)، فأما متأخروهم من عهد بني بويه ونحوهم من أوائل المائة الرابعة ونحو ذلك، فإنهم صار

[٢٦٦٣] انظر كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، صفحة (٤٣).



فيهم من يوافق المعتزلة في توحيدهم وعدلهم، والمعتزلة شيوخ هؤلاء إلى ما يوجد في كلام ابن النعمان المفيد وصاحبيه أبي جعفر الطوسي، والملقب بالمرتضى ونحوهم هو من كلام المعتزلة، وصار حينئذ في المعتزلة من يميل إلى نوع من التشيع إما تسوية علي بالخليفتين، وإما تفضيله عليهما، وإما الطعن في عثمان، وإن كانت المعتزلة لم تختلف في إمامة أبي بكر وعمر.

وقدماء المعتزلة كعمرو بن عبيد وذويه كانوا منحرفين عن علي حتى كانوا يقولون: لو شهد هو وواحد من مقاتليه شهادة لم نقبلها، لأنه قد فسق أحدهما لا بعينه. فهذا الذي عليه متأخرو الشيعة والمعتزلة خلاف ما عليه أئمة الطائفتين وقدماؤهم"٢٦٦٤.

كما أخذوا عن الشيعة الرافضة أكثر آرائهم الخاصة بالإمامة.

وعلى هذا فأفكار المعتزلة إنما هي خليط من آراء الفرق المخالفة في عصرهم.

وأفكار المعتزلة يحملها اليوم كل من: الرافضة الإمامية، والزيدية، والإباضية، وكذلك من يسمون بالعقلانيين.

فالمعتزلة ومعهم النجارية والضرارية والرافضة الإمامية والزيدية والإباضية وغيرهم. وهؤلاء مشتركون مع الجهمية والفلاسفة في نفي الصفات (٢٦٦٥) وإن كان بين الفلاسفة والمعتزلة نوع فرق (٢٦٦٦) فالمعتزلة تجمع على غاية واحدة وهي نفي إثبات الصفات حقيقة في الذات ومتميزة عنها. ولكنهم سلكوا طريقين في موقفهم من الصفات.

الطريق الأول: الذي عليه أغلبيتهم وهو نفيها صراحة فقالوا: إن الله عالم بذاته لا بعلم وهكذا في باقي الصفات.

والطريق الثاني: الذي عليه بعضهم وهو إثباتها اسماً ونفيها فعلاً فقالوا: إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته وهكذا بقية الصفات، فكان مجتمعاً مع الرأي الأول في الغاية وهي نفي الصفات.

والمقصود بنفي الصفات عندهم: هو نفي إثباتها حقيقة في الذات ومتميزة عنها، وذلك أنهم يجعلونها عين الذات فالله عالم بذاته بدون علم أو عالم بعلم وعلمه ذاته. (٢٦٦٧)

٢٦٦٤ نقض تأسيس الجهمية (١/٥٤-٥٥).

(٢٦٦٥) -مجموع الفتاوى ١٣١/١٣.

(٢٦٦٦) -مجموع الفتاوى ٥١/٦.

(٢٦٦٧) -المعتزلة وأصولهم الخمسة ص١٠٠.

وهناك آراء أخرى للمعتزلة لكنها تجتمع في الغاية مع الرأيين الأولين، وهو التخلص من إثبات الصفات حقيقة في الذات ومتميزة عنها. (٢٦٦٨)

وهذه الآراء للمعتزلة حملها عنهم الزيدية والرافضة الإمامية (٢٦٦٩) والإباضية. وابن تومرت (٢٦٧٠)، وابن حزم. (٢٦٧١)

فالمعتزلة يرون امتناع قيام الصفات به، لاعتقادهم أن الصفات أعراض، وأن قيام العرض به يقتضي حدوثه فقالوا حينئذ إن القرآن مخلوق، وإنه ليس لله مشيئة قائمة به، ولا حب ولا بغض ونحو ذلك.

وردوا جميع ما يضاف إلى الله إلى إضافة خلق، أو إضافة وصف من غير قيام معنى به. (٢٦٧٢)

وقول المصنف: "**والجهمية**"

مصطلح الجهمية: يطلق عند العلماء ويراد به أحد الأمرين:

الأمر الأول: الإطلاق الخاص فالمقصود به: الجهمية الفرقة بعينها أي أتباع الجهم بن صفوان.

الأمر الثاني: أو الإطلاق العام والمقصود به: الجهمية المقالة ويشمل ذلك مع الجهمية غيرهم من الفرق الذين شاركوا الجهمية في مقالة تعطيل الصفات كالمعتزلة والكلابية والأشاعرة والماتريدية وغيرهم.

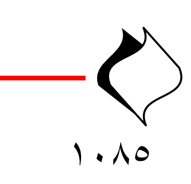
(٢٦٦٨) -المصدر السابق ص١٠١.

(٢٦٦٩) -لم يكن في قدماء الرافضة من يقول بنفي الصفات بل كان الغلو في التجسيم مشهوراً عن شيوخهم هشام بن الحكم وأمثاله، شرح الأصفهانية ص٦٨.

(٢٦٧٠) -كان أبو عبد الله محمد بن تومرت على مذهب المعتزلة في نفي الصفات، شرح الأصفهانية ص٢٣.

(٢٦٧١) -درء تعارض العقل والنقل ٥/٢٥٠،٢٤٩.

(٢٦٧٢) -مجموع الفتاوى ٦/٣٥٩،١٤٨،١٤٧.



أما الإطلاق الخاص: فهم أتباع جهم بن صفوان الذي أخذ عن الجعد ابن درهم مقالة التعطيل عندما التقى به بالكوفة[٢٦٧٣]، وقد نشر الجهم مقالة التعطيل وامتاز عن شيخه الجعد بمزية المغالاة في النفي وكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه نظراً لما كان عليه من سلاطة اللسان وكثرة الجدال والمراء.

من أشهر معتقداتهم:

١. إنكارهم لجميع الأسماء والصفات كما سيأتي تفصيله.

٢. أنهم في باب الإيمان مرجئة، يقولون: إن الإيمان يكفي فيه مجرد المعرفة القلبية، وهذا شر أقوال المرجئة.

٣. أنهم في باب القدر جبرية، ينكرون قدرة العبد واختياره في فعله.

٤. ينكرون رؤية الخلق لله يوم القيامة.

٥. يقولون إن القرآن مخلوق.

٦. يقولون بفناء الجنة والنار.

إلى غير ذلك من المعتقدات الباطلة التي قال بها الجهمية.

أما الإطلاق العام: فإنه يراد بالجهمية كل من تلقَّف مقالة التعطيل، فيشمل ذلك أتباع جهم، ويشمل المعتزلة، ويشمل ما يسمُّون بالصفاتية وهم: الكلابية، والأشعرة، والماتريدية، فلفظ الجهمية يشمل هؤلاء جميعهم.

وقول المصنف: **"فإنهم [يريدون الناس] على التعطيل والزندقة"**

أما التعطيل:

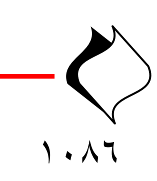
فالتعطيل لغة: مأخوذ من "العطل": الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: **{وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ}**[٢٦٧٤] أي أهملها أهلها وتركوا وردها[٢٦٧٥].

والتعطيل في جانب الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

٢٦٧٣ مختصر تاريخ دمشق (٦/٥٠)، والبداية (٩/٣٥٠).

٢٦٧٤ الآية ٤٥ من سورة الحج

٢٦٧٥ شرح الواسطية ص ٢٠



القسم الأول: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وهو المتمثل فيمن ينكر وجود خالق لهذا الكون، وهو قول الدهرية الملاحدة.

القسم الثاني: تعطيل عبادته عز وجل، أي ما يجب له عز وجل على عباده من حقيقة التوحيد وإفراده بالعبادة، وهو المتمثل في أهل الشرك الذين صرفوا شيئا من العبادة لغير الله عز وجل.

القسم الثالث: تعطيل الله سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله[٢٦٧٦].

وهذا القسم الثالث هو الذي نقصده هنا.

فالمراد بالتعطيل في باب الأسماء والصفات هو: نفي الأسماء والصفات أو بعضها وسلبها عن الله.

أو نقول: هو نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذات الله تعالى[٢٦٧٧].

وقد وقع في التحريف والتعطيل طوائف، يجمعهم أهل العلم تحت مسمى "المعطلة".

وينقسم المعطلة إلى قسمين رئيسيين هما:

القسم الأول: الفلاسفة.

وهم صنفان:

الصنف الأول: أهل الفلسفة البحتة.

الصنف الثاني: أهل الفلسفة الباطنية، وهي نوعان:

أ-رافضية.   ب-صوفية.

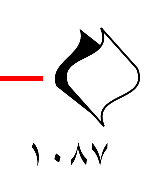
والقسم الثاني من المعطلة هم: أهل الكلام.

وهم خمسة أصناف:

ا-الجهمية.

٢٦٧٦ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٥٣

٢٦٧٧ شرح الواسطية ص٢٠



٢-المعتزلة.

٣-الكلابية.

٤-الأشاعرة.

٥-الماتريدية.

وقد تأخر زمن ظهور مقالة التعطيل مقارنة بغيرها من المقالات المتقدمة، فلم يكن لمقالة التعطيل وجود في عصر الصحابة وكبار التابعين، وإنما تأخر ظهورها إلى أواخر عصر التابعين من أوائل المائة الثانية.

فأولُ ظهورٍ لهذه المقالة كان في عهد هشام بن عبد الملك حيث أظهر الجعد بن دِرْهَم مقالةَ نفي الصفات وأظهر القولَ بنفي الصفات، فهو أول من عُرِفَ عنه القول بنفي الصفات وإِظهارِ هذه المقالة.

وقال ابن تيمية: "ظهرت مقالة التعطيل التي هي مقالة «الجهمية» في أواخر عصر التابعين من أوائل المائة الثانية."(٢٦٧٨)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه المسألة: (هذه مسألة كبيرة عظيمة القدر اضطرب فيها خلائق من الأولين والآخرين من أوائل المائة الثانية من الهجرة النبوية، فأما المائة الأولى فلم يكن بين المسلمين اضطراب في هذا. وإنما نشأ ذلك في أوائل المائة الثانية لما ظهر «الجعد بن درهم» وصاحبه «الجهم بن صفوان" ومن تبعهما من المعتزلة وغيرهم على إنكار الصفات) (٢٦٧٩).

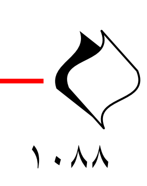
وقول المصنف: **"وأما الزندقة"**

أولًا: أصل الكلمة:

يُعد مصطلح الزّندقة كلمة معربة من اللغة الفارسيّة:

(٢٦٧٨) -منهاج السنة ٣٠٩/١، مجموع الفتاوى ١٧٧/١٣.

(٢٦٧٩) مجموع الفتاوى ٣٣/٦.



جاء في لســـان العرب لابن منظور: "الزنديق: القائل ببقاء الدهر، فارســـي معرب، وهو بالفارسـية: زند كراي[٢٦٨٠]، يقول بدوام بقاء الدهر. والزندقة: الضـيق، وقيل: الزنديق منه لأنه ضيق على نفسه.

وفي التهذيب: الزنديق معروف، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق. وقـال أحمـد بن يحيى: ليس زنـديق ولا فرزين[٢٦٨١] من كلام العرب، ثم قـال، ولكن البياذقة هم الرجالة، قال: وليس في كلام العرب زنديق، وإنما تقول العرب رجل زندق وزندقي إذا كان شـديد البخل، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا: ملحد ودهري، فإذا أرادوا معنى الســـن قالوا: دهري، قال: وقال ســـيبويه الهاء في زنادقة وفرازنة عوض من الياء في زنديق وفرزين، وأصـله الزناديق. قال الجوهري: الزنديق من الثنوية وهو معرب، والجمع الزنادقة، وقد تزندق، والاسم الزندقة"[٢٦٨٢].

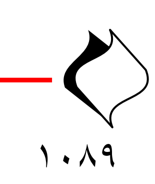
وأصـل الزنادقة اتباع ديصـان ثم ماني ثم مزدك الأول، وديصـان: بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحت بعدها صاد مهملة، وماني: بتشـديد النون وقد خفف والياء خفيفة، ومزدك: بزاي ســاكنة ودال مهملة مفتوحة ثم كاف وحاصـل مقالاتهم أن النور والظلمة قديمان، وأنهما امتزجا فحدث العالم كله منهما، فمن كان من أهل الشـــر فهو من الظلمة، ومن كان من أهل الخير فهو من النور، وأنه يجب السعي في تخليص النور من الظلمة.

وكان بهرام جد كســرى تحيل على ماني حتى حضــر عنده، وأظهر له أنه قبل مقالته، ثم قتله وقتل أصـحابه، وبقيت منهم بقايا اتبعوا مزدك المذكور؛ وقام الإسـلام

٢٦٨٠ لأن (زند): تعني: الحياة، و (كرد): تعني: العمل. انظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام (٤/ ٨٨).

٢٦٨١ فِرْزانُ الشِّطْرَنْجِ: مُعَرَّبُ فَرْزِينَ وجمعه، فَرازِينُ، انظر: القاموس المحيط.

٢٦٨٢ لسان العرب: (١٠/ ١٤٧).



والزنديق يطلق على من يعتقد ذلك، وأظهر جماعة منهم الإسلام خشية القتل، ومن ثم أطلق الاسم على كل من أسر الكفر، وأظهر الإسلام"[٢٦٨٣]

وقال محمد بن معن في التنقيب على المهذب: "الزنادقة من الثنوية، يقولون ببقاء الدهر وبالتناسخ.

قال: ومن الزنادقة الباطنية، وهو قوم زعموا أن الله تعالى خلق شيئًا، ثم خلق منه شيئًا آخر، فدبر العالم بأسره، ويسمونهما العقل والنفس، وتارة العقل الأول والعقل الثاني، وهو من قول الثنوية في النور والظلمة إلا أنهم غيروا الاسمين قال: ولهم مقالات سخيفة في النبوات، وتحريف الآيات، وفرائض العبادات"[٢٦٨٤]

ثانيًا: استعمالاتها

تعددت استعمالات هذه الكلمة ومعانيها ولعل ذلك يعود للاعتبارات التي وردت فيها تلك الاستعمالات.

أولًا: فالنظر إلى أصل استعمالها قبل الإسلام الزّنديق: هو الثّنويّ القائل بإلهين منهما يكون النّور والظّلمة ويسمّيهما: يزدان، وأهريمن، الأوّل: خالق الخير، والثّاني: خالق الشّرّ يعني الشّيطان.

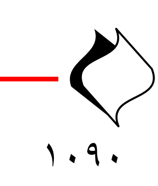
ثانيًا: وبالنظر إلى استعمالها في مصطلح الفقهاء الزنديق: هو المنافق الّذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود هنا أن الزنديق في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره سواء أبطن دينا من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم أو كان معطلا جاحدا للصانع والمعاد والأعمال الصالحة"[٢٦٨٥]

٢٦٨٣ انظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام (٤/ ٨٧-٨٨).

٢٦٨٤ البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام (٤/ ٨٨).

٢٦٨٥ مجموع الفتاوى (٧/٤٧١-٤٧٢).



قال مالك: "الزنديق ما كان عليه المنافقون؛ وكذا أطلق جماعة من الشافعين وغيرهم أن الزنديق هو الذي يظهر الاسلام ويبطن الكفر"٢٦٨٦.

وتعقب هذا التعريف بأنه "إن أرادوا اشتراكهم في الحكم فهو كذلك وإلا فأصلهم ما ذكر"٢٦٨٧

ويرى الإمام النووي في لغات الروضة أن كلمة منافق أعم من زنديق فيقول: "الزنديق الذي لا ينتعل دينا (أي لا يتبع دينا) فكل زنديق منافق من غير عكس"٢٦٨٨

ثالثًا: وبالنظر إلى استعمالها في كتب العقائد الزنديق: هو الّذي لا يؤمن بالحقّ تعالى وبالآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن الناس من يقول الزنديق هو الجاحد المعطل وهذا يسمى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة ونقلة مقالات الناس ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه هو الأول"٢٦٨٩

وعليه فإن الزنادقة هم قوم لا يقرون بشريعة الإسلام في بواطنهم، وإن كان البعض يظهر للناس أنه مسلم.

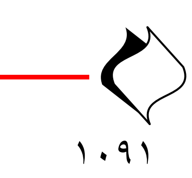
وزندقتهم تظهر في صور متعددة من صور الإعراض عن دين الله، فقد تظهر في صور معتقدات إما بإظهار مقالات كفرية أو بدع اعتقادية يطعنون بها في دين الله.

٢٦٨٦ البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام (٤/ ٨٨).

٢٦٨٧ البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام (٤/ ٨٨).

٢٦٨٨ فتح الباري: (١٢: ٢٧١). وانظر: البدر التمام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام (٤/ ٨٨).

٢٦٨٩ مجموع الفتاوى (٧/٤٧١-٤٧٢).



أو في صـور مخالفات سـلوكية واجتماعية بارتكاب أنواع من الفجور والفسـق مرتبطة بالعقيدة التي يضمرونها أو يشاكلونها من عقائد الثنوية من استباحة المحرمات التي اشتهر بها المزدكية[٢٦٩٠] كنكاح المحارم واستحلال كل محرم.

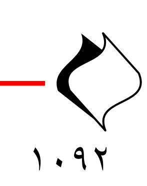
(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٣٧] "واعلم أنه من تناول أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فاعلم أنه إنما أراد محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد آذاه في قبره".

الشرح

٢٦٩٠ المزدكية هو دينٌ ثَنَوي منبثق عن المانوية، مؤسسُهُ الزعيم الديني الفارسي مَزْدَك المتوفى نحو ٥٢٨ ميلادي. قال الشهرستاني: "أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيه كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ". الملل والنحل: ص: ٢٦٧



وما من عالم من علماء الأمة إلا وهو يثني على الصحابة رضوان الله عليهم ويعرف لهم منزلتهم ومكانتهم وفضلهم وشرفهم، ولا يخالف في ذلك إلا من كان صاحب بدعة ولله در الإمام مالك إمام دار الهجرة "فقد روي أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ مالك هذه الآية: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) حتى بلغ (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)، فقال مالك: من أصبح من الناس وفي قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

قال الإمام القرطبي: "لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين" . ٢٦٩١

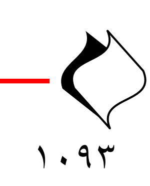
ومن واجب الأمة نحو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتهم والترضي عنهم والدعاء لهم كما أمرنا الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} ٢٦٩٢.

فهم قوم اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إليه وسماع حديثه من فمه الشريف ونصرته والذب عنه والجهاد معه في سبيل الله ونشر دين الإسلام.

وبعد وفاته كانوا هم الواسطة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الأمة، فقد بلغوا عن رسول الله ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها ونشروا هذا الدين في شتى بقاع الأرض: وجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وذبوا عن

٢٦٩١ الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٢٨٣/١٦

[٢٦٩٢] الآية (١٠) من سورة الحشر.



هذا الدين بسنانهم ولسانهم فكان لهم بذلك الأجر العظيم والمنزلة العالية عند ربهم وعند نبيهم وعند المسلمين الموحدين جميعًا.

وكيف لا يكونون كذلك وهم خير قرون هذه الأمة كشهادة النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن عمران بن حصين[2693] رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" قال عمران: لا أدري أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنين أو ثلاثة... الحديث[2694] وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..."الحديث[2695].

ومما يدل على عظم فضل الصحبة وجلالة شأنها ما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه"[2696] فهذا الحديث يدل على أن شأن الصحبة لا يعدله شيء.

[2693] عمران بن حصين بن عبيد الخزاعي، صحابي جليل، أسلم عام خيبر وغزا عدة غزوات وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح مات سنة اثنتين وخمسين وقيل سنة ثلاث وخمسين من الهجرة. الإصابة (/ ٢٧).

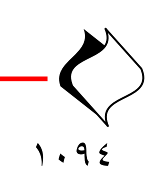
[2694] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على جور إذا أشهد.

فتح الباري (/ ٢٥٨-٢٥٩) ح ٢٦٥١، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين بلونهم (١٨٣/٧-١٨٤).

[2695] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على جور إذا أشهد.

فتح الباري (٢٥٩/٥) ح ٢٦٥٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (١٨٤/٧-١٨٥).

[2696] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لو كنت متخذا خليلاً". فتح الباري (٢١/٧) ح ٣٦٧٣، وأخرجه مسلم في صحيحه من حدث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (١٨٨/٧)



وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغضهم"٢٦٩٧.

وعن معتقد السلف نحو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبه أبو زرعة الرازي ٢٦٩٨ إلى ما نبه إليه المصنف فيقول: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق. وذلك أن الرسول حق والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة. وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة"٢٦٩٩.

وقال الإمام الشعبي: «ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرَّافضة في خصلتين: سئل اليهود: مَن خير أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى، فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة: مَن شَرُّ أهل مِلتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد. أَمَرَهم بالاستغفار لهم فشَتَموهم»٢٧٠٠.

وأما قول المصنف: **"وقد آذاه في قبره"**

حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتًا كحرمته حيًا "وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمته في حياته"٢٧٠١.

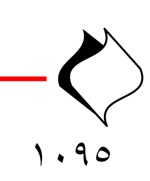
٢٦٩٧ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان. انظر: فتح الباري (١١٣/٧) ح ٣٧٨٤ واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته... (٦٥/١).

٢٦٩٨ هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرازي، أبو زرعة من أئمة حفاظ الحديث، ذكر أنه يحفظ مائة ألف حديث، توفي سنة (٦٤ هـ). تهذيب التهذيب (٣٠/٧-٣٤).

٢٦٩٩ الكفاية في علم الرواية (ص ٩٧).

٢٧٠٠ «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٢٧٠١ كتاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة تأليف محمد الصادق إبراهيم عرجون (٤/ ٣٣٣)



ومما يستدل به على ذلك أن الله عز وجل نهي عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا٢٧٠٢.

فقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيا وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائما.

وكان حماد بن زيد يقول في قوله: {لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} قال: "أرى رفع الصوت عليه بعد موته، كرفع الصوت عليه في حياته، إذا قرئ حديثه، وجب عليك أن تنصت له كما تنصت للقرآن يُعمر" ٢٧٠٣.

والله تعالى من تعظيمه لنبيه صلى الله عليه وسلم حفظ له كرامته وصان له حقه ففرق بين أذاه وأذى المؤمنين، فأوجب على من آذى النبي صلى الله عليه وسلم اللعن والطرد من رحمته وهذا حكم على من آذاه بالكفر وفي الآخرة له العذاب المهين ومصيره إلى جهنم وبئس المصير. بينما حكم على من آذى المؤمنين بالبهتان والإثم والفرق بين الحكمين ناتج عن الفرق بين حق النبي صلى الله عليه وسلم وحق غيره.

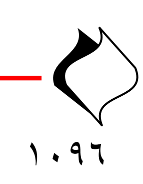
قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً} ٢٧٠٤

٢٧٠٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد.

انظر: فتح الباري (١/ ٥٦٠) خ ٤٧٠.

٢٧٠٣ سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٦٠).

٢٧٠٤ الآيتان (٥٧-٥٨) من سورة الأحزاب.



قال شيخ الإسلام ابن تيمية في استدلاله بهذه الآية على وجوب قتل من أذى النبي صلى الله عليه وسلم "ودلالتها من وجوه:

أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصا عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم. بين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله، وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئا واحدا فقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} ٢٧٠٥ وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} ٢٧٠٦ في مواضع متعددة، وقال تعالى: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} ٢٧٠٧ فوحد الضمير، وفي ذلك إشارة إلى أن إرضاء الله إرضاء للرسول وإرضاء الرسول فيه إرضاء لله، وقال أيضا {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} ٢٧٠٨ وقال أيضا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} ٢٧٠٩

وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله وأذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئًا واحدًا، فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ٢٧١٠ وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ٢٧١١ وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ٢٧١٢ وقال: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ٢٧١٣.

٢٧٠٥ الآية (٢٤) من سورة التوبة.

٢٧٠٦ الآية (١٣٢) من سورة آل عمران.

٢٧٠٧ الآية (٦٢) من سورة التوبة.

٢٧٠٨ الآية (١٠) من سورة الفتح.

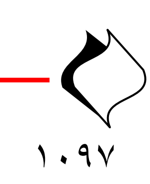
٢٧٠٩ الآية (١) من سورة الأنفال.

٢٧١٠ الآية (١٣) من سورة الأنفال.

٢٧١١ الآية (٢٠) من سورة المجادلة.

٢٧١٢ الآية (٦٣) من سورة التوبة.

٢٧١٣ الآية (١٤) من سورة النساء وآيات أخر.



وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل بهتانا وإثما مبينا وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين، ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

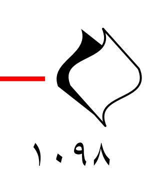
الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا، واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرا فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات ولا يكون مباح الدم، لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله، فلا تثبت في حقه..."٢٧١٤

ومما يوضح ذلك أن سب النبي صلى الله عليه وسلم قد تعلق به عدة حقوق:

أ- حق الله سبحانه من حيث كفر برسوله وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسِل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

ب- وتعلق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصا أمته فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بوساطته

٢٧١٤ الصارم المسلول (ص ٤٠-٤١).



وسفارته، فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وسب جميعهم، كما أنه أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وآبائهم والناس أجمعين.

ت- وتعلق به حق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث خصوص نفسه فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة٢٧١٥.

ومن الأدلة الواردة في السنة حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما٢٧١٦ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لكعب بن الأشرف٢٧١٧ فإنه قد آذى الله ورسوله"، فقام محمد بن مسلمة٢٧١٨ فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟، قال: "نعم..."الحديث٢٧١٩. فعلم من هذا الحديث أن من آذى

٢٧١٥ الصارم المسلول (ص٣٩٣-٣٩٤)

٢٧١٦ جابر بن عبد الله الأنصاري: شهد العقبة الثانية وهو صغير وشهد المشاهد كلها بعد أحد، وكان من المكثرين الحفاظ. للسنّة، توفي سنة ٧٤ هـ وقيل غير ذلك.

الإصابة (١/ ٢١٤) ت رقم ١٠٢٦.

٢٧١٧ كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان، كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية وكان سيدا في أخواله اليهود. أدرك الاسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم والتشبب بنسائهم. خرج إلى مكة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فانطق إليه نفر من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه. تاريخ الطبري (٣/ ٢).

٢٧١٨ محمد بن مسلمة الأنصاري، من فضلاء الصحابة شهد بدرا وما بعدها إلا غزوة تبوك فإنه تخلف بإذن النبي صلى الله عليه وسلم له أن يقيم في المدينة، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين وقيل غير ذلك. الإصابة (٣/ ٣٦٣، ٣٦٤) رقم (٨ ٧٨).

٢٧١٩ أخرجه البخاري في صحيحه-واللفظ له-كتاب المغازي باب قتل كعب بن الأشرف. انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٦) ح ٤٠٣٧، وأخرجه في مواضع أخر. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد: باب قتل كعب بن الأشرف. انظر: (١٨٤/٥).



الله ورسوله كان حقه أن يقتل كما قتل كعب بن الأشرف والأدلة من الكتاب والسنة على هذه المسألة كثيرة ولا مجال لاستيعابها هنا.

الإجماع: وقد أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، وكذلك حكى غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره.

وقال الإمام إسحاق بن راهويه٢٧٢٠ أحد الأئمة الأعلام: "أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله صلى الله عليه وسلم، أو دفع شيئا مما أنزل الله عز وجل، أو قتل نبيا من أنبياء الله عز وجل أنه كافر بذلك وإن كان مقرا بكل ما أنزل إليه".

وقال الخطابي٢٧٢١: "لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله".

وقال محمد بن سحنون٢٧٢٢: أجمع العلماء على أن شاتم النبي صلى الله عليه وسلم والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر"٢٧٢٣.

والإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة، فإن

٢٧٢٠ إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المعروف بابن راهويه المروزي قال عنه الخطيب البغدادي: كان أحد أئمة المسلمين وعَلَما من أعلام الدين اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد توفي سنة ٢٣٨ هـ. تاريخ بغداد (٦/ ٣٤٥).

٢٧٢١ أبو سليمان حمد ويقال أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أحد المشاهير الأعيان، والفقهاء المجتهدين المكثرين، له من المصنفات معالم السنن وشرح البخاري وغير ذلك، توفي بمدينة بست سنة ٣٨٨ هـ. البداية: (١١/ ٣٢٤).

٢٧٢٢ محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي، أبو عبد الله فقيه مالكي، مناظر كثير التصانيف، توفي سنة ٢٥٦هـ. الوافي بالوفيات: (٣/٨٦) والأعلام (٦/٢٠٤، ٢٠٥).

٢٧٢٣ الصارم المسلول (ص ٣-٤).

هتك عرضه وعلو قدره قد يكون أعظم عنده من قتله، فإن قتله لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره كما أن موته لا يقدح في ذلك، بخلاف الوقيعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفرة عنه وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة..."٢٧٢٤.

وبهذا يعلم أن السب فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في غيره من الأمور كالكفر والمحاربة.

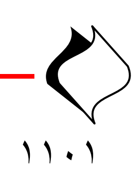
وبما تقدم ذكره من الأدلة يتضح انتقاض إيمان من طعن في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بسب أو استهزاء أو انتقاص سواء كان في ذلك جادا أو هازلا.

ويستثنى من ذلك المكره بدليل قوله تعالى: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}٢٧٢٥ فالآية نزلت في عمار بن ياسر٢٧٢٦ حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فوافقهم على ذلك مكرها وجاء معتذرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية، وروى أن مما قاله أنه سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير، قال: "كيف تجد قلبك؟" قال: مطمئنا بالإيمان، فقال: "إن عادوا فعد" وفي ذلك أنزل الله: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}، ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان

٢٧٢٤ الصارم المسلول (ص ٢٩٣-٢٩٤).

٢٧٢٥ الآية (١٠٦) من سورة النحل.

٢٧٢٦ عمار بن ياسر حليف بني مخزوم من السابقين الأولين هو وأبوه وأمه، هاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها، قتل بصفين سنة ٣٧ هـ. الإصابة (٢/٥٠٥، ٥٠٦) رقم: ٥٧٠٦.



بلال٢٧٢٧ رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل..."٢٧٢٨.

وما أشار إليه المصنف من أن الطعن في الصحابة فيه إيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم قد أشار إليه علماء السلف فيما نقل عنهم ومن ذلك:

قول الإمام مالك–رحمه الله–عن هؤلاء الذين يسبون الصحابة: "إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه، حتى يقال رجل سوء ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحون ".٢٧٢٩

وقال الإمام أبو نعيم رحمه الله: "فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وزللهم ويحفظ عليهم ما يكون منهم حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه"٢٧٣٠.

ويقول أيضا: "لا يبسط لسانه فيهم إلا من سوء طويته في النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والإسلام والمسلمين"٢٧٣١.

وعليه فإن الطعن في الصحابة فيه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم وانتقاص لحقه، وإساءة إليه بالضرورة، فمن تناول أحداً من الصحابة فإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم حتى ولو ادعى أنه يحبه، كما أنه كذلك فيه دلالة على سوء نية ذلك

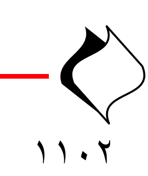
٢٧٢٧ بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحد السابقين إلى الإسلام الذين عذبوا بمكة، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة: فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره، ثم يقول لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيقول وهو على ذلك أَحَدٌ أَحَدٌ، فمرَّ به أبو بكر فاشتراه منه وأعتقه، ومناقبه كثيرة، شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، مات بالشام سنة عشرين. الإصابة (١/ ١٦٩) رقم ٧٣٦.

٢٧٢٨ تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٧، ٥٨٨) بتصرف.

٢٧٢٩ رسالة في سب الصحابة، عن الصارم المسلول ص٥٨٠.

٢٧٣٠ الإمامة لأبي نعيم (٣٤٤).

٢٧٣١ الإمامة لأبي نعيم (٣٧٦).



الشـخص تجاه الإسـلام كما قال الإمام أحمد رحمه الله: "إذا رأيت رجلا يذكر أحدا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام"٢٧٣٢.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٣٨] "وإذا ظهر لك من إنسان شيء من البدع، فاحذره؛ فإن الذي أخفى [عنك] أكثر مما أظهر".

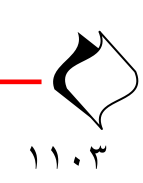
الشرح

تقدم الحديث عن حكم مجالسة أهل البدع في الفقرة (١٣٤) وأحكام هجرهم فاليرجع إليه.

ويضيف المصنف إلى ما تقدم ذكره إلى وجوب أخذ الحيطة والحذر ممن أظهر بعض البدع على اعتبار أن ما قد يخفيه أكثر مما أظهره، وما ذكره المصنف داخل في القاعدة الأصولية العامة التي تقول: إن درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المصالح.

والسلف الصالح كانوا أحرص الناس على سد الذرائع المفضية إلى الابتداع، ووجوب التحصن من البدع، والحذر من أهلها ما أمكن ذلك، وبينوا أن من سبل للنجاة من البدع، والاحتراز من خطرها هو البعد عنها وعن أصحابها مع الاعتصام بالكتاب والسنة، ولزوم منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

٢٧٣٢ البداية والنهاية (٨ / ١٤٢)، وانظر المسائل والرسائل المروية عن أحمد في العقيدة للأحمدي (٢ / ٣٦٣، ٣٦٤).



قال ابن بطة معلقا على حديث الدجال[٢٧٣٣]: "هذا قول الرسول ﷺ، وهو الصادق المصدوق، فالله الله معشر المسلمين، لا يحملن أحدا منكم حسن ظنه بنفسه، وما عهده من معرفته بصحة مذهبه على المخاطرة بدينه في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء، فيقول: أداخله لأناظره، أو لأستخرج منه مذهبه، فإنهم أشد فتنة من الدّجال!! وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق للقلوب من اللهب، ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنوهم، ويسبوهم، فجالسوهم على سبيل الإنكار والرد عليهم، فما زالت بهم المباسطة وخَفِيُّ المكر، ودقيق الكفر حتى صَبَوا إليهم" [٢٧٣٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث"[٢٧٣٥].

وقال النووي رحمه الله عند شرح حديث: (مثل الجليس الصالح...)-: "وَفِيهِ فَضِيلَةُ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْخَيْرِ وَالْمُرُوءَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالْوَرَعِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالنَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الشَّرِّ وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَمَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ أَوْ يَكْثُرُ فُجْرُهُ وَبَطَالَتُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْمَذْمُومَةِ"[٢٧٣٦].

وهذا كله يؤكد على وجوب الحذر من صاحب البدعة فكونه علم منه بدعة فهذا يدل على احتمال أن تظهر منه بدع أخرى، فإن من سمات أهل الباطل اضطراب أقوالهم وتنقلهم من قول إلى قول.

قال ابن تيمية رحمه الله: "إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول، وجزما بالقول في موضع، وجزما بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا

٢٧٣٣ عن عمران رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سمع منكم بخروج الدّجّال، فلينأ عنه ما استطاع، فإن الرّجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فما يزال به حتى يتبعه لما يرى من الشبهات)) (أخرجه أحمد ١٩٨٨٨، وأبو داود ٤٣١٩، وصحح روايته الألباني).

٢٧٣٤ الإبانة: ١/ ٣٢٦.

٢٧٣٥ اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٨١).

٢٧٣٦ شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٨).



دليل عدم اليقين، فإن الإيمان كما قال فيه قيصر لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له، بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب، لا يسخطه أحد. ولهذا قال بعض السلف – عمر بن عبد العزيز أو غيره -: من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل[٢٧٣٧]"[٢٧٣٨]

وذكر الآجري عن معن بن عيسى، قال: "انصرف مالك بن أنس يوما من المسجد، وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له: أبو الجبرية–عند ابن بطة[٢٧٣٩] أبو الجويرية–كان يُتَّهم بالإرجاء فقال: يا أبا عبد الله، اسمع مني شيئا أكلمك به، وأحاجك، وأخبرُك برأيي، فقال: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتّبعتني. قال: فإن جاء رجل آخر، فكلمنا فغلبنا؟ قال نتبعه.

قال مالك: يا عبد الله، بعث الله محمدا ﷺ بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى آخر، قال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غَرَضا للخصومات أكثر التنقل"[٢٧٤٠].

وروى ابن بطّة في الإبانة، بإسناده إلى خالد مولى أبي مسعود، قال: "قال حذيفة لأبي مسعود: إن الضّلالة حق الضلالة: أن تعرف ما كنت تُنكر، وتُنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلون في الدين، فإن دين الله واحد" [٢٧٤١]

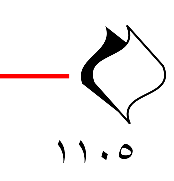
٢٧٣٧ جامع بيان العلم وفضله ٢ / ١١٦

٢٧٣٨ مجموع الفتاوى ٤ / ٥٠

٢٧٣٩ الإبانة لابن بطة (١/ ٣٥٧).

٢٧٤٠ الشريعة للآجري (١/ ٤٣٧).

٢٧٤١ الإبانة لابن بطة ١ / ١١٦ (٢٦).



ومعلوم كذلك أن خطورة البدع تكمن في أن إحياء البدع يكون في مقابل إماتة السنن فإذا أحييت بدعة أميتت سنة.

فعن أبي إدريس الخولاني: أنه كان يقول: "ما أحدثت أمة في دينها بدعة؛ إلا رفع الله بها عنهم سنة"[٢٧٤٢].

وعن حسان بن عطية؛ قال: "ما أحدث قوم بدعة في دينهم، إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لم يعدها إليهم إلى يوم القيامة"[٢٧٤٣].

وعن بعض السلف يرفعه: "لا يحدث رجل في الإسلام بدعة، إلا ترك من السنة ما هو خير منها"[٢٧٤٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: "ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدع، وتموت السنن"[٢٧٤٥].

(المتن)

قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

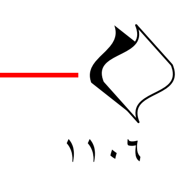
[١٣٩] "وإذا رأيت الرجل رديء الطريق والمذهب، فاسقا فاجرا، صاحب معاص، ضالًا، وهو أهل السنة فاصحبه، واجلس معه فإنه ليس [تضرك] معصيته، وإذا رأيت [الرجل] مجتهدا - وإن بدا متقشفا محترقا بالعبادة-صاحب هوى، فلا تجالسه، ولا تقعد معه، ولا تسمع كلامه ولا [تمش] معه في طريق، فإني لا آمن أن تستحلي طريقته [فتهلك] معه.

٢٧٤٢ الاعتصام للشاطبي: ١/ ١٥٣.

٢٧٤٣ الاعتصام للشاطبي: ١/ ١٥٣.

٢٧٤٤ الاعتصام للشاطبي: ١/ ١٥٣.

٢٧٤٥ الاعتصام للشاطبي: ١/ ١٥٣.



ورأى يونس بن عبيد ابنه [وقد] خرج من عند صـاحب هوى[٢٧٤٦]، فقال: يا بني! من أين جئت؟ قال: من عند فلان. قال: يا بني لأن أراك تخرج من بيت خنثى أحب إلي من أن أراك تخرج من بيت فلان، ولأن تلقى الله يا بني زانيا سارقا فاسقا خائنا أحب إلي من أن تلقاه بقول فلان وفلان[٢٧٤٧].

ألا ترى أن يونس بن عبيد علم أن الخنثى لا يضـــل ابنه عن دينه، وأن صاحب البدعة يضله حتى يكفره.

الشرح

اشتد تحذير أهل السنة من أهل البدع أكثر من تحذيرهم ونكيرهم على أصحاب الكبائر.

ومن الآثار الواردة في ذلك ما أورده المصـــنف عن يونس بن عبيد، ومن ذلك أيضًا:

٢٧٤٦ جاء تســـمية صـــاحب الهوى بأنه عمرو بن عبيد المعتزلي وقال يونس بن عبيد رحمه الله عندما جاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله؛ تنهانا عن مجالسة عمرو بن عبيد، وقد دخل عليه ابنك؟

قال: ابني!

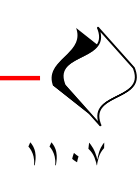
قال: نعم.

فتغيظ الشيخ. فلم أبرح حتى جاء ابنه؛ فقال: "يا بني، قد عرفت رأيي في عمرو ثم تدخل عليه؟ قال: كان معي فلان. وجعل يعتذر. قال: أنهاك عن الزنا، والسرقة، وشرب الخمر. ولأن تلقى الله بهنَّ أحب إلي من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو "انظر: تهذيب الكمال: ١١/ ١٩٢، سير أعلام النبلاء:٦/ ٢٩٤،

وأخرجه بنحوه الله اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/٧٤١ رقم ١٣٧٨ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٢/ ١٧٢،

والبغوي في الجعديات ١/٢٠٣ رقم ١٣٣٠ وأبو نعيم في الحلية ٣/٢١ والمزي في تهذيب الكمال ٣٢/ ٥٣١.

٢٧٤٧ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي: ٢/ ٤١٦ رقم: (١٣٧٨).



قال يوسف ابن أسباط: "ما أبالي سألتُ صاحب بدعة عن ديني، أو زنيت"٢٧٤٨.

وقال أبو إدريس الخولاني: "لإن أرى في المسجد نارًا لا أستطيع إطفاءها أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها"٢٧٤٩

ولتأصيل هذه المسألة يمكن استقراء جملة من الأسباب لذلك منها:

أولًا: أن لهذا التفريق بين المعصية له ما يدل عليه من السنة فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الخوارج المبتدعين مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم، ونهى عن الخروج على أئمة الظلم وأمر بالصبر عليهم.

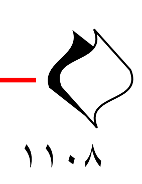
وكان يجلد رجلا يشرب الخمر فلعنه رجل، فقال: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله.

ثانيًا: مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد من المعاصي ولذلك كانت أعظم المحرمات التي حرمها الله.

قال ابن القيم: "قال الله تعالى في المحرم لذاته (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال (والإثم والبغي بغير الحق) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله؛ فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفر ووعليه أسست البدع والضلالات فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم، ولهذا

٢٧٤٨ الإبانة الكبرى، لابن بطة: ٢/٤٥٩.

٢٧٤٩ رواه محمد بن نصر المروزي في السنة ص: (٣٢)، وقد نقله عنه الشاطبي في الاعتصام (١/ ٨٢).



اشتد نكير السلف والأئمة لها وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد)[٢٧٥٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل الرجل يصوم ويصلى ويعتكف أحب اليك أو يتكلم في أهل البدع فقال إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغى هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعا وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء.."[٢٧٥١]

ثالثًا: أن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية.

وقد أُثِر عن سفيان الثوري قال: "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يُتاب منها والبدعة لا يُتاب منها"[٢٧٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولهذا كان السلف يقولون: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها[٢٧٥٣]".

٢٧٥٠ مدارج السالكين ٢/ ٣٧٢.

٢٧٥١ الفتاوى ٢٨ / ٢٣١.

٢٧٥٢ التحفة العراقية في الأعمال القلبية صفحة (١٢).

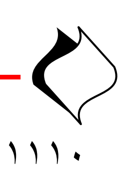
٢٧٥٣ درء التعارض ٣/ ٣٨٥.

ومعلوم أن مرتكب الكبيرة والمعصية يعلم أنه يفعل الحرام ويخشى أن ينزل به العذاب بسبب ما ارتكب في حق الله عز وجل، مع ما يعقب ذلك من الندم والشعور بالذنب الذي يلازمه بقية حياته مع رجاء التوبة والاستغفار من تلك المعصية، بخلاف المبتدع فإنه لا يشعر بذلك كله بل إنه يتعبد ببدعته التي يدعو إليها فتعتقد أنها تقربه إلى الله وتزيد من حسناته في حين أنها تغضب الله منه وتزيد من ذنوبه وهو لا يعلم ذلك؛ بل إنها عمل حابط وباطل ومردد وفي الحديث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار"[٢٧٥٤] وقال صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد". [٢٧٥٥]

رابعًا: أن البدعة لا يتاب منها بخلاف المعصية فإنه قد يتاب منها.

٢٧٥٤ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦، ١٢٧). وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٥/ ١٣، ١٥) ح ٤٦٠٧، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم: باب في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤) ح ٢٦٧٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجة في سننه، في المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦). وابن حبان في صحيحه (١/ ١٣٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي، والآجري في الشريعة (٤٦، ٤٧)، والدارمي في سننه، باب اتباع السنة (١/ ٤٤، ٤٥) وقال الألباني: سنده صحيح، وصححه جماعة منهم الضياء المقدسي في اتباع السنن واجتناب البدع، انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٥٨) ح ١٦٥.

[٢٧٥٥] أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٥/ ١٣٢) وفي رواية: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" وهذه الرواية أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. فتح الباري (٥/ ٣٠١) ح ٢٦٩٧.



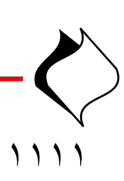
وسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رحمه اللَّهُ- عَنْ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ اللَّهَ احْتَجَرَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»[٢٧٥٦] وَحَجْرُ التَّوْبَةِ إيش مَعْنَاهُ؟ قَالَ أَحْمَدُ: لَا يُوَفَّقُ، وَلَا يُيَسَّرُ صَاحِبُ بِدْعَةٍ[٢٧٥٧].

قال ابن القيم: "فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت قوله تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة أو يظنها سنة فهو يدعو إليها ويحض عليها فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة وكثرة اطلاعه عليها ودوام البحث عنها والتفتيش عليها ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدًا، فإن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة وأزالت ظلمة كل ضلالة إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص وصدق اللجوء إلى الله والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان" [٢٧٥٨]

٢٧٥٦ رواه إسحاق في مسنده، والطبراني في الأوسط(٤٢٠٢)، والبيهقي في الشعب (٩٠١١) بلفظ:" إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة"، والهروي في ((ذم الكلام وأهله)) (٥/ ١٥٣)، وابن عبد الهادي في ((جمع الجيوش والدساتر على ابن عساكر)) (١٢٠)، قال فيه الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٠/ ١٨٩) "ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروي، وهو: ثقة، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٨٦): رواه الطبراني وإسناده حسن. وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢٠). والحديث رواه-أيضًا-: البيهقي في ((الشعب)) (٦٨٤٦) و(٩٠١٠)، وابن أبي عاصم في ((السنة)) (٣٧)، وابن وضاح في ((البدع)) (١٤٦)، وابن عدي في ((الكامل)) (٧/ ٥٠٥)، وابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (٢١١)، و(٢١٢).

٢٧٥٧ غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ٤٥٧/٢

٢٧٥٨ مدارج السالكين ٢/ ٣٧٥.



خامسًا: أن المبتدع يرى الحق باطلًا ويرى الباطل حقًا

قال شيخ الإسلام معقبًا على قصة ذو الخويصرة التميمي[٢٧٥٩]: "فهذا المبتدع الجاهل لما ظن أن ما فعله الرسول ليس بعدل كان ظنه كاذبا وكان في إنكاره ظالما، وهذا حال كل مبتدع نفى ما أثبته الله تعالى أو أثبت ما نفاه الله أو اعتقد حسن ما لم يحسنه الله أو قبح ما لم يكرهه الله فاعتقادهم خطأ وكلامهم كذب وإرادتهم هوى، فهم أهل شبهات في آرائهم وأهواء في إرادتهم..» [٢٧٦٠].

سادسًا: أن البدعة ضررها متعد للغير إذا كان المبتدع داعيًا لبدعته بخلاف المعصية فإن ضررها على صاحبها.

ولذلك فإن من العلماء من اشترط في توبة المبتدع أن يتوب من بدعته أن يعترف بأن ما عليه بدعة، قال السفاريني: "وتوبة المبتدع أن يعترف بأن ما عليه بدعة. قال في الشرح: فأما البدعة فالتوبة منها بالاعتراف بها، والرجوع عنها، واعتقاد ضد ما كان يعتقد منها.

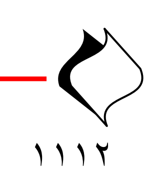
وفي الرعاية: من كفر ببدعة قبلت توبته على الأصح، وقيل إن اعترف بها وإلا فلا.

قال الإمام أحمد في رواية المروذي في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد: ليست له توبة إنما التوبة لمن أعترف فأما من جحد فلا توبة له.

وفي إرشاد ابن عقيل الرجل إذا دعا إلى بدعة ثم ندم على ما كان، وقد ضل به خلق كثير وتفرقوا في البلاد وماتوا فإن توبته صحيحة إذا وجدت الشرائط، ويجوز أن

٢٧٥٩ جاءه ذو الخويصرة التميمي وبين عينيه أثر السجود فقال: يا محمد اعدل فإنك لم تعدل فقال: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل ثم قال: يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة" رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

٢٧٦٠ درء التعارض ٣/ ٣٨٥.



يغفر الله له ويقبل توبته ويسقط ذنب من ضل به بأن يرحمه ويرحمهم، وبه قال أكثر العلماء خلافا لبعض أصحاب الإمام أحمد وهو أبو إسحاق بن شاقلا، وهو مذهب الربيع بن نافع، وأنها لا تقبل، ثم احتج بالأثر الاسرائيلي الذي فيه: «فكف من أضللت، وبحديث ((من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة))[٢٧٦١]"[٢٧٦٢]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٠] "واحذر ثم احذر [أهل] زمانك خاصة، وانظر من تجالس، وممن تسمع، ومن تصحب، فإن الخلق كأنهم في ردة، إلا من عصمه الله منهم".

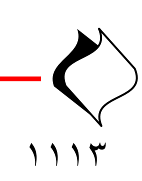
الشرح

الأزمنة تتفاوت في كثرة الخير والشر فيها، ولكن هل الشر يكون في كل حال في ازدياد عن الزمان الذي سبقه أو أن هناك تفاوت في الأزمنة من حيث كثرة الشر وكثرة الخير، وبالرجوع إلى النصوص المتعلقة بهذا الأمر نقف على نوعين من النصوص الواردة في السنة:

أحدهما: يؤكد على أنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه كما جاء في الحديث عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ، قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ

٢٧٦١ رواه مسلم رقم ١٠١٧

٢٧٦٢ غذاء الألباب ٢/ ٤٥٦.



الحَجَّاجِ، فَقَالَ: (اصْـبِرُوا، فَإِنَّهُ لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَـرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ. سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [٢٧٦٣].

فهذا الحديث يثبت أن كل زمان بعد زمن النبي صلى الله عليه وسلم فيه من الشر أكثر من الزمن الذي سبقه.

والثاني: وفي مقابل هذا هناك نصـوص تدل على هناك أزمنة يكون فيها الشـر أقل من الأزمنة التي سبقتها.

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشـر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسـول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟، قال: "نعم". قلت: وهل بعد ذلك الشـــر من خير؟، قال: "نعم وفيه دخن"، قلت: وما دخنه؟، قال: "قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر.."[٢٧٦٤]

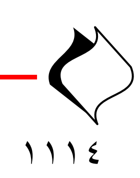
وصـحّ أنه بعض الأزمان كان يظهر فيها من الشـر أقل من الزمن الذي سـبقها، كعهد خلافة عمر بن عبد العزيز مقارنة بالفترة التي سـبقته والتي شـهدت إمارة الحجاج وما كان فيها من الظلم. وكذلك ما أخبر به الوحي عن فترة المهدي في آخر الزمان، فهي خير من الفترة التي تسبقها.

وقد أجاب أهل العلم عن هذا الإشكال بما حاصله على أحد قولين:

القول الأول: أنه يحمل على الغالب الأعم، وأن هذا نص عام، ولا يمنع هذا من وجود أزمان مخصوصة من هذا العموم.

٢٧٦٣ رواه البخاري في صحيحه (٧٠٦٨).

٢٧٦٤ صحيح البخاري (٣٦٠٦)، صحيح مسلم: (١٨٤٧).



قال الحافظ ابن حجر–رحمه الله تعالى–: "وقد حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، فسئل عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج فقال لا بد للناس من تنفيس" [٢٧٦٥]

وقال ابن الجوزي–رحمه الله تعالى–: "إن قال قائل: ما وجه هذا ونحن نعلم أنه جاء بعد الحجاج عمر ابن عبد العزيز، فبسط العدل وصلح الزمان؟ فالجواب: أن الكلام خرج على الغالب، فكل عام تموت سنة وتحيا بدعة، ويقل العلم، ويكثر الجهال، ويضعف اليقين، وما يأتي من الزمان الممدوح نادر قليل"[٢٧٦٦]

وقال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: "فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها؛ مثل أحاديث المهدي، ونزول عيسى عليه السلام؛ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه؛ بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه، فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن؛ (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) "[٢٧٦٧]

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز–رحمه الله–: "أما حديث: ((لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه))، فهو محمول على الأغلب؛ فلا يمنع أن يكون في بعض الزمان أحسن مما قبله، كما جرى في زمان عمر بن عبد العزيز؛ فإن زمانه أحسن من زمان سليمان والوليد، وكما حصل في زمان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من ظهور السنة والرد على المبتدعة، وكما جرى في الجزيرة بعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله"[٢٧٦٨].

٢٧٦٥ "فتح الباري" (١٣ / ٢١).

٢٧٦٦ "كشف المشكل" (٣ / ٢٩٥).

٢٧٦٧ "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (١ / ٣٦).

٢٧٦٨ "مجموع فتاوى ابن باز" (٢٥/١٠٤).

وقال أحمد بن إسماعيل الكوراني رحمه الله تعالى: "وعندي أن المراد من الزمان ليس نفس الزمان وذلك ظاهر، ولا الأمراء وأرباب الولايات، ولا كل فرد من أفراد الناس، بل الغالب كما أشار إليه بقوله: (خير القرون قرني) فإنه أراد الغالب... في كل قرن كان يزداد من ظهور الزنى وشرب الخمر وأنواع البدع.

والإنسان إذا تأمل من أول عمره إلى آخره يرى تفاوتًا ظاهر في الناس، فإن الغالب فيما رآهم في أول عمره: خير من الذين رآهم آخره "[٢٧٦٩]

القول الثاني: إن نسبة الشر ينظر إليها من خلال مجموع العصر، وليس بالنظر إلى بلدة أو جماعة معينة ونحو هذا.

فمجموع عصر الحجاج بن يوسف، وإن كان فيه شر وظلم، فهو خير من مجموع عصر عمر بن عبد العزيز وإن عرف بالعدل، لأن عصر الحجاج من ضمن عصر الصحابة، حيث عاش فيه عدد منهم كعبد الله بن عمر بالخطاب وأنس بن مالك رضوان الله عليهم أجمعين، أما عصر عمر بن عبد العزيز فقد خلا من الصحابة.

والعصر الذي وجدت فيه الدولة الفاطمية فإن مجموع ذلك العصر خير من الذي بعده، فذلك العصر كان فيه من أهل العلم والصالحين الذين يتعلم منهم الناس، ويقتدون بهم، من لم يوجد مثلهم فيما جاء بعد ذلك من الأعصار، فذهب بذهابهم خير كثير.

قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "وأجاب بعضهم أن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر على مجموع العصر؛ فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء، وفي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه

[٢٧٦٩] "الكوثر الجاري" (١١ / ١٤).

الصحابة خير من الزمان الذي بعده، لقوله صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني وهو في الصحيحين" [٢٧٧٠]

وعلى هذا يحمل كلام المصنف-رحمه الله-بقوله: **"واحذر ثم احذر [أهل] زمانك خاصة"** كما أنه من جهة أخرى فإن القدوة والأسوة لا تكون في الأحياء لأن الحي لا تؤمن عليه الفتة كما قال ابن مسعود-رضي الله عنه-: "من كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ "(٢٧٧١)،

وكذلك قوله: **"فإن الخلق كأنهم في ردة، إلا من عصمه الله منهم"**. لا يفهم منه الحكم على الناس وتكفيرهم والقول بردتهم، ولكنه إشارة إلى غربة الدين وضعف تمسك الناس به، وكثرة الجهل وقلة طلب العلم، وتفشي المعاصي والذنوب والمنكرات، وهذا النوع من التحذير يرد كثيرًا في كتب أهل العلم وبخاصة عند ذكر أشراط الساعة وما ورد في ذلك من أحاديث.

فمن أشراطها قبض العلم، وفشو الجهل، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل))[٢٧٧٢]

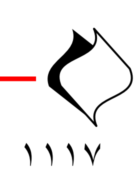
وروى البخاري عن شقيق قال: كنت مع عبد الله وأبي موسى فقالا: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع العلم)) .[٢٧٧٣]

٢٧٧٠ "فتح الباري" (١٣ / ٢١).

(٢٧٧١) رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (٢/٩٤٧ــــ رقم ١٨١٠)، وفي إسناده ضعف، إلا أنه أثر مشهور متداول في مصنفات أهل السنة، ومعناه صحيح مستقر عندهم.

٢٧٧٢ رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

٢٧٧٣ رواه البخاري (٧٠٦٢).



وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يتقارب الزمان، ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقي الشح، ويكثر الهرج))[٢٧٧٤] .

قال ابن بطال: "وجميع ما تضمنه هذا الحديث من الأشراط قد رأيناها عياناً، فقد نقص العلم، وظهر الجهل، وألقي الشح في القلوب، وعمت الفتن، وكثر القتل" [٢٧٧٥]

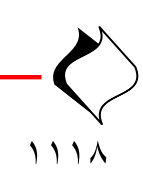
وعقب على ذلك الحافظ ابن حجر بقوله: "الذي يظهر أن الذي شاهده كان منه الكثير مع وجود مقابله، والمراد من الحديث استحكام ذلك حتى لا يبقى بما يقابله إلا النادر، وإليه الإشارة بالتعبير بقبض العلم، فلا يبقى إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم، لأنهم يكونون حينئذ معمورين في أولئك"[٢٧٧٦] .

فالمصنف رحمه الله يتكلم عن أهل زمانه في القرن الرابع؛ الذي لو تمت مقارنته بالأزمنة التي قبله لكان الفارق كبيراً، ولو تم مقارنته بما بعده لكان الفارق كذلك كبيرًا، فذلك القرن ظهرت فيه كثير من الفتن والبدع والأهواء والفرق، فقد ظهرت الباطنية، وتمكنت الرافضة من كثير من بلاد المسلمين، وضعفت الخلافة الإسلامية، وعم الجهل، وكثر إعراض الناس عن دين الله عز وجل، وإن كان هذا ليس على وجه الاستحكام كما سيقع في أخر الزمان كما أشار ابن حجر فهذه الأمور نسبية، تكون في أزمنة أكثر من أزمنة، وتقوى أحيانًا وتضعف أحيانًا، ولعل زمان المصنف قد يكون أفضل من كثير الأزمنة التي تلت فيما بعد.

٢٧٧٤ رواه مسلم (١٥٧).

٢٧٧٥ ((شرح صحيح البخاري)) (١٣/١٠)، و ((فتح الباري)) (١٦/١٣).

٢٧٧٦ ((فتح الباري)) (١٦/١٣).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤١] "وانظر إذا سمعت الرجل يذكر ابن أبي دؤاد، وبشـــرا المريســـي، وثمامة، أو أبا الهذيل أو [هشـاما] الفوطي أو واحدا من [أتباعهم و] أشـياعهم فاحذره، فإنه صـــاحب بدعة، فإن هؤلاء كانوا على الردة، واترك هذا الرجل الذي ذكرهم بخير، ومن ذكر منهم بمنزلتهم".

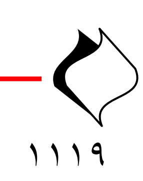
الشرح

"**ابن أبي دؤاد**"هو أبو عبد الله، أحمد بن فرج بن حريز الإيادي البصـــري ثم البغدادي؛ الجهمي، عدو أحمد بن حنبل، كان داعية إلى خلق القرآن، توفي عام (٢٤٠هـــ) ٢٧٧٧، وقد تقدم ذكر بعض سـيرته عند الحديث عن فتنة القول بخلق القرآن.

"**وبشـــرا المريســـي**" هو: وهو بشـــر بن غياث، بن أبي كريمة، أبو عبد الرحمن المريســي المتكلم، قال الإمام الذهبي عن بشـر المريسـي: «قد أُخذ المريسـي في دولة الرشيد وأُهين من أجل مقالته. روى أبو داود عن أحمد بن حنبل أنه سمع ابن مهدي أيام صُنِع بِبِشْر ما صُنِع؛ يقول: مَن زعم أنَّ الله لم يكلم موسى يُستتاب فإن تاب، وإلا ضُربت عنقه.

وقال المروذي: سمعت أبا عبد الله–وذكر المريســـي–فقال: كان أبوه يهوديًّا؛ أي شيء تراه يكون؟!

٢٧٧٧ انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ١٦٩.



وقال أبو عبد الله: كان بِشر يحضر مجلس أبي يوسف فيَصيح ويَستغيث؛ فقال له أبو يوسف مَرَّة: لا تَنتهي أو تُفسد خشبة (٢٧٧٨).

ثم قال أبو عبد الله: ما كان صاحب حُجج، بل صاحب خُطَب.

وقال أبو بكر الأثرم: سُئل أحمد عن الصلاة خلف بِشر المرِيسي؛ فقال: لا تُصَلِّ خلفَه.

وقال قتيبة: بِشر المريسي كافر.

وقلت-أي: الذهبي-: وقع كلامُه إلى عثمان بن سعيد الدارمي الحافظ؛ فصنف مجلدًا في الردِّ عليه.

ومات: في آخر سنة ثماني عشرة، ومائتين وقد قارب الثمانين؛ فهو بِشْر الشَّرِّ، وبِشر الحافي بشر الخير، كما أن أحمد بن حنبل هو أحمد السُّنَّة، وأحمد بن أبي دؤاد أحمد البدعة.

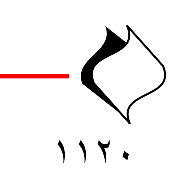
"**وثمامة**" هو ثمامة بن أشرس أبو معن النميري البصري المتكلم، من رءوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن -جل منزله-، اتصل بالرشيد، ثم بالمأمون؛ روى عنه تلميذه الجاحظ.

ومن مقولاته: قال ابن حزم: "ذكر عنه أنه كان يقول: العالم هو بطباعه فعل الله، وقال: المقلدون من أهل الكتاب وعبدة الأوثان لا يدخلون النار، بل يصيرون ترابا؛ وإن من مات مسلما وهو مصر على كبيرة خلد في النار، وإن أطفال المؤمنين يصيرون ترابا، ولا يدخلون جنة"[٢٧٧٩].

"**أو أبا الهذيل**" هو أبو الهذيل العلاف ورأس المعتزلة، محمد بن الهذيل البصري العلاف، صاحب التصانيف الذي زعم أن نعيم الجنة وعذاب النار ينتهي بحيث إن

(٢٧٧٨) ذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٢٣)، وزاد: «يَعني: وتُصلب». ووقع في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٧/ ٦٣): «حتى تصعد خشبة».

٢٧٧٩ سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٣-٢٠٤.



حركات أهل الجنة تسكن، حتى لا ينطقون بكلمة، وأنكر الصفات المقدسة حتى العلم والقدرة، وقال: هما الله، وأن لما يقدر الله عليه نهاية وآخرا، وأن للقدرة نهاية لو خرجت إلى الفعل، فإن خرجت لم تقدر على خلق ذرة أصلا. وهذا كفر وإلحاد، ولم يكن أبو الهذيل بالتقي.[٢٧٨٠]"

"**أو [هشاما] الفوطي**" هو: هشام بن عمرو أبو محمد الفوطي، المعتزلي، الكوفي، مولى بني شيبان، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال؛ أخذ عنه عباد بن سلمان وغيره[٢٧٨١]. وقد تقدم ذكر سيرته وما أحدثه من بدع في الفقرة: (٨١).

وقول المصنف: "**واترك هذا الرجل الذي ذكرهم بخير، ومن ذكر منهم بمنزلتهم**".

من المتقرر في النصوص الشرعية أن المرءُ يشابهُ صَديقَه وصاحِبَه في سِيرتِه وعادتِه؛ فهوَ مؤثِّرٌ في الأخلاقِ والسلوكِ والتصرُّفاتِ، ونظرةِ الناسِ إلى كلٍّ مِنهما من خلالِ مَعرفتِهم بأحوالِ الصَّاحبِ، كما جاء في الحديث: ((الرجلُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يُخالِلُ)) ٢٧٨٢

وجاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري: ((لا تُصاحِبْ إلَّا مُؤمِنًا، ولا يأكُلْ طعامَكَ إلَّا تَقِيٌّ))[٢٧٨٣]

٢٧٨٠ سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤٣).

٢٧٨١ سير أعلام النبلاء: (١٠/ ٥٤٧). وانظر: الفرق بين الفرق: (ص ١٥٩).

٢٧٨٢ أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٣٩٨). وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن.

٢٧٨٣ أخرجه ابن حبان في صحيحه، انظر: تخريج صحيح ابن حبان(٥٦٠)، وانظر: تخريج شرح السنة (٣٤٨٤).

ومن هذا الأصــل جاء تحذير المصــنف من مصــاحبة من يصــاحب المبتدع ويجالســه، فهو داخل في حكمه، وقد تقدم الحديث عن هذه المســائل عند الكلام عن أحكام هجر المبتدع.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٢] والمحنة في الإسلام بدعة، وأما اليوم فيمتحن بالسنة، لقوله: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ولا تقبلوا الحديث إلا ممن تقبلون شهادته. فتنظر، إن كان صاحب سنة له معرفة صدوق كتبت عنه وإلا تركته.

الشرح

قول المصنف: "**والمحنة في الإسلام بدعة، وأما اليوم فيمتحن بالسنة**"

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الامتحان لغة وشرعًا[٢٧٨٤].

لغة:

قال ابن فارس: "الميم والحاء والنون كلماتٌ ثلاثُ على غير قياس.

الأولى المِحْن: الاختبار. ومَحَنَه وامتحنه.

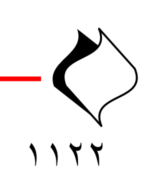
والثانية: أتيتُه فما مَحَنني شيئاً، أي ما أعطانيه.

والثالثة مَحَنه سَوطاً: ضربَه. ٢٧٨٥

وقال الأزهري: قال الليث المحنة معنى الكلام الذي يُمْتَحَنُ به ليُعرف بكلامه ضميرُ قلبه، تقول: امتحنْتُه وامتحَنْتُ الكلمةَ إذا نظرتَ إلى ما يصير إِلَيْهِ صَيُّورُها،

٢٧٨٤ المصدر: مقال على موقع الألوكة للباحث: محمد بن عمر الزبيدي مستل من رسالة ماجستير.

٢٧٨٥ معجم مقاييس اللغة (٥/٣٠٢).



وقال غيره محنته وامتحنْتُه بمنزلةِ خَبَرْتُه واختبرتُه وبلوته وابتلَيْتُه وأصل المِحْن الضربُ بالسوْطِ.٢٧٨٦

ويُطلق الامتحان في اللغة ويراد به: الاختبار، يقال: محنه وامتحنه، بمنزلة خبرته واختبرته، وبلوته وابتليته[٢٧٨٧]، والمصدر من ذلك: (مِحْنَة).

يقول الخليل بن أحمد": المِحْنَةُ: معنى الكلام الذي يُمْتَحَنُ به، فيُعرف بكلامه ضمير قلبه، وامتَحَنْتُه وامتَحَنْتُ الكلمة؛ أي: نَظَرْتُ إلى ما يَصيرُ صَيْرها.[٢٧٨٨]"

والمراد بالامتحان في الاعتقاد: اختبارُ النَّاس ببعض المسائل والأمور؛ لطلب معرفة عقائدهم وكشفها.

المسألة الثانية: حكم الامتحان في الاعتقاد.

تعددت أقوال علماء السنة في مسألة امتحان الناس بين مانع ومجيز أو مفصل، وفي مثل هذا النوع من الاختلاف يستحضر طالب العلم قول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والعلماء المتنازعون كل منهم يحتج بدليل شرعي ويكون عند بعضهم من العلم ما ليس عند الآخر–فإن العلماء ورثة الأنبياء–وقال تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً}٢٧٨٩. فالأقوال قد تكون صحيحة باعتبار" ٢٧٩٠

ولعل هذا ما أسعى إليه في تحرير هذه المسألة التي تعددت فيها الأقوال والذي يتبين لي من كلام المصنف أن الحكم في المسألة يكون على حالين:

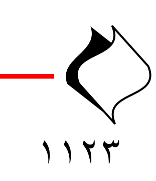
٢٧٨٦ تهذيب اللغة(٥/٧٨).

٢٧٨٧ انظر: تهذيب اللغة: (٥/ ٧٨).

٢٧٨٨ ، مقاييس اللغة: (٥/ ٣٠٢). العين (٣/ ٢٥٣).

٢٧٨٩ الآيتان (٧٨-٧٩) من سورة الأنبياء.

٢٧٩٠ مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٦٥-٣٨١) بتصرف.



الحال الأول: منع الامتحان وتبديعه.

والحال الثاني: جوازه في بعض الأحوال.

أما الحال الأول: وهو حال المنع والقول ببدعيته.

فهذا راجع إلى أصل المسألة وأنه لا يجوز اختبار الناس وامتحانهم في أمر المعتقد من حيث الأصل دون سبب موجب لذلك لأن الأصل في هذا الباب: أنَّ الناس يُعامَلون بحسب ظواهرهم، وأنْ تُوكَل سرائرُهم إلى الله تعالى، ويشهد لهذا الأصل قولُه صلى الله عليه وسلم: ((مَن صلَّى صلاتنا، واستقبل قِبْلتنا، وأكل ذبيحتَنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمَّة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته))[٢٧٩١].

ومعاملة الناس بحسب ظواهرهم هي قاعدة شرعية لا تقتصر على مسائل الاعتقاد فقط، فهذا الأمر عدَّه أهل العلم في مسائل متعددة، ومِن ذلك عدُّ ابنِ تيمية له في مسألة الصلاة خلف مستورِ الحال، فقد وصف مَن لا يصلي خلف إمام إلا بعد التحقق من حاله وباطن اعتقاده بأنه مبتدعٌ مُخالِف للصحابة والتابعين.[٢٧٩٢]

ولهذا قال المصنف هنا: **"والمحنة في الإسلام بدعة"**. ومثل هذا القول قال البخاري لَمَّا دخل-رحمه الله-نيسابور وامتحَنَه بعضهم بمسألة اللفظ في القرآن، فقال البخاري: "القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة[٢٧٩٣]."بل نص غير واحد من أهل العلم أن امتحان الناس في عقائدهم من صفات أهل البدع كالخوارج والمعتزلة.

٢٧٩١ أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٩١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

٢٧٩٢ انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٥٤٢).

٢٧٩٣ أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٩١ — ٩٢). فقد روى ابن عساكر في تاريخه بإسناده: ((أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه وعقد له المجلس حسده من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأى إقبال الناس إليه واجتماعهم فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق فامتحنوه



فقد قال ابن سيرين: "سؤالُ الرجل أخاه: أمؤمنٌ أنت؟ محنة بدعة، كما يمتحن الخوارج[٢٧٩٤]."

قال البغدادي في أقوال الخوارج الأزارقة: "ومنها أنهم أوجبوا امتحان من قصد عسكرهم إذا ادعى أنه منهم أن يدفع إليه أسير من مخالفيهم وأمروه بقتله، فإن قتله صدقوه في دعواه أنه منهم وإن لم يقتله قالوا هذا منافق ومشرك وقتلوه"[٢٧٩٥]

ولما بلغ ابن عون (ت ١٥٠هـ) امتحان سليمان التيمي لأهل البصرة، قال: "ما هذا المِمْتَحِن الناسَ؟[٢٧٩٦]."

وبنحوه ما جاء عن إبراهيم بن الحسين-المعروف بابن دِيزِيل (ت ٢٨١ هـ)- لَمَّا قيل له: إنَّ أبا حاتم الرازي لا يُحدِّث حتى يمتحِن، قال: "أبو حاتم عندنا أمير المؤمنين في الحديث، والامتحان دِينُ الخوارج، مَن حضر مجلسي فكان من أهل السنة، سمع ما تقر به عينه، ومن كان من أهل البدعة يسمع ما يسخن الله به عينه[٢٧٩٧]."

وقد جاء عن ابن تيميَّة رحمه الله وصفُه للامتحان بالأشخاص أنَّه بدعة، وأنَّه مِن فِعْل أهل الأهواء، فقد أنكر على العَدويَّة امتحانَهم النَّاسَ بيزيد بن معاوية، فقال

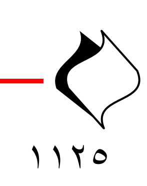
به في المجلس فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال :يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه فقال الرجل: يا أبا عبد الله وأعاد عليه القول فأعرض عنه ولم يجبه ثم قال في الثالثة فالتفت إليه محمد بن إسماعيل وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه)).

٢٧٩٤ أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٦٠)، برقم (١٨٠٤).

٢٧٩٥ كتاب الفرق بين الفرق ١/ ٦٣.

٢٧٩٦ انظر: القدر للفريابي برقم (٣٣٢).

٢٧٩٧ سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٨٩).



لهم: "... فالواجبُ الاقتصار في ذلك، والإعراض عن ذِكْر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به، فإنَّ هذا من البدع المخالفة لأهل السنة والجماعة٢٧٩٨"...

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَكَذَلِكَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَامْتِحَانُهَا بِمَا لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ وَلَا رَسُولُهُ: مِثْلَ أَنْ يُقَالَ لِلرَّجُلِ: أَنْتَ شكيلي، أَوْ قرفندي، فَإِنَّ هَذِهِ أَسْمَاءٌ بَاطِلَةٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ وَلَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي الْآثَارِ الْمَعْرُوفَةِ عَنْ سَلَفِ الْأَئِمَّةِ لَا شكيلي وَلَا قرفندي.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ إذَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ: لَا أَنَا شكيلي وَلَا قرفندي؛ بَلْ أَنَا مُسْلِمٌ مُتَّبِعٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

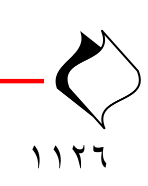
وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ: أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: أَنْتَ عَلَى مِلَّةِ عَلِيٍّ أَوْ مِلَّةِ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ: لَسْتُ عَلَى مِلَّةِ عَلِيٍّ وَلَا عَلَى مِلَّةِ عُثْمَانَ بَلْ أَنَا عَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ كَانَ كُلٌّ مِنْ السَّلَفِ يَقُولُونَ: كُلُّ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ فِي النَّارِ: وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: مَا أُبَالِي أَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَعْظَمُ؟ عَلَى أَنْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَوْ أَنْ جَنَّبَنِي هَذِهِ الْأَهْوَاءَ، وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ سَمَّانَا فِي الْقُرْآنِ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ فَلَا نَعْدِلُ عَنْ الْأَسْمَاءِ الَّتِي سَمَّانَا اللَّهُ بِهَا إلَى أَسْمَاءٍ أَحْدَثَهَا قَوْمٌ -وَسَمَّوْهَا هُمْ وَآبَاؤُهُمْ- مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

بَلْ الْأَسْمَاءُ الَّتِي قَدْ يَسُوغُ التَّسَمِّي بِهَا مِثْلُ انْتِسَابِ النَّاسِ إلَى إمَامٍ كَالْحَنَفِيِّ وَالْمَالِكِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَالْحَنْبَلِيِّ أَوْ إلَى شَيْخٍ كَالْقَادِرِيِّ والعدوي وَنَحْوِهِمْ أَوْ مِثْلُ الِانْتِسَابِ إلَى الْقَبَائِلِ: كَالْقَيْسِيِّ وَالْيَمَانِيِّ وَإِلَى الْأَمْصَارِ كَالشَّامِيِّ وَالْعِرَاقِيِّ وَالْمِصْرِيِّ

فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَمْتَحِنَ النَّاسَ بِهَا وَلَا يُوَالِيَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَلَا يُعَادِيَ عَلَيْهَا بَلْ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ مِنْ أَيِّ طَائِفَةٍ كَانَ.[٢٧٩٩]"

٢٧٩٨ الوصية الكبرى ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٤).

٢٧٩٩ مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٣/٤١٦



وما جاء مِن وصف بعض السلف للامتحان بأنَّه بدعة، وأنَّه مِن فِعل أهل الأهواء كالخوارج فذلك راجع إلى طريقة أهل البدع في الامتحان التي تبيَّن لنا اشتمالُ هذا الامتحان على أوصافٍ هي مَظِنَّة تعليق الحكم بالمنع مِن الامتحان عليها؛ وهي:

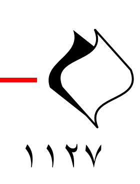
أولًا: تعميم ذلك الامتحان على فِئام كثيرة مِن الناس، وديمومته واستعماله في مسائل وأمور كثيرة؛ فالجهمية مثلًا امتحنَتْ بالقولِ بخلق القرآن أئمةَ الدين وعلماءَ المسلمين، وأشاعوا هذا الامتحان بين الناس، وهدَّدُوهم بالقتل، وحبَسوا بعضًا منهم، وأمروا ألا تُقبَل شهادةُ شاهدٍ حتى يُمتَحن"[٢٨٠٠].

ثانيًا: أن أهل الأهواء يُحْدِثون مسائلَ ليست من الشرع، ويمتحِنون بها، ويُكفِّرون مَن خالفهم فيها، يقول ابن تيمية: "وكذلك سائر أهل الأهواء، فإنهم يبتدِعون بدعةً ويُكفِّرون مَن خالفهم فيها، كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم، والذين امتَحَنوا الناس بخَلْق القرآن كانوا مِن هؤلاء؛ ابتدعوا بِدعةً، وكفَّروا مَن خالفهم فيها، واستحلُّوا منع حقه وعقوبته.[٢٨٠١]" كما فعل الجهمية والمعتزلة في امتحانهم بالقول بخلق القرآن، فإنهم أحدثوا مسائل مخالفة للدين، وامتحنوا بها عباد الله المؤمنين، حتى بلغ أنهم يمتحنون بها في العطاء، وفي تولية الولايات؛ كإمامة الصلاة والقضاء، وفي فكاك الأسرى.

وقال: "ولهذا كان مِن شعار أهل البدع إحداثُ قولٍ أو فعل، وإلزامُ الناس به، وإكراهُهم عليه، أو الموالاةُ عليه، والمعاداةُ على تركه، كما ابتدعَتِ الخوارجُ رأيَها وألزَمَتِ الناسَ به، ووالت وعادت عليه، وابتدعَتِ الرافضةُ رأيَها وألزَمَتِ الناس به

٢٨٠٠ انظر: شرح الأصفهانية ص (٣٧٣)، الفرقان بين الحق والبطلان ص (٥٤٩).

٢٨٠١ مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١١ -٣١٢)؛ وانظر: التسعينية (١/ ٧٦ فما بعدها)، بغية المرتاد (السبعينية) ص (٣٤٨)، شرح الأصفهانية ص (٣٧٣)، مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥)، (١٢/ ٣١)، الفرقان بين الحق والبطلان ص (٥٤٩).



ووالت وعادت عليه، وابتدعت الجهميةُ رأيها وألزمت الناس به ووالت وعادت عليه[٢٨٠٢]."

ثالثًا: كما يدخل في طريقة أهل البدع والأهواء أيضًــا: الامتحانُ بالألفاظ المجمَلة، وعلى هذا يُحمَل كلام ابن ســيرين والبخاري رحمهما الله، فإنَّ الامتحان بالســؤال: أمؤمنٌ أنت؟ وبالقول في (اللفظ بالقرآن) امتحانٌ بقضــايا وألفاظ مُجمَلة مُحتَمِلة، لا بقضايا ظاهرة جليَّة وألفاظ شرعيَّة، وهذه المسائل المحتمِلة قد تخفَى على كثير من الناس، وتحتاج أيضًــا إلى بيان وتفصــيل، فليس الامتحان بها مثل امتحانه صلى الله عليه وسلم للجارية بسؤالها: أين الله؟ ولعل مما يُعضِّد هذا التوجيه ما قاله الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧ هــ) موصيًا أحد أصحابه بقوله: "... ودَعِ امتحان مَن اتَّهَمت، وضَــعْ أمرَه على ما قد ظهر لك منه...، ولا تكُنْ ممن يمتَحِن مَن لقي بالأوابد[٢٨٠٣]."

ولأجل ذلك يقول ابن تيمية: "وليس لأحدٍ أن يمتحن الناس بلفظ مُجمَل ابتدعه هو، مِن غير بيان لمعناه[٢٨٠٤]."

فما كان من الامتحان خاليًا من هذه الأوصــاف؛ فإنَّه يكون جائزًا آنذاك . على تفصيل كما سيأتي في الحال الثانية.

وأما الحال الثاني: وهو جوازه في بعض الأحوال.

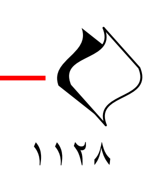
وهو جوازه في أحوال معينة، وبشروط معينة.

أما الشروط

٢٨٠٢ التسعينية (١/ ١٧٦)، وانظر: منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٣٧)، بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٣٩٧ – ٣٩٨).

٢٨٠٣ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٤٠ – ١٤١).

٢٨٠٤ التسعينية (١/ ١٩٤).



أولًا: أن يكون مقيدًا في أحوال معينة ولحاجات معينة، وأن لا يكون الأمر على إطلاقه. كما سيأتي بيانه.

ثانيًا: أن يكون الامتحان بالمشروع من الأقوال مما كان في الكتاب والسنة أو أجمع عليه السلف، فالامتحان بما ليس في الكتاب والسنة والإجماع من صنيع أهل البدع، كما قال البربهاري في الفقرة (٩٥) في وصف أهل البدع حيث قال: **"وامتحنوا الناس بشيء لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من أصحابه"**

فلا يمتحن إلا بما أوحاه الله تعالى إلى رسوله -من الأقوال-؛ فلا يمتحن بكل مسألة شرعية؛ بل لا يمتحن بكل ما قال بعض أهل العلم أنه يمتحن به إلا أن يكون مما ثبت أن الله تعالى أوحى به إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، كما قرر ذلك ابن تيمية بقوله: "وليس لأحدٍ أن يمتحن الناس بلفظ مُجمَل ابتدعه هو، مِن غير بيان لمعناه" .[2805]

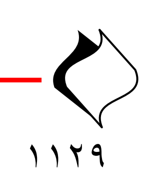
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن منهم من عمد إلى كتاب صنفه الشيخ أبو الفرج المقدسي فيما يمتحن به السني من البدعي؛ فجعل ذلك الكتاب مما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج وأمره أن يمتحن به الناس فمن أقر به فهو سني ومن لم يقر به فهو بدعي وزادوا فيه على الشيخ أبي الفرج أشياء لم يقلها هو ولا عاقل. والناس المشهورون قد يقول أحدهم من المسائل والدلائل ما هو حق أو فيه شبهة حق. فإذا أخذ الجهال ذلك فغيروه صار فيه من الضلال ما هو من أعظم الإفك والمحال" [2806].

وقال ابن تيمية: "وكذلك التفريق بين الأمَّة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله -صلى الله عليه وسلم-"[2807].

٢٨٠٥ التسعينية (١/ ١٩٤).

٢٨٠٦ مجموع الفتاوى: (٤/ ١٤٥-١٤٦).

٢٨٠٧ مجموع الفتاوى: (٣/٤١٥).



ثالثًا: أن تكون المسائل المسؤول عنها مسائل معلومة واضحة وليست خفية أو مبتدعة.

فمن أوجب على المسؤول أن يجيب، فقد أوجب عليه ما لم يوجبه الله ولا رسوله، وليس لأحد ذلك.

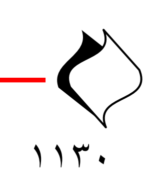
قال شيخ الإسلام: "فإن كانوا في مقام دعوة الناس إلى قولهم والتزامهم به أمكن أن يقال لهم لا يجب على أحد أن يجيب داعيا إلا إلى ما دعا إليه رسول الله؛ فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه ولا له دعوة الناس إلى ذلك ولو قدر أن ذلك المعنى حق[٢٨٠٨]."

كما قال شيخ الإسلام: "وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقًا لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلا."[٢٨٠٩]

رابعًا: أن الامتحان إذا كان بالأعيان من الناس فإنه يكون في الذين عرفوا بفضلهم ومكانتهم من أئمة السلف، فالمعروف من سيرة أئمة السلف، أنهم يمتحنون الناسَ بفضلائهم، وعلمائهم ومن أجمع أهل السنة عليهم.

٢٨٠٨ مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٢).

٢٨٠٩ مجموع الفتاوى (١١/٤٨٧).



وقد أنكر شـــيخ الإســـلام ابن تيمية على من امتحن بيزيد بن معاوية فقال: "فالواجب الاقتصـــار في ذلك والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية[٢٨١٠] وامتحان المسلمين به فإن هذا من البدع المخالفة لأهل السنة والجماعة"[٢٨١١]

وقال ابن تيمية: "وليس لأحد أن ينصــب للأمَّة شــخصــاً يدعو إلى طريقته، ويُوالي ويُعادي عليها غير النَّبيِّ-صـلى الله عليه وسـلم-، ولا ينصـب لهم كلاماً يوالي عليه ويُعادي غير كلام الله ورســوله وما اجتمعت عليه الأمَّة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويُعادون"[٢٨١٢].

وقد تقدم الإشــارة إلى ما يضــاد هذه الشــروط عند ذكر امتحان أهل الأهواء للناس قبل ذلك.

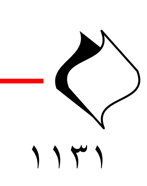
وأما الأحوال التي يجوز فيها امتحان الناس فهو إذا كان ثَمَّت حاجةٌ شـــرعية لكشف ما وراء هذه الظواهر، فإنَّ الامتحان يجوز ويُشرع آنذاك.

وقد فســرت بعض النصــوص الواردة في شــأن الامتحان بأنها وردت في أحوال معينة.

٢٨١٠ قال ابن تيمية-رحمه الله-في مجموع الفتاوى (٣/٤١٣-٤١٤) في كلام له عن يزيد بن معاوية-: "والصـــواب هو ما عليه الأئمَّة، من أنَّه لا يُخَصُّ بمحبة ولا يلعن، ومع هذا فإن كان فاسـقاً أو ظالماً فالله يغفر للفاسـق والظالم، لا سيما إذا أتى بحسنات عظيمة، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ (صلى الله عليه وسـلم) قال: [أوَّل جيش يغزو القسـطنطينيَّة مغفورٌ له]، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان معه أبو أيوب الأنصـاري فالواجب الاقتصـاد في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسـلمين به؛ فإنَّ هذا من البدع المخالفة لأهل السنَّة والجماعة".

٢٨١١ مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٤-٤١٥).

٢٨١٢ مجموع الفتاوى (٢٠/٢٦٤).



ومن ذلك: قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ).

وهذه الآية أفادت أنه يصار إلى الامتحان عند الحاجة، وقد كان امتحان النبي (صلى الله عليه وسلم) لهن لمعرفة صدقهم في إسلامهن وهجرتهن وأنهن ما هاجرن كرها لزوج ولا حبا لدنيا، بل رغبة في الله ورسوله، ولهذا لم يكن من السنة امتحان الرجال عند قدومهم مهاجرين بل كان يقبل منهم (صلى الله عليه وسلم) ظواهرهم، ويقرهم على إسلامهم من غير اختبار ولا امتحان، لأن الحاجة من الامتحان منتفية، كما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي–رحمه الله–: "ومفهومه أن الرجال المهاجرون لا يمتحنون، وفعلا لم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) يمتحن من هاجر إليه، والسبب في امتحانهن دون الرجال هو ما أشارت إليه هذه الآية في قوله تعالى {فإن علمتموهن مؤمنات}كأن الهجرة وحدها لا تكفي في حقهن بخلاف الرجال فقد شهد الله لهم بصدق إيمانهم بالهجرة."[٢٨١٣]

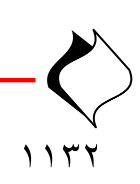
ومن ذلك ما جاء في حديث الجارية عندما سألها أين الله فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُعْتِقُهَا قَالَ " ائْتِنِي بِهَا " .

فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: " أَيْنَ اللَّهُ " .

قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ .

قَالَ: " مَنْ أَنَا " .

٢٨١٣ أضواء البيان (٨/٩٧).



قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ .

قَالَ: " أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ "[٢٨١٤]

فهذا الحديث أفاد مشـــروعية الامتحان بالأقوال بدلالة قوله (صـــلى الله عليه وسلم) ((أين الله؟))، وكذلك أفاد مشروعية الامتحان بالأعيان والشخوص بدلالة قوله (صلى الله عليه وسلم] ((من أنا؟)).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كما أن المعروفين بالإيمان من الصحابة لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحدهم أين الله وإنما قال ذلك لمن شك في إيمانه كالجارية وهذا كما يذكر في حكاية أخرى أن بعضهم لقى شخصا فقال أين ربك فقال لا تقل أين ربك ولكن قل أين محل الإيمان من قلبك أي أن مثلي لا يقال له أين ربك وإنما أسأل عما يليق بمثلي أن يسأل عنه"[٢٨١٥].

كما وردَتْ عن التابعين جملةٌ مِن الآثار تدلُّ بمجموعها على مشـــروعية الامتحان والاختبار إذا دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلك.

فمن ذلك:

ما كان يفعل عند رواية الحديث.

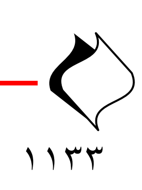
فقد كان رُواةُ الحديث يمتَحِنون مَنْ يأخذون عنه ومَن يُحدِّثونه:

يقول ابن سيرين (ت ١١٠ هــ): "لم يكونوا يسألون عن الإسنادِ، فلما وقعتِ الفتنةُ، قالوا: سَمُّوا لنا رجالَكم، فينظر إلى أهل السُّنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البِدَع فلا يؤخذ حديثهم" [٢٨١٦].

٢٨١٤ أخرجه مسلم (٥٣٧).

٢٨١٥ الاستقامة (١ | ١٩٢).

٢٨١٦ أخرجه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٤).



وكان زائدةُ بن قدامة (ت ٢١٢ هـ) لا يُحدِّثُ قَدَريًّا ولا صاحب بِدْعة يعرفه، ولا يُحدِّث أحدًا حتى يمتحنه.[٢٨١٧]

وكذلك صنع أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧ هـ) فكان لا يُحدِّث حتى يمتَحِن[٢٨١٨].

وكان سليمان التيمي (ت ١٤٣ هـ) "كان لا يُحدِّث أحدًا حتى يمتحنَه، فيقول له: الزِّنا بقَدَر؟ فإن قال: نَعَم، اسْتَحْلَفَهُ أن هذا دينُك؟ فإن حلف حدَّثه خمسة أحاديث، وإن لم يحلِفْ لم يُحدِّثه"[٢٨١٩].

وكان إذا جاءه مَن لا يعرفه مِن أهل البصرة، قال: "أشهد أنَّ الشقي مَن شقي في بطن أمه، والسعيد مَن وعظ بغيره"، فإنَّ أقر وإلا لم يُحدِّثه[٢٨٢٠]."

وجاء في تاريخ بغداد: "أخبرنا أبو نعيم الحافظ حدثنا أبو بكر عبد الله بن يحيى الطلحي حدثنا عثمان بن عبيد الله الطلحي حدثنا إسماعيل بن محمد الطلحي حدثنا سعيد بن سالم البصري قال: سمعت أبا حنيفة يقول لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا؟ قلت: نعم قال: فمن أي الأصناف أنت؟ قلت: ممن لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ولا يكفر أحداً بذنب.

قال: فقال: لي عطاء: عرفت فالزم"[٢٨٢١].

ومنها ما كان يفعل مع المبتدعة في الاعتقاد عند رفع أمرهم إلى الولاة.

فقد حبس هشام بن عُبيد الله الرازي (ت ٢٢١ هـ) -قاضي الري- رجلًا في التجهُّم، فتاب، فجيء به إلى هشامٍ ليُطلِقه، فامتحنه هشام، فقال: أتشهد أن الله

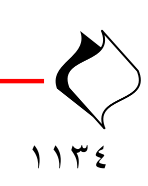
٢٨١٧ انظر: المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي؛ ص (٥٧٤)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٩/ ٢٧٦).

٢٨١٨ انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٨٩).

٢٨١٩ أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٣)، ومن طريقه الذهبي في تاريخ الإسلام (٩/ ١٥٩).

٢٨٢٠ أخرجه الفريابي في القدر برقم (٣٣٢).

٢٨٢١ تاريخ بغداد: (١٣/٣٣١).



على عرشِه بائنٌ مِن خلقه؟ فقال: أشهد أن الله على عرشه، ولا أدري ما بائنٌ مِن خلقه، فقال: ردُّوه إلى الحبس؛ فإنَّه لم يَتُبْ[٢٨٢٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عند ذكر الإمام أحمد: "وكان الإمام–الذي ثبته الله وجعله إماماً للسنة حتى صار أهل العلم بعد ظهور المحنة يمتحنون الناس به، فمن وافقه كان سنياً، وإلا كان بدعياً–هو الإمام أحمد بن حنبل"[٢٨٢٣].

وما كان يفعل عند اختيار الولاة.

فلم يقتصِرِ الامتحانُ عندَهم على باب رواية الحديث فقط، بل كانوا يستعمِلونه حتى في اختبار مَن يريدون توليَتَه؛ فهذا عمر بن عبد العزيز يأمُرُ غلامه بأن يمتحن ابنَ أبي موسى لَمَّا أعجبه سَمْتُه، وأراد أن يُولِّيَه[٢٨٢٤].

وما كان يفعل عند اختيار صديق أو مصاحبة أحد أو تزويجه.

فهذا كله مما يدل على مشروعية الامتحان؛ حيث تدعو إليه الحاجة،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–:"فإذا أراد الإنسان أن يصاحب المؤمن، أو أراد المؤمن أن يصاحب أحدا وقد ذكر عنه الفجور وقيل إنه تاب منه، أو كان ذلك مقولا عنه سواء كان ذلك القول صدقا أو كذبا: فإنه يمتحنه بما يظهر به بره أو فجوره وصدقه أو كذبه، وكذلك إذا أراد أن يولي أحدا ولاية امتحنه؛ كما أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى لما أعجبه سمته، فقال له: قد علمت مكاني عند أمير المؤمنين فكم تعطيني إذا أشرت عليه بولايتك؟ فبذل له مالا عظيما، فعلم عمر أنه ليس ممن يصلح للولاية، وكذلك في المعاملات، وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا أو قيل عنهم الفجور وأراد الرجل أن يشتريه بأنه

٢٨٢٢ أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله برقم (١٢١٠)، والذهبي في العلو للعليّ العظيم (٢/ ١٠٧٦) برقم (٤١٨). وانظر: الحموية ص (٣٢٥).

٢٨٢٣ الفتاوى (٥/٥٥٣).

٢٨٢٤ انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٩).

يمتحنه، فإن المخنث كالبغي، وتوبته كتوبتها. ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس، وتارة تكون بالجرح والتعديل، وتارة تكون بالاختبار والامتحان"[٢٨٢٥]

يقول ابن تيمية: "والمؤمن مُحتاجٌ إلى امتحان مَن يريد أن يصاحبه ويقارنه بنكاح وغيره."...

وقال: "ومعرفة أحوال الناس تارةً تكون بشهادات الناس، وتارةً تكون بالجرح والتعديل، وتارة تكون بالاختبار والامتحان[٢٨٢٦]".

وقال ابن تيمية في ذلك: "وأما إن كان يسأل المسؤول ليمتحن حاله، ويختبر باطن أمره، وعنده ما يُميِّز به صدقه من كذبه، فهذا جائز"[٢٨٢٧].

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

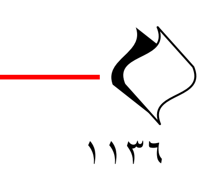
[١٤٣] "وإذا أردت الاستقامة على الحق وطريق أهل السنة قبلك فاحذر الكلام، وأصحاب الكلام، والجدال والمراء، والقياس، والمناظرة في الدين، فإن [استماعك] منهم –وإن لم تقبل منهم– يقدح الشك في القلب، وكفى به قبولا [فتهلك]، وما كانت زندقة قط، ولا بدعة، ولا هوى، ولا ضلالة، إلا من الكلام، والجدال، والمراء، والقياس، [وهي] أبواب البدعة، والشكوك والزندقة".

الشرح

٢٨٢٥ مجموع الفتاوى" (١٥/٣٢٩-٣٣٠).

٢٨٢٦ مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٨، ٣٣٠).

٢٨٢٧ مجموع الفتاوى (١٩/ ٦٢).



تقدم الحديث عن والكلام والخصومة والجدال والمراء والمناظرة في الفقرة (١٠)، والفقرة (٦٧)، والفقرة (٨٠)، والفقرة (١٣٤). وتفصيل القول في هذه المسائل ومعانيها وخطورتها، بما يغني عن تكرارها هنا فاليرجع إليها.

(المتن)

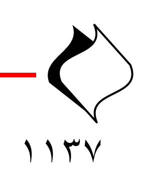
قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٤] "فالله الله في نفسك، وعليك بالأثر، وأصحاب الأثر، والتقليد؛ فإن الدين إنما هو بالتقليد [يعني للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم]، ومن قبلنا لم يدعونا في لبس، فقلدهم واسترح، ولا تجاوز الأثر، وأهل الأثر، وقف عند المتشابه، ولا تقس شيئا، ولا تطلب من عندك حيلة ترد [بها] على أهل البدع، فإنك أمرت بالسكوت عنهم، ولا تمكنهم من نفسك.

أما علمت أن محمد بن سيرين في فضله لم يجب رجلا من أهل البدع في مسألة واحدة، ولا سمع منه آية من كتاب الله، فقيل له، فقال: أخاف أن يحرفها فيقع في قلبي شيء".

الشرح

تقدم الكلام على هذه المسائل في عدة مواطن ومن ذلك ما ورد في الفقرة (٤) والفقرة (١٣٥).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٥] "وإذا سمعت الرجل يقول: إنا نحن نعظم الله–إذا سمع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم–فاعلم أنه جهمي، يريد أن يرد أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدفع بهذه الكلمة آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يزعم أنه يعظم الله وينزهه إذا سمع حديث الرؤية، وحديث النزول وغيره، أفليس قد رد أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وإذا قال: إنا نحن نعظم الله أن يزول من موضع إلى موضع، فقد زعم أنه أعلم بالله من غيره، فاحذر هؤلاء؛ فإن جمهور الناس من السوقة وغيرهم على هذا [الحال، وحذر الناس منهم]".

الشرح

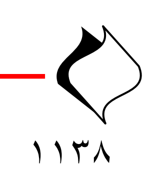
تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة (١٣٥) عند قول المصنف: "وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده، ويريد القرآن"

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٦] "وإذا سألك أحد عن مسألة في هذا الكتاب، وهو [مسترشد] فكلمه، وأرشده، وإذا جاءك يناظرك، فاحذره، فإن في المناظرة: [المراء]، والجدال، والمغالبة، والخصومة، والغضب، وقد نهيت عن هذا جدا، يخرجان جميعا من طريق الحق، ولم يبلغنا عن أحد من فقهائنا، وعلمائنا أنه ناظر أو جادل أو خاصم".

الشرح



تقدم الحديث عن مسائل المناظرة والمراء والمجادلة والخصومة فيما تقدم من مسائل في الفقرة رقم (١٠) والفقرة (٨٠) والفقرة (١٣٤)، فليرجع إليها.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٧] "قال الحسن: الحكيم لا يماري ولا يداري، حكمته ينشرها، إن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله[٢٨٢٨].

وجاء رجل إلى الحسن فقال له: أناظرك في الدين؟ فقال الحسن: أنا عرفت ديني، فإن ضل دينك فاذهب فاطلبه[٢٨٢٩].

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على باب حجرته، يقول أحدهم: ألم يقل الله كذا؟ ويقول الآخر: ألم يقل [الله] كذا؟ فخرج مغضبا، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا بعثت إليكم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟»[٢٨٣٠] فنهى عن الجدال.

٢٨٢٨ أخرجه نعيم بن حماد في زوائده على الزهد لابن المبارك» (ص ٨ رقم ٣٠) عن سفيان بن عيينة عن رجل قال: قيل للحسن في شيء قاله: يا أبا سعيد ما سمع أحد من الفقهاء يقول هذا، قال: وهل رأيت فقيها قط؛ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة والدائب في العبادة، قال: وما رأيت فقيها قط يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فإن قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله). وهذا سند ضعيف لأن فيه راو مبهم.

وورد من قول سفيان بن عيينة، أخرجه أبو نعيم في الحلية» (٧/ ٢٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان» (٢/ ٢٨٨).

٢٨٢٩ أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ١/ ١٢٨، والآجري في الشريعة (ص: ٥٧)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٥٨٦).

٢٨٣٠ أخرجه أحمد (٢/ ١٩٥-١٩٦) رقم: (٦٨٤٥) و (٦٨٤٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٦) وغيرهما، وحسنه الألباني في ظلال الجنة.

وكان ابن عمر يكره المناظرة[٢٨٣١]، ومالك بن أنس[٢٨٣٢]، ومن فوقه، ومن دونه إلى يومنا هذا، وقول الله أكبر من قول الخلق، قال الله تبارك وتعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} [غافر، الآية: ٤]. وسأل رجل عمر فقال: ما الناشطات نشطا؟ فقال: لو كنت محلوقا لضربت عنقك[٢٨٣٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن لا يماري، ولا أشفع للمماري يوم القيامة، فدعوا المراء [لقلة خيره]»"[٢٨٣٤].

الشرح

تقدم الحديث عن هذه المسائل في الفقرة (١٠).

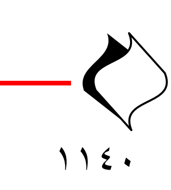
٢٨٣١ أخرج اللالكائي في اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٢٢) رقم (١٩٩) من طريق مجاهد قال: قيل لابن عمر: إن نجدة يقول كذا وكذا، فجعل لا يسمع منه كراهية أن يقع في قلبه منه شيء.

٢٨٣٢ قال معن بن عيسى: انصرف مالك يوما إلى المسجد، وهو متكئ على يدي فلحقه رجل يقال له: أبو الجديرة، يتهم بالإرجاء: فقال: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئًا، أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي، فقال له: احذر أن أشهد عليك، قال: والله ما أريد إلا الحق، اسمع مني، فإن كان صوابا فقل به أو فتكلم. قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعتك، قال: فإن جاء رجل فكلمنا فغلبنا؟ قال: اتبعناه. فقال له مالك: يا عبد الله بعث الله محمدًا بدين واحد وأراك تنتقل». أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٥٨٣)، وأورده الشاطبي في الاعتصام» (٢/ ٩٣) وهذا لفظه، وانظر: سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٦).

٢٨٣٣ هذا الرجل هو صبيغ بن عسل، وهذا اللفظ أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٣٤رقم ١١٦٣)، وابن عساكر في تاريخه (٢٣/ ٤١٢) من طرق عن عمر، وصححه شيخ الإسلام ابن تيميه في «الصارم المسلول (٢/ ٣٥٦-٣٥٧)

٢٨٣٤ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير» (٨/ ١٥٢ رقم ٧٦٥٩) وابن حبان في المجروحين» (٢/ ٢٢٥-٢٢٦)، وابن عساكر في «تأريخه» (٣٣/ ٣٦٧-٣٦٨) من طريق كثير بن مروان الفلسطيني السلمي، عن عبد الله بن زيد الدمشقي عن أبي الدرداء وأبي أمامة الباهلي وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع، مرفوعا.

قال ابن حبان عن كثير بن مروان هذا: «وهو صاحب حديث المراء، منكر الحديث جدا، لا يجوز الاحتجاج به، ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب، والحديث قال عنه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب) (١١٩): موضوع.



قال الآجري: "وقد ذكرت في تأليف كتاب المصحف: مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي اجتمعت عليه الأمة، والصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من التابعين، وأئمة المسلمين رحمة الله تعالى عليهم في كل بلد، وقول السبعة الأئمة في القرآن: ما فيه كفاية، ولم أحب ترداده هاهنا، وإنما مرادي ههنا ترك الجدال والمراء في القرآن، فإنا قد نهينا عنه. ولا يقول إنسان في القرآن برأيه، ولا يفسر القرآن إلا بما جاء به النبي، أو عن أحد من صحابته رضي الله عنهم، أو عن أحد من التابعين رحمة الله تعالى عليهم، أو عن إمام من أئمة المسلمين، ولا يماري لا يجادل.

فإن قال قائل: فإنا قد نرى الفقهاء يتناظرون في الفقه، فيقول أحدهم: قال الله عز وجل كذا، وقال النبي لا كذا وكذا، فهل يكون هذا من المراء؟

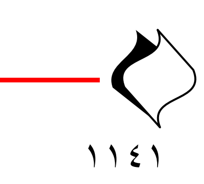
قيل معاذ الله ليس هذا مراء، ولكن الفقيه ربما ناظره الرجل في مسألة، فيقول له، على جهة البيان والنصيحة: حجتنا فيه: قال الله عز وجل فيه كذا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم كذا، على جهة النصيحة والبيان، لا على جهة المماراة، فمن كان هكذا، ولم يرد المغالبة، ولا أن يخطئ خصمه ويستظهر عليه سلم، وقبل إن شاء الله"[٢٨٣٥]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٤٨] "ولا يحل لرجل أن يقول: فلان صاحب سنة، حتى يعلم منه أنه قد اجتمعت فيه خصال السنة، لا يقال له: صاحب سنة حتى تجتمع فيه السنة كلها.

٢٨٣٥ الشريعة للآجري ص: ٦٣.



وقال عبد الله بن المبارك: أصل اثنين وسبعين هوى: أربعة أهواء، فمن هذه الأربعة أهواء، فمن هذه الأربعة الأهواء انشعبت [الاثنان] وسبعون هوى: القدرية، والمرجئة، والشيعة، والخوارج.

فمن قدم أبا بكر وعمر وعثمان [وعليا] على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم في الباقين إلا بخير، ودعا لهم، فقد خرج من التشيع أوله وآخره.

ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقد خرج من الإرجاء كله أوله وآخره.

ومن قال: الصلاة خلف كل بر وفاجر، والجهاد مع كل خليفة، ولم ير الخروج على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خرج من قول الخوارج أوله وآخره.

ومن قال: المقادير كلها [من] الله خيرها وشرها، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فقد خرج من قول القدرية، أوله وآخره، وهو صاحب سنة".

الشرح

في هذا النص عدة مسائل:

المسألة الأولى: قول المصنف: "ولا يحل لرجل أن يقول: فلان صاحب سنة حتى يعلم منه أنه قد اجتمعت فيه خصال السنة، لا يقال له: صاحب سنة حتى تجتمع فيه السنة كلها".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى لفظ "أهل السنة": "فلفظ "أهل السنة" يراد به من أثبت خلافة الثلاثة، فيدخل في ذلك -أي: "في لفظ أهل السنة"- جميع الطوائف إلا الرافضة.



وقد يراد به: أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول: القرآن غير مخلوق وأن الله يرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث والسنة[٢٨٣٦]"

ومن خالف شيئاً من ذلك عد من أصحاب البدع، ولم يكن سنياً، بذا حكم إمام أهل السنة دون منازع الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، حيث قال في مقدمة كتاب (السنة): "هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدي بهم فيها من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، وأدركت عليها من علماء الحجاز والشام وغيرهما عليها فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة زايل عن منهج السنة وسبيل الحق".[٢٨٣٧] ثم ذكر اعتقاد أهل السنة

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله[٢٨٣٨]، ويعلمون أن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي النبي صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد، وبهذا سُمُّوا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة.[٢٨٣٩]

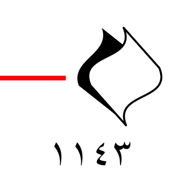
ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله بعد كلام عن اختلاف المبتدعة: "وإذا تأمل اللبيب الفاضل هذه الأمور، تبيَّن له أن مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة

٢٨٣٦ ((منهاج السنة النبوية))، "بتحقيق محمد رشاد سالم، طبعة المدني – القاهرة"، (٢/١٦٣).

٢٨٣٧ ((السنة)) (ص: ٣٣ – ٣٤)، ضمن مجموع مع كتاب الرد على الجهمية.

٢٨٣٨ مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٧).

٢٨٣٩ مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٧).



والسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح والمنقول الصحيح، وأن من خالفه كان خارجًا عن موجب العقل والسمع، مخالفًا للفطرة.[٢٨٤٠]"

ومذهب أهل السنة والجماعة، ليس مذهبًا مبتدعًا، وإنما هو التزام بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم، معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقَّوا عن نبيهم.

وكون التسمية بأهل السنة والجماعة حادثة، لا يعني أن مذهب أهل السنة والجماعة حادث، بل مذهب أهل السنة هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده".[٢٨٤١]"

ويقول الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "فأهل السنة المحضة السالمون من البدع، الذين تمسكوا بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الأصول كلها، أصول التوحيد والرسالة، والقدر ومسائل الإيمان وغيرها، وغيرهم من خوارج ومعتزلة وجهمية وقدرية، ورافضة ومرجئة، ومَن تفرع منهم، كلهم من أهل البدع الاعتقادية[٢٨٤٢]".

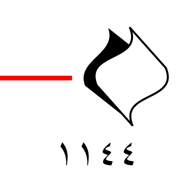
المسألة الثانية: قول المصنف: **"وقال عبد الله بن المبارك: أصل اثنين وسبعين هوى: أربعة أهواء، فمن هذه الأربعة أهواء، فمن هذه الأربعة الأهواء انشعبت [الاثنان] وسبعون هوى: القدرية، والمرجئة، والشيعة، والخوارج".**

تقدم شرحه في الفقرة: (١٠١) فاليرجع إليه.

٢٨٤٠ مجموع الفتاوى (٥/ ٢١٢).

٢٨٤١ مناهج السنة (٢/ ٤٨٢).

٢٨٤٢ الفتاوى السعدية (ص ٦٣).



المسألة الثالثة: قول المصنف: **"فمن قدم أبا بكر وعمر وعثمان [وعليا] على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم في الباقين إلا بخير، ودعا لهم، فقد خرج من التشيع أوله وآخره".**

تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة (٢٥) عند قول المصنف: وأما قول المصنف: **"وخير هذه الأمة بعد وفاة نبيها: أبو بكر وعمر وعثمان، هكذا روي لنا عن ابن عمر؛ قال: "كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا: إن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر وعمر وعثمان ويسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فلا ينكره"**[٢٨٤٣].

فأهل السنة يعتقدون بأن خير هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان، ثم علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك يأتي بقية العشرة، ثم يأتي بعد هذا أهل بدر، ثم يأتي بعد ذلك أهل بيعة شجرة الرضوان، ثم بعد ذلك يأتي أهل الفتح فتح مكة ثم بعد ذلك يتوالى الفضل بحسب أقدمية ذلك الذي أسلم من الصحابة.

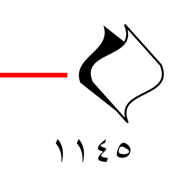
قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: «ويقرُّون بما تَوَاتَرَ به النَّقْلُ عن أميرِ المؤمنينَ عليّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وغيرِه، مِن أَنَّ خَيْرَ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّهَا: أبو بكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ويثَلِّثُونَ بِعُثْمَان، ويُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم أجمعين، كما دلَّت عليه الآثارُ»[٢٨٤٤].

المسألة الرابعة: قول المصنف: **"ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقد خرج من الإرجاء كله أوله وآخره".**

تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة رقم (٢٤) فليرجع إليها.

٢٨٤٣ انظر صحيح البخاري كتاب المناقب، بـــاب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٣٦٥٥)، وأبو داود (٤٦٢٧)، وأحمد (٤٦١٢).

٢٨٤٤ مجموع الفتاوى ٢/ ٩١.



المسألة الخامسة: قول المصنف: **"ومن قال: الصلاة خلف كل بر وفاجر، والجهاد مع كل خليفة، ولم ير الخروج على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خرج من قول الخوارج أوله وآخره".**

هذا نص قول الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: "مَن قال: الصلاة خلفَ كُلِّ برٍّ وفاجرٍ، والجهاد مَعَ كُلِّ خليفةٍ، ولم يرَ الخروجَ على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خَرَجَ من قول الخوارج أوله وآخره".٢٨٤٥

تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة رقم (١٢٧) فليرجع إليها.

المسألة السادسة: قول المصنف: **"ومن قال: المقادير كلها [من] الله خيرها وشرها، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فقد خرج من قول القدرية، أوله وآخره، وهو صاحب سنة".**

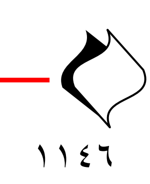
تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة رقم (٥٦) فليرجع إليها.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٤٩] وبدعة ظهرت، هي كفر بالله العظيم، ومن قال بها فهو كافر، لا شك فيه: من يؤمن بالرجعة، ويقول: علي بن أبي طالب حي، وسيرجع قبل يوم القيامة، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وتكلموا في الإمامة، وأنهم يعلمون الغيب، فاحذرهم؛ فإنهم كفار بالله العظيم، ومن قال بهذا.

٢٨٤٥ شرح السنة للبربهاري ص١٣٢ رقم ١٥٩.



قال طعمة بن [عمرو]، وسـفيان بن عيينة: من وقف عند عثمان وعلي فهو شيعي لا يعدل، ولا يكلم، ولا يجالس.

ومن قدم عليا على عثمان فهو رافضي قد رفض أمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن قدم [الأربعة] على جماعتهم، وترحم على الباقين، وكف عن زللهم فهو على طريق [الاستقامة و] الهدى في هذا [الباب].

الشرح

كلام المصنف يحتوي على المسائل الآتية:

المسألة الأولى: القول بالرجعة.

قال المصنف: **"وبدعة ظهرت، هي كفر بالله العظيم، ومن قال بها فهو كافر، لا شك فيه: من يؤمن بالرجعة، ويقول: علي بن أبي طالب حي، وسيرجع قبل يوم القيامة، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر".**

الرجعة عند الشيعة الإمامية تعني، العودة بعد الموت. وهي من أصول المذهب الشيعي الاثني عشري، يقول ابن بابويه: "واعتقادنا في الرجعة أنها حق"[٢٨٤٦]، وقال المفيد: "واتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات[٢٨٤٧]"[٢٨٤٨]

ولذلك قسم الشيعة الإمامية رجوع الناس بعد الموت إلى ثلاثة أصناف:

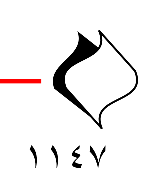
الأول: رجوع المهدي أو خروجه من مخبئه، وكذلك رجوع الأئمة بعد موتهم.

الثاني: رجوع خلفاء المسلمين الذين اغتصبوا الخلافة!، والاقتصاص منهم.

٢٨٤٦ الاعتقادات: (ص٩٠).

٢٨٤٧ حدد الألوسي، وأحمد أمين ظهور هذه المقالة في حدود القرن الثالث الهجري، روح المعاني: ٢٠/٢٧، ضحى الإسلام: ٣/٢٣٧.

٢٨٤٨ أوائل المقالات: ص٥١.



الثالث: رجوع أصحاب الإيمان المحض (وهم الشيعة الإمامية ومن تابعهم)، ورجوع أصحاب الكفر المحض) وهم جميع من لم يؤمن بمذهبهم، وعلى رأسهم أهل السنة بلا شك)، ويستثنى من ذلك المستضعفين (وهم النساء، والبله، ومن لم تتم عليه الحجة كأصحاب الفترة وهؤلاء عند الشيعة الإمامية مرجون لأمر الله إما يعذبهم أو يتوب عليهم"[٢٨٤٩]

وأما زمن الرجعة فمنهم من خصها بزمن قيام المهدي[٢٨٥٠]، ومنهم من أبى ذلك وقال الرجعة غير الظهور، فالإمام الغائب حي وسيظهر، والرجوع غير الظهور.

ومنهم من قال بأن مبدأ الرجعة يكون عند رجوع الحسين بن علي –رضي الله عنهما–، فـ: "أول من تنشق الأرض عنه ويرجع إلى الدنيا، الحسين بن علي عليه السلام"[٢٨٥١]

هذا الأمر الذي اتفقت عليه الشيعة الإمامية مخالف مخالفة صريحة لنصوص الكتاب والسنة التي نصتا على أن من قضى نحبه وانتهى أجله أنه لا يعود مرة أخرى حتى يبعث الناس من قبورهم يوم القيامة، فقد جاءت آيات القرآن الحكيم مؤكدة على أنه لا رجعة لأحد كائناً من كان قبل يوم القيامة، منها:

قول الله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) [المؤمنون:١٠٠،٩٩].

وقوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) [السجدة:١٢].

٢٨٤٩ انظر بحار الأنوار: ٣٦٣/٨، والاعتقادات للمجلسي ص ١٠٠

٢٨٥٠ انظر أوائل المقالات للمفيد ص٩٥.

٢٨٥١ بحار الأنوار: ٣٩/٥٣.



وقوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة:٢٨].

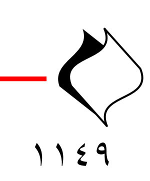
وقوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) [غافر: ١١]. وهذه الآيات صريحة في أن الناس بعد موتهم يمكثون في البرزخ حتى تقوم الساعة.

فقد كثرت الروايات عند الشّيَعة عن أئمتهم، تبطل هذا العقيدة، ولا كلام بعد كلام أئمتهم، والذي يعد أقوى حجة عليهم، حيث جاء في كتب السنة عند أهل السنة عن ثاني الأئمة الاثني عشر–الحسن بن علي–، والذي رد على كذب من قال برجعة الأئمة، فقد جاء: "عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: الشّيَعة يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا يَرْجِعُ؟ قَالَ: كَذَبَ أُولَئِكَ الْكَذَّابُونَ، لَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ مَا تَزَوَّجَ نِسَاؤُهُ، وَلَا قَسَمْنَا مِيرَاثَهُ". [٢٨٥٢]

وقد جاء أيضاً عن الإمام الرابع–علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم –أنه قال: "جَاءَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَقَالَ: مَا جِئْتُ حَاجًّا وَلَا مُعْتَمِرًا. قَالَ: قُلْتُ: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، مَتَى يُبْعَثُ عَلِيٌّ؟ قَالَ: قُلْتُ: يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَمُّهُ نَفْسُهُ" [٢٨٥٣].

٢٨٥٢ المسند للإمام أحمد، (ج٢/٣١٢، ١٢٦٥)، بشرح أحمد محمد شاكر وقال: إسناده صحيح، وهو أثر عن الحسن بن علي، ليس حديثاً من مسند هذا أو ذاك، وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، (ج١٠/٢٢، ١٦٤٣٨)، وقال: رواه عبد الله وإسناده جيد، ط/١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٢٨٥٣ السنة لأبي بكر بن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الألباني، باب في ذكر الرافضة أذلهم الله، (ج٢/٤٨٢، ٩٩٧).



فالنصوص السابقة وغيرها من أئمة الشِّيَعة، لهي أكبر دليل على بطلان الرجعة، هذا وقد "اتفق أهل السنة على أن الأموات لا رجعة لهم في الدنيا قبل يوم القيامة، ومن قال بها فقد أدخل على الإسلام ما هو منه براء"[٢٨٥٤].

فالاعتقاد الصحيح هو القول ببطلان وفساد ذلك، "وأنه لا يرجع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه إلا يوم القيامة، إذا رجع الله المؤمنين والكافرين للحساب والجزاء، هذا إجماع أهل الإسلام المتيقن قبل حدوث الروافض المخالفين لإجماع أهل الإسلام المبدلين للقرآن المكذبين بصحيح سنن رسول الله، المجاهرين بتوليد الكذب المتناقضين في كذبهم أيضاً"[٢٨٥٥]. فهذه العقيدة باطلة بصريح آيات القرآن الكريم، وبالأحاديث المتواترة عن رسول الله، وبأقوال أهل البيت، وبإجماع الأمة، بل أنكرها بعض الشِّيَعة ولم يعترفوا بها كالزيدية[٢٨٥٦]. فمثل هذه العقائد الغريبة، لا تجوز شرعاً، وغير مقبولة عقلاً وهي عبث وسخافات اخترعها الشِّيَعة وابتدعوها.

المسألة الثانية: دعوى أن الأئمة يعلمون الغيب.

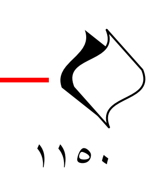
قال المصنف: **"وتكلموا في الإمامة، وأنهم يعلمون الغيب، فاحذرهم؛ فإنهم كفار بالله العظيم، ومن قال بهذا".**

الشيعة تزعم أن أئمتها تعلم الغيب، وبالغت في ذلك كأشد ما تكون المبالغة، ووضعت في ذلك من الأحاديث الشيء الكثير.

٢٨٥٤ انظر: مختصر التحفة الاثني عشرية، ص٢٢٢، وانظر: مع الاثني عشرية في الأصول والفروع، للدكتور علي السالوس، ص٣١٩.

٢٨٥٥ المحلى، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتَوَفَّى عام ٤٥٦هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج١/٢٣، ط١/١٣٤٧هـ، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.

٢٨٥٦ ولا رجعة عنده–أي الإمام زيد–إلا يوم البعث، إذ يبعث الله تعالى من في القبور جميعاً، وتكون القيامة والحساب، والعقاب والثواب"، انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٢٣.



فمن ذلك ما أورد الكليني في كتابه الكافي، الذي هو بمثابة صحيح البخاري عندهم، الذي خصص فيه أبوابا في علمهم الغيب، ذكر منها:

باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون، وأنهم لا يخفى عليهم الشيء.[٢٨٥٧]

وباب أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم.[٢٨٥٨]

وباب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل عليهم السلام.[٢٨٥٩]

وتحت كل باب من هذه الأبواب عشرات الأحاديث.

كهذه الرواية التي ينسبون إلى علي رضي الله عنه أنه يقول فيها: «ولقد أعطيت خصالا ما سبقني إليها أحد قبلي: علمت المنايا والبلايا، والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني، أبشر بإذن الله وأؤدي عنه، كل ذلك من الله مكنني فيه بعلمه»٢٨٦٠.

وفي رواية أخرى عن جعفر بن محمد، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أعطيت تسعا لم يعط أحد قبلي سوى النبي صلى الله عليه وآله: لقد فتحت لي السبل، وعلمت المنايا، والبلايا، والأنساب، وفصل الخطاب، ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربي، فما غاب عني ما كان قبلي ولا ما يأتي بعدي، وإن بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم، وأتم عليهم النعم، ورضي لهم إسلامهم»[٢٨٦١]

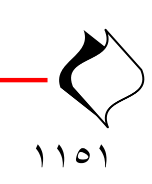
٢٨٥٧ الكافي: ج١ ص٢٦٠.

٢٨٥٨ الكافي: ج١ ص٢٥٨.

٢٨٥٩ الكافي: ج١ ص٢٥٥.

٢٨٦٠ الكافي: ج ١ ص ١٩٦-١٩٧.

٢٨٦١ أمالي الطوسي ص٢٠٥.



يقول إمامهم المظفر في علم الإمام: «أما علمه فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي أو الإمام من قبله. وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه، فإن توجه إلى شيء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقي، لا يخطئ فيه ولا يشتبه، ولا يحتاج في كل ذلك إلى البراهين العقلية ولا إلى تلقينات المعلمين، وإن كان علمه قابلا للزيادة والاشتداد»[٢٨٦٢]

وكل ذلك من الكذب الصريح على الله عز وجل، وعلى أولئك الأئمة؛ فإن من المجمع عليه بين أهل الإسلام، أن الله استأثر بعلم الغيب، فلا يُطلِع على غيبه أحدا، إلا من ارتضى من رسله المبلغين عنه، قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) وقال: (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله)، وقال على لسان نبيه نوح: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب)، وعلى لسان محمد صلى الله عليه وآله: (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير).

وقد تقدم تفصيل القول في هذه المسألة في الفقرة (٨٩)، والفقرة (١٢٢) فليرجع إليها.

المسألة الثالثة: المفاضلة بين عثمان وعلي.

قول المصنف: **"قال طعمة بن [عمرو]، وسفيان بن عيينة: من وقف عند عثمان وعلي فهو شيعي لا يعدل، ولا يكلم، ولا يجالس.**

٢٨٦٢ عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر ص ٦٧–٦٨.

ومن قدم عليا على عثمان فهو رافضي قد رفض أمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن قدم [الأربعة] على جماعتهم، وترحم على الباقين، وكف عن زللهم فهو على طريق [الاستقامة و] الهدى في هذا [الباب]".

مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي سبق الكلام عنها في الفقرة (٢٥) ومما ورد في هذه المسألة قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا)، قال: «لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي، وإن كانت هذه المسألة-مسألة عثمان وعلي-ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله»[٢٨٦٣].

وقال ابن عبد البر بعد ذكره للخلاف الواقع بين أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي: «وأهل السنة اليوم على ما ذكرت لك من تقديم أبي بكر في الفضل على عمر وتقديم عمر على عثمان وتقديم عثمان على علي رضي الله عنهم»[٢٨٦٤]
وقال ابن الصلاح: «وتقديم عثمان هو الذي استقرت عليه مذاهب أصحاب الحديث والسنة[٢٨٦٥]»

وللمسألة تفصيل أكبر سبق بيانه.

[٢٨٦٣] العقيدة الواسطية-ضمن المجموعة العلمية السعودية-ص ٨٦.

٢٨٦٤ الاستيعاب -بهامش الإصابة-٣/ ٥٤.

٢٨٦٥ المقدمة ص ١٩٩.

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٥٠] "والسنة أن تشهد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة أنهم في الجنة لا شك".

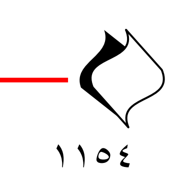
الشرح

نص الرسول –صلى الله عليه وسلم– نصاً صريحاً على أن عشرة من أصحابه من أهل الجنة، ففي (مسند أحمد)، و(سنن الترمذي) عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي – صلى الله عليه وسلم –قال: ((أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة)).[٢٨٦٦] وإسناده صحيح

وروى الحديث الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والضياء في المختارة عن سعيد بن زيد بلفظ فيه شيء من الاختلاف عن سابقه، ولفظه: ((عشرة في الجنة: النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة)).[٢٨٦٧] وإسناده صحيح .

٢٨٦٦ رواه الترمذي (٣٧٤٧)، وأحمد (١٩٣/١) (١٦٧٥). وحسنه ابن حجر في ((هداية الرواة)) (٤٣٦/٥) –كما ذكر في مقدمته–. وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١٣٦/٣): إسناده صحيح. وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)): صحيح.

٢٨٦٧ رواه أبو داود (٤٦٤٩)، وابن ماجه (١٣٣)، وأحمد (١٨٨/١) (١٦٣١). والحديث سكت عنه أبو داود. وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١١٠/١): إسناده صحيح. وقال الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)): صحيح.



فَأَهْلَ السُّنَّةِ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْعَشَرَةَ فِي الْجَنَّةِ، قال ابن كثير: "لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم"[٢٨٦٨].

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: "لا أحد يشهد لأحد بالجنة أو النار إلا من ثبت له ذلك. وأهل السنة والجماعة لا يشهدون لِمُعَيَّنٍ بالجنة إلا لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، كالعشرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، الذين ثبتت الأحاديث في تعيينهم أنهم من أهل الجنة. وأما مَنْ سواهم فلا يشهدون له بذلك، ولكنهم يرجون لجميع المؤمنين دخول الجنة، ويخافون على مَنْ أذنب من النار، ولا يقطعون لمعين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من ثبت له ذلك". اهـ[٢٨٦٩].

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

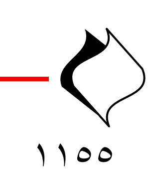
[١٥١] "ولا تفرد بالصلاة على أحد، إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله فقط".

الشرح

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قد تنازع العلماء: هل لغير النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي على غير النبي صلى الله عليه وسلم مفردا؟ على قولين:

٢٨٦٨ تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٦).

٢٨٦٩ جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية (٢٠٦).



أحدهما: المنع وهو المنقول عن مالك والشافعي واختيار جدي أبي البركات.

والثاني: أنه يجوز وهو المنصوص عن أحمد واختيار أكثر أصحابه: كالقاضي وابن عقيل والشيخ عبد القادر.

واحتجوا بما روي عن علي أنه قال لعمر: "صلى الله عليك"[٢٨٧٠].

واحتج الأولون بقول ابن عباس: "لا أعلم الصلاة تنبغي من أحد على أحد إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٢٨٧١].

وهذا الذي قاله ابن عباس قاله لما ظهرت الشيعة وصارت تظهر الصلاة على علي دون غيره فهذا مكروه منهي عنه كما قال ابن عباس.

٢٨٧٠ أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص (٢٩٩) رقم: (١٣٢٥)، بسنده عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال قال علي رضي الله عنه لعمر بن الخطاب-وهو مسجى-: "صلى الله عليك"، ودعا له وقال: "ما أجد أحدًا من الناس أحب أن ألقى الله بصحيفته من هذا". قال سفيان: قيل لجعفر بن محمد: أليس قيل لا يصلى على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: هكذا سمعت.

وأورده عبد القادر الجيلي في الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل ص ٩٢

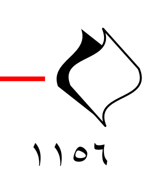
٢٨٧١ خرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم ٢١١٩ ج ٢/ ٢١٩ عن الثوري عن أبي سهل عثمان بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس قال: "لا ينبغي الصلاة إلا على النبي" قال سفيان: "يكره أن يصلي إلا على نبي".

قال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥١٧ «أثر حسن»، وخرجه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٦٤-١٦٥ بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: "لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم"، ومن طريق آخر عن عكرمة عن ابن عباس: "كره أن يصلي أحد على غير النبي صلى الله عليه وسلم".

وأورده السيوطي في الدر المنثور ج ٥/ ٢٢٠ وعزاه إلى ابن أبي شيبة، والقاضي إسماعيل، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس.

وأورده البرهان فوري في كنز العمال برقم ٤٠٠٣ ج٢/ ٢٧٨ وعزاه إلى عبد الرزاق.

وأورده ابن القيم في جلاء الأفهام ص٢٩٠ عن ابن عباس قال: "لا ينبغي الصلاة إلا على النبي" ثم قال: قال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال: حدثنا عبد الرحمن بن زياد، حدثني عثمان بن حكيم بن عبادة بن حنيف، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: "لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار"



وأما ما نقل عن علي: فإذا لم يكن على وجه الغلو وجعل ذلك شعارا لغير الرسول فهذا نوع من الدعاء وليس في الكتاب والسنة ما يمنع منه وقد قال تعالى: (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث)) [٢٨٧٢]وفي حديث قبض الروح: ((صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه))[٢٨٧٣].

ولا نزاع بين العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على غيره كقوله: (اللهم صل على آل أبي أوفى)[٢٨٧٤] وأنه يصلي على غيره تبعا له كقوله: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)" ٢٨٧٥.

قال ابن القيم-رحمه الله-بعد أن أورد أثر ابن عباس: "وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز" ثم أورد ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه قال: حدثنا حسين بن علي عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزين "أما بعد: فإن أناسا من الناس التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن أناسا من القصاص قد أحدثوا من الصلاة على حلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أتاك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين، ودعاؤهم المسلمين عامة ويدعون ما سوى ذلك"[٢٨٧٦].

ثم قال: «وهذا مذهب أصحاب الشافعي ولهم ثلاثة أوجه.

أحدهما: أنه منع تحريم.

والثاني: وهو قول الأكثرين أنه منع كراهة وتنزيه.

٢٨٧٢ أخرجه البخاري (٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩) مطولاً.

٢٨٧٣ أخرجه مسلم (٢٨٧٢).

٢٨٧٤ أخرجه البخاري (٤١٦٦).

٢٨٧٥ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" (٢٢/٤٧٢-٤٧٤).

٢٨٧٦ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه / كتاب الزهد في برقم ١٦٩٤٣ ج ١٣/ ٤٦٨.



والثالث: أنه من باب ترك الأولى وليس بمكروه، حكاها النووي في الأذكار قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه"

وقال ابن القيم–رحمه الله–: "وفصل الخطاب في هذه المسألة: أن الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم:

إما أن يكون آله وأزواجه وذريته

أو غيرهم.

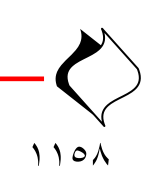
فإن كان الأول فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وجائزة مفردة.

وأما الثاني: فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموما الذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم جاز ذلك أيضا فيقال: "اللهم صل على ملائكتك المقربين وأهل طاعتك أجمعين".

وإن كان شخصا معينا أو طائفة معينة كره أن يتخذ الصلاة عليه شعارًا لا يخل به. ولو قيل بتحريمه لكان له وجه، ولاسيما إذا جعلها شعارًا له. ومنع نظيره أو من هو خير منه، وهذا كما تفعله الرافضة بعلي–رضي الله عنه–فإنه حيث ذكروه قالوا: «عليه الصلاة والسلام». ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه. فهذا ممنوع ولا سيما إذا اتخذ شعارا لا يخل به. فتركه حينئذ متعين.

وأما إن صلى عليه أحيانا بحيث لا يجعل ذلك شعار كما يصلي على دافع الزكاة، وكما قال ابن عمر للميت: (صلى الله عليه)، وكما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على المرأة وزوجها، وكما روي عن علي من صلاته على عمر فهذا لا بأس به"[٢٨٧٧]

٢٨٧٧ انظر: جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام من (٢٦٤-٢٧١)، وانظر الأذكار للنووي ص (٩٩).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٥٢] "وتعلم أن عثمان بن عفان قتل مظلوما، ومن قتله كان ظالما".

الشرح

الدفاع عن الصحابة–رضوان الله عليهم–دين يدين أهل السنة به، يقول ابن تيمية: "إذا ظهر مبتدع يقدح فيهم (أي الصحابة) بالباطل، فلا بد من الذب عنهم، وذكر ما يبطل حجته بعلم وعدل"[٢٨٧٨]

في هذه المسألة وقفات مختصرة.

الوقفة الأولى: فضل عثمان ومكانته.

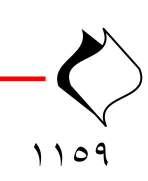
عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد الثالث ذو النورين صهر النبي صلى الله عليه وسلم، على اثنتين من بناته رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما، ويكفيه شرفًا أن النبي صلى الله عليه وسلم ارتضاه زوجًا لابنتيه، وأشد هذه الأمة حياء، وأحد المبشرين بالجنة، وجامع القرآن، الذي كان يقوم به وربما يقرؤه كله في ركعة واحدة من الليل، أمير المؤمنين المقتول ظلماً.

الوقفة الثانية: تاريخ قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن قتله.

كان قتله–رضي الله عنه–في صبيحة يوم الجمعة، الثاني عشر من شهر ذي الحجة، من السنة الخامسة والثلاثين للهجرة، وذلك بعد حصار داره لمدة أربعين يوماً، وكان سِنُّه عند قتله: اثنتين وثمانين سنة.

والذي قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه جماعة من الأوباش الجهلة الذين لا يعرفون للصحابة حقا، ولا للصحبة فضلا، قدموا من مصر وغيرها، وصاروا إلى عثمان ليخلعوه من الخلافة، فأحاطوا بالدّار وحصروه رضي الله عنه.

٢٨٧٨ منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٥٤).



روى ابن سعد عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: "لَمَّا أَرَادُوا أن يقتلوا عثمان أشرف عليهم فقال: علام تَقْتُلُونَنِي؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَقُولُ: (لا يَحِلُّ قَتْلَ رَجُلٍ إِلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: رَجُلٍ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلامِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. وَرَجُلٍ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ. وَرَجُلٍ قَتَلَ رَجُلا مُتَعَمِّدًا فَإِنَّهُ يُقْتَلُ) [٢٨٧٩].

وقال النووي–رحمه الله–: "وأما عثمان رضي الله عنه: إنما قتله همج ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف، والأرذال، تحزبوا وقصدوه من مصر فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحصروه حتى قتلوه رضي الله عنه"[٢٨٨٠].

وقال ابن تيمية–رحمه الله–: "والذين خرجوا على عثمان: طائفة من أوباش الناس"[٢٨٨١].

الوقفة الثالثة: براءة الصحابة من قتل عثمان بن عفان–رضي الله عنه–.

لم يشترك في التحريض على عثمان رضي الله عنه، فضلاً عن قتله، أحد من الصحابة رضي الله عنهم، وأن كل ما رُوي في ذلك ضعيف الإسناد"[٢٨٨٢].

وهذه الفتنة، لا تعد مما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، إنما هي مما شجر بين الصحابة من جهة، وبين أناس ليسوا من الصحابة، فموقف الصحابة الحقيقي تجاه عثمان رضي الله عنه وقتله، لم يشترك في التحريض عليه أحداً من الصحابة، فضلاً عن قتله، ولم يخرج أحد من الصحابة عليه، فرضي الله عنهم وأرضاهم[٢٨٨٣]"

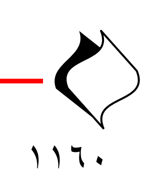
٢٨٧٩ "الطبقات" (٣/ ٥١)

٢٨٨٠ "شرح مسلم" (١٥/ ١٤٨، ١٤٩).

٢٨٨١ "منهاج السنة النبوية" (٨ / ١٦٤).

٢٨٨٢ "فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه" د: محمد بن عبد الله غبان الصبحي (١/ ٢٨٩).

٢٨٨٣ فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه (١/١٣).



فقد نزَّه الله تعالى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون أحد منهم مشاركاً في قتل عثمان رضي الله عنه، بل لم يكن أحدٌ من أبناء الصحابة مشاركاً، ولا معيناً لأولئك الخوارج المعتدين، وكل ما ورد في مشاركة أحد من الصحابة-كعبد الرحمن بن عديس، وعمرو بن الحمِق-: فمما لم يصح إسناده.

وقد صح أن عثمان-رضي الله عنه-هو من كان يمنع الصحابة-رضوان الله عليهم- من الدفاع عنه وفسر صنيعه هذا بأسباب منا:

أولًا: ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في حياته عثمانَ بن عفان أنه ستصيبه بلوى، وأنه سيموت فيها شهيداً، وعهد إليه بالصبر على تلك البلوى، فأطاع عثمان رضي الله عنه نبيَّه، ولم يخالف أمره، ولم ينقض عهده.

فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ادْعُوا لِي بَعْضَ أَصْحَابِي)، قُلْتُ: أَبُو بَكْرٍ؟ قَالَ: (لَا)، قُلْتُ: عُمَرُ؟ قَالَ: (لَا)، قُلْتُ: ابْنُ عَمِّكَ عَلِيٌّ؟ قَالَ: (لَا)، قَالَتْ: قُلْتُ: عُثْمَانُ؟ قَالَ: (نَعَمْ)، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: (تَنَحَّيْ)؛ جَعَلَ يُسَارُّهُ وَلَوْنُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الدَّارِ وَحُصِرَ فِيهَا، قُلْنَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تُقَاتِلُ؟ قَالَ: لَا؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ"[٢٨٨٤].

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ[٢٨٨٥] مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ... ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ فَقَالَ لِي: (افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ) فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ"[٢٨٨٦].

٢٨٨٤ رواه أحمد (٤٠/ ٢٩٧) وصححه المحققون.

٢٨٨٥ (حائط) بستان فيه نخيل.

٢٨٨٦ رواه البخاري (٣٤٩٠)، ومسلم (٢٤٠٣).



ثانيًا: رغبته في حقن دماء المسلمين، حتى لا يتسبب في قتل غيره، وهو يعلم أنه المراد لا غيره، فقد كان رضي الله عنه يمنع كل من أراد الدفاع عنه، ويأمرهم بلزوم بيتوهم.

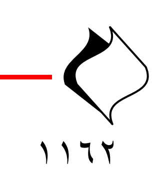
فعندما حاصره الأوباش الظلمة في داره: عرض عليه الصحابة رضي الله عنهم أن يدفعوا عنه، وأن يقاتلوا دونه: فأبى رضي الله عنه، وأمرهم بالانصراف عنه، طاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما عهد إليه، وحتى لا يتسبب في قتل غيره، وهو يعلم أنه المراد لا غيره.

قال ابن العربي المالكي – رحمه الله -: وجاء زيد بن ثابت فقال له: إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، قال عثمان: لا حاجة بي في ذلك، كفوا.

وقال له أبو هريرة: اليوم طاب الضرب معك. قال: عزمت عليك لتخرجن.

وكان الحسن بن علي آخر من خرج من عنده، فإنه جاء الحسن والحسين وابن عمر وابن الزبير ومروان، فعزم عليهم في وضع سلاحهم وخروجهم، ولزوم بيوتهم. فقال له ابن الزبير ومروان: نحن نعزم على أنفسنا لا نبرح، ففتح عثمان الباب ودخلوا عليه في أصح الأقوال، فقتله المرء الأسود "[٢٨٨٧]

٢٨٨٧ "العواصم من القواصم" (ص ١٣٩ -١٤١).



قال ابن كثير – رحمه الله –: وروى الحافظ ابن عساكر أن عثمان لما عزم على أهل الدار في الانصراف، ولم يبق عنده سوى أهله: تسوروا عليه الدار وأحرقوا الباب ودخلوا عليه، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم، إلا محمد بن أبي بكر[٢٨٨٨]"[٢٨٨٩]

وقال النووي–رحمه الله–: "ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة"[٢٨٩٠]

وقال ابن كثير–رحمه الله–: "وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله: فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان رضي الله عنه، بل كلهم كرهه، ومقته، وسبَّ من فعله"[٢٨٩١].

الوقفة الرابعة: أن عثمان قتل مظلومًا، ومن قتله كان ظالمًا.

كما قال المصنف هنا: **"وتعلم أن عثمان بن عفان قتل مظلوما، ومن قتله كان ظالما".**

٢٨٨٨ أما محمد بن أبي بكر: فليس هو من الصحابة أصلاً، ثم إنه لم يصح اشتراكه في قتل عثمان، ولا في التحريض عليه، وقد أثبت بعض العلماء روايات تبين تراجعه عن المشاركة في قتل عثمان.

١–قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "ليس له صحبة ولا سابقة ولا فضيلة... فهو ليس من الصحابة، لا من المهاجرين ولا الأنصار... وليس هو معدودًا من أعيان العلماء والصالحين الذين في طبقته...".

ثم قال: "وأما محمد بن أبي بكر فليس له ذكر في الكتب المعتمدة في الحديث والفقه. انتهى من " منهاج السـنة النبوية " (٤/ ٣٧٥-٣٧٧) باختصار.

٢–وقال ابن كثير–رحمه الله–: "ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه؛ والصحيح: أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه اســـتحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها. فتذمم من ذلك، وغطى وجهه، ورجع وحاجز دونه، فلم يُفِد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً " انتهى من " البداية والنهاية "(٧/ ٢٠٧).

٣–وقال الأستاذ محمد بن عبد الله غبان الصبحي—حفظه الله–: "محمد بن أبي بكر لم يشـترك في التحريض على قتل عثمان رضـي الله عنه، ولا في قتله، وكل ما روي في اتهامه بذلك: باطل لا صـحة له". انتهى من " فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه " (١/ ٢٩٠).

٢٨٨٩ "البداية والنهاية" (٧/ ٢٠٧).

٢٨٩٠ "شرح مسلم" (١٥/ ١٤٨).

٢٨٩١ "البداية والنهاية" (٧/ ٢٢١).



قد ثبت أن طائفة من الصحابة الأجلاء لعنة قتلة عثمان رضي الله عنه، ووصفهم العلماء بما يليق بهم.

١. روى الإمام أحمد بإسناد صحيح من طريق محمد بن الحنفية قال: "بلغ عليّاً أن عائشة تلعن قتلة عثمان في "المربد"، قال: فرفع يديه حتى بلغ بهما وجهه فقال: وأنا ألعن قتلة عثمان، لعنهم الله في السهل والجبل. قال مرتين أو ثلاثاً "[٢٨٩٢].

٢. وقال النووي–رحمه الله–: "وأما عثمان رضي الله عنه: فخلافته صحيحة بالإجماع، وقُتل مظلوماً، وقتلته فسقة؛ لأن موجبات القتل مضبوطة، ولم يجر منه رضي الله عنه ما يقتضيه"...."وإنما قتله همج ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف، والأرذال، تحزبوا وقصدوه من مصر فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحصروه حتى قتلوه رضي الله عنه"[٢٨٩٣].

٣. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: "وأما الساعون في قتله–يعني: عثمان– رضي الله عنه: فكلهم مخطئون، بل ظالمون، باغون، معتدون، وإن قُدِّر أن فيهم من قد يغفر الله له: فهذا لا يمنع كون عثمان قُتل مظلوماً"[٢٨٩٤] "

فتبين مما سبق: عدم مشاركة أحد من الصحابة رضي الله عنهم في قتل عثمان رضي الله عنه، وأن من فعل ذلك فهو يستحق اللعن والسب، وقد قتلوا جميعاً شر قتلة[٢٨٩٥].

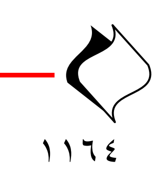
فقد روى أحمد في بإسناد صحيح عن عَمْرة بنت أرطأة العدوية قالت: "خرجت مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي قتل وهو في

٢٨٩٢ "فضائل الصحابة" (١/ ٤٥٥).

٢٨٩٣ "شرح مسلم" (١٥/ ١٤٨، ١٤٩).

٢٨٩٤ منهاج أهل السنَّة " (٦/ ٢٩٧).

٢٨٩٥ ولمن أراد مزيداً من التفاصيل فليرجع لكتاب ابن العربي " العواصم من القواصم "، وكتاب ابن غبان الصبحي "فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه"، وكتاب "حقبة من التاريخ" للشيخ عثمان الخميس.



حَجره، فكانت أول قطرة من دمه على هذه الآية (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) قالت عمرة: فما مات منهم رجل سويّاً"[٢٨٩٦].

الوقفة الخامسة: أنه بمقتل عثمان–رضي الله عنه–ظهرت الفتن في الأمة.

يقول سمرة بن جندب رضي الله عنه: "إن الإسلام كان في حصن حصين، وإنهم ثلموا[٢٨٩٧] في الإسلام ثلمة بقتلهم عثمان، وإنهم شرطوا[٢٨٩٨] في الإسلام شرطة، وإنهم لا يسدوا ثلمتهم–أو لا يسدونها–إلى يوم القيامة"[٢٨٩٩]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "لم تحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلما قُتل وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المفترين لعلي، وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته، أو نبوته وإلاهيته"[٢٩٠٠]

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

[١٥٣] "فمن أقر بما في هذا الكتاب وآمن به واتخذه إماما، ولم يشك في حرف منه، ولم يجحد حرفا واحدا، فهو صاحب سنة وجماعة، كامل، قد كملت فيه السنة، ومن جحد حرفا مما في هذا الكتاب، أو شك [في حرف منه أو شك فيه] أو وقف فهو صاحب هوى. ومن جحد أو شك في حرف من القرآن، أو في شيء جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقي الله تعالى مكذبا، فاتق الله واحذر وتعاهد إيمانك".

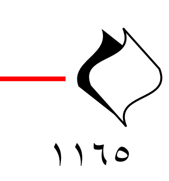
٢٨٩٦ "فضائل الصحابة" (١/ ٥٠١).

٢٨٩٧ ثلموا ثلمة: الثلمة فرجة المكسور والمهدوم (الفيروز آبادي القاموس المحيط ٤/٨٧).

٢٨٩٨ شرطوا: الشرط بزغ الحجام بالشرط (ابن منظور، لسان العرب، ٧/ ٣٣٢).

٢٨٩٩ رواه ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عثمان (٤٩٣)، بإسناد حسن.

٢٩٠٠ منهاج السنة النبوية (٦/٢٣١).



الشرح

تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة: (١٠٤)، عند قول المصنف: ""**فإنه من انتحل شيئا خلاف ما في هذا الكتاب، فإنه ليس يدين لله بدين، وقد رده كله**"

وتقدم أن المصنف لا يمكن موافقته على مثل هذا الكلام، من جانبين:

الجانب الأول: من جهة الكتاب الذي ألفه.

فالمنهج الحق كما قال الإمام مالك: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويُرَدُّ عليه إلا صاحب هذا القبر» (٢٩٠١)، فالعصمة هي لكتاب الله وحده، ولقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وتبقى أقوال الرجال قابلة للحق وقابلة للخطأ.

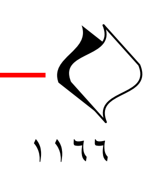
ومعلوم أن كتاب المصنف حوى مسائل صحيحة ومتفق عليها من مسائل وأصول اعتقاد أهل السنة والجماعة فهذه يتعين الأخذ بها لأنها مسائل صحيحة، وهناك مسائل هي محل نظر واختلاف ونزاع وتعددت فيها الأقوال حتى بين علماء أهل السنة، وقد يكون المصنف أجملها في هذا الكتاب وهناك من العلماء من فصل القول فيها، وهذه المسائل ليست بالقليلة في هذا الكتب، وقد تم بيان القول في تلك المسائل أثناء شرح الكتاب، وهناك أحاديث موضوعة لا تصح ذكرها المؤلف وهذه مردودة لمخالفتها للحق.

والجانب الثاني: قوله: "**ومن جحد حرفا مما في هذا الكتاب، أو شك [في حرف منه أو شك فيه] أو وقف فهو صاحب هوى**".

أن لكل أحد حسناته وسيئاته كما قرره شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله في قوله: "إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، سنة وبدعة، استحق من الموالاة بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بقدر ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا

---

(٢) انظر: كتاب الرد على الأخنائي قاضي المالكية صفحة (١٩٧).



ومن هذا، كاللص الفقير نقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المال ما يكفي حاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنّة والجماعة" [٢٩٠٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله: "ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم". [٢٩٠٣]

وقال شارح الطحاوية: "والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوبا من وجه مبغوضا من وجه، والحكم للغالب. [٢٩٠٤]"

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

[١٥٤] "ومن السنة أن لا تطيع أحدا على معصية الله، ولا أولي الخير ولا الخلق أجمعين، لا طاعة لبشر في معصية الله، ولا تحب عليه [أحدا]، واكره ذلك كله لله تبارك وتعالى".

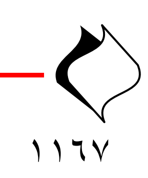
الشرح

تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة (٣٢) عند قوله: **"واعلم –رحمك الله– أنه لا طاعة لبشر في معصية الله عز وجل"** فاليرجع إليه.

٢٩٠٢ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨/٢٠٩).

٢٩٠٣ منهاج السنة النبوية ٤ / ٥٤٣.

٢٩٠٤ شرح العقيدة الطحاوية: ٢/ ٥٤٧.



(المتن)

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

[١٥٥] "والإيمان بأن التوبة فريضة على العباد أن يتوبوا [إلى الله عز وجل] من كبير المعاصي وصغيرها".

الشرح

تقدم الحديث عن هذه المسألة في الفقرة (٣٢) عند قوله: **"وما من ذنب إلا وللعبد منه توبة"**، فليرجع إليه تجنبًا للتكرار.

(المتن)

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

[١٥٦] "ومن لم يشهد لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، فهو صاحب بدعة وضلالة، شاك فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم".

الشرح

من عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: "نشهد بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ منهم؛ فقد شهد ﷺ للعشرة؛ فقال: «أبو بكر في الجنة، وعمرُ في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[٢٩٠٥].

وشهد ﷺ لثابت بن قيس بالجنة؛ فعن أنس بن مالك ۞ أنه قال: «لما نزلت هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} [الحجرات: ٢] إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا مِن أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شأنُ ثابت؟ اشتكى؟»».

[٢٩٠٥] أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٧٥) والترمذي (٣٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٤٦).

قال سعد: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنْزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أني مِن أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا مِن أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هو مِن أهلِ الجَنَّة»[٢٩٠٦].

وشهد ﷺ لعُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه أنه من السَّبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ[٢٩٠٧].

وشهد ﷺ لبلالٍ بالجنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال، حَدِّثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام؛ فإني سمعتُ دَفَّ نَعليك[٢٩٠٨] بين يدي في الجَنَّة!». قال: ما عملت عملًا أرجى عندي: أني لم أتطهر طهورًا–في ساعة ليل أو نهار–إلَّا صَلَّيت بذلك الطهور ما كُتِب لي أن أُصَلِّي»[٢٩٠٩].

وبشَّر ﷺ خديجة بنت خويلد ببيت في الجنة مِن قَصب؛ لا صخب، فيه ولا نصب[٢٩١٠].

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أَنتِ زوجتي في الدنيا والآخرة»[٢٩١١].

وشهد ﷺ لغيرهم من الصحابة.

فكلُّ مَن ثبت أنَّ النبي ﷺ قد شهد لهم بالجنة–فإننا نشهد لهم كذلك.

٢٩٠٦ أخرجه مسلم (١١٩).

٢٩٠٧ أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٩٠٨ أي: حركة نعليه وصوتهما في الأرض.

٢٩٠٩ أخرجه البخاري (١١٤٩).

٢٩١٠ أخرجه البخاري (٣٨١٩) ومسلم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٣٨١٩) ومسلم (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

٢٩١١ أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٧٠٥٣).



قال ابن كثير: "وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم"[٢٩١٢]. ومثله قال العيني في العمدة.

وقد بوب عليه البيهقي: "باب لا يشهد لأحد بجنة ولا نار إلاّ لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بها"[٢٩١٣].

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: "لا أحد يشهد لأحد بالجنة أو النار إلا من ثبت له ذلك. وأهل السنة والجماعة لا يشهدون لِمُعَيَّنٍ بالجنة إلا لمن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، كالعشرة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، الذين ثبتت الأحاديث في تعيينهم أنهم من أهل الجنة".٢٩١٤.

جاء في تكملة المجموع شرح المهذب: "من ثبت عليه منهم أن يكفر من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة من العشرة وغيرهم فهو كافر"[٢٩١٥]

وقد تقدم معنا في الفقرة (١٢٤) أن من علاماتِ أهل البدع الطعنُ في أصحابِ النبي ﷺ والخوض فيما وقعَ بينهم، فإذا رأيت الإنسان يطعنُ في أصحاب النبي أو يخوض فيما حدث بينهم فاعلم أنه صاحب بدعة.

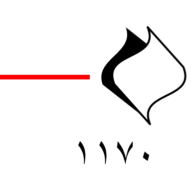
وقد عرف الطعن في الصحابة عن الروافض والخوارج والمعتزلة كما تقدم ذكره.

٢٩١٢ تفسير ابن كثير: (٤/ ١٥٦).

٢٩١٣ (الكبرى ٤/ ٧٦).

٢٩١٤ جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية (٢٠٦).

٢٩١٥ تكملة المجموع شرح المهذب: (٢/ ٢٦). وانظر: حاشية ابن عابدين (١/ ٢١٨).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

"وقال مالك بن أنس: من لزم السنة، وسلم منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مات، كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وإن كان له تقصير في العمل".

الشرح

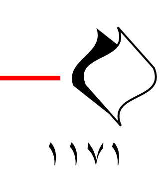
لم أقف على من عزا هذا النص عن مالك إلى غير البربهاري في شرح السنة ، وقد ورد بنحو هذا المعنى ما ورد عن عبد الله بن نافع: سمعت مالك بن أنس يقول: "لو أن العبد ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئا ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله أرجو أن يكون في أعلا درجة الفردوس مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وذلك أن كل كبيرة فيما بين العبد وبين الله عز وجل فهو منه على رجاء وكل هوى ليس منه على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم من مات على السنة فليبشر من مات على السنة فليبشر من مات على السنة فليبشر"[٢٩١٦]

وقال مالك بن أنس: "لو لقي الله رجل بملء الأرض ذنوبا ثم لقي الله بالسنة لكان في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا"[٢٩١٧].

الآثار الواردة عن الإمام مالك في توقير الصحابة، وذم من أبغضهم وخالفهم من الروافض والخوارج كثيرة ومن ذلك على سبيل المثال:

٢٩١٦ ذم الكلام وأهله للهروي ٤/ ١١٩–١٢٠، رقم٨٧٩، ومناقب مالك للزواوي ص ٨٥.

٢٩١٧ (ذم الكلام وأهله للهروي ٤/١٢١–١٢٢–رقم٨٨١).



قال مالك بن أنس رحمه الله: "من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قتل، ومن شتم أصحابه أُدِّب."٢٩١٨

قال مالك رضي الله عنه: "إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء كان له أصحاب سوء ولو كان رجلا صالحا كان أصحابه صالحين"٢٩١٩

قَال مالك رحمه الله: "من شَتَم أَحَدًا من أَصْحَاب النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم أَبَا بَكْر أَو عُمَر أَو عُثْمَان أَو مُعَاوِيَة أَو عَمْرَو بن الْعَاص فَإِن قَال كَانُوا عَلَى ضَلال وَكُفْر قُتِل وَإِن شَتَمَهُم بِغَيْر هَذَا من مُشَاتَمَة النَّاس نُكِّل نَكَالًا شَدِيدًا."٢٩٢٠

قال مالك: "مَنْ غَاظَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ كَافِرٌ قَال الله تَعَالَى (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)".

وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ، عَنْ مَالِكٍ، قَالَ «مَنِ انْتَقَصَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ». "٢٩٢١

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

"وقال [بشر بن الحارث]: "الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام".

الشرح

تقدم ذكر هذا الآثر وشرحه في الفقرة: (١)، فليرجع إليه.

(المتن)

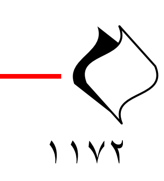
قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

٢٩١٨ الشفا للقاضي عياض ج ٢ ص ٣٠٨، ومناقب مالك للزواوي ص ٨٣.

٢٩١٩ الصارم المسلول لابن تيمية ص٥٨٠.

٢٩٢٠ الشفا للقاضي عياض ج ٢ ص ٣٠٨.

٢٩٢١ مسند الموطأ للجوهري ص ١١١.



"وقال فضيل بن عياض: إذا رأيت رجلا من أهل السنة، فكأنما أرى رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا رأيت رجلا من أهل البدع، فكأنما أرى رجلا من المنافقين".

الشرح

ورد عن الشافعي –رحمه الله–قوله "كلما رأيت رجلًا من أصحاب الحديث، فكأنما رأيت رجلًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم"[٢٩٢٢].

وورد بلفظ: "إذا رأيت رجلًا من أصحاب الحديث، فكأني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم حيًا"[٢٩٢٣]

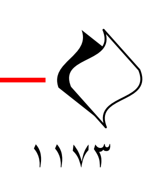
ومثل هذه العبارات تدل على معاني عظيمة من مدى احترام أهل السنة لعلم الحديث وتوقير أهله، وكيف لا وهم الذين حفظوا لنا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقلوه لنا جيلًا بعد جيل، وهم يقفون في أول من حمل ميراث النبوة فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وأورثوا العلم، فمن أخذه؛ أخذ بحظ وافر))٢٩٢٤.

وبالتالي عندما تسمعهم وهم يحدثون وينقلون أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فكأنما تسمع لكلام الصحابة أو لكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، فهم بحمد الله

٢٩٢٢ رواه أبو نعيم في الحلية ٩/ ١٠٩، والبيهقي في مناقب الشافعي ١/ ٤٣٧، والبيهقي في المدخل إلى السنن ص: ٣٩١ رقم: ٦٨٩.

٢٩٢٣ أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث: ص٥٤ رقم ٨٥.

٢٩٢٤ رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/١٩٦) (٢١٧٦٣)، وابن حبان (١/٢٨٩) (٨٨). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. ثم أورد له إسنادًا وقال: هذا أصح، وقال ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٢٥/٢٤٧): له طرق كثيرة، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/١٥١) كما أشار إلى ذلك في المقدمة، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)).



صيارفته الذين حفظوه من النسيان وحفظوه من الزيادة والنقصان بتمييزهم لصحيحه من سقيمه، وكذلك بإتقان طرقه ورواياته بشكل فريد لا يعهد في الأمم السابقة.

قال أبو حاتم بن حبان رضي الله عنه: "في هذا الحديث بيان واضح أن العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرناهم الذين يعلمون علم النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره من سائر العلوم، ألا تراه يقول: ((العلماء ورثة الأنبياء)). والأنبياء لم يورثوا إلا العلم، وعلم نبينا صلى الله عليه وسلم، سنته، فمن تعرى عن معرفتها؛ لم يكن من ورثة الأنبياء"[٢٩٢٥].

قال ابن القيم –رحمه الله–: "قوله: ((إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وأورثوا العلم)). هذا من كمال الأنبياء، وعظم نصحهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها، فحماهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية. ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده؛ سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله، وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التي تقول: فلعله إن لم يطلب الدنيا لنفسه؛ فهو يحصلها لولده، فقال :((نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا هو صدقة))٢٩٢٦ فلم تورث الأنبياء ديناراً ولا درهما، وإنما ورثوا العلم. وأما قوله تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [النمل: ١٦]. فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم؛ وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال؛ لم يكن سليمان مختصاً به. وأيضاً؛ فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: مات فلان،

٢٩٢٥ ((صحيح ابن حبان)) (٢٨٩/١).

٢٩٢٦ رواه البخاري (٤٢٤٠)، ومسلم (١٧٥٩) بدون: ((نحن معاشر الأنبياء)). من حديث عائشة رضي الله عنها.



وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة. وأيضـاً؛ فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال.

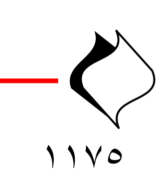
قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُود وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [النمل: ١٥-١٦].

وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان، وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) [النمل: ١٦] وكذلك قول زكريا –عليه الصلاة والسلام :(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) [مريم: ٥-٦] .

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوا ماله، فيسأل العظيم ولداً يمنعهم ميراثه، ويكون أحق به منهم. وقد نزه الله أنبياءه ورسوله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته"[٢٩٢٧].

فهنيئًا لمن خدم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية ودراية، وذب عن سنته ودافع عنها وهذا شرف عظيم.

٢٩٢٧ ((مفتاح دار السعادة)) (١/٦٦-٦٧).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

"وقال يونس بن عبيد العجب ممن يدعو اليوم إلى السنة، وأعجب منه من يجيب إلى السنة فيقبل"[٢٩٢٨].

الشرح

لعل المقصــود هنا الإشــارة إلى فترات يشــح فيها العلماء الذين يدعون إلى الســنة ويعلموها ويعتنون بها رواية ودراية، وقد مر بالأمة فترات ضعف فيها العناية بالحديث والدعوة إلى تعليمه وبثه بين الناس، مع انتشــار للبدع ومحاربة الســنة وأهلها، ولكن من رحمة الله بنا أن كتب علماء الســـنة محفوظة فيظهر بين الحين والآخر من يجدد الدعوة إليها وينشـــرها بين الناس ولا تخلو فترة من الفترات أو بلد من البلدان من صاحب سنة يعلمها ويدعو إليها ويصبر على ما يلقاه في سبيل هذه السنة قال ابن القيم: "ومن صــفات هؤلاء الغرباء –الذين غبطهم النبي–صــلى الله عليه وســلم– التمســـك بالســـنة إذا رغب عنها الناس وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتســـاب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رســـوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً وأكثر الناس، بل كلهم لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم"[٢٩٢٩].

ذلك مصداقًا لما ورد في الحديث:

٢٩٢٨ أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٥٧–٥٨، رقم: ٢١–٢٢–٢٣. وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٠)، والمزي في تهذب الكمال ٣٢/ ٥٢٧ من طرق عن يونس بن عبيد.

٢٩٢٩ انظر: مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين (٣/ ١٩٦).



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))[٢٩٣٠]

قال السندي في حاشية ابن ماجه":(غَرِيبًا) أَيْ لِقِلَّةِ أَهْله وَأَصْل الْغَرِيب الْبَعِيد مِنْ الْوَطَن (وَسَيَعُودُ غَرِيبًا) بِقِلَّةِ مَنْ يَقُوم بِهِ وَيُعِين عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ أَهْله كَثِيرًا (فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ، و "طُوبَى" تُفَسَّر بِالْجَنَّةِ وَبِشَجَرَةٍ عَظِيمَة فِيهَا. وَفِيهِ تَنْبِيه عَلَى أَنَّ نُصْرَة الإِسْلام وَالْقِيَام بِأَمْرِهِ يَصِير مُحْتَاجًا إِلَى التَّغَرُّب عَنْ الأَوْطَان وَالصَّبْر عَلَى مَشَاقّ الْغُرْبَة كَمَا كَانَ فِي أَوَّل الأَمْر "[٢٩٣١]..

ونقل عن القاضي عياض أنه قال في معنى الحديث: "أَنَّ الإِسْلام بَدَأَ فِي آحَاد مِنْ النَّاس وَقِلَّة، ثُمَّ اِنْتَشَرَ وَظَهَرَ، ثُمَّ سَيَلْحَقُهُ النَّقْص وَالإِخْلال، حَتَّى لا يَبْقَى إِلا فِي آحَاد وَقِلَّة أَيْضًا كَمَا بَدَأَ"[٢٩٣٢] اهـ.

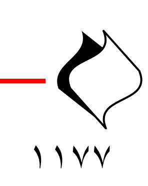
وعن عبد الله بن عمرو قال: "كنتُ عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فطلعتِ الشَّمسُ فقال: ((يأتي قومٌ يومَ القيامةِ نورُهم كنورِ الشَّمسِ)). قال أبو بكرٍ: نحن هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: ((لا، ولكم خيرٌ كثيرٌ، ولكنَّهم الفقراءُ المهاجرون الَّذين يُحشَرون من أقطارِ الأرضِ)). فذكر الحديثَ. وزاد ثمَّ قال: ((طوبَى للغُرَباءِ)). قيل: من الغرباءُ؟ قال: ((أُناسٌ صالحون قليلٌ في ناسِ سوءٍ كثيرٍ من يعصيهم أكثرُ ممَّن يُطيعُهم))[٢٩٣٣].

٢٩٣٠ رواه مسلم (١٤٥).

٢٩٣١ سنن ابن ماجه بشرح السندي ومصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (٣٤٩) رقم: (٣٩٨٦).

٢٩٣٢ فتح المنعم شرح صحيح مسلم – ١/ ٤٦٧.

٢٩٣٣ أخرجه أحمد (٦٦٥٠)، والطبراني (١٣/٣٦٣) (١٤١٧٨)، والبيهقي في ((الزهد الكبير)) (٢٠٣) باختلاف يسير. والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٣٨)، وأحد إسنادي الطبراني رواته رواة الصحيح.



أي أن الإِسْـــلامَ بدَأَ غريبًا؛ حيثُ خرَجَ وَسْـــطَ الجَهْلِ، وطَرَحَ عاداتِ الجاهليَّةِ، فاسْـــتَغرَبَه الناسُ، وســـيَعودُ غريبًا كما بدَأَ؛ حيثُ انتِشـــارُ الجَهْلِ، ورُجوعُ الناسِ إلى عاداتِ الجاهليَّةِ.

وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صـــلَّى اللهُ عليه وســـلَّم: "طُوبى للغُرَباءِ"، أي: فالجَنَّةُ لأُولَئِكَ المسـلِمينَ الذين قَلُّوا في أوَّلِ الإِسْـلامِ، وسـيَقِلُّون في آخِرِه، وإنَّما خَصَّـهم بصَبْرِهم على أَذيَّةِ الكُفارِ وأهْلِ الابْتِداعِ.

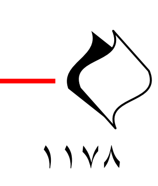
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "ولا يقتضي هذا أنه إذا صار غريبًا أي الإسـلام أن المتمسـك به يكون في شـر، بل هو أسـعد الناس؛ كما قال في تمام الحديث: ((فطوبى للغرباء)). وطوبى من الطيب؛ قال-تعالى-: (طُوبَى لَهُمْ وَحُسْـــنَ مَآبٍ) [الرعد: ٢٩] فإنه يكون من جنس الســـابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريبًا وهم أسعد الناس.

أما في الآخرة، فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء-عليهم السلام- .

وأما في الدنيا، فقد قال-تعالى-: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْـــبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنفال: ٦٤]. أي أن الله حسبك وحسب متبعك. وقال-تعالى-: (إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) [الأعراف: ١٩٦]، وقال-تعالى-: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) [الزمر: ٣٦]، وقال: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِـبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْـبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَـيْءٍ قَدْرًا) [الطلاق: ٢، ٣]، فالمسـلم المتبع للرسـول، الله-تعالى- حسبه وكافيه وهو وليه حيث كان ومتى كان" [٢٩٣٤].

قال ابن القيم: "فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلّتهم في الناس جداً سُمُّوا غرباء، فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات.

٢٩٣٤ مجموع الفتاوى ١٠/ ١٣٨-١٣٩.



فأهل الإسلام في الناس غرباء،

والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء،

وأهل العلم في المؤمنين غرباء،

وأهل السنة–الذين يميزونها من الأهواء والبدع–منهم غرباء،

والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين"[٢٩٣٥].

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

"وكان ابن عون يقول عند الموت: السنة السنة، وإياكم والبدع، حتى مات"[٢٩٣٦].

الشرح

ابن عون: هو عبد الله بن عون شيخ أهل البصرة وعالمهم، من أهل الورع، قال ابن مهدي: «ما كان بالعراق أعلم بالسنة من ابن عون»، مات سنة ١٥٠هـ.

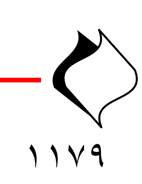
وقد تقدم الحديث عن بعض سيرته في الفقرة: (١٣٣).

والحث على التمسك بالسنة والتحذير من البدع هو وصية النبي صلى الله عليه وسلم ووصية السلف الصالح من بعده من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن جاء بعدهم، فعن العرباض بن سارية٢٩٣٧ رضي الله عنه قال: "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: ((أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء

٢٩٣٥ مدارج السالكين ٣/ ١٤٦

٢٩٣٦ لم أقف على من عزاه.

[٢٩٣٧] العرباض بن سارية السلمي أبو نجيح، صحابي مشهور من أهل الصفة، مات سنة خمس وسبعين للهجرة وقيل قبل ذلك. الإصابة (٢/ ٤٦٦).



الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة))٢٩٣٨.

فوصية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ولأمته من بعدهم هي أن يتمسكوا بما سنه من أحكام وتشريعات أشد التمسك وأن يحذروا الابتداع في الدين وحكم على تلك المحدثات بالضلال والانحراف عن الطريق الذي رسمه.

وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ركيزتين أساسيتين في هذا الدين هما:

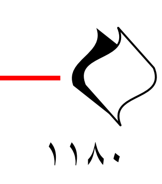
١-الاتباع.

٢-ترك الابتداع.

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الوصية النبوية وعملوا بها، فلم يحيدوا عن سنته صلى الله عليه وسلم، بل عملوا بها ونقلوها للأمة المحمدية من بعدهم كما سمعوها منه صلى الله عليه وسلم وكذلك فقد كانوا أشد الناس تمسكا بسنته، وأشدهم محاربة للابتداع، في الدين، وقد كان في هذا صلاحهم وفلاحهم ونجاتهم ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها.

ومن المؤسف أن كثيرا من المسلمين في وقتنا الحاضر قد اختلت عندهم كلا الركيزتين فتركوا الاتباع والاقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصبحت السنة عندهم أمرا مستغربا مستنكرا لجهلهم بها وبعدهم عنها واستبدلوا بذلك البدع التي لا أصل لها ولا دليل عليها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فاتخذوها دينا يدينون

٢٩٣٨ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦، ١٢٧). وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة: باب في لزوم السنة (٥/ ١٣، ١٥) ح ٤٦٠٧، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم: باب في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤) ح ٢٦٧٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجة في سننه، في المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/ ١٦). وابن حبان في صحيحه (١/ ١٣٩) والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي، والآجري في الشريعة (٤٦، ٤٧)، والدارمي في سننه، باب اتباع السنة (١/ ٤٤، ٤٥) وقال الألباني: سنده صحيح، وصححه جماعة منهم الضياء المقدسي في اتباع السنن واجتناب البدع، انظر: مشكاة المصابيح (١/ ٥٨) ح ١٦٥.



به فانعكست بذلك الموازين لديهم فأصبحوا يرون الحق باطلا والباطل حقا، والمعروف منكرا والمنكر معروفا، وما ذلك إلا لكونهم لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا رسمه بسبب ما هم عليه من قلة العلم وعدم معرفتهم بالسنة.

فأين هؤلاء من وصية المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن يتبعوا ولا يبتدعوا.

(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

"وقال [أحمد بن حنبل]: ومات [رجل] من أصحابي فرئي في المنام، فقال: قولوا لأبي عبد الله: عليك بالسنة؛ فإن أول ما سألني الله عن السنة".

الشرح

تعظيم السنة والتقيد بها أمر تؤكد النصوص الكثيرة الواردة في هذا الشأن، وذلك لأن قبول العمل مرتبط بأمرين:

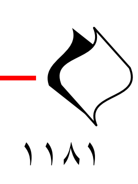
الأمر الأول: الإخلاص.

والأمر الثاني: هو الاتباع.

قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[٢٩٣٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"

[٢٩٣٩] الآية (١١٠) من سورة الكهف.



وقال: "فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة"٢٩٤٠.

كما بين حكم البدعة بقوله: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"٢٩٤١ ومع وقفة تأمل لما ورد في هذه الأحاديث نلمس الأمور التالية:

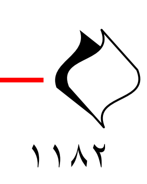
ففي الحديث الأول والثاني وصف صلى الله عليه وسلم البدعة بكونها ضلالة وانحرافا عن الطريق والصراط المستقيم الذي رسمه صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة والذي أوجب الله علينا اتباعه فيه.

فالبدعة في الدين طريق غواية وضلال يجب الحذر منه والبعد عنه وهي إضافة إلى ذلك فإنها مخالفة لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ومحاربة لما جاء به من الهدى والنور إذ الوقوع في هذا المزلق الخطر الذي هو "البدعة" يترتب عليه أمور خطيرة منها الطعن في الدين لأن لسان حال المبتدع يقول إن الشريعة لم تتم وإنه بقي منها أشياء يجب استدراكها، لأنه لو كان معتقدا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولم يستدرك عليها.

وإضافة إلى ذلك فإن المبتدع معاند للشرع ومشاق له لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقا خاصة على وجوه خاصة وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها وأن الشر في تعديها إلى غير ذلك. فالمبتدع بحاله تلك يزعم أن ثم طرقا أخر وليس ما حصره الشارع بمحصور ولا ما عينه بمتعين، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لا يعلم الشارع وأحاط بما لم يحط به وهذا

٢٩٤٠ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة (٣/ ١١). وأخرجه البخاري موقوفا، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب الاقتداء بسنن الرسول صلى الله عليه وسلم انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٤٩) ح ٧٢٧٧.

٢٩٤١ أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٥/ ١٣٢) وفي رواية: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" وهذه الرواية أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الصلح: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. فتح الباري (٥/ ٣٠١) ح ٢٦٩٧.



هو بعينه الضلال المبين الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم البدعة به حين قال: "وكل بدعة ضلالة"٢٩٤٢.

ومع هذا وذاك فقد تجعل البدعة مع مرور الزمن ونتيجة لانتشارها بين الناس من الدين، فتصبح سنة يستنون بها وبخاصة العوام منهم الذين اعتادوا على التقليد والأخذ بكل ما هو منتشر بين الناس. بينما في الوقت نفسه تصبح السنن لغرابتها والجهل بها بدعا وهذا هو الحال في كل زمان ومكان انتشرت وعمت فيه البدع وقل فيه العلماء بأمور السنة.

وأما الحديث الثالث وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" فهو حكم صريح على كل أمر محدث مبتدع في الدين وليس له أصل في الشرع بالرد وعدم القبول ولا شك أن هذا الحكم بتر لكل ما هو مبتدع في دين الله وشرعه، وإسقاط له. إضافة إلى كونه حماية لشرع الله من كل ما يخل به.

ولقد اتخذ السلف من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن قواعد ساروا عليها في سبيل محافظتهم على السنة وصيانتها من شوائب البدع وشرورها. وإن المتأمل للنصوص الواردة عنهم في هذا الخصوص يلمس مدى حرصهم وتطبيقهم للتوجيهات النبوية التي تلقوها عن رسول الهدى صلى الله عليه وسلم.

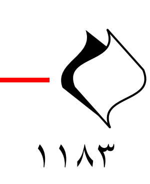
فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم"٢٩٤٣.

وعنه أنه رأى أناسا يسبحون بالحصا فقال: "على الله تحصون لقد سبقتم أصحاب محمد علما أو لقد أحدثتم بدعة ظلما"٢٩٤٤.

٢٩٤٢ الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ (ص ٩٩) بتصرف.

٢٩٤٣ أخرجه محمد بن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ١٠).

٢٩٤٤ البدع والنهي عنها لابن وضاح (ص ١١).



وعنه أنه قال: "الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة". وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: "أخوف ما أخاف على الناس اثنتان أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلوا وهم لا يشعرون".

قال سفيان: "هو صاحب البدعة" ٢٩٤٥.

وكان حذيفة رضي الله عنه يدخل المسجد فيقف على الخلق فيقول: "يا معشر القراء اسلكوا الطريق فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا".

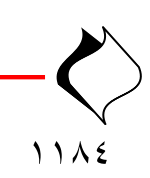
وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدا أحب إلى الشيطان هلاكا مني. فقيل: كيف؟، فقال: والله إنه ليحدث البدعة في مشرق أو مغرب فيحملها الرجل إلي فإذا انتهت إلي قمعتها بالسنة فترد عليه"٢٩٤٦.

وعنه رضي الله عنه أنه قال: "عليكم بالاستقامة والأثر وإياكم والتبدع"٢٩٤٧.

٢٩٤٥ الإبداع في مضار الابتداع (ص ٩٦).

٢٩٤٦ أخرجه اللالكائي في السنة (١/ ٥٥) ح ١٢.

٢٩٤٧ أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ٢٥).



(المتن)

قال المصنف–رحمه الله تعالى–:

"وقال أبو العالية: من مات على السنة مستورا، فهو صديق.

ويقال: الاعتصام بالسنة نجاة".

الشرح

ورد عن الزهري قال: «كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة»[٢٩٤٨].

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبة له: "وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة"[٢٩٤٩].

وبنحو هذا الكلام ما ورد عن ابن وهب كنا عند مالك فذكرت السنة فقال مالك: "السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق"[٢٩٥٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

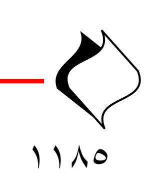
قال ابن كثير رحمه الله:﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ﴾ "قِيلَ: بِعَهدِ اللهِ، وَقِيلَ: القُرآنُ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: تَمَسَّكُوا بِدِينِ اللهِ، وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ رضي اللهُ عنه: هُوَ الجَمَاعَةُ[٢٩٥١]"

٢٩٤٨ أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٥٨ رقم ٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٦٩)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ٩٤-٩٥، رقم ١٣٦-١٣٧)، وجاء في (١/ ٥٦ رقم ١٥) من قول الزهري نفسه.

٢٩٤٩ انظر: «حلية الأولياء» (٥/ ٣٤٦)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/ ٣٣٦، وذم الكلام وأهله للهروي ٤/ ١٢٤، رقم٨٨٥، وتاريخ دمشق لابن عساكر١٤/ ٩، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٧/ ٤، والصفدية لابن تيمية ١/ ٢٥٧، ومفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي ص ٧٦.

٢٩٥٠ (تاريخ دمشق لابن عساكر١٤/٩) و (تاريخ بغداد ٧/ ٣٣٦) و (ذم الكلام وأهله للهروي ٤/١٢٤-رقم٨٨٥).

٢٩٥١ "تفسير ابن كثير" (٣/ ١٣٦-١٣٧).



وقال اللالكائي: (أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله عباده من فهم توحيده وصفاته، وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها، والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول، وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين.

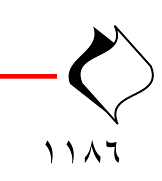
ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار والمتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون. فهذه الوصايا الموروثة المتبوعة، والآثار المحفوظة المنقولة، وطرائق الحق المسلوكة والدلائل اللائحة المشهورة، والحجج الباهرة المنصورة التي عملت عليها الصحابة والتابعون، ومن بعدهم من خاصة الناس وعامتهم من المسلمين. واعتقدوها حجة فيما بينهم وبين الله رب العالمين. ثم من اقتدى بهم من الأئمة المهتدين، واقتفى آثارهم من المتبعين، واجتهد في سلوك سبيل المتقين، وكان من الذين اتقوا والذين هم محسنون. فمن أخذ في مثل هذه المحجة، وداوم بهذه الحجج على منهاج الشريعة أحسن في دينه التبعة، في العاجلة والآجلة. وتمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها"[٢٩٥٢]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وشواهد هذا الأصل العظيم الجامع من الكتاب والسنة كثيرة، وترجم عليه أهل العلم في الكتب كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، كما ترجم عليه البخاري، والبغوي وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين"[٢٩٥٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعًا لما جاء به الرسول صلى اللهُ عليه وسلم، ولا يتقدم بين يديه بل ينظر

٢٩٥٢ "صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام" للسيوطي (ص: ١٠١-١٠٢) ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٩٥٣ "مجموع الفتاوى" ((١١/٦٢٣).



ما قال، فيكون قوله تبعًا لقوله، وعمله تبعًا لأمره، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس دينًا غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستنير فهذا أصل أهل السنة.[٢٩٥٤]"

(المتن)

قال المصنف –رحمه الله تعالى–:

"[وقال سفيان الثوري: من أصغى بأذنه إلى صاحب بدعة، خرج من عصمة الله، ووكل إليها –يعني إلى البدع–"[٢٩٥٥].

وقال داود بن أبي هند[٢٩٥٦]: أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى بن عمران: لا تجالس أهل البدع، فإن جالستهم، فحاك في صدرك شيء مما يقولون، أكببتك في نار جهنم[٢٩٥٧].

٢٩٥٤ "الفتاوى": (١٣/ ٦٢-٦٣).

٢٩٥٥ أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٦، ٣٤)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٤٤٤) عن سفيان، وانظر: سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦١).

وورد من قول محمد بن النضر الحارثي أيضا. أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣٥-١٣٦) رقم (٢٥٢)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (١/ ١٢٨) رقم (٥٢).

٢٩٥٦ هو داود بن أبي هند البصري الفقيه كان حافظ مفتيا نبيلًا، مات سنة: ١٤٠هـ، انظر العبر في خبر من غبره (١/ ١٨٩)، و«المنتظم، لابن الجوزي (٨/ ٢٤)، والطبقات الكبرى» (٧/ ٢٥٥).

٢٩٥٧ قال محقق كتاب شرح السنة الباحث عبد الرحمن بن أحمد الحميزي: "لم أقف عليه من كلام داود بن أبي هند. وقد ورد عن جماعة آخرين، منهم: عطاء، وأخرجه عنه: الهروي في كتاب ذم الكلام، (٤/ ٦٢ رقم ٥٩٧) ولفظه عن عطاء: "بلغني أن فيما أنزل الله على موسى: لا تجالس أهل الأهواء فيحدثوا في قلبك ما لم يكن".

ومنهم: خصيف الجزري، وأخرجه عنه: الآجري في الشريعة (ص٥٧)، وابن بطة في الإبانة الكبرى، (٥٥٥)، والهروي في ذم الكلام، (٤/ ٢٠٧) رقم (١٠٠٧) ولفظه: "مكتوب في التوراة: لا تجالس أهل الأهواء فيدخل في قلبك شيء من ذلك فيدخلك النار". وهذه آثار كلها معضلة.

وقال الفضيل بن عياض: من جالس صاحب بدعة لم يعط الحكمة[٢٩٥٨].

وقال الفضيل بن عياض: لا تجلس مع صاحب بدعة، فإني أخاف أن تنزل عليك اللعنة[٢٩٥٩].

وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة، أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه[٢٩٦٠].

وقال الفضيل بن عياض: "من جلس مع صاحب بدعة، ورثه العمى"[٢٩٦١].

وقال الفضيل بن عياض: إذا رأيت صاحب بدعة في طريق فجز في طريق غيره[٢٩٦٢].

وقال الفضيل بن عياض: "من عظم صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام[٢٩٦٣]، ومن تبسم في وجه مبتدع فقد استخف بما أنزل الله عز وجل على

٢٩٥٨ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان» (٧/ ٦٤ رقم ٩٤٨٢)، "واللالكائي أصول اعتقاد أهل السنة" (٤/ ٦٣٨ رقم ١١٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٣)، وأبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٩-١٠) رقم (٢).

٢٩٥٩ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان» (٧/ ٦٣، ٦٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (٤٨/ ٣٩٨) -، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣٧) رقم ٢٦٢)، وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (٤٤١، ٤٥١).

٢٩٦٠ أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣٨) رقم (٢٦٢)، وأبو نعيم في الحلية» (٨/ ١٠٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٤٤٠)، والهروي وذم الكلام، (٤/ ١٦٧ رقم (٩٤٧)، ومن طريق أبي نعيم رواه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (١/ ١٢٠) رقم (٤٨).

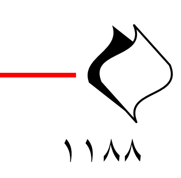
٢٩٦١ أخرجه أبو نعيم في الحلية» (٨/ ١٠٣)، واللالكائي (١/ ١٣٨ رقم ٢٦٤).

٢٩٦٢ أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٤٩٣)، ومن طريق أبي نعيم أخرجه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس) (١/ ١٢٢)، رقم (٤٩).

وقد جاء هذا القول أيضا عن يحيى بن أبي كثير.

أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٦٠ رقم (٩٤٦٣)، واللالكائي في أهل السنة» (١/١٣٧) رقم (٢٥٩).

٢٩٦٣ هذه الفقرة تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ: (من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام). أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٣٥) رقم (٦٧٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، غير أنه لا يصح. انظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (١٨٦٢).



محمد صلى الله عليه وسلم[٢٩٦٤]، ومن زوج كريمته مبتدع فقد قطع رحمها، ومن تبع جنازة مبتدع لم يزل في سخط الله حتى يرجع"[٢٩٦٥].

وقال الفضيل بن عياض: "آكل مع يهودي ونصراني، ولا آكل مع مبتدع، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد"[٢٩٦٦].

وقال الفضيل بن عياض: "إذا علم الله عز وجل من الرجل أنه مبغض لصاحب بدعة غفر له، وإن قل عمله"[٢٩٦٧].

ولا يكن صاحب سنة يمالئ صاحب بدعة إلا نفاقا"[٢٩٦٨].

"ومن أعرض بوجهه عن صاحب بدعة ملأ الله قلبه إيمانا، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله في الجنة مائة درجة.

٢٩٦٤ وقد جاء هذا في حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٠٠)، وهو موضوع، انظر: كشف الخفاء، (٢/ ٣٠٨ رقم ٢٤١٢).

٢٩٦٥ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء» (٨/ ١٠٣) ومن طريق ابن الجوزي في تلبيس إبليس» (١/ ١٢٢ رقم ٤٩) إلا أنه أخرج شطره الأول.

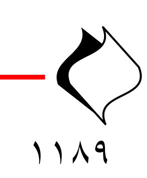
وأخرج اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٧٣٣ رقم ١٣٥٨) منه قوله: من زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها.

وكذا أخرج هذه الفقرة ابن حبان في «الثقات» (٨/ ١٦٦)، وابن الجوزي من طريق أبي نعيم في «تلبيس إبليس» (١/ ١٢٤ رقم ٥٠)، والفقرة الأخيرة منه جاءت من فول سفيان بن عيينة أيضا، أخرجها الهروي في ذم الكلام» (٤/ ١٧٢ رقم ٩٥٣).

٢٩٦٦ أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٣٨)، رقم (١١٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٣)، ولفظ أبي نعيم أطول، وأخرج آخره ابن بطة في «الإبانة الكبرى (٤٧٠).

٢٩٦٧ أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٣)، وابن الجوزي من طريق أبي نعيم في «تلبيس إبليس» (١/ ١٢٤ رقم ٥٠)، وابن عساكر في تاريخه (٤٨/ ٣٩٧)

٢٩٦٨ أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٣٨) رقم (٢٦٦)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى (٤٢٩).



فلا تكن تحب صاحب بدعة في الله أبدا] [٢٩٦٩].

الشرح

تقدم الحديث عن مسألة مجالسة أهل البدع والاستماع إليهم في الفقرة (١٣٤) فليرجع إليه.

٢٩٦٩ جاء هذا مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أخرجه الخطيب في التاريخ ١٠/ ٢٦٤، وأبو نعيم في الحلية ٨/٢٠٠، وذكرها ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٢٧٠، والسيوطي في اللآليء، ١/ ١٣٠، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣١٤ وقال: رواه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر، من طريق عبد العزيز بن أبي رواد وقال: غريب، من حديث عبد العزيز، لا يتابع عليه، وقال ابن حبان كان يحدث على التوهم فسقط الاحتجاج به، وتعقب بأن عبد العزيز وثقه يحيى وغيره، وروى له أصحاب السنن الأربعة ، وذكر الذهبي في الميزان قول ابن حبان فيه، روى عن نافع عن ابن عمر نسخه موضوعة ، ثم قال: هكذا قال ابن حبان بغير سند، وذكر الحافظ ابن حجر في اللسان أن الحمل في هذا الحديث على الحسين بن خالد، يعني راويه عن عبد العزيز، وأن الخطيب قال: إنه تفرد به وغيره أوثق منه ، لكن تابعه عن عبد العزيز محمد بن منصور الزاهد، أخرجه أبو نعيم أيضا وابن عساكر، وتابعه أيضا عبد المجيد بن عبد العزيز أخرجه أبو نصر السجزي في كتاب الإبانة ، بلفظ من أعرض بوجهه عن صاحب بدعة رفعه الله في الجنة مائة درجة، ومن سلم على صاحب بدعة أو رحب به بالبشرى فقد استخف بما أنزل الله على محمد، ثم قال ابن عراق: في سنده ابو الفضل قاضي نيسابور ، وهو أحمد بن عصمة النيسابوري.